شَرْحُ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ

الْمُجَلَّدُ الْأَوَّلُ

مِنَ الْمُقَدِّمَةِ إِلَى كِتَابِ الْعِلْمِ

تَصْنِيفُ

فَضِيلَةِ الشَّيْخِ

الْوَلِيدُ بْنُ سَيْفِ النَّصْرِ

حَفِظَهُ اللهُ وَنَفَعَ بِعُلُومِهِ فِي عَافِيَةٍ


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

إن أعظم منن الله تعالىٰ ونعمه علىٰ العبد أن يوفقه للإسلام والسنة، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٨]، ومن ذلك أنه تعالىٰ حبَّب إليَّ سُنَّةَ النبي ﷺ وحديثه ولم أجد في هذه الدنيا ألذَّ منه بعد كتاب الله تعالىٰ، وأردتُ أن أدلَّ إخواني علىٰ هذه النعمة فعن البراء قال: إن أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلا يقرآننا القرآن ... ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتىٰ رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله قد جاء. رواه البخاري. وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه رِدْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ... ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، نَزَلاَ بِالْحَرَّةِ فَأَرْسَلاَ إِلَىٰ الأَنْصَارِ، فَجَاؤُوا، فَقَالُوا : قَوْمٌ آمِنُونَ مُطَاعُونَ. قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَضْوَأَ، وَلاَ أَنْوَرَ، وَلاَ أَحْسَنَ مِنْ يَوْمِ دَخَلَ عَلَيْنَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا قَطُّ أَظْلَمَ، وَلاَ أَقْبَحَ مِنْ يَوْمِ مَاتَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ. رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه والدارمي، وابن أبي شيبة، وإسناده صحيح.

ومن تمام حبنا له والفرح به أن نحب حديثه وسنته، وهديه، والفرح بذلك فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ رَأَيْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَرِحُوا بِشَيْءٍ لَمْ أَرَهُمْ فَرِحُوا بِشَيْءٍ أَشَدَّ مِنْهُ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللهِ! الرَّجُلُ يُحِبُّ الرَّجُلَ عَلَىٰ الْعَمَلِ مِنَ الْخَيْرِ يَعْمَلُ بِهِ وَلاَ يَعْمَلُ بِمِثْلِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**».رواه أبوداود (٥١٢٩)، وأصله في الصحيح.

وعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا** .....». متفق عليه. فلا يحب المرء المسلم كلاماً ولا حديثاً وشيئاً ولا أحداً أكثر من محبته لكلام الله تعالىٰ وهدي رسوله ﷺ، وحديثه، والانشغال بذلك عن كل ما سوىٰ الله ورسوله.

وعن **جعفر بن برقان**: «لأن يكون الحديث في بيت أحدكم خير له من الجوهر المكنون في

بيته". مجموع فيه عشرة أجزاء حديثية (ص٤٨١).

قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو وجه الطالبُ فكرَهُ تِلقاءَ الكتاب والسنة لعرف المطلوب منه بأوضح عبارة وأشرف إشارة مع السعة في الأمر.

ولا أشرف ولا ألَّذ ولا أنقىٰ ولا أبقىٰ ولا أرْوَح من قراءة أحاديث رسول الله ﷺ، ولو كان فهمها متوقف علىٰ ما ذكر من العلوم والدقائق لم تكن شريعته سمحة سهلة ليلها كنهارها، بل ربما كان هذا من الغلو في الدين والتشديد والحرج الذي رفعه الله بفضله» (مزالق الأصوليين/ ص١٠٠).

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ مبيِّنًا فضل الكتاب والسنة وأهميتهما: "فأوامراه سبحانه وحقه الذي أوجبه علىٰ عباده، وشرائعه التي شرعها لهم هي قرة العيون، ولذة القلوب ونعيم الأرواح وسرورها وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها وكمالها في معاشها ومعادها بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك كما قال تعالىٰ: ﴿**يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدىٰ ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون**﴾ (يونس: ٥٧)" (إغاثة اللهفان١/ ٣١). وقد قال **عمر** فيها: (بالهدىٰ والسنة والقرآن فبذلك فليفرحوا).

فأهل الحديث تنشرح صدورهم، وتلين قلوبهم للنصوص الشرعية، من الكتاب والسنة، وإذا سمعوا الحديث والأثر اطمأنت نفوسهم، وأنسوا بذلك.

فيزيد الإيمان وتحي القلوب، وتطمئن، بنصوص الوحي، وتستبشر وتستضيء بنوره، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ وَالِاسْتِبْشَارُ هُوَ الْفَرَحُ وَالسُّرُورُ؛ وَذَلِكَ لِمَا يَجِدُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْحَلَاوَةِ وَاللَّذَّةِ وَالْبَهْجَةِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ». (١٠/ ٦٤٩).

فنحن نفرح برسول الله ﷺ وسنته أيما فرح، ولا نمل من النظر فيها، وقراءتها، ومجالسها، وليتذكر الناس رسول الله حبيبهم، وشفيعهم، وقرة أعينهم، وإن فارقهم بجسده لكن بسنته وحديثه لم يفارقهم، فقد كان السلف لا يكادون يفارقونه إلا ورجعوا إليه كي ينعموا بالنظر إليه،

ونفوسهم تهفوا إليه أعظم من كل مفروح به، من الأهل والولد، بأبي هو وأمي، لا جرم أن يكون هذا تعلقهم به، فهو أحب إليهم من الناس أجمعين حتىٰ من أنفسهم، فانظر -رحمك الله- كيف كان شغفهم بالنبي ﷺ وحديثه:

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذُكر عن مالك أنهم سألوه عن **أيوب السختياني** فقال: ما حدثتكم عن أحدٍ إلا وأيوب أفضل منه؛ حج حجّتين فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النّبي ﷺ بكىٰ حتىٰ أرحمه!، فلمّا رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنّبي ﷺ كتبت عنه .

وقال مصعب بن عبد اللّه : كان **مالك** إذا ذكر النّبي ﷺ يتغيّر لونه! ، وينحني حتىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائه!، فقيل له يومًا في ذلك .. فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون !

لقد كنت أرىٰ **محمد بن المنكدر** - وكان سيد القراء - لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلا يبكي حتىٰ نرحمه!.

ولقد كنت أرىٰ جعفر بن محمد - وكان كثير الدّعابة والتبسّم - فإذا ذكر عنده النّبي ﷺ اصفر لونه وما رأيته يحدث عن رسول اللّه ﷺ إلا علىٰ طهارة!.

ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا علىٰ ثلاث خصال:

إما مصليًّا، وإما صامتًا، وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعباد الذين يخشون اللّه!.

لقد كان **عبدالرحمن بن القاسم**: يذكر النّبي ﷺ فينظر إلىٰ لونه كأنه نزف منه الدم!؛ وقد جفّ لسانه في فمه هيبةً لرسول اللّه ﷺ!.

ولقد كنت آتي **عامر بن عبداللّه بن الزبير**: فإذا ذكر عنده النّبي ﷺ بكىٰ!؛ حتىٰ لا يبقىٰ في عينيه دموع!

ولقد رأيت الزهري - وكان لمن أهنأ النّاس وأقربهم - فإذا ذكر عنده النّبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته!.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم وكان من المتعبّدين المجتهدين فإذا ذكر النّبي ﷺ بكىٰ! ؛ فلا يزال يبكي حتىٰ يقوم الناس عنه ويتركوه» . مجموع الفتاوىٰ (٢٢٦/ ١).

فأهل السنة يجدون لذة في الحديث وروايته بإسناده، ويشرفون به، ويرفعون به رأساً، وينشرحون به صدراً، فهو قرة عيونهم، كما كان أصحاب النبي ﷺ معه.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ في ساعةٍ لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر، فقال: «**ما جاء بك يا أبا بكر؟**» فقال: خرجت ألقىٰ رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه . . .". صحيح: صححه الألباني في مختصر الشمائل (١١٣).

وقد كانوا يشتاقون إلىٰ لقائه ﷺ، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه، وحينما قدم الأشعريون المدينة كانوا يرتجزون:

غدًا نلقىٰ الأحبة....محمدًا وصحبه[1].

وكان **خالد بن معدان الكلاعي** -وهو من أعلام التابعين- لا يأوي إلىٰ فراشه إلا وهو يذكر فيه شوقه إلىٰ رسول الله ﷺ، وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسميهم ويقول: "هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك"، حتىٰ يغلبه النوم. أخرجه ابن عساكر في تاريخه (١٦/ ١٩٩).

فكان حبهم للنبي ﷺ وسنته حباً عظيماً والأمثلة في هذا أكثر من أن تحصىٰ، قال **ابن القيم**: "إنّ النبي ﷺ ألقىٰ الله عليه من المهابة والمحبة .... ولهذا لم يكن بشر أحب إلىٰ بشر، ولا أهيب وأجلّ في صدره من رسول الله ﷺ في صدر الصحابة رضي الله عنهم قال **عمرو بن العاص** رضي الله عنه بعد إسلامه: إنه لم يكن شخص أبغض إليّ منه. فلما أسلمت، لم يكن شخص أحبّ إليّ منه، ولا أجلّ في عيني منه، قال: ولو سئلت أن أصفه لكم لما أطقت، لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه؛ إجلالًا له. (أخرجه مسلم)

وعن **عائشة** رضي الله عنها، قالت: "جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتىٰ آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتىٰ نزل جبريل بهذه الآية: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ**﴾[النساء:

---

(١)**صحيح**: أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٥، ١٥٥، ١٨٣)، وهو في الصحيحة (٢/ ٥٠- ٥١).

٦٩] الآية". **صحيح**: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٧٧)، وهو في الصحيحة (٢٩٣٣).

وأنا ذاكر إن شاء أهمية السنة والحديث والاعتناء بها، وما في ذلك من آثار وثمار مباركة، وما في ترك ذلك من الآثار السيئة، والعواقب الوخيمة في الدنيا والآخرة.

فقد أمر الله تعالىٰ باتباع الكتاب والسنة، وأوجب ذلك علىٰ الناس، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾(الأنعام/ ١٠٦)، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(الجاثية/ ١٨)، وبين سبحانه أن من أهم مقاصد بعثة النبي ﷺ هو اتباعه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ (النساء/ ٦٤).

فلاتباع السنة والعمل بها، ثمار يانعة كثيرة، وفوائد نافعة وفيرة في الدنيا والآخرة، وواحدة منها توجب علىٰ الناس أن يظلوا متمسكين ومتبعين للنبي ﷺ في جميع شئون حياتهم، مع ملاحظة أن الاشتغال بالحديث والتحقيق فيه، وجمع الإجازات فيه، حضور مجالس سماعه، والتخريج، والاعتناء برواياته وعلله لا وإن كان فيه خير، ولكنه وحده لا يكفي في الانتفاع به، أذكر بعض هذه الثمار فمن ذلك:

المتبع يعيش حياة سعيدة هنيئة طيبة:

قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(النحل/ ٩٧). فعن **الفضيل بن عياض** قال: "الحياة الطيبة: **الإسلام والسنة**". (ذم الكلام للهروي/ ١٠٥١)، وقال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا وعد من الله تعالىٰ لمن عمل صالحا -وهو العمل المتابع **لكتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه** من ذكر أو أنثىٰ من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله -بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة: **تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت**».

التمسك بالسنة من أسباب رحمة العبد في الدنيا والآخرة:

قال عز وجل: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾(آل عمران/ ١٣١-١٣٢).

العمل بطاعة الله ورسوله سبب من أسباب الفوز والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة:

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب/ ٧٠، ٧١). وقال تعالىٰ: ﴿.... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(الأعراف/ ١٥٧). وعن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إذا حُدِّثتم عن رسول الله ﷺ حديثًا فظنوا برسول الله أهنأه وأهداه وأتقاه". [صحيح: رواه ابن ماجه (صحيح ابن ماجه/ ١٩)، وأحمد (١/ ١٢٢)].

الاتباع للسنة سبب عظيم يستجلب به العبد محبة الله تعالىٰ ومغفرته:

قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾(آل عمران/ ٣١:٣٢)، يقول الحسن: «كان علامة حبه إياهم: اتباع سنة رسول الله ﷺ» (لا بأس به) لأجل عامر بن عبدالله بن يساف، أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٣٢)، واللالكائي (٦٨).

الاتباع سبب للثبات علىٰ الحق والهدىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾(آل عمران/ ١٧٢: ١٧٤). وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ (النساء/ ٦٦).

العمل بالسنة وطاعة الرسول من طاعة الله عز وجل:

قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾(النساء/ ٨٠)، وعن جَابِرَ ابن عَبْدِ الله يقول: في رؤيا رآها النبي ﷺ قالت الملائكة:«.... فَمَنْ أطاعَ محمداً ﷺ فَقَدْ أطَاع الله، وَمَنْ عَصَىٰ محمداً ﷺ فقد عصىٰ الله ومحمدٌ فَرَّقَ بينَ الناسِ». رواه البخاري (٧٢٨١).

التمسك بالسنة والسمع والطاعة لله ورسوله علامة الإيمان، ومن صفات المؤمنين:

وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ

﴾(النور/ ٥١، ٥٢).

أن من هُدِي للسنة وأطاع الرسول ﷺ فهو ممن أخرجه الله من الظلمات إلىٰ النور الساطع:

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة / ١٥ : ١٦). فجمع الظلمات لكثرة طرق الضلال، وأفرد النور لأن صراط الله والحق واحد، وعن أبي الدرداء قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن نتذاكر الفقرَ ونتخوّفه، فقال: «.... **وايمُ الله لقد تركتكم علىٰ مثلِ البيضاءِ، ليلُها ونهارُها سواء**».قال أبو الدرداء: "**صدق، واللهِ رسولُ الله ﷺ، تَرَكَنَا، واللهِ، علىٰ مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء**". إسناده حسن: رواه ابن ماجة (ح٥)، فبيَّن أن السنة بيضاء واضحة وهي بمعنىٰ النور الذي لا ظلمة فيه، ولذا فهي نهار دائم، وخلافها الظلام الدامس.

أن الهدىٰ والاستقامة في اتباع السنة:

وقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ، (الأعراف/ ١٥٨). فعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «.... **فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد اهتدىٰ، ومن كانت فترته إلىٰ غير ذلك فقد هلك**». صحيح: رواه ابن أبي عاصم (١/ ٢٨) ، وأصله عند أحمد وغيره.

أن الزيغ والضلال والانحراف والبدعة في مخالفة السنة:

وثبت عن النَّبي ﷺ: «**تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتابَ اللهِ وسنةَ رسولِهِ**». صحيح لغيره: (الموطأ ٢/ ٨٩٩) صححه العلامة الألباني في "الصحيحة" (٧٦١).

وقال **أبوعثمان الحيري**: "من أمَّر السنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوىٰ علىٰ نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾(النور/ ٥٤)". [الاعتصام للشاطبي (١/ ٩٦)]. قال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وعامة هذه الضلالات إنما تطرق من لم يعتصم بالكتاب والسنة كما كان **الزهري** يقول: "كان من مضىٰ من علمائنا يقولون: **الاعتصام**

بالسنة نجاة والعلم يُقبض سريعـًا ...". **صحيح الإسناد**: سنن الدارمي (١/ ٥٨- برقم٩٦).

السنة سفينة نوح من ركبها نجا

وقال **الإمام مالك: السنة سفينة نوح** من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق؛ وذلك أن السنة والشريعة والمنهاج هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلىٰ الله والرسول هو الدليل الهادي الخريت في هذا الصراط كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾(الأحزاب/ ٤٥، ٤٦)" (الفتاوىٰ٤/ ٥٦). **وكيع بن الجراح** يقول: «لو أن الرجل، لم يصب في الحديث شيئـًا إلا أنه **يمنعه من الهوىٰ** كان قد أصاب فيه». **صحيح**: رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (رقم١١٨).

كفاية الله تعالىٰ ونصرته لأهل اتِّباع السنة:

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنفال/ ٦٤). قال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يخبرهم تعالىٰ أنه حسبهم، أي: كافيهم وناصرهم ومؤيدهم علىٰ عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين" (تفسيره٤/ ٨٦)، فالله يكفي رسوله والمؤمنين المتبعين له وينصرهم علىٰ الكافرين والمنافقين والمبتدعين. ١٢-

بركة السنة واتباعها:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾(الطلاق/ ٢)، وعن أم سلمة أنها قالت: سمعت النَّبِيّ ﷺ يقول: «**ما من مسلم تُصيبهُ مصيبةٌ فيقول: ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم! أجُرني في مصيبتي وأَخْلِف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها**». قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلىٰ رسول الله ﷺ، ثم إني قلتُها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ، **وفي رواية**: قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ. **رواه مسلم** (ح٩١٨).

فعن أبي هريرة قال: ذبحتُ لرسول الله ﷺ فقال: «**ناولْني الذِّراع**» فناولته ثم قال: «**ناولني الذراع**» فناولته ثم قال:« ناولني الذراع» قلت: يا رسول الله إنما للشاة ذراعان، قال: «**أما إنك لو ابتغيته لوجدته**»[٢]. وفي رواية: «**والذي نفسي بيده لو سكتَّ لناولتني الذراع ما دعوتُ**». ولما

---

(٢) صحيح لغيره: رواه ابن حبان (١٤/ ٤٠٣-ح٦٤٨٤)، والنسائي في "الكبرىٰ" (ح٦٦٥٩)، وهو حسن

استشارت فاطمة بنت قيس رسول الله ﷺ في خطبة أبي جهم، ومعاوية، وأسامة، فبين لها أنه يشير عليها بأسامة بن زيد، فقالت بيدها هكذا: أسامة! أسامة! فقال لها رسول الله ﷺ: «**طاعة الله وطاعة رسوله خير لك**». قالت: "فتزوجته فاغتبطت". رواه مسلم (١٠/ ١٤٧- رقم ١٤٨٠).

اتباع سنة رسول الله ﷺ ينجي العبد من عذاب القبر:

عن أسماء ابنة أبي بكر رضىٰ الله عنهما أنها قالت: فَلَما انصرَفَ رسول الله ﷺ حَمِدَ الله وأثنىٰ عليه ثم قال: «... **وأُوحِيَ إليَّ أنكم تفتنون في القبور قريبًا من فتنةِ الدجالِ، فأما المؤمنُ - أو المسلم**، لا أدرىٰ أيَّ ذلك قالت أسماءُ- فيقول: **محمدٌ جاءنا بالبيناتِ فأجبناه وآمنّا، فيقال: نَمْ صالحا، علمنا أنَّكَ موقِنٌ، وأما المنافقُ** - أو المرتابُ، لا أدرىٰ أيَّ ذلك قالتْ أسماءُ -فيقول: لا أدرىٰ، سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُهُ». (متفق عليه).

من اتبع السنة استحق الجنة والنعيم المقيم:

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (النساء/ ١٣).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ أَن رَسُول الله ﷺ قال: «**كُلُّ أُمتي يَدْخُلون الجنة إلاّ مَنْ أَبَىٰ**». قالوا: يَا رَسُول الله ومَنْ يَأبَىٰ؟ قال: «**مَنْ أطَاعني دَخَلَ الجنةَ، وَمَنْ عصاني فقدْ أَبَىٰ**». رواه البخاري (٧٢٨٠).

دخول المتمسك بالسنة في ولاية الأنبياء:

قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(آل عمران/ ٦٨). فمن اتَّبعَ قوماً وأحبهم لحق بهم.

المتبع للسنة يدرك معية الأنبياء والصالحين في الآخرة:

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾(النساء/ ٦٩). قال **القرطبي**: "أي هم معهم في دار واحدة ونعيم واحد يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنهم يساوونهم في الدرجة ؛ فإنهم يتفاوتون **لكنهم يتزاورون للاتباع في الدنيا والاقتداء**". (التفسير٥/ ٢٧٢).

الإسناد لأجل محمد بن عجلان. وله شاهد آخر من حديث عبد الرحمن بن أبي رافع عن عمته عن أبي رافع مرفوعًا به نحوه ، رواه أحمد (٦/ ٣٩٢،٨)، بلفظ: "لو سكت لناولتني منها ما دعوت".

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأولياء الرَّحْمَن هم المخلصون لرَبهم المحكِّمون لرَسُوله فِي الْحرم والحل الَّذين يخالفون غَيره لسنته وَلَا يخالفون سنته لغَيْرهَا فَلَا يبتدعون وَلَا يدعونَ إِلَىٰ بِدعَة وَلَا يتحيزون إِلَىٰ فِئَة غير الله وَرَسُوله وَأَصْحَابه وَلَا يتخذون دينهم لهوًا وَلَعِبًا وَلَا يستحبون سَماع الشَّيْطَان علىٰ سَماع الْقُرْآن، وَلَا يؤثرون صُحْبَة الأنتان (المردان) علىٰ مرضاة الرَّحْمَن وَلَا المعازف والمثاني علىٰ السَّبع المثاني». (الروح/ ص٢٦٥).

الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ فنِعْمَ الأسوة والقدوة:

لا ينبغي ترك الاقتداء بالنبي ﷺ، في كل شيء لا سيما في العبادات، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، والاهتداء بهديه، فإنه نعم الأسوة الحسنة لنا قال تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب / ٢١)، قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن تتأسوا به وتكونوا معه حيث كان، ولا تتخلفوا عنه»، وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يُقتدىٰ به في جميع أفعاله، ويتعزىٰ به في جميع أحواله"، وعن أبي هُريرةَ عن النبي ﷺ قال: «دَعوني ما تَرَكْتكُم، فإنما أهْلك منْ كانَ قبلكم سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهمْ، فإذا نهيتكم عَن شَيء فَاجْتَنِبوه، وإذا أمَرتكم بشيء فَأْتُوا منه ما اسْتَطعْتُم». (متفق عليه)، وقال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾(التوبة/ ١٢٠). وعن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قَالَ لِلرُّكْنِ (الحجر الأسود): "أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَلَمَكَ مَا اسْتَلَمْتُكَ فَاسْتَلَمَهُ ثُمَّ قَالَ فَمَا لَنَا وَلِلرَّمَلِ إِنَّمَا كُنَّا رَاءَيْنَا بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ أَهْلَكَهُمْ اللهُ ثُمَّ قَالَ شَيْءٌ صَنَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلَا نُحِبُّ أَنْ نَتْرُكَهُ". رواه الجماعة، زاد أحمد (١/ ٢١) أن عمر تلا: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾(الأحزاب/ ٢١). وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا أُمِرَ، وَسَكَتَ فِيمَا أُمِرَ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم/ ٦٤)، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . رواه البخاري (٧٧٤). وقد سَافَرَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَقَالَ: صَحِبْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَلَمْ أَرَهُ يُسَبِّحُ فِي السَّفَرِ وَقَالَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .متفق عليه: رواه البخاري (١١٠١)، ومسلم (٦٨٩)]. وعن عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَعَىٰ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ثُمَّ تَلَا ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . متفق عليه: رواه البخاري (١٦٤٧)، ومسلم ().

فالسنة تنجي من الاختلاف والفرقة، ويجمع الله بها القلوب:

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال/ ٤٦)، عن العرباض بن سارية قال: وعَظَنا رسول اللهِ ﷺ مَوْعِظةً ذَرَفَتْ منها العُيونُ، ووَجِلَتْ منها القلوبُ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ، إن هذهِ لموعظةُ مُوَدِّعٍ، فماذا تعْهَدُ إلينا؟ قال: «**قد تركتكم علىٰ البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ، مَن يعشْ منكم فسيرَىٰ اختلافًا كثيراً، فعليكم بما عرَفْتُم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعةِ، وإنْ عبداً حبشيًا، فإنما المؤمن كالجملِ الأَنِفِ، حيثما قِيدَ انقَادَ**»(٣).

لا يقبل الله تعالىٰ عملاً إلا باتباع السنة:

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك/ ٢)، قال **الفضيل بن عياض**: هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا: يا أباعليٍّ، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتىٰ يكونَ خالصًا صوابًا، فالخالصُ أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ السنة. وقال قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(الكهف/ ١١٠)، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهذا هو العمل المقبول الذي لا يَقبَلُ اللهُ من الأعمال سواه؛ وهو أن يكونَ موافقًا لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجهُ اللهِ". مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٣).

عظم أجر المتبع للسنة والمتمسك بها وقت الفتن وغربة الدين:

لقوله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**». رواه مسلم (ح١٤٥) وعن وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**إن من ورائكم زمان الصبر، للمتمسك فيه أجر خمسينَ شهيداً منكم**». حسن: أخرجه الطبراني (١٠٣٩٤) تراجع الصحيحة (٤٩٤).

في اتباع السنة والعمل بها إحياء لها وسعي في نشرها.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من**

---

(٣) **صحيح لغيره**: رواه ابن ماجه (ح٤٣) واللفظ له، وأحمد (٤/ ١٢٧، ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٧/ ٣١٩-ح٢٦٧٨) وصححه، كما صححه جمع من أئمة هذا الشأن، ومن آخرهم الشيخ العلامة الألباني في "الصحيحة" (٩٣٧)، و "الإرواء" (٢٤٥٥)، وينظر تخريجي له في "الشريعة" (برقم٨٦).

تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» رواه مسلم(٢٦٧٤).

أن في سنته ﷺ تحصيل تمام الأخلاق وجميلها ومكارمها.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ**» (صحيح) رواه أحمد (٢/ ٣١٨)، وهو في"الصحيحة" (٤٥).

الآثار السيئة لترك السنة واتباعها وأن ذلك نذير شؤم في الدنيا والآخرة

إن المخالفة أو الاستنكاف عن أمر للنبي ﷺ قد يكون سببًا لهلاك صاحبها أو فتنته في الدنيا والآخرة عياذاً بالله، ومن ذلك:

أن ترك اتباع السنة قد يزيغ القلب ويحرفه عن الهدىٰ:

قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾(الصف/ ٥). وقال **الصديق الأكبر** رضي الله عنه: "لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملتُ به، فإني أخشىٰ إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ". متفق عليه. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾(النساء/ ٦١، ٦٢)، قال **الشيخ خليل هراس**: "ولقد أُصيب هؤلاء الحمقىٰ المتهوكون بعمىٰ في قلوبهم وفساد في عقولهم جزاء إعراضهم عما جاءهم به نبيهم من الهدىٰ، واستعاضتهم عنه بأقوال مزخرفة مموهة، كلها سفسطة وهذيان". شرح القصيدة النونية (٢/ ١٨٥).

ترك اتباع السبيل والسنة هو سبب للتفرق والاختلاف:

لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ (الأنعام/ ١٥٣). وقال **ابن عطية**: "وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل والبدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل الخوض في الكلام، هذه كلّها عرضة للزلل، ومظنّة لسوء المعتقد"، نقله عنه القرطبي في تفسيره، وقال: "قلت: وهو الصحيح". سبق معنا حديث العرباض بن سارية: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين**».

ترك اتباع السنة قد يؤدي إلىٰ الشرك والكفر.

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(آل عمران/ ٣٢).

وعن الفضل بن زياد قال: سمعت **أبا عبد الله أحمد بن حنبل** يقول: "نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا ثم جعل يتلو: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور/ ٦٣). وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟: الشرك، لعله أن يقع في قلبه شئ من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾(النساء/ ٦٥). قال **ابن كثير** رحمه الله: « أي: عن أمر رسول الله ﷺ، سبيله هو ومنهاجه وطريقته، وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، **وما خالفه فهو مَرْدُود علىٰ قائله وفاعله، كائنًا ما كان**، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عَمَلا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ**». أي: فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتل، أو حَد، أو حبس، أو نحو ذلك. وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: "من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه علىٰ خطئه، وعدل عن قول الرسول، فهذا **له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله**، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللِّسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول، **فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء علىٰ أنه من عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، .... وإن قلَّد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً**، لم يكن عمله صالحًا، وإن كان متبوعه مخطئًا، كان آثمًا، كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ". مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٧١،٧٢).

قال **الصنعاني** رحمه الله: "من اتبع الرسول ﷺ بعد إقامة البرهان زادهم هدىٰ، وآتاهم تقواهم؛ ومن عانده وكابره، وجحد ما أتىٰ الله به عاقبه الله بتقليب فؤاده وبصره، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام/ ١١٠). وكما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجر/ ١١: ١٣). أي سلكنا الذكر، أدخلناه في قلوب المجرمين، الذين قد أجرموا بتكذيب ما عملوه حقًا من النبوة والكتاب أي أدخلناه مكذبًا به، مستهزئًا به. وقوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بيان لذلك، أو حال، وهو إخبار أنه عاقبهم بتكذيبهم الذكر فجعلهم مجرمين، لأنه قامت عليهم حجة الله ورسوله فكذبوها بغيًا، وحسداً،

وعدوانـًا، فعاقبهم الله بأن لا يهتدوا للإيمان بعد ذلك، ولا تزيدهم آياته إلا طغيانـًا كبيراً، كما قال تعالىٰ في القرآن: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (فصلت/ ٤٤). ومراده بـ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هم من أنكروا وجحدوا وكابروا الرسول ﷺ فيما أتىٰ به في أول دعواه من برهان. فالمعنىٰ والذين لا يصدقون بما يجب عليهم تصديقه، وإني لأخاف ممن حرف الآيات والأحاديث ليوافق اعتقاده أن يقلب فؤاده وقلبه، فلا يوفق لمعرفة الحق عقوبة، كما فعله الله فيمن رد براهين النبوة وكذَّب بها كما أسلفناه في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ (الأنعام: ١١٠)".

(إرشاد النقاد/ ص١٥٣: ١٥٤، ١٦٨).

الاعتراض علىٰ السنة وعدم التسليم لها يؤدي إلىٰ العاهات في الجسد:

فقد ثبت من حديث سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له: «**كل بيمينك**» ، قال -أي الرجل-: لا أستطيع، فقال له ﷺ: «**لا استطعت**»، ما منعه إلا الكِبر، قال: فما رفعها إلىٰ فيه، رواه مسلم (١٣/ ٢٧٨-٢٠٢١). وعن أبي حميد الساعدي قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، ...، فلما أتينا تبوك قال: «**أما إنها ستهبُّ ريحٌ شديدة، فلا يقومن أحدٌ، ومن كان معه بعير فليعقِلْهُ**»، فعقلناها، وهبَّت ريح شديدةٌ فقام رجل فألقته بجبل طيىءٍ" رواه البخاري (ح١٤٨١).

وجاء رجل إلىٰ سعيد بن المسيب يُوَدِّعُهُ بحجٍّ أو عُمرةٍ، فقال له: لا تبرح حتىٰ تصلي، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:«**لا يخرج بعدَ الأذان من المسجد إلا منافق، إلا رجلٌ أخرجتهُ حاجةٌ وهو يريد الرَّجعةَ إلىٰ المسجد**».فقال: إن أصحابي بالحَرَّة قال: فخرج، قال: فلم يزل سعيد يُولعُ بذكره حتىٰ أُخْبِرَ أنه وقع من راحلتِهِ فانكسرت فَخِذُهُ. إسناده حسن: أخرجه الدارمي (٤٦٠).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لددنا النبي ﷺ في مرضه فجعل يشير إلينا أن لا تلدوني، فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: **ألم أنهكم أن تلدوني؟**، قلنا: كراهية المريض للدواء، فقال: **لا يبقىٰ في البيت أحد إلا لُدَّ** -وأنا أنظر-، **إلا العباس فإنه لم يشهدكم**»[٤].

فانظروا رحمكم الله كيف يفعل التأويل بأهله، وعدم الأخذ بالنصوص علىٰ ما هي عليه.

---

(٤) **صحيح**: رواه البخاري (ح٥٧١٢).

وقال الإمام الطبراني سمعت **أبا يحيىٰ زكريا بن يحيىٰ الساجي** قال: كنا نمشي في أزقة البصرة إلىٰ باب بعض المحدثين فأسرعنا المشي، وكان معنا رجل ماجن متهم في دينه. فقال: "ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها، كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتىٰ جفت رجلاه وسقط"[٥]. عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**أن رسول الله ﷺ نهىٰ يشرب من فِيِّ السقاء**»[٦]. قال أيوب: فأنبئت أن رجلاً شرب من في السقاء فخرجت حية[٧]. عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يتبختر في بردين خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها علىٰ يوم القيامة**»[٨].

فقال له فتىٰ -قد سماه، وهو في حلة-: يا أب هريرة، أهكذا كان يمشي ذلك الفتىٰ الذي خسف به؟ ثم ضرب بيده فعثر عثرة كاد يتكسر منها.

فقال **أبوهريرة**: للمنخرين وللفم: ﴿**إنا كفيناك المستهزئين**﴾ (الحجر: ٩٥).

قال **أبوعبدالله محمد بن إسماعيل التيمي** -في شرحه لصحيح مسلم: قرأت في بعض الحكايات أن بعض المبتدعة حين سمع قول النبي ﷺ: «**إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتىٰ يغسلها، فإنه لا يدري أين باتت يده**»[٩].

قال ذلك المبتدع -علىٰ سبيل التهكم: أنا أدري أين باتت يدي في الفراش!! فأصبح وقد أدخل يده في دبره إلىٰ ذراعه. وقال التيمي: فليتق المرء الاستخفاف بالسنن ومواضع التوقيف فانظر كيف وصل إليه شؤم فعله[١٠].

وقال **القاضي أبوالطيب**: كنا في مجلس بجامع المنصور، فجاء شاب خراساني، فسأل عن مسألة المصراة، فطالب بالدليل، حتىٰ استدل بحديث أبي هريرة الوارد فيها، فقال -وكان حنيفياً: أبوهريرة غير مقبول الحديث .. فما استتم كلامه، حتىٰ سقط عليه حية عظيمة من سقف

---

(٥) الرحلة في طلب الحديث (٢/ ٨٥)، قال النووي: إسناد هذه الحكاية كرأي العين لأن رواتها أعلام أئمة.
(٦) أخرجه البخاري (ح٥٦٢٧، ٥٦٢٨).
(٧) أخرجه أحمد ١٢/ ٦٦ (ح٧١٥٣).
(٨) أخرجه الدارمي (ح٤٣٧). وأصل الحديث متفق عليه بدون ذكر قصة الفتىٰ خ٥٧٨٩، م٢٠٨٨.
(٩) أخرجه البخاري (ح١٦٢)، ومسلم (ح٢٧٨).
(١٠) بستان العارفين للنووي (٩٤).

الجامع، فوثب الناس من أجلها، وهرب الشاب منها، وهي تتبعه، فقيل له: تب، تب. فقال: تبت. فغابت الحية، فلم يُرَ لها أثر، قال الذهبي: إسنادها أئمة[١١].

وقال **قطب الدين اليُونيني**: بلغني أن رجلاً يدعىٰ أبا سلامة من ناحية بصري -كان فيه مجون واستهتار- فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة فقال: والله لا أستاك إلىٰ في المخرج -يعني دبره فأخذ سواكًا فوضعه في مخرجه ثم أخرجه. فمكث بعده تسعة أشهر وهو يشكو من ألم في البطن والمخرج. فوضع ولداً علىٰ صفة الجرذان له أربعة قوائم، ورأسه كرأس السمكة، وله دبر كدبر الأرنب. ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات، فقامت ابنة ذلك الرجل فرضخت رأسه فمات، وعاش ذلك الرجل بعد وضعه له يومين، ومات في الثالث. وكان يقول: هذا الحيوان قتلني، وقطع أمعائي. وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك الناحية، وخطباء ذلك المكان، ومنهم من رأىٰ ذلك الحيوان حيًا، ومنهم من رآه بعد موته[١٢]"[١٣].

ترك اتباع السنة يكون سببًا في قطع الخير عن العبد:

وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾(المائدة/ ٩٢)، فليحذر العبد المخالفة وترك اتباع السنة، فعن عمران بن حصين قال: نهىٰ النبي ﷺ عن الكي، **فاكتوينا فما أفلحن ولا أنجحن**.قال أبوداود: "وكان يسمع تسليم الملائكة فلما اكتوىٰ انقطع عنه، فلما ترك رجع إليه". **صحيح علىٰ شرط مسلم**: رواه أبو داود (١٠/ ٣٤٤)، ينظر "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (٥/ ٢٣).

ترك اتباع السنة يلحق السوء بالعبد في أهله أو نفسه:

جاء في رواية ابن خزيمة عن ابن عمر قال: **نهىٰ رسول الله ﷺ أن تطرق النساء ليلاً**، وأخرجه من حديث ابن عباس بنحوه وفيه: "فطرق رجلان كلاهما وجد مع امرأته رجلاً". **(صحيح)**، وهكذا تكون عاقبة من بلغه الحديث فخالفه عياذاً بالله. وعن سعيد بن المسيب بن حزن عن أبيه أن أباه جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: «**ما اسمك؟**» قال: حزن، قال: «**أنت سهل**»، قال:

---

(١١) سير وأعلام النبلاء (٢/ ٦١٨)، وانظر البداية والنهاية (١٦/ ١٩٩).

(١٢) البداية والنهاية، أحداث ٦٦٥هـ.

(١٣) تعظيم السنة/ عبد القيوم السحيباني/ ص١٨-٢٢.

لا أغيِّرُ اسماً سمانيه أبي، قال ابن المسيب: **"فما زالت الحزونة فينا بعد"**. رواه البخاري (ح٦١٩٠).

ترك اتباع السنة، وعدم التسليم لها قد يؤدي إلىٰ هلاك وموت العبد:

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾(الأنفال/ ٢٠، ٢١). وعن ابن عباس قال: دخل النبي ﷺ علىٰ أعرابي يعوده، قال: وكان النبي ﷺ إذا دخل علىٰ مريض يعوده قال: «**لا بأس، طهور إن شاء الله**»، فقال: لا بأس طهور إن شاء الله، قال: قلتَ طَهورٌ؟ **كلاّ بل هي حمَّىٰ تفور أو تثور، علىٰ شيخ كبير تُزيرهُ القبور**، فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذاً**». [**فما أمسىٰ من الغد إلا ميتاً**][١٤].

أن ترك اتباع السنة وتقديم كلام الناس علىٰ كلامه ﷺ مؤذن بإحباط العمل:

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾(الحجرات/ ٢).

قال **الشيخ العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فعلينا معاشر المسلمين أن نتأمل هذه الآيات القرآنية ونعتقد ما تضمنته ونعمل به لنكون بذلك مطيعين لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ معظمين لله ولرسوله، لأن أعظم أنواع تعظيم رسول الله ﷺ، هو اتباعه والاقتداء به".

وقال القاضي **أبو بكر ابن العربي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه، وجب علىٰ كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ... وكلامه ﷺ من الوحي، وله من الحكم مثل ما للقرآن، إلا معاني مستثناة". (تفسير القرطبي١٦/ ٣٠٧). وقال **ابن القيم**: "وكان أحمد إذا وجد نصًا أفتىٰ بموجبه ولا يلتفت إلىٰ ما خالفه أو من خالفه كائنًا من كان، وكان عبدالرحمن ابن مهدي إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت وقال: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ، يرىٰ أنه يجب الإنصات عند قراءة حديثه ﷺ كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ".

الخروج عن السنة والابتداع سبب لعدم ورود حوضه ﷺ:

---

(١٤) **رواه البخاري** (ح٣٦١٦)، ذكر الحافظ أن هذه الزيادة رواها الطبراني وغيره (فتح الباري٦/ ٧٢٣)، وهي عند من حديث شرحبيل الجعفي (٧/ ٣٠٦)، وقد رواها عبدالرزاق (٢٠٣٠٩) مرسلاً بمعناها.

عن عمر بن الخطاب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبوني وتقاحمون فيها تَقَاحُم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فَرَطكم علىٰ الحوض، فتردون عليَّ معًا وأشتاتًا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أي ربِّ، قومي، أي رب أمتي، فيقال: يا محمد، **إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرىٰ علىٰ أعقابهم**». **حسن صحيح**: رواه البزار في مسنده برقم (٩٠٠) وابن عبد البر في التمهيد (٢/ ٣٠٠).

مخالفة السنة توجب النار والعذاب الأليم:

قال تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾(النساء/ ١١٥). وأهل البدع كلهم الذين يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدىٰ، ويتبعون غير سبيل الله المؤمنين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فيصيبهم من الفتنة أو العذاب بقدر مشاقتهم للرسول واتباعهم غير سبيل المؤمنين ويصيبهم من الذل والهوان في الدنيا والعذاب في الآخرة بقدر ذلك.

سماع الحديث عبادة وقربة من أعظم الطاعات:

فعن عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَهْدِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ يَقُولُ: "مَا كَانَ فِي النَّاسِ، أَوْ فِي أَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ الْحَدِيثِ"، قَالَ: قُلْتُ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ: يَطْلُبُونَهُ بِغَيْرِ نِيَّةٍ قَالَ: «طَلَبُهُمْ إِيَّاهُ نِيَّةٌ». **صحيح**: معجم ابن المقريء(٢٨٥).

وقَالَ أَبُو ثَوْبَانَ مَزْدَاذُ بْنُ جَمِيلٍ،: سَأَلَ عَمْرَو بْنَ إِسْمَاعِيلَ - رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ - الْمُعَافِي بْنُ عِمْرَانَ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمْرُو، أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ، أَسْهَرُ أُصَلِّي، أَوْ أَكْتُبُ الْحَدِيثَ؟ فَقَالَ: «كِتَابُ حَدِيثٍ وَاحِدٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَلَاةِ لَيْلَةٍ». شرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين (٦٢).

أنشد الشيخ الأديب أبوالحسن علي بن أحمد :

أحاديث الرسول شفاء قلبي ** وقرة ناظري وجلاء همي

فدت نفسي ثقات قد رووها ** وما ملكت يدي وأبي وعمي

أعاذلتي عليه إليك عني ** فإن إليهم قصدي وأمي

لمن والاهم حبي ومدحي ** لمن عاداهم بغضي وذمي

البلدانيات للسخاوي (ص١٨٤).

الحرص علىٰ السنة والحديث والاعتناء به، وتعظيمه

وكانوا يعظِّمون سنته ويحتفون بها، ويحرصون عليها، ويقومون بها وينشرونها، ومن حديثه ينهلون ويرتشفون ومن رحيقه وعبيره يشتمُّون، فهي الروح والريحان، وهي جنة النعيم.

فهذا أبوهريرة يقول له النبي ﷺ: "قد ظننت يا أباهريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لعلمي بحرصك علىٰ الحديث".

وعن علي بن أبي طالب قال:« تزاوروا وتذاكروا الحديث، فإنكم ان لا تفعلوا يدرس» رواه يعقوب الفسوي في تاريخه (٣/ ٣٩٦)، وشرف أصحاب الحديث (٩٣/ ٩٤)، وورد نحوه عن علي رضي الله عنه (برقم/ ١٩٠).

وعن **علقمة**، قال: «أطيلوا ذكر الحديث حتىٰ لا يدرس» (المصدر السابق/ ٢٠٠)، وقد وقع ما خافه رحمه الله علىٰ الحديث، فإن درس فتخلفه البدعة.

وقال **الخطيب** رحمه الله: "طلب الحديث في هذا الزمان أفضل من سائر أنواع التطوع لأجل دروس السنن وخمولها، وظهور البدع واستعلاء أهلها". (شرف أصحاب الحديث/ ١٧١)، قال هذا في زمانه، وهو الآن أعظم بل أوجب، لاندراسه، بل لا يكان يوجد مجالس للحديث.

وعن سليم بن عامر، قال: كنا نجلس إلىٰ **أبي أمامة الباهلي**، فيحدثنا حديثًا كثيرًا عن رسول الله ﷺ، فإذا سكت قال: «اعقلوا ، بلغوا عنا كما بلغتم» (المصدر السابق/ ١٩٧)،

وعن **يحيىٰ بن سعيد**، يقول: "ما أخاف علىٰ سفيان شيئًا إلا حبه للحديث" (شرف أصحاب الحديث/ ٢٥٣)، قال **يحيىٰ**: «كان سفيان الثوري قد غلب عليه شهوة الحديث» (شرف أصحاب الحديث/ ٢٥٢)، قال **مطرِّف** لأصحاب الحديث: "لأنتم أحب إلَّي مجالسة من أهلي" (المصدر السابق/ ٢١٠)

وكان **شعبة بن الحجاج**، يقول: «إني لأذاكر الحديث فيفوتني، فأمرض» (شرف أصحاب

الحديث/ ٢٤١)

وعن **بشر بن الحارث**، يقول: "لا أعلم علىٰ وجه الأرض عملاً أفضل من طلب العلم والحديث لمن اتقىٰ الله، وحسنت نيته فيه". (شرف أصحاب الحديث/ ١٧١)، **وكيع بن الجراح**، يقول: "ما عبد الله بشيء أفضل من الحديث" (شرف أصحاب الحديث/ ١٧٠)، وكان **سفيان الثوري**، يقول: "لا أعلم شيئا أفضل منه يعني الحديث لمن أراد اللهَ به". وقال **أيضـًا**: "إن الناس يحتاجون إليه في طعامهم وشرابهم" (شرف أصحاب الحديث/ ١٦٩).

وعن **عروة** أنه كان يقول لبنيه: «عليكم بالسنن فإنا كنا غلمان قوم ونحن كبارهم، وأنتم اليوم غلمان قوم وسوف تكونون كبارهم» **صحيح**: رواه ابن عساكر (٤٠/ ٢٥٥).

وَقَالَ **ابْن عون**: "ثَلَاثَة أحبهنَّ لنَفْسي ولإخواني هَذِه السّنة أَن يتعلموها ويسألوا عَنْهَا، وَالْقُرْآن أَن يتفهموه ويسألوا عَنهُ وَأَن يدعوا النَّاس إِلَّا من خير" (رواه البخاري/ ك الاعتصام)، واللالكائي (١/ ٦٦).

وكان **سفيان الثوري**، يقول: "ينبغي للرجل أن يكره، ولده علىٰ طلب الحديث فإنه مسئول عنه". وعن **سفيان الثوري**، قال: "أكثروا من الأحاديث، فإنها سلاح"، وَقَالَ: "لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلنَّاسِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ".

قال أبوأحمد عبد الله بن بكر بن محمد الزاهد: "أبرك العلوم وأفضلها وأكثرها نفعـًا في الدين والدنيا بعد كتاب الله عزَّ وجلَّ: أحاديث رسول الله ﷺ؛ ....."[١٥].

قال **سماحة العلامة الوالد عبدالعزيز ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كتب الحديث فيها الخير العظيم وليس بعد القرآن خير وأصح من أحاديث الرسول ﷺ فهو المعلم وهو المرشد وهو المبين لما بينه الله جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿**والنجم إذا هوىٰ ما ضل صاحبكم وما غوىٰ**﴾، يعني محمداً عليه الصلاة والسلام، ﴿**وما ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ**﴾، فهو عليه الصلاة والسلام، مفسر لكتاب الله، ومبين لمعانيه، وخير الهدي هديه عليه الصلاة والسلام، فالمشروع

---

(١٥) ترجمه الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في "تاريخ دمشق"، وروىٰ له هذه الكلمة (ج ١/ ٩/ ٢) . الصحيحة (١/ ٢٩).

للمؤمن والمؤمنة العناية بالسنة أيضاً مع القرآن.

أنشد **أبومزاحم الخاقاني** لنفسه:

«أهل الكلام وأهل الرأي قد عُدِمُوا علمَ الحديث الذي ينجو به الرجلُ
لو أنهم عرفوا الآثار ما انحرفوا عنها إلىٰ غيرها، لكنهم جهلوا»

شرف أصحاب الحديث (١٦٢)

ولذلك نعتقد أن من عظيم محبته ﷺ تعظيم حديثه، فعن محمد بن إسحاق بن خزيمة قال: قلت **لأحمد بن نصر** -المقرئ النيسابوري- وحدث بخبر عن النبي ﷺ: أتأخذ به؟ فقال: "أترىٰ علىٰ وسطي زُنَّارًا؟ لا تقل بخبر النبي ﷺ أتأخذ به؟ وقل أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن النبي ﷺ قلتُ به، شئتُ أم أبيتُ". ذم الكلام (٢/ ١٧٥).

قال **البخاري** رحمه الله: "سمعت الحميدي يقول: كنا عند **الشافعي** رحمه الله، فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال: "قضىٰ فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا"، فقال الرجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: "سبحان الله! تراني في كنيسة؟! تراني في بيعة؟! ترىٰ علىٰ وسطي زُنَّارًا؟! أقول لك: قضىٰ رسول الله ﷺ، وأنت تقول: ما تقول أنت؟!". أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (ص ٤٧٤).

وحرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازمٌ كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه. التوسل والوسيلة لابن تيمية (٢/ ١٢٩).

فالسنة شقيقة القرآن لذلك جاء في الحديث: **(ولن يتفرقا حتىٰ يردا علي الحوض)**، ولا تخالفه في شيء ألبتة، ولابد منها مع كتاب الله تعالىٰ.

أهمية السنة ومنزلتها من القرآن، والدين:

إن الله تعالىٰ أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدىٰ ورحمة وبشرىٰ للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً، وبعث رسوله محمداً بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، ولو كره المشركون، وأمره بتبليغ ما أمره به، فقال تعالىٰ: ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾()، فكان البلاغ المأمور به، بلاغاً للألفاظ، والمعاني، حتىٰ لا يدع مجالاً لمتحذلق، ولا لمتشدق، ولا لمتنطع أن يقول في القرآن برأيه، قال تعالىٰ: ﴿**وأَنْزَلنا إليك الذكرَ لتُبَيْنَ للناسِ ما نُزِّل إليهم، ولعلهم يتفكرون**﴾(النحل/ ٤٤)، فبين ﷺ كتابَ ربِهِ بالسنةِ، قولاً

وفعلاً وتقريراً، أتمَّ بيانٍ، وأدىٰ الأمانةَ، وبلَّغ الرسالةَ، وتركنا علىٰ مثل البيْضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فالسنةُ وحياةُ النبي ﷺ وسيرتُه، وأخلاقُه، وآدابه، إذن هي توضيح، وتفسير للقرآن الكريم، فهي بيان لمجمله، وتقييد لمطلقه، وتخصيص لعامه، ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾(النجم/)، فلا يجوز والحالة هذه أن تضرب السنة بالقرآن، أو يتوقف عن العمل بها حتىٰ ينظر فيه، هل موافق لظواهر الكتاب أم لا؟ وهل قال بها أحد من العلماء بعدها أم لا؟ وهل توافق القياس والمعقول أم لا؟ إذ كله وحيٌ.

قال الإمام **ابن عبدالبر**: "والبيان منه ﷺ علىٰ ضربين:

١- بيان المجمل في الكتاب: كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، وكبيانه لمقدار الزكاة ووقتها وما الذي يؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج، قال ﷺ إذ حج الناس: «**خذوا عني مناسككم**».

٢- وبيان آخر: وهو زيادة علىٰ حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها وخالتها، وكتحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، إلىٰ أشياء يطول ذكرها.

وقد أمر الله عز وجل بطاعته –أي طاعة نبيه- واتباعه أمراً مطلقاً مجملاً لم يقيد بشيء، ولم يقل: ما وافق كتاب الله كما قال بعض أهل الزيغ"[١٦].

وقد جاء في حديث المقدام بن معدِ يكَرِب عن النبي ﷺ:«**ألا إني أُوتِيتُ الكتابَ ومثلَهُ ألا إني أوتيتُ القرآنَ ومثلَهُ، ألا إنه يوشك رجلٌ شبعان علىٰ أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**»[١٧] وفي رواية «**ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله**»

وعن أبي نضرة قال: كنا عند عمران بن حصين رضي الله عنه فجعل يحدثنا فقال رجل ـ فكأنه كره الحديث عن رسول الله ﷺ ـ حدثنا عن كتاب الله: فغضب عمران وقال: «إنك أحمق، ذكر الله

---

(١٦) صحيح جامع بيان العلم (ص٤٨٧).

(١٧) صحيح سنن أبي داود (٣٨٤٨).

الزكاة في كتابه فأين في مئتين خمسة دراهم؟، وذكر الصلاة في كتابه فأين الظهر أربعاً؟، حتىٰ أتىٰ علىٰ الصلوات، وذكر الله الطواف في كتابه فأين بالبيت سبعاً؟، وبالصفا والمروة سبعاً؟ **إنما يحكم ما هناك وتفسره السنة**»[١٨].

وعن أمية أنه سأل ابن عمر فقال: يا أبا عبدالرحمن إنَّا نجد صلاة الحضر في القرآن، وصلاة الخوف فأخبرني عن صلاة السفر، فإنا لا نجده في القرآن!.

فقال ابن عمر: «يا ابن أخي إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً فإنَّا نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل»[١٩].

فقد قال علقمة بن قيس: قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لعن الله الواشمات والمتوشمات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله».

فبلغ ذلك امرأة ، يقال لها أم يعقوب، كانت تقرأ القرآن فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك، أنك لعنت الواشمات.....، فقال ابن مسعود: "ومالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وهو في كتاب الله"، فقالت: لقد قرأتُ القرآنَ بين لوحي المُصْحَف فما وجدتُ هذا، فقال عبدالله: "لئن كنتِ قرأتيه قد وجدتيه، ثم قرأ: ﴿**وما آتاكم الرسولُ فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾(الحشر/)[٢٠].

عن حماد بن زيد عن أيوب قال رجل لمُطَرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير: إنا نريد كتاب الله، فقال **مطرِّف**: «إنا لا نريد بكتاب الله بديلاً، ولكن نريد من هو أعلم به منا»[٢١].

قال الإمام الشافعي: «وتقام سنة رسول الله ﷺ مع كتاب الله -عز وجل- مقام البيان عن الله -عز وجل- وليس شئ من سنن رسول الله ﷺ يخالف كتاب الله في حال، لأن الله تعالىٰ قد

---

(١٨) رواه الآجري في الشريعة (١٠٤).

(١٩) رواه أحمد (٢/ ١٤٢)، والنسائي (٣/ ١١٧وابن ماجة (ح١٠٦٦)، وعبد الرزاق (٤٢٧٦)ذم الكلام (٢/ ١٦٣).

(٢٠) متفق عليه.

(٢١) **صحيح**: رواه ابن عبد البر ينظر "صحيح جامع بيان العلم" (ح١٦٩٨)، ذم الكلام (٢/ ٨٤).

أعلم خلقه أن رسوله ﷺ يهدي إلىٰ صراط مستقيم»[٢٢].

عن محمد بن هارون سمعت **الشافعي** -بمكة- يقول: سلوني عما شئتم أحدِثُكم من كتاب الله وسنة نبيه، فقال له رجل: يا أبا عبد الله ما تقول في محرم قتل زنبوراً، **قال:** ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه**﴾ **الآية، حدثنا** ابن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا بالذيْن من بعدي أبي بكر وعمر**» وحدثنا سفيان عن مِسْعَر عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر أنه أمر بقتل الزَّنبور»[٢٣].

وقال أحمد بن حنبل: «من رد حديث النبي ﷺ فهو علىٰ شفا هلكة»[٢٤].

عن **الأوزاعي عن مكحول** قال: «القرآن إلىٰ السنة، أحوج من السنة إلىٰ القرآن»[٢٥].

عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: «السنةُ قاضيةٌ علىٰ الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ علىٰ السنة»[٢٦].

قال أبو القاسم الأصبهاني: «وقول من قال: يعرض السنة علىٰ القرآن فإن وافقت ظاهره، وإلا استعملنا ظاهر القرآن، وتركنا الحديث، فهذا جهل، وقد قصَّ الله علينا أن ننتهي إلىٰ سنة نبيه، وليس لنا معها من الأمر شئ إلا التسليم لها وإتباعها، ولا تعرض علىٰ قياس ولا علىٰ شئ غيرها، وكل ما سواها من قول الآدميين تبع لها»[٢٧].

وقد فرض الله طاعة رسوله في كتابه في أكثر من ثلاثين موضعـًا، فليس لأحد أن يقول: لا أقنع بالحديث مجرداً، حتىٰ يؤتىٰ لي بنص قرآني.

نقل أبو القاسم الأصبهاني:، قول معاذ رضي الله عنه: «التكذيب بحديث رسول الله ﷺ

---

(٢٢) الرسالة ().

(٢٣) ذم الكلام (٢/ ٩٣).

(٢٤) الإبانة (١/ ٢٦٠).

(٢٥) **إسناده صحيح** : رواه ابن عبد البر "جامع بيان العلم" (ح٢٣٥٢) وابن بطة في "الإبانة" (٢/ ٦٠).

(٢٦) الإبانة لابن بطة (٢/ ٥٨).

(٢٧) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٣٠٦).

نفاق»[٢٨]، **وقول أيوب السَّختِياني**: «إذا حدثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا وحدثنا عن القرآن فاعلم أنه ضال»[٢٩].

وقال سعد بن معاذ: «ما سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا قط إلا علمت أنه حق من الله»[٣٠].

ولهذا قال شارح الطحاوية: "وكيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة وإنما يتلقاه من قول فلان؟ وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقىٰ تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول ولا ينظر فيها ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان المنقول إلينا عن الثقات الذين تخيرهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده بل نقلوا نظمه ومعناه ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان بل يتعلمونه بمعانيه ، ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه ومن يتكلم برأيه وبما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وإن أخطأ ، لكن إن أصاب يضاعف أجره.

وقال **شيخنا ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أنا أحمد الله سبحانه وتعالىٰ أننا نجد من إخواننا من يعتنون بالحديث، وبأسانيد الحديث، ويحرصون عليه، لأن هذه طريقة طيبة جداً، ونحن نحبذها، ونود أن تكون علوم الشباب مبنية علىٰ ذلك، لأن السند هو الطريق إلىٰ ثبوت الأحكام أو نفيها"ا.هـ من "مجموع الفتاوىٰ" (١٤/ ١٤٠).

فضل كتب الحديث والسنة ومكانتها وميزاتها

---

(٢٨) الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٩٤).

(٢٩) الحجة (٢/ ٤٩٤).

(٣٠) **صحيح**: جامع بيان العلم (ح١٧٠٧).

سبق وأن تكلمنا عن السنة وعظمتها وأهميتها، والحديث وما فيه من نور وهدىٰ، وأذكر هنا شيئًا مما ورد عن السلف في فضل كتب الحديث والسنة تتميمًا للفائدة، وليقف طالب العلم علىٰ الآثار السلفية التي تحث علىٰ ذلك، وتؤكد أهمية الاعتناء بكتب الحديث أولاً قبل الكتب الكثيرة التي كتبها الناس.

فعن النضر وموسىٰ ابنا أنس عن أبيهما، **أنس بن مالك**، أنه أمرهما بكتابة الحديث والآثار عن رسول الله ﷺ وتعلمها، وقال **أنس** «كنا لا نعد علم من لم يكتب علمه علمًا» (شرف أصحاب الحديث/ ١٩٨).

كتابة الحديث، وجمعه وتفهمه قبل كل شيء، لا يقدم شيئًا من العلم عليها، وهو الذي يشرح ويفسر القرآن، عن عياش القطان، قال: قلت **لأحمد بن حنبل**: أشتهي أن أجمع حديث الأنبياء فقال لي أحمد: «حتىٰ تفرغ من حديث نبينا ﷺ»[٣١]، فإن كان هذا في جمع أحاديث الأنبياء؛ فكيف بكلام البشر وبعض المقلدة من أصحاب المذاهب؟!.

فكتب السنة والحديث هي في الحقيقة هي: كتب العلم، والفقه، وهي أصل العلوم، فمن كان مفسِّراً فهو بحاجة إليها، ومن كان له اعتناء بالأحكام والحلال والحرام فهو بحاجة إليها، وإلىٰ دراستها، لأنه لا يمكن أن يبني فقهه إلا عليها، ومن كان له اعتناء بالعقيدة أو الأخلاق والآداب، والمغازي والسير كلهم بحاجة ملحة إلىٰ الحديث وكتبه، وإدامة النظر فيها، بل والاعتناء بقراءتها ودراستها فالسنة هي المبينة للقرآن، **(لتبين للناس ما نزل إليهم)**، والموضحة له، فحاجة الناس كلهم إليها أحوج ما يحتاجون إليه بل أحوج لهم من الطعام والشراب.

ولذا فلا يطلق العلم إلا علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: قال **العلامة الفلاني** رحمه الله: "فَهَذِهِ الْأَحَادِيث والْآثَار مصرِّحة بِأَن اسْم الْعلم إِنَّمَا يُطلق علىٰ مَا فِي كتاب الله وَسنة رَسُول الله ﷺ وَالْإِجْمَاع أَو مَا قيس علىٰ هَذِه الْأُصُول عِنْد فقد نَص علىٰ ذَلِك عِنْد من يرىٰ ذَلِك لَا علىٰ مَا لهج بِهِ أهلُ التَّقْلِيد والعصبية من حصرهم الْعلم علىٰ مَا دُوِّن من كتب الرَّأْي المذهبية مَعَ مصادمة بعض ذَلِك لنصوص الْأَحَادِيث النَّبَوِيَّة". (إيقاظ همم أولي الأبصار/ ص).

وقال أيضًا **شيخنا الإمام العلامة ابن باز** رحمه الله في المقابلة التي أجرتها معه مجلة

(٣١) الجامع لأخلاق الراوي (١٩٢٥).

"المجلة"[٣٢]:

"أنا –الحمد لله– لست بمتعصب، ولكني أحكّم الكتاب والسنة، وأبني فتاواي علىٰ ما قاله الله ورسوله، لا علىٰ تقليد الحنابلة ولا غيرهم.

الفتاوىٰ التي صدرت مني إنما أبنيها علىٰ الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة حسب ما ظهر لي.

وهذا هو الذي سرتُ عليه **منذ عرفتُ العلم**، ومنذ أن كنت في الرياض قبل القضاء وبعد القضاء، وكذلك في المدينة، وما بعد المدينة، وإلىٰ الآن والحمد لله".

– ولما سأله مندوب المجلة قائلاً: سماحتكم أميل للحديث في الدراسة؟

قاطعه –رحمه الله– قائلاً:

(لا بد من الحديث، الحديث سمعناه مع القرآن، وكما قال الله –جل وعلا– ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلىٰ الله والرسول**﴾ (النساء: ٥٩)، فالرد إلىٰ الله: القرآن، والرد إلىٰ الرسول: الحديث **فلا علم ولا فتوىٰ إلا عن طريق القرآن والحديث**، هذا هو العلم، **أما التقليد فليس بعلم**) انتهىٰ.

فضائل كتب الحديث والأثر:

أولا: هي الأصل في العلم

ثانيا: هي البيان للقرآن والتفسير له.

ثالثا: شاملة لجميع أبواب الدين

(الفقه – والتفسير – العقيدة والمنهج – الزهد والرقائق – الآداب والأخلاق – المغازي والسير – الفضائل والمناقب)

رابعـًا: كتب مباركة عظيمة البركة.

خامسـًا: كتب جامعة مانعة نافعة غاية النفع، والفائدة، ونفعها للمرء حتىٰ في طعامه

---

(٣٢) في عددها رقم: (٨٠٦) وتاريخ: ٢٥ صفر عام ١٤١٦هـ (ص/ ٢٣).

وشرابه، ومدخله ومخرجه.

سادسًا: كتب مختصرة في العبارة عظيمة وكثيرة في المعنىٰ

لذلك كان من حفظها ودرسها يكون قد حصل الكثير من المسائل في المدة اليسيرة، واشتملت علىٰ مهمات العلوم، واحتوت علىٰ الأصول لجميع الفنون.

فبهذا ينال العلوم الكثيرة في المدة اليسيرة، وهذا من بركة الحديث والسنة

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن أهل السنة والحديث: «**إنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم، والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال**: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ**﴾(محمد/ ١٧)، ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾(النساء/ ٦٦: ٦٨) ، **وما تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم**». مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٠).

سابعًا: الاعتناء بالكليات، والعمومات التي يدخل تحتها الكثير من الجزئيات.

ثامنًا: يفيد منها الطالب الكثير من العلوم،وينتفع بكثير منها في سائر الفنون.

فحينما يدرس السنة يجد نفسه قد درس علومًا أخرىٰ كثيرة، كاللغة، والأصول، والمصطلح، وعلم الرجال والعلل، وغيرها، ولعل هذا من بركتها أيضًا.

تاسعًا: كتب فيها من الرقة وزيادة الإيمان وتهذيب النفس، والأخلاق، والهداية، والأدب الشيء الكثير، كأنه يعيش مع النبي ﷺ وأصحابه، فكلما كان أكثر ملازمة لهذه الكتب كان أعظم أدبًا، وأكثر هداية.

وثبت في الصحيح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألوا النبي ﷺ حتىٰ أحفوه بالمسألة فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: ﴿**لا تسألوني عن شيء إلا بينت لكم**﴾() . فجعلت أنظر يمينًا وشمالاً **فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي**. وغيره كثير في السنة، وفي سنن الدارمي بإسناد صحيح: عن عمرو بن محمد عن أبيه قال : ما سمعت ابن عمر يذكر النبي ﷺ قط إلا بكىٰ.

وقال **بشر بن السري السقطي**: «نظرت في العلم فإذا هو الحديث والرأي، فوجدت في الحديث ذكر النبيين والمرسلين وذكر الموت وذكر ربوبية الرب وجلاله وعظمته وذكر الجنة

والنار وذكر الحلال والحرام والحث علىٰ صلة الأرحام وجماع الخير.

ونظرت في الرأي فإذا فيه المكر والخديعة، والتشاح واستقصاء الحق، والمماكسة في الدين واستعمال الحيل والبعث علىٰ قطع الأرحام والتجرؤ علىٰ الحرام» (جامع بيان العلم لابن عبدالبر، وشرف أصحاب الحديث للخطيب).

عاشراً: السهولة واليسر، فهي سهلة الفهم، والحفظ، بلا تعقيد ولا وعورة، وواضحة إلىٰ ما لا نهاية من الوضوح، والبيان.

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تجدُ كلاماً أحسن تفسيراً ولا أتمَّ بياناً من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه سبحانه بياناً، وأخبر أنه يسره للذِّكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير؛ **إحداها** تيسير ألفاظه للحفظ، **الثاني** تيسير معانيه للفهم، **الثالث** تيسير أوامره ونواهيه للامتثال»[٣٣]. وهذا يدل فيه الكتاب والسنة، بل السنة من باب أولىٰ لأنها بيان للقرآن، فهو أكثر وضوحاً.

لذلك قال **الإمام الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن العظيم واضح العبارة علىٰ ما لا نهاية، والمتون في أنهىٰ مراتب الغموض ... ولو وجه الطالب فكره تلقاء الكتاب والسنة لعرف المطلوب منه بأوضح عبارة وأشرف إشارة .... **ولو كان فهمها متوقف علىٰ ما ذكر من العلوم والدقائق لم تكن شريعته سمحة سهلة ليلها كنهارها، بل ربما كان هذا من الغلو في الدين والتشديد والحرج الذي رفعه الله بفضله**»[٣٤].

قال الإمام العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسير قوله: (أفلا يتدبرون القرآن):

«وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يقدر عليه، فهو أيضاً زعم باطل، لأن **تعلم الكتاب والسنة، أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة**، والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ [القمر:١٧] ويقول تعالىٰ في الدخان: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [الدخان:٥٨]

---

(٣٣) «الصواعق المرسلة» (٣٣٠-٣٣٥)، باختصار.

(٣٤) مزالق الأصوليين (ص٩٩: ١٠٠).

ويقول في مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم:٩٧].

فهو كتاب ميسر، بتيسير الله، لمن وفقه الله للعمل به، والله جل وعلا يقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٥٢].

فلا شك أن الذي يتباعد، عن هداه، هو يحاول التباعد، عن هدىٰ الله ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلىٰ أرضه، ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار، والرشد من الغي. قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء:١٧٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢] وقال تعالىٰ: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن:٨] وقال تعالىٰ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدىٰ بهداه في أرضه، فكيف ترضىٰ لبصيرتك أن تعمىٰ عن النور.

فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم:

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم

مثل النهار يزيد أبصار الورىٰ .. ... نورا ويعمي أعين الخفافيش

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة:٢٠] ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩].

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه **يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب ربك،**

وسنة نبيك ﷺ، بالوسائل النافعة المتاحة، والعمل بكل ما علمك الله منهما، علماً صحيحاً.

ولتعلم أن **تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان، أيسر منه بكثير في القرون الأولىٰ، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك**، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال، من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.

وجميع الأحاديث الواردة عنه ﷺ حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف».

الحادي عشر: ليس فيها حشو وكلام زائد، بل كلام قليل مختصر، ومعانٍ جليلة.

الثاني عشر: أنها كتب لا تُمل البتة، وأما غيرها فلا تقدر أن تطيل القراءة فيها، والجلوس لسماعها لساعات طويلة، فأي درس مع أحسن شيخ متمكن، وفي أي علم مثلاً من علوم الآلة أو كتب الرأي (الفقه) لا تستطيع أن تزيد عن ساعة إلا بملل وضيق صدر.

كيف تمل وأنت مع النبي ﷺ وصحبه الكرام، تقرأ كلامهم وعنهم، وتنظر في طريقتهم وسيرتهم؟!

فعن **عَبْدَ اللهِ بْنَ الْمُبَارَكِ**، وَقَدْ قِيلَ لَهُ: «يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ الْقُعُودَ فِي الْبَيْتِ وَحْدَكَ، فَقَالَ: لَيْسَ أَنَا وَحْدِي، أَنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ بَيْنَهُمْ يَعْنِي النَّظَرَ فِي الْكُتُب» . ترتيب الأمالي للشجري (٧٥).

الثالث عشر: فيها تثبيت للعقائد، وتفصيل وتوضيح ما كان غامضاً منها، فمثلاً إن درست في العقيدة الإيمان بفضل الصحابة، أو بعذاب القبر، أو الشفاعة ونحوها، سيجد طالب العلم تفصيلاً لفضائل الصحابة وذكر فضائل كثير من الصحابة، وأنواع كثيرة من الشفاعات قد تصل إلىٰ بضع عشرة شفاعة لنبينا ﷺ، وأحاديث مختلفة، وهكذا في كل باب.

الرابع عشر: كثيرة الحجج والأدلة في الموضوع الواحد، بل والمسألة الواحدة.

الخامس عشر: كتب الحديث يعتني أصحابها فيها بالصحة، والثبوت، والدقة في الألفاظ،

وإن وجد حديث ضعيف بينه صاحب الكتاب، أو أشار إليه، وإن كان فيها غير الصحيح، فيذكرونه لبيان ضعفه، أو أنهم اطلعوا علىٰ حجج تلك المذاهب المخالفة للسنة الصحيحة، وذلك بخلاف أهل البدع والأهواء وأهل الرأي، وكثير من متأخري المذاهب، فإنهم لا يعتنون كثيراً بالصحة، ولا بألفاظ النصوص، بل هؤلاء لا يكادون يلتفتون إلىٰ النصوص، فيحتجون بالضعيف والواهي من النصوص، قال **أبوالقاسم الأصبهاني**: "يحتج -أهل الأهواء- بقول التابعي علىٰ قول النبي ﷺ أو بحديث مرسل ضعيف علىٰ حديث متصل قويّ، ومن ها هنا امتاز أهل اتباع السنة من غيرهم، لأن **صاحب السنة لا يألوا أن يتبع من السنن أقواها، ومن الشهود عليها أعدلها وأتقاها، وصاحب الهوىٰ كالغريق يتعلق بكل عُود ضعيف أو قوي**، وكان المتبع لا يتبع من الآثار إلا ما هو عند العلماء أقوىٰ".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " فمن أعرض عن الأحاديث الصحيحة الدالة علىٰ تحقيق التوحيد وإبطال الشرك وسد ذرائعه وتعلق بحديث ضعيف بل ذكر بعض العلماء أنه حديث منكر وهو قوله: "إذا انفلتت دابة أحدكم فليناديي عباد الله احبسوا" ومثل حديث الأعمىٰ الذي فيه يامحمد وزعم أن رسول الله ﷺ أمره أن يسأله في حال غيبته لم يكن هذا إلا من زيغ في قلبه، وقوله: ﷺ فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها **"إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىٰ الله فاحذروهم"** (مجموعة الرسائل والمسائل١/ ١٥٣).

السادس عشر: فيها إحياء لكثير من السنن التي ماتت بين الناس.

السابع عشر: وهي سبب لجمع الكلمة، والألفة، وعدم الفرقة، فإنَّ تمزُّقَ الأمةِ وخلافَاتها لن يُصْلَحَ، ولن يزولَ إلا بشدَّةٍ بالسُّنَّة، والعمل بها، والسير وفق منهج السلف، والحرص علىٰ الحديث والأثر، ودليل ذلك قوله ﷺ: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور**»(٣٥).

فمن أعظم أسباب الفرقة والاختلاف والتمزق بله العداوة والبغضاء، ترك سبيل ومنهج السلف، والوقوف في وجه ذلك بشتىٰ التأويلات، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ **فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ**

---

(٣٥) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود، والترمذي (ح٢٨٢٨) وصححه، وابن ماجة (ح٤٢)، وكذلك ابن رجب والألباني (صحيح أبي داود:٣٨٥).

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ القِيامَةِ﴾(المائدة/ ١٤).

فظهر أن **سبب الاجتماع والألفة جمع الدين، والعمل به كله**، وهو: **عبادة الله وحده لا شريك له، كما أمر به باطنًا، وظاهراً**.

وسبب الفرقة: ترك الحظ مما أُمِر العبد به، والبغي بينهم، ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه»[٣٦].ا.هـ. ملخصاً.

ولما كان السلف علىٰ منهاج واحد في التلقي والاستدلال، مرجعهم جميعاً الكتاب والسنة، ودعوتهم التوحيد وتعظيم السنة والحديث، والعمل به، والدعوة إلىٰ ذلك جمعهم الله عزوجل، وإن اختلفوا في مسألة لم يوجب ذلك فرقة ولا شقاقاً بينهم، وسادوا الدنيا، ورفعهم الله، ومكن لهم في الأرض، وأورثهم إياها.

وأما اليوم فاختلاف المناهج في التعلم، فضلاً اختلاف مناهج التلقي، يوجد الخلاف والشقاق، والتنازع والفرقة وإلىٰ الله المشتكىٰ.

الثامن عشر: ويحصل بإدمان القراءة في كتب السنة وملازمتها من الحفظ للأحاديث، وتثبيت المحفوظات، وإشاعة السنة والحديث بين الناس ما لا يحصل لمن عكف علىٰ المتون، فقراءة الحديث ومجالس الحديث، والتفقه فيه ولا سيما مع الإكثار منه تثبت المحفوظ، وتقوي الملكة وذلك لبركة السنة، فما تكرر، تقرر.

التاسع عشر: يحصل للعبد بإدمان القراءة في كتب السنة، من الراحة والطمأنينة، والفرح والسرور، وانشراح الصدر، والثبات عليه، والرقة والخشية ما ليس في الكتب الأخرىٰ من قسوة القلب، ونسبة بينهما فإن الأحاديث وحي من الله تعالىٰ، وذلك إنهم أعظم الناس يقيناً وسكينة وطمأنينة:

جاء رجل إلىٰ الحسن فقال: يا أبا سعيد ، تعال حتىٰ أخاصمك في الدين، **فقال الحسن**: "أما أنا فقد أبصرت ديني فإن كنت أضللت دينك فالتمسه"[٣٧].

---

(٣٦) مجموع الفتاوىٰ (١/ ١٤: ١٧).

(٣٧) **حسن لغيره**: رواه الآجري في "الشريعة" (١٢٤)، وابن بطة في "الإبانة" (٥٨٦).

وقال ابن وهب سمعت مالكًا يقول: "كان ذلك الرجل إذا جاءه بعض هؤلاء أصحاب الأهواء ، قال: أما أنا فعلىٰ بيِّنة من ربي ، وأما أنت فشاك فاذهب إلىٰ شاك مثلك فخاصمه، قال **مالك:** وقال ذلك الرجل يُلَبِّسون علىٰ أنفسهم ثم يطلبون من يعرفهم"(٣٨).

وقال **شيخ الإسلام:** "أهل السنة والحديث: الذين هم **أعظم الناس علمًا ويقينًا، وطمأنينة وسكينة**، وهم الذين يعلمون، ويعلمون أنهم يعلمون، وهم بالحق يوقنون، لا يشكون ولا يمترون.

فأما **الذي أوتيه علماء أهل الحديث وخواصهم من اليقين والمعرفة والهدىٰ:** فأمر يَجِل عن الوصف، ولكن عند عوامهم من اليقين والعلم النافع ما لم يحصل منه شئ لأئمة المتفلسفة المتكلمين، وهذا أمر ظاهر مشهود لكل أحد"(٣٩).

العشرون: إن "الإكثار من مطالعة كتب السنة كالكتب الستة وغيرها من الصحاح والمسانيد؛ فهي تمد الكاتب بالأساليب البيانية الراقية، وترفد مادته اللغوية والشرعية، فالنبي **"أوتي جوامع الكلم"**، ودانت له نواصي البلاغة، ودنت له قطوف الحكمة، وتفجرت من أقواله ينابيع الفصاحة؛ فهو يتكلم بالسهل الممتنع، وبالألفاظ المعبِّرة المشتملة علىٰ الرقة، والمتانة، والإبانة عن الغرض بدون تكلف". الارتقاء بالكتابة (ص:٦).

الحادي والعشرون: أن طالب العلم يقف علىٰ أكثر من نص في المسألة الواحدة فيزداد رسوخًا وثباتًا علىٰ ما هو عليه، فلا يتزعزع عنها.

الثاني والعشرون: كتب أهل الحديث والأثر قديمة، فهي موروثة وليست منتحلة

قال **شيخ الإسلام:** "مذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق اللهُ أبا حنيفة ومالكًا والشافعي، وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنة والجماعة"(٤٠)، ولذلك فإننا نجزم أن الدين الصحيح هو ما

---

(٣٨) **إسناده صحيح:** الإبانة (٢/ ص٥٠٩-ح٥٨٧).

(٣٩) مجموع الفتاوي (٤/ ٢٩).

(٤٠) منهاج السنة (٢/ ٦٠١)، ومن هنا يتبين انحراف الفرق أو ما يسمىٰ بالجماعات الإسلامية المعاصرة، فإنها أُحْدِثت علىٰ غير مثال سابق، فإذا لم يكن فيها من البلاء إلا أنها محدثة، لم تكن إلا في هذه الأزمان،

كان عليه الصحابة، وكتب السنة تدل الناس علىٰ ما كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه.

الثالث والعشرون: هناك أمور تربوية يستفيدها الناظر في كتب أحاديث النبي ﷺ، **منها** التعود علىٰ استعمال النصوص والنظر في الأدلة، **ومنها** أنه ينتفع بالحديث وفوائده، وليس ما يتعلق بالمسألة التي يبحثها فحسب، بل مع كل حديث يقرأه المرء ينتفع بأحكام ومسائل أخرىٰ، **ومنها** أن قلبه ينفر بعد ذلك ممن يتكلم بغير النصوص وبغير أدلة، **ومنها** أنه يحب السنة وأهل الحديث، والصحابة الذين نقلوا السنة بل والرواة الذين نقلوها، **ومنها** الهداية التي تلقىٰ في قلبه لمعرفة الحق، **ومنها** التعرف علىٰ منهج السلف في التلقي والاستدلال، **ومنها** كثرة الصلاة علىٰ النبي ﷺ ففي الحديث الواحد قد يصلي عليه عشر مرات وأكثر، **ومنها** أن القاريء لها والناظر فيها، يقف علىٰ نصوص كثيرة مرفوعة وموقوفة ومقطوعة، لم تطرق لم يرها من قبل، **ومنها** أنه القارئ لها يطلع علىٰ علوم كثيرة، من علوم الحديث والفقه والتفسير والرجال والجرح والتعديل، واللغة والبيان وغيرها، **ومنها** ... أمور وعلوم كثيرة وجليلة.

وهناك كلام نفيس للخطيب عما يوجد في كتب السنة وفي الحديث (شرف أصحاب الحديث/ ص)

فتوىٰ العلامة مقبل الوادعي في الوصية بكتب الحديث

قال الشيخ العلامة مقبل الوادعي رحمه الله:

السؤال١٩٨: قال بعض أهل العلم: ننصح المبتدئين في الفقه علىٰ حسب مذهب البلد، إن كان حنبليًّا ففي "زاد المستقنع"، وان كان شافعيًّا، أو مالكيًّا، فما شابه هذه الكتب، فما هي كيفية دراسة علم الفقه، وما هي الكتب التي تنصح بدراستها، ومن هو العالم الذي غالب أقواله من الكتاب والسنة، في أمور الفقه؟

الجواب: الحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أما بعد:

أما الرجوع إلىٰ «زاد المستقنع»، فأرىٰ أن يرجع إلىٰ كتاب الله، وإلىٰ سنة رسول الله صلىٰ

وليست امتداداً للقرون الفاضلة، فلا يكونون ممن اتبعوهم بإحسان، حيث أحدثوا ما لم يكن في الزمن الأول، وما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا، لذلك فاللهم هداك.

الله عليه وعلىٰ آله وسلم، ونبينا محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم يقول في حجة الوداع في حديث جابر كما في "صحيح مسلم": «**إنّي تارك فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلّوا كتاب الله**». وفي "صحيح مسلم" من حديث زيد بن أرقم يقول: «**إنّي تارك فيكم ثقلين، أوّلهما كتاب الله فيه الهدىٰ والنّور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحثّ علىٰ كتاب الله ورغّب فيه..**».

ورب العزة يقول في كتابه الكريم: ﴿**اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم ولا تتّبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكّرون**﴾()، ويقول أيضًا: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾ ()، ويقول أيضًا: ﴿**وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ ().

ونبينا محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم يقول: «**ذروني ماتركتكم، فإنّما أهلك الّذين من قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم**»، وفي الحديث نفسه: «**ولكن ما نهيتكم عنه فانتهوا، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم**».

فديننا آية قرآنية وحديث نبويّ، وتمر بك عبارات في الحيض والطلاق في «زاد المستقنع» ربما تشغلك، ليس عليها دليل من الكتاب والسنة فهي تعتبر فرضيات. دع عنك ما يحتاج منك إلىٰ جهد طويل، وربما تحفظ القرآن في سنة واحدة ثم تحفظ ما استطعت من سنة رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وتعرف صحيح السنة من سقيمها، ومعلولها من سليمها.

وفرق كبير وبون شاسع، بين كتاب ربنا، وسنة نبينا محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم وبين عبارات "زاد المستقنع" أو غيره من كتب الفقه، ورب العزة يقول في كتابه الكريم: ﴿**ولقد يسّرنا القرءان للذّكر فهل من مدّكر**﴾ ().

ويقول نبينا محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم: «**بعثت بالحنيفيّة السّمحة**»، ويقول: «**إنّ هذا الدّين يسر**».

فالعلم ميّسر، واختلافات العلماء هي التي شغلت طلاب العلم عن الكتاب والسنة، بل صيرتْهم شيعًا وأحزابًا، ولقد أحسن من قال:

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغني ولا العمد
يحلّلون بزعم ... منهم ... عقدًا ..... وبالذي وضعوه زادت العقد

وهذه المدرسة المباركة نفع الله بها في مدة يسيرة، بسبب أنّها أقبلت علىٰ كتاب الله، وسنة

رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم وقد تكلمنا في "إقامة البرهان، علىٰ ضلال عبدالرحيم الطحان" بشيء مما ورد في ذم التقليد.

والدين يؤخذ من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم. وأما قول فلان وفلان، واختلافهم، إن كنت شافعيًّا فهذا حلال لك، وإن كنت حنبليًّا أو حنفيًّا فلا يجوز لك، فهذا دليل علىٰ أنّ هذه المذاهب قد دخلها الدّخيل، ورب العزة يقول في كتابه الكريم: ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا**﴾ ().

فكتاب ربنا وسنة نبينا محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم ليس فيهما اختلاف، والاختلاف في أفهام أهل العلم، وأهواء بعض أهل العلم.

وأما العالم الذي غالب أقواله من الكتاب والسنة، فهو مثل الإمام البخاري، والإمام أحمد بن حنبل، وابن حزم علىٰ دخن فيه في العقيدة، وابن القيم، ومحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، والشوكاني، ويوجد بحمد الله علماء غالب أقوالهم من الكتاب والسنة، وتطمئن النفس بهم، وانتفع بهم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها.

ثم هم يصعبون الشيء السهل فالنبي صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم كان يصف الصلاة وهو علىٰ المنبر وكان عثمان يصف الوضوء للصحابة بالفعل، وكان علي بن أبي طالب يصف الوضوء أيضًا للصحابة بالفعل وأنا أسأل عبد العزيز القاري: هل عبارات "زاد المستقنع" أسهل أم عبارات "بلوغ المرام"؟ فتجد عبارات في «زاد المستقنع» ربما يتحير القارئ فيها. وقد ذكر بعض الإخوة ذلك في رسالة له أشياء طيبة في هذا.

يقول: ومما قالوا: رجل يصلي وهو يحمل مزاده من فسو، فهل صلاته صحيحة أم لا؟ أو رجل يصلي وعنده ثوب من جلود الذر فهل صلاته صحيحة أم لا؟، ومن هذه الأمور، فاحمدوا الله الذي نجاكم من التقليد.

فهل قال لنا أبوحنيفة نقلده، وهل قال لنا مالك نقلده، وكذلك هل قال الشافعي نقلده وأيضًا أقال ابن حنبل نقلده! بل نهوا عن تقليدهم.

فهذه مقالة قد سمعناها لبعض الناس ونحن في الجامعة الإسلامية، يقولون: الذين يدعون إلىٰ الدليل يدعون الناس إلىٰ الفرقة. فهل الذي يدعو الناس إلىٰ أن يكونوا يدًا واحدة وفكرة

واحدة يدعو الناس إلىٰ الفرقة! أم الذي يوزعهم إلىٰ شافعي ومالكي وحنبلي وحنفي!.

وإنني أحمد الله فقد كنت أكتب علىٰ السبورة: أتحدىٰ من يأتي بدليل علىٰ أننا ملزمون باتباع مذهب معين، فلا يستطيع أحد أن يأتي بدليل، ونحن في الجامعة الإسلامية. تحفة المجيب علىٰ أسئلة الحاضر والغريب (ص: ٢٣٧)

حث العلماء والأئمة ووصيتهم بكتب لحديث والسنة

وقد أوصىٰ أئمة الإسلام بهذه الكتب المباركة منهم الإمام أحمد وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهما من علماء الإسلام وأئمة المسلمين.

وقال الفضل بن زياد: سألت أبا عبد الله يعني: أحمد بن حنبل عن الكرابيسي[٤١] وما أظهر؟ فكلح وجهه، ثم قال: «**إنما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها، وتركوا آثار رسول الله ﷺ، وأصحابه، وأقبلوا علىٰ هذه الكتب**»[٤٢].

وقد سئل **الإمام أحمد** عن **أبي حنيفة** يُروىٰ عنه؟ قال: لا. قيل له: فأبو يوسف؟ قال: كأنه أمثلهم، ثم قال: «كل من وضع الكتب من كلامه فلا يعجبني، **أو يجرد الحديث**»[٤٣].

وعن إسحاق بن إبراهيم بن هانئ، قال: سألتُ أحمد بن حنبل عن كتبِ أبي ثور، فقال: «كتاب ابتدع فهو بدعة. ولم يُعجبه وضع الكتب، وقال: **عليكم بالحديث**». مناقب الإمام أحمد (ص٢٦٤)،

ونقل عن **أحمد** قوله: «لا تنظر في كتب **أبي عبيد** ولا فيما وضع **إسحاق**، ولا **سفيان** ولا **الشافعي** ولا **مالك** و**عليك بالأصل**»[٤٤]. مما لا شك فيه أن كتب هؤلاء فيها من الفقه والعلم، ولكن لا تقدم علىٰ كتاب الله وسنة رسوله، في العلم والتعلم والدراسة، والمطالعة والقراءة.

وعن ابن خاقان أنه سأل **أحمد** : أي الكتاب أحب إليك **موطأ مالك** أم **جامع سفيان**؟.

---

(٤١) حسين الكرابيسي كان من بحور العلم فقيه بغداد، تفقه بالشافعي مات (٢٤٨هـ) كما قال الذهبي رحمه الله (السير١٢/ ٧٩)، وإنما تكلم فيه لأجل الرأي وقلة العناية بالأثر.

(٤٢) **صحيح**: رواه يعقوب الفسوي في"المعرفة والتاريخ" (٣/ ٤٩٤).

(٤٣) **صحيح**: تاريخ بغداد (١٤/ ٢٦٠)، وهي في «**مسائل ابن هانئ**» (٢٣٦٨ – ٢٣٦٩).

(٤٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٣).

فقال: «لا ذا ولا ذا عليك بالأثر»(٤٥).

وعن سَلَمة بن شَبيب سأل **أحمد بن حنبل**: يا أبا عبد الله، إن أصحاب الحديث يكتبون **كتب الشافعي**؟ قال: لا أرىٰ لهم ذلك. مناقب الإمام أحمد (ص٢٦٤).

وَذَكَرَ السَّاجِيُّ قَالَ نَا الْحَسَنُ بْنُ إِدْرِيسَ السِّجِسْتَانِيُّ قَالَ نَا مُحَمَّدُ بْنُ الْهَيْثَمِ قَالَ سَمِعت مُحَمَّد بن فَزَارَة الرَّازِيَّ قَالَ قُلْتُ لأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إِنِّي كتبت الحَدِيث وَأَكْثَرت مِنْهُ فَلَا بُد لِي مِنَ النَّظَرِ فِي الرَّأْيِ فَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: لَا تَفْعَلْ فَقُلْتُ لَا بُدَّ أَكْتُبُ رَأْيَ الأَوْزَاعِيِّ أَوْ رَأْيَ الثَّوْرِيِّ أَوْ رَأْيَ مَالِكٍ قَالَ: **إِنْ كُنْتُ لَا بُدَّ كَاتِبًا لِلرَّأْيِ فَاكْتُبْ رَأْيَ الشَّافِعِيِّ**(٤٦) وَعَلَيْكَ بِالْبُوَيْطِيِّ فَاسْمَعْهُ مِنْهُ فَإِنْ فَاتَكَ فَأَبُو الْوَلِيدِ بْنُ أَبِي الْجَارُودِ بِمَكَّةَ» الانتقاء (ص٧٦).

حتىٰ فتاواه كان ينهىٰ عن كتابتها رَحِمَهُ اللَّهُ، فعن حنبل بن إسحاق، قال: «رأيتُ **أَباعبدالله** يكره أن يُكتب شيءٌ من رَأيه فتواه». مناقب أحمد لابن الجوزي (ص٢٦٥).

وقال أبو بكر المَرُّوذِي: «رأيتُ رجلاً خرسانيًّا قد جاءَ إلىٰ **أبي عبد الله** فأعطاه جزءاً، فنظر

---

(٤٥) .:

(٤٦) قال **أحمد بن حنبل**: «ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث إلا وللشافعي عليه منة. وقال: وكنا نلعن أصحاب الرأي ويلعوننا حتىٰ جاء الشافعي، فخرج بيننا. وقال: ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتىٰ جالسته، وقال **أحمد بن حنبل** لإسحاق بن راهويه: تعال حتىٰ أريك رجلاً لم تر عيناك مثله. فأراه الشافعي، وقال **ابن حنبل**: كان الشافعي أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وكان قليل الطلب للحديث.

ولكن قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالشافعي من جلة اصحاب الحديث رحل فيه وكتب بمكة والمدينة والعراق واليمن ولقب ببغداد ناصر الحديث وهو قلما يوجد له حديث غلط والله حسيب من يتكلم بجهل أو هوىٰ فإن السكوت يسع الشخص نعم لم يكن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في الحديث كيحيىٰ القطان او ابن مهدي أو احمد بن حنبل بل ما هو في الحديث بدون الأوزاعي». الرواة الثقات (ص٣٢).

قال: وقد رآه هذا رحمة من الله لأمة محمد ﷺ. قال بعضهم قلت لأحمد: تركت سفيان وعنده السالفون - يعني وجئت إلىٰ الشافعي؟! - فقال لي: اسكت فإن فاتك علو الحديث تجده بنزول لا يضرك في دينك ولا عقلك، وإن فاتك عقل هذا الفتىٰ أخاف أن لا تجده أبداً، ما رأيت أفقه في كتاب الله منه. وقال أحمد: كان الشافعي كالشمس للدنيا والعافية للناس. فانظر هل لهذين من عوض. وقال **أحمد**: وبلغني أن النبي ﷺ قال: «يبعث الله لهذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة رجلاً يقيم لها أمر دينها» وقال: قد اختلفنا إليه فما رأينا إلا خيراً. ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٣/ ١٨٢).

فيه **أبوعبدالله**، فإذا فيه كلام لأبي عبد الله، فغَضب فرمىٰ الكتابَ من يده». مناقب أحمد لابن الجوزي (ص٢٦٥).

الاعتناء والاهتمام بالتفقه في الكتاب والسنة

قال تعالىٰ: {ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم}، **وفي الحديث المتفق عليه: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**.

وقال ابن المديني: «**التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم**»[٤٧].

بل قال **العلامة الفلاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإن اسْم الْفَقِيه عِنْد السّلف إِنَّمَا يَقع علىٰ من علم الْكتاب وَالسّنة وآثار الصَّحَابَة وَمن بعدهمْ من عُلَمَاء الْأمة، وَأما من اشْتغل بآراء الرِّجَال واتخذه دينًا ومذهبًا ونبذ كتاب الله وَسنة رَسُول الله ﷺ وقضايا الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وآثارهم من وَرَائه فَلَا يُطلق عَلَيْهِ اسْم الْفَقِيه بل هُوَ باسم الْهوىٰ والعصبية أولىٰ**». إيقاظ همم أولي الأبصار (ص٢٨).

فمعنىٰ الفقه، عند هؤلاء يختلف عن معناه الحقيقي الشرعي عند السلف، فمعناه في الشرع أعم من هذا، لأنه تفقه وتفهم للكتاب والسنة في جميع أبواب الشرع وليس خاصاً بالأحكام فحسب، قال تعالىٰ: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفهوا في الدين ولينذروا قومهم إلىٰ رجعوا إليهم، لعلهم يحذرون**﴾. وقد قال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»، متفق عليه، وقال **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما خصنا رسول الله ﷺ بشيء، إلا ما في هذه الصحيفة، وفيها فكاك الأسير، والجراحات، أو **فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه**" رواه البخاري.

وقد قال سبحانه: **(ففهمناها سليمان)**.

وكذا التفقه في الدين، يعني: التفقه والتفهم لما أنزل من الوحي سواء كان في مسائل الأحكام أو في العقائد، أو الآداب أو غيرها.

قال **ابن حزم**: «ولا سبيل إلى التفقه في الدين إلا بنقل أحكام الله تعالى وأحكام رسوله ﷺ ووجدناه ﷺ قد حض على تبليغ الحديث عنه وقال في حجة الوداع لجميع من حضر: «**ألا فليبلغ**

---

(٤٧) سير النبلاء (١١/ ٤٨).

الشاهد الغائب» الإحكام (٢/ ١٤٣).

قال **العلامة محمد آمان الجامي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «آراء الرجال المجردة من ذكر الأدلة لا تفقه الإنسان في الدين، الفقه معناه: الفهم الصحيح في الدين». (شرح آداب المشي إلىٰ المساجد/ ص).

وقال **ابن حزم** معلقـًا علىٰ حديث أبي موسىٰ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**». (متفق عليه)، رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢). قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن استطاع منكم أيها الإخوة في الله عز وجل أن يكون من الطائفة الأولىٰ النقية فليفعل، فحسب الواحد منا أن يكون في جملة من أثنىٰ عليه رسول الله ﷺ فإن لم يمنح ذلك؛ فليكن من الأجادب التي تمسك الماء لعل الله ينفع بنا وبكم في ذلك، ولو أن يموت أحدُنا وهو مقيِّدٌ لحديث النبي ﷺ يشاهد مجالسه، طالب له، مستكثر منه!، فأعيذ نفسي وإياكم بالله أن نكون من القيعان التي لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً!»[٤٨].

وقوله ﷺ في دعائه لابن عمه ابن عباس: «**اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل**» رواه البخاري،

وقال **وكيع**: «يا فتيان **تفهَّموا فقه الحديث**، فإنكم إن تفهمتم فقه الحديث لم يقهركم أهلُ الرأي»[٤٩]، وعن عبد العزيز بن يحيىٰ قال: قال لنا **سفيان بن عيينة**: «يا أصحاب الحديث تعلموا معاني الحديث فإني تعلمت معاني الحديث ثلاثين سنة»[٥٠]. وفهم العلماء للنصوص هو من الرأي والاجتهاد الذي عمل به السلف، وقالوا به، وهو ممدوح وليس مذمومـًا، عن **ابن المبارك** قال: «ليكن الَّذِي تعتمد عَلَيْهِ هَذَا الْأَثر وَخذ من الرَّأْي مَا يُفَسر لَك الحَدِيث»[٥١].

---

(٤٨) التلخيص لوجوه التخليص" (ص١٣٢: ١٣٣).

(٤٩) **إسناده صحيح**: رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٧٨٨)، وهو في "نصيحة أهل الحديث" (ص٤١)، وأخرجه الحاكم في "معرفة علوم الحديث" (ص٦٦).

(٥٠) الآداب الشرعية (٢/ ١٢٥)..

(٥١) **صحيح**: ذم الكلام للهروي (رقم٣٣٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (٨/ ١٦٥)، والبيهقي في "المدخل" (٢٤٠)، وابن عبد البر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٧٠، ١٠٥٠، ١٠٣١)، ، والخطيب في "الفقيه والمتفقه"

قلت: هذا أثر عظيم يبين فيه رَحِمَهُ اللَّهُ كيف أنه كان حريصاً علىٰ اتباع السلف والأثر، والدليل، وكيف كانوا يعظمون النصوص، ويبحثون عن أدلة وأصول المسائل، فمتىٰ وجدوا النص الصحيح الصريح قالوا وعملوا به. وأن الأئمة والسلف مع ذلك لم يغفلوا فقه النص، والتفهم له، والبحث عن معناه.

ولذلك كان من وصايا **الرامهرمزي** رَحِمَهُ اللَّهُ لأهل الحديث: «فَتَمَسَّكُوا - جَبَرَكُمُ اللهُ - بِحَدِيثِ نَبِيِّكُمْ ﷺ، **وَتَبَيَّنُوا مَعَانِيهِ، وَتَفَقَّهُوا بِهِ**، وَتَأَدَّبُوا بِآدَابِهِ، وَدَعُوا مَا بِهِ تُعَيَّرُونَ مَنْ تَتَبَّعَ الطُّرُقَ وَتَكْثِيرِ الأَسَانِيدِ، وَتَطَلُّبِ شَوَاذِّ الأَحَادِيثِ، وَمَا دَلَّسَهُ الْمَجَانِينُ، وَتَبَلْبَلَ فِيهِ الْمُغَفَّلُونَ، وَاجْتَهِدُوا فِي أَنْ تُوفُوهُ حَقَّهُ مِنَ التَّهْذِيبِ وَالضَّبْطِ وَالتَّقْوِيمِ، لِتَشْرُفُوا بِهِ فِي الْمَشَاهِدِ، وَتَنْطَلِقَ به أَلْسِنَتُكُمْ فِي الْمَجَالِسِ»[٥٢].

قال **يحيىٰ القطان**: «ينبغي لطالب الحديث أن يكون ثبت الأخذ، **ويكون يفهم ما يقال له**، ويبصر الرجال، ثم يتعاهد»[٥٣]، وعن عبد الرحمن ابن أبي حاتم قال سمعت أبا زرعة يقول كتب إليَّ أبوثور فقال في كتابه: «كان الأمر قديماً أمر أصحابك يعنىٰ في التفقه حتىٰ نشأ قوم فاشتغلوا بعدد الأحاديث **وتركوا التفقه** قال وسمعت **أبا زرعة** يقول: «وقد عاد قوم في التفقه وهو الأصل»[٥٤].

وقال **المُهَلَّبُ بنُ أَحْمَدَ بنِ أَبِي صُفْرَةَ أَسِيْدِ بنِ عَبْدِ اللهِ الأَسَدِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ**، المَرِيِيُّ (المتوفىٰ: ٤٣٥هـ): ينبغي لأهل الطلب **والتفقه أن يعرفوا وكيد حاجتهم إلىٰ علم معاني الحديث الصحيح، ووجوه مطابقته للمسائل الصحيحة، المتوفرة بينهم في الفتوىٰ** فيستنبطون منها ما لم يتقدم فيه قولٌ لعالم، ويُفَرِّقون منها بين الوهم والصواب من الاختلاف، إذ قد كثر وعورض المتقدم بالمتأخر، ولعله مفسَّر وقر قوله، وهو لله أو لرسوله معارض، **فلا اعتصام إلا بشاهد الكتاب والسنة فبهما يتبين محض الصواب**، وتنفصل المسائل المشكلة، فيستغنىٰ عن حفظ كثير من

(٢/ ١٦٤).

(٥٢)المحدث الفاصل (ص١: ٣).

(٥٣) شرح علل الترمذي (١/ ١٩٤).

(٥٤)الجرح والتعديل (١/ ٣٤٤).

أشخاصها بضبط حكم أجناسها.

لكن العذر قلة وجود المعلِّم، وعدم الفالح، مع حب بعضنَا للرياسة في العامة، واستعجال الفائدة من عندها، فوقفوا أنفسهم علىٰ ذكر مسائلها، والتحيل لها في وثائقها، بالهروب عن الحدود بزور العقود، فقنعوا منها بالتسويد، ونكبوا عنه لأنه عندهم محدود، ولزموا التسوق به فهو المحدود، فنالوا من الدنيا المراتب، وولوا الفهماء فيها المعائب، حتىٰ ضاعت الحقائق وهجر أهلها، وعمت الجهالة وظهر حزبها، تصديقًا من الله عَزَّ وَجَلَّ لما أنذر به الرسول عَلَيْهِ السَّلاَمُ من انقطاع العلم وظهور الجهل، ﴿**وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا**﴾»[٥٥].

وقال ابن رجب: «أما فقهاء أهل الحديث العاملون به فإن معظم همهم البحث عن معاني كتاب الله وما يفسره من السنن الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان وعن سنة رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها وسقيمها ثم التفقه فيها وفهمها والوقوف علىٰ معانيها ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام وأصول السنة والزهد والرقائق وغير ذلك وهذا هو طريق الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين وفي معرفة هذا شغل شاغل عن التشاغل بما أحدث من الرأي ما لا ينتفع به ولا يقع وإنما يورث التجادل فيه كثرة الخصومات والجدال وكثرة القيل والقال وكان الإمام أحمد كثيرا إذا سئل عن شيء من المسائل المحدثة المتولدات التي لا تقع يقول: دعونا من هذه المسائل المحدثة»[٥٦].

وقال **أبو شامة** رَحِمَهُ اللَّهُ وهو ينصح طالبَ العلم بما يبدأ: «الأهم هو **حفظ القرآن، وشيء من السنة الصحيحة، والتفقه فيهما**، والعمل بما تتعلمه منهما من علمي الظاهر والباطن، ومهما زدتَ علىٰ ذلك زاد فضلُكَ وعلا محلُّك»[٥٧].

وقد سئل – أي الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ : عن قول الشيخ تقي الدين ابن تيمية: ولتكن همته فهم مقاصد الرسول، في أمره ونهيه، ما صورته؟

---

(٥٥)المختصر النصيح في تهذيب كتاب الجامع الصحيح (١/ ١٥٤).
(٥٦) إيقاظ الهمم المنتقىٰ من جامع العلوم والحكم (ص١٤٣).
(٥٧) مقدمة الكتاب المؤمل للرد إلىٰ الأمر الأول (ص٣٥- ط أضواء السلف).

فأجاب: مراده ما شاع وذاع: أن الفقه عندهم هو: الاشتغال بكتاب فلان وفلان; فمراده التحذير من ذلك. وقال أيضاً: كذلك غيركم، إنما اتباعهم لبعض المتأخرين لا الأئمة؛ فهؤلاء الحنابلة، من أقل الناس بدعة، وأكثر (الإقناع) و(المنتهىٰ) مخالف لمذهب أحمد ونصه، فضلاً عن نص رسول الله ﷺ؛ يعرف ذلك من عرفه(٥٨).

فاقترق معنىٰ الفقه عند السلف عما عند هؤلاء المتأخرين من جهتين:

الأولىٰ: أن السلف يتفقهون في الدين كله، وفي جميع الأبواب: العقيدة والمنهج، والسلوك والزهد، والأخلاق، والأحكام وغيرها فعلماء السلف، وعلماء أهل الحديث أولىٰ الناس بكل فقه.

الثانية: أن السلف كانوا يتفقهون في النصوص وأما هؤلاء فيتفقهون في الرأي، وكتب الرأي التي يسمونها (كتب الفقه).

إذن فعلىٰ هذا فالاشتغال بتعلم الكتاب والسنة، والتفقه فيهما، هذا هو المقصود من التفقه في الدين.

قال **ابن الجوزي**: «وربما اعتمد علىٰ قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم، لقلة إلتفاته إلىٰ معرفة النقل، **وإنما الفقه استخراج من الكتاب والسنة، فكيف يستَخْرِجُ من شيءٍ لا يعرفه؟!**».

وقال شيخنا **العلامة المحدث حماد الأنصاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: « "إن الحافظ الخطيب البغدادي ألف الكتب التالية "شرف أصحاب الحديث" "الفقيه والمتفقه" "وكتاب الاحتجاج" رداً علىٰ الأحناف الذين ينتقدون أهل الحديث لاشتغالهم بالحديث وتركهم ما هم عليه من الرأي، ثم قال الوالد: والفقه إنما يكون من النصوص لا من الفراغ". المجموع في ترجمة العلامة المحدث حماد الأنصاري لولده عبدالأول (٢/ ٥٢٩).

فلا سبيل إلىٰ التفقه ابتداء إلا بمعرفة الكتاب والسنة، قال **ابن حزم**: «ولا سبيل إلىٰ التفقه في الدين إلا بنقل أحكام الله تعالىٰ وأحكام رسوله ﷺ ووجدناه ﷺ قد حض علىٰ تبليغ الحديث عنه وقال في حجة الوداع لجميع من حضر: «**ألا فليبلغ الشاهد الغائب**» الإحكام (٢/ ١٤٣).

وانظر إلىٰ ما قاله **أبو حامد الغزالي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة

---

(٥٨) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ١١).

بالعلوم الشرعية، تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلىٰ معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول مثل: (الفقه - والعلم).

فهذه أسماء محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن إلىٰ معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع اطلاق هذه الأسامي عليهم.

اللفظ الأول، الفقه: فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوىٰ والوقوف علىٰ دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وأكثر اشتغالاً بها يقال: هو الأفقه.... إلىٰ أن قال: إن التجرد لذلك يقسي القلب ويَنْزِع الخشية منه.

اللفظ الثاني، العلم: وتصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتىٰ شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها فيقال: هو العالم علىٰ الحقيقة وهو الفحل في العلم، ومن لا يمارس ذلك، ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يعدونه من زمرة أهل العلم.

إلىٰ أن قال: إن العلم قد صار الآن يعني زمنه أي القرن الخامس مطلقاً علىٰ من لا يحيط من علوم الشرع بشئ سوىٰ رسوم جدلية في مسائل خلافية فيعد بذلك من فحول العلماء **مع جهله بالتفسير والأخبار** وعلم المذهب وغيره، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم.

إلىٰ أن قال: فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الالتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلىٰ بحبل الغرور وتتشبه بالخلف **فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس وما أكبّ الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدَث**، وقد صح قول رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**»، فقيل: ومن الغرباء، قال: «**الذين يصلحون ما أفسده الناس من سنتي**». إلىٰ أن قال: وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمقت ذاكرها»[٥٩] ا-هـ.

---

(٥٩) إحياء علوم الدين (١/ ٢٨-٣٤).

فهل كان ثمة فقه وعلم في الزمن الأول إلا الفقه في الدين، «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**» متفق عليه.

كل العلوم سوىٰ القرآن مشغلة ....إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوىٰ ذاك وسواس الشياطين

شرف أصحاب الحديث (١٦٣)

وها أنا ذا أذكر فتوىٰ للجنة الدائمة.

س٥: هل قلة الكتب الفقهية هي التي أدت بنا إلىٰ هذا الوضع، وكذا التفسير؟ إذا كان كذلك فأفيدونا ببعض من هذه المواريد وأجركم علىٰ الله.

ج٥: التقليل من طلب العلم من مصادره: الكتاب والسنة، وما فهم منهما، وما يعين علىٰ فهمهما؛ هو السبب في التأخر، وهو الذي أدىٰ بالناس إلىٰ هذا الوضع.

وبالله التوفيق وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء: عبد الله بن قعود وعبد الله بن غديان وعبد الرزاق عفيفي وعبدالعزيز بن عبدالله بن باز[٦٠].

كيف يتفقه طالب العلم في السنة؟

ومن الأدلة علىٰ وجوب التفقه في النصوص قوله تعالىٰ: ﴿**ولكن كونوا ربانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾. والرباني: الذي يعلم الناس صغار العلم قبل كباره، والمقصود به: ما وضحت أدلته قبل الغامض الذي يحتاج إلىٰ قياس وإنعام نظر، وبحث وتمحيص وتدقيق.

قال **الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره ما دق منها»[٦١].

فينبغي لطلاب العلم أن يعتنوا بالتفقه في القرآن وفي كتب السنة والحديث والأثر، وأن

---

(٦٠) فتاوىٰ اللجنة الدائمة - ١ (١٢/ ٨٣)، السؤال الخامس من الفتوىٰ رقم (٥٧٣٨).
(٦١) فتح الباري (١/ ١٦٢).

يكون هذا شأنهم في العلم وهجيرهم في الدعوة إلىٰ ذلك.

لكن ينبغي أن يعي الناس أننا حين نأمر بكتب السنة نأمر بفهمها وتعلمها والتفقه فيها، **ومعرفة ما قال العلماء في معناها**، وليس فهما من أنفسنا لها، ولا نخالف ما قاله أهل العلم، فنفهم الكتاب والسنة بفهم أهل العلم، كي لا يظن ظان أننا نهجم عليهما فنأخذ منهما مباشرة دون معرفة المعاني وشروح العلماء، وأن يكون ذلك الفهم منضبطاً بضوابط العلم، وأن يكون ذلك بمجالسة أهل العلم، والقراءة في شروحها، والبحث عن معانيها من مظانها.

علىٰ أنه لا حكر علىٰ أحد في فهم النصوص، وقد يفتح الله علىٰ العبد في فهم نص ما لا يفتح علىٰ آخر، كما قال علي رضي الله عنه: «**إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه**»، وهذا من معاني التدبر المأمور به كل مسلم، ﴿**ليدبروا آياته**﴾، فيتدرب الطالب علىٰ التفقه في النصوص، كما كان النبي ﷺ يختبر ما عندهم من فهم كما ورد في حديث ابن عمر وسؤال النبي ﷺ أصحابه عن شجرة تشبه المؤمن فقال: «**أخبروني ما هي؟**»، ثم قال: «**هي النخلة**» متفق عليه، فما دام أنه سيعرض ما فهمه علىٰ شيخ فلا إشكال، المهم لا يخالف القواعد، ولا يخالف الأمة ولا يخرج بفهم مستقل يشاق به الرسول والمؤمنين، ويخالف القواعد والنصوص، والإجماع ونحوه، فيتفهم ويتفقه، بتلك الضوابط التي ذكرناها.

فهذا عروة عرض علىٰ عائشة ما فهمه من قوله: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله** ..﴾، وخطأته في فهمه.

فبهذا يتدرب علىٰ الاستنباط الصحيح فيصوب له الصواب، ويخطئه إن أخطأ، وهكذا يصل الطالب بعد مدة، إلىٰ درجة لا بأس بها من الفقه والعلم، واستعمال النصوص، والاستنباط الصحيح.

وهذه الحقيقة ينبغي أن يفهمها الناس وأن هذا من معاني قوله تعالىٰ: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين**..﴾(التوبة/).

ولقد حث العلماء علىٰ التفقه في الدين لقوله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٦٢].

---

(٦٢) **متفق عليه**: رواه البخاري ()، ومسلم ().

قال **الخطيب البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإذا عُرِف صاحبُ الحديث بالتفقه خرست عنه الألسن، وعظم محلّهُ في الصدور والأعين، وخسئَ من كان عليه يطعن»[٦٣]. يعني: يتفقه في نصوص الكتاب والسنة.

وقال **وكيع**: «يا فتيان **تفقَّهوا فقه الحديث**، فإنكم إن تفهمتم فقه الحديث لم يقهركم أهلُ الرأي»[٦٤].

وفهم العلماء للنصوص هو من الرأي والاجتهاد الذي عمل به السلف، وقالوا به، وهو ممدوح وليس مذموماً.

فعن **ابن المبارك** قال: «ليكن الَّذِي تعتمد عَلَيْهِ هَذَا الْأَثر وَخذ من الرَّأْي مَا يُفَسر لَك الحَدِيث»[٦٥].

ذكر **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ أنواع الرأي المحمود فقال: "النوع الأول: رأي أفقه الأمة، وأبر الأمة قلوباً، وأعمقهم وأقلهم تكلفاً وأصحهم قصوداً وأكملهم فطرة، وأتمهم إدراكاً، وأصفاهم أذهاناً، الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل، وفهموا مقاصد الرسول، فنسبة آرائهم وعلومهم وقصودهم إلىٰ ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلىٰ صحبتهم والفرق بينهم وبين من بعدهم في ذلك كالفرق بينهم وبينهم في الفضل فنسبة رأي من بعدهم الي رأيهم كنسبة قدرهم إلىٰ قدرهم والمقصود أن أحداً ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم وكيف يساويهم ؟ وقد كان أحدهم يرىٰ الرأي فينْزِل القرآن بموافقته...، وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنْزِلة أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا، وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نوراً و إيماناً وحكمة وعلماً ومعرفة وفهماً عن الله ورسوله ونصيحة للأمة وقلوبهم علىٰ قلب نبيهم، ولا وساطة بينهم وبينه وهم ينقلون العلم و الإيمان من مشكاة النبوة غضاً طرياً لم يشبه إشكال، ولم يشبه خلاف، ولم

---

(٦٣) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦١).

(٦٤) **إسناده صحيح**: رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٧٨٨)، وهو في "نصيحة أهل الحديث" (ص٤١)، وأخرجه الحاكم في "معرفة علوم الحديث" (ص٦٦).

(٦٥) **صحيح**: ذم الكلام للهروي (رقم٣٣٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (٨/ ١٦٥)، والبيهقي في "المدخل" (٢٤٠)، وابن عبد البر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٧٠، ١٠٥٠، ١٠٣١)، ، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ١٦٤).

تدنسه معارضة، فقياس رأي غيرهم بآرائهم من أفسد القياس " (أعلام الموقعين ١/ ٧٩-٨٢).

وفي هذا دليل علىٰ أن أئمة أهل الحديث، وفقهاء السنة والسلف لم يغفلوا فقه النص، والتفهم له، والبحث عن معناه، ولذلك قال: «**وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث**»، فينبغي لمن يدرس السنة أن يتفقه فيها، فيتصور المسائل، ويتعلم طرق الاستنباط وكيف يتعامل مع الأدلة، وكيف يجمع ويوفق بينها، ويدرس مشكل الحديث، ويتدرب علىٰ التفقه والقياس، ويتعرف علىٰ مواطن الإجماع والخلاف.

لكن بعدما يثوِّر السنة والقرآن، ويبحث عن معانيها أولاً، ويعتني بالأصول من النصوص والآثار حفظاً وكتابة ودراسة وتعلماً.

وبهذا يفهم طلاب العلم المراد من قولنا: نتفقه في السنة وفي كتب الحديث، ومصنفات السنة، وأننا نحث علىٰ التفقه في الكتاب والسنة، بدلاً من آراء الرجال، والمتون المجردة، ونحن ندندن كثيراً حول هذه المسألة حتىٰ لا يفهم الناس منا أننا نحارب الفقه، ونقف في وجه أهله، لا ولكنا نتبع السلف في معنىٰ الفقه، وأيضاً فيما نريد أن نتفقه فيه فنتعلم ماذا نتفقه؟، وكيف يكون التفقه؟ مع اعتقادنا أن الحديث بذاته فقه كما تقدم.

وهذا ابن قتيبة يهاجم هذه الفئة التي لا تتفقه فيما تروي بقوله: «عَلَىٰ أَنَّا لَا نُخَلِّي أَكْثَرَهُمْ مِنَ الْعَدْلِ فِي كُتُبِنَا، فِي تَرْكِهِمُ الاشْتِغَالَ بِعِلْمِ مَا قَدْ كَتَبُوا، وَالتَّفَقُّهَ بِمَا جَمَعُوا، وَتَهَافُتِهِمْ عَلَىٰ طَلَبِ الْحَدِيثِ مِنْ عَشْرَةِ أَوْجُهٍ، أو عشرين وَجْهًا.

التفقه في القرآن، وتعلم تفسيره ومعانيه:

والتفقه في القرآن أيضاً: قال الطرطوشي في كتابه الماتع: «البدع والحوادث» (ص٩٦)، قال:

«**ومما ابتدعه الناس في القرآن الاقتصار علىٰ حفظ حروفه؛ دون التفقه فيه**: روىٰ مالك في "موطئه": «أن عبد الله بن عمر مكث في سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها»[٦٦].

وروي عن مالك في «العتبية» قال: "كتب إلىٰ عمر بن الخطاب من العراق يخبرونه أن

---

(٦٦) رواه مالك في «موطئه» ().

رجالاً قد جمعوا كتاب الله تعالىٰ، فكتب عمر: أن افرض لهم في الديوان. قال: فكثر من يطلب القرآن، فكتب إليه من قابل أنه قد جمع القرآن سبع مائة رجل. فقال عمر: إني لأخشىٰ أن يسرعوا في القرآن قبل أن يتفقهوا في الدين. فكتب ألا يعطيهم شيئاً"[٦٧].

قال **مالك**: «معناه: مخافة أن يتأولوه غير تأويله»[٦٨]. (يعني: يفسروه غير تفسيره)

وهذا هو حال المقرئين في هذه الأعصر؛ فإنك تجد أحدهم يروي القرآن بمائة رواية، ويثقف حروفه تثقيف القدح، وهو أجهل الجاهلين بأحكامه.

وسئل مالك عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن، فقال: "ما أرىٰ هذا ينبغي"[٦٩].

وإنما وجه إنكاره ما تقرر في الصحابة من كراهة التسرع في حفظ القرآن دون التفقه فيه.

ومن ذلك حديث مالك عن **عبد الله بن مسعود**: «إنكم في زمان كثير فقاؤه، قليل قراؤه، تحفظ فيه حدود القرآن، وتضيع حروفه، قليل من يسأل، كثير من يعطي، يبدؤون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي زمان قليل فقاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطي، يبدؤون بأهوائهم قبل أعمالهم»[٧٠].

---

(٦٧).

(٦٨).

(٦٩).

(٧٠) **صحيح**: رواه مالك في الموطأ (٣٧٩)، ومن طريقه أبي عمرو الداني في كتابه «الفتن» (٣١٧)، وبمعناه رواه البخاري في «الأدب المفرد» ()، وصححه شيخنا في الصحيحة تحت حديث (٣١٨٩).

ملاحظة وتنبيه:

ذكر العلامة التويجري: ما جاء في الذين يتكلفون في قراءة التجويد

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: «خرج علينا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن، وفينا العجمي والأعرابي. قال: فاستمع، فقال: «**اقرؤوا؛ فكل حسن، وسيأتي قوم يقيمونه كما يقام القدح؛ يتعجلونه ولا يتأجلونه**» . رواه: الإمام أحمد ورواته ثقات، وأبو داود وإسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

وفي رواية لأحمد؛ قال: «دخل النبي ﷺ المسجد؛ فإذا فيه قوم يقرؤون القرآن؛ قال: «اقرؤوا القرآن وابتغوا به الله عز وجل من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح؛ يتعجلونه ولا يتأجلونه» .

إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه؛ قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا ونحن نقتري، فقال: «الحمد لله،

كتاب الله واحد، وفيكم الأحمر، وفيكم الأبيض، وفيكم الأسود، اقرؤوه قبل أن يقرأه أقوام يقيمونه كما يقوم السهم؛ يتعجل أجره ولا يتأجله» . رواه أبو داود وإسناده حسن.

ورواه الإمام أحمد، ولفظه: أن رسول الله ﷺ قال: «فيكم كتاب الله؛ يتعلمه الأسود والأحمر والأبيض، تعلموه قبل أن يأتي زمان يتعلمه ناس ولا يجاوز تراقيهم، ويقومونه كما يقوم السهم، فيتعجلون أجره ولا يتأجلونه» . وقد رواه ابن حبان في "صحيحه" بنحو رواية أبي داود.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: «بينما نحن نقرأ فينا العربي، والعجمي والأسود والأبيض؛ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: «أنتم في خير، تقرؤون كتاب الله، وفيكم رسول الله ﷺ، وسيأتي علىٰ الناس زمان يثقفونه كما يثقفون القدح؛ يتعجلون أجورهم ولا يتأجلونها» . رواه الإمام أحمد.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه؛ قال: «أقرأ الناس لهذا القرآن المنافق؛ لا يذر منه ألفًا ولا واوًا، يلفه بلسانه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها» . رواه عبد الرزاق، ورجاله كلهم ثقات.

وقد رواه ابن أبي شيبة بنحوه؛ إلا أنه قال: "عن حذيفة "، وزاد في آخره: «لا يجاوز ترقوته» ، وإسناده كلهم ثقات.

وفي هذه الأحاديث فوائد:

إحداها: أن النبي ﷺ كان يحب القراءة السهلة.

الثانية: أنه كان يأمر أصحابه أن يقرأ كل منهم بما تيسر عليه وسهل علىٰ لسانه.

الثالثة: ثناؤه عليهم بعدم التكلف في القراءة.

الرابعة: أنه لم يكن يعلمهم التجويد ومخارج الحروف، وكذلك أصحابه رضي الله عنهم لم ينقل عن أحد منهم أنه كان يعلم في التجويد ومخارج الحروف، ولو كان خيرًا؛ لسبقوا إليه! ومن المعلوم ما فتح عليهم من أمصار العجم من فرس وروم وبربر وغيرهم، وكانوا يعلمونهم القرآن بما يسهل علىٰ ألسنتهم، ولم ينقل عنهم أنهم كانوا يعلمونهم مخارج الحروف، ولو كان التجويد لازمًا؛ ما أهملوا تعلمه وتعليمه.

الخامسة: ذم المتكلفين في القراءة، المتعمقين في إخراج الحروف.

السادسة: الرد علىٰ من زعم أن قراءة القرآن لا تجوز بغير التجويد، أو أن ترك التجويد يخل بالصلاة، وقد أخبرني بعض من أم في المسجد النبوي أن جماعة من المتكلفين أنكروا عليه إذ لم يقرأ في الصلاة بالتجويد، وما علم أولئك المتكلفون الجاهلون أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أقر الأعرابي والعجمي والأحمر والأبيض والأسود علىٰ قراءتهم، وقال لهم: كل حسن، وأنه ﷺ ذم المتكلفين الذين يقيمونه كما يقام القدح والسهم ويثقفونه ويتنطعون في قراءته كما هو الغالب علىٰ كثير من أهل التجويد في هذه الأزمان.

السابعة: الأمر بقراءة القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل.

الثامنة: ذم من يأخذ علىٰ القراءة أجرًا كما عليه كثير من القراء الذين يتأكلون بالقراءة في المآتم والمحافل وغيرها، وكذلك من يجعل القراءة وسيلة لسؤال الناس، وقد رأيتهم يفعلون ذلك في المسجد الحرام؛ يجلس أحدهم، فيقرأ قراءة متكلفة يتنطع فيها، ويعالج في أدائها أعظم شدة ومشقة، وتنتفخ أوداجه، ويحمر

وقال أيضـًا **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعَادَةَ الْمُطَّرِدَةَ تُوجِبُ اعْتِنَاءَهُمْ بِالْقُرْآنِ - الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِمْ - لَفْظًا وَمَعْنًى؛ بَلْ أَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُمْ بِالْمَعْنَى أَوْكَدَ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ كِتَابًا فِي الطِّبِّ أَوْ الْحِسَابِ أَوْ النَّحْوِ أَوْ الْفِقْهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ فَكَيْفَ بِمَنْ قَرَءُوا كِتَابَ اللهِ تَعَالَى الْمُنَزَّلَ إلَيْهِمْ الَّذِي بِهِ هَدَاهُمْ اللهُ وَبِهِ عَرَّفَهُمْ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ .

فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَتَهُمْ فِي فَهْمِهِ وَتَصَوُّرِ مَعَانِيهِ أَعْظَمُ الرَّغَبَاتِ؛ بَلْ وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ رَغْبَةَ الرَّسُولِ ﷺ فِي تَعْرِيفِهِمْ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ مِنْ رَغْبَتِهِ فِي تَعْرِيفِهِمْ حُرُوفَهُ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْحُرُوفِ بِدُونِ الْمَعَانِي لَا تُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ»(٧١).

لذلك قال ابن القيم: «وَكَانَ تَبْلِيغُهُ ﷺ لِلْمَعَانِي أَهَمَّ مِنْ تَبْلِيغِهِ لِلْأَلْفَاظِ وَلِهَذَا اشْتَرَكَ الصَّحَابَةُ فِي فَهْمِهَا، وَأَمَّا حِفْظُ الْقُرْآنِ فَكَانَ فِي بَعْضِهِمْ، ... يَأْخُذُونَ الْمَعَانِيَ أَوَّلًا، ثُمَّ يَأْخُذُونَ الْأَلْفَاظَ لِيَضْبُطُوا بِهَا الْمَعَانِيَ حَتَّى لَا تَشِذَّ عَنْهُمْ »(٧٢).

لا يرهبك أحد من دراسة الأمهات الست

ظن كثر من المبتدئين بل وبعض الخاصة أن طالب العلم لا يبدأ بدراسة الكتب الكبار كصحيح البخاري، وصحيح مسلم ومثل: (سنن أبي داود)، أو (سنن الترمذي)، أو (سنن ابن ماجة) كدرس شيخنا العلامة عبدالمحسن العباد حفظه الله وأمتع بحياته، وإن أشكل عليه شيء سأل عنه، فلا شك أنه سينتفع كثيراً، فما بالهم يصدون الناس عن هذا النور والهدى بحجج واهية؟!.

وما الفرق بين كتاب البخاري ومسلم ونحوهما، وكتاب: (رياض الصالحين)، الذي يقرأه

وجهه، ويكاد يغشى عليه مما يصيبه من الكرب في تكلفه وتنطعه، ويفرش عنده منديلًا أو نحوه؛ ليلقي فيه المستمعون لقراءته ما يسمحون به من أوساخهم، وهذا مصداق ما في حديث عمران بن حصين وحديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(٧١) الفتاوى (٥/ ١٥٧)..

(٧٢)مختصر الصواعق (ص٣٩٠، ٥٣٥)..

الصغير والكبير، في المساجد وغيرها، وكذا تفسير القرآن؟.

مع السنة أوضح من القرآن في ألفاظها وهي الموضحة والمفسرة له.

ثم إن درجات الثقافة العامة عند الناس كبيرة، فلا تكاد ترىٰ أحداً من الشباب إلا وهو عنده شيء من العلم الدنيوي مثل علم الرياضيات، والفيزياء والكمياء، بل وقد درس بعض اللغات الأخرىٰ كالإنكليزية ونحوها، فيا ترىٰ هذه أسهل أم الكتاب والسنة؟!

ثم إنهم ليأمرونهم بتعلم المتون الفقهية، وهي في الغموض ما لا يخفىٰ علىٰ من طالعها.

بل قال **الإمام الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن العظيم واضح العبارة إلىٰ ما لا نهاية، والمتون في أنهىٰ مراتب الغموض ... ولو وجه الطالب فكره تلقاء الكتاب والسنة لعرف المطلوب منه بأوضح عبارة وقراءة أحاديث رسول الله ﷺ، **ولو كان فهمها متوقف علىٰ ما ذكر من العلوم والدقائق لم تكن شريعته سمحة سهلة ليلها كنهارها، بل ربما كان هذا من الغلو في الدين والتشديد والحرج الذي رفعه الله بفضله**» (مزالق الأصوليين/ ص٩٩: ١٠٠).

ولذلك فإن دعوىٰ التأصيل والتدرج بما سبق ذكره من المعنىٰ المشتهر بين فئة من طلاب العلم أنها غير صحيحة ولا موفقة، وإن كانت الدعوىٰ في أصلها صحيحة بل لابد من التدرج والتأصيل ولكن بمعنىٰ أن يبدأ بالواضح من المسائل، وأن يبدأ بالأمور الواجبة، وما صرحت به نصوص الوحيين، وسيأتي المزيد من تقرير هذا.

وقال الشيخ العلامة **محمد آمان الجامي** رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح العقيدة الواسطية:

«لذلك لا ينبغي أن يقال لطلاب العلم: إذا أردتم أن تتفقهوا ابدؤوا بدراسة آراء الناس؛ لأنكم لا تستطيعون فهم كلام الله وكلام رسوله، هذا الكلام خطير، **بعض الناس يقولون: الذي يريد أن يتفقه يبدأ بكلام الفقهاء ويحذرون الطلاب من دراسة كتب السنة**، يقولون هذه فيما بعد، بل بالعكس وكيف يُترك كلام رسولِ هذه صفاته؟! ويقال في كلامه قصور، كلامه ليس بحقيقي، لو قارنت بين عمدة الأحكام وبين زاد المستقنع أيهما أسهل وأوضح؟!

قارن بين كتب الفقه علىٰ المذاهب وبين كتب السنة بدءً من الأربعين النووية حتىٰ تصل للأمهات – لا نسبة – هذا إما كلام الله الميسر وإما كلام رسول الله المفسِر، واضح وأصول.

من بدأ يتفقه دَرَسَ الأصول الثلاثة ودَرَسَ عمدة الأحكام وبلوغ المرام والمنتقىٰ.

والأخر **بدأ بالزاد والقدوري والمنهاج ومختصر خليل، هؤلاء يهرمون قبل أن يتفقهوا إنما يحفظون ألفظًا جوفاء**، والذين **يبدؤون بالسُنة في سنتين أو ثلاثة إن انقطعوا للعلم يصبحون فقهاء، ليس في مذهب معين بل في جميع المذاهب**؛ لأنهم درسوا الأصول التي ترجع إليها السنة؛ لذلك **تنفير طلاب العلم الصغار من النظر في السنة وجعْل السنة أمراً صعبًا لا يُفهم هذا خلاف الواقع**، قارنوا أنتم وجربوا ادرس بابًا في الطهارة مثلاً في كتاب من كتب الفقه ثم ادرس هذا الباب في كتاب من كتب السنة ستجد اليسر في كلام رسول الله والوضوح(٧٣).

لذلك لا يجوز أبداً لمن يؤمن بالله ورسوله أن يقدم كلام أي أحد علىٰ كلام الله وكلام رسوله لا في باب العقيدة فقط بل حتىٰ في باب الأحكام والفقهيات اعتقاد أن الناس يصلون للحق في أصول الدين وفروعه بدون طريق الله ورسوله.

وربما يستصعبون الحق في كلام الله وكلام رسوله بدعوىٰ أن هذا كلام عظيم ينبغي أن يُبدأ بكلام غيره، هذا تعليل سيء، **كلمة حق أُريد بها الباطل**، هو كلام عظيم ولكنه سهل ميسور ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**..﴾ (سورة القمر/ ١٧)، كيف يُعتقد أنه مُعَقد لا يُفهَم حتىٰ يُبدأ بكلام غيره؟!.

بل يجب البُدأة بكلام الله، وكان الصحابة يحفظون عشر آيات من القرآن ويفهمون ما فيها من المعنىٰ والأحكام أثر عن ابن مسعود (أخرجه ابن أبي شيبه برقم (٢٩٩٢٩) وابن سعد في الطبقات (٦ / ١٧٢) ويقولون حفظنا القرآن وعلمنا ما في القرآن، حفظ القرآن عند سلفنا ليس كحفظ القرآن اليوم، عندنا ألفاظ تكرر دون تدبر وتفهم كانوا يحفظون ويفهمون ويعملون به ويدعون إليه؛ لأن القوم ليس لهم كتاب غير كتاب الله ولما دُوِنت السنة جاءت مفسرة ومفصلة لما أُجمِل في الكتاب، درج سلفنا الصالح وليس لديهم كتاب فقه أو كتاب توحيد أو كتاب عقيدة أو كتاب أصول، الكتاب والسنة هما كل شيء عندهم، يقرؤون القرآن فيفهمون فيفقهون فإذا أُجمِلت الأحكام في القرآن فسروا ذلك بالسنة، قال تعالىٰ ﴿**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ** ..﴾(٤٣/ سورة البقرة)، وإذا أرادوا أن يعرفوا هذه التفاصيل نظروا في السنة، عرفوا الأموال التي تجب فيها الزكاة والأنصبة والمقدار الذي يخرج وهكذا السنة تفسر القرآن.

---

(٧٣) وقال أيضًا: "يقال: ينبغي أن تعلم العقيدة بالأدلة العقلية لا بالأدلة النقلية هذه دعوىٰ شريرة ضد الكتاب والسنة ".

والكتب التي أُلِفت بعد ذلك حتىٰ عند علمائنا أتباع السلف إنما هي كتب دفاعية، ما أُلِفت إلا للدفاع لما هُوجِمت الشريعة أو هُجم الإسلام بأصوله وفروعه اضطر علماء المسلمين من الأئمة الأربعة وغيرهم أن يُؤلفوا كتبًا يدافعون بها عن الإسلام أصولاً وفروعًا، وليست هذه الكتب مقصودة، ولكن مع طول الزمان وتأخُر الوقت عند المتأخرين نُسيَ الكتاب والسنة وتُرِكا، وجُعِلت هذه الكتب هي المقصودة التي في الأصل ليست مقصودة بالتأليف ولكن كانت للدفاع **فليفهم هذا جيداً ليُجعل لكلام الله وكلام رسوله مكانتهما في هذا الباب الخطير** وخصوصًا باب العقيدة».

ومن التدرج البدء بالكتب الصغيرة في الحديث مثلاً ليشعر الطالب أنه ضبط متنًا حديثيًا فيشجعه ذلك علىٰ المضي في العلم، وليس هذا شرطًا في البدء في العلم فقد كانوا يحفظون الجمع بين الصحيحين ونحن نذكر فيما بعد ما لهذه الكتب المختصرة من فوائد، وما عليها من مآخذ بعون الله وتوفيقه.

إننا لا نمنع من حفظ البلوغ أو غيره، بل قد يكون نافعًا للمبتدئين، كي يشعر أنه أنهىٰ كتابًا من الكتب حفظًا فيتشجع لاستكمال حفظ باقي كتب السنة.

أما الذي نأخذه علىٰ طلاب العلم وبعض المشايخ هو: الاقتصار علىٰ ذلك كأن الدين ليس به إلا هذا الكتاب المختصر في الأحكام، وأخشىٰ أن يندرج هذا تحت الذين جعلوا القرآن عضين، فأخذوا بعضًا وتركوا كثيراً من نصوص الأحكام، وتركوا جل ما في سائر كتب السنة من النور والهدىٰ في جميع أبواب الدين، فلو قائل: أقترح أن أختصر القرآن الكريم تسهيلاً علىٰ الناس فما أنتم قائلون له؟!!.

فإنا نعيب علىٰ طلاب العلم الاقتصار عليه أو علىٰ ما هو نحوه كالمحرر مثلاً فيكون غاية طلاب العلم حفظه، وأين هو من **المنتقىٰ** للجد ابن تيمية، وأين هو من **الأحكام الكبرىٰ** أو حتىٰ **الصغرىٰ**، وأعظم من ذلك كله كتاب **سنن أبي داود** فإنه من أعظم كتب الأحكام إن لم نقل أعظمها؟

فعلىٰ طالب العلم ألا يرضىٰ بالدون، وأن يكون عالي الهمة، بصيراً عظيم الأخذ، كثير المحفوظات من النصوص والأدلة فيعلو كعبه في العلم سريعًا لا سيما إذا تفقه فيها، وعرف

معانيها.

فيحرص علىٰ حفظ الجمع بين الصحيحين، أو مختصر صحيح البخاري للعلامة الألباني، وأفراد مسلم وزياداته علىٰ البخاري، وكذا زيادات أبي داود علىٰ الصحيحين، وهكذا زيادات سنن النسائي علىٰ الصحيحين وأبي داود، وهكذا سائر السنن، فيقف علىٰ علم جم، وتكون محفوظاته من السنة عظيمة جليلة.

ومع كتب الأمهات ضبط للروايات، ومعرفة بالزيادات، والألفاظ المختلفة، وفيها علوم أخرىٰ كما ذكروا عن سنن الترمذي، وفيها فقه فريد كما قالوا عن البخاري، فقهه في تراجم كتابه، وفيها ردود علىٰ أقوال ساقطة، أو مرجوحة، وفيها تعظيم للسنة والأثر والانتصار لها، وفيها من تعلق الطلاب بالسنة، والحرص علىٰ الدليل، ومحبة النبي وأصحابه لكثرة الملازمة لهم، والاطلاع علىٰ أقوالهم بل وحفظها فتقع محبتهم في القلوب، فوق كل محبة، واللذة بكلامهم فوق كل لذة، وفيها من الاطلاع علىٰ عمل وفهم السلف للنصوص، والاطلاع علىٰ كم هائل من النصوص والآثار عن السلف فكيف نحرم أنفسنا وطلاب العلم من كل هذا وغيره من الأمور والفضائل التي يعجز القلم عن حصرها.

لماذا يبتعد الناس عن أمهات كتب الحديث والأثر؟

كثيراً ما نجد الترهيب من كتب الحديث من بعض المقلِّدة وأشباههم، وهذا لا غرابة فيه.

لكن الذي يؤسفني وأستغربه أننا وجدنا ذلك عند بعض من ينتسب إلىٰ السلفية!! وأنه يحبذ طريقة المذهب الفقهي ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فاعجب أو ابك علىٰ ما وصل إليه حال الأمة، فنجد من يعظم كتب الرأي (كتب الفقه) أكثر من تعظيمه لكتب الحديث والسنة، ويلزم من ذلك أن يكون معظماً لكلام الناس والمشايخ أكثر من تعظيم الوحي المنزل علىٰ رسول الله ﷺ وهذه والذي لا إله إلا هو لإحدىٰ الكُبَر، ولا يشعر المسكين أنه قد يكون له نصيب من قول الله تعالىٰ: **(وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا)**، وأنا أذكر بعض الأسباب الباعثة علىٰ إبعاد الناس عن الحديث والسنة والأثر.

أولا: لأن هذه الكتب ستصرفه عن قول متبوعه ومقلَّده، وتقضي علىٰ بعض أو كثير مما

تعب في تحصيله برهة من الزمن.

ثانيا: أن قلبه أشرب حب كتب الرأي (كتب الفقه)، فلم يعد له مكان في قلبه يتسع لغيرها.

ثالثًا: إنه يجد وحشة، ولا أريد أن أقول بِغضة في نفسه من الكتب الحديث والأثر، من حيث يشعر أو لا يشعر بسبب نشأته علىٰ كتب الرأي، ولذلك نقول: إذا نشأ علىٰ كتب الحديث عظمها في نفسه وكانت جليلة القدر.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «من آثر كلام الناس وعلومهم علىٰ القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ (مبغض) لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتىٰ إن بعضهم لنسىٰ القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان»(٧٤).

قلت: حتىٰ إن بعضهم يتمنىٰ لو لم يكن قاله رسول الله لأنه مما يخالف ما درسه، وما درج عليه.

رابعًا: ما لقنوه إياه منذ الصغر من ذكر فضائل كتب الرأي (كتب الفقه) وما يزينونه له من بهرج القول في تعظيمها، وأنه بدونها لا يكون عالمًا فقيهًا، ولا يتصور المسائل تصوراً صحيحًا، وأنه إذا أخذ العلم من كتب السنة أنه يتخبط، ويتناقض، ويمشي علىٰ غير أصول ولا هدىٰ، إلىٰ غير ذلك من الهراء، والجدال بالباطل ليدحضوا به الحق.

خامسًا: إنه متىٰ لازم أهل الحديث فسيضعفون له بعض ما بنىٰ عليه فقهه فيصبح صفر اليدين من الحجج مع قلتها عنده.

سادسًا: يظن هؤلاء وكثير من الناس أن كتب الحديث بعيدة كل البعد عن الفقه، وأن الفقه هو هذه الآراء!!

وهذا وهم من قائله، أو جهل بكتب الحديث، فإن الحديث بذاته فقه، وقد سبق أن ذكرنا غير مرة أن النبي ﷺ أطلق علىٰ حديثه لفظ: الفقه فقال: «**رب حامل فقه ليس بفقيه أو إلىٰ من هو أفقه منه**».

وأيضا: فإن كتب الحديث قد صنفت علىٰ أبواب الفقه وكثير من مؤلفيها فقهاء علماء من

---

(٧٤) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٢٦).

أهل الاجتهاد كالبخاري وأبي داود كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أن هؤلاء أئمة من أهل الاجتهاد.

وتراجم هذه الكتب قد اشتملت علىٰ أبواب وتراجم كلها فقه، وأحكام.

هذا غير ما في هذه الكتب من سنن وفرائض وأحكام وفضائل ومكارم أخلاق، وحلال وحرام لم تذكر في كتب الرأي (كتب الفقه)، مع ما في ذلك من السلاسة والسهولة، والنور والهدىٰ.

وأيضـًا طريقة العرض فيها للدين طريقة فريدة جداً تفتتح كل حكم فيها بالصلاة علىٰ النبي ﷺ، فقول الصحابي قبل ذكر الحديث: قال رسول الله ﷺ، فيه من الرقة والأجر، وقوة الحجة، وسلاسة العبارة، والتلطف في الأمر كطريقة القرآن، يفتتح الأمر أو النهي بيا أيها الذين آمنوا، كما يفتتح النبي ﷺ قوله مثلاً: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ...

ونحو ذلك من التلطف في الأمر أو النهي، وتختتم الآية بترغيب أو ترهيب أو بهما معـًا.

وكذلك الحديث إما أن يكون فيه ترغيب أو ترهيب أو بيان فضل، أو عمل من الصحابي، أو فعل من النبي ﷺ الذي فيه التأسي والاقتداء، أو وعد أو وعيد، أو إنكار وزجر، أو استحسان وثناء علىٰ من فعل ذلك أو غير ذلك مما يطول ذكره.

وهذا بخلاف كتب المذاهب التي اشتملت علىٰ الأحكام مجردة، افعل ولا تفعل، يحرم، ويجب، لا سيما المتون المجردة عن الأدلة، أو قليلة الأدلة، والمهم فيها ذكر المذهب، أو الرواية أو الوجه، أو هذا قول أصحابنا، أو قول فلان من أصحابنا أو ...إلخ

وقد يظن بعضهم أن الشريعة والنصوص لا تفي بمتطلبات الناس، ولا تكفي لحاجة الأمة، ولم تفصل النزاع في كثير من المسائل، وهذا ظن فاسد، ومخالف للكتاب والسنة وفيما يأتي رد علىٰ هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

الطريقة الوحيدة الكفيلة بأن تخرج علماء من أهل الاجتهاد هي:

الطريقة السلفية

فعلىٰ المسلمين أن يعودوا إلىٰ كتاب ربهم دراسة وفهماً وتدبراً وعملاً، وكذا السنة المباركة وأن يعتنوا بها دراسة وحفظاً وتفقهاً وفهماً واستنباطاً وعملاً ودعوةً كي يعود الناس إلىٰ دينهم الحق، وأن يعملوا بشريعة ربهم الأعلىٰ، فإن كثيراً من النصوص ليست مشهورة بين الخواص فضلاً عن العوام، والقرآن قد هجر تفسيره، والسنة قد هجرت قراءتها ودراستها إلا من فئة قليلة والتفقه في الدين هو أن يكون يتفقه في الكتاب والسنة، وفي جميع أبواب الدين وليس في موضوع واحد وهو الأحكام فحسب.

مع تحصيل شيء من علوم الآلة، التي يستعين بها علىٰ فهم مراد الله ورسوله، ويتحرر من المذهبية، ويكون الحق بغيته، مع الاستعانة بالله، وليثور القرآن، ويعتني بتفسيره، ويتخير المشايخ الذين يدرس عليهم الكتاب والسنة.

وانظروا هذا المنهج الذي رسمه لنا الأئمة قال ابن أبي العز: «الواجب علىٰ من طلب العلم النافع أن يحفظ كتاب الله ويتدبره، وكذلك من السنة ما تيسر له، وطلع منها ويتروىٰ، ويأخذ معه من اللغة والنحو ما يصلح به كلامه، ويستعين به علىٰ فهم الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح في معانيها، ثم ينظر في كلام عامة العلماء من الصحابة، ثم من بعدهم ما تيسر له من ذلك من غير تخصيص، فما اجتمعوا عليه لا يتعداه، وما اختلفوا فيه نظر في أدلتهم بغير هوىٰ ولا عصبية، ثم بعد ذلك، ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾(الكهف/ ١٧)(٧٥).

وقال أبوعمر ابن عبدالبر: «فأول العلم: "حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه، وكل ما يعين علىٰ فهمه فواجب طلبه معه، ولا أقول: إن حفظه كله فرض، ولكن أقول: إن ذلك واجب لازم علىٰ من أحب أن يكون عالماً ليس من باب الفرض».

وقال: «القرآن أصل العلم فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلىٰ ما يستعين به علىٰ فهمه من لسان العرب كان له ذلك عونا كبيرًا علىٰ مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ، ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف علىٰ اختلاف العلماء واتفاقهم في

---

(٧٥) رسالة: الاتباع لابن أبي العز (ص٨٨).

ذلك، وهو أمر قريب علىٰ من قربه الله عليه.

ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فيها يصل الطالب إلىٰ مراد الله -جل وعز- في كتابه، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحاً.

ومما يستعان به علىٰ فهم الحديث ما ذكرناه من العون علىٰ كتاب الله وهو العلم بلسان العرب ومواقع كلامها وسعة لغتها واستعارتها ومجازها وعموم لفظ مخاطبتها وخصوصه وسائر مذاهبها لمن قدر، فهو شيء لا يستغنىٰ عنه.

ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم ﷺ، ويعني بسيرهم وفضائلهم، ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم حتىٰ يقف علىٰ العدول منهم من غير العدول، وهو أمر قريب كله علىٰ من اجتهد....

ومن طلب الإمامة في الدين وأحب أن يسلك سبيل الذين جاز لهم الفتيا نظر في أقاويل الصحابة والتابعين والأئمة في الفقه إن قدر علىٰ ذلك، نأمره بذلك كما أمرناه بالنظر في أقاويلهم في تفسير القرآن»[٧٦].

---

(٧٦) وإن أحب الإشراف علىٰ مذاهب الفقهاء متقدميهم ومتأخريهم بالحجاز والعراق وأحب الوقوف علىٰ ما أخذوا وتركوا من السنن، وما اختلفوا في تثبيته وتأويله من الكتاب والسنة كان ذلك له مباحاً ووجهاً محموداً إن فهم وضبط ما علم أو سلم من التخليط نال درجة رفيعة، ووصل إلىٰ جسيم من العلم واتسع ونبل إذا فهم ما اطلع، وبهذا يحصل الرسوخ لمن فقهه الله وصبر علىٰ هذا الشأن واستحلىٰ مرارته واحتمل ضيق المعيشة فيه.

واعلم -رحمك الله- أن طلب العلم في زماننا هذا وفي بلدنا قد حاد أهله عن طريق سلفهم وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم:

فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه قد رضيت بالدؤوب في جمع ما لا تفهم، وقنعت بالجهل في حمل ما لا تعلم، فجمعوا الغث والثمين، والصحيح والسقيم، والحق والكذب في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة، ويدينون بالشيء وضده، ولا يعرفون ما في ذلك عليهم، قد شغلوا أنفسهم بالاستكثار عن التدبر والاعتبار، فألسنتهم تروي العلم وقلوبهم قد خلت من الفهم. غاية أحدهم معرفة الكتب الغريبة والاسم الغريب، أو الحديث المنكر، وتجده قد جهل ما لا يكاد يسع أحداً جهله من علم صلاته وحجه وصيامه وزكاته.

وطائفة هي في الجهل كتلك أو أشد لم يعنوا بحفظ سنة ولا الوقوف علىٰ معانيها ولا بأصل من القرآن ولا اعتنوا بكتاب الله -جل وعز- فحفظوا تنزيله، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله (أي تفسيره)، ولا وقفوا علىٰ أحكامه، ولا تفقهوا في حلاله وحرامه، قد اطرحوا علم السنن والآثار وزهدوا فيهما، وأضربوا عنهما؛ فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرقوا بين التنازع والائتلاف.

بل عوَّلوا علىٰ حفظ ما دُوِّن لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان، وكان الأئمة يبكون علىٰ ما سلف وسبق لهم فيه، ويودون أن حظهم السلامة منه.

ومن حجة هذه الطائفة فيما عوَّلوا عليه من ذلك أنهم يقصِّرون وينزلون عن مراتب من له القول في الدين لجهلهم بأصوله، وأنهم مع الحاجة إليهم لا يستغنون عن أجوبة الناس في مسائلهم وأحكامهم، فلذلك اعتمدوا علىٰ ما قد كفاهم الجواب فيه غيرهم.

وهم مع ذلك لا ينفكون من ورود النوازل عليهم فيما لم يتقدمهم فيه إلىٰ الجواب غيرهم، فهم يقيسون علىٰ ما حفظوا من تلك المسائل، ويفرضون الأحكام فيها، ويستدلون منها ويتركون طريق الاستدلال من حيث استدل الأئمة وعلماء الأمة، فجعلوا ما يحتاج أن يستدل عليه دليلاً علىٰ غيره، ولو علموا أصول الدين وطرق الأحكام وحفظوا السنن كان ذلك قوة لهم علىٰ ما ينزل بهم، ولكنهم جهلوا ذلك فعادوه وعادوا صاحبه.

فهم يفرطون في انتقاص الطائفة الأولىٰ وتجهيلها وعيبها، وتلك تعيب هذه بضروب من العيب، وكلهم يتجاوز الحد في الذم، وعند كل واحد من الطائفتين خير كثير وعلم كبير.

أما أولئك فكالخزان الصيدلانيين، وهؤلاء في جهل معاني ما حملوه مثلهم إلا أنهم كالمعالجين بأيديهم لعلل لا يقفون علىٰ حقيقة الداء المولد لها، ولا علىٰ حقيقة طبيعة الدواء المعالج به، فأولئك أقرب إلىٰ السلامة في العاجل والآجل، وهؤلاء أكثر فائدة في العاجل وأكبر غرورا في الآجل، وإلىٰ الله نفزع في التوفيق لما يقرب من رضاه ويوجب السلامة من سخطه، فإنما يُنال ذلك برحمته وفضله.

واعلم يا أخي أن المفرد في حفظ المولدات لا يؤمن عليه الجهل بكثير من السنن إذا لم يكن تقدم علمه بها وإن المفرد في حفظ طرق الآثار دون الوقوف علىٰ معانيها وما قال الفقهاء فيها لصفرٌ من العلم وكلاهما قانع بالشم من المطعم، ومن الله التوفيق والحرمان وهو حسبي وبه أعتصم.

واعلم يا أخي أن الفروع لا حد لها تنتهي إليه أبداً، ولذلك تشعبت، فمن رام أن يحيط بآراء الرجال فقد رام ما لا سبيل له ولا لغيره إليه؛ لأنه لا يزال يرد عليه ما لا يسمع، ولعله أن يُنسىٰ أول ذلك بآخره لكثرته، فيحتاج أن يرجع إلىٰ الاستنباط الذي كان يفزعُ منه، ويجبن عنه تورعـًا -بزعمه- أن غيره كان أدرىٰ بطريق الاستنباط منه، فلذلك عوَّل علىٰ حفظ قوله.

وقال **الشيخ الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال **الشيخ الخضري**: " فبعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولاً بدراسة الكتاب، ورواية السنة اللذَيْن هما أساس الاستنباط، صار في هذا الدور يتلقىٰ كتب إمام معين، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دوَّنه من الأحكام، فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء" .

قلت (أي الألباني): ومما لا شك فيه عند غير المتعصب أن هذه الطريقة السلفية هي وحدها الكفيلة بإخراج العلماء الفقهاء حقيقة، كيف لا؟ والإمام مالك يقول: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"»(٧٧).

وقال الشيخ العلامة محمد أمان الجامي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجوز أبداً لمن يؤمن بالله ورسوله أن يقدم كلام أي أحد علىٰ كلام الله وكلام رسوله لا في باب العقيدة فقط، بل حتىٰ في باب الأحكام والفقهيات، اعتقاد أن الناس يصلون للحق في أصول الدين وفروعه بدون طريق الله ورسوله، وربما يستصعبون الحق في كلام الله وكلام رسوله بدعوىٰ أن هذا كلام عظيم ينبغي أن يُبدأ بكلام غيره، هذا تعليل سيء، كلمة حق أُريد بها الباطل» يأتي كلامه.

فمن تعظيم الوحيين ألا نقدم شيئًا عليهما في التعلم، فلا نبدأ بكتاب قبل كتاب الله، ولا نتعلم أقوالاً قبل أقوال وأفعال رسول الله ﷺ، فإن النور والهدىٰ والحق كله فيهما، والصواب والعصمة فيهما، بخلاف المذاهب ففيها حق وباطل، وخطأ وصواب، لذلك كان ﷺ يفتتح خطبه كلها بقوله: «**إن خير الكلام كلام الله، وخير الهدىٰ هدىٰ محمد** ﷺ».

قلت: فلا نقدم متنًا ولا قولاً لأحد قبل قول الله عزوجل، ولا قول رسوله ﷺ ولا فوقه، ولا يعلوه وتجعل النصوص في الحواشي أسفل في مصنف من المصنفات لتأييد الرأي أو المذهب، إلا أن يكون ترجمة ومن باب التبويب لأجل أن تفهرس المسائل، ويسهل الوصول إليها.

هل يمكن أن يصبح الرجل فقيهـًا دون دراسة كتب الرأي أم لا؟

ثم إن الأيام تضطره إلىٰ الاستنباط مع جهله بالأصول فجعل الرأيَ أصلاً واستنبط عليه.ا-هـ (صحيح جامع بيان العلم/ ص).

(٧٧) مجلة المسلمون نقلاً عن "مقالات الشيخ الألباني" (ص٣٢).

مما لا شك فيه عند كل منصف عاقل أن السلف جميعاً والأئمة الأربعة وغيرهم كثير صاروا أئمة هدىٰ، وأهل اجتهاد في العلم والفتوىٰ ولم يدرسوا هذه المتون الفقهية، وكتب الرأي، وكلام فلان وفلان، ذلك أن الله تعالىٰ أنزل كتابه، وأرسل رسوله وجعل العلم والهدىٰ في كتاب الله وسنة رسوله فحسب، وفيهما الكفاية والغنية، قال سبحانه: ﴿**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلىٰ عليهم**﴾()، ولعل السبب الأكبر الذي جعلهم من أهل الاجتهاد في العلم، هو تفقههم في كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأخذهم العلم بالطريقة السلفية التي ذكرناها قبل هذا الباب.

وقد علق شيخنا العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ حديث: «و ليسرىٰ علىٰ كتاب الله عز و جل في ليلة فلا يبقىٰ في الأرض منه آية».

قال: «في الحديث إشارة إلىٰ عظمة القرآن، و أن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء دينهم ورسوخ بنيانه وما ذلك إلا بتدارسه و تدبره و تفهمه، ولذلك تعهد الله تبارك و تعالىٰ بحفظه، إلىٰ أن يأذن الله برفعه، **فما أبعد ضلال بعض المقلدة الذين يذهبون إلىٰ أن الدين محفوظ بالمذاهب الأربعة، و أنه لا ضير علىٰ المسلمين من ضياع قرآنهم لو فرض وقوع ذلك!!** هذا ما كان صرح لي به أحد كبار المفتين من الأعاجم وهو يتكلم العربية الفصحىٰ بطلاقة و ذلك لما جرىٰ الحديث بيني و بينه حول الاجتهاد و التقليد»(٧٨).

ولا شك أن الله تعالىٰ تكفل بحفظ كتابه وسنة نبيه إلىٰ قيام الساعة، حجة علىٰ العباد، ولما فيهما من الغنية والكفاية، والهدىٰ والنور والرحمة بالخلق، فيكفينا ما كفىٰ القوم، وما أوجبه الله عليهم هو نفس ما أوجبه علىٰ من بعدهم، وهكذا إلىٰ يوم القيامة، قال **العلامة ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**والذي أَوْجَبَهُ اللهُ سبحانه وفَرَضَهُ علىٰ الصحابة مِن تلقي العلم والهدىٰ من القرآن والسنة دون غيرهما هو بعينه واجبٌ علىٰ من بعدهم، وهو مُحْكَمٌ لم ينسخ ولا يتطرق إليه النسخ حتىٰ ينسخَ اللهُ العالمَ أو يطوي الدنيا**»(٧٩).

وتكفَّل الله بالهدىٰ والخير لمن تمسك بالكتاب والسنة دون غيرهما، فقد قال ﷺ: «**لن**

---

(٧٨) الصحيحة (١/ ٨٦).

(٧٩) سبق نقله عنه من إعلام الموقعين.

تضلوا ما إن تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه»(٨٠).

قال الشيخ العلامة **محمد أمان الجامي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مما ينبغي التنبيه عليه بالنسبة لطلاب العلم، [أنَّه] فلتكن دراسة الفقه علىٰ هذه الطريقة التي سلكها هذا المؤلف (محمَّد بن عَبدالوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ) ، أي تختار من كتب الفقه، من جميع المذاهب، الكتاب الذي يذكر الحكم ويذكر الدليل.

وأمَّا إذا أخذت كتاباً يسرد الآراء من ألفه إلىٰ يائه، لا تجد فيه: قال الله، أو قال رسول الله ﷺ، [بل تجد]: هكذا المذهب، هكذا قال الأصحاب، هذا المشهور، هذا المعروف.. حتىٰ تنتهي من الكتاب، مثل هذا الكتاب لا يُخرجك من الجهل أبداً، تبقىٰ جاهلاً، الكتاب الذي يخرجك من الجهل في الفقهيات، الكتاب الذي يذكر الحكم ويذكر الدليل، قد يكون مختصراً كهذا الكتاب (يعني: آداب المشي إلىٰ المساجد)، لكن يفتح لك الأبواب، تذهب تبحث من حيث تصحيح الأدلة والتوَّسع، مثل هذا الكتاب هو الذي ينبغي أن يُرَبَّىٰ عليه صغار الطلبة، صغار طلبة العلم، ثم ينتقلون فيختارون كتاباً مثله أو قريباً منه في الفقهيات، إذا أرادوا أن يدرسوا كتب الفقه؛ **وفي الإمكان الاستغناء عن دراسة كتب الفقه بدراسة أحاديث الأحكام، كالأحاديث التي اشتملت عليها «عمدة الأحكام»، أحاديث متفق عليها -أو جُلُّهَا-، وقد ينفرد بها البخاري أو مسلم، أي لا تخرج أحاديث عمدة الأحكام من الصحيحين، إمَّا متفق عليها، أو ينفرد بها البخاري أحياناً، ومسلم أحياناً، ثم «بلوغ المرام»، لأنَّ الحافظ قد بين الحديث المعلول والضعيف، أحكام تؤخذ من السنة، ثُمَّ «المنتقىٰ»: من أوسع المتون الجامعة لأحاديث الصحيحين وغيرهما، من درس هذه الكتب، مع الاتصال بالشروح، يتخرج فقيهاً متضلعاً في المذاهب الأربعة وغير الأربعة، لأنَّ المذاهب ليست هي الأربعة فقط، المذاهب كثيرة، مذاهب أهل العلم كثيرة، وأئمة المسلمين الذين بلغوا درجة الإمامة كثيرون»**.

---

(٨٠).

فقهاء أهل الحديث

وقال أيضًا: «زَعَمَ (أي: بعضهم) أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، وَرُعَاةُ اللَّيْلِ يَجْمَعُونَ مَا لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَيَرْوُونَ مَا لَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ بِمَا يُبْطِلُهُ الْإِسْلَامُ جَهْلًا مِنْهُ لِمَعَانِي الْأَخْبَارِ، وَتَرْكَ التَّفَقُّهِ فِي الْآثَارِ مُعْتَمِدًا مِنْهُ عَلَىٰ رَأْيِهِ الْمَنْكُوسِ وَقِيَاسِهِ الْمَعْكُوسِ» صحيح ابن حبان (١٤/ ١١٦). ورد كثيراً علىٰ من خالف أصحاب الحديث والأثر.

ومما يعلم تحامل أهل الرأي علىٰ أهل الحديث ما روي عن ابن نمير قال: «كنت عند وكيع، فجاءه رجل، أو قال: جماعة من أصحاب أبي حنيفة، فقالوا له: ها هنا رجل بغدادي يتكلم في بعض الكوفيين، فلم يعرفه وكيع.

فبينا نحن إذ طلع أحمد بن حنبل فقالوا: هذا هو.

فقال وكيع: ها هنا يا أبا عبدالله، فأفرجوا له، فجعلوا يذكرون عن أبي عبدالله، الذي ينكرون، وجعل أبوعبدالله، يحتجُّ بالأحاديث عن النبي ﷺ.

فقالوا لوكيع: هذا بحضرتك ترىٰ ما يقول؟.

فقال: رجل يقول: قال رسول الله، أيش أقول له؟!

ثم قال: ليس القول إلا كما قلتَ يا أباعبدالله.

فقال القوم لوكيع: خدعك والله البغدادي»(٨١).

قال أبونعيم: حَدَّثَنَا أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَاعَبْدِالرَّحْمَنِ ابْنِ أَحْمَدَ بن حنبل، يَقُولُ: حَضَرَ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فِي مَجْلِسِ أَبِي عَاصِمِ الضَّحَّاكِ بْنِ مَخْلَدٍ، فَقَالَ لَهُمْ: «**أَلَا تَتَفَقَّهُونَ، وَلَيْسَ فِيكُمْ فَقِيهٌ؟**» وَجَعَلَ يَذُمُّهُمْ فَقَالُوا: فِينَا رَجُلٌ، فَقَالَ: «مَنْ هُوَ؟» فَقُلْنَا: السَّاعَةَ يَجِيءُ فَلَمَّا جَاءَ أَبِي قَالُوا: قَدْ جَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: «تَقَدَّمْ». فَقَالَ: أَكْرَهُ أَنْ أَتَخَطَّىٰ النَّاسَ.

فَقَالَ أَبُوعَاصِمٍ: «هَذَا مِنْ فِقْهِهِ»، وَأَخَذَهُ، فَقَالَ: «وَسِّعُوا لَهُ»، فَوَسَّعُوا، فَدَخَلَ، فَأَجْلَسَهُ

---

(٨١) السير (١١/ ١٨٦).

بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَلْقَىٰ إِلَيْهِ مَسْأَلَةً، فَأَجَابَ، وَأَلْقَىٰ ثَانِيَةً، فَأَجَابَ، وَثَالِثَةً، فَأَجَابَ وَمَسَائِلَ فَأَجَابَ. فَقَالَ أَبُوعَاصِمٍ: «هَذَا مِنْ دَوَابِّ البَحْرِ»(٨٢).

وقال **الإمام ابن عقيل** الحنبلي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: «ومن عجيب ما تسمعه من هؤلاء الأحداث الجهّال أنهم يقولون: أحمد **ليس بفقيه لكنه محدِّث**، وهذا غاية في الجهل لأنه قد خرج عنه اختيارات بناها علىٰ الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما لا تراه لأحد منهم. وذكر مسائل من كلام أحمد، ثم قال: **وما يقصد هذا إلا** مبتدع، قد تمزق فؤاده من خمود كلمته، وانتشار علم أحمد»(٨٣).

الحديث والسنة هي: الفقه كله:

إن تسمية الحديث بالفقه، أول من أطلق هذا عليه هو: النبي ﷺ، **فقد** أطلق علىٰ حديثه ذلك، في قوله ﷺ: «**رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**». فهذا يدل علىٰ أن حافظ الكتاب والسنة، حافظاً لفقه، وأنه لعله يؤديه إلىٰ من هو أفقه منه، فيتفقه فيه، كما أطلق العلماء عليه هذا الاسم ويطلق علىٰ الكتاب والسنة، وعن محمد بن عبدالوهاب قال: قلت **لعلي بن عثام**: "رجل يقول ليس في حديث رسول الله ﷺ فقه، فقال: هذا فاجر فأين الفقه،؟ وأين الخير إلا فيه؟!!(٨٤).

فالمحدث فقيه، ولا يتصور في المحدِّث إلا أن يكون فقيهـاً.

---

(٨٢) الحلية (٩/ ١٦٥).

(٨٣) مناقب أحمد لابن الجوزي (ص٦٤)، ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ١١٨)،
أذكر للعبرة وللرد علىٰ مخالفي أهل الحديث، ولبيان فضل أحمد ومكانته، ومنْزلته عند أهل العلم الذين هم أهله صدقـاً وحقـاً، قال **ابن راهويه الإمام المجتهد**: كنت أُجالس أحمد وابن معين، ونتذاكر فأقول: ما فقهه؟ ما تفسيره؟ فيسكتون إلا أحمد" (السير١١/ ١٨٨).
كان **يحيىٰ بن آدم** واحد زمانه في الفقه: وكان يقول: "أحمد بن حنبل إمامنا" (السير١١/ ١٨٩).
وقال **عبد الرزاق شيخ أحمد عنه**: "ما رأيتُ أحداً أفقهَ ولا أورعَ من أحمدَ بنِ حنبل". (السير١١/ ١٩٥).
وقال إبراهيم الحربي: أحمد **ألقىٰ في قلوبنا منذ كنا غلمانـاً اتباع حديث النبي** ﷺ، وأقاويل الصحابة والاقتداء بالتابعين. قلت: هنيئـاً لمن وفقه الله لمثل هذا الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يدلهم علىٰ السلفية.
(٨٤) ذم الكلام وأهله (٢/ ٧١).

قال **الإمام وكيع بن الجراح**: «لقيني أبوحنيفة، فقال لي: لو تركتَ كتابةَ الحديث وتفقَّهت، أليس كان خيراً؟. قلت: أفليس الحديث يجمع الفقه كله؟.

قال ما تقول في امرأة ادّعت الحمل، وأنكر الزوجُ؟.

فقلت له: حدثني عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لاعن بالحمل، فتركني، فكان بعد ذلك إذا رآني في طريق يأخذ في آخر»(٨٥).

قال بعضهم:

عليكم بالحديث فليس شيء . .. يعادله علىٰ كل الجهات
نصحت لكم فإن الدين نصح .. . ولا أخفي (نصائح) واجبات
وجدنا في الرواية كلَّ فقه ... وأحكام ومن (كل) اللغات
(لذكر المسندات جعلتُ حفظي) ... وحفظ العلم خير العائدات
أئمته النجوم وهل رشيد . .. تكلم في النجوم الزاهرات

ما الفرق بين كتب الحديث وكتب الفقه؟!

قد يفرق بعضهم بين كتب السنة والحديث وبين كتب الفقه بأن يقول: كتب الحديث تعنىٰ بجمع الأحاديث فحسب، ولا فقه فيها، ولكن كتب الفقه هي التي تعنىٰ بمسائل الأحكام، وفروع العلم، والفقه كله فيها، حتىٰ غلا بعضهم وجعلها كافية للأمة في جميع شئونها، وأنها تغني عن الكتاب والسنة، وأن القرآن والحديث -إن قدر- بأن رفعا من الأمة فإن المسلمين يجدون كفايتهم وحاجتهم في كتب المذاهب الفقهية(٨٦)!!

---

(٨٥) **صحيح**: الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦١-ح٧٨٧).

(٨٦) قال شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً علىٰ حديث: «وليسرىٰ علىٰ كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقىٰ في الأرض منه آية ...».

قال: وفي الحديث إشارة إلىٰ عظمة القرآن، وأن وجوده بين المسلمين هو السبب لبقاء دينهم ورسوخ بنيانه وما ذلك إلا بتدارسه وتدبره وتفهمه ولذلك تعهد الله تبارك وتعالىٰ بحفظه، إلىٰ أن يأذن الله برفعه.

فما أبعد ضلال بعض المقلدة **الذين يذهبون إلىٰ أن الدين محفوظ بالمذاهب الأربعة، وأنه لا ضير علىٰ المسلمين من ضياع قرآنهم لو فرض وقوع ذلك!!** هذا ما كان صرَّح لي به أحد كبار المفتين من الأعاجم وهو يتكلم العربية الفصحىٰ بطلاقة وذلك لما جرىٰ الحديث بيني وبينه حول الاجتهاد والتقليد.

ونحن نقول: هذا من الغلو، والجهل بمعرفة قيمة الكتاب والسنة، من جهة، ولأنهم أغلقوا باب الاجتهاد علىٰ أنفسهم وغيرهم؛ فلم يعودوا ينظرون فيهما نظر فهم واستنباط، ومن جهة أخرىٰ فإنهم يعظمون كتب الرأي التي يسمونها (كتب الفقه)، ويتدينون بها، ويُكْبِرونها، فلا يكادون يلتفتون إلىٰ كتاب ربهم، ولا سنة نبيهم، والله يقول: (**أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلىٰ عليهم**)، ففي كتاب الله الكفاية والغُنية، وليس في شيء من الكتب غنية عن كتاب الله، وكذا في السنة الكفاية والنور والهدىٰ والغنية والبركة، والعصمة، وليس في شيء من غيرها غنىٰ عنها.

ثم إن في كتب السنة من السنن، والأحاديث الكثيرة التي ليست في كتب الرأي التي تدعىٰ (كتب الفقه).

وسيأتي الكلام علي كتب الحديث والسنة قريباً وبيان فضلها إن شاء الله.

قال **ابن رجب** _ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ _: "إن الله تعالىٰ حفظ هذه الشريعة بما جعل لها من الحملة: أهل الدراية وأهل الرواية.

فكان الطالب للعلم والإيمان يتلقىٰ ذلك مِّمن يدركه من شيوخ العلم والإيمان؛ فيتعلم [الطالب]: القرآن والحديث مِمَّن يعلم ذلك، ويتعلم الفقه في الدين من شرائع الإسلام الظاهرة وحقائق الإيمان الباطنة مِمَّن يعلم ذلك.

وكان الأغلب علىٰ القرون الفاضلة جمع ذلك كله؛ فإن الصحابة تلقوا عن النبي ﷺ جميع ذلك، وتلقاه عنهم التابعون، وتلقىٰ عن التابعين تابعوهم، فكان الدين حينئذٍ مُجتمعاً.

ولَم يكن قد ظهر الفرق بين مسمىٰ الفقهاء وأهل الحديث، ولا بين علماء الأصول والفروع، ولا بين الصوفي والفقير والزاهد، وإنَّما انتشرت هذه الفروق بعد القرون الثلاثة، وإنَّما

والحقيقة أن هذا الجواب الذي حصلنا عليه من المفتي بطريق المحاورة، هو جواب كل مقلِّد علىٰ وجه الأرض، وإنما الفرق أن بعضهم لا يجرؤ علىٰ التصريح به، وإن كان قلبه قد انطوىٰ عليه. نعوذ بالله من الخذلان.

فتأمل أيها القارىء اللبيب مبلغ ضرر ما نشكو منه، لقد جعلوا القرآن في حكم المرفوع، وهو لا يزال بين ظهرانينا والحمد لله، فكيف يكون حالهم حين يسرىٰ عليه في ليلة، فلا يبقىٰ في الأرض منه آية؟! فاللهم هداك. (الصحيحة١/ ١٧٣).

كان السلف يسمون أهل العلم والدين: القراء، ويقولون: يقرأ الرجل؛ إذا تنسك"[٨٧].

والعجيب من بعضهم أنهم يقللون من شأن كتب الحديث، ويرهبون منها، وجل ما عندهم من أدلة قد أخذوها منها، وهم عيال عليها، فأهل الحديث لهم الفضل والمنة علىٰ عموم الأمة.

هذا ويظن هؤلاء وكثير من الناس أن كتب الحديث بعيدة كل البعد عن الفقه، وأن الفقه هو هذه الآراء!!

وهذا وهم من قائله، أو جهل بكتب الحديث، فإن الحديث بذاته فقه، فالنبي ﷺ أطلق علىٰ حديثه لفظ: الفقه فقال: «**رب حامل فقه ليس بفقيه أو إلىٰ من هو أفقه منه**».

وأيضا: فإن كتب الحديث قد صنفت علىٰ أبواب الفقه وكثير من مؤلفيها فقهاء علماء من أهل الاجتهاد كالبخاري وأبي داود كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أن هؤلاء أئمة من أهل الاجتهاد.

وتراجم هذه الكتب قد اشتملت علىٰ أبواب كلها فقه، وأحكام، ولذا قد يكررون الحديث فيها مرات بل وعشرات، لأنهم يستنبطون منه أحكاماً كثيرة.

هذا غير أنها شاملة ولذا تجد في هذه الكتب من السنن والفرائض والأحكام والفضائل ومكارم أخلاق، والحلال والحرام ما لم يذكر في كتب الرأي، مع ما في ذلك من السلاسة والسهولة، والنور والهدىٰ، بل والسنن المهجورة، وكثرة الصلاة علىٰ النبي ﷺ، وكثرة الأدلة والنصوص في المسألة الواحدة.

وأيضاً طريقة العرض فيها للدين طريقة فريدة جداً تفتتح كل حكم فيها بالصلاة علىٰ النبي ﷺ، فقول الصحابي قبل ذكر الحديث: قال رسول الله ﷺ، فيه من الرقة والأجر، وقوة الحجة، وسلاسة العبارة، والتلطف في الأمر كطريقة القرآن، يفتتح الأمر أو النهي بيا أيها الذين آمنوا، كما يفتتح النبي ﷺ قوله مثلاً: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ...

ونحو ذلك من التلطف في الأمر أو النهي، وتختتم الآية بترغيب أو ترهيب أو بهما معاً.

وكذلك الحديث إما أن يكون فيه ترغيب أو ترهيب أو بيان فضل، أو عمل من الصحابي،

---

(٨٧) الانتصار لأهل الحديث (٨٦ وما بعدها).

أو فعل من النبي ﷺ الذي فيه التأسي والاقتداء، أو وعد أو وعيد، أو إنكار وزجر، أو استحسان وثناء علىٰ من فعل ذلك أو غير ذلك مما يطول ذكره.

وهذا بخلاف الكتب المذهبية، وما يسمىٰ بالمتون الفقهية التي اشتملت علىٰ الأحكام مجردة، افعل ولا تفعل، يحرم، ويجب، لا سيما المتون المجردة عن الأدلة، أو قليلة الأدلة، والمهم فيها ذكر المذهب، أو الرواية أو الوجه، أو هذا قول أصحابنا، أو قول فلان من أصحابنا أو ...إلخ

هل يستفاد من كتب الفروع، وما يسمىٰ بـــــ(كتب الفقه)؟

الجواب: نعم يستفاد منها، وإن كان بعضهم غلا وتنطع، وذمها ذما مطلقـًا، وبعضهم أمر بإحراقها(٨٨)، فنحن نعوذ بالله من ذلك، بل هي جهود مشكورة لا سيما كتب وعلم المتقدمين من الأئمة المجتهدين، من أصحاب المذاهب المشهورة وغير المشهورة، والمتقدمين من أصحابهم، ويستفاد أكثر ما يستفاد من الكتب الكبيرة منها الذي يعنىٰ بالدليل، والترجيح كالمجموع للنووي، والمغني لابن قدامة المقدسي رحمهم الله.

فمن الغلو الذي لا نرضاه ما ذكر عن **العلامة فقيه المغرب، أبوعثمان بن الحداد الافريقي المالكي، سعيد بن محمد بن صبيح**، أخذ عن سحنون وغيره، وبرع في العربية والنظر، ومال إلىٰ

---

(٨٨) في ولاية أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وهو يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن بن علي، يكنىٰ أبا يوسف، بويع له في حياة أبيه بأمره بذلك. وكانت سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة؛ فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلىٰ أن توفي في شهر صفر الكائن في سنة ٥٩٥، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا، وتوفي وله من العمر ثمانٍ وأربعون سنة

قال في المعجب في "تلخيص أخبار المغرب" (ص: ٢٠٢): «وانتشر في أيامه أهل علم الحديث صِيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس. ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة.

وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدوَّنة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها.

لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتىٰ منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار. **وتقدم إلىٰ الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد علىٰ ذلك بالعقوبة الشديدة"**..

مذهب الشافعي، وأخذ يسمىٰ المدونة المدودة[٨٩]، فهجره المالكية، ثم أحبوه لما قام علىٰ أبي عبد الله الشيعي وناظره ونصر السنة. "العبر في خبر من غبر" (١/ ٤٤٣).

ولا شك أننا ننكر هذه الطريقة، بل يستفاد من هذه الكتب، ولكن لا تقدم لا في الدراسة، ولا التدريس، ولا العمل علىٰ الكتاب والسنة، ولا تدرس علىٰ أنها أصل يتعبد بما فيها، وسيأتي بيان لهذا إن شاء الله.

فنعوذ بالله من الفتن، والانحراف عن الكتاب والسنة، والغلو هو الذي أوجد مثل هذا، والغلو في الطرف الآخر، فلا تفريط، ولا إفراط، قال الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وهذا الغلو أوجد هذه الحروب بين المدرستين، ولو أن كل واحد توسط فاعتمد علىٰ السنة والحديث، وانتفع بما كتبه الفقهاء لكان في هذا خير كثير، وسعة وألفة ومحبة ومودة بين المسلمين.

متىٰ يصح قراءة كتب الرأي والتي تدعىٰ (كتب الفقه) والانتفاع بها، والإفادة منها؟

قال **ابن القيم**: «وإنما كره أحمد ذلك ومنع منه لما فيه من الاشتغال به والإعراض عن القرآن والسنة فإذا كانت الكتب متضمنة لنصر القرآن والسنة الذب عنهما في إبطال الآراء والمذاهب المخالفة لهما فلا بأس بها وقد تكون واجبة ومستحبة ومباحة بحسب اقتضاء الحال والله أعلم»[٩٠].

وقد يظن ظان أنا نأمر بعدم القراءة في كتب المذاهب، أو أننا نأمر بحرقها، وعدم الإفادة منها، فنقول: هذا وهم من قائله، فنحن نفرق بين أن يكون اعتماد التفقه عليها، وبين أن يكون

---

(٨٩) «المدوَّنة»: قال **الذهبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل الْمُدَوَّنَةِ أسئلة سألها أسد بن الفرات لابن القاسم، فلما ارتحل سحنون بها عرضها علىٰ ابن القاسم، فأصلح فيها كثيرًا، وأسقط، ثم رتَّبها سحنون وبوَّبها، واحتجَّ لكثيرٍ من مسائلها بالآثار من مروياته، مع أن فيها أشياء لا ينهض دليلها بل رأي محض، وحكوا أن سحنون في أواخر الأمر علَّم عليها وهمَّ بإسقاطها وتهذيب المدونة، فأدركته المنية رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فكبراءُ المالكية يعرفون تلك المسائلَ ويقرِّرون منها ما قَدَروا عليه، ويُوهنون ما ضَعُف دليلُه». سؤالات السلمي للدارقطني (ص٤٢).

(٩٠) الطرق الحكمية (ص٤٠٢).

الاعتماد في التفقه علىٰ الكتاب والسنة، مع فهمهما بفهم أهل العلم دون أن يكون التأويل لهما حسب المذهب، ودون أن يكون المذهب هو المهيمن والحاكم عليهما، مع الاستنارة بهذه الكتب في فهم الوحيين، فهي بمثابة الكتب الآلية كما قال صاحب (تيسير العزيز الحميد/ ص٥٤٨) ، قال: «**يجوز من ذلك قراءتها علىٰ سبيل الاستعانة بها علىٰ فهم الكتاب والسنة وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية، أما أن تكون هي المقدمة علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلىٰ التحاكم إليها دون التحاكم إلىٰ الله والرسول ﷺ فلا**».

قال **ابن حزم** رَحِمَهُ اللَّهُ: أما **كتب الرأي فاعلموا أنها: لا تحل قراءتها علىٰ معنىٰ تقليد ما فيها، والتديّن به**، ويكفي في هذا قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ (النساء/ ٥٩)، ...إلىٰ أن قال: «وإنما يجوز قراءة كتب الرأي **علىٰ وجه طلب ما أجمع عليه أئمة العلماء فيتبع ويوقف عنده**» . إلىٰ أن قال: « فعلىٰ هذا الوجه يجب قراءة كتب الرأي، فمن قرأها علىٰ هذا أُجِرَ وانتفع بها جداً، وأما من قرأها متديّنا بها غير عارض لها علىٰ القرآن وحديث النبي ﷺ فهو فاسق لعصيانه ما أمر الله تعالىٰ به، ولأنه لم يحكم بما أنزل الله؛ فمن جمع إلىٰ هذا استحلال مخالفة ما روي عن النبي ﷺ، فيما يعتقد صحته عنه ﷺ، لقول أحد دونه واعتقد أن هذا جائز فهو كافر مشرك مرتد عن الديانة منسلخ عن الإسلام حلال الدم والمال، ولا تحسب أني سبقتُ إلىٰ هذا القول فمعاذ الله أن أقول ما لم يقله الله تعالىٰ ورسوله، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾(النساء/ ٦٥).، وأنا أقول: والله ما آمن من حكَّم غير رسوله، ..... وذكر محمد بن نصر عن إسحاق ابن راهويه أنه قال: "من سبّ رسولَ الله ﷺ أو ترك صلاة فرض متعمداً حتىٰ خرج وقتها، بلا عذر، **أو ردَّ حديثًا مسنداً صحيحًا بلغه عن رسول الله ﷺ فهو: كافر مشرك**"»[٩١].

وقراءتها علىٰ وجه آخر وهو شرح النصوص ومعرفة طرق الاستنباط، وتصور المسائل، ذكر **ابن القيم** من الرأي المحمود: "الرأي الذي يفسِّر النصوص، ويبين وجه الدلالة منها، ويقررها، ويوضح محاسنها، ويسهل طريق الاستنباط منها، كما قال عبدان: سمعت **عبدالله بن**

---

(٩١) كتاب: "التلخيص لوجوه التخليص" لابن حزم (ص١٣٣: ١٣٨) بإختصار يسير.

المبارك يقول: "ليكن الذي تعتمد عليه الأثر، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث"[٩٢]. وهذا هو الفهم الذي يختص الله سبحانه به من يشاء من عباده".

وهناك وجه ثالث تُقرأ لأجله كتب الرأي وهو: معرفة القياس، وإرجاع الفروع إلىٰ أصولها، قال **ابن القيم**: (وهو) أن يكون بعد طلب علم الواقعة من القرآن فإن لم يجدها في القرآن ففي السنة، فإن لم يجدها في السنة فبما قضىٰ به الخلفاء الراشدون أو اثنان منهم أو واحد، فإن لم يجده فبما قاله واحد من الصحابة ﷺ فإن لم يجده اجتهد رأيه، ونظر إلىٰ الرأىٰ الذي سوغه الصحابة، واستعملوه وأقر بعضهم بعضاً عليه[٩٣].

وثمة وجه رابع وهو أن تقرأ هذه الكتب لشرح النصوص وبيان وجه الاستدلال منه، ومعرفة المعاني، كما قال ابن المبارك: "ليكن اعتمادك علىٰ الحديث والأثر، وخذ من الرأي ما يفسر لك الحديث".

ينظر ما قاله الفلاني في "إيقاظ همم أولي الأبصار" (ص٨٢)، حول كتب الفروع. وعليه فإن قراءتها مفيدة ونافعة لأجل **معرفة الإجماع والخلاف، والقياس، وتصور المسائل، وشرح النصوص ومعرفة طرق الاستنباط منها**.

وقد يظن ظان أنا نأمر بعدم القراءة في كتب المذاهب، أو أننا نأمر بحرقها، وعدم الإفادة منها، فنقول: هذا وهم من قائله، فنحن نفرق بين أن يكون اعتماد التفقه عليها، وبين أن يكون الاعتماد في التفقه علىٰ الكتاب والسنة، مع فهمهما بفهم أهل العلم دون أن يكون التأويل لهما حسب المذهب، ودون أن يكون المذهب هو المهيمن والحاكم عليهما، مع الاستنارة بهذه الكتب في فهم الوحيين، فهي بمثابة الكتب الآلية .

كما قال صاحب (تيسير العزيز الحميد/ص٥٤٨) قال: «يجوز من ذلك قراءتها علىٰ سبيل الاستعانة بها علىٰ فهم الكتاب والسنة وتصوير المسائل، فتكون من نوع الكتب الآلية، أما أن

---

(٩٢) **صحيح**: ذم الكلام للهروي (رقم٣٣٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (٨/ ١٦٥)، والبيهقي في "المدخل" (٢٤٠)، وابن عبد البر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٧٠،١٠٥٠،١٠٣١)، ، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ١٦٤).

(٩٣) بتصرف يسير إعلام الموقعين (١/ ١١٨:١٢٥).

تكون هي المقدمة علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، الحاكمة بين الناس فيما اختلفوا فيه، المدعو إلىٰ التحاكم إليها دون التحاكم إلىٰ الله والرسول ﷺ فلا».

ويعتقد البعض أن الاعتناء بكتب الحديث يعني بالضرورة إهمال كتب الفقه وتحريم النظر فيها؟!!

الجواب: ليس الأمر كما ظن السائل أو صاحب الشبهة، بل الأمر كما ذكرنا أنه يستفاد منها، وقد ذكرنا باباً في هذا فيما سبق، في الواقع إن قائل ذلك: ينظر إلىٰ حاله مع كتب السنة والحديث، فلما لم ير نفسه نظر فيها وليس له اعتناء بها بل يهجرها، وأدام النظر فيما يسمىٰ بكتب الفقه، فظن أن طالب الحديث كذلك، وليس الأمر كما ظن وتوهم.

وبعضهم يظن أن دراسة كتب الحديث يعني: أن الطالب يهجم علىٰ النصوص يفهمها بفهمه دون الرجوع لكلام أئمة الشأن في معناها!

موقف أهل البدع من السنة والحديث وذمهم لها أو لأهلها

كل أهل البدع يبغضون السنة، والأحاديث، والأسانيد، والرواة، ونجدهم يذمون الاشتغال والمشتغلين بها.

وينبغي أن يعلم أن ترك الاطلاع علىٰ السنة والاشتغال بها، والإعراض عنها من علامات أهل البدع والأهواء.

فهل أهل البدع فإنهم يكرهون ذكر النصوص، ويحاولون اختصار الكتب بحذف النصوص، ويعتنون بكلام البشر حفظاً وكتابة وشرحاً، وتضيق صدورهم من سماع الحديث.

قال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا تجد قط مبتدعاً إلا وهو يحب كتمان النصوص التي تخالفه ويبغضها ويبغض إظهارها وروايتها والتحدث بها ويبغض من يفعل ذلك كما قال بعض السلف: ما ابتدع أحد بدعة إلا نزعت حلاوة الحديث من قلبه» (درأ التعارض ١/ ١٢٠).أ.هـ.

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل من كان عنه -أي الحديث- أبعد كان أعظم ذماً بذلك: كالقرامطة، ثم الفلاسفة، ثم المعتزلة ...»[٩٤].

---

(٩٤) الفتاوىٰ (٤/ ٨٨).

فترىٰ هؤلاء إذا ذكر النص عن النبي ﷺ لا سيما فيما يخالف مذهبهم ضاقت صدورهم منه، قال **أبوالحسن المباركفوري** رحمه الله: « من عادة هؤلاء المشغوفين بآراء الرجال والأقيسة والأهواء أنهم إذا رأوا حديثاً مرفوعاً صحيحاً مخالفاً لقول إمامهم اشمأزوا منه، واخترعوا لرده تأويلات متبجحين بها، فتارة يجعلونه منسوخاً، وأخرىٰ رواية بالمعنىٰ، وتارة يحاولون

ضعيفه، وأخرىٰ ينسبون إلىٰ الصحابي (عدم) فهم خطاب النبي ﷺ، ونحو ذلك من الوجوه الباطلة التي هي تحريفات معنوية للحديث الصحيح» مرعاة المفاتيح (٢/ ٢٢٧).

وأما إذا ذكر إمام المذهب بل أحد المصنفين في المذهب يستروح بذلك وتراه قد انشرح وانبسط جداً واطمئن، وجعل النقل عنه وكلامه دليلاً يستدل به!!، فله نصيب مما قال الله تعالىٰ عن المشركين: ﴿**وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**﴾(الزمر/ ٤٥).

أبوالفضل العباس بن محمد الخراساني:

رحلت أطلب أصل العلم مجتهدا ... وزينة المرء في الدنيا الأحاديث

لا يطلب العلم إلا بازلٌ ذكرٌ ... وليس يبغضه إلا المخانيث

لا تعجبن بمال سوف تتركه ... فإنما هذه الدنيا مواريث

شرف أصحاب الحديث (١٤٥)

فالحذرَ الحذرَ! أيها الرجل من أن تكره شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ أو تردّه لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك أو لشيخك ... (إن شانئك هو الأبتر)

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** في قوله: (**إن شانئك هو الأبتر**): "الله سبحانه وتعالىٰ بَتَر شانيء رسوله من كل خير، فيَبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة، ويبتر حياته فلا ينتفع بها، ولا يتزوّد فيها صالحاً لمعاده، ويبتر قلبه فلا يعي الخير، ولا يؤهِّله لمعرفته ومحبته والإيمان برسله، ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة، ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عونًا، ويبتره من جميع القُرَب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعمًا ولا يجد لها حلاوةً، وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها، وهذا جزاء من شنَأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ وردَّه لأجل هواه أومتبوعه أو شيخه أو أميره أو كبيره، ... ومن أقوىٰ علامات شناءته لها وكراهته لها أنه إذا سمعها حين يَستدل

بها أهلُ السنة علىٰ ما دلت عليه من الحق اشمأز من ذلك، وحاد ونفر من ذلك، لِما في قلبه من البغض لها والنفرة عنها، فأي شانيء للرسول أعظم من هذا ... وكذا مَن آثر كلام الناس وعلومهم علىٰ القرآن والسنة، **فلولا أنه شانيء لِما جاء به الرسول ما فعل ذلك**، حتىٰ إن بعضهم لينسىٰ القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان ...

فالحذرَ الحذرَ! أيها الرجل من أن تكره شيئا مما جاء به الرسول ﷺ أو تردّه لأجل هواك، أو انتصارا لمذهبك أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا؛ فإن الله لم يوجب علىٰ أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعا للرسول، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع. فاعلم ذلك واسمع وأطع، واتبع ولا تبتدع، تكن أبتر مردودًا عليك عملُك، بل لا خير في عمل أبتر من الاِتّباع، ولا خير في عامله، والله أعلم". مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٢٦ـ٥٢٩).

من أحالك علىٰ غير حدثنا وأخبرنا فقد أحالك علىٰ الضلال والانحراف

ورحم الله **أبا قلابة عبد الله بن زيد الجرمي** إذ قال: «إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث والآحاد، وهات، (العقل)، فاعلم أنه أبوجهل، وإذا رأيتَ السالك التوحيدي يقول: دَعنا من النقل ومن العقل، وهات: الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلّ فيه، فإن جَبُنْتَ منه فاهرب، وإلا فاصرعه، وابرُك علىٰ صدره، واقرأ عليه آية الكرسي، واخنقه»[٩٥].

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن أحالك علىٰ غير «حدثنا»، و «أخبرنا»، فقد أحالك علىٰ خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأي نفسي، فليس بعد «القرآن»، و«أخبرنا»، و «حدثنا»، إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات التصوفين، وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل، ولا دليل إلىٰ الله والجنة سوىٰ الكتاب والسنة، وكل طريق لم

(٩٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٢).

يصحبها دليل القرآن والسنة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم» (مدارج السالكين٢/ ٤٦٨).

الكتب الستة أعظم كتب السنة

التي يقال لها: الأصول الستة والكتب الستة والصحاح الستة، والأمهات الست.

ولقد كان للعلماء وطلاب العلم العناية الفائقة بكتب السنة، ولما كانت "الطبقة العليا منها هي الأمهات الست التي خصت بمزيد الصحة والشهرة والقبول وتلقتها الأمة المرحومة جميعاً من السلف والخلف تلقيًا لا يحول ولا يزول واعتنىٰ بروايتها عصابة أهل الحديث عناية تامة وأذعن لضبطها ونشرها في كل عصر خاصتهم والعامة بل عليها اقتصروا في قراءة كتب الحديث وتدريسه وبها اكتفوا في تحصيل سند هذا العلم وتأسيسه"[٩٦]، وحين نطلق الكتب الستة نعني بها: الصحيحان وسنن النسائي وسنن أبي داود وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه، وأصبح لهذه الكتب من المنزلة الرفيعة ما جعل بعض العلماء يطلق عليها اسم الصحاح ولم يزاحم هذه الكتب إلا مسند أحمد وموطأ مالك وسنن الدارمي، ولكل منها مزية... ومهما يكن من أمر فقد غدت هذه الكتب التسعة من أشهر كتب السنة ومصادر لفهم الدين أصوله وفروعه ومن أجل ذلك فقد حظيت بعناية المسلمين علىٰ مر العصور دراسة وشرحاً واستنباطاً وتخريجاً واختصاراً وفهرسة"[٩٧].

وأولها: الصحيحان، فهما أهم وأصح الكتب بعد كتاب الله تعالىٰ، قال **ابن دقيق العيد** رحمه الله في نصيحته لطالب العلم: "ولْيقدِّم العناية بالكتب الستة، ومقدَّمها الصحيحان، ثم كتب (المسانيد)، وكتب العلل ، وكتب الضبط لمشكل الأسماء ، والمؤتلف والمختلف وليتقن ما أشكل عليه.

وليذاكر بما عنده، ويشتغل بالتَّصنيف والتخريج، فهو من أعظم الأشياء عوناً له علىٰ الحفظ". الاقتراح في فن الاصطلاح للحافظ ابن دقيق العيد (ص: ٢١).

وهذه الكتب هي أصول الإسلام التي يرجع إليها في الأمور كلها، وإن خالف الصحيح منها رد المخالف لها، بل قال **السبكي**: "هذه أحاديث الكتب الستة التي هي أصول الإسلام وهي

---

(٩٦) الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ٣).

(٩٧) أبوداود حياته وسننه (ص: ١).

كافية لمن أحاط بها ولا يبقىٰ بعدها إلا فهم يؤتيه الله من يشاء". فتاوىٰ السبكي (١/ ٤١٤).

وقال العلامة **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يخرج عن الكتب الخمسة التي هي أصول الإسلام من الصحيح إلا اليسير". يعني الستة خلا ابن ماجه.

ذكر الحافظ **المزي** في كتابه: «تهذب الكمال» فصلاً في فضل الكتب الستة فقال: «قال مُحَمَّد بْن أَبي نصر الحميدي: سمعت الفقيه أبا محمد علي ابن أحمد بن سَعِيد الحافظ بالأندلس وقد جرىٰ ذكر "الصحيحين" فعظم منهما، ورفع من شأنهما.

وحكي أن سَعِيد ابن السكن اجتمع إليه قوم من أصحاب الحديث، فقالوا له: إن الكتب في الحديث قد كثرت علينا، فلو دلنا الشيخ علىٰ شيء نقتصر عليه منها. فسكت عنهم، ودخل إلىٰ بيته، فأخرج أربع رزم، فوضع بعضها علىٰ بعض، فقال: «هذه قواعد الاسلام: كتاب البخاري وكتاب مسلم، وكتاب أبي داود، وكتاب النَّسَائي».

وَقَال **أبوبكر الصولي**: سمعت زكريا بن يحيىٰ الساجي يقول: «كتاب الله أصل الاسلام، وكتاب السنن لابي داود عهد الاسلام».

وَقَال **أبوسُلَيْمان الخطابي**: سمعت ابن الأعرابي يقول ونحن نسمع منه هذا الكتاب يعني كتاب السنن وأشار إلىٰ النسخة وهي بين يديه: «لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله عزوجل، ثم هذا الكتاب لم يحتج معهما إلىٰ شيء من العلم البتة». قال **الخطابي**: وهذا كما قال لا شك فيه، لان الله تعالىٰ أنزل كتابه تبيانا لكل شيء، وَقَال: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شئ**﴾ () ، فأخبر سبحانه وتعالىٰ وبحمده أنه لم يغادر شيئًا من أمر الدين لم يتضمن بيانه الكتاب إلا أن البيان علىٰ ضربين: بيان جلي، تناوله الذكر نصا، وبيان خفي اشتمل علىٰ معنىٰ التلاوة ضمنا، فما كان من هذا الضرب كان تفصيل بيانه موكولاً إِلَىٰ النَّبِيّ ﷺ، وهو معنىٰ قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ () . فمن جمع بين الكتاب والسنة فقد استوفىٰ وجهي البيان.

وقد جمع أبوداود في كتابه هذا من الحديث في أصول العلم، وأمهات السنن، وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدمًا سبقه إليه، ولا متأخرًا، لحقه فيه.

قال **أبوسُلَيْمان الخطابي**: واعلموا رحمكم الله أن كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم

يُصنَّف في حكم الدين كتاب مثله، وقد رُزِقَ القبول من كآفة الناس فصار حَكَمًا بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء -علىٰ اختلاف مذاهبهم-، ولكل فيه ورد، ومنه مشرب، وعليه معول أهل العراق وأهل مصر وبلاد المغرب وكثير من مدن أقطار الارض.

وكتاب أبي داود أحسن وضعاً (يعني من الصحيحين)، وأكثر فقهاً، وكتاب أبي عيسىٰ أيضاً كتاب حسن، والله تعالىٰ يغفر لجماعتهم، ويحسن علىٰ جميل النية فيما سعوا له مثوبتهم برحمته». تهذيب الكمال (١/ ١٧١).

وقال **الصديق حسن خان** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الكتب الستة التي هي أم كتب الحديث وأشهرها وبأحاديثها أخذ العلماء واستدل الفقهاء وأثبتوا الأحكام ومصنفوها أشهر علماء الحديث وأكثرهم حفظا وإليهم المنتهىٰ". الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ٥٠)

وقال العلامة **حمد بن معمر** رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض الإنكار علىٰ من يتشبث بالمتون والمختصرات:

«وأما **كتب الحديث، كالأمهات الست**، وغيرها من كتب الحديث، وشروحها، وكتب الفقه الكبار، التي يذكر فيها خلاف الأئمة وأقوال الصحابة والتابعين، فهي عندهم مهجورة، بل هي في الخزانة مسطورة، للتبرك بها لا للعمل». الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ٢٧).

وقال تقي الدين السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال: «ومما قاله أبو شامة : إن الله يسر وله الحمد الوقوف علىٰ ما ثبت من الأحاديث وتجنب ما ضعف منها مما جمعه الحفاظ كالصحيحين والمستدرك عليهما وابن خزيمة والترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والدارقطني والبيهقي **فلا عذر في ترك الاشتغال بها**». معنىٰ قول المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي (ص١٠٨).

وقال **البشير الإبراهيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن العار الفاضح ألا نرىٰ في الكثير من أبنائنا الذين تخرّجوا من الزيتونة، واتجهوا إلىٰ علوم الدين من استوعب قراءة الصحيحين والسنن؛ ولعمري ما سلاح الفقيه إلا تلك الكتب وأشباهها». آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٢٠٣).

ومن تلبس إبليس علىٰ بعض طلاب العلم، وعلىٰ بعض المتفقهة أن أشغلهم عن الصحيح والعمل به والدعوة إليه، وجعلهم يهتمون بأمور كثيرة غير الكتاب والسنة، بل أشغلهم عنها.

قال **الخطيب**: "أكثر طالبي الحديث في هذا الزمان يغلب عليهم كتب الغريب دون المشهور، وسماع المنكر دون المعروف، والاشتغال بما وقع فيه السهو والخطأ من رواية المجروحين والضعفاء حتىٰ لقد صار الصحيح عند أكثرهم مجتنبا والثابت مصدوفا عنه مطرحا وذلك لعدم معرفتهم بأحوال الرواة ومحلهم ونقصان علمهم بالتمييز وزهدهم في تعلمه ، وهذا خلاف ما كان عليه الأئمة من المحدثين الأعلام من أسلافنا الماضين".

وهذا الذي ذكره الخطيب حق، ونجد كثيرا ممن ينتسب إلىٰ الحديث لا يعتني بالأصول الصحاح كالكتب الستة ونحوها. الحديث المعلول قواعد وضوابط (ص: ٤٥)

وكان أحد الملوك بالمغرب الأقصىٰ لما رأىٰ الناس يتعصبون لمذهب مالك، ويتركون الحديث، اخذته الغيرة علىٰ السنة فبالغ وقال مرة: **"يا أبابكر، ليس إلا هذا، وأشار إلىٰ المصحف، أو هذا، وأشار إلىٰ كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف!"**.

ولا شك أننا ننكر هذه الطريقة، ويستفاد من هذه الكتب، ولكن لا تقدم لا في الدراسة، ولا التدريس، ولا العمل علىٰ الكتاب والسنة، ولا تدرس علىٰ أنها أصل يتعبد بما فيها، وسيأتي بيان لهذا إن شاء الله.

وكانت من نصائح الشيخ الفاضل **مشهور حسن آل سلمان**:

فطالب العلم إذا كان صاحب نهمة وهمة يبدأ بالقرآن و تفسير موجز وتفسير متوسط وتفسير مفصل ثم السنة لابد من قراءة الصحيحين، **لابد من قراءة الصحيحين ثم السنن الأربعة**، حينئذ طالب العلم يكون طالب علم، ما الذي يمنع أن يكون البخاري علىٰ رأس التخت (السرير) عندك وتقرأ يعني كل يوم تقرأ الباب مرة ومرتين وثلاثة وقد تستغرق سنة في البخاري، وسنة في مسلم لما كنا في الهند نزلنا في مدرسة، كانوا يقولون: كل سنة نختم البخاري، وكل سنة نختم مسلم، جلست في بيت الله الحرام في مكة المكرمة في رمضان الماضي في مجلس شيخنا يحيىٰ مراد العظيم أبادي الهندي في المجلس الذي ختم فيه تفسير ابن كثير ففي أواخر رمضان من كل عام يختم ابن كثير في بيت الله الحرام.

فالشاهد طالب العلم ينبغي أن يمر مرة ومرتين وثلاثة علىٰ تفسير القرآن وعلىٰ البخاري.

لا تكون ضائعًا إيش أقرأ إيش، تعيش وتموت وأنت تائه، لا تبقىٰ متحيراً لأن العلم

واضح، ليس العلم الذي يطرب ليس العلم الذي يقيم البدن التسالي والأشياء اللذيذة، التي تتعلق بها النفس، الذي يطيب البدن الطعام والوجبات القوية، والذي يطيب العلم الوَجْبَات القوية الكتاب والسنة **تفسير القرآن والكتب الستة**.

فلو أنهينا صحيح البخاري وصحيح مسلم، وأباداود، الترمذي النسائي وهلم جرا. يكون في مكتيتك ست كتب وتقرأها باستمرار أحسن ما تكون في مكتبتك عشرات الألوف من الكتب وأنت محتار أيش تقرأ؟!.

وتنهل وتشرب من أصل النبع ثم تبدأ تقرأ شرح تقرأ شرح موفق للصحيحين ووو... الخ الذي يستظهر ما في فتح الباري عالم

السخاوي في كتابه الترجمة الذاتية لنفسه يقول: كتاب الإسلام فتح الباري". (مقطع في النت فرغه لي أحد الطلاب).

وقد نصح شيخنا العلامة **ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأنصح لجميع العلماء بأن يعنوا بمراجعة ... وكتب السنة مثل: "الصحيحين وبقية الكتب الستة ومسند الإمام أحمد وموطأ الإمام مالك وغيرها من كتب الحديث المعتمدة وكتب التفسير المعتمدة كتفسير ابن جرير وابن كثير والبغوي ونحوهم من أهل السنة". مجموع الفتاوى (٥/ ٢٧٠).

وقال أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأوصي أهل العلم وطلبته بالعناية بكتب الحديث والإكثار من قراءتها وتدريسها والمذاكرة فيها، وأهمها الصحيحان، ثم بقية الكتب الستة، مع موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، وسنن الدارمي وغيرهما من كتب الحديث المعروفة، ضاعف الله الأجر لمؤلفيها وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء". مجموع فتاوى ابن باز(٣٠)جزءا (٧/ ٢١٠).

وسئل رَحِمَهُ اللَّهُ: ما هي كتب السنة التي ترون أنها مناسبة وتنصحوننا باقتنائها؟

ج: كتب السنة كثيرة والحمد لله منها الكتب الستة وهي الصحيحان البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه رحمهم الله، ومنها موطأ مالك - رَحِمَهُ اللَّهُ - ومسند أحمد - رَحِمَهُ اللَّهُ - وسنن الدارمي - رَحِمَهُ اللَّهُ - ، فهذه كتب الحديث المعروف المشهورة .

ومن كتب السنة ما ألفه جماعة آخرون من أهل العلم، منها ما ألفه الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ - كالأم، ومنها ما ألفه الفقهاء بعد ذلك في أحكام الشرع المطهر، ومن أحسن ما ألف في ذلك

مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية – رَحِمَهُ اللَّهُ – تعالىٰ وتلميذه العلامة ابن القيم – رَحِمَهُ اللَّهُ –، فإن كتبهما مفيدة جدا وتعتني بالدليل وترجح الراجح في مسائل الخلاف فهي كتب عظيمة". مجموع فتاوىٰ ابن باز(٣٠)جزءا (٢٥/ ٦٢)

وكم وكم اهتمت الأمة قديماً بهذه الكتب المباركة حفظاً وشرحاً ودراسة وتدريساً، ونشراً واعتناء، حتىٰ إن بعضهم الآن ليختم الكتب الستة كل عام، وبعضهم في العام مرتين.

من أراد أن يكون عالماً وللمتقين إماماً فعليه بكتاب الله وتفسيره، وبالكتب الستة حفظاً ودراسة وفهماً وعملاً، ودعوة:

فبالنية والاستعانة بالله، والحرص علىٰ تعلم كتاب الله، مع حفظه، والكتب الستة مع حفظ متونها بلا مكرر، ودراستها جميعاً، مع شيء من اللغة وعلوم الآلة، فمن فعل ذلك ضبط أكثر أصول العلم.

الخلاصة: إن هذه الكتب العظيمة لها قيمتها الجليلة في الأمة، وعند الأئمة، فقد اعتنوا بها، رواية وحفظاً واختصاراً وشرحاً، ودمجاً وتأليفاً بينها، واستخرجوا عليها المستخرجات، واستدركوا عليها المستدركات، وتكلموا علىٰ أحاديثها تصحيحاً وتضعيفاً وتعليلاً، وعملوا علىٰ تلخيصها، وتهذيبها، وشرحوها شروحاً مقروءة، والتحشية عليها، وقاموا مدافعين عنها بكل ما أوتوا من قوة وعلم، ورووها وسمعوها وختموها في مجالس مطولة، ومجالس إقراء وكتبوا كتباً في ختمها، وجمعوا رواتها، والكلام عليهم جرحاً وتعديلاً، وجمعاً لكل راوٍ ما له وما عليه، وما ألفوه من كتب كثيرة في ذلك أمر مشهور ومعلوم عند طلاب العلم.

فنحن نتمنىٰ أن تعود هذه الطريقة الأولىٰ، وهي ختم هذه الكتب، وإشاعتها وإذاعتها، والإفادة منها، ولا سيما بعد تحقيقات شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ للسنن الأربعة، وتمييزه بين صحيحها وسقيمها، وقد تركها لنا غضة طرية، فاللهم اجزه خير الجزاء عن سنة نبينا، وإنما قالم بذلك رَحِمَهُ اللَّهُ كي تردها الأمة وتنهل من معينها الصافي النقي، فتعمل بها وتنتشر بين الناس، ولعله يعود إلىٰ الأمة مجدها وعزها الأول، ونحن نرىٰ أن أهل السنة كانوا يفنون أعمارهم في الحديث، وهذه من أفضل ميزاتهم.

انشغال السلف بالسنة، والآثار وفناء أعمارهم في هذا والبحث عنه:

قال أبو القاسم الأصبهاني: "فتدبّر رحمك الله، أيُجعل حكم من أفنىٰ عمره في طلب آثار رسول الله ﷺ شرقًا وغربًا، وبراً بحراً، وارتحل في الحديث الواحد فراسخ، واتهم أباه، وأدناه في خبر يرويه عنه غضبًا لله، وحميّة لدينه، ثم ألف الصحف والأجلاد في معرفة المحدّثين وأسمائهم وأنسابهم، وقدر أعمالهم، وذكر أعصارهم، وشمائلهم وأخبارهم، وفصل بين الجيد والرديء، والصحيح والسقيم، حنقًا لله ورسوله، وغيرة علىٰ الإسلام والسنّة، ثمّ استعمل آثاره كلّها حتىٰ فيما عدا العبادات من أكله، وطعامه، وشرابه، ونومه، ويقظته، وقيامه وقعوده، ودخوله وخروجه، وجميع سيرته، وسننه حتىٰ في خطواته، ولحظاته. ثمّ دعا الناس إلىٰ ذلك، وحثّهم عليه وندبهم إلىٰ استعماله، وحبَّب إليهم ذلك بكل ما يمكنه حتىٰ في بذل ماله، ونفسه كمن أفنىٰ عمره في إتباع أهوائه، وآرائه وخواطره، وهواجسه، ثم تراه يردّ ما هو أوضح من الصبح من سنن رسول الله ﷺ، وأشهر من الشمس برأي دخيل، واستحسان ذميم، وظنّ فاسد، ونظر مشوب بالهوىٰ؟! فانظر وفقك الله للحقّ: أيّ الفريقين أحقّ بأن ينسب إلىٰ إتباع السنة، واستعمال الأثر الفرقة الأولىٰ أم الثانية؟ فإذا قضيت بين هذين بوافر لبّك، وصحيح نظرك، وثاقب فهمك فليكن شكرك لله علىٰ حسب ما أراك من الحق ووفقك للصواب، وألهمك من السداد، واختصّك به من إصابة الحسن في القول والعمل، فإذا كنت كذلك فقد ازددت يقينًا علىٰ يقين، وإصابة علىٰ إصابة، ومن الله التأييد والتسديد والإلهام، وهو حسبُ أهلِ السنّةِ، وعليه توكلهم، ومنه معونتهم وتوفيقهم ونصرتهم بمنّه وفضله، وعميم كرمه وطَوله. ا.هـ[٩٨].

٩٨الكتب الكثيرة كانت سببًا في الصد عن كتاب الله وسنة رسوله وترك دراسة وحفظ ودراسة كتب السنة.

مما لا شك فيه أن هذه الكتب أعني كتب الفقه التي كان السلف يسمونها (كتب الرأي)، عليها مؤاخذات كثيرة، فمن ذلك: أنها كانت حجر عثرة، وسببًا ظاهراً وسداً منيعًا في وجه السنة والاتباع لها، وكأن جمود أتباع المذاهب علىٰ مذهبهم، والتعصب للمذهب هو الاتباع، ولو جاء الحديث صريحًا بخلاف مذهب شيخهم أو إمامهم

---

(٩٨) **إسناده صحيح**: رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم".

كثرة الأحاديث الضعيفة، بل والموضوعة، وما لا أصل له – وذكر الآراء المرجوحة التي خالف أصحابها الأحاديث الصحيحة، أو الأثر، بل والسلف– وما فيها من تشقيقات للمسائل – وتعقيدات في الأسلوب – وذكر بعض ما لم يقع إلا نادراً، وبعضها قد لا يقع ألبتة – وتناقضات – وتحريفات ورد للنصوص الصريحة الصحيحة – وبدع وضلالات – واتباع للهوىٰ – وتعصب مذهبي، ومن أخطر ما فيها أن الغالب علىٰ أصحابها أنهم ليسوا من أهل السنة والجماعة، وفيهم من الانحراف عن سبيل السلف مما يجعل الطالب غالبا يتأثر ببدعهم وعقائدهم وضلالهم، ولا شك أنه لابد وأن يؤثر ذلك علىٰ كثير من أحكامهم في كتبهم، وغير ذلك مما هو معروف ومشهور حتىٰ إنك لتجد من يقول: «الشافعي مذهبًا، والنقشبندي طريقة، والأشعري عقيدة»، وسأذكر تفصل ذلك في محله إن شاء الله.

وأجدني مضطراً لأن أطيل الكلام في هذا الباب كي يكون المسلم علىٰ معرفة وبصيرة بمنهجم الذي يسيرون عليه، فأذكر بعضًا من النقولات:

فينبغي أن يعلم أن الاعتناء والاشتغال والتدوين يجب أن يكون للكتاب والسنة، والأثر، أما كلام الناس فلا ينشغل بها، إلا علىٰ سبيل الشرح والبيان لكتاب الله ولسنة رسوله.

قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت/ ٥١). **فينبغي أن يكتفىٰ بما ورد في الكتاب والسنة والإجماع، لأنها هي الأصول التي يقاس عليها، ويستنبط منها، ويرجع إليها.**

وها أنا أنقل بعض ما ورد من نصوص في النهي عن وضع الكتب لا سيما إذا كانت خالية من النصوص، أو قليلة الأدلة، أو لا تعتني بالنصوص الصحيحة والاستدلالات الأثرية الرجيحة، أو كانت عامتها آراء للرجال، أو نحو ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿**نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون**﴾(البقرة/ ١٠١).

وقال تعالىٰ: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم مما كتبت أيديهم ....**﴾().

قال تعالىٰ: ﴿**وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون**﴾().

قال **ابن القيم**: إن الله سُبْحَانَهُ ذمّ الَّذين تقطَّعوا أَمرهم بَينهم زُبُرا كلُّ حزبٍ بِمَا لديهم فَرِحُونَ.

والزبر الْكتب المصنفة الَّتِي رَغِبُوا بهَا عَن كتاب الله تَعَالَىٰ وَمَا بعث بِهِ رَسُوله.

وعن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال: «إن حديثكم شر الحديث، وإن كلامكم شر الكلام؛ فإنكم قد حدثتم الناس حتىٰ قيل: قال فلان، وقال فلان، ويترك كتاب الله، من كان منكم قائماً فليقم بكتاب الله، وإلاَّ فليجلس»(٩٩). يعني: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

فهذا عمر يقول هذا الكلام **(إن حديثكم شر الحديث)** لمن؟! في زمانه إما للصحابة أو للتابعين، فكيف بمن بعدهم، وماذا عساه أن يقول لو رأىٰ من يتعصب للمذهب، ولأقوال صاحب المذهب، ولقول فلان وفلان؟!.

فعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «**من اقتراب (وفي رواية: أشراط) الساعة أن** ترفع الأشرار وتوضع الأخيار، ويفتح القول، ويخزن العمل، **ويقرأ بالقوم المثناة، ليس فيهم أحد ينكرها. قيل: وما المثناة؟ قال: ما استكتب سوىٰ كتاب الله عز وجل ، فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَبِهِ هُدِيتُمْ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَعَنْهُ تُسْأَلُونَ**»(١٠٠).

قال **شيخنا العلامة الألباني** رحمه الله معلقاً عليه في تفسير **(المثناة)**: (فائدة) :

«هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، فقد تحقق كل ما فيه من الأنباء ، وبخاصة منها ما يتعلق بـ(المثناة) وهي كل ما كتب سوىٰ كتاب الله كما فسره الراوي، وما يتعلق به من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، فكأن المقصود بـ (المثناة) الكتب المذهبية المفروضة علىٰ المقلدين. التي صرفتهم مع تطاول الزمن عن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ كما هو مشاهد اليوم مع الأسف من جماهير المتمذهبين، وفيهم كثير من الدكاترة والمتخرجين من كليات الشريعة، فإنهم جميعاً يتدينون بالتمذهب، ويوجبونه علىٰ الناس حتىٰ العلماء منهم، فهذا كبيرهم أبوالحسن الكرخي الحنفي يقول كلمته المشهورة: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ»، فقد جعلوا المذهب أصلاً، والقرآن الكريم تبعًا، فذلك

---

(٩٩) **صحيح**: رواه الدارمي (٤٩٣) وهو مخرج في الصحيحة (٢٨٢١).

(١٠٠) الصحيحة (٦/ ٧٧٦).

هو (المثناة) دون ما شك أو ريب»[١٠١].

قلت: ويدخل في هذا كتب الرأي المجردة عن الدليل، والكتب الثقافية، والفكرية، والسلوك، والمنطق، والفلسفة، والأوراد ونحوها مما لم يرد في الكتاب والسنة، وانشغل الناس به عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، بل وبعضها يتلىٰ لديهم مثل القرآن أو أعظم ككتاب: «**دلائل الخيرات**» فقد رأيت من يظل تالياً له طول اليوم!!.

عن عبدالله بن مسعود عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمُ اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمُ اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ، واسْتَحْلَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ حَتَّىٰ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.... قَالَ: فَاخْتَلَفَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، ...».

قَالَ عَبْدُاللهِ: وَإِنَّ مَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ سَيَرَىٰ مُنْكَرًا، وبِحَسْبِ امْرِئٍ يَرَىٰ مُنْكَرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ أَنْ يُعْلِمَ اللهَ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ لَهُ كَارِهٌ»[١٠٢].

وعن عفان المحاربي عن أبيه قال سمعت **ابن مسعود** يقول: «إن ناساً يسمعون كلامي ثم ينطلقون فيكتبونه، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله»[١٠٣]. (يعني: القرآن والحديث).

وعن سليم قال كنت أجالس أناساً في المسجد، فأتيتهم ذات يوم، فإذا عندهم صحيفة يقرؤنها، فيها ذكر وحمد وثناء علىٰ الله، فأعجبني، فقلت لصاحبها: أعطينيها، فأنسخها، قال: «فإني وعدتُ بها رجلاً فأعد صحفك، فإذا فرغ منها، دفعتها إليك».

---

(١٠١) **صحيح**: رواه البيهقي في الشعب ()، وهو في الصحيحة (٢٦٩٤).

(١٠٢) **صحيح**: رواه الدارمي (٤٩٧).

(١٠٣) **صحيح الإسناد**: رواه الخطيب في "تقييد العلم" (ص٥٥) من طريقين عنه.

عن الأسود بن هلال قال: قال عبد الله: «إن أحسن الهدىٰ هدىٰ محمد وإن أحسن الكلام كلام الله وإنكم ستحدثون ويحدث لكم فكل محدث ضلالة وكل ضلالة في النار وأتىٰ بصحيفة فيها حديث قال فأمر بها فمحيت ثم غسلت ثم أحرقت ثم قال بهذا هلك أهل الكتاب قبلكم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنشدت الله رجلا يعلمها عند أحد الا أعلمني به والله لو أني أعلم أنها بدير هند لتبلغت اليها» رواه اللالكائي (١/ ٧٧-ح٨٥)، وورد نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ينظر تخريجه في "الإرواء" (٦/ ٣٥).

فأعددت صحفي، فدخلت المسجد ذات يوم، فإذا غلام يتخطىٰ الخلق، يقول: أجيبوا **عبد الله بن مسعود** في داره، فانطلق الناسُ، فذهبت معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده.

وقال: «**ألا إن ما في هذه الصحيفة فتنة وضلالة وبدعة، وإنما هلك من كان قبلكم من أهل الكتاب باتباعهم الكتب، وتركهم كتاب الله، وإني أحرِّج علىٰ رجل يعلم منها شيئًا إلا دلني عليه، فوالذي نفس عبدالله بيده، لو أعلم منها صحيفة بدير هند لأتيتها، ولو مشيًا علىٰ رجليّ، فدعا بماء، فغسل تلك الصحيفة**»(١٠٤).

فعن الأسود قال جاء رجل من أهل الشام إلىٰ عبدالله بن مسعود ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء، وقصص من قصصه، فقال: "يا أبا عبد الرحمن! ألا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام أخيك أبي الدرداء؟.

فأخذ الصحيفة، فجعل يقرأ فيها وينظر، حتىٰ أتىٰ منْزِله، فقال: "يا جارية ائتيني بالإجّانة مملوءة ماء".فجاءت به، فجعل يدلكها، ويقول:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ (يوسف/ ١:

---

(١٠٤) عن الأشعث عن أبيه وكان من أصحاب عبد الله قال: رأيت مع رجل صحيفة فيها سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر فقلت له أنسخنيها فكأنه بخل بها ثم وعدني أن يعطنيها فأتيت عبد الله (يعني: ابن مسعود) فإذا هي بين يديه فقال: «**إن ما في هذا الكتاب بدعة وفتنة وضلالة وإنما أهلك من كان قبلكم هذا وأشباه هذا**، أنهم كتبوها فاستلذتها ألسنتهم وأشربتها قلوبهم؛ فأعزم علىٰ كل امرئ يعلم بمكان كتاب إلا دل عليه، وأقسم بالله قال شعبة: فأقسم بالله قال أحسبه: أقسم لو أنها ذُكِرَت له بدار الهندارية يعني مكاناً بالكوفة بعيداً إلا أتيته ولو مشيًا». رواه الدارمي (٤٩٦).

وعن عفان المحاربي عن أبيه قال سمعت **ابن مسعود** يقول: «إن ناسًا يسمعون كلامي ثم ينطلقون فيكتبونه، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله». (رواه الدارمي/ ٤٩٧). (يعني: القرآن والحديث).

عن عمرو بن قيس قال : وفدت مع أبي إلىٰ يزيد بن معاوية بحوارين حين توفي معاوية .. فإذا رجل في مسجدها يقول:... ألا إن من أشراط الساعة أن تتلىٰ المثناة فلا يوجد من يغيرها قيل له: وما المثناة؟.

قال: ما استكتب من كتاب غير القرآن فعليكم بالقرآن فبه هديتم، وبه تجزون، وعنه تسألون.

فلم أدرِ مَن الرجل فحدثتُ هذا الحديثَ بعد ذلك بحمص فقال لي رجل من القوم أو ما تعرفه؟ قلت: لا قال: **ذلك عبد الله بن عمرو**. رواه الدارمي (٤٩٣).

٣). أقصصاً أحسن من قصص الله تريدون، أو حديثاً أحسن من حديث الله تريدون؟!!"[١٠٥].

(حسن لغيره)

وخرج أبو داود وغيره **عن معاذ بن جبل** رضي الله عنه أنه قال يوماً: «إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتىٰ يأخذه المؤمنُ والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ؟ **ما هم بمتبعيَّ حتىٰ أبتدعَ لهم غيرَه وإياكم وما ابتدع**، فإن ما ابتدع ضلالة وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة علىٰ لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق»[١٠٦].

وفي رواية: فَيَقُولُ: «قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدْ قُمْتُ بِهِ فِيهِمْ، فَلَمْ أُتَّبَعْ، لَأَحتَظِرَنَّ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا لَعَلِّي أُتَّبَعُ، فَيَحْتَظِرُ فِي بَيْتِهِ مَسْجِدًا فَلَا يُتَّبَعُ.

فَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقُمْتُ بِهِ فِيهِمْ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدِ احْتظرْتُ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا، فَلَمْ أُتَّبَعْ، **وَاللهِ لَآتِيَنَّهُمْ: بِحَدِيثٍ لَا يَجِدُونَهُ فِي كِتَابِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَلَمْ يَسْمَعُوهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ** ﷺ لَعَلِّي أُتَّبَعُ قَالَ مُعَاذٌ: **فَإِيَّاكُمْ وَمَا جَاءَ بِهِ فَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ ضَلَالَةٌ**»[١٠٧].

وقد قام **معاوية** رضي الله عنه خطيباً فقال: «أما بعد: فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ وأولئك جهالكم، **وإياكم والأماني التي تضل أهلها**»[١٠٨].

وعن الشعبي: وأتىٰ قوم **زيدَ بن ثابت** فَسَأَلُوهُ عَن أَشْيَاء فَأَخْبرهُم بهَا وكتبوها ثمَّ قَالُوا: لَو أخبرناه قَالَ: فَأتوهُ فأخبروه فَقَالَ: «أعذرًا لَعَلَّ كل شَيْء حدثتكم بِهِ خطأ إِنَّمَا اجتهدت لكم رَأْيِي»[١٠٩].

فهذا سبيل أهل الكتاب من قبلنا كما قال **أبوموسىٰ**: «**إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فتبعوه**

---

(١٠٥) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦١١)، وهو مخرج في الشريعة بتحقيقي.

(١٠٦) **صحيح**: رواه الدارمي (٢٠٥).

(١٠٧) **رواه البخاري** (٧١٣٩)..

(١٠٨) **صحيح**: رواه ابن أبي شيبة (٢٨١٣٩) ينحوه وصححه الشثري حفظه الله.

(١٠٩) **صحيح الجامع** (١/ ٤٠٩).

وتركوا التوراة». (إسناده صحيح: رواه الدارمي/ ٤٩٦).

علق الشيخ العلامة الألباني رحمه الله: «وما أشبه حال أكثر المسلمين اليوم بمن قبلهم، فقد تركوا القرآن والحديث إلىٰ آراء العلماء، وأقاموها مقامها، فيعيش الرجل المتفقه منهم دهراً طويلاً، وهو لا يعلم أدلة الكتاب والسنة، وإن علمها فهو لا يتبعها، ويؤثر عليها الآراء، ثم نحن نطمع أن ينصرنا الله علىٰ أهل التوراة، ونحن نحذوا حذوهم فهيهات هيهات»[(١١٠)].

وعَن عَمْرو بن دِينَار قَالَ قيل **لجَابِر بن زيد**: إنهم يَكْتُبُونَ مَا يسمعُونَ مِنْك قَالَ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون يَكْتُبُونَ رَأْيًا أرجع عَنهُ غَدًا[(١١١)].

وعَن يحيىٰ بن سعيد قَالَ جَاءَ رجل إِلَىٰ **سعيد بن الْمسيب** فَسَأَلَهُ عَن شَيْء فأملاه عَلَيْهِ ثمَّ سَأَلَهُ عَن رَأْيه فَأَجَابَهُ فَكتب الرجل فَقَالَ رجل من جلساء سعيد: أنكتب يَا أَبَا مُحَمَّد رَأْيك فَقَالَ **سعيد** للرجل: ناولنيها فَنَاوَلَهُ الصَّحِيفَة فحرقها[(١١٢)].

انظر أخي القارئ إلىٰ ما قاله ابن الجوزي وهو ينقل عن **الإمام أحمد** أنه: "كان يكره وضع الكتب التي تشتمل علىٰ التفريع والرأي ويحب التمسك بالآثار». مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٢).

وفي رواية: أن رجلاً سأل **أحمد بن حنبل** أكتب كتب الرأي[(١١٣)]؟.قال: لا، قال فابن

---

(١١٠) **صحيح**: رواه ابن عبدالبر (٢٠٧٠) وفيه سنيد وهو ضعيف، لكنه توبع، ورواه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ١٤)، وابن سعد في طبقاته (٧/ ١٨١).

(١١١) **صحيح**: رواه الخلال في العلم ()، ابن عبد البر جامع بيان العلم من طريق الخلال (ح٢٠٧٥).

(١١٢) قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "إن المتقدمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، **ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)**".(الفتاوىٰ١٨/ ٧٤، ٧٥)، قلت: يعني التي تُعنَىٰ بتشقيق المسائل، ويقل فيها الدليل أو ينعدم أحيانًا، ولا يبالي أصحابها إلا بحكاية المذهب، والاستدلال له بأي دليل ولو كان ضعيفًا.

(١١٣) حسين الكرابيسي كان من بحور العلم فقيه بغداد، تفقه بالشافعي مات (٢٤٨هـ) كما قال الذهبي رحمه الله (السير١٢/ ٧٩)، وإنما تكلم فيه لأجل الرأي وقلة العناية بالأثر.

عَنْ أَبِي ثَوْرٍ، قَالَ: «لَمَّا وَرَدَ الشَّافِعِيُّ الْعِرَاقَ جَاءَنِي حُسَيْنٌ الْكَرَابِيسِيُّ - وَكَانَ يَخْتَلِفُ مَعِي إِلَىٰ أَصْحَابِ الرَّأْيِ» - فَقَالَ: قَدْ وَرَدَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَتَفَقَّهُ، فَقُمْ بِنَا نَسْخَرُ بِهِ. «فَذَهَبْنَا حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ الْحُسَيْنُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَلَمْ يَزَلِ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ قَالَ اللهُ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ حَتَّىٰ أُظْلِمَ عَلَيْنَا الْبَيْتُ فَتَرَكْتنَا بِدْعَتَنَا،

المبارك قد كتبها؟ قال: «ابن المبارك لم ينْزل من السماء، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق».

مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٤).

وقال **ابن حزم**: وروي أن **مالكًا** أفتىٰ في مسألة في طلاق البتة: أنها ثلاث، فنظر إلىٰ أشهب قد كتبها، فقال: أمحها، أنا كلما قلتُ قولاً جعلتموه قرآنًا؟!، وما يدريك لعلي سأرجع عنها غداً، فأقول: هي واحدة. وقال **الفضل بن زياد**: سألت: **أحمد بن حنبل** عن الكرابيسي[١١٤] وما أظهر؟ فكلح وجهه، ثم قال: **إنما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها، وتركوا آثار رسول الله ﷺ، وأصحابه، وأقبلوا علىٰ هذه الكتب**». صحيح: رواه يعقوب الفسوي في"المعرفة والتاريخ" (٣/ ٤٩٤).

وقال الإمام **ابن القيم**: «وإنما كره أحمد ذلك ومنع منه، لما فيه الاشتغال به والإعراض عن القرآن والسنة فإذا كانت الكتب متضمنة لنصر القرآن والسنة الذب عنهما، وكتب إبطال الآراء والمذاهب المخالفة لهما فلا بأس بها، وقد تكون واجبة ومستحبة ومباحة، بحسب اقتضاء الحال»[١١٥].

وَاتَّبَعْنَاهُ» الحلية (٩/ ١٠٣).

وكانوا لا يحبون أن يجلسوا لأهل الرأي فعن جعفر الفريابي يقول دخلت جرجان فكتبت عن العصار والسباك وموسىٰ بن السندي فقيل لي يا أبا بكر وإبراهيم بن موسىٰ الوزدولي قال نعم كان يحدث هناك ولم اكتب عنه لأني كنت لا أكتب عن أصحاب الرأي وإبراهيم كان شيخ أصحاب الرأي وله ابن من أصحاب الحديث يقال له إسحاق صنف الكتب والسنن مستقيم الحديث وحدث بمصنفاته. الكامل لابن عدي (١/ ٢٧٢).

وَقَالَ **أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ**: «ما كَانَ يضع الأنصاريَّ عند أصحاب الحديث إلّا النَّظرُ في الرأي. وأمّا السّماع فقد سَمِعَ». تاريخ الإسلام (١٥/ ٢١٨).

(١١٤) هداية الأريب الأمجد (ص٣٩)، (الطرق الحكمية/ ص٤٠٢)..

(١١٥) فإن طلاب العلم كانوا علىٰ خير ورجوع للسنة والدليل، ونبذ التعصب المذهبي، ويقبلون عليها زرافات ووحدانًا في حياة الأئمة المجددين من أمثال الإمامين الألباني وابن باز رحمهما الله، وغيرهم من أئمة السنة في هذا العصر كالعلامة الشنقيطي، والمحدث عبيدالرحمن الرحماني الهندي، والعلامة تقي الدين الهلالي المغربي، والمحدث بديع الدين السندي، والعلامة المعلمي اليماني، والعلامة أحمد شاكر، والعلامة ابن عثيمين والعلامة ابن حميد، والعلامة عبدالرزاق حمزة، وعبدالرزاق عفيفي وغيرهم كثير رحمهم الله جميعًا، ممن كان يدعو إلىٰ السنة ونبذ التعصب.

ومع مرور الزمان تأثر بعض من كانوا في بداية طريقهم متمسكين بالسنن فضلاً عن الفرائض، قد ذهبت شِرَّتهم

وأخذت معها الكثير من السنن بل وبعض الواجبات، وصدق رسول الله ﷺ القائل: «**إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة فمن كانت فترته إلىٰ سنتي فقد هدي، ومن كانت فترته إلىٰ غير ذلك فقد هلك**»(١١٥).

وبدؤا يعودون من حيث بدؤا أول مرة.

فإني رأيت منهم أن شدتهم في التمسك، بدأت في الرخاوة بعد الشدة، والليونة والتساهل بعد العمل بكثير من الشرع، وقد أُمرنا بالاستمساك بالوحي، وأن نعض عليه بالنواجذ.

فضعفت عزائم الكثير، وبدؤوا يبحثون عن الرخص، ويتعللون بالخلاف في المسائل، وفتر تمسكهم، بل واختلت المناهج، ومن مظاهر هذا الأمر أن دبَّ التعصب المذهبي إلىٰ كثير منهم، وعادوا يبحثون عن آراء الرجال بدلاً عن السنة المطهرة، والمذهب بدلاً عن الدليل.

فلا غرابة في هذا ولقد بدت الغربة وبدأ الدين في اندراس الكثير منه منذ زمن بعيد وصدقت نبوءة النبي ﷺ حيث قال: «**يدرس الإسلام كما يُدْرَسُ وَشْيُ الثوب**»(١١٥).

وذلك أن الإيمان يخلق، ويصبح قديمًا في القلوب مع الوقت، ولذلك قال ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جوف أحدِكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجددَ الإيمانَ في قلوبِكُم**»(١١٥).

فإيماننا يحتاج إلىٰ تجديد فنسأل الله تعالىٰ أن يجدده في قلوبنا، كما نسأله سبحانه أن يجدد بنا ما خَلَقَ من دين الله تعالىٰ، وأن يجعلنا دعاة خير وهدىٰ، ويحيي بنا السنة، ويقمع بنا البدعة.

وعلىٰ كل حال فإن الأمر في زماننا أحسن منه قديمًا فلقد مرت الأمة في بعض أزمانها بظلمة التقليد، وأطبقت الأرض بالمذهبية المقيتة، وكان الأمر كما قال الفلاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَقَد شاهدنا فِي زَمَاننَا هَذَا مِمَّا قَالَه أَبُو السَّمْح فَلَقَد طفت من أَقْصَىٰ الْمغرب وَمن أَقْصَىٰ السودَان إِلَىٰ الْحَرَمَيْنِ الشريفين فَلم ألق أحدًا يسْأَل عَن نازلة فَيرجع إِلَىٰ **كتاب رب الْعَالمين وَسنة سيد الْمُرْسلين وآثار الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ** إِلَّا ثَلَاثَة رجال». (إيقاظ همم أولي الأبصار/ ص٢٨)

وبعد هذا البعث ودعوة هؤلاء المشايخ من أهل العلم الذين ذكرتهم فإن الأمر تغير كثيراً في هذه الأيام علىٰ أن الله لا يخلي الأرض من قائم لله بحجة، ولا تزال طائفة من أمته ﷺ علىٰ الحق ظاهرين، ولكني أخشىٰ أن تعود المذهبية المتعصبة، وترجع الأمة القهقرىٰ بعد أن تحررت من ربقة التقليد الأعمىٰ والمذهبية المقيتة العصبية الجاهلية.

فلنتواصىٰ بالحق والصبر عليه، وأن نظل علىٰ طريق تمستمسكين بالكتاب والسنة ومنهج السلف، والذي يؤلف بين القلوب، ويعيد للأمة مجدها وسعادتها، ويزيد من إيمانها، ويجعلها أكثر تمسكًا وثباتًا، وعملاً، وهدىٰ، واستقامة.

فإنَّ تمزُّقَ الأمةِ وخلافَها لن يُصْلَحَ، ولن يزولَ إلا بشدَّةِ التمسُّكِ بالسُّنَّة، والسير وفق منهج السلف، والحرص علىٰ الحديث والأثر، ودليل ذلك قوله ﷺ: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور**».

إذن فلابد من العودة والأوبة، العودة الصادقة إلىٰ ما كان عليه سلفنا الأوائل، وعلينا بالأمر العتيق، ومن أسباب

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان الصحابة ينهون عن اتباع كتب غير القرآن، وعمر انتفع بوصية النبي ﷺ له: حتىٰ أنه لما فتحت الإسكندرية وجد فيها كتبًا كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها إلىٰ **عمر** فأمر بها أن تحرق، وقال: «حسبنا كتاب الله».

وقال إسماعيل ابن علية، قال **ابن عون**: «أحسب أو أرىٰ يكون لهذه الكتب غب سوء». قال إسماعيل: «إنما كرهوا الكتاب، لأن من كان قبلكم اتخذوا الكتب، فأُعجبوا بها، فكانوا يكرهون أن يشتغلوا بها عن القرآن». تقييد العلم للخطيب (ص٥٧).

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد قرَّب جماعةٌ للطلبة وألَّفوا كتبًا مجردة عن الأدلة، فيقرأ طالب العلم ذلك الكتابَ، ثم ترسم معانيه وقواعده عنده ويجزم أنها الحق، فتراه يتعصَّب مع أهل تلك المقالة جزافًا، وربما اعترض من خالف تلك المقالة التي تخيل له أنها الصوابُ، وربما اجتمع طالبا علم كلٌّ واحدٍ قد أخذ عن أهل بلده كتابًا مجرداً عن الأدلة وخاصم الآخر من دون نظر إلىٰ دليل، ولا إلىٰ أنَّ أهلَ الفنِّ حرَّموا التقليدَ فيقع من هذا ضررٌ عظيمٌ ... وأكثر من يدَّعي العلم ويأخذ عن العلماء مَن هو بهذه المثابة، ومن هنا تأسست العداوات، وترىٰ العالمَ إنما يتطلب الدليل ليشيد أركان مقاله لا ليتبع الحق به، وهذا خللٌ عظيم، وهم في هذه الورطة العظيمة إلا من عصمه الله وقليل ما هم». (مزالق الأصوليين/ ص٦٣).

والله لقد كان أن انشغل كثير من طلاب العلم، بحفظ المتون بلا أدلة، وعكفوا علىٰ كتب المذاهب والحواشي والتقريرات والشروح، وتركوا كتاب الله عز وجل، وسنة النبي ﷺ، فلا تكاد تجد من يتفقه فيهما، ويقرأ تفسير القرآن بالمأثور، والحديث وشروحه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال **العلامة محمد تقي الدين الهلالي** رَحِمَهُ اللَّهُ : «اعلم أيها القارئ الموفق والمستمع أن التمذهب كله شر وبدعة من أقبح البدع وحسب أهله ضلالا أنهم تفرقوا في دينهم وليسوا من الله

انحطاط المسلمين اليوم وضعفهم هو قلة تلقي علومهم من الكتاب والسنة، وقد أخروهما، ولم تعد الاستفادة منهما والانتفاع منهما، والتفقه فيهما علىٰ الوجه المطلوب، حتىٰ إني سمعت من بعض طلاب العلم السلفيين الذين هم من أصول دعوتهم الكتاب والسنة سمعته يقول: الكتب الستة كونها تدرس هذا ليس بصحيح وإنما هذه مراجع إن احتجت إلىٰ حديث رجعت إليه فيهما!!.

في شئ والواجب علىٰ كل مسلم أن يكون في أمور الدين كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إمام واحد ودين واحد وأمة واحدة وإله واحد لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون لا مذاهب لا طرائق متصوفة لا أحزاب سياسية وحسبنا حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون». سبيل الرشاد (٣/ ١١٢).

قلت: ويدخل في هذا كتب الرأي المجردة عن الدليل، والكتب الثقافية، والفكرية، والسلوك، والمنطق، والفلسفة، والأوراد ونحوها مما لم يرد في الكتاب والسنة، وانشغل الناس به عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، بل وبعضها يتلىٰ لديهم مثل القرآن أو أعظم ككتاب: «دلائل الخيرات» فقد رأيت من يظل تالياً له طول اليوم!!.

وإذا كان هذا في كتب فيها بعض الأدلة، فكيف بمن اتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس، واعتمد في جُلِّ ما يقول علىٰ الصحف والمجلات، **فكتب ما يسمىٰ بالكتب الفكرية، أو الكتب الحركية وعكف عليها** وأعرض عن التفقه في نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك كتب الرقائق التي لم تبن علىٰ طريقة السلف.

الأهواء والتعصب والتحزب، والتقليد كان سبباً في الاعراض عن السنة

قال **الإمام ابن القيم**: "كان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة، وما جاء به الرسول في مسائل العلم الخبرية، وأهل مسائل الأحكام العملية يسمونهم: أهل الشبهات والأهواء، لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم[١١٦]، وهوىٰ لا دين، فصاحبه ممن اتبع هواه بغير هدىٰ من الله، وغايته الضلال في الدنيا والشقاء في الآخرة". إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٨)، وفي الحديث أيضاً: «**وأما المهلكات فشحٌ مطاع، وهوىٰ متبع، وإعجاب المرء بنفسه**». حسن: أخرجه البزار (٦٤٩١) وغيره (الصحيحة/ ١٨٠٢).

قال تعالىٰ: ﴿ ---------- ﴾(الجاثية/ ٤٣).

---

(١١٦) (/).

وقول النبي ﷺ: «لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواه»(١١٧).

قال وكيع: "من طلب الحديث كما جاء، فهو صاحب سنة، ومن طلبه ليقوي به رأيه، فهو صاحب بدعة"(١١٨).

وقال **أبوعثمان الحيري**: "من أمَّر السنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوىٰ علىٰ نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، قال تعالىٰ: ﴿ ====== ﴾ (النور/ ٥٤)". الاعتصام للشاطبي (١/ ٩٦).

وقال أبوالقاسم الأصبهاني: "**وصاحب الهوىٰ لا يتبع إلا ما يهوىٰ**، وإن كان عند العلماء أوهاها، وكذلك سمات أهل السنن والأهواء"(١١٩).

وقال أيضًا وهو يتحدث عن الرجل من أهل البدع: "من أفنىٰ عمره في اتباع أهوائه، وآرائه وخواطره، وهواجسه، ثم تراه يردّ ما هو أوضح من الصبح من سنن رسول الله ﷺ، وأشهر من الشمس برأي دخيل، واستحسان ذميم، وظنّ فاسد، ونظر مشوب بالهوىٰ؟!"(١٢٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر علىٰ ما تلقوه عن الرسول، بل علىٰ ما رأوه أو ذاقوه، ثم إن وجدوا السنة توافقه، وإلا لم يبالوا بذلك، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضًا أو حرفوها تأويلاً، **فهذا الفرقان بين أهل الإيمان والسنة، وأهل النفاق والبدعة**"(١٢١).

وقال أيضًا: "المخالف للسنة يرد بعض ما جاء به الرسول ﷺ، أو يعارض قول الرسول بما يجعله نظيراً له: من رأىٰ أو كشف أو نحو ذلك"(١٢٢).

إذن مصادر التلقي عندهم ليس الكتاب والسنة في الحقيقة وإن ادعوا أنهم متبعون للقرآن

---

(١١٧) سير النبلاء (٩/ ١٤٤).

(١١٨) من "الحجة في بيان المحجة" (٢/ ٢٣٣-٢٣٦).

(١١٩) المصدر السابق.

(١٢٠) مجموع الفتاوىٰ (١٣/ ٦٣).

(١٢١) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٨٧).

(١٢٢) **إسناده حسن**: رواه ابن جرير (٢٢/ ٦٢)، وابن عبد البر في "جامع العلم" (رقم١٤٢٢) وغيرهم.

والحديث، لكنهم لا يأخذون منهما إلا ما وافق أهواءهم أو لم يخالف ما هم عليه!!

فعلىٰ المسلم أن يحذر من ذلك، وعليه أن يلزم الأثر والحديث، لذا قال وكيع بن الجراح: «لو أن الرجل، لم يصب في الحديث شيئًا إلا أنه **يمنعه من الهوىٰ** كان قد أصاب فيه ». (**صحيح**: رواه الخطيب في شرف أصحاب الحديث/ رقم١١٨).

وجوب اتباع الصحابة وسنة الخلفاء الراشدين، وفهم النصوص بفهمهم في جميع أبواب الدين، وفي فهم القرآن والسنة

(والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .....)

(**واجعلنا للمتقين إمامًا**) نقتدي بمن قبلنا فيقتدي بنا من بعدنا.

وقد قال **عمر** لطلحة بن عبيدالله: "إنكم أيها الرهط أئمة يقتدىٰ بكم"،

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن **قتادة** رضي الله عنه في قوله: (**وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**) الآية، قال: "جعلهم الله أئمة يقتدىٰ بهم في أمر الله".

وَقَالَ **عمر** حِين بعث رهطًا من الْأَنْصَار إِلَىٰ الْكُوفَة: إِنَّكُم تأتون الْكُوفَة، فَتَأْتُونَ قومًا لَهُم أزيز بِالْقُرْآنِ فيأتونكم فَيَقُولُونَ: قدم أَصْحَاب مُحَمَّد قدم أَصْحَاب مُحَمَّد، فيأتونكم فيسألونكم عَن الحَدِيث فأقلوا الرِّوَايَة عَن رَسُول الله ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﴿ (البقرة/ ١٣٧).

وقال سبحانه: (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون).

ذكر ابن القيم رحمه الله وجوب اتباع قول الصحابة من خمسين وجهـًا، ورد في ذلك علىٰ ابن حزم ونحوه في اعلام الموقعين.

فضل علم السلف من الصحابة وخير القرون علىٰ علم الخلف، ولابد من الاعتناء بالآثار السلفية في شرح الكتاب والسنة النبوية

ينبغي الاعتناء بآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويكون ذلك في جميع أبواب الدين، سواء منها العقيدة والفقه أو غيرها، فيتم فهم النصوص بفهمهم، والأدلة علىٰ ذلك كثيراً منها.

لقوله تعالىٰ: وقوله عز وجل: ﴿ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ .. ﴾ (التوبة/ ١٠٠).

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (الحجرات/ ٧).

قال **الإمام ابن القيم**: «والصحابة هم الراشدون المهتدون، التي تمت هدايتهم ورشدهم، وكمال رشدهم يتضمن تمام الهداية في القول والفعل، ومعرفة الخطأ والصواب، والحق والباطل، وهذا يقتضي أنهم أولىٰ بالهداية إلىٰ الحق من غيرهم، ومن كان راشداً مهتدياً كان قوله وفتياه أقرب إلىٰ الحق والصواب ممن لم يكن كذلك، وهذا يقتضي اتباعه، وتقديم قولِهِ وفهمِهِ لكمال هدايته، فاقتضت الآية تقديم أقوالهم وفتاويهم، والله أعلم». أعلام الموقعين (٤/ ١٢٠).

ودليل وجوب اتباع الصحابة قوله تعالىٰ: ﴿ ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﴾ (النساء/ ١١٥).

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والآية قرنت بين مشاقة الرسول ﷺ وإتباع غير سبيل المؤمنين في استحقاق الإضلال وصلي جهنم.

ومشاقة الرسول ﷺ متلازمة مع اتباع غير سبيل المؤمنين، كما أن اتباع سبيل المؤمنين متلازم مع اتباع الرسول ﷺ. وعلىٰ هذا كثير من علماء السلف، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية – رَحِمَهُ اللَّهُ –، وهو أمر ظاهر؛ لأن إتباع سبيل المؤمنين ممتنع دون إتباع الرسول ﷺ، كما أن إتباع سنَّة الرسول ﷺ متعذر بمخالفة ما سلكه المؤمنون في تأويل الكتاب والسنة والتحليل والتحريم والإيجاب".

قوله تعالىٰ: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب)

قال **ابن القيم**: "الواجب علىٰ كل أحد طلب تأويل المتشابهة من أهل العلم به من الراسخين في العلم، وأن تأويله دون الرجوع إليهم إنما هو فتنة وإتباع للأهواء.

والراسخون هم أصحاب رسول الله ﷺ قولاً واحداً، فاقتضىٰ ذلك أن اتباع الصحابة في تأويل المتشابه فريضة تقتضيها البراءة من الفتن والأهواء، وأن مخالفتهم فيه من علامات الفتنة وإتباع الأهواء، والله الموفق".

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱ ٱ ٱ ٱ ٱ ٱ ٱ ٱ ﴾(سبأ/ ٦).

قال قتادة: "هم أصحاب محمد ﷺ"(١٢٣).

وقوله تعالىٰ: ﴿**كنتم خير أُمَّة أُخرجت للناس** ﴾(آل عمران/ ١١٠).

قال **ابن عباس**: "هم الذين هاجروا مع محمد ﷺ"(١٢٤).

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة في بيان فضلهم، ووجوب اتباعهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم **واتَّبِعُوهم في آثارهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم**»(١٢٥).

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** معلقاً عليه: " وقول **عبدالله بن مسعود** (عن الصحابة): كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا كلام جامع بين فيه حسن قصدهم ونياتهم ببر القلوب وبين فيه كمال المعرفة ودقتها بعمق العلم وبين فيه تيسر ذلك عليهم وامتناعهم من القول بلا علم بقلة التكلف.

والذي قاله عبدالله حق فإنهم خير هذه الأمة كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي صلىٰ الله عليه و سلم حيث قال: (**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) وهم أفضل الأمة الوسط الشهداء علىٰ الناس الذين هداهم الله لما اختلف فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم". منهاج السنة (٢/ ٧٩).

---

(١٢٣) **إسناده حسن**: رواه أحمد (١/ ٢٧٣)، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٥٥-ح١٢٣٩٩)، والآجري في "الشريعة" (١٢٢٢)، والحاكم في "مستدركه" (٢/ ٢٩٤)، وقال: "صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه"، وسكت عنه الذهبي، وهو علىٰ شرطه كما قالا، ولكنه ليس بصحيح بل حسن لأجل سماك بن حرب فإن روايته عن غير عكرمة لا بأس بها.

(١٢٤) **لا بأس به**: أخرجه ابن عبد البر في كتاب "جامع بيان العلم" (١٨١٠).

(١٢٥) **صحيح**: رواه ابن عبد البر في "جامع العلم" (زقم١٨٠٩)، والبخاري (ح٧٢٨٢) ببعض الاختصار، وقد جزم بنسبته إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في " منهاج السنة " (٦/ ٨١).

وقال **ابن القيم**: "ومن المحال أن يحرم الله أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا الصواب في أحكامه ويوفق له من بعدهم". اعلام الموقعين (٤/ ١٤٧).

وعن **حذيفة** رضي الله عنه قال: «اتقوا الله يا معشر القراء، **وخذوا طريق من كان قبلكم**، فلعمري لئن اتبعتموه لقد سبقتم سبقًا بعيداً، ولئن تركتموه يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»(١٢٦).

وعن جندب بن عبد الله لفرقة دخلت عليه من الخوارج فقالوا ندعوك إلىٰ كتاب الله فقال: أنتم قالوا: نحن قال: أنتم قالوا: نحن فقال: "يا أخابيث خلق الله في أتباعنا تختارون الضلالة أم في غير سنتنا تلتمسون الهدىٰ اخرجوا عنىٰ". **صحيح**:

قال الحسن عن **أن عائذ بن عمرو** -وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - دخل علىٰ عبيد الله ابن زياد فقال: أي بُني إني سمعت رسول الله يقول: «**إن شر الرعاء الحطمة**(١٢٧)» فإياك أن تكون منهم، فقال: له اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ فقال: وهل كانت لهم نخالة، إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم"(١٢٨).

وقال الحسن البصري: "أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلَّها تكلفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فتشبهوا بأخلاقهم، وطرائقهم فإنهم كانوا -ورب الكعبة- علىٰ الهدىٰ المستقيم"(١٢٩).

---

(١٢٦) **الحطمة**: هو العنيف برعاية الإبل في السّوق والإيراد والإصدار، ويلقي بعضُها فوق بعض، ويَعْسِفُها، ضربه مثلاً لوالي السوء. (النهاية لابن الأثير / ص٢١٥).

(١٢٧) رواه مسلم (٣/ ١٤٦١).

(١٢٨) **إسناده حسن**: أخرجه ابن عبد البر في كتاب "جامع بيان العلم" (١٨٠٧).

وقد ورد معناه عن ابن مسعود، رواه الهروي في ذم الكلام، وابن عبد البر (١٨١٠)، وفيه انقطاع، كما قال شيخنا في "المشكاة (ح١٩٣)، وقد جزم بنسبته إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في "منهاج السنة" (٦/ ٨١).

قال عليّ رضي الله عنه: "لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول ﷺ فما أرىٰ أحداً يشبههم والله إن كانوا ليصبحون شعثًا غبراً صفراً بين أعينهم مثل ركب المعزىٰ قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتىٰ تبلَّ والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين" رواه أبونعيم في الحلية الأولياء (١/ ٧٦)، **بسند فيه ضعف**، "البداية والنهاية" (٨/ ٧).

(١٢٩) **صحيح الإسناد**: رواه ابن عبد البر في (جامع العلم/ ح١٤٢٣).

سئل ابن المسيب عن شيءٍ فقال: «اختلف فيه أصحاب رسول الله ﷺ، ولا رأي لي معهم»(١٣٠).

وقال إبراهيم النخعي: «لو أن أصحاب محمدٍ مسحوا علىٰ ظُفْرٍ لما غَسَلْتُهُ التماسَ الفضلِ في إتباعهم»(١٣١). ولقد وصل بهم الأمر إلىٰ احتقار الرأي وما لم يأت عن الصحابة حتىٰ قال **الشعبي**: «ما حدثوك عن أصحاب رسول الله ﷺ فخذ به، وما قالوا فيه برأيهم فَبُلْ عليه»(١٣٢).

قال **الشعبي**: "ما حدَّثوك عن أصحاب رسول الله فخذ به، وما قالوا فيه برأيهم فَبُلْ عليه"(١٣٣).

وكان ابن عون يقول: "رحم الله رجلاً لزم هذا الأثر ورضي به، وإن استثقله واستبطأه"(١٣٤).

وعن عمر بن عبد العزيز أنه أوصىٰ بعض عماله: "أوصيك بتقوىٰ الله، والاقتصاد في أمره، وإتباع سنة رسوله ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعده .

فعليك بلزوم السنة فإنه لك بإذن الله عصمة، واعلم أن من سن السنن قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والتعمق والحمق، فإن السابقين عن علم وقفوا وببصر نافذ كَفُّوا، وكانوا هم أقوىٰ علىٰ البحث ولم يبحثوا"(١٣٥).

وهذا الإمام **الأوزاعي** أبو عمرو رَحِمَهُ اللَّهُ يعظم علم الصحابة وفقههم، ويذم رأي غيرهم فقال رَحِمَهُ اللَّهُ ولنعم ما قال **لبقية بن الوليد**: «يا بقية: العلم ما جاء عن أصحاب محمدﷺ وما لم

---

(١٣٠) **صحيح**: رواه ابن بطة (٢٥٤) والدارمي وغيرهما.

(١٣١) **صحيح الإسناد**: رواه عبد الرزاق (١١/ ٢٥٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (٤/ ٣١٩)، ابن عبد البر في (جامع العلم/ ح١٤٣٨).

(١٣٢) **صحيح الإسناد**: رواه عبد الرزاق (١١/ ٢٥٦)، والدارمي (٢٠٦)، وأبو نعيم في "الحلية" (٤/ ٣١٩)، ابن عبد البر في (جامع العلم/ح١٤٣٨)، والأحكام لابن حزم (٦/ ١٠٦٠) ، والخطيب في "شرف أصحاب الحديث" (برقم١٥٩).

(١٣٣) **صحيح علىٰ شرط الشيخين**: رواه ابن بطة في (الإبانة ٢٩١).

(١٣٤) **صحيح**: (صحيح سنن أبي داود:٤٦١٢)، وانظر تخريج "الشريعة" (أثر:٢٩٢).

(١٣٥) **صحيح**: رواه أبو عمر ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١٤٢٠).

يجئ عنهم فليس بعلم...»[١٣٦]، ولأن كثيراً من الآراء يزينها أصحابها ويحاولون إقناع الناس بها فقد قال **الأوزاعي أيضًا**: «عليك بآثار من سلف، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوها بالقول»[١٣٧].

وقال أيضًا: «عليك بآثار من سلف، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوها بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت علىٰ طريق مستقيم»[١٣٨].

وقال **أيضًا**: «ما رأي امرئ في أمر بلغه عن رسول الله ﷺ إلا اتباعه، ولو لم يكن فيه عن رسول الله ﷺ، **وقال فيه أصحابه من بعده كانوا أولىٰ فيه بالحق منا**، لأن الله تعالىٰ أثنىٰ علىٰ من بعدهم باتباعهم إياهم، فقال: ﴿پ پ پ﴾ (التوبة/ ١٠٠).

وقلتم أنتم: بل نعرضها علىٰ رأينا في الكتاب، فما وافقه منها صدقناه، وما خالفه تركناه، **وتلك غاية كل محدث في الإسلام**: رد ما خالف رأيه من السنة»[١٣٩].

وانظر رحمك الله إلىٰ منهج الأئمة الأربعة في التلقي كيف انتهجوا سبيل الصحابة فهذا **أبوحنيفة** -رحمه الله- قال: «إذا صح عندنا عن النبي ﷺ شئ لزمنا الأخذ به، فإن لم نجد عنه، ووجدنا عن الصحابة فكذلك فإذا قول التابعين زاحمناهم»[١٤٠].

وقال أيضًا: «آخذ بكتاب الله، فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ فإن لم أجد في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ أخذتُ بقول أصحابه، آخذ بقول من شئتُ منهم، ولا أخرج من قولهم

---

(١٣٦) **صحيح**: رواه الآجري في "الشريعة" (ح١٢٧)، الهروي في "ذم الكلام" (ح١١٦)، وصحح شيخنا إسناده في "مختصر العلو" (ص١٣٨)، والخطيب في "شرف أصحاب الحديث ()، وجامع بيان العلم (٢/ ١٤٤).

(١٣٧) **صحيح**: رواه الآجري في "الشريعة" (ح١٢٧)، الهروي في "ذم الكلام" (ح١١٦،٣١٧)، والبيهقي في "المدخل" (برقم٢٣٣)، وابن عبد البر في "جامع العلم" (٢/ ١٤٤)، والخطيب في "شرف أصحاب الحديث" (٨) وصحح شيخنا إسناده في "مختصر العلو" (ص١٣٨).

(١٣٨) **إسناده لا بأس به**: رواه عثمان بن سعيد الدارمي في "الرد علىٰ بشر المريسي" (٢/ ٦٦٩)، والهروي في "ذم الكلام" (٣٨٢)، وعبدالله بن صالح، إنما دخل عليه من قبل أحاديثه المرفوعة إلىٰ النبي ﷺ.

(١٣٩) الحجة في بيان المحجة (ص٤٠٢).

(١٤٠) **صحيح الإسناد**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (ح٨٩٠) والخطيب في "تاريخه" (١٣/ ٣٦٨).

إلىٰ قول غيرهم»(١٤١).

وقال مالك -رحمه الله-: «لم يكن شئ من هذه الأهواء علىٰ عهد النبي ﷺ ولا أبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان»(١٤٢).

وقال أيضًا: «ما قلَّت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء، ولا قلَّت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء»(١٤٣).

وقال الشافعي رحمه الله: «قد أثنىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم علىٰ لسان رسول الله ﷺ من الفضل ما ليس لأحد بعدهم فرحمهم الله وهنأهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلىٰ منازل الصديقين والشهداء والصالحين أدوا إلينا سنن رسول الله ﷺ، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل، وآراؤهم* لنا أحمد وأولىٰ بنا من رأينا لأنفسنا.

ومن أدركنا ممن يرضىٰ أو حكىٰ لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلىٰ قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا نقول **ولم نخرج من أقاويلهم**، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله»(١٤٤).

ورغب إلىٰ التمسك بهديهم والجري علىٰ منهاجهم والسلوك لسبيلهم والاقتداء بهم، فقال:﴿**ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولَّىٰ**﴾(١٤٥).

وجعل **الإمام أحمد** رحمه الله هذا المنهج من أصول العقيدة، وأساس الدين فقال رحمه الله: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي ﷺ والاقتداء بهم».

---

(١٤١) **حسن الإسناد**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (ح٨٦٥) وابن بطة في "الإبانة الصغرىٰ" (١٠٩).

(١٤٢) **حسن الإسناد**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (ح٨٦٩) والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/ ١٤٧).

*

(١٤٤) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢)، أعلام الموقعين (١/ ٨٠).

(١٤٥) مقدمة الجرح والتعديل (١/ ٧).

منهج الأئمة في الأخذ بأقوال الصحابة، والتفقه بفقههم، وأن علمهم هو العلم وقولهم هو القول، وهم القوم لا يفلح من خالفهم:

وقال **أبوعبدالله أحمد بن حنبل**: «إنما علىٰ الناس اتباع الآثار عن رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها من سقيمها ثم يتبعها إذا لم يكن لها مخالف، **ثم بعد ذلك قول أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر وأئمة الهدىٰ يتبعون علىٰ ما قالوا وأصحاب النبي ﷺ كذلك لا يخالفون إذا لم يكن قول بعضهم لبعض مخالفًا، فإذا اختلفوا نظر في الكتاب بأي قولهم كان أشبه بالكتاب أخذ به أو كان أشبه بقول رسول الله ﷺ أخذ به**، فإن لم يأت عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحاب النبي ﷺ، نظر في قول التابعين فأي قولهم كان أشبه بالكتاب والسنة أخذ به **وترك ما أحدث الناس بعدهم**». (طبقات الحنابلة٢/ ١٦، ١٥).

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: "وقد نص أحمد "في الصحابة إذا اختلفوا لم يخرج عن أقاويلهم أرأيت إن أجمعوا له أن يخرج من أقاويلهم؟ هذا قول خبيث، قول أهل البدع، لا ينبغي لأحد أن يخرج من أقاويل الصحابة إذا اختلفوا". المستدرك علىٰ فتاوىٰ ابن تيمية.جمع: ابن قاسم (ص٩٩).

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: وقد تأملت من هذا الباب ما شاء الله فرأيت الصحابة أفقه الأمة وأعلمها واعتبر هذا بمسائل الأيمان بالنذر والعتق والطلاق وغير ذلك ومسائل تعليق الطلاق بالشروط ونحو ذلك وقد بينت فيما كتبته أن المنقول فيها عن الصحابة هو أصح الأقوال قضاء وقياسا وعليه يدل الكتاب والسنة وعليه يدل القياس الجلي وكل قول سوىٰ ذلك تناقض في القياس مخالف للنصوص . أحكام المرتد عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ١١٨).

وقال **ابن القيم**: "أجود الأقوال: أقوال الصحابة وإلىٰ ساعتي هذه ما علمت قولا قاله الصحابة ولم يختلفوا فيه إلا كان القياس معه لكن العلم بصحيح القياس وفاسده من أجل العلوم وإنما يعرف ذلك من كان خبيرا بأسرار الشرع ومقاصده وما اشتملت عليه شريعة الإسلام من المحاسن التي تفوق التعداد وما تضمنته من مصالح العباد في المعاش والمعاد وما فيها من الحكمة البالغة والنعمة السابغة والعدل العام والله أعلم انتهىٰ". اعلام الموقعين (٢/ ٦٣).

قال **قوام السنة** الأصبهاني: "وروي عن عمر رضي الله عنه قال : لا عذر لأحد في ضلالة ركبها

حسبها هدىٰ ، ولا هدىٰ يركبه حسبه ضلالة . فقد ثبتت الحجة ، وانقطع العذر .

وذلك أنه تبين للناس أمر دينهم فعلينا الاتباع لأن الدين إنما جاء من قبل الله تعالىٰ لم يوضع علىٰ عقول الرجال ، وآرائهم قد بين الرسول ﷺ السنة لأمته، وأوضحها لأصحابه **فمن خالف أصحاب رسول الله ﷺ في شيء من الدين فقد ضل"**. الحجة في بيان المحجة (٢/ ٤٧٢)

وقال **الشافعي** في «الرسالة العتيقة» بعد أن ذكر فصلا في اتباع الصحابة للسنة: ومن أدركنا ممن يرضىٰ أو حكي لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول ﷺ فيه سنة إلىٰ قولهم إن أجمعوا، وقول بعضهم إن تفرقوا، بهذا نقول، ولم نخرج من أقاويلهم، وإن قال واحد منهم ولم يخالفه غيره أخذنا بقوله؛ فإنهم فوقنا في كل عام واجتهاد وورع وعدل وأمر استدرك به علم أو استنبط به قياس **وآراؤهم لنا أحمد، وأولىٰ بنا من اتباعنا لأنفسنا**.

وروىٰ الربيع عنه: قال المحدثات من الأمور ضربان؛ أحدهما: ما حدث يخالف كتابا أو سنة أو أثرًا أو إجماعا: **فهذه البدعة الضلالة**.

وروىٰ الربيع عنه قال: لا يكون لك أن تقيس إلا عن أصل أو قياس علىٰ أصل، والأصل: كتاب أو سنة، أو قول بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، أو إجماع الناس.

وقال في رواية يونس: لا يقال للأصل: لم ولا كيف؟

[إذا قال الصحابي قولاً لا يهتدي إليه قياس فهل يعمل به وإن خالفه صحابي آخر؟]

مسألة: فإذا قال الصحابي قولاً لا يهتدي إليه قياس فإنه **يجب العمل به، ويجعل في حكم التوقيف المرفوع، بحيث يعمل به وإن خالفه قول صحابي آخر، نص عليه في مواضع، وبه قالت الحنفية**. المستدرك علىٰ فتاوىٰ ابن تيمية.جمع: ابن قاسم (ص: ١١٢)

لا نسبة بين علم الصحابة وعلم من بعدهم، ولا فهمهم وفهم من بعدهم من المتأخرين:

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "وللصحابة فهم في القرآن يخفي علىٰ أكثر المتأخرين، كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين، فإنهم شهدوا الرسول والتنزيل وعاينوا الرسول، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله مما يستدلون به علىٰ مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس".

مجموع الفتاوىٰ (مجمع الملك فهد) (٢٤٨/ ٥٢).

العلم النافع هو المتلقىٰ من الكتاب والسنة في العقيدة والأحكام وغيرها بفهم الصحابة ومن سلك سبيلهم

فيما سبق من نصوص يبين أنه لابد من فهم نصوص الكتاب والسنة بفهم الصحابة ومن سار علىٰ دربهم، وهذا هو العلم النافع، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك والاجتهاد علىٰ تمييز صحيحه من سقيمه أولاً ثم الاجتهاد علىٰ الوقوف في معانيه وتفهمه ثانيـًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل. وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل". فضل علم السلف علىٰ الخلف

ومتىٰ لم يثمر هذا العلم الخشية والإنابة، والقرب من الله، فليس بنافع، قال **ابن رجب**: "إن كان علمه علمـًا يمكن الانتفاع به وهو المتلقىٰ عن الكتاب والسنة، فإن كان متلقىٰ من غير ذلك فهو غير نافع في نفسه ولا يمكن الانتفاع به بل ضره أكثر من نفعه، وعلامة هذا العلم الذي لا ينفع أن يكسب صاحبه الزهو والفخر والخيلاء وطلب العلو والرفعة في الدنيا، والمنافسة فيها، وطلب مباهاة العلماء ومماراة السفهاء وصرف وجوه الناس إليه وقد ورد عن النبي ﷺ إن من طلب العلم لذلك فالنار النار". فضل علم السلف علىٰ الخلف

قال ابن القيم أيضـًا: «إن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول **دون مقدرات الأذهان ومسائل الخرص والألغاز**، وذلك بحمد الله تعالىٰ أيسر علىٰ النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر، كما قال تعال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر/ ١٧)»[١٤٦].

لا يجوز أن نحدِثَ قولاً خلاف قول الصحابة وهم الجماعة

سبق معنا قول ﷺ: (**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**).

أمرنا عليه الصلاة والسلام بلزوم الجماعة، ووصفهم بقوله: «**وستفترق هذه الأمة علىٰ**

---

(١٤٦) من إعلام الموقعين .

ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟، قال: «**هي الجماعة**»، وفي رواية قال: «**من كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**». وأصحاب النبي ﷺ ما تركوا شيئاً من أمر الدين إلا بينوه لنا، قال **الإمام البربهاري** رحمه الله: «من زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب محمد ﷺ فقد كذبهم، وكفىٰ به فُرقة، وطعناً عليهم، وهو مبتدع ضال، محدث في الإسلام ما ليس فيه»(١٤٧) أ.هـ.

وقال **أبوشامة** رحمه الله: "وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد به **لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف كثيراً**، لأن الحق الذي كانت عليه **الجماعة الأولىٰ من عهد النبي ﷺ وأصحابه** –رضي الله عنهم– ولا نظر إلىٰ كثرة أهل الباطل بعدهم". الباعث علىٰ إنكار البدع (ص٩١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ بَحْبُوحةَ الجنَّةَ فلْيَلْزَمِ الجماعَةَ، فإنَّ الشّيطانَ مع الواحدِ، وهو منَ الاثنينِ أبعد**»(١٤٨).

وقد ورد تفسير الجماعة التي يجب اتباعها في النصوص بأنهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار علىٰ منهاجهم، من أهل العلم بالحديث والفقه والأثر.

فقد قيل **لعبدالله بن المبارك**: مَن الجماعة الذين ينبغي أن يقتدىٰ بهم؟.

قال: "**أبوبكر وعمر**"، قيل له: فقد مات أبوبكر وعمر، قال: "فلان وفلان"، قيل له: قد

---

(١٤٧) شرح السنة (ص٧٠).

(١٤٨) **صحيح لغيره**: وقد ثبت مرفوعًا من غير وجه عن عمر رضي الله عنه، فرواه الترمذي (٦/ ٣٣٣- ح ٢١٦٦، ك الفتن، باب: ٧)، وقال : "حديث حسن صحيح". (صحيح الترمذي ١٧٥٨)، وأخرجه الحاكم (ض/ ١١٤) وقال: "هذا حديث حسن صحيح علىٰ شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. قال الشيخ الألباني: وهو كما قالا. (تخريج السنة لابن أبي عاصم ١/ ٤٣) رقم (٨٧، ٨٨، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٢)، و"الصحيحة" (١١١٦).

وورد بألفاظ كثيرة منها: عن **عبد الله بن الزبير** أن عمر بن الخطاب قام بالجابية (بدمشق) خطيباً فذكر مثل معناه، قال: أكرموا أصحابي ، فإنهم خياركم ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وقال : «**فمن سره بحبوحة الجنة فعليه بالجماعة**»، **وزاد في رواية**: «ألا لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشطيان ألا ومن كان منكم تسوءه سيئته وتسره حسنته فهو مؤمن»..

مات فلان وفلان، فقال: «أبو حمزة السكري (محمد بن ميمون) جماعة».

قال **أبو عيسىٰ الترمذي**: «وإنما قال هذا في حياته»(١٤٩).

وقال **إسحاق ابن راهويه**: «في ذلك الزمان يعني: أبا حمزة، وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه، ثم قال إسحاق: لو سألت الجهال من السواد الأعظم؟

قالوا: جماعة الناس!، **ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة**»(١٥٠).

ثم إن هؤلاء قد انقضىٰ عصرهم، ولكنهم أدوا إلينا هذا الدين، وأخذه عنهم التابعون لهم بإحسان، وهكذا إلىٰ زماننا كما قال تعالىٰ: ﴿**واجعلنا للمتقين إماماً**﴾ (الفرقان/ ٧٤)، قال البخاري: «أي نقتدي بمن قبلنا فيقتدي بنا من بعدنا»

وقد وقفنا علىٰ أقوال كثيرة في المذاهب خالف فيها أصحابها الصحابةَ، حتىٰ قال **ابن حزم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن ثقَّف هذا الباب فإنه يجد لأبي حنيفة ومالك والشافعي أزيد من عشرة آلاف مسألة لم يقل فيها أحد قبلهم بما قالوه". الإحكام (٥/ ٨٤).

---

(١٤٩) جامع الترمذي، كتاب: الفتن، باب: لزوم الجماعة، والاعتصام للشاطبي (٢/ ٧٧١).
(١٥٠) الحلية (٩/ ٢٣٩).

من فضَّل أحداً من الأئمة والعلماء علىٰ الصحابة فهو مبتدع، أضل من حمار أهله

فأصحاب النبي ﷺ لا يوازيهم ولا يساويهم بل ولا يدانيهم أحد مما جاء بعدهم في دين ولا علم ولا فقه، ولا هدىٰ وتوفيق، لا التابعون ولا تابعوهم ولا الأئمة الأربعة ولا غيرهم، بل هم أئمة لهم وللناس إلىٰ يوم القيامة رضي الله عنهم.

وقد كانوا ينهون عن تفضيل أحد من الصحابة عثمان ولا علي علىٰ الشيخين، فكيف بمن دونهم بمراحل من الصحابة، والتابعين، بل والأئمة وغيرهم؟!

فعَنِ الْحَكَمِ بْنِ جَحْلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه يَقُولُ: «**لَا يُفَضِّلُنِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما إِلَّا جَلَدْتُهُ حَدَّ الْمُفْتَرِي**»(١٥١)، وعن **ابن أبي ليلىٰ** قال: تدارؤوا في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال رجل من عطارد: «عمر أفضل من أبي بكر»؛ فقال الجارود: «بل أبوبكر أفضل منه» فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فقال: فجعل ضرباً بالدِّرة حتىٰ شغر برجليه ثم أقبل إلىٰ الجارود فقال: إليك عني ثم قال عمر رضي الله عنه: «أبو بكر كان خير الناس بعد رسول الله ﷺ في كذا وكذا» ثم قال عمر: «**من قال غير هذا أقمنا عليه ما نقيم علىٰ المفتري**»(١٥٢).

وقيل لحماد بن أسامة أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبدالعزيز؟

فقال: أصحاب النبي ﷺ لا يقاس بهم أحد(١٥٣).

وقيل لابن المبارك: معاوية خير أو عمر بن عبدالعزيز؟

فقال: تراب دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ خير وأفضل من عمر بن

---

(١٥١) **صحيح: رواه أحمد** في «فضائل الصحابة» (٤٩) (٣٨٧)، وفي السنة لعبدالله بن أحمد (١٢٩٠)، وقواه ابن تيمية، قَالَ **أَبُو عَبْدِ اللهِ** الْبُوشَنْجِيُّ: هَذَا الْحَدِيثُ الَّذِي سُقْنَاهُ وَرَوَيْنَاهُ مِنَ الْأَخْبَارِ الثَّابِتَةِ لِأَمَانَةِ حُمَّالِهِ وَثِقَةِ رِجَالِهِ. (الكفاية للخطيب/ ص٣٧٦).

(١٥٢) **صحيح: رواه أحمد** في «فضائل الصحابة» (٣٩٦)، وفي السنة لعبدالله بن أحمد (١٣٤٣)،وقد اختلف في سماع عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ من عمر رضي الله عنه وقال مسلم في «مقدمة صحيحه»: "إنه قد حفظ عن عمر" قال ابن كثير: وهو الصواب إن شاء الله.

قوله: «**حتىٰ شغر**» معناه: اتسع في الضرب وأكثر منه.

(١٥٣) **صحيح الإسناد:** أخرجه الآجري في «الشريعة» (١٩٥٤).

عبدالعزيز[١٥٤].

ومما يتعجب منه أن بعض المشايخ السلفيين لا نراهم يعتنون بآثار الصحابة، في فقههم، ولا في سائر العلوم، ولا يحثون عليها اللهم إلا في باب الاعتقاد مع أن أصولهم تقضي بوجوب فهم السلف للنصوص في جميع الأبواب، والفقه أيضاً وكثيراً ما نسمعهم يترنمون:

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فقيه

ولكن واقع الحال نجدهم لا يبحثون عن ذلك ولا يعتنون به، ولعل من أسباب ذلك هو عدم اعتناء الناس بالآثار من جهة جمع طرقها، والتحقيق لها، وأيضا قلة المعرفة بالتخريج، ويحتمل أن من الأسباب أيضًا أن الطريقة التي درج عليها الناس ودرسها هؤلاء المشايخ لها أثر علىٰ فقههم وعلمهم وتعليمهم.

ما فائدة الاعتناء بالآثار؟

لآثار الصحابة فوائد جمة، ومنافع كثيرة منها:

أولاً: الاطمئنان في العلم، واليقين إلىٰ صحة وسلامة المعتقد والمنهج، والصواب في الفقه.

ثانيًا: قلة الخلاف، فإن اختلف الصحابة علىٰ قولين فلا يجوز أن نحدث قولاً ثالثًا فنتجاوزهم، لأنه لا يمكن أن يضلهم الله ويهدي من بعدهم.

ثالثًا: عدم التكلف، والتعقيد، وكثرة الحشو والكلام.

رابعًا: التطبيق العملي، وسرعة الامتثال، فإنهم أئمة لمن بعدهم، ﴿**واجعلنا للمتقين إمامًا**﴾،

قال أبوعبدالله البخاري: نقتدي بمن قبلنا، وفيقتدي بنا من بعدنا».

خامسًا: ملازمة السنة والجماعة، وعدم الخروج عن السبيل، «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ**».

---

(١٥٤) **صحيح الإسناد**: أخرجه الآجري في «الشريعة» (١٩٥٥).

وقد قال **عمر** لطلحة بن عبيدالله: "إنكم أيها الرهط أئمة يقتدىٰ بكم"،

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله : وجعلناهم أئمة يهدون الآية، قال: "جعلهم الله أئمة يقتدىٰ بهم في أمر الله".

سادسًا: الخروج من البدعة والضلالة، فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف.

سابعًا: قوة الحجة إذ إن كثيراً من الناس يعتمد قولهم، ويقدم قولهم علىٰ القياس، وربط الناس بمنهجية العلماء الفقهاء من السابقين الأولين.

ثامنًا: إمكانية معرفة الإجماع في المسائل.

تاسعًا: معرفة الطريقة الصحيحة في التعلم، والاستنباط، وفقه السلف.

عاشراً: العمل بوصية النبي ﷺ واتباع سبيل المؤمنين من العلماء، وهذا تأصيل مهم.

وسبق أن ذكرنا حديث النبي ﷺ: «**فعليكم بما عرَفْتُم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**». قال **الإمام البغوي** –رَحِمَهُ اللَّهُ– معلقًا علىٰ هذا الحديث: «أمر بلزوم سنته، وسنة الخلفاء الراشدين، والتمسك بها بأبلغ وجوه الجِدِّ، ومجانبة ما أُحدِثَ علىٰ خلافها». شرح السنة للبغوي (١/ ٢٠٦)، وقوله ﷺ في وصف الفرقة الناجية: «**هي ما أنا عليه وأصحابي**». **حسن أو صحيح لغيره**: ينظر تخريجي لكتاب الشريعة للآجري (ح١٦ ط-جديدة).

قال **الخطيب البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأحاديث الموقوفات علىٰ الصحابة فقد جعلها كثير من الفقهاء بمنزلة المرفوعات إلىٰ النبي ﷺ في لزوم العمل بها وتقديمها علىٰ القياس وإلحاقها بالسنن» (الجامع لأخلاق الراوي ٤/ ٣٠٩).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حجية قول الصحابة من نحو خمسين وجهًا، فلتراجع فإنها مهمة.

عن **صالح بن كيسان**، قال: « اجتمعت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم فاجتمعنا علىٰ أن نكتب السنن فكتبنا كل شيء سمعنا عن النبي ^ ثم قال: «**نكتب ما جاء عن أصحابه** فقلت : لا ليس بسنة فقال: بلىٰ هو سنة قال : فكتب ولم أكتب فأنجح وضيعتُ» (صحيح: رواه الخطيب/ ١٥٨٥).

وعن مالك بن مغول، قال: قال لي **الشعبي**: «ما حدَّثوك عن أصحاب محمد ﷺ فاحفظه وما حدثوك عن رأيهم فارم به في الحش» (صحيح: رواه الخطيب/ ١٥٨٦).

وقال **الدارمي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يستدرك **سنن رسول الله وأصحابه وأحكامهم وقضاياهم إلا بهذه الآثار** والأسانيد علىٰ ما فيها من الاختلاف وهي السبب إلىٰ ذلك والنهج الذي درج عليه المسلمون وكانت إمامهم في دينهم بعد كتاب الله عز و جل منها يقتبسون العلم وبها يقضون وبها يقيمون وعليها يعتمدون وبها يتزينون يرثها الأول منهم الآخر ويبلغها الشاهد منهم الغائب احتجاجًا بها واحتسابًا في أدائها إلىٰ من لم يسمعها يسمونها: **السنن والآثار والفقه والعلم** ويضربون في طلبها شرق الأرض وغربها يحلون بها حلال الله ويحرمون بها حرامه ويميزون بها بين الحق والباطل والسنن والبدع ويستدلون بها علىٰ تفسير القرآن ومعانيه وأحكامه ويعرفون بها ضلالة من ضل عن الهدىٰ فمن رغب عنها فإنما يرغب عن آثار السلف وهديهم ويريد مخالفتهم ليتخذ دينه هواه وليتأول كتاب الله برأيه خلاف ما عنىٰ الله به فإن كنتم من المؤمنين وعلىٰ منهاج أسلافهم فاقتبسوا العلم من آثارهم واقتبسوا الهدىٰ في سبيله وارضوا بهذه الآثار إماما كما رضىٰ بها القوم لأنفسهم فلعمري ما أنتم أعلم بكتاب الله منهم ولا مثلهم ولا يمكن الاقتداء بهم إلا باتباع هذه الآثار علىٰ ما ترون فمن لم يقبلها فإنه يريد أن يتبع غير سبيل المؤمنين وقال الله تعالىٰ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولىٰ ونصله جهنم وسآءت مصيرا » (الرد علىٰ الجهمية/ ص٢٦).

وقال **شارح الطحاوية**: «والجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، فاتِّباعُهُم هُدًىٰ وخلافهم ضلال». (شرح العقيدة الطحاوية/ ص٤٣٠).

فأين أقوال الصحابة من أقوال من بعدهم من التابعين لهم بإحسان، فكيف بمن بعدهم فلا نسبة بينهم.

وقال **مَالِكٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِذَا قَلَّ الْعِلْمُ ظَهَرَ الْجَفَا، **وَإِذَا قَلَّتْ الْآثَارُ كَثُرَتْ الْأَهْوَاء**".

قال أحمد: "إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق".

قال الشعبي: "ما حدثوك فيه عن أصحاب النبي فخذ به، وما حدثوك فيه عن آرائهم فبل عليه".

فلا يمكن أن يضل الله الصحابة في مسألة ويهدي من بعدهم

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: ((ومن آتاه الله علما وإيمانا علم أنه لا يكون عند المتأخرين من التحقيق إلا ما هو دون تحقيق السلف لا في العلم ولا في العمل)) (١) ما أجمل وأبلغ هذه العبارة من هذا الإمام الخبير!.

قال **معمر بن راشد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصحاب النبي ﷺ اصابتهم نفحة من النبوة". **صحيح**: أخرجه الخلال في السنة (٢/ ٤٨٠). يعني: نفحة من النبي ﷺ في الفهم الصحيح للوحيين.

العلم ليس بكثرة الكلام وتشقيق المسائل فالصحابة أقل الناس كلاماً، وأكثر الناس علماً، وأعظم الناس بركة.

يجب أن يعتقد أنه ليس كل من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممن ليس كذلك.

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول: هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين....

فالحذر من كل منافق عليم اللسان، فليس كل من تكلم بالعلم كان أهلاً لذلك، ولقد رأينا العلماء الكبار فإنهم أقل الناس كلاماً، ولم تشهرهم الفضائيات، والدعايات ولم تلمعهم الأحزاب ونحوها، وإنما رفعهم الله تعالىٰ وحده بما لديهم من علم صحيح ونصح وصدق، فالناس لا يضلون ما كانوا مع علمائهم الكبار، قال **الطرطوشي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يؤتىٰ الناس قطُّ من قِبَل علمائهم، وإنما يؤتون من قِبَل: أنه إذا مات علماؤهم؛ أفتىٰ مَنْ ليس بعالم، فيؤتىٰ الناسُ من قِبَلِهِ»(١٥٥).

فينبغي أن يُميّز العالم من غيره، وقد قال **ابن تيمية**: «كان السلف يعدون **كل من خرج عن**

---

(١٥٥) الحوادث والبدع (ص٧٧)، قلت: وقد وقع الأمر كما تنبأ به رَحِمَهُ اللَّهُ إنما أُتي الناس من قبل من ليس بعالم ممن حشر نفسه في زمرتهم، وحاكىٰ العلماء وهو ليس بذلك، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، وقد شيخهم الناس، ورفعوهم بسبب الفضائيات ونحوها وكانت من جراء ذلك مصائب، وطامات وهدمت مساجد، وانتهكت المحارم وإلىٰ الله المشتكىٰ.

الشريعة في شيء من الدين: من أهل الأهواء ويأمرون **بألا يغتر بهم ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحجاج أو العبادة والأحوال مثل المكاشفات وخرق العادات»**[١٥٦].

قال ابن القيم أيضًا: «إن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول **دون مقدرات الأذهان ومسائل الخرص والألغاز**، وذلك بحمد الله تعالىٰ أيسر علىٰ النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر، كما قال تعال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر/ ١٧).

وسنة رسوله، وهي بحمد الله تعالىٰ مضبوطة محفوظة، أصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة[١٥٧] حديث وفرضها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث.

وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان، وأغلوطات المسائل، والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان التي كل ما لها في نمو وزيادة توليد، والدين كل ما له في غربة ونقصان، والله المستعان»[١٥٨].

فالعلم لا يحتاج إلىٰ توليد مسائل، ولا تشقيق كلام، وعن ابن عمر قال: قدم رجلان من المشرق خطيبان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فقاما فتكلما ثم قعدا.

وقام ثابت بن قيس؛ خطيب رسول الله ﷺ فتكلم، فعجب الناس من كلامهما، فقام رسول الله ﷺ يخطب، فقال: «**يا أيها الناس! قولوا قولكم، فإنما تشقيق الكلام**(تزيينه والمبالغة فيه، والإكثار منه) **من الشيطان**»[١٥٩].

عن أنس قال: خطب رجل عند **عمر**، فأكثر الكلام، فقال **عمر**: «إن كثرة الكلام في الخطب من شقاشق الشيطان»[١٦٠].

وعن أبي يزيد – أو : معن بن يزيد– أن النبي ﷺ قال: «**اجتمعوا في مساجدكم، وكلما**

---

(١٥٦) الاستقامة (١/ ٢٥٤).

(١٥٧) هذا مما يدلُّ علىٰ تيسير الاجتهاد.

(١٥٨) من إعلام الموقعين .

(١٥٩) صحيح الأدب المفرد (٦٧٥).

(١٦٠) **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٦٧٦)، رواه إسماعيل بن جعفر (رقم/ ٩٩).

اجتمع قوم فليؤذنوني (فليعلموني)». فأتانا أول من أتىٰ، فجلس، فتكلم متكلِّم منَّا، ثم قال: **إن الحمد لله الذي ليس للحمد دونه مقصد ولا وراءه منفذ**، فغضب فقام، فتلاومنا بيننا، فقلنا: أتانا أول من أتىٰ، فذهب إلىٰ مسجد آخر فجلس فيه ..»[١٦١].

وعن **مجاهد**: «أن رسول الله قال إن الله لم يبعث نبيـًا إلا مبلغًا وإن تشقيق الكلام في الخطب من الشيطان». **صحيح**: رواه عبدالرزاق ()، والهروي في (ذم الكلام وأهله١/ ١١٤ – رقم٩٩).

فقد يغتر بعض الطلاب بمن كثر كلامه، وتفيهق، أو كثرت محفوظاته، وذكر الكثير من الكتب أو المتون، أو الأقوال، أو الحدود والتعريفات وتشدق بذلك.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: **قد فتن كثير من المتأخرين بهذا فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض**، وانظر إلىٰ أكابر الصحابة وعلمائهم، كأبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاذ، وابن مسعود، وزيد ابن ثابت كيف كانوا، كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين والتابعون أعلم منهم.

فإن هؤلاء كلهم أقل كلامـًا ممن جاء بعدهم، وهذا انتقاص عظيم بالسلف الصالح وإساءة ظن بهم ونسبة لهم إلىٰ الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولقد صدق **ابن مسعود**: «إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه وسيأتىٰ بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه». فمن كثر علمه وقل قوله فهو ممدوح، ومن كان بالعكس فهو مذموم. وقد شهد النبي ﷺ لأهل اليمن بالإيمان والفقه، وأهل اليمن أقل الناس كلامـًا وتوسعـًا في العلوم لكن علمهم علم نافع في قلوبهم ويعبرون بألسنتم عن القدر المحتاج إليه من ذلك وهذا هو الفقه والعلم النافع..." (فضل علم السلف علىٰ علم الخلف- ص٥٣-٥٨).

لذلك كانت قصر خطبة الرجل مئنة من فقهه كما ورد في الحديث.

وقال **ابن رجب**: (فلا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز

---

(١٦١) صحيح الأدب المفرد (٦٧٧).

لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة ما لا يهتدي إليه من بعدهم ولا يلم به، **فمن لم يأخذ العلم من كلامهم فاته ذلك الخير كله** مع ما يقع في كثير من الباطل متابعة لمن تأخر عنهم) فضل علم السلف علىٰ الخلف لابن رجب (ص٦٥).

وقال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: (**...قد فتن كثير من المتأخرين بهذا فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محض**، وانظر إلىٰ أكابر الصحابة وعلمائهم، كأبي بكر، وعمر، وعلي، ومعاذ، وابن مسعود، وزيد ابن ثابت كيف كانوا، كلامهم أقل من كلام ابن عباس وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين والتابعون أعلم منهم.

فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل، ويعقل به عن الله تعالىٰ، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد، وقد كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام. ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام والتوسع في القيل والقال...

قال: وقَالَ **مَالك**: «إِنَّمَا كَانَ النَّاس يفتون بِمَا سمعُوا وَعَلمُوا وَلم يكن هَذَا الْكَلَام الَّذِي فِي النَّاس الْيَوْم »[(١٦٢)].

---

(١٦٢) **صحيح**: رواه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥ – رقم٦٢٩)، رواه أبوسعيد الأصبهاني في (مجسلان لأبي سعد البغدادي/ ص١٤). بلفظ:

سمعتُ مالكًا يقول: حق علىٰ من طلب العلم أن يكون بوقار وسكينة وخشية، وأن يكون مسبغًا، لم ير من مشىٰ قبله فيه ملل، وكان الناس .....».

قال **مالك** : «**أدركت أهل هذا البلد وما عندهم علم غير الكتاب والسنة**، فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه، وأنتم تكثرون المسائل وقد كرهها رسول الله ﷺ». (تفسير القرطبي٦/ ٣٣٢)

وقال أيضًا الشيخ ببداه: "وفي "فتح الباري" (١١/ ٢٤٢) نقلاً عن **الإمام مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في تفسير: «**كثرة السؤال**» ما نصه: "والله إني لأخشىٰ أن يكون هذا الذي أنتم فيه من تفريع المسائل". أسنىٰ المسالك

قلت: وكلما تأخر الزمان كان الكلام أكثر، وبمناسبة الكلام علىٰ الأحاديث وشرحها، فإنا نحث علىٰ التقليل من الكلام في شرحها، وكذلك نجتنب ذكر الاختلافات، والأقوال فيها، وكثرة المباحث اللغوية، والأصولية ونحوها، مما كان سبباً في عزوف كثير من طلاب العلم عن تلك الشروح، بله كتب السنة، وكان من أعظم أسباب بعد الناس عن السنة، وهناك أسباب أخرىٰ، كالإسهاب والإطناب والإطالة في الشرح، واستعمال المصطلحات العلمية التي قد لا يفهمها إلا العلماء.

فإن خير الكلام ما قلَّ ودلَّ -كما يقال-، ونقرب العلم، ليصل إلىٰ مبتغيه من أقرب طريق، وقل مثل هذا في تدريس كتب السنة، والإطالة إلىٰ حد ممل، وذكر الأقوال وأدلة كل قول، والرد علىٰ كل دليل من عدة أوجه، ونحو هذا الأسلوب المخالف لطريقة السلف، وقد يعتقد بعضهم أن ذكر جميع الأقوال في المسألة هو من الأمانة العلمية، وفي الحقيقة هو من الصد عن السنة

(ص١٢).

ومن أمثلة ذلك:

ما ذكره بعضهم من الصلاة في الأرجوحة، ولسنا ولله الحمد بحاجة إلىٰ فذلكة متفذلك أو متحذلق من أصحاب الرأي، وتشقيق كلامهم، وتخيلاتهم الفاسدة، وتوهماتهم العاطلة حيث يريد أحدهم أن يقيس الصلاة في الطائرة علىٰ الصلاة في الأرجوحة، فهذا من أفسد القياس، إذ القياس ينبغي أن يقاس فرع علىٰ أصل، وأما هذا ففرع علىٰ فرع!!.

وثانياً هذا عبث، ولعب، وما أُعِدت مثل هذه إلا للعب والعبث فكيف يصلي مسلم وهو يعبث هذا العبث.

ثالثاً: هل الأرجوحة تكون بلا شئ تتعلق به يكون ممدوداً بالأرض، أم لابد من شئ تعلق به؟ فإذاً صارت كالدابة من هذه الحيثية.

رابعاً: هذا اللاعب قادر علىٰ النُزول علىٰ الأرض، والذي بالطائرة لا يقدر إلا علىٰ هذا، فهو قياس مع الفوارق الكثيرة. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا غرابة في أن يخرج مثل هذا الهراء من بعض متعصبة المذاهب، لأنهم قد حكموا علىٰ أنفسهم بأنهم مقلدون (أي جهلة بالاتفاق)، وأنهم ليسوا بأهل للقياس، فلم يتمرسوا العلم والقياس، وبضاعتهم مزجاة من السنة المطهرة.

ولكن العجب أن ترىٰ بعض الشباب المنتسبين إلىٰ السلفية يتبنون مثل هذا كما في كتاب: "منطلقات طالب العلم" وهو يوجههم إلىٰ كتب المذاهب!!. عفا الله عنه.

ينظر ما قاله شيخنا العلامة في (الصحيحة١/ القسم الأول – ص١٧٤).

وشروحها، قال تعالىٰ: (**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**).

وبعضهم يظن أن كثرة الكلام والأقوال هذا من سعة العلم، وكثرة الاطلاع، ووو

وقد يغتر بعض الطلاب بمن كثر كلامه في مسائل العلم، أو كثرت تآليفه، وتنميقه للعبارات، وتشدقه وتفاصحه بالكلام.

قَالَ ابن وهب: قَالَ لي **مَالك**: «أدْرَكْت أهل هَذِه الْبِلَاد وَإِنَّهُم ليكرهون هَذَا الْإِكْثَار الَّذِي فِي النَّاس الْيَوْم قَالَ ابْن وهب: يُرِيد الْمسَائِل»، قَالَ ابن وهب: وَقَالَ **مَالك**: «الْحِكْمَة وَالْعلم نور يهدي بِهِ الله من يَشَاء وَلَيْسَ بِكَثْرَة الْمسَائِل»[١٦٣]، وَقَالَ فِي مَوضِع آخر من ذَلِك الْكتاب سَمِعت **مَالِكًا** يَقُول: «لَيْسَ الْفِقْه بِكَثْرَة الْمسَائِل وَلَكِن الْفِقْه يؤتيه الله من يَشَاء من خلقه»[١٦٤]، وَقَالَ **مَالك**: «الْعلم وَالْحكمَة نور يهدي بِهِ الله من يَشَاء، وَلَيْسَ بِكَثْرَة الْمسَائِل»[١٦٥]، فعن أشهب بن عبد العزيز قال: سمعت **مالك بن أنس** يقول: «ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يجعله الله تعالىٰ في القلب»[١٦٦].

وقال **الْخَوَّاصَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا الْعَالِمُ مَنَ اتَّبَعَ الْعِلْمَ وَاسْتَعْمَلَهُ، وَاقْتَدَىٰ بِالسُّنَنِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ الْعِلْمِ» (اقتضاء العلم العمل/ ٢٤).

وقال **البربهاري**: «واعلم أن العلم ليس بكثرة الرواية والكتب، ولكن العالم من اتبع الكتاب والسنة وإن كان قليل العلم والكتب، ومن خالف الكتاب والسنة فهو صاحب بدعة، وإن كان كثير الرواية والكتب»[١٦٧]. **قلت**: ولو كان كثير الشهرة، ويحضر له الألوف والملايين، ومن كان فصيحاً ومتكلماً،

عِش رجباً ترىٰ عجباً

---

(١٦٣) ().

(١٦٤) ().

(١٦٥) ().

(١٦٦) **صحيح**: الضعفاء للعقيلي (١/ ١٠٠)، ورواه الرامهرمزي في "المحدث الفاصل" (رقم٧٥٥) من طريق أخرىٰ عنه، وبنحوه عند أبي نعيم في "الحلية" (٦/ ٣١٩)

(١٦٧) شرح السنة (٨١).

ومن المؤسف أن تجد من أصحاب الأصول وغيرهم من يقول: لا يجوز الأخذ بآثار الصحابة زعماً منه أن أقوالهم من لم تحرر، وأقوال علمائهم حررت!!!

فمَن منع مِن الأخذ بأقوال الصحابة في الفقهيات، ومن يرهب من آثار الصحابة، وينهىٰ الناس أن يأخذوا منها الفقه بحجة أن مذاهبهم لم تحرر –زعموا–!! هؤلاء ضلوا وأضلوا كثيراً، ولست مستغرباً مثل هذا من بعضهم، فإن كان قد وُجِدَ من يقدم القياس علىٰ السنة والحديث الصحيح، وبعضهم يفرق بين الآحاد وغيره من حيث الحجية، وبعضهم يأتيه الحديث الصحيح فيقول: ليس عليه العمل، وبعضهم يتأول الحديث لموافقة المذهب تعصباً إلىٰ غير ذلك؛ فليس بمستغرب أن يقول هؤلاء في قول الصحابي؟.

فإن لم يكن العلم عند الصحابة ومنهم، وإن لم يكن الحق معهم فمع من؟، ولدىٰ من؟، ويكفي في هذا ما نقلناه عن أئمة المذاهب وغيرهم رحمهم الله، والنقول في هذا الأمر كثيرة جداً، ولا تكاد تحصىٰ.

فنحن أُمرنا أن نأخذ العلم من فوق، كما قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ فإن تعلم الطالب الكتاب ثم السنة، ثم يلي ذلك في التعلم أن يأخذ علم السلف، وطريقة السلف، ورد في رواية: أن رجلاً سأل **أحمد ابن حنبل** أكتب كتب الرأي[١٦٨]؟.قال: لا، قال فابن المبارك قد كتبها؟ قال: «ابن المبارك لم ينْزل من السماء، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق». مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٤).

وفيما سبق يتبين أن قرن الصحابة وقرون الخيرية يجب الاعتناء بها، وفهم الدين بطريقهم خلافاً لمن دعا إلىٰ عدم الاقتداء بفقه السلف والاعتماد عليه قال **شيخ الإسلام** ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي الْمُتَفَقِّهَةِ مَنْ قَالَ: أَبُو حَنِيفَةَ أَفْقَهُ مِنْ عَلِيٍّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ يُقَلِّدُ الشَّافِعِيُّ وَلَا يُقَلِّدُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَيَتَمَسَّكُونَ تَارَةً بِشُبَهٍ عَقْلِيَّةٍ أَوْ ذَوْقِيَّةٍ مِنْ جِهَةِ أَنَّ مُتَأَخِّرِي كُلِّ فَنٍّ يَحْكُمُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ

---

(١٦٨) قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "إن المتقدمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، **ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)**".(الفتاوىٰ١٨/ ٧٤، ٧٥)، قلت: يعني التي تُعنَىٰ بتشقيق المسائل، ويقل فيها الدليل أو ينعدم أحياناً، ولا يبالي أصحابها إلا بحكاية المذهب، والاستدلال له بأي دليل ولو كان ضعيفاً.

الْمُتَقَدِّمِينَ!!»[١٦٩].

ونجد في المعاصرين من أمثال البوطي ونحوه من ألف وكتب إلىٰ أن قرن وجيل السلف هي مرحلة طيبة مباركة، ولكن ليس للصحابة مذهبًا وليس لهم علاقة بنا من هذه الحيثية.

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا، وسبحانك هذا بهتان عظيم.

فليحذر طالب العلم أن تضله الأهواء، وقد خاف النبي ﷺ علىٰ أصحابه من الأئمة المضلين، وأخبر أنه سيكون في هذه الأمة دعاة علىٰ أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

ومما يؤسف له أن بعضهم قد يتزيَّ بزي السلفية، ويلبس لباس العلم، ويدخل علىٰ الناس من باب الدعوة والنصيحة، والشفقة، والتوجيه والإرشاد، فبعضهم يلبس علىٰ الطلاب بالعلم، وبعضهم بالعبادة.

قال **ابن تيمية**: «كان السلف يعدون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين: من أهل الأهواء ويأمرون بألا يغتر بهم ولو أظهروا ما أظهروه من العلم والكلام والحجاج أو العبادة والأحوال مثل المكاشفات وخرق العادات»[١٧٠].

لا رأي للتابعين مع قول الصحابة فكيف بمن دونهم؟!

حَتَّىٰ قَالَ **الشّعبِيّ**: علىٰ من دون النَّبِي ﷺ أحب إِلَيْنَا، فَإِن كَانَ فِيهِ زِيَادَة أَو نُقْصَان كَانَ علىٰ من دون النَّبِي ﷺ. وَقَالَ إِبْرَاهِيم أَقُول: قَالَ عبد الله، وَقَالَ عَلْقَمَة: أحب إِلَيْنَا.

وقال الهيثم بن جميل: قلت **لمالك**: إن عندنا قومًا وضعوا كتبًا يقول أحدهم: حدثنا فلان عن فلان عن عمر بكذا، وكذا فلان عن إبراهيم بكذا، ونأخذ بقول إبراهيم.

قال **مالك**: وصح عندهم قول عمر؟، قلت: إنما هي رواية، كما صح عندهم قول إبراهيم. فقال مالك: هؤلاء يستتابون.

قال **ابن القيم**: فإذا كان تارك قول عمر يستتاب، فكيف من ترك قول الله عز وجل وقول

---

(١٦٩) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٣٦٦).

(١٧٠) الاستقامة (١/ ٢٥٤).

رسوله ﷺ بقول من هو دون إبراهيم النخعي أو مثله؟!![١٧١].

الاعتناء بكتب الآثار

إن الاعتناء بكتب الآثار مهم جداً في تلقي العلم الصحيح فإنه لا يستقيم فقه ولا علم ولا تصح المسائل بغير فهمهم والنصوص الواردة عنهم في جميع الأبواب وقد قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** مبيناً منهج السلف في تلقي العلم: «إن المتقدمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، **ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)**». (الفتاوىٰ١٨/ ٧٤، ٧٥).

فلما **وضعت كتب الرأي هجرت كتب الآثار**، واستبدل الناس الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، وقلت بركة العلم، وكثرت الأهواء، وقل العلماء، وأهل الاجتهاد وظهر الجفاء في الناس، وذهبت الرقة، والعمل بالعلم، كما قال **مالك** رحمه الله: "ما قلَّت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء، ولا قلَّت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء"[١٧٢].

لقد بذل الأئمة في جمع الآثار السلفية في جميع أبواب العلم، أما مفرقة علىٰ الأبواب، أو مجتمعة في كتاب قديماً وحديثاً، ومن تلك الكتب الجليلة في هذا الباب.

الباب الأول: في مظان الآثار في الكتب الجامعة.

مصنف ابن أبي شيبة، ومصنف عبدالرزاق، والأوسط لابن المنذر، والتمهيد لابن عبدالبر، وسنن الدارمي، وكتاب تهذيب الآثار للطبري رحمه الله، والمحلىٰ لابن حزم، والسنن الكبرىٰ للبيهقي، وشرح معاني الآثار، وكتب التفسير بالمأثور كتفسير ابن جرير.

مظان الآثار من الكتب المؤلفة في بعض أبواب العلم.

ككتاب الطهور لأبي عبيد، والصلاة له، وككتاب تعظيم قدر الصلاة، وقيام الليل لمحمد بن نصر المروزي، وغيرها كثير.

في مظان الآثار في كتب جامعة لمرويات الصحابة

---

(١٧١) إعلام الموقعين (٢/ ١٨٢).

(١٧٢) **حسن الإسناد**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (ح٨٦٩) والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/ ١٤٧).

كمسانيد الصحابة ونحوها، والمصنفان لابن أبي شيبة وعبدالرزاق، والسنن الكبرىٰ للبيهقي، والتمهيد لابن عبدالبر، والأوسط لابن المنذر، وكتابه هو: (كتاب الإسلام) وكل مؤلف في أي باب من الأبواب، إن كان في الاعتقاد، وجدنا أثارهم فيها، وكذا في التفسير، وإن كان في الطهارة والصلاة ففي المؤلفات الخاصة بها، وإن كان في الصيام أو العيدين فالأمر كذلك،

ومن الكتب المعاصرة في فقه الصحابة، كفقه ابن مسعود، وفقه ابن عباس، وفقه عمر ابن الخطاب، موسوعة آثار الصحب الكرام علىٰ أبواب بلوغ المرام، وكتاب: وجامع الآثار الصحيحة، وكتاب العتيق، وسلسلة الآثار الصحيحة.

أهل الحديث والأثر هم التابعون للصحابة بإحسان

ما المقصود بأهل الحديث؟

قال القاضي عياض معلقًا علىٰ قول أحمد: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»، قال: «أراد أحمد أهل السنة، ومن يعتقد مذهب الحديث»(١٧٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «نحن لا نعني بأهل الحديث المقتصرين علىٰ سماعه، أو كتابته أو روايته، بل نعني بهم: كل من كان أحق بحفظه ومعرفته وفهمه ظاهراً وباطنًا، واتباعه ظاهراً وباطنًا»(١٧٤).

وقال أيضًا: «أهل الحديث والسنة: الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل المعرفة بمعانيها واتباعًا لها: تصديقًا وعملاً وحبًا وموالاة»(١٧٥). فأهل الحديث هم الذين اتبعوا آثار الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان، وكان لهم عناية خاصة بأحاديث رسول الله ﷺ جمعًا، وحفظًا، ورواية، وفهمًا، وعملاً في الظاهر والباطن.

---

(١٧٣) تحفة الأحوذي (٦/ ٤٣٤).

(١٧٤) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٩٥).

(١٧٥) الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٧).

فليس كل من اشتغل بالحديث وعلومه كان من أهل الحديث، حتىٰ يعظم السنة، ويعمل بها، ويدعو إليها، ويعتقد ما كان يعتقده أئمة الحديث كمالك والشافعي وأحمد، والسفيانين وشعبة، والأوزاعي ونحوهم، ومن سبقهم، ومن تبعهم في منهاجهم، وسلك سبيلهم، من تعظيم الحديث والأثر، ويعتني بالدليل والنصوص، حفظاً وفهماً وعملاً ظاهراً وباطناً، وينصر السنة، ويذب عنها، ويرد البدع بالسنة والأثر، ويبغض محدثها الذي يضاهي ويميت بها السنة، ويعادي أهلها، ويذم أهل الحديث ويبغضهم، أو ينتقصهم، ويزدري بهم.

ومن كان متبعاً لأهل الحديث، محباً لهم، يسير علىٰ منهاجهم، ويعتقد عقيدتهم، نرجو لهم السلامة، وإن لم يعمل بأعمالهم، ولم يحفظ ما حفظوا، ولا قام بما قاموا، لكنه محب لهم، مستنير بنورهم، ويسير في ضوء دربهم، فهؤلاء ولو لم يبلغوا ما بلغ أولئك لكنهم علىٰ خير ويرجىٰ لهم السلامة، وحسن العاقبة، وحسن الخاتمة.

أهل الحديث والأثر هم أهل العلم حقًّا

اعلم علمني الله وإياك أننا لما تكلمنا علىٰ السنة وكتب السنة، والاعتناء بها، وبالآثار السلفية، وبكتب الآثار شرعنا في الكلام علىٰ أهل السنة والأثر.

وها نحن نعرج علىٰ الكلام في فضل أهل الحديث، ومنزلتهم في الفقه والعلم، كي نأخذ منهم، ونعتني بتراثهم، ونبين كيف أوصىٰ العلماء والأئمة بهم.

ومما ينبغي أن يعلم في هذا الباب أولاً هو أن المشايخ السلفيين أهل الحديث والأثر **هم الدعاة إلىٰ الله صدقًا**، لله درهم وعليه شكرهم، وهم المجاهدون حقاً، والقائمون بالشرع صدقاً، وهم أئمة الناس وقدوتهم، فعن مُحَمَّدُ بْنُ الطُّفَيْلِ قَالَ: رَأَىٰ **فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ** قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَمْزَحُونَ وَيَضْحَكُونَ (فيهم بعض الخفة) فَنَادَاهُمْ: «مَهْلًا يَا وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ مَهْلًا –ثَلَاثًا– إِنَّكُمْ أَئِمَّةٌ يُقْتَدَىٰ بِكُمْ». الحلية (٨/ ١٠٠)، والآداب الشرعية (١/ ٢٣٤)، وسمع **وكيع بن الجراح** كلام أناس من أصحاب الحديث وحركتهم فقال: «يا أصحاب الحديث ما هذه

الحركة عليكم بالوقار»[١٧٦]. الآداب الشرعية (١/ ٢٣٤).

وهم شهداء الله في الأرض، فالعدل والثقة من وثقوه، والرضي من ارتضوه، والضعيف من ضعفوه، والكذاب من كذبوه.

وأهل الحديث والأثر هم أهل العلم حقًا، والأمر كما قال **الإمام أحمد** في وصفهم: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يَدعون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبِرون منهم علىٰ الأذىٰ، يُحيون بكتاب الله تعالىٰ، الموتىٰ، ويبَصِّرون بنور الله أهلَ العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه؟، وكم من ضال تائه قد هدوه؟.

فما أحسن أثرهم علىٰ الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم!، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون علىٰ مفارقة الكتاب، يقولون علىٰ الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جُهَّال الناس بما يُشَبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتنة المُضلين»[١٧٧].

وجاء وصف أئمة السنة، ودعاة السلفية في قول الإمام **ابن القيم** فذكر منْزلة العلماء: «فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا علىٰ أقوالهم بين الأنام، الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنْزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلىٰ الطعام والشراب، وطاعتهم أفرضُ عليهم من طاعة الأمهات والآباء، بنص الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿ئۇ ئې ئې ئى ئى ئد ى ىٰ ير ..

---

(١٧٦) ومما ينبغي أن يكون عليه أهل الحديث من الأدب ما ذكر عن حرملة بن يحيىٰ يقول سمعت الشافعي يقول وذكر له أصحاب الحديث وما هم فيه من الخفة والضحك وأنهم لا يستعملون الأدب فقال **الشافعي**: «يا سبحان الله لو استعمل أصحاب الحديث ما تقولون لكانوا علماء كلهم» ثم التفت إلينا الشافعي فقال: ما أعلم أني أخذت شيئًا من الحديث أو القرآن أو النحو أو العربية أو شيئًا من الأشياء ما كنت أستفيده إلا كنت أستعمل فيه اجتناب ما ذكرتم فكنت أفعل هذا قديمًا وكان ذلك طبعي إن قدمت المدينة فرأيتُ من مالك ابن أنس ما رأيت من هيبته وإجلاله للعلم فازددت لذلك حتىٰ ربما كنت أكون في مجلسه وأريد أن أصفح الورقة فاصفحها صفحًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمع وقعها. تاريخ دمشق (١٤/ ٢٩٣).

(١٧٧) إعلام الموقعين (٢/ ١٣)، نقلاً عن مقدمة "الرد علىٰ الجهمية".

..﴾.(النساء\٩٥)[١٧٨].

فكبار أهل العلم هم أئمة الفرقة الناجية الذين ينبغي أن يصدر الناس عن أقوالهم، وإليهم المرجع في المدلهمات، والنوازل والملمات، والقضايا الكبار، والمسائل العظام، وهم النور الذي تستضيء به الأمةُ، وهم أعلم الناس بجميع الفقهيات: (فقه الكتاب – فقه السنة – فقه اللغة – فقه الواقع – فقه السنن الكونية – فقه الخلاف ....إلخ)، وهم أهل الرسوخ في العلم، وهم أهل الفهم والاجتهاد في الشريعة، وتمرس فيه، مع الخبرة الطويلة، ولديهم بُعد نظر، وبصيرة ودراية، ووقد حباهم الله بإلهام وتوفيق وهداية، قَالَ **عُمَرُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَوَاللهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ»[١٧٩]، وقد حاول الكثير أن يقصيهم فأبىٰ الله إلا أن يُعْلِي كلمته، ولو كان أكثر الخلق علىٰ خلافها.

وجعلهم أئمة للمتقين، وذلك أنهم أهل علم وحلم، ويقين وهدىٰ، ومن أولي الصبر والبصيرة، ، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «خِيَارُهُمْ مِنْ أُوتِيَ الْحِلْمَ وَالْعِلْمَ .... فَالْحَلِيمُ لَا يَسْتَفِزُّهُ الْبَدَوَاتُ، وَلَا يَسْتَخِفُّهُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا يُقْلِقُهُ أَهْلُ الطَّيْشِ وَالْخِفَّةِ وَالْجَهْلِ، بَلْ هُوَ وَقُورٌ ثَابِتٌ ذُو أَنَاةٍ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ وُرُودِ أَوَائِلِ الْأُمُورِ عَلَيْهِ وَلَا تَمْلِكُهُ أَوَائِلُهَا، وَمُلَاحَظَتُهُ لِلْعَوَاقِبِ تَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ تَسْتَخِفَّهُ دَوَاعِي الْغَضَبِ وَالشَّهْوَةِ؛ **فَبِالْعِلْمِ تَنْكَشِفُ لَهُ مَوَاقِعُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، وَبِالْحِلْمِ يَتَمَكَّنُ مِنْ تَثْبِيتِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْخَيْرِ** فَيُؤْثِرُهُ وَيَصِيرُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَ الشَّرِّ فَيَصْبِرُ عَنْهُ؛ فَالْعِلْمُ يُعَرِّفُهُ رُشْدَهُ وَالْحِلْمُ يُثَبِّتُهُ عَلَيْهِ...وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَىٰ بَصِيرًا صَابِرًا لَمْ تَكَدْ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ فَقَدْ رَأَيْتَ إِمَامَ هُدًىٰ حَقًّا فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ»[١٨٠]، فآثارهم العلمية من فتاوىٰ وكتب نافعة، وطلاب وتلاميذ فكلهم خير وبركة علىٰ الأمة، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وإن الخير والهدىٰ والحكمة، وإدراك الأمور علىٰ حقيقتها والبركة معهم، وقد قال ﷺ: «**البركة مع أكابركم**»[١٨١]، وقال **عمر بن الخطاب**: «قد علمتُ متىٰ صلاح الناس، ومتىٰ فسادهم، إذا جاء الفقه من قِبَلِ الصغير استعصىٰ عليه الكبير، وإذا جاء الفقه من قِبَل الكبير تابعه الصغيرُ

---

(١٧٨) إعلام الموقعين (٢/ ١٤).

(١٧٩) رواه البخاري (١٤٠٠).

(١٨٠) إعلام الموقعين (٤/ ١٥٣).

(١٨١) **صحيح**: رواه الحاكم وابن حبان (٥٥٩) وغيرهما (الصحيحة/ ١٧٧٨).

فاهتديا»[١٨٢]، فكل خير في دعاة الأمة إنما هو أثر من آثار كبارهم، وبركة من بركاتهم، وكل شر في طلاب العلم أو غيرهم إنما هو بالبعد عن منهاجهم، وشؤم مخالفة نصائحهم وأقوالهم، فوجب علىٰ الناس شرعـًا أن يصدروا عن أقوالهم، وألا يخرجوا عنهم وعليهم، وأن يعرفوا لهم فضلهم وخيرهم، ويجب لهم علينا أن نحبهم وأن نواليهم، وهذا من تمام النصح لأئمة المسلمين، ولهم علينا من الحق الدعاء لهم، وانظر أخي المسلم ما قال **أبو عثمان الصابوني** رَحِمَهُ اللَّهُ، ولَنِعْمَ ما قال: «إحدىٰ علامات أهل السنة حبهم لأئمة السنة وعلمائها وأنصارها، وأوليائها، وبغضهم لأئمة البدع الذين يدعون إلىٰ النار، ويدلون أصحابهم علىٰ دار البوار، **وقد زَيَّن اللهُ سبحانه قلوبَ أهلِ السنة ونوَّرها بحب علماء السنة فضلاً منه جل جلاله**»[١٨٣]. **فإنا نشهدك ربنا أنا نحبهم.**

وها نحن نذكر شيئـًا من فضائلهم لعل الناس يعرفون لهم حقهم، وينتفعون بفضل محبتهم، ويلزمون غرزهم، ويقدرون نصائحهم، وينتفعون بعلمهم.

---

(١٨٢) **صحيح**: جامع بيان العلم (١٠٥٥، ١٠٥٦)، ونصيحة أهل الحديث (١٣)، الصحيحة (٦/ ١٠٠٣).
(١٨٣) عقيدة السلف للصابوني (ص: ١٠٨-١٠٩).

ومن فضائل أهل الحديث والأثر

خير الناس أصحاب الحديث والأثر:

قال الإمام الشافعي (١٨٤) رَحِمَهُ اللَّهُ:«إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث فكأني رأيتُ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ»، زَادَ الْبُوَيْطِيُّ قَالَ الشَّافِعِيُّ: «فجَزَاهُمُ اللهُ خَيْرًا فَهُمْ حَفِظُوا لَنَا الْأَصْلَ فَلَهُمْ عَلَيْنَا فَضْلٌ» **صحيح**: رواه الهروي في ذم الكلام (٣٩٣)، تاريخ الإسلام (١٤/ ١٧٦). وقال أيضاً: «إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت النبيَّ ﷺ حياً»(١٨٥)، وقال **الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ أيضاً: «لولا أصحاب الحديث، لكنّا بُيَّاع الفول!»(١٨٦). **وقال أحمد أيضاً**: «ليس قوم عندي خير من أهل الحديث، ليس يعرفون إلا الحديث»(١٨٧)، جاء في طبقات الحنابلة: عن أحمد بن حنبل -في تفسير حديث النبي ﷺ: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرساً** (يستعملهم في طاعته)»(١٨٨)؟ - قال: «هم أصحاب الحديث»(١٨٩). وفيها أيضاً: رأى **أحمد بن حنبل** أصحاب الحديث، وقد خرجوا من عند محدث والمحابر بأيديهم. فقال أحمد: إن لم يكن هؤلاء الناس، فلا أدري من الناس؟. طبقات الحنابلة (١/ ٤٢٦)، وفي رواية: وقال الفضل بن أحمد: سمعت الإمام أحمد وقد أقبل أصحاب الحديث بأيديهم المحابر فأومأ إليها وقال: هذه سرج الإسلام، يعني المحابر». ابن أبي يعلىٰ في طبقات الحنابلة (١/ ٢٤٩)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١/ ٢٥٢)، وقال ابن أبي يعلىٰ : حدثنا أحمد بن مروان الخزاعي، حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: «ما الناس إلا من يقول: حدثنا، وأخبرنا، وسائر الناس لا خير فيهم» طبقات الحنابلة (٣/ ١٣٦).

وأنشد الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١٨٤) شرف أصحاب الحديث ().

(١٨٥) **إسناده صحيح**: رواه الخطيب في "شرف أصحاب الحديث" (برقم٩٠).

(١٨٦) **صحيح**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (برقم٣٨٧)، والبيهقي في "مناقب الشافعي" (١/ ٤٧٧).

(١٨٧) **صحيح**: رواه الخطيب في "شرف أصحاب الحديث" (برقم٩٥).

(١٨٨) **حسن**: ينظر تخريجه في الصحيحة (٢٤٤٢).

(١٨٩) طبقات الحنابلة (١/ ٣٩١)، الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٣١).

إذا رأيت شباب الحي قد نشؤوا لا يحملون قلال الحبر والورقا
ولا تراهم لدىٰ الأشياخ في حلق يعون من صالح الأخبار ما اتسقا
فعد عنهم ودعهم إنهم همج قد بدلوا بعلو الهمة الحمقا[١٩٠]

وقال أبو بكر بن عياش: «ما في الدنيا قوم أفضل من أصحاب الحديث»[١٩١].

وكان دَاوُدَ الْأَصْبَهَانِيَّ يَقُولُ: أَصْحَابُ الْحَدِيثِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَذَاكَ أَنَّ كَدَّهُمْ ضَبْطُ الْأُصُولِ. الهروي في ذم الكلام (رقم٣٩٤).

وعَنِ الْبُوَيْطِيِّ قَالَ سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ صَوَابًا». الهروي في ذم الكلام (رقم٣٩٥).

وعن الزعفراني قال: «ما علىٰ وجه الأرض قوم أفضل من أصحاب المحابر، يتتبعون آثار رسول الله ﷺ، ويكتبونها كي لا تُدْرس»[١٩٢].

وعن يَزِيدَ بْنَ هَارُونَ يَقُولُ: قُلْتُ لِحَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ: هَلْ ذَكَرَ اللهُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ: بَلَىٰ اللهُ يَقُولُ ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ**...﴾ الآية. رواه الهروي في ذم الكلام (٩٨٥).

وورد عن **إبراهيم بن أدهم، وسلم الخواص، ويوسف بن أسباط** قولهم: «إن الله يدفع البلاء عن أهل الأرض بأصحاب الحديث»[١٩٣].

ولما رأىٰ عثمان ابن أبي شيبة بعض أصحاب الحديث يضطربون قال: «أما إن فاسقهم خير من عابد غيرهم»[١٩٤]. **وقيل لحفص بن غياث**: أما ترىٰ أصحاب الحديث كيف تغيَّروا؟، كيف فسدوا؟ **قال**: «هم علىٰ ما هم عليه خيار القبائل»[١٩٥].

---

(١٩٠) الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٣١).
(١٩١) شرف أصحاب الحديث (رقم٣٣١).
(١٩٢) ذم الكلام (رقم٣٣٢).
(١٩٣) ؟ :شرف أصحاب الحديث (١٢١)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (ح٨٣٨،٨٣٩،٨٤٠).
(١٩٤) ؟ :شرف أصحاب الحديث (رقم٩٨)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (ح٩٦).
(١٩٥) شرف أصحاب الحديث (رقم٩٤).

ثم إنهم أشد الناس اتباعاً للنبي ﷺ: أصحابه ثم التابعون لهم بإحسان وهم أعلم الناس بآثاره، وهديه، وسنته، وسلوكه، ومن التابعين بإحسان: أصحاب الحديث، وأهل السنة والأثر المتبعون له، الحريصون عليه، الداعون إليه، المكثرون منه، المستمسكون به، الذابون المدافعون عنه، عن علي بن حرب، يقول: سمعت **سفيان**، يقول: في هذه الآية: ﴿**فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ (النساء/ ٦٩)، قال: ﴿**الصالحون**﴾: «هم أصحاب الحديث»، وقال في كتاب: «خلق أفعال العباد» وقد ذكر بسنده حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالىٰ: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء علىٰ الناس**﴾()، قال البخاري: «هم الطائفة التي قال النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ....» فذكر الحديث.

وقد قال **اللالكائي** رحمه الله واصفاً إياهم: «أصحاب الحديث أولىٰ الناس بالاتباع، فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث علىٰ الاتباع وذم التكلف والاختراع فمن اقتصر علىٰ هذه الآثار كان من المتبعين وكان أولاهم بهذا الاسم، وأحقهم بهذا الوسم، وأخصهم بهذا الرسم أصحاب الحديث لاختصاصهم برسول الله ﷺ واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه، وحفظهم أنفاسه وأفعاله؛ فأخذوا الإسلام عنه مباشرة وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة من غير واسطة، ولا سفير بينهم وبينه واصلة؛ فجاولوها عياناً، وحفظوا عنه شفاها، وتلقفوه من فيه رطباً، وتلقنوه من لسانه عذباً، واعتقدوا جميع ذلك حقاً، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقيناً.

فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة، لم يشبْهُ لبس، ولا شبهة .

ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصافة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكفٍّ، وتمسك خلف بسلف كالحروف يتلو بعضها بعضًا، ويتسق أخراها علىٰ أولاها رصفًا ونظمًا» (شرح اعتقاد أهل السنة١/ ٢٢)، وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «مذهب أهل الحديث، وهم السلف من القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم من الخلف». مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٥٥).

وقال **الحاكم أبوعبدالله** رحمه الله: «وهو يذكر فضل أصحاب الحديث وطلّابه: هم قوم

سلكوا محجّة الصّالحين واتّبعوا آثار السّلف من الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله ﷺ قوم آثروا قطع المفاوز والقفار علىٰ التّنعّم في الدّمن والأوكار، نبذوا الدّنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة واستراحهم المذاكرة، فعقولهم بلذاذة السّنّة غامرة، وقلوبهم بالرّضاء في الأحوال عامرة، تعلّم السّنن سرورهم، ومجالس العلم حبورهم، وأهل السّنّة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرها أعداؤهم» ا-هـ . الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (٢٠٠- ٢٢١) .

فنحن نعظمهم ونعرف لهم حرمتهم، ومكانتهم، لقربهم من النبي ﷺ وسنته، وآثاره، قال **صالح بن أحمد بن حنبل** يقول: سمعتُ أبي يقول: «مَن عَظّم أصحاب الحديث، تعظَّم في عين رسول الله، ومن حقرهم، سقط من عين رسول الله، لأن أصحابَ الحديث أحبارُ رسول الله ﷺ». مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٢٤٧).

أنشد **أبوالمعالي هبة الله بن علي بن إبراهيم الشيرازي**:

رواة أحاديث الرسول عصابة ... بهم يثبت الإسلام والدين في الدنيا

فلولاهم لم يبد للدين منصب .. . ولم يك بين الناس حكم ولا فتيا

المنتخب من معجم الشيوخ السمعاني (ص٢٩١)

فهم حراس الدين حقًا وصدقًا:

وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: «يحمل هذا العلم من كلِ خَلَفٍ عُدولُه، ينْفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلينَ» ، حسن لغيره: خرجته في الشريعة (ح٢).

وقال الثوري رحمه الله: «الملائكة حراس السماء وأهل الحديث حراس الأرض». المصدر السابق (رقم٨٥)، وقال **الفضيل بن عياض**: «إن لله عبادًا يحي بهم البلاد، وهم أصحاب السنة» اللالكائي (٥١).

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «وَأَمَّا الْمُحَقِّقُونَ فِيهِ (أي في الحديث) الْمُتَخَصِّصُونَ بِهِ فَهُمُ الْأَئِمَّةُ الْعُلَمَاءُ وَالسَّادَةُ الْفُهَمَاءُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ حَفِظُوا عَلَىٰ الْأُمَّةِ

أَحْكَامَ الرَّسُولِ وَأَخْبَرُوا عَنْ أَنْبَاءِ التَّنْزِيلِ وَأَثْبَتُوا نَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَمَيَّزُوا مُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ وَدَوَّنُوا أَقْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالَهُ وَضَبَطُوا عَلَىٰ اخْتِلَافِ الْأُمُورِ أَحْوَالَهُ فِي يَقَظَتِهِ وَمَنَامِهِ وَقُعُودِهِ وَقِيَامِهِ وَمَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَمَأْكَلِهِ وَمَشْرَبِهِ حَتَّىٰ الْقُلَامَةِ مِنْ ظُفْرِهِ مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا وَالنُّخَاعَةِ مِنْ فِيهِ كَيْفَ كَانَ يَلْفِظُهَا وَقَوْلِهِ عِنْدَ كُلِّ فِعْلٍ يُحْدِثُهُ وَكَذَا كُلُّ مَوْقِفٍ يَشْهَدُهُ تَعْظِيمًا لِقَدْرِهِ ﷺ وَمَعْرِفَةً بِشَرَفِ مَا ذُكِرَ عَنْهُ وَعُزِيَ إِلَيْهِ وَحَفِظُوا مَنَاقِبَ صَحَابَتِهِ وَمَآثِرَ عَشِيرَتِهِ وَجَاءُوا بِسِيَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَقَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَاخْتِلَافِ الْفُقَهَاءِ **وَلَوْلَا عِنَايَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ بِضَبْطِ السُّنَنِ وَجَمْعِهَا وَاسْتِنْبَاطِهَا مِنْ مَعَادِنِهَا وَالنَّظَرِ فِي طُرُقِهَا لَبَطَلَتِ الشَّرِيعَةُ** وَتَعَطَّلَتْ أَحْكَامُهَا إِذْ كَانَتْ مُسْتَخْرَجَةً مِنَ الْآثَارِ الْمَحْفُوظَةِ وَمُسْتَفَادَةً مِنَ السُّنَنِ الْمَنْقُولَةِ **فَمَنْ عَرَفَ لِلْإِسْلَامِ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ لِلدِّينِ حُرْمَتَهُ أَكْبَرَ أَنْ يَحْتَقِرَ مَنْ عَظَّمَ اللهُ شَأْنَهُ** وَأَعْلَىٰ مَكَانَهُ وَأَظْهَرَ حُجَّتَهُ وَأَبَانَ فَضِيلَتَهُ وَلَمْ يَرْتَقِ بِطَعْنِهِ إِلَىٰ حِزْبِ الرَّسُولِ وَأَتْبَاعِ الْوَحْيِ وَأَوْعِيَةِ الدِّينِ وَخَزَنَةِ الْعِلْمِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ ﴿**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ (التوبة: ١٠٠) وَكَفَىٰ الْمُحَدِّثَ شَرَفًا أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ مَقْرُونًا بِاسْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذِكْرُهُ مُتَّصِلًا بِذِكْرِهِ ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (الحديد: ٢١) وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ مَنْ خَصَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَبَلَّغَهُ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَبْذُلَ مَجْهُودَهُ فِي تَتَبُّعِ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَطَلَبِهَا مِنْ مَظَانِّهَا وَحَمْلِهَا عَنْ أَهْلِهَا وَالتَّفَقُّهِ بِهَا وَالنَّظَرِ فِي أَحْكَامِهَا وَالْبَحْثِ عَنْ مَعَانِيهَا وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهَا وَيَصْدِفَ عَمَّا يَقِلُّ نَفْعُهُ وَتَبْعُدُ فَائِدَتُهُ وَيُوَفِّيَ الْحَدِيثَ حَقَّهُ مِنَ الدِّرَاسَةِ وَالْحِفْظِ وَالتَّهْذِيبِ وَالضَّبْطِ وَيَتَمَيَّزَ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُ وَيَعُودُ عَلَيْهِ زَيْنُهُ وَجَمَالُهُ». الكفاية للخطيب (ص٥).

فعن **يحيىٰ بن معين** يقول: «ويل للمحدِّث إنِ اسْتَضْعَفَه أصحابُ الحديث، قلتُ له: يعملون به ماذا؟ قال: إن كان كذوبـًا سرقوا كُتُبَه وأفسدوا حديثَه، وحبسوه وهو حاقن حتىٰ يأخُذَه الحصْر، فيقتلوه بشرِّ قِتْلَة.

وإن كان ذكرا فحلا استَضْعَفَهم، وكانوا بين أمرِه ونهيِه، قلتُ: وكيف يكون ذلك؟ قال: يكون يعرف ما يخرج من رأسه، ويكون هذا الشأن صَنْعَتَه، أمَا سمعتَ أبا بكر الهُذَليَّ كيف يقول؟ قال لي الزهري: أيُعجِبك الحديث؟ قلتُ: نعم.

قال: أمَا إنه يُعجِب ذكورَ الرجال ويكرَهُه مُؤَنَّثُهم، أما ذكور الرجال فهم الذين يطلبون

الحديث والعلم وعرفوا قدره، وأما مُؤَنِّثُهم، فهم هؤلاءِ الَّذين يقولون: أَيْشٍ تعمَل بالحديث وتَدَعُ القرآن؟ أَوَما علِموا أنَّ السُّنّة تقضِي علىٰ الكتاب أصلَحَنا اللهُ وإيَّاهم». **صحيح**: الطيوريات (٦٨٥)، والخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (١/ ١٤٠-١٤١)، يراجع الضعيفة (١٦٢٥)، ويرجع إلىٰ معجم ابن المقريء (٤٠٢)، وينظر "المحدث الفاصل" (ص١٧٩) للرامهرمزي، و"الإلماع" (ص٢٥) للقاضي عياض.

عَنِ ابْنِ مَعِينٍ قَالَ: رَأَيْتُ عِنْدَ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ لَوْحًا فِيهِ أَحَادِيثُ مَكْتُوبَةٌ وَفِيهِ أَسَامِي الشُّيُوخِ فُلَانٌ رَافِضِيٌّ وَفُلَانٌ كَذَا، فَمَرَّ بِاسْمِ وَكِيعٍ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: وَكِيعٌ رَافِضِيٌّ. فَقُلْتُ لِمَرْوَانَ: وَكِيعٌ خَيْرٌ مِنْكَ.

فَقَالَ لِي مَرْوَانُ: خَيْرٌ مِنِّي! قُلْتُ: نَعَمْ. فَقِيلَ لِي: فَمَا قَالَ لَكَ شَيْئًا.

قَالَ: «لَوْ قَالَ لِي شَيْئًا وَثَبَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَضَرَبُوهُ». المعرفة والتاريخ (٣/ ١٣١).

قَالَ **أبوبكر ابنُ خُزيمةَ**: كُنتُ عِنْدَ الأمير إسماعيل بنِ أحمد فَحَدّثَ عَنْ أبيهِ بِحَدِيثٍ وَهَمَ في إسنادِهِ، فَرددتُهُ عليهِ، فَلمَّا خَرجتُ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ أبو ذَرٍ القاضيّ: قَدْ كُنّا نعرفُ أنَّ هذا الحديثَ خَطأ منذُ عِشرينَ سنة فلم يقدرْ واحدٌ منّا أنْ يردَّهُ عليهِ.

فَقلتُ لهُ: لا يحلُّ لي أنْ أسمعَ حَدِيثًا لرسول الله ﷺ فيهِ خطأ أو تحريفٌ فلا أردّ. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٧١)

وفي قول بعضهم: يعيش لها الجهابذة، وقول بعضهم: ينخلونها نخلاً، وما كتب ودَوَّن أهل الحديث في كتب الرجال والجرح والتعديل وما بينوا من حال الرواة شيء كثير جداً، فجميع المصنفات شاهدة بذلك، وكذا ما في كتب العلل، وأيضـًا الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وغير ذلك مما يطول، فهم الرجال حقـًا، وأسود السنة صدقـًا، قال **الفضيل**: «وَإِنِّي لَأَسْمَعُ صَوْتَ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَيَأْخُذُنِي الْبَوْلُ فَرَقًا مِنْهُم» الحلية (٨/ ٩٤).

وقد صنفوا في السنة والعقائد، والرد علىٰ أهل الأهواء والبدع، وجميع النحل، وكم أشادوا بالسنن، وأشهروا من هدي النبي ﷺ فأمر يطول جداً وهو يفوق الوصف.

هم أصحاب حجة وبرهان لا يقدر أحد عليهم:

قَالَ بشر لإبراهيم بن هاشمٍ: كَمْ أقولُ لكَ: لا تمارِ أصحابَ الحديث. أو: كم أنهاك عن أصحاب الحديث- هذا أو نحوه.

إنهم أهل تقوىٰ وخشية وبكاء ورقة:

قَالَ أبو بكر محمدُ بنُ مَهْرويهُ: سمعتُ علي بنَ الحسين بن الجنيد يقولُ: سمعتُ يحيىٰ بنَ معين يقولُ: إنَّا لنطعنُ علىٰ أقوامٍ لعلهم قد حَطوا رحالهم في الجنة منذ أكثر من مائتي سنة، قَالَ ابنُ مهرويه: فدخلتُ علىٰ عبدِ الرحمن بنِ أبي حَاتِم - وهو يقرأ علىٰ الناس كتاب الجرح والتعديل - فحدثته بهذه الحكاية فبكىٰ، وارتعدت يداه حتىٰ سقط الكتاب من يده، وجعل يبكي، ويستعيدني الحكاية ولم يقرأ في ذلك المجلس شيئا. تاريخ دمشق (٣٥/ ٣٦٥).

قَالَ **الذهبيُّ**: (قلتُ: أصابه علىٰ طريق الوجل وخوف العاقبة، وإلاَّ فكلامُ الناقدِ الورعِ في الضعفاء من النصح لدين الله والذب عَنْ السنة) السير (١٣/ ٢٦٨).

وقَالَ البَرذعيُّ: سَمِعتُ **أبَا زُرْعةَ الرازيّ** يَقولُ: لَمْ أعرفْ لِنفسي رِبَاطًا خَالصًا في ثَغْرٍ!؛ قَصدتُ قَزْوينَ مُرَابطًا وَمِنْ هِمّتي أنْ أسْمعَ الحَدِيثَ مِنْ الطَّنَافِسيّ، وَمُحَمّدُ بنِ سَعيد بنِ سَابق، وَدَخلتُ بَيْروتَ مُرَابطًا وَمِنْ هِمّتي أنْ أسْمعَ مِنْ العباس بنِ الوليد، دَخلتُ رُهَا مُرَابطًا وَمِنْ هِمّتي أنْ أسْمعَ من أبي فَرْوةَ الرُّهَاويّ، فَلا أعرفُ لِنفسي رِبَاطًا خَلَصَتْ نيتي فيهِ، ثُمَّ بَكَىٰ.

الإرشاد (٢/ ٤٦٩)، والخبر في سؤالات البرذعي (٢/ ٧٧٠)

وهم أكثر الناس تابعًا وشهوداً من سائر أهل العلم، ومجالسهم أكثر وأبرك المجالس، يغبطهم عليها الأمراء والسلاطين:

فقد كان يحضرُ مجالسَ الحديثِ ألوفٌ مِنْ النَّاس!

قَالَ **ابنُ مفلح** : (فَصْلٌ: فِي مَكَانَةِ حُفَّاظِ الْحَدِيثِ وَإِقْبَالِ الْأُلُوفِ عَلَىٰ مَجَالِسِهِمْ.

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ دُرُسْتَوَيْهِ: كُنَّا نَأْخُذُ الْمَجْلِسَ فِي مَجْلِسِ **عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ** وَقْتَ الْعَصْرِ الْيَوْمَ لِمَجْلِسِ غَدٍ فَنَقْعُدُ طُولَ اللَّيْلِ مَخَافَةَ أَنْ لَا نَلْحَقَ مِنْ الْغَدِ مَوْضِعًا نَسْمَعُ فِيهِ فَرَأَيْت شَيْخًا فِي الْمَجْلِسِ يَبُولُ فِي طَيْلَسَانِهِ وَيُدْرِجُ الطَّيْلَسَانَ مَخَافَةَ أَنْ يُؤْخَذَ مَكَانُهُ إنْ قَامَ لِلْبَوْلِ.

كان يحضر أربعونَ ألْف رجل في مجلسِ سُليمانِ بنِ حَرْب (م٢٢٤): قَالَ أبوحَاتِم: (سليمانُ بنُ حَرْب إمامٌ مِنْ الأئمةِ كَانَ لا يُدلسُ، ويتكلمُ في الرجالِ، وفِيْ الفقه..ما رأيتُ في يدِهِ كتاباً قط.

ولقد حَضرتُ مجلسَ سليمانَ بنَ حَرْب ببغداد فَحَزَروا مَنْ حَضَرَ مجلسَهُ أربعين ألْف رجل.

وكَانَ مجلسه عِندَ قَصْرِ المأمونِ فَبَنىٰ لهُ شبه منبر، فَصَعَدَ سليمانُ، وحَضَرَ حولَهُ جماعةٌ مِنْ القُوّاد عليهم السواد، والمأمونُ فوقَ قصرهِ قَدْ فَتَحَ بابَ القصرِ، وقد أَرْسلَ ستر يشف، وهُو خَلْفهُ يكتبُ مَا يملىٰ.

فَسُئل أوَّلَ شيءٍ حديثَ حَوْشب بنِ عَقِيل، فلعله قدْ قَالَ حَدَّثَنَا حوشبُ بنُ عَقِيل أكثرَ مِنْ عشر مرات، وهمْ يقولونَ: لا نسمع.

فَقَالَ: مستملي ومستمليان وثلاثة، كلُّ ذلكَ يقولون: لا نسمع.

حتىٰ قالوا: ليسَ الرأي إلاَّ أنْ يحضرَ هارونُ المستملىٰ، فَذَهَبَ جماعةٌ فأحضروهُ، فلمَّا حَضَرَ قالَ: مَنْ ذَكَرتَ؟ فإذا صوتُهُ خلافَ الرّعد، فسكتوا، وَقَعَدَ المستملون كلهم، فاستملىٰ هارونُ وَكَانَ لا يسألُ عَنْ حديثٍ إلاَّ حَدَّثَ مِنْ حِفظِهِ، وسُئل عَنْ حديثِ فتحِ مكةَ فَحَدَّثَنا بهِ مِنْ حفظه، فقمنا مِنْ مجلسِهِ فأتينا عَفّانَ فَقَالَ: مَا حَدثكم أبو أيوب، وإذا هو يعظمُهُ.

الجرح والتعديل (٤/ ١٠٨).

خمسة عشر ألْف محبرة في مَجْلسَ جَعْفر بن محمد الفِرْيَابيّ (م٣٠١):

قَالَ ابنُ عديّ:((رَأيتُ مَجْلسَ الفِرْيَابيّ يُحْزرُ فيهِ خمسة عشر ألْف محبرة، وكُنَّا نحتاجُ أنْ نبيتَ في موضعِ المجلسِ لنتخذَ مِنْ الغد موضعَ مجلسٍ). الكامل لابن عديّ (٥/ ٢٣٤).

وأكثرُ مِنْ مائة ألْف رجلٍ في مجلسِ عاصم بنِ عَلي (م ٢٢١):

قَالَ **العِجْليُّ**:((عَاصمُ بنُ علىٰ بنِ عَاصم الواسطيّ، شَهدتُ مجلسَ عَاصِم فَحَزَروا مَنْ شَهده ذلكَ اليوم ستين ومائة ألْف، وَكَانَ رجلاً مُسوداً، وكان ثقةً في الحديثِ).

معرفة الثقات للعجلي (٢/ ٩).

وَقَالَ عُمَرُ بنُ حَفْص:((وَجّه المُعْتصمُ مَنْ يَحْزِر مَجْلِسَ عاصم بنِ عَلي بنِ عَاصِم في رَحْبةِ النّخْلِ التي في جامعِ الرُّصافة، قَالَ وَكَانَ عاصمُ بنُ علي يجلسُ عَلىٰ سَطْحِ المُسْقطات(١)، وينتشرُ النّاسُ في الرَّحبة وما يليها، فيعظم الجمع جدّاً، حتىٰ سمعتُه يومًا يقولُ:"حَدَّثَنا الليثُ بنُ سَعد"، وَيُسْتعادُ فَأعادَ أربعَ عَشْرةَ مرّة، والنّاسُ لا يَسْمعونَ،..فَبَلَغَ المُعْتصم كَثْرة الجَمْعِ فَأمَرَ بَحْزرهم فَوجّه بقُطَّاعي الغنمِ فَحَزَروا المجلسَ عِشْرينَ ألفًا ومائةَ ألْف). تاريخ بغداد (١٢/ ٢٤٨).

وأكثرُ مِنْ عشرينَ ألْف رجلٍ في مجلسِ مُحمَّدُ بنُ إسماعيلَ البخاريّ (م ٢٥٦):

وَقَالَ صَالحُ بنُ محمّد البغداديُّ:((كَانَ مُحمَّدُ بنُ إسماعيلَ يجلسُ ببغداد، وكنتُ أستملي لَهُ، ويجتمعُ في مجلسِهِ أكثرُ مِنْ عشرينَ ألفًا). الجامع للخطيب (٢/ ٥٣).

وأكثرُ مِنْ أربعين ألْف رجلٍ في مجلسِ أبي مُسْلمٍ الكَجِّيّ (م ٢٩٢):

وَقَالَ أحمدُ بنُ جَعْفر:((لَمّا قَدِمَ علينا أبو مُسْلمٍ الكَجِّيّ أَمْلىٰ الحديثَ في رَحْبةِ غَسَّانٍ، وَكَانَ في مجلسِهِ سبعةُ مستملين، يُبلّغ كلُّ واحدٍ مِنْهم صَاحِبَهُ الذي يليهِ، وَكَتَبَ النَّاسُ عنهُ قِيَامًا بأيدِيهم المحابرُ ثمَّ مُسِحَتْ الرَّحْبَةُ، وَحُسِبَ مَنْ حَضَرَ بمحبرةٍ فَبَلَغَ ذلك نيفًا وأربعينَ ألْف مَحْبَرةٍ سِوَىٰ النَظَّارةِ))، تاريخ بغداد (٦/ ١٢١).، قَالَ الذهبيُّ: (إسنادها صحيح). السير (١٣/ ٤٢٤).

قَالَ **ابْنُ الْجَوْزِيِّ**: قَدْ كَانَتْ الْهِمَمُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ كَمَا قَدْ ذَكَرْنَا ثُمَّ مَا زَالَتْ تَقِلُّ الرَّغَبَاتُ حَتَّىٰ اضْمَحَلَّتْ فَحَكَىٰ شَيْخُنَا أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ طَفَرٍ الْمَغَازِلِيُّ قَالَ : كُنَّا فِي حَلْقَةِ ابْنِ يُوسُفَ نَسْمَعُ الْحَدِيثَ فَطَلَبْنَا مِحْبَرَةً نَكْتُبُ بِهَا السَّمَاعَ فَمَا وَجَدْنَا، قَالَ : وَقَدْ كَانَ الْخُلَفَاءُ وَالْكُبَرَاءُ يَغْبِطُونَ الْمُحَدِّثِينَ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ثُمَّ رَوَىٰ بِإِسْنَادِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَلَّامٍ الْجُمَحِيِّ أَنَّهُ قَالَ : قِيلَ لِلْمَنْصُورِ : هَلْ مِنْ لَذَّاتِ الدُّنْيَا شَيْءٌ لَمْ تَنَلْهُ ؟ قَالَ : بَقِيَتْ خَصْلَةٌ أَنْ أَقْعُدَ فِي مِصْطَبَةٍ وَحَوْلِي أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَيَقُولُ الْمُسْتَمْلِي : مَنْ ذَكَرْت رَحِمَك اللهُ ؟ قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهِ النُّدَمَاءُ وَأَبْنَاءُ الْوُزَرَاءِ بِالْمَحَابِرِ وَالدَّفَاتِرِ فَقَالَ : لَسْتُمْ بِهِمْ إنَّمَا هُمْ الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ الْمُتَشَقِّقَةُ أَرْجُلُهُمْ الطَّوِيلَةُ شُعُورُهُمْ بَرْدُ الْآفَاقِ وَنَقَلَةُ الْحَدِيثِ .

وقال يحيىٰ بن أكثم قال لي الرشيد : ما أنبل المراتب؟ قلت : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين،

قال : فتعرف أجل مني ؟ قلت : لا قال : لكني أعرفه رجل في حلقة يقول : حدثنا فلان عن فلان قال: قال رسول الله ﷺ، قلت: يا أمير المؤمنين هذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ وولي عهد المسلمين؟ قال: نعم ويلك هذا خير مني ; لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبداً ونحن نموت ونفنىٰ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .

وقال المأمون: ما طلبت مني نفسي شيئًا إلا وقد نالته ما خلا هذا الحديث فإني كنت أحبُّ أن أقعد علىٰ كرسي ويقال لي: من حدثك ؟ فأقول: حدثني فلان قيل له: يا أمير المؤمنين فلم لا تحدث؟ قال لا يصلح الملك والخلافة مع الحديث .

وقال يحيىٰ بن أكثم: وليت القضاء، وقضاء القضاء، والوزارة، وكذا وكذا ما سررت لشيء كسروري بقول المستملي: من ذكرت رضي الله عنك). الآداب الشرعية (٢/ ١٣٩).

والأخبار في هذا تطول جداً.

وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة:

قال **أبوشامة** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَصْحَاب الحَدِيث جند الله وَرَسُوله لاعتنائهم بنشر شَرِيعَته وإعلاء كَلمته، فالفأل لَهُم بالفوز والنصر وَالْغَلَبَة من كَلَام رب الْعَالمين قَوْله سُبْحَانَهُ: ﴿**وَلَقَد سبقت كلمتنا لعبادنا الْمُرْسلين إِنَّهُم لَهُم المنصورون وَإِن جندنا لَهُم الغالبون**﴾() شرح الحديث المقتفىٰ (ص٥٤). **قلت**: ولقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خَذَلَهم أو خالَفَهُم حتىٰ يأتي أمر الله وهم ظاهرون علىٰ الناس**» ، متفق عليه وقد فسرت بالفرقة الناجية: وقال **أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث، فلا أدري من هم». شرف أصحاب الحديث (ص٢٦)، وقال **الحاكم**: «لقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر أن الطائفة المنصورة التي يُرفع الخذلان عنهم إلىٰ قيام الساعة هم أصحاب الحديث، ومن أحق بهذا التأويل من قوم سلكوا محجة الصالحين واتبعوا آثار السلف من الماضين ومنعوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله ﷺ وعلىٰ آله أجمعين». (معرفة علوم الحديث ص٢).

وقال **أبومحمد ابن حزم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأهل السّنة الَّذين نذكرهم أهل الْحق وَمن عداهم فَأهل

الْبِدْعَة فَإِنَّهُم: الصَّحَابَة رضي الله عنهم وكل من سلك نهجهم من خِيَار التَّابِعين رَحْمَة الله عَلَيْهِم **ثمَّ أَصْحَاب الحَدِيث وَمن اتبعهم من الْفُقَهَاء جيلاً فجيلاً إِلَىٰ يَوْمنَا هَذَا أَو من اقْتدىٰ بهم من الْعَوام** فِي شَرق الأَرْض وغربها رَحْمَة الله عَلَيْهِم». (الفصل٢/ ٩٠).

وقال **اللالكائي** رحمه الله: «اسمهم (أي أهل الحديث) مأخوذ من معاني الكتاب والسنة إذ يشتمل عليهما لتحققهم بهما، أو لاختصاصهم بأخذهما؛ فهم مترددون في انتسابهم إلىٰ الحديث بين ما ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في كتابه فقال: ﴿**الله أنزل أحسن الحديث**﴾() فهو القرآن فهم حملة القرآن وأهله وقرّاؤه وحفظته.

وبين أن ينتموا إلىٰ حديث رسول الله ﷺ فهم نقلته وحملته فلا شك أنهم يستحقون هذا الاسم لوجود المعنيين فيهم لمشاهدتنا أن اقتباس الناس الكتاب والسنة منهم، واعتماد البريَّة في تصحيحهما عليهم، لأنَّا ما سمعنا عن القرون التي قبلنا، ولا رأينا نحن في زماننا مبتدعًا رأسًا في إقراء القرآن، وأخذ الناس عنه في زمن من الأزمان، ولا ارتفعت لأحد منهم راية في رواية حديث رسول الله ﷺ فيما خلت من الأيام، ولا اقتدىٰ بهم أحد في دين ولا شريعة من شرائع الاسلام.

والحمد لله الذي كمَّل لهذه الطائفة سهام الاسلام، وشرفهم بجوامع هذه الأقسام، وميَّزهم من جميع الأنام حيث أعزهم الله بدينه، ورفعهم بكتابه، وأعلىٰ ذكرهم بسنته، وهداهم إلىٰ طريقته وطريقة رسوله؛ فهي الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، والعصبة الهادية، والجماعة العادلة، المتمسكة بالسنة، التي لا تريد برسول الله ﷺ بديلاً، ولا عن قوله تبديلاً، ولا عن سنته تحويلاً، ولا يثنيهم عنها تقلب الأعصار والزمان، ولا يلويهم عن سمتها تغير الحدثان، ولا يصرفهم عن سمتها ابتداع من كاد الإسلام، ليصد عن سبيل الله ويبغيها عوجًا» (شرح السنة ١/ ٢٤).

وقال **ابن أبي يعلىٰ** رحمه الله: «اعلم، زادنا الله عِلمًا ينفعنا به، وجعلنا مِمَّن آثر الآيات الصّريحة، والأَحاديث الصحيحة، علىٰ آراء المُتكلِّمين، وأهواء المتكلفين، وأنَّ الّذي دَرَجَ عليه سائر السَّلَف التَّمسُّك بكتاب الله، واتِّباع سُنَّة محمد ﷺ، **ثم ما روي عن الصَّحابة، ثم عن التّابعين والخالفين لهم من علماء المُسلمين**: الْإِيمان والتَّصديق بكلِّ ما وصف الله به نَفْسَهُ، أو وصفه به رسوله، مع ترك البحث والتَّنْقير، والتّسليم لذلك، من غير تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تفسيرٍ ولا تأويل،

وهي الطَّائفة المنصورة، والفرقة النَّاجية، فهُم أصحاب الحديث والأثر، والوالدُ (أبويعلىٰ ابن الفراء) تابِعُهم.

هم خلفاء الرّسول، وورثة حكمته، بهم يلحق التَّالي، وإليهم يرجع الغالي، **وهم الّذين نبذهم أهل البِدَع والضَّلال أنَّهُم مُشَبِّهَةٌ جُهَّال**». تاريخ الإسلام (٣٠/ ٣٢٢).

قال **الشيخ العلامة الألباني** حفظه الله في الصحيحة: «وقد يستغرب بعض الناس تفسير هؤلاء الأئمة للطائفة الظاهرة والفرقة الناجية بأنهم أهل الحديث ولا غرابة في ذلك إذا تذكرنا ما يأتي أولا إن أهل الحديث هم بحكم اختصاصهم في دراسة السنة وما يتعلق من معرفة تراجم الرواة وعلل الحديث وطرقه أعلم الناس قاطبة بسنة نبيهم ﷺ وهديه وأخلاقه وغزواته وما يتصل به ثانيا إن الأمة قد انقسمت إلىٰ فرق ومذاهب لم تكن في القرن الأول ولكل مذهب أصوله وفروعه وأحاديثه التي يستدل بها ويعتمد عليها وإن المتمذهب بواحد منها يتعصب له ويتمسك بكل ما فيه دون أن يلتفت إلىٰ المذاهب الأخرىٰ وينظر لعله يجد فيها من الأحاديث ما لا يجده في مذهبه الذي قلده فإن من الثابت لدىٰ أهل العلم أن في كل مذهب من السنة والأحاديث ما لا يوجد في المذهب الآخر فالمتمسك بالمذهب الواحد يضل ولا بد عن قسم عظيم من السنة المحفوظة لدىٰ المذاهب الأخرىٰ وليس علىٰ هذا أهل الحديث فإنهم يأخذون بكل حديث صح إسناده في أي مذهب كان ومن أي طائفة كان راويه ما دام أنه مسلم ثقة حتىٰ لو كان شيعيا أو قدريا أو خارجيا فضلا عن أن يكون حنفيا أو مالكيا أو غير ذلك وقد صرح بهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه حين خاطب الإمام احمد بقوله أنتم أعلم بالحديث مني فإذا جاءكم الحديث صحيحا فأخبرني به حتىٰ اذهب إليه سواء كان حجازيا أم كوفيا أم مصريا، **فلا عجب بعد هذا البيان أن يكون أهل الحديث هم الطائفة الظاهرة والفرقة الناجية بل والأمة الوسط الشهداء علىٰ الخلق**».

ليس لأهل الحديث مذهب يتعصبون له إلا الحديث والسنة:

قال **الخطيب البغدادي** رحمه الله: «**وكلُّ فئةٍ تتحيزُ إلىٰ هوىٰ ترجعُ إليه، أو تستحسنُ رأيًا تعكفُ عليه، سوىٰ أصحابِ الحديثِ، فإن الكتابَ عُدَتُهم، والسنةَ حُجَّتُهم، والرسولَ فئتُهم، وإليه نسبتهم، لا يُعَرِّجُونَ علىٰ الأهواء، ولا يلتفتون إلىٰ الآراءِ**.إذا اُختلف في حديثٍ، كان إليهم

الرجوع، فما حكموا به فهو المقبولُ المسموعُ. وكلُّ مبتدعٍ باعتقادهم يتظاهر، وعلىٰ الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر». شرف أصحاب الحديث (ص٩،٨).

قال: **أبوطاهر بركة بن سنان الحوزي**: «ناظرت أبا الحسن المغازلي في التفضيل بين مالك والشافعي ففضلت الشافعي لأني أنتحل مذهبه وفضل مالكًا لأنه كان ينتحل مذهبه فاحتكمنا الىٰ أبي مسلم الليثي البخاري ففضل الشافعي فغضب أبو الحسن وقال لعلك علىٰ مذهبه فقال: **نحن أصحاب الحديث الناس علىٰ مذاهبنا فلسنا علىٰ مذهب أحد** ولو كنا ننتسب الىٰ مذهب أحد لقيل أنتم تضعون له الأحاديث». سؤالات السلفي (ص١١٨)، تاريخ الإسلام (٣١/ ١٢٠).

قال **العلامة الإمام الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: فأهل الحديث حشرنا الله معهم **لا يتعصبون لقول شخص معين مهما علا وسما حاشا محمدًا** ﷺ **بخلاف غيرهم** ممن لا ينتمي إلىٰ الحديث والعمل به فإنهم يتعصبون لأقوال أئمتهم وقد نهوهم عن ذلك كما يتعصب أهل الحديث لأقوال نبيهم». المستخرج علىٰ المستدرك.

قال بعضهم:

أحب الحديث وأصحابه . . . وللفوز نفسي لهم راجية
وسجاياهم عذبه المجتبىٰ . .. وعيشتهم رغدة راضية
فإن ما دجت ليلة في الظلام .. . فهم أنجم الليلة الداجية
وإن ما نجت فرقة في المعاد ... فما هم سوىٰ الفرقة الناجية

ولا شك أن من أخص أعمال أهل الحديث وأئمتهم تجديد الدين في الناس، فإظهار السنة، قمع البدع، وبيان الشركيات، ورد الناس إلىٰ دينهم الحق النقي من الشوائب، ودعوة الناس إلىٰ ذلك، وممن نبغ في هذا العصر وعرف بذلك شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

فمما لا شك فيه عند كل منصف أن شيخنا الألباني مجدد علم الحديث في هذا العصر شاء من شاء، وأبىٰ من أبىٰ، وكم وكم أحيا من سنن، وقمع من بدع، حمل لواء الدعوة السلفية هو وشيخنا الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، كل منهما كان له تجديد ونشر للسنة والتوحيد في بلاد الدنيا.

وأخبرني الأخ أحمد شيحة الكويتي أنه كان حاضراً سماحة الوالد العلامة ابن باز -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- بعدما

استقل سيارته وسأله سائل: هل قلتَ: إن الشيخ سفر الحوالي هو: ابن تيمية عصره؟ قال الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: أنا لم أقل ذلك.

فسأله سؤالاً آخر، أو رجل آخر: هل قلتم عن الشيخ الألباني إنه: مجدد هذا العصر، قال الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: أنا لم أقل، لكني الآن أقول: **إنه مجدد العصر**.

وقال عنه: «.. من إخواننا الثقات المعروفين، من إخواننا الطيبين، صاحبُنا وأخونا العلامة الشيخ محمد ناصر الدين، **وهو من المجدِّدين**»(١٩٦)..، وسُئل سماحتُه عن حديث رسول الله ﷺ: «**إن الله يبعث لهذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»، فسُئل من هو مجدد هذا القرن؟ فقال --رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: «الشيخ محمد ناصر الدين الألباني هو مجدد هذا العصر في ظني، والله أعلم»(١٩٧)، يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: "**ما رأيتُ تحت أديم السماء عالمًا بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني**»، وقال: «**لا أعلم تحت قُبة الفلك في هذا العصر أعلمَ من الشيخ ناصر في علم الحديث**»(١٩٨).

وقد وصفه **الشيخ ابن باز** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: «بأنه مجدِّد هذا العصر في علوم الحديث كما سمع ذلك منه فضيلة الدكتور حامد أحمد الرفاعي، الأمين العام المساعد للمؤتمر الإسلامي»(١٩٩). وكان للشيخين من يعينهم في حمل هذه الراية العظيمة راية التوحيد والسنة، وإظهار المنهج السلفي ونشره بين الناس والرد علىٰ من خالف

---

(١٩٦) المصدر السابق.

فهل يكون المجدد مرجئيًا أو خارجيًا أو واحداً ممن عُرِف ببدعة أو ضلالة؟!، وهل المجدد يكون من دعاة البدعة؟! فيا عجبًا أين عقول هؤلاء، وأين دينهم وتقواهم؟.

لا سيما وقد أثنىٰ عليه هذا الإمام الهمام ابن باز -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- وغيره من أئمة السنة في هذا العصر وهم شهداء الله في الأرض، بأنهم يعرفونه بصحة وسلامة المعتقد، وأنه علىٰ منهج قويم فلا يصح للرويبضة والحالة هذه أن يتكلموا في مثل هذا الإمام الجليل، بعد ثناء هؤلاء الجلة، لأنهم سَيُجَهَّلون من قبل أهل العلم والسنة كما قال **العلامة ابن عثيمين** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- فيما يأتي عنه: «إن الذي يتهم العلامة الألباني بالإرجاء إما أنه لا يعرف الألباني، أو لا يعرف الإرجاء»، أمران أحلاهما مر، ﴿**قُتِل الخرَّاصون**﴾، ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾. .

(١٩٧) الإمام المجدد (ص٩٦)، ونقل عنه في كتاب: الإمام الألباني دروسٌ ومواقف وعبرٌ فضيلة الدكتور عبد العزيز بن محمد السدحان) (ص٢١٨).

(١٩٨) المصدر السابق.

(١٩٩) كوكبة من أئمة الهدىٰ (ص٢٢٧).

ذلك، حتىٰ ظهرت العقيدة السلفية، والمنهج السلفي ظهوراً علىٰ جميع العقائد، وكان لها الانتشار في أرجاء المعمورة بعد أن كانت دارسة.

هم الغرباء فطوبىٰ لهم وحسن مآب:

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**». قيل: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: «النزاع من القبائل» (الصحيحة٣/ ٢٦٩).

قال عبدان: «هم أصحاب الحديث الأوائل». شرف أصحاب الحديث (٢٣).

دعا لهم النبي ﷺ بالنضرة في الوجه بقوله: «**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها** ..». قال **القاري** رحمه الله: خص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء لأنه سعىٰ في نضارة العلم، وتجديد السنة فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله.

وهذا يدل علىٰ شرف الحديث وفضله ودرجة طلابه حيث خصهم النبي ﷺ بدعاء لم يشرك فيه أحداً من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة سوىٰ أن يستفيد بركة هذه الدعوة المباركة لكفىٰ ذلك فائدة وغنما وجعل في الدارين حظاً وقسماً».

هم حفظة الدين، والقوَّامون بأمره:

وقال أبو داود: «لولا هذه العصابة لاندرس الإسلام-يعني أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار». شرف أصحاب الحديث (رقم١٠٦)، قال **ابن عدي**: وقال بعضهم : أبىٰ الله أن يجعل سنة أو شريعة في أحكام المسلمين عند المحدثين ، فمنعهم الله أن يجدوا عن أصحابهم أثرا عن النبي ﷺ وأصحابه بأسانيدهم . وقال علي في قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي **يقاتلون علىٰ الحق**....» - هم أصحاب الحديث ، الذين يتعاهدون مذاهب الرسول ، ويذبون عن العلم ، لولاهم لم نجد عند المعتزلة ، والرافضة ، والجهمية ، وأهل الرأي شيئًا من سنن المرسلين» . الكامل لابن عدي (١/ ١٢١).

وقال الخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد جعل الله أهل الحديث أركان الشريعة، وهدم بهم كلَّ بدعةٍ شنيعةٍ، فهم أمناءُ اللهِ من خليقتهِ، والواسطة بين النبي ﷺ وأمتهِ، والمجتهدون في حفظِ ملتهِ، أنوارُهُم زاهرةٌ، وفضائلُهُم سائرةٌ، وآياتُهُم باهرةٌ، ومذاهبُهم ظاهرةٌ، وحججُهُم قاهرةٌ، من كادهم قَصَمَه الله، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا يُفْلِحُ مَن اعتزلهم. المحتاط لدينه إلىٰ إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير، وإن الله علىٰ نصرهم لقدير". شرف أصحاب الحديث (٨-٩). وإني لا أتصور دين يقوم ويحفظ بدونهم، فلو تخيلنا أن دعوة الإخوان المسلمين، أو غيرها من الفرق القديمة أو الحديثة هي التي تقوم بالإسلام وبالدعوة إليه، وبتحقيق النصوص والسنة والأثر، وتراث العلمي للأمة، والقيام بالدين، فأي تفسير وأي دعوة للسنة، وأي فقه، وأي شرع يقوم بغير أهل الحديث والسنة.

فها هي قامت دول للإخوان، ودعوات ودول للخوارج، والروافض والصوفية؛ ، فلم نر منهم خيراً رغم كثيرة الجعجعة، فلا للإسلام نصروا، ولا للكفر كسروا؛ بل لم نر إلا الهدم للدين، والقضاء علىٰ السنة، والفقه، والشرع الحنيف، والتوحيد الخالص، وعقيدة السلف، والتعصب المذهبي والقضاء علىٰ الخلافة، وإدخال الاستعمار لبلاد المسلمين والتمكين للكفر والضلال، ومع كل ما يقوم به أهل الحديث في الأمة يستحقر من شأنهم، ويستهزأ ويسخر بهم وينتقص من شأنهم حتىٰ قال أحدهم: ماذا عند السلفيين غير أن تحريك الأصبع سنة؟، ونحو ذلك، من سفاسف الأمور، ومن الدين القشور، فإلىٰ الله المشتكىٰ من غربة الدين، وضياع الحق، وغياب الإنصاف، ولا يعرف الفضل لأهلِهِ إلا أهلُهُ.

قال **أبو الحسن عمر بن محمد النوقاتي**:

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل
وإن أخس النقص أن يتقي الفتىٰ قذىٰ النقص عنه بانتقاص الأفاضل

الآداب الشرعية (٢/ ١٠٦).

أهل الحديث أعلم الناس بالسنة والحق:

وهم خاصة النبي ﷺ وناصرو شريعته: قال **ابن تيمية** رحمه الله: «أعلم الناس، وأخصهم بالرسول، وأعلمهم بأقواله، وأفعاله، وأعلمهم بأصحابه، وسيرته وأيامه، وأعظمهم بحثًا عن ذلك، وأعظمهم تديّنًا به، واتباعًا له، واقتداءً به، هؤلاء هم أهل السنة، والحديث.... أفلا يعلم من له أدنىٰ عقل ودين: أن **هؤلاء أحق بالصدق والعلم والإيمان والتحقيق ممن يخالفهم**، وأن عندهم من العلوم ما ينكرها الجاهل المبتدع، ، وأن الجاهل بأمرهم والمخالف لهم هو الذي معه من الحشو ما معه!!، ومن الضلال كذلك». مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٨٥) (٤/ ٤٩) (٦/ ٣٥٤).

أولىٰ الناس بالنبي ﷺ لكثرة صلاتهم عليه، وشدة اتباعهم له:

قال **ابن حبان** رحمه الله: «فِي هَذَا الْخَبَرِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْقِيَامَةِ يَكُونُ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، إِذْ لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ أَكْثَرَ صَلَاةً عَلَيْهِ ﷺ مِنْهُمْ».

صحيح ابن حبان (٣/ ١٩٣)، وبنحو ذا قال: أبوجعفر محمد بن عبد الرحمن الأرزناني. طبقات المحدثين بأصبهان (٤/ ٢٢٣).

وقال **الخطيب البغدادي**: «قال لنا أبونعيم: هذه منقبة شريفة يختص بها رواة الآثار ونقلتها؛ لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة علىٰ النبي ﷺ أكثر مما يعرف لهذه العصابة نسخًا وذكراً، يعني كتابة وقولاً».

وقال **ابن عساكر** رحمه الله: «ليهن أهل الحديث كثرهم الله تعالىٰ هذه البشرىٰ، فقد أتم الله تعالىٰ نعمه عليهم بهذه الفضيلة الكبرىٰ، فإنهم أولىٰ الناس بنبيّهم ﷺ وأقربهم إن شاء الله تعالىٰ وسيلة يوم القيامة إلىٰ رسول الله ﷺ، فإنهم يخلدون ذكره في طروسهم، ويجدِّدون الصلاة والتسليم عليه في معظم الأوقات في مجالس مذاكرتهم وتحديثهم ودروسهم، فهم إن شاء الله تعالىٰ الفرقة الناجية جعلنا الله تعالىٰ منهم وحشرنا في زمرتهم آمين». إرشاد الساري (١/ ٦). وحكىٰ ابن الملقن أن بعض أصحاب الحديث رؤي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقيل له: بماذا؟ قال: بصلاتي علىٰ رسول الله ﷺ، وعن أبي بكر الصديق» يعني

والترضي عنه. شرح البخاري للسفيري (١/ ٧٩).

وكما قال **ابن الصلاح**: «ينبغي أن يحافظ علىٰ كتابة الصلاة والسلام علىٰ رسول الله ﷺ عند ذكره، ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكرره، فإن ذلك من أكبر الفوائد التي يتعجلها طلبة الحديث وكتبته، ومن أغفل ذلك مرة حرم حظًا عظيمًا. ليس هذا لأجر الصلاة عليه فحسب، بل لأمور كثيرة ذكرها ابن القيم في جلاء الأفهام، والسخاوي في القول البديع في الصلاة علىٰ الحبيب الشفيع.

هذا هو السؤدد في الدنيا والآخرة:

جاء في حديث الفرقة الناجية وصفهم بأنهم **علىٰ الحق ظاهرين**، فقد ظهروا وارتفعوا بالحق، وعلىٰ الحق، لأنهم رفعوا دين الله، واعتنوا بكتاب الله وسنة رسوله فكان لهم نصيب من قوله تعالىٰ: ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعلم فضل أهل الحديث والسنة بأمور" ، **فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم**... فهذا أمر ظاهر معلوم بالحس، والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، **وإنما نبل أحمد والشافعي وإسحاق وغيرهم، إنما نبلوا في الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة**، وكذلك البخاري وأمثاله إنما نبلوا بذلك، وكذلك مالك والأوزاعي، والثوري، وأبوحنيفة وغيرهم، إنما نبلوا في عموم الأمة، وقُبِلَ قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة، وما تكلم فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة، إما لعدم بلاغها إياه، أو لاعتقاده ضعف دلالتها، أو رجحان غيرها عليها». مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١١،١٠).

حتىٰ قال بعض أصحاب الحديث:

رويت قَدِيمًا مَا رووا وحديثًا . .. وَقد سرتُ سيراً فِي الْبِلَاد حثيثا

فصرتُ حَدِيثًا والْحَدِيث هُوَ الَّذِي ... يصير أَصْحَابَ الحَدِيثِ حَدِيثا

الوافي بالوفيات (١٢/ ١٥٣).

لذلك كان **أبوأسامة** يقول: كان **ابن المبارك** في أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين في الناس». تاريخ دمشق (٣٢/ ٤٢٥).

وقال **جعفر بن درستويه**: "كنا نأخذ المجلس في مجلس علي ابن المديني وقت العصر

اليوم لمجلس غد، فنقعد طول الليل، مخافة أن لا نلحق من الغد موضعاً نسمع فيه، ورأيت شيخاً في المجلس يبول في طيلسانه ويدرج الطيلسان، حتىٰ فرغ مخافة أن يؤخذ مكانه إن قام للبول»[٢٠٠]، **وقال الخطابي**: «ازدحم أصحاب الحديث علىٰ هشيم فطرحوه عن حماره فكان سبب موته»[٢٠١]، وقال **يحيىٰ بن حسان**: "كنا عند سفيان بن عيينة وهو يحدث فازدحمت فرقة من الناس علىٰ محل شيخ ضعيف فاتنهبوه ودقوا يد الشيخ، فجعل الشيخ يصيح: سفيان لا جعلتك مما عملوا بي في حل، وسفيان لا يسمع، حتىٰ نظر إلىٰ رجل من أولئك الذين صنعوا بالشيخ ما صنعوا فقال له: ما يقول الشيخ؟ قال: يقول: زدنا في السماع"[٢٠٢].

وكانوا يتخذون عدداً من المستملين ليبلغوا عنهم الناس، واتخذ ابن عباس أباجمرة نصر بن عمران ليترجم بينه وبين الناس، وكان الخطيب يحدث الناس علىٰ فرس له لذلك لقب بالخطيب من كثرة طلاب الحديث.

وقال أبوالفضل الزهري: كان في **مجلس الفريابي**، ممن يكتب من أصحاب الحديث، نحو عشرة آلاف إنسان، سوىٰ من لا يكتب. ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/ ٣٠١).

وعن **يونس بن عبد الأعلىٰ** أنه قال يوماً حدثني أبو زرعة فقال له رجل من أصحاب الحديث: من أبو زرعة هذا؟ قال: «إن أبا زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا». تاريخ دمشق (٣٨/ ٢٨).

أصحاب الحديث التمسوا الحق من مظانه:

وأعرف الناس به، وبما خالفه من البدع والضلالات، والآراء والأهواء قال **ابن قتيبة** رحمه الله: «فأما **أصحاب الحديث فإنهم التمسوا الحق من وجهته**، وتتبعوه من مظآنه، وتقربوا من الله تعالىٰ، باتباعهم سنن رسول الله ﷺ، وطلبهم لآثاره وأخباره حتىٰ فهموا صحيحها وسقيمها، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلىٰ الرأي. فنبهوا علىٰ ذلك حتىٰ نجم الحق بعد أن كان عافياً، وبسق بعد أن كان دارساً، وانقاد للسنن من كان عنها معرضاً، وتنبه عليها من كان عنها غافلاً،

---

(٢٠٠) الجامع للخطيب (٢/ ١٩٩).
(٢٠١) العزلة (ص١٠١).
(٢٠٢) العزلة (ص١٠١).

وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد أن كان يحكم بقول فلان وفلان وإن كان فيه خلاف علىٰ رسول الله ﷺ» .ا.هـ.تأويل مختلف الحديث (ص٧٤،٧٣).

قال **الأصمعي**: كان عندنا بالبصرة رجل يتشيع وكان من الغلاة وكان يكتمنا قال فبكر ذات يوم فقال يا أصحاب الحديث الحق معكم قلنا كيف قال رأيت الليلة في المنام أبا بكر الصديق فرأيت شيخًا بهياً حسن اللحية فقلت يا خليفة رسول الله ﷺ اجعلني في حل قال من أي شئ قلت كنت أشتمك وألعنك فقال لي لا تعد قلت أنا تائب فقال أنت في حل ثم وقفت فإذا عمر قد جاء كأنه أسد فقلت يا أمير المؤمنين قال لبيك قلت اجعلني في حل قال من أيش قلت كنت أشتمك وألعنك فقال لا حتىٰ أذعتك ذعته تسلح منها فأصحبت وقد خرئت فقال الأصمعي: بالخراءة ثبت. تاريخ دمشق (٤٤/ ٣٩١).

هذا وقد أُلفت كتب في بيان فضائلهم، وعظم شرفهم، والانتصار لهم، وبيان معتقدهم، فتراهم يتميزون في جميع أبواب الدين وعلوم الشريعة، فهم أعظم الناس قياماً بالعقيدة والتوحيد دعوة، ونشراً، ورداً علىٰ المبطلين، وحماة للإسلام فتراهم يردون علىٰ الخرافيين، وعلىٰ أهل البدع من الخوارج، والروافض، والمرجئة، والمعتزلة والجهمية، والقدرية ونحوهم ويحذرون منهم، كما تراهم يردون وعلىٰ العلمانيين والملاحدة، والشيوعيين، والمستغربين وغيرهم، ويقفون في وجه الحزبيين، ومتعصبي المذاهب، والمستشرقين، والقرآنيين وكل من طعن في باب من أبواب الدين، وأراد أن يدخل في الدين ما ليس منه.

وتراهم كذلك في المنافحة عن السنة ورد البدع بجميع أصنافها، ويردون الضعيف من الحديث، والأحاديث الموضوعة والمنكرة، ويميزون بينها وبين الصحيح منها، فيدعون إلىٰ السنة الصحيحة، ويحذرون من البدعة القبيحة، وينشرون الأقوال الرجيحة، ويطرحون الآراء المرجوحة، يعتنون بالصحابة وعقيدتهم، وعلم وفضل ودين خير القرون، وآثارهم، وأقوالهم، لا يعتنون بجانب من الدين دون جانب، فتراهم في السلوك والأخلاق، والآداب، والزهد والرقائق والعمل أئمة، كما أنهم في العقيدة والفقه أئمة هدىٰ.

قال عبدالملك بن مروان للشعبي: «فما بقىٰ معي شيء إلا وقد مللته سوىٰ الحديث الحسن وأنشد:

ومللت إلا من لقاء محدث ... حسن الحديث يزيدني تعليمًا»

قال بعضهم:

ولقد سئمت مآربي ... وكان أطيبها الحديث

إلا الحديث فإنه ... مثل اسمه أبدا حديث

«ولسنا بصدد ذكر مناقب أهل الحديث فإن مناقبهم شهيرة، ومآثرهم كثيرة، وفضائلهم غزيرة، فمن انتقصهم فهو خسيس ناقص، ومن (بغضهم) فهو من حزب إبليس ناكص.

كيف وقد دعا لهم النبي ﷺ بقوله: «**نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعىٰ من سامع**» رواه أصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن مسعود مرفوعًا وحسنه الترمذي . فدعا لأصحاب الحديث بالنضارة وهيٰ: النعمة والبهجة والحسن فيكون تقديره: جمله الله وزينه». السفاريني في لوائح الأنوار السنية (٢/ ٣٥٤).

جعلنا الله معهم ومنهم وفيهم، ولا حرمنا صحبتهم، وحشرنا تحت لواء إمامهم وسيدهم ونبيهم محمد ﷺ، وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

ولم تكن لهم تلك الفضائل والميزات إلا لشدة اتباعهم للنبي ﷺ وأصحابه، كما يأتي معنا أنهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، وقد أوصىٰ النبيُّ ﷺ بهم وبإتباعهم لذلك.

وقد ورد في حديث الافتراق، لما سئل عن الناجية منها قال: «**وهي الجماعة**»: قال **أبوالحسن المباركفوري**: «أي الموافقون لجماعة الصحابة الآخذون بعقائدهم، المتمسكون بطريقتهم، وهم أهل السنة والجماعة، أي أصحاب الحديث الذين اجتمعوا علىٰ اتباع آثاره ﷺ في جميع الأحوال، واتفقوا علىٰ الأخذ بتعامل الصحابة وأجماعهم، ولم يبتدعوا بالتحريف والتغيير، ولم يبدلوا بالآراء الفاسدة». مرعاة المفاتيح (١/ ٢٧٨).

تمني الأمراء والخلفاء والملوك منزلة المحدثين وأصحاب الحديث:

قال **يحيىٰ بن أكثم** ، قال : قال لي الرشيد : ما أنبل المراتب ؟ قلت : ما أنت فيه يا أمير المؤمنين . قال : فتعرف أجل مني ؟ قلت : لا ، قال : لكني أعرفه : رجل في حلقة يقول : حدثنا فلان عن فلان قال : قال رسول الله ﷺ . قال : قلت : يا أمير المؤمنين هذا خير منك ، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ ، وولي عهد المسلمين ؟ قال : نعم . ويلك ، هذا خير مني ، لأن اسمه مقترن

باسم رسول الله ﷺ، لا يموت أبدا . نحن نموت ونفنىٰ ، والعلماء باقون ما بقي الدهر. (شرف أصحاب الحديث/ ٢٠٥)،

محمد بن سلام الجمحي يقول: قيل للمنصور: هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تنله؟ قال: بقيت خصلة، أن أقعد في مصطبة وحولي أصحاب الحديث، فيقول المستملي: من ذكرت رحمك الله؟

قال: فغدا عليه الندماء وأبناء الوزراء بالمحابر والدفاتر، فقال: «لستم هم، إنما هم الدنسة ثيابهم، المشققة أرجلهم، الطويلة شعورهم، برد الآفاق ونقلة الحديث». المنتظم في أخبار الملوك والأمم (٧/ ٣٤٨).

فعن موسىٰ بن داود قال دخل محمد بن سليمان بن علي المسجد الحرام فرأىٰ أصحاب الحديث يمشون خلف رجل من المحدثين ملازمين له فالتفت إليَّ من معه فقال: لأن يطأ هؤلاء عقبي كان أحب إليَّ من الخلافة. تاريخ دمشق (٥٣/ ١٣٤).

إكرام وإجلال أصحاب الحديث:

كان أبوإبراهيم المزني، يقول: كنا يومًا عند الشافعي، رضي الله عنه، إذ أقبل رجل من أصحاب الحديث، وكان عندنا ممن لا يقام له، فقام إليه الشافعي وأجلسه بجنبه، وأنشأ يقول:

ولما تبدا لنا مقبلا ... حللنا الحبر وابتدرنا القياما

فلا تنكرن قيامي له ... فإن الكريم يجل الكراما

المنتخب من معجم شيوخ السمعاني (١٠٣٩).

وَقَالَ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ: لَقِيَنِي يَحْيَىٰ بْنُ مَعِينٍ ا فَقَالَ لِي: مَا يَسْتَحْيِي أَبُوكَ مِمَّا يَفْعَلُ؟ قُلْتُ: وَمَا يَفْعَلُ؟ قَالَ: رَأَيْتُهُ مَعَ الشَّافِعِيِّ، وَالشَّافِعِيُّ رَاكِبٌ وَهُوَ رَاجِلٌ، وَرَأَيْتُهُ قَدْ أَخَذَ بِرِكَابِهِ، فَقُلْتُ ذَلِكَ لِأَبِي، فَقَالَ لِي: قُلْ لَهُ إِذَا لَقِيتَهُ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَتَفَقَّهَ فَتَعَالَ فَخُذْ بِرِكَابِهِ الْآخَرَ. سير السلف الصالحين (ص١١٧٠).

وقال حمد بن عمر الزجاج: لما أملىٰ صالح بهَمَذَان كانت له رحىٰ -يعني طاحون-

فباعها بسبعمائة دينار، ونثرها علىٰ محابر أصحاب الحديث. الروض الباسم في تراجم الحاكم (١/ ٥٢٤).

وصية العلماء بأصحاب الحديث

علىٰ طالب العلم أن يكون دائمًا مع من وصفهم الله تعالىٰ بأنهم الذين اتبعوا الصحابة بإحسان من أهل العلم في كل زمان ومكان هم أهل الاتباع حقًا، وأهل العلم صدقًا وهم أصحاب الحديث، قال عز وجل: ﴿ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ﴾(التوبة/ ١٠٠)، وقد سبق أن ذكرنا فضائلهم، وأنهم أتبع الناس للصحابة والسلف، وأعرف الناس بطريقتهم.

قال الإمام الآجري رحمه الله: «علامة من أراد الله به خيراً: سلوك هذه الطريق: كتاب الله عز وجل، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان رحمة الله تعالىٰ عليهم، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلىٰ آخر ما كان من العلماء، مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل والقاسم بن سلام، ومن كان علىٰ مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء»[٢٠٣] اهـ.

قال تعالىٰ: ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا**﴾ (الكهف/ ٢٨).

وسئل عمن نكتب في طريقنا، فقال: «عليكم بهناد، وبسفيان بن وكيع، وبمكة ابن أبي عمر، وإياكم أن تكتبوا، عني: عن أحد من أهل الأهواء، قليلاً ولا كثيراً، **عليكم بأصحاب الآثار والسنن**». (السير ١١/ ٢٣١).

فالزمهم أخي المسلم وكن علىٰ معرفة بسبيلهم ومنهاجهم فقد قال **ابن شوذب**: «من نعمة الله علىٰ الشاب والأعجمي إذا نسكا أن يوفقا لصاحب سنة يحملهما عليها، لأن الأعجمي يأخذ

---

(٢٠٣) الشريعة (١/ ١٢٤).

فيه ما سبق». الإبانة (٢/ ٤٧٦)

فمن نعم الله العظمىٰ أن تجد شيخـًا أو طالب علم يعلمك الحديث والأثر، ويأخذ بيدك ويدلك علىٰ الحديث ويربيك علىٰ السنة، فما دمت علىٰ الأثر فأنت علىٰ خير عظيم، وفي نعمة من ربك يلزمك شكرها.

قال موسىٰ بن حزام الترمذي: كنت أختلفُ إلىٰ أبي سليمان الجوزجاني في كتب محمد (يعني ابن الحسن الشيباني) فاستقبلني **أحمد بن حنبل**، فقال: إلىٰ أين؟، قلت: إلىٰ أبي سليمان.

فقال: العجبُ منكم! تركتم إلىٰ النبي ﷺ، يزيد عن حميد، عن أنس، وأقبلتم علىٰ ثلاثة إلىٰ أبي حنيفة، رَحِمَهُ اللَّهُ، أو سليمان، عن محمد عن أبي يوسف عنه! قال: فانحدرتُ إلىٰ يزيد بن هارون. (السير ١١/ ٢٣١).

وقال **البربهاري** أيضـًا[٢٠٤]: «عليك بالآثار، وأهل الآثار، وإياهم فاسأل، ومعهم فاجلس، ومنهم فاقتبس»[٢٠٥].

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأهل العلم بالحديث أخص الناس بمعرفة ما جاء به الرسول ومعرفة أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان فإليهم المرجع في هذا الباب لا إلىٰ من هو أجنبي عن معرفته** ليس له معرفة بذلك، ولولا أنه قلَّد في الفقه لبعض الأئمة لكان في الشرع مثل آحاد الجهال من العامة» (درأ تعارض النقل والعقل ٣/ ٣٠٢).

وقال **الصديق حسن خان** رَحِمَهُ اللَّهُ: «عليك يا باغي الخير، وطالب النجاة بلا ضير، أن تكون محدِّثـًا، أو متطفلاً علىٰ المحدِّثين، وإلا فلا تكن ... فليس فيما سوىٰ ذلك من عائدة تعود إليك»[٢٠٦].

وقال **هبة الله بن الحسن الشيرازي**:[٢٠٧]

---

(٢٠٤) شرح السنة (ص٢٠).

(٢٠٥) ومن أراد المزيد في هذه المسألة فليراجع كتاب "الاعتصام" للشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنه كتاب جليل، عظيم النفع، كبير الفائدة، لم يُصَنَّفْ في بابه مثلُهُ. والتعليق علىٰ الطحاوية لشيخنا العلامة الألباني (ص٤٨).

(٢٠٦) صفة صلاة النبي ﷺ (ص١٧٦).

(٢٠٧) لوائح الأنوار السنية (٢/ ٣٦٣).

عليك بأصحاب الحديث فإنهم ... على منهج للدين ما زال معلـمـًا
وما النور إلا في الحديث وأهله ... إذا ما دَجى الليلُ البهيمُ وأظلـما
وأعلى البرايا مَن إلى السنن إعتزى ... وأغوى البرايا من إلى البدع انتما
ومَنْ تركَ الآثارَ قد ضل سعيه ... وهل يترك الآثار من كان مسـلما

وقال **المجد بن أحمد الأربلي**:

إذا شئت أن تتوخى الهدى ... وأن تأتي الحق من بابه
فدع كلَّ قول ومن قاله ... لقول النبي وأصحـابه
فلم ينج من محدثات الأمور ... بغير الحديث وأصحابه

وقال ابن رجب: «أما فقهاء أهل الحديث العاملون به فإن معظم همهم البحث عن معاني كتاب الله وما يفسره من السنن الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان وعن سنة رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها وسقيمها ثم التفقه فيها وفهمها والوقوف على معانيها ثم معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث ومسائل الحلال والحرام وأصول السنة والزهد والرقائق وغير ذلك وهذا هو طريق الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين وفي معرفة هذا شغل شاغل عن التشاغل بما أحدث من الرأي ما لا ينتفع به ولا يقع وإنما يورث التجادل فيه كثرة الخصومات والجدال وكثرة القيل والقال وكان الإمام أحمد كثيرا إذا سئل عن شيء من المسائل المحدثة المتولدات التي لا تقع يقول دعونا من هذه المسائل المحدثة»[٢٠٨].

وقال الصنعاني رحمه الله: «إنما يشترط أن يؤخذ العلم عمَّن يوثق بصدقه، ودينه وورعه، وشهرته بالعلم النافع من الكتاب والسنة، وألا يسأله عن مذهب فلان ولا فلان، وكيف وفي كتب الأصول نقل الإجماع على تحريم تقليد الأموات». (إرشاد النقاد/ ص١٦٣).

وقال أبوالقاسم بن الصّقر في فضل الحديث:

لقد حاز أصحاب الحديث وأهله ... شأوا وثيراً ومجدا مخلّدا

---

(٢٠٨) إيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم (ص١٤٣).

وصحّت لهم بين الأنام مزيّة .. . أبانت لهم عزّا ومجدا وسؤددا

بدعوة خير الخلق أفضل مرسل .. . محمد المبعوث بالنّور والهدىٰ

فهم دوّنوا علم الحديث وأتقنوا ... ونصّوا بتبيين صحيحا ومسندا

الإحاطة في أخبار غرناطة (٣/ ٤٤)

لماذا يبتعد الناس عن أمهات كتب الحديث والأثر؟

كثيراً ما نجد الترهيب من كتب الحديث من بعض المقلدة وأشباههم، وهذا لا غرابة فيه، لكن الذي يؤسفني وأستغربه أننا وجدنا ذلك عند بعض من ينتسب إلىٰ السلفية!! فاعجب أو ابك علىٰ ما وصل إليه حال الأمة، فنجد من يعظم كتب الرأي (كتب الفقه) أكثر من تعظيمه لكتب الحديث والسنة، ويلزم من ذلك أن يكون معظماً لكلام الناس والمشايخ أكثر من تعظيم الوحي المنزل علىٰ رسول الله ﷺ وهذه إحدىٰ الكُبَر، ولا يشعر المسكين أنه قد يكون له نصيب من قول الله تعالىٰ: **(وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا)**، وأنا أذكر بعض الأسباب الباعثة علىٰ إبعاد الناس عن الحديث والسنة والأثر.

أولا: لأن هذه الكتب ستصرفه عن قول متبوعه ومقلَّده، وتقضي علىٰ بعض أو كثير مما تعب في تحصيله برهة من الزمن.

ثانيا: أن قلبه أشرب حب كتب الرأي (كتب الفقه)، فلم يعد له مكان في قلبه يتسع لغيرها.

ثالثًا: إنه يجد وحشة، ولا أريد أن أقول بِغضة في نفسه من الكتب الحديث والأثر، من حيث يشعر أو لا يشعر بسبب نشأته علىٰ كتب الرأي، ولذلك نقول: إذا نشأ علىٰ كتب الحديث عظمها في نفسه وكانت جليلة القدر.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «من آثر كلام الناس وعلومهم علىٰ القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ (مبغض) لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتىٰ إن بعضهم لنسىٰ القرآن بعد أن حفظه،

ويشتغل بقول فلان وفلان»[٢٠٩].

قلت: حتىٰ إن بعضهم يتمنىٰ لو لم يكن قاله رسول الله لأنه مما يخالف ما درسه، وما درج عليه.

رابعـًا: ما لقنوه إياه منذ الصغر من ذكر فضائل كتب الرأي (كتب الفقه) وما يزينونه له من بهرج القول في تعظيمها، وأنه بدونها لا يكون عالمـًا فقيهـًا، ولا يتصور المسائل تصوراً صحيحـًا، وأنه إذا أخذ العلم من كتب السنة أنه يتخبط، ويتناقض، ويمشي علىٰ غير أصول ولا هدىٰ، إلىٰ غير ذلك من الهراء، والجدال بالباطل ليدحضوا به الحق.

خامسـًا: إنه متىٰ لازم أهل الحديث فسيضعفون له بعض ما بنىٰ عليه فقهه فيصبح صفر اليدين من الحجج مع قلتها عنده.

سادسـًا: يظن هؤلاء وكثير من الناس أن كتب الحديث بعيدة كل البعد عن الفقه، وأن الفقه هو هذه الآراء!!

وهذا وهم من قائله، أو جهل بكتب الحديث، فإن الحديث بذاته فقه، وقد سبق أن ذكرنا غير مرة أن النبي ﷺ أطلق علىٰ حديثه لفظ: الفقه فقال: «**رب حامل فقه ليس بفقيه أو إلىٰ من هو أفقه منه**».

وأيضا: فإن كتب الحديث قد صنفت علىٰ أبواب الفقه وكثير من مؤلفيها فقهاء علماء من أهل الاجتهاد كالبخاري وأبي داود كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية أن هؤلاء أئمة من أهل الاجتهاد.

وتراجم هذه الكتب قد اشتملت علىٰ أبواب وتراجم كلها فقه، وأحكام.

هذا غير ما في هذه الكتب من سنن وفرائض وأحكام وفضائل ومكارم أخلاق، وحلال وحرام لم تذكر في كتب الرأي (كتب الفقه)، مع ما في ذلك من السلاسة والسهولة، والنور والهدىٰ.

وأيضـًا طريقة العرض فيها للدين طريقة فريدة جداً تفتتح كل حكم فيها بالصلاة علىٰ النبي ﷺ، فقول الصحابي قبل ذكر الحديث: قال رسول الله ﷺ، فيه من الرقة والأجر، وقوة الحجة،

---

(٢٠٩) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٢٦).

وسلاسة العبارة، والتلطف في الأمر كطريقة القرآن، يفتتح الأمر أو النهي بيا أيها الذين آمنوا، كما يفتتح النبي ﷺ قوله مثلاً: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ...

ونحو ذلك من التلطف في الأمر أو النهي، وتختتم الآية بترغيب أو ترهيب أو بهما معـًا.

وكذلك الحديث إما أن يكون فيه ترغيب أو ترهيب أو بيان فضل، أو عمل من الصحابي، أو فعل من النبي ﷺ الذي فيه التأسي والاقتداء، أو وعد أو وعيد، أو إنكار وزجر، أو استحسان وثناء علىٰ من فعل ذلك أو غير ذلك مما يطول ذكره.

وهذا بخلاف كتب المذاهب التي اشتملت علىٰ الأحكام مجردة، افعل ولا تفعل، يحرم، ويجب، لا سيما المتون المجردة عن الأدلة، أو قليلة الأدلة، والمهم فيها ذكر المذهب، أو الرواية أو الوجه، أو هذا قول أصحابنا، أو قول فلان من أصحابنا أو ...إلخ

وقد يظن بعضهم أن الشريعة والنصوص لا تفي بمتطلبات الناس، ولا تكفي لحاجة الأمة، ولم تفصل النزاع في كثير من المسائل، وهذا ظن فاسد، ومخالف للكتاب والسنة وفيما يأتي رد علىٰ هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

احذر مخالفة ومفارقة أصحاب الحديث:

قال تعالىٰ: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم .... ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا)

حديث: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: ....وأما هذا فأعرض فأعرض الله عنه

وحديث: المدينة تنفي خبثها..

وقال عبد الله: ذُكِر عند أبي رجل من أهل البصرة ممن كان يحدث، فقلت: إنه واقفي، يقف؛ وقد ترك أصحاب الحديث ما يأتونه. فقال: أبعده الله.

"العلل" برواية عبد الله (١٤٤٢)

وعن أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، قال : «ما الناس إلا أصحاب الحديث، فإذا رأيت الرجل قد كتب الحديث ثم تركه فاتهمه». مجموع فيه عشرة أجزاء حديثية (٤٨٠).

وعن أبي بكر أحمد بن عبد الرحمن النسفي المقرئ قال : « كان مشايخنا يسمون أبا بكر

ابن إسماعيل أبا ثمود ، لأنه كان من أصحاب الحديث ، فصار من أصحاب الرأي . يقول الله تعالىٰ: ﴿**وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ**﴾ شرف أصحاب الحديث (١٥٥)

قال **عبدة بن زياد الأصبهاني**:[٢١٠] .

دين النبي محمد أخبار نعم المطية للفتىٰ الآثارُ
لا ترغبن عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهارُ
ولربما غلط الفتىٰ سبل الهدىٰ والشمس بازغة لها أنوار

ولا يسعني في نهاية هذا الفصل إلا أن أقول ما قال بعضهم:

جزىٰ الله أَصْحَاب الحَدِيث مثوبة وأبواهم فِي الْخلد أَعلَىٰ الْمنَازل
فلولا اعتناهم بِالْحَدِيثِ وَحفظه ونفيهم عَنهُ ضروب الاباطل
وإنفاقهم أعمارهم فِي طلابه ... وبحثهم عَنهُ بجد مواصل
لما كَانَ يدْرِي من غَدا متفقها .. . صَحِيح حَدِيث من سقيم وباطل
وَلم يستبن مَا كَانَ فِي الذّكر مُجملا ... وَلم ندر فرضا من عُمُوم النَّوَافِل
لقد بذلوا فِيهِ نفوسا نفيسة .. . وَبَاعُوا بِحظ آجل كل عَاجل
فحبهم فرض علىٰ كل مُسلم .. . وَلَيْسَ يعاديهم سوىٰ كل جَاهِل

الضوء اللامع (٩/ ٧٥).

ولما وجد في الأمة من لا يفتأ يصد، ويحط من قيمة العلم والعلماء بلسان حاله أو قاله، ويجمع الناس علىٰ حشو من الكلام، مع إبعادهم عن أهل الحديث والأثر، وإشغالهم بالقيل والقال، من كلام أهل الرأي ويزعم أنه هو الفقيه، أو السفسطة والكلام والفلسفة، من أعجبته نفسه، وما زينه له شيطانه من ذكاء أو فصاحة لسان أو آلفه الشيطان العبادة كي يصطاد به، وما زين له الشيطان أيضـًا من فكر المفكرين، وآراء الحزبيين، أو طرق القصاصين، وبعضهم يفعل ذلك ويلبسه لباسـًا سلفيـًا، أو يزعم أنه هو منهج السلف عياذا بالله.

ومن هنا نحن نحذر أخواننا من هؤلاء خشية الوقوع في شباكهم، أو شبهاتهم الماكرة.

---

(٢١٠) المصدر السابق (رقم١٦٣)

أهل الحديث أفضل من تكلم في العلم والفقه:

وإننا أخذنا علىٰ عاتقنا في هذا الكتاب أن نسير فيه علىٰ طريقة أهل الحديث والأثر، وهي طريقة البخاري نفسه، إذ إنهم هم أقرب الناس للصواب، وهم أئمة الناس وقدوتهم، فعن مُحَمَّدُ بْنُ الطُّفَيْلِ قَالَ: رَأَىٰ **فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ** قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَمْزَحُونَ وَيَضْحَكُونَ (فيهم بعض الخفة) فَنَادَاهُمْ: «مَهْلًا يَا وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ مَهْلًا –ثَلَاثًا– **إِنَّكُمْ أَئِمَّةٌ يُقْتَدَىٰ بِكُمْ**». رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٠٠)، والآداب الشرعية (١/ ٢٣٤).

وقال سفيان: في هذه الآية: ﴿**فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ (النساء/ ٦٩)، قال: ﴿**الصالحون**﴾: «هم أصحاب الحديث»، وفي كتاب: «خلق أفعال العباد»، للبخاري وقد ذكر بسنده حديث أبي سعيد الخدري في قوله تعالىٰ: ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء علىٰ الناس**﴾()، قال **البخاري**: «هم الطائفة التي قال النبي ﷺ: **لا تزال طائفة من أمتي**....» فذكر الحديث، وقال **اللالكائي** رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا إياهم: «أصحاب الحديث أولىٰ الناس بالاتباع، فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث علىٰ الاتباع وذم التكلف والاختراع فمن اقتصر علىٰ هذه الآثار كان من المتبعين **وكان أولاهم بهذا الاسم، وأحقهم بهذا الوسم، وأخصهم بهذا الرسم أصحابُ الحديث لاختصاصهم برسول الله** ﷺ واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه، وحفظهم أنفاسه وأفعاله؛ فأخذوا الإسلام عنه مباشرة وشرائعه مشاهدة، وأحكامه معاينة من غير واسطة، ولا سفير بينهم وبينه واصلة؛ فجاولوها عيانًا، وحفظوا عنه شفاها، وتلقفوه من فيه رطبًا، وتلقنوه من لسانه عذبًا، واعتقدوا جميع ذلك حقًا، وأخلصوا بذلك من قلوبهم يقينًا.

فهذا دين أخذ أوله عن رسول الله ﷺ مشافهة، لم يشبْهُ لبس، ولا شبهة.

ثم نقلها العدول عن العدول من غير تحامل ولا ميل، ثم الكافة عن الكافة، والصافة عن الصافة، والجماعة عن الجماعة، أخذ كف بكفٍّ، وتمسك خلف بسلف كالحروف يتلو بعضها بعضًا، ويتسق أخراها علىٰ أولاها رصفًا ونظمًا» (شرح اعتقاد أهل السنة١/ ٢٢)، وقال **صالح بن أحمد بن حنبل** يقول: سمعتُ أبي يقول: «مَن عَظّم أصحاب الحديث، تعظَّم في عين رسول الله،

ومن حقرهم، سقط من عين رسول الله، لأن أصحابَ الحديث أحبارُ رسول الله ﷺ». مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٢٤٧).

وقد وصفهم النبي ﷺ بقوله: «**يحمل هذا العلم من كلِ خَلَفٍ عُدولُه، ينْفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلينَ**» ، حسن لغيره: خرجته في الشريعة (ح٢).

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «**وَأَمَّا الْمُحَقِّقُونَ فِيهِ (أي في الحديث) الْمُتَخَصِّصُونَ بِهِ فَهُمُ الْأَئِمَّةُ الْعُلَمَاءُ وَالسَّادَةُ الْفُهَمَاءُ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْمَرْتَبَةِ الرَّفِيعَةِ حَفِظُوا عَلَىٰ الْأُمَّةِ أَحْكَامَ الرَّسُولِ وَأَخْبَرُوا عَنْ أَنْبَاءِ التَّنْزِيلِ** وَأَثْبَتُوا نَاسِخَهُ وَمَنْسُوخَهُ وَمَيَّزُوا مُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ وَدَوَّنُوا أَقْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالَهُ وَضَبَطُوا عَلَىٰ اخْتِلَافِ الْأُمُورِ أَحْوَالَهُ فِي يَقَظَتِهِ وَمَنَامِهِ ...**وَلَوْلَا عِنَايَةُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ بِضَبْطِ السُّنَنِ وَجَمْعِهَا وَاسْتِنْبَاطِهَا مِنْ مَعَادِنِهَا وَالنَّظَرِ فِي طُرُقِهَا لَبَطَلَتِ الشَّرِيعَةُ** وَتَعَطَّلَتْ أَحْكَامُهَا إِذْ كَانَتْ مُسْتَخْرَجَةً مِنَ الْآثَارِ الْمَحْفُوظَةِ وَمُسْتَفَادَةً مِنَ السُّنَنِ الْمَنْقُولَةِ **فَمَنْ عَرَفَ لِلْإِسْلَامِ حَقَّهُ وَأَوْجَبَ لِلدِّينِ حُرْمَتَهُ أَكْبَرَ أَنْ يَحْتَقِرَ مَنْ عَظَّمَ اللهُ شَأْنَهُ وَأَعْلَىٰ مَكَانَهُ وَأَظْهَرَ حُجَّتَهُ وَأَبَانَ فَضِيلَتَهُ وَلَمْ يَرْتَقِ بِطَعْنِهِ إِلَىٰ حِزْبِ الرَّسُولِ وَأَتْبَاعِ الْوَحْيِ وَأَوْعِيَةِ الدِّينِ وَخَزَنَةِ الْعِلْمِ** الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ ﴿**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ (التوبة: ١٠٠) وَكَفَىٰ الْمُحَدِّثَ شَرَفًا أَنْ يَكُونَ اسْمُهُ مَقْرُونًا بِاسْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذِكْرُهُ مُتَّصِلًا بِذِكْرِهِ ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (الحديد/ ٢١) **وَالْوَاجِبُ عَلَىٰ مَنْ خَصَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ وَبَلَّغَهُ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَبْذُلَ مَجْهُودَهُ فِي تَتَبُّعِ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَطَلَبِهَا مِنْ مَظَانِّهَا، وَحَمْلِهَا عَنْ أَهْلِهَا وَالتَّفَقُّهِ بِهَا وَالنَّظَرِ فِي أَحْكَامِهَا، وَالْبَحْثِ عَنْ مَعَانِيهَا وَالتَّأَدُّبِ بِآدَابِهَا** وَيَصْدِفَ عَمَّا يَقِلُّ نَفْعُهُ وَتَبْعُدُ فَائِدَتُهُ وَيُوَفِّيَ الْحَدِيثَ حَقَّهُ مِنَ الدِّرَاسَةِ وَالْحِفْظِ وَالتَّهْذِيبِ وَالضَّبْطِ، وَيَتَمَيَّزَ بِمَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُ، وَيَعُودُ عَلَيْهِ زَيْنُهُ وَجَمَالُهُ». الكفاية للخطيب (ص٥).

وقال **الثوري** رحمه الله: «الملائكة حراس السماء وأهل الحديث حراس الأرض». المصدر السابق (رقم٨٥)،

فالدين محفوظ بأئمة الحديث وطلابه، **وقال أب داود**: «لولا هذه العصابة لاندرس الإسلام-يعني أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار». شرف أصحاب الحديث (رقم١٠٦)، قال **ابن**

عدي: وقال بعضهم: أبىٰ الله أن يجعل سنة أو شريعة في أحكام المسلمين إلا عند المحدثين، فمنعهم الله أن يجدوا عن أصحابهم (يعني: أهل البدع) أثرا عن النبي ﷺ وأصحابه بأسانيدهم.... وقال: في قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي **يقاتلون علىٰ الحق**....» - هم أصحاب الحديث، الذين يتعاهدون مذاهب الرسول، ويذبون عن العلم، لولاهم لم نجد عند المعتزلة، والرافضة، والجهمية، وأهل الرأي شيئًا من سنن المرسلين» . الكامل لابن عدي (١/ ١٢١)، وجاء في طبقات الحنابلة: عن أحمد بن حنبل -في تفسير حديث النبي ﷺ: «**لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا** (يستعملهم في طاعته)»[٢١١]؟ - قال: «هم أصحاب الحديث»[٢١٢].

وفيها أيضًا: رأىٰ **أحمد بن حنبل** أصحاب الحديث، وقد خرجوا من عند محدث والمحابر بأيديهم. فقال **أحمد**: إن لم يكن هؤلاء الناس، فلا أدري من الناس؟. طبقات الحنابلة (١/ ٤٢٦).

وعن صالح بن **أحمد بن حنبل** قال: سمعت أبي يقول: «ما الناس إلا من يقول: حدثنا، وأخبرنا، وسائر الناس لا خير فيهم» طبقات الحنابلة (٣/ ١٣٦).

وعَنِ الْبُوَيْطِيِّ قَالَ سَمِعْتُ **الشَّافِعِيَّ** يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ صَوَابًا». الهروي في ذم الكلام (رقم٣٩٥).

الوصية بتعليم الأولاد السنة والأثر:

وهذا الوليد بن أبان الكرابيس أحد أئمة الكلام، قال لبنيه عند وفاته: «تعلمون أحداً أعلم بالكلام مني؟» قالوا: لا قال: فتتهموني؟ قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟ قالوا: نعم. قال: «عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق يدور معهم» . الحجة في بيان المحجة لقوام السنة (١/ ٢٢٥)، تاريخ الإسلام (١٦/ ٢٦٥)، (شرح الرسالة التدمرية للخميس/ ص٣٣٠).

وكان الأعمش يقول عليكم بملازمة السنة وعلموها للأطفال فإنهم يحفظون علىٰ الناس دينهم إذا جاء وقتهم.

---

(٢١١) **حسن**: ينظر تخريجه في الصحيحة (٢٤٤٢).

(٢١٢) طبقات الحنابلة (١/ ٣٩١)، الآداب الشرعية لابن مفلح (١/ ٢٣١).

أهل الحديث خير من أهل الرأي

مما سبق يتبين أن أهل الحديث هم أحق الناس بالنبي ﷺ وسنته، فلو عقدت مقارنة بين أهل الحديث وأهل الرأي أو غيرهم، لتبين لك لأول وهلة ميزة أهل الحديث والأثر علىٰ غيرهم، ولذلك قال بعضهم في قوله تعالىٰ: ﴿**يوم ندعوا كل أناس بإمامهم**﴾ قالوا: هم أصحاب الحديث لأنهم ليس لهم إمام متبوع إلا النبي ﷺ، قال **اللالكائي** رحمه الله: «فهؤلاء الذين تعهدت بنقلهم الشريعة وانحفظت بهم أصول السنة؛ **فوجبت لهم بذلك المنة علىٰ جميع الأمة والدعوة لهم من الله بالمغفرة**؛ فهم حملة علمه، ونقله دينه، وسفرته بينه وبين أمته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه؛ **فحريٌّ أن يكونوا أولىٰ الناس به في حياته ووفاته**.

وكل طائفة من الأمم مرجعها إليهم في صحة حديثه وسقيمه، ومعولها عليهم فيما يختلف فيه من أموره، انتساب أهل الحديث إلىٰ رسول الله ﷺ ثم كل من اعتقد مذهبًا فإلىٰ صاحب مقالته التي أحدثها ينتسب، وإلىٰ رأيه يستند **إلا أصحاب الحديث فإن صاحب مقالتهم رسول الله ﷺ فهم اليه ينتسبون وإلىٰ علمه يستندون وبه يستدلون وإليه يفزعون وبرأيه يقتدون وبذلك يفتخرون وعلىٰ أعداء سنته بقربهم منه يصولون فمن يوازيهم في شرف الذكر ويباهيهم في ساحة الفخر وعلو الاسم**». شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٢٣).

قال **ابن أبي عاصم** رحمه الله: «رأيت الحديث يحث علىٰ الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، والتأسي بالصالحين، والاقتداء بالأولياء والأصفياء، ويندب إلىٰ الورع وترك ما يريب المرء إلىٰ ما لا يريبه، **والرأي يحث المرء علىٰ ترك مالا يريبه إلىٰ ما يريبه** إلا ما شاء الله» الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٦٤).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «**أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول**

الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل المعرفة بمعانيها واتباعاً لها... يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه». أ.هـ مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٧).

والحق حليفهم ولا يخرج عنهم، **وهم أهل الصراط المستقيم، والصواب في القول والعمل**، وهم خير من أصحاب الرأي في العلم وغيره، قال **أحمد** -رحمه الله-:«أهل الحديث أفضل من تكلم في العلم».وبنحو هذا قال **الأوزاعي**.

وقال قوام السنة الأصبهاني: "الحقّ الذي قام به رسول الله ﷺ هو الذي نعتقده وننتحله، غير **أنّ الله أبىٰ أن يكون الحقّ والعقيدة الصحيحة إلاّ مع أهل الحديث والآثار**، لأنّهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفاً عن سلف، ... ولا طريق إلىٰ معرفة ما دعا إليه رسول الله ﷺ الناس من الدّين المستقيم، والصراط القويم، إلاّ هذا الطريق الذي سلكه **أصحاب الحديث**، وأمّا سائر الفرق فطلبوا الدين لا بطريقه». الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٢٣).

وفي طبقات الحنابلة: حدثنا الفضل قال: سمعت أبا عبد الله (يعني: أحمد بن حنبل) وسئل عن الرجل يسأل عن الشيء من المسائل، فيرشد صاحب المسألة إلىٰ رجل يسأله عنها، هل عليه شيء في ذلك؟ فقال: إذا كان الرجل متبعا أرشده إليه فلا بأس، قيل له فيفتي بقول مالك وهؤلاء؟ قال: لا، إلا بسنة رسول الله ﷺ وآثاره وما روي عن أصحابه، فإن لم يكن روي عن أصحابه شيء فعن التابعين. طبقات الحنابلة (٢/ ١٥).

وأرىٰ من المناسب هنا نقل فتوىٰ **الإمام أحمد** رحمه الله وقد سأله ابنه عبدالله عن الرجل يريد أن يسأله عن أمر دينه مما يبتلىٰ به من الأيمان في الطلاق وغيره، وفي مصره من أصحاب الرأي، وأصحاب الحديث: لا يحفظون، ولا يعرفون الحديث الضعيف، ولا الإسناد القوي، فلمن يسأل؟،

لهؤلاء، أو لأصحاب الحديث علىٰ قلة معرفتهم؟

فقال: «**يسأل أصحاب الحديث، ولا يسأل أصحاب الرأي، ضعيف الحديث خير من الرأي**»(٢١٣).

وعليه فإن **أهل الاتباع الحقيقي هم: أهل الحديث والسنة في كل عصر ومصر**، أينما كانوا وحيثما كانوا فالزمهم وأحبهم واسألهم.

فإن قال قائل: كيف أعرفهم في بلدي؟ **الجواب**: ما قاله **أبو القاسم الأصبهاني**: "قال الله تعالىٰ: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(الحشر:٧)، فأمرنا بإتباع النبي ﷺ وطاعته فيما سَنَّ وأمر، ونهىٰ، وحكم، وعلّم. وقال النبي ﷺ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**». **(متفق عليه)**

فوجدنا سنته، وعرفناها فنظرنا إلىٰ هذه الفرقة -أعني **أصحاب الحديث**- وهم لها أطلب، وفيها أرغب، ولها أجمع ولصحاحها أتبع، فعلمنا يقينًا بالكتاب والسنة، أنهم دون من سواهم من جميع الفرق، لأن صاحب كل فرقة أو صناعة ما لم يكن معه آلة من آلاته، ثم ادّعىٰ تلك الصناعة، كان في دعواه عند العامّة مبطلاً، فإذا كانت معه آلات الصناعات شهد له كل من عاينه قبل الاختبار كما أنك إذا رأيت الرجل فتح باب دكانه علىٰ تمر علمت أنه تمَّار، وإن لم تختبره، وكذلك صاحب كل صناعة، إنما يستدل علىٰ صناعته بآلته، ولو رأيت بين يدي نجار قدومًا، ومنشاراً، ومثقبًا، ثم سمّيته حداداً جُهِّلت. ثم كل صاحب صناعة، وحِرْفة يفتخر بصناعته، ويجالس أهلها، ولا يذمها.ورأينا أصحاب الحديث رحمهم الله قديمًا وحديثًا، هم الذين رحلوا في طلب هذه الآثار وسنن رسول الله ﷺ فأخذوها ، وجمعوها من مظآنها، وحفظوها فاغتبطوا بها ودعوا إلىٰ اتباعها، وعابوا من خالفها فكثرت عندهم، حتىٰ اشتهروا بها كما اشتهر التمار بتمره، والعطار بعطره، ثم رأينا قومًا انسلخوا من حفظها ومعرفتها، وتنكبوا اتباع أصحها وأشهرها، وطعنوا فيها، وفيمن أخذ بها، وزهّدوا الناس في جمعها ونشرها، وضربوا لها ولأهلها أسوأ الأمثال، فعلمنا بهذه الدلائل الظاهرة، أن هؤلاء الراغبين فيها، وفي جمعها وحفظها،

---

(٢١٣) صحيح: رواه عبدالله بن أحمد في السنة (١/ ١٨١)، رواه الخطيب في (تاريخ بغداد١٣/ ٤١٨)، أعلام الموقعين (٤/ ٢٥٨)، **قول شريك**: "أثر فيه ضعف أحب إليَّ من رأيهم". (ذم الكلام/ ٣٢٥) .

واتباعها أولىٰ بها وأحق من سائر الفرق الذين تنكَّبوا أكثرها.

وأن السنن هي التي تحكم علىٰ أهل الأهواء بالأهواء **لأن الاتباع عند العلماء هو الأخذ بسنن رسول الله ﷺ التي صحت عنه، والخضوع لها، والتسليم لأمر النبي ﷺ فيها، والانتهاء عما نهىٰ الله عنه**، ووجدنا أهل الأهواء الذين استبدوا بالآراء، والمعقولات بمعزل من الأحاديث والآثار التي هي طريق معرفة سنة رسول الله ﷺ.

فهذا الذي **قلناه سمة ظاهرة وعلامة بيِّنة تشهد لأهل السنة باستحقاقها، وعلىٰ أهل الأهواء في تركها، والعدول عنها**، ولا نحتاج في هذا إلىٰ شاهد أبين من هذا، ولا إلىٰ دليل أضوأ من هذا»ا.هـ. الحجة في بيان المحجة (٢/ ٢٢٣).

وقال **شيخنا العلامة الألباني** رحمه الله في بيان منزلة النبي ﷺ وسنته عند السلفيين: «أقول: إننا —والحمد لله– من أول الناس اعترافاً بذلك كله، ولعل منزلته ﷺ عندنا محفوظة أكثر بكثير مما هي محفوظة لدىٰ الآخرين، الذين يدَّعون محبته، ويتظاهرون بمعرفة قدره، **لأن العبرة في ذلك كله إنما هي في الاتباع له ﷺ، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه**، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾(آل عمران:٣١)، ونحن بفضل الله من أحرص الناس علىٰ طاعة الله عز وجل، واتباع نبيه ﷺ وهما أصدق الأدلة علىٰ المودة والمحبة الخالصة بخلاف الغلو في التعظيم، والإفراط في الوصف اللذين نهىٰ الله تعالىٰ عنهما" (التوسل/ ص٨٣: ٨٨ ط الدار السلفية).

لا يبغض إسناد الحديث إلا مبتدع الإسناد من خصائص أهل السنة:

قال ابن المبارك: "الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء"[٢١٤].

وقال **شيخ الإسلام**: "الإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة، والرافضة من أقل الناس عناية، إذ كانوا لا يصدقون إلا بما يوافق أهواءهم، وعلامة كذبه أنه يخالف هواهم ولهذا قال ابن مهدي: "أهل العلم يكتبون

(٢١٤) مقدمة صحيح مسلم (١/ ١٥).

ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم"[٢١٥].

وعن عمر قال: «إِيَّاكُمْ وَأَصْحَاب الرَّأْي فَإِنَّهُم أَعدَاء السّنَن أعيتهم الْأَحَادِيث أَن يحفظوها فَقَالُوا بِالرَّأْيِ فضلوا وأضلوا». سبق معنا، ويُروىٰ أيضـًا عن **عمر بن الْخطاب** ﷺ قال: «السّنة مَا سنه الله تَعَالَىٰ وَرَسُوله ﷺ، لَا تجْعَلُوا خطأ الرَّأْي سنة للْأمة»[٢١٦].

ويقول أبو نصر الفقيه: "ليس شيء أثقل علىٰ أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث، وروايته بإسناده"[٢١٧].

وروىٰ الحاكم بإسناد صحيح عن أحمد بن سنان القطان قال: "إذا ابتدع الرجل نزعت حلاوة الحديث من قلبه"[٢١٨].

وعن محمد بن عبد الله الحافظ قال: سمعت أحمد بن إسحاق بن أيوب الفقيه الصيفي يناظر رجلاً فقال: حدثنا فلان ، قال له الرجل: دعنا من حدثنا إلىٰ متىٰ حدثنا؟

فقال له الشيخ: قم يا كافر فلا يحل لك أن تدخل داري بعد، ثم إلتفت إلينا فقال: ما قلتُ لأحد قط لا تدخل داري غير هذا[٢١٩].

باب: في تحامل أهل الرأي والكلام علىٰ أهل الحديث والأثر:

ولما كان الصراع بين الحق والباطل منذ خلق الله الخلق، وكانت من حكمة الله تعالىٰ أن جعل للحق أعداء يطعنون في أهله، ويحطون من مكانتهم، ويصدون عن سبيل الله علىٰ مر العصور والأزمان، إلا أن الحق ظاهر ودامغ للأهواء والباطل، ﴿**بل نقذف بالحق علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾(الإسراء/ ٨١)، ومن ذلك طعنهم علىٰ أهل الحديث والأثر بأنهم لا علم

---

(٢١٥) منهاج السنة (٧/ ٣٧).

(٢١٦) **موضع الشاهد، حسن لغيره**: رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١٣٦)، وهو (منقطع) وقد ورد من طريق أخرىٰ منقطعة عن عمر بلفظ: وقال عمر: «إن الرأي كان من رسول الله ﷺ مصيبًا؛ لأن الله تعالىٰ يريه، وانما هو منا الظن والتكلف؛ **فلا تجعلوا حظ الرأي سنة للأمة**». رواه أبوداود (٣٥٨٦).

(٢١٧) المصدر السابق (ص١٠٤).

(٢١٨) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٠٣).

(٢١٩) سير النبلاء (١٥/ ٤٨٥)، ذم الكلام وأهله (٢/ ٧١).

عندهم، ولا فقه لديهم، وأنهم قليلو المعرفة، بل قالوا: إنهم أهل حشو وغباء!!.

وقَالُوا عن أصحاب الحديث: " زَوَامِلُ أَسْفَارٍ لَا يَدْرُونَ مَا مَعَهُمْ(٢٢٠).

---

(٢٢٠) لا شك أنه خلاف واقع معظم أصحاب الحديث وفيه نوع تجن عليهم، بل هم خيرة الناس في كل عصر ومصر كما سبق معنا من فضائلهم، وما عيب عليهم في شيء إلا ووقع العائب عليهم فيه فيما هو أعظم وأضعاف مضاعفة، وما مُدح أحد بشيء إلا كان أضعافه عن أهل الحديث والأثر.

غير أن بعض الناشئة الذين أدخلوا أنفسهم في زمرة أصحاب الحديث زوراً ومينًا وفيهم قال **الخطيب** رَحِمَهُ اللَّهُ: ويقول: «وَلِكُلِّ عِلْمٍ طَرِيقَةٌ يَنْبَغِي لأَهْلِهِ أَنْ يَسْلُكُوهَا، [وَآلاَتٌ] يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِهَا وَيَسْتَعْمِلُوهَا. لَقَدْ رَأَيْتُ خَلْقًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ يَنْتَسِبُونَ إِلَىٰ الْحَدِيثِ، وَيَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ الْمُتَخَصِّصِينَ بِسَمَاعِهِ وَنَقْلِهِ، **وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ مِمَّا يَدَّعُونَ، وَأَقَلُّهُمْ مَعْرِفَةً بِمَا [إِلَيْهِ] يَنْتَسِبُونَ**، يَرَىٰ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِذَا كَتَبَ عَدَدًا قَلِيلاً مِنَ الأَجْزَاءِ، وَاشْتَغَلَ بِالسَّمَاعِ بُرْهَةً يَسِيرَةً مِنَ الدَّهْرِ، أَنَّهُ صَاحِبُ حَدِيثٍ عَلَىٰ الإِطْلاَقِ، **وَلَمَّا يُجْهِدْ نَفْسَهُ وَيُتْعِبْهَا فِي طِلاَبِهِ، وَلاَ لَحِقَتْهُ مَشَقَّةُ الْحِفْظِ لِصُنُوفِهِ وَأَبْوَابِهِ** ...

وَهُمْ مَعَ قِلَّةِ كَتْبِهِمْ لَهُ، وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ أَعْظَمُ النَّاسِ كِبْرًا، وَأَشَدُّ الْخَلْقِ تِيهًا وَعُجْبًا، لاَ يُرَاعُونَ لِشَيْخٍ حُرْمَةً، وَلاَ يُوجِبُونَ لِطَالِبٍ ذِمَّةً، ... خِلاَفَ مَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ الَّذِي سَمِعُوهُ، وَضِدَّ الْوَاجِبِ مِمَّا يَلْزَمُهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ، وَقَدْ وَصَفَ أَمْثَالَهُمْ بَعْضُ السَّلَفِ». (الجامع).

وذكر **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: « تلبيس إبليس علىٰ أصحاب الحديث:

من ذلك أن قوماً استغرقوا أعمارهم في سماع الحديث والرحلة فيه وجمع الطرق الكثيرة وطلب الأسانيد العالية والمتون الغريبة وهؤلاء علىٰ قسمين قسم قصدوا حفظ الشرع بمعرفة صحيح الحديث من سقيمه وهم مشكورون علىٰ هذا القصد إلا أن إبليس يلبِّس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث.... وبهؤلاء تمكن الطاعنون علىٰ المحدثين فقالوا زوامل أسفار لا يدرون ما معهم فان أفلح أحدهم ونظر في حديثه فربما عمل بحديث منسوخ وربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل وعمل بذلك وليس بالمراد من الحديث .... وقد رأينا في زماننا من يجمع الكتب منهم ويكثر السماع ولا يفهم ما حصل ومنهم من لا يحفظ القرآن ولا يعرف أركان الصلاة فتشاغل هؤلاء علىٰ زعمهم بفروض الكفاية عن فروض الأعيان وإيثار ما ليس بمهم علىٰ المهم من تلبيس إبليس.

وقوم أكثروا سماع الحديث ولم يكن مقصودهم صحيحًا ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق وإنما كان مرادهم العوالي والغرائب؛ فطافوا البلدان ليقول أحدهم لقيت فلانًا، ولي من الأسانيد ما ليس لغيري، وعندي أحاديث ليست عند غيري.

ليظنوا أنه قد تعب في الأسفار لطلب الحديث وكان يقعد شيخ بين نهر عيسىٰ والفرات ويقول حدثني فلان من وراء النهر يوهم أنه قد عبر خراسان في طلب الحديث وكان يقول حدثني فلان في رحلتي الثانية والثالثة

قال **الرامهرمزي** رحمه الله: «اعْتَرَضَتْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ يَشْنَأُ الْحَدِيثَ وَيُبْغِضُ أَهْلَهُ، فَقَالُوا بِتَنَقُّصِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَالإِزْرَاءِ بِهِمْ، وَأَسْرَفُوا فِي ذَمِّهِمْ وَالتَّقَوُّلِ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ شَرَّفَ اللهُ الْحَدِيثَ وَفَضَّلَ أَهْلَهُ ...». (المحدث الفاصل/ ص١).

وقال **ابن حبان** رحمه الله: «زَعَمَ (قوم) أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ يَرْوُونَ مَا لَا يَعْقِلُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ بِمَا لا يفهمون ويرون المتضاد من الأخبار!!، وأنهم حَشْوِيَّةٌ يَرْوُونَ مَا لَا يَعْقِلُونَ وَيَحْتَجُّونَ بِمَا لَا يَدْرُونَ». صحيح ابن حبان (٧/ ٤٧٥)، (١٤/ ٣٥).

و**قال أيضًا**: «زَعَمَ (أي: بعضهم) أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، وَرُعَاةُ اللَّيْلِ يَجْمَعُونَ مَا لَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَيَرْوُونَ مَا لَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ بِمَا يُبْطِلُهُ الْإِسْلَامُ جَهْلًا مِنْهُ لِمَعَانِي الْأَخْبَارِ، وَتَرْكَ التَّفَقُّهِ فِي الْآثَارِ مُعْتَمِدًا مِنْهُ عَلَىٰ رَأْيِهِ الْمَنْكُوسِ وَقِيَاسِهِ الْمَعْكُوسِ» صحيح ابن حبان (١٤/ ١١٦). ورد كثيراً علىٰ من خالف أصحاب الحديث والأثر.

وقال ابن قتيبة رحمه الله: أما طعنهم عليهم -أي علىٰ أهل الحديث- بقلة المعرفة لما يحملون، وكثرة اللحن والتصحيف، فإن الناس لا يتساوون جميعًا في المعرفة والفضل، وليس صنف من الناس إلا وله حشو وشوب.

فأين هذا العائب لهم عن الزهري، أعلم الناس بكل فن، وحماد بن سلمة، ومالك، وابن

ليعلم الناس قدر تعبه في طلب الحديث فما بورك له ومات في زمان الطلب.

قال المصنف: وهذا كله من الإخلاص بمعزل وإنما مقصودهم الرساة والمباهاة ولذلك يتبعون شاذ الحديث وغريبه وربما ظفر أحدهم بجزء فيه سماع أخيه المسلم فأخفاه ليتفرد هو بالرواية وقد يموت هو ولا يرويه فيفوت الشخصين وربما رحل أحدهم إلىٰ شيخ أول اسمه قاف أو كاف ليكتب ذلك في مشيخته فحسب. ومن تلبيس إبليس علىٰ أصحاب الحديث قدح بعضهم في بعض طلبا للتشفي ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذب عن الشرع والله أعلم بالمقاصد ودليل مقصد خبث هؤلاء سكوتهم عمن أخذوا عنه» تلبيس إبليس (ص١٠٣).

ولهذا وغيره نجد الشيخ بكر أبوزيد رحمه الله ألف كتابه: «التعالم»، ونجد من هؤلاء من العجلة والزهو والتطاول، والتعالم والتفاصح، والتشبع بما لم يعطوا إلىٰ غير ذلك من الأمور التي حذر منها أهل العلم نعوذ بالله من ذلك.

عون، والثوري، والأوزاعي، وابن المبارك، وأمثال هؤلآء من المتقنين[٢٢١]؟

علىٰ أن المنفرد بفن من الفنون، لا يعاب بالزلل في غيره، وليس علىٰ المحدِّث، عيب أن يزل في الإعراب، ولا علىٰ الفقيه أن يزل في الشعر.

وإنما يجب علىٰ كل ذي علم ، أن يتقن فنه، إذا احتاج الناس إليه فيه، وقد يجتمع للواحد علوم كثيرة، والله يؤتي الفضل من يشاء.

وقد قيل لأبي حنيفة: ما تقول في رجل، تناول صخرة، فضرب بها رأس رجل فقتله أتقيده به؟ فقال:لا، ولو رماه بأبا قبيس!!

ولا أعلم أحداً من أهل العلم والأدب إلا وقد أسقط في علمه كالأصمعي، وأبي عبيدة، وسيبويه، وغيرهم، وقد أخذ الناس علىٰ الشعراء ، في الجاهلية والإسلام، الخطأ في المعاني، وفي الإعراب، وهم أهل اللغة، وبهم يقع الاحتجاج، فهل أصحاب الحديث في سقطهم إلا كصنف من الناس؟»[٢٢٢]أ.هـ بتصرف يسير.

---

(٢٢١) ومما يذكر هنا ما رواه الحافظ ابن عساكر عن أبي بكر البيهقي أنا أبو عبد الله الحافظ قال سمعت أبا الوليد يقول سمعت **الحسن بن سفيان** يقول لما قدمت علىٰ علي بن حجر وكان من آدب الناس وكان لا يرضىٰ قراءة أصحاب الحديث فغاب القارئ عنه يومًا فقال هاتوا من يقرأ فقمت فقلت أنا فقال اجلس ثم قال في الثانية من يقرأ قلت أنا فقال اجلس وزبرني إلىٰ أن قال الثالثة فقلت أنا فقال كالمغضب هات فقرأت ذلك المجلس **وهو ذا يتأمل ويجهد أن يأخذ عليَّ شيئًا في النحو واللغة فلم يقدر عليه** فلما فرغت قال لي: يا فتىٰ ما اسمك قلت الحسن قال ما كنيتك قلت لم أبلغ رتبة الكنية فاستحسن قولي قال كنيتك أبا العباس قال فكان الحسن بن سفيان يفتخر أن علي بن حجر كناه. تاريخ دمشق (١٣/ ١٠١).

الأزهري أنا أبا الحسن الدارقطني لما دخل مصر كان بها شيخ علوي من أهل مدينة رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) يقال له مسلم بن عبيد الله وكان عنده كتاب النسب عن الخضر بن داود عن الزبير بن بكار وكان مسلم أحد الموصوفين بالفصاحة المطبوعين علىٰ العربية فسأل الناس أبا الحسن أن يقرأ عليه كتاب النسب ورغبوا في سماعه بقراءته فأجابهم إلىٰ ذلك واجتمع في المجلس من كان بمصر من أهل العلم والفضل فحرصوا علىٰ أن يحفظوا علىٰ أبي الحسن لحنة أو يظفروا منه بسقطة فلم يقدروا علىٰ ذلك حتىٰ جعل مسلم يعجب ويقول له وعربية أيضا وعربية أيضاً. تاريخ ابن عساكر (٤٣/ ٩٩)، تاريخ بغداد (١٢/ ٣٥).

(٢٢٢) تأويل مختلف الحديث (ص٨٠).

ومما يعلم تحامل أهل الرأي علىٰ أهل الحديث ما روي عن ابن نمير قال: «كنت عند وكيع، فجاءه رجل، أو قال: جماعة من أصحاب أبي حنيفة، فقالوا له: ها هنا رجل بغدادي يتكلم في بعض الكوفيين، فلم يعرفه وكيع.

فبينا نحن إذ طلع أحمد بن حنبل فقالوا: هذا هو.

فقال وكيع: ها هنا يا أبا عبد الله، فأفرجوا له، فجعلوا يذكرون عن أبي عبد الله، الذي ينكرون، وجعل أبو عبد الله، يحتجُّ بالأحاديث عن النبي ﷺ.

فقالوا لوكيع: هذا بحضرتك ترىٰ ما يقول؟.

فقال: رجل يقول: قال رسول الله، أيش أقول له؟!

ثم قال: ليس القول إلا كما قلتَ يا أبا عبد الله.

فقال القوم لوكيع: خدعك والله البغدادي»(٢٢٣).

وقال **الإمام ابن عقيل** الحنبلي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: «ومن عجيب ما تسمعه من هؤلاء الأحداث الجهّال أنهم يقولون: أحمد **ليس بفقيه لكنه محدِّث**، وهذا غاية في الجهل لأنه قد خرج عنه اختيارات بناها علىٰ الأحاديث بناء لا يعرفه أكثرهم، وخرج عنه من دقيق الفقه ما لا تراه لأحد منهم. وذكر مسائل من كلام أحمد، ثم قال: **وما يقصد هذا إلا** مبتدع، قد تمزق فؤاده من خمود كلمته، وانتشار علم أحمد»(٢٢٤).

---

(٢٢٣) السير (١١/ ١٨٦).

(٢٢٤) مناقب أحمد لابن الجوزي (ص٦٤)، ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ١١٨)،

أذكر للعبرة وللرد علىٰ مخالفي أهل الحديث، ولبيان فضل أحمد ومكانته، ومنْزلته عند أهل العلم الذين هم أهله صدقًا وحقًا، قال **ابن راهويه الإمام المجتهد**: كنت أُجالس أحمد وابن معين، ونتذاكر فأقول: ما فقهه؟ ما تفسيره؟ فيسكتون إلا أحمد" (السير ١١/ ١٨٨).

كان **يحيىٰ بن آدم** واحد زمانه في الفقه: وكان يقول: "أحمد بن حنبل إمامنا" (السير ١١/ ١٨٩).

وقال **عبد الرزاق شيخ أحمد عنه**: "ما رأيتُ أحداً أفقهَ ولا أورعَ من أحمدَ بنِ حنبل". (السير ١١/ ١٩٥).

وقال **صالح بن محمد جزرة**: "أفقه من أدركتُ في الحديث أحمدُ بن حنبل". (السير ١١/ ١٩٩).

وعن **الأثرم** قال: ناظرتُ رجلاً، فقال: من قال بهذه المسألة؟ قلت: مَن ليس في شرق ولا غرب مثله، قال: مَن؟ قلت: أحمد بن حنبل".(السير ١١/ ٢٠٥).

وقال الإمام الخطيب البغدادي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وقفنا علىٰ ما ذكرتم من عيب المبتدعة لأهل السنن والآثار، وطعنِهم علىٰ من شغل نفسه بسماع الأحاديث وحفظ الأخبار، وتكذيبِهم بصحيح ما نقله إلىٰ الأمةِ الأئمةُ الصادقون، واستهزائهم بأهل الحق فيما وضعه عليهم الملحدون

﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بهم وَيَمُدُّهُمْ في طغيانهم يَعْمَهُونَ﴾()، وليس ذلك عجيبًا من متبعي الهوىٰ ومن أضلهم الله عن سلوك سبيل الهدىٰ، ومن واضح شأنهم الدال علىٰ خذلانهم: صدوفهم عن النظر في أحكام القرآن، وتركهم الحجاج بآياته الواضحة البرهان، واطراحهم السنن من ورائهم، وتحكمهم في الدين بآرائهم...

ثم إني نظرت في حال من طعن علىٰ أهل الحديث فوجدته أحد رجلين: إما عامي جاهل أو خاص متحامل، فأما الجاهل فمعذور في اغتيابه، وطعنه علىٰ أهل العلم وأربابه قال تعالىٰ: ﴿**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**﴾(يونس/ ٣٩).

وأما طعن المتخصصين من أهل الرأي والمتكلمين[٢٢٥] فأنا أبيِّن السبب فيه ليعرفه من لم يكن يدريه:

وَقَال مُوسَىٰ بْن هارون الْحَافِظ، عَنْ نوح بْن حبيب القومسي: رأيت أَبَا عَبد اللهِ أَحْمَد بْن حنبل فِي مسجد الخيف سنة ثمان وتسعين ومئة مستندا إِلَىٰ المنارة، وجاءه أصحاب الحديث، وهو مستند، فجعل يعلمهم الفقه والحديث، ويفتي الناس فِي المناسك.

وَقَال عَبد اللهِ بْن أَحْمَد بْن حنبل: حضر قوم من أصحاب الحديث فِي مجلس أَبِي عاصم الضحاك بْن مخلد، فَقَالَ لهم: ألا تتفقهون وليس فيكم فقيه؟ ! فجعل يذمهم، فقالوا: فينا رجل، فَقَالَ: من هو؟ فقالوا: الساعة يجئ، فلما جاء أَبِي، قَالُوا: قد جاء، فنظر إليه، فَقَالَ لَهُ: تقدم، فقال: أكره أن أتخطىٰ الناس، فَقَالَ أَبُو عاصم: هذا من فقهه واحد، فَقَالَ: وسعوا لَهُ، فوسعوا، فدخل، فأجلسه بين يديه، وألقىٰ عَلَيْهِ مسألة، فأجاب، وألقىٰ ثانية فأجاب، وثالثة فأجاب، ومسائل فأجاب، فَقَالَ أَبُو عاصم: هذا من دواب البحر ليس من دواب البر، أو من دواب البر ليس من دواب البحر. تهذيب الكمال (١/ ٤٥٨).

قال إبراهيم الحربي: أحمد **ألقىٰ في قلوبنا منذ كنا غلمانًا اتباع حديث النبي** ﷺ، وأقاويل الصحابة والاقتداء بالتابعين. قلت: هنيئًا لمن وفقه الله لمثل هذا الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- أن يدلهم علىٰ السلفية.

(٢٢٥) مثال: منصور بن محمد بن عبد الله أبو الفتح الأصبهاني المعروف بابن المقدر سكن بغداد وكان معتزليًا داعية خبيث المذهب يزري علىٰ أصحاب الحديث ويستهزئ بالآثار. تاريخ بغداد (١٣/ ٨٦).

فأهل الرأي: فجل ما يحتجون به من الأخبار واهية الأصل، ضعيفة عند العلماء بالنقل، سئلوا عنها -يعني أهل الحديث- فبيَّنوا حالها، وأظهروا فسادها، فشق عليهم إنكارهم إياها، وما قالوه في معناها، وهم قد جعلوها عمدتهم، واتخذوها عدتهم، وكان فيها أكثر النصرة لمذاهبهم، وأعظم العون علىٰ مقاصدهم ومآربهم، فغير مستنكر طعنهم عليهم، وإضافتهم أسباب النقص إليهم، وترك قبول نصيحتهم في تعليلهم، ورفض ما بينوه من جرحهم وتعديلهم، لأنهم هدموا ما شيدوه، وأبطلوا ما راموه منه وقصدوه، وعللوا ما ظنوا صحته واعتقدوه».

وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان في هذا الوقت خلق من أئمة أهل الرأي والفروع، وعدد من أساطين المعتزلة والشيعة، وأصحاب الكلام الذين مشوْا وراءَ المعقول، وأعرضوا عما سلف من التمسك بالآثار النبوية، وظهر في الفقهاء التقليد، وتناقص الاجتهاد؛ فسبحان من له الخلق والأمر؛ فبالله عليك يا شيخ؛ ارفق بنفسك، والزم الإنصاف، ولا تنظر إلىٰ هؤلاء -يعني الحفاظ- النظر الشَّزَر، ولا ترمقهم بعين النقص، فما في مَن سميت أحد -ولله الحمد- إلا وهو بصير بالدين، عالم بسبيل النجاة، وليس الحجة في كبار محدثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة، فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال: -إن أعوزك المقال: مَنْ أحمد. ومَن ابن المديني؟ وأي شيء أبو زرعة، وأبو داود؟ هؤلاء محدثون، **ولا يدرون ما الفقه وما أصوله، ولا يفقهون الرأي، ولا علم لهم بالبيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق**، ولا يعرفون الله تعالىٰ بالدليل، ولا هم من فقهاء الملة[٢٢٦]. فاسكت بحلم، أو انطق بعلم. فالعلم

---

(٢٢٦) **قلت**:سبحان الله، تشابهت قلوبهم !! فإن كانت هذه التُّرهات قد قيلت في مثل أحمد وغيره فلا نستغرب أن تقال فيمن جاء بعدهم، ممن نهج نهجهم، وسار علىٰ دربهم حتىٰ قيلت في محدثي أهل زماننا من أمثال شيخنا الألباني وغيره، وهل الفقه إلا في الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة؟!

وظن كثير من الناس أن معاداة أهل الحديث والعكوف علىٰ آراء الرجال من (قال) و(قالوا) و(قلنا) هو العلم، وأعرض أكثرهم عن كتاب الله عز وجل وصحيح السنة النبوية تعلما وتعليما وفهمًا واستنباطًا وعملاً وقد قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ-[شرح نونية ابن القيم لهراس٢/ ٢٧٢].

تقدمت الألقاب التي وضعوها لأهل الحديث ومعانيها

هم يشهدونكم علىٰ بطلانها ... أفتشهدونهم علىٰ البطلان

ما ضرهم والله بغضكم لهم إذ وافقوا حقا رضىٰ الرحمن

يا من يعاديهم لأجل مآكل ... ومناصب ورياسة الاخوان

النافع هو ما جاء عن أمثال هؤلاء»[٢٢٧]. ومما يحسن ذكره هنا ما ورد عن حفص بْن غياث قَالَ: «كُنَّا ببغداد يجيئنا أصحاب الحديث، فيقول لهم ابن إدريس: عليكم بالشِّعْر والعربيّة. فقلت: ألا تتّقي الله؟ قوم يطلبون آثَارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ تأمرهم يطلبون هذا. لئن عُدت لأسوءَنَّك». تاريخ الإسلام (١٣/ ٨٥). لا نقلل من شأن العربية بهذا لكن أن يُعطَىٰ كل شئ حجمه، ولا يترك الكتاب والسنة لتلك العلوم التي هي معينة علىٰ الفهم لمراد الله ورسوله، وليست هي مقصودة لذاتها.

وقال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد لهج بذم أصحاب الحديث صنفان أهل الكلام وأهل الرأي فهم في كل وقت يقصدونهم بالثلب والعيب **وينسبونهم إلىٰ الجهل وقلة العلم**.

وقالوا غثاء وغثر وزوامل أسفار، وقالوا أقاصيص وحكايات وأخبار وربما قرؤوا ﴿**كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾، وفي الحقيقة ما ثلموا إلا دينهم، ولا سعوا إلا في هلاك أنفسهم، وما للأساكفة وصوغ الحلي، وما للحدادين وتقليب العطر والنظر في الجواهر، أما يكفيهم صدأ الحديد، ونفخ في الكير، وما لأهل الكلام ونقد حملة الأخبار وما أحسن قول من قال:

بلاءٌ ليس يشبهه بلاء ... عداوةٌ غير ذي حسب ودينِ
يُنيلُكَ منه عِرضاً لم يَصُنْهُ ... ويَرْتَعُ منْكَ في عِرْضٍ مصونِ

لكن الحق عزيز وكل مع عزته يدعيه، ودعواهم الحق تحجبهم عن مراجعة الحق.

نعم إن علىٰ الباطل ظلمة، وإن علىٰ الحق نورًا، ولا يبصر نور الحق إلا من حشي قلبه بالنور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور فالمتخبط في ظلمات الهوىٰ والمتردي في مهاوي

تهنيك هاتيك العداوة كم بها .. من حسرة ومذلة وهوان
ولسوف تجني غيها والله عن ... قرب وتذكر صدق ذي الايمان
فاذا تقطعت الوسائل وانتهت ... تلك المآكل في سريع زمان
فهناك تقرع سن ندمان علىٰ التفريط وقت السير والامكان
وهناك تعلم ما بضاعتك التي ... حصلتها في سالف الأزمان
إلا الوبال عليك والحسرات والخسران عند الوضع في الميزان
قيل وقال ماله من حاصل ... الا العناء وكل ذي الأذهان

(٢٢٧) تذكرة الحفاظ (٢/ ٦٢٧).

الهلكة والمتعسف في المقال لا يوفق للعَوْد إلىٰ الحق، ولا يرشد إلىٰ طريق الهدىٰ ليظهر وعورة مسلكه ﴿كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلىٰ ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون﴾»[٢٢٨].

عن عبدالله بن الحسن الهسنجاني قال: كنت بمصر، فرأيت قاضيًا لهم في المسجد الجامع، وأنا ممراض، فسمعت القاضي يقول: مساكين أصحاب الحديث لا يحسنون الفقه.

فحبوت إليه، فقلت: اختلف أصحاب النبي ﷺ في جراحات الرجال والنساء، فأي شيء قال علي بن أبي طالب، وأي شيء قال زيد بن ثابت، وأي قال عبد الله ابن مسعود؟ فأفحم. قال عبد الله: فقلت له: زعمتَ أن أصحاب الحديث لا يحسنون الفقه، وأنا من أَخَسّ أصحاب الحديث، سألتك عن هذه فلم تحسنها، فكيف تنكر علىٰ قومٍ أنهم لا يحسنون شيئًا وأنت لا تُحسِنهُ؟. (شرف أصحاب الحديث/ ص٧٧) الضعفاء لأبي زرعة (٢/ ٧٧٣).

قال أبو عَرُوبة الحرّاني: "الفقيه، إذا لم يكن صاحب حديث، يكون أعرج». (شرف أصحاب الحديث/ ص٧٠) **قلت**: بل أعمىٰ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب، ولهذا لما بلغ الإمام أحمد عن ابن أبي قتيلة أنه ذكر عنده أهل الحديث بمكة، فقال: أهل الحديث قوم سوء، فقام الإمام أحمد وهو ينفض ثوبه، ويقول: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل بيته ، فإنه عرف مغزاه"[٢٢٩].

وقال **الخطيب البغدادي** رحمه الله: ذَمَّ الْحَدِيثَ وَأَهْلَهُ بَعْضُ مَنِ ارْتَسَمَ بِالْفَتْوَىٰ فِي الدِّينِ، وَرَأَىٰ عِنْدَ إِعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ، بِصُدُوفِهِ عَنِ الْآثَارِ إِلَىٰ الرَّأْيِ الْمَرْذُولِ، وَتَحَكُّمِهِ فِي الدِّينِ بِاجْتِهَادِهِ الْمَعْلُولِ، وَذَلِكَ مِنْهُ غَايَةُ الْجَهْلِ وَنِهَايَةُ التَّقْصِيرِ عَنْ مَرْتَبَةِ الْفَضْلِ، يَنْتَسِبُ إِلَىٰ قَوْمٍ تَهَيَّبُوا كَدَّ الطَّلَبِ وَمُعَانَاةَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالنَّصَبِ، وَأَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا، وَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْأَسَانِيدُ فَلَمْ يَضْبِطُوهَا، فَجَانَبُوا مَا اسْتَثْقَلُوا، وَعَادَوْا مَا جَهِلُوا، وَآثَرُوا الدَّعَةَ وَاسْتَلَذُّوا الرَّاحَةَ، ثُمَّ تَصَدَّرُوا فِي الْمَجَالِسِ قَبْلَ الْحِينِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ، وَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِالطَّعْنِ عَلَىٰ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يُحْسِنُونَهُ إِنْ تَعَاطَىٰ أَحَدُهُمْ رِوَايَةَ حَدِيثٍ فَمِنْ صُحُفٍ

---

(٢٢٨) الانتصار لأصحاب الحديث/ (ص١ وما بعدها).

(٢٢٩) الفتاوىٰ (٤/ ٩٦).

ابْتَاعَهَا، كُفِيَ مَئُونَةَ جَمْعِهَا مِنْ غَيْرِ سَمَاعٍ لَهَا وَلَا مَعْرِفَةٍ بِحَالِ نَاقِلِهَا، وَإِنْ حَفِظَ شَيْئًا مِنْهَا خَلَطَ الْغَثَّ بِالسَّمِينِ، وَأَلْحَقَ الصَّحِيحَ بِالسَّقِيمِ، وَإِنْ قُلِبَ عَلَيْهِ إِسْنَادُ خَبَرٍ أَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةٍ تَتَعَلَّقُ بِأَثَرٍ؛ تَحَيَّرَ وَاخْتَلَطَ وَعَبَثَ بِلِحْيَتِهِ وَامْتَخَطَ، تَوْرِيَةً عَنْ مَسْتُورِ جَهَالَتِهِ، فَهُوَ كَالْحِمَارِ فِي طَاحُونَتِهِ، ثُمَّ رَأَىٰ مِمَّنْ يَحْفَظُ الْحَدِيثَ وَيُعَانِيهِ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِهِ الْجَرَيَانُ فِيهِ، فَلَجَأَ إِلَىٰ الِازْدِرَاءِ بِفِرْسَانِهِ، وَاعْتَصَمَ بِالطَّعْنِ عَلَىٰ الرَّاكِضِينَ فِي مَيْدَانِهِ». ثم استظهر بما ورد عن **الحافظ الإمام أبي العباس الأبار البغدادي** قال: «كنت بالأهواز فرأيت رجلاً قد حف شاربه وقد اشترىٰ كُتُبًا وتعيَّن للفُتيا فذكر له أصحاب الحديث فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئًا!!

فقلت: أنت لا تحسن تصلي، قال: أنا؟ قلت: نعم، أيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت ورفعت يديك؟ فسكت، (فأيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا وضعت يديك علىٰ ركبتيك؟ فسكت) قلت: فما تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت؟ فسكتَ.

فقلت: (ما لك لا تتكلم)، ألم أقل: إنك لا تحسن تصلي؟، (أنت إنما قيل لك تصلي الغداة ركعتين، والظهر أربعًا، فالزم ذا خير لك من أن تذكر أصحاب الحديث، فلست بشيء، ولا تحسن شيئًا) فلا تذكر أصحاب الحديث.

صحيح: الكفاية للخطيب (ص٤)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٤٤)، ذكر المحقق الزيادات من تاريخ ابن عساكر.

قال **قتيبة بن سعيد**: «إذا رأيت الرجل يحبُّ أهلَ الحديث مثل يحيىٰ بنِ سعيد القطان، وعبدِ الرحمن بنِ مهدي، وأحمدَ بنِ حنبل، وإسحاقَ ابنِ راهويه وذكر آخرين فإنه علىٰ السنة، ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع»(٢٣٠).

قال أبو حاتم الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر»(٢٣١).

قال أبو إسماعيل الترمذي: **سمعت أحمد** وقال له رجل: إن رجلاً قال: إن أصحاب الحديث قوم سوء، فقال -أي أحمد-: «هذا زنديق»(٢٣٢).

---

(٢٣٠) شرف أصحاب الحديث (ص٧١).
(٢٣١) عقيدة أبي حاتم الرازي (ص٦٩).
(٢٣٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٤٢).

قال أبو عثمان الصابوني [ت: ٤٤٩]: «وعلامة البدع علىٰ أهلها بادية ظاهرة، وأظهر آياتهم وعلاماتهم شدة معادتهم لحملة أخبار النبي ﷺ واحتقارهم لهم، وتسميتهم إياهم حشوية، وجهلة، وظاهرية، ومشبهة اعتقاداً منهم في أخبار رسول الله ﷺ أنها بمعزل عن العلم، وأن العلم ما يلقيه الشيطان إليهم من نتائج عقولهم الفاسدة، ووساوس صدورهم المظلمة، وهواجس قلوبهم الخالية من الخير، وحججهم العاطلة، أولئك الذين لعنهم الله»(٢٣٣) أ.هـ باختصار.

وروىٰ الحاكم بإسناد صحيح عن أحمد بن سنان القطان قال: «ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغضُ أهلَ الحديث»(٢٣٤).

وقال أبو عثمان الصابوني أيضـًا: «أنا رأيت أهلَ البدع في هذه الأسماء التي لقبوا بها أهلَ السُّنَّة، سلكوا فيها مسلك المشركين مع رسول الله ﷺ، فإنهم اقتسموا القول فيه فسماه بعضهم ساحراً، وبعضهم كاهنـًا، وبعضهم شاعراً، وبعضهم مجنونـًا، وبعضهم مفتونـًا، وبعضهم مختلقـًا كذَّابـًا، وكان النَّبِيُّ ﷺ من تلك المعايب بعيداً بريئـًا، ولم يكن إلا رسولاً مصطفىٰ نبيـًا، قال الله عز وجل: ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلُّوا فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ (الإسراء/ ٤٨) كذلك المبتدعة خذلهم الله اقتسموا القول في حملة أخباره، ونقلة آثاره، ورواة أحاديثه المقتدين به، المهتدين بسنته، فسماهم بعضهم حشوية، وبعضهم مشبهة ... ...

وأصحاب الحديث عصامة من هذه المعايب، بريئة زكية نقية، وليسوا إلا أهل السنة المُضيّة والسيرة المرضيّة، والسبل السويّة، والحجج البالغة القويّة، قد وفقهم الله جل جلاله لإتباعِ كتابهِ ووحيه وخطابه، والاقتداءِ برسوله ﷺ في أخباره وأعانهم علىٰ التمسك بسيرته والاهتداءِ بملازمة سنتهِ، وشرح صدورَهم لمحبتهِ ومحبةِ أئمة شريعته، وعلماءِ أمتهِ، ومن أحبَّ قومـًا فهو معهم يوم القيامة...»(٢٣٥) أ.هـ مختصراً . جمعنا الله معهم بنبينا ﷺ بحبنا له ولهم.

ابن الأصم، يقول: سمعت أبي يقول إذا رأىٰ أصحاب الحديث:

أهلاً وسهلاً بالذين أحبهم .. . وأودهم في الله ذي الآلاء

---

(٢٣٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٠٢).

(٢٣٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٠٣).

(٢٣٥) عقيدة أصحاب الحديث (ص١٠٥).

أهلاً بقوم صالحين ذوي تقىٰ .. غر الوجوه وزين كل ملاء

يا طالبي علم النبي محمدٍ . .. ما أنتم وسواكم بسواء

الصلة لابن بشكوال (ص١٤٢).

فمكانتهم ومنزلتهم محفوظة في الأمة، قال **اللالكائي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اغتاظ بهم الجاحدون فإنهم السواد الاعظم والجمهور الأضخم، فيهم العلم والحكم والعقل والحلم والخلافة والسيادة والملك والسياسة، وهم أصحاب الجُمَعات والمشاهد والجماعات والمساجد والمناسك والأعياد والحج والجهاد، وباذلي المعروف للصادر والوارد، وحمات الثغور والقناطر الذين **جاهدوا في الله حق جهاده**، واتبعوا رسوله علىٰ منهاجه.

الذين أذكارهم في الزهد مشهورة وأنفاسهم علىٰ الأوقات محفوظة، وآثارهم علىٰ الزمان متبوعة، ومواعظهم للخلق زاجرة، وإلىٰ طرق الآخرة داعية؛ فحياتهم للخلق منبهة، ومسيرهم إلىٰ مصيرهم لمن بعدهم عبرة.

ورسومهم علىٰ الدهر غير دارسة، وعلىٰ تطاول الأيام غير ناسية.

يعرِّفُ اللهُ إلىٰ القلوبِ محبَّتَهم، ويبعثهم علىٰ حفظ مودتهم، يُزارون في قبورهم كأنهم أحياء في بيوتهم لينشرَ اللهُ لهم بعد موتهم الأعلامَ حتىٰ لا تندرس، أذكارهم علىٰ الأعوام ولا تبلىٰ أساميهم علىٰ مرِّ الأيام فرحمة الله عليهم ورضوانه، وجمعنا وإياهم في دار السلام» شرح اعتقاد أهل السنة (١/ ٢٥).

ولا أقول إلا ما قال أحدهم:

لكل من بني حَوَّاء دين ... وديني حبُّ أَصْحَابِ الحَدِيث

هل كل عالم من العلماء كان ينتحل مذهبًا من المذاهب الفقهية ولابد وانتسب إليها؟!

كثير من العلماء كانوا علىٰ مذهب أهل الحديث وليسوا مقلدين ولا محصورين في مذهب من المذاهب الأربعة ولا غير الأربعة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا مُسْلِمٌ؛

وَالتِّرْمِذِي؛ وَالنَّسَائِي؛ وَابْنُ مَاجَه؛ وَابْنُ خُزَيْمَة؛ وَأَبُويَعْلَىٰ؛ وَالْبَزَّارُ؛ وَنَحْوُهُمْ؛ فَهُمْ عَلَىٰ مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ لَيْسُوا مُقَلِّدِينَ لِوَاحِدِ بِعَيْنِهِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَلَا هُمْ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ بَلْ هُمْ يَمِيلُونَ إلَىٰ قَوْلِ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ كَالشَّافِعِيِّ؛ وَأَحْمَد؛ وَإِسْحَاقَ وَأَبِي عُبَيْدٍ؛ وَأَمْثَالِهِمْ». مجموع الفتاوىٰ(٢٠/ ٤١).

وذكر ابن عساكر أن أبا عبدالله أحمد بن عطاء يقول: «كان أبوسعيد ابن الأعرابي يتفقه ويميل إلىٰ مذهب أصحاب الحديث». تاريخ ابن عساكر (٥/ ٣٥٥).

ثم إن الفقه ليس محصوراً في طائفة دون طائفة، لقوله ﷺ: «**رب حامل فقه ليس بفقيه**»، و«**رب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه**».

فلم ينف عن أحد منهما الفقه، بل أشار إلىٰ أن الفقه الصحيح، والفقيه الذي يحمل الفقه، وإن حُرمه أحيانـًا، وربما لم يسعده الحظ، فلا يفقه ما يحمله جيداً.

فالفقه موهبة وتوفيق، والهداية إلىٰ الحق والصواب فضل من الله تعالىٰ، لذا قال جل ذكره: ﴿**ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حُكمـًا وعلمـًا**﴾.

وقد قال شيخنا **الإمام الألباني** رحمه الله في معرض رده علىٰ الشيخ علي طنطاوي رحمهما الله بقوله: «إن الفهم في الدين ليس محصوراً بطائفة دون أخرىٰ، فلا يلزم من اَختصاص البعض في علم الفقه أن يكون مصيبـًا في كل ما يستنبطه من الشرع كما لا يلزم من اختصاص الآخر في علم الحديث أن يكون مخطئـًا في كل ما يستنبطه منه، فالمرجع إذن هو الدليل، فمن قام الدليل علىٰ إصابته ومعرفته للحق فيما اختلف فيه الناس كان هو الفقيه سواء كان معروفـًا بالتخصص في الحديث أو الفقه».

ولم يكن معلومـًا بينهم تقسيم طلاب العلم والتفريق بين طلاب الحديث وطلاب الفقه، إلا في حدود التخصص، فكان هذا له اعتناء بالتفسير أكثر من الحديث، وآخر بمسائل الأحكام أكثر، وبعضهم بمسائل أشراط الساعة، أو أبواب الاعتقاد أكثر من الآخر وهكذا.

ولم يكن فيهم بكري ولا عمري، ولا عكرمي، وعطائي، بل ولا فيمن بعدهم من القرون الفاضلة لا مالكي وشافعي وحنفي وحنبلي ونحو هذا.

قلت: ولذلك نحن علىٰ يقين من أن السلف من الصحابة ومن بعدهم لم يكونوا يتمذهبون

بقول واحد بعينه من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، لا يخرجون عنه، ولا يحيدون عن طريقته وقوله، ولما قال **معاوية لابن عباس**: "أنت علىٰ ملة عليّ؟، قال: لا، ولا علىٰ ملة عثمان، ولكني علىٰ ملة النبي ﷺ". وفي لفظ: عن **ابن عباس** قال: قال لي معاوية: أنت علوي؟ قلت: ما أنا بعلوي ولا عثماني، ولكني علىٰ ملة رسول الله ﷺ". **إسناده صحيح**: رواه ابن حزم في "الأحكام" (١/ ٥٧٤) (٢/ ٨٨٠)، واللالكائي (١/ ٩٤-ح١٣٣)، **قال ابن حزم**: "فإذا كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم لا يستجيزون نسبة ما يتعبدون به ربهم ولا مذاهبهم إلىٰ أبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا إلىٰ علي، ولا ينتسبون إلىٰ أحد دون رسول الله ﷺ فكيف بهم لو شاهدوا ما نشاهده من المصائب الهادمة للإسلام علىٰ من امتحنه الله به من الانتماء إلىٰ مذهب فلان وفلان، والإقبال علىٰ أقوال مالك وأبي حنيفة والشافعي، وترك أحكام القرآن وكلام النبي ﷺ ظهريـًا، والحمد لله علىٰ تثبيته إيانا علىٰ دينه، وسنته التي مضىٰ عليها أهل الأعصار المحمودة قبل أن **تحدث بدعة التقليد** وتفشو وبالله نعتصم". الأحكام لابن حزم (٢/ ٨٨١)،

وعن عبيد بن الحسن قال: قالت الخوراج **لعمر بن عبد العزيز**: نريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب، قال: عمر بن عبد العزيز: «**قاتلهم الله!، والله ما أردت دون رسول الله إمامـًا**». صحيح: رواه ابن حزم (ح١/ ٥٧٥)، فنحن والله لا نبغي دون رسول الله ﷺ إمامـًا.

قال **الشيخ بكر أبوزيد** رحمه الله: «باستعراض جملة كبيرة من كتب الرجال للمشارقة أو المغاربة لم أجد النسبة المذهبية كفلان المالكي أو الحنبلي او نحوهما إلا في العصور المتأخرة في تراجم علماء القرون الثامن والتاسع وما بعدهما تكاد تكون كالصفة اللازمة في التراجم .

وأما قبل فهي أقل وفي تراجم علماء القرون الثالث والرابع والخامس والسادس فلا توجد إلا علىٰ ندرة وقد استعرضت كتاب: (المنتظم) لابن الجوزي فلم أر إلا النادر القليل بالنسبة إلىٰ المذهب الشافعي وهكذا في (وفيات الأعيان) لابن خلكان وغيرهما . وردت النسبة في :(يتيمة الدهر) للثعالبي المتوفىٰ سنة ٤٢٨ هـ وقد الفها قبل سنة ٤٠٠ هـ ثم كتبها مرة أخرىٰ بعد ٢٥ سنة.

وفي التراجم الأندلسية استعرضت جملة منها وهي كتاب ابن الفرضي، وابن بشكوال، والحميدي، وغيرهم فلا يحس الناظر بذلك إلا علىٰ ندرة، وهذا النادر أن يقال: (تفقه لمالك مثلاً، أو تفقه علىٰ مذهب مالك) ونحوهما.

نعم: كانت كتب الطبقات، لعلماء المذاهب، والفرق.

وبهذا تعلم أن النسبة المذهبية لم تكن من هدي خير القرون وما قرب منها، والله المستعان». (التحول المذهبي/ ٨٨) من كتاب النظائر، الفائدة الخامسة عشرة.

ومما يستأنس به في هذا الباب:

كَانَ أَبُو نصر الْوَاعِظ رَحِمَهُ اللَّهُ حنيفي الْمَذْهَب وَكَانَ فِي زمن الْأُسْتَاذ الإِمَام أَبِي سهل الصعلوكي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ انْتقل من مَذْهَب الرَّأْي[٢٣٦] إِلَىٰ مَذْهَب أَصْحَاب الحَدِيث فَسئلَ عَن ذَلِك فَقَالَ رَأَيْت النَّبِي ﷺ فِي المنَام مَعَ أَصْحَابه قَاصِدا لعبادة الْأُسْتَاذ أَبِي سهل الصعلوكي وَكَانَ مَرِيضا قَالَ فتتبعته وَدخلت مَعَه عَلَيْهِ وَقَعَدت بَين يَدي النَّبِي ﷺ متفكرًا قَالَ فَقلت: إِن هَذَا إِمَام أَصْحَاب الحَدِيث وَإِن مَاتَ أَخْشَىٰ أَن يَقع الْخلَل فيهم فَقَالَ: رَسُول الله ﷺ لي لَا تفكر فِي ذَلِك إِن الله تَعَالَىٰ لَا يضيع عِصَابَة أَنَا سَيِّدهَا». "تبيين كذب المفتري" لابن عساكر (ص١٨٦).

مذهب أهل الحديث مذهب معروف مشهور:

وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب (٩/ ٣٠٩): "وقال مسلم بن الحجاج في كتابه(الانتفاع بجلود السباع) وهذا قول أهل العلم بالأخبار ممن يعرف بالتفقه فيها، والاتباع لها منهم يحيىٰ بن سعيد، وابن مهدي ،ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد ،وإسحاق.

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية (٢١/ ٣٨): هل البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو داود الطيالسي والدارمي والبزار والدار قطني والبيهقي وابن خزيمة وأبو يعلىٰ الموصلي ، هل كان هؤلاء مجتهدين لم يقلدوا أحدا من الأئمة أم كانوا مقلدين ، وهل

---

(٢٣٦) وأمثلة هذا كثيرة منها: مُحَمَّد بن عبد الله الضَّرِير الْمروزِي أَبُو الْخَيْر النَّحْوِيّ كَانَ من أَصْحَاب الرَّأْي، فَصَارَ من أَصْحَاب الحَدِيث لصحبة الإِمَام أبي بكر الْقفال بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي (١/ ١٤٩).

كان من هؤلاء أحد ينتسب إلىٰ مذهب أبي حنيفة؟

فأجاب ، الحمد لله رب العالمين:

أما البخاري، وأبوداود فإمامان في الفقه من أهل الاجتهاد، وأما مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن خزيمة وأبو يعلىٰ والبزار ونحوهم؛ فهم علىٰ مذهب أهل الحديث ليسوا مقلدين لواحد بعينه من العلماء، ولا هم من الأئمة المجتهدين علىٰ الإطلاق، بل هم لا يميلون إلىٰ قول أئمة الحديث كالشافعي وأحمد، وإسحاق، وأبي عبيد، وأمثالهم.

ومنهم من له اختصاص ببعض الأئمة كاختصاص أبي داود ، ونحوه بأحمد بن حنبل ، وهم إلىٰ مذاهب أهل الحجاز: كمالك ، وأمثاله أميل منهم إلىٰ مذاهب أهل العراق كأبي حنيفة ، والثوري ، وأما أبو داود الطيالسي فأقدم من هؤلاء كلهم من طبقة يحيىٰ ابن سعيد القطان ، ويزيد بن هارون الواسطي، وعبد الله بن داود ، ووكيع بن الجراح ، وعبد الله بن أدريس ، ومعاذ بن معاذ، وحفص بن غياث، وعبد الرحمن بن مهدي ، وأمثال هؤلاء من طبقة شيوخ الإمام أحمد، وهؤلاء كلهم يعظمون السنة والحديث ، ومنهم من يميل إلىٰ مذهب العراقيين :كأبي حنيفة ، والثوري ، ونحوهما كوكيع ، ويحيىٰ بن سعيد ، ومنهم من يميل إلىٰ مذهب المدنيين مالك ، ونحوه: كعبد الرحمن بن مهدي.

وأما البيهقي فكان علىٰ مذهب الشافعي منتصرا له في عامة أقواله، والدار قطني هو أيضا يميل إلىٰ مذهب الشافعي ، وأئمة السند، والحديث لكن ليس هو في تقليد الشافعي كالبيهقي مع أن البيهقي له اجتهاد في كثير من المسائل، واجتهاد الدارقطني أقوىٰ منه فإنه كان أعلم ، وأفقه منه".

نور الله قلوب أهل السنة بمحبة علماء السنة وأنصارها

قال تعالىٰ: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ...)()،قال أبوعثمان الصابوني: "إحدىٰ علامات أهل السنة حبهم لأئمة السنة وعلمائها وأنصارها، وأوليائها، وبغضهم لأئمة البدع الذين يدعون إلىٰ النار، ويدلون أصحابهم علىٰ دار البوار، وقد زين الله سبحانه قلوب أهل

السنة ونورها بحب علماء السنة فضلاً منه جل جلاله»[٢٣٧].

وقال **قتيبة بن سعيد**: "إذا رأيت الرجل يحب أهل الحديث مثل يحيىٰ ابن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل وإسحاق ابن راهويه وذكر آخرين فإنه علىٰ السنة ومن خالف هذا فاعلم أنه مبتدع"[٢٣٨].

وقال **شيخ الإسلام**: "وأهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل، فأئمتهم خيار الأمة، وأئمة أهل البدع علىٰ الأمة من أهل الذنوب، ولهذا أمر النبي ﷺ بقتل الخوارج، ونهىٰ عن قتال الولاة الظلمة، فأولئك لهم نَهْمة في العلم والعبادة، فصار يعرض لهم من الوساوس التي تضلهم —وهم يظنونها هدىً فيطيعونها- ما لا يعرِض لغيرهم، ومن سلم من ذلك منهم كان من أئمة المتقين مصابيح الهدىٰ وينابيع العلم"[٢٣٩].

إنما نبل الأئمة في الأمة بتعظيمهم للسنة والعمل بها والحرص عليها

وها نحن نذكر هنا فضل الأئمة الأربعة المشهورين المتبوعين، وإنما نبلوا في الأمة باتباعهم النصوص، وتعظيمهم لها، وحرصهم عليها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ""يعلم فضل أهل الحديث والسنة بأمور" ، فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبين أن الحق معهم، وتارة بإقرار مخالفيهم ورجوعهم إليهم دون رجوعهم إلىٰ غيرهم، أو بشهادتهم علىٰ مخالفيهم بالضلال والجهل، وتارة بشهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض ... فأما شهادة المؤمنين الذين هم شهداء الله في الأرض: فهذا أمر ظاهر معلوم بالحس، والتواتر لكل من سمع كلام المسلمين، وإنما نبل أحمد والشافعي وإسحاق وغيرهم، إنما نبلوا في الإسلام باتباع أهل الحديث والسنة، وكذلك البخاري وأمثاله إنما نبلوا بذلك، وكذلك مالك والأوزاعي، والثوري، وأبوحنيفة وغيرهم، إنما نبلوا في عموم الأمة، وقُبِلَ قولهم لما وافقوا فيه الحديث والسنة، وما تكلم فيمن تكلم فيه منهم إلا بسبب المواضع التي لم يتفق له متابعتها من الحديث والسنة، إما لعدم بلاغها إياه، أو لاعتقاده ضعف دلالتها، أو رجحان غيرها عليها". مجموع

---

(٢٣٧) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٠٧).

(٢٣٨) شرف أصحاب الحديث (ص٧١).

(٢٣٩) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٨٤).

الفتاوىٰ (٤/ ١١،١٠).

ترجمة الأئمة الأربعة رحمة الله عليهم

ونذكر ترجمة موجزة جداً للأئمة المتبوعين المشهورين أئمة الفقه والهدىٰ، والذين أعلىٰ الله مكانتهم وذكرهم، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين إلىٰ يوم الدين، ولو أننا أردنا أن نتكلم عن كل واحد منهم ونوفيه شيء من حقه، لجعلنا مجلداً أو مجلدات لكل واحد منهم، ولكنا أردنا أن نبين شيئًا من مكانتهم عندنا وذلك أن بعض الناس ينسبون إلينا ظلمًا وبهتانًا أننا نذم أو نبغض الأئمة، أو أننا لا نعرف لهم قدرهم، ونقول لهؤلاء: رمتني بدائها وانسلت، وفي الحقيقة، من كان علىٰ مذهب واحد منهم فإنه يحط من مكانة الآخرين في الغالب، حملهم علىٰ هذا تعصبهم لأئمتهم، ونحن بنقيض ذلك نأخذ منهم جميعًا ونحبهم جميعًا، بل وندعو لهم، ولكن الفرق بيننا وبينهم أنا لا نتعصب لواحد منهم بعينه، ونأخذ من الأربعة، والأربعين وأكثر من ذلك، فأبىٰ الله أن يجعل دينه محصوراً في أربع أنفس كما قال ابن القيم.

الإمام أبوحنيفة (رَحِمَهُ اللَّهُ)

هو النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي ، وُلِد بالكوفة في سنة ثمانين علىٰ المشهور، وقيل في سنة سبعين من الهجرة النبوية الشريفة ، وذلك في حياة جماعة من الصحابة.نشأ بالكوفة ،ولم يجد في حال ترعرعه من يرشده إلىٰ الأخذ عمن أدركه من الصحابة، فاشتغل بالبيع والشراء إلىٰ أن قيَّضَ اللهُ له الإمام الشَّعبي ، فأيقظه إلىٰ النظر في العلم ومجالسة العلماء ،

وله شيوخ كثيرون أشهرهم : حماد بن أبي سليمان .تفقَّه به جماعة من الكبار منهم : زُفَر بن الهُذَيل ، وأبو يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن ، وابنه حماد بن أبي حنيفة ، ونوح بن أبي مريم ، وأبو مطيع البَلْخِي ، وحسن بن زياد اللؤلؤي .

قال الذهبي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : (وروىٰ عنه من المُحَدِّثين والفقهاء عِدَّة لا يُحْصَوْن) (٢).أخلاقه وورعه :

قال الذهبي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : (روىٰ الحسين بن إسماعيل بن مجالد عن أبيه قال: كنت عند

الرشيد إذ دخل عليه أبو يوسف ، فقال له الرشيد : صِفْ لي أخلاق أبي حنيفة ؟ قال :كان والله شَدِيدُ الذَّبِّ عن حُرُم الله ، مُجانبًا لأهل الدنيا ، طويل الصّمْت ، دائم التفكير ، لم يكن مِهْذَاراً ولا ثِرْثاراً ، إن سُئِل عن مسألة كان عنده منها علم أجاب عنها ، وما علمت يا أمير المؤمنين إلا صائنًا لنفسه ودينه ، مشتغلاً بنفسه عن الناس ، لا يذكر أحداً إلا بخير) (٣).قال الرشيد : هذه أخلاق الصالحين .

قال الحسن بن صالح بن الحي : كان أبو حنيفة شديد الخوف لله ، هائبًا للحرام أن يُسْتَحَلّ .

قال يزيد بن هارون : ما رأيت أحلم من أبي حنيفة ، كان له فضل ودين وورع وحفظ لسان ، وإقبال علىٰ ما يعنيه .

وقال غيره : شتمه رجل وأطال بنحو : يا زنديق ، فقال له : غفر الله لك ، هو يعلم مني خلاف ما تقول .

شهادة الأئمة بفقه أبي حنيفة (رَحِمَهُ اللَّهُ) :

قال الإمام الشافعي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : الناس في الفقه عِيَالٌ علىٰ أبي حنيفة .

وعن الأعمش أنه سئل في مسألة فقال : إنما يُحْسِنُ هذه النعمان بن ثابت ، وكان إذا سئل عن الدقائق أرسلهم إلىٰ أبي حنيفة .

وعن ابن المبارك : لولا أن الله أدركني بأبي حنيفة وسفيان لكنت بدعيًا .

قال الشافعي لمالك : هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال : نعم رأيت رجلاً لو كلَّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجَّته .

والحاصل : أنه كان ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ من الأئمة الأجِلاَّء البارزين في الفقه وسائر العلوم ، والورع والدين والزهد ، والتقوىٰ والعبادة ، حتىٰ صار نبراسًا يَهْتَدِي به المهتدون ، وقداتفقوا علىٰ حصافة عقله ورأيه ، ودقَّة فكره ووعيه ، وخارق ذكائه ، وقد أكثر العلماء الثناء عليه وفي فقهه ، ومن التأليف في مناقبه .

ويمتاز مذهبه بالأخذ بالرأي الصائب في الأكثر ، لقلة رواة الأحاديث الصحيحة في العراق .

وفاته :

توفي في سنة مائة وخمسين هجرية ، وقال كثيرون : كان موته في رجب ، وقيل: في شعبان ، والله أعلم .

وله من الآثار العلمية مسند صغير في الحديث ، والفقه الأكبر في العقائد [1].

الإمام مـــالـــك (رَحِمَهُ اللَّهُ)

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي المدني .

ولادته :

ولد في سنة تسعين من الهجرة ، وقيل : في سنة خمس وتسعين .

شيوخه :

نشأ مالك بالمدينة المنورة في عصر الدولة الأموية ، وقد كثر العلماء بالمدينة ، وأخذ يستقي العلم من شيوخها ووجد كثرة عظيمة ينهل من معارفها .

نشأ في ذلك الوسط العلمي غلامـًا حافظـًا متقنـًا وبرًّا تقيًّا ، وأخذ العلم عن نحو مائة من الأجِلاَّء .

ومن المشهورين البارزين الذين أخذ عنهم : نافع مولىٰ ابن عمر ، ومحمد بن شهاب الزهري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وتلقىٰ فقه الرأي علىٰ ربيعة بن عبد الرحمن الملقب بربيعةَ الرَّأْي .

ولم يكن الرأي الذي تلقاه قياسـًا محضـًا من كل الوجوه ، بل كان أساسه التوفيق بين النصوص المختلفة ومصالح الناس .

وبعد أن اكتملت دراسة مالك للآثار والفتيا ، وشهد له سبعون شيخـًا من أهل العلم أنه أهل لذلك اتخذ له مجلسـًا في المسجد النبوي للدرس والإفتاء ، وقصده الناس من مشارق الأرض ومغاربها ، وأخذوا ينهلون من معارفه وعلومه ، وكان هو المرجع في الفتوىٰ حتىٰ قيل : لا يُفْتَىٰ ومالكٌ في المدينة .

وقد كان مُتصِّفـاً بالوقار والسكينة ، والابتعاد عن فضول الكلام ، وعلىٰ غاية من السَّمْتِ الحَسَن ، والزهد والورع والتقوىٰ والعبادة .

وكان لا يُلْقِي الدرس إلا أن يكون متطهراً مُتجمِّلاً ، وكان يمشي بالمدينة حافيـاً ، إجلالاً لرسول الله ﷺ لا يركب حماراً ولا بغلاً .

قيل : أنه كان في بعض الأيام جالسـاً علىٰ كرسي يُلْقي الحديث فلدغته عقرب ست عشرة مرة ، فلم ينقطع عن التحدث حتىٰ انتهىٰ .

وكان يكره أن يُحَدِّث علىٰ الطريق ، أو قائمـاً أو مستعجلاً ، ويقول : أن أتفهم ما أحدِّث به عن رسول الله ﷺ.

ثناء الأئمة علىٰ مالك في علمه :

قال عبد الرحمن بن مهدي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: أئمة الحديث الذين يقتدىٰ بهم أربعة : سفيان بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعي بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة .

قال الإمام الشافعي ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : إذا جاءك الأثر ن مال فَشُدَّ به ، وإذا ذُكِرَ العلماء فمالكٌ النَّجْم .

قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ : مال سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في الحديث والفقه ومَنْ مثل مالك متبع لآثار من مضىٰ مع عقل وأدب .

ويمتاز مذهبه بالأخذ بعمل أهل المدينة وبالمصالح المرسلة وبسدِّ الذرائع ، ومناقب هذا الإمام الجليل أكثر من أن تحصرها الأقلام ، أو تحول حول استقصائها الأفهام .

وفاته :

انتقل ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ إلىٰ جوار ربه سنة مائة وتسع وسبعين هجرية ، وله من الآثار العلمية الموطأ والمُدَوَّنَة ، وكان يقال قبل ظهور الصحيحين : أن أصحّ كتاب بعد كتاب الله هو المُوَطَّأ .

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن سائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي المُطَّلِبي ، يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف المذكور .

مولده :

ولد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ بغزة من الشام ، وقيل : بعسقلان ، سنة مائة وخمسين للهجرة النبوية وأمه قيل : قرشية والصحيح أنها من الأزْد .

نشأ مُحبًّا للعلم ، ذا ذكاء خارق وطموح إلىٰ المجد عالٍ ، وقد حفظ القرآن الكريم وهو في السنة السابعة من العمر ، ثم اتجه إلىٰ حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وكان مع حرصه علىٰ حفظ كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ مُتَّجهًا إلىٰ اللغة العربية ، حتىٰ خرج إلىٰ البادية وَلَزِمَ هُذيلاً يتعلم من كلامها ويأخذ من طبعها .

وأقام في البادية مدة طويلة ،وظهر نبوغه في حفظ الشعر والأدب ما لا يسع لمنكر أن ينكره ، حتىٰ أن الأصمعي ـ علىٰ جلالة قدره ـ قرأ عليه أشعار الهذليين .

شيوخه :

تلقىٰ الشافعي الفقه والحديث علىٰ شيوخٍ قد تباعدت أماكنهم وتخالفت مناهجهم ، أخذ ن شيوخ مكة كمسلم بن خالد ، وسفيان بن عيينة ، وسعيد بن سالم .

كما أخذ عن شيوخ أهل المدينة ، كمالك بن أنس ، وإبراهيم بن سعد الأنصاري ، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي .

ومن شيوخ اليمن : مطرف بن مازن ، وهاشم بن يوسف قاضي صنعاء ، وعمر بن أبي سلمة صاحب الأوزاعي .

ومن شيوخ العراق : وكيع بن الجراح ، وأبو أسامة حماد بن أسامة ، وتلَّقَىٰ عن محمد بن الحسن كتبه سماعًا منه ، وروىٰ أحاديث وتفقه فقه أهل العراق عليه .

وقد بلغ في الفقه والحديث منزلة عظيمة ، ودرجة عالية ، حتىٰ أذن له بالفتيا مسلم بن خالد

الزنجي .

وقد اجتمع له من الفقه والرواية ما لم يجتمع لغيره ، حيث اجتمع له فقه المكيين والمدنيين واليمنيين والعراقيين والمصريين ، اطلع علىٰ أقوالهم وآرائهم وأدلتهم ، وأخرج مذهبه الجديد ممحصاً جامعاً بين الفقه والحديث والدليل والتعليل .

ثناء الأئمة علىٰ علمه :

أجمع شيوخه وقرناؤه وتلاميذه الذين تلقوا العلم عنه ، أنه كان عَلَماً بين العلماء ، لا يُجَارَىٰ ولا يُبَارَىٰ .

قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي بعد أن قرأ رسالته في الأصول : هذا كلام مُفَهَّمٍ .

قال الإمام داود بن علي الظاهري : للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره ، من شرف نسبه وصحة دينه ومعتقده ،وسخاوة نفسه ، ومعرفته بصحيح الحديث وسقيمه، وناسخه ومنسوخه ، وحفظ الكتاب والسُّنَّة ، وسيرة الخلفاء وحسن التصنيف .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : ما رأيت رجلاً أكمل من الشافعي .

قال الإمام أحمد بن حنبل : ما عرفتُ ناسخ الحديث من منسوخه حتىٰ جالست الشافعي .

وبالجملة ، فلقد اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو والأدب علىٰ إمامته وجلالته ، وأمانته وعدالته ، وزُهده وورعه ونزاهة عرضه ، وعفَّة نفسه ، وحُسن سيرته وعُلو قدره ، وسخائه ورجاحة عقله ، وكفاه فضلاً وفخراً وعلماً أنه أول من أَلَّفَ في علم الأصول ، وكتب فيه رسالته المشهورة ، وصنَّف كثيرون في مناقبه.

وفاته :

توفي يوم الجمعة آخر يوم من رجب سنة مائتين وأربع هجرية عن أربعة وخمسين عاماً ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرىٰ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة .

آثاره العلمية :

وله من الآثار العلمية : كتاب الأمّ الشهير ، ومسند صغير في الحديث ، والرسالة في علم

أصول الفقه ، وينسب له ديوان شعر .

وقد كان شاعراً مُجِيداً ، غير أنه لا ينجزم بصحة كل ما في الديوان إليه .

ويمتاز مذهبه بالأخذ بالحديث والقياس في الغالب .

الإمام أحمد بن حنبل (رَحِمَهُ اللَّهُ)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ، وينتهي نسبه إلىٰ معد بن عدنان الشيباني المروزي الأصل .

قال ابن خَلَّكَان : هذا هو الصحيح في نسبه ، ولد في ربيع الأول سنة مائة وأربع وستين هجرية في بغداد .

نشأته :

نشأ الإمام ببغداد وتربَّىٰ بها تربيته الأولىٰ ، حتىٰ إذا أتمَّ حفظ القرآن وعلم اللغة اتَّجه إلىٰ الديوان ليمر علىٰ التحرير والكتابة .

وبعد أن تلقىٰ علىٰ القاضي أبي يوسف من شيئًا من فقه العراقيين ، اتجه الإمام إلىٰ رجال الحديث ومسلكهم ، فقصد الحديث سنة مائة وتسع وسبعين ، واستمر ينهل من مناهل مُحَدِّثي بغداد ، ويكتب عن شيوخهم حتىٰ سنة مائة وست وثمانين ، ثم رحل إلىٰ البصرة ، وفي العام الذي يليه رحل إلىٰ الحجاز ، ثم توالت رحلاته بعد ذلك إلىٰ الحجاز واليمن وغيرها في طلب الحديث ، واستمر أحمد في رحلاته لطلب العلم والحديث حتىٰ بعد أن اكتملت رجولته .

ونضج علمه ، فلقد صار إمامًا جليلاً في علم الفقه والحديث وعلوم العربية ، واطَّلع علىٰ آراء الفرق المختلفة كالخوارج والشيعة والجهمية والمعتزلة ، وبعد أن أَرْوَىٰ ظمأه من علم الحديث والتفسير والعربية والفقه جلس للتحديث والفتيا .

وقد اتفقت الأئمَّة علىٰ جلالته وإمامته ورسوخ علمه ، واتباعه للسنَّة الغرَّاء ، حتىٰ كان يفعل ما كان النبي ﷺ يفعله ، ولا يفعل ما لم يفعله .

وابتلي بفتنة المأمون ، حيث دعاه إلىٰ القول بخلق القرآن ، بإغراء قاضيه أحمد بن أبي دؤاد وإخوانه المعتزلة ، ثم مات المأمون وأنزل به المعتصم الأذىٰ والضرب بالسياط ، والإمام يقابل ذلك بالصبر والاحتساب ويقول : بيني وبينكم كتاب الله ... وبقي في السجن سنتين وشهوراً حتىٰ فرَّج الله عنه ، وخذل أعداءه .

كان الإمام أحمد من الحُفَّاظ البارزين في ذلك العصر ، يقال : كان يحفظ ألف ألف حديث .

قال بعضهم في الثناء عليه :

حَوَىٰ ألْفَ أَلْفَ مِن أَحَادِيثٍ أُسْنِدَت ... وأَثْبَتَهَا حِفْظًا بِقَلْبٍ مُحَصِّلِ

أَجَابَ عَلَىٰ سَتِّينَ أَلْفِ قَضِيَّةٍ ... بِأَخْبَرَنَا لا عَن صَحَائِفَ نُقَّلِ

وهذه منقبة لا يعلم أن أحداً من الأئمة اتَّصف بها ، وقد سئل كثير منهم عن معشار عشر ذلك فأحجم عن جواب أكثرها .

ثناء العلماء عليه :

قال يحيىٰ بن معين : أرادَ الناس منا أن نكون مثل أحمد ، لا والله ما نقَوَىٰ علىٰ ما يَقْوَىٰ عليه أحمد ولا علىٰ طريقته .

قال الإمام الشافعي : خرجت من بغداد وما خَلَّفْتُ بها أتقىٰ ولا أفقه من أحمد بن حنبل .

قال بعضهم : تأيَّد الدِّينُ برَجُلَين : أبي بكر يوم الرِّدة ، وأحمد بن حنبل يوم المِحْنَة .

وقال بعضهم :

أَضْحَىٰ ابْنُ حَنْبَلَ حِجَّةٌ مَبْرُورَة ... وَبِحُبِّ أَحْمَدَ يُعْرَفُ المُتَنَسِّكُ

وَإِذَا رَأَيْتَ لأحْمَدَ مُتَنَقِّصًا ... فَاعْلَمْ بِأَنَّ سَتُورَهُ سَتُهْتَكُ

أخذ العلم عن الإمام أحمد جماعة من العلماء الأفاضل منهم : محمد بن إسماعيل الباري ، ومسلم بن الحجاج النيسابوري ، ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع والتقوىٰ .

وفاته :

توفي ضَحْوَة نهار الجمعة لثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدىٰ وأربعين

ومائتين ببغداد ودفن بمقبرة باب حرب .

وقال ابن خلكان : وحزر منحضر جنازته من الرجال ، فكان ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستين ألفـًا .

وقيل : أسلم يوم مات الإمام أحمد عشرون ألفـًا من النصارىٰ واليهود والمجوس ، رحمه الله رحمة واسعة .

آثاره العلميّة :

له من الآثار العلميَّة : المسند وهو أكبر كتاب في الحديث ، وله الرد علىٰ الجهميَّة، وكتاب الزهد وغير ذلك .

ويمتاز مذهبه بالأخذ بالحديث وبأقوال الصحابة أكثر من غيره .

أئمة الإسلام الذين ينتفع الناس بهم كثير غير الأئمة الأربعة

ومن خصائص أهل الحديث أنهم ليس لهم إمام معظم يأخذون كلامه كله ويدعون ما خالفه إلا رسول الله ﷺ:

نحن السلفيون الذين علىٰ منهج أهل الحديث والسنة ليس لنا إمام واحد نأخذ منه وندع سائر أئمة الدين، وعلماء المسلمين، إذ هذا هو التعصب المذموم والتحزب بعينه.

يقول **الإمام ابن القيم**: "فهم (أي أهل الحديث والسنة) كما يوحدُّون الله تعالىٰ في العبادة فكذلك يوحدُّون رسول الله ﷺ بالاتباع فلا يتعصبون لقول أحد كائنـًا من كان إلا رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي، وهم أعلم الناس بأقواله وأفعاله وهديه وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها ومعرفة بها واتباعـًا لها تصديقـًا وعملاً وحبـًا وولاءً لمن والاها ومعاداةً لمن عاداها".

ويقول **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "فكثير من الناس يخبر عن هذه الفِرق بحكم الظن والهوىٰ، فيجعل طائفته والمنتسبة إلىٰ متبوعه الموالية له هم: أهل السنة والجماعة، لا يكون متبوعهم إلا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، إن هو إلا وحي يوحىٰ، فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس هذه المنْزلة لغيره من الأئمة، بل كل يؤخذ

من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، فمن جعل شخصاً غير رسول الله ﷺ، من أحبه ووافقه، كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدع، كما يوجد ذلك في الطوائف لاتباع ائمة الكلام في الدين وغير ذلك، كان من أهل البدع والضلالة والتفرق"[٢٤٠].

ومن منهجهم مع ذلك أنهم لا يتعصبون لأحد المذاهب الأربعة ولا غيرهم، ولكن يتبعونهم في طريقتهم مع عدم التقليد لأحد منهم، وقال **الصنعاني** رحمه الله: «إنما يشترط أن يؤخذ العلم عمَّن يوثق بصدقه، ودينه وورعه، وشهرته بالعلم النافع من الكتاب والسنة، وألا يسأله عن مذهب فلان ولا فلان، وكيف وفي كتب الأصول نقل الإجماع علىٰ تحريم تقليد الأموات».

(إرشاد النقاد/ ص١٦٣).

بل ينبغي أن ندور مع الدليل حيث دار، ونأخذ منهم جميعاً ما وافق الحق، ونسير علىٰ منهجهم علىٰ طريقة أهل الحديث، من غير تقليد لأحدهم، قال: **أبوطاهر بركة بن سنان الحوزي**: «ناظرت أبا الحسن المغازلي في التفضيل بين مالك والشافعي ففضلت الشافعي لأني أنتحل مذهبه وفضل مالكاً لأنه كان ينتحل مذهبه فاحتكمنا الىٰ أبي مسلم الليثي البخاري ففضل الشافعي فغضب أبو الحسن وقال لعلك علىٰ مذهبه فقال: **نحن أصحاب الحديث الناس علىٰ مذاهبنا فلسنا علىٰ مذهب أحد** ولو كنا ننتسب الىٰ مذهب أحد لقيل أنتم تضعون له الأحاديث».

سؤالات السلفي (ص١١٨)، تاريخ الإسلام (٣١/ ١٢٠).

أصحاب الحديث لا يتعصبون لأحد من الناس وليس لهم مذهب إلا السنة

قال اللالكائي رحمه الله: «كل من اعتقد مذهباً فإلىٰ صاحب مقالته التي أحدثها ينتسب، وإلىٰ رأيه يستند إلا أصحاب الحديث فإن صاحب مقالتهم رسول الله ﷺ فهم إليه ينتسبون وإلىٰ علمه يستندون وبه يستدلون، وإليه يفزعون، وبرأيه يقتدون، وبذلك يفتخرون، وعلىٰ أعداء سنته بقربهم منه يصولون فمن يوازيهم في شرف الذكر ويباهيهم في ساحة الفخر وعلو الاسم». شرح

---

(٢٤٠) الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٦).

أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٢٣).

قال **العلامة الإمام الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: فأهل الحديث حشرنا الله معهم **لا يتعصبون لقول شخص معين مهما علا وسما حاشا محمدًا** ﷺ **بخلاف غيرهم** ممن لا ينتمي إلىٰ الحديث والعمل به فإنهم يتعصبون لأقوال أئمتهم وقد نهوهم عن ذلك كما يتعصب أهل الحديث لأقوال نبيهم». المستخرج علىٰ المستدرك.

فنحن لا نتعصب لأحد من الناس كائنًا من كان إلا الرسول ﷺ، ونشهد الله تعالىٰ أنا نحب علماء السنة والأثر، ولهم في قلوبنا المنزلة العظيمة. تقليد المشايخ والعلماء: قال أبوعبدالله بن خويز منداد البصري المالكي: "التقليد معناه في الشرع: الرجوع إلىٰ قولٍ لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والإتباعُ: ما ثبت عليه حجة". وقال في موضع آخر: "كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قَبولُه بدليلٍ يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب الدليل عليك اتباعَ قوله فأنت متبعه، والإتباع في الدين مُسَوغ، والتقليد ممنوع". قال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ﴾ (النور/ ٦٣)، ومن أوضحه قول الله تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(سورة التوبة/ ٣١). نقلاً من كتاب: صحيح جامع بيان العلم وفضله (ص٤١٨، ٤١٩). وفي هذا يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به، وإن تضمن تحليل حرام، أو تحريم حلال". اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٦).

وقد ثبت من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن أُفتيَ بفُتيا غير ثبت فإنما إثمها علىٰ من أفتاه**»، **صحيح لغيره**: رواه الدارمي (١٥٩)، وغيره، وكما أن **القُضاة ثلاثة**: قاضيان في النار وواحد في الجنة[٢٤١] **فالمُفتون ثلاثة**، ولا فرق بينهما إلا في كون القاضي يُلزِمُ بما أفتىٰ به، والمفتي لا يلزم به. وعن **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "إن حديثكم شر الحديث، وإن كلامكم شر الكلام؛ فإنكم قد حدثتم الناس حتىٰ قيل: قال فلان، وقال فلان، ويترك كتاب الله، من كان منكم قائماً فليقم بكتاب الله، وإلاَّ فليجلس". **إسناده صحيح**: رواه ابن عبد البر في "الجامع"، قال **ابن حزم**: " فهذا قول عمر لأفضل قرن علىٰ ظهر الأرض فكيف لو أدرك ما نحن فيه من ترك القرآن وكلام محمد

---

(٢٤١) **صحيح**: ثبت ذلك مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ، من حديث ابن عمر ينظر تخريجه في "الإرواء" (٢٦١٤).

ﷺ، وكلام أصحابه، والإقبال علىٰ ما قال مالك وأبو حنيفة والشافعي وحسبنا الله ونعم الوكيل وإنا لله وإنا إليه راجعون!"، وبنحوه قال ابن عبدالبر.

قال **ابن مسعود**: "ألا لا يقلدَنَّ أحدُكم دينَهُ رجلاً إن آمن، آمن وإن كفر، كفر، فإنه لا أسوة في الشر"، **صحيح**: هو عند ابن عبد البر (ح١٨٨٢)، ورواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٧٥٧)، وفي رواية: **"لا تقلدوا دينكم الرِّجال**، فإن أبيتم فبالأموات لا بالأحياء".**حسن**: رواه اللالكائي (ح١٣١، ١٣٠)، وقال **معاذ**: " العالَمُ لا تقلدوه دينكُم". حسن: رواه ابن عبد البر (ح١٨٧٢)،

وقال **معاوية لابن عباس**: **"أنت علىٰ ملة عليّ؟. قال: لا، ولا علىٰ ملة عثمان، ولكني علىٰ ملة النبي** ﷺ". وفي لفظ: عن **ابن عباس** قال: قال لي معاوية: أنت علوي؟ قلت: ما أنا بعلوي ولا عثماني، ولكني علىٰ ملة رسول الله ﷺ". **إسناده صحيح**: رواه ابن حزم في "الأحكام" (١/ ٥٧٤) (٢/ ٨٨٠)، واللالكائي (١/ ٩٤-ح١٣٣) **قال ابن حزم**: "فإذا كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم لا يستجيزون نسبة ما يتعبدون به ربهم ولا مذاهبهم إلىٰ أبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا إلىٰ علي، ولا ينتسبون إلىٰ أحد دون رسول الله ﷺ فكيف بهم لو شاهدوا ما نشاهده من المصائب الهادمة للإسلام علىٰ من امتحنه الله به من الانتماء إلىٰ مذهب فلان وفلان، والإقبال علىٰ أقوال مالك وأبي حنيفة والشافعي، وترك أحكام القرآن وكلام النبي ﷺ ظهريـًا، والحمد لله علىٰ تثبيته إيانا علىٰ دينه، وسنته التي مضىٰ عليها أهل الأعصار المحمودة قبل أن **تحدث بدعة التقليد** وتفشو وبالله نعتصم". الأحكام لابن حزم (٢/ ٨٨١)، وعن عبيد بن الحسن قال: قالت الخوراج **لعمر ابن عبد العزيز**: نريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب، قال: عمر بن عبد العزيز: **"قاتلهم الله!، والله ما أردت دون رسول الله إمامـًا"**. **صحيح**: رواه ابن حزم (ح١/ ٥٧٥)، وعن **ابن عيينة** قال: اضطجع ربيعة مُقَنِّعـًا رأسه وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم: ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروا به ائتمروا!" **صحيح الإسناد**: رواه ابن عبد البر في "جامعه" (ح١٨٨٥). نهي الأئمة الأربعة عن تقليدهم: وقد نهىٰ الأئمة الأربعة عن تقليدهم، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة؛ فقد قال الإمام أبوحنيفة: "إذا صح الحديث فهو

مذهبي"[٢٤٢]. وقال أيضاً: "لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه"[٢٤٣]. قال **شيخنا العلامة**: "فإذا كان هذا قولهم فيمن لم يعلم دليلهم، فليت شعري!، ماذا يقولون فيمن علم أن الدليل خلاف قولهم، ثم أفتىٰ بخلاف الدليل؟ فتأمل في هذه الكلمة، فإنها وحدها كافية في تحطيم التقليد الأعمىٰ، ولذلك أنكر بعض المقلدة من المشايخ نسبتها إلىٰ أبي حنيفة حين أنكرت عليه إفتاءه بقول لأبي حنيفة لم يعرف دليله![٢٤٤].

الإمام أبي حنيفة رحمه الله: وقال **أبو حنيفة** أيضاً: "حرام علىٰ مَن لم يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي"، -زاد في رواية:- "فإننا بَشَر، نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً"[٢٤٥]. وفي رواية عنه: "ويحك يا يعقوب! (وهو أبو يوسف): لا تكتب كلَّ ما تسمع مني، فإني قد أرىٰ الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرىٰ الرأي غداً وأتركه بعد غدٍ"[٢٤٦]. وفي «روضة العلماء الزندويستية في فضل الصحابة»: " قيل لأبي حنيفة: إذا قلتُ قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بكتاب الله، فقيل: إذا كان خبر رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بخبر الرسول ﷺ، فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بقول الصحابة"[٢٤٧].

الإمام مالك بن أنس رحمه الله: وقال جعفر الفريابي: حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثني الهيثم بن جميل قال: قلت **لمالك بن أنسٍ**: يا أبا عبد الله إن عندنا قوماً وضعوا كتباً يقول أحدهم ثنا فلان عن فلان عن عمر بن الخطاب بكذا وكذا وفلان عن إبراهيم بكذا، ويأخذ بقول إبراهيم، قال مالك: وصَحَّ عندهم قول عمر؟ قلت: إنما هي رواية كما صح عندهم قول إبراهيم، فقال مالك: هؤلاء يستتابون[٢٤٨]. وقال **أيضاً**: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي،

---

(٢٤٢) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٤٦).
(٢٤٣) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٤٦).
(٢٤٤) صفة الصلاة" (ص٤٧).
(٢٤٥) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٤٧).
(٢٤٦) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٧٦).
(٢٤٧) إرشاد النقاد (ص١٤١، ١٤٢)، والقول المفيد للشوكاني (ص٢٢، ٢٣).
(٢٤٨) تقدم (ص٢٤٩).

فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"[٢٤٩]. وقال **أيضـًا**: "ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك، إلا النبي ﷺ"[٢٥٠]. وقال أيضـًا: "". (ذم الكلام/ ٨٦١).

الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: وقال **الشافعي**: "مَثَلُ الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليلٍ، يحمل حُزمة حطب وفيه أفعىٰ تلدغه وهو لا يدري"[٢٥١]. وقال **أيضـًا**: "ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلتُ من قول، أو أصّلتُ من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي"[٢٥٢]. وقال **أيضـًا**: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلتُ"، وفي رواية: "فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلىٰ قول أحد"[٢٥٣]. وقال أيضـًا: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"[٢٥٤]. وقال **أيضـًا**: "كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي"[٢٥٥]. وقال **أيضـًا**: "كل ما قلت، فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح؛ فحديث النبي أولىٰ؛ فلا تقلدوني"[٢٥٦].

الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله: وقال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع من مالك؟ قال: "لا تقلد دينَكَ أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعي بعدُ الرجلُ فيه مخير"[٢٥٧]. قال **ابن القيم**: وقد فرق أحمد بين التقليد والإتباع. فقال أبو داود: سمعت **أحمد** يقول: "الإتباع أن يتبع الرجلِ ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد

---

(٢٤٩) صفة الصلاة (ص٤٨).
(٢٥٠) ينظر تخريجه في "صفة صلاة النبي ﷺ" (ص٤٩).
(٢٥١) رواه البيهقي ().
(٢٥٢) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).
(٢٥٣) **صحيح الإسناد**: يراجع تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).
(٢٥٤) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).
(٢٥٥) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٢).
(٢٥٦) **إسناده صحيح**: يراجع تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٢).
(٢٥٧) مسائل الإمام أحمد (ص٢٧٦).

في التابعين مخير"[٢٥٨]. وقال **أيضًا**: لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا"، وقال: "من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال"[٢٥٩].

وبالجملة:

فإنا نعبد الله تعالىٰ وفق منهج السلف، ونأخذ العلم علىٰ طريقتهم ومنهاجهم.

اعلم يا عبدالله -علمني الله وإياك- أن طلب العلم عبادة من أشرف العبادات، بل لا تصح العبادة إلا بالعلم، ولا نعبد الله إلا بما شرع فهل يبين الله للناس العلم وفضله، ويوجب علىٰ الناس طلب العلم فيقول نبيه ﷺ: «**طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم**»، ثم لا يدل الناس علىٰ صفته وكيفية طلبه، ويدعهم يتخبطون بآرائهم كل يتعبد لله ويطلب العلم ويقوم بعبادة طلبه بما يشتهي هو أو بما يراه شيخه له، وهذا أصل عظيم إذا لم يضبطه يضيع عليه عمره سدىٰ في غير ما فائدة تُذكر، أو في ما لا طائل تحته، أو فيما غيره أولىٰ منه، أو فيما تركه أولىٰ من فعله، وقد ينتبه مع الوقت فيتبين له أنه كان مشغولاً بأمور كثيرة، وأضاع الكثير جداً من العلم الواجب، وما لابد من معرفته من النصوص، والتفقه في ذلك.

ومن البديهيات أن العلم الشرعي عند الإطلاق في النصوص هو: الكتاب والسنة، وجميع ما ورد في النصوص إنما يراد به العلم بالكتاب والسنة، ثم أقوال الصحابة في فهم ذلك، ثم ما فهمه العلماء بعدهم ممن سار علىٰ أصولهم، ومنهاجهم، وسيرتهم (**والذين اتبعوهم بإحسان**).

وقد كانت طريقة تلقي العلم في القرون الفاضلة قرون الخيرية، الانتفاع والتفقه في الكتاب والسنة من علماء الملة في زمانهم.

فقوله سبحانه: ﴿**يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**﴾() هذا هو عمل النبي ﷺ ولنا فيه أسوة.

وقد ورد في الحديث: «**إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، فَعَلِمْنَا مِنْ الْقُرْآنِ وَعَلِمْنَا مِنْ السُّنَّةِ**..». متفق عليه.

---

(٢٥٨) المصدر السابق.

(٢٥٩) إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٢)، وصفة الصلاة (ص٥٣).

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: بَعَثَ قَوْمٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ أَنِ: ابْعَثْ إِلَيْنَا **مَنْ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ**، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمُ الْقُرَّاءُ. رواه البخاري ومسلم واللفظ له

عن أنس: " أن أهل اليمن قدموا علىٰ رسول الله ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجلاً **يعلمنا السنة والإسلام**، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة، وقال.... " فذكره، رواه مسلم، ولفظ الحاكم: «**يعلمنا القرآن**». وقال: «صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه بذكر القرآن». (الصحيحة/ ١٩٦٤)

فكان من منهج السلف أنهم كانوا يأخذون السنة والحديث ليتفقهوا فيه ويعملوا به، وكانوا علىٰ وعي وفهم وإدراك لما يروون عن نبيهم ﷺ، فلم يتعلموا القرآن والسنة إلا للعمل بهما، وكيف يعملون وهم لا يفقهون، لذلك قال تعالىٰ: ﴿**ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم**﴾(التوبة/)، وقول النبي ﷺ لابن عباس كما في الصحيح: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»، وقوله: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**» متفق عليه، وهكذا كان منهج العلماء والأئمة بعدهم.

قال **الخطيب**: « فإذا عُرِف صاحبُ الحديث بالتفقه خرست عنه الألسن، وعظم محلّهُ في الصدور والأعين، وخسئَ من كان عليه يطعن»[٢٦٠].

(٢٦٠) الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦١).

الرأي المحمود، وشرح السنة به

الرأي والاجتهاد والاستنباط من النصوص استعمله الصحابة كثيراً، وعملوا به، وقد قال **علي** رضي الله عنه: **(أو فهمًا يؤتيه الله عبداً في كتابه)**، أخرجه البخاري، وذكر **ابن القيم** من الرأي المحمود: "الرأي الذي يفسِّر النصوص، ويبين وجه الدلالة منها، ويقررها، ويوضح محاسنها، ويسهل طريق الاستنباط منها، كما قال عبدان: سمعت **عبدالله بن المبارك** يقول: "ليكن الذي تعتمد عليه الأثر، و**خذ من الرأي ما يفسر لك الحديث**"[٢٦١]. وهذا هو الفهم الذي يختص الله سبحانه به من يشاء من عباده".

فالرأي المحمود الذي لا يذمه أحد من السلف، بل كان الصحابة ومن بعدهم يقولون به، وهو كلام السلف في فهم النصوص واعتماد القياس الصحيح علىٰ أصل، قال **السفاريني**: والحاصل أن الرأي المذموم هو الذي مستنده الحدس والتخمين والخرص والتفكير، فهذا الذي ذمه السلف وعابوه وحذروا منه (وأنبوّة).

بخلاف الرأي المستند إلىٰ استدلال واستنباط من النص وحده، أو من نص آخر معه في الأحكام فهذا من أحسن فهم النصوص وأدقه وأنفعه، وكل ما ورد عن السلف مما يشعر بمدح الرأي وقبوله فالمراد به هذا، وما يشعر بالذم والتحذير فالمراد به الأول والله أعلم. لوائح الأنوار السنية (٢/ ٣٦٦).

قال **ابن القيم**: "الرأي كما هو معروف عند جمهور العلماء منه ما هو محمود بلا ريب كالذي ذكرت، ومنه ما هو باطل بلا ريب، كالرأي المخالف للنصوص أو الكلام في الدين بالخرص والظن، والقول في أحكام الشرائع بالاستحسان والهوىٰ، مع التفريط والتقصير في معرفة النصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها، أو الرأي الذي تُحدث به البدع وتُغير به السنن، ومن كان له مسكة من عقل، يعلم ان فساد العالم وخرابه إنما نشا من تقديم الرأي علىٰ الوحي،

---

(٢٦١) **صحيح**: ذم الكلام للهروي (رقم٣٣٥)، وأبو نعيم في "الحلية" (٨/ ١٦٥)، والبيهقي في "المدخل" (٢٤٠)، وابن عبد البر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٧٠، ١٠٥٠، ١٠٣١)، ، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ١٦٤).

والهوىٰ علىٰ العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمة إلا فسد أمرها أتم فساد، فلا اله إلا الله كم نفي بهذه الآراء من حق وأثبت بها من باطل ؟ وأُميت بها من هدىٰ وأُحييَ بها من ضلالة؟ وكم هُدم بها من معقل للإيمان أو عُمِّر بها من دين للشيطان؟ إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٥٧).

"فحاشا أصحاب رسول الله أن يكونوا من زمرة أولئك القوم وحاشا مُلْهَم الأمة أن يكون مشجباً يُعلق عليه تحريف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ". التأويل رسالة ماجستير ابراهيم بويداين (١/ ٤١)

ذكر **ابن القيم** رحمه الله أنواع الرأي المحمود فقال: "النوع الأول: رأي أفقه الأمة، وأبر الأمة قلوباً، وأعمقهم وأقلهم تكلفاً وأصحهم قصوداً وأكملهم فطرة، وأتمهم إدراكاً، وأصفاهم أذهاناً، الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل، وفهموا مقاصد الرسول، فنسبة آرائهم وعلومهم وقصودهم إلىٰ ما جاء به الرسول ﷺ كنسبتهم إلىٰ صحبتهم والفرق بينهم وبين من بعدهم في ذلك كالفرق بينهم وبينهم في الفضل فنسبة رأي من بعدهم الي رأيهم كنسبة قدرهم إلىٰ قدرهم.

والمقصود أن أحداً ممن بعدهم لا يساويهم في رأيهم وكيف يساويهم؟ وقد كان أحدهم يرىٰ الرأي فينْزِل القرآن بموافقته ... وحقيق بمن كانت آراؤهم بهذه المنْزِلة أن يكون رأيهم لنا خيراً من رأينا لأنفسنا، وكيف لا وهو الرأي الصادر من قلوب ممتلئة نوراً و إيماناً وحكمة وعلماً ومعرفة وفهماً عن الله ورسوله ونصيحة للأمة وقلوبهم علىٰ قلب نبيهم، ولا وساطة بينهم وبينه وهم ينقلون العلم و الإيمان من مشكاة النبوة غضاً طرياً لم يشبه إشكال، ولم يشبه خلاف، ولم تدنسه معارضة، فقياس رأي غيرهم بآرائهم من أفسد القياس " (أعلام الموقعين ١/ ٧٩-٨٢).

الرأي ما له وما عليه

سبق الكلام عن السنة وأهلها، والحديث والأثر وكتبها، وأهمية الاعتناء بها، والدعوة إليها، بل وإمكانية الاستغناء بها عما سواها، وها نحن في هذا المبحث نتكلم – إن شاء الله – عن

الرأي وكتب الرأي والتي يسميها بعضهم بـ(كتب الفقه)، ومدرسة الرأي، والتمذهب، والتعصب المذهبي، وما في هذه الكتب من منافع ليحرص عليها، وما فيها من مضار لتجتنب، ويحذر منها، ومتىٰ تقرأ وكيف تقرأ، وكيف يستفيد الطالب منها، كما أنه سبق معنا أن من الرأي ما يكون محموداً وهو الاجتهاد والاستنباط المبني علىٰ الأصول الصحيحة، وقبل الخوض في فيما نصبوا إليه لابد من ذكر نبذة مختصرة عن تاريخ المذهبية، وكيف نشأ الرأي.

نبذة تاريخية عن التمذهب والرأي:

قال **العلامة المعلمي اليماني** رَحِمَهُ اللَّهُ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الدين شَرْعُ الله تعالىٰ، فإنما يؤخذ من كتابه وسنة رسوله، مباشرةً إذا تيسّر ذلك، وإلاَّ فبواسطة مُخبِر موثوق به عنهما.

وقد علم الله تبارك وتعالىٰ أن العالِم قد تعزُب عنه بعض دِلالات الكتاب أو السنة، وقد لا تبلغه السنة، مع أسبابٍ أخرىٰ يقع بها العالِم في الخطأ، فتجاوز سبحانه عن العالِم وأثابه علىٰ اجتهاده المأمور به، وفَرَض علىٰ المخطئ أن يرجع إلىٰ الحق إذا تبيَّن أو بُيِّن له، فكان العلماء من سلف الأمة يجتهدون ويقضون ويفتون بما رأوا أنه الحق، مع علم كلّ منهم أنه معرَّض للخطأ، إذ قد يغفل عن بعض دلالات القرآن، وقد تخفىٰ عنه السنة، وقد يخطئ في التصحيح والتضعيف والترجيح، وقد وقد ...

ومن ادَّعىٰ لواحد من الأئمة انتفاء الخطأ والغلط والزلل عنه، فقد ادَّعىٰ له العصمة، وكفىٰ بذلك خروجًا علىٰ الإسلام!.

ومن كان له ممارسة للسنة وطالع كتب الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عَلِم يقينًا أن كثيرًا من الأحاديث الثابتة لم تبلغه البتة، أو بلغته من وجه لا يثبت، وهي ثابتة عند غيره من أوجه أُخَر، وإن كان قد بلغه وثبت عنده من الأحاديث ما لم يبلغ أستاذَه مالكًا أو لم يعرف ثبوته، كما بلغ كلاًّ منهما وثبت عنده أشياء لم تبلغ أباحنيفة أو ما لم يعرف ثبوته، وكانوا هم يعرفون هذا يقينًا ولذلك كان كل منهم إذا تبيَّن له خطأَ قولٍ من أقواله رجع عنه، ثم لم يعمل ولم يقضِ ولم يُفتِ إلا بما تبيَّن

له بعدُ أنه الحق.

وكان العاميُّ يأخذ بفتوىٰ عالم، ثم إذا قيل له: إنه أخطأ، رجع فأخذ بما يترجح عنده أو احتاط لدينه.

وامتاز جماعة من العلماء بالتوسّع في العلم والتجرُّد لنشره مع الفضل والصلاح إلىٰ أسباب أُخَر اقتضت أن يكثر أصحابهم ويُعنَوا بأقوالهم ويُمعنوا في ذلك؛ فهؤلاء أصحاب المذاهب.

لم يكن أولئك الأئمة يشعرون بأنها ستنشأ لهم مذاهب علىٰ هذا النحو المشاهَد أو قريب منه، وأقوالُهم وأحوالهم تبيِّن ذلك.

ومن ألَّف منهم الكتب إنما ألَّفها تبليغًا لما فيها من السنة وتنبيهًا علىٰ ما تنبَّه له من الدّلالات وتعليمًا لوجوه النظر والاستنباط، وكانوا هم أنفسهم يمتنعون عن الجواب في كثير من المسائل، ويتوقفون عن الجزم في حكمها إذا ذكروها في كتبهم.

ويقولون القول ثم يظهر لهم خطاؤه فيرجعون عنه، وينهون أصحابهم عن تقليدهم وتقليد غيرهم، ويأمرونهم بالنظر لأنفسهم واتباع الدليل كما ذكره المزني في أول "مختصره" عن الشافعي، وذلك فرضُ الله تبارك وتعالىٰ علىٰ هؤلاء وهؤلاء.

وكانوا يقرُّون العامة علىٰ ما جروا عليه إلىٰ زمانهم؛ يستفتي العاميُّ فيما ينوبه مَن يلقاه من العلماء بدون تقيُّدٍ بمعيَّن، وجرىٰ علىٰ ذلك أصحابُهم وأصحابُ أصحابِهم.

ثم أخذت الهممُ تضعف والعلماء يقلُّون وأسباب الهوىٰ تشرىٰ، فنشأ التقيُّد بالمذاهب، ثم استحكم وصار المتفقِّهة يتنافسون؛ كلٌّ يحاول الزيادة في أتباع مذهبه، وأوقع ذلك في إحَن ومِحَن وفتن معروفة[٢٦٢].

وأخذ متفقّهة كل مذهب يحاولون أن يجعلوه كافيًا بأن يُوجدوا فيه أحكامًا للفروع الكثيرة التي لم يذكرها الإمام، فأخذوا في الاجتهاد جاعلين أقوال الإمام أصولاً يُلحقون بها ما لم يذكره بالمقايسة، والتشبيه والرأي المحض، مع التفنُّن في فَرْض صور نادرة بل مستحيلةٍ.

---

(٢٦٢) سيأتي بسط ذلك إن شاء الله في فصل: «مساويء المذهبية».

ثم تتَّخذ الطبقة الثانية أقوال مَن قبلها أصولاً يُلحقون بها ما لم يُذكر من الفروع، وهلمَّ جرًّا.

حتىٰ في عصرنا هذا - رغمًا عن تضخُّم المذهب - فما أكثر الوقائع التي تقع فلا يجدها المتفقِّه في كتب مذهبه، فيشمِّر للاجتهاد متَّخذًا أقوال من قبله - ولو عن قربٍ - أصولاً[٢٦٣] يستنبط منها ويقيس ويشبِّه ويتكلَّف.

ومن شأن تلك الاجتهادات أن تؤدِّي كثيرًا إلىٰ ما يخالف نصوص الشرع ومقاصده، وإلىٰ ما يخالف كلام الأئمة وقدماء أصحابهم، وهذا هو الواقع.

فأما **كثرة الاختلاف في كل مذهب، وتعارض التصحيح والترجيح فحدِّثْ عنه ولا حرج**[٢٦٤]**، وإن حاول المتأخرون التخفيف من ذلك!**

ومع هذا كله، فلم تُطبِق الأمة علىٰ هجر الكتاب والسنة، بل بقي النظر في التفسير وجمع السنة وترتيبها والكلام في الروايات وجمع الأدلة واستنباطها من الكتاب والسنة مستمرًّا، وإن تفاوتت المقاصد؛ فمِنْ عالم مستقلٍّ وإن انتسب إلىٰ مذهب فنسبة اسمية فقط، وثانٍ منتسب ملتزم، غير أنه إذا بان له في مسألة رجحانُ خلاف مذهبه دليلاً أخذ بالدليل، وثالث متقيد بمذهب لا يستطيع التخلُّص من شيء منه، والملتزمون كثيرون **ولا يكاد يخلو واحد منهم عن الرغبة في الانتصار للمذهب**، ولكنهم متفاوتون في هذه الرغبة وفي مراتبها، وبحسب التفاوت في ذلك يكون التفاوت في انصاف الأدلة والحَيْف عليها.

وأما المتقيِّد فقد أعلن عن نفسه بأنه «محامي». وقد كان عمل المحامي الألدِّ قاصرًا علىٰ ما ذكره إياس ابن معاوية، عن صالح السدوسي أنه يقول لموكله: "اجحدْ ما عليك، وادَّعِ ما ليس لك، واستشهد الغُيَّب"، فزاد بعد ذلك باستشهاد شهود الزور ومحاولة جرح شهود المخالف

---

(٢٦٣) ومعلوم أن القياس هو إلحاق فرع بأصل، وليس إلحاق فرع بفرع، وهذه قاعدة مهمة يجب التنبه لها، لأننا سمعنا ورأينا من يعظم هذه التفريعات، وقال: إننا نحتاج إليها اليوم لنقيس عليها الأمور المعاصرة، وفي حقيقة الأمر هذا باب من الجهل نفتحه علىٰ أنفسنا وعلىٰ الناس، مع الإعراض عن التفقه في السنة والاستنباط منها، وكأن النصوص الشرعية لا كفاية فيها ولا غنية، والمذهب فيه كل شيء مما يحتاجه الناس.

(٢٦٤) وصدق الله العظيم حيث قال: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيراً).

العدول؛ **وقع هذا وأكثر منه من هؤلاء المحامين عن المذاهب**. نعم، إنهم متفاوتون ولكن أحسَبُهم إلىٰ أصحاب مذهبه أَلَدُّهم وأَلَجُّهم؛ يُطرونه بقوة العارضة، والصلابة في المذهب، وشدّة الوطأة علىٰ المخالفين، مع أنهم يرمون من خالفهم - وإن كان مستقلاً أو ملتزمًا غير متقيِّد - بالتعصب واتباع الهوىٰ والتعامي عن الحق وأشباه ذلك.

ومَن وطَّن نفسه علىٰ الإنصاف وتحرِّي الحقَّ علىٰ كل حال، عَلِمَ - وإن كان متقيِّدًا - بأن الملتزمين والمتقيدين من علماء مذهبه كغيرهم في أنه يقع منهم في كثير من المواطن ميلٌ عن الإنصاف وحيف علىٰ الأدلة؛ يوقعهم في ذلك حرصُهم علىٰ الانتصار للمذهب، وإذ كان كل مذهب من المذاهب غيرَ معصوم، فلا بُدَّ أن يكون وقع في كل منها فروع مخالفة للحق، يقع محاولُ الانتصار لها في الميل والحيف ولابد». (رسالة في التعصب المذهبي).

كيف بدأ ونشأ التقليد؟

وقال **ولي الله الدهلوي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَكَانَ بِإِزَاءِ هَؤُلَاءِ فِي عصر مَالك وسُفْيَان، وبعدهم قوم لَا يكْرهُونَ الْمسَائِل، وَلَا يهابون الْفتيا وَيَقُولُونَ: علىٰ الْفِقْه بِنَاء الدّين، فَلَا بُد من إشاعته، ويهابون رِوَايَة حَدِيث رَسُول الله ﷺ وَالرَّفْع إِلَيْهِ حَتَّىٰ قَالَ **الشّعبِيّ**: علىٰ من دون النَّبِي ﷺ أحب إِلَيْنَا، فَإِن كَانَ فِيهِ زِيَادَة أَو نُقْصَان كَانَ علىٰ من دون النَّبِي ﷺ. وَقَالَ إِبْرَاهِيم أَقُول: قَالَ عبد الله، وَقَالَ عَلْقَمَة: أحب إِلَيْنَا، وَكَانَ ابْن مَسْعُود إِذا حدث عَن رَسُول الله ﷺ تَربد وَجهه، وَقَالَ: هَكَذَا أَو نَحْو هَكَذَا وَنَحْوه.

وَقَالَ عمر حِين بعث رهطًا من الْأَنْصَار إِلَىٰ الْكُوفَة: إِنَّكُم تأتون الْكُوفَة، فَتَأْتُونَ قومًا لَهُم أزيز بِالْقُرْآنِ فيأتونكم فَيَقُولُونَ: قدم أَصْحَاب مُحَمَّد قدم أَصْحَاب مُحَمَّد، فيأتونكم فيسألونكم عَن الحَدِيث فأقلوا الرِّوَايَة عَن رَسُول الله ﷺ. قَالَ ابْن عون: كَانَ **الشّعبِيّ** إِذا جَاءَهُ شَيْء اتَّقىٰ، وَكَانَ إِبْرَاهِيم يَقُول وَيَقُول. أخرج هَذِه الْآثَار الدِّرَامِي.

فَوَقع تدوين الحَدِيث وَالْفِقْه والمسائل من حَاجتهم بموقع من وَجه آخر، وَذَلِكَ أَنه **لم يكن عِنْدهم من الْأَحَادِيث والْآثَار مَا يقدرُونَ بِهِ علىٰ استنباط الْفِقْه علىٰ الْأُصُول الَّتِي اخْتَارَهَا**

أهل الحَدِيث، وَلم تَنْشَرِح صُدُورهمْ للنَّظَر فِي أَقْوَال عُلَمَاء الْبلدَانِ وَجَمعهَا والبحث عَنْهَا، واتهموا أنفسهم فِي ذَلِك.

وَكَانُوا اعتقدوا فِي أئمتهم أَنهم فِي الدرجَة الْعليا من التَّحْقِيق، وَكَانَ قُلُوبهم أميل شَيْء إِلَىٰ أصاحبهم كَمَا قَالَ **عَلْقَمَة**: هَل أحد مِنْهُم أثبت من عبد الله؟

وَقَالَ **أَبُوحنيفَة**: إِبْرَاهِيم أفقه من سَالم، وَلَوْلَا فضل الصُّحْبَة لَقلت: علقمه أفقه من ابْن عمر، وَكَانَ عِنْدهم من الفطانة والحدس وَسُرْعَة انْتِقَال الذِّهْن من شَيْء إِلَىٰ شَيْء مَا يقدرُونَ بِهِ علىٰ تَخْرِيج جَوَاب الْمسَائِل علىٰ أَقْوَال أَصْحَابهم «**وكل ميسر لما خُلِق لَهُ**».

﴿**كل حزب بِمَا يهم فَرِحُونَ**﴾()، فمهَّدُوا الْفِقْهَ علىٰ قَاعِدَة التَّخْرِيج، وَذَلِكَ أَن يحفظ كل أحد كتابَ من هُوَ لِسَان أَصْحَابه، وأعرفهم بأقوال القَوْم، وأصحهم نظرًا فِي التَّرْجِيح، فيتأمل فِي كل مَسْأَلَة وَجه الحكم، فَكلما سُئِلَ عَن شَيْء، أَو احْتَاجَ إِلَىٰ شَيْء رأىٰ فِيمَا يحفظه من تصريحات أَصْحَابه، فَإِن وجد الْجَواب فِيهَا، وَإِلَّا نظر إِلَىٰ عُمُوم كَلَامهم، فأجراه علىٰ هَذِه الصُّورَة، أَو إِشَارَة ضمنية لكَلَام، فاستنبط مِنْهَا ... ، وَرُبمَا كَانَ لبَعض الْكَلَام إِيمَاء أَو اقْتِضَاء يفهم الْمَقْصُود، وَرُبمَا كَانَ للمسألة الْمُصَرّح بهَا نَظِير يحمل عَلَيْهَا، وَرُبمَا نظرُوا فِي عِلّة الحكم الْمُصَرّح بِهِ بالتخريج أَو باليسر الْحَذف، فأداروا حكمه علىٰ غير الْمُصَرّح بِهِ، وَرُبمَا كَانَ لَهُ كلامان لَو اجْتمعَا علىٰ هَيْئَة الْقيَاس الاقتراني أَو الشرطي أنتجيا جَوَاب الْمَسْأَلَة، وَرُبمَا كَانَ فِي كَلَامهم مَا هُوَ مَعْلُوم بالمثال وَالْقِسْمَة غير مَعْلُومَة بِالْحَدِّ الْجَامِع الْمَانِع، فيرجعون إِلَىٰ أهل اللِّسَان، ويتكلفون، فِي تَحْصِيل ذاتياته، وترتيب حد جَامع مَانع لَهُ، وَضبط مبهمه، وتمييز مشكلة، وَرُبمَا كَانَ كَلَامهم مُحْتملاً بِوَجْهَيْنِ فَيَنْظُرُونَ فِي تَرْجِيح أحد المحتملين، وَرُبمَا يكون تقريب الدَّلَائِل خفِيًا، فيبينون ذَلِك، وَرُبمَا اسْتدلَّ بعض المخرجين من فعل أئمتهم وسكوتهم وَنَحْو ذَلِك، فَهَذَا هُوَ التَّخْرِيج وَيُقَال لَهُ القَوْل الْمخْرج لفُلَان كَذَا، وَيُقَال علىٰ مَذْهَب فلَان، أَو علىٰ أصل فلَان، أَو علىٰ قَول فلَان جَوَاب الْمَسْأَلَة كَذَا وَكَذَا، وَيُقَال لهَؤُلَاء: المجتهدون فِي الْمَذْهَب، وعنىٰ هَذَا الاجتهاد علىٰ هَذَا الأَصْل من قَالَ **من حفظ الْمَبْسُوط كَانَ مُجْتَهدا**، أَي **وَإِن لم يكن لَهُ علم بِرِوَايَة أصلاً، وَلَا بِحَدِيث وَاحِد** فَوَقع التَّخْرِيج فِي كل مَذْهَب، وَكثر، فَأَي مَذْهَب كَانَ أَصْحَابه مشهورين وُسِد إِلَيْهِم الْقَضَاء والافتاء، واشتهر تصانيفهم فِي النَّاس، ودرسوا درسًا

ظَاهرًا انْتَشَر فِي أقطار الأَرْض، وَلم يزل ينتشر كل حِين، وأي مَذْهَب كَانَ أَصْحَابه خاملين، وَلم يولوا الْقَضَاء والافتاء وَلم يرغب فيهم النَّاس اندرس بعد حِين.ا-هـ من كتاب: «حجة الله البالغة» للدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٢٥٤).

قلت: هذا التخريج هو القياس، وقد اتفقوا علىٰ أنه لا يقاس فرع علىٰ فرع، بل يجب قياس فرع علىٰ أصل وهذا من أركان القياس الصحيح.

"وهذا من أكبر الأدلة علي الظلام الذي حدث بعد القرن الثالث، حتي المنتسبين إلي العلم ألقوا كتب السنة وعلمها خلف ظهورهم واشتغلوا بالفلسفة والكلام وكتب المذاهب ، والمشتغل منهم بالحديث يظن أن كل حديث في كتب السنن والصحيحين قد وضعوه للإحتجاج به!!، حتي أن بعضهم سمي الكتب الستة : الصحاح الستة !! الحديث الحسن بين الحد والحجية (ص: ٨٨)، محمد أحمد جلمد

ما أسباب انتشار المذهبية والتعصب المذهبي؟

وقد يقول قائل: إنما انتشرت هذه المذاهب بسبب بركتها، وخيرها، فلا انكار علىٰ معتنقيها، فنقول: إن أسباب انتشارها كثيرة لكن من أهمها.

تأخر الزمان، وقلة أهل التحقيق، والرضا بالدعة والراحة، والتقليد، وأخذ العلم بلا مشقة ولا عناء، ولم تظهر وتنتشر هذه إلا بعد قرون الخيرية، ودروس العلم، وغياب العلماء أو قلتهم، والدعوة إلىٰ إغلاق باب الاجتهاد، والعكوف علىٰ أقوال وآراء الرجال، ورفع العلم، وفشو الجهل، والاعراض عن كتب الحديث والسنة، وترأس الجهال، ومتابعة الناس في مألوفاتهم، والسير معهم في عاداتهم، والسلطان، والجاه، والمناصب، والمال.

قال الفقيه الحافظ **أبومحمد علي بن أحمد** (لعله: ابن حزم) يقول: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان؛ مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولىٰ قضاء القضاة أبو يوسف كانت القضاة مِن قِبَلِهِ، فكان لا يولىٰ قضاء البلاد من أقصىٰ المشرق إلىٰ أقصىٰ أعمال إفريقية إلا أصحابه والمنتمين إلىٰ مذهبه.

ومذهب مالك بن أنس عندنا فإن يحيىٰ بن يحيىٰ كان مسكينـًا عند السلطان، مقبول القول

في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان علىٰ مذهبه، والناس سراع إلىٰ الدنيا والرياسة، فأقبلوا علىٰ ما يرجون بلوغ أغراضهم به، علىٰ أن يحيىٰ بن يحيىٰ لم يل قضاءً قط، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم، وداعياً إلىٰ قبول رأيه لديهم؛ وكذلك جرىٰ الأمر في إفريقية لما ولىٰ القضاء بها سحنون بن سعيد، ثم نشأ الناس علىٰ ما انتشر». جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس (ص: ٣٨٣)

وأخيراً:

وبعد هذه النبذة التاريخية ونشأة المذهبية وكتب الرأي، فلابد من الكلام عليها ما لها وما عليها، وذم الرأي وأهله، ومساوئ المذهبية، وثمرات الرأي وما أنتجه من التعصب المذهبي، والمذهبية المقيتة، وبيان بدعة التقليد وما أحدثته من شقاق وفرقة وتمزيق للأمة، ومشاقة لله ورسوله، وصرف الأمة عن كتاب ربها وسنة نبيها، بل وتحميل نصوص الوحيين علىٰ ما عند أصحابهم كأن معاني القرآن والسنة كانت حنفية أو شافعية أو ... فالأصل عندهم هو: نصوص المذهب ونصوص الوحي تحمل عليه!!

سبق أن تكلمنا عن بفوائد كتب الفقه وكيفية الانتفاع بها، والاستفادة منها.

ذم الرأي

مما لا يخفىٰ علىٰ كل مسلم بصير بدينه أن العلم والهدىٰ في كتاب الله ووسنة رسوله، وعلىٰ منهج السلف وخير القرون فإنهم لم يكن عندهم اعتناء بالرأي ألبتة، ولا يعرفون إلا الكتاب والسنة، وقد حرص سلف هذه الأمة علىٰ الاشتغال بالقرآن وحديث نبيهم، والنهي عن كل ما يشغل عن ذلك من كتب ولو كان فيها شيء من الخير لأن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أعظم وأجل، وأكثر بركة وهدىٰ وتقىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء**﴾()، فالواجب الحرص علىٰ تعلم ما أُنزل إلينا من الوحي، والاعتناء به، لأجل اتباعه، ولأنه حق كله، وما سواه ظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً، قال سبحانه: ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوىٰ الأنفس ولقد**

جاءهم من ربهم الهدىٰ﴾()، لذلك كان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ يسأل فيجيب ويقول: ﴿**إن نظن إلا ظنًا وما نحن بستيقنين﴾**()، وقد وردت نصوص كثيرة تدعو إلىٰ التمسك بالسنة، وعدم معارضتها بشيء من الرأي والعقل والهوىٰ، أو الذوق والوجد، ونحو ذلك، مع النهي عن الخوض في شيء من الدين بغير علم ، قال تعالىٰ: ﴿ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ﴾(الإسراء/ ٣٦)، وقال تعالىٰ: ﴿ھ ے ے ۓ ۓ ﮲ ﮳ ﮴ ﮵ ﴾ (الأنعام/ ٧١). قال **قتادة:** «خصومة علمها الله محمداً ﷺ، وأصحابه، يخاصمون بها أهلَ الضلالة». إسناده صحيح: رواه ابن جرير في "تفسيره" (٧/ ١٥٤).

فلا يجوز والحالة هذه أن نَذَرَ ما جاءنا عن الله ورسوله، ونعتني ونهتم برأي فلان وفلان، ولو كان أعظم عظيم، فمهما عظم لن يكون أعظم من الله ورسوله، ومهما كان فقهه وعلمه فلن يكون أفقه من النبي ﷺ وأصحابه، ولا أعلم منهم، ومهما كان كلامه فلن يكون خيراً من كلام الله ورسوله، فإن أحسن الكلام كلام الله، وخير هدىٰ هدىٰ محمد ﷺ فالإقبال علىٰ الرأي وما يسمىٰ بالفقه، وترك الحديث أو تأخيره منافٍ لما أمرنا به، بل إنه من أشراط الساعة، وسأسرد جملة من النصوص السلفية في النهي عن الرأي فعن عبدالله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الله لا يَنْزِع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقىٰ ناس جهَّال يُسْتَفْتون فيُفتون برأيهم فيضلون ويَضلون**».(متفق عليه).

قال الشاطبي معلقًا علىٰ حديث عبدالله بن عمرو: «فجعل أعظم تلك الفرق فتنة علىٰ الأمة أهل القياس، ولا كل قياس، بل القياس علىٰ غير أصل، فإن أهل القياس متفقون علىٰ أنه علىٰ غير أصل لا يصح، وإنما يكون علىٰ أصل من كتاب أو سنة صحيحة، أو إجماع معتبر، فإذا لم يكن للقياس أصل فهو الذي لا يصح أن يوضع في الدين، فإنه يؤدي إلىٰ مخالفة الشرع، وأن يصير الحلال بالشرع حراماً بذلك القياس، والحرامُ حلالاً»[٢٦٥]. وهو الذي جاء ذمه في نصوص أهل العلم.

ومن ذلك ما ورد عَن **عمر بن الْخطاب** أَنه قَالَ: «يَا أَيهَا النَّاس اتهموا الرَّأْي علىٰ الدّين فَلَقَد رَأَيْتنِي أردُّ أَمرَ رَسُول الله ﷺ برَأْي اجْتِهَاد فوَالله مَا ألو علىٰ الْحق، وَذَلِكَ يَوْم أبي جندل

---

(٢٦٥) الاعتصام للشاطبي تحقيق الهلالي (٢/ ٧٩٦).

وَالْكتاب بَين يَدي رَسُول الله ﷺ وَأهل مَكَّة فَقَالَ: اكتبوا بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم قَالُوا: تَرَانَا قد صدقناك بِمَا تَقول وَلَكِنَّك تكْتب بِاسْمِك اللَّهُمَّ قَالَ: فَرضِي رَسُول الله ﷺ وأتيت عَلَيْهِم حَتَّىٰ قَالَ لي رَسُول الله ﷺ: «**تراني أرْضىٰ وتأبىٰ أَنْت؟!**» قَالَ: «فرضيت»(٢٦٦).

وعَن **عمر بن الْخطاب** رضي الله عنه قَالَ: «أصبح أهل الرَّأْي أَعدَاء السّنَن أعيتهم الْأَحَادِيث أَن يعوها وتفلتت مِنْهُم أَن يردوها فاستبقوا الرَّأْي»(٢٦٧).

وفي لفظ: «إِيَّاكُمْ وَأَصْحَاب الرَّأْي فَإِنَّهُم أَعدَاء السّنَن أعيتهم الْأَحَادِيث أَن يحفظوها فَقَالُوا بِالرَّأْيِ فضلوا وأضلوا». سبق معنا، ويُروىٰ أيضًا عن **عمر بن الْخطاب** رضي الله عنه قال: «السّنة مَا سنه الله تَعَالَىٰ وَرَسُوله ﷺ، لَا تجْعَلُوا خطأ الرَّأْي سنة للْأمة»(٢٦٨).

قال الفلاني رحمه الله: رحم الله عمر فَكَأَنَّهُ علم بِوُقُوع ذَلِك فحذَّر مِنْهُ فقد شاهدنا فِي هَذِه الْأَعْصَار رَأيًا مُخَالفًا لسنة رَسُول الله ﷺ مصادمًا لما فِي كتاب الله عز وَجل، قد جَعَلُوهُ سنةً، واعتقدوه دينًا يرجعُونَ إِلَيْهِ عِنْد التَّنَازُع، وسموه مذهبًا(٢٦٩)، ولعمري أَنَّهَا لمصيبة وبلية وحمية وعصبية أُصِيب بهَا الْإِسْلَام إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون.

وَعَن أبي حَصِيْن قَالَ: قَالَ أَبُووَائِل لما قدم **سهل بن حنيف** من صفّين أتيناه نستخبره قَالَ فَقَالَ: «اتهموا الرَّأْي علىٰ الدّين فَلَقَد رَأَيْتنِي يَوْم أبي جندل وَلَو أَسْتَطِيع أَن أرد علىٰ رَسُول الله

---

(٢٦٦) **حسن**: رواه أبويعلىٰ (المقصد العلي/ ٦٤) ، ورواه البزار وابن المنذر، والطبراني والبيهقي في المدخل وغيرهم، (فتح الباري – ٦/ ٢٧٣).

(٢٦٧) **صحيح لغيره**: رواه الآجري في الشريعة ()، وقد خرجته هناك، وابن عبد البر في "جامع بيان العلم"، وصححه محققه (ح٢٠٠١) يراجع باب "الفرق بين التقليد والإتباع" من نفس الكتاب (ص٩٧٥)، واللالكائي (٢٠١).

(٢٦٨) **موضع الشاهد، حسن لغيره**: رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١٣٦)، وهو (منقطع) وقد ورد من طريق أخرىٰ منقطعة عن عمر بلفظ: وقال عمر: «إن الرأي كان من رسول الله ﷺ مصيبًا؛ لأن الله تعالىٰ يريه، وانما هو منا الظن والتكلف؛ **فلا تجعلوا حظ الرأي سنة للأمة**». رواه أبوداود (٣٥٨٦).

(٢٦٩) والأمثلة علىٰ مخالفة ما في الكتاب والسنة مما يخالف المذهب، بل والمذاهب كثير جداً، حتىٰ ألف بعضهم كتبًا في ذلك، فجمع ابن دقيق العيد المسائل التي خالف فيها الأئمة النص الصحيح الصريح مجتمعين ومنفردين في مؤلف، وذكر ابن أبي شيبة كتابًا في «مصنفه» في الرد علىٰ أبي حنيفة، وألف العلماء كتبًا في مسائل خاصة منها: جزء رفع اليدين للبخاري، ومنها الأشربة للإمام أحمد وغيرها كثير.

ﷺ أمره لرددت، وَالله وَرَسُوله أعلم وَمَا وَضعنَا أسيافنا علىٰ عواتقنا فِي أَمر يفظعنا إِلَّا أسهلن بِنَا علىٰ أَمر نعرفه قبل هَذَا الْأَمر مَا يسد مِنْهُ خصم إِلَّا انْفَتح علينا خصم مَا نَدْرِي كَيفَ نأتي إِلَيْهِ»[٢٧٠] رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه.

وقال **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: «لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولىٰ بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح علىٰ ظاهر خفيه».

صحيح: رواه أبو داود (١/ ٢٧٨) وصححه شيخنا في (الإرواء ١٠٣)

وقال **ابن مسعود**: «ليس عام إلا الذي بعده شر منه، لا أقول عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب العلماء، **ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام**»[٢٧١].

قال **الشاطبي**: «إن الرأي من حيث هو رأي لا ينضبط إلىٰ قانون شرعي إذا لم يكن له أصل شرعي، فإن العقول تَسْتَحْسِنُ ما لا يُسْتَحْسَن شرعـًا، وتستقبِحُ ما لا يُسْتَقبَحُ شرعـًا، وإذا كان كذلك، صار القياس علىٰ غير أصل فتنة علىٰ الناس». الاعتصام للشاطبي تحقيق الهلالي (٢/ ٧٩٥).

فصاحب الرأي ليس علىٰ بصيرة ونور من ربه قال **الأعمش**: «إنما مثل أصحاب هذا الرأي مثل رجل خرج بليل فرأىٰ سوادًا فظن أنها تمرة فإن أخطأه يكون عقربًا أو يكون جرو كلب». الإبانة (١/ ٢/ ٤٢٣/ ٣٥٠)، وبنحو هذا قال الشافعي رحمه الله.

ثم العمل بالرأي من سبيل المغضوب عليهم، قال **عروة** رحمه الله: «لم يزل أمر بني إسرائيل مستقيمـًا حتىٰ أدرك فيهم المولَّدون أبناء سبايا الأمم فأحدثوا فيهم الرأي فأضلوا بني إسرائيل

---

(٢٧٠) **متفق عليه**: رواه البخاري (٤١٨٩)، ومسلم (١٧٨٥) .

(٢٧١) **صحيح لغيره**: رواه الدارمي (ح١٨٨)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٤٨٣)، والفتح (١٣/ ٢٩٦)، **وحسن إسناده الحافظ** في "الفتح" (١٣/ ٢٣)!!.**قلت**: مدار إسناده علىٰ مجالد وهو ابن سعيد وهو: "ضعيف"، قال عنه الحافظ نفسه: "ليس بالقوي، وتغير في آخر عمره" (التقريب). **ورواه** البيهقي (٣/ ٣٦٣)، مقتصراً منه علىٰ شطره الأول، كما يشهد لأوله حديث أنس مرفوعـًا عند الترمذي (ح٢٢٠٧)، وهو في "الصحيحة" (ح١٢١٨)، ورواه البخاري في "صحيحه" بمعناه (٧٠٦٨)، **وله طريق أخرىٰ** عن ابن مسعود ذكرها الحافظ (١٣/ ٢٣).

(فهلكوا وأهلكوا)»[٢٧٢]، **وعن مسروق**: «**إياكم والقياس والرأي، فإن الرأي قد يزل**»[٢٧٣]، وقال **الشعبي**: «إنما هلكتم حين تركتم الآثار، وأخذتم بالمقاييس، يعلم الله، لقد بغَّضوا إليَّ هذا المسجد حتىٰ لهو أبغض إليَّ من كناسة داري هؤلاء الصعافقة»، وفي رواية قال: «هؤلاء الرَّأْيَتِيُّون، أرأيتَ، أرأيتَ»[٢٧٤].

وَعَن **الشعبي** أَنه قَالَ: «لقد بغَّض إِلَيّ هَؤُلَاءِ الْمَسَاجِد حَتَّىٰ لهي أبْغض إِلَيّ من كناسَة دَاري فَقلت: مِم يَا أَبَاعَمْرو؟! قَالَ: هَؤُلَاءِ الأرائيون أَصْحَاب الرَّأْي لما أعيتهم أَحَادِيث رَسُول الله ﷺ أَن يحفظوها جَاءُوا يجادلون»[٢٧٥].

ولابد أن نعلم أن كثيراً من السنن تأتي علىٰ خلاف القياس والرأي لا سيما ما كان منها قياس فرع علىٰ فرع، أو رأي محض قال **أبوالزناد** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن السننَ ووجوهَ الحقِ لتأتي كثيراً علىٰ خلاف الرأي، فما يَجِدُ المسلمونَ بُدّاً من اتباعها، من ذلك إن الحائض تقضي الصوم ولا

---

(٢٧٢) **صحيح**: رواه الدارمي (ح١٢٠)، ابن عبد البر (ح٢٠٣١،٢٠١٥)، والخطيب في "تاريخه" (١٣/ ٣٩٤)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (١/ ٧٤-ح٦٠)، المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٩٣)، وبنحوه عن عمر بن عبد العزيز برقم (٦١).

(٢٧٣) **حسن**: رواه الخطيب ينظر "صحيح الفقيه والتفقه" (ص١٨٠)، وينظر تخريج "سنن الدارمي" (ح١٩١).

(٢٧٤) **صحيح**: رواه الدارمي (ح١٩٣)، والخطيب ينظر "صحيح الفقيه والتفقه" (ص١٨٠)، وابن عبد البر ().

(٢٧٥) **صحيح**: رواه الدارمي (ح١٩٣)، والخطيب ينظر "صحيح الفقيه والتفقه" (ص١٨٠).

قال صالح بن مسلم، قال: كنتُ مع الشَّعبي، وبدي في يده، أو يده في يدي، فانتهينا إلىٰ المسجد؛ فإذا حَمَّاد في المسجد، وحوله أصحابه، ولهم أصوات، قال: فقال: "لقد بغَّضَ إليَّ هؤلاء هذا المسجد، حتىٰ تركوه أبغض إليَّ من كناسة داري؛ معاشر الصعافقة". فانصاع راجعًا، ورجعنا، وفي رواية: فقلتُ: مِمَّ يا أبا عمرو؟

قال: «**هؤلاء الرَّائيُّون أصحاب الرأي، لمَّا أَعيَتهُمْ أحاديثُ رسول الله ﷺ أن يحفظوها؛ يجادلون**».

(**صحيح**) أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرىٰ" (٦/ ٢٥١)، وأخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (٢/ ١٠٤٨/ ٢٠١٧) والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/ ٤٦٢/ ٤٩٩). (الآثار الصحيحة/ ٣٢٠).

وسيأتي بلفظ: «**إنما هلكتم حين تركتم الآثار، وأخذتم بالمقاييس، يعلم الله، لقد بغَّضوا إلىٰ هذا المسجد حتىٰ لهو أبغض إليَّ من كناسة داري هؤلاء الصعافقة**»، وفي رواية قال: «**هؤلاء الرَّأْيَتِيُّون، أرأيتَ، أرأيتَ**».

تقضي الصلاة»[٢٧٦].

وَقَالَ عبد الرحمن بن مهْدي سَمِعت حَمَّاد بن زيد يَقُول: قيل لأيوب: «مَالك لَا تنظر فِي الرَّأْي؟!» فَقَالَ: أَيُّوب قيل للحمار: مَالك لَا تجتر قَالَ: أكره مضغ الْبَاطِل[٢٧٧].

وروينا عَن **رَقَبَة بن مصقلة** أَنه قَالَ لرجل رَآهُ يخْتَلف إِلَىٰ صَاحب الرَّأْي:

«يَا هَذَا يَكْفِيك من رَأْيه مَا مضغت وَترجع إِلَىٰ أهلك بِغَيْر ثِقَة»[٢٧٨].

وَقَالَ ابْن وهب ثَنَا **عبد العزيز بن أبي سَلمَة** قَالَ: لما جِئْت الْعرَاق جَاءَنِي أهل الْعرَاق فقالوا: حَدثنَا عَن ربيعَة الرَّأْي قَالَ فَقلت: يَا أهل الْعرَاق تَقولُونَ ربيعَة الرَّأْي لَا وَالله مَا رَأَيْت أحداً أحفظ للسّنة مِنْهُ.

قَالَ طلق بن غَنَّام أَبْطَأَ **حَفْص بن غياث** فِي قَضِيَّة فَقلت لَهُ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ رَأْي لَيْسَ فِيهِ كتاب وَلَا سنة وَإِنَّمَا أحز فِي لحمي فَمَا عجلني.

قَالَ قَالَ أَبُو سُفْيَان الْحمير: سَأَلت **هشيمًا** عَن تَفْسِير الْقُرْآن كَيفَ صَار فِيهِ اخْتِلَاف؟ قَالَ: **قَالُوا برأيهم فَاخْتَلَفُوا** .

قال **الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما الدين بالآثار وليس بالرأي، إنما الدين بالآثار ليس بالرأي ...»، وقال **ابن حبان** في قول النبي ﷺ: «فعليكم بسنتي» قال: «إن من واظب علىٰ السنن وقال بها **ولم يعرج علىٰ غيرها من الآراء** فهو من الفرقة الناجية» . الإحسان (١ / ١٠٥).

وقد ندم مالك علىٰ ما أفتىٰ به من الرأي، مع أنه مأجور علىٰ اجتهاده، قَالَ الْقَعْنَبِيُّ: دَخَلْت عَلَىٰ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَلَّمْت عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسْت، فَرَأَيْتُهُ يَبْكِي، فَقُلْت لَهُ: يَا أَبَاعَبْدِاللهِ، مَا الَّذِي يُبْكِيك؟ فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ قَعْنَبٍ، وَمَالِي لَا أَبْكِي؟ وَمَنْ أَحَقُّ بِالْبُكَاءِ مِنِّي؟ وَاَللهِ لَوَدِدْت أَنِّي ضُرِبْت بِكُلِّ مَسْأَلَةٍ أَفْتَيْت فِيهَا بِالرَّأْيِ سَوْطًا، وَقَدْ كَانَتْ لِي السَّعَةُ فِيمَا قَدْ سُبِقْت

---

(٢٧٦) رواه البخاري تعليقـًا مجزومـًا به، ينظر "فتح الباري" (٤/ ٢٢٥).

(٢٧٧) **صحيح**: رواه ابن عبدالبر (٢٠٨٥)، وابن حزم في «الإحكام» (٦/ ٥٣)، تاريخ أبي زرعة (٤٧٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٥٨) وصححه الشيخ مشهور في «إعلام الموقعين».

(٢٧٨) **صحيح**: رواه عبدالله بن أحمد في «السنة» (٢٦١، ٢٦٢)، قال رقبة للقاسم بن معن: أين تذهب؟ قال: لأبي حنيفة، قال يمكنك من رأي ما مضغت ....

إِلَيْهِ، وَلَيْتَنِي لَمْ أُفْتِ بِالرَّأْيِ». إعلام الموقعين (١/ ٦٠).

ورحم الله **ابنَ أبي داود** إذ قال في حائيته:

ودع عنك آراء الرجال وقولهم فقول رسول الله أزكىٰ وأشرح.

يقول الخطيب البغدادي في كتابه الماتع (شرف أصحاب الحديث): «ولو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه من العلوم، وطلب سنن رسول رب العالمين ﷺ، واقتفىٰ آثار الفقهاء والمحدثين، لوجد ذلك ما يغنيه عما سواه، واكتفىٰ بالأثر عن رأيه الذي رآه، لأن الحديث يشتمل علىٰ معرفة أصول التوحيد، وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد، وصفات رب العالمين تعالىٰ عن مقالات الملحدين، والإخبار عن صفات الجنة والنار، وما أعد الله تعالىٰ فيهما للمتقين والفجار، وما خلق الله في الأرضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الآيات، وذكر الملائكة المقربين ونعت الصَّافِّين والمسبِّحين.

وفي الحديث قصص الأنبياء، وأخبار الزهاد والأولياء ومواعظ البلغاء وكلام الفقهاء وسير ملوك العرب والعجم، وأقاصيص المتقدمين من الأمم، وشرح مغازي الرسول ﷺ وسراياه، وجمل أحكامه وقضاياه، وخطبه وعظاته وأعلامه ومعجزاته، وعدد أزواجه وأولاده وأصهاره وأصحابه، وذكر فضائلهم ومآثرهم، وشرح أخبارهم ومناقبهم، ومبلغ أعمارهم، وبيان أنسابهم» (شرف أصحاب الحديث/ ص٦: ٨).

وقال قوَّام السنة **أبو القاسم الأصبهاني**: «ما برح من أدركنا من أهل الفضل والفقه من خيار أولية الناس يعيبون أهل الجدل والتنقيب، **ويعيبون الأخذ بالرأي أشد العيب**، وينهونا عن لقائهم ومجالستهم ويحذرونا مقاربتهم أشد التحذير، وما توفي رسول الله ﷺ حتىٰ كره المسائل والتنقيب والبحث عن الأمور وزجر عن ذلك وحذره المسلمين في غير موطن، حتىٰ كان من قوله ﷺ في كراهية ذلك أن قال:«**ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم**»، فأي أمر أكف لمن يعقل عن التنقيب من هذا.

صحيح: رواه الآجري في "الشريعة" (ح١٣٠)، وهو في الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٨٥).

وقال **ابن حزم** رحمه الله: « الصحابة ... كلهم يتبرأ من الرأي ويذمه، ، ويحذِّر منه، وينهىٰ عن التدين به ، ... ولا أن أحداً منهم صحح القول بالرأي وأثبته، بخلاف ما عليه هؤلاء الذين جعلوا رأي أبي حنيفة ومالك ديناً، يتركون له القرآن والسنة، ويضللون من خالفه واتبع القرآن والسنة، وما مضىٰ عليه الصحابة والتابعون.... ولا نزاع عند كل مسلم أن الدين الذي هو الشرع اللازم لكل مسلم، لا تخيير في قبوله، ولا في لزومه، فلا خيار يومئذ في الدين، والدين كله واجب أخذه، وصح أن الرأي ليس من الدين، فإذ ليس هو من الدين، والدين من عند الله فليس الرأي من عند الله، وهذا واضح لمن نصح نفسَهُ.

ولعمري إن الرأي ليس من الدين في شئ وإنما هو: وهلة فاضل، وزلة عالم ممن سلف، وبدعة مقلِّد ممن خَلَفَ فقط، .... فهؤلاء التابعون، كلهم يذم الرأي ولا يوجب اتباعه، ولا سبيل إلىٰ أن يوجد أحد من التابعين أنه جعلَ الرأي ديناً، فضلل من خالفه كما يفعل هؤلاء، وصح أنهم قد خرقوا الإجماع في ذلك بلا شك». الصادع لابن حزم (ص٦٠٣: ٦١٣ مختصراً).

فإن عارض النصوص برأيه، وجاءه النص وقدم القياس عليه، أو قول شيخه عليه أو غير ذلك فقد وقع في خطيئة وكبيرة.

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: « أصل طريق من يعارض النصوص النبوية برأيه وعقله هي طريق أهل النفاق والإلحاد، وطريق أهل الجهل والارتياب، لا طريق ذي عقل ولا ذي دين كما قال تعالىٰ : ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدىٰ ولا كتاب منير**﴾ (الحج/ ٨)، وقال تعالىٰ : ﴿**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلىٰ عذاب السعير**﴾(الحج/ ٣ – ٤)» (درأ تعارض العقل٣/ ٢٤).

ولم يكن لديهم كتب للرأي ولا انشغال قبل كل شيء بغير النصوص الشرعية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية فعن عياش القطان، قال: قلت **لأحمد بن حنبل**: أشتهي أن أجمع حديث الأنبياء فقال لي أحمد: «حتىٰ تفرغ من حديث نبينا ﷺ» (**الجامع لأخلاق الراوي**/ ١٩٢٥).

فأعجب من قوم أول ما يبحثون، ويدرسون، ويحفظون، ويعتنون بكتب الرأي التي تسمىٰ

بكتب الفقه، وهذا خلل كبير، وطريقة محدثة في تلقي العلم، فانظروا إلىٰ فقه أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أراد ألا يتعلق الناس بغير النصوص، وألا يقدِّموا شيئًا علىٰ قول الله ورسوله، مع أن أحاديث الأنبياء وسيرهم فيه الخير الكثير والعبر، ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾، ولكن لا يُقدَّم شيء علىٰ أحاديث نبينا ﷺ وسيرته، كما أنه كان ينكر علىٰ من يؤلف الكتب في الفقه ونحوه، وينشغل بذلك، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان الإمام أحمد ينهىٰ عن آراء الفقهاء والاشتغال بها حفظًا وكتابة، ويأمر بالاشتغال بالكتاب والسنة حفظًا وفهمًا وكتابة ودراسة، وبكتابة آثار الصحابة والتابعين دون كلام مَن بعدهم، ومعرفة صحة ذلك من سقمه والمأخوذ منه، والقول الشاذ المطَّرَح منه، ولا ريب أن هذا مما يتعيَّن الاهتمام به والاشتغال بتعلُّمِهِ أولاً قبل غيره». الرد علىٰ من اتبع غير المذاهب الأربعة (ص٣٨)

ولقد نعىٰ الحافظ **ابن عبدالبر** علىٰ من اشتغل بآراء الرجال واستحسانهم، ولم يعتن بنصوص الكتاب والسنة فقال: «وطائفة (غارقة) في الجهل لم يعنوا بحفظ سنة ولا الوقوف علىٰ معانيها ولا بأصل من القرآن ولا اعتنوا بكتاب الله -جل وعز- فحفظوا تنزيله، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله (أي تفسيره)، ولا وقفوا علىٰ أحكامه، ولا تفقهوا في حلاله وحرامه، **قد اطرحوا علم السنن والآثار وزهدوا فيهما، وأضربوا عنهما**؛ فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرقوا بين التنازع والائتلاف.

بل عوَّلوا علىٰ حفظ ما دُوِّن لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان، وكان الأئمة يبكون علىٰ ما سلف وسبق لهم فيه، ويودون أن حظهم السلامة منه» (جامع بيان العلم/ ص).

يقول الإمام ابن القيم: «ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع ...، فلما طال العهد وبعُد الناس من نور النبوة صار هذا عيبًا عند المتأخرين أن يذكروا في أصول دينهم وفروعه قال الله، وقال رسول الله....

أما فروعهم **فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نص عن الله ولا عن رسول الله** ﷺ، ولا عن الإمام الذي زعموا أنهم قلَّدوه دينهم، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق، ويبيحون به الفروج والدماء والأموال علىٰ قول ذلك المصنف،

وأجلُّهم عند نفسه وزعيمهم عند بني جنسه: من يستحضر لفظ الكتاب، ويقول: هكذا قال، وهذا لفظه؛ فالحلال ما أحلَّه ذلك الكتاب، والحرام ما حرَّمه، والواجب ما أوجبه، والباطل ما أبطله، والصحيح ما صححه هذا.

وأنّىٰ لنا بهؤلاء في مثل هذه الأزمان، فقد دفعنا إلىٰ أمر تضج منه الحقوق إلىٰ الله ضجيجًا، وتعج منه الفروج والأموال والدماء إلىٰ ربها عجيجًا، تبدُّل في الأحكام، ويقلب فيه الحلال بالحرام، ويجعل المعروف فيه أعلىٰ مراتب المنكرات، والذي لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات»[٢٧٩]. **فأتعجب من قوم يتركون العلم النافع الذي لا أنفع منه من التفقه في كتاب الله عزوجل، وسنة نبيه التي فيها الهدىٰ والنور، ويبحثون عما سواهما من الكتب.**

قال ابن القيم أيضًا: «إن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول **دون مقدرات الأذهان ومسائل الخرص والألغاز**، وذلك بحمد الله تعالىٰ أيسر علىٰ النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر، كما قال تعال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر/ ١٧).

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه، ولم يقل تضيع عليه مصالحه، وتتعطل عليه معايشه.

وسنة رسوله، وهي بحمد الله تعالىٰ مضبوطة محفوظة، أصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة[٢٨٠] حديث وفرضها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث.

وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان، وأغلوطات المسائل، والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان التي كل ما لها في نمو وزيادة توليد، والدين كل ما له في غربة ونقصان، والله المستعان»[٢٨١].

فعلىٰ طلاب العلم أن يعنوا بالعلم النافع، وأن يطلبوا العلم وأن يأخذوه من فوق، فلا بركة ولا نور أعظم من نور السنة والأثر.

---

(٢٧٩) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٨،٢١٧).

(٢٨٠) هذا مما يدلُّ علىٰ تيسير الاجتهاد.

(٢٨١) من إعلام الموقعين .

الفصل الأول: ذم الرأي وأهل الرأي

ولقد حرص السلف علىٰ الاشتغال بالكتاب والسنة قبل كل شئ، وكانوا ينهون عن كل ما يشغل عن ذلك من كتب ولو كان فيها من الخير ما فيها لأن كتاب الله وسنة نبيه ﷺ أعظم وأجل، وأكثر بركة وأهدىٰ وأتقىٰ.

الباب الأول: في ذم كتب الرأي

مما لا شك فيه أن هذه الكتب أعني كتب الفقه التي كانوا يسمونها كتب الرأي، عليها مؤاخذات كثيرة، فمن ذلك: كثرة الأحاديث الضعيفة، بل والموضوعة، وما لا أصل له – وذكر الآراء المرجوحة التي خالف أصحابها الأحاديث الصحيحة، أو الأثر، بل والسلف– وما فيها من تشقيقات للمسائل – وتعقيدات في الأسلوب – وذكر بعض ما لم يقع إلا نادراً، وبعضها قد لا يقع ألبتة – وتناقضات – وتحريفات ورد للنصوص الصريحة الصحيحة – وبدع وضلالات – واتباع للهوىٰ – وتعصب مذهبي، ومن أخطر ما فيها أن الغالب علىٰ أصحابها أنهم ليسوا من أهل السنة والجماعة، وفيهم من الانحراف عن سبيل السلف مما يجعل الطالب غالبا يتأثر ببدعهم وعقائدهم وضلالهم، ولا شك أنه لابد وأن يؤثر ذلك علىٰ كثير من أحكامهم في كتبهم، وغير ذلك مما هو معروف ومشهور حتىٰ إنك لتجد من يقول: «الشافعي مذهبـًا، والنقشبندي طريقة، والأشعري عقيدة»، وسأذكر تفصل ذلك في محله إن شاء الله.

وأجدني مضطراً لأن أطيل الكلام في هذا الباب كي يكون الإخوة علىٰ معرفة وبصيرة بمنهجم الذي يسيرون عليه، فأذكر بعضـًا من النقولات:

فينبغي أن يعلم أن الاعتناء والاشتغال والتدوين يجب أن يكون للكتاب والسنة، والأثر، أما كلام الناس فلا ينشغل بها، إلا علىٰ سبيل الشرح والبيان لكتاب الله ولسنة رسوله.

قال تعالىٰ: ﴿ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں﴾ (العنكبوت/ ٥١). **فينبغي أن يكتفىٰ بما ورد في الكتاب والسنة والإجماع، لأنها هي الأصول التي يقاس عليها، ويستنبط منها، ويرجع إليها.**

وها أنا أنقل بعض ما ورد من نصوص في النهي عن وضع الكتب لا سيما إذا كانت خالية من النصوص، أو قليلة الأدلة، أو لا تعتني بالنصوص الصحيحة والاستدلالات الأثرية الرجيحة، أو كانت عامتها آراء للرجال، أو نحو ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿**نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون**﴾(البقرة/ ١٠١).

وقال تعالىٰ: ﴿**فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم مما كتبت أيديهم ....**﴾().

قال تعالىٰ: ﴿**وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون**﴾().

قال **ابن القيم**: إِن الله سُبْحَانَهُ ذمّ الَّذين تقطَّعوا أَمرهم بَينهم زُبُرا كلُّ حزبٍ بِمَا لديهم فَرِحُونَ.

والزبر الْكتب المصنفة الَّتِي رَغِبُوا بهَا عَن كتاب الله تَعَالَىٰ وَمَا بعث بِهِ رَسُوله.

وعن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال: «إن حديثكم شر الحديث، وإن كلامكم شر الكلام؛ فإنكم قد حدثتم الناس حتىٰ قيل: قال فلان، وقال فلان، ويترك كتاب الله، من كان منكم قائماً فليقم بكتاب الله، وإلاَّ فليجلس»[٢٨٢]. يعني: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

فهذا عمر يقول هذا الكلام (**إن حديثكم شر الحديث**) لمن؟! في زمانه إما للصحابة أو للتابعين، فكيف بمن بعدهم، وماذا عساه أن يقول لو رأىٰ من يتعصب للمذهب، ولأقوال صاحب المذهب، ولقول فلان وفلان؟!.

فعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «**من اقتراب (وفي رواية: أشراط) الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار، ويفتح القول، ويخزن العمل، ويقرأ بالقوم المثناة، ليس فيهم أحد**

---

(٢٨٢) **إسناده صحيح**: رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم".

ينكرها. قيل: وما المثناة؟ قال: ما استكتب سوىٰ كتاب الله عز وجل ، فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَبِهِ هُدِيتُمْ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَعَنْهُ تُسْأَلُونَ»(٢٨٣).

قال **شيخنا العلامة الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ معلقاً عليه في تفسير (**المثناة**): (فائدة) :

«هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، فقد تحقق كل ما فيه من الأنباء ، وبخاصة منها ما يتعلق بـ (المثناة) وهي كل ما كتب سوىٰ كتاب الله كما فسره الراوي، وما يتعلق به من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، فكأن المقصود بـ (المثناة) الكتب المذهبية المفروضة علىٰ المقلدين. التي صرفتهم مع تطاول الزمن عن كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ كما هو مشاهد اليوم مع الأسف من جماهير المتمذهبين، وفيهم كثير من الدكاترة والمتخرجين من كليات الشريعة، فإنهم جميعاً يتدينون بالتمذهب، ويوجبونه علىٰ الناس حتىٰ العلماء منهم، فهذا كبيرهم أبوالحسن الكرخي الحنفي يقول كلمته المشهورة: «كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ»، فقد جعلوا المذهب أصلاً، والقرآن الكريم تبعًا، فذلك هو (المثناة) دون ما شك أو ريب»(٢٨٤).

قلت: ويدخل في هذا كتب الرأي المجردة عن الدليل، والكتب الثقافية، والفكرية، والسلوك، والمنطق، والفلسفة، والأوراد ونحوها مما لم يرد في الكتاب والسنة، وانشغل الناس به عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، بل وبعضها يتلىٰ لديهم مثل القرآن أو أعظم ككتاب: «**دلائل الخيرات**» فقد رأيت من يظل تالياً له طول اليوم!!.

عن عبدالله بن مسعود عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: قَالَ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمُ اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمُ اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ، واسْتَحْلَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ حَتَّىٰ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.... قَالَ: فَاخْتَلَفَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، ...».

قَالَ عَبْدُاللهِ: وَإِنَّ مَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ سَيَرَىٰ مُنْكَرًا، وبِحَسْبِ امْرِئٍ يَرَىٰ مُنْكَرًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَهُ

---

(٢٨٣) **صحيح**: رواه الدارمي (٤٩٣) وهو مخرج في الصحيحة (٢٨٢١).

(٢٨٤) الصحيحة (٦/ ٧٧٦).

أَنْ يُعْلِمَ اللهَ مِنْ قَلْبِهِ أَنَّهُ لَهُ كَارِهٌ»[٢٨٥].

وعن عفان المحاربي عن أبيه قال سمعت **ابن مسعود** يقول: «إن ناساً يسمعون كلامي ثم ينطلقون فيكتبونه، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله»[٢٨٦]. (يعني: القرآن والحديث).

وعن سليم قال كنت أجالس أناساً في المسجد، فأتيتهم ذات يوم، فإذا عندهم صحيفة يقرؤنها، فيها ذكر وحمد وثناء علىٰ الله، فأعجبني، فقلت لصاحبها: أعطينيها، فأنسخها، قال:

«فإني وعدتُ بها رجلاً فأعد صحفك، فإذا فرغ منها، دفعتها إليك».

فأعددت صحفي، فدخلت المسجد ذات يوم، فإذا غلام يتخطىٰ الخلق، يقول: أجيبوا **عبد الله بن مسعود** في داره، فانطلق الناسُ، فذهبت معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده.

وقال: «**ألا إن ما في هذه الصحيفة فتنة وضلالة وبدعة، وإنما هلك من كان قبلكم من أهل الكتاب باتباعهم الكتب، وتركهم كتاب الله، وإني أحرِّج علىٰ رجل يعلم منها شيئًا إلا دلني عليه، فوالذي نفس عبدالله بيده، لو أعلم منها صحيفة بدير هند لأتيتها، ولو مشيًا علىٰ رجليّ، فدعا بماء، فغسل تلك الصحيفة**»[٢٨٧].

فعن الأسود قال جاء رجل من أهل الشام إلىٰ عبدالله بن مسعود ومعه صحيفة فيها كلام من كلام أبي الدرداء، وقصص من قصصه، فقال: "يا أبا عبد الرحمن! ألا تنظر ما في هذه الصحيفة من كلام أخيك أبي الدرداء؟.

فأخذ الصحيفة، فجعل يقرأ فيها وينظر، حتىٰ أتىٰ منْزِله، فقال: "يا جارية ائتيني بالإجّانة

---

(٢٨٥) **صحيح: رواه البيهقي في الشعب ()، وهو في الصحيحة (٢٦٩٤).**

(٢٨٦) **صحيح**: رواه الدارمي (٤٩٧).

(٢٨٧) **صحيح الإسناد**: رواه الخطيب في "تقييد العلم" (ص٥٥) من طريقين عنه.

عن الأسود بن هلال قال: قال عبد الله: «إن أحسن الهدىٰ هدىٰ محمد وإن أحسن الكلام كلام الله وإنكم ستحدثون ويحدث لكم فكل محدث ضلالة وكل ضلالة في النار وأتىٰ بصحيفة فيها حديث قال فأمر بها فمحيت ثم غسلت ثم أحرقت ثم قال بهذا هلك أهل الكتاب قبلكم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون أنشدت الله رجلا يعلمها عند أحد الا أعلمني به والله لو أني أعلم أنها بدير هند لتبلغت اليها» رواه اللالكائي (١/ ٧٧-ح٨٥)، وورد نحوه عن عمر بن الخطاب ﷺ، ينظر تخريجه في "الإرواء" (٦/ ٣٥).

مملوءة ماء".فجاءت به، فجعل يدلكها، ويقول:

﴿ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﴿ (يوسف/ ١: ٣). أقصصاً أحسن من قصص الله تريدون، أو حديثاً أحسن من حديث الله تريدون؟!!"[٢٨٨]. (حسن لغيره)

وخرج أبو داود وغيره **عن معاذ بن جبل** رضي الله عنه أنه قال يوماً: «إن من ورائكم فتناً يكثر فيها المال ويفتح فيها القرآن حتىٰ يأخذه المؤمنُ والمنافق والرجل والمرأة والصغير والكبير والعبد والحر فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن ؟ **ما هم بمتبعيَّ حتىٰ أبتدعَ لهم غيرَه وإياكم وما ابتدع**، فإن ما ابتدع ضلالة وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة علىٰ لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق»[٢٨٩].

وفي رواية: فَيَقُولُ: «قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدْ قُمْتُ بِهِ فِيهِمْ، فَلَمْ أُتَّبَعْ، لَأَحتَظِرَنَّ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا لَعَلِّي أُتَّبَعُ، فَيَحْتَظِرُ فِي بَيْتِهِ مَسْجِدًا فَلَا يُتَّبَعُ.

فَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقُمْتُ بِهِ فِيهِمْ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدِ احْتظرْتُ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا،

---

(٢٨٨) عن الأشعث عن أبيه وكان من أصحاب عبد الله قال: رأيت مع رجل صحيفة فيها سبحان الله والحمد لله ولا إله الا الله والله أكبر فقلت له أنسخنيها فكأنه بخل بها ثم وعدني أن يعطينيها فأتيت عبد الله (يعني: ابن مسعود) فإذا هي بين يديه فقال: «**إن ما في هذا الكتاب بدعة وفتنة وضلالة وإنما أهلك من كان قبلكم هذا وأشباه هذا**، أنهم كتبوها فاستلذتها ألسنتهم وأشربتها قلوبهم؛ فأعزم علىٰ كل امرئ يعلم بمكان كتاب إلا دل عليه، وأقسم بالله قال شعبة: فأقسم بالله قال أحسبه: أقسم لو أنها ذُكِرَت له بدار الهندارية يعني مكاناً بالكوفة بعيداً إلا أتيته ولو مشياً». رواه الدارمي (٤٩٦).

وعن عفان المحاربي عن أبيه قال سمعت **ابن مسعود** يقول: «إن ناساً يسمعون كلامي ثم ينطلقون فيكتبونه، وإني لا أحل لأحد أن يكتب إلا كتاب الله». (رواه الدارمي/ ٤٩٧). (يعني: القرآن والحديث).

عن عمرو بن قيس قال : وفدت مع أبي إلىٰ يزيد بن معاوية بحوارين حين توفي معاوية .. فإذا رجل في مسجدها يقول:... ألا إن من أشراط الساعة أن تتلىٰ المثناة فلا يوجد من يغيرها قيل له: وما المثناة؟.

قال: ما استكتب من كتاب غير القرآن فعليكم بالقرآن فبه هديتم، وبه تجزون، وعنه تسألون.

فلم أدرِ مَن الرجل فحدثتُ هذا الحديثَ بعد ذلك بحمص فقال لي رجل من القوم أو ما تعرفه؟ قلت: لا قال: **ذلك عبد الله بن عمرو**. رواه الدارمي (٤٩٣).

(٢٨٩) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٦١١)، وهو مخرج في الشريعة بتحقيقي.

فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَاللهِ لَآتِيَنَّهُمْ: **بِحَدِيثٍ لَا يَجِدُونَهُ فِي كِتَابِ اللهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَلَمْ يَسْمَعُوهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَعَلِّي أُتَّبَعُ قَالَ مُعَاذٌ: فَإِيَّاكُمْ وَمَا جَاءَ بِهِ فَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ ضَلَالَةٌ»**(٢٩٠).

وقد قام **معاوية** رضي الله عنه خطيباً فقال: «أما بعد: فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله، ولا تؤثر عن رسول الله ﷺ وأولئك جهالكم، **وإياكم والأماني التي تضل أهلها**»(٢٩١).

وعن الشعبي: وأتىٰ قوم **زيدَ بن ثابت** فَسَأَلُوهُ عَن أَشْيَاء فَأَخْبرهُم بهَا وكتبوها ثمَّ قَالُوا: لَو أخبرناه قَالَ: فَأتوهُ فأخبروه فَقَالَ: «أعذرًا لَعَلَّ كل شَيْء حدثتكم بِهِ خطأ إِنَّمَا اجتهدت لكم رَأْيِي»(٢٩٢).

فهذا سبيل أهل الكتاب من قبلنا كما قال **أبوموسىٰ**: «**إن بني إسرائيل كتبوا كتاباً فتبعوه وتركوا التوراة**». (إسناده صحيح: رواه الدارمي/ ٤٩٦).

علق الشيخ العلامة الألباني رحمه الله: «**وما أشبه حال أكثر المسلمين اليوم بمن قبلهم، فقد تركوا القرآن والحديث إلىٰ آراء العلماء، وأقاموها مقامها، فيعيش الرجل المتفقه منهم دهراً طويلاً، وهو لا يعلم أدلة الكتاب والسنة، وإن علمها فهو لا يتبعها، ويؤثر عليها الآراء، ثم نحن نطمع أن ينصرنا الله علىٰ أهل التوراة، ونحن نحذوا حذوهم فهيهات هيهات**»(٢٩٣).

وعَن عَمْرو بن دِينَار قَالَ قيل **لجَابِر بن زيد**: إنهم يَكْتُبُونَ مَا يسمعُونَ مِنْك قَالَ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون يَكْتُبُونَ رَأيًا أرجع عَنهُ غَدًا(٢٩٤).

وعَن يحيىٰ بن سعيد قَالَ جَاءَ رجل إِلَىٰ **سعيد بن الْمسيب** فَسَأَلَهُ عَن شَيْء فأملاه عَلَيْهِ ثمَّ سَأَلَهُ عَن رَأْيه فَأَجَابَهُ فَكتب الرجل فَقَالَ رجل من جلساء سعيد: أنكتب يَا أَبَا مُحَمَّد رَأْيك فَقَالَ

---

(٢٩٠) **صحيح**: رواه الدارمي (٢٠٥).

(٢٩١) **رواه البخاري** (٧١٣٩)..

(٢٩٢) **صحيح**: رواه ابن أبي شيبة (٢٨١٣٩) ينحوه وصححه الشثري حفظه الله.

(٢٩٣) **صحيح الجامع** (١/ ٤٠٩).

(٢٩٤) **صحيح**: رواه ابن عبدالبر (٢٠٧٠) وفيه سنيد وهو ضعيف، لكنه توبع، ورواه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ١٤)، وابن سعد في طبقاته (٧/ ١٨١).

سعيد للرجل: ناولنيها فَنَاوَلَهُ الصَّحِيفَة فحرقها[٢٩٥].

انظر أخي القارئ إلىٰ ما قاله ابن الجوزي وهو ينقل عن **الإمام أحمد** أنه: "كان يكره وضع الكتب التي تشتمل علىٰ التفريع والرأي ويحب التمسك بالآثار». مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٢).

وفي رواية: أن رجلاً سأل **أحمد بن حنبل** أكتب كتب الرأي[٢٩٦]؟.قال: لا، قال فابن المبارك قد كتبها؟ قال: «ابن المبارك لم ينْزل من السماء، إنما أمرنا أن نأخذ العلم من فوق».

مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٤).

وقال **ابن حزم**: وروي أن **مالكًا** أفتىٰ في مسألة في طلاق البتة: أنها ثلاث، فنظر إلىٰ أشهب قد كتبها، فقال: أمحها، أنا كلما قلتُ قولاً جعلتموه قرآنًا؟!، وما يدريك لعلي سأرجع عنها غداً، فأقول: هي واحدة. وقال **الفضل بن زياد**: سألت: **أحمد بن حنبل** عن الكرابيسي[٢٩٧] وما أظهر؟

---

(٢٩٥) **صحيح**: رواه الخلال في العلم ()، ابن عبد البر جامع بيان العلم من طريق الخلال (ح٢٠٧٥).

(٢٩٦) قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "إن المتقدمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، **ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)**".(الفتاوىٰ١٨/ ٧٤، ٧٥)، قلت: يعني التي تُعنَىٰ بتشقيق المسائل، ويقل فيها الدليل أو ينعدم أحيانًا، ولا يبالي أصحابها إلا بحكاية المذهب، والاستدلال له بأي دليل ولو كان ضعيفًا.

(٢٩٧) حسين الكرابيسي كان من بحور العلم فقيه بغداد، تفقه بالشافعي مات (٢٤٨هـ) كما قال الذهبي رحمه الله (السير١٢/ ٧٩)، وإنما تكلم فيه لأجل الرأي وقلة العناية بالأثر.

عَنْ أَبِي ثَوْرٍ، قَالَ: «لَمَّا وَرَدَ الشَّافِعِيُّ الْعِرَاقَ جَاءَنِي حُسَيْنٌ الْكَرَابِيسِيُّ - وَكَانَ يَخْتَلِفُ مَعِي إِلَىٰ أَصْحَابِ الرَّأْيِ» - فَقَالَ: قَدْ وَرَدَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَتَفَقَّهُ، فَقُمْ بِنَا نَسْخَرُ بِهِ. «فَذَهَبْنَا حَتَّىٰ دَخَلْنَا عَلَيْهِ فَسَأَلَهُ الْحُسَيْنُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَلَمْ يَزَلِ الشَّافِعِيُّ يَقُولُ قَالَ اللهُ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ حَتَّىٰ أَظْلِمَ عَلَيْنَا الْبَيْتُ فَتَرَكْتنَا بِدْعَتَنَا، وَاتَّبَعْنَاهُ» الحلية (٩/ ١٠٣).

وكانوا لا يحبون أن يجلسوا لأهل الرأي فعن جعفر الفريابي يقول دخلت جرجان فكتبت عن العصار والسباك وموسىٰ بن السندي فقيل لي يا أبا بكر وإبراهيم بن موسىٰ الوزدولي قال نعم كان يحدث هناك ولم اكتب عنه لأني كنت لا أكتب عن أصحاب الرأي وإبراهيم كان شيخ أصحاب الرأي وله ابن من أصحاب الحديث يقال له إسحاق صنف الكتب والسنن مستقيم الحديث وحدث بمصنفاته. الكامل لابن عدي (١/ ٢٧٢).

وَقَالَ **أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ**: «ما كَانَ يضع الأنصاريَّ عند أصحاب الحديث إلّا النَّظرُ في الرأي. وأمّا السّماع فقد

فكلح وجهه، ثم قال: **إنما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها، وتركوا آثار رسول الله ﷺ، وأصحابه، وأقبلوا علىٰ هذه الكتب**». صحيح: رواه يعقوب الفسوي في"المعرفة والتاريخ" (٣/ ٤٩٤).

وقال الإمام **ابن القيم**: «وإنما كره أحمد ذلك ومنع منه، لما فيه الاشتغال به والإعراض عن القرآن والسنة فإذا كانت الكتب متضمنة لنصر القرآن والسنة الذب عنهما، وكتب إبطال الآراء والمذاهب المخالفة لهما فلا بأس بها، وقد تكون واجبة ومستحبة ومباحة، بحسب اقتضاء الحال»(٢٩٨).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان الصحابة ينهون عن اتباع كتب غير القرآن، وعمر انتفع بوصية النبي ﷺ له: حتىٰ أنه لما فتحت الإسكندرية وجد فيها كتباً كثيرة من كتب الروم فكتبوا فيها إلىٰ **عمر** فأمر بها أن تحرق، وقال: «حسبنا كتاب الله».

وقال إسماعيل ابن علية، قال **ابن عون**: «أحسب أو أرىٰ يكون لهذه الكتب غب سوء». قال إسماعيل: «إنما كرهوا الكتاب، لأن من كان قبلكم اتخذوا الكتب، فأُعجبوا بها، فكانوا يكرهون أن يشتغلوا بها عن القرآن». تقييد العلم للخطيب (ص٥٧).

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد قرَّب جماعةٌ للطلبة وألَّفوا كتباً مجردة عن الأدلة، فيقرأ طالب العلم ذلك الكتابَ، ثم ترسم معانيه وقواعده عنده ويجزم أنها الحق، فتراه يتعصَّب مع أهل تلك المقالة جزافاً، وربما اعترض من خالف تلك المقالة التي تخيل له أنها الصوابُ، وربما اجتمع طالبا علم كلٌّ واحدٍ قد أخذ عن أهل بلده كتاباً مجرداً عن الأدلة وخاصم الآخر من دون نظر إلىٰ دليل، ولا إلىٰ أنَّ أهلَ الفنِّ حرَّموا التقليدَ فيقع من هذا ضررٌ عظيمٌ ... وأكثر من يدَّعي العلم ويأخذ عن العلماء مَن هو بهذه المثابة، ومن هنا تأسست العداوات، وترىٰ العالمَ إنما يتطلب الدليل ليشيد أركان مقاله لا ليتبع الحق به، وهذا خللٌ عظيم، وهم في هذه الورطة العظيمة إلا من عصمه الله وقليل ما هم». (مزالق الأصوليين/ ص٦٣).

والله لقد كان أن انشغل كثير من طلاب العلم، بحفظ المتون بلا أدلة، وعكفوا علىٰ كتب المذاهب والحواشي والتقريرات والشروح، وتركوا كتاب الله عز وجل، وسنة النبي ﷺ، فلا

سَمِعَ». تاريخ الإسلام (١٥/ ٢١٨).

(٢٩٨) هداية الأريب الأمجد (ص٣٩)، (الطرق الحكمية/ ص٤٠٢)..

تكاد تجد من يتفقه فيهما، ويقرأ تفسير القرآن بالمأثور، والحديث وشروحه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال **العلامة محمد تقي الدين الهلالي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أيها القارئ الموفق والمستمع أن التمذهب كله شر وبدعة من أقبح البدع وحسب أهله ضلالا أنهم تفرقوا في دينهم وليسوا من الله في شيء والواجب علىٰ كل مسلم أن يكون في أمور الدين كما كان أصحاب رسول الله ﷺ إمام واحد ودين واحد وأمة واحدة وإله واحد لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون لا مذاهب لا طرائق متصوفة لا أحزاب سياسية وحسبنا حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون». سبيل الرشاد (٣/ ١١٢).

قلت: ويدخل في هذا كتب الرأي المجردة عن الدليل، والكتب الثقافية، والفكرية، والسلوك، والمنطق، والفلسفة، والأوراد ونحوها مما لم يرد في الكتاب والسنة، وانشغل الناس به عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، بل وبعضها يتلىٰ لديهم مثل القرآن أو أعظم ككتاب: «دلائل الخيرات» فقد رأيت من يظل تاليًا له طول اليوم!!.

وإذا كان هذا في كتب فيها بعض الأدلة، فكيف بمن اتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس، واعتمد في جُلِّ ما يقول علىٰ الصحف والمجلات، **فكتب ما يسمىٰ بالكتب الفكرية، أو الكتب الحركية وعكف عليها** وأعرض عن التفقه في نصوص الكتاب والسنة، ومن ذلك كتب الرقائق التي لم تبن علىٰ طريقة السلف.

عوائق في وجه الاتباع

تقدم ما تيسر من الكلام المختصر علىٰ وجوب الاتباع وأهميته وثماره فيما مضىٰ، ومما ينبغي أن يُعْلَم أن الصد عن السنة واتباعها هو من الصدِّ عن سبيل الله تعالىٰ الذي كان الكفار يقومون به، ويسعون فيه كما قال عز وجل: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (النساء/ ٥٤: ٥٥).

وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾(الأنفال/ ٤٦: ٤٧).

فإذا كان الراد للسنة وتارك اتباعها علىٰ شفا هلكة فكيف بالصاد عنها؟! قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾(الأنعام/ ٢٥: ٢٦).

ولم يقف الأمر إلىٰ حد صد الكفار والمشركين عن سبيل الله، واتباع السنة، بل تعدّىٰ ذلك أيضاً غيرهم من المنافقين والمنافقات، والذين تشبهوا بهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾(النساء/ ٦١)، فكل من أعرض عن السنة والحديث، وحاول إبعاد الناس عن الحديث، قراءة وحفظاً، ودراسة وفقهاً، وصد عن ذلك بأي نوع من أنواع الصدود، أو وضع عوائق وحواجز دون ذلك، فله نصيب من ذلك، وله شبه بالمنافقين علم أو لم يعلم، قصد أو لم يقصد، وقد بقي الكلام عن بعض العوائق المشهورة، كي يحذر الناس هذه السبل الوخيمة، والطرق المعوجة، والتي تحول دون اتِّباع النبيِّ ﷺ، والأمور التي صدت الناس عن السنة والحديث والأثر كثيرة فمن ذلك:

١ - الرأي:

قد وردت نصوص كثيرة تدعو إلىٰ التمسك بالسنة، وعدم معارضتها بشيء من الرأي والعقل والهوىٰ، أو الذوق والوجد، أو العادات والتقاليد والأعراف، مع النهي عن الخوض في شئ من الدين بغير علم ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(الإسراء/ ٣٦)، وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(الأنعام/ ٧١). قال **قتادة**: "خصومة علمها الله محمداً ﷺ، وأصحابه، يخاصمون بها أهلَ الضلالة". (إسناده صحيح): رواه ابن جرير في "تفسيره" (٧/ ١٥٤) وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الله لا يَنْزِع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقىٰ ناس جهَّال يُسْتَفْتون فيُفتون برأيهم فيضلون ويَضلون»**.(متفق عليه) وقال **سهل بن حُنَيف** رضي الله عنه: "يا أيها الناس اتهموا رأيكم علىٰ دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر

رسول الله ﷺ لرددته...". (متفق عليه)

وقال **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: "لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولىٰ بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح علىٰ ظاهر خفيه". **صحيح**: رواه أبوداود (١/ ٢٧٨) وصححه شيخنا في (الإرواء ١٠٣).

وقال **ابن مسعود**: "ليس عام إلا الذي بعده شر منه، لا أقول عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب العلماء، **ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام**"(٢٩٩).

وقال **الشاطبي**: "إن الرأي من حيث هو رأي لا ينضبط إلىٰ قانون شرعي إذا لم يكن له أصل شرعي، فإن العقول تستحسن ما لا يُسْتَحْسَن شرعـًا، وتستقبحُ ما لا يُسْتَقبحُ شرعـًا، وإذا كان كذلك، صار القياس علىٰ غير أصل فتنة علىٰ الناس". [الاعتصام للشاطبي تحقيق الهلالي (٢/ ٧٩٥)]

وكان من نتيجة ذلك أن كان التكلف والتنطع والسؤال عما لم يقع والانشغال به، والخصام فيه، وترك التفقه في أصول العلم مما جاءت به النصوص، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ﴾(ص/ ٨٦)، فأخذ كثيرون في البحث عن المسائل وتشقيقها والتنقير عما لم يأت به نص صريح، وإعمال العقل، والحكم علىٰ المسائل بالرأي، وترك ما جاء بيانه واضحـًا في الكتاب والسنة، واعلم أن تشقيق المسائل، وكثرة التفريع ليس من الفقه في شئ.

سأل رجل **ابن عمر** رضي الله عنهما عن استلام الحجر فقال: رأيت رسول الله ﷺ يستلِمَهُ ويقبِّلَهُ، قال: أرأيت إن زحمتُ، أرأيتَ إن غُلِبتُ؟ قال: "اجعل أرأيت باليمن، رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله"،(رواه البخاري/ ١٦١٢) وفي **رواية**: "اجعل أرأيت عند ذاك الكوكب". رواه أبوداود الطيالسي،والطبراني (١٣٠٥٨)، فرحم الله **ابنَ أبي داود** إذ قال في حائيته:

---

(٢٩٩) **صحيح لغيره**: رواه الدارمي (ح١٨٨)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٤٨٣)، والفتح (١٣/ ٢٩٦)، **وحسن إسناده الحافظ** في "الفتح" (١٣/ ٢٣)!!.**قلت**: مدار إسناده علىٰ مجالد وهو ابن سعيد وهو: "ضعيف"، قال عنه الحافظ نفسه: "ليس بالقوي، وتغير في آخر عمره" (التقريب). **ورواه** البيهقي (٣/ ٣٦٣)، مقتصراً منه علىٰ شطره الأول، كما يشهد لأوله حديث أنس مرفوعـًا عند الترمذي (ح٢٢٠٧)، وهو في "الصحيحة" (ح١٢١٨)، ورواه البخاري في "صحيحه" بمعناه (٧٠٦٨)، **وله طريق أخرىٰ** عن ابن مسعود ذكرها الحافظ (١٣/ ٢٣).

ودع عنك آراء الرجال وقولهم فقول رسول الله أزكىٰ وأشرح.

وقَالَ **عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ**: اجْتَمَعَ سُفْيَانُ وَابْنُ جُرَيْجٍ فَتَذَاكَرَا مَسَّ الذَّكَرِ، فَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : يُتَوَضَّأُ مِنْهُ، وَقَالَ سُفْيَانُ: لاَ يُتَوَضَّأُ مِنْهُ. فَقَالَ سُفْيَانُ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَمْسَكَ بِيَدِهِ مَنِيًّا مَا كَانَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : يَغْسِلُ يَدَهُ. قَالَ: فَأَيُّهُمَا أَكْبَرُ الْمَنِيُّ أَوْ مَسُّ الذَّكَرِ؟ فَقَالَ : مَا أَلْقَاهَا عَلَىٰ لِسَانِكَ إِلاَّ الشَّيْطَانُ.

قَالَ **البيهقي**: وَإِنَّمَا أَرَادَ ابْنُ جُرَيْجٍ أَنَّ السُّنَّةَ لاَ تُعَارَضُ بِالْقِيَاسِ. (سنن البيهقي الكبرىٰ/ ٦٦٦).

وقال قوَّام السنة **أبو القاسم الأصبهاني**: "ما برح من أدركنا من أهل الفضل والفقه من خيار أولية الناس يعيبون أهل الجدل والتنقيب، **ويعيبون الأخذ بالرأي أشد العيب**، وينهونا عن لقائهم ومجالستهم ويحذرونا مقاربتهم أشد التحذير، وما توفي رسول الله ﷺ حتىٰ كره المسائل والتنقيب والبحث عن الأمور وزجر عن ذلك وحذره المسلمين في غير موطن، حتىٰ كان من قوله ﷺ في كراهية ذلك أن قال:«**ذروني ما تركتكم فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم**»، فأي أمر أكف لمن يعقل عن التنقيب من هذا. [**صحيح**: رواه الآجري في "الشريعة" (ح١٣٠)، وهو في الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٨٥)].

وقال **ابن حزم** رحمه الله: « الصحابة ... كلهم يتبرأ من الرأي ويذمه، ، ويحذِّر منه، وينهىٰ عن التدين به ، ... ولا أن أحداً منهم صحح القول بالرأي وأثبته، بخلاف ما عليه هؤلاء الذين جعلوا رأي أبي حنيفة ومالك ديناً، يتركون له القرآن والسنة، ويضللون من خالفه واتبع القرآن والسنة، وما مضىٰ عليه الصحابة والتابعون.... ولا نزاع عند كل مسلم أن الدين الذي هو الشرع اللازم لكل مسلم، لا تخيير في قبوله، ولا في لزومه، فلا خيار يومئذ في الدين، والدين كله واجب أخذه، وصح أن الرأي ليس من الدين، فإذ ليس هو من الدين، والدين من عند الله فليس الرأي من عند الله، وهذا واضح لمن نصح نفسَهُ، ولعمري إن الرأي ليس من الدين في شئ وإنما هو: وهلة فاضل، وزلة عالم ممن سلف، وبدعة مقلِّد من خَلَفَ فقط، .... فهؤلاء التابعون، كلهم يذم الرأي ولا يوجب اتباعه، ولا سبيل إلىٰ أن يؤجد أحد من التابعين أنه جعلَ الرأي ديناً، فضلل

من خالفه كما يفعل هؤلاء، وصح أنهم قد خرقوا الإجماع في ذلك بلا شك». (الصادع لابن حزم/ ص٦٠٣: ٦١٣ مختصراً).

مساوئ المذهبية وكتبها

إن المتأمل في كتب الرأي (الكتب المذهبية الفقهية)، ليجد فيها من المساوئ الكثيرة، حيث إنها السبب المباشر في انتشار التقليد الأعمىٰ، وفشو الجهل، والتعصب المذهبي، وكان لها أكبر الأثر في ضياع العلم، حتىٰ لا تكاد تجد مجتهدًا، هذا مع موت وذهاب العلماء ، فلم تعد الأمة تنتج علماء أفذاذ، ولم يخرج منها إلا القليل جداً ممن تحرر من المذهبية المقيتة.

فما أعلم أن بدعة نخرت في جسد الأمة، وأضاعت من تعاليم الإسلام وسماحته ونوره وبهائه، وأذهبت من رونقه وبريقه كهذه البدعة الشنيعة، بل ولا أضر علىٰ الفقه الإسلامي الحر النزيه من بدعة المذهبية، فهي التي أبعدت الناس عن الكتاب والسنة، وآثار الصحابة رضي الله عنهم.

وسبق أن تكلمنا عن كتب الرأي ولذلك وجدنا تحذيرات أهل العلم قديماً وحديثًا منها، ونذكر بعون الله شيئًا من مساوئها.

١ - مخالفة النصوص الثابتة من الكتاب والسنة تعصبًا للمذهب، وتقديم الرأي المحض أحيانًا عليها.

مثال: قال صاحب "الهداية" عند الحديث عن موقف الإمام في الصلاة علىٰ الجنازة: "ويقوم الذي يصلي علىٰ الرجل والمرأة بحذاء الصدر، قال: لأنه موضع القلب، وفيه نور الإيمان، فيكون القيام عنده إشارة إلىٰ الشفاعة لإيمانه"،

قال هذا مع ذكره لحديث أبي غالب الخيَّاط قال: "شهدت أنس بن مالك صلّىٰ علىٰ جنازة رجل، فقام عند رأسه فلما رَفَعَ، أُتِي بجنازة امرأة من قريش أو من الأمصار، فقيل له: يا أبا حمزة هذه جنازة فلانة ابنة فلان فصلّ عليها، فصلّىٰ عليها، فقام وسْطها، -وفي رواية: عند عَجِيزتِها، وعليها نعش أخضر- وفينا العلاء بن زياد العدوي، فلما رأىٰ اختلاف قيامه علىٰ الرجل والمرأة قال: يا أبا حمزة هكذا كان رسول الله ﷺ يقوم حيث قمتَ، ومن المرأة حيث قمتَ؟.

قال: نعم، قال: فالتفتَ إلينا العلاء فقال: احفظوا»[٣٠٠].

---

(٣٠٠) **صحيح:** ينظر تخريجه في (أحكام الجنائز/ ص١٣٩).

ينظر ما قاله العلامة أحمد الدهلوي في (تاريخ أهل الحديث) (ص٨٩).

وقد جمع **تقي الدين ابن دقيق العيد**، المسائل التي خالف مذهب كل واحد من الأئمة الأربعة، الحديث الصحيح انفراداً واجتماعاً، في مجلد ضخم، وذكر في أوله أن نسبة هذه المسائل إلىٰ الأئمة المجتهدين حرام، وأنه يجب علىٰ الفقهاء المقلدين لهم معرفتها، لئلا يعزوها إليهم فيكذبوا عليهم.

٢- حط بعضهم من الصحابة والسلف، انتصاراً وتعصباً لمذهبهم:

وفي حديث المصراة، **قال الحافظ ابن حجر**: "واعتذر الحنفية عن الأخذ بحديث المصراة بأعذار شتىٰ: فمنهم من طعن في الحديث لكونه من رواية أبي هريرة، قال: وهو كلام آذىٰ قائلُهُ به نفسَهُ، وفي حكايته غنىً عن تكلفِ الردِ عليه، -**ثم قال**-: **قال**: ابن السمعاني في "الاصطلام": التعرض لجانب الصحابة علامةٌ علىٰ خذلانِ فاعله، بل هو بدعة ضلالة"[٣٠١].

ومن ذلك ما قاله الكوثري: من الطعن في أنس[٣٠٢]، وابن عباس وأبي هريرة[٣٠٣] وغيرهم من الصحابة، بل قال برد مرسل الصحابة[٣٠٤]، حتىٰ قال في "النكت" (ص٥٧)،في إبطال أحاديث الصحيحين المتفق عليها عن جماعة من الصحابة قال كل منهم: "أتىٰ النبي ﷺ رجل فقال: حلقت قبل أن أذبح، فقال: اذبح ولا حرج، قال ذبحت قبل أن أرمي قال: ارم ولا حرج"

قال ما نصه: "أقول: إن هؤلاء السائلين مجاهيل في هذه الروايات، وفي الروايات المدونة في الصحاح، والسنن، وليس بينهم أحد من مشاهير الصحابة رضي الله عنهم".

قال الغماري معلقاً عليه: "فهذا أقسىٰ ما يكون من الوقاحةِ، والإجرام، وقلةِ الحياءِ، وقلةِ الدينِ، وصَفاقةِ الوجهِ، وانخرامِ المروءةِ، وهذا أكبر دليل علىٰ أنه شيطانٌ بُعِثَ ليتلاعبَ بدينِ الإسلامِ، وهو أوضحُ برهانٍ علىٰ صدقِ ما قلناه مراراً من أنه علىٰ استعدادٍ للكفرِ بالنبي ﷺ ولردِّ

---

(٣٠١) فتح الباري (٤/ ٤٢٧).
(٣٠٢) التنكيل (٢/ ١٥).
(٣٠٣) بيان تلبيس المفتري (ص٦٢).
(٣٠٤) المصدر السابق (ص٩٦).

قولِهِ لو شافهَهُ بخطأ أبي حنيفة"[٣٠٥].

سبق معنا ما قاله **شيخ الإسلام**: «فِي الْمُتَفَقِّهَةِ مَنْ قَالَ: أَبُو حَنِيفَةَ أَفْقَهُ مِنْ عَلِيٍّ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ يُقَلِّدُ الشَّافِعِيُّ وَلَا يُقَلِّدُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَيَتَمَسَّكُونَ تَارَةً بِشُبَهِ عَقْلِيَّةٍ أَوْ ذَوْقِيَّةٍ مِنْ جِهَةِ أَنَّ مُتَأَخِّرِي كُلِّ فَنٍّ يَحْكُمُونَهُ أَكْثَرَ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ»[٣٠٦].

٣- امتلآء كتبهم بالأحاديث الضعيفة بله الموضوعة، والاحتجاج بها، واستنباط الأحكام منها، مع إجماعهم علىٰ عدم جواز الأخذ بالضعيف في الأحكام.

والأمثلة علىٰ هذا كثيرة جداً، لا تكاد تحصىٰ كثرة، ومع ذلك فإن التعصب المذهبي جعلهم لا ينتفعون ويستفيدون من محدثي مذهبهم فضلاً عن غيرهم[٣٠٧].

---

(٣٠٥) بيان تلبيس المفتري محمد زاهد الكوثري أو رد الكوثري علىٰ الكوثري (ص١٢٤).

(٣٠٦) **وقال شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: عن حديث أنس: «البيهقي رآه أهل العلم لا يستوفي الآثار التي لمخالفيه، كما يستوفي الآثار التي له، وأنه يحتج بآثار لو احتج بها مخالفوه لأظهر ضعفها وقدح فيها، وإنما أوقعه في هذا -مع علمه ودينه- ما أوقع أمثاله ممن يريد أن يجعل آثار النبي ﷺ موافقة لقول واحد من العلماء دون الآخر، فمن سلك هذه السبيل دُحِضَتْ حُجَجُهُ، وظهر عليه نوع من التعصب بغير الحق، كما يفعل ذلك من يجمع الآثار ويتأولها في كثير من المواضع بتأويلات يبين فسادها لتوافق القول الذي ينصره، كما يفعله صاحب شرح الآثار أبوجعفر -أي: الطحاوي-، مع أنه يروي من الآثار أكثر مما يروي البيهقي، لكن البيهقي ينقي الآثار، ويميز بين صحيحها وسقيمها أكثر من الطحاوي». مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٣٦٦).

(٣٠٧) **قد يقول قائل**: كيف تقول هذا وقد وجد في كل مذهب محدثون، حققوا أحاديث مذهبهم، كما فعل الزيلعي، وابن حجر وغيرهما.

والجواب: هذا صحيح، ولكن هناك أمران:

الأول: أن الفقهاء المتأخرين لم يعملوا بما بينه لهم المحدثون من أهل مذهبهم، ولم يستفيدوا من دراستهم الحديثية واستمروا في الاعتماد علىٰ تلك الأحاديث الساقطة، تعصباً لما درجوا عليه، ولعدمهم اكتراثهم واهتمامهم بالنصوص.

الثاني: أن بعض هؤلاء المحدثين كانت العصبية للمذهب تتدخل في تحقيقاتهم، فلا يحكم علىٰ الحديث الحكم الذي تستحقه دون ما تعصب، فقد يصحح الضعيف، ويضعف الصحيح انتصاراً لمذهبه أحياناً.

فقد يكيل بمكيالين وغالباً لا يحمله علىٰ ذلك غير التعصب للمذهب، ومحبة نصرته بكل ما أُتي من قوة وحجة، ولو كانت واهية، أو غيرها أقوىٰ منها.

ويكفي في بيان العصبية، أن الزيلعي يطلق: "**أحاديث الخصوم**"، علىٰ أحاديث المخالفين له في المذهب.

أمثلة: حديث: "النبيذ وضوء من لم يجد الماء" رويت موقوفة ومرفوعة **قال النووي**: "**وكلها ضعيفة واهية**".

حديث: "لا بأس بجلد الميتة إذ دبغ، ولا بشعرها إذا غسل"، قال **النووي**: "**ضعيف باتفاق الحفاظ**".

حديث: "يجزئ من السواك الأصابع"، قال النووي: "ضعيف، ضعفه البيهقي وغيره".

حديث: "بدأ بمسبحته اليمنىٰ وختم بإبهامه اليمنىٰ، وابتدأ في اليسرىٰ بالخنصر إلىٰ الإبهام، يعني: في تقليم الأظفار"، قال **النووي**: "**باطل لا أصل له**".

حديث: "إنا لا نستعين علىٰ الوضوء"، قال **النووي**: "**باطل لا أصل له**".

وضع الحديث انتصاراً للمذهب

بل وضعوا الأحاديث انتصاراً لمذهبهم ومن ذلك:

لما قيل لمحمد بن عكاشة الكرماني: إن قومًا يرفعون أيديهم في الركوع، وفي الرفع فيه؛ فقال: حدثنا المسيب بن واضح عن أنس مرفوعًا: "من رفع يديه في الركوع؛ فلا صلاة له" حديث أخرجه ابن الجوزي في (الموضوعات) قال الشوكاني: رواه الجوزقاني عن أنس مرفوعًا، وهو موضوع، والمتهم به محمد بن عكاشة الكرماني.

ومن أمثلة ما وضعوه في هذا المجال حديث: "يكون في أمتي رجل يقال له النعمان بن ثابت يكنىٰ أبو حنيفة، يحيي الله علىٰ يديه ديني، وسنتي" (تدريب الراوي).

ومن ذلك أيضًا ما وضعوه في منقبة أبي حنيفة النعمان، ومن ذمٍّ للشافعي، كحديث: "يكون في أمتي رجل يقال له: محمد بن إدريس أضر علىٰ أمتي من إبليس، ويكون في أمتي رجل يقال له: أبوحنيفة، وهو سراج أمتي هو سراج أمتي". انظر: (تدريب الراوي) للسيوطي

وهكذا كان للتعصب المذهبي أثره السيئ علىٰ الإسلام وأهله؛ حيث يكذب، وينسب أحاديث مكذوبة، ويرفعها كذبًا انتصارًا لمذهبه.

٤- تقديم أقوال العلماء المتأخرين علىٰ أقوال الأئمة المتقدمين بله والصحابة والتابعين.

قال **الشيخ حمد بن ناصر بن معمر** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: «والمتعصبون لمذاهب الأئمة تجدهم في أكثر المسائل قد خالفوا نصوص أئمتهم، واتبعوا أقوال المتأخرين من أهل مذهبهم، فهم يحرصون علىٰ ما قاله الآخر، فالآخر; وكلما تأخر الرجل أخذوا بكلامه، وهجروا أو كادوا يهجرون كلام من فوقه; فأهل كل عصر إنما يقضون بقول الأدنىٰ فالأدنىٰ إليهم، وكلما بعد العهد، ازداد كلام المتقدمين هجراً ورغبة عنه، حتىٰ إن كتب المتقدمين لا تكاد توجد عندهم، فإن وقعت في أيديهم، فهي مهجورة.

فالحنابلة قد اعتمدوا علىٰ ما في «الإقناع، والمنتهىٰ»، ولا ينظرون فيما سواهما، ومن خالف مذهب المتأخرين، فهو عندهم مخالف لمذهب أحمد، رَحِمَهُ اللَّهُ، مع أن كثيراً من المسائل التي جزم بها المتأخرون مخالفة لنصوص أحمد، يعرف ذلك من عرفه، وتجد كتب المتقدمين من أصحاب أحمد مهجورة عندهم؛ بل قد هجروا كتب المتوسطين، ولم يعتمدوا إلا علىٰ كتب المتأخرين.

فـــ"المغني" و"الشرح" و"الإنصاف" و"الفروع" ونحو هذه الكتب، التي يذكر فيها أهلها خلاف الأئمة، أو خلاف الأصحاب، لا ينظرون فيها؛ فهؤلاء في الحقيقة أتباع الحجاوي وابن النجار، لا أتباع الإمام أحمد.

وكذلك **متأخرو الشافعية**، هم في الحقيقة أتباع ابن حجر الهيتمي صاحب "التحفة" وأضرابه من شراح المنهاج؛ فما خالف ذلك من نصوص الشافعي، لا يعبؤون به شيئاً.

وكذلك **متأخرو المالكية**، هم في الحقيقة: أتباع خليل، فلا يعبؤون بما خالف مختصر خليل شيئاً، ولو وجدوا حديثاً ثابتاً في الصحيحين، لم يعملوا به إذا خالف المذهب، وقالوا: الإمام الفلاني أعلم منا بهذا الحديث، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (سورة المؤمنون آية/ ٥٣)؛ وكل أهل مذهب اعتمدوا علىٰ كتب متأخريهم، فلا يرجعون إلا إليها، ولا يعتمدون إلا عليها.

وأما كتب الحديث، كالأمهات الست، وغيرها من كتب الحديث، وشروحها، وكتب الفقه الكبار، التي يذكر فيها خلاف الأئمة وأقوال الصحابة والتابعين، فهي عندهم مهجورة، بل

هي في الخزانة مسطورة، للتبرك بها لا للعمل. الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ٢٧)

وقال **العلامة الفلاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: فَهَذِهِ الْأَحَادِيث والْآثَار مصرحة بِأَن اسْم الْعلم إِنَّمَا يُطلق علىٰ مَا فِي كتاب الله وَسنة رَسُول الله ﷺ وَالْإِجْمَاع أَو مَا قيس علىٰ هَذِه الْأُصُول عِنْد فقد نَص علىٰ ذَلِك عِنْد من يرىٰ ذَلِك لَا علىٰ مَا لهج بِهِ أهل التَّقْلِيد والعصبية من حصرهم الْعلم علىٰ مَا دُوِّن من كتب الرَّأْي المذهبية مَعَ مصادمة بعض ذَلِك لنصوص الْأَحَادِيث النَّبَوِيَّة.

وَقد قَالَ **الشّعبِيّ**: «وَمَا قَالُوا فِيهِ برأيهم فَبل عَلَيْهِ» وَهَذَا فِي عصر التَّابِعين الَّذين شهد لَهُم سيد الْمُرْسلين ﷺ بالخيرية فَمَا بالك بِرَأْي أهل الْقرن الثَّالِث عشر الَّذين جعلُوا دينهم الحمية والعصبية وانحصروا علىٰ طوائف فطائفة مِنْهُم خليليون ادعوا أَن جَمِيع مَا أنزل علىٰ مُحَمَّدﷺ مَحْصُور فِي «مُخْتَصر خَلِيل» ونزلوه منزلَة كتاب الله الْعَزِيز الْجَلِيل فصاروا يتبعُون مَفْهُومه ومنطوقه وكل دَقِيق فِيهِ وجليل.

وَطَائِفَة مِنْهُم كنزيون أَو دريون ادعوا أَن مَا فِي هذَيْن الْكِتَابَيْنِ هُوَ الْعلم وأنهما معصومان من الْخَطَأ وَالوهم فَإِن شَذَّ شَيْء عَن هذَيْن من علم فالعمدة علىٰ مَا فِي الأسعدية والخيرية وَمَا فِي هَذِه الْكتب عِنْد عُلَمَائهمْ مقدَّم فِي الْعَمَل عل مَا نزل بِهِ جِبْرِيل علىٰ خير الْبَرِيَّة عَلَيْهِم الصَّلَوَات والتسليمات والبركات وعَلىٰ من تَبِعَهُمْ.

وَطَائِفَة مِنْهُم منهجيون أَو مِنهاجيون فيبحثون عَن منطوقهما ومفهومهما وَبِمَا فيهمَا يتعبدون فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون». (إيقاظ همم أولي الأبصار/ ص)

ولا شك في أن كتب المتقدمين أنفع وأولىٰ، وأقعد وأهنأ من كتب المتأخرين، قال **الشاطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فينبغي) أَنْ يَتَحَرَّىٰ كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فَإِنَّهُمْ أَقْعَدُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَأَصْلُ ذَلِكَ التَّجْرِبَةُ وَالْخَبَرُ.

أَمَّا **التَّجْرِبَة**: فَهُوَ أَمْرٌ مُشَاهَدٌ فِي أَيِّ عِلْمٍ كَانَ، فَالْمُتَأَخِّرُ لَا يَبْلُغُ من الرُّسُوخِ فِي عِلْمٍ مَا يَبْلُغُهُ الْمُتَقَدِّمُ، وَحَسْبُكَ مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ كُلِّ عِلْمٍ عَمَلِيٍّ أَوْ نَظَرِيٍّ؛ فَأَعْمَالُ الْمُتَقَدِّمِينَ -فِي إِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ- عَلَىٰ خِلَافِ أَعْمَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَعُلُومُهُمْ فِي التَّحْقِيقِ أَقْعَدُ، فَتَحَقُّقُ الصَّحَابَةِ بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ لَيْسَ كَتَحَقُّقِ التَّابِعِينَ، وَالتَّابِعُونَ لَيْسُوا كَتَابِعِيهِمْ، وَهَكَذَا إِلَىٰ الْآنِ.

وَأَمَّا الْخَبَرُ؛ فَفِي الْحَدِيثِ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**».

وَعَنِ **ابْنِ مَسْعُودٍ**؛ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ عَامٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ،...وَلَكِنْ ذَهَابُ خِيَارِكُمْ وَعُلَمَائِكُمْ، ثُمَّ يَحْدُثُ قَوْمٌ يقيسون الأمور برأيهم؛ فيهدم الإسلام ويثلم». وَمَعْنَاهُ مَوْجُودٌ فِي "الصَّحِيحِ" فِي قَوْلِهِ: «**وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ؛ فَيَبْقَىٰ نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فيَضلون ويُضلون**»، فكُتُبُ الْمُتَقَدِّمِينَ وَكَلَامُهُمْ وَسِيَرُهُمْ؛ أَنْفَعُ لِمَنْ أَرَادَ الْأَخْذَ بِالِاحْتِيَاطِ فِي الْعِلْمِ، عَلَىٰ أَيِّ نَوْعٍ كَانَ، وخصوصًا علم الشريعة، الذي هو الْعُرْوَةُ الْوُثْقَىٰ، والوَزَر الْأَحْمَىٰ، وَبِاللهِ تَعَالَىٰ التَّوْفِيقُ. الموافقات (١/ ١٤٧)

ومن الأمثلة في ذلك: مسألة الصلاة المخالف في المذهب، فقد صار الرأي المفتىٰ به في المذهبين الحنفي والشافعي، في القرون المتأخرة، هو بطلان صلاة المأموم إذا علم أن إمامه أتىٰ بما ينقض الوضوء، أو الصلاة برأي المأموم، وكراهتها إذا أتىٰ الإمام بمكروه، مع أننا نعلم أن الأئمة وأتباعهم المتقدمين كان يصلي بعضهم وراء بعض دون أي تحرج، ولم يثيروا أي غلط حول صحة صلاتهم وسلامتها من الكراهة.

كما أن الصحابة رضي الله عنهم، لم ينقل عن واحد منهم مثل هذا القول، مع وجود الاختلاف فيما بينهم في كثير من الأمور، بل ورد عنهم خلافه، وما قول **عثمان** رضي الله عنه: "إن أحسن ما يفعل الناس الصلاة"، وأمره بالصلاة خلف الخوارج الذين خرجوا عليه، ليس ذلك عنا ببعيد.وهم في ذلك متبعين لقوله ﷺ: «**يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم**».

وقد قال **ابن مسعود**: "الخلاف شر".

ومن الأمثلة: الماء المشمس، ونهي المتأخرين من أصحاب المذهب الشافعي عنه، مع قول الإمام نفسه في كتابه: "لا أكره الماء المشمس إلا أن يكون من جهة الطب"(2).

ومن الأمثلة كذلك: قول المتأخرين من الشافعية بسنية الصلاة علىٰ النبي ﷺ، رغم أن الشافعي نفسه يقول بوجوبها، فقد قال: "فلم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولىٰ منه في الصلاة"(٣٠٨).

ومن أمثلته: أن المالكية يرون القنوت في صلاة الفجر، وأما الإمام مالك رحمه الله فلا يراه،

---

(2) الأم للشافعي (١/ ١٦).

(٣٠٨) الأم للشافعي (١/ ١٠٢).

سواء في صلاة الفجر وغيرها، فقد ترجم بباب: "القنوت في الصبح"، ثم ذكر تحته أثر ابن عمر: "كان لا يقنت في شئ من الصلاة"(٣٠٩).

ولابد من أن نشير إلىٰ أن من المؤسف والغريب معـًا، أن الكتب الفقهية التي كتبها الأئمة وتلامذتهم وأتباعهم في دور الرفعة والمجد الإسلامي، وقد اختفت من أيدي طلاب العلم، فلا يأبهون بها، ولا يطالعون فيها، ولا يأخذون منها، بل يكاد بعضهم لا يسمع بمثل كتاب: الأوسط لابن المنذر، بل وكتب الأئمة أنفسهم، وأئمة المذهب، ككتاب اختلاف الفقهاء للطحاوي، ونحوها من الكتب الفقهية السلفية التي تعنىٰ بالدليل، وأقوال السلف.

ولم يبق في أيديهم إلا ما كتب في زمن التقهقر وضعف اللسان العربي، من المتون والشروح والحواشي والتقريرات، مما لا يكاد يُفهم إلا بشق الأنفس(٣١٠).

فعلينا إن أردنا صلاحـًا أن نعود بالأمة إلىٰ منبعها الصافي النقي وهو الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأئمة الذين هو رأيهم خير لنا من رأينا لأنفسنا.

٥- الصد عن سبيل الله عز وجل، والحيلولة دون دخول الكفار في دين الله أفواجـًا، وصدُّهم عن الدين، برؤيتهم لمهازل الكتب والأضحوكات التي شوهت جمال الإسلام.

وليت أن اختلافهم المذكور انحصر ضرره فيما بينهم، ولم يتعده إلىٰ غيرهم من أمة الدعوة، إذن لهان الخطب بعض الشئ، ولكنه –ويالالأسف- تجاوزهم إلىٰ غيرهم من الكفار في كثير من البلاد والأقطار، فصدوهم بسبب اختلافهم عن الدخول في دين الله أفواجـًا!!(٣١١).

وقال **العلامة محمد سلطان المعصومي** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: "إنه ورد عليّ سؤال من مسلمي بلاد جابان: (يعني: اليابان) من بلدة (طوكيو) و (أوصاكا) في الشرق الأقصىٰ، حاصله:

ما حقيقة دين الإسلام؟ ثم ما معنىٰ المذهب؟ وهل يلزم من تشرف بدين الإسلام أن يتمذهب علىٰ أحد المذاهب الأربعة أو لا يلزم؟.

لأنه قد وقع هنا اختلاف عظيم، ونزاع وخيم، حينما أرادة عدة أنفار من متنوري الأفكار

---

(٣٠٩) موطأ مالك (١/ ١٥٩).

(٣١٠) ينظر بدعة التعصب المذهبي (ص١٥٦).

(٣١١) صفة الصلاة (ص٦٦،٦٥).

من رجال: (يابونيا) أن يدخلوا في دين الإسلام، ويتشرفوا بشرف الإيمان، فعرضوا ذلك علىٰ جمعية المسلمين الكائنة في (طوكيو)، فقال جمع من أ÷ل الهند: ينبغي أن يختاروا مذهب الإمام أبي حنيفة، لأنه سراج الأمة.

وقال جمع من أهل أندونيسيا (جاوا): يلزم أن يكون شافعيـًا!، فلما سمع الجابانيون كلامهم تعجبوا جداً، وتحيروا فيما قصدوا، **وصارت مسألة المذاهب سداً في سبيل إسلامهم!!"**.

٦- خلو كثير من الكتب المذهبية من الأدلة الشرعية، ورغبة الكثيرين عن دراسة الكتاب والسنة إليها.

مثال: معظم المتون الفقهية، ومن الكتب العارية عن الدليل: كتاب "أخصر المختصرات"، ولقد أصبح كتاب: "غاية التقريب، والمنهاج عند الشافعية، وكتاب: مراقي الفلاح، والكنْز عند الحنفية، وكتاب: "المختصر لخليل"، و"الرسالة" للقيرواني عند المالكية، وكتاب: "زاد المستقنع"، عند الحنابلة، أصبحت هذه الكتب هي المرجع الأول والأخير، الذي يرجع إليه كل قوم منهم فيما اختصموا، فيقبلون حكمه ويرتضون تقريره، وحلّت هذه المختصرات لديهم بمنْزلة القرآن والسنة.

يقول الإمام ابن القيم: **"ولما استحكم هجران النصوص عند أكثر أهل الأهواء والبدع كانت علومهم في مسائلهم وأدلتهم في غاية الفساد والاضطراب والتناقض، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سئلوا عن مسألة يقولون: قال الله كذا، قال رسول الله ﷺ كذا، أو فعل رسول الله كذا، ولا يعدلون عن ذلك ما وجدوا إليه سبيلاً قط، فمن تأمل أجوبتهم وجدها شفاء لما في الصدور، فلما طال العهد وبُعد الناس من نور النبوة صار هذا عيبـًا عند المتأخرين أن يذكروا في أصول دينهم وفروعه قال الله، وقال رسول الله.**

أما أصول دينهم فصرحوا في كتبهم أن قول الله ورسوله لا يفيد اليقين في مسائل أصول الدين، وإنما يحتج بكلام الله ورسوله فيها الحشوية والمجسمة والمشبهة.

وأما فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نص عن الله ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن الإمام الذي زعموا أنهم قلدوه دينهم، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق، ويبيحون به الفروج والدماء والأموال علىٰ قول ذلك المصنف،

وأجلهم عند نفسه وزعيمهم عند بني جنسه: من يستحضر لفظ الكتاب، ويقول: هكذا قال، وهذا لفظه؛ فالحلال ما أحله ذلك الكتاب، والحرام ما حرمه، والواجب ما أوجبه، والباطل ما أبطله، والصحيح ما صححه هذا.

وأنّىٰ لنا بهؤلاء في مثل هذه الأزمان، فقد دفعنا إلىٰ أمر تضج منه الحقوق إلىٰ الله ضجيجًا، وتعج منه الفروج والأموال والدماء إلىٰ ربها عجيجًا، تبدل في الأحكام، ويقلب فيه الحلال بالحرام، ويجعل المعروف فيه أعلىٰ مراتب المنكرات، والذي لم يشرعه الله ورسوله من أفضل القربات"[٣١٢].

ويقول **الشيخ عبد الرحمن بن حسن**؛ فيمن ترك العمل بالحديث الصحيح إذا خالف المذهب:

"هذا من محدثات الأمور التي ما أنـزل الله بـها من سلطان، قال –تعالىٰ–: ﴿**اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون**﴾(سورة الأعراف، / ٣)، وقال: ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلىٰ الله والرسول . . .**﴾ الآية (سورة النساء/ ٥٩).

وهذا أصل عظيم من أصول الدين، قال العلماء –رحمهم الله–: (كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ).

وهذا القول الذي يقوله هؤلاء يُفضي إلىٰ هجران الكتاب والسنة، وتبديل النصوص، والتقليد المفضي إلىٰ هذا الإعراض عن تدبر الكتاب والسنة فيه شبهُ بمن قال الله فيهم: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله**﴾(سورة التوبة/ ٣١)، وقوله: ﴿**أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله**﴾(سورة الشورىٰ/ ٢١). انتهىٰ المقصود من كلامه[٣١٣].

وصدق مالك حين قال: "ما قلَّت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء، ولا قلَّت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء"[٣١٤].

وقد يقول قائل: "إن هذه المتون المختصرة إنما ألفت لطلبة العلم المبتدئين".

---

(٣١٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٨،٢١٧).

(٣١٣) انظر: "الدرر": (٤/ ٦٤-٦٥) ط: الجديدة.

(٣١٤) **حسن الإسناد**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (ح٨٦٩) والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/ ١٤٧).

والجواب:

ا- أن الملاحظ والمشاهد أن هذه المتون هي مرجع الكبار والصغار وعمدة جميعهم.

ب- أن تعليمها بغير دليل مخالف لهدي السلف، بل مخالف للأئمة.

جـ- أن تعليم الصغار بهذه الطريقة، لا تكسبهم علماً، بل لا يزدادون إلا تقليداً وجهلاً.

تنبيه مهم: أن الكتب المذهبية فاتها الكثير من الحديث والسنن:

يقول العلامة الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكر حديث لم يره في الكتب المذهبية قال: "والحديث دليل من عشرات الأدلة علىٰ أن الكتب المذهبية قد فاتها غير قليل من هدي خير البرية ﷺ، فهل في ذلك ما يحمل المتعصبة علىٰ الاهتمام بدراسة السنة والاستنارة بنورها؟! لعل وعسىٰ". (السلسلة الصحيحة ٢/ ٥٣٩).

ينظر "مزالق الأصوليين" (ص١٠٠).

٧- الانحباس في مذهب واحد، وعدم الاستفادة من علم المذاهب الأخرىٰ، وجهود رجالها و كتبهم تعصباً للمذهب.

وقد عد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ أن من مسائل أهل الجاهلية: التعصب للمذهب الباطل، ولهذا قالت اليهود: {**وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ**} [آل عمران: ٧٣] وفي الآية الأخرىٰ: {**نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا**} ويكفرون بما وراءه وهو الحق ...} [البقرة: ٩١]

(والذي جاء بالصدق وصدق به ...)

صار كثير من أصحاب المذاهب لا يأخذون إلا من مذهبهم، وقد حبسوا أنفسهم، وأوقفوها علىٰ مذهب واحد، ولم يجيزوا الخروج عنها، وأصبحوا ينظرون إلىٰ المذاهب الأخرىٰ علىٰ أنها أديان أخرىٰ مستقلة.

قال الشيخ **حمد بن ناصر آل معمر** رَحِمَهُ اللَّهُ: «حتىٰ آل الأمر بهم إلىٰ أن ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. وزعموا أن هذا هو الواجب عليهم، وأن من انتسب إلىٰ مذهب إمام فعليه أن يأخذ بعزائمه ورخصه، وإن خالف نص كتاب أو سنة؛ فصار إمام

المذهب عند أهل مذهبه كالنبي في أمته، لا يجوز الخروج عن قوله، ولا تجوز مخالفته». (مجموع الرسائل والمسائل النجدية٢/)

فهذا محمد علاء الدين الحصفكي، وهو من أشهر المؤلفين في الفقه الحنفي:

"إذا سئلنا عن مذهبنا، ومذهب مخالفينا؟ قلنا وجوباً: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب مخالفينا خطأ يحتمل الصواب"(٣١٥).

وقال أيضاً: "والحاصل أن أبا حنيفة من أعظم معجزات المصطفىٰ بعد القرآن، وحسبك من مناقبه اشتهار مذهبه، ما قال قولاً إلا أخذ به إمام من الأئمة الأعلام، قد جعل الله الحُكم لأصحابه وأتباعه من زمنه إلىٰ هذه الأيام، إلىٰ أن يحكم بمذهبه عيسىٰ عليه السلام!!"(٣١٦).

وقال محمد علاء الدين الحصفكي أيضاً:

"فلعنةُ ربّنا أعداد رَمْلٍ علىٰ مَن ردَّ قولَ أبي حنيفة"(٣١٧).

وقال **إمام الحرمين الجويني الشافعي**: «نحن ندّعي أن يجب علىٰ كافة العاقلين وعامة الناس شرقاً وغرباً، بُعداً وقُرباً انتحال مذهب الشافعي، ويجب علىٰ العوام الطغام والجهال الأنذال أيضاً انتحال مذهبه بحيث لا يبغون عنه حولاً، ولا يريدون به بدلاً»!(٣١٨).

قلت: والوجوب حكم شرعي، فأين الدليل من الكتاب أو السنة علىٰ مثل هذا الادعاء، الذي لا يعجز عنه العجائز، فإن الله تعالىٰ لم يوجب علينا اتباع أحد من البشر سوىٰ النبي ﷺ، أو إجماع أهل العلم لأنه معصوم.

وكتب أحد الحنابلة:

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا

وقال أيضاً:

---

(٣١٥) الدر المختار (١/ ٤٨،٤٩).

(٣١٦) المصدر السابق (١/ ٥٥).

(٣١٧) المصدر السابق (١/ ١٦٣).

(٣١٨) مغيث الخلق (ص١٦).

لئن قلّد الناسُ الأئمةَ إنني لفي مذهب الحبر ابن حنبل راغبُ

أُقَلِّدُ فتواه وأعشقُ قولَهُ وللنَّاس فيما يعشـقونَ مذاهبُ[٣١٩]

وقد سبق كلام **ابن القيم**: "وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بمذهب عالم من العلماء، وأبعد منه قول من قال: يلزمه أن يتمذهب بأحد المذاهب الأربعة"[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ولنعم ما قال: "وإذا كان الرجل متبعـًا لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد، ورأىٰ في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوىٰ فاتبعه كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح في دينه، ولا عدالته بلا نِزاع، بل هذا أولىٰ بالحق، وأحب إلىٰ الله ورسوله ﷺ ممن يتعصب لواحد معين غير النبي ﷺ كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة، ويرىٰ أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه، **فمن فعل هذا كان جاهلاً ضالاً، بل قد يكون كافراً**،فإنه **متىٰ اعتقد أنه يجب علىٰ الناس اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر**، فإنه **يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل**، بل غاية ما يقال: أنه يسوغ أو ينبغي أو يجب علىٰ العامي أن يقلد واحداً **لا بعينه، من غير تعيين زيد ولا عمرو**.

وأما يقول قائل: إنه يجب علىٰ العامة تقليد فلان أو فلان، **فهذا لا يقوله مسلم**.

ومن كان موالياً للأئمة محباً لهم يقلد كل واحد منهم فيما يظهر له أنه موافق للسنة فهو محسن في ذلك، بل هذا أحسن حالاً من غيره، ولا يقال لمثل هذا مذبذب علىٰ وجه الذم، وإنما المذبذب الذي لا يكون مع المؤمنين، ولا مع الكفار، ...فهؤلاء المنافقون المذبذبون هم الذين ذمهم الله ورسوله.

ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنْزِلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين كالرافضي الذي يتعصب لعليٍّ دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة.

وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي رضي الله عنهما، **فهذه طرق أهل البدع والأهواء** الذين ثبت ذمهم بالكتاب والسنة والإجماع، أنهم مذمومون، خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي

---

(٣١٩) إرواء الغليل (١/ ٢٢).

(2) أعلام الموقعين (٤/ ٣٢٥).

بعث الله رسوله ﷺ.

فمن تعصب لواحد من هؤلاء الأئمة بعينه ففيه شبه من هؤلاء، سواء تعصب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة، أو أحمد أو غيرهم.

فالواجب علىٰ كل مؤمن موالاة المؤمنين، وعلماء المؤمنين، وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده، ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله اجر لاجتهاده، وخطؤه مغفور له.

وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها حتىٰ تجد المنتسب إلىٰ الشافعي يتعصب لمذهبه علىٰ مذهب أبي حنيفة حتىٰ يخرج عن الدين، والمنتسب إلىٰ أبي حنيفة يتعصب لمذهبه علىٰ مذهب الشافعي وغيره حتىٰ يخرج عن الدين، والمنتسب إلىٰ أحمد يتعصب لمذهبه علىٰ مذهب هذا أو هذا.

وفي المغرب تجد المنتسب إلىٰ مالك يتعصب لمذهبه علىٰ هذا أو هذا وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهىٰ الله ورسوله عنه.

وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل، المتبعين الظن، وما تهوىٰ الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدىٰ من الله، مستحقون للذم والعقاب، وهذا باب واسع»[٣٢٠]ا-هـ باختصار.

وقال: «وَأَمَّا " الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ ": فَمِثْلُ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْأَقْيِسَةِ الْبَاطِلَةِ وَالتَّقْلِيدِ الْمُحَرَّمِ فَهَذَا يَحْرُمُ أَيْضًا. وَهَذَا مِنْ مَثَارِ النِّزَاعِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَفَقِّهَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ قَدْ يُوجِبُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَفَقِّرَةِ اتِّبَاعَ مَذْهَبِهِ الْمُعَيَّنِ وَتَقْلِيدَ مَتْبُوعِهِ؛ وَالْتِزَامَ حُكْمِ حَاكِمِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَيَرَىٰ خُرُوجَهُ عَنْ ذَلِكَ خُرُوجًا عَنْ الشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهَذَا جَهْلٌ مِنْهُ وَظُلْمٌ؛ بَلْ دَعْوَىٰ ذَلِكَ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ»[٣٢١].

٨- نشر الخلاف والانقسام بين المسلمين، والتسبب في وقوع الفتن والكوارث بينهم.

---

(٣٢٠) مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٢٤٨-٢٥٥).

(٣٢١) مجموع الفتاوىٰ (١١/ ٤٣١ قﷺ ﷺ ﷺ

(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

ولأن الناس لم يتمسكوا بالكتاب والسنة، ولم يعضوا عليهما بالنواخذ كما أُمِروا، ولم يلتزموا سبيل الصحابة في فهم الكتاب والسنة، فقد وقع الخلاف الكثير، والفرقة، كما قال تعالىٰ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيْراً﴾ (النساء:٨٢).

لذلك لما سئل **هشيم** عن تفسير القرآن، كيف صار فيه اختلاف؟ قال:

"قالوا برأيهم فاختلفوا"(٣٢٢).

قال الشيخ العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهنا قد يرد سؤال وهو: إن الصحابة قد اختلفوا وهم أفاضل الناس، أفيلحقهم الذم المذكور؟ .

وقد أجاب عنه ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فقال (٥ / ٦٧ – ٦٨) : كلا ما يلحق أولئك شيء من هذا، لأن كل امرئ منهم تحرىٰ سبيل الله، ووجهته الحق، فالمخطئ منهم مأجور أجرا واحدا لنيته الجميلة في إرادة الخير، وقد رفع عنهم الإثم في خطئهم لأنهم لم يتعمدوه ولا قصدوه ولا استهانوا بطلبهم، والمصيب منهم مأجور أجرين، وهكذا كل مسلم إلىٰ يوم القيامة فيما خفي عليه من الدين ولم يبلغه، وإنما الذم المذكور والوعيد المنصوص، لمن ترك التعلق بحبل الله تعالىٰ وهو القرآن، وكلام النبي ﷺ بعد بلوغ النص إليه وقيام الحجة به عليه، وتعلق بفلان وفلان، مقلدا عامدا للاختلاف، داعيا إلىٰ عصبية وحمية الجاهلية، قاصدا للفرقة، متحريا في دعواه برد القرآن

والسنة إليها، فإن وافقها النص أخذ به، وإن خالفها تعلق بجاهليته، وترك القرآن وكلام النبي ﷺ، فهؤلاء هم المختلفون المذمومون. (الضعيفة١/ ١٤٣)

من آثار هذا التفرق:

١- عدم صلاة أصحاب المذاهب خلف بعضهم.

قال شيخنا العلامة الألباني: "فقد كان من آثاره –التقليد– أن تفرق المسلون في أعظم ركن

---

(٣٢٢) **إسناده صحيح**: رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١٤٤٠).

بعد الشهادتين، ألا وهو: الصلاة، فهم يأبون أن يصلوا جميعاً وراء إمام واحد، بحجة أن صلاة الإمام باطلة أو مكروهة علىٰ الأقل بالنسبة إلىٰ المخالف له في مذهبه، وقد سمعنا ذلك، ورأيناه كما رآه غيرنا، كيف لا وقد نصت كتب بعض المذاهب المشهورة اليوم علىٰ الكراهة أو البطلان؟!.

وكان من نتيجة ذلك أن تجد أربعة محاريب في المسجد الجامع، يصلي فيها أئمة أربعة متعاقبين، وتجد أناساً ينتظرون إمامهم بينما الإمام الآخر قائم يصلي!(2).

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: "وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر، **وإمام الصلاة**، والحاكم، يطاع في مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية... وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم**»(٣٢٣).

فهذا نص صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا علىٰ المأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً، أو فعل محذوراً اعتقد أنه ليس محذوراً، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه"(٣٢٤).ا.هـ مختصراً.

ب- عدم التزاوج والتناكح بينهم:

بل قد وصل الخلاف إلىٰ ما هو أشد من ذلك عند بعض المقلدين، مثاله منع التزاوج بين الحنفي والشافعية، ثم صدرت فتوىٰ من بعض المشهورين عند الحنفية، وهو الملقب بـ"مفتي الثقلين"- فأجاز تزوج الحنفي بالشافعية، وعلل ذلك بقوله: "تنْزيلاً لها منْزلة أهل الكتاب"(2)!.

---

(2) صفة الصلاة (ص٦٥،٦٦)، ونظر ما كتبه الشيخ شاكر في تعليقه علىٰ "سنن الترمذي" (١/ ٤٣٢)، ما ذكره ابن كثير في "تاريخه" (١٣/ ٩١).

(٣٢٣) رواه البخاري (٦٩٤).

(٣٢٤) شرح الطحاوية (٣٧٦).

(2) صفة الصلاة نقلاً البحر الرائق (ص٦٥).

ومفهوم ذلك، أنه لا يجوز العكس، وهو تزوج الشافعي بالحنفية، كما لا يجوز تزوج الكتابي بالمسلمة؟!.

ج- سب بعضهم بعضاً:

قال صاحب "مراقي الفلاح" وهو من كتب الحنفية المعتمدة، قال عن ماء البئر النجس، الذي وقع فيه حيوان فمات وانتفخ قال: "فإن عجن بمائها يلقىٰ للكلاب، أو يعلف به المواشي، وقال بعضهم: يباع لشافعي"، فقد سوّىٰ هذا الفقيه بين الكلاب والشافعية والعياذ بالله فتأمل(2).

وقال **محمد بن موسىٰ بن عبد الله التركي البلاساغوني** الحنفي قاضي دمشق: "لو كان لي أمر، لأخذت الجزية من الشافعية"(2)، وكان مبغضاً للمالكية كذلك(2).

وانظر ما كتبه الجويني الشافعي ليتبين لك إلىٰ أي حد استحكم العداء بين المذهبين، قال: "من انغمس في مستنقع نبيذ، ولبس جلد كلب غير مدبوغ، وأحرم بالصلاة صيغة التكبير ترجمته تركياً أو هندياً، ويقتصر في القرآن علىٰ ترجمة قوله: ﴿**مدهامتان**﴾، ثم يترك الركوع، وينقر نقرتين، لا قعود بينهما، ولا يقرأ التشهد، ثم يُحْدِثُ عمداً أي (يضرط) في آخر صلاته بدل التسليم، ولو انفلت منه بأن سبقه الحدثُ، يعيد الوضوء في أثناء صلاته، ويحدث بعده، فإن لم يكن قاصداً في حدثه الأول تحلل من صلاته علىٰ الصحة"(2).

وَذكر إِمَامُ الحَرَمَيْنِ أَنَّ مَحْمُوْدَ بنَ سُبُكْتِكِيْن كَانَ حَنَفِيّاً يُحِبُّ الحَدِيْثَ، فَوَجَد كَثِيْراً مِنْهُ يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ، فجمعَ الفُقَهَاء بِمَرْو، وَأَمر بِالبحثِ فِي أَيّمَا أَقوَىٰ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيْفَةَ أَوِ الشَّافِعِيّ.

قَالَ: فَوَقَعَ الاَتِّفَاق عَلَىٰ أَنْ يُصَلُّوا رَكْعَتَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَىٰ المَذْهَبين.

فَصَلَّىٰ أَبُو بَكْرٍ القَفَّال بوُضوءٍ مُسْبغٍ وَسترَةٍ وَطَهَارَةٍ وَقِبْلَةٍ وَتَمَّام أَركَانٍ لاَ يُجَوِّزُ الشَّافِعِيُّ دونهَا، ثُمَّ صَلَّىٰ صَلاَةً عَلَىٰ مَا يُجَوِّزُهُ أَبُو حَنِيْفَة، فَلَبِسَ جِلْد كلبٍ مَدبوَغاً قَدْ لُطِخَ رُبُعُه بِنَجَاسَةٍ، وَتَوَضَّأَ بنَبِيْذ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الذُّبَّان، وَكَانَ وُضوءاً مُنكّساً، ثُمَّ كبّر بِالفَارسيَّة، وَقرأَ بِالفَارسيَة،

---

(2) بدعة التعصب المذهبي (ص٢٠٦).

(2) لسان الميزان (٥/ ٤٠٢).

(2) تاريخ الإسلام للذهبي (وفيات٥٠٦/ ص١٤٨).

(2) بدعة التعصب المذهبي (ص٢٠٧) نقلاً عن رسالة مغيث الخلق للجويني (ص٥٦).

(دَوْبَرْكَك سَبْز) ، وَنَقَر وَلَمْ يَطْمئنَّ وَلاَ رَفَعَ مِنَ الرُّكُوع، وَتَشَهَّدَ، وَضَرَطَ بِلاَ سَلاَم.

فَقَالَ لَهُ: إِنْ لَمْ تكن هَذِهِ الصَّلاَةُ يُجِيزُهَا الإِمَامُ، قَتَلْتُكَ. فَأَنكرت الحَنَفِيَّةُ الصَّلاَةَ، فَأَمر القَفَّال بِإِحضَار كُتُبِهم، فَوُجِدَ كَذَلِكَ، فتحوَّل مَحْمُوْدٌ شَافِعِيّاً. هَكَذَا ذكره الإِمَامُ أَبُو المَعَالِي بِأَطولَ مِنْ هَذَا. سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٧/ ٤٨٦)

د- سجن ونفي وقتل بعضهم بعضـًا:

(من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو لعصبة أو ينصر عصبة فقتل فتلته جاهلية) رواه مسلم

من ذلك ما ذكره **ابن كثير** رحمه الله في "تاريخه": من أنه العزيز صاحب مصر، ابن صلاح الدين، " أنه **عزم في هذه السنة علىٰ إخراج الحنابلة من بلده**، ويكتب إلىٰ بقية إخوته بإخراجهم من البلاد، وشاع ذلك عنه وذاع، وسمع ذلك منه وصرح به، وكل ذلك من معلميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية، وقلة علمه بالحديث، فلما وقع منه هذا، ونوىٰ هذه النية القبيحة الفاسدة أهلكه الله، ودمره سريعـًا، وعظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام، عند الخاص والعام"(2).

وقال **ابن الأثير**: "وفي سنة ٣٢٣، عظم أمر الحنابلة (ببغداد)، وقويت شوكتهم، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلة الغناء...فأرهجوا بغداد ، وركب

---

(2) البداية والنهاية (١٣/ ١٨).

وقال أيضـًا: "وقعت فتنة بدمشق بسبب الحافظ عبد الغني المقدسي، وذلك أنه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي، فذكر يومـًا شيئـًا من العقائد، فاجتمع القاضي ابن الزكي، وضياء الدين الخطيب الدولعي بالسلطان المعظم، والأمير صارم الدين برغش، فعقد له مجلسـًا فيما يتعلق بمسألة الاستواء علىٰ العرش والنُّزول والحرف والصوت، فوافق النجم الحنبلي بقية الفقهاء واستمر الحافظ علىٰ ما يقوله لم يرجع عنه، واجتمع بقية الفقهاء عليه، وألزموه بإلزامات لم يلتزمها، حتىٰ قال له الأمير برغش: كل هؤلاء علىٰ الضلالة، وأنت وحدك علىٰ الحق؟!.

قال: نعم، فغضب الأمير، وأمر بنفيه من البلد، فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره، وأرسل برغش الأسارىٰ من القلعة **فكسروا منبر الحنابلة وتعطلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة**، وأخرجت الخزائن والصناديق التي كانت هناك، وجرت خبطة شديدة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن" البداية والنهاية (١٣/ ٢٠،٢١).

صاحب الشرطة ونادىٰ في جانبي بغداد: لا يجتمع من الحنابلة اثنان...، ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، في صلاة الصبح والعشاءين"(2).

وقال **ابن الأثير**: "كان أهل المدينة ثلاث طوائف: طوائف شافعية، وهم الأقل، وحنفية وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم، فوقعت العصبية بين السنة والشيعة، فتظافر عليهم الحنفية والشافعية، وتطاولت بينهم حروب، حتىٰ لم يتركوا من الشيعة من يعرف.

فلما أفنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية، ووقعت بينهم حروب، كان الظفر في جميعها للشافعية، هذا مع قلة عدد الشافعية، وكانت الحنفية يجيؤون إلىٰ البلد بالسلاح الشاك، ويساعدون أهل نحلتهم، فلم يعنهم ذلك شيئًا حتىٰ أفنوهم... ولم يبق من الشيعة والحنفية إلا من يخفي مذهبه، ووجدت دورهم كلها مبنية تحت الأرض، ودروبهم التي يسلك بها إلىٰ دورهم علىٰ غاية الظلمة، وصعوبة المسلك، ولولا ذلك لما بقي فيها أحد"(2).

وذكر **ياقوت الحموي** عن مدينة أصفهان، بعد أن ذكر مجدها قال: "وقد فشا الخراب في نواحيها، لكثرة الفتن، والتعصب بين الشافعية والحنفية، والحروب المتصلة بين الحزبين، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرىٰ، وأحرقتها وخربتها لا يأخذهم في إل ولا ذمة...وكذلك الأمر في قراها"(2).

٩- شيوع التقليد والجمود، وإقفال باب الاجتهاد.

لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق ....

القول بإغلاق باب الاجتهاد بعد أن كان مفتوحًا قول مبتدع، لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، ويهدم كيان الأمة، فما عساها أن تفعل في مستجدات العصر، وسبب للقضاء علىٰ العقول المستنيرة بنور العلم، والقلوب الواعية لكل خير، ووأد الطاقات الفذة في مهدها، وضياع لخير ثروة في الأمة، وهي ثروة العلم، واتهام للشرع بأنه غير صالح لكل زمان ومكان.

قال **العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: « اعلم أن الدعوىٰ التي اتفق عليها متأخرو الأصوليين التي

---

(2) بدعة التعصب المذهبي (ص٢١٣).

(2) بدعة التعصب المذهبي (ص٢١٤)، نقلاً عن معجم البلدان (٤/ ٣٥٥).

(2) بدعة التعصب المذهبي (ص٢١٤)، نقلاً عن معجم البلدان (١/ ٢٧٣).

تتضمن حكمهم علىٰ خالق السماوات والأرض جل وعلا لا يجوز لمسلم تريد الحق والإنصاف أن يعتقدها، ولا أن يصدقهم فيها لظهور عدم صحتها ومخالفتها للنص، والحكم فيها علىٰ الله بلا مستند، وهو جل وعلا الذي يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

وهذه الدعوىٰ المذكورة هي المتركبة مما يأتي، وهو أن الاجتهاد قد انقرض في الدنيا وانسد بابهاً وأن الله تعالىٰ محكوم عليه بأن لا يخلق مجتهدا ولا يعلم أحدا من خلقه علما يمكن أن يكون به مجتهدا إلىٰ ظهور المهدي المنتظر.

وأنه لا يجوز لأحد أن يعمل بكتاب ولا سنة ولا أن يقلد أحدا كائنا من كان غير الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المدونة، كما نص علىٰ هذه الدعوىٰ حاكيا إجماعهم عليها صاحب مراقي السعودا في قوله:

والمجمع اليوم عليه الأربعه ... وقفو غيرها الجميع منعه

حتىٰ يجيء الفاطم المجدد ... دين الهدىٰ لأنه مجتهد

ومراده بالفاطمي المهدي المنتظر لأنه شريف.

وهذا الحكم علىٰ الله الذي كل يوم هو في شأن بأنه لا يخلق مجتهدا قبل المهدي من مدة انقراض الاجتهاد المزعوم هو يا أخي كما ترىٰ.

ولا شك أنك إن لم يعمك التعصب المذهبي تقطع أنه لا مستند له، وهذا الذي ذكره صاحب مراقي السعود قد صرح بما يناقضه في قوله قبله:

والأرض لم عن قائم مجتهد ... تخلو إلىٰ تزلزل القواعد

وهذا النقيض الأخير هو الصحيح الموافق للحقا لأن النبي ﷺ قد ثبت عنه في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ الحق لا يضرهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله**» الحديث. وهو حديث مشهور متفق عليه لا نزاع في صحته.

ولا شك في أن هذه الطائفة التي صرح النبي ﷺ: بأنها **لا تزال ظاهرة علىٰ الحق حتىٰ يأتي أمر الله** أنها طائفة علىٰ كتاب الله، وسنة رسوله، وليست البتة من المقلدين التقليد الأعمىٰ.

لأن الحق هو ما جاء به محمد ﷺ من الكتاب والسنة كما قال تعالىٰ في سورة النساء: {يَا

أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ} [النساء:١٧٠] وقال في الأنعام: **{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ}** [الأنعام:٦٦] وقال في النمل: **{فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ}** [النمل:٧٩] وقال في يونس: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ}** [يونس:١٠٨] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

فدعوىٰ أن الأرض لم يبق فيها مجتهد البتة، وأن ذلك مستمر إلىٰ ظهور المهدي المنتظر مناقضة لهذا الحديث الثابت ثبوتا لا مطعن فيه، عن النبي ﷺ.

ومما لا نزاع فيه أن كل ما يناقض الحق فهو ضلال، لأن الله جل وعلا يقول: **{فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ}** [يونس:٣٢] والعلم عند الله تعالىٰ.

أضواء البيان (٧/ ٣٧٦)

ومع ذلك فنحن نحذر من الضياع، والميوعة والتعالم، وفتح باب التلفيق، والتخبط، والخروج عن منهج الكتاب والسنة، وما رسمه لنا علماؤنا، وأصَّلوه لنا، وقعدوه من قواعد قائمة علىٰ أصول ثابتة، قد سبروا فيها النصوص.

١٠- الخوض في المسائل الخيالية، والانشغال بالافتراضات السخيفة.

قال ابن رجب: "أمّا ما يولِّده الفقهاء من المسائل التي لا تقع أو لا تكاد تقع إلا نادراً، فكان (أي الإمام أحمد) ينهىٰ كثيراً عن الكلام فيها، لأنه قليل الفائدة، ويشغل عما هو أهم منه مما يحتاج إلىٰ معرفته"(2).

مثال ذلك: قال **الشيخ الجباوي** وهو من فقهاء الأحناف في معرض حديثه عن أحق الناس بالإمامة في الصلاة: "والأحق بالإمامة السلطان أو نائبه...، فالأحسن خلقاً، فالأحسن وجهاً، فأكثرهم بشاشة، فالأحسن صوتاً، فالأحسن زوجة، فالأكثر مالاً، فالأكثر جاهاً، فالأنظف ثوباً، فالأكبر رأساً، فالأصغر عضواً (أي ذكراً)"، وهذا هو عين ما قاله الشيخ حسن الشرنبلالي، صاحب "مراقي الفلاح"(2).

---

(2) الرد علىٰ من اتبع غير المذاهب الأربعة (ص٤٨).

(2) بدعة التعصب المذهبي (ص١٩٣).

وقال الشيخ ابن قاسم الغزي علىٰ متن أبي شجاع، وهو من كتب الفقه الشافعي، في معرض موجبات الغسل: "ومن المشترك إنْزال المني...من طريقه المعتاد أو غيره، كأن انكسر صلبه فخرج منيه"(٣٢٥).

وقال الشيخ الباجوري الشافعي المذهب في حاشيته علىٰ شرح ابن القاسم في الحديث عن الغسل الواجب: "ولو شق ذكره نصفين فأدخل أحدهما في زوجة، والآخر في زوجة أخرىٰ، وجب الغسل عليه دونهما"(٣٢٦).

وانتقل معي إلىٰ طامة أخرىٰ يقول هذا الفقيه، مستأنفًا الحديث عن هذا الذكر المشطور: "ولو أولج أحدهما في قُبُلِها، والآخر في دُبُرِها، وجب الغسل عليهما"(٣٢٧).

ثم قال مستكملاً فرضياته: "ولو كان له ذكران أصليان أجنب بكل منهما، أو أحدهما أصلي، والآخر زائد، فإن لم يتميز فالعبرة بهما معًا، وإن يتميز فالعبرة بالأصلي، ولا عبرة بالزائد ما لم يسامت"(٣٢٨).

وهاك طامة أخرىٰ هي أعظم مما سبق، فإن شئت فاضحك أو ابك علىٰ ما آل إليه حال الأمة بعد نبيها ﷺ، قال وما أقبح ما قال: "ولو دخل شخص فرج امرأة وجب عليهما الغسل، لأنه صدق عليه دخول حشفة فرجًا، ولا اعتبار بكونه تبعًا"(٣٢٩).

ويقول هذا الفقيه المعتمد، في مبتكراته وهو يفسر الفرج **فقال**: "الفرج أي قبل أو دبر ولو من نفسه، كأن أدخل ذكره في دبره، فيجب عليه الغسل"(٣٣٠).

ومن عجائبه قوله: "ولو أدخل ذكره في ذكر آخر، وجب علىٰ كل منهما الغسل، كما أفتىٰ

---

(٣٢٥) بدعة التعصب المذهبي (ص١٩٥).
(٣٢٦) بدعة التعصب المذهبي (ص١٩٦)، نقلاً عن حاشية الباجوري علىٰ ابن قاسم (١/ ٧٢-٧٤).
(٣٢٧) المصدر السابق.
(٣٢٨) المصدر السابق.
(٣٢٩) المصدر السابق (ص١٩٧).
(٣٣٠) المصدر السابق.

به الرملي"[٣٣١].

نهيك عما ذكر من صلاة من صلىٰ وهو يحمل قربة ملأها فساء هل صلاته صحيحة، أم لا؟، وعن حكم التضحية بإنسان ، ولد من أب آدمي، وأم شاة، وغير ذلك من العجائب.

وقال **الشيخ ابن عابدين** في حاشيته علىٰ "رد المحتار علىٰ الدر المختار": "وفي البحر عن عدة الفتاوىٰ: الكعبة إذا رفعت عن مكانها لزيارة أصحاب الكرامة، ففي تلك الحالة جازت الصلاة إلىٰ أرضها"[٣٣٢].

يراجع ترتيب المدارك (١/ ٩٠: ١٠٠) طامات المذاهب

١١- فتح باب الحيل المحرمة للتخلص من التكاليف الشرعية.

وسيأتي الكلام علىٰ هذا في باب القواعد التي صدت الناس عن السنة واتباعها.

١٢- تدخل الظروف والمصالح السياسية، في انتشار بعض المذاهب وانحسار أخرىٰ.

يقول ابن حزم: "مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان، الحنفي بالمشرق، والمالكي بالمغرب"[٣٣٣].

ويقول ابن خلدون: "وأما أبو حنيفة فقلده أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر وبلاد العجم كلها، لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام، وكان تلميذه صحابة الخلفاء من بني العباس"[٣٣٤].

"ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر أخذت في بناء المدارس والشرعية، وجعلت للمذهب الشافعي الحظ الأكبر من عنايتها، فخصت به القضاء، وجعلته مذهب الدولة، وكان بنو أيوب كلهم شافعية إلا المعظم عيسىٰ بن العادل، فإنه كان حنفياً"[٣٣٥].

---

(٣٣١) المصدر السابق.

(٣٣٢) بدعة التعصب المذهبي (ص١٩٨) نقلاً عن "حاشية ابن عابدين" (١/ ٣٠٢).

(٣٣٣) بدعة التعصب المذهبي (ص٢١٧).

(٣٣٤) مقدمة ابن خلدون (ص٤٤٨).

(٣٣٥) بدعة التعصب المذهبي (ص٢٢١).

لذلك قال **عبد الله بن أحمد بن شبويه**: سمعت أبي يقول: « من أراد علم القبر فعليه بالأثر، ومن أراد علم الخبز فعليه بالرأي» شرف أصحاب الحديث (١٥٣).

وقَالَ **الْمَأْمُون العباسي**: «وجدت أَرْبَعَة فِي أَرْبَعَة: الزّهْد فِي الْمُعْتَزلَة، وَالْكذب فِي الرافضة، والمروءة فِي أَصْحَاب الحَدِيث، **وَحب الرياسة فِي أَصْحَاب الرَّأْي**» سمط النجوم العوالي (٢/ ٣٩٦).

١٣- الأخذ بجزء من النص دون الجزء الآخر.

أمثلة علىٰ ذلك:

احتجاجهم علىٰ جواز الكلام والإمام علىٰ المنبر يوم الجمعة، بقوله ﷺ: «**أصليت يا فلان، قبل أن تجلس؟**»، قال: لا، فقال: «**قم فاركع ركعتين**».وخالفوه فيما دل عليه فقالوا: من دخل والإمام يخطب فليجلس ولا يصلي.

ومنها: واحتجوا علىٰ اسقاط جلسة الاستراحة بحديث أبي حميد الساعدي، حيث لم يذكرها، وخالفوه في ما دل عليه نفسه من رفع اليدين عند الركوع والرفع منه.

ومن ذلك احتجاجُهم علىٰ نجاسة الماء بالمُلاقاة وإن لم يتغير **بنهيه ﷺ أن يُبال في الماء الدائم**، ثم قالوا: لو بال في الماء الدائم لم ينجسه حتىٰ ينقص عن قلتين.

واحتجوا علىٰ نجاسته أيضاً بقوله ﷺ: «**إذا استيقظ أَحَدُكم من نومه فلا يغمس يَدَه في الإناء حتىٰ يغسلها ثلاثاً**»، ثم قالوا: لو غمسها قبل غسلها لم ينجس الماء، ولا يجب عليه غسلها، وإن شاء أن يغمسها قبل الغسل فعل.

واحتجوا في هذه المسألة بأن **النبي ﷺ أمر بحَفر الأرض التي بال فيها البائل وإخراج ترابها**، ثم قالوا: لا يجب حَفْرُها، بل لو تركت حتىٰ يبست بالشمس والريح طهرت.

واحتجوا علىٰ منع الوضوء بالماء المستعمل بقوله ﷺ: «**يا بني عبد المطلب إن الله كره لكم غُسَالة أيدي الناس**» يعني الزكاة. ثم قالوا: لا تحرم الزكاة علىٰ بني عبد المطلب.

واحتج أهل الرأي علىٰ نجاسة الكلب وولوغه بقول النبي ﷺ: «**إذا وَلَغَ الكلبُ في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات**» ثم قالوا: لا يجب غَسْله سبعاً، بل يغسل مرة، ومنهم من قال ثلاثاً.

واحتجوا علىٰ أن الخيار لا يكون أكثر من ثلاثة أيام **بحديث المُصَراة**، وهذا من إحدىٰ العجائب؛ فإنهم من أشد الناس إنكاراً له، ولا يقولون به، فإن كان حقاً وجب إتباعه، وإن لم يكن صحيحاً لم يجز الاحتجاج به في تقدير الثلاث، مع أنه ليس في الحديث تعرض لخيار الشرط؛ فالذي أريد بالحديث ودل عليه خالفوه؛ والذي احتجوا عليه به لم يدل عليه.

واحتجوا لهذه المسألة أيضاً بخبر حبان بن منقذ الذي كان يُغْبَنُ (يُخْدَعُ) في البيع، **فجعل له النبي ﷺ الخيار ثلاثة أيام**.

وخالفوا الخبر كله، فلم يثبتوا الخيار بالغبن ولو كان يساوي عشر معشار ما بذله فيه، وسواء قال المشتري: «**لا خِلاَبَة**» أو لم يقل، وسواء غُبن قليلاً أو كثيراً، لا خيار له في ذلك كله.

واحتجوا علىٰ وجوب القضاء علىٰ من تعمد القيء بحديث أبي هريرة، ثم خالفوا الحديث بعينه فقالوا: إن تقيء أقل من ملء فيه فلا قضاء عليه.

واحتجوا علىٰ تحديد مسافة الفطر والقصر بقوله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة ثلاثة أيام إلا مع زوج أو ذي محرم» وهذا مع أنه لا دليل فيه ألبتة.

علىٰ ما ادعوه فقد خالفوه نفسه فقالوا: يجوز للمملوكة والمكاتبة وأم الولد السفر مع غير زوج ومحرم.

واحتجوا علىٰ منع المُحرِم من تغطية وجهه بحديث ابن عباس في الذي وقَصَته ناقته وهو محرم، فقال النبي ﷺ: «**لا تخمروا رأسَه ولا وجهه فإنه يُبعَث يوم القيامة مُلبياً**» وهذا من العجب فإنهم يقولون: إذا مات المحرم جاز تغطية رأسه ووجه وقد بطل إحرامه.

ومنها **ما احتجوا به** علىٰ وجوب مسح ربع الرأس بحديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ: «**مسح بناصيته وعمامته**» .

ثم **خالفوه** فيما دل عليه فقالوا: لا يجوز المسح علىٰ العمامة، ولا أثر للمسح عليها ألبتة؛ فإن الفرض سقط بالناصية، والمسح علىٰ العمامة غير واجب ولا مستحب عندهم.

ومنها ما احتجوا به علىٰ أن الفاتحة لا تتعين في الصلاة بحديث المسيء في صلاته حيث قال له: «اقرأ ما تيسر معك من القرآن» وخالفوه فيما دل عليه صريحاً في قوله: «ثم اركع حتىٰ تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتىٰ تعتدل قائماً، ثم اسجد حتىٰ تطمئن ساجداً» وقوله: «ارجع فصلِّ

فإنك لم تصل».

فخالفوه وقالوا: من ترك الطمأنينة فقد صلىٰ، وليس الأمر بها فرضاً لازماً، مع أن الأمر بها وبالقراءة سواء في الحديث.

ومنها **ما احتجوا به** علىٰ جواز الكلام والإمام يخطب علىٰ المنبر يوم الجمعة بقوله ﷺ للداخل: «**أصليت يا فلان قبل أن تجلس؟**» قال: لا، قال: «**قم فاركع ركعتين**».

وخالفوه في نفس ما دل عليه، فقالوا: من دخل والإمام يخطب جلس ولم يصل.

ومنها **ما احتجوا به** علىٰ المنع من استقبال القبلة واستدبارها بالغائط بقول النبي ﷺ: «**لا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول ولا تستدبروها**».

وخالفوا الحديثَ نفسه وجَوَّزوا استقبالها واستدبارها بالبول.

ومنها **ما احتجوا به** في مَنْع القاتل ميراثَ المقتول بخبر عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «**لا يَرِثُ القاتل، ولا يقتل مؤمن بكافر**» فقالوا بأول الحديث (يعني: لا يرث القاتل) دون آخره (يعني: قالوا: يقتل المسلم بالكافر).

ومنها **ما احتجوا به** علىٰ أن مَسَّ المرأة لا ينقض الوضوء بصلاة النبي ﷺ حاملاً أمامة بنت أبي العاص بن الربيع إذا قام حَمَلها وإذا رَكَع أو سجد وضعها.

ثم خالفوه فقالوا: من صلىٰ كذلك بطلت صلاته وصلاة من ائتم به، قال بعض أهل العلم: ومن العجب إبطالُهم هذه الصلاة وتصحيحهم الصلاة بقراءة ﴿**مُدْهَامَّتَانِ**﴾ (الرحمن:٦٤) بالفارسية ثم يركع قدر نَفَس، ثم يرفع قدر حد السيف، أو لا يرفع بل يخر كما هو ساجداً، ولا يضع علىٰ الأرض يديه ولا رجليه، وإن أمكن أن لا يضع ركبتيه صح ذلك، ولا جبهته، بل يكفيه وضع رأس أنفه كقدر نفس واحد، ثم يجلس مقدار التشهد، ثم يفعل فعلاً ينافي الصلاة من فُساء أو ضُراط أو ضَحِك أو نحو ذلك.

ومنها ما **احتجوا** به علىٰ جواز تفضيل بعض الأولاد علىٰ بعض بحديث النعمان بن بشير وفيه: «**أَشْهِدْ علىٰ هذا غيري**».

ثم خالفوه صريحاً فإن في الحديث نفسه: «**إن هذا لا يصلح**»، وفي لفظ: «**إني لا أشهد علىٰ جور**»؛ فقالوا: بل هذا يصلح وليس بجور، ولكل أحد أن يَشْهَدَ عليه.

ومنها ما احتجوا به علىٰ أن النجاسة تزول بغير الماء من المائعات بحديث: «إذا وَطِئَ أحدكُم الأذىٰ بنعليه فإن التراب لهما طهور».

ثم خالفوه فقالوا: لو وطئ العَذِرة بخفيه لم يطهرهما التراب.

ومنها ما احتجوا به في سقوط القطع بسرقة الفواكه وما يُسْرع إليه الفساد بخبر: «**لا قَطْع في ثمر ولا كَثَر**».

ثم **خالفوا** الحديثَ نفسَه في عدة مواضع: **أحدها** أن فيه: «**فإذا آواه إلىٰ الجرين ففيه القطع**» وعندهم لا قطع فيه آواه إلىٰ الجرين أو لم يؤوه.

الثاني: أنه قال: «**إذا بلغ ثمن المِجَنِّ**» وفي الصحيح أن ثمن المجن كان ثلاثة دراهم، وعندهم لا يقطع في هذا القدر.

الثالث: أنهم قالوا: ليس الجرين حِرْزاً؛ فلو سرق منه ثمراً يابساً ولم يكن هناك حافظ لم يقطع.

إلىٰ أشياء أخرىٰ يطول ذكرها، ويشق استقصائها، فهذا من بلايا ومصائب بدعة التعصب المذهبي.

١٤- مخالفتهم في الفروع لما قرروه بأنفسهم في الأصول.

من ذلك: أنهم قرروا أن الأمر يفيد الوجوب، وأن النهي يفيد التحريم.

فخالفوا ذلك: في مسائل عدة منها: الإسبال، والمصافحة للنساء، وحلق اللحية،فقالوا باستحباب الإعفاء لها، بل قال بعضهم إنها من سنن العادات، وصلاة الجماعة، مستحبة فقط، وإكرام الضيف من مكارم الأخلاق، والرجوع في الهبة، والعدل بين الأولاد.

وكثير من واجبات الحج، وبعض أركانه التخفيف فيها.

١٥- الوقوع في أخطاء اجتهادية فاحشة.

وفي هذا يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "وكل من كان عن السنة أبعد كان انفراده بالأقوال والأفعال الباطلة أكثر" (منهاج السنة٥/ ١٧٣).

كما تقدم من الأمثلة، ومن ذلك أيضاً: إباحة النظر إلىٰ ظل المرأة وخيالها، قلت: ويمكن

أن يفرع عليه جواز النظر إلىٰ الأفلام الخليعة.

ومنها: جواز سماع صدىٰ صوت المرأة، وعليه فيجوز السماع لمغنية عبر الإذاعة، وغيرها كثير.

١٦-التشدد في بعض المسائل، مما فيه عنت كبير علىٰ الناس.

وقد قال عمير بن إسحاق: **"**لمن أدركتُ من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم، فما رأيتُ قومـًا أيسرَ سيرةً، ولا أقل تشديداً منهم**"**(٣٣٦).

وقول أبي برزة الأسلمي لما صلىٰ وأخذ بزمام دابته خوفـًا من شرودها، وعابه الخارجي، فقال له: لقد صحبت رسول الله ﷺ فلم أر مثل تيسيره. رواه البخاري.

وقال **القاسم**: «إنكم تسألون عن أشياء ما كنا نسأل عنها وتنقِّرون عن أشياء ما كنا ننقر عنها وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي ولو علمناها ما حل لنا أن نكتمكوها» (**صحيح**: رواه الدارمي/ ١٢٠).

ومن أمثلة ذلكأن لمس الرجل لزوجته ناقض للوضوء، **ومنها** أنها إذا خلت بالماء أنه لا يصح التطهر به، و**منها** القول بعدم طهورية الماء المستعمل، **ومنها** الأمر بعصر الذكر بعد الاستنجاء، **ومنها** أنه لابد من التأكد من مصاحبة النية لزمن التكبير، وأن النية لو تغير منها شئ في أثناء الصلاة فسدت، **ومنها** أن صوت المرأة عورة، وألزمها بعضهم بأنها إذا أرادت أن تكلم رجلاً أن تضع خرقة في فمها، **ومنها**: الشروط التي وضعت للمسح علىٰ الخفين، والتي لا تصلح إلا عند الحدادين والنجارين، ولم يجعلوا هذه الرخصة للتيسير والتخفيف، بل جعلوها.

١٧، ١٨- فساد طريقة التأليف، والتعقيد في الأسلوب، وكان من أسباب ذلك الصد عن العلم والتعلم.

يعرف هذا بالنظر لأول وهلة في كتاب مختصر من كتب الفقه المذهبية، فقد كانوا يتبارون في إغلاق العبارة، والإكثار من الضمائر، وتكلُّف السجع، إلىٰ غير ذلك مما هو مخالف لهدي سلف الأمة، من تبسيط للدين، ليفهمه الصغير والكبير والذكر والأنثىٰ، والحر والعبد، وهذا

---

(٣٣٦) إسناده صحيح إليه: رواه الدارمي (١٢٨)، وابن أبي شيبة (١٤/ ١٧)، وابن سعد (٧/).

خلاف البلاغة، لقد بغَّضَ هؤلاء العلمَ إلىٰ الناس، وبَغَّضُوا النَّاسَ في الشرع الحنيف، حتىٰ إن بعض الطلاب كانوا يقولون: زاد المستنقع، بدلاً من "زاد المستقنع"، هذا بسبب ما يجدونه من تعقيد في عبارته، وصعوبة الفهم، وقد كره كثير من الطلاب تعلم الشريعة وأحكامها بسبب ما يجدونه من تعقيد، وطلاسم يشق علىٰ الواحد منهم جداً أن يفهمها.

ومن نتائجه قلة المتفقهين في الدين، وتطلع الطلاب إلىٰ العلوم الدنيوية، وتركهم للعلوم الدينية.

وهذه نتيجة طبيعية لفقه هذا شأنه، ولدين هذا رسمه، ولعلم هكذا يكون تعلمه.

يقول شيخ الإسلام: "إن أكثر المتعمقين في العلم من المتأخرين يقترن بتعمقهم التكلف المذموم من المتكلمين والمتعبدين: وهو القول والعمل بلا علم، وطلب ما لا يدرك، وأصحاب محمد كانوا مع أنهم أكمل الناس علمًا نافعًا، وعملاً صالحًا، أقل الناس تكلفًا، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو المعارف، ما يهدي الله بها الأمة، وهذا من منن الله علىٰ هذه الأمة.

وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات، ما هو من أعظم الفضول المبتدعة، والآراء المبتدعة، لم يكن لهم في ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده في الدين"(٣٣٧).

وقد امتنَّ الله علينا بأنه أنزل كتابه بلسان عربي مبين، وأرسل رسوله ليبين للناس ما أنزل إليهم.

ولهذا كانت نصوص الكتاب والسنة سهلة ميسرة، قال **ابن القيم** رحمه الله:

(أنزل الله سبحانه الكتاب شفاء لما في الصدور وهدىٰ ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصف سبحانه به كتابه في قوله ﴿ ٱ ب ب ٻ ٻ ٻ پ پ ﴾(الفرقان/ ٣٣).

فالحقُّ هو المعنىٰ والمدلول الذي تضمَّنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة

---

(٣٣٧) مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٣٨).

علىٰ ذلك الحق، فهي تفسيره وبيانه، وكلما كان فهم المعنىٰ منه أوضح وأبْيَن كان التفسيرُ أكمل وأحسن، ولهذا لا تجدُ كلامًا أحسن تفسيراً ولا أتمَّ بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه سبحانه بيانًا، وأخبر أنه يسره للذِّكر، وتيسيره للذكر يتضمن أنواعًا من التيسير ؛ **إحداها** تيسير ألفاظه للحفظ، **الثاني** تيسير معانيه للفهم، **الثالث** تيسير أوامره ونواهيه للإمتثال)[٣٣٨].

١٩- مخالفة المقلدين للمذاهب لما هو مذكور في كتبهم نفسها.

منها: ما أخذوه من مذهب ابن تيمية في الطلاق الثلاث بلفظ واحد، أنه يقع واحدة، وأن الطلاق البدعي لا يقع طلاقًا رغم إن المقرر في كتب المذاهب عكس هذا.

٢٠- تحريفهم للنصوص تعصبًا لمذاهبهم.

والتحريف نوعان:

الأول: تحريف اللفظ:

مثال: قد طبع "مصنف ابن أبي شيبة" في "طبعة كراتشي، بتحقيق وتصحيح: عبد الخالق الأفغاني، نشر إدارة القرآن والعلوم الإسلامية (١/ ٣٩٠) حديث: «رأيت النبي ﷺ وضع يمينه علىٰ شماله في الصلاة ، **تحت السرة**». وهو في طبعة "المكتبة الإمدادية"، بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، وقد حرَّف ذلك في "مسند أبي عوانة" (٢/ ٢٧٧)، فزادوا لفظة: "تحت السرة".

مثال آخر: عن الحسن البصري أن عمر بن الخطاب جمع الناس علىٰ أُبَيّ، فكان يصلي لهم عشرين ليلة.."كذا في جمع طبعات سنن أبي داود.

فقد حرفت في طبعة محمود حسن الحنفي، "ركعة"، بدلاً من "ليلة".

الثاني: تحريف المعنىٰ، وهو ما يسميه بعضهم: (التأويل):

تأتي كلمة تأويل علىٰ معان ولكن الباطل منه هو صرف اللفظ عن ظاهره الذي يدل عليه إلىٰ معنىٰ آخر مرجوح، وهذا هو إتباع المتشابه، قال تعالىٰ: ﴿**وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾ (آل عمران/ ٧).

---

٣٣٨ «الصواعق المرسلة» (٣٣٠-٣٣٥)، باختصار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، إنما أوجبه التأويل، "وما عصي الله إلا بالتأويل"، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل، وصفين، والحرة، وفتنة ابن الزبير وهلم جرا بالتأويل.

وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والباطنية وغيرهم من باب التأويل فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل، فإن محنته إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليها الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل وخالفوا ظاهر التنْزيل، وتعللوا بالأباطيل"[٣٣٩] ا.هـ.

وقد قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: " ولقد عظمت جنايات المقلدين علىٰ أحاديث رسول ﷺ، وعلىٰ أئمة مذاهبهم الذين تبرؤوا عن إثبات مقال لهم يخالف نصاً نبوياً، فإنها إذا وردت بخلاف ما قرره مَنْ قلدوه، حرّفوها عن مواضعها، وحملوها علىٰ غير ما أراده ﷺ.

كما قال بعض المعتزلة في حديث: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». وقد اعتقد ذلك المعتزلي أنه لا شفاعة للعصاة، فقال: مراده ﷺ بـ«**أهل الكبائر**» «المؤمنون أهل الصلاة»، لأن الصلاة كبيرة، قال الله عز وجل: ﴿**وإنها لكبيرة إلا علىٰ الخاشعين**﴾ [البقرة: ٤٥].

فانظر أي تحريف أعجب من هذا الذي قاده إليه مذهبه، واعتقاده، أن لا شفاعة لأهل الكبائر، وكونه تحريفاً لا يحتاج إلىٰ دليل.

ومثل قول بعض من اعتقد ندب صوم يوم الشك، لأنه مذهب إمامه، في حديث "عمار بن ياسر" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:-

«من صام يوم الشك فقد عصىٰ "أبا القاسم" ﷺ». أنه مراده بأبي القاسم "عمار" نفسه. قال: فقد عصاني. وإنما وضع الظاهر موضع المضمر. ولا يخفىٰ ما في هذا الحمل من تحريف مع اتفاق الناس علىٰ كنية "عمار" "أبو اليقطان".

قلت: هذا من التحريف رعاية للمذهب لأن أحمد بن حنبل قائل بصوم يوم الشك، فحمله رعاية المذهب علىٰ حمل حديث عمار علىٰ "آخر يوم من شعبان تطوعاً وهذا اليوم لا شك فيه قطعاً بل هو يوم يقين من شعبان.

---

(٣٣٩) ينظر إعلام الموقعين (٤/ ٣٠٨-٣١٥).

وكقدح بعض "الحنفية" في "أبي هريرة" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ذكره "الحافظ" في "فتح الباري" لما روىٰ حديث "المصراة" علىٰ خلاف يعتقدونه مذهبـًا.

والحاصل أن من اعتقد مذهبـًا من المذاهب، فإنه يؤدي ذلك إلىٰ المحاماة عليه، وإلىٰ إخراج الآيات والأحاديث عن معانيها التي أرادها الله ورسوله ﷺ.

فإن من قال بتحريم أكل طعام أهل الذمة، وتحريم ذبائحهم حمل قوله تعالىٰ: ﴿**وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم**﴾ (المائدة/ ٥)، علىٰ حل أخذ الحبوب منهم كالحنطة والشعير.

فليحذر المؤمن المؤثر للحق علىٰ الخلق من هذه الاعتقادات، ورد الأحاديث والآيات إلىٰ مثل تأويل الفرقة الباطنية، وكل هذا من قبائح الاعتقادات المذهبية.... ولو تتبعتُ ما وقع لأهل التقليد من التحريف لجاء منه مجلد وسيع، ولكن مرادنا النصيحة لا التشنيع، وهي تحصل بأقل مما سقناه". (إرشاد النقاد/ ص١٦٣ :١٦٨)

يراجع الكتاب النافع في ذلك: "تحرييف النصوص"للشيخ بكر عبد الله أبو زيد.

٢١- إشاعة أكذوبة: أن الشريعة لا تفي بمتطلبات العصر، وأنها غير كافية ولا نافعة لهذا الزمان، بسبب إغلاق باب الاجتهاد.

قد استطاع المنافقون في هذه الأمة أن يجدوا ذريعة لهم، لعدم تطبيق أحكام الشريعة، بحجة أن الشريعة لا تفي بمتطلبات العصر الحديث، وكانت حجتهم في ذلك، هؤلاء المقلدة، وأهل الإفتاء الذين تدينوا بالتقليد، والجمود، بل والتعصب، فأبوا أن ينظروا في الكتاب والسنة الخالدَيْن، ومُنِعُوا كُلَّ علم وخير، بل وحرجُّوا علىٰ أنفسهم، وعلىٰ الناس أن ينظروا في أقوال المخالفين، حتىٰ لو لم يكن في مذهبهم جوابـًا عن المسألة الحادثة.

٢٢- إقصاء تحكيم الشريعة الإسلامية من معظم الدول الإسلامية.

قال **الشيخ العلامة ذهبي عصره المعلمي اليماني**، رداً علىٰ الكوثري، في اتهامه السلفيين، بأن مذهبهم هو قنطرة اللادينية فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهل لنا أن نسأل الكوثري عن البلاد[٣٤٠]، التي

---

(٣٤٠) المقصود بها (تركيا)، وحكوماتها، والتي كان علىٰ رأسها (أتاتورك) الخبيث.

نبذته مع أضرابه الذين لبسوا الدين مقلوباً، وجعلوا منه حُجُباً وتمائم، ومحللات نكاح بتيس مستعار، نسأله: كم كان فيها مهتدون بالكتاب والسنة ممن يسميهم: لا مذهبية سببوا لها استبدال قوانين أوربا، ومدنيتها وكفرها بدين الله حقه وباطله؟

فليسم لنا واحداً ممن سألناه عنه، فإذا لم يقدر أن يسمي واحداً في تلك البلاد.

فليقل رضي أو سخط، إن سبب خروج حكومة هذا الشعب الإسلامي علىٰ تعاليم الإسلام الصحيحة والخرافية، هو وأمثاله الذين شوهوا دين الله وجعلوه لغباً ولهواً، وعصبية وباطلاً، وحجباً وتمائم، وتحليل أنكحة.

وأنا أعفي الكوثري من السؤال عن سبب ايتبدال مصر بفقه الفقهاء، قوانين وضعية أساسها قانون "نابليون"، لعله لا يعرف ذلك، أو يعرفه ولا يعترف به: إن أمير البلاد (الخديوي إسماعيل) طلب إلىٰ شيوخها علىٰ لسان أحد المثقفين: أن يخرجوا خلاصة مذهبية مهذبة الأطراف والحواشي، مبوبة منظمة تعتمد قولاً واحداً من أقاويل متعددة لا يعرف الحق في أيها ليقدمه للمحاكم لتقضي به علىٰ المتحاكمين إليها من وطنيين وأجانب، فاستعفىٰ الأميرَ ذلك المثقف بأنه كبِرَت سنه، ولا يحب أن يطعن الشيوخُ في دينه بهذا الطلب منهم، لما يعلمه من جمودهم علىٰ ما هم فيه، وطعنهم فيمنن يحاول تحويلهم عنه.

فلجأ الأميرُ إلىٰ أرمني (رئيس وزراء مصر الأرمني) لخص له خلاصة قانون نابليون وأعلنه حكماً يتحاكم إليه في المحاكم، فنسخت بذلك شريعة الإسلام في المحاكم المدنية والجنائية وسائر المعاملات، فمن المسؤول عن تأخير فقه المذاهب، ونسخ الشريعة الإسلامية فيها حتىٰ لم تبق للمحاكم الشرعية إلا حثالة من الأحكام الشخصية، مثل الطوائف الأخرىٰ من يهود، وقبط، ومارون، في النكاح والطلاق، والعِدد، والنفقات: هل المسؤول هم المهتدون بالكتاب والسنة الذين يسميهم الكوثري لا مذهبية، أم شيوخ التقليد وعمائم المذاهب، وأعداء المهتدين بكتاب الله وسنة نبيه، أمثال الكوثري ممن اتخذوا دين الله هزواً ولعباً، ثم يذهب في غير حياء فيرمي هؤلاء الهداة المهتدين بأنهم قنطرة اللادينية بهتاً وبغياً وعدوانا، فالله حسيبه يوم القيامة"[٣٤١].

---

(٣٤١) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من أباطيل (١/ ١٢٠).

وقال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم يا أخي أن هذا الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدونة الذي عم جل من في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسي والمصائب، والدواهي التي دهت المسلمين من مدة قرون عديدة.

ولا شك أن النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيم القوانين الوضعية المنافي لأصل الإسلام؛ لأن الكفار إنما احتاجوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طرق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام. (أضواء البيان٧/ ٣٧٨)

٢٣- الغزو الفكري وانحراف الأمة ونفوذ الكفار إليها

قال **العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصنا منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم.

ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به أقوال الرجال لم تقم لهم أقوال الرجال ومذاهب الأئمة رحمهم الله مقام كلام الله والاعتصام بالقرآن، وكلام النبي ﷺ والتحصن بسنته.

ولذلك وجد الغزو الفكري طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين؛ ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلاً.

ولا شك أن كل منصف يعلم أن كلام الناس، ولو بلغوا ما بلغوا من العلم والفضل، لا يمكن أن يقوم مقام كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

وبالجملة فمما لا شك فيه أن هذا الغزو الفكري الذي قضى على كيان المسلمين، ووحدتهم وفصلهم عن دينهم، لو صادفهم وهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله لرجع مدحورا في غاية الفشل لوضوح أدلة الكتاب والسنة، وكون الغزو الفكري المذكور لم يستند إلا على الباطل والتمويه كما هو معلوم.

أضواء البيان (٧/ ٣٧٨)

٢٤- أنه سبب من أسباب تسلط الكفار على المسلمين.

قال تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾(الأنفال/).

وسبق كلام **شيخ الإسلام ابن تيمية: "وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها** حتىٰ تجد المنتسب إلىٰ الشافعي يتعصب لمذهبه علىٰ مذهب أبي حنيفة حتىٰ يخرج عن الدين، والمنتسب إلىٰ أبي حنيفة يتعصب لمذهبه علىٰ مذهب الشافعي وغيره حتىٰ يخرج عن الدين، والمنتسب إلىٰ أحمد يتعصب لمذهبه علىٰ مذهب هذا أو هذا".

٢٥- بغض الدليل والحجة والشغف بأقوال الرجال:

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** في تفسير: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾: فإنه سبحانه بتر شانئ رسوله من كل خير، ...هذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره أو كبيره.

من آثر كلام الناس وعلومهم علىٰ القرآن والسنة، فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتىٰ إن بعضهم لنسىٰ القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان"[٣٤٢].

٢٦- هذا سبيل أهل الكتاب من قبلنا.

كما قال **أبو موسىٰ**: «**إن بني إسرائيل كتبوا كتابًا فتبعوه، وتركوا التوراة**»[٣٤٣].

قلت: فقد وقع ما أخبر به، والظاهر أن له حكم الرفع، فلا تكاد ترىٰ من يعتني بتدبر وتفسير القرآن، والسنة وشروحها، وانشغل طلاب العلم بكتب الرأي وغيرها، وما يسمىٰ بالحكمة اليونانية وعلم الكلام والمنطق والفلسفة، والقيل والقال.

٢٧- كتب الرأي من البدع.

وقال عبد الله بن **أحمد** سمعت أبي يقول: «هذه الكتب بدعة وضعها»[٣٤٤].

وقال إسحاق بن منصور سمعت **أبا عبد الله** يقول: «لا يعجبني شيء من وضع الكتب من وضع شيئًا من الكتب فهو مبتدع»[٣٤٥].

---

(٣٤٢) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٢٦).

(٣٤٣) **إسناده صحيح: رواه الطبراني في الأوسط ()، الدارمي (٤٩٧)، الصحيحة (٢٨٣٢).**

(٣٤٤) **صحيح:**.

(٣٤٥) **صحيح:**.

وعن حماد بن زيد قال: قال لي ابن عون: «يا حماد هذه الكتب تضل»(٣٤٦) .

٢٨- وضع الكتب سبب من أسباب هجر السنة، وترك الحديث والأثر.

وقال **عبدالله بن أحمد**: سمعت أبي وذكر وضع الكتب فقال: «أكرهها هذا أبوفلان وضع كتابًا؛ فجاءه أبوفلان فوضع كتابًا؛ وجاء فلان فوضع كتابًا فلا انقضاء له .

كلما جاء رجل وضع كتابًا وهذه الكتب وضعها بدعة كلما جاء رجل وضع كتابًا **وترك حديث رسول الله ﷺ وأصحابه**»(٣٤٧).

وقال: «ليس إلا الاتباع والسنن، وحديث رسول الله ﷺ وأصحابه، وعاب، وضع الكتب وكرهه كراهة شديدة»(٣٤٨) .

٢٩- كتابة الكتب والعكوف عليها من اتباع غير سبيل المؤمنين من السلف الصالحين.

وقال إسحاق سمعت **أبا عبد الله** وسأله قوم من أردبيل عن رجل يقال له: عبد الرحيم وضع كتابًا فقال **أبوعبدالله**: هل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فعل ذا أو أحد من التابعين وأغلظ وشدد في أمره ،وقال: «انهوا الناس عنه **وعليكم بالحديث**» (٣٤٩).

٣٠- الكلام فيها كثير قليل البركة، وكثرة الكلام وتشقيقه من الشيطان.

فعن ابن عمر قال: قدم رجلان من المشرق خطيبان علىٰ عهد رسول الله ﷺ، فقاما فتكلما ثم قعدا، وقام ثابت بن قيس؛ خطيب رسول الله ﷺ فتكلم، فعجب الناس من كلامهما، فقام رسول الله ﷺ يخطب، فقال: «**يا أيها الناس! قولوا قولكم، فإنما تشقيق الكلام**(تزيينه والمبالغة فيه، والإكثار منه) **من الشيطان**»(٣٥٠).

عن أنس قال: خطب رجل عند **عمر**، فأكثر الكلام، فقال عمر: «إن كثرة الكلام في الخطب

---

(٣٤٦) **صحيح**:.

(٣٤٧).

(٣٤٨) **صحيح**:.

(٣٤٩) **صحيح**: ابن هانئ في «المسائل» (١٩١١).

(٣٥٠) **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٦٧٥).

من شقاشق الشيطان»[٣٥١].

عن أبي يزيد – أو : معن بن يزيد– أن النبي ﷺ قال: «**اجتمعوا في مساجدكم، وكلما اجتمع قوم فليؤذنوني**». فأتانا أول من أتىٰ، فجلس، فتكلم متكلِّم منَّا، ثم قال: إن الحمد لله الذي ليس للحمد دونه مقصد ولا وراءه منفذ، فغضب فقام، فتلاومنا بيننا، فقلنا: أتانا أول من أتىٰ، فذهب إلىٰ مسجد آخر فجلس فيه ..»[٣٥٢].

وعن **مجاهد**: أن رسول الله قال: «إن الله لم يبعث نبيًا إلا مبلغًا وإن تشقيق الكلام أو الخطب من الشيطان»[٣٥٣].

٣١- نهي السلف عن وضع الكتب في ذلك.

ولذلك نقل **ابن الجوزي** عن **الإمام أحمد** أنه: «كان يكره وضع الكتب التي تشتمل علىٰ التفريع والرأي **ويحب التمسك بالآثار**»[٣٥٤].

قال **ابن القيم** رحمه الله: «وقد رأىٰ النبي ﷺ بيد عمر كتابًا اكتتبه من التوراة وأعجبه موافقته للقرآن فتمعر وجه النبي ﷺ حتىٰ ذهب به عمر إلىٰ التنور فألقاه فيه فكيف لو رأىٰ النبي ﷺ ما صنف بعده من الكتب التي يعارض بها ما في القرآن والسنة والله المستعان؟!.

وكل هذه الكتب المتضمنة لمخالفة السنة غير مأذون فيها، بل مأذون في محقها وإتلافها وما علىٰ الأمة أضر منها، وقد حرق الصحابة جميعًا المصاحف المخالفة لمصحف عثمان لما خافوا علىٰ الأمة من الاختلاف؛ فكيف لو رأوا هذه الكتب التي أوقعت الخلاف والتفرق بين الأمة»[٣٥٥].

وقال الميموني ذاكرتُ أبا عبد الله خطأ الناس في العلم فقال: «وأي الناس لا يخطئ ولا

---

(٣٥١)**صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٦٧٦).
(٣٥٢) **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٦٧٧).
(٣٥٣) **صحيح**: رواه عبدالرزاق ()، والهروي في (ذم الكلام وأهله١/ ١١٤ –رقم٩٩).
(٣٥٤) . مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٢).
(٣٥٥) الطرق الحكمية (ص٢٣٣).

سيما من وضع الكتب فهو أكثر خطأ»[٣٥٦].

وقال المروذيٰ في موضع آخر قال **أبوعبد الله**: «يضعون البدع في كتبهم إنما أحذر عنها أشد التحذير. قلت: إنهم يحتجون **بمالك** أنه وضع كتابًا.

فقال أبوعبد الله: هذا ابن عون والتيمي ويونس وأيوب هل وضعوا كتابًا هل كان في الدنيا مثل هؤلاء؟! وكان ابن سيرين وأصحابه لا يكتبون الحديث فكيف الرأي؟![٣٥٧].

وكلام أحمد في هذا كثير جدًا قد ذكره الخلال في كتاب العلم.

وهذا قول **أبي حنيفة** في رواية عنه: «ويحك يا يعقوب! (وهو أبو يوسف): لا تكتب كلَّ ما تسمع مني، فإني قد أرىٰ الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرىٰ الرأي غداً وأتركه بعد غدٍ»[٣٥٨].

فانظروا عافاكم الله كيف أن الأئمة كانوا ينهون عن كتابة آرائهم، لا سيما ما كان عن اجتهاد وظن منهم، أما ما فهموه من النصوص فلا إشكال عليه.

وبالجملة فإن هذه الكتب قد اشتملت علىٰ كمية غير قليلة من المخالفات.

ذم التقليد

أ- تقليد السادة والرؤساء:

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ﴾(الأحزاب/ ٦٧).

ب- الآباء والأجداد والعادات:

قال تعالىٰ حاكيًا عن حال المشركين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(سورة الزخرف/ ٢٣).

جـ- تقليد المشايخ والعلماء:

قال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي: "التقليد معناه في الشرع: الرجوع إلىٰ قولٍ لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع منه في الشريعة، والإتباعُ: ما ثبت عليه حجة".وقال في

---

(٣٥٦) الطرق الحكمية نقلاً عن الخلال (ص٢٣٣).

(٣٥٧) .:

(٣٥٨) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٧٦).

موضع آخر: "كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قَبولُه بدليلٍ يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب الدليل عليك اتباعَ قوله فأنت متبعه، والإتباع في الدين مُسَوغ، والتقليد ممنوع". قال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (النور/ ٦٣)، ومن أوضحه قول الله تعالىٰ:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(سورة التوبة/ ٣١).

[نقلاً من كتاب: صحيح جامع بيان العلم وفضله/ ص٤١٨، ٤١٩].

وفي هذا يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به، وإن تضمن تحليل حرام، أو تحريم حلال". [اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٦)].

وقد ثبت من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ومن أُفتيَ بفُتيا غير ثبت فإنما إثمها علىٰ من أفتاه**»، [**صحيح لغيره**: رواه الدارمي (١٥٩)، وغيره]، وكما أن **القُضاة ثلاثة**: قاضيان في النار وواحد في الجنة[٣٥٩] **فالمُفتون ثلاثة**، ولا فرق بينهما إلا في كون القاضي يُلزِمُ بما أفتىٰ به، والمفتي لا يلزم به. وعن **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "إن حديثكم شر الحديث، وإن كلامكم شر الكلام؛ فإنكم قد حدثتم الناس حتىٰ قيل: قال فلان، وقال فلان، ويترك كتاب الله، من كان منكم قائمًا فليقم بكتاب الله، وإلاَّ فليجلس". [**إسناده صحيح**: رواه ابن عبد البر في "الجامع"]، قال **ابن حزم**: " فهذا قول عمر لأفضل قرن علىٰ ظهر الأرض فكيف لو أدرك ما نحن فيه من ترك القرآن وكلام محمد ﷺ ، وكلام أصحابه، والإقبال علىٰ ما قال مالك وأبو حنيفة والشافعي وحسبنا الله ونعم الوكيل وإنا لله وإنا إليه راجعون!"، وبنحوه قال ابن عبدالبر.

قال **ابن مسعود**: "ألا لا يقلدَنَّ أحدُكم دينَهُ رجلاً إن آمن، آمن وإن كفر، كفر، فإنه لا أسوة في الشر"، [**صحيح**: هو عند ابن عبد البر (ح١٨٨٢)، ورواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٧٥٧)] وفي رواية: "**لا تقلدوا دينكم الرِّجال**، فإن أبيتم فبالأموات لا بالأحياء".[حسن: رواه اللالكائي (ح١٣١، ١٣٠)] قال **معاذ**: " العالَمُ لا تقلدوه دينكُم". [**حسن**: رواه ابن عبد البر (ح١٨٧٢)]

---

(٣٥٩) **صحيح**: ثبت ذلك مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ، من حديث ابن عمر ينظر تخريجه في "الإرواء" (٢٦١٤).

قال **معاوية لابن عباس**: **"أنت علىٰ ملة عليّ؟.قال: لا، ولا علىٰ ملة عثمان، ولكني علىٰ ملة النبي** ﷺ". وفي لفظ: عن **ابن عباس** قال: قال لي معاوية: أنت علوي؟ قلت: ما أنا بعلوي ولا عثماني، ولكني علىٰ ملة رسول الله ﷺ".

[**إسناده صحيح**: رواه ابن حزم في "الأحكام" (١/ ٥٧٤) (٢/ ٨٨٠)، واللالكائي (١/ ٩٤-ح١٣٣)] **قال ابن حزم**: "فإذا كان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم لا يستجيزون نسبة ما يتعبدون به ربهم ولا مذاهبهم إلىٰ أبي بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا إلىٰ علي، ولا ينتسبون إلىٰ أحد دون رسول الله ﷺ فكيف بهم لو شاهدوا ما نشاهده من المصائب الهادمة للإسلام علىٰ من امتحنه الله به من الانتماء إلىٰ مذهب فلان وفلان، والإقبال علىٰ أقوال مالك وأبي حنيفة والشافعي، وترك أحكام القرآن وكلام النبي ﷺ ظهريًا، والحمد لله علىٰ تثبيته إيانا علىٰ دينه، وسنته التي مضىٰ عليها أهل الأعصار المحمودة قبل أن **تحدث بدعة التقليد** وتفشو وبالله نعتصم". [الأحكام لابن حزم (٢/ ٨٨١)]، وعن عبيد بن الحسن قال: قالت الخوراج **لعمر ابن عبد العزيز**: نريد أن تسير فينا بسيرة عمر بن الخطاب، قال: عمر بن عبد العزيز: **"قاتلهم الله!، والله ما أردت دون رسول الله إمامًا"**. [**صحيح**: رواه ابن حزم (ح١/ ٥٧٥)] وعن **ابن عيينة** قال: اضطجع ربيعة مُقَنِّعًا رأسه وبكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: "رياء ظاهر، وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم: ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروا به ائتمروا!" [**صحيح الإسناد**: رواه ابن عبد البر في "جامعه" (ح١٨٨٥)].

نهي الأئمة الأربعة عن تقليدهم:

وقد نهىٰ الأئمة الأربعة عن تقليدهم، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة؛

فقد قال الإمام أبوحنيفة: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"[٣٦٠].

وقال أيضًا: "لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه"[٣٦١].

قال **شيخنا العلامة**: "فإذا كان هذا قولهم فيمن لم يعلم دليلهم، فليت شعري!، ماذا يقولون فيمن علم أن الدليل خلاف قولهم، ثم أفتىٰ بخلاف الدليل؟

---

(٣٦٠) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٤٦).

(٣٦١) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٤٦).

فتأمل في هذه الكلمة، فإنها وحدها كافية في تحطيم التقليد الأعمىٰ، ولذلك أنكر بعض المقلدة من المشايخ نسبتها إلىٰ أبي حنيفة حين أنكرت عليه إفتاءه بقول لأبي حنيفة لم يعرف دليله![٣٦٢].

الإمام أبي حنيفة رحمه الله:

وقال **أبو حنيفة** أيضـًا: "حرام علىٰ مَن لم يعرف دليلي أن يُفتي بكلامي"، -زاد في رواية:- "فإننا بَشَر، نقول القول اليوم ونرجع عنه غداً"[٣٦٣].

وفي رواية عنه: "ويحك يا يعقوب! (وهو أبو يوسف): لا تكتب كلَّ ما تسمع مني، فإني قد أرىٰ الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرىٰ الرأي غداً وأتركه بعد غدٍ"[٣٦٤].

وفي «روضة العلماء الزندويستية في فضل الصحابة»: " قيل لأبي حنيفة: إذا قلتُ قولاً وكتاب الله يخالفه؟

قال: اتركوا قولي بكتاب الله، فقيل: إذا كان خبر رسول الله ﷺ يخالفه؟

قال: اتركوا قولي بخبر الرسول ﷺ، فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بقول الصحابة"[٣٦٥].

الإمام مالك بن أنس رحمه الله:

وقال جعفر الفريابي: حدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثني الهيثم بن جميل قال: قلت **لمالك بن أنسٍ**: يا أبا عبد الله إن عندنا قومـًا وضعوا كتبـًا يقول أحدهم ثنا فلان عن فلان عن عمر بن الخطاب بكذا وكذا وفلان عن إبراهيم بكذا، ويأخذ بقول إبراهيم، قال مالك: وصَحَّ عندهم قول عمر؟ قلت: إنما هي رواية كما صح عندهم قول إبراهيم، فقال مالك: هؤلاء يستتابون[٣٦٦]. وقال **أيضـًا**: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب

---

(٣٦٢) صفة الصلاة" (ص٤٧).

(٣٦٣) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٤٧).

(٣٦٤) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٧٦).

(٣٦٥) إرشاد النقاد (ص١٤١، ١٤٢)، والقول المفيد للشوكاني (ص٢٢، ٢٣).

(٣٦٦) تقدم (ص٢٤٩).

والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"[٣٦٧]. وقال **أيضـًا**: "ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك، إلا النبي ﷺ"[٣٦٨].

وقال أيضـًا: "". (ذم الكلام/ ٨٦١).

الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله:

وقال **الشافعي**: "مَثَلُ الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليلٍ، يحمل حُزمة حطب وفيه أفعىٰ تلدغه وهو لا يدري"[٣٦٩].

وقال **أيضـًا**: "ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلتُ من قول، أو أصّلتُ من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي"[٣٧٠].

وقال **أيضـًا**: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلتُ"، وفي رواية: "فاتبعوها، ولا تلتفتوا إلىٰ قول أحد"[٣٧١].

وقال أيضـًا: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"[٣٧٢].

وقال **أيضـًا**: "كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي"[٣٧٣].

وقال **أيضـًا**: "كل ما قلت، فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح؛ فحديث النبي أولىٰ؛ فلا تقلدوني"[٣٧٤].

الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله:

---

(٣٦٧) صفة الصلاة (ص٤٨).
(٣٦٨) ينظر تخريجه في "صفة صلاة النبي ﷺ" (ص٤٩).
(٣٦٩) رواه البيهقي ().
(٣٧٠) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).
(٣٧١) **صحيح الإسناد**: يراجع تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).
(٣٧٢) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).
(٣٧٣) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٢).
(٣٧٤) **إسناده صحيح**: يراجع تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٢).

وقال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع من مالك؟ قال: "لا تقلد دينَكَ أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعي بعدُ الرجلُ فيه مخير"(٣٧٥).

قال **ابن القيم**: وقد فرق أحمد بين التقليد والإتباع.

فقال أبو داود: سمعت **أحمد** يقول: "الإتباع أن يتبع الرجلِ ما جاء عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ثم هو من بعد في التابعين مخير"(٣٧٦).

وقال **أيضـًا**: لا تقلدني ولا تقلد مالكـًا ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا"، وقال: "من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال"(٣٧٧).

أقوال علماء وأئمة كل مذهب ممن ذم التقليد أو نهىٰ عنه:

ولما كان كل أصحاب مذهب لا يقبلون الحق إلا من أصحابهم فها أنا ذا أنقل من أقوال علماء كل مذهب من المذاهب الأربعة بعدما نقلتُ جملة من أقوال أئمة المذاهب، ليعلم القاصي والداني أن ذم التقليد والنهي عنه كان أمراً سائداً مشهوراً عند العلماء الأوائل، وأن القول بالتقليد وإلزام الناس به قول مبتدع بعد قرون الخيرية.

المذهب الحنفي:

وقال بشر بن الوليد: قال **أبو يوسف**: "لا يحل لأحد أن يقول مقالَتَنَا حتىٰ يعلم من أين قلنا"(٣٧٨).

وقال الإمام **الطحاوي**: "لا يقلد إلا عصبي أو غبي"(٣٧٩).

المذهب المالكي:

قال أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي: الإتباعُ: ما ثبت عليه حجة".

وقال في موضع آخر من كتابه: "كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قَبولُه بدليلٍ

---

(٣٧٥) مسائل الإمام أحمد (ص٢٧٦).

(٣٧٦) المصدر السابق.

(٣٧٧) إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٢)، وصفة الصلاة (ص٥٣).

(٣٧٨) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٥٠).

(٣٧٩) ينظر تخريجه في "صفة الصلاة" (ص٤٥).

يوجب ذلك فأنت مقلده، **والتقليد في دين الله غير صحيح**، وكل من أوجب الدليل عليك اتباعَ قوله فأنت متبعه، **والاتباع في الدين مُسَوغ، والتقليد ممنوع**". (جامع بيان العلم/).

قال أبو عمر ابن عبد البر: قد ذم الله تبارك وتعالىٰ التقليد في غير موضع من كتابه فقال: ﴿**اتخذوا أَحْبَارَهُم ورُهْبَانهم أربابًا من دون الله**﴾ (التوبة: ٣١).

وروي عن **حذيفة وغيره**(٣٨٠) قال: "لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أَحَلُّوا لهم وحرَّموا عليهم فاتبعوهم". (جامع بيان العلم/).

وقال العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَىٰ اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ أَرْبَابًا، وَيُفْهَمُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ بِوُضُوحٍ لَا لَبْسَ فِيهِ أَنَّ مَنِ اتَّبَعَ تَشْرِيعَ الشَّيْطَانِ مُؤْثِرًا لَهُ عَلَىٰ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ، عَابِدٌ لِلشَّيْطَانِ، مُتَّخِذٌ الشَّيْطَانَ رَبًّا، وَإِنْ سَمَّىٰ اتِّبَاعَهُ لِلشَّيْطَانِ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَسْمَاءِ؛ لِأَنَّ الْحَقَائِقَ لَا تَتَغَيَّرُ بِإِطْلَاقِ الْأَلْفَاظِ عَلَيْهَا، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ»(أضواء البيان١/ ٣٠٧).

المذهب الشافعي:

وقال **إسماعيل بن يحيىٰ المزني** في مختصره: "اختصرت هذا من علم الشافعي، ومن معنىٰ قوله، لأُقَرِّبَهُ علىٰ من أراده، مع إعلامية نَهْيِهِ عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه". والله أعلم.

المذهب الحنبلي:

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "قد ذم الله تعالىٰ في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلىٰ ما نشأ عليه من دين آبائه، وهذا هو التقليد الذي حرمه الله ورسوله، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول، وهذا حرام باتفاق المسلمين علىٰ كل أحد، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرسول طاعته فرض علىٰ كل أحد من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان، في سره وعلانيته، وفي جميع أحواله.

وهذا من الإيمان قال الله تعالىٰ-: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتىٰ يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾(النساء/ ٦٥).

---

(٣٨٠) يأتي تخريجه ضمن حديث عدي بن حاتم الآتي تحت أدلة تحريم التقليد.

وقال: ﴿**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلىٰ الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا**﴾().

وقد أوجب الله طاعة الرسول علىٰ جميع الناس في قريب من أربعين موضعاً من القرآن، وطاعته طاعة لله، وهي: عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك دين الله وهو الإسلام، وكلمن أمر الله بطاعته من عالم وأمير ووالد وزوج، فلأن طاعته طاعة لله، وغلا فإذ أمر بخلاف طاعة الله فإنه لا طاعة له.

والعالم إذا أفتىٰ المستفتي ما لم يعلم المستفتي أنه مخالف لأمر الله، فلا يكون المطيع لهؤلاء عاصياً.

وأما إذا علم أنه مخالف لأمر الله فطاعته في ذلك معصية لله.

ولهذا نقل غير واحد الإجماع علىٰ أنه لا يجوز للعالم أن يقلِّد غيره إذا كان قد اجتهد واستدل وتبين له الحق الذي جاء به الرسول.

فهنا لا يجوز له تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع.

والمقصود هنا أن التقليد المحرم بالنص والإجماع، أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك كائناً من كان المخالف لذلك.

قال الله تعالىٰ: ﴿**ويوم يعض الظالم علىٰ يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، يا ويلتىٰ ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولاً، وقال الرسول: يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً**﴾(الفرقان/).

وقال تعالىٰ: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾()إلىٰ قوله: ﴿**ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، صم بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾()، فذكر براءة المتبوعين من أتباعهم في خلاف طاعة الله، ذكر هذا بعد قوله: ﴿**وإلاهكم إله واحد**﴾()، فالإله الواحد هو: المعبود والمطاع، فمن أطاع متبوعاً في خلاف ذلك فله نصيب من هذا الذم.

ثم إنه سبحانه لما ذكر حال من يقول علىٰ الله بلا علم بل تقليداً لسلفه، (وهذا) حال من عدل عنها إلىٰ خلافها والعادل عنها إلىٰ خلافها يدخل فيه من قلد أحداً من الأولين والآخرين

فيما يعلم أنه خلاف قول الرسول، سواء كان صاحبًا او تابعًا أو أحد الفقهاء المشهورين الأربعة أو غيرهم.

وأما من ظن أن الذين قلدهم موافقون للرسول فيما قالوه، فإن كان قد سلك في ذلك طريقًا علميًا فهو مجتهد له حكم أمثاله، وإن كان متكلمًا بلا علم فهو من المذمومين.

ومن ادعىٰ إجماعًا يخالف نص الرسول من غير نص يكون موافقًا لما يدعيه، واعتقد جواز مخالفة أهل الإجماع للرسول برأيهم، وأن الإجماع ينسخ النص كما تقوله طائفة من أهل الكلام والرأي فهذا من جنس هؤلاء.

وأما من يعتقد أن الإجماع يدل علىٰ نص لم يبلغنا يكون ناسخًا للأول، فهذا وإن كان لم يقل قولاً سديداً فهو مجتهد في ذلك، يبين له فساد ما قاله.

كمن عارض حديثًا صحيحًا بحديث ضعيف اعتقد صحته، فإن قوله وإن لم يكن حقًا لكن يبين له ضعفه، وذلك بأن يبين له عدم الإجماع المخالف للنص، أو يبين له أنه لم تجتمع الأمة علىٰ مخالفة نص إلا معها نص معلوم يعلمون أنه الناسخ للأول، فدعوىٰ تعارض النص والإجماع باطلة، ويبين له أن مثل هذا لا يجوز، فإن النصوص معلومة محفوظة، والأمة مأمورة بتتبعها واتباعها"[٣٨١].ا-هـ مختصراً.

المذهب الظاهري:

قال **ابن حزم**: «واعلموا رحمكم الله أني أقول إعلانًا لا أسره أن تقليد الآراء لم يكن قط في قرن الصحابة ولا في قرن التابعين ولا في قرن تابعي التابعين وهذه هي القرون التي أثنىٰ النبي ﷺ عليها، **وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم علىٰ لسان النبي** ﷺ، وأنه لا سبيل إلىٰ وجود رجل واحد في القرون الثلاثة المتقدمة قلَّد صاحبًا أو تابعًا أو إمامًا أخذ عن في جميع قوله، فأخذه كما هو وتديّنَ به وأفتىٰ به الناسَ، فالله الله في أنفسكم! لا تفارقوا ما مضىٰ عليه جميع الصحابة أولهم عن آخرهم وتابعهم عن متبوعهم، وتابعو التابعين أولهم عن آخرهم، دون خلاف من واحد منهم من ترك التقليد واتباع أحكام القرآن وحديث النبي ﷺ وروايته والعمل به.

---

(٣٨١) مجموع الفتاوي (١٩/ ٢٦٠-٢٦٧).

فاجتنبوا هذه الحادثة في القرن المذموم المخالفة للإجماع المتقدم، وبعد أزيد من مائتين وخمسين عامًا من موت النبي ﷺ فكل بدعة ضلالة، فقد نصحتُ لكم وأديتُ ما لزمني في ذلك، وبقي ما عليكم فقد صح عن النبي ﷺ قوله: «**الدين النصيحة**». إلىٰ أن قال: «ولنعرف ما اختلف فيه العلماء فيُعرض علىٰ كتاب الله عز وجل وعلىٰ حديث النبي ﷺ فلأي تلك الأقوال شهد القرآن والسنةُ أخذنا به، ونترك سائر ذلك إن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر...»[٣٨٢].

نقل أقوال أئمة الدعوة في الاتِّباع وعدم التقليد:

وقال **الإمام محمد بن عبد الوهاب** –رحمه الله تعالىٰ– في رسالته إلىٰ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الأحسائي: "... أقول –ولله الحمد والمنة وبه القوة–: ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ٹ ٹ ﴾ (سورة الأنعام/ ١٦١)، ولست –ولله الحمد– أدعو إلىٰ مذهب صوفي، أو فقيه، أو متكلم، أو إمامٍ من الأئمة الذي أعظمهم مثل: ابن القيم والذهبي، وابن كثير، أو غيرهم، بل أدعو إلىٰ الله وحده لا شريك له، وأدعو إلىٰ سنة رسول الله ﷺ التي أوصىٰ بها أول أمته وآخرهم". انظر: "الدرر السنية": (١/ ٣٧)، **وسئل** –رحمه الله–: "هل الواجب علىٰ كل مسلم أن يطلُبَ علم ما أنزل الله علىٰ رسوله ولا يُعذر أحدٌ في تركه ألبتة؟ أم يجب عليه أن يتبع "التحفة"[٣٨٣] –مثلاً–؟

فأعلمُ المتأخرين وساداتهم منهم كابن القيم قد أنكروا هذا غاية الإنكار، وأنه تغييرٌ لدين الله، واستدلوا علىٰ ذلك بما يطول وصفه من كتاب الله الواضح، ومن كلام رسول الله ﷺ البين لمن نور الله قلبه، والذين يجيزون ذلك –يعني: التقليد– أو يوجبونه يُدلون بشبهٍ واهية، ولكن أكبرُ شبههم علىٰ الإطلاق: إنا لسنا من أهل ذلك، ولا نقدر عليه، ولا يقدر عليه إلا المجتهد، ﴿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ﴾ (سورة الزخرف/ ٢٣).

وقال: "وهذه رسالة لا تحتمل إقامة الدليل، ولا جواباً عما يُلقي به المخالف، لكن أعرض عليه من نفسي الإنصاف والانقياد للحق، فإن أردتم الرد عليّ بعلم وعدل؛ فعندكم كتاب

---

(٣٨٢) كتاب: "التلخيص لوجوه التخليص" لابن حزم (ص١٣٣: ١٣٨) بإختصار يسير.

(٣٨٣) يعني: "التحفة" لابن حجر الهيتمي المكي الشافعي؛ وهي من كتب فقه الشافعية.

"إعلام الموقعين" لابن القيم عند ابن فيروز في مشرفة(٣٨٤)، فقد بسط الكلام فيه علىٰ هذا الأصل بسطاً كثيراً، وسرد من شبه أئمتكم ما لا تعرفون أنتم ولا آباؤكم، وأجاب عنها" انتهىٰ. انظر: "الدرر السنية": (١/ ٣٩- ٤١)، وقد وردت مسائل علىٰ **ولديّ شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، حسين وعبد الله** رحمهم الله جميعاً، فأجابا بما هو الصواب.

الأولىٰ: ما عقيدة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في العمل في العبادات والفروع؟.

"الجواب: الحمد لله رب العالمين: أن عقيدة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ التي يدين اللهَ بها هي عقيدتنا وديننا الذي ندين الله به، وهي عقيدة سلف الأمة، وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهو اتباع ما دلّ عليه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله، وعرض أقوال العلماء علىٰ ذلك فما وافق كتاب الله وسنة رسوله قبلناه وأفتينا به، وما خالف ذلك رددناه علىٰ قائله... والأدلة علىٰ هذا الأصل كثيرة في الكتاب والسنة ليس هذا موضع بسطها.

وإذا تفقه الرجل في مذهب من المذاهب الأربعة ثم رأىٰ حديثاً يخالف مذهبه فاتبع الدليل، وترك مذهبه كان هذا مستحباً، بل واجباً عليه إذا تبيّن له الدليل، ولا يكون مخالفاً لإمامه الذي اتبعه فإن الأئمة كلهم متفقون علىٰ هذا الأصل كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

... وهذا عمل سلف الأمة، وأئمتها قديماً وحديثاً، والذي ننكره هو التعصب للمذاهب، وترك اتباع الدليل، إذا تبيّن هذا فهذا الذي أنكرناه، وأنكره العلماء في القديم والحديث، والله أعلم. مجموعة الرسائل والمسائل النجدية (١/ ٣٢).

وقال **الشيخ حمد بن ناصر بن معمر** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-، بعد أن نقل عن **ابن عبد البر** -رَحِمَهُ اللَّهُ- كلامه في "التقليد" من كتاب "جامع بيان العلم وفضله"، ثم قال: "فتأمل ما في هذا الكلام من الرد علىٰ من يقول: **بلزوم التمذهب بمذهب من هذه المذاهب الأربعة**، لا يخرج عن ذلك المذهب، ولو وجد دليلاً يخالفه، لأن الإمام صاحب المذهب أعلم بمعناه. ويجعل هذا عذراً له في رد الحديث أو ترك العمل به إذا خالف المذهب.

---

(٣٨٤) اسم مكان.

وتأمل قول -**ابن عبد البر**-: (**لا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد**)، ومراده هنا: إذا كان المقلد قادراً علىٰ الاستدلال، وأما العاجز عنه فهو كالأعمىٰ يقلد في جهة القبلة، فهو معذورٌ إن كان عاجزاً.

وقد حكىٰ الإمام أبو محمد ابن حزم الإجماع علىٰ أنه: **لا يجوز التزام مذهبٍ بعينه لا يخرج عنه**، فقال: (أجمعوا علىٰ أنه لا يجوز لحاكم ولا لمفتٍ تقليد رجل؛ فلا يحكم ولا يفتي إلا بقوله) انتهىٰ.

فحكاية الإجماع من هذين الإمامين –أعني: أبا عمر ابن عبد البر، وأبا محمد بن حزم- كافٍ **في إبطال قول المتعصبين للمذهب**". ["الدرر السنية": (٤/ ٦٣-٦٤) ط: الجديدة]

ويقول **الشيخ عبد الرحمن بن حسن**؛ فيمن أنكر الحكم برجحان العمل بالحديث الصحيح في مقابلة المذهب الملتزم:"هذا من محدثات الأمور التي ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف/ ٣)، وقال:﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ . . .﴾ الآية (سورة النساء/ ٥٩).وهذا أصل عظيم من أصول الدين، قال العلماء –رحمهم الله-: "كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ". وهذا القول الذي يقوله هؤلاء يُفضي إلىٰ هجران الكتاب والسنة، وتبديل أحكام النصوص، كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، والكتاب والسنة شفاء وهدىٰ لمن أصغىٰ إليهما، ومن طلب الحق منهما ناله وفهمه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص/ ٢٩)، والأمر بتدبره والتذكر ليس مخصوصاً بالعلماء المجتهدين بل عام لكل من ناله فهم يدرك به معنىٰ الكلام، والتقليد المفضي إلىٰ هذا الإعراض عن تدبر الكتاب والسنة فيه شبهُ بمن قال الله فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ﴾ (الشورىٰ/ ٢١)". انتهىٰ. "مجموعة الرسائل والمسائل النجدية" (٢/ ٢/ ٣٤).

وقال **سماحة شيخنا الإمام الشيخ: عبد العزيز بن عبد الله بن باز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رده علىٰ الصابوني؛ لما قال عن تقليد الأئمة الأربعة: (إنه من أوجب الواجبات)، قال الشيخ: "لا شك أن هذا الإطلاق خطأ؛ إذ لا يجب تقليد أحدٍ من الأئمة الأربعة ولا غيرهم، مهما كان علمه؛ لأن

الحق في اتباع الكتاب والسنة، لا في تقليد أحدٍ من الناس.

وإنما قصارىٰ الأمر أن يكون التقليد سائغاً عند الضرورة؛ لمن عرف بالعلم والفضل واستقامة العقيدة، كما فصل ذلك العلامة ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- في كتابه: "إعلام الموقعين".

ولذلك كان الأئمة -رحمهم الله- لا يرضون أن يؤخذ من كلامهم إلا ما كان موافقاً للكتاب والسنة".

وذكر -رَحِمَهُ اللَّهُ- مقالة مالك المشهورة في هذا الباب، ثم قال: (فالذي يتمكن من الأخذ بالكتاب والسنة يتعين عليه ألا يقلد أحداً من الناس، ويأخذ عند الخلاف بما هو أقرب الأقوال لإصابة الحق.

والذي لا يستطيع ذلك فالمشروع له: أن يسأل أهل العلم، كما قال الله -عز وجل: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل/ ٤٣، والأنبياء/ ٧)" انتهىٰ كلامه". "مجموع فتاوىٰ ومقالات الشيخ": (٣/ ٥٢).

وسئل **العلامة ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: كثر عند بعض الشباب الصالح القول بعدم التقليد مستندين إلىٰ بعض أقوال ابن القيم عليه رحمة الله، فما قولكم؟

فأجاب بقوله: "الحقيقة إنني أؤيد هذا، أن الإنسان لا يركن إلىٰ التقليد لأن المقلَّد قد يخطئ، ولكني مع ذلك لا أرىٰ أن نبتعد عن أقوال أهل العلم السابقين حتىٰ لا نتشتت، ولكن إذا دعت الضرورة إلىٰ التقليد فإنه لابد منه لقول الله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(الأنبياء/ ٧)، فأوجب سبحانه سؤال أهل الذكر إذا كنا لا نعلم، وسؤالهم يتضمن اعتماد قولهم، وإلا لم يكن لسؤالهم فائدة.

فالتقليد كما قال شيخ الإسلام بمنْزلة الميتة إن اضطررت إليها فكلها، وإن استغنيت عنها فهي حرام عليك، فمتىٰ نزل بالإنسان نازلة ولا يتمكن من مطالعتها في الكتب التي تسوق الأدلة فلا حرج عليه حينئذ أن يقلِّد". "كتاب العلم": (ص١٢٦).

كتاب صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ

"وهو المسند الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله {ﷺ} وسننه وأيامه كما سماه مؤلفه المشهور بصحيح البخاري للإمام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث أبي عبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري المتوفي بقرية خرتنك سنة ست وخمسين ومائتين.

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «جماع الخير أن يستعين بالله في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ، فإنه هو الذي يستحق أن يسمىٰ علماً، وما سواه إما أن يكون علماً نافعاً، وإما ألا يكون علماً، وإن سُمِّي به، ولئن كان علماً نافعاً فلابد أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه، وليكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه، فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل إذا أمكنه ذلك، وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي ﷺ **وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من "صحيح محمد بن إسماعيل البخاري"** لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم". الفتاوىٰ (١٠/ ٦٥٣).

قال **الصديق حسن خان**: هو أول مصنف صنف في الصحيح المجرد وأول الكتب الستة في الحديث وأفضلها قال النووي في شرح صحيح مسلم: اتفق العلماء علىٰ أن أصح الكتب بعد القرآن الكريم الصحيحان صحيح البخاري وصحيح مسلم وتلقاهما الأئمة بالقبول وكتاب البخاري أصحهما صحيحا وأكثرهما فوائد، وليس كتاب يساوي صحيح البخاري في باب الصحة بدليل كمال الصفات التي اعتبرت في الصحة في رجاله". الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٥٨)

قال **الصديق حسن خان**: "وأما فضله فهو أصح الكتب المؤلفة في هذا الشأن والمتلقىٰ بالقبول من العلماء في كل زمان يقول أبو زيد المروزي: كنت نائما بين الركن والمقام فرأيت النبي {ﷺ} في المنام فقال لي: يا أبا زيد إلىٰ متىٰ تدرس الشافعي وما تدرس كتابي فقلت يا رسول الله وما كتابك؟ قال: **جامع محمد بن إسماعيل البخاري** وقال الذهبي في تاريخ الإسلام وأما جامع البخاري الصحيح فأجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالىٰ وهو أعلىٰ في وقتنا هذا إسنادا للناس ومن ثلاثين سنة يفرحون بعلو سماعه فكيف اليوم فلو رحل الشخص

لسماعه من ألف فرسخ لما ضاعت رحلته انتهىٰ وهذا قاله الذهبي في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة

وروىٰ بالإسناد الثابت عن البخاري أنه قال رأيت النبي {ﷺ} وكأني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب بها عنه فسألت بعض المعبرين فقال لي أنت تذب عنه الكذب فهو الذي حملني علىٰ إخراج الصحيح وأيضا قال البخاري كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لي بعض أصحابه لو جمع أحد كتابا مختصرا في السنن الصحيحة عن رسول الله {ﷺ} التي بلغت من الصحة أقصىٰ درجاتها كان أحسن وتيسر العمل عليه للعاملين من دون مراجعة إلىٰ المجتهدين قال فوقع ذلك في قلبي وأخذ بمجامع خاطري فصنفت هذا الجامع الصحيح

وقال النسائي أجود هذه الكتب كتاب البخاري وقال البخاري ما كتبت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وقال أخرجته من نحو ست مائة ألف حديث وصنفته في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالىٰ وقال ما أدخلت فيه إلا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر حتىٰ يطول وقال صنفت كتابي هذا في المسجد الحرام وما أدخلت فيه حديثا حتىٰ استخرت الله تعالىٰ وصليت ركعتين وتيقنت صحته

وقال الفربري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قال البخاري ما وضعت في الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وأرجو أن يبارك الله تعالىٰ في هذه المصنفات

وروىٰ عن عبد القدوس بن همام قال سمعت عدة من المشايخ يقولون حول البخاري تراجم جامعة بين قبر النبي {ﷺ} ومنبره وكان يصلي لكل ترجمة ركعتين.

وبقي في تصنيفه ست عشرة سنة قال الحاكم قال أبو عمرو اسماعيل حدثنا أبوعبدالله محمد بن علي قال سمعت البخاري يقول أقمت بالبصرة خمس سنين معي كتبي أصنف وأحج في كل سنة وأرجع من مكة إلىٰ البصرة انتهىٰ

وقال الشيخ أبومحمد عبدالله بن أبي جمرة قال لي من لقيت من العارفين عمن لقيه من السادة المقر لهم بالفضل أن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت ولا ركب به في مركب إلا بخت قال وكان مجاب الدعوة وقد دعا لقارئه.

وقال الحافظ **عماد الدين ابن كثير**: وكتاب البخاري الصحيح يستسقىٰ بقراءته الغمام وأجمع علىٰ قبوله وصحة ما فيه أهل الإسلام".

قال الشيخ **عبدالحق الدهلوي** في "أشعة اللمعات": قرأ كثير من المشايخ والعلماء والثقات صحيح البخاري لحصول المرادات وكفاية المهمات وقضاء الحاجات ودفع البليات وكشف الكربات وصحة الأمراض وشفاء المرضىٰ عند المضايق والشدائد فحصل مرادهم وفازوا بمقاصدهم ووجدوه كالترياق مجربا وقد بلغ هذا المعنىٰ عند علماء الحديث مرتبة الشهرة والاستفاضة"

الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٦٩، وما بعدها)

قلت: ولا شك أن هذا لا يستدل به، وليس بحجة، ولكنه يستأنس به، ولا بأس به في مثل هذا لبركة حديث النبي ﷺ.

وما أحسن قول البرهان القيراطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في صحيح البخاري نظم:

حدث وشنف بالحديث مسامعي فحديث من أهوىٰ حلىٰ مسامعي
لله ما أحلىٰ مكرره الذي يحلو ويعذب في مذاق السامع
بسماعه نلت الذي أملته وبلغت كل مطالبي ومسامعي
وطلعت في أفق السعادة صاعدا في خير أوقات وأسعد طالع
ولقد هديت لغاية القصد التي صحت أدلته بغير ممانع
وسمعت نصا للحديث معرفا مما تضمنه كتاب الجامع
وهو الذي يتلىٰ إذا خطب عرىٰ فتراه للمحذور أعظم دافع
كم من يد بيضاء حواها طرسه توىٰ إلىٰ طرق العلىٰ بأصابع
وإذا بدا بالليل أسود نقشه يجلو علينا كل بدر ساطع

ولأبي الفتوح العجلي نظم:

صحيح البخاري يا ذا الأدب قوي المتون علىٰ الرتب
قويم النظام بهيج الردا خطير يروج كنقد الذهب
فتبيانه موضح المعضلات وألفاظه نخبة للنخب
مفيد المعالي شريف المعالي رشيق أنيق كثير الشعب

سما عزه فوق نجم السما فكل جميل به يجتلب
سناء منير كضوء الضحىٰ ومتن مزيج لشوب الريب
كأن البخاري في جمعه تلقىٰ من المصطفىٰ ما اكتتب
فلله خاطره إذ وعىٰ وساق فرائده وانتخب
جزاه الإله بما يرتضي وبلغه عاليات القرب

الحطة فى ذكر الصحاح الستة (ص: ١٧٠)

ولأبي عامر الفضل بن اسماعيل الجرجاني الأديب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ نظم

صحيح البخاري لو أنصفوه لما خط إلا بماء الذهب
هو الفرق بين العمىٰ والهدىٰ والسد دون العنا والعطب
أسانيده مثل نجوم السماء أمام متون كمثل الشهب
به قام ميزان دين النبي ودان له العجم بعد العرب
بأب من النار لا شك فيه يميز بين الرضا والغضب
خير رفيق إلىٰ المصطفىٰ ونور مبين لكشف الريب
يا عالما أجمع العالمون علىٰ فضل رتبته في الرتب
حث الأئمة فيما جمعت وفزت علىٰ زعمهم بالقصب
بت السقيم من الغافلين ومن كان متهما بالكذب
حيت من عدلته الرواة وصحت روايته في الكتب
برزت في حسن ترتيبه وتبويبه عجبا للعجب
فأعطاك ربك ما تشتهيه وأجزل حظك فيما يهب
يصك في عرصات الجنان بخير يدوم ولا يقتضب

فلله دره من تأليف رفع علم علمه بمعارف معرفته وتسلسل حديثه الجامع فأكرم بسنده العالي ورفعته، الحطة فى ذكر الصحاح الستة (ص: ١٧٠)

وقال **الصديق حسن خان**: "اعلم أن البخاري قد التزم مع صحة الأحاديث استنباط الفوائد الفقهية والنكتة الحكمية فاستخرج بفهمه الثاقب من المتون معاني كثيرة فرقها في أبوابه بحسب المناسبة واعتنىٰ فيها بآيات الأحكام وسلك في الإشارات إلىٰ تفسيرها السبل الوسيعة

ومن ثم أخلىٰ كثيرا من الأبواب من ذكر إسناد الحديث واقتصر علىٰ قوله فلان عن النبي {ﷺ} وقد يذكر المتن بغير إسناد وقد يورده معلقا لقصد الاحتجاج إلىٰ ما ترجم له وأشار للحديث لكونه معلوما سبق قريبا ويقع في كثير من أبوابه أحاديث كثيرة وفي بعضها آية من القرآن فقط وفي بعضها لا شيء فيه". الحطة فى ذكر الصحاح الستة (ص: ١٦٠)

وقال: "ثم إن تراجم الأبواب قد تكون ظاهرة وخفية فالظاهرة أن تكون دالة بالمطابقة لما يورده وقد تكون بلفظ المترجم له أو ببعضه أو بمعناه، وكثيرا ما يترجم بلفظ الاستفهام وبأمر ظاهر وبأمر يختص ببعض الوقائع وكثيرا ما يترجم بلفظ يؤدي إلىٰ معنىٰ حديث ولم يصح علىٰ شرطه أو يأتي بلفظ الحديث الذي لم يصح علىٰ شرطه صريحا في الترجمة ويورد في الباب ما يؤدي معناه بأمر ظاهر تارة وتارة بأمر خفي فكأنه يقول لم يصح في الباب شيء علىٰ شرطي ولهذا اشتهر في قول جمع من الفضلاء فقه البخاري في تراجمه وللغفلة عن هذه الدقيقة اعتقد من لم يمعن النظر أنه ترك الباب بلا تبييض وبالجملة فتراجمه حيرت الأفكار وأدهشت العقول والأبصار وإنما بلغت هذه المرتبة لما روي أنه بيضها بين قبر النبي {ﷺ} ومنبره وإنه كان يصلي لكل ترجمة ركعتين وأما تقطيعه للحديث واختصاره وإعادته في الأبواب فإنه كان يذكر الحديث في مواضع ويستدل به في كل باب بإسناد آخر ويستخرج منه معنىٰ يقتضيه الباب الذي أخرجه فيه وقلما يورد حديثا في موضعين بإسناد واحد ولفظ واحد وإنما يورده من طريق أخرىٰ لمعان والتي ذكرها في موضعين سندا ومتنا معا ثلاثة وعشرون حديثا وأما اقتصاره علىٰ بعض المتن من غير أن يذكر الباقي في موضع آخر فإنه لا يقع له ذلك في الغالب إلا حيث يكون المحذوف موقوفا علىٰ الصحابي وفيه شيء قد يحكم برفعه فيقتصر علىٰ الجملة التي حكم لها بالرفع ويحذف الباقي لأنه لا تعلق له بموضع كتابه كذا في مقدمة فتح الباري وصل

وأما إيراد البخاري الأحاديث المعلقة مرفوعة وموقوفة فيوردها تارة مجزوما بها كقال وفعل فعلها حكم الصحيح وتارة غير مجزوم بها كيروىٰ ويذكر وتارة يوجد في موضع آخر منه موصولا وتارة معلقة للاختصار أو لكونه لم يحصل عنده مسموعا أو شك في سماعه أو سمعه مذاكرة ولم يورده في موضع آخر فمنه ما هو صحيح إلا أنه ليس علىٰ شرطه ومنه ما هو حسن ومنه ما هو ضعيف وأما الموقوفات فإنه يجزم فيها بما صح عنده ولم يكن علىٰ شرطه ولا يجزم بما كان في إسناده ضعف أو انقطاع وإنما يورده علىٰ طريق الاستئناس والتقوية لما يختاره من

المذاهب والمسائل التي فيها الخلاف بين الأئمة فجميع ما يورده فيه إما أن يكون مما ترجم به أو مما ترجم له فالمقصود في هذا التأليف بالذات هو الأحاديث الصحيحة وهي التي ترجم لها". الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٦١).

قال **الصديق حسن خان**: "قال **ولي الله المحدث الدهلوي**: أول ما صنف أهل الحديث في علم الحديث وجعلوه مدونا في أربعة فنون في السنة أعني الذي يقال له الفقه مثل موطأ مالك وجامع سفيان وفن التفسير مثل كتاب ابن جريج وفن السير مثل كتاب محمد بن اسحاق وفن الزهد مثل كتاب ابن المبارك فأراد البخاري أن يجمع الفنون الأربعة في كتاب ويجرد ما حكم له العلماء بالصحة قبل البخاري وفي زمانه ويجرده للحديث المرفوع المسند وما فيه من الآثار وغيرها إنما جاء تبعا لا بالأصالة لهذا سمي كتابه بالجامع الصحيح المسند وأراد أن يفرغ جهده في الاستنباط من حديث رسول الله {ﷺ} ويستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جدا وهذا أمر لم يسبقه إليه غيره غير أنه استحسن أن يفرق الأحاديث في الأبواب ويودع في تراجم الأبواب سر الاستنباط". الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٦٢)

وجملة تراجم أبوابه تنقسم أقساما منها أنه يترجم بحديث مرفوع ليس علىٰ شرطه ويذكر في الباب حديثا شاهدا له علىٰ شرطه

ومنها أنه يترجم بحديث مرفوع ليس علىٰ شرطه لمسألة استنبطها من الحديث بنحو من الاستنباط من نصه أو إشارته أو عمومه أو إيمائه أو فحواه

ومنها أنه يترجم بمذهب ذهب إليه ذاهب قبله ويذكر في الباب ما يدل عليه بنحو من الدلالة لو يكون شاهدا له في الجملة من غير قطع يترجيح ذلك المذهب فيقول باب من قال كذا

ومنها أنه يترجم بمسألة اختلف فيها الأحاديث فيأتي بتلك الأحاديث علىٰ اختلافها ليقرب إلىٰ الفقيه من بعده أمرها مثاله باب خروج النساء إلىٰ البراز جمع فيه حديثين مختلفين

ومنها أنه قد يتعارض الأدلة ويكون عند البخاري وجه تطبيق بينها يحمل كل واحد محمل فيترجم بذلك المحمل إشارة إلىٰ التطبيق.

ومنها أنه قد يجمع في الباب أحاديث كثيرة كل واحد منها يدل علىٰ الترجمة ثم يظهر له في حديث واحد فائدة أخرىٰ سوىٰ الفائدة المترجم عليها فيعلم ذلك الحديث بعلامة الباب وليس غرضه أن الباب الأول قد انقضىٰ

بما فيه وجاء الباب الآخر برأسه ولكن قوله باب هنالك بمنزلة ما يكتب أهل العلم علىٰ الفائدة المهمة لفظ تنبيه أو لفظ فائدة.

ومنها أنه يذهب في كثير من التراجم إلىٰ طريقة أهل السير في استنباطهم خصوصيات الوقائع والأحوال من إشارات طرق الحديث وربما يتعجب الفقيه من ذلك لعدم ممارسة هذا الفن لكن أهل السير لهم اعتناء شديد بمعرفة تلك الخصوصيات.

ومنها أنه يقصد التمرن علىٰ ذكر الحديث وفق المسألة المطلوبة ويهدي طالب الحديث إلىٰ هذا النوع.

وقد فرق البخاري في تراجم الأبواب علما كثيرا من شرح غريب القرآن وذكر آثار الصحابة والتابعين والأحاديث المعلقة وفيه يذكر حديثا لا يدل هو بنفسه علىٰ الترجمة أصلا لكن له طرق وبعض طرقه يدل عليها إشارة أو عموما وقد أشار بذكر الحديث إلىٰ أن فيه أصلا صحيحا يتأكد به ذلك الطريق ومثل هذا لا ينتفع به إلا المهرة من أهل الحديث وكثيرا ما يترجم لأمر ظاهر قليل الجدوىٰ

ولكنه إذا تحققه متأمل أجدىٰ كقوله باب قول الرجل فإنه أشار إلىٰ الرد علىٰ من كره ذلك.

قلت: وأكثر ذلك تعقبات وتنكبات علىٰ عبد الرزاق وابن أبي شيبة في تراجم مصنفها أو شواهد الآثار يرويان عن الصحابة والتابعين في مصنفها ومثل هذا لا ينتفع به إلا من مارس الكتابين واطلع علىٰ ما فيهما وكثير ما يخرج الأداب المفهومة بالقول من الكتاب والسنة بنحو من الاستدلال والعادات الكائنة في زمانه عليه الصلاة والسلام ومثل هذا لا يدرك حسنه إلا من مارس كتب الآداب وأجال عقله في ميدان آداب قومه ثم طلب لها أصلاً من السنة.

وكثيرا ما يأتي بشواهد الحديث من الآيات وبشواهد الآية من الأحاديث تظاهرا أو لتعيين بعض المحتملات دون البعض فيكون المراد بهذا العام المخصوص أو بهذا الخاص العموم ونحو ذلك ومثل هذا لا يدرك إلا بفهم ثاقب وقلب حاضر.

فهذه مقدمة لا بد من حفظها لمن أراد أن يقرأ البخاري والحمد لله أوله وآخره ". الحطة في ذكر الصحاح الستة (ص: ١٦٣ وما بعدها)

من قرأه واعتنىٰ به؟

شروحه ما لها وما عليها؟

قال **الصديق حسن خان** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الشروح فقد اعتنىٰ الأئمة به قديما وحديثا فصنفوا له شروحا كثيرة منها شرح الإمام أبي سليمان أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خطاب البستي الخطابي المتوفي سنة ثمان وثلاثمائة وهو شرح لطيف فيه نكت لطيفة ولطائف شريفة سماه أعلام السنن أوله الحمد لله المنعم الخ ذكر فيه أنه لما فرغ عن تأليف معالم السنن ببلخ سأله أهلها أن يصنف شرحا فأجاب وهو في مجلد واعتنىٰ الإمام محمد التميمي بشرح مالم يذكره الخطابي مع التنبيه علىٰ أوهامه وكذا أبو جعفر أحمد بن سعيد الداؤدي وهو ممن ينقل عنه ابن التين وشرح المهلب بن أبي صفرة الأزدي وهو ممن اختصر الصحيح ومختصر شرح المهلب لتلميذه أبي عبدالله محمد بن خلف المرابط وزاد عليه فوائد ولابن عبد البر الأجوبة علىٰ المسائل المستغربة من البخاري سئل عنه المهلب وكذا لأبي محمد ابن حزم عدة أجوبة عليه وشرح أبي الزناد سراج وشرح الإمام أبي الحسن علي بن خلف الشهير بابن بطال المغربي المالكي المتوفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة وغالبه فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب وشرح أبي حفص عمر بن الحسن بن عمر الغوري الاشبيلي المتوفىٰ سنة وشرح أبي القاسم أحمد بن محمد بن عمر بن در التميمي المتوفىٰ سنة وهو واسع جدا وشرح الإمام عبد الواحد بن التين بالتاء المثناة ثم الياء التحتانية السفاقسي المتوفىٰ سنة وشرح الإمام ناصر الدين علي بن محمد بن المنير الاسكندراني المتوفي سنة وهو كبير في نحو عشر مجلدات وله حواش علىٰ شرح ابن بطال وله أيضا كلام علىٰ التراجم سماه المتواري علىٰ تراجم البخاري وشرح أبي الأصبغ عيسىٰ ابن سهل بن عبدالله الأسدي المتوفي سنة وشرح الإمام قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبي الحنفي المتوفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة وهو إلىٰ نصفه في عشر مجلدات

وشرح الإمام الحافظ علاء الدين مغلطاي بن قليج التركي المصري المتوفي سنة اثنتين وسبعمائة وهو شرح كبير سماه التلويح وهو شرح بالقول أوله الحمد لله الذي أيقظ من خلقه الخ قال صاحب الكواكب وشرحه بتتميم الأطراف أشبه وبتصحيف تصحيح التعليقات أمثل

وكان من أخلائه من مقاصد الكتاب علىٰ ضمان ومن شروح ألفاظه وتوضيح معانيه علىٰ أمان ومختصر شرح مغلطاي لجلال الدين رسولا ابن أحمد التباني المتوفي سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وشرح العلامة شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرماني المتوفي سنة ست وثمانين وسبعمائة وهو شرح وسط مشهور بالقول جامع لفرائد الفوائد وزوائد الفرائد سماه الكواكب الدراري أوله الحمد لله الذي أنعم علينا بجلائل النعم ودقائقها الخ ذكر فيه أن علم الحديث أفضل العلوم وكتاب البخاري أجل الكتب نقلا وأكثرها تعديلا وضبطا وليس له شرح مشتمل علىٰ كشف بعض ما يتعلق به فضلا عن كلها فشرح الألفاظ اللغوية ووجه الأعاريب النحوية البعيدة وضبط الروايات وأسماء الرجال وألقاب الرواة ووفق بين الأحاديث المتنافية وفرغ عنه بمكة المكرمة سنة خمس وسبعين وسبعمائة لكن قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة وهو شرح مفيد علىٰ أوهام فيه في النقل لأنه لم يأخذه إلا من الصحف انتهىٰ

وشرح ولده تقي الدين يحيىٰ بن محمد الكرماني المتوفي سنة استمد فيه من شرح أبيه

وشرح ابن الملقن وأضاف إليه من شرح الزركشي وغيره وما سنح له من حواشي الدمياطي وفتح الباري والبدر وسماه بمجمع البحرين وجواهر النحرين وهو في ثمانية أجزاء كبار بخطه وشرح الإمام سراج الدين عمر بن علي الملقن الشافعي المتوفي سنة أربع وثمان مائة وهو شرح كبير في نحو عشرين مجلدا أوله ربنا آتنا من لدنك رحمة الآية أحمد الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ توالي أنعامه الخ قدم فيه مقدمة مهمة وذكر أنه حصر المقصود في عشرة أقسام في كل حديث وسماه شواهد التوضيح

قال السخاوي اعتمد فيه علىٰ شرح شيخه مغلطاي والقطب وزاد فيه قليلا

قال ابن حجر وهو في أوائله أقعد منه في أواخره بل هو من نصفه الباقي قليل الجدوىٰ انتهىٰ

وشرح العلامة شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبد الدائم بن موسىٰ الرمادي الشافعي المتوفي سنة إحدىٰ وثلاثين وثمانمائة وهو شرح حسن في أربعة أجزاء سماه اللامع الصبيح أوله الحمد لله المرشد إلىٰ الجامع الصحيح الخ ذكر فيه أنه جمع بين شرح الكرماني باقتصار وبين التنقيح للزركشي بإيضاح وتنبيه ومن أصوله أيضا مقدمة فتح الباري ولم يبيض إلا بعد موته

وشرح الشيخ برهان الدين ابراهيم بن محمد الحلبي المعروف بسبط ابن العجمي المتوفي سنة إحدىٰ وأربعين وثمانمائة وسماه التلقيح لفهم قارئ الصحيح وهو بخطه في مجلدين وفيه فوائد حسنة ومختصر هذا الشرح للإمام محمد بن محمد الشافعي المتوفي سنة أربع وسبعين وثمانمائة وكذا التقط منه الحافظ ابن حجر حيث كان بحلب ما ظن أنه ليس عنده لكونه لم يكن معه إلا كراريس يسيرة من الفتح

ومن أعظم شروح البخاري شرح الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وهو في عشر أجزاء ومقدمته في جزء وسماه فتح الباري

أوله الحمد لله الذي شرح صدور أهل الإسلام بالهدىٰ ومقدمته علىٰ عشرة فصول سماها هدي الساري وشهرته وانفراده بما يشتمل عليه من الفوائد الحديثية والنكات الأدبية والفوائد الفقهية تغني عن وصفه سيما وقد امتاز بجمع طرق الحديث التي ربما يتبين من بعضها ترجيح أحد الاحتمالات شرحا وإعرابا وطريقته في الأحاديث المكررة أنه يشرح في كل موضع ما يتعلق بمقصد البخاري يذكر فيه يحيل بباقي شرحه علىٰ المكان المشروح فيه وكذا ربما يقع له ترجيح أحد الأوجه في الإعراب أو غيره من الاحتمالات أو الأقوال في موضع وفي موضع آخر غيره إلىٰ غير ذلك مما لا طعن عليه بسببه بل هذا أمر لا ينفك عنه أحد من الأئمة وكان ابتداء تأليفه في أوائل سنة سبع عشرة وثمانمائة علىٰ طريق الإملاء بعد أن كملت مقدمة في مجلد ضخيم في سنة ثلاث عشرة وثمان ومائة وسبق منه الوعد للشرح ثم صار يكتب بخطه شيئا فشيئا فيكتب الكراسة ثم يكتبها جماعة من الأئمة المعتبرين ويعارض بالأصل مع المباحثة في يوم من الأسبوع وذلك بقراءة العلامة ابن خضر فصار السفر لا يكمل منه إلا وقد قوبل وحرر إلىٰ أن ينتهي في أول يوم رجب سنة اثنتين أوربعين وثمانمائة سوىٰ ما ألحقه فيه بعد ذلك فلم ينته إلا قبيل وفاته ولما تم عمل مصنفه وليمة عظيمة لم يتخلف عنها من وجوه المسلمين إلا نادرا بالمكان المسمىٰ بالتاج والسبع وجوه في يوم السبت ثاني شعبان سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وقريء في المجلس الأخير وهناك حضره الأئمة كالقاياني والونائي والسعد الديري وكان المصروف في الوليمة المذكورة نحو خمسمائة دينار فطلبه ملوك الأطراف بالاستكتاب واشتري بنحو ثلاثمائة دينار وانتشر في الآفاق

ومختصر هذا الشرح للشيخ أبي الفتح محمد بن حسين المراغي المتوفي سنة تسع وخمسين وثمانمائة ومن الشروح المشهورة أيضا شرح العلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني الحنفي المتوفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة وهوشرح كبير أيضا في عشرة أجزاء وأزيد وسماه عمدة القاري أوله الحمد لله الذي أوضح وجوه معالم الدين ذكر فيه أنه لما دخل إلىٰ البلاد الشمالية قبل ثمانمائة مستصحبا فيه هذا الكتاب ظفر هناك من بعض مشايخه بغرائب النوادر المتعلقة بذلك الكتاب ثم لما عاد إلىٰ مصر شرحه وهو بخطه في أحد وعشرين مجلدا بمدرسته التي أنشأها بحارة كتامة بالقرب من الجامع الأزهر وشرع في تأليفه في أواخر شهر رجب سنة إحدىٰ وعشرين وثمانمائة وفرغ من نصف الثلث الأول في جمادىٰ الأولىٰ سنة سبع وأربعين وثمانمائة واستمد فيه من فتح الباري بحيث ينقل منه الورقة بكمالها وكان يستعيره من البرهان بن خضر باذن مصنفه له وتعقبه في مواضع وطوله بما تعمد الحافظ ابن حجر حذفه من سياق الحديث بتمامه وإفراد كل من تراجم الرواة بالكلام وتباين الأنساب واللغات والإعراب والمعاني والبيان واستنباط الفوائد من الحديث والأسئلة والأجوبة

وحكي أن بعض الفضلاء ذكر لابن حجر ترجيح شرح العيني بما اشتمل عليه من البديع وغيره فقال بديهة هذا شيء نقله من شرح ركن الدين وقد كنت وقفت عليه قبله ولكن تركت النقل منه لكونه لم يتم إنما كتب منه قطعة وخشيت من تعبي بعد فراغها في الإرسال ولذا لم يتكلم العيني بعد تلك القطعة بشيء من ذلك انتهىٰ وبالجملة فإن شرحه حافل كافل في معناه لكن لم ينتشر كانتشار فتح الباري في حياة مؤلفه وهلم جرا

ومنها شرح الشيخ ركن الدين أحمد بن محمد بن عبد المؤمن القريمي المتوفي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة وهو الذي ذكره ابن حجر في الجواب عن تفصيل شرح العيني آنفا وشرح الشيخ بدر الدين محمد بن بهادر ابن عبد الله الزركشي الشافعي المتوفي سنة أربع وستين وسبع مائة وهو شرح مختصر في مجلد أوله الحمد لله ما عم بالأنعام قصد فيه إيضاح غريبه وإعراب غامضه وضبط نسب أو اسم يخشىٰ فيه التصحيف منتخبا من الأقوال أصحها ومن المعاني أوضحها مع إيجاز العبارة والرمز بالإشارة وإلحاق فوائد يكاد يستغني به اللبيب عن الشروح لأن أكثر الحديث ظاهر لا يحتاج إلىٰ بيان كذا قال وسماه التنقيح وعليه نكت

للحافظ ابن حجر المذكور وهي تعليقة بالقول ولم تكمل وللقاضي محب الدين أحمد بن نصر الله البغدادي الحنبلي المتوفي سنة أربع وأربعين وثمانمائة نكت أيضا علىٰ تنقيح الزركشي

ومنها شرح العلامة بدر الدين محمد بن أبي بكر الدماميني المتوفي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة وسماه مصابيح الجامع أوله الحمد لله الذي جعل في خدمة السنة النبوية أعظم سيادة الخ ذكرأنه ألفه للسلطان أحمد شاه بن محمد بن مظفر من ملوك الهند وعلقه علىٰ أبواب منه ومواضع يحتوي علىٰ غريب وإعراب وتنبيه قلت لم يذكر الدماميني في ديباجة شرحه هذا الذي نقله المؤلف لكن قال في آخر نسخة قديمة كان انتهاء هذا التأليف بزبيد من بلاد اليمن قبل ظهر يوم الثلاثاء العاشر من شهر ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وثمانمائة علىٰ يد مؤلفه محمد بن أبي بكر ابن عمر بن أبي بكرالمخزومي الدماميني انتهىٰ

وشرح الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفي سنة إحدىٰ عشرة وتسع مائة وهو تعليق لطيف قريب من تنقيح الزركشي سماه التوشيح علىٰ الجامع الصحيح أوله الحمد لله الذي أجزل المنة الخ وله الترشيح أيضا ولم يتم

وشرح الإمام محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي المتوفي سنة ست وسبعين وستمائة وهو شرح قطعة من أول إلىٰ آخر كتاب الإيمان ذكر في شرح مسلم أنه جمع فيه جملا مشتملة علىٰ نفائس من أنواع العلوم وشرح الحافظ عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي المتوفىٰ سنة أربع وسبعين وسبعمائة وهو شرح قطعة من أوله أيضا وشرح الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي المتوفي سنة خمس وتسعين وتسعمائة وهو شرح قطعة من أوله أيضا سماه فتح الباري قلت وصل فيه إلىٰ كتاب الجنائز قاله صاحب الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد وشرح العلامة سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني الشافعي المتوفي سنة خمس وثمانمائة وهو شرح قطعة

من أوله أيضا إلىٰ كتاب الإيمان في نحو خمسين كراسة وسماه الفيض الجاري

وشرح العلامة مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي المتوفي سنة سبع عشرة وثمانمائة سماه منح الباري بالسيح الفسيح المجاري كما ربع العبادات منه في

عشرين مجلدا وقدر تمامه في أربعين مجلدا ذكر السخاوي في الضوء اللامع أن التقىٰ الفاسي قال في ذيل التقييد إن المجد لم يكن بالماهر في الصنعة الحديثية وله فيما يكتبه من الأسانيد أوهام وأما شرحه علىٰ البخاري فقد ملأه من غرائب المنقولات سيما من الفتوحات المكية وقال ابن حجر في أبناء الغمر لما اشتهر باليمن مقالة ابن العربي ودعىٰ إليها الشيخ اسماعيل الجبرتي صار الشيخ يدخل فيه من الفتوحات ما كان سببا لشين الكتاب عند الطاعنين فيه قال ولم يكن اتهم بها لأنه كان يحب المداراة وكان الناشري بالغ في الانكار علىٰ اسماعيل ولما اجتمعت بالمجد أظهر لي إنكار مقالات ابن العربي ورأيه يصدق بوجود رتن وينكر قول الذهبي في الميزان بأنه لا وجود له وذكر أنه رحل قريته ورىٰ ذريته وهم مطبقون علىٰ تصديقه انتهىٰ وذكر ابن حجر أنه رأىٰ القطعة التي كملت في حياة مؤلفها قد أكلتها الأرضة بكمالها لا يقدر علىٰ قراءة شيء منها

وشرح الإمام أبي الفضل محمد الكمال بن محمد بن أحمد النويري خطيب مكة المكرمة المتوفي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وهو شرح مواضع منه

وشرح العلامة أبي عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق التلمساني المالكي شارح البردة المتوفي سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة وسماه المتجر الربيح والمسعىٰ الرجيح ولم يكمل أيضا وشرح العارف القدوة عبد الله ابن سعد بن أبي جمرة بالجيم الأندلسي وهو علىٰ ما اختصره من البخاري وهو نحو ثلاثمائة حديث وسماه بهجة النفوس وغايتها بمعرفة ما لها وما عليها.

وشرح برهان الدين ابن النعماني إلىٰ أثناء الصلاة ولم يف بما التزمه وشرح الشيخ أبي البقاء محمد بن علي بن خلف الأحمدي المصري الشافعي نزيل المدينة وهو شرح كبير ممزوج وكان ابتداء تأليفه من شهر شعبان سنة تسع وتسعمائة أوله الحمد لله الواجب الوجود الخ ذكر أنه جعله كالوسيط برزخا بين الوجيز والبسيط ملخصا من شروح المتأخرين كالكرماني وابن حجر والعيني وشرح جلال الدين البكري الفقيه الشافعي المتوفي سنة

وشرح الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الدلجي الشافعي المتوفي سنة خمسين وتسعمائة كتب قطعة منه وشرح العلامة زين الدين عبد الرحيم ابن عبد الرحمن بن أحمد العباسي الشافعي المتوفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة رتبه علىٰ ترتيب عجيب وأسلوب غريب فوضعه كما قال في ديباجته علىٰ منوال مصنف ابن الأثير ونباه علىٰ مثال جامعه وجرده من

الأسانيد راقما علىٰ هامشه بإزاء كل حديث حرفا أو حروفا يعلم بها من وافق البخاري عل إخراج ذلك الحديث من أصحاب الكتب الخمسة جاعلا إثر كل كتاب منه بابا لشرح غريبه واضعا للكلمات الغريبة بهيئتها علىٰ هامش الكتاب موازيا لشرحها

وقرظ عليه البرهان بن أبي شريف وعبد البر بن الشحنة المتوفي سنة والرضىٰ الغزي وترجمان التراجم لأبي عبدالله محمد بن عمر ابن رشيد القهري السبتي المتوفي سنة إحدىٰ وعشرين وسبعمائة وهو علىٰ أبواب الكتاب ولم يكمله وحل اغراض البخاري المهمة في الجمع بين الحديث والترجمة وهي مائة ترجمة للفقيه أبي عبدالله محمد بن منصور بن حمامة المغراوي السلجماسي المتوفي سنة

وانتقاض الاعتراض للشيخ الإمام الحافظ ابن حجر المذكور سابقا بحث فيه عما اعترض عليه العيني في شرحه لكنه لم يجب عن أكثرها ولكنه كان يكتب الاعتراضات ويبيضها ليجيب عنها فاخترمته المنية أوله اللهم إني أحمدك الخ ذكر فيه أنه لما أكمل شرحه كثرت الرغبات فيه من ملوك الأطراف فاستنسخت نسخة لصاحب المغرب أبي الفارس

وشرح برهان الدين ابن النعماني إلىٰ أثناء الصلاة ولم يف بما التزمه وشرح الشيخ أبي البقاء محمد بن علي بن خلف الأحمدي المصري الشافعي نزيل المدينة وهو شرح كبير ممزوج وكان ابتداء تأليفه من شهر شعبان سنة تسع وتسعمائة أوله الحمد لله الواجب الوجود الخ ذكر أنه جعله كالوسيط برزخا بين الوجيز والبسيط ملخصا من شروح المتأخرين كالكرماني وابن حجر والعيني وشرح جلال الدين البكري الفقيه الشافعي المتوفي سنة

وشرح الشيخ شمس الدين محمد بن محمد الدلجي الشافعي المتوفي سنة خمسين وتسعمائة كتب قطعة منه وشرح العلامة زين الدين عبد الرحيم ابن عبد الرحمن بن أحمد العباسي الشافعي المتوفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة رتبه علىٰ ترتيب عجيب وأسلوب غريب فوضعه كما قال في ديباجته علىٰ منوال مصنف ابن الأثير ونباه علىٰ مثال جامعه وجرده من الأسانيد راقما علىٰ هامشه بإزاء كل حديث حرفا أو حروفا يعلم بها من وافق البخاري عل إخراج ذلك الحديث من أصحاب الكتب الخمسة جاعلا إثر كل كتاب منه بابا لشرح غريبه واضعا للكلمات الغريبة بهيئتها علىٰ هامش الكتاب موازيا لشرحها

وقرظ عليه البرهان بن أبي شريف وعبد البر بن الشحنة المتوفي سنة والرضىٰ الغزي وترجمان التراجم لأبي عبدالله محمد بن عمر ابن رشيد القهري السبتي المتوفي سنة إحدىٰ وعشرين وسبعمائة وهو علىٰ أبواب الكتاب ولم يكمله وحل اغراض البخاري المهمة في الجمع بين الحديث والترجمة وهي مائة ترجمة للفقيه أبي عبدالله محمد بن منصور بن حمامة المغراوي السلجماسي المتوفي سنة

وانتقاض الاعتراض للشيخ الإمام الحافظ ابن حجر المذكور سابقا بحث فيه عما اعترض عليه العيني في شرحه لكنه لم يجب عن أكثرها ولكنه كان يكتب الاعتراضات ويبيضها ليجيب عنها فاخترمته المنية أوله اللهم إني أحمدك الخ ذكر فيه أنه لما أكمل شرحه كثرت الرغبات فيه من ملوك الأطراف فاستنسخت نسخة لصاحب المغرب أبي الفارس

عبد العزيز وصاحب المشرق شاهرخ وللملك الظاهر فحسده العيني وادعىٰ الفضيلة عليه فكتب في رده وبيان غلطه في شرحه وأجاب برمز ح ود وع إلىٰ الفتح وأحمد والعيني والمعترض وله أيضا الاستبصار علىٰ الطاعن المعثار وهو صورة فتيا عما وقع في خطبة شرح البخاري للعيني وله الإعلام بمن ذكر في البخاري من الأعلام ذكر فيه أحوال الرجال المذكورين فيه زيادة علىٰ ما في تهذيب الكمال وله أيضا تعليق التعليق ذكر فيه تعليق أحاديث الجامع المرفوعة وآثاره الموقوفة والمتابعات ومن وصلها بأسانيدها إلىٰ الموضع المعلق وهو كتاب حافل عظيم النفع في بابه لم يسبقه إليه أحد ولخصه في مقدمة الفتح فحذف الأسانيد ذاكرا من خرجه موصولا

وقرظ عليه العلامة المجد صاحب القاموس قيل هو أول تأليفه أوله الحمد لله الذي من تعلق بأسباب طاعته فقد أسند أمره إلىٰ العظيم الخ قال تأملت ما يحتاج إليه طالب العلم من شرح البخاري فوجدته ثلاثة أقسام الأول في شرح غريب ألفاظه وضبطها وإعرابها

الثاني في صفة أحاديثه وتناسب أبوابها

الثالث وصل الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة المعلقة وما أشبه ذلك من قوله تابعه فلان ورواه فلان فبان لي أن الحاجة إلىٰ وصل المنقطع ماسة فجمعت وسميته تعليق التعليق لأن الأسانيد كانت كالأبواب المفتوحة فغلقت انتهىٰ وفرغ من تأليفه سنة سبع وثمانمائة لكن

قال في انتقاضه أنه كمل سنة أربع وثمانمائة ولعل ذلك تاريخ التسويد

ومن شروح البخاري شرح الفاضل شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني المصري الشافعي صاحب المواهب اللدنية المتوفي سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وهو شرح كبير ممزوج في نحو عشرة أسفار كبار أوله الحمد لله الذي شرح بمعارف عوارف السنة النبوية الخ قال فيه بعد مدح الفن والكتاب طالما خطر لي أن أعلق عليه شرحا

أمزجه فيه مزجا أميز فيه الأصل من الشرح بالحمرة ليكون كاشفا بعض أسراره مدلكا باللمحة موضحا مشكله مقيدا مهمله وافيا بتعليق تعليقه كافيا في إرشاد الساري إلىٰ طريق تحقيقه فشمرت ذيل العزم وأتيت بيوت التصنيف من أبوابها وأطلقت لسان القلم بعبارات صريحة لخصتها من كلام الكبراء ولم أتحاش من الإعادة في الإفادة عند الحاجة إلىٰ البيان ولا في ضبط الواضح عند علماء هذا الشأن قصدا لنفع الخاص والعام فدونك شرحا أشرقت عليه من شراقات هذا الجامع أضواء نوره اللامع واختلفت منه كواكب الدراري كيف وقد فاض عليه النور من فتح الباري انتهىٰ أراد بذلك أن شرح ابن حجر العسقلاني مندرج فيه وسماه إرشاد الساري وذكر في مقدمته فصولا هي لفروع قواعد هذا الشرح أصول

قال صاحب كشف الظنون وقد لخصت ما فيها من أوصاف كتاب البخاري وشروحه إلىٰ هنا مع ضم ضميمة هي في جيد كل شرح كالتميمه وذلك مبلغه من العلم ولكن للبخاري معلقات أخرىٰ أوردناها تتميما لما ذكره وتنبيها علىٰ ما فات عنه أو أهمله وله أسئلة علىٰ البخاري إلىٰ أثناء الصلاة وله تحفة السامع والقاري يختم صحيح البخاري ذكره السخاوي في الضوء اللامع

ومن شروح البخاري شرح الإمام رضي الدين حسن بن محمد الصغاني الحنفي صاحب المشارق المتوفي سنة خمسين وستمائة وهو مختصر في مجلد وشرح الإمام عفيف الدين سعيد بن مسعود الكازروني الذي فرغ منه في شهر ربيع الأول سنة ست وستين وسبعمائة بمدينة شيراز وشرح المولىٰ الفاضل أحمد بن اسماعيل بن محمد الكوراني الحنفي المتوفي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وهو شرح متوسط أوله الحمد لله الذي أوقد من مشكاة الشهادة الخ وسماه الكوثر الجاري علىٰ رياض البخاري رد في كثير من المواضع علىٰ الكرماني وابن حجر وبين مشكل اللغات وضبط أسماء الرواة في موضع الالتباس وذكر قبل الشروع سيرة النبي {ﷺ}

إجمالا ومناقب المصنف وتصنيفه وفرغ منه في جمادىٰ الأولىٰ سنة أربع وسبعين وثمانمائة بآذرنه

وشرح الإمام زين الدين أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بكر العيني الحنفي المتوفي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وهو في ثلاث مجلدات كتب الصحيح علىٰ هامشه

وشرح أبي ذر أحمد بن ابراهيم بن السبط الحلبي المتوفي سنة أربع وثمانين وثمانمائة لخصه من شروح ابن حجر والكرماني والبرماوي وسماه التوضيح للأوهام الواقعة في الصحيح

وشرح الإمام فخر الإسلام علي بن محمد البزدوي الحنفي المتوفي سنة أربع وثمانين وثمانمائة وهو شرح مختصر وشرح الإمام نجم الدين أبي حفص عمر بن محمد النسفي الحنفي المتوفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة سماه كتاب النجاح في شرح أخبار الصحاح ذكر في أوله أسانيده عن خمسين طريقا إلىٰ المصنف

وشرح الشيخ جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك النحوي المتوفي سنة اثنتين وسبعين وستمائة وهو شرح لمشكل إعرابه سماه التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح وشرح القاضي مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم البلبسي المتوفي سنة عشر وثمانمائة وشرح القاضي زين الدين عبد الرحيم ابن الركن أحمد المتوفىٰ سنة أربع وستين وثمانمائة

وشرح غريبه لأبي الحسن محمد بن أحمد الجياني النحوي المتوفي سنة أربعين وخمسمائة وشرح القاضي أبي بكر محمد بن عبدالله بن العربي المالكي الحافظ المتوفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وشرح الشيخ شهاب الدين أحمد رسلان المقدسي الرملي الشافعي المتوفي سنة أربع وأربعين وثمانمائة وهو في ثلاث مجلدات

وشرح الإمام عبد الرحمن الأهدل اليمني المسمىٰ بمصباح القاري

وشرح الإمام قوام السنة أبي القاسم اسماعيل بن محمد الأصبهاني الحافظ المتوفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة.

ومن التعليقات علىٰ بعض المواضع من البخاري تعليقه المولىٰ لطف الله ابن الحسن التوقاني المقتول سنة تسع مائة وهي علىٰ أوائله وتعليقة العلامة شمس الدين أحمد بن سليمان

بن كمال باشا المتوفي سنة أربعين وتسع مائة وتعليقة المولىٰ فضل بن علي الجمال المتوفي سنة إحدىٰ وتسعين وتسعمائة وتعليقة مصلح الدين مصطفىٰ بن شعبان السروري المتوفي سنة تسع وستين وتسعمائة وهي كبيرة إلىٰ قريب من النصف وتعليقة مولانا حسين الكفوي المتوفي سنة اثنتي عشرة وألف

ولكتاب البخاري مختصرات غير ما ذكر منها مختصر الشيخ الإمام جمال الدين أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي المتوفي سنة ست وخمسين وستمائة بالاسكندرية أوله الحمد لله الذي خص أهل السنة بالتوفيق ومختصر الشيخ الإمام زين الدين أبي العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي المتوفي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة جرد فيه أحاديثه وسماه التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح أوله الحمد لله الباريء المصور الخ حذف فيه ما تكرر وجمع ما تفرق في الأبواب لأن الإنسان إذا أراد أن ينظر الحديث في أي باب لا يكاد يهتدي إليه إلا بعد جهد ومقصود المصنف بذلك كثرة طرق الحديث وشهرته

قال النووي في مقدمة شرح مسلم أن البخاري ذكر الوجوه في أبواب متباعدة وكثيرا منها يذكره في غير بابه الذي يسبق إليهم الفهم أنه إليه أولىٰ به فيصعب علىٰ الطالب جمع طرقه قال وقد رأيت جماعة من الحفاظ المتأخرين غلطوا في مثل هذا فنفوا رواية البخاري أحاديث هي موجودة في صحيحه انتهىٰ فجرده من غير تكرار محذوف الأسانيد ولم يذكر الأماكن مسندا متصلا وفرغ في شعبان سنة تسع وثمانين وثمانمائة ومختصر الشيخ بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي المتوفي سنة تسع وسبعين وسبعمائة وسماه إرشاد السامع والقاري المنتقىٰ من صحيح البخاري

ومن الكتب المصنفة علىٰ صحيح البخاري الإفهام بما وقع في البخاري من الإبهام ولجلال الدين عبد الرحمن بن عمر البلقيني المتوفي سنة أربع وعشرين وثمانمائة أوله الحمد لله العالم بغوامض الأمور الخ فرغ منه في صفر سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة وأسماء رجاله للشيخ الإمام أبي نصر أحمد بن محمد بن الحسين الكلاباذي المتوفي سنة ثمان وتسعين وثمانمائة وللقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفي سنة أربع وسبعين وأربع مائة كتاب التعديل والتجريح لرجال البخاري وجرد الشيخ قطب الدين محمد بن محمد الخيضري

الدمشقي الشافعي المتوفي سنة أربع وتسعين وثمانمائة من فتح الباري أسئلة مع الأجوبة وسماها المنهل الجاري وجرد الحافظ ابن حجر التفسير من البخاري علىٰ ترتيب السور وله التشويق إلىٰ وصل التعليق انتهىٰ من كشف الظنون وشرح البخاري للملا أحسن الصديقي الفنجابي المعروف بحافظ درار بالفارسية وسماه منح الباري أوله حمد وسباس بي عدد وقياس مرخداي راكه سبحات جلال أو مقدس از وسمه حدوث وزوالست وسرادقات جمال أو منزه از وصمه تغير وانتقال

وشرحه السيد العلامة حسان الهند مولانا غلام علي بن السيد نوح الحسيني الواسطي المتخلص بآزاد البلكرامي المتوفي سنة مائتين وألف باورنق آباد المدفون بأرض الروضة وسماه ضوء الدراري أوله الحمد لمن تواترت آلاؤه وتسلسلت نعماؤه والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد ما أعلىٰ شأنه وما أحسن بيانه وعلىٰ آله المتكئين علىٰ سرر مرفوعة وأصحابه المتجرعين من أكواب موضوعة وفيه يقول إني لما وصلت إلىٰ المدينة المؤسسة في أوائل سنة إحدىٰ وخمسين ومائة وألف من الهجرة المقدسة واتفق بعونه تعالىٰ قراءتي صحيح البخاري ومطالعة شرحه المسمىٰ بإرشاد الساري للنحرير المؤيد بالتأييد الرباني أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني هممت أن التقط منه ما يتعلق بمتن الحديث من حل المباني وتحقيق المعاني مقتصرا عليه عن أسماء الرجال ثانيا عنان القلم عن طول المقام وانتخب منه ما أقرأ كل يوم وإن كان كثيرا وأزيد عليه من الفوائد الفرائد شيئا يسيرا وما بعثني علىٰ أخذ القليل إلا حمل السفر الثقيل في السفر الطويل فإن هي إلا عدة معان وما تلك إلا عدة عجلان وسميته ضوء الدراري

شرح صحيح البخاري نستعين بالمولىٰ الكريم ونتهدي به إلىٰ الصراط المستقيم انتهىٰ

وقال في آخره هذا آخر كتاب الزكاة ولما بلغت هذا المكان سكن القلم عن الجريان وقد تكاثرت العوائق عن الكتابة لكنها ما كفتني عن القراءة فالحمد لله علىٰ نعمه الوافرة وله الحمد في الأولىٰ والآخرة انتهىٰ

ومن خطه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ نقلت وشرح الشيخ الفاضل نور الحق ابن الشيخ عبد الحق بن سيف الدين الترك الدهلوي البخاري مفتي أكبر آباد من بلاد الهند المتوفي سنة ثلاث وسبعين وألف سماه تيسير القاري وهو بالفارسية وشرح الشيخ العلامة عبد الله بن الشيخ سالم البصري

المكي المتوفي سنة أربع وثلاثين ومائة وألف وسماه بضياء الساري

قال السيد آزاد في تسلية الفؤاد وله شرح علىٰ صحيح البخاري سار في الأنفس والآفاق سير الروح ولعمري لقد عز أن يلفي مثله في سائر الشروح لكن ضاق الوقت عن إكماله وضن الزمان الشحيح بإفاضة نواله والنسخة التي نسخها الشيخ بيده الشريفة وهي أصل ألأصول للنسخ الشائعة في الآفاق رأيتها عند مولانا محمد أسعد الحنفي المكي من تلامذة الشيخ تاج الدين المكي ببلدة آركات أخذ الشيخ عن ولد المصنف بالاشترا فقلت للشيخ محمد أسعد هذه النسخة المباركة حقها أن تكون في الحرمين المكرمين ولا ينبغي أن ينقل منها إلىٰ مواضع أخرىٰ لا سيما إلىٰ الديار الشاسعة فقال الشيخ هذا الكلام حق ولكن ما فارقتها لفرط محبتي إياها ثم أرسل الشيخ كتبه من آركات إلىٰ أورنق اباد احتياطا لما رأىٰ من هيجان الفتنة بتلك البلاد فوصلت النسخة إلىٰ أورنق آباد وهي موجودة بها الآن حفظها الله تعالىٰ انتهىٰ وشرح السيد الأمجد الأكمل مولانا محمد بن أحمد اليمني الأهدل القاطن حالا بقرية مراوعة بقرب بندر الحديدة سماه سلم القاري بارك في إفادته وإفاضته الباري

الحطة فىٰ ذكر الصحاح الستة (ص: ١٨٩: ١٧٣ وما بعدها)

موقف أهل البدع من صحيح البخاري خاصة

شرحنا لهذا الكتاب الجليل وطريقة العمل عليه:

فرأيتُ أنا ومجموعة من أصحابي من طلاب العلم -ولعلي أذكر أسماءهم فيما بعد-، رأينا أن نقدم شرحـًا مختصراً شاملاً ميسراً **(لصحيح الإمام البخاري)** تقريبـًا للسنة بين يدي الأمة.

وهنا قد يقول قائل ويبادر سائل فيقول: ما أكثر ما شُرح صحيح الإمام البخاري، وما أكثر من شرحه، فما الجديد الذي تأتون به، وما عساكم أن تضيفوا إلىٰ المكتبة الإسلامية، من جديد،

مع وجود هذا الكم الهائل من الشروح؟!!

الجواب:

هذا سؤال مهم جداً، ويجب الإجابة عليه، لكن قد أطيل قليلاً في بيانه فنقول: إن الناس اعتنوا بالسنة عموماً من جهة الرواية ولله الحمد والجمع للروايات والطرق، وكان لشيخنا لألباني في هذا العصر النصيب الأوفر، بل عمل عمره علىٰ مشروع أسماه: بـــ(**تقريب السنة بين يدي الأمة**)، فحقق كمًّا كبيراً، من السنة وصحح وضعف، وهذا المشروع كان ضمن مشروعه الأكبر والمنهج الأقوم: (**التصفية والتربية**)، فقام بجزء من التصفية غير قليل، لا سيما فيما تعلق بتصفية السنة مما دخلها من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والعقائد الباطلة، وما دخل في الدين من البدع مما يخالف السنن، وسعىٰ في نشر ذلك سعياً مشكورا رَحِمَهُ اللَّهُ.

وبقي الشطر الآخر من هذا المشروع وهو **التربية** علىٰ هذه السنة الصافية الصحيحة النقية، وحتىٰ يتحقق ذلك لابد من القيام بشرح هذه الأحاديث الصحيحة شرحاً سلفياً صافياً نقياً من الأقوال المردودة، والضعيفة، فكما حفظ الله لنا السنة من جهة الرواية وعمل عليها سلفنا وذللوها لنا، غضة طرية، فإنهم بينوها لنا وشرحوها، وأوضحوا لنا الراجح في معناها، فإن الله حفظ لنا الوحي لفظاً ومعنىً، ولا يمكن أن نسدد ونصيب الحق، أو نقاربه إلا بأن نقترب أكثر من نصوص الوحي، فيكون شرح معناها مستقىٰ من كتاب الله وسنة النبي ﷺ الصحيحة، وآثار السلف الصالح، فإنهم أهدىٰ الناس، وأدنىٰ الناس إلىٰ الحق والهدىٰ، وخير الناس علىٰ الإطلاق.

فعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ قوم تسبقُ شهادةُ أحدِهِم يمينَهُ، ويَمِنُهُ شهادَتَهُ»(٣٨٥).

وسيأتي تفصيل في الكلام علىٰ فقه الصحابة، والمنهجية التي سلكناها في هذا الشرح إن شاء الله.

---

(٣٨٥) **متفق عليه**: رواه البخاري (٢٦٥٢،٦٤٢٩)، ومسلم (١٦/ ١٢٧-ح٢٥٣٣).

أهداف هذا المشروع

لذا رأينا تمشيـًا مع منهج شيخنا الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ الذي دعا إليه عمره، (**التصفية والتربية**) والذي سرنا معه فيه -ولله الحمد- منذ عقود، رأينا أن نقوم بعمل مشروع، هو مكمل لمشروعه العظيم: (**تقريب السنة بين يدي الأمة**)، محاولة منا في أن

الخلاصة: أن نسهل السنة ونقربها بين يدي الأمة، فنريد أن تقرأ شروح هذه الكتب في البيوت والمساجد، وبين الناس، وتكون صالحة للترجمة للغات كثيرة، فنقوم باستكمال مشروع شيخنا الألباني: **تقريب السنة بين يدي الأمة**، وعملاً بالمنهج الذي كان يدعو إليه أئمة الإسلام منهج: **التصفية والتربية**، فإن كان شيخنا حقق السنة غالبـًا، واهتم كثيراً بالحديث رواية، فنحن نريد العمل بها، فنقوم بالاعتناء بالسنة دراية، ولا يكون ذلك إلا بشرحها، وتقديمها سهلة غضة طرية صحيحة سهلة المأخذ والفهم، للعمل بها.

تلخيص العمل في كتاب جامع مختصر للكتب الستة

فإذا يسر الله تعالىٰ بمنه وفضله إنهاء هذا العمل وهو: شرح الكتب الستة، كل كتاب علىٰ حدة، وقد قطعنا في سبيل هذا نحو الخمس فنسأل الله تعالىٰ إكماله، بفضله وتوفيقه، وإكماله علىٰ الوجه الذي يرضيه عنا، ويتقبله منا.

سوف نعمل -إن شاء الله- علىٰ دمج وجمع واختصار الكتب كلها في كتاب واحد، نحذف منه الأسانيد، ونحذف الضعيف، ونحذف المكرر من الحديث، ونحذف المكرر من الشروح، ونقوم بضم الأبواب بعضها إلىٰ بعض، مع الإحالات علىٰ مواضع الحديث وتفصيل المسألة من الكتاب نفسه، مع الإشارة إلىٰ الخلاصة.

والغاية من هذا التلخيص أن يكون في بيت كل مسلم شرح مختصر لأمهات كتب السنة، بالإضافة إلىٰ الأحاديث من الكتب الأخرىٰ، مما يعين علىٰ التوضيح والشرح واستكمال مسائل الموضوع، وهو مع ذلك صحيح سهل، سالم من الاختلافات، والتعقيدات، ويكون في بيت كل مسلم ينتفع به المثقف، والطالب المبتديء، وطالبة العلم، والمسلم والمسلمة يستطيع أو تستطيع أن تهتم بهذا الشرح وتقرأه مع أولادها في بيتها، والناس في المساجد، ومن أحب أن يترجم منه وينشر منه علىٰ ذويه يكون مأمونـًا.

والخلاصة: العمل في هذا المشروع علىٰ أمور ثلاث:

-الشرح الأم وهو للطبقة الأولىٰ من طلاب العلم المبتدئين والمتوسطين، وأسميته **(المروج والأنهار في شرح صحيح البخاري بصحيح السنة والآثار وكلام الأئمة الأخيار)**.

-مختصر شرح البخاري وهو لعامة المسلمين.

-الشرح الجامع للكتب الستة.

وفقنا الله وأعاننا علىٰ إخراجها علىٰ الوجه الذي يرضيه عنا ويتقبله منا

الفرق بين هذا الشرح، والشروح المتقدمة

وقد رأينا أن أكثر الشروح إن لم نقل كل الشروح القديمة لا تكاد تسلم من أخطاء عقدية إلا النادر منها، ولم يكتمل ككتاب ابن رجب، وفي كثير منها أخطاء منهجية، وبعضها مليء من التعصبات المذهبية، ففيها من لي النصوص، لموافقة المذهب، وفيها من تأويلات الصفات، وفيها من كثرة الأقوال والاختلافات التي تخالف منهج وعقيدة الأئمة أصحاب كتب السنة، والتي منها صحيح الإمام البخاري، ويذكر فيها الكثير من الأقوال والآراء السقيمة، والمتباينة، والمخالفة لما كان عليه الصحابة، وبعضها مضادة للنصوص، ورأينا أيضا صعوبة شروح كتب السنة، علىٰ الكثير، وعسر الوصول إلىٰ الصحيح من الأقوال فيها، والراجح، وقد نجد في كثير منها إسهاب وتطويل ممل، أو اختصار مخل، أو مباحث لغوية، أو أصولية، تخرج بالكتاب عن مقصوده، وفي بعضها من البدع، والآراء المحدثة، وفي بعضها من التعصب المذهبي، وقد يشتمل الشرح علىٰ حديث ضعيف أو دون ذلك، هذا غير الخلافيات، والتعقيدات وغير ذلك ولكي نتفادىٰ فيه ذلكم النقص الموجود في أكثر شروح كتب السنة، فنسأل الله تعالىٰ الإعانة عليه.

وحينما نقول أن لنا منهجًا خاصًا في هذا الشرح، وأن جل اعتمادنا فيه علىٰ ما ورد في الحديث الصحيحة، وآثار الصحابة فهذا لا يعني أننا لم نستفد من شروح كتب السنة، بل نستفيد منها وننقل عنها، وعن جميع الأئمة، ولهم في قلوبنا مكانة عالية، ولكنا لا نهجر علم السلف الأوائل وخير القرون، بل هم عندنا المقدمون، وهنا يأتي الكلام علىٰ تميز شرحنا عن غيره من الشروح ويتميز به مثل هذا الكتاب ما يلي:

ما تميز به هذا الشرح

أولاً: صحة النصوص، واعتماد الثابت منها، فيتميز هذا الشرح بصحة نصوصه، **(والذي جاء بالصدق وصدق به)**.

ثانيًا: يقوم هذا الشرح علىٰ عقيدة السلف ومنهجهم.

ثالثًا: إحياء الطريقة السلفية في أخذ العلم، والتفقه في الدين علىٰ طريقة الأولين في جميع أبواب الدين، يعني فهم النصوص بفهم السلف الأوائل ثم من بعدهم ثم من بعدهم...

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- «من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا

أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقَها علماً، وأقلَها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، فاعرفوا لهم فضلهم واتَّبِعُوهم في آثارهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم»(٣٨٦).

وعن **حذيفة** رضي الله عنه قال: «اتقوا الله يا معشر القراء، **وخذوا طريق من كان قبلكم**، فلعمري لئن اتبعتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»(٣٨٧).

قال **ابن تيمية** رحمه الله أيضاً: «العلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب رسول الله ﷺ، وأما ما جاء عمن بعدهم فلا ينبغي أن يُجعل أصلاً، وإن كان صاحبه معذوراً، بل مأجوراً لاجتهاد أو تقليد، **فمن بنىٰ الكلام في العلم -الأصول والفروع- علىٰ الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين؛ فقد أصاب طريق النبوة**».

وانظر رحمك الله إلىٰ منهج الأئمة الأربعة في التلقي كيف انتهجوا سبيل الصحابة في جميع مسائل الدين، فهذا **أبوحنيفة** -رحمه الله- قال: «إذا صح عندنا عن النبي ﷺ شئ لزمنا الأخذ به، فإن لم نجد عنه، ووجدنا عن الصحابة فكذلك فإذا قول التابعين زاحمناهم»(٣٨٨).

وقال مالك رحمه الله: «ما قلَّت الآثار في قوم إلا ظهرت فيهم الأهواء، ولا قلَّت العلماء إلا ظهر في الناس الجفاء»(٣٨٩)، **وقال الشافعي** رحمه الله: «قد أثنىٰ الله -تبارك وتعالىٰ- علىٰ أصحاب رسول الله ﷺفي القرآن والتوراة والإنجيل، ... وأدوا إلينا سننَ رسول الله ﷺ عاماً خاصاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل.

وآراؤهم لنا أحمد وأولىٰ بنا من رأينا لأنفسنا، ومن أدركنا ممن يرضىٰ أو حكىٰ لنا عنه ببلدنا صاروا فيما لم يعلموا لرسول الله ﷺ فيه سنة إلىٰ قولهم إن اجتمعوا، أو قول بعضهم إن تفرقوا، وهكذا **نقول ولم نخرج من أقاويلهم، وإن قال أحدهم ولم يخالفه غيره أخذنا**

---

(٣٨٦) **لا بأس به**: أخرجه ابن عبد البر في كتاب (جامع بيان العلم:١٨١٠).

(٣٨٧) **صحيح**: رواه ابن عبد البر في "جامع العلم" (زقم١٨٠٩)، والبخاري (ح٧٢٨٢) ببعض الاختصار ، وقد جزم بنسبته إليه شيخ الإسلام ابن تيمية في " منهاج السنة " (٦/ ٨١).

(٣٨٨) الحجة في بيان المحجة (ص٤٠٢).

(٣٨٩) **حسن الإسناد**: رواه الهروي في "ذم الكلام" (ح٨٦٩) والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (١/ ١٤٧).

بقوله»[٣٩٠].

وقال أبوعبدالله **أحمد بن حنبل**: «إنما علىٰ الناس اتباع الآثار عن رسول الله ﷺ ...، **ثم بعد ذلك قول أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر وأئمة الهدىٰ يتبعون علىٰ ما قالوا وأصحاب النبي ﷺ كذلك لا يخالفون إذا لم يكن قول بعضهم لبعض مخالفًا، فإذا اختلفوا نظر في الكتاب بأي قولهم كان أشبه بالكتاب أخذ به أو كان أشبه بقول رسول الله ﷺ أخذ به**، فإن لم يأت عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحاب النبي ﷺ، نظر في قول التابعين فأي قولهم كان أشبه بالكتاب والسنة أخذ به **وترك ما أحدث الناس بعدهم**». (طبقات الحنابلة٢/ ١٦،١٥).

فإن قال قائل: إن كثيراً من المسائل حدثت بعد عهد الصحابة، تكلم فيها العلماء فكيف تريدونا أن نبحث عن فقههم وهم لم يتكلموا فيها؟!

الجواب: أن نقول: إن نصوص الكتاب والسنة كذلك، لم يصرح الشرع ببعض المسائل التي حدثت بعد رسول الله ﷺ فما قيل في السنة، يقال في الآثار، فهي من الأصول التي يرجع إليها، ويقاس عليها، فالشريعة ونصوصها تشمل جميع المسائل، وهي باقية خالدة، ونافعة شاملة لجميع الأبواب، لكل زمان ومكان، ولا سيما أصول الدين، وأبواب الاعتقاد، قال **الإمام البربهاري** رحمه الله: «من زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب محمد ﷺ فقد كذبهم، وكفىٰ به فُرقة، وطعنًا عليهم، وهو مبتدع ضال، محدث في الإسلام ما ليس فيه»[٣٩١] أ.هـ. وعلىٰ هذا فينبغي الاعتناء بالآثار وكتب الآثار التي أصبحت نسيًا منسيًا عند أكثر أهل العلم من السلفيين فضلاً عن غيرهم.

وليس لأحد أن يقول إن السنة لا تفي بأبواب الشريعة لا سيما في فروع الفقه، ويصد بهذا القول عن اتباعها، أو تعلمها، **أو الحرص عليها. فعن أبي ذر قال: تركنا رسولُ الله ﷺ** وما طائر يقلِّبُ جناحيه إلا هو يذكرنا منه علمًا، **قال: قال رسول الله ﷺ**: «ما بقي شئ يُقَرِّبُ من الجَنَّةِ ويباعدُ من النارِ إلا وقد بيّن لكم». **صحيح**: رواه البطراني (٢/ ١٥٥) الصحيحة (١٨٠٣).

وقال وكيع: **"لو أنكم تفقهتم الحديث، وتعلمتموه ما غلبكم أصحاب الرأي، (ما قالوا) في شئ يحتاج إليه**

---

(٣٩٠) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤٤٢)، أعلام الموقعين (١/ ٨٠).
(٣٩١) شرح السنة (ص٧٠).

إلا ونحنُ نروي فيه بابًا". **صحيح**: رواه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (ح٧٨٩)

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية **عمن يقول**: إن النصوص لا تفي بعشر معشار الشريعة، هل قوله صواب؟. **الجواب**: "الحمد لله رب العالمين، هذا القول قاله طائفة من أهل الكلام والرأي كأبي المعالي وغيره، وهو خطأ، **بل الصواب الذي عليه جمهور أئمة المسلمين أن النصوص وافية بجمهور أحكام أفعال العباد، ومنهم من يقول: إنها وافية بجميع ذلك**. وإنما أنكر ذلك من أنكره لأنه لم يفهم معاني النصوص العامة التي هي أقوال الله ورسوله وشمولها لأحكام أفعال العباد، وذلك أن الله بعث محمداً ﷺ بجوامع الكلم، فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التي هي قضية كلية، وقاعدة عامة تتناول أنواعاً كثيرة، وتلك الأنواع تتناول أعياناً لا تحصىٰ، فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأحكام أفعال العباد.

والكلام في عامة مسائل النِزاع بين المسلمين إذا طلب ما يفصل النِزاع من نصوص الكتاب والسنة وجد ذلك، وتبين أن النصوص شاملة لعامة أحكام الأفعال، وكان الإمام أحمد يقول: إنه **ما من مسألة يسأل عنها إلا وقد تكلم الصحابة فيها أو في نظيرها**، والصحابة كانوا يحتجون في عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأي ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً". إعلام الموقعين (٢/ ٩)، يقول شيخ الإسلام **ابن باز** رحمه الله: «لقد استوعبت شريعتنا المطهرة (كل شئ) ولله الحمد والمنة، إن دين الإسلام الحنيف قد أكمله الله، وما من شأن من شئون الدنيا والآخرة إلا وفي هذا الدين له حكم وبيان واضح جلي لمن رزق البصيرة فيه، فهو دين كامل شامل» (فتاوىٰ٢٣/ ٤٢٤).

رابعًا: سلامة الشرح من البدع العقدية، والعملية، بل والتحذير منها، والتنفير عنها.

خامسًا: السهولة والتيسير في الشرح، واعتماد أسهل عبارة، وأقرب لفظ، من باب قوله ﷺ: (**يسروا ولا تعسروا**)، ولو كان النقل عن بعض العلماء فيه شيء من الصعوبة فيمكن أن يصاغ بعبارة سهلة توافق لغة العصر.

سادسًا: محاولة شرح السنة بالكتاب والسنة وآثار سلف الأمة الصحيحة، لا سيما ونحن نعتمد شرح الكتب الستة أصول أمهات كتب الحديث، وما كان خارجاً عنها فهو قليل، فنضم من السنن الصحيحة، والآثار السلفية ما يوضح المراد، ونكون بهذا قد شرحنا قسماً كبيراً من

السنة علىٰ طريقة أهل السنة والحديث.

سابعًا: ذكر الكثير من فوائد الأحاديث، وهذا يعين علىٰ التفقه في السنة، وإيجاد ملكة فقهية في استنباط الأحكام، ومعرفة أدلة كثير من الأحكام والمسائل التي ليست في مظانها من الكتب.

ثامنا: الاختصار ما أمكن، فإن خير الكلام ما قل ودل -كما قيل-، والتقليل من ذكر الأقوال والاختلافات الكثيرة، والمذهبة برونق السنة، ونور الحق، والمضعِفة من الاتباع، والمشتتة للأذهان، (**واختصر لي الكلام اختصارا**)، والاقتصار علىٰ ذكر الراجح فقط مع الدليل، فلم يكن من دأب السلف الأوائل ذكر الأقوال الكثيرة، إلا نادراً، كذلك عدم تعرضنا للمباحث الأصولية، أو اللغوية ونحوها، مما يخرج بالقاريء عن موضوع الكتاب، ويبعده عن الاستفادة، والانتفاع بالكتاب، بل قد تكون صادة عن السنة والقراءة في كتبها.

تاسعًا: الشمول لأكثر أحكام كل باب، لا سيما المسائل التي وردت بها النصوص، والأدلة، ولا تحتاج إلىٰ تفريع، وإمعان نظر، وإعمال للفكر، فذكرنا بعض المسائل المتعلقة بكل باب مما لم يذكرها المؤلف كي يكتمل الموضوع، والباب بمسائله، قدر الاستطاعة وبما تيسر.

عاشراً: ربط النصوص بواقع الناس، كي لا يعيشوا في معزل عن الواقع، وإنزال النصوص علىٰ الوقائع الوقائع المستجدة والمستحدثة، والأحوال التي يعيشها الناس، من خلال بعض الفوائد المستنبطة من النصوص، وليعيش الناس بالسنة في حياتهم، ولا يشعرون أنها في زمان غير زماننا، فهي باقية إلىٰ قيام الساعة.

الحادي عشر: تصفية الدين مما دخله من العقائد المنحرفة، والبدع المخالفة، والآراء المرجوحة، ونسعىٰ في بيان الصواب والصحيح، بالدليل الثابت، مع محاولة التحذير من الباطل الذي نقف عليه في تلك الأبواب والبدع التي نجدها، ولو من باب ذكر بعض الأمثلة.

الثاني عشر: إبراز فقه أصحاب الحديث، وتراجم أصحاب كتب السنة، هذا الفقه هو أحسن الفقه وأعظمه، وهو مجهول أو مهجور عند كثير من الناس ولا يكاد يعتني به طلاب العلم إلا فئة قليلة جداً، والناس لم يعرفوا من الفقه إلا ما كتبه أصحاب كتب المذاهب المتبوعة المشهورة، وجهلوا أو تجاهلوا فقه أهل الحديث وعلمهم، وبخسوهم حقهم، حتىٰ اتهموهم

بقلة الفقه!!.

قال **اللالكائي** رَحِمَهُ اللَّهُ: " والحمد لله الذي كمَّل لهذه الطائفة (أصحاب الحديث) سهام الاسلام، وشرفهم بجوامع هذه الأقسام، وميَّزهم من جميع الأنام حيث أعزهم الله بدينه، ورفعهم بكتابه، وأعلىٰ ذكرهم بسنته، وهداهم إلىٰ طريقته وطريقة رسوله؛ فهي الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، والعصبة الهادية، والجماعة العادلة، المتمسكة بالسنة، التي لا تريد برسول الله ﷺ بديلاً، ولا عن قوله تبديلاً، ولا عن سنته تحويلاً، ولا يثنيهم عنها تقلب الأعصار والزمان، ولا يلويهم عن سمتها تغير الحدثان، ولا يصرفهم عن سمتها ابتداع من كاد الإسلام، ليصد عن سبيل الله ويبغيها عوجًا» (شرح السنة ١/ ٢٤).

لذا لابد من الاستفادة من تراجمهم وأبواب كتبهم وفقههم، كتراجم البخاري، وأبي عوانة، وابن خزيمة وابن حبان، والبيهقي وغيرهم، وبيان فقه أهل الحديث ونشره بين الناس.

الثالث عشر: ونحن في هذه الشروح نريد أن نثبت عملياً لمن يدعي كذباً ومينًا أن أصحاب الحديث لا علم عندهم ولا فقه، حتىٰ قالوا: في أحمد إنه محدث وليس بفقيه، وأيضا من أهدافنا بيان فقه أهل الحديث، وطريقتهم الجليلة في فقه الكتاب والسنة، وأنهم عملياً من أصح الناس علماً وفقهاً، قال **ابن حبان** رَحِمَهُ اللَّهُ: «زَعَمَ (قوم) أَنَّ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ يَرْوُونَ مَا لَا يَعْقِلُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ بِمَا لا يفهمون ويرون المتضاد من الأخبار!!، وأنهم حَشْوِيَّةٌ يَرْوُونَ مَا لَا يَعْقِلُونَ وَيَحْتَجُّونَ بِمَا لَا يَدْرُونَ ». صحيح ابن حبان (٧/ ٤٧٥)، (١٤/ ٣٥).

الخامس عشر: الفهم والتفقه في كتب السنة، فهذا العمل يمكن أن نستعين بالله علىٰ إكماله، من خلال شرح العلماء للسنة، والأخذ بالقول الذي نراه صواباً من أقوالهم وأولىٰ وأقرب للدليل والأثر، مع ترجيحاتهم بعضهم لذلك، عملاً بقوله تعالىٰ: (**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**)، دون دخول عامة طلاب العلم في دهاليز الخلافيات، وتباين الأقوال، وكثرة الآراء التي قد تسبب حيرة لأكثر الناس، فأحببنا أن نبين القول الذي نختاره بالدليل الصحيح، مع ترجيح من رجحه، لينهل منه الصغير والكبير، والذكر والأنثىٰ، وطالب العلم وعوام المسلمين من الطبقة المثقفة، لجميع الدين ومسائله، تيسيراً للفقه فيه.

طريقة العمل في هذا الشرح

أولا: جمع المادة من الكتاب والسنة والأثر، ثم من كلام أهل العلم لا سيما السلفيين منهم.

ثانيا: وضع المتن بخط كبير ولون أحمر، من بداية الصحابي إلىٰ نهايته، وما كان فيه من قول النبي ﷺ، جعلناه ثقيلاً وباللون الأحمر كما هو.

أما السند فبخط أسود وصغير، وتعيين الرواة الذين لا يعرفون، ولكنا في المختصر قمنا بحذف السند

ثالثًا: شرح كل فقرة وحدها، فمثلاً الترجمة (الباب)، نتكلم عليه بما يحتاج من كلام، وشرح.

رابعًا: وكذلك الآيات أو الآثار في الباب يشرح كل أثر أو نص وحده.

خامسًا: أما حديث الباب، فنكتب تحته كلمة (**شرح**) بخط أحمر ثقيل.

سادسا: ثم يتم شرح جملة جملة من الحديث، ونضعها بخط ولون المتن، فنقول: (قوله: (....):) فنذكر جملة من المتن، ثم نذكر شواهدها، وقد نذكر روايات الحديث مجتمعة ليتم التصور التام لقصة الحديث، أو زياداته ورواياته.

سابعًا: ويتم الشرح بالكتاب والسنة والآثر، المتعلق بهذا الباب،

مع تجنب ذكر الخلافات، في الشرح، والأقوال المتابينة في المسألة، ونقتصر علىٰ ما نراه مناسًا وراجحًا مع الدليل الصحيح أو الحسن، وقد نذكر الخلاف عند الحاجة في المسألة وحكمها، أو عند التخريج كل ذلك في الحاشية.

ثامنا: فلا يقولن قائل: **مَن أنتم حتىٰ ترجحوا بين الأقوال؟!**،

فنقول جوابًا علىٰ هذا: إننا اعتمدنا علىٰ ما رجحه أهل التحقيق من أصحاب الشروح، وأئمة السلف، وأقوال أئمة الدين ولا سيما أهل الترجيح منهم كأئمة الحديث كمالك والشافعي، وأحمد والبخاري وأبي داود وابن خزيمة وابن حبان، وابن المنذر، وابن عبدالبر، وابن حزم، والبغوي، والطبري، وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن كثير، والصنعاني والشوكاني ونحوهم.

والأئمة المعاصرين كالإمامين الألباني وابن باز، والعلامة ابن عثيمين، والعلامة الوادعي وغيرهم رحمهم الله جميعاً. قال تعالىٰ: **(الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)**.

تاسعاً: ذكر التخريج مختصراً مقتصراً علىٰ واحد أو اثنين ممن رواه، وإن كان الحديث مما خرجه شيخنا الإمام الألباني في الصحيحة أو الإرواء فنعزوه إليها أو إلىٰ غيرها من كتبه، اختصاراً للجهد والوقت، لنصل إلىٰ الأمر بأقرب طريق، وقد نخالف شيخنا الألباني في تصحيح نص، أو تضعيفه، فنبين ذلك بالحاشية.

عاشراً: قد يحدث شيء من التعقب، أو التعليق علىٰ شيء من الشرح، وقد نعلق علىٰ أمر يقع فيه بعض الناس أو الفرق، أو المذاهب مما نراه مفيداً للناس، كما قد نقوم بالتعليق علىٰ شيء من النصوص أو المسائل المعاصرة بما يتناسب حال الناس كبعض البدع ونحو ذلك كل هذا في الحواشي.

الحادي عشر: ذكرنا الأهداف من هذا التأليف فيما مضىٰ فلا حاجة لأعادته هنا.

الثاني عشر: الآيات جعلناها بخط المصحف.

الثالث عشر: حاولنا أن نربط النصوص، بواقع الناس، وكذا لم شتات المسألة، أو ما يتعلق بها ولو علىٰ سبيل الاختصار.

الرابع عشر: لو وجدنا مسألة متعلقة بالعقيدة فنشير إليها ولو كانت في أبواب الطهارة، للتأصل المسألة وترسخ عند الناس.

الخامس عشر: حاولنا تذليل العبارة ما أمكننا ذلك، حتىٰ ولو كان من كلام الأئمة، فنتصرف فيها، وغالباً نذلك كلمة (بتصرف) عند ذكر المصدر.

السادس عشر: قد لا نذكر المصدر أحياناً فنقول مثلاً قال ابن رجب، أو ابن الملقن، أو الحافظ، أو ابن بطال من شراح الحديث، وشراح البخاري، لأن شروحهم متوفرة، ولئلا نثقل الكتاب بالنقولات الكثيرة والمصادر، وهي معروفة ومشهورة، ونادراً ما نذكر عنهم بلا عزو، ولنا أسوة في أئمتنا، لكن لو كان فقهاً خاصاً، واستنباطاً فريداً فإنا نعزوه إلىٰ قائله.

هذا ونسأل الله تعالىٰ التوفيق والسداد والرشاد، وأن يتقبل منا هذا العمل بقبول حسن، وأن ينفع به قارئه، ودارسه، والناظر فيه، وأن يجعله ذخراً لنا يوم نلقاه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ اللهَ بقلب سليم.

١ -كتاب بَدْءِ الوَحْيِ



١ - كتاب بَدْءِ الوَحْيِ

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُوعَبْدِاللهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - تَعَالَىٰ، آمِينَ:

أُعْتُرِضَ علىٰ البخاري رَحِمَهُ اللهُ أنه لم يبدأ كتابه بخطبة تنبئ عن مقصوده.

والجواب: الظاهر أنه رأىٰ أن هدي النبي ﷺ في الكتب، غير هديه في الخُطَبِ، إذ المعلوم أن كُتُبَهُ لم يكن بها تشهد بخلاف الخُطَب، ثم أيضـًا إنه هو مقتدٍ بكتاب الله تعالىٰ حيث بدأ كتابه بغير بالبسملة، قال تعالىٰ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ [العلق: ١]، واقتدىٰ برسول الله في كتبه، ولم يبدأ بالخطب فيها ولم يزد علىٰ البسملة في كتبه، وكتب شيوخ البخاري ولم يزدوا علىٰ البسملة.

بدأ البخاري بالحديث الدال علىٰ أن العمل دائر مع النية، فكأنه يقول: قصدت جمع وحي السنة المتلقىٰ عن خير البرية، علىٰ وجه سيظهر حسن عملي فيه من قصدي، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ.

قوله: (بَدْءِ الوَحْيِ): **الوحي**: **لغة**: الإعلام في خفاء وسرعة، ويطلق ويراد به: الكتابة والمكتوب، والبعث والإلهام، **وشرعـًا**: إعلام الله تعالىٰ أنبياءه ما شاء من أمور.

لماذا بدأ بكتاب بدء الوحي؟

الجواب: لما كان الوحيّ هو الأصل في الرسالة النبوية، وهو: الكتاب والسنة، فلذلك بدأ به، وعملاً بحديث: «**أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي ...**».

القرآن والسنة وحي يوحىٰ:

أوحىٰ الله لنبيه هذا القرآن الذي قال فيه: (**كذلك أوحينا إليك قرآنـًا عربيـًا**)، وقال: (**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن**)، وقال: (**ولا تعجل بالقرآن من قبل إن يقضىٰ إليك وحيه**)، وقال: (**وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ**).

ولا يجوز التفريق بين وحي القرآن ووحي السنة، إذ كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثـًا، والسنة شارحة ومفسرة للقرآن: (**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل**

إليهم).

وقد ذكر الله وحيَ القرآن والسنة فقال تعالىٰ: (**وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا**)، ففي الوحيين الحياة والروح، وفي غيرهما الهلاك، وقال: (**قل إنما أنذركم بالوحي**)، وقال: (**اتبع ما أوحي إليك من ربك**)، وقال: (**إن أتبع إلا ما يوحىٰ إليَّ**).

وقال: (**ذلك مما أوحىٰ إليك ربك من الحكمة**)، وقال: (**وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي**)، فالعبد يفوته نصيبه من الهداية بقدر ما فاته من السنَّة علمًا وعملاً، وقال: (**فاستمسك بالذي أوحي إليك**)، وقال: (**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك**)، وقال: (**ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك**)، وقال -تعالىٰ-: (**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ**)(الأحزاب: من الآية٣٤).

فلا يجوز التفريق بين آي الكتاب أو بين حديث رسول الله ﷺ قال -تعالىٰ-: (**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**)(البقرة: من الآية٨٥)

وهؤلاء يريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً.

فقد شرع رسول الله ﷺ الشرائع وسن السنن بإذن ربه ووحيه لا من تلقاء نفسه وشهد الله له بذلك قال تعالىٰ: (**قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلي**)، ومن أصول الإيمان ولوازمه، التصديق الجازم بكل ما أخبر به النبي ﷺ والتسليم بصحة كل ما أخبر به، وبأنه بلغ الرسالة؛ لأن ما جاء به وحي من الله تعالىٰ، كما قال تعالىٰ: {**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ**}،{**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**}، ومصداق ذلك قوله ﷺ: (**والذي نفسي بيده بعثت بالقرآن ومثله معه**) أي السنة، وفي رواية: (**ألا إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله**)، ولذلك فإن **طاعة الرسول تجب استقلالاً من غير عرض ما أمر به علىٰ الكتاب**، قال **سعد بن معاذ**: "ما سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا قط إلا علمت أنه حق من الله"[٣٩٢]، وعن **حماد بن زيد** عن أيوب قال رجل لمُطَرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير: إنا نريد كتاب الله، فقال **مطرِّف**: «إنا لا نريد بكتاب الله بديلاً، ولكن نريد من هو أعلم به منا». **صحيح**: ينظر "صحيح جامع بيان العلم" (ح١٦٩٨)، وقال **حماد**

(٣٩٢) **صحيح**: جامع بيان العلم (ح١٧٠٧).

بن زيد: "حرمة أحاديث رسول الله ﷺ كحرمة كتاب الله تعالىٰ".(رواه البيهقي في المدخل٢/ ١٩١)، ثم قال **البيهقي**: «وإنما أراد في معرفة حقها، وتعظيم حرمتها، وفرض اتباعها، وعن أبي موسىٰ عن **المعتمر بن سليمان التيمي** أنه قال: «أحاديث النبي ﷺ كالتنزيل»، قال أبو موسىٰ: يعني في الاستعمال، يستعمل سنة رسول الله ﷺ كما يستعمل كتاب الله عز وجل. (ذم الكلام/ ٢٣٣)، وقال **الإمام الشافعي**: "وتقام سنة رسول الله ﷺ مع كتاب الله -عز وجل- مقام البيان عن الله -عز وجل- وليس شئ من سنن رسول الله ﷺ يخالف كتاب الله في حال، لأن الله تعالىٰ قد أعلم خلقه أن رسوله ﷺ يهدي إلىٰ صراط مستقيم". (الرسالة/). وعن **مكحول** قال: "القرآن إلىٰ السنة، أحوج من السنة إلىٰ القرآن"، **إسناده صحيح**: رواه ابن عبد البر "جامع بيان العلم" (ح٢٣٥٢)، وقد بَيَّنَ **السيوطي** معنىٰ هذا بقوله: "والأصل أن معنىٰ احتياج القرآن إلىٰ السنة أنها مبينة له، ومفصِّلة لمجملاته، لأن لوجازته كنوزاً تحتاج إلىٰ من يعرف خفايا خباياها فيبرزها ويظهرها، وذلك هو المنزل عليه ﷺ، وهو معنىٰ كون السنة قاضية علىٰ الكتاب، وليس القرآن مبيناً للسنة، ولا قاضياً عليها، لأنها بينة واضحة بنفسها، إذ لم تصل إلىٰ حدّ القرآن في الإعجاز والإيجاز، لأنها شرح له، وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح". مناهل العرفان (١/ ٢٩٩). بتصرف.

قال القرطبي في تفسيره: (البيان منه ﷺ علىٰ ضربين: بيان لمجمل في الكتاب كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها ... وبيان آخر وهو: زيادة علىٰ حكم الكتاب كتحريم نكاح المرأة علىٰ عمتها وخالتها)،

قلت: وهناك بيان ثالث وهو أن جميع السنة دلت علىٰ معاني كتاب الله تعالىٰ، وجميع ما جاء عنه هو مما ورد أصله في كتاب الله، وقد دل الكتاب علىٰ السنة، ولم يترك شيئاً يحتاج الناس إليه إلا أنه في القرآن، دلالة عليه، أو إشارة إليه، ثم يأتي تفصيل ذلك في أحاديث النبي ﷺ ولذلك قال **الشافعي**: "كل ما قضىٰ به رسول الله فهو مما فهمه من كتاب الله"، فلا تعرض السنة علىٰ القرآن، فإنها أصل بذاتها، وحجة بنفسها، وقال: **أيوب السَّختِياني**: "إذا حدثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا وحدثنا عن القرآن فاعلم أنه ضال". الحجة (٢/ ٤٩٤)، ولذلك فإنا نجد أن النبي ﷺ يطلق كتاب الله علىٰ سنته، فمن ذلك ما قال قال **أبوجعفر الطحاوي**: في حديث النبي ﷺ: (**لأقضين بينكما بكتاب الله، ... وعلىٰ ابنك جلد مائة وتغريب عام**..)، (ثم قضىٰ علىٰ المرأة

بالرجم)، يعني: بكتاب الله والله أعلم حكم الله وإن كان ليس منصوصًا في كتاب الله لأنا إنما قبلنا حكم رسول الله ﷺ بكتاب الله لأن الله تعالىٰ قال لنا فيه {**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**}، فإذا كان بكتاب الله وجب قبولَ حُكْمِهِ فإن كل حُكم حَكَمَ به فهو بكتاب الله وإن كان ذلك الحكمُ ليس منصوصًا في كتاب الله تعالىٰ" ذم الكلام وأهله (٢/ ٩٠)، بتصرف.

وقال **البيهقي**: وقوله في الحديث: "**بكتاب الله**"، فإنما أراد فيما أوحىٰ إليه، ثم ما أوحىٰ إليه نوعان؛ **أحدهما**: وحي يتلىٰ، **والآخر**: وحي لا يتلىٰ"، ومن الأدلة علىٰ أن السنة وحي يوحىٰ كالقرآن، قوله ﷺ: (**إن جبريل عليه السلام ألقىٰ في روعي أنَّ أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتىٰ يستكمل رزقه**). وكل ما ورد تفسيره عن النبي ﷺ من القرآن فهو من البيان الذي أنزله الله إليه بالوحي.

ومما يؤكد أن السنة وحي من الله نزل بها جبريل علىٰ النبي ﷺ ما ورد عن يعلىٰ بن أمية رضي الله عنه قال: "جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ وهو بالجعرانة عليه جبة، وعليها خلوق أو قال: أثر صفرة. فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي؟ قال: **وأنزل علىٰ النبي ﷺ الوحي، فستر بثوب** وكان يعلىٰ يقول: وددت أن أرىٰ النبي ﷺ، وقد نزل عليه الوحي قال فقال: **أيسرك أن تنظر إلىٰ النبي ﷺ، وقد أنزل عليه الوحي**؟ قال: فرفع عمر طرف الثوب، فنظرت إليه له غطيط قال: وأحسبه قال: كغطيط البكر. قال: فلما سري عنه قال: (**أين السائل عن العمرة: اغسل عنك أثر الصفرة أو قال أثر الخلوق واخلع عنك جبتك واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجك**). متفق عليه، قال **حسان بن عطية** (أحد التابعين من ثقات الشاميين): "كان جبريل عليه السلام، ينزل علىٰ رسول الله ﷺ بالسنة، كما ينزل عليه بالقرآن، يعلمه إياها، كما يعلمه القرآن". قال **العراقي** رحمه الله: "وصف السنة بالإنزال صحيح؛ فقد كان ينزل بها كما ينزل بالقرآن، كما في الحديث الصحيح في الرجل الذي أحرم لعمرة وهو متضمخ بخلوق، فنزل الوحي في ذلك بالسنة الثابتة من قوله: "ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عمرتك". الانتصار لأهل الحديث (ص١٠١)، وعن عبد الرحمن بن يزيد قال لقي **عبدالله** (يعني: ابن مسعود) رجلاً محرمًا عليه ثيابه فقال: انزع عنك هذا فقال الرجل تقرأ عليَّ بهذا آية من كتاب الله عز وجل قال: نعم، {**وما آتاكم الرسول فخذوه**}". صحيح: أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله (٢٤٨). قال **أبوحفص الحنبلي**: وعند هذا يَصِحُّ قولِهِ تعالىٰ: (**مَّا فَرَّطْنَا فِي لكِتَابِ مِن شَيْءٍ**)، اللباب (٨/ ١٢٨)، ويعني بهذا، أن القرآن والسنة لم يتركا شيئًا مما يحتاجه

الناس إلا قد بين فيهما.

فوجبت طاعته ﷺ مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، ويجب الإيمان بخبره سواء كان مشاهداً أو مغيباً، وسواء أدركناه بعقولنا أو لم ندركه، وأنه صدق وحق، فلا يجوز رد شيء من أمور الغيب الثابتة في الكتاب والسنة، لمجرد استبعاد العقل، فإن العقول تضعف عن إدراك أمور الغيب، فالإيمان بالسنة القولية والفعلية والتقريرية هو من تحقيق الشهادة بأنه رسول الله، ومن لوازم هذه الشهادة العظيمة.

ولا فرق بين القرآن والسنة في الحجية والاستدلال، بل كما ورد في الحديث: (**ولن يتفرقا حتىٰ يردا عليّ الحوض**)، فلا فرق ولا تفريق بينهما، وأيضاً سؤال عنهما في القبر ويوم القيامة، فالسؤال في القبر بأن يقال: (**من الرجل الذي بعث فيكم؟**)، فالمؤمن يقول: (**هو رسول الله جاءنا بالبينات فآمنا به واتبعناه**)، وقوله تعالىٰ: (**ولنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين**)، ولكن الفرق في أمر وهو: أن القرآن لفظه من الله تعالىٰ، وأما السنة فقد يكون لفظها من الله، وقد لا يكون لفظها من الله، ولكنها تفسير لكلام الله تعالىٰ، وبيان لمعناه، (**فإنما يسرناه لسانك**)، وأما الفروق الأخرىٰ فليس مؤثرة، كالتعبد بكل حرف عشراً.

وقد قال الله تعالىٰ في الرسول ﷺ: {**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**}، والمشركون قديماً كانوا يصدقون خبره، ويلقبونه بالصادق الأمين قال تعالىٰ: (**فإنهم لا يكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**)، فالعجب اليوم ممن ينتسب إلىٰ الإسلام، وهو لا يصدق خبر نبيه، بل وجدنا لكع ابن لكع، ورويبضة يشكك في سنته مع جهله العميق بقواعد أهل العلم التي استعملوها في قبول الأخبار، وقد بلغت في الدقة الغاية القصوىٰ، وكان نقلة السنة يتشددون فيمن ينقلون عنه، حتىٰ كان الناسُ يَفْرَقُون ويخافون من أهل الحديث، فإنهم حراس الدين، لأنهم كانوا يطلبون أن يكون جميع رجال السند ثقات عدولاً صادقين أمناء قد أخذ بعضهم عن بعض، وغير ذلك من الشروط.

فأي أحد يطعن في السنة، أو يصرف الناس عن الحديث بأي حجة من الحجج، أو يشغلهم عنها بكتب أو آراء الرجال، ويمنعهم من دراستها، أو يقدم غيرها عليها، فهو داخل في قوله تعالىٰ: (**وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله وإلىٰ الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا**)، ولذلك

قال **حسان بن عطية**: "ما عادىٰ عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره". شعب الإيمان (٧٢٧)، وليس بغض الحديث، وكراهية أهله إلا شعبة من النفاق، وكراهية ذكر الله ورسوله، وإن ترك الاطلاع علىٰ السنة والاشتغال بها من علامات أهل البدع والأهواء، قال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلا تجد قط مبتدعاً إلا وهو يحب كتمان النصوص التي تخالفه ويبغضها ويبغض إظهارها وروايتها والتحدث بها ويبغض من يفعل ذلك كما قال بعض السلف: ما ابتدع أحد بدعة إلا نزعت حلاوة الحديث من قلبه" درأ التعارض (١/ ١٢٠).أ.هـ.

فلا ينبغي الانصراف عن الحديث، فقد ذم السلف ذلك فهذا **الأعمش**، كان يقول: "من لم يطلب الحديث أشتهي أن أصفعه بنعلي"، **قال أبوأحمد عبد الله بن بكر بن محمد** الزاهد: «**أبرك العلوم وأفضلها وأكثرها نفعاً في الدين والدنيا بعد كتاب الله عزَّ وجلَّ: أحاديث رسول الله** ﷺ؛ لما فيها من كثرة الصلوات عليه، وإنها كالرياض والبساتين، تجد فيها كل خير وبر وفضل وذكر»(٣٩٣).

قال **أبوالحسن الأشعري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأمر الله الناسَ بطاعة رسوله كما أمرهم بطاعته، ودعاهم إلىٰ التمسك بسنة نبيه كما أمرهم بالعمل بكتابه، فنبذ كثير ممن غلبت عليهم شقوته واستحوذ عليهم الشيطان سنن نبي الله ﷺ وراء ظهورهم ومالوا إلىٰ أسلاف لهم قلدوهم دينهم ودانوا بديانتهم وأبطلوا سنن نبي الله ﷺ ودفعوها وأنكروها وجحدوها افتراء منهم علىٰ الله **(قد ضلوا وما كانوا مهتدين)**". الإبانة (ص١٢)، والمتأمل في حال كثير من المسلمين في اليوم يرىٰ أنهم تركوا الاهتمام بالسنة، واعتنوا بالقرآن زعموا، ولو أنهم اعتنوا بالقرآن حقاً لعظموا السنة، ولكرسوا جهودهم في معرفتها، واتباعها والاقتداء بها، ولكن مما يؤسف له أن السنة أصبحت عندهم أمرًا مهجوراً ومستغربًا بل ومستنكرًا مستهجناً لجهلهم بها وبعدهم عنها، واستبدلوا ذلك بالبدع التي لا أصل لها ولا دليل عليها من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فاتخذوها دينًا يدينون به، فانعكست بذلك الموازين لديهم فأصبحوا يرون الحق باطلاً والباطل حقاً، والسنةَ بدعة، والبدعة سنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(٣٩٣) ترجمه الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في "تاريخ دمشق"، وروىٰ له هذه الكلمة (ج ١/ ٩/ ٢) . الصحيحة (١/ ٢٩).

ووجد قديمًا وحديثًا من يدعو إلىٰ الاقتصار علىٰ القرآن، ويقلل من شأن السنّة وأهميتها، ويطعن في نقلها وحملتها وعلمائها وأهلها، ومن لم يتبع سنة النبي ﷺ اتبع غيره ولابد، من المشايخ والعلماء، والمذاهب، والآراء، أو العقول العفنة، أو الفلاسفة، أو الطرق، والفرق وأصحابها، وغير ذلك من المستشرقين ونحوهم.

ومن فضل الله علىٰ المسلمين وأهل الحديث أهل السنة أن حفظ دينه ومنته علىٰ عباده وهيأ لسنَّة نبيه ﷺ من يحفظها وينقلها ويعلّمها وينافح عنها وينفي عنها الدخيل، ويدحض شبهات المبطلين ويفندها.

ثم إنه غير ممكن للصادق المصدوق أن يزيد شيئًا، أو يكذب علىٰ الله تعالىٰ بحرف واحد، من عند الله فهو الذي لا شك فيه وغير ذلك من الأحاديث ويكفي في ذلك قول الله تعالىٰ: **(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)** (الحاقة/ ٤٤)، ولا يمكن للنبي ﷺ أن يكتم شيئًا من الوحي، لأنه ﷺ بلغ جميع ما أرسل به لم يكتم منه حرفًا واحدًا قال الله تعالىٰ: **(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)** (المائدة/ ٦٧)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال لا ألفين أحدكم يوم القيامة علىٰ رقبه بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثني، فأقول: **(لا أملك لك شيئا قد أبلغتك)**، وقال: **(ألا هل بلغت، اللهم اشهد)**.

الوحي محفوظ بحفظ الله تعالىٰ له لفظًا ومعنىٰ:

أنزل الله كتابه فهو المعجزة الخالدة، إذ ليس بعده كتاب، ولا بعد رسوله رسول، ودينه باق حجة علىٰ الخلق إلىٰ قيام الساعة، فحفظ الله كتابه ليبقىٰ إلىٰ آخر الدهر، لفظًا ومعنىٰ، وليس الحفظ حفظ حروف وألفاظ فحسب، بل حفظ المعنىٰ هو المراد أصالة، ولا يمكن أن يحفظ إلىٰ بشيء معصوم، وهو النبي الكريم، وإجماع أصحابه في المسلمات، وكذا آثار الصحابة الكرام، وتفسيرهم للقرآن، وبيانهم لما أُشكل من السنة

وتوضيحهم لما يتعلق بدين الناس وعبادتهم، وحقوقهم ووجباتهم، ومواريثهم، فهذا محكم، وواضح إلىٰ ما نهاية من الوضوح.

وأما ما تركه الله ورسوله للاجتهاد، فهو لأن الناس تتفاوت حاجاتهم، وعصرهم، ومكانهم وزمانهم وطبائعهم، فمثل هذه الأمور تركها الشارع للاجتهاد، ولكن هذا الاجتهاد ضبط بقواعد وأصول محكمة، علمها من علمها وجهلها من جهلها.

ومن هنا تظهر مناسبة ذكر البخاري ببدء كتابه ببدء الوحي، وما ذكره بعده من الأحاديث، ليبين أن السنة وحي يوحىٰ كالقرآن، وأن كتابه (الجامع الصحيح) قد بناه علىٰ ذلك، والسنة المطهرة هي: سفينة نوح من ركبها نجا، وهي التطبيق الفعلي للإسلام أحكامًا وعقائد وعبادات ومعاملات وآدابًا، فقد كان النبي ﷺ يمتثل ما أمر به، ويبينه للناس، وهي تفسير وبيان القرآن.

وقد أوصىٰ الأئمة بالوحيين، ولزومهما والاعتناء بهما، وأول ما يعتنىٰ به من السنة والأحاديث ينبغي الاعتناء بصحيح البخاري، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «جماع الخير أن يستعين بالله في تلقي العلم الموروث عن النبي ﷺ، فإنه هو الذي يستحق أن يسمىٰ علمًا، وما سواه إما أن يكون علمًا نافعًا، وإما ألا يكون علمًا، وإن سُمِّي به، ولئن كان علمًا نافعًا فلابد أن يكون في ميراث محمد ﷺ ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه، وليكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه، فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل إذا أمكنه ذلك، وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي ﷺ وما في الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من **"صحيح محمد بن إسماعيل البخاري"** لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم". الفتاوىٰ (١٠/ ٦٥٣).

١- كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

وَقَوْلُ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

ومناسبة الآية للباب واضح، من جهة أن صفة الوحي إلىٰ نبينا ﷺ توافق صفة الوحي إلىٰ من تقدمه من النبيين، ومن جهة أن أول أحوال النبيين في الوحي بالرؤيا كما رواه أبونعيم في الدلائل **بإسناد حسن**، عن **علقمة بن قيس** صاحب ابن مسعود، عنه أنه قال: "إن أول ما يؤتىٰ به الأنبياء في المنام حتىٰ تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة"(٣٩٤).

الشرح:

قوله تعالىٰ: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ):

ذكر نوحًا لأنه أول رسول إلىٰ أهل الأرض، لقوله (**فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلىٰ الأرض**)، قال **البغوي**: "فذِكر نوح عليه السلام أول نبي من أنبياء الشريعة، وأول نذير علىٰ الشرك، وأول من عُذِّبت أمتُهُ لردهم دعوته، وأهلكَ أهلَ الأرضِ جميعًا بدعائه، لم يصبر نبي علىٰ أذىٰ قومه ما صبر هو علىٰ طول عمره"، قال العلامة **الشنقيطي**: "ونوح هو أول رسول أُرْسِل لقوم كافرين ينهاهم عن الإشراك بالله تعالىٰ، ويأمرهم بإخلاص العبادة له وحده، ويدل لهذا قوله تعالىٰ: {**وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً**} [١٠/ ١٩].

وقيل: بدأ بذكر نوح، تهديداً لهم، لأنه أول نبيّ عوقب قومه، وإن كان نوح دعا علىٰ بنيه، بالهلاك، فإن محمداً ﷺ كان أرحم بأمته بما كان لديه من الصبر والتحمل للأذىٰ منهم، ورحمته بهم، ما جعله يدعو لكافرهم، ومؤمنهم، فكان أرحم بهم من نوح عليه السلام ببنيه، في الدنيا والآخرة، وللآخرة خير وأبقىٰ، وتشبه رسالة محمد ﷺ التي جاء بها، رسالة نوح عليه السلام من جهات متعددة، قال تعالىٰ (**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**)(الشورىٰ/ ١٣)، فهو عليه الصلاة والسلام متبع في ذلك أمر الله تعالىٰ، وجميع الرسل قبله كانوا علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: {**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**} [الروم:٤٧]، وسيأتي معنا أنواع الوحي

((٣٩٤)) **صحيح السيرة النبوية** لشيخنا العلامة الألباني (ص٨٧).

وهي كثيرة، أعطاها الله لنبينا محمد ﷺ كلها، وأيضاً أعطاه ما عُرف به بعضهم كتكليمه لموسىٰ عليه السلام فإنه قد أكرم الله نبينا بهذه الآية، بأكثر من صاحبها، فإن كان موسىٰ عليه السلام كلمه الله وهو بالطور، لكن محمداً ﷺ كلمه ربه بعد أن رفعه إليه.

١ - عن عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ، يَقُولُ: سَمِعْتُ **عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ** رضي الله عنه عَلَىٰ المِنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ** (قصد الشيء المأمور تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ)، **وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا** (يحصلها نية وقصدًا)، **أَوْ إِلَىٰ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا** (أي يتزوّجها)، **فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».

طرفه في: (الإيمان٥٤، العتق٢٥٢٩، مناقب الأنصار٣٨٩٨، النكاح٥٠٧٠، الأيمان والنذور٦٦٨٩، الحيل٦٩٥٣).

الشرح:

ورد عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث، من ذلك قول **أبي عبدالله البخاري**: "ليس في أخبار النبي ﷺ شيء أجمع وأغنىٰ وأكثر فائدة من هذا الحديث"، وقال يحيىٰ بن سعيد: سمعت **أباعبيد** يقول: جمع النبيُّ ﷺ جميع أمر الآخرة في كلمة: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»، وجميع أمر الدنيا في كلمة: «**إنما الأعمال بالنيات**» يدخلان في كل باب. شرح السنة(١/ ٢١٨)، وقال **عبدالرحمن بن مهدي**: "ينبغي أن يجعل هذا الحديث رأس كل باب".

ولذلك بدأ كثير من أهل العلم كتبهم بهذا الحديث كالنووي، في (الأربعين)، والمقدسي ونحوهما.

لماذا بدأ البخاري صحيحه بهذا الحديث وما وجه مناسبته لبدء الوحي؟!

وقد ورد عن البخاري أنه قال: "من أراد أن يصنف كتاباً فليبدأ بحديث: الأعمال بالنيات". **صحيح**: الجامع لأخلاق الراوي للخطيب، برقم (١٩٢١)، وقال **ابن بطال**: "وإنما قدَّم البخاري رحمه الله، حديث: "**الأعمال بالنيات**" في أول كتابه، ليعلم أنه قصد في تأليفه وجه الله عز وجل، ففائدة هذا المعنىٰ، أن يكون تنبيهًا لكل من قرأ كتابه، أن يقصد به وجه الله تعالىٰ، كما قصده البخاري في تأليفه" شرح ابن بطال(١/ ٣١).

والحكمة في بدأ البخاري به أن بدء الوحي كان بالنية لأن الله تعالىٰ فطر محمدًا ﷺ علىٰ

التوحيد، وبغَّض إليه الأوثان، فلما رأىٰ ذلك أخلص لله ونوىٰ الخير وأراد الهداية، وهبه الله أول أسباب النبوة، وهي الرؤيا الصالحة؛ فكان يتعبد بغار حراء؛ فقبل الله عمله، وأتم له النعمة.

وحبَّبَ إليه خِلَالَ الخير، ولزوم الوحدة فرارًا من قرناء السوء، فلما لزم ذلك أعطاه الله علىٰ نيته الحسنة الخير الكثير، لأنه من يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه ووهبه النبوة، كما يقال الفواتح عنوان الخواتم.

وهداه وأعطاه ربُهُ أعظم مما قصده، من الوحي والنور الذي أنزله، وزاده هدىٰ وتقىٰ.

فمن هنا تظهر مناسبة ذكر هذا الحديث للباب ظهوراً بيِّنًا، فمن صحح قصده في طلب الحق أعطاه الله وفتح عليه من نور هدايته، والانتفاع بهذا الكتاب وغيره، ومن الوحي الثابت عنه ﷺ. (**والذين اهتدوا زادهم هدىٰ وءاتيهم تقواهم**) (محمد/ ١٧).

أما قوله: (سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ عَلَىٰ المِنْبَرِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ)، **فيه** أن الواحد الثقة إذا كان في مجلس فيه جماعة ثم ذكر عن ذلك المجلس شيئًا ولم يذكره غيره، أن ذلك لا يقدح في صدقه؛ لأن علقمة ذكر أن عمر خطب به علىٰ المنبر، ثم لم يذكره أحد غيره، ويشبه هذا أيضًا زيادة الثقة.

قوله: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ): **فيه** أن مدار الأعمال علىٰ النيات، صحة وفساداً، وكمالاً ونقصًا، وطاعة ومعصية، وجزاء وعقوبة، سواء كان طاعة أو معصية يختلف باختلاف النيات.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "من أجمع الكلام وأبلغه قوله: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**»، وهذا يعم كل عمل وكل نية؛ فكل عمل هو بحسب نية صاحبه، وليس للعامل إلا ما نواه وقصده وأحبه وأراده بعمله". قاعدة في المحبة (صـ١٥)، قال: "وَلِهَذَا قَالَ فِي تَمَامِهِ: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ** ...» إلَخْ، فَذَكَرَ النِّيَّةَ الْمَحْمُودَةَ بِالْهِجْرَةِ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَقَطْ، وَالنِّيَّةَ الْمَذْمُومَةَ وَهِيَ الْهِجْرَةُ إِلَىٰ امْرَأَةٍ أَوْ مَالٍ". مجموع الفتاوىٰ(١٨/ ٢٥٢).

قوله: (وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ): قال **ابن القيم**: "فالنية روح العمل، ولبه، وقوامه، وهو تابع لها، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، والنبي ﷺ قد قال **كلمتين كفتا وشفتا**، وتحتهما كنوز العلم، وهما قوله: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ**»، فَبَيَّن في **الجملة الأولىٰ**:

أن العمل لا يقع إلا بالنية، ولهذا لا يكون عمل إلا بنية، ثم بَيَّن في **الجملة الثانية**: أن العامل ليس له من عمله إلا ما نواه، وهذا يعم العبادات والمعاملات والأيمان والنذور، وسائر العقود والأفعال". إعلام الموقعين(٣/ ١١١).

وعن أبي ذر عن النبي ﷺقال: **"لا أجر إلا عن حسبة ولا عمل إلا بنية"** الصحيحة (٢٤١٥).

قال **الصنعاني**: فكل عمل لا بد له من أمرين: النية بأنه يريد بها وجه الله والاحتساب عنده تعالىٰ والاعتداد" التنوير شرح الجامع الصغير (١١/ ٦٩)، **وفيه** أن النية لابد وأن تسبق الأعمال، لأنها شرط فيها، وكون النية شرط أساسي في العمل، لا يعني الغُلُوّ (التكلف) في استحضارها يفسد علىٰ المتعبد في عبادته. فإن مجرد قصد العمل يكون نِيَّة له، **وفيه** أن النية مَحلُّها القلب، والتلفظ بها بدعة، قال **البغوي**: "والنية: قصدك الشيء بقلبك".شرح السنة(١/ ٤٠٢).وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "مَحَلُّ النِّيَّةِ الْقَلْبُ دُونَ اللِّسَانِ، بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ: الصَّلَاةِ وَالطَّهَارَةِ، وَالزَّكَاةِ، **وَالْحَجِّ**، وَالصِّيَامِ، وَالْعِتْقِ وَالْجِهَادِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّ النِّيَّةَ هِيَ مِنْ جِنْسِ الْقَصْدِ؛ وَلِهَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ نَوَاكَ اللهُ بِخَيْرٍ: أَيْ قَصَدَكَ بِخَيْرٍ". الفتاوىٰ الكبرىٰ(٢/ ٨٨).انظر (حاشية) تفصيل بدعية التلفظ بالنية، كتاب: "القول المبين" للشيخ مشهور (ص٩٢).

وفيه أنه إذا نوىٰ العبادة وخالطها شيء مما يغاير الإخلاص فقد نقل **أبوجعفر ابن جرير الطبري** عن جمهور السلف أن الاعتبار بالابتداء، فإن كان ابتداؤه لله خالصاً لم يضره ما عرض له بعد ذلك من إعجاب وغيره -والله أعلم-، **وفيه** وجوب الاعتناء بأعمال القلوب ومراقبتها، وأهمها الإخلاص.

وفيه المحافظة علىٰ النية وتعاهدها لأن مدار الأعمال عليها، ومن ذلك أن يسعىٰ في إخفاء عمله عن أعين الناس ما أمكنه ذلك، عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبْءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ"** الصحيحة (٢٣١٣)، وينبغي ألا يرىٰ عمله شيئاً في جنب الله، فلا يرضىٰ عن عمله، بل يخاف ألا يقبله الله منه مع شدة تعاهده له، وإحسانه فيه، ويستودعه الله، **وفيه** أن الإخلاص شرط في حصول الثواب علىٰ الأعمال، وقبولها عند الله، **وفيه** أن مَا لَا يَكُونُ إلَّا عِبَادَةً لَا يَصِحُّ إلَّا بِنِيَّةٍ، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "النَّاسَ

مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا عِبَادَةً، لَا يَصِحُّ إِلَّا بِنِيَّةٍ، بِخِلَافِ مَا يَقَعُ عِبَادَةً وَغَيْرَ عِبَادَةٍ، كَأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَقَضَاءِ الدُّيُونِ، لِقَوْلِهِ: (الوضوء عبادة) «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعبد الْمُسْلِمُ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مَعَ الْمَاءِ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ**، فَالْوُضُوءُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَأبوحَنِيفَةَ يَقُولُ: الطَّهَارَةُ لاتُشْتَرَطُ لَهَا النِّيَّةُ، كَاللِّبَاسِ وَإِزَالَةِ النَّجَاسَةِ ". مجموع الفتاوىٰ(١٨/ ٢٥٩).

وفيه أن من نوىٰ شيئًا يحصل له، سواء عمله أو منعه منه مانع خارجي عنه.

ومن ذلك حديث **أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ، فَيُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَا لِهَذَا عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ**. **صحيح** صحيح الترغيب والترهيب(١٦)، **وفيه** وجوب الحذر من الرياء والسمعة والعمل لأجل الدنيا، مادام أن شيئًا من ذلك يفسد العبادة.

فائدة: ذكر ابن رجب أن العمل لغير الله علىٰ أقسام: **فتارة** يكون رياء محضًا، لا يقصد به سوىٰ مراءاة المخلوقين لتحصيل غرض دنيوي، هذا لا يكاد يصدر من مؤمن، ولا شك في أنه يحبط العمل وأن صاحبه يستحق المقت والغضب من الله والعقوبة. **وتارة** يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فإن النصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه.

وإن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء، ودفعه صاحبه فإن ذلك لا يضره بغير خلاف، أهـ بتصرف. جامع العلوم والحكم(١/ ٨٣، ت: شعيب الأرناؤوط).

وفيه أن الشرك في النية، كأن ينوي العمل لله تعالىٰ، ويريد مع ذلك ممدحة الناس، أو خشىٰ مذمتهم، فإنه لا يُقبل، لقوله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». رواه مسلم(٢٩٨٥)، وقال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللهُ: "وبكل حال؛ فالإخلاص شرط لحصول الثواب في جميع الأعمال؛ فإن الأعمال بالنيات، وإنما لامرىء ما نوىٰ، وبناء المساجد من جملة الأعمال، فإن كان الباعث علىٰ عمله ابتغاء وجه الله حصل له هذا الأجر، وإن كان الباعث عليه الرياء والسمعة، أو المباهاة، فصاحبه متعرض لمقت الله وعقابه، كسائر من عمل شيئًا من أعمال البر يريد به الدنيا كمن صلىٰ يرائي، أو حج يرائي، أو تصدق يرائي". فتح الباري (١/ ١١٥).

وفيه أن الأقوال والأفعال وأعمال القلوب كلها داخلة في لفظة: «**الأعمال**» المذكورة في الحديث، لقوله تعالىٰ:﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ**﴾، بعد قوله: ﴿**زُخْرُفَ الْقَوْلِ**﴾.

وفيه أن الثواب علىٰ الأعمال يكون بقدر النيات فيها، فليس كل الناس سواء في صلاتهم؛ فإن الرجلين يصليان في وقت واحد، وصف واحد، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وإنما كان التفاضل بينهما بالنية والقصد، قال ابن المبارك: سمعت **جعفر بن حيان** يقول: "ملاك هذه الأعمال: النيات؛ فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله". **صحيح**: رواه ابن المبارك في الزهد(١٨٩).

وفيه فضل إخلاص الأعمال لله تعالىٰ، قال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، بحيث يقطعُ العبد تعلقَ قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم، أو عملاً لأجلهم، ويجعل همته ربَّهُ تعالىٰ، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب، والعمل له بكل محبوب، ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف ما يعقبه من ذلك".الفتاوىٰ(١٠/ ٦٥٩)، وقال **ابن القيم**: "سَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: "إذَا لَمْ تَجِدْ لِلْعَمَلِ حَلَاوَةً فِي قَلْبِك وَانْشِرَاحًا، فَاتَّهِمْهُ، فَإِنَّ الرَّبَّ تَعَالَىٰ شَكُورٌ". يَعْنِي أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُثِيبَ الْعَامِلَ عَلَىٰ عَمَلِهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَلَاوَةٍ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةِ انْشِرَاحٍ، وَقُرَّةِ عَيْنٍ. فَحَيْثُ لَمْ يَجِدْ ذَلِكَ فَعَمَلُهُ مَدْخُولٌ".مدارج السالكين(٢/ ٦٨)، **وفيه** أن من صلحت نيته، وصحت، ثم صحب ذلك بعض النوايا المباحة فإنه لا يؤثر في العمل، وثوابه.فَعَنْ **سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ**، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ**». متفق عليه، ومنها قوله ﷺ: «**وفي بُضْعِ أحدِكِمْ صدقة**»، قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟؛ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً**». رواه مسلم (١٠٠٦).

فلا شك أنه منتفع بذلك، ولنفسه حظ من ذلك، لكن لما كانت نيته ابتغاء الأجر الأخروي، كان ما تبع ذلك من النيّات المباحة لا تؤثر في الأمر، ومن ذلك كلُّ عملٍ من أعمال الآخرة، كالحج. ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفيه أن النية تفرق بين الأعمال، فالعمل قد يكون واحداً، ولكن النية تصرفه إلىٰ ما قصده

العبد، فالغسل مثلاً عمل من الأعمال، فقد يكون غسلاً للجمعة أو للجنابة، أو لاتنظيف، فمدار التمييز بينها هو النية والقصد، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "وقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، كلمة جامعة كاملة؛ فإن **النية للعمل كالروح للجسد**، وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر، قد وضع جبهته علىٰ الأرض، فصورتهما واحدة، ثم هذا أقرب الخلق إلىٰ الله تعالىٰ، وهذا أبعد الخلق عن الله". السياسة الشرعية(صـ٧٤)، **وفيه** أن الأعمال المباحة لا تفيد الثواب ولا العقاب إلا بالنية، قال **ابن رجب**: "ومتىٰ نوىٰ من تناول شهواته المباحة التَّقَوِي علىٰ طاعة الله، كانت شهواته له طاعة يثاب عليها، كما قال **معاذٌ لأبي موسىٰ**: "إني لأحتسب نومتي، كما أحتسب قومتي". رواه البخاري (٤٣٤١)،يعني أنه ينوي بنومه التقوِّي علىٰ القيام في آخر الليل، فيحتسب ثواب نومه كما يحتسب ثواب قيامه". جامع العلوم والحكم (صـ٢٩٥)، وعن **زبيد**(اليامي التابعي) قال: "يسرني أن يكون لي في كل شيء نية، حتىٰ في الأكل والنوم". **صحيح**:الزهد لابن المبارك، رقم(١٩٥)، وقال **الوزير ابن هبيرة**: "إن المسلم يضاعف له الثواب علىٰ أكله وشربه، وقيامه وقعوده، ونومه ويقظته، علىٰ حسب نيته في ذلك، فأن المسلم ينبغي أن يصفِّيَ نيته، وأن ينوي في كل حركة وسكون إرادة وجهِ الله -عزَّ وجلَّ-، وأن ينوي حياته ومماته لله، كما قال سبحانه:﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢]".الإفصاح عن معاني الصحاح(١/ ١٣٦).

تنبيه:أما إنْ قَلبَ المباح شرعاً إلىٰ واجب أو محرم أو مستحب، أو إلىٰ غير ذلك، وبدله بنيته، وجعله غاية بدلاً من أن يكون وسيلة، فإنه يأثم بذلك ولا يؤجر، عن **أنس** أن النبي ﷺ رأىٰ شيخاً يُهادىٰ بين ابنيه، فقال: «**ما بال هذا؟**» قالوا: نذر أن يمشي، قال: «**إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنيٌّ**»،وأمره أن يركب. متفق عليه، وفي الحديث: «**لا تُشَدِّدوا علىٰ أنفسكم؛ فإنّما هلك من قبلَكم بتشدِيدِهم علىٰ أنفسهم، وستَجِدُونَ بقاياهُم في الصوامع والدِّياراتِ!**».**صحيح**:رواه أبوداود (٤٩٠٤) عن أنس ابن مالك وفيه قصة وإنما صح المرفوع منه فقط ينظر تخريجه في الصحيحة (٣١٢٤). بل "عُدُولُ الْمُؤْمِنِ عَنْ الرَّهْبَانِيَّةِ وَالتَّشْدِيدِ، وَتَعْذِيبِ النَّفْسِ الَّذِي لَا يُحِبُّهُ اللهُ، إلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهُ مِنْ الرُّخْصَةِ، هُوَ مِنْ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يُثِيبُهُ اللهُ عَلَيْهَا". مجموع الفتاوىٰ(١٠/ ٤٦٢)، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "فكل عمل أريد به غير الله لم يكن لله، وكل عمل لا يوافق شرع الله لم يكن لله، بل لا يكون لله إلا ما جمع الوصفين: أن يكون لله، وأن يكون موافقا لمحبة الله ورسوله، وهو الواجب

والمستحب، كما قال تعالىٰ: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ١١٠]». العبودية (صـ١٢١)، **وفيه** أن العبد لا يثاب علىٰ ترك المعاصي إلا بنية وإحتساب الأجر، ففي الحديث: «**وفي بُضع أحدكم صدقة**»، قالوا يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**». رواه مسلم (١٠٠٦)، وقال رسولُ الله ﷺ: «قالت الملائكةُ: ربِّ، ذاك عُبيْدُكَ، يريد أن يعملَ سيئة، وهو أبْصَرُ به، فقال: ارقُبُوه، فإن عَمِلَها فاكتبوها له بمثلها، **وإن تَرَكَها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جَرَّايَ**». متفق عليه.، **وفيه** أن النية الصالحة لا تُصْلِحُ العملَ الفاسد أو المحرَّم، ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [يونس: ٨١]، "وكم من مريد للخير لم يدركه أو لم يصبه".

فلو نظر رجل لامرأة بنية التفكر في خلق الله، أو قتل رجلٌ نفسه وقام بما يسمىٰ بالعمليات الإنتحارية بنية النكاية بالعدو، أو أراد رجل أن يحلل امرأة لزوجها فتزوجها وهو ينوي طلاقها لأجل ذلك أو نحو هذا، فإن نيته الصالحة لا تصلح عمله الفاسد المخالف للشرع؛ وذلك أن من شرط قبول عمل المسلم الإخلاص والمتابعة لرسول الله، فالإخلاص وحده غير كافٍ لقبول العمل.

وفيه أن الغافل الذاهل لا تكليف عليه. فلو طلق وهو ذاهل، أو سكران، أو مكره، أو غضب غضباً شديداً يذهب بالعقل بغير قصد لم يقع طلاقه، ولو قال أو فعل الكفر غير قاصد له لا يقع عليه.

كما في قوله: ﴿**وَأَلْقَىٰ الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ....**﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقوله ﷺ: «**أخطأ من شدة الفرح**»، فيمن قال: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك».

وفيه أن من نوىٰ ترك طاعة كان قد شرع فيها، فإن نيته لا تغيِّرُ شيئاً ولا تبطل العملَ حتىٰ يترك، لأن العمل قد صار بيَقين، فلايزول بشيء عرض له، ومن ذلك حديث ابن مسعود وصلاته الليلَ مع النبي ﷺ، وقوله: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّىٰ هَمَمْتُ بِأَمْرٍ سُوءٍ ... قَالَ هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ». متفق عليه، وأما من نوىٰ فعل مستحب ثم تركه عامداً لا يؤثر في العمل.

كما في حديث **أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ**، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا**، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي، مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ». متفق عليه.

وفيه أن من أتىٰ الجماعة ولم يدركها من غير تقصير منه فقد أدرك فضيلة الجماعة، لحديث **أبي هريرة**ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال: «**من توضأ فأحسن وضوءه، ثمَّ راح إلىٰ الصلاة، ووجد الناس قد صَلَّوْا، أعطاه الله مثل أجر من صلَّىٰ تلك الصلاة وحضرها، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**». **صحيح**:أخرجه أبوداود(٥٦٤)، والنسائي في الكبرىٰ(٩٣٠)، **وفيه** أن من ذكر لفظًا ليس صريحًا في عتق، أو نكاح، أو طلاق، أو نحوه، فإنما يعتبر فيه النية، قال **البخاري**: "وَقَالَ **الْحَسَنُ**: "إِذَا قَالَ الْحَقِي بِأَهْلِكِ نِيَّتُهُ".

وَقَالَ **الزُّهْرِيُّ**: "إِنْ قَالَ: مَا أَنْتِ بِامْرَأَتِي نِيَّتُهُ، وَإِنْ نَوَىٰ طَلَاقًا فَهُوَ مَا نَوَىٰ".

قال **ابن رجب**: "إنّ كنايات الطلاق كلها أقوال ويعتبر لها النية، وكذلك ألفاظ الأيمان والنذور أقوال، ويعتبر لها النية، وألفاظ عقود البيع، والنكاح وغيرهما أقوال، ويؤثر فيها النية عند أحمد، كما تؤثر النية في بطلان نكاح التحليل، وعقود التحايل علىٰ الربا، وكذلك ألفاظ الكفر المحتملة تصير بالنية كفراً، وهذا كله يدل علىٰ أن الأقوال تدخل في الأعمال ويعتبر لها النية". فتح الباري لابن رجب(١/ ١١٤).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: "وَالسَّلَفُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ، وَجَمَاهِيرِ الْخَلَفِ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ، مُتَّفِقُونَ عَلَىٰ أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي يَحْتَمِلُ الطَّلَاقَ وَغَيْرَهُ إذَا قُصِدَ بِهِ الطَّلَاقُ فَهُوَ طَلَاقٌ، وَإِنْ قُصِدَ بِهِ غَيْرُ الطَّلَاقِ لَمْ يَكُنْ طَلَاقًا". مجموع الفتاوىٰ(٣٣/ ١٥٢)، **وفيه** أن الهجرة من بلاد الشرك إلىٰ بلاد الإسلام ، من أفضل العبادات إذا قُصِدَ بها وجه الله تعالىٰ، **وفيه** أنه لا إثم علىٰ من نسي أو أخطأ.قال الله تعالىٰ: ﴿**تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، **وفيه** أن من آمن بلسانه دون قلبه، وكان إيمانه علىٰ الظاهر وليس علىٰ الحقيقة، ولم يحسن إسلامه أن ذلك ليس بنافع له، **وفيه** أن من حلف علىٰ شيء بلا تعمد وتعقيد الأيمان أنّ يمينه لا ينعقد، **وفيه** أن الحلف علىٰ نية المستحلف، وعلىٰ ما يصدقك عليه صاحبك، **وفيه** النهي عن الحيل علىٰ فعل المحرمات، أو ترك الواجبات، قال **البخاري**: "بَاب فِي تَرْكِ الْحِيَلِ، وَأَنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ فِي الْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا".

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من نوىٰ بالبيع عقد الربا حصل له الربا، ولا يعصمه من ذلك صورة البيع، وأن من نوىٰ بعقد النكاح التحليل كان محلِّلا، ولا يخرجه من ذلك صورة عقد النكاح؛ لأنه قد نوىٰ ذلك، وإنما لامرىء ما نوىٰ" إعلام الموقعين(٣/ ١١١).

وفيه النهي عن كل مخادعة، وخيانة، وغش، وغرر، وحيل؛ فإنه خلاف النصيحة، والإخلاص.

قَالَ **أَيُّوبُ السختياني**: "يُخَادِعُونَ اللهَ كَمَا يُخَادِعُونَ الصِّبْيَانَ، لَوْ أَتَوْا الْأَمْرَ عَلَىٰ وَجْهِهِ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ". البخاري (٩/ ٢٤) تعليقاً ". وقال الشيخ الألباني: وصله وكيع في "مصنفه" بسند صحيح عنه.

وفيه تدخل النية في أبواب الدين كلها، وقد ذكر البخاري: "بَاب مَا جَاءَ إِنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالْحِسْبَةِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَدَخَلَ فِيهِ الْإِيمَانُ، وَالْوُضُوءُ، وَالصَّلَاةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالْحَجُّ، وَالصَّوْمُ، وَالْأَحْكَامُ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ**﴾ عَلَىٰ نِيَّتِهِ. نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا صَدَقَةٌ، وَقَالَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ".

تنبيه: قال **ابن رجب** :"وَقَدِ اشْتَهَرَ أَنَّ قِصَّةَ مُهَاجِرِ أُمِّ قَيْسٍ هِيَ كَانَتْ سَبَبَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا،» وَذَكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي كُتُبِهِمْ، وَلَمْ نَرَ لِذَلِكَ أَصْلًا بِإِسْنَادٍ يَصِحُّ، وَاللهُ أَعْلَمُ".جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط (١/ ٧٤)

قال **ابن حجر**: لَكِنْ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ حَدِيثَ الْأَعْمَالِ سِيقَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَلَمْ أَرَ فِي شَيْءٍ مِنَ الطُّرُقِ مَا يَقْتَضِي التَّصْرِيحَ بِذَلِكَ فتح الباري لابن حجر (١/ ١٠)، وإنما صح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **مَنْ هَاجَرَ يَبْتَغِيْ شَيئًا فَإِنَّمَا لَهُ ذَلِكَ، هَاجَرَ رَجُلٌ لِيتَزَوَّجَ امْرَاةً يُقَالُ لَهَا أُمِّ قَيْسٍ فَكَانَ يُقَالُ لَهُ مُهَاجِر أُمُّ قَيْسٍ.صحيح**:رواه الطبراني (٨٥٤٠)قال العراقي في "تخريج الإحياء" (٤/ ٣٥٢) :"إسنادهُ جيِّدٌ" **وقال ابن حجر: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ عَلَىٰ شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ** فتح الباري لابن حجر (١/ ١٠).

٢- عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ».

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا.(٣٩٥).

طرفه في: (بدء الخلق ٣٢١٥).

الشرح

قوله: (أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ)، هو المخزومي، أخو أبي جهل، شقيقه، أسلم يوم الفتح، وكان من فضلاء الصحابة، واستشهد في فتوح الشام في خلافة عمر.

قوله: (أُمِّ المُؤْمِنِينَ)، هو مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي في الاحترام، وتحريم نكاحهن، لا في غير ذلك،

ومن طريف ما ورد عن عروة عن **عائشة** رضي الله عنها: أنها ذُكِرَت عند رجل فسبَّها، فقيل له: أليست أمك؟ قال: ما هي لي بأمٍّ فبلغها ذلك، فقالت: "صدق إنما أنا أم المؤمنين، وأما الكافرين فلست لهم بأمٍّ". **إسناده صحيح**: أخرجه اللالكائي برقم (٢٧٦٨، ط: دار طيبة).

قوله: (يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟)، **فيه** دليلٌ علىٰ أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسألونه عليه السلام عن كثير من المعاني، وكان رسول الله ﷺ يجيبهم ويعلمهم قاله ابن عبدالبر في التمهيد (٢٢/ ١١٣). **وفيه** جواز السؤال عن الشيء الذي لا ينبني عليه كبير عمل، ولكن للطمأنينة.

وفيه تنوُّع طرق التعليم، وأنه ينبغي للمعلمين ألا يقتصروا علىٰ طريقة واحدة في التعليم.

قوله: (أَحْيَانًا يَأْتِينِي)، هذا بيان لكيفية الوحي، وليس بيانًا لبدوه، وقد وردت روايات في كيفية الوحي وصفته إلىٰ الأنبياء، وإلىٰ نبينا ﷺ: فقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ

(٣٩٥) وأخرجه مسلم برقم (٢٣٣٣)، والترمذي برقم (٣٦٣٤)، والنسائي برقم (٩٣٣، ٩٣٤).

﴿اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورىٰ: ٥١].

قال **ابن القيم**: "وكمَّل اللهُ له ﷺ من مراتب الوحي والتي منها:

إحداها: الرُّؤيا الصادقة، وكانت مبدأُ وحيه ﷺ، وكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح كما يأتي، عَنْ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قَالَ: **"رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ"**. **صحيح**: أخرجه الحاكم برقم (٣٦١٣) **وصححه** شيخنا **الألباني** في ظلال الجنة برقم (٤٦٣).

الثانية: ما كان يُلقيه الملَكُ في رُوْعه وقلبه من غير أن يراه، وقد قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتىٰ تستكمل رزقها** ...». **حسن لغيره**: وهو في الصحيحة برقم (٢٨٦٦).

الثالثة: أَنّه ﷺ كان يتمثَّلُ له المَلَكُ رجلًا، فيُخاطبه حتىٰ يَعِيَ عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا. (علىٰ ما ورد في حديث الباب).

الرَّابعة: أَنّه كان يأتيه في مثل صَلْصَلَةِ الجرس، وكان أَشدَّه عليه، فَيَتَلَبَّسُ به الملكُ، وإن جبينه ليتفصد ويسيل عرقًا في اليوم الشديد البرد، وكان شديدًا وثقيلًا جدًا عليه.

الخامسة: أنه يَرَىٰ الملَكَ في صورته التي خُلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يُوحِيَه.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماواتِ ليلَة المعراج، مِن فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة مَلَكٍ، كما كلّم اللهُ موسىٰ بن عِمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسىٰ قطعًا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء. زاد المعاد (١/ ٧٨-٨٠).

قوله: (**مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ**) فيكون ذلك أبعد من الملل والسآمة، وأعون علىٰ تثبيت العلم وحفظه، وفي رواية: «**فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ**». أخرجه مسلم برقم (٢٣٣٣).

والصَلْصَلةُ: في الأصل وقوع الحديد والنحاس ونحوه بعضه علىٰ بعض، ثم أطلق علىٰ كل صوت له طنين، كيابس الطين ومنه: ﴿**صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾، **والجَرَس والجَرْس، والجِرْس**: الجُلْجُل الذي يُعلَّق في رؤوس الدواب، وهو الناقوس الصغير، وقد نهىٰ عنه النبي ﷺ فقال: «**لا تصحب الملائكة رفقةً فيها كلب ولا جرس**»، وقال: «**الجرس مزامير الشيطان**». أخرجهما مسلم

برقم (٢١١٣، ٢١١٤) من حديث أبي هريرة، **وفيه** جواز التمثيل بشيء محسوس لتقريب العلم، **وفيه** جواز تشبيه شيء محمود بشيء مذموم، وهو الجرس؛ إذ التشبيه من وجه لا يقتضي التشبيه من كل وجه.

مشكل الحديث: فإن قيل: قد ورد هنا في موضع محمود، وكون مجيء المَلَك بصوت الجرس، فكيف يشبه ما فعله الملَك بأمر تنفر منه الملائكة؟

الجواب: أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، **قال ابن بطال**: "وعلىٰ مثل هذه الصفة تتلقىٰ الملائكة الوحي من الله -عز وجل-، وقد ذكر البخاري

حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مرفوعًا: «**إذا قضىٰ الله الأمر في السماء، ضربت الملائكةُ بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة علىٰ صفوان ينفذهم ذلك، قال: فإذا فزِّع عن قلوبهم وسكت الصوت عرفوا أنه الحق، وقالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير**». سيأتي برقم (٤٧٠١، ٤٨٠٠)، وعن **مسروق** قال: "إذا تكلَّم اللهُ بالوحي، سمع أهل السماوات صلصلة كصلصلة الحديد علىٰ الصفوان، فيفزعون فيخرون سجدًا، ويظنون إنه من أمر الساعة، فإذا رُفِّهَ عن قلوبهم نادوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العليّ الكبير". **إسناده صحيح**: أخرجه الطبري (٢٠/ ٣٩٦).

ما الحكمة من إحداث هذا الصوت؟

والحكمة من تقدم هذا الصوت والله أعلم، هو: أن يقرع سمعه الوحيُّ فلا يبقىٰ فيه مكان لغيره، قال **العلامة البُلقَيني**: "سبب ذلك أن الكلام العظيم له مقدمات تُؤْذِنُ بتعظيمه، للاهتمام به. ا.هـ

وقال **المهلّب**: "قوة صوت الملك بالوحي ليشغله عن أمور الدنيا، وتفرغ حواسه فلا يبقىٰ في سمعه ولا في قلبه مكان لغير صوت المَلَك"، وعن **عبدالله بن عمرو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أسمع صلاصل**

ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحىٰ إليَّ إلا ظننت أن نفسي تفيض»[٣٩٦]. إسناده حسن.

قوله: **(وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ)**، يُفْهَمُ منه أن الوحْيَ كلَّه شديد، ولكن هذه الصفة أشدها وهو واضح.

وقوله تعالىٰ: ﴿**لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله أيضًا: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل: ٥]، قال **ابن جرير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الله وصفه بأنه قول ثقيل، فهو كما وصفه به ثقيل محمله، ثقيل العمل بحدوده وفرائضه". التفسير (٢٣/ ٦٨٢، ط: الرسالة). يعني: حفت الجنة بالمكاره، وعن **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو علىٰ ناقته وضعت جرانها -**الجران**: هو باطن العنق- فلم تستطع أن تتحرَّك"، وتلت قول الله عزوجل: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾[٣٩٧]. فالوحي ثقيلٌ وقت نزوله؛ وهذا من عظمته. كما قال **زيد بن ثابت**: "أنزل علىٰ رسول الله ﷺ وفخذه علىٰ فخذي، فكادت تُرض فَخذي (أي تنكسر، أو تنفصل)". متفق عليه. وعن **عبادة بن الصامت** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي كُرِب لذلك، وتربَّدَ -أي: تغير- وجهه". وفي رواية: "وغمض عينيه، وكنا نعرف ذلك منه". أخرجه مسلم برقم (١٦٩٠) وغيره.وفي رواية عنده: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نكَسَ رَأْسَهُ، وَنكَسَ أَصْحَابُهُ رُءُوسَهُمْ، فَلَمَّا أُتْلِيَ () عَنْهُ رَفَعَ رَأْسَهُ". أخرجه مسلم برقم (٢٣٣٥).وعن **يعلىٰ بن أمية** قال: فرفع طرف الثوب عن وجهه، وهو يوحىٰ إليه، فإذا هو محمر الوجه، وهو يغط كما يغط البَكْر". متفق عليه.

وثبت في الصحيحين من حديث **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: رجعت سودة إلىٰ رسول الله ﷺ فسألته وهو جالس يتعشىٰ، والعَرْق في يده -العظم عليه اللحم-، فأوحىٰ الله إليه؛ ثم رفع عنه،

---

(٣٩٦) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٢) برقم (٧٠٧١)، وحسنه الهيثمي وهو الصواب. وإن ضعفه الشيخ الألباني في الضعيفة برقم (٢٧٨٧)، فإن كان ضعفه لأجل عمرو بن الوليد، فإنه قد وثقه أيضًا، ونقل توثيق الفسوي، وثناء غيره عليه، وتصحيح ابن خزيمة له، ورجح توثيقه. **ينظر**: معجم أسامي الرواة الذين ترجم لهم العلامة الألباني (٣/ ٣٣١)، وفي الصحيحة (٢/ ٢٥٠- ٢٥١)، وتحريم آلات الطرب (ص ٥٧)، **قلت**: ثم إن الحديث موافق للأصول.

(٣٩٧) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٦/ ١١٨) برقم (٢٤٨٦٨)، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٤٩)، برقم (٣٨٦٥)، واللفظ له.

والعَرْق في يده ما وضعه، ثم رفع رأسه فقال: «**إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن**».

قال **شيخنا الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "دلَّ هذا علىٰ أنه لم يكن الوحي يُغَيَّب عنه إحساسه بالكلية، بدليل أنه جالس ولم يسقط العَرْق أيضًا من يده، صلوات الله وسلامه دائمًا عليه". صحيح السيرة النبوية (ص ١٠٨)، وقال: "روىٰ أبويعلىٰ عن **الفَلتَان بن عاصم**، قال: "كنا عند رسول الله ﷺ وأنزل عليه، وكان إذا أنزل عليه دام بصره وعيناه مفتوحة، وفرغ سمعه وقلبه لما يأتيه من الله عزوجل، فكنا نعرف ذلك منه". إسناده جيد، وروىٰ أحمد وأبونعيم، عن **أسماء بنت يزيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: " نزلت عليه ﷺ المائدة كلها، وكادت من ثقلها تُدَقُّ عَضُدُ النَّاقةِ". **حسن لغيره**: أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٧٥)، يشهد له ما في الباب.

وروىٰ أحمد أيضًا، عن **عبدالله بن عمرو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "أنزلت علىٰ رسول الله سورة المائدة وهو راكب علىٰ راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها". وهي كلها في صحيح السيرة (ص ١٠٩).

والله أعلم. صحيح السيرة النبوية (ص ١٠٩).

الحكمة في ثقل الوحي وشدته

ولعل من حكمة هذه الشدَّة، كما قال **الحافظ**: ما يترتب علىٰ المشقَّة من زيادة الزُّلفىٰ والدرجات، وقد قال **الحسن**: "كما ثقل في الدنيا، كذلك يثقل الثواب يوم القيامة". قيام الليل للمروزي برقم (٦).

وصح عن **ابن زيد**، في قول الله: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾، قال: "هو والله ثقيل مبارك القرآن، كما ثقل في الدنيا تَقُل في الموازين يوم القيامة". تفسير الطبري (٢٣/ ٦٨٢، ط: الرسالة).

ولعل من الحكمة أن يظهر صبر نبيه ﷺ ويحسن تأديبه، ويرتاض لاحتمال ما كُلِّف به من أعباء النبوة، وأيضًا إعلام للأمة بعظم شأن الوحي وثقله، وأنه لا ينبغي أن يستخف بشيء من أوامره وحدوده، ولا يتهاون بالعمل به، قال الإمام **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "سئل مالك عن مسألة فقال: لا أدري، فقيل له: إنها مسألة خفيفة سهلة!، فغضب وقال: ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله -عزّ وجَلّ-: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾، فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل

عنه يوم القيامة". ا.هـ إعلام الموقعين (٤/ ١٦٧، ط: الكتب العلمية)، وأيضًا أن ما عسر تحصيله، وتلقاه العبد بالمشقة حرص عليه، ويخاف من تفلته، وأيضًا لتنبيه طلاب العلم علىٰ تحمل المشاق في طلبه، والاستمرار في تحصيله مع المشقة حتىٰ الممات، فيكون في ذلك تسلية لهم، **وفيه** أنه لا يقال: سورة خفيفة، أو مسألة سهلة خفيفة، **وفيه** أن العلم يحرص عليه مع وجود المشقة، فلن تبلغ المجد حتىٰ تلعق الصبرا، **وفيه** ما كان يلقاه النبي ﷺ من شدة في أثناء نزول الوحي، **وفيه** أن ما يتحصل عليه المرء بالمشقة والتعب، يصعب تفلته، أو التهاون به، أو نسيانه.

قوله: **(فَيُفْصَمُ عَنِّي)**، أي يُقْلِعُ وينجَلِي ما يغشاني، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**لَا انْفِصَامَ لَهَا**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله: **(وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ)**، أي فهمتُ وجمعتُ وحفظتُ القول الذي جاء به الملَك. **وفيه** أهمية حفظ العلم، وأن يكون الاعتناء بحفظ الوحيين، كما كان يحفظ ﷺ القرآن والحديث.

وفيه طلب العلم وحفظه من بداية العمر إلىٰ نهايته.

وقوله: **(وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي)**، أي: يتصوَّر، واللام في «**المَلَكُ**»، للعهد، وهو الملك المعروف: جبريل. أخرجه مسلم برقم (٨).

وفي الصحيحين عن **أبي عثمان النهدي**، قال: "أُنْبِئْتُ أن جبريل أتىٰ النَّبيَّ ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبي الله ﷺ لأم سلمة: «**من هذا؟**» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبي. قالت: وايم الله، ما حسبته إلا إياه، حتىٰ سمعت خطبة النبي ﷺ، يخبر أنه جبريل". متفق عليه.

وفيه فضيلة ظاهرة لعائشة، حيث كان ينزل عليه ﷺ جبريلُ وهي شاهدة، وروىٰ الحميدي في "مسنده" **بإسناد صحيح** برقم (٢٥٦): «ويأتيني أحيانًا في مثل صورة الفتىٰ، فينبذه إليَّ فأعيه **وهو أهون عليَّ**». فهذا أهونه عليه، ومجيئه له في مثل صلصلة الجرس أشده عليه، قال **ابن تيمية**: "كما تمثل لمريم بشرًا سويًا، وكما جاءت الملائكةُ لإبراهيم وللوط في صورة الآدميين، كما أخبر الله بذلك في غير موضع". مجموع الفتاوىٰ (١٢/ ٤٠١)، وينظر أيضًا: البداية والنهاية (١/ ٤١)، والحكمة من ظهوره بتلك الصورة تأنيسًا لمن يخاطبه، ولبيان حِكَمِ الله تعالىٰ، وعظيم قدرته، **وفيه** أن الملائكة

تنزل علىٰ النبي ﷺ ونساؤه معه. **وفيه** إثبات وجود الملائكة والإيمان بهم، والرد علىٰ من أنكرهم من الملاحدة والفلاسفة. التوضيح (٢/ ٢٣٢)، **وفيه** دليل علىٰ أن الملائكة تتشكَّلُ في صورة البَشَر، ولكن ليس فيه دليل علىٰ جواز التمثيل.

وقوله: **(فَأَعِي مَا يَقُولُ)**، كما قال تعالىٰ: ﴿**سنقرئك فلا تنسىٰ**﴾، ﴿**إنا علينا جمعه وقرآنه**﴾. كما يأتي في حديث ابن عباس برقم (٥).

وفي قولها: **(فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ)**، دلالة علىٰ كثرة معاناة التعب والكرب عند نزول الوحي لما فيه من مخالفة العادة، وهو كثرة العَرَق في شدة البرد، فإنه يشعر بوجود أمر طارئ زائد علىٰ الطباع البشرية.

السنة وحيٌ مثل القرآن

إنّ الوحي الذي كان ينزل علىٰ رسول الله ﷺ عامّ وشامل لكلّ ما أوحاه الله إليه، سواء في ذلك القرآن أو السنة، ولذلك قال **حسان بن عطية**: "إن جبريل كان ينزل علىٰ النَّبيِّ ﷺ بالسنة، كما ينزل عليه بالقرآن". **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمي برقم (٦٠٨)، وابن نصر المروزي في السنة برقم (١٠٢). قال سبحانه: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣-٤]، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحىٰ، وقوله: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ [النساء: ١١٣]، وهما القرآن والسنة،

قوله **(فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا)**، يتفصّد، أي: يسيل، قال **ابن تيمية**: "والفصم الفك والفصل من الأمور اللينة، وبالقاف هو الكسر الذي يكون في الأمور الصلبة، فَبَيَّنَ أن الملَكَ حين يُنْزِلُ الوحيَ عليه يتصل به ويلتبس به، ثم بعد ذلك ينفصل عنه وينفك عنه". الجواب الصحيح (٥/ ٣١٦).

والجبين غير الجبهة، وللإنسان جبينان يكتنفان الجبهة، وقد ورد في رواية لمسلم برقم (٢٣٣٣): «إن كان لينزل علىٰ رسول الله ﷺ في الغداة الباردة، ثم تفيض جبهتهُ عَرَقًا»، ويؤيد ذلك الفصد ما ورد في حديث الإفك قالت **عائشة**: "فوالله ما رام رسول الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتىٰ أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء -الشدة-، حتىٰ إنه كان يتحدر منه مثل الجمان

-الجمانة: وَهِي حَبَّة تعْمل من فضَّة كالدرة-، من العرق -وهو في يوم شات-". متفق عليه. وفيه طهارة العرق.

٣- عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ (جبل بينه وبين مكة نحو ثلاثة أميال) فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعبد- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ (يحن ويشتاق ويرجع)، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ (يتخذ الزاد للخلوة أو التعبد)، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّىٰ جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي (أطلقني)، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]» فَرَجَعَ بِهَا (أي: بالآيات) رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ (يضطرب ويخفق ويتحرك بشدة)، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي»، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِالعُزَّىٰ ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ (صار نصرانيا والجاهلية ما قبل رسالته ﷺ)، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ

هُمْ؟»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحْيُ (٣٩٨).

أطرافه في: (الأنبياء٣٣٩٢، التفسير٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٧، التعبير٦٩٨٢).

الشرح

قولها: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ)، وفي رواية عند البخاري ومسلم: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ: **الرؤيا الصالحة**»، وعندهما: «**الرؤيا الصادقة**».

وللترمذي وغيره «**أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته، ورحمته للعباد: الرؤيا الصادقة**»، قال **ابن عباس**: "رؤيا الأنبياء وحيٌ"(٣٩٩).

قال **ابن عبدالبر**: والدليل علىٰ ذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**﴾، فأجابه ابنه ﴿**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾ [الصافات: ١٠٢].

ومما يدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ...**﴾ [الفتح: ٢٧].فتحققت هذه الرؤيا

ودخل رسول الله ﷺ علىٰ **أم حرام** بنت ملحان يومًا، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكًا علىٰ الأسرة، أو مثل الملوك علىٰ الأسرة**» -يشك أحد الرواة-، قالت: يا رسول الله ادع الله يجعلني منهم، فدعا لها... قال فركبت البحر في زمن معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت. متفق عليه، وبالإضافة للرؤيا الصادقة فقد هيأ الله بعض المقدمات مثل تسليم الحجر ورؤيا أمه للنور وسماعه للصوت، فعن **عليّ** رضي الله عنه- أنه قال: "كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله". **صحيح**: أخرجه الترمذي برقم (٣٦٢٦)، وهو في الصحيحة برقم

---

(٣٩٨) أخرجه مسلم برقم (١٦٠).

(٣٩٩) **إسناده حسن**: أخرجه الحاكم برقم (٣٦١٣) وغيره. وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة برقم (٤٦٣).

(٢٦٧٠).

وروىٰ الإمام أحمد عن **أبي أمامة** رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرىٰ عيسىٰ، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام**». صحيح السيرة النبوية (ص ٥٣)، وعن **ابن عباس** -فيما يحسب حماد- أن النبي ﷺ قال لخديجة: «**إني أسمع صوتًا وأرىٰ ضوءًا، وإني أخشىٰ أن يكون بي جنون**»، فقالت خديجة: لم يكنِ الله ليفعل بك ذاك يا ابن عبدالله، ثم أتت ورقةَ بنَ نوفل فذكرت ذلك له، فقال: إن يكن صادقًا فإنَّ هذا ناموس مثل ناموس موسىٰ، فإن يُبْعَث وأنا حي فسأعزِّزه. في بعض نسخ مسند أحمد: "**فسأعزره**، وأنصره وأؤمن به، **وأعينه**". **حسن صحيح**: أخرجه أحمد برقم (٢٨٤٥)، وصححه البوصيري في "إتحاف المهرة" برقم (٩٠٧٧).

وقد بين الحكمة من ذلك، شيخنا الألباني فقال: "كان هذا كالتوطئة لما يأتي بعده من اليقظة وقد ورد في الأثر: عن **علقمة بن قيس** قال: "إن أول ما يؤتىٰ به الأنبياء في المنام حتىٰ تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد". **إسناده صحيح**: أخرجه أبونعيم في "الدلائل"، صحيح السيرة النبوية (ص ٨٧).

وقد بين **ابن بطال** أن الحكمة تخصيصه عليه السلام بعموم صدق الرؤيا حتىٰ لا يقدم أحد علىٰ الكذب علىٰ لسانه عليه السلام في النوم. شرح ابن بطال (٩/ ٥١١).

قولها: (فَكَانَ لا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ): وفلق الصبح ضوؤه وإنارَتُه وبيانه وانشقاقه عن ظلام الليل، والمراد: أنّه كان لا يرىٰ رؤيا في المنام إلا وقعت كما رآها، واضحة وضوح ضوء الصبح بلا شك فيها، قال **ابن أبي جمرة**: "إنما شبهها بفَلَق الصبح دون غيره؛ لأن شمس النبوة كانت الرؤيا مَبَادِيَ أنوارها، فما زال ذلك النور يتسع حتىٰ أشرقت الشمس. الفتح (١٢/ ٣٥٥، ط: دار المعرفة).

رواية طويلة موضحة لما قالت عائشة:

فعن محمد بن إسحاق، حدثني وهب بن كيسان مولىٰ آل الزبير، قال: سمعت عبدالله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمير بن قتادة الليثي: حدِّثنا يا عبيد كيف كان بدو ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل. قال عبيد وأنا حاضر لحديث عبدالله بن الزبير ومن عنده من

الناس قال: كان رسول الله ﷺ يجاور (يعتكف) في حراء من كل سنة شهرًا، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية، والتحنث التبرر، قال: فكان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضىٰ رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلىٰ بيته، حتىٰ إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها، وذلك الشهر شهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلىٰ حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتىٰ إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل بأمر الله، قال رسول الله ﷺ: «**فجاءني وأنا نائم** بنمط -نوع من البسط له خمل رقيق- من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ فقلت: ما أقرأ؟ قال: فغتني به فظننت أنه الموت ثم أرسلني، قال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ؟»، قال: فغتني به حتىٰ ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: اقرأ قال: قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتني به حتىٰ ظننت أنه الموت ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود بمثل ما صنع، فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١-٥] فقرأتها كلها، ثم انتهىٰ **فانصرف عني وهببت من نومي** كأنما كتبت في قلبي كتابًا، قال: ولم يكن من خلق الله شيء أبغض إليَّ من شاعر أو مجنون، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما، قال: قلت: إن الأبعد -يعني نفسه- لشاعر أو مجنون، لا تحدَّثُ قريشٌ عني بهذا أبدًا إلا عمدت إلىٰ حالق من الجبل -الجبل العالي- فلأطرحن نفسي فلأقتلنها فلأستريحن، قال: فخرجت أريد ذلك، حتىٰ إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء وهو يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل؛ فرفعت رأسي إلىٰ السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه إلىٰ أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر حتىٰ شغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية إلا وجدته كذلك، فما زلت واقفًا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتىٰ بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعًا، حتىٰ أتيتُ خديجةَ فجلست إلىٰ فخذها مضيفًا -أي: ملتصقًا- إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنتَ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبِكَ حتىٰ بلغوا مكة ورجعوا إليَّ.

قال: قلت لها: إن الأبعد لشاعر أو مجنون، قال: فقالت: أعيذك بالله يا أبا القاسم، ما كان

الله ليصنع ذلك بك مع ما أعلم منك من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وحسن خلقك، وصلة رحمك، وما ذاك يا ابن عم؟ لعلك رأيت شيئًا، قال: قلت لها: نعم.

قال: ثم حدثتها بالذي رأيتُ، فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، قال: ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ثم انطلقت إلىٰ ورقة بن نوفل ابنِ أسد، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة، وأهل الإنجيل فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ الذي رأىٰ وسمع، فقال ورقة: قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسىٰ، وأنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت.

قال: فرجعت خديجة إلىٰ رسول الله ﷺ، فأخبرته بما قال ورقة، فسهل ذلك عنه بعض ما هو فيه من الهم بما جاءه؛ فلما قضىٰ جواره وانصرف صنع كما كان يصنع، وبدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقةُ بن نوفل وهو يطوف بالكعبة فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيتَ وسمعتَ، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسىٰ، ولَتُكَذَّبَنَّه، ولَتُؤْذَيَنَّه، ولَتُخْرَجَنَّه، ولَتُقَاتَلَنَّه، ولئن أنا أدركتُ ذلك لأنصرنَّ اللهَ نَصْرًا يَعْلَمُهُ، ثم أدنىٰ رأسه منه فقَبَّل يافوخَهُ -أعلىٰ الرأس ومكان التقاء العظام فيها- ثم انصرف رسول الله ﷺ وقد زاده ذلك من قول ورقة بن نوفل ثباتًا، وخفف عنه بعض ما كان فيه من الغم **صحيح لغيره**: ولأكثره شواهد صحيحة(٤٠٠).

قال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا الذي ذكره عبيد بن عمير كما ذكرناه كالتوطئة لما جاء بعده من اليَقَظَة". البداية والنهاية (٣/ ١٩).

ومما يستفاد من هذه الجملة أن الرؤيا الصالحة الصادقة جزء من النبوة.

وفيه إعداد الزاد للمختلي والمعتكف إذا كان يتعذر عليه تحصيله؛ لبعد مكان اختلائه من البلد مثلًا، **وفيه** أن التزود لا يقدح في التوكل. التوضيح (٢/ ٢٥٨)، **وفيه** مشروعية العزلة أحيانًا، لا سيما مع كثرة الفساد والضلال، وأنها معينة علىٰ الطاعة والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ.

---

(٤٠٠) أخرجه ابن عساكر في "تاريخه" (١٢/ ٦٣)، وإقرار ابن الزبير ومن معه من الناس له لدليل علىٰ اعتماد روايته.

والظاهر أن الرؤيا الصادقة كانت قبل أن يحبب إليه الخلاء، بدليل:

قولها: (ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعبد اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ)، والمراد بالخلاء أي: المكان الخالي.

وفي الأثر: عن **هلال بن يساف** أنه قال: "ليس بأس للمؤمن من أن يخلو وحده". إسناده **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٧٠٦، ط: مكتبة الرشد)، وقال **النووي**: "وهو شأن الصالحين، وعباد الله العارفين". شرح النووي علىٰ مسلم (٢/ ١٩٨). وقد وصف ﷺ أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله، فقال: «**ورجل ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضت عيناه**». متفق عليه. وقد حبَّب الله تعالىٰ له الخلوة، **والسر في ذلك**: أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه له، وهي معينة علىٰ التفكر، والانقطاع عن مخالطة البشر لا سيما أهل الشرك، فيجد الوحيُّ منه موطنًا مناسبًا.

وفي الحديث مشروعية العزلة وأن الانقطاع الدائم عن الأهل ليس من السنة؛ لأنه ﷺ لم ينقطع في الغار بالكلية، بل كان يرجع إلىٰ أهله لضروراتهم، ثم يخرج للتعبد (فيجمع بين المصلحتين)، عون الباري (١/ ١٠٧)، **وفيه** رد علىٰ الصوفية الذين يهجرون الأهل، أو يمتنعون من الزواج والأولاد، فيصير حالهم كرهبانية النصارىٰ، **وفيه** رد علىٰ بعض من يدّعي الزهد، ويهيم علىٰ وجهه في البراري ونحوها، ويعتزل الناس بالكلية بحجة التعبد لله تعالىٰ والخلوة به، **وفيه** خدمة المرأة لزوجها، وإعانتها له علىٰ أمر دينه، بكفايتها له أمر معاشه، كما جاء في الحديث: «**وزوجة مؤمنة، تعين أحدكم علىٰ أمر الآخرة**». صحيح: صحيح ابن ماجه برقم (١٥١٧).

ولم اختار غار حراء للتخلي فيه؟ الظاهر أنه يجمع له الخلوة والتعبد والنظر الىٰ البيت كما بينه ابن أبي جمرة. الفتح (١٢/ ٣٥٥، ط: دار المعرفة)، وورد في الأثر عن **عطاء ومجاهد**: "النظر إلىٰ البيت عبادة". صحيح: ينظر ما أخرجه عبدالرزاق برقم (٩١٧٣)، وثبت مرفوعًا، عن **ابن عباس** رضي الله عنهما- مرفوعًا: «**إن الله يُنْزِلُ علىٰ أهل هذا المسجد** -مسجد مكة- **في كل يوم عشرين ومائة رحمة، ستين للطائفين، وأربعين للمصلين، وعشرين للناظرين**»[٤٠١]. وهذا يدلّ علىٰ أن صلاة

(٤٠١) **حسن الإسناد**: أخرجه الأزرقي في أخبار مكة برقم (٢٥٦)، والحارث بن أبي أسامة في مسنده برقم

التطوع أقل ثوابًا من الطواف من هذه الحيثية.

ومن فوائد تلك الخلوة: أولاً: الخلوة نفسها عبادة خاصة مع انتشار الباطل وفشو المنكر كما قال الخليل: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾ [مريم: ٤٨]،

ثانيـًا:ما كان من العبادات من بقايا دين إبراهيم كالصلاة والذكر والدعاء فهو كان متعبداً بملة إبراهيم عليه السلام :(**أن اتبع ملة أبراهيم حنيفا)**

ثالثـًا: أن يقوم بعبادة التفكر في خلق السماوات والأرض المؤدية إلىٰ معرفة الخالق وتوحيده.

ومن ثمار هذه الخلوة التعبد فيها أنه كان يجد لذة لذلك وقرة عين، يؤيده **(ويتلذَّذ لذلك)**

صحيح الإسناد: أخرجه إسحاق في "مسنده" برقم (٨٤٠).

وقولها: "**فيتحنث فيه**"، أي: يتعبد، سُمي به، لأنه يزيل به الحنث وهو الذنب والإثم عن نفسه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٤٦]، أي الإثم العظيم وهو الكفر والشرك.

وقيل: هو بمعنىٰ يتحنف، أي: يتبع الحنيفية وهي دين إبراهيم، كما في رواية ابن هشام في السيرة: **(يتحنَّف)** بالفاء. **ينظر**: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٩١، دار المعرفة).

ويستفاد من فعله ﷺ أن علىٰ المرء أن يسعىٰ في الاستغفار، وعمل الصالحات التي يكفر الله بها السيئات، ﴿**إن الحسنات يذهبن السيئات**﴾ [هود: ٢٣٤]، وفسر الزهري -أحد رواة الحديث- التحنث بالتعبد، **وفي** هذا اهتمام أهل الحديث بمعرفة المعاني وعدم اقتصارهم علىٰ رواية الألفاظ

واستظهر الحافظ أن مدة الخلوة كانت شهرًا لقوله: «**جاورت بحراء شهرًا**» متفق عليه. كل

---

(٣٨٩)، وحسنه المنذري والدمياطي والعراقي والسخاوي، كما في الإتحاف (٤/ ٢٧٢). وحسنه الشيخ وصي الله عباس في"المسجد الحرام تاريخه وأحكامه". وفي فضل النظر إليها أحاديث لا تثبت، **ينظر**: سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم (١٨٧)، ضعيف الجامع برقم (١٧٦٠)، ضعيف الترغيب والترهيب برقم(٧٢٢).

عام.

وسبب رجوعه لأهله للتزود أنهم لم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب زادهم اللبن واللحم، ويخزن منه القليل؛ لئلا يسرع إليه الفساد، ولا سيما وقد كان يُطعم من يأتيه من المساكين.

تنبيه مهم:

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليس في شريعة الإسلام بقعة تقصد لعبادة الله فيها بالصلاة، والدعاء، والذكر، والقراءة، ونحو ذلك، إلا مساجد المسلمين، ومشاعر الحج، وأما المشاهد التي علىٰ القبور سواء جعلت مساجد، أو لم تجعل، أو المقامات التي تضاف إلىٰ بعض الأنبياء، أو الصالحين، أو المغارات والكهوف، أو غير ذلك، مثل الطور الذي كلم الله عليه موسىٰ، **ومثل غار حراء** الذي كان النبي ﷺ يتحنث فيه قبل نزول الوحي عليه.

وذكر أن هذه البقاع لا يشرع السفر إليها لزيارتها، ولو نذر ناذر السفر إليها لم يجب عليه الوفاء بنذره باتفاق أئمة المسلمين، لما جاء في الصحيحين عن **أبي هريرة، وأبي سعيد**، مرفوعًا: «**لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصىٰ ومسجدي هذا**»". مجموع الفتاوىٰ (٢٧/ ١٣٨، ٢٥١). ومما سبق من النصوص واتفاق أهل العلم أن إتيان حراء للتبرك به، أو التعبد فيه هو من البدع.

قولهما: (حَتَّىٰ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ)، أي جاءه الأمر الحق، وفي رواية وهي عند مسلم أيضًا: «**فَجِئَهُ الحقُّ**»، أي: بغته الملك جبريل، وجاءه فجأة وهو بغار حراء.

صفة جبريل عليه السلام وهيئته:

وصف الله تعالىٰ جبريل بانه صاحب قوة وبأس : ﴿**ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ**﴾ [النجم: ٦]، أي خَلْق حسن وبهاء وسناء، وقال: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ ووصفه بالأمانة والمنزلة العالية وأنه مطاع عند الملائكة فقال: ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، أي حسن المنظر، وله قوة وبأس شديد، كما قال تعالىٰ: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ**﴾ [النجم: ٥]، وله مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله ذي العرش المجيد، ومطاع في الملأ الأعلىٰ، وصاحب أمانة عظيمة،

ولهذا كان هو السفير بين الله وبين أنبيائه عليهم السلام، ينزل عليهم بالوحي. البداية والنهاية (١/ ٤٣، ٤٤).

ووصفه النبي ﷺ بعظيم الخلقة فقال: (**رأيته منهبطًا من السماء سادا عظم خلقته ما بين السماء والأرض**)، ووصفه بأن :(**وله ستمائة جناح، ينتشر من ريشه التهاويلُ الدرُّ والياقوتُ**». حسن **الإسناد**: أخرجه أحمد برقم (٣٩١٥)، وعلىٰ عظم خلقه وحسنه ومكانته فقد كان متواضعًا لله خاشعًا لذلك فقد رأه النبي ﷺ جاسًا كالشن البالي -القربة الخالية- من الخشوع والخشية.

كم مرة راه عليه الصلاة والسلام علىٰ صفته:

ورد في حديث عائشة مرفوعًا: (**لم أراه علىٰ صورته التي خلق عليها إلا هاتين المرتين**).

وعن ابن مسعود مثله بزيادة بيانه لذا قال **ابن كثير** رحمه الله: "كان يراه علىٰ صفته مرتين، مرة منهبطًا من السماء إلىٰ الأرض، وتارة عند سدرة المنتهىٰ، عندها جنةُ المأوىٰ". البداية والنهاية (١/ ٤١).

ورد عن عائشة وجابر ما يفيد أنه رأه مرة ثالثة وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين، وإنما لم يضمها إليهما لاحتمال ألا يكون رآه فيها علىٰ تمام صورته، والعلم عند الله تعالىٰ، أو تكون هذه في المنام، والمرتان المذكورتان في اليَقَظَة، وهو الذي يترجح لي.

قوله: (**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**)، (ما) نافية، والمعنىٰ: إِنِّي أُمِّيٌ لا أحسن قراءة الكتب البتة؛ ويؤيده ما في حديث معتمر بن سليمان، عن **أبيه**: فقال نبي الله ﷺ: «**ما قرأت كتابًا قط، وما أحسنه، وما أكتب، وما أقرأ**»، **صحيح مرسل**: أخرجه أبو نعيم في "دلائله".

وجاء في بعض الروايات (كيف أقرأ) فيحتمل علىٰ المنام أو أنه قال ذلك ليتركه كما في رواية (**ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود بمثل ما صنع**) كما في رواية ابن إسحاق الآتية: «**قال: اقرأ، قال: قلت: ما أقرأ، قال: فغتني به، حتىٰ ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتني به حتىٰ ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ماذا أقرأ؟** »،

فلما قال ذلك ثلاثًا، قيل له: اقرأ باسم ربك، أي: لا تقرؤه بقوتك، ولا بمعرفتك، لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعلمك كما خلقك، وعلم أمتك حتىٰ صارت تكتب بالقلم، بعد أن كانت أمية، وكرر ذلك للمبالغة والتأكيد، **وفيه** الاستعانة بالله في اخذ العلم، وأنّ طلبه بفضل الله

لا بقوة الطالب وحفظه وذكائه.

وقوله: **(فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي)**، أي: فأخذني جبريل عليه السلام وضمَّني، وخنقني، كما عند أبي داود الطيالسي برقم (١٦٤٣)، «**فأخذ بحلقي حَتَّىٰ أَجْهَشْتُ بِالْبُكَاءِ**». حسن لغيره.

وقوله: **(حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ)** وهو الغاية والمشقة، والمعنىٰ: بلغ الجهد مني مبلغه وغايته، أو بلغ جبريل مني غاية الجهد ثم أطلَقَني.

وهذا الصنيع من جبريل له حِكَم كثيرة منها: إظهار الجد في الأمر، وأن يأخذ الكتاب بقوة، ويترك الأناة، وكي يستيقظ لعظمة ما يُلقِىٰ إليه، وليبلو صبره، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة. **ينظر**: البداية والنهاية (٣/ ١١)، صحيح السيرة النبوية (ص٩٠). ولشغله عن الالتفات إلىٰ شيء من أمور الدنيا، والمبالغة في إحضار قلبه لما يقول له، وإنما حصل له هذا الصنيع بجسمه يقظة، ليعلم أنه من الله تعالىٰ، وليس عن توهم وتخييل، ولا من الشيطان، **وفيه** تحمل المشاق في سبيل تحصيل العلم، **وفيه** أخذ العلم بالتلقي من علماء بالوحيين، **وفيه** تفريغ القلب عند تلقي العلم، والإقبال عليه بكليته. **وفيه** أنه عند تعليم الناس ينبغي للمعلم أن يلفت نظر الطالب للعلم له بما أمكنه، والمبالغة في تنبيهه. التوضيح (٢/ ٢٦٢).

قوله: **(فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ؛ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ؛ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)**،

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: فخص هذا التعليم الذي يستدل به علىٰ إمكان النبوة، فإن النبوة نوع من التعليم، ..**فمن تمام كون ما أتىٰ به معجزًا خارقًا للعادة، ومن تمام بيان أن تعليمه أعظم من كل تعليم**، كما قال تعالىٰ: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون**﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وهذا الكلام الذي أنزل عليه هو آية وبرهان علىٰ نبوته؛ فإنه لا يقدر عليه الإنس والجن، ﴿**قل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾ [الإسراء: ٨٨]". مجموع الفتاوىٰ باختصار/ (١٦/ ٢٥٦).

ومناسبة ذكر خلق الإنسان من علق، أن جبريل استخرج من قلبه علقة، وهي حظ الشيطان منه، وذلك تهيئة له لتحمل أعباء الدعوة، ومهام الرسالة والله أعلم، **وفي الحديث** دليلٌ علىٰ أن البسملة مأمور بها في ابتداء كل قراءة. عون الباري (١/ ١١٠)، **وفيه** بيان لأول ما نزل من القرآن من الآيات، قالت **عائشة** رضي الله عنها: "إن أوّل شيء أُنزل من القرآن: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٢٢١)، قال **النووي**: "في هذا دليل صريح في أن أول ما نزل من القرآن: اقرأ وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف، وقيل: أوله يا أيها المدثر وليس بشيء". شرح صحيح مسلم (٢/ ١٩٩)، ووجه الحافظ القول الثاني بأن "المراد بالأولية في قول **جابر**: "أول ما نزل: سورة المدثر"، أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي، أو مخصوصة بالأمر بالإنذار، لا أن المراد أنها أولية مطلقة. الفتح (٨/ ٦٧٨).

وقال شيخنا **الألباني**: "وفي رواية: «**فإذا المَلَك الذي جاءني بـ(حراء) جالس علىٰ كرسي بين السماء والأرض** ...)، وهذا صريح في تقدم إتيانه إليه، وإنزاله الوحي من الله عليه، والله أعلم". صحيح السيرة النبوية برقم (٩٦). **وفيه** حثٌّ علىٰ تعلم القراءة والكتابة، ومحو الأمية. **وفيه** فضل القلم والكتابة وأهميتها، ﴿**عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**﴾: أي علم الإنسان الخط بالقلم. قال **قتادة**: "القلم نعمة من اللّه تعالىٰ عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن جرير (٢٤/ ٢٢٠)،

وهذا دليل علىٰ عظيم كرمه سبحانه، ودقيق حكمته حيث علَّم عباده ما لم يعلموا، وجعل استقامة أحوال الدين والدنيا والمنافع العظيمة فيهما مرتبطة بالكتابة، **وفيه** أنّ الأمية مذمومة إلا في حق نبينا ﷺ فإنها تشريف، ودليل علىٰ نبوته، حيث علم البشر أجمع وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب. **وفيه** الحض علىٰ تكرار العلم، وأنه يشرع ثلاثًا ثلاثًا. التوضيح (٢/ ٢٦٢)، **وفيه** أن المؤدِّب لا يضرب علىٰ القرآن أكثر من ثلاث ضربات. عون الباري (١/ ١٠٩)، **وفيه** إشارة إلىٰ أن المعلِّم علىٰ الحقيقة هو الله -عزوجل-، والعلم محض اصطفاء واجتباء منه سبحانه، **(فمن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)**، **وفيه** أن العلم يكون قبل القول والعمل، والدعوة، وفي هذا ردٌّ علىٰ من يبدأ بالدعوة قبل التعلُّم. **وفيه** أن طلب العلم يحتاج صاحبُهُ إلىٰ استعانة بالله -عزوجل-، لأنه يقرأ ولا يكتب إلا باسمه تعالىٰ ومعونته، **وفيه** أن من أخلص واستعان بالله في الطلب فإن الله يعينه ويعطيه خيرًا مما يتوقع، ويفتح عليه فتحًا عظيمًا فيه، **وفيه** بيان أن ما يأتي به النبي ﷺ إنما هو

وحي من الله تعالىٰ، يوحي إليه به، **(وما ينطق عن الهوىٰ)**، **يستفاد منه** الاعتناء بالوحيين، وألا ينشغل الناس بالكتب الأخرىٰ التي تصد، أو تلهي وتشغل عنهما.

قوله: (فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ)، أي فرجع النبيُّ ﷺ بالآيات يرجف ويرعد قلبه، فدخل ﷺ بهذه الحال علىٰ زوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، التي أَلِف منها تأنيسها له، وعلم منها رجاحة العقل، وطلب منها التلفف والالتحاف، وفي رواية قال: «**فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني وصبوا عليَّ الماء**»، وذلك لشدة ما لحقه من هول الأمر والفزع، فقامت رضي الله عنها بما طلب منها، فهدَّأت من روعه، فعلًا وقولًا، **وفيه** أن الفازع من شيء لا ينبغي أن يُسأَلَ عن شيء حتىٰ يزولَ عنه فزعه، حتىٰ قال **مالك** رحمه الله: "إن المذعور لا يلزمه بيع ولا اقرار، ولا غيره". التوضيح (٢/ ٢٧٠)، **وفيه** مشروعية تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وتبشيره، وذكر أسباب السلامة له. التوضيح (٢/ ٢٨٠).

قوله: (فَقَالَ: لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي)، وفي رواية: «**يَا خَدِيجَةُ لَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَىٰ نَفْسِي بَلَاءً**». **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد برقم (٢٥٨٦٥).

خاف علىٰ نفسه أن يكون هذا من تسلط الجن، وذلك الخوف إنما كان في بداية الأمر قبل أن يحصل له العلم القطعي اليقيني أن الذي جاءه هو ملَكٌ كريم، وأنه من عند الله -عزوجل-. التوضيح (٢/ ٢٧٢)، دقائق التفسير لابن القيم (٣/ ١١٠)، ويحتمل أنه خاف علىٰ نفسه أن يُنْسب إلىٰ الكهانة والسحر والشعر، ونحو ذلك، ويحتمل أنه خاف علىٰ نفسه الموت، وكل هذا جاء مصرَّحًا به في الروايات، ومما يدل علىٰ صحة كل هذه الاحتمالات قول خديجة له: **"والله ما يخزيك الله أبدًا"**.

قوله: (فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا)، وفي رواية قالت: **"أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث"**. متفق عليه، وفي رواية: «**وتؤدي الأمانة**». **إسناده صحيح**: أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرىٰ" (١/ ١٥٣)، فكان جواب أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها له جوابًا مطمئنًا، وهو قولها: **"كلا والله"**، فهذا نفي وإبعاد من وقوع الخزي به،

والفضيحة والهوان والبلية، ولا يصيبك حزن ولا هم، كما في رواية مسلم: **"لا يُحْزِنُك اللهُ أبدًا"**. شرح القسطلاني (١/ ٦٤)، فبشَّرته بكل خير، ثم استدلَّت بحسن عقلها علىٰ ما أقسمت عليه بأمر معلوم بالمشاهدة، وهو أن من يكون الله قد جبله علىٰ هذه الأخلاق الكريمة، والصفات الجليلة، والسجايا الحسنة التي هي من أعظم صفات الأبرار الممدوحين: أنه لا يخزيه فيفسد الشيطانُ عقلَهُ ودينَهُ. دقائق التفسير (٢/ ١١٨)، فكانت عارفة بأحواله التي تستلزم نفي كذبه وفجوره وتلاعب الشيطان به. الجواب الصحيح (٦/ ٥١١). ولم يكن معها قبل ذلك وحي تعلم به انتفاء ذلك بل علمته بمجرد عقلها الراجح، **وفي الحديث** أن من نزل به أمر استحب له أن يُطلِعَ عليه من يثق بعقله، وصحة رأيه، وبنصحه. التوضيح (٢/ ٢٨٠)، **وفيه** جواز أن يتحدث الرجل مع زوجته ببعض مخاوفه، وشؤونه الخاصة إذا علم رجاحة عقلها وأمانتها. **وفيه** فضل خديجة وكمالها ورجاحة عقلها، وجزالة رأيها، وقوة نفسها، وعظيم فقهها، وفصاحتها، وأدبها، **وفيه** أن المرأة العاقلة هي التي تكون سكنًا لزوجها، ولا تزيده همـًا فوق همه، **وفيه** أن من طُبع علىٰ أفعال الخير، لا يصيبه ضير. عون الباري (١/ ١١٤)، فإن مكارم الأخلاق وصنائع المعروف تقي مصارع السوء - كما صح بذلك الحديث. الصحيحة برقم (١٩٠٨) وهي سبب للسلامة من مكاره الدين والدنيا. التوضيح (٢/ ٢٨٠)، **وفيه** فضل الخصال المذكورة، من صدق الحديث، وصلة الرحم، وغيرها. **وفيه** بيان عظيم خلق النبي ﷺ، وما كان عليه من خلال كريمة قبل وبعد البعثة والنبوة، وهذا أدعىٰ لقبول الدعوة من الداعي إلىٰ الله تعالىٰ. **وفيه** مدح الإنسان في وجهه لمصلحة، وشرطه في غير الأنبياء انتفاء الفتنة. عون الباري (١/ ١١٤).

قولها: (إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ)، ومعنىٰ تصل الرحم"، أي: تحسن إلىٰ قرابتك علىٰ حسب حالك، **فوصفته بأصول مكارم الأخلاق**، لأن الإحسان إما إلىٰ الأقارب أو إلىٰ الأجانب، وهو إما بالبدن، أو بالمال، وذلك كله مجموع له ﷺ، ومن صلة الأرحام، وصدق الحديث، وهي **من أشرف الخصال**، وقد شهد له بذلك أبوجهل، فعن **عليّ** رضي الله عنه قال: "قال أبوجهل للنبي ﷺ: قد نعلم يا محمد إنك تصل الرحم وتصدق الحديث، ولا نكذبك ولكن نكذب الذي جئتَ به؛ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٣٣]". **صحيح**: أخرجه الترمذي برقم (٥٠٥٨)، **ووصفته** أيضًا بأداء الأمانة كما تقدم، ووصفته بالإنفاق علىٰ

اليتيم والضعيف ونحوهم ممن يدخل في معنىٰ (**الكَلّ**)، وهو الضعف والعجز، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ**﴾ [النحل: ٧٦]، **ووصفته** أيضًا بأنه يعطي الناس ما لا يجدونه عند غيره، ولذلك قالت: "**وتكسب المعدوم**"، أي: تعطيه المال تبرعًا وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك، وفي بعض الروايات: "**وتكسب المعدم**" أي: تعطي العائل (وهو المحتاج).

ولذلك قال أعرابي يمدح إنسانًا: "كان أكسبهم لمعدوم، وأعطاهم لمحروم".

قولها: (وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ)، أي: أنه ﷺ كان يقوم بحق الضيف وإكرامه، ويُهَيِّئُ له طعامه وحاجته، وإنه كان **يعين بما يقدر علىٰ نوائب الحق والخير**، ولا يعين علىٰ نوائب الشر والباطل، وإنما قالت: "**نوائب الحق**"؛ لأن النائبة قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر.

قال في الفتح: قولها: "**وتعين علىٰ نوائب الحقّ**"، كلمةٌ جامعةٌ لكل ما تقدّم ولما لم يتقدم، من الخير

وهذه الصفات وردت في قصة أبي بكر لما أراد أن يخرج مهاجرًا من مكة، لقيه ابْنُ الدَّغِنَةِ، فقال له: "**إِنَّ مِثْلَكَ يا أبابكر لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ**، وَأَنَا لَكَ جَارٌ فَارْجِعْ فَاعبد رَبَّكَ بِبِلَادِكَ". سيأتي برقم (٢٢٩٧). وهذا يدلّ علىٰ أن أبابكر كان علىٰ قلب نبيه، ووافقه في كثير من صفاته.

عصمة الله له من الوقوع في الشرك والفواحش قبل البعثة وبعدها

ووصفت خديجة رضي الله عنها رسول الله ﷺ بهذه الأوصاف مع ما علمته عنه ﷺ من عصمة الله تعالىٰ له، من الوقوع فيما كان من أراذل الأخلاق، وعادات أهل الجاهلية، قال **الذهبي** رحمه الله: "ومازال المصطفىٰ محفوظًا محروسًا قبل الوحي وبعده، والذي لا ريب فيه، أنه كان معصومًا قبل الوحي وبعده، وقبل التشريع، من الزنىٰ قطعًا، ومن الخيانة، والغدر، والكذب، والسكر،والسجود لوثن، والاستقسام بالأزلام، ومن الرذائل، والسفه، وبذاء اللسان، وكشف العورة، وبكل حال لو بدا منه شيء من ذلك، لما كان عليه تبعة؛ لأنه كان لا يعرف، ولكن رتبة الكمال تأبىٰ وقوع ذلك منه، ﷺ تسليمًا". سير أعلام النبلاء (١/ ١٣٠) باختصار.

قوله: (فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ

عبدالْعُزَّىٰ ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ وَكَانَ امْرَأً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ...)، أي فمضت خديجة رضي الله عنها مع النبي ﷺ، حتىٰ أتيا إلىٰ ورقة بن نوفل ابن عمها، وورقة كان علىٰ الفطرة وكان قد خرج هو وجماعة لما كرهوا عبادة الأوثان إلىٰ الشام وغيرِها طلبًا للدين الحق، فعن سعيد بن زيد قال: "خرج ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو يطلبان الدين، حتىٰ مرّا بالشام، فأما ورقة فتنصَّر، وأما زيدٌ فقيل له: إن الذي تطلب أمامك، فانطلق حتىٰ أتىٰ الموصل فإذا هو براهب، فقال: من أين أقبل صاحب المرحلة؟ قال: من بيت إبراهيم، قال: ما تطلب؟ قال: الدين، فعرض عليه النصرانية فأبىٰ أن يقبل، وقال: لا حاجة لي فيه، قال: أما إن الذي تطلب سيظهر بأرضك، فأقبل وهو يقول: لبيك حقًا حقًا تعبُّدًا ورِقًّا..."[٤٠٢]، وكان ورقةُ لقي من بقي من الرهبان علىٰ دين عيسىٰ، ولم يبدِّل، ولهذا أخبر قومه بشأن النبي ﷺ والبشارة به إلىٰ غير ذلك مما أفسده أهل التبديل.

قوله: (وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنْ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ)، وفي رواية: **"فيكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية"**، وفي رواية: **"ويكتب من الإنجيل بالعربية"**، وفي رواية لمسلم: **"فكان يكتب الكتاب العربي"**، والجميع صحيح؛ لأنّ ورقة تعلم اللسان العبراني والكتابة العبرانية، فكان يكتب الكتاب العبراني كما كان يكتب الكتاب العربي؛ لتمكنه من الكتابين واللسانين، والمعنىٰ أنه كان يكتب الإنجيل بالعبرانية ويترجمه إلىٰ العربية.

وإنما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسرًا كتيسُّرِ حفظ القرآن الذي خُصَّت به هذه الأمة، قال تعالىٰ: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا**

---

(٤٠٢) **إسناده حسن**: أخرجه الطبراني (١/ ١١٤)، برقم (٣٥٠)، والضياء في المختارة برقم (١١١١)، وأخرجه الحاكم (٣/ ٤٣٩) من طريق يونس بن بكير وهو كوفي، ورواية الكوفيين عنه أيضًا جيدة كما في تهذيب الكمال، ونفيل بن هشام: من أتباع التابعين.

وحديثه حسن عندي، **وينظر**: تخريجي للشريعة (٤/ ٥٣)، برقم (١٨٤٥).

ويشهد له في الجملة بعض ما ورد في سفرهم إلىٰ الشام بحثًا عن الدين الحق. السيرة لابن إسحاق (١/ ٣٧).

وورد عن أسماء أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يقول" :**اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك، عبدتك به، ولكني لا أعلم، ثم يسجد علىٰ راحته**". **إسناده حسن**: **ينظر**: مجلة البحوث الإسلامية (٨٠/ ١٧٨٤).

﴿**الْعِلْمَ**﴾ [العنكبوت: ٤٩] أي: القرآن محفوظ في صدور العلماء، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنّ الله تعالىٰ قال لي: ... وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرأه نائمًا وَيَقْظَانَ**». أخرجه مسلم برقم (٢٨٦٥).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظًا يستغنون به عن المصاحف، ولو غسل بالماء من المصاحف لم يغسل من القلوب، كالكتب المتقدمة فإنه لو عدمت نسخها لم يوجد من ينقلها نقلًا متواترًا محفوظة في الصدور ولهذا لما غُيِّر من نسخ التوراة راج ذلك علىٰ طوائف منهم ولم يعلموا التغيير!". الجواب الصحيح (٣/ ١٣) باختصار.

قوله: (وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ)، كان شيخًا كبيرًا وقد عمي، فظن أنه لن يدرك بعثته ﷺ.

قوله: (فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ)، وقالت خديجةُ لورقة: "**اسمع من ابن أخيك**"؛ وورقة يلتقي مع النبي ﷺفي قصي وتعني: أن أباه في طبقة ورقة أو إنما قالت له ذلك علىٰ سبيل التوقير، **ففيه** إرشاد إلىٰ أن صاحب الحاجة يُقدم بين يدي حاجته من يعرف بقدره، ممن يكون أقرب منه إلىٰ المسئول، وأرادت خديجة بذلك أن يتأهب لسماع ورقة كلام النبي ﷺ، وذلك أبلغ في الاهتمام.

وفيه كتابة الوحي من الكتاب والسنة، ونسخ كتب العلم، وطباعتها ونشرها، **وفيه** مشروعية ترجمة العلم، لتقريبه لغير أهل اللسان، لكن بضوابطه وشروطه المعتبرة، **وفيه** سؤال أهل العلم والاختصاص، وأهل الذكر في كل فن، قال تعالىٰ: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [النحل: ٤٣].

وفيه توقير الكبير في السن، والكبير في القدر والمنزلة.

قوله: (فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ...)، و"النَّامُوسُ"، أي: صاحب سر الرجل الذي يطلعه علىٰ باطن أمره، ويخصه بما يستره عن غيره، وهو هنا جبريل -عليه السلام-، فالناموس: صاحب سر الخير، والجاسوس: صاحب سر الشر، فسأله ورقةُ عما

يرىٰ فأجابه النَّبيُّ ﷺ بما رأىٰ، من نزول جبريل ومخاطبته له فعلم ورقةُ من صفته أنه جبريل وأنه سفير الله بين أنبيائه ورسله.

وإنما قال علىٰ موسىٰ **"عَلَىٰ مُوسَىٰ"**، ولم يقل علىٰ عيسىٰ مع كونه نصرانيًا؛ لأن كتاب موسىٰ عليه السلام مشتمل علىٰ أكثر الأحكام، وكذلك كتاب النبي ﷺ، بخلاف كتاب عيسىٰ.

أو لأن موسىٰ بعث بالنقمة علىٰ فرعون ومن معه، ، كما وقعت النقمة علىٰ يد النبي ﷺ بفرعون هذه الأمة وهو: أبوجهل ابن هشام ومن معه ببدرٍ بخلاف عيسىٰ، أو قاله تحقيقًا للرسالة؛ لأن نزول جبريل علىٰ موسىٰ متفق عليه بين أهل الكتاب، بخلاف عيسىٰ فإن كثيرًا من اليهود ينكرون نبوته.

وقد ذكر ابن كثير حكمة ذلك بقوله: وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله لم ينزل كتابًا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة علىٰ أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل علىٰ محمدٍ ﷺ، وهو القرآن، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله علىٰ موسىٰ بن عمران -عليه السلام-، وهو: التوراة، وأما الإنجيل فإنما نزل متممًا للتوراة ومُحلًا لبعض ما حُرّم علىٰ بني إسرائيل. تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٣)، بتصرف، وورد في "دلائل النبوة" لأبي نعيم **بإسناد حسن** إلىٰ هشام بن عروة، عن أبيه في هذه القصة، أن خديجة أولًا أتت ابنَ عمِّها ورقةَ فأخبرته الخبرَ، فقال: **"لئن كنتِ صدقتني إنه ليأتيه ناموس عيسىٰ الذي لا يعلِّمه بنو إسرائيل أبناءهم"**. الجامع الصحيح للسيرة النبوية (٣/ ٦٠٨). فالجمع بينهما أنه عند إخبار خديجة له بالقصة قال لها: ناموس عيسىٰ بحسب ما هو فيه من النصرانية، وعند إخبار النبي ﷺ له قال له: ناموس موسىٰ للمناسبة التي قدمناها، وكلٌّ صحيح، والله أعلم.

قوله: (يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ)، جَذَعًا: أي: شابًا، قويـًا.

والمراد بقوله: «**فيها**»، النبوة أو الدعوة أو الدولة والمعنىٰ أن ورقة تمنىٰ أن يكون شابًا قويًا في أيام ظهور الدعوة إلىٰ الإسلام، وبداية النبوة ليمكنه ذلك من المبالغة في نصرته للنبي ﷺ حين يعاديه ويُخْرجه قومه من مكة، **فيه** تثبيت لقلب رسول الله ﷺ وتأييد ونصرةٌ، ومؤازرةٌ له، وحث له علىٰ الثبات والصبر، **وفيه** التنبيه إلىٰ صحة ما أخبر به ورقةُ النبيَّ ﷺ، والتنويه بقوة

تصديقه فيما جاء به، **وفيه** نصرة أهل الحق، وإعانتهم علىٰ ذلك، **وفي الحديث** فضيلة ظاهرة لورقة ﷺ، فعن **عائشة** ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبوا ورقة فإنه كان له جنة أو جنتان**»(٤٠٣).

وثبت أن النبي ﷺ سُئل عن ورقة بن نوفل، فقال: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**»(٤٠٤).

قوله: (فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟! قَالَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثم لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ)، "مُؤَزَّرًا"، يقال: آزر فلانٌ فلانًا، أي: عاونه علىٰ أمره، وزاده ذلك من قول ورقة بن نوفل ثباتًا وخفف عنه بعض ما كان فيه من الغم، والمعنىٰ أن ورقة نوىٰ وتمنىٰ أن لو أدرك بعثته للناس وهو شاب قوي، أن يؤمن به، وأن يؤازره ويناصره، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**وتعزروه وتوقروه**﴾ [الفتح: ٩] ولكن "**لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ**"، أي فما لبث أن توفي، فنال الأجر بالنية، ورآه النبي ﷺ في الجنة، وإنما استنكر النبيُّ ﷺ أن يخرجه أهل مكة لما عرف عن نفسه من مكارم الأخلاق، والإحسان للخَلْق، ولأنها بلده، وبلد أبيه إسماعيل وهم قومه وأولىٰ الناس به؛ فبين له ورقة أن هذا الإخراج سنة ماضية من سنن المرسلين، وأهل الحق دائمًا، ويحتمل أنه علم هذا الإخراج من صفته المنقولة في كتبهم، أو منهما، وقد وقع ما أخبر به ورقة من أذىٰ قومه له؛ فقد سألت **عَائِشَةُ** ﷺ النَبِيَّ ﷺ، هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عبديَالِيلَ بْنِ عبدكُلاَلٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ**. متفق عليه، وجرت العادة أنه كلما أتىٰ النفوسَ خلاف عادتها، وما ألفته وأحبته، نفرت منه، وأنكرته ولو أتاها ذلك ممن تحب، وتعتقد صدقه، وقد هيأه ورقةُ بذكر ما سيحصل له ليوطن قلبه علىٰ الصبر وليتأسىٰ بمن قبله من المرسلين وبشره بالنصر والظفر، وقد جاء في رواية ابن إسحاق الآتية قريبًا قول ورقة له: «**والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد**

---

(٤٠٣) **صحيح**: أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وقال شيخنا **الألباني**: "وهو كما قالا". الصحيحة برقم (٤٠٥).

(٤٠٤) **إسناده حسن أو صحيح**: أخرجه الطبراني (٢٤/ ٨٢)، برقم (٢١٧)، قال الهيثمي: أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. **قلت**: وهو كما قال شيخنا **الألباني** في مختصر صحيح الإمام البخاري (٢/ ٥٣٠): وسنده صحيح".

جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسىٰ، ولتُكَذَّبَنَّهْ ولتُؤْذَيَنَّهْ، ولَتُخْرَجَنَّهْ، وَلَتُقَاتَلَنَّهْ، ولئن أنا أدركتُ ذلك لأنصرنَّ اللهَ نصرًا يعلمه». حسن لغيره، يأتي تخريجه، **وفيه** دليلٌ علىٰ أن المجيب يقيم الدليل علىٰ ما يجيب به إذا اقتضاه المقام. **وفيه** معاداة أهل الباطل لأهل الحق، **ووفيه** فضل غربة الدين، وأنها ليست بمنقصة ولا مثلبة لأهل الحق، بل هي منقبة لهم، **وفيه** بيان سنة الله تعالىٰ في رسله وأهل الحق، وأنها واحدة، وأن العاقبة للتقوىٰ، وورد في بعض الروايات عن ورقة أنه: **"قبِّل يافوخه"**، **ففيه** تقبيل رأس العالم والفاضل، وأنه من الإجلال لهم، خلافًا لمن كره ذلك، ومما يؤيد ذلك ما ورد عن **عَائِشَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: **"ثُمَّ** قَالَ -تَعْنِي النَّبِيّ ﷺ-: «**أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَ عُذْرَكِ**». وَقَرَأَ عَلَيْهَا الْقُرْآنَ، فَقَالَ أَبَوَايَ: قُومِي فَقَبِّلِي رَأْسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: أَحْمَدُ اللهَ لاَ إِيَّاكُمَا". صحيح: أخرجه أبو داود برقم (٥٢١٩)، وقال **شيخنا ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما تقبيل الرأس، إذا كان الذي تُقبِّل رأسه أهلًا لذلك؛ لكونه نافعًا للمسلمين بماله أو بعلمه فلا بأس أن تُقبِّل رأسه، وكذلك الأب والأخ الكبير ونحو ذلك". لقاء الباب المفتوح (٥٥/ ٨)، **وفيه** جواز إطلاق ابن الأخ علىٰ أي قريب في درجته. **وفيه** جواز قول **(لو)** وتمني المستحيل إذا كان في فعل خير.

قوله: (وَفَتَرَ الْوَحْيُ)، أي تأخر وانقطع نزوله، والظاهر أنها كانت ثلاث سنين، ثم كان أول ما نزل بعد هذه الفترة: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ [المدثر: ١]، ثم تتابع الوحي وحمي كما يأتي، "وبهذا الأمر حصل الإرسال إلىٰ الناس، وبالأول حصلت النبوة"، قاله **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ. البداية (٣/ ٢٤).

والحكمة من هذا الفتور: أن يذهب عنه ما وجده من الفزع، وليحصل له تمام التشوق والانتظار لعودة الوحي، ثم انقطع الوحي مرة أخرىٰ لكنه يسير فعن **جندب بن عبدالله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: اشتكىٰ رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثًا، فاحتبس جبريل علىٰ النبي ﷺ، فقالت امرأة من قريش: قد أبطأ عليه شيطانه، أو "ما أرىٰ شيطانك إلا تركك"، فنزلت: ﴿**وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ [الضحىٰ: ١-٣]. متفق عليه.

تنبيه مهم:

جاء في رواية: «**حتىٰ حزن رسول الله** ﷺ -[فيما بلغنا]- **حزنًا غدا منه مرارًا لكي يتردىٰ من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوْفىٰ بذروة جبل كي يلقي نفسه منها، تبدَّىٰ له جبريل فقال له: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طال عليه فترة الوحي**

غدا لمثل ذلك، فإذا أوفىٰ بذروة الجبل تبدىٰ له جبريل، فيقول له مثل ذلك». قال شيخنا الألباني: "لا تصح سندًا ولا متنًا"(٤٠٥).

٤- أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ، فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥]. فَحَمِيَ الوَحْيُ (كثر نزوله وازداد) وَتَتَابَعَ.

وفي رواية: "بَوَادِرُهُ" (لحمة بين المنكب والعنق تضطرب عند فزع الإنسان).(٤٠٦).

أطرافه في: (بدء الخلق٣٢٣٨، التفسير٤٩٢٢، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤، الأدب٦٢١٤).

الجواب عن تعليق البخاري

قال **الحافظ**: "ذكره البخاري موصولًا برقم: (٤٩٢٥، ٤٩٢٦)، بإسناده إلىٰ ابن شهاب به، وكذا مسلم من طرق عنه به، برقم (١٦١). وفي رواية: «فقلت: زملوني زملوني ودثروني، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

الشرح

تقدم معنا أن جبريل عليه السلام نزل علىٰ النبي ﷺ بغار حراء، بـــ(اقرأ)، قال ابن شهاب: أخبرني محمد بن عباد بن جعفر، عن بعض علمائهم، "أن أول ما أنزل الله علىٰ نبيه ﷺ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥] قالوا: هذا

---

(٤٠٥) ضعف شيخنا العلامة الألباني رحمه الله الحديث، كما في مختصر البخاري (١/ ١٧)، وذكر علتها، ويبدو لي أن الأمر علىٰ خلافه.

(٤٠٦) أخرجه مسلم برقم (١٦١)، والترمذي برقم (٣٣٢٥)، والنسائي في الكبرىٰ برقم (١١٦٣١، ١١٦٣٣).

صدرها الذي أنزل عليه يوم حراء، ثم أنزل الله آخرها بعد ذلك". **إسناده صحيح**: أخرجه أبو عبيد في "فضائل القرآن" برقم (٦٥٧، ٦٥٨)، وسبق نقل ذلك عن عائشة، وهو قول جماهير السلف والخلف كما قال النووي. كما في: (تهذيب الأسماء واللغات).

قوله: (وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ): أي تأخر بعد ذلك، واحتبس بعد تتابع نزوله، وتأخر مدة من الزمان، وقد اختلف في هذه المدة، فمن قائل: سنتان ونصف، وقيل غير ذلك، ثم كان أول ما نزل بعد هذه الفترة: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾،

قوله: (فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ): ثم كثر نزوله وازداد وتتابع الوحي وحمي، **فيه** بيان انقطاع الوحي عن رسوله الله ﷺ بعد نزول قوله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿**اقْرَأْ**﴾ [العلق: ١]، **وفيه** جواز تحدّث الإنسان بما حصل له من المِحن والمخاوف بعد زوالها؛ شكرًا لله تعالىٰ علىٰ العافية منها.

قوله: (سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ): **وفيه** جواز رفع البصر إلىٰ السماء عند وجود حادث من قِبَلها، وقد بوب له البخاريّ في "كتاب الأدب". **وفيه** ما قاله **القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذا الحديث تحقيقُ العلم بتصوّر الملائكة علىٰ صور مختلفة، وإقدار الله تعالىٰ لهم علىٰ التركيب في أيّ شكل شاؤوا من صُور بني آدم وغيرها، وأن لهم صُوَرًا في أصل خِلْقتهم مخصوصة بهم، كلّ منهم علىٰ ما خُلق عليه وصُوِّر"

وقوله: (...فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي..): **وفيه** بيان أن أوّل ما نزل قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ [المدثر: ١] بعد نزول ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾ [العلق: ١]، وهذا هو الصواب؛ وحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نصّ صريح في ذلك، **وفيه** بيان كيفيّة معالجة من أصابه فزع، وهو أن يلفّف بالثوب، ويُصبّ عليه ماء بارد، حيث قال ﷺ، عن أبي سلمة: «**فَدَثِّرُونِي، فصبّوا عليّ ماءً باردًا**»، **وفيه** جواز مناداة الشخص بما هو متلبّسٌ به، كأن يكون نائمًا، فيقال له: يا نائم، كما قال تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**﴾ [المدثر: ١]، وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ [المزمل: ١]، فقد نادىٰ الكريم -سبحانه وتعالىٰ- خليله ﷺ بما تلبّس به، ولم يقل: يا محمد، ويا فلان؛ ليستشعر اللِّين والملاطفة من ربه، وفي الحديث: (**قم يا نومان**)، **وفيه** وجوب القيام بالدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وإنذار المعرضين

وتبشير المطيعين، وعدم الاستهانة بالبلاغ، وتعليم الناس: ﴿**يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته**﴾ [المائدة: ٦٧]. **وفيه** وجوب التكبير في الصلاة، كما قاله بعض العلماء في قوله تعالىٰ: ﴿**وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**﴾ [المدثر: ٣]، **وفيه** وجوب تطهير الثياب للصلاة، وقد استدلّ عليه بعض أهل العلم بقوله تعالىٰ: ﴿**وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ**﴾ [المدثر: ٤]، **وفيه** النهي عن إسبال الثياب، علىٰ بعض التفاسير، **وفيه** وجوب هجر الأوثان، وسائر المعبودات من دون الله تعالىٰ، والهجرة من بلاد الكفر، **وفيه** وجوب إخلاص الدين لله -سبحانه وتعالىٰ-. **وفيه** بيان فضل الله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ نبيّه ﷺ حيث أفاض عليه وحيه دون انقطاع حتىٰ فارق الدنيا، قال -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]. **انظر**: البحر المحيط الثجاج للشيخ الأثيوبي (٤/ ٤٢٧).

٥- عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ [القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ**﴾ [القيامة: ١٦-١٧] قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ: ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ [القيامة: ١٨] قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ: ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة: ١٩] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ.(٤٠٧)

أطرافه في: (التفسير ٤٩٢٧، ٤٩٢٩، فضائل القرآن ٥٠٤٤، التوحيد ٧٥٢٤).

الشرح

قوله: (**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**)، أي: حتىٰ لا ينسىٰ أو لحلاوة الوحي في

(٤٠٧) وأخرجه مسلم برقم (٤٤٨)، والترمذي برقم (٣٣٢٩)، والنسائي برقم (٩٣).

لسانه.

قال **الإمام ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ في "تفسيره": "هذا تعليم من الله -عزَّ وجلَّ- لرسوله ﷺ في كيفية تَلَقِّيه الوحيَ من الملَك، فإنه كان يبادر (يستعجل) إلىٰ أخذه، ويسابق الملَك في قراءته، فأمره الله -عزَّ وجلَّ- إذا جاءَهُ الملَك بالوحي أن يستمعَ له، وتَكَفَّل اللهُ له أن يَجمعه في صدره، وأن ييسره لأدائه علىٰ الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يُبَيِّنه له، ويفسره، ويوضحه، فالحالة **الأولىٰ** جمعُه في صدره، **والثانية** تلاوته، **والثالثة** تفسيره وإيضاح معناه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾ [القيامة: ١٦]، أي: بالقرآن، كما قال تعالىٰ ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤].

ثم قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ**﴾ أي: في صدرك، ﴿**وَقُرْآنَهُ**﴾، أي: أن تقرأه، ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**﴾ أي: إذا تلاه عليك الملَك عن الله تعالىٰ، ﴿**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك، ﴿**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾، أي: بعد حفظه وتلاوته نُبَيِّنه لك، ونوضِّحه، ونلهمك معناه، ونفسره لك علىٰ ما أردنا وشرعنا. **ففيه** دليل علىٰ أهمية أخذ القرآن مع فهمه ومعرفة تفسيره فالذي يتلقىٰ القرآن ينبغي أن يتبع النبي ﷺ في أخذه حفظًا وفهمًا وتفسيرًا، ثم اتباعًا وعملاً، **وفيه** دليلٌ لمن جوّز اجتهاد النبيّ ﷺ، حيث إنه كان يعجل بالقراءة، حتىٰ نهاه الله عن ذلك التعجل، **وفيه** التريث في حفظ القرآن وتحفيظه، ولا يحفظه جملة، ولو كان قوي الذاكرة، فقد نزل منجمًا ومفرقًا، وأقرأه النبيُّ لأصحابه علىٰ مكث، وتريث، وحفظهم إياه عشر آيات عشر آيات مع بيان معناها، وبهذا ينتفع الناس به، وقد علمهم العمل به، واتباعه، وتابعهم في التخلق به.

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً)، والمعالجة المحاولة للشيء والمشقة في تحصيله عند نزول الوحي لثقل القول، قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "سبب الشدة هيبة الملك، وما جاء به، وثقل الوحي، قال الله تعالىٰ: ﴿**إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا**﴾ [المزمل: ٥].

قوله: (وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ)، قال **القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: معناه: كثيرًا ما كان يفعل ذلك، قال: وقيل: معناه: هذا من شأنه ودَأْبِه، **وفيه** النوع المسمّىٰ في فنّ "مصطلح الحديث" بـــ "المسلسل بتحريك الشفتين"، فقد تسلسل بتحريك النبيّ ﷺ شفتيه لابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، ففي رواية أبي داود الطيالسيّ: "**أنه رآه يُحرّك شفتيه، ثم بتحريك ابن عبّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- **لسعيد بن**

جبير، ثم بتحريك سعيد، لموسىٰ بن أبي عائشة، وهلُمّ جرّا"، قال **العلامة الإثيوبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: وفائدة التسلسل اشتماله علىٰ زيادة الضبط، واتّصال السماع، والأمن من التدليس، لكن غالب المسلسلات لا يصحّ تسلسلها.

قوله: (فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ)، وفي رواية: أن ذلك كان خشية أن ينساه حيث قال: "فقيل له: **لا تحرك به لسانك تخشىٰ أن ينفلت"**. وأخرج ابن أبي حاتم عن **الحسن**: "كان يحرك به لسانه يتذكره فقيل له إنَا سنحفظه عليك"، وللطبري من طريق **الشعبي**: كان إذا نزل عليه عجل يتكلم به من حبه إياه وظاهره أنه كان يتكلم بما يلقىٰ إليه منه أولا فأولا من شدة حبه إياه فأمر أن يتأنىٰ إلىٰ أن ينقضي النزول، **وفيه** بيان ما كان النبيّ ﷺ يلقاه من معالجة الشدّة عند نزول الوحي عليه، وذلك لثقل الوحي، كما تقدم.

وفيه معاناته ﷺ من تلقّي الوحي عن الملَك.

قوله: (فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)، الضمير عائد علىٰ القرآن، أي: لا تعجل بقراءة القرآن ما دام جبريل يقرؤه، **وفيه** دليلٌ علىٰ أنه يجب علينا أن نتأنىٰ في قراءة القرآن، وألا نسارع في قراءته دون تدبر، قالت **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "وَمَا قَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ لَيْلَةً حَتَّىٰ يُصْبِحَ، وَلَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ". أخرجه مسلم برقم (٧٤٦)، وقد قال رجل **لابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟ إن قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه نفع، إن أفضل الصلاة الركوع والسجود...". أخرجه مسلم برقم (٢٧٥). هذا وقد بيَّن الأئمة أن قراءة القليل من القرآن بالتدبر خير من قراءته كله بغير تدبر، فقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فقراءة آيَة بتفكر وتفهم خير من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعىٰ إِلىٰ حُصُول الإيمان وذوق حلاوة الْقُرْآن، وَهَذِه كَانَت عَادَة السّلف يردد أحدهم الآيَة إِلىٰ الصَّباح وَقد ثَبت عَن النَّبِي ﷺ أنه قَامَ بِآيَة يُرَدِّدهَا حَتَّىٰ الصَّباح وَهِي قَوْله: ﴿**إِن تُعَذبهُمْ فَإِنَّهُم عِبَادك وَإِن تغْفر لَهُم فَإِنَّك أَنْت الْعَزِيز الْحَكِيم**﴾ فقراءة الْقُرْآن بالتفكر هِيَ أصل صَلَاح الْقلب وَلِهَذَا قَالَ **ابْن مَسْعُود**: "لاتهذوا الْقُرْآن هَذَّ الشِّعْر وَلَا تنثروه نثر الدَّقَل، وقفُوا عِنْد عجائبه وحركوا بِهِ الْقُلُوب لَا يكن هم أحدِكم آخر السُّورَة، وروىٰ أبوأيوب عن أبي جمرة قال قلت **لابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: إني سريع القراءة، إِنِّي أقرأ القرآن

في ثلاث؟، قال: "لأن اقرأ سورةً من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحبّ إليَّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ". **إسناده صحيح**: فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٧٤)، **والتفكر في القرآن نوعان**: تفكر فيه ليقع علىٰ مراد الرب تعالىٰ منه وتفكر في معاني ما دعا عباده إلىٰ التفكر فيه؛ فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني تفكر في الدليل العياني، **الأول** فِفِكْرٌ في آياته المسموعة، **والثاني** تفكر في آياته المشهودة، ولهذا أنزَلَ اللهُ القرآنَ ليُتَدَّبرَ ويُتَفَكّرَ فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الاعراض عنه قال **الحسن البصري**: "انزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملًا". مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٧)، **وفيه** ما قاله **القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَن رأىٰ الترتيل -وهم الأكثرون- ذهبوا إلىٰ تفهّم معانيه، والوقوف عند حدوده، وتدبّر آياته، وتحسين تلاوته، كما أمر الله تعالىٰ نبيّه ﷺ، حيث قال: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا**﴾ [المزمل: ٤]، من فتح الله عليه بعلمه، وتلاه بالتفكّر والاعتبار، وتَفَهُّم معانيه، واستثارة أحكامه، فلا مرية أن تلاوة هذا علىٰ مكث -وإن قلّ ما يتلوه- أفضل من ختمات غيره، انتهىٰ كلام القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ ببعض تصرّف.

قوله: (قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَه)، والمراد بالقرآن، أي: القراءة، ولذا فسّره بقوله: ﴿**فَتَقْرَؤُهُ**﴾، أي: إن علينا قراءته، كما قال تعالىٰ: ﴿**سنقرئك فلا تنسىٰ**﴾ [الأعلىٰ: ٦]. **وفيه** بيان أن الله تعالىٰ تكفّل لرسوله ﷺ أن لا ينسىٰ القرآن، وأنه كان بعد نزول هذه الآية يستمع ويُنصت لقراءة جبريل -عليه السلام، فإذا انتهىٰ جبريل من قراءته، وذهب من عنده قرأه النبيّ ﷺ علىٰ أصحابه كما قرأه جبريل -عليه السلام- من غير زيادة، ولا نقص، **وفيه** أنه ينبغي اتباع النبي ﷺ في تلقي القرآن، وإقرائه لأصحابه، **وفيه** إشارةٌ إلىٰ أنّ أحدًا لا يحفظ القرآن إلا بعون الله تعالىٰ وفضله، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ٣٢].

قوله: (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ)، يعني: أن معنىٰ ﴿**قُرْآنَهُ**﴾ أنزلناه علىٰ لسان جبريل -عليه السلام-، فقرأه عليك ﴿**فَاسْتَمِعْ لَهُ**﴾، أي ومعنىٰ: ﴿**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ استمع إلىٰ قراءة جبريل -عليه السلام-، فالقرآن هنا أيضًا بمعنىٰ القراءة، قال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ**﴾، أي: إذا تلاه جبريل -عليه السلام-، ﴿**فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾ أي: فاستمع له، ثم اقرأه كما أقرأك.

وقد قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه،

وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك علىٰ لسان رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿**إن في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السمع وهو شهيد**﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيًا**﴾، أي: القلب الحي.

وقوله: ﴿**وهو شهيد**﴾، أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، قال **ابن قتيبة**: استَمَعَ كتابَ اللهِ وهو شاهدُ القلبِ والفهم، وليس بغافلٍ ولا ساهٍ. بدائع التفسير (٤/ ١٩٠).

قوله: (**ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ، المعنىٰ: أن الله -عزَّ وجلَّ- ضمِنَ له ﷺ أن يُيسّر له قراءة القرآن متىٰ شاء، سواء كان لنفسه تدبّرًا، وتعبّدًا بتلاوته، أو للناس تبليغًا، وأن يُبيّن له ما يراد منه من المعاني والأحكام، وهذا فضل من الله تعالىٰ الكريم عليه، ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]. قال **القرطبي المفسر**: "أي: ثمّ إن علينا **أَنْ نُبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ** وقيل: معناه: إن علينا تفسير ما فيه من الحدود، والحلال والحرام". ا.هـ الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٠٦).

والمراد به كلُّ إيضاح يُزيل الإشكال، ويدخل في ذلك بيان القرآن بالسنة، ﴿**فإنما يسرناه بلسانك**﴾ [مريم: ٩٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**﴾ [النحل: ٤٤].

قوله: (فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ...)، المعنىٰ: أن النبيّ ﷺ كان بعد نزول هذه الآية إذا أتاه جبريل -عليه السلام- بالوحي، وبدأ يقرأ ذلك الوحي عليه، استمع ﷺ لقراءته، فإذا انتهىٰ من قراءته، وانصرف من عنده، قرأه النبيّ ﷺ مثل ما قرأه جبريل -عليه السلام-، من غير زيادة، ولا نقص، ولا تبديل، ولا تحريف، **وفيه** مشروعية الاستماع لقراءة القارئ، والتأدّب معه بالإطراق، والإنصات.

٦- عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ**، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ (أمين الوحي)، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ».

طرفه في: (الصوم١٩٠٢، بدء الخلق٣٢٢٠، المناقب٣٥٥٤، فضائل القرآن٤٩٩٧).

الشرح

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ)، أي: أسخىٰ الناس لما كانت نفسه أشرف النفوس، وفي رواية: «**أجود الناس وأسمحهم**» تهذيب الآثار للطبري برقم (١٤٥).

قوله: (وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ)، أي: من كثرة العطاء، **وفيه** إشارةٌ إلىٰ سبب ذكر الحديث في كتاب بدء الوحي، وهو أن ابتداء النزول كان في رمضان، وكان يعتني بالقرآن فيه، **وفيه** الحث عَلَىٰ الجود والإفضال، وأعظم البذل والجود العطاء الديني، من النصح لعباد الله وتعليمهم، وبذل الوقت في إصلاح أحوالهم، وتربيتهم علىٰ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، **وفيه** بيان جود النبي ﷺ والحث علىٰ الاقتداء به، فقد ثبت في حديث **جابر** رضي الله عنه-: "مَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لَا". سيأتي برقم (٦٠٣٤)، ومن ذلك ما رواه **أنس** رضي الله عنه- قال: "ما سئل رسول الله ﷺ علىٰ الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلىٰ قومه، فقال: يا قوم أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشىٰ الفاقة -الفقر-". أخرجه مسلم برقم (٢٣١٢)، ومع فقره ﷺ تمنَّىٰ أن لو كان لديه مثل جبل أحد ذهبًا، لم تمر عليه ثالثة وعنده منه شيء، بل ينفقه كلَّه في سبيل الله، وهذا غاية في السخاء والجود، بل وعلىٰ إيثار ما عند الله تعالىٰ من الأجر والثواب، وفي حديث **أبي سعيد** عن **عمر** مرفوعًا: قال: «**يسألوني، يريدون لي البخل، ويأبىٰ الله لي إلا السخاء**». صحيح: قال **الطبري**: هذا خبر عندنا صحيح سنده. تهذيب الآثار (١/ ٤)، وفي بيان معنىٰ الجود ما يُروىٰ عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه-: "إنّ أجودُ الناسِ: منْ جادَ علىٰ من لا يرجو ثوابه، وإنّ أحلم الناس من عفا بعد القدرة، وإنَّ أبخلَ الناس الذي يبخل بالسلام، وإن أعجز الناس الذي يعجز في دعاء الله". (رجاله ثقات)، أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٠٩٨). وهذا كله من الجود والسخاء، وقَالَ **زبيد اليامي**: "إن أجود الناس من أعطىٰ مالًا لا يريد جزاءه، وإنّ أفضل الناس من وصل من قطعه، "، وقال **عامر بن عبدالله اليحصبي**: كان أبوأمية يقول: "وإن أجود الناس في الدنيا من جاد بحقوق الله تعالىٰ، وإن رآه الناس جوادًا فيما سوىٰ ذلك". شعب الإيمان للبيهقي برقم (١٠٢٩٥).

وقوله: (فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ): من المدارسة، وهي القراءة المترسلة. مع التفهم والتدبر لمعناها.

ولأن شهر رمضان هو شهر القرآن الذي نزل فيه، بل نزلت كتب الله كلها في شهر رمضان،

حيث بيّن أنَّ بداية الوحي ونزوله كان في رمضان، فكان يهتم بمعارضة جبريل له في هذا الشهر الفضيل كل عام، وفي حديث فاطمة: «**أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كلَّ سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أُراه -أظنه- إلا حضور أجلي ...**» الحديث. سيأتي برقم (٣٦٢٤)، فمدارسة القرآن سُنة مشهورة، ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩]، وعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله يتلون كتابَ الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نَزَلَتْ عليهم السكينَةُ، وغشيتْهُم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم اللهُ فيمن عنده**». أخرجه مسلم برقم (٢٦٩٩، ٢٧٠٠)، **فيه** مشروعية مدارسة القرآن وكذا غيره من العلوم الشرعية، **وفيه** مشروعية مذاكرة العلم، وتعاهد القرآن، **وفيه** مجالسة الصالحين فإنه ينتفع بهم. **وفيه** أن كثرة زيارة الصالحين لا مانع منها، وقد كان أبوبكر يلقىٰ رسول الله ﷺ كل ليلة، وقلما يأتي يوم إلا وكان رسول الله ﷺ يأتي بيت أبي بكر في مكة قبل البعثة ولا يتعارض هذا مع حديث: «**زُرْ غِبًا تَزْدَدْ حُبًا**». **صحيح لغيره**: أخرجه ابن أبي الدنيا في الإخوان، برقم (١٠٤)، والطبراني (١٤/ ١٣٣)، برقم (١٤٧٥٦)، لأن كثرة الزيارة لتحقيق مصالح فلا بأس بها، ولأن صحبة الصالحين لا يسأمها أهل الإيمان فكلها نفع وبركة، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٥٨٣). أما إن كان لمجرد التزاور فينبغي ألا يكثر منها كي لا يُمل، **وفيه** استحباب الإكثار من قراءة القرآن في رمضان، بما لا يزيد عن ختم القرآن في ثلاث. **وفيه** أن قراءة القرآن ليس المقصود منها مجرد التلاوة، بل القراءة المترسلة مع التفهم والتدبر لمعناها، ولذلك كان يعارضه القرآن، ويختمه ختمة واحدة في جميع شهر رمضان، مع مدارسته إياه للقرآن. **وفيه** قراءة القرآن علىٰ شيخ متقن، متفنن، وأخذ القرآن من شيخ ماهر بالقرآن بالتلقي والسماع. **وفيه** أن قراءة القرآن في رمضان أفضل وأكثر من التسبيح وسائر الأذكار، **وفيه** كما قَالَ **القاضي**: تجديد الإيمان واليقين في قلبه بملاقاة الملك، وخصَّ بذلك: رمضان لوجوه:

أ- أنه شهر فاضل وثواب الصدقة فيه مضاعف، وكذلك العبادات، ب- أنه شهر الصوم، فإعطاء الناس والإحسان إليهم إعانة لهم عَلَىٰ الفطر والسحور، جـ- فالطاعة تأتي بالرزق والخير، والطاعة، د- أن كثرة الجود كالشكر لترداد جبريل إليه في كل ليلة، ا.هـ بتصرف يسير التوضيح (٢/ ٣٥٩- ٣٦١).

وقوله: (فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ)، يعني: أجود

وأسخىٰ بالخير والعمل الصالح إسراعًا وعمومًا في كل ليلة.

وقوله: (حَتَّىٰ يَنْسَلِخَ)، أي: حتىٰ ينقضي الشهر، "وهذه هي الخليقة التي اختارها الله لنبيه، السخاء والجود والبذل، وفضَّله بها وشرفه، وأمرنا بالتأسي به فيها، بخلاف البخل والمنع، إذا كان ذلك البذل علىٰ ما أدَّب اللهُ به نبيَهُ ﷺ". ا.هـ بتصرف تهذيب الآثار (١/ ٨٥- ٨٦).

٧- عن عَبْدَاللهِ بْنَ عَبَّاسٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاسُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ: أَنَّ هِرَقْلَ (وهو ملك الروم ولقبه قيصر) أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ (وهم أولو الإبل العشرة فما فوقها) مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَاسُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ (بيت المقدس)، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ (وهو المفسر لغة بلغة أخرىٰ)، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُوسُفْيَانَ: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي (أي قربوه)، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي (أي إن نقل إليّ الكذب) فَكَذِّبُوهُ. فَوَاللهِ لَوْلاَ الحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ.

ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ. فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ

عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا القَوْلَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا القَوْلَ قَبْلَهُ، لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي (يتبع ويقتدي) بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ، قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ، هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ (ليدع) الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ (قبل أن يظهر رسالته) وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ (بعد إظهارها). وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ. وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ. وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ. وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ، فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ. وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ (بيت المقدس أو الشام كله)، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ (أي أصل) إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ. ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى (أي: أميرها وبصرى مدينة بين المدينة ودمشق وقيل هي حوران)، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِاللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** [آل عمران: ٦٤]» قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ

مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ (هم الروم). فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ. وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ، صَاحِبُ إِيلِيَاءَ (أي: أميرها) وَهِرَقْلَ، سُقُفًّا عَلَىٰ نَصَارَىٰ الشَّأْمِ (رئيس دينهم أو عالمهم أو هو قيم شريعتهم) يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ، أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ (رديء النفس غير طيبها، أي: مهمومًا)، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ (قواده وخواص دولته وأهل الرأي والشورىٰ منهم): قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ (سمتك وحالتك)، قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ: وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ (أي: غلب)، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ (أي: من أهل هذا العصر)؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا اليَهُودُ، فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ (لا يقلقنك)، وَاكْتُبْ إِلَىٰ مَدَايِنِ مُلْكِكَ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ اليَهُودِ. فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ، أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ، وَسَأَلَهُ عَنِ العَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ. ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَىٰ صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ (هي روما عاصمة إيطاليا اليوم وهي مدينة رياسة الروم)، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي العِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَىٰ حِمْصَ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ (أي: لم يبرح من مكانِهِ) حَتَّىٰ أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَىٰ خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ (وهو القصر الذي حوله بيوت) بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الفَلاَحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَىٰ الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَىٰ هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ (قنط) مِنَ الإِيمَانِ، قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا (أي: قريبًا) أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَىٰ دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ (٤٠٨).

أطرافه في: (الإيمان٥١، الشهادات٢٦٨١، الجهاد٢٨٠٤، ٢٩٧٨، الجزية والموادعة٣١٧٤،

(٤٠٨) وأخرجه مسلم (١٧٧٣)، وأبوداود (٥١٣٦)، والترمذي (٢٧١٧)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٠٦٤).

التفسير٤٥٥٣، الأدب٥٩٨٠، الاستئذان٦٢٦٠، الأحكام٧٠٩٦).

الشرح

قوله: (أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاسُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ)، واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبدمناف ابن قُصَيّ القرشيّ الأمويّ المكيّ(٤٠٩).

قوله: (وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ)، تقرأ هكذا، وأيضًا (تِجارًا) بالكسر والتخفيف جمع تاجر

قوله: (فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَاسُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ) أي: في مدّة الصلح التي عَقَدَتْها مع رسول الله ﷺ، وكانت في سنة ست، وكانت مدتها عشر سنين. كما في السيرة، حسن: صحيح أبي داود برقم (٢٧٦٦)

قوله: (فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ)، "ثم دعاهم"، اي معناه أمر بإحضارهم، فلما حضروا وقعت مهلة ثم استدناهم -دعاهم ليتقربوا منه- "ودعا ترجمانه"، يعني: احضر الترجمان ثم أمره بالجلوس إلىٰ جنب أبي سفيان ليعبر عنه بما أراد.

وفي لفظ: "**قال: فجاءني الرسول فانطلق بي حتىٰ أُدخلنا عليه وهو في بيت المقدس وعلىٰ رأسه التاج، وعنده عظماء الروم**". سيأتي برقم (٢٩٤١).

قوله: (فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ)، يعني: أن أبا سفيان كان أقرب التجار الذين جاءوا من مكة إلىٰ الشام، إلىٰ النبي ﷺ حينئذٍ نسبًا

---

(٤٠٩) أسلم ليلة الفتح، وشَهِد الطائف، وحُنينًا، وهو والد معاوية - رضي الله عنهما -، وأعطاه النبيّ ﷺ من غنائم حنين مائة من الإبل، وأربعين أوقية، وفُقئت عينه الواحدة يوم الطائف، والأخرىٰ يوم اليرموك تحت راية ابنه يزيد، فنزل بالمدينة، ومات بها سنة إحدىٰ وثلاثين، وقيل: سنة أربع، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وصلىٰ عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه.

فائدة: ليس لأبي سفيان في الصحيحين غير هذا الحديث، ولم يروه عنه إلا ابن عباس رضي الله عنهما-.

وفيه دليلٌ علىٰ أنّ أقارب الإنسان أولىٰ بالسؤال عنه من غيرهم من أجل أنه لا ينسب إلىٰ قريبه ما يلحقه به عار في نسبه عند العداوة لكونه أحرىٰ بالاطّلاع علىٰ ظاهره وباطنه أكثر من غيره، وطلب من أصحابه أن يكذبوه إنْ كَذَبَ.

قوله: (أنا أقربهم نسبًا)، أي: من حيث النسب، وأقربية أبي سفيان لكونه **من بني عبد مناف** وهو الأب الرابع للنبي ﷺ، ولأبي سفيان، وفي رواية: **"قال: أبوسفيان: ولم يكن في القوم رجل من بني عبدشمس غيري، قال: ما قرابة بينك وبينه؟ قلت: هو ابن عمي، قال: أدنو هذا مني! فأدنوني منه"**. أخرجه أبو عوانة برقم (٧١٧٨، ط: الجامعة الإسلامية).

قوله: (وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ)، قال بعض العلماء: إنما فعل ذلك؛ ليكون عليهم أهون في تكذيبه إنْ كَذَبَ؛ لأن مقابلته بالكذب في وجهه صعبة، بخلاف ما إذا لم يستقبله، ذكره **النوويّ**.

وفيه أنّ خبر الجماعة أوقع من خبر الواحد، ولا سيّما إذا كانوا جَمْعًا.

قَوْلُهُ: (فَوَاللهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ)، أيْ: يَنْقُلُوا عنِّيَ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ عَلَيْهِ، وقال لهم: **"إن كذبني فكذبوه، وإن صدقني فصدقوه"**. ذكره ابن بطال في شرحه (١/ ٤٥).

فيه أنّ الكذب مهجور في كل أمة، ومعيبًا في كل ملة، ولا سيما عند العرب، وأنه مذموم في الجاهلية، والإسلام، **وفيه** أنّ العدو لا يؤمن عليه الكذب علىٰ عدوه، وكذلك لا يَجوز شهادته علىٰ عدوه.

وفيه ان مع وجود العداوة، وتوفر دواعي الكذب عليه، كونه كافر لا يخاف إثم الكذب، ومع ذلك كله تركه استحياء وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا فيصير عند سامعي ذلك كذابًا.

قال **القرطبيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنما وقع له هذا في ذلك الوقت؛ لشدَّة عداوته للنبيّ ﷺ، وحسده، وحرصه علىٰ إطفاء نوره، ﴿**وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**﴾ [التوبة: ٣٢].

قوله: (قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ)، وفي رواية للمصنف: **"كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ"**، قال **الفيروز أبادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الْحَسَبُ"**: ما

تعُدّه من مفاخر آبائك، أو المال، أو الدِّين، أو الكرم، أو الشرفُ. القاموس المحيط (ص ٧٤).

وأما **النسب**: فهو الإدلاء من جهة الآباء. كأنه أجاب بقوله: هو فينا ذو نسب كبير، أو حسبٍ رفيعٍ، ووقع في رواية ابن إسحاق: **"كيف نسبه فيكم؟ قال: في الذِّرْوَة"**، فكأنه قال: هو من أعلانا نسبًا، وفي حديث دحية عند البزار: **"حَدِّثْنِي عن هذا الذي خَرَج بأرضكم، ما هو؟ قال: شابّ، قال: كيف حسبه فيكم؟ قال: هو في حسب، ما لا يُفَضَّل عليه أحدٌ، قال: هذه آية"**.

وفيه أن الرسل تُرسَل في أكرم الأنساب، ومثله الخليفة ينبغي أن يكون من أشرف قومه.

قوله: (قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا القَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ)، فقوله: **"منكم"**، أي: من قومكم يعني قريشًا أو العرب، **وفيه**: أن الإمام وكل من حاول مطلبًا عظيمًا إذا لم يتأس بأحد تقدمه من أهله ولا طلب رئاسة سلفه كان أبعد للمظنة به، وأبرأ لساحته. قاله ابن بطال.

قوله: (قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ) فقلت: أي في نفسي بمقتضىٰ رأيي لو كان من آبائه ملِك أي لو كان ظهر منهم سلطان، قلتُ رجل يطلبُ ملكَ آبائه، أي: سلطنتهم، كما في المرقاة (١٧/ ٦٨).

قَوْلُهُ: (فَأَشْرَافُ النَّاسِ)، وقد ثبت للمصنف في التفسير ولفظه: **"أيتبعه أشراف الناس"**، والمراد بالأشراف هنا: أهل الحسب والنسب، والجاه والمنصب، وذوو المكانة العالية الرفيعة.

وقوله: (يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ)، وفي رواية ابن إسحاق: **"تبعه منا الضعفاء والمساكين فأما ذوو الأنساب والشرف فما تبعه منهم أحد"**، وهو محمول علىٰ الأغلب.

وفي الحديث: «**قالت الجنة: يدخلني الضعفاء، والمساكين**». أخرجه مسلم برقم (٢٨٤٦)، وعن النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم علىٰ أهل الجنة؟**»، قالوا: بلىٰ، قال: «**الضعفاء المتظلمون**»، ثم قال: «**ألا أدلكم علىٰ أهل النار؟**»، قالوا: بلىٰ، قال: «**كل شديد جعظري**». **صحيح**: أخرجه أحمد برقم (٢٣١٣١)، وكان من دعائه المشهور: «**اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**». **صحيح**: أخرجه الترمذي برقم (٢٣٥٢)، وهو في الصحيحة برقم (٣٠٨)، وصحيح

الترغيب والترهيب برقم (٣١٩٢)، قال **ابن بطال**: "إن كان يعاديه أشراف الناس فهي دلالة علىٰ نبوته، وأما ضعفاؤهم الذين لا تتكبر نفوسهم عن اتباع الحق حيث رأوه ولا يجد الشيطان السبيل إلىٰ نفخ الكبرياء في نفوسهم، فهم متبعون للحق حيث سمعوه لا يمنعهم من ذلك طلب رئاسة ولا أنفة شرف".

قوله: (قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ)، قال **ابن رجب**: "ومقصوده أنّ الإيمان يزيد حتىٰ يتم، وأن الدين هو الإيمان؛ فإنه سأله: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ ثم أجاب بأن الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد". فتح الباري (١/ ٢٢٢)، **فيه** أن الإيمان يزيد وينقص.

وفيه أنّ الإيمان إذا خالط القلب، وكان الرجل سليم الاعتقاد، يكون راسخًا رسوخ الجبال في قلبه، لا يتزلزل، ولا يتزعزع، فيكون الرجل من أهل السنة، أكثر ثباتًا وطمأنينة، وليس فيه تذبذب.

وفيه دليلٌ علىٰ أن زيادة الأتباع بدعوة الناس إلىٰ ما دعا رسول الله ﷺ الناس إلىٰ الإسلام الأول وهو التعليم بالكتاب والسنة، فيدخل الناس في دين الله أفواجًا.

وفيه أنه ينبغي ألّا نشغل أنفسنا بكثرة الأتباع، ولا نحرص علىٰ ذلك، لكن نحرص علىٰ هداية الناس، وأن نفرح النبي ﷺ بتكثير أمته، بقيامنا بالدعوة إلىٰ الكتاب والسنة، وكثرة التزوج، وكثرة النسل، «**فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**». **صحيح**: ينظر تخريجه في الإرواء برقم (١٧٨٤).

قوله: (قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ)،

قوله: (سَخْطَةً لَهُ؟)، والسُّخط: كراهة الشيء، وعدم الرضا به، يريد أن مَن دخل في الدين علىٰ بصيرة يَبْعد رجوعه عنه، وكان من دعاء النبي ﷺ لأصحابه: «**اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم علىٰ أعقابهم**». متفق عليه. وكان من دعائه: «**اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد**». **إسناده حسن**: الصحيحة (٥/ ٣٧٩). فأصحابه الذين هم أصحابه حقًا وتربوا علىٰ يديه لا تعرف فيهم ردة ولله الحمد، بل هم الذين قاتلوا المرتدين.

قوله: (فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ ...)، أي: علىٰ الناس بالكذب، **وفيه**: أن من أخبر بحديث وهو معروف بالصدق أنه يصدق فيه، وإن كان معروفًا بالكذب أنه لا يقبل حديثه.

قوله: (فَهَلْ يَغْدرُ؟ ...) والغدرُ: هو عدم الوفاء بالعهد.

قوله: (وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ) قال **النوويّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: مدّة الْهُدْنة والصلح الذي جرىٰ يوم الحديبية".

قوله: (لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا) أي هل سيغدر أم لا ؟ "قُلْتُ: لَا"؛ أي: لم يغدر فيما مضىٰ من الزمن.

قوله: (وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الكَلِمَةِ)، أي: أنتقصه بها، وقد كان معروفًا عندهم بالاستقراء من عادته أنه لا يغدر، قال **أبو العباس القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: أنه كان يعلم من خُلُق رسول الله ﷺ الوفاء، والصدق، وأنه يفي بما عاقدهم عليه، لكن لمّا كان المستقبل غير معلوم ذكر احتمال عدم الوفاء". المفهم (٣/ ٦٠٤) بتصرف.

قوله: (فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ)، وفي حديث دحية: "هل ينكب إذا قاتلكم؟ قال: قد قاتله قوم فهزمهم، وهزموه، قال: هذه آية". كشف الأستار علىٰ زوائد البزار (٣/ ١١٧)، برقم (٢٣٧٤)، وسِجَالًا: قالوا: وأصله من المستقين بالسَّجْل، وهي الدلو الملأىٰ، يستسقون كل تكون له نوبه يكون لكل واحد منهما سَجْلٌ، قاله **النوويّ**.

قوله: (يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ): وفي رواية: "**يُصِيبُ مِنَّا، وَنُصِيبُ مِنْهُ**"؛ أي: يُصيب بعضنا بالقتل، ونصيب بعض أتباعه بالقتل، فكأنه شبّه المحاربين بالمستقين: يستقي هذا دلوٌ، وهذا دلوٌ، وأشار أبوسفيان بذلك إلىٰ ما وقع بينهم في غزوة بدر، وغزوة أُحد، وقد صرّح بذلك يوم أُحد في قوله: "يومٌ بيوم بدر، والحرب سجال.

وقعت المقاتَلة بين النبيّ ﷺ وبين قريش قبل هذه القصّة في ثلاثة مواطن: بدرٍ، وأُحُدٍ، والخندق، فأصاب المسلمون من المشركين في بدر، وعكسه في أُحد، وأصيب من الطائفتين ناس قليل في الخندق.

قَوْلُهُ: (يَقُولُ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ) وجاء في بعض الروايات: "فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال: نعم، فقرأ عليه (سورة مريم) فبكىٰ النجاشي وأساقفته، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسىٰ يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا والله ما أسلمهم إليكما أبدًا".

وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ أمر يحيىٰ بنَ زكريا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بها، ويأمرَ بني إسرائيلَ أن يعملوا بها ...**»، وفيه: «**أن تعبدوا اللهَ ولا تشركوا به شيئًا ...**». **صحيح**: صحيح الترمذي برقم (٢٨٦٣)، وهو في صحيح الترغيب برقم (٥٥٢). وفي الحديث معاذ (أتدري ما حق الله علىٰ العباد....) وكل هذا وغيره يدل دلالة واضحة علىٰ أن دعوة التوحيد لابد فيها، وأن أية دعوة لاتقوم علىٰ هذا الأساس فهي دعوة فارغة، هشة لاخير ولابركة فيها

قوله: (واتركوا ما يقول آباؤكم)، هي كلمة جامعة لترك ما كانوا عليه في الجاهلية.

قَوْلُهُ: (وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالعَفَافِ وَالصِّلَةِ)، والعفاف الكف عن المحارم وخوارم المروءة.

قوله: (سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ)، وحاصل الجميع ثبوت علامات النبوة في الجميع، فالبعض مما تلقّفه من الكتب، والبعض مما عرفه بالعادة.

قوله: (فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا)، قال **النوويّ** رحمه الله: "يعني: يبعثون في أفضل أنسابهم، وأشرفها، قيل: الحكمة في ذلك أنه أبعد من انتحاله الباطل، وأقرب إلىٰ انقياد الناس له". شرح النووي (١٢/ ١٠٥).

قوله: (وَسَأَلْتُكَ عَنْ أتبَاعِهِ، أَضُعَفَاؤُهُمْ، أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرّسُلِ)؛ معناه: أن أتباع الرسل في الغالب هم الضعفاء والمساكين لا أهل الجاه والرئاسة، لنعلم أن هذه الدعوة منصورة قوية بما فيها من الحق لذلك و (بالحق ظاهرين).

قوله: (وهم أتباع الرسل)، فَلِكَوْن الأشراف يَأنَفُون من تقدّم مثلهم عليهم، والضعفاء لا يأنفون، فيُسرعون إلىٰ الانقياد، واتِّباع الحق.

وقال **القرطبيّ** رحمه الله: "إنما كان أتباع الرسل الضعفاء؛ لاستيلاء الرئاسة علىٰ الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنَفَة من الانقياد للغير، والضعيف خَلِيّ عن تلك الموانع، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا، وإلا فقد ظهر أن السُّباق للإسلام كانوا أشرافًا في الجاهلية والإسلام، كأبي بكر، وعمر، وحمزة، وغيرهم من الكبراء والأشراف رضي الله عنهم". المفهم (٣/ ٦٠٤-٦٠٥)بتصرف.

قوله: (وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ)، فإنه لا يزال في زيادة، وقوله: (حَتَّىٰ يَتِمَّ)، أي: أمر الإيمان؛ لأنه يظهر نورًا، ثم لا يزال في زيادة، حتىٰ يتم بالأمور المعتبَرة فيه، من صلاة، وزكاة، وصيام، وغيرها، ولهذا نزلت في آخر سنيّ النبيّ ﷺ: ﴿**اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾ الآية [المائدة: ٣]، ومنه: ﴿**وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**﴾ الآية [التوبة: ٣٢]، وكذا جرىٰ لأتباع النبي ﷺ لم يزالوا في زيادة، ودخل الناس في دين الله أفواجا وفي هذا دليل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص ، فالإسلام يلعو ولا يعلىٰ عليه، حتىٰ كَمُل بهم ما أراد الله من إظهار دينه، وتمام نعمته، فله الحمد والمنّة. قاله في الفتح.

قوله: (وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ)،

قال **القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصل البشاشة: التلطف، والتأنس عند اللقاء، يقال: بَشّ به، وبشبش، ومعنىٰ هذا أن القلوب المنشَرِحَة إذا سمعت الإيمان، وأصغت إليه بشَّت له، ورحّبت بلقائه، كما يُفْعَل بالغائب عند اللقاء، ثم إذا حَلَّ الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه، وتوالت عليه أنواره، حتىٰ يَكره أن يعود في الكفر، كما يَكره أن يُقْذَف في النار". المفهم (٣/ ٦٠٥)، **وفيه** ثبات أهل الحق أهل الحديث والأثر، وأنهم لايضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ الموت، قال **شيخ الإسلام**: "وكذلك ما يوجد من رجوع أئمتهم -أي أئمة البدع- إلىٰ مذهب عموم أهل السنة وعجائزهم كثير، وأئمة السنة والحديث لا يرجع منهم أحد؛ لأن: الإيمان حين يخالطُ بشاشته القلوب لا يسخطه أحد". مجموع الفتاوي (٤/ ٢٣).

قوله: (وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ)، **وفيه** أن من علامات الرسل، أنهم لا تغدر، ولكن تبتلىٰ ليعظم لها الأجر ولمن اتبعها، ولئلا يخرج الأمر عن العادة، ولو أراد الله إخراج الأمر عن العادات لجعل الناس كلهم له متبعين، ولقذف في قلوبهم الإيمان به، ولكن أجرىٰ الأمور علىٰ العادة بحكمة بالغة؛ ليكون فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قوله: (لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ)، أي: كنت أعلم أن نبيًّا سيُبعث في هذا الزمان، لكن لم أعلم تعيين جنسه؛ لأنّ اعتماد هرقل في ذلك كان علىٰ ما اطّلع عليه من خروجه في آخر الزمان من ولد إسماعيل، كما في الإسرائيليات. قاله في الفتح بتصرف، وقال **القرطبيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: "ولم

أكن أظن أنه منكم"، كأنه استبعَدَ أن يكون نبيّ من العرب، لِمَا كانوا عليه من الأعمال الجاهلية، والطبيعة الأمية، والحالة الضعيفة المزرية، وتمسّكًا بكثرة الرسل في الملة الإسرائيلية، وقد كان كل ذلك، لكنْ جَبَرَ اللهُ صَدْعَ هذه الأمة؛ بأن اختصهم بهذا الرسول العظيم؛ الذي شرّفهم به، وكرّمهم حتىٰ صيّرهم خير أمة، والحمد لله علىٰ هذه النعمة". المفهم (٣/ ٦٠٧)، قال **المازريّ**: "هذه الأشياء التي سأل عنها هرقل ليست قاطعة علىٰ النبوة، إلا أنه يَحْتَمِل أنها كانت عنده علامات علىٰ هذا النبيّ بعينه؛ لأنه قال بعد ذلك: "قد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنّ أنه منكم". الفتح (١/ ٧٨).**وفيه** البيان الواضح أن صدق رسول الله ﷺ، كان معلومًا لأهل الكتاب علمًا قطعيًّا، وإنما تَرَكَ الإيمان مَنْ تَرَكه منهم عنادًا، أو حسدًا، أو خوفًا علىٰ فوات مناصبهم في الدنيا.

قوله (لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ)، وفي لفظ: "لأحببت لقاءه". سيأتي برقم (٤٥٥٣)، (**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**)، قال **النوويّ**: "قوله: "لتجشمت لقاءه"؛ أي: تكلّفت الوصول إليه، وتحملت المشقّة في ذلك، قال: ولا عذر له في هذا؛ لأنه قد عَرَفَ صفة النبيّ ﷺ، لكنه شحَّ بملكه، ورغب في بقاء رياسته، فآثرها علىٰ اتّباعه ﷺ، وقد جاء ذلك مصرَّحًا من قول النبي ﷺ، ولو أراد الله هدايته لوفّقه كما وفّق النجاشيّ، وما زالت عنه الرئاسة. ا.هـ بتصرف يسير شرح النووي (١٢/ ١٠٧).

قوله: (وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ، لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ)، أي: إكرامًا له، واحترامًا، ومبالغة له في الخدمة، زاد عبدالله بن شداد، عن أبي سفيان: "**لو علمت أنه هو لمشيتُ إليه، حتىٰ أُقَبِّل رأسه، وأغسل قدميه**". **صحيح** أخرجه سعيد بن منصور (٢٤٧٩)، والطبراني في الكبير (٧٢٧٤)، وفيها: "**ولقد رأيت جبهته تتحادر عَرَقًا من كرب الصحيفة**"؛ يعني: لَمّا قُرئ عليه كتاب النبيّ ﷺ، وفي اقتصاره علىٰ ذكر غسل القدمين إشارة منه إلىٰ أنه لا يَطلب منه ولاية، ولا منصبًا، وإنما يطلب ما تحصل له به البركة، وهذا الكلام منه لا يدلّ علىٰ إسلامه كما جاء عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ينطلق بصحيفتي هذه إلىٰ قيصر، وله الجنة؟**» "فقال رجل من القوم: وإن لم أقتل؟ قال: «**وإن لم تقتل**»، فانطلق الرجل به، فوافق قيصر وهو يأتي بيت المقدس، قد جُعِل له بساط لا يمشي عليه غيره، فَرَمَىٰ بالكتاب علىٰ البساط وتنحَّىٰ، فلما انتهىٰ قيصر إلىٰ الكتاب أخذه، ثم دعا رأس الجاثليق -(رئيس للنصارىٰ) يكون تحت يد بطريق أنطاكية- فأقرأه، فقال: ما علمي بهذا الكتاب إلا كعلمك، فنادىٰ قيصر: من صاحب الكتاب؟ فهو آمن، فجاء الرجل فقال: إذا أنا

قدمتُ فأتني، فلما قدم أتاه، فأمر قيصر بأبوابِ قصره فغلقت، ثم أمر مناديًا ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمدًا ﷺ وترك النصرانية، فأقبل جنُدهُ وقد تسلَّحوا حتىٰ أطافوا بقصره، فقال لرسول رسول الله ﷺ: قد ترىٰ أني خائف علىٰ مملكتي، ثم أمر مناديًا فنادىٰ: ألا إنّ قيصر قد رضي عنكم، وإنما خبركم لينظر كيف صبركم علىٰ دينكم، فارجعوا، فانصرفوا، وكتب قيصر إلىٰ رسول الله ﷺ: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ حين قرأ الكتاب: «**كذَبَ عدُوُّ الله، ليس بمسلم، وهو علىٰ النصرانية، وقسم الدنانير**». صحيح: صححه شيخنا الألباني في فقه السيرة (ص ٣٥٦)، وصحيح موارد الظمآن برقم (١٣٥١).

فائدة: قال **أبو العباس القرطبيّ**: "إذا تأملتَ هذا الحديث علمتَ فِطنة هرقل، وجوّدة قريحته، وحسن نظره، وسياسته، وتثبّته، وأنه عَلِم صحة نبوَّة نبينا محمد ﷺ، وصدقه، غير أنه ظهر منه بعد هذا ما يدلّ علىٰ أنه لم يؤمن، ولم ينتفع بذلك العلم الذي حصل له، فإنه هو الذي جيَّش الجيوش علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، وقاتلهم، وألّب عليهم، ولم يقصِّر في تجهيز الجيوش عليهم، وإرسالهِ إليهم الجموع العظيمة من الروم وغيرهم الكرَّة بعد الكرَّة، فيهزمهم الله ويهلكهم، ولا يرجع إليه منهم إلا فُلُّهم، واستمر علىٰ ذلك إلىٰ أن مات، وقد فتح الله علىٰ المسلمين أكثر بلاد الشام، ثم وَلي ولدَهُ بعده، وعليه فتحت جميع البلاد الشامية، وبهلاكه هلكت المملكة الرومية". المفهم (٣/ ٦٠٢).

قوله: **(مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِاللهِ وَرَسُولِهِ)**، **فيه** إشارةٌ إلىٰ أن رسل الله، وإن كانوا أكرم الخلق علىٰ الله، فهم مع ذلك عبيد الله. **وفيه** إشارةٌ إلىٰ بطلان ما تدّعيه النصارىٰ في عيسىٰ -عليه السلام-، **وفيه** أن السُّنَّة أن يبدأ المرسِل بنفسه في الكتاب، وهو قول الجمهور، **وفيه** وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا لم يكن لِبَعْثه مع دحية فائدة، **وفيه** ما قال **الخطابيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: في هذا الخبر دليل علىٰ أن النهي عن المسافرة بالقرآن إلىٰ أرض العدوّ، إنما هو في حمل المصحف، والسُّوَر الكثيرة، دون الآية، والآيتين، ونحوهما، **وفيه** أنه استدلّ بعضهم به علىٰ جواز مسّ المُحْدِث، والكافر كتابًا فيه آية، **وفيه** جواز االسفر إلىٰ أرض الكفار، بشرطه.

قوله: **(إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ)**، أي: الذي تعظّمه الروم، وقد أمر الله تعالىٰ بتليين القول لمن يُدْعَىٰ إلىٰ الإسلام قال تعالىٰ: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا**﴾ [طه: ٤٤]، قال **القرطبيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ:

مخاطبته باستلطاف وتأنيسه واستئلافه، فإنه كان معظَّمًا في الروم، وكان أعظم ملوكهم". المفهم (٣/ ٦٠٨)، **وفيه** مشروعيّة مكاتبة الكفّار، وقد كاتب النبيّ ﷺ سبعة من الملوك، فيما قاله الداوديّ: هرقل، وكسرىٰ، والنجاشيّ، والمقوقس، وملك غسّان، وهوذة بن عليّ، والمنذر بن ساوىٰ، **وفيه** جواز تأليف الكتب والرسائل العلمية والدعوية.

وفيه دليل لمن قال بجواز معاملة الكفار بالدراهم المنقوشة، فيها اسم الله تعالىٰ؛ للضرورة،

قوله: **(سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدَىٰ)**، قال **أبو العباس القرطبيّ** رحمه الله: "فيه عدول عن السلام عليه؛ لأن الكافر لا يُفاتَح بالسلام إلىٰ التعريض له باتباع طريق الهداية، وقد رأىٰ بعض أهل العلم أن السلام علىٰ أهل الكفر والبدع هكذا يكون". المفهم (٣/ ٦٠٨)، وقال **النوويّ** رحمه الله: "هذا دليل لمن يقول: لا يُبتدأ الكافر بالسلام". ا.هـ مختصرًا شرح النووي (١٢/ ١١٠)، ففي "صحيح مسلم" (٢٢٢٣): أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تبدؤا اليهود والنصارىٰ بالسلام**»، الحديث. وقال البخاريّ وغيره: ولا يسلِّم علىٰ المبتدع، ولا علىٰ من اقترف ذنبًا كبيرًا، ولم يتب منه، ولا يردّ عليهم السلام.

قوله: **(أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ)**، أي: بدعوته، وهي كلمة الشهادة التي يُدْعىٰ إليها أهل الملل الكافرة. قال **النوويّ** رحمه الله: هو بكسر الدال؛ أي: بدعوة الإسلام، وهي كلمة التوحيد، وقال في الرواية الأخرىٰ التي ذكرها مسلم برقم (١٧٧٣)،«**أدعوك بداعية الإسلام**". ا.هـ بتصرفٍ يسير شرح النووي (١٢/ ١١٠). **وفيه** استحباب "أما بعدُ" في المكاتبة، والخطبة. **وفيه** دعاءَ الكفار إلىٰ الإسلام قبل قتالهم، وهو واجب.

قوله: **(أَسْلِمْ تَسْلَمْ)**، أي: ادخل في دين الإسلام تسلم في الدنيا من الخزي، وفي الآخرة من العذاب. وقال في "الفتح": "هو غاية في البلاغ، وفيه نوع من البديع، **وفيه** بشارة لمن دخل في الإسلام أنه يَسْلَم من الآفات ولا يختص هذا بهرقل قوله: «**أسلم يؤتك الله أجرك مرتين**»؛ لأن ذلك عامّ في حقّ من كان مؤمنًا بنبيّه، ثم آمن بمحمد ﷺ". **ينظر**: البحر المحيط الثجاج (٣١/ ٤٥)، **وفيه** استحبابَ البلاغة، والإيجاز، وتحري الألفاظ الْجَزْلة في المكاتبة، فإن قوله: "أسلم تسلم" في نهاية الاختصار، وغاية الإيجاز والبلاغة، وجمع المعاني.

قوله: **(يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ)**، أي: باتباعه لدين عيسىٰ -عليه السلام-، وباتباعه لدين محمد ﷺ، قال **القرطبيّ**: "وهذا كقوله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرَّتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه، ثم أدرك النبيّ ﷺ، فآمن به واتبعه، فله أجران**». متفق عليه. **وفيه** أن من أدرك من أهل الكتاب نبينا ﷺ، فآمن به، فله أجران، **فائدة**: قال **الحافظ**: "واستنبط منه شيخنا يعني: **البلقينيّ** رحمه الله- أن كلَّ من دان بدين أهل الكتاب كان في حكمهم في المناكحة، والذبائح؛ لأن هرقل هو وقومه ليسوا من بني إسرائيل، وهم ممن دخل في النصرانية بعد التبديل، وقد قال له ولقومه: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾، فدلّ علىٰ أن لهم حكمَ أهل الكتاب، خلافًا لمن خصَّ ذلك بمن عُلم أن سلفه ممن دخل في اليهودية، أو النصرانية قبل التبديل". ا.هـ قال **الإثيوبي** رحمه الله: "وهو استنباط حسن، والله تعالىٰ أعلم". البحر الثجاج (٣١/ ٤٦).

قوله: **(فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ)**، قال **النووي**: حذره النَّبِيّ ﷺ إذ كان رئيسًا متبوعًا مسموعًا أن يت عليه إثم الكفر وإثم من عمله واتبعه. قَالَ ﷺ: «**ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**». أخرجه مسلم برقم (١٠١٧).

وفيه أن من كان سببًا لضلالة، أو مَنْع هداية كان آثمًا، متحمّلًا لأوزار من تبعوه في ذلك.

واختلفوا في المراد بالأريسيين علىٰ أقوال: أصحها، وأشهرها: أنهم الأكّارون؛ أي: الفلاحون، والزرّاعون، **ومعناه**: إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك، وينقادون بانقيادك، ونبّه بهؤلاء علىٰ جميع الرعايا؛ لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا، فإذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا، وهذا القول هو الصحيح، وقد جاء مصرَّحًا به في رواية في "كتاب دلائل النبوة" للبيهقيّ، وفي غيره: "**فإن عليك إثم الأكّارين**"، وفي رواية ذكرها **أبوعبيد** في "كتاب الأموال" (ص ٣٠)، برقم (٥٥): "وإن لم تدخل في الإسلام، فلا تَحُلْ بين الفلاحين وبين الإسلام" وفي رواية ابن وهب: "**وإثمهم عليك**"، قال **أبوعبيد**: ليس المراد بالفلاحين: الزراعين خاصّة، بل المراد بهم: جميع أهل مملكته، وقال **الحافظ**: " ولا يعارَض هذا قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لأن الوزر الإثم لا يتحمله غيره، ولكن الفاعل المتسبِّب والمتلبِّس بالسيئات يَتَحَمَّل من جهتين: جهةِ فعله، وجهة تسبّبه". الفتح (١/ ٣٩) بتصرف.

قوله: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ...)، قال **القرطبيّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾: اليهود، والنصارىٰ، نُسبوا إلىٰ الكتابين المنزلين علىٰ موسىٰ وعيسىٰ -عليهما السلام-، {**تَعَالَوْا**} بمعنىٰ أجيبوا إلىٰ ما دُعيتم إليه، وهو الكلمة العادلة المستقيمة، التي ليس فيها ميل عن الحقّ، وقد فسّرها بقوله: ﴿**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ**﴾: "أربابًا": جمع ربّ، ﴿**فَإِنْ تَوَلَّوْا**﴾: أعرضوا عمَّا دُعُوا إليه، ﴿**فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾". المفهم (٣/ ٦٠٩). قال **الحافظ**: "قد اشتَمَلت هذه الْجُمَل القليلة التي تضمَّنها هذا الكتاب علىٰ الأمر بقوله: "أسلم"، والترغيب، والترهيب وفي ذلك من البلاغة ما لا يخفىٰ، وكيف لا؛ وهو كلام من أُوتي جوامع الكلم ﷺ". الفتح (١/ ٣٩).

قوله: (كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ)، أي: اللَّغَطُ، وهو اختلاط الأصوات في المخاصمة، وفي رواية: "**فلا أدري ما قالوا**".

وقوله: (فَقُلْتُ لأصحابي)، زاد في رواية: "**حِينَ خَلَوْتُ بهم**".

قوله: (لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ) قال **النوويّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمّا "أَمِرَ"، أي: عَظُم، وأما قوله: "ابن أبي كبشة، وقيل: إن أبا كبشة جدّ النبيّ ﷺ من قبل أمه، قاله ابن قتيبة، وكثيرون، **وهو الصواب** -إن شاء الله- وقيل غير ذلك". ا.هـ بتصرف شرح النووي (١٢/ ١١٠).

قوله: (فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ)، أي: سيغلب علىٰ المشركين، وفي حديث عبد الله بن شداد، عن **أبي سفيان**: "**فما زلت مَرْعُوبًا من محمد، حتىٰ أسلمت**". تقدم تخريجه قريبًا.

قوله: (حَتَّىٰ أَدْخَلَ اللهُ عَلَيَّ الإِسْلَامَ)، أي: فأظهرت ذلك اليقين، وليس المراد أن ذلك اليقين ارتفع. **فيه** أن الهداية بيد الله وحده.

قوله: (وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ)، وهو بالعربية حارس البستان "..

قوله: (وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ)، ويقال فيه: الحازي وهو المتكهن.

قوله: (إني رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان قد ظهر): **فيه** تحريم التنجيم ولو صدق، **وفيه** وجوب الختان وأنه من شعائر الإسلام.

قوله: (لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا اليَهُودُ)، أجابوا حسب علمهم لأن اليهود كانوا بإيلياء تحت

الذلة مع النصارىٰ بخلاف العرب.

قوله: (اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا)، **فيه** يجوز النظر للعورة لمصلحة الطب ونحوه.

قوله: (فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ) يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتتبعوا هذا الرجل. **وفيه** أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

قوله: (فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَىٰ الأَبْوَابِ)، أي: كحيصة حمر الوحش شبه نفرتهم وجهلهم مما قال لهم هرقل، وأشار إليهم من اتباع الرسول ﷺ بنفرة حمر الوحش؛ لأنها أشد نفرة من سائر الحيوانات ويضرب المثل بشدة نفرتها. وقال بعضهم: شبههم بالحمر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل في عدم الفطنة بل هم أضل. **وفيه** أن الأتباع قد يكونوا من أسباب المنع من إتباع الحق

قوله: (فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ)، يشير إلىٰ أنه لم يثبت إسلامه بحسب الظاهر. قال **الحافظ**: "أي فيما يتعلق بهذه القصة المتعلقة بدعائه إلىٰ الإيمان خاصة". الفتح (١/ ٤٣). وتقدم قوله ﷺ: «**كذب عدو الله، وليس بمسلم**». **وفيه** أن الملك والجاه والمال كل هذا يصد عن إتباع الحق والنية.

انتهىٰ شرح كتاب بدء الوحي والله الموفق لا شريك له

٢- كِتَابُ الإِيمَانِ



٢- كِتَابُ الإِيمَانِ

قوله: (كِتَابُ الإِيمَانِ)، الإيمان هو: قولٌ باللِّسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قال **أبومحمد عبدالرحمن بن أبي حاتم**: "سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين وما أدركنا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدون من ذلك فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص".

وقال **اللالكائي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "واختيارنا أن الإيمان قول وعمل إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان مثل الصلاة والزكاة لمن كان له مال، والحج لمن استطاع إليه سبيلًا، وصوم شهر رمضان، وجميع فرائض الله التي فرض علىٰ عباده العمل بها من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص". شرح أصول إعتقاد أهل السنة (١/ ٢٠٢).

وقال: "وبه قال من الفقهاء: مالك بن أنس وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون والليث بن سعد والأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن جريج وسفيان بن عيينة وفضيل بن عياض ونافع بن عمر الجمحي ومحمد بن مسلم الطائفي ومحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان والمثنىٰ بن الصباح والشافعي وعبد الله بن الزبير الحميدي وأبو إبراهيم المزني وسفيان الثوري وشريك وأبو بكر ابن عياش ووكيع وحماد بن سلمة وحماد بن زيد ويحيىٰ بن سعيد القطان وعبد الله بن المبارك وأبو إسحاق الفزاري والنضر بن محمد المروزي والنضر بن شميل وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وأبوثور وأبوعبيد". المصدر السابق (٤/ ٩١٣).

وهذا الذي عليه جماعة أهل السنة والحديث والأثر: أن الإيمان قول، وعمل، واعتقاد بالقلب، وأنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وأنه يتجزأ ويتبعض، وأنه يتفاوت، وأن الأعمال جميعًا داخلة في الإيمان غير منفصلة عنه، وأن له أصلًا وفرعًا، ومنه الواجب والمندوب.

والأدلة علىٰ هذا كثيرة جدًا، ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة منها، وسيأتي المزيد -إن شاء الله-.

وأما من خالف من أهل البدع فكلهم متفقون علىٰ أنّ الإيمان شيءٌ واحدٌ لا يتجزأ ولا يتبعض، وهذا أصلُ منشأ بدعة الخوارج والمرجئة، فالخوارج قالوا: إن الإيمانَ إنْ ذهبَ بعضُهُ ذهب كلهُ، والمرجئة علىٰ النقيض من ذلك، قالوا: إنَّ الإيمان باقٍ كاملًا، فلا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

حتىٰ قالوا: إن إيمانهم كإيمان الملائكة المقربين، قَالَ **عبد الملك بن محمد** قال: حدثنا **الأوزاعي** قال: "ثلاثٌ هنَّ بدعة: أنا مؤمن مستكمل الإيمان، وأنا مؤمن حقا، وأنا مؤمن عند الله تعالىٰ"[٤١٠]. لا بأس به.

ومن الأدلة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص ما جاء في رواية **أبي هريرة** أن النبي ﷺ قال:«**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**». متفق عليه.

وقوله ﷺ: «...، **فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**».أخرجه مسلم (٤٩). وَفِي لَفْظٍ: «**لَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**».

وَعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ: فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ**». صحيح: أخرجه أبوداود (٤٦٨١).

وعن **أبي هريرة**، عن النبي ﷺ قال: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[٤١١]. صحيح.

ومن ذلك قول **الأنصاري**، **والثقفي**، في حديثهما الطويل للنبي ﷺ: «أَخْبِرْنَا يَا رَسُولَ اللهِ نَزْدَدْ إِيمَانًا، أَوْ نزداد يَقِينًا ...». حسن لغيره: أخرجه مسدد (المطالب العالية/ ١١٥٣)، وهو في صحيح

---

(٤١٠)أخرجه الآجري في "الشريعة" (٣٤٤)، عبدالملك بن محمد الصنعاني -صنعاء دمشق:- "لين الحديث"، كما قال الحافظ في "التقريب"، لكن هو صاحب الرواية الذي سمعها مباشرة من الأوزاعي فمثل هذا يقبل.

(٤١١)أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠)، برقم (٤٧٢، ٥٧٢)، من طرق، وابن حبان (الإحسان ٤١٧٦) (٤٧٩) صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ٣)،وصححه ووافقه الذهبي، ورواه أحمد (٦/ ٤٧،٩٩) وفيه انقطاع. وصححه في "الصحيحة" (٢٨٤)، (٧٥١).

الترغيب والترهيب (١١٥٥).

وقد قال ﷺ: «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ، كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**». **صحيح**: أخرجه الطبراني (١٤/ ٧٠)، برقم (١٤٦٦٨)، وهو في الصحيحة (١٥٨٥).

قال **الحسن البصري**: "الإيمان قول، ولا قول إلا بعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا قول وعمل ونية إلا بسنة"[٤١٢]. **إسناده صحيح**.

وقال **عبدالرزاق**: سمعت معمرًا، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، وابن جريج، وسفيان بن عيينة يقولون: "**الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص**". **إسناده صحيح**: الشريعة للآجري (١٢٦، ٢٨٤).

وقال **جرير بن عبدالحميد**: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص".أخرجه أبو داود في مسائل الإمام أحمد (ص: ٢٧٣)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ٩٦١)، برقم (١٧٤٧).

وقال **الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "احذروا رحمكم الله قول من يقول إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، ومن يقول: أنا مؤمن عند الله، وأنا مؤمن مستكمل الإيمان هذا كله مذهب أهل الإرجاء". الشريعة (٢/ ٦٨٧).

وقال **أبوعثمان الصابوني**: "ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية". عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ٨٢).

قال **الإمام الآجري**: "هذا بيان لمن عقل، يعلمُ أنه لا يصح الدين إلا بالتصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، مثل الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وما أشبه". الشريعة (١/ ٢٥١، ط: مؤسسة قرطبة، باب معرفة أي يوم نزلت هذه الآية، ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾).

وقال **ابن عبد البر**: "أجمع أهل الفقه والحديث علىٰ أن الإيمان قول، وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان".

إلىٰ أن قال: "وسائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر، منهم

---

(٤١٢)أخرجه الآجري في الشريعة (٢٨١)، وإن كان فيه يحيىٰ بن سليم وهو: متكلم فيه، ولكنه من رواية الحميدي عنه فهي صحيحة.

مالك بن أنس والليث بن سعد، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبوعبيد القاسم بن سلام، وداود بن علي، وأبو جعفر الطبري، ومن سلك سبيلهم، قالوا: الإيمان قول وعمل: قول باللسان وهو الإقرار، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة". التمهيد (٩/ ٢٣٨- ٢٤٣).

وقال **ابن جرير الطبري**: رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وكان تصديق القلب العزم والإذعان، وتصديق اللسان الإقرار، وتصديق الجوارح السعي والعمل، كان المعنىٰ الذي به يستحق العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه المعاني الثلاثة". تهذيب الآثار (٧/ ٩٦).

قَالَ **ابن بطال**: "ولهذا المعنىٰ أراد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ إثباته -أي العمل- في "كتاب الإيمان"، وعليه بوب أبوابه كلها، فقال: "باب أمور الإيمان"، و"باب الصلاة من الإيمان"، و"باب الزكاة من الإيمان"، و"باب الجهاد من الإيمان"، وسائر أبوابه، وإنما أراد الرد علىٰ المرجئة في قولهم: إن الإيمان قول بلا عمل، وتبيين غلطهم، وسوء اعتقادهم، ومخالفتهم للكتاب والسنة، ومذاهب الأئمة". شرح مسلم للنووي (١/ ١٤٧).

وقول **أحمد**: "من قال الإيمان يزيد وينقص فقد برئ من الإرجاء". السنة للخلال(١٠٠٩).

وقال **البربهاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقد خرج من الإرجاء كله أوله وآخره". شرح السنة للبربهاري (١/ ١٢٩).

١ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ».

وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًىٰ﴾ [الكهف: ١٣].

﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًىٰ﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[المدثر: ٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤].

وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ مِنَ الإِيمَانِ.

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالعَزِيزِ إِلَىٰ عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ: "إِنَّ لِلْإِيمَانِ فَرَائِضَ، وَشَرَائِعَ، وَحُدُودًا، وَسُنَنًا، فَمَنِ اسْتَكْمَلَهَا اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الإِيمَانَ، فَإِنْ أَعِشْ فَسَأُبَيِّنُهَا لَكُمْ حَتَّىٰ تَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنْ أَمُتْ فَمَا أَنَا عَلَىٰ صُحْبَتِكُمْ بِحَرِيصٍ".

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: "اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً".

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ".

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: "لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَىٰ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ".

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: "﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أَوْصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ دِينًا وَاحِدًا".

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] سَبِيلًا وَسُنَّةً.

قوله: (بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ)، هو طرف من حديث وصله المصنف في الباب الآتي، والمراد منه ههنا بيان أن الأعمال من الإيمان ومَثَّلَ للأعمال بالصلاة والزكاة والصوم والحج.

قوله: (وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ)، قال **أحمد بن حنبل**: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"؛ وقال أيضًا: وبلغني أن **مالك بن أنس وابن جريج، وفضيل بن عياض** قالوا: "الإيمان قول وعمل". **إسناده صحيح**: أخرجه الآجري (٢٨٥).

وقال **عبيد بن عمير**: "ليس الإيمان بالتمني، ولكن الإيمان قول يفعل، وعمل يعمل".

وقال **البغوي**: "**اتفقت الصحابة والتابعون**، فمن بعدهم من علماء السنة علىٰ أن الأعمال من الإيمان...، وقالوا: إن الإيمان قول، وعمل، وعقيدة". شرح السنة (١/ ٣٨).

والأدلة علىٰ أن الإيمان قول وعمل كثيرة جدًا،ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ جملة منها،تأتي في مواضعها.

قوله: (وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ)، ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أدلة كثيرة علىٰ ذلك منها قوله تَعَالَىٰ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾[المدثر: ٣١]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]. وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وعن **أبي هريرة**؛ قال: "الإيمان يزداد وينقص"[٤١٣]. **إسناده لا بأس به**.

---

(٤١٣)أخرجه اللالكائي (١٧١١)، والآجري (٢٣٧)، وعبدالله بن أحمد في السنة (٦٢٢).
فيه عبدالله بن وبيعة الحضرمي لم يرو عنه سوىٰ صفوان بن عمرو الحمصي (الثقات لابن حبان ٥/ ٢٧)، والبخاري في "التاريخ الكبير" (٥/ ٨٥)، و "الجرح والتعديل" (٥/ ٥١)، وسكت عنه ولم يذكره بجرح ولا تعديل وهو تابعين فعليه يكون قويًا عند ابن أبي حاتم.

وكان **عبدالله بن مسعود** رضي الله عنه- يقول في دعائه: "اللهم زدني إيمانًا ويقينًا وفقهًا"[٤١٤]. **صحيح**.

وورد عن زر بن حبيش قال: كان **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه- يقول لأصحابه: "هلموا نزدد إيمانا"، فيذكرون الله عز وجل. **صحيح**: أصول الاعتقاد (٥/ ١٠١٢/ ١٧٠٠)، وابن أبي شيبة في الإيمان (١٠٨).

وصحّ عن **عمار** رضي الله عنه- قوله: "ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار، وبذل السلام للعالم". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في "الإيمان" (١٠٥،١٠٧)، وعلقه البخاري في "صحيحه".

وقال **جندب بن عبدالله وابن عمر** رضي الله عنهما- وغيرهما:"تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن **فازددنا إيمانًا**". **صحيح**: صحيح ابن ماجه (٥٢) عن جندب، عن ابن عمر.

وقال **مالك بن دينار**: "الإيمان يبدو في القلب ضعيفًا ضئيلًا كالبقلة؛ فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدغل وما يضعفه ويوهنه، أوشك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل وفروع، وثمرة، وظل إلىٰ ما لا يتناهىٰ حتىٰ يصير أمثال الجبال. وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده، جاءه عنز فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها، **كذلك الإيمان**". مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية(٧/ ٢٢٥). والآثار في هذا كثيرة.

وقال **الأوزاعي**: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فمن زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فاحذروه، فإنه مبتدع"[٤١٥]. **إسناده لا بأس به**.

---

(٤١٤)**صححه** الحافظ رحمه الله، أخرجه عبدالله بن أحمد في "السنة" (٧٩٧)، والآجري (٢٤٢)، وفيه شريك وهو ابن عبدالله القاضي: "سيئ الحفظ".
قال **الحافظ**: وفي "الإيمان" لأحمد من طريق عبدالله بن عكيم، عن **ابن مسعود** أنه كان يقول: "اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها" وإسناده صحيح.الفتح (١/ ٦٣).
وهلال هو ابن أبي حميد: "ثقة". الشريعة للآجري (١/ ٢٦٢، ط: مؤسسة قرطبة، باب ذكر ما دل علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه).
(٤١٥)أخرجه الآجري في "الشريعة" (٢٦٩) وفي إسناده، إبراهيم بن الوليد بن سلمة الطبري: قال ابن حبان: "يعتبر حديثه من غير رواية أبيه"، وقال أبو حاتم: "هو صدوق". (اللسان ١/ ١٢٣).

وقوله: (وَالحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ فِي اللهِ مِنَ الإِيمَانِ)، ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَىٰ لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ». صحيح: أخرجه أبوداود (٤٦٨) وهو في الصحيحة (٣٨٠).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ مِنْهَا قَلْبُهُ. فَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ تَعْلُوَا قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ» قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].حسن: صحيح الترمذي (٢٦٥٤)، وأخرجه الآجري في "الشريعة" **ينظر**: تخريجه فيه (٢٣٦).وقد صحَّ معناه موقوفًا عن **ابن مسعود** وهو في حكم الرفع (الإيمان لابن أبي شيبة/ ٩).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَالتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ». متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِلنِّسَاءِ: «مَا رَأَيْتُ مِنَ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِأَلْبَابِ ذَوِي الرَّأْيِ مِنْكُنَّ». متفق عليه.

وفي حديث الشفاعة: «**أنه يخرج من النار من في قلبه أدنىٰ، أدنىٰ، أدنىٰ مثقال ذرة من إيمان**». متفق عليه.

وفي حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية، فإنه من أعظم الأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل علىٰ قوة إيمانهم، وتوكلهم علىٰ اللّه في أمورهم كلها.

وعن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: "إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أمزداد هو أم منتقص؟ وإنّ من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنىٰ تأتيه؟"[٤١٦]. صحيح: أخرجه اللالكائي (١٧١٠).

---

(٤١٦)وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية طريقًا آخر له، قال: وروىٰ إسماعيل بن عياش عن حريز بن عثمان عن الحارث بن محمد عن **أبي الدرداء** قال: "الإيمان يزيد وينقص". الفتاوىٰ (٧/ ٢٢٤).

قوله: (وقالَ إبراهيمُ: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾)، قال **سعيد بن جبير** في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ أي: ليزداد إيمانًا. صحيح:تغليق التعليق (٢/ ٢٠).

قال **الحافظ**: "وإنما فصل بين هذه الآية وبين الآيات التي قبلها؛ لأنّ الدليل يؤخذ من تلك بالنص، ومن هذه بالإشارة، والله أعلم".الفتح (١/ ٩٧).

قوله: (وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَةً)،يعني: نزداد إيمانًا.وذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أثر معاذٍ هذا مجزومًا به، وود من طريق أخرىٰ، بلفظ: كان **معاذ بن جبل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول لرجل: "اجلس بنا نؤمن ساعة" ومثله عن **ابن رواحة**. **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في "الإيمان" (١٣١).

قوله: (وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ)،وقريب منه قوله **أيضًا**: "اللهم زدني إيمانًا ويقينًا وفقهًا".تقدم تخريجه قريبًا.

عن **أبي ظبيان**، قال: كنا نعرض المصاحف عند علقمة فقرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُوقِنِينَ**﴾ غير موجودة في المصحف بهذا اللفظ. فقال: قال **عبد الله**: "اليقين الإيمان كله"، وقرأ هذه الآية: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ [إبراهيم: ٥]، قال: فقال **عبدالله**: "الصبر نصف الإيمان".**صحيح**: أخرجه الطبراني والحاكم (٣٦٦٦) وصححه. ولفظ "النصف" صريح في أن الإيمان يتجزأ ويتبعض.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "مراده: أن اليقين هو أصل الإيمان كله، فإذا أيقن القلب بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، انبعثت الجوارح كلها للاستعداد للقاء الله تعالىٰ بالأعمال الصالحة، فنشأ ذلك كله عن اليقين". فتح الباري (١/ ١٥).

قوله: (وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لاَ يَبْلُغُ العَبْدُ حَقِيقَةَ التَّقْوَىٰ حَتَّىٰ يَدَعَ مَا حَاكَ فِي الصَّدْرِ)[٤١٧]،قال **ابن رجب**: "وإنما ذكر البخاري هذا الأثر في الباب، لأن خصال التقوىٰ هي

---

(٤١٧)قال **ابن رجب**: هذا الأثر لم أقف عليه إلىٰ الآن في غير كتاب البخاري (وكذا قال الحافظ في تغليق التعليق)، وقال الإمام **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يره الحافظ موصولًا، وقد ورد معناه عند المصنف في "الأدب المفرد" (٣٠٢)، ومسلم وغيرهما من حديث النواس مرفوعًا، فانظره إن شئت في كتابي "صحيح الجامع الصغير" (٢٨٧٧).

خصال الإيمان".

قوله: (وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ أَوْصَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ وَإِيَّاهُ دِينًا وَاحِدًا)[٤١٨]،ومعنىٰ ذلك: أن دين الأنبياء كلهم دين واحد؛ وهو الإسلام العام، المشتمل علىٰ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وعلىٰ توحيد الله، وإخلاص الدين له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: ٤-٥].

والدين: هو الإسلام -كما صرح به في مواضع أُخر-، وإذا أطلق الإسلام وحده في نص دخل فيه الإيمان، وكذا إذا أطلق الإيمان وحده. وقد استدل بهذه الآية علىٰ أن الأعمال تدخل في الإيمان، وهي قوله: ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ طوائف من الأئمة، منهم الشافعي، وأحمد، والحميدي، وقال **الشافعي**: "ليس عليهم أحج من هذه الآية". فتح الباري لابن رجب (١/ ١٨).

قوله: (وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾: سَبِيلًا وَسُنَّةً)،**حسن**:هذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٨٧)، والطبري في "تفسيره" (٦/ ١٧٥)، واللالكائي (٦٥).

قال **أهل اللغة**: المِنْهَاج: الطريق الواسع، بخلاف الشِّرعة، فإنها اسم للطرق التي تنشعب من السبيل، ولما اتحدَ المنهاجُ، وتعددت الشِّرعة حصل غرض البخاري. فيض الباري (١/ ١٤٩/ ٨).

قلت: فدين الأنبياء واحد، وشرائعهم مختلفة، وهذه الشرائع من الدين الذي شرعه الله

وقد روي معناه مرفوعًا، وموقوفًا علىٰ **أبي الدرداء**. فخرج الترمذي، وابن ماجه من حديث عطية السعدي، عن النبي ﷺ قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به، حذرا مما به بأس**». وفي إسناده بعض مقال. وروىٰ ابن ابي الدنيا بإسناد منقطع، عن **أبي الدرداء** قال: "تمام التقوىٰ: أن يتقي الله العبد حتىٰ يتقيه من مثقال ذرة، وحتىٰ يترك ما يرىٰ أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، حجابًا بينه وبين الحرام". أخرجه ابن المبارك في "الزهد" (ص ١٩).**وينظر**: ما يأتي في (باب من استبرأ لدينه وعرضه).

(٤١٨)نقل الحافظ عن البلقيني: أن الصواب في لفظه: "وقال مجاهد: شرع لكم: أوصيناك يا محمد وإياه دينًا واحدًا، **والصواب**: أوصاك يا محمد وأنبياءه". كذا أخرجه عبد بن حميد والفريابي والطبري وابن المنذر في تفاسيرهم، وبه يستقيم الكلام" ا.هـ

تعالىٰ لأنبيائه، فلما كانت الشرائع من الدين الذي هو الإسلام، والإيمان ثبت المراد؛ وهو كون الأعمال من الإيمان، فيتم غَرَضُ البخاري.

وما ذكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب إنما هو في الرد علىٰ المرجئة التي ضلت في أبواب الإيمان، ولعلنا نذكر جملة من مذاهبهم الباطلة العاطلة:

تعريف المرجئة وقولهم في الإيمان

المرجئة **لغة**: من الإرجاء وهو التأخير، قال **الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والصواب من القول في المعنىٰ الذي من أجله سميت المرجئة مرجئة أن يقال: إن الإرجاء معناه ما بَيَّنَّا قبل من تأخير الشيء". تهذيب الآثار (٢/ ٦٦١).

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿**قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ**﴾ [الشعراء: ٣٦]. أرجه: أي أمهله وأخره.

فالمرجئة أخروا العمل عن الإيمان، وأن الأعمال لا دخل لها فيه عندهم، وأخرجوه منه.

ومعنىٰ الإرجاء عند السلف: كانت المرجئة في آخر القرن الأول تُطْلَق علىٰ فئتين؛ قومٌ أرجوا أمر عليّ وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وقد مضىٰ أولئك، ثم استقر المعنىٰ الاصطلاحي للمرجئة عند السلف علىٰ المعنىٰ الثاني، وهو القول بأن الإيمان قول بلا عمل، أي إخراج الأعمال من مسمىٰ الإيمان، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

قال **ابن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأما المرجئة اليوم فهم قوم يقولون-: الإيمان قول بلا عمل". تهذيب الآثار (٢/ ٦٥٩).

وقال **الطبري**: "غير أن الأغلب من استعمال أهل المعرفة بمذاهب المتخلفين في الديانات في دهرنا هذا، هذا الاسم فيمن كان من قوله: الإيمان قول بلا عمل، وفيمن كان من مذهبه أن الشرائع ليست من الإيمان، وأن الإيمان إنما هو التصديق بالقول دون العمل المصدق بوجوبه". تهذيب الآثار (٢/ ٦٦١).

وقال **الفضل بن زياد**: سمعت أبا عبدالله -يعني: أحمد بن حنبل-وسئل عن المرجئ فقال: من قال: "إنّ الإيمان قول". **إسناده صحيح**: أخرجه الخلال (٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٩).

فمن هذه النقولِ وغيرِها يتبين أن المرجئة هم الذين يخرجون الأعمال عن مسمىٰ

الإيمان، وأن الإيمان شيءٌ واحد لا يتجزأ، وليس بشعب، ولذا فإنه لا يزيد ولا ينقص، بل هو كتلة واحدة، فإيمان أفجر الناس كإيمان أتقىٰ الناس، قال **الآجري**: "**عندهم**: أن البار التقي الذي لا يباشر من ذلك شيئًا، والفاجر يكونان سواء، هذا منكر".الشريعة (٢/ ٦٨٨).

لذا نراهم يعبرون عن ذلك بأن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل، والأنبياء والمرسلين، أعاذنا الله وإخواننا من هذه الأهواء المضلة.

أول ظهور المرجئة

ظهرت بدعة المرجئة في أواخر عصر الصحابة، قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ -وهو من أعلم الناس بمقالات الفرق-: "ثم في أواخر عصر الصحابة حدثت القدرية في آخر عصر **ابن عمر وابن عباس؛ وجابر**؛ وأمثالهم من الصحابة، وحدثت المرجئة قريبًا من ذلك". مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٣٠١).

وعن **قتادة**، قال: "إنما أحدث الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث".السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣١٩). وكانت فتنة ابن الأشعث ما بين سنة ٨١- ٨٣ هـ.

أقوال الفرق وأهل المقالات في الإيمان

ذكر شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ مذاهب المرجئة وبين أنها أربعة طوائف:

الأولىٰ: من جعلت الإيمان مجرد المعرفة في القلب، وهذا قول الجهمية ومنهم الصالحي.

الثانية: من جعلت الإيمان مجرد القول، وهم الكرَّامية.

الثالثة: من جعلت الإيمان في القلب وأدخل أعمال القلوب، وهم الأشاعرة والماتريدية.

الرابعة: من جعلت الإيمان تصديق القلب وقول اللسان و**هم مرجئة الفقهاء**.راجع مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٩٥).

قال **ابن عبدالبر** -مبينًا مرجئة الفقهاء-: "ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه أنهم ذهبوا إلىٰ أن الطاعات لا تسمىٰ إيمانًا".

يعني: أنهم أخرجوا العمل من الإيمان، وقالوا: إنه من زينته وجماله فقط، ولذلك لا يزيد

ولا ينقص[٤١٩].

والغالية من المرجئة التي تزعم أن النار حرمت علىٰ من قال: "لا إله إلا الله" تتأول هذه الأخبار التي رويت عن النبي ﷺ في هذه اللفظة علىٰ خلاف تأويلها. التوحيد (٢/ ٧٧٠).

وقالوا: بأن الإيمان كل لا يتجزأ فإذا ذهب بعضه ذهب كله، فمهما فعل المرء من معاص فلا تضره، ولا تؤثر ولا تخدش فيه، فلا يجتمع عندهم في قلب عبد، نفاق، وإيمان، ولا يزيد، ولا ينقص.

ومن قال: إقرار باللسان، ومعرفة بالقلب، وهم **المرجئة**، فيرد عليهم بأن أبا طالب عم النبي ﷺ، كان مقرًا بلسانه بالنبي ﷺ، وعارفًا بنبوته ﷺ لكنه لم ينطق بلسانه بكلمة التوحيد، ولم ينقد بجوارحه.

ومن قال: إقرار باللسان فقط وهم **الكرامية**، فيرد عليهم بأن المنافقين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وقالت **الجهمية**: الإيمان هو معرفة القلب.

وعليه فإن كل كافر ومشرك، هو في الحقيقة مؤمن لأن الله يقول: ﴿**فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ**﴾[الأنعام: ٣٣]، وقال تعالىٰ عن أهل الكتاب: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾[البقرة:١٤٦]، وقال سبحانه: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾[النمل: ١٣]، فمن عرف، ولم يجحد علىٰ قولهم يكون مؤمنًا.

وأما **مرجئة الفقهاء** فإنهم أخروا العمل عن الإيمان، إلا أنه من زينته وجماله كما سبق، وعليه فلا يزيد ولا ينقص، ولذا بوب البخاري أبوابًا يرد عليهم، ويبين فيها أن الأعمال من الإيمان، وهو القائل: "لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدا يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص"[٤٢٠].

وأما **الخوارج والمعتزلة** فقالوا: الإيمان فعل الطاعات المفترضة كلها بالقلب واللسان

---

(٤١٩)وهذا مما حدا ببعض مشايخنا وهو الإمام الألباني بأن يقول: إن الخلاف بيننا وبين مرجئة الفقهاء ليس خلافًا لفظيًا، بل حقيقيًا.

(٤٢٠) ذكره الحافظ في الفتح (١/ ٤٧)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٥٦).

وسائر الجوارح، ولكنه لا يقبل التجزؤ والتبعض، فإن ذهب بعضه ذهب كله، لكنهم اختلفوا في الاسم.

وقال **آخرون**: الإيمان فعل القلب واللسان مع اجتناب الكبائر.

ومن أقوال الخوارج الشنيعة: قولهم بجواز وقوع الكفر من الأنبياء، وعند جميع الأمة الأنبياء معصومون من الوقوع في الكفر، قال **العلامة الشنقيطي**: "مَنعت الأمَّة وقوع الكفر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا الفضيلية من الخوارج قالوا: وقد وقع منهم ذنوب والذنب عندهم كُفر". أضواء البيان (٢١/ ٢٣٤).

وقال **أهل السنة والجماعة**: الإيمان هو الطاعات كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح غير أن له أصلًا وفرعًا، يزيد الإيمان بزيادة الطاعات، وينقص بنقصانها.

فأصله: المعرفة بالله والتصديق به، وبما جاء من عنده بالقلب واللسان مع الخضوع له والحب له، والخوف منه والتعظيم له مع ترك التكبر والاستنكاف والمعاندة فإذا أتىٰ بهذا الأصل فقد دخل في الإيمان ولزمه اسمه وأحكامه ولا يكون مستكملاً له حتىٰ يأتي بفرعه. **وفرعه**: المفترض عليه أو الفرائض واجتناب المحارم". (الإيمان/ ٣٣١).

ما جاء عن السلف في ذم المرجئة

جاء في حديث **أنس** رضي الله عنه - مرفوعًا: «**صنفانِ من أُمَّتِي لا يَرِدَانِ عليَّ الحوضَ: القدريةُ، والمُرجئةُ**». **إسناده قوي**: أخرجه العقيلي في الضعفاء (ص ١٥٦)، واللالكائي في شرح السنن (٤/ ١٤٢، ١١٥٧)، وهو في الصحيحة (٢٧٤٨).

وفي لفظ عند الطبراني: «**القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة، فإن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**».

وعن ابن الديلمي، عن **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه -، قال: "إني لأعلم أهل دينين من أمة محمد ﷺ في النار: قوم يقولون: إن كان أولنا ضُلالًا ما بال خمس صلوات في اليوم والليلة، إنما هو صلاتان العصر والفجر، وقومٌ يقولون: إنما الإيمان كلامٌ وإن زنىٰ وإن قتل". **صحيح**: أخرجه الحاكم (٨٢٩٤) والآجري في الشريعة (٢٩٨)، وهذا له حكم الرفع.

وعن **إبراهيم النخعي** أنه كان يبغض المرجئة، وقال لرجل عنده منهم: "يا فلان لا أعرفنّ

إذا قمت من عندي أن تعود إليّ". **صحيح لغيره**: أخرجه ابن سعد (٦/ ٢٧٣)، وابن شاهين في "شرح مذاهب أهل السنة" برقم (٨، ٩).

وقال **سفيان** وذكر المرجئة: **"رأيٌ محدث، أدركنا الناس علىٰ غيره"**. صحيح: أخرجه عبدالله بن أحمد (٦١٠)، وأخرجه الخلال في "السنة" (٩٥٢).

وقال الأوزاعي: قد كان **يحيىٰ وقتادة** يقولان: **"ليس من الأهواء شيء أخوف عندهم علىٰ الأمة من الإرجاء"**. **صحيح**: أخرجه عبدالله بن أحمد (٦٤١)، واللالكائي (١٨١٦).

وعن جعفر الأحمر؛ قال: قال **منصور بن المعتمر** في شيء: **"لا أقول كما قالت المرجئة الضالة المبتدعة"**. **إسناده لا بأس به**: أخرجه اللالكائي (١٨١٨).

وقال **شريك** وذكر المرجئة؛ قال: **"هم أخبث قوم، وحسبك بالرافضة خبثًا، ولكن المرجئة يكذبون علىٰ الله** -عز وجل-". **إسناده لا بأس به**: أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٦١٤)، وابن بطة (١٢١٢).

تنبيه: المرجئة خوارج كما قال أحمد وغيره.

فعن أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت أحمد بن سعيد الرباطي يقول: قال لي **عبدالله بن طاهر**: "يا أحمد إنكم تبغضون هؤلاء القوم -يعني المرجئة- جهلًا، وأنا أبغضهم عن معرفة.

أولًا: إنهم لا يرون للسلطان طاعة.

الثاني: إنه ليس للإيمان عندهم قدر، والله لا أستجيز أن أقول: إيماني كإيمان يحيىٰ بن يحيىٰ، ولا كإيمان أحمد بن حنبل، وهم يقولون: إيماننا كإيمان جبرائيل وميكائيل". عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني (ص ٢٧).

وقال **سفيان الثوري** واصفًا المرجئة بأنهم من أهل الأهواء المضلة، ثم قال: "وهم يرون السيف علىٰ أهل القبلة". شرح أصول أهل السنة للالكائي (١٨٣٤).

وقال **الإمام أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الخوارج هم المرجئة"، كما في "السنة" له (ص ٧٤).

قلت: بل جميع الفرق الضالة خوارج كالرافضةِ، والصوفيةِ، والمعتزلةِ قعدةِ الخوارجِ،

وغيرهم.

فعن **القاسم عبد الرحمن بن محمد بن القاسم الحسني**، وما رأيت علويًا أفضل منه زهدًا وعبادة يقول: "المعتزلة قعدة الخوارج عجزوا عن قتال الناس بالسيوف فقعدوا للناس[٤٢١] يقاتلونهم بألسنتهم أو يجاهدونهم". القضاء والقدر للبيهقي (٥١١).

وأيضًا: **بعض الفرق المعاصرة**، لهم نصيب من الخروج كلٌّ بحسبه.

ولذلك ورد في الأثر عن سلام بن أبي مطيع، قال: كان**أيوب السختياني** يسمي أصحاب البدع: خوارج، ولذلك ورد في الأثر "**الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا علىٰ السيف**". **صحيح**: مسند ابن الجعد (١٢٣٦).

وقال**أبو قلابة**: "ما ابتدع رجل بدعة إلا استحل السيف".أخرجه الآجري في الشريعة (٢٠٥٥).

وفي **رواية**: "إن أهل الأهواء أهل ضلالة، ولا أرىٰ مصيرُهُم إلا إلىٰ النار، فجرِّبهم، فليس أحد منهم ينتحل رأيًا، أو قال قولًا، فيتناهىٰ به إلا يرون السيف، وإن النفاق كان ضروبًا، ثم تلا: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ [التوبة: ٥٨] ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦١] وقوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧].ذم الكلام وأهله (٨٢٥).

ومن لم يقدر منهم الخروج بالسيف قام بما استطاع، من تشهير وتبديع وتنفير وتكفير، فهم يخرجون علىٰ أئمة المسلمين من الحكام، وعلىٰ أئمة أهل العلم والدين من علماء السنة والسلفية.

قال شيخنا **العلامة ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ واصفًا الخوارج: "وإن تشددوا في الدين فهم

---

(٤٢١)كحال كثيرٍ من الناس اليوم، ممن يحسن الثورات والمظاهرات والاعتصامات، ونحوها وإن لم يخرج معهم.

مارقون منه، ولو فتشت في قلوبهم لوجدتها سوداء صماء لا يصل إليها الخير والعياذ بالله؛ لأن إيمانهم في الظاهر، **ولهذا يجب علينا أن نحاسب أنفسنا فيه؛ لأن بعضنا تجده يكره المعاصي من الناس، وينفر منها، وينكر عليهم ويسبهم، ولكن ما وصل الإيمان إلىٰ قلبه، فتجده في عبادته مهملًا لا يحضر قلبه لصلاته، ولا ينيب إلىٰ ربه، ولا يجد أنه مذنب إذا أذنب، وهذه من صفات الخوارج**، ولهذا قال بعض السلف: من قال إن الناس هلكوا فهو أهلكهم(٤٢٢)، ومن قال إنهم ضلوا فهو أضلهم.

ومرادهم بهذا **أن من اشتغل بعيب غيره عن عيب نفسه ففيه شعبة من الخوارج**، وهؤلاء الخوارج ينكرون علىٰ الناس ويشددون عليهم ويجعلون فاعل الكبيرة كافرًا وهم أكفر منه؛ لأن إيمانهم لم يصل إلىٰ القلب، وهم فقط ينكرون في الظاهر، وهذه المسألة خطيرة، يجب علىٰ الإنسان أن يعالج نفسه منها حتىٰ يسلم من هذا الشر". لقاء الباب المفتوح (١١/ ٢٨).

تنبيه آخر: إن الخوارج يتهمون علماء أهل السنة بأنهم مرجئة، لأنهم لا يكفرون مثلهم.

وقال **البربهاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقد خرج من الإرجاء كُلِّه أولِهِ وآخِرِهِ". شرح السنة(ص ١٢٩).

وأخرج أبوعثمان الصابوني بسنده إلىٰ إسحاق بن إبراهيم قال: قدم **ابن المبارك** الرّي، فقام إليه رجل من العُباد -الظن به أنه يذهب مذهب الخوارج- فقال له: يا أبا عبدالرحمن ما تقول فيمن يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: لا أخرجه من الإيمان.

فقال: يا أباعبدالرحمن علىٰ كِبَر السن صرتَ مرجئًا؟ فقال: "لا تقبلني المرجئة".

المرجئة تقول: حسناتنا مقبولة، وسيئاتنا مغفورة، ولو علمتُ أني قُبِلَتْ مني حسنة لشهدت أني في الجنة، وما أحوجك أن تأخذ سبورة فتجالس العلماء". **صحيح**:أخرجه ابن راهويه في مسنده (٣/ ٦٧٠-٦٧١)، والصابوني في عقيدة السلف أصحاب الحديث (٢٧٣)، وهو في الصحيحة (٧/ ١٥٤).

لازم قول المرجئة وما يترتب عليه من الزيغ والضلال

---

(٤٢٢)هذا نصّ حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم**». أخرجه مسلم (٢٦٢٣).

قال **محمد بن الحسين الآجري**: "من قال: الإيمان قول دون العمل، يقال له: رددت القرآن والسنة، وما عليه جميع العلماء، وخرجت من قول المسلمين، وكفرت بالله العظيم. فإن قال: بم ذا؟

قيل له: إن الله -عز وجل-، أمر المؤمنين بعد أن صدقوا في إيمانهم: أمرهم بالصلاة والزكاة، والصيام والحج والجهاد، وفرائض كثيرة، يطول ذكرها، مع شدة خوفهم، علىٰ التفريط فيها، النار والعقوبة الشديدة.

فمن زعم أن الله تعالىٰ فرض علىٰ المؤمنين ما ذكرنا، ولم يرد منهم العمل، ورضي منهم بالقول، فقد خالف الله -عز وجل- ورسوله ﷺ(٤٢٣).

قَالَ الله: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ**»، وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ**».

صحيح: تقدم تخريجه.

قال **الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من قال هذا، فلقد أعظم الفرية علىٰ الله -عز وجل-، وأتىٰ بضد الحق، وبما ينكره جميع العلماء؛ لأن قائل هذه المقالة يزعم: أن من قال: لا إله إلا الله: لم تضره الكبائر أن يعملها، ولا الفواحش أن يرتكبها، **وأن عنده**: أنّ البار التقي الذي لا يباشر من ذلك شيئًا، والفاجر يكونان سواء، هذا منكر.

قال الله -عز وجل-: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال -عز وجل-: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص: ٢٨]، فقل لقائل هذه المقالة النكرة: يا ضال يا مضل، إن الله -عز وجل- لم يسو بين الطائفتين من المؤمنين في أعمال الصالحات، حتىٰ فضل بعضهم علىٰ بعض درجات، قال الله عز وجل: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾ [الحديد: ١٠]، وكيف يجوز لهذا

---

(٤٢٣)أي: كأن الله تعالىٰ أمره أمر عبث، لا فائدة منه، مع ما في هذا من استخفاف الناس بأوامر الله تعالىٰ، وهذا هو الكفر بعينه، فإن الله -عز وجل- لما تكامل أمر الإسلام بالأعمال.

الملحد في الدين أن يسوي بين إيمانه وإيمان جبريل، وميكائيل، ويزعم أنه مؤمن حقًا؟!". الشريعة(٢/ ٦٨٤).

قال **العلامة ابن جبرين**: "يلزم من هذا محاذير وذلك أنه يلزم منه تسوية الناس في الإيمان، فما دام أنهم مؤمنون كلهم فلا يكون بينهم فرق في الإيمان، فيكون إيمان أجلاء الصحابة كإيمان آحاد الناس، وهذا فيه تسوية بين المتفاوتات، ومعلوم أن إيمان الصديق والفاروق وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أقوىٰ من إيمان غيرهم ممن جاء بعدهم ومن إيمان أهل هذا الزمان، فإيمانهم إيمان راسخ هو الذي حَمَلَهم علىٰ الأعمال والهجرة، والصبر علىٰ الأذىٰ في ذات الله، والجهاد في سبيل الله، والاجتهاد في سبل الخير، فذلك دليل علىٰ أنه أقوىٰ من إيمان غيرهم من سائر الناس، فهذا من حيث الإيمان الذي في القلب". شرح اعتقاد أهل السنة (٩/ ٤).

ويلزم من مذهب المرجئة من الانحرافات: الانهماك في المعاصي وغير ذلك من المفاسد، قال **العلامة ابن جبرين** أيضًا: "ويقولون: إن أهله في أصله سواء، فيعتقد أن إيمانه كامل، وهذا ما حمل كثيرًا منهم علىٰ الانهماك في المعاصي، وهم الذين يسمون (المرجئة)، وما أكثر الذين أنكروا عليهم وردوا عليهم قولهم حيث اعتقدوا أن الإيمان شيء واحد وأن أهله فيه سواء، فعند ذلك صاروا يعتمدون علىٰ واسع الرحمة وكرم الله، حتىٰ قال قائلهم:

فكثر ما استطعت من المعاصي إذا كان القدوم علىٰ كريم

كأنه يبيح لهم المعاصي، بل يأمرهم بتكثيرها". المصدر السابق (٩/ ٦).

بم يَسلمُ المسلم ويبرأ من الإرجاء؟

قال **أبو زرعة**: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومن قال غير ذلك فهو مبتدع مرجئ".أخرجه ابن أبي يعلىٰ في طبقات الحنابلة (١/ ٢٠٣).

وقال **الإمام أحمد**: "من قال الإيمان يزيد وينقص **برئ من الإرجاء**". **إسناده صحيح**: كتاب الإيمان لمحمد بن يحيىٰ العدني (ص٩٦).

وقال **البربهاري** رحمه الله: "ومن قال: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فقد خرج من الإرجاء كُلِّه أولِهِ وآخِرِهِ". شرح السنة(ص ١٢٩).

قلت: وهذا مذهب السلف، خلافًا للجهمية والمرجئة، ونحوهم، من الحنفية

والماتريدية، وهو أظهر ما أُخِذَ علىٰ صاحب الطحاوية، فمن قال: الإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص فقد بريء من الإرجاء.

٢- باب دُعَاؤُكُمْ[٤٢٤] إِيمَانُكُمْ

لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، وَمَعْنَىٰ الدُّعَاءِ فِي اللُّغَةِ (الإِيمَانُ).

قوله: **(باب دُعَاؤُكُمْ إِيمَانُكُمْ...)**، الدعاء تارة يكون دعاء مسألة بسؤال الله -عزوجل-، وتارة يكون بالإتيان بالأسباب التي تقتضي حصول المطالب، وهو الاشتغال بطاعة الله وذكره، وما يجب من عبده أن يفعله، وهذا هو: **حقيقة الإيمان**.

فما استجلب العبد من الله ما يحب، واستدفع منه ما يكره بأعظم من اشتغاله بطاعة الله وعبادته وذكره **وهو حقيقة الإيمان، فإن الله يدفع عن الذين آمنوا**. الفتح (١/ ٢٠)، ويروىٰ عن **بعض التابعين** أنه قال: لو أطعتم الله ما منعكم شيئًا تطلبونه منه.

٨- حَدَّثَنَا عُبَيْدُاللهِ بْنُ مُوسَىٰ، قَالَ: أَخْبَرَنَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»**[٤٢٥].

الشرح

---

(٤٢٤) أبقينا الباب علىٰ ما هو مع وجود الخلاف في المسألة.

قال في الإرشاد: وقع هنا في رواية أبي ذر وغيره: (بابٌ) بالتنوين، وهو ثابتٌ في أصل عليه خط الحافظ قطب الدين الحلبي كما قال العَيني إنه رآه، ورأيته أنا كذلك في فرع اليونينية كهي، لكنه ساقط في رواية الأصيلي وابن عساكر، وأيده قول الكِرماني: إنه وقف علىٰ أصل مسموع علىٰ الفربري بحذفه، بل قال النووي: ويقع في كثير من النسخ هنا باب، وهو غلطٌ فاحش، وصوابه بحذفه، ولا يصح إدخاله هنا؛ لأنه لا تعلق له بما نحن فيه. ا.هـ

قال في الفتح: ثبت (باب) في كثير من الروايات المتصلة، منها رواية أبي ذر ويمكن توجيهه، لكن قال الكرماني إنه وقف علىٰ نسخة مسموعة علىٰ الفربري بحذفه، وعلىٰ هذا فقوله: دعاؤكم إيمانكم، من قول ابن عباس. ا.ه.

(٤٢٥) وأخرجه مسلم (١٦)، والترمذي (٢٦٠٩)، والنسائي (٥٠٠١).

قوله: (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ خَمْسٍ)، وعند البخاري في التفسير أن رجلًا قَالَ لابن عمر: ما حملك عَلَىٰ أن تحج عامًا وتعتمر عامًا، وتترك الجهاد؟، وفي بعض الروايات: أن رجلًا قَالَ **لابن عمر**: ألا تغزو؟! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: " ...". الحديث. يأتي برقم (٤٥١٤). فشبَّه الإسلامَ ببناء محكمٍ، وأركانَهُ بقواعد ثابتة محكمة حاملة لذلك البناء.

وفي هذا الحديث أن الأعمال متعلقة بالاستطاعة، وقد جاءت الشريعة برفع الحرج. **وفيه** إشارة إلىٰ قاعدة: "المشقة تجلب التيسير". **وفيه** تقديم الأولىٰ فالأولىٰ من الأعمال الصالحة.

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يذكر الإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر؛ لأنه أراد تصديق الرسول في كل ما جاء به فيستلزم ذلك.

قوله: (شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وفي رواية: "**عَلَىٰ أن يُوحَّدَ الله**" وفي أخرىٰ: "**علىٰ أن يُعْبَد الله، ويكفر بما دونه**".

ومعنىٰ شهادة ألا إله إلا الله: قال **العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات[٤٢٦] غير الله تعالىٰ في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات علىٰ الوجه المشروع".

فمعناها: لا معبود[٤٢٧]:بحق إلا إله واحد، وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وحده لا

---

(٤٢٦) وهؤلاء الذين عبدوا أصحاب القبور والجن ونحو ذلك عكسوا الأمر "فهم يثبتون ما نفاه الله، وينفون ما أثبته الله، ولذلك وقعوا في الضلال، فالله جل وعلا نفىٰ الشرك وأثبت التوحيد، وأمر بالتوحيد، وهم عكسوا؛ فأثبتوا الشرك، ونفوا التوحيد، فعكسوا معنىٰ (لا إله إلا الله)، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥٢]". شرح مسائل الجاهلية (ص٨٨).

(٤٢٧) قال العلامة **السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد فسرت لا إله إلا الله بتفسيرات باطلة، وذلك لعدم فهم مراد الله منها، من هذه التفسيرات:أن معنىٰ لا إله إلا الله: أي لا موجود إلا الله وهذا يفهم منه الاتحاد. ومنها: أن معناها أي لا معبود موجود إلا الله، وهذا باطل؛ لأنه يلزم منه أن كل معبود عبد بحق أو باطل هو الله. ومنها: أن معناها أي لا خالق إلا الله، وهذا تدل عليه هذه الكلمة ولكن ليس هو المراد منها".ا.هـ.

"وما شعر هؤلاء أن كفار العرب الأولين يشاركونهم في هذا الاعتقاد ويعرفون أن الله هو الخالق القادر علىٰ الاختراع ويقرون بذلك وأنهم ما عبدوا غيره إلا لزعمهم أنهم يقربونهم إلىٰ الله.

ومنها ما يدعيه بعضهم من "أن معناها لا حاكمية إلا لله ويظنون أن من اعتقد ذلك وفسر به لا إله إلا الله فقد حقق التوحيد المطلق ولو فعل ما فعل من عبادة غير الله والاعتقاد بالأموات، والتقرب إليهم بالذبائح

شريك له، فكل ما عبد من دون الله من بشر أو ملك أو جني أو غير ذلك، فكله معبود بالباطل، والمعبود بالحق هو الله وحده، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فصح أن معنىٰ الإله: المعبود، ولهذا قال النبي ﷺ لكفار قريش: «**قولوا: لا إله إلا الله**»، قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال قوم هود: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]. تيسير العزيز الحميد (ص ٧٣).

"والله سبحانه خلق الثقلين لهذا الأصل الأصيل وأمرهم به، وأرسل به رسله، وأنزل به كتبه، فتأمل ذلك جيدا وتدبره كثيرا ليتضح لك ما وقع فيه أكثر المسلمين من الجهل العظيم بهذا الأصل الأصيل، حتىٰ عبدوا مع الله غيره[٤٢٨]،وصرفوا خالص حقه لسواه، فالله المستعان". رسالة العقيدة الصحيحة للعلامة ابن باز (ص ٥).

والخلاصة: أننا نعتقد في معناها: أن الله واحد في ذاته وملكه؛ لا ند له، وواحد في صفاته وأفعاله، لا مثل له، وواحد في إلهيته وعبادته؛ لا شريك له، وهذا ما تضمنته هذه الكلمة الطيبة.

فائدة:

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّىٰ تستقرَّ فيها معرفةُ اللهِ، وعظمتُه، ومحبّتُهُ، وخشيتُهُ، ومهابتُه، ورجاؤه، والتوكلُ عليه، وتمتلئ مِنْ ذلك، وهذا هو حقيقةُ التوحيدِ، وهو معنىٰ "**لا إله إلا اللهُ**"، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّىٰ يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو

والنذور والطواف بقبورهم والتبرك بتربتهم". رسالة: معنىٰ لا إله إلا الله (ص٢٢) للعلامة صالح الفوزان -حفظه الله- بتصرفٍ يسير.

(٤٢٨) قال **الشيخ محمد حامد الفقي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كثير من أدعياء العلم يجهلون "**لا إله إلا الله**" فيحكمون علىٰ كل من تلفظ بها بالإسلام ولو كان مجاهرًا بالكفر الصراح، كعبادة القبور والموتىٰ والأوثان، واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة، و(استحلال) الحكم بغير ما أنزل الله، واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنىٰ "**لا إله إلا الله**" البراءة من عبادة غير الله؛ وإعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله في العبادة، يدل علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾. (في التعليق علىٰ فتح المجيد/ ص٢١٧).

الله وحده لا شريك له، ولو كان في السماوات والأرض إله يؤله سوىٰ الله، لفسدت بذلك السماوات والأرض، كما قال تعالىٰ: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء: ٢٢]". تفسير ابن رجب (٢/ ٥٤).

وقوله: (**وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**)، وفي رواية لمسلم: «**وأن محمدًا عبده ورسوله**». "أتىٰ بهاتين الصفتين وجمعهما دفعًا للإفراط والتفريط، فإن كثيرًا ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولًا وفعلًا، وفرّط بترك متابعته، واعتمد علىٰ الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه، فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وأن يُعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائنًا من كان.

والناظر في الواقع اليوم وقبله يجد من بعض ممن ينتسب إلىٰ العلم من القضاة والمفتين خلاف ذلك والله المستعان". فتح المجيد (ص ٣٩، ط: الفقي) بتصرف.

فيجب الشهادة بأن النبي محمدًا ﷺ هو: عبد الله ورسوله، الذي قد كملت عبوديته لله تعالىٰ، ولذلك بلغ ما بلغ من الدرجات العلىٰ، والمنازل الرفيعة.

فلقد أثنىٰ الله عليه في أعلىٰ المقامات بالعبودية، ففي مقام الدعوة قال تعالىٰ: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا**﴾[الجن: ١٩]، وفي مقام النذارة قال تعالىٰ: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾[الفرقان: ١]، وفي مقام إنزال الوحي عليه قال تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾[النجم: ١٠].

وفي مقام الإسراء قال تعالىٰ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ [الإسراء: ١]، وفي مقام كفاية الله تعالىٰ لنبيه قال سبحانه: ﴿**أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ [الزمر: ٣٦].

ويلزم من ذلك ألا نغلو فيه ﷺ، بأن نرفعه فنجعله في مقام الإلهية، فنفعل معه كما فعلت النصارىٰ في عيسىٰ ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- فغلت فيه.

وجوب النطق بالشهادة لمن كان قادرًا عليها

يجب أن ينطق بهذه الكلمة عالمًا بمعناها، عامِلا بمقتضاها باطنًا وظاهرًا، كما دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وأما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها فإن ذلك غير نافع بالإجماع. تيسير العزيز الحميد (ص ١٧٦).

والدليل علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]. وقال ﷺ: «**من شهد لا إله إلا الله مخلصًا**». **صحيح**: تخريج المسند لشعيب (٢٢٠٦٠)، وهو في الصحيحة (٥/ ٤٧٠). وغير ذلك من الأدلة.

قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "واتفق أهل السنة منْ المحدثين، والفقهاء، والمتكلمين، عَلَىٰ أن المؤمن الذي يُحكَم بأنه منْ أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا منْ اعتقد بقلبه دين الإسلام، اعتقادًا جازمًا، خاليًا منْ الشكوك، ونطق بالشهادتين". شرح النووي (١/ ١٤٩).

فيه أن الإسلام منه ما هو عظيم وركن، ومنه ما هو دون ذلك. **وفيه** تقديم التوحيد وأهميته علىٰ سائر الأركان. **وفيه** وجوب تعلم وتعليم الفروض وأحكامها وما يتعين منها. **وفيه** أن الإيمان قول وعمل، واعتقاد. **وفيه** وجوب النطق بالشهادتين، وتعلم معانيها، وموافقتهما لما في القلب. **وفيه** وجوب الإيمان بالغيب. **وفيه** وجوب الإخلاص لله رب العالمين، **وفيه** وجوب المتابعة للنبي ﷺ وعدم الخروج عن سنته، كما تجب محبته، فلا يكون أحد أحب إليه منه. **وفيه** إشارة إلىٰ ركني العمل، وأنه لا يقبل من مسلم بغير الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.**وفيه** أنه لا يلزم في الشهادة الرؤية البصرية.

قوله: **(وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)**، يعني: إتمام الصلاة المكتوبة كما أمر الله تعالىٰ بأن يداوم عليها، ويقيمها بركوعها وسجودها وأن يحافظ علىٰ مواقيتها وما استحفظه الله فيها.

فيه فضل الصلاة وعظم مكانتها في الإسلام، وأنها الركن الثاني والذي لا يقبل الله أعمال عبد إلا به، وهي أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال بعد التوحيد.

وقوله: **(وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ)**، يعني الزكاة المفروضة، **وفيه** الحث علىٰ الإحسان للخلق. **وفيه** الحث علىٰ تزكية النفس ومراقبة الله -عز وجل-.

وقوله: **(وَالحَجِّ)**، أي: وحج البيت الحرام. **فيه** فرضية ركن الحج، وأنه لا يجب إلا مرةً في العمر. **وفيه** أن الأعمال متعلقة بالاستطاعة، وقد جاءت الشريعة برفع الحرج. **وفيه** إشارة إلىٰ

قاعدة: "المشقة تجلب التيسير". **وفيه** تقديم الأولىٰ فالأولىٰ من الأعمال الصالحة.

وجاء ههنا "والحج وصوم رمضان" بتقديم الحج، وفي طريقين لمسلم وفي بعض الطرق بتقديم رمضان.

وقوله: **(وَصَوْمِ رَمَضَانَ)**، **فيه** أهمية وفضل صوم شهر رمضان، وأنه لا يجب صيام غيره.

فيه الجمع بين الإيمان والعمل الصالح، وهذا كثير في كتاب الله - عز وجل -، كما قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا**﴾ [الكهف: ١٠٧].

وفيه إشارة إلىٰ أن الأعمال من الإيمان. **وفيه** إشارة إلىٰ أن الإيمان شعب، وهو يتجزأ ويتبعض. **وفيه** أنه لا شيء من أعمال الجوارح أعظم ولا أوجب مما ذكر من هذه الأركان؛ إذ بنىٰ الإسلام عليها.

٣- بَابُ أُمُورِ الْإِيمَانِ

وقول الله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَىٰ الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الْآيَةَ[المؤمنون: ١].

قوله: **(بَابُ أُمُورِ الْإِيمَانِ)**، أي: خصاله وشعبه المتعددة، منها المتعلق بالقلب، ومنها المتعلق باللسان والجوارح.

وقوله تعالىٰ: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...)، قال **الإمام ابن بطة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخبر الله تعالىٰ في كتابه في آي كثيرة منه، أن هذا الإيمان لا يكون إلا بالعمل، وأداء الفرائض بالقلوب والجوارح، وبين ذلك رسول الله ﷺ وشرحه في سنته، وأعلمه أمته، وكان مما قال الله تعالىٰ في كتابه مما أعلمنا أن الإيمان هو العمل، وأن العمل من الإيمان، ما قاله في سورة البقرة: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتىٰ المال علىٰ حبه ذوي القربىٰ....أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ [البقرة: ١٧٧]. فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان، وشرائطه من القول والعمل والإخلاص". الإبانة (٢/ ٧٦٥).

وقال**شيخنا الإمام ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فجعل -سبحانه- هذه الأعمال صدقا وهو الإيمان، وجعلها تقوىٰ وهي هدىٰ وإيمان وإسلام". التعليقات البازية (١/ ١٤).

فدلت الآية علىٰ الاعتقاد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله تعالىٰ في آخر الآية ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[البقرة: ١٧٧]، فقوله: صدقوا أي: في قولهم آمنّا؛ كقوله: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ إلىٰ قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**

الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٤-١٥]، أي هم الصادقون في قولهم: آمنّا بالله، بخلاف الكاذبين... والقرآن فيه كثير من هذا، يصف المؤمنين بالصدق، والمنافقين بالكذب؛ لأن الطائفتين قالتا بألسنتهما: آمنّا، فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق، ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق". مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٨٢).

قال **ابن القيم**: "اليقين وهو الإيمان الجازم الثابت الذي لا ريب فيه ولا تردد ولا شك ولا شبهة بخمسة أصول ذكرها سبحانه في قوله تعالىٰ: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾**[البقرة: ١٧٧]، وفي قوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾**[النساء: ١٣٦]. وفي قوله تعالىٰ: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾**[البقرة: ٢٨٥] والإيمان بالله واليوم الآخر داخل في الإيمان بالكتب والرسل، وجمع بينهما النبي ﷺ في حديث **عمر** رضي الله عنه -حديث جبريل- في قوله: «**الإيمان أن تؤمن باللهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخر**».متفق عليه.

فهذه الأصول الخمس من لم يؤمن بها فليس بمؤمن، واليقين أن يقوم الإيمان بها حتىٰ تصير كأنها معاينة للقلب مشاهِدة له نسبتها إلىٰ البصيرة كنسبة الشمس والقمر إلىٰ البصر ولهذا قال من قال من السلف اليقين الإيمان كله". رسالة ابن القيم إلىٰ أحد إخوانه (ص ١٨).

قال شيخ الإسلام**ابن تيمية**: "**وقد دلت الآية علىٰ أمور**:

أحدها: أنه أخبر أن الفاعلين لهذه الأمور هم المتقون، وعامة هذه الأمور فعل مأمور به.

والثاني: أنه أخبر أن هذه الأمور هي البر وأهلها هم الصادقون يعني في قوله: (**آمنا**) وعامتها أمور وجودية، هي أفعال مأمور بها، فعلم أن المأمورَ به أكثر دخولًا في البر والتقوىٰ والإيمان من المنهي عنه. وبهذه الأسماء الثلاثة أستحقت الجنة.كما قال تعالىٰ: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** [ص: ٢٨]، وقال: **﴿أَفَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾** [السجدة: ١٨]، وهذه الخصال المذكورة قد دلت الآية علىٰ وجوبها؛ لأنه أخبر أن أهلها هم الذين صدقوا في قولهم: وهم المتقون". مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ١٣٣).

وفيها أصول الإيمان الخمسة وهي: الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويدخل الإيمان بالقدر في الإيمان بالله، وورد في حديث جبريل، حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». متفق عليه.

وفيها الاعتناء بمهمات الدين وأساسياته، وهي أصول الاعتقاد.

وفيهاأن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وأن الإيمان ليس بالتمني. **وفيها**أن الطاعات من الإيمان.

وفيهاأن الإيمان أوامر، ونواهي. **وفيها** رد علىٰ المرجئة. **وفيها**إشارة إلىٰ أن أعمال الجوارح لا تصح إلا بالإيمان، فهي مقدمة لها، ومبنية عليها. **وفيها**أن الإيمان منه ما هو أمور ظاهرة، ومنه أمور باطنة، ولابد منهما جميعًا.

قال **ابن القيم**: "وأنها -أي أصول الإيمان- الشرائع الظاهرة من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنفقات الواجبة، وأنها الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر، والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين، حقائقه وشرائعه، والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب، وأصول الإيمان الخمس". الرسالة التبوكية (١/ ١٢).

وفيها إشارة إلىٰ "أن كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتىٰ يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة، ولا الهوىٰ، ولا طلب المحمدة والجاه، وغير ذلك، بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب". المصدر السابق (ص ١٣).

وفيهادليلٌ علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، فإن إطلاق الإيمان في الآية علىٰ الإيمان الواجب الكامل، وليس مجرد الإيمان أي أصل الإيمان.

وقوله: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ...)، قال **الحافظ**: "كأنّ المؤلف أشار إلىٰ إمكان عد الشعب من هاتين الآيتين وشبههما". الفتح (١/ ٥١).

٩-حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ الْعَقَدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ

دِينَارٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ(ما بين الثلاث إلىٰ التسع) وَسِتُّونَ شُعْبَةً(المراد الخصلة أو الجزء)، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٤٢٩).

الشرح

قوله: (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)، قال الإمام **الألباني** رحمه الله: "رواه مسلم وغيره بلفظ «**وسبعون**»، وهو الراجح عندي تبعًا للقاضي عياض وغيره، كما بينته في "الصحيحة" (١٧)"، وقال شيخنا الإمام **ابن باز** رحمه الله: "وجاء في رواية «**وسبعون**» وهي زيادة مقبولة".

ولا تعارض بينها؛ لأنه لا مفهوم للعدد، فذكر الستين لا ينافي السبعين، لاحتمال أن الله أعلم نبيه بالستين أولًا، ثم زاده بعد ذلك عشر خصال، فكانت بضعًا وسبعين.

وقوله: «**الإيمان بضع وستون شعبة**»،البضع عدد مبهم ما بين الثلاث إلىٰ التسع، وقد ورد في الحديث: «**البضع ما بين الثلاث إلىٰ التسع**». صحيح الجامع (٢٨٨٧، ٥١٩٨).

فالإيمان بضع وستون أو وسبعون خصلة، فعلىٰ المسلم أن يحرص علىٰ تعلم واستكمال هذه الشعب كي يكتمل الإيمان في قلبه، قال **ابن هبيرة** رحمه الله: "ذكر رسول الله ﷺ هذه الخصال كلها، ليحرص المؤمن علىٰ جمعها، إلا إنه بحمد الله ليس فيها شيء من الترهبن، ولا الابتداع في الأقوال والأحوال، فمن أراد الله به خيرًا جمعها له، أو جمع له منها حسب حاله". الإفصاح (٦/ ٤٠٦).

وقوله: «**والحياء شعبة من الإيمان**»، فالحياء خلق الإسلام، وهو خلق يمكن أن يكتسب، وهو عمل صالح، ولما كان الإيمان عظيما في قلب رسول الله ﷺ كان أشد حياء من العذراء (البكر)، وكلما عظم إيمان المرء كثر حياؤه من الله، ثم من الناس، فـ«**الحياء خير كله**». متفق عليه.

والناس متفاوتون في الإيمان بقدر تحقيقهم لهذه الشعب، فأبوبكر الصديق رضي الله عنه- الذي

---

(٤٢٩) وأخرجه مسلم (٣٥)، وأبوداود (٤٦٧٦)، والترمذي (٢٦١٤)، والنسائي (٥٠٠٤، ٥٠٠٥) وابن ماجه (٥٧).

قال عنه **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم". **صحيح**:أخرجه عبدالله بن أحمد في "السنة" (٨٢١)، والسنة للخلال (٤/ ٤٤)، برقم (١١٣٤).

ليس إيمان غيره كإيمانه ولا يصل إليه، فالإيمان متفاوت المراتب كما قال **ابن المبارك**: "... والإيمان يتفاضل". **صحيح**: الإبانة (٢/ ٦/ ٨١٢/ ١١١٢)، والسنة لعبد الله (٨٥).

فأعلىٰ هذه الشعب هو التوحيد وقول: "لا إله إلا الله" كما وردت الرواية: وقد بين ﷺ، أعلىٰ هذه الشعب وأدناها، كما ثبت من قوله ﷺ: «**فأفضلها لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**أعظمها ...**»، وفي رواية: «**أعلاها ...، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق**». أخرجه مسلم (٣٥).

وقد ألف العلماء المؤلفات في بيان شعب الإيمان، منها "كتاب شعب الإيمان" للبيهقي. ومن أقدم من ألف في ذلك ابن حبان، ثم تبعه الحليمي والبيهقي.

قال **ابن الملقن** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أهل الحديث والسنة عندهم أن كل طاعة فهي داخلة في الإيمان، سواء كانت من أعمال الجوارح، أو القلوب، أو من الأقوال، وسواء في ذلك الفرائض والنوافل، هذا قول الجمهور الأعظم منهم، وحينئذ فهذا لا ينحصر في بضع وسبعين، بل يزيد علىٰ ذلك زيادة كثيرة، بل هي غير منحصرة". التوضيح (١/ ٣٤)، لذلك قال **القاضي عياض**: "وقد تكلف جماعة عدها بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة".

قلت: خصال الإيمان غير منحصرة في هذا العدد، ولكن ذكر النبي ﷺ -بضع وسبعين- لتعليمنا أن من استكمل هذا العدد فإنه يكفيه في استكمال الإيمان، وإلا فالطاعات كثيرة، وكل يقوم بما تيسر له من النوافل، وهذا كقول النبي ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة**» متفق عليه. مع أن أسماء الله تعالىٰ لا تحصىٰ، لكن المقصود من حقق في نفسه وأحصىٰ هذا العدد دخل الجنة، وكذلك هنا من حقق الواجبات من شعب الإيمان، وأتىٰ من النوافل ما يبلغ به هذا العدد معها، فقد استكمل الإيمان.

ثم إن هذه الشعب تتفرع من أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن، وأهم ما ينبغي أن يعتني به المرء هو: أعمال القلوب، وهي التي يبلغ بها رفيع المنازل، وكل من أعمال الجوارح واللسان متعلق بها.

شعب الإيمان

عدّ **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ شعب الإيمان فقال: "هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان، وأعمال البدن، **فأعمال القلب فيه المعتقدات، والنيات**، وتشتمل علىٰ أربع وعشرين خصلة:الإيمان بالله: ويدخل فيه الإيمان بذاته، وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، -مع عدم الإشراك به-، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، ومحبة الله، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه الصلاة عليه ﷺ، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه ترك الرياء، والنفاق، والتوبة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر، والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

وأعمال اللسان، وتشتمل علىٰ سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم، وتعليمه، ومنه -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، والإصلاح بين الناس، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه -الاستغفار-.

وأعمال البدن، وتشتمل علىٰ ثمان وثلاثين خصلة، **منها ما يختص بالأعيان**، وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسًا وحكمًا، ويدخل فيه اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضًا ونفلًا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه إطعام الطعام، وإكرام الضيف، والصيام فرضًا ونفلًا، والحج والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات.

ومنها ما يتعلق بالأتباع، وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة-يعني: العبد يطيع سيده-، والرفق بالعبيد.

ومنها ما يتعلق بالعامة، وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه قتال الخوارج والبغاة،

والمعاونة علىٰ البر، ويدخل فيه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه المرابطة، وأداء الأمانة، ومنه أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه ترك التبذير والإسراف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذىٰ عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذىٰ عن الطريق.

فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدها تسعًا وسبعين خصلة، باعتبار إفراد ما ضم بعضه إلىٰ بعض مما ذكر، والله أعلم. الفتح (١/ ٧٦- ٧٧).

فيه أن الحديث نص في إطلاق اسم الإيمان الشرعي علىٰ الأعمال.**وفيه** أن الإيمان يتجزأ.

وفيهأن الإيمان يزيد وينقص.**وفيه** أن مراتب الإيمان متفاوتة.**وفيه**الحث علىٰ الأعمال الصالحة، واستكمال الإيمان.

وفيه فضل الحياء ومنزلته، وأنه ينبغي التخلق به. **وفيه** أن الحياء خلق يكتسب.

وفيه إشارة وتنبيه بذكر الحياء علىٰ العمل القلبي، و(لا إله إلا الله) علىٰ قول اللسان، وإماطة الأذىٰ عن الطريق علىٰ عمل الجوارح.

وفيه أهمية التوحيد، وفضل: (لا إله إلا الله)، فإنها تقتضي الإخلاص والتوكل، والشكر، فهي أفضل الكلام وهي أعلىٰ شعب الإيمان.

وفيه تشبيه المعنوي بالمحسوس ليفهم، وفيه الحث علىٰ تعلم شعب الإيمان.

وفيهأن إماطة الأذىٰ عن الطريق من شعب الإيمان، سواء كان الأذىٰ شجرة تؤذي، أو غصن شوك، أو حجرًا يعثر به، أو قذرًا، أو جيفة، أو غير ذلك، ففي الحديث: «**عرضت عليَّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذىٰ يماط عن الطريق، ووجدت في مساوي أعمالها النخاعة تكون في المسجد، لا تدفن**».أخرجه مسلم (٥٥٣).

وأعظم من ذلك كله: إزالة أذىٰ الشرك والبدع والضلال من طريق الناس.

٤ - بَابٌ: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ

١٠ - حَدَّثَنَا آدَمُ بْنُ أَبِي إِيَاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي السَّفَرِ وَإِسْمَاعِيلَ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْمُسْلِمُ (أي: المسلم الكامل) مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ (أي: ترك) مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: حَدَّثَنَا دَاوُدُ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَقَالَ عَبْدُ الْأَعْلَى: عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.(٤٣٠)

طرفه: (الرقاق٦٤٨٤).

الشرح

قوله: (الْمُسْلِمُ)، يعني: أفضلُ وأكملُ المسلمين، ويؤيده قوله ﷺ لما سئل: أي الإسلام أفضل؟ قال: «**أن يسلم المسلمون من لسانك ويدك...**».**حسن**: أخرجه أحمد (٦٤٨٧)، وابن حبان (٥١٥٤)، وهو في الصحيحة (٨٥٨).

فيه دليلٌ علىٰ زيادة الإيمان بالطاعات، وأن الإيمان يتفاوت.

قوله: (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ)، وكذا المسلمات، وأهل الذمة، إلا في حد أو تعزير أو تأديب.

قوله: (مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ)، خص اللسان واليد بالذكر من بين سائر الجوارح؛ لأن اللسان هو المعبر عما في النفس، واليد هي التي بها البطش، والقطع، والوصل، والأخذ، والمنع، والإعطاء.

وقدم اللسان علىٰ اليد؛ لأن إيذاءه أكثر وقوعًا من إيذائها، وأسهل مباشرة وأشد نكاية منها، ولأن إيذاء اللسان يعم، فقد يؤذي البعيد والقريب، والحاضر والغائب، والميت والحي، بل غالبًا لا يكون باليد حتىٰ يعمل اللسان في ذلك، ولذلك قال ﷺ: «**املك عليك لسانك...**».

صحيح: أخرجه أبوداود (٤٣٤٣)، وهو في الصحيحة (٨٩٠).

قوله: (وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ)، هذه الهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة،

---

(٤٣٠)وأخرجه مسلم (٤٠)، وأبوداود (٢٤٨١)، والنسائي (٤٩٩٦).

فالظاهرة هي الفرار بالدين من الفتن، والباطنة أن يهجر ما نهاه الله عنه من المعاصي.

فيهأن كف أذىٰ اللسان واليد من كمال الإيمان، فإن فعل المعصية نقص إيمانه، قال**أحمد بن حنبل**: "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص إذا عملت الخير زاد، وإذا ضيعت نقص". إسناده **صحيح**: السنة للخلال (١٠١٣).

وفيه أن العبد يؤجر بالكف عن المعاصيامتثالًا. **وفيه** ذم الظلم والاعتداء. **وفيه** بيان حرمة المسلمين. **وفيه**ما كان عليه النبي ﷺ من جوامع الكلم. **وفيه** فضل الهجرة. **وفيه** أن الهجرة باقية ماضية إلىٰ يوم القيامة. **وفيه**أن الأصل في النهي التحريم؛ لأن الهجرة هي أبلغ من مجرد الترك. **وفيه** أن الأمر والنهي حقيقة لله -عز وجل-. **وفيه**إضافة الأفعال لله -عز وجل-.**وفيه**أن أفعال العباد مخلوقة. **وفيه** أن التحليل والتحريم لا يكون بالآراء والأهواء، وإنما يكون بالوحي. **وفيه** الرد علىٰ المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصية.

٥- بَابٌ: أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟

١١- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ الْقُرَشِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بُرْدَةَ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ **أَبِي مُوسَىٰ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»(٤٣١).

الشرح

قوله: (**أَيُّ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ؟**)، بمعنىٰ: أيُّ ذوي الإسلام أفضل؟ ويؤيده رواية مسلم: "أي المسلمين أفضل؟". وهذا الحديث يدلّ علىٰ أن الإسلام درجات، ومتفاوت المراتب.

قوله: (**مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**)، هذا الجواب خرج علىٰ سؤال سائل؛ لأن غيره سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ فقال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام** ...». الحديث

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن **جده**، أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، فقال: «**أن تسلم قلبك لله، وأن تولي وجهك إلىٰ الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة**».

حسن: أخرجه أحمد (٢٠٠٢٢)، وابن حبان (١٦٠)، وهو في الصحيحة (٣٦٩).

فدلَّ اتفاق السؤال واختلاف الجواب أن ذلك كله منه ﷺ في أوقات مختلفة، لأعيان مختلفة، فجاوب كل إنسان بما يحتاج إليه من العلم.

فيه تفاضل الأعمال. **وفيه** تأكيد عقيدة الإمام البخاري السلفية؛ في أن الإيمان يتجزأ، وهذا ما عليه السلف الصالح. **وفيه** تفاضل الناس في الدين والإيمان.

وفيه أن الإيمان مراتب بعضها فوق بعض، قال الله -عز وجل-: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [الأنفال: ٢] أي: إنما المؤمن حق الإيمان من كانت هذه صفته، ولذلك قال: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا**﴾ [الأنفال: ٤]، ومثل هذه الآية في القرآن كثير، ومعناه: أن هذا هو المؤمن المسلم حقًا، ومن هذا قوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**». صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٢)، وهو في صحيح الجامع (١١٢٨).

---

(٤٣١) وأخرجه مسلم (٤٢)، والترمذي (٢٥٠٤، ٢٦٢٨)، والنسائي (٤٩٩٩).

وهو الذي حقق الإيمان قولًا وفعلًا واعتقادًا.

وفيه أن كف الأذىٰ عن الناس، والإمساك عن الشر، مما يزيد في الإيمان، ويؤكد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**المؤمن من أمنه الناس علىٰ أموالهم وأنفسهم، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٣٩٥٨)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وهو في الصحيحة (٥٤٩).

وفيه أن كف اللسان يصير طاعة مع النية والاحتساب، ولذلك لما سئل عن عمل يدخل الجنة، دله علىٰ أمور، ثم قال له: «**وإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٨٦٧٠)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٦٩).

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من صمت نجا**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، وهو في الصحيحة (٥٣٦).

قال **ابن رجب**: "فليس الكلام مأمورًا به علىٰ الإطلاق، ولا السكوت كذلك، بل لا بد من الكلام بالخير، والسكوت عن الشر، وكان السلف كثيرًا يمدحون الصمت عن الشر، وعما لا يعني؛ لشدته علىٰ النفس، وذلك يقع الناس فيه كثيرًا، فكانوا يعالجون أنفسهم ويجاهدونها علىٰ السكوت عما لا يعنيهم، قال **الفضيل بن عياض**: ما حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان، ولو أصبحت يهمك لسانك أصبحت في همٍّ شديدٍ". جامع العلوم والحكم (ص ١٣٦).

وعن **ابن مسعود** رضي الله عنه- أنه ارتقىٰ الصفا، فأخذ بلسانه، فقال: "يا لسان قلْ خيرًا تغنم، واسكت عن شرٍّ تسلم، من قبل أن تندم"، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**». **حسن**: أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٤٣)، وهو في صحيح الترغيب (٢٨٧٢).

فالحديث يجمع مكارم الأخلاق الفعلية والقولية، فيشمل الأمر بالتخلي عن الرذيلة، والتحلي بالفضيلة، وحاصله من كان حاملًا للإيمان فهو متصف بالشفقة علىٰ خلق الله، قولًا بالخير، وسكوتًا عن الشر، وفعلًا لما ينفع، وتركًا لما يضر.

فيه دلالة الناس علىٰ جوامع الأمور، بجوامع الكلم. **وفيه** السؤال عما ينفع المرء في دينه، ويزيد في إيمانه. **وفيه** جواب السائلين بما ينفعهم، كل بحسب حاجته، سيما في مسائل الإيمان. **وفيه** تعليم الناس بطريق السؤال والجواب والفتاوىٰ، ولذلك كان الأئمة لهم سؤالات يسألون

فيها عن المسائل الشرعية.

وفيه تسمية تركأذىٰ المسلمين إسلامًا، ومما يدلّ من كلام العرب علىٰ أنَّ التركَ فعل، قول بعض الصحابة في وقت بنائه ﷺ لمسجده بالمدينة:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلل. أضواء البيان (٦/ ٤٩).

٦- بَابٌ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ

قوله: (بَابٌ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ مِنَ الْإِسْلَامِ)، جعل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الترجمة الإطعام من الإسلام وفي بعض النسخ "من الإيمان"، أي من خصال الإيمان، فأدخلها في مسمىٰ الإيمان، إذ الإسلام المذكور هنا هو الإيمان، والإيمان هو الإسلام، ولا يبلغ المرء حقيقة هذه الخصال حتىٰ يتعرف عليها فيكتمل إيمانه، ففي هذا دليلٌ وردٌّ علىٰ المرجئة، في تفاوت خصال الإيمان، وزيادته بها، ونقصانه بنقصانها.

١٢- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي الْخَيْرِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ(أي: تسلم) عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»(٤٣٢).

أطرافه في: (الإيمان٢٨، الاستئذان٦٢٣٦).

الشرح

قوله: (أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟)، المراد به خصال الإسلام، ومراده الإسلام التام الكامل.

والمعنىٰ: أن خير الإسلام لا يكون إلا بعد الإتيان بفرائضه، وليس المراد أن من اقتصر علىٰ هذه الدرجة فهو خير من غيره مطلقًا، فإن إطعام الطعام وإفشاء السلام لا يكونان من الإسلام إلا بالنسبة إلىٰ من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

قوله: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ)، فهو لفظ شامل وعام، ويشمل ذلك الأكل والشرب والضيافة والإعطاء. إرشاد الساري (١/ ١٦١).

وقد مدح الله المطعم للطعام، فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ...﴾ الآية [الإنسان: ٨]، ثم ذكر الله جزيل ما أثابهم عليه، فقال ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾ الآية [الإنسان: ١١].

---

(٤٣٢)وأخرجه مسلم (٣٩)، وأبوداود (٥١٩٤)، والنسائي (٥٠٠٠)، وابن ماجه (٣٢٥٣).

وعن حمزة بنِ صهيب، أن **صهيبًا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان يطعم الطعام الكثير، فقال له عمر: "يا صهيب إنك تطعم الطعام الكثير، وذلك سرف في المال"، فقال صهيب: إن رسول الله ﷺ كان يقول: «**خياركم من أطعم، الطعام ورد السلام**»، فذلك الذي يحملني علىٰ أن أطعم الطعام. حسن **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٣٩٢٦)، وابن أبي شيبة في مسنده (٤٨٣)، وهو في الصحيحة برقم (٤٤).

وكان **المغيرة بن عبدالرحمن** -الأعور- يطعم الطعام حيث ما نزل ينحر الجزور ويطعم من جاء. تهذيب الكمال(٢٨/ ٣٨٦).

وفي حديث **أبي موسىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أطعموا الجائع**...». سيأتي برقم (٥٣٧٣).

وهذا الحديث يفيد أن إطعام الطعام واجب لأنه أمر، والأمر يفيد الوجوب، يقول العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قيل: كيف يكون إطعام الجائع واجبًا عليّ، وأنا قد أديت الزكاة التي عليّ؟ قلنا: هذا الإطعام واجب لعارض، وأما الزكاة، فهي واجب دائم مستمر.

وهل إذا طلب منه جائع ولم يعطه هل يجوز للجائع أن يأخذه منه قهرا؟ الجواب: نعم يجوز أن يأخذه قهرا". شرح البخاري (١/ ٣١٢- ٣١٣) بتصرف.

وقيل **لابن المنكدر**: أي الدنيا أحب إليك؟، قال: "الإفضال علىٰ الإخوان". قال أبومعشر: كان سيدا -أي محمد بن المنكدر-، يطعم الطعام، ويجتمع عنده القراء -أي طلاب العلم-. السير (٥/ ٣٥٦).

ومما يدل كذلك علىٰ وجوب إطعام الطعام، حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه -عز وجل-: «**يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه؟** ....» الحديث. أخرجه مسلم (٢٥٦٩).

وقوله: (**وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**)، أي تسلم عليه. وقد جعل الشارع الإطعام والسلام من كمال الإسلام؛ إذ الإطعام مستلزم لسلامة اليد، والسلام مستلزم لسلامة اللسان، وخص هاتين الخصلتين بالذكر لمسيس الحاجة إليهما.

ومما يدل علىٰ ذلك أنه -عليه الصلاة والسلام- حث عليهما أول قدومه المدينة في

حديث **عبدالله بن سلام** رضي الله عنه، فقال: «**أفشوا السلام** -أي: أكثروه فيما بينكم-، **وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والناسُ نيام تدخلوا الجنة بسلام** -أي: سالمين من المكروه، أو يسلم عليكم الملائكة-»(٤٣٣). **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١٣٣٤)، وهو في الصحيحة (٥٦٩).

وعن **أنس** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ، وضعه الله في الأرض، فأفشوا السلام بينكم**». **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٩٨٩)، وهو في الصحيحة (١٨٤، ١٦٠٧).

وعن **عبدالله بن مسعود** رضي الله عنه- قال: "إن السلام اسم من أسماء الله وضعه الله في الأرض فأفشوه بينكم، إن الرجل إذا سلم علىٰ القوم فردوا عليه كانت له عليهم فضل درجة لأنه ذكرهم السلام، وإن لم يرد عليه رد عليه من هو خير منه وأطيب". **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٧٩٧)، وهو في الصحيحة (١٨٤، ١٦٠٧).

وقال مجاهد: كان **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما- يأخذ بيدي، فيخرج إلىٰ السوق، فيقول: "إني لأخرج، وما لي حاجة إلا لأسلم، ويسلم علي، فأعطي واحدة وآخذ عشرًا، يا مجاهد، إن السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ، فمن أكثر السلام، أكثر ذكر الله". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٢٦٠)، وشعب الإيمان (٨٤١٤).

وعن**ابن عمر** رضي الله عنهما- أنه كان يغدو فلا يمر بسَقَّاطٍ-وهو الذي يبيع السقط والردئ-، ولا صاحب بيعة إلا سلم عليه. **صحيح**: أخرجه مالك في الموطأ (٦)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٧٧٤)، وهداية الرواة (٤٥٨٧).

وسيأتي التوسع في ذلك في موضعه من كتاب الاستئذان -إن شاء الله-.

---

(٤٣٣)وهذا الحديث موافق لقوله تعالىٰ:﴿وعباد الرحمن الذين يمشون علىٰ الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾ فإفشاء السلام إشارة إلىٰ قوله:﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾، وإطعام الطعام إلىٰ قوله:﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا﴾ الآية. وصلاة الليل إلىٰ قوله:﴿والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا﴾.وقوله:«يدخلون الجنة» موافق لقوله:﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣- ٧٥]. شرح محمد فؤاد عبد الباقي علىٰ ابن ماجه (١/ ٤٢٣/ ١٣٣٤).

٧- بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ

قوله: **(بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)**، اقتبس المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ترجمته هذه من الحديث، وهو في إرادة الخير للمسلمين، وبيان حق من حقوقهم فيما بينهم، وأنّ هذا كله من الإيمان.

١٣- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَنْ حُسَيْنٍ المُعَلِّمِ، قَالَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، **عَنْ أَنَسٍ**(٤٣٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ**(الإيمان التام الكامل)**، حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»**(٤٣٥).

الشرح

قوله: **(لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ)**، النفي هنا لكمال الإيمان الواجب الذي يأثم صاحبه بتركه، وليس نفيًا لأصل الإيمان، وفي رواية: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان، حتىٰ يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير**». **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٢٣٥)، وصححه شيخنا **الألباني** في "التعليقات الحسان".

فهو في حال عدم محبته لأخيه ما يحب لنفسه ينقص إيمانه، فإن خرج من دائرة الإيمان بقي في دائرة الإسلام.

وعن الفضيل بن يسار؛ قال: قال **محمد بن علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "هذا الإسلام ودور دائرة في وسطها أخرىٰ، وهذا الإيمان الذي في وسطها مقصورًا في الإسلام؛ قال: قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن**». ثم قال: "يخرج من الإيمان إلىٰ الإسلام، ولا يخرج من الإسلام، فإذا تابَ تابَ الله عليه؛ قال ورجع إلىٰ الإيمان". السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٥٢/ ٧٥٧).

---

(٤٣٤)**فائدة**: أنس بن مالك في الصحابة اثنان لا ثالث لهما، **أحدهما**: هذا وهو الأشهر، **والثاني**: أبو أمية الكعبي، له حديث: «**إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة**». وفيهم: أنس بدون ابن مالك فوق العشرين. التوضيح (٢/ ٥٠٦- ٥٠٧).

(٤٣٥)وأخرجه مسلم (٤٥)، والترمذي (٢٥١٥)، والنسائي (٥٠١٦، ٥٠١٧، ٥٠٣٩)، وابن ماجه (٦٦).

قال **الآجري**: "ما أحسن ما قاله **محمد بن علي** رضي الله عنهما-، وذلك: أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي". الشريعة (٢/ ٥٩٢).

قوله: **(حَتَّىٰ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)**،المؤمن أخو المؤمن، يحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، يقول النبي ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ**» متفق عليه.

وفي حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ: «**لا تؤمنوا حتىٰ تحابوا**». أخرجه مسلم (٩٣).

وحديث **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما- مرفوعًا: «**فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلىٰ الناس الذي يحب أن يؤتىٰ إليه**». أخرجه مسلم (١٨٤٤).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً* وَلَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾ [النساء: ٧٢- ٧٣]: "فهؤلاء المبطئون لم يحبوا لإخوانهم المؤمنين ما يحبون لأنفسهم بل إن أصابتهم مصيبة فرحوا باختصاصهم وإن أصابتهم نعمة لم يفرحوا لهم بها بل أحبوا أن يكون لهم منها حظ فهم لا يفرحون إلا بدنيا تحصل لهم أو شر دنيوي ينصرف عنهم إذ كانوا لا يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ولو كانوا كذلك لأحبوا إخوانهم وأحبوا ما وصل إليهم من فضله وتألموا بما يصيبهم من المصيبة، ومن لم يسره ما يسر المؤمنين ويسوؤه ما يسوء المؤمنين فليس منهم".أمراض القلوب (ص ٣٠).

وفي رواية: «**حتىٰ يحب لأخيه من الخير ...**». قال **شيخنا الألباني**: "واعلم أن هذه الزيادة «**من الخير**» زيادة هامة تحدد المعنىٰ المراد من الحديث بدقة، إذ إن كلمة (**الخير**) كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية وتخرج المنهيات؛ لأن اسم الخير لا يتناولها، كما هو واضح. فمن كمال خلق المسلم أن يحب لأخيه المسلم من الخير مثلما يحب لنفسه، وكذلك أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، وهذا وإن لم يذكره في الحديث، فهو من مضمونه؛ لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاء كما قال الكرماني". الصحيحة (١/ ١٥٥/ ٧٣).

فيه أنّ الإيمان يتبعض. **وفيه** أن من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. **وفيه** جواز أن يحب الإنسان لنفسه الخير. **وفيه** أن الإيمان يزيد وينقص. **وفيه** تحريم الحسد والحقد والأثرة ونحوها. **وفيه** الحث علىٰ التواضع. **وفيه** أنه يبغض للمسلمين ما يبغض لنفسه.

ويؤيده ما ورد في وصية النبي ﷺ **لأبي هريرة** رضي الله عنه-: «**وأَحِبَّ للمسلمين المؤمنين ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكْرَهْ لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك تكن مؤمنًا** ...». حسن:أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وهو في صحيح الجامع (٧٨٣٣).

وفيه من علامات الإيمان أن يحب الرجل للمسلمين الخير كما يحب لنفسه.

فائدة: هل يحب للمسلمين أن يكونوا أفضل منه كما يحب لنفسه أن يكون أفضل منهم؟

الذي يظهر أنه لا يلزمه ذلك؛ لقول **عمر** رضي الله عنه- للنبي ﷺ لأنت أحب إليّ إلا من نفسي، فقال له: «**لا حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»، فعلم من هذا أنه خاص بالنبي ﷺ، لكن لابد من أن تتنبه إلىٰ أنه إذا حصل لأخيك ما كنت ترجوه لنفسك، أنك تسر بذلك كما لو كانت هذه المسرة لك.

٨- بَابٌ: حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: (بَابٌ: حُبُّ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ الإِيمَانِ)، ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا، ليبين عظم حق النبي ﷺ على كل مسلم، فإذا كانت محبة جميع الرسل من الإيمان، فمحبته ﷺ أحق وأكثر خصوصية من غيره من الأنبياء، ثم أورد ما يدل على ذلك من كلام خير البرية ﷺ.

وترجم له ابن منده في كتاب الإيمان بقوله: "ذكر ما يدل على أن حب رسول الله ﷺ من الإيمان".

١٤- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يُؤْمِنُ (الإيمان التام الكامل) أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»(٤٣٦).

١٥- حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ عَبْدِالعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، ح وحَدَّثَنَا آدَمُ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٤٣٧).

الشرح

قوله: (فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ)، صيغة حلف كان النبي ﷺ كثيرًا ما يحلف بها.

فيه جواز القسم ابتداءً على أمرٍ مهم. **وفيه** جواز القسم بصفات الله -عز وجل-. **وفيه** أنَّ الحلف يكون بالله -عز وجل- أو بصفاته. **وفيه** إثبات صفة اليد لله -عز وجل-.

قوله: (حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ)، أي: لا تصدق في حبي، ولا تبلغ الإيمان الكامل الواجب، حتى تؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك، والمراد بها: المحبة الإيمانية، وهي اتباع المحبوب، لا الطبيعية، ولذا لم يُحكَم بإيمان أبي طالب مع حبه للنبي ﷺ.

---

(٤٣٦) وأخرجه النسائي (٥٠١٥).

(٤٣٧) وأخرجه مسلم (٤٤)، والنسائي (٥٠١٣، ٥٠١٤)، وابن ماجه (٦٧).

ويدخل في قوله: «**والده**»، الوالدة أيضًا، وإن علا، والمراد: الأعزة، كأنه قال: أحب إليه من أعزته، وأقرب قريب.

قوله: (**وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**)، هذا من عطف العام علىٰ الخاص؛ كقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾[الحجر: ٨٧]، وفائدته أمران: الأول: الدلالة علىٰ التعميم؛ وهو أنه لا يكون المؤمن مؤمنًا حتىٰ يقدم محبة الرسول ﷺ علىٰ محبة جميع الخلق؛ وبهذا يكتمل إيمانه. والأمر الآخر: الدلالة علىٰ أهمية هذا الخاص؛ فإذا علمنا أن محبته ﷺ تقدم علىٰ محبة الوالدين والأبناء والنفس؛ فمن باب أولىٰ وأحرىٰ أن تقدم علىٰ سائر الناس كلهم.

ويدخل في عموم «**الناس أجمعين**» العبد نفسه، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٦]، ولما قال عمر للنبي ﷺ: أنت أحب إليّ من كل شيء، إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «**لا يا عمر، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال عمر: والله أنت الآن أحب إليّ من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**». سيأتي برقم (٦٦٣٢).

قال **أبو الزناد**(٤٣٨): "وهذا الحديث من جوامع الكلم الذي أوتيه عليه أفضل الصلاة والسلام؛ إذ أقسام المحبة ثلاثة: محبة إجلال وإعظام كمحبة الولد للوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الوالد لولده، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته". شرح البخاري لابن بطال (١/ ٦٦).

ومن محبته توقيره وتعزيره وتفخيمه، قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: "إنّ الله أمر بتعزيره فقال: ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**﴾ [الفتح: ٩]**والتعزير**: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه،

---

(٤٣٨)سراج بن سراج بن محمد بن سراج: من أهل قرطبة، يكنىٰ: أبا الزناد. وهو: ابن عم القاضي سراج بن عبد الله.

روىٰ عن أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي وغيره. حدث عنه أبو حفص عمر ابن كريب السرقسطي لقيه بها وقال: كان فقيهًا حاذقًا. وذكره ابن خزرج وقال: كان: من أهل العلم قديم الاعتناء به، **ثقة صدوقًا**. وذكر أنه أجاز له مع أبيه سنة سبع عشرة وأربعمائة. وكان مقيمًا بسرقسطة. وتوفي في محرم سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. وكان مولده سنة أربع وستين وثلاث مائة.الصلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ص ٢٢١).

والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار". الصارم المسلول (١/ ٤٢٢).

قال **ابن بطال**: "معناه: -أي الحديث- أن من استكمل الإيمان علم أن حق الرسول ﷺ آكد عليه من حق ولده ووالده والناس أجمعين؛ لأن به استُنْقِذنا من النار وهدينا من الضلال، والمراد بالحديث: بذل النفس دونه". شرح ابن بطال (١/ ٦٦).

"**فيجب تقديم محبة الرسول** ﷺ على النفوس، والأولاد، والأقارب، والأهلين، والأموال، والمساكن، وغير ذلك مما يحبه الناس غاية المحبة، **وإنما تتم المحبة بالطاعة والاتباع**، كما قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، ومعلوم أن محبة الرسول ﷺ إنما هي تابعة لمحبة الله جل وعلا، فإن الرسول إنما يحب موافقة لمحبة الله له، ولأمر الله بمحبته وطاعته واتباعه". تفسير ابن رجب (١/ ٤٩٦).

"ويتبين بهذا إذا تعارض أي أمرٍ أمَرَ به الرسول ﷺ مع رغبة من رغبات النفس، أو مع قول أي محبوب، فأيهما يقدم؟!

ويحرم تقديم محاب أحد علىٰ محابّ الله ورسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [التوبة: ٢٤]، "فتوعَّدَهم الله عز وجل علىٰ تفضيل محبتهم لغيره علىٰ محبته ومحبة رسوله ﷺ، والوعيد لا يقع إلا بترك فرضٍ لازمٍ وحتمٍ واجبٍ". المصدر السابق (١/ ٤٩٩).

قال **ابن القيم**: "فإذا كان هذا شأن محبّة عبده ورسوله، ووجوب تقديمها علىٰ محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين، فما الظنّ بمحبة مرسله -سبحانه وتعالىٰ-، ووجوب تقديمها علىٰ محبة ما سواه؟

ومحبّة الرب تعالىٰ تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها، فإنَّ الواجب له من ذلك أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه، فيكون إلهُه الحق ومعبوده أحبَّ إليه من ذلك كلِّه.

والشيء قد يُحَبُّ من وجه دون وجه، وقد يُحَبُّ لغيره، وليس شيءٌ يُحَبّ لذاته من كلّ

وجه إلا الله وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له، و ﴿لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [الأنبياء: ٢٢] والتألّه هو المحبة، والطاعة، والخضوع". الجواب الكافي (١/ ٤٦٥، ط: عالم الفوائد).

ولابدّ من أن تحبه -عليه الصلاة والسلام- وتؤثره علىٰ الأهل والمال والوالد والولد، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال «**من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**». أخرجه مسلم (٢٩٢٢).

ومن أسباب القرب منه أن تكون معه فيعظم توحيدك لربك، ويحسن خلقك، والإكثار من الصلاة والسلام عليه، والإكثار من الصلاة والسجود، والعناية بسنته والعمل بها والدعوة إليها، ومحبّة حديثه وتعظيمه، وتقديمه علىٰ كلّ قول، وأن تحبّ مجالسه، وتحث عليها، وأن تحب أهل بيته، وأصحابه وتذب عنهم، وتذم وتبغض كل ما يخالفه من شرك وبدع تميت السنن، وتنفر منها، ومن أهلها، وتذم كل رأي يخالفها.

فمن أحبّ الله أحب رسوله ﷺ ولابدّ؛ لأجل حبّ الله عز وجل له، فقد اتخذه الله خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، وهذه أعلىٰ درجات المحبة، فإن الرسول ﷺ إنما يحب لأجل الله، ويطاع لأجل الله كما قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، ولأن الله اصطفاه علىٰ الناس برسالته، وجعله خاتم النبيين، وأفضل الخلق أجمعين، وحباه الله من الخصائص، وأكرمه وفضله، وجعله سيد ولد آدم.

وقد حباه الله بأن جعل له القبول في الأرض بين الخلق، فما رآه أحد إلا أحبه، وقد تحقق هذا وأضعاف أضعافه، إذ لم تعرف الدنيا رجلًا فاضت القلوب بحبه وفدته النفوس بكلِّ عزيزٍ وغالٍ مثلما عرف ذلك عن رسول الله ﷺ حتىٰ أولئك الذين ناصبوه العداء لم يملكوا أنفسهم **من سيطرة الإعجاب برسول الله ﷺ وإجلاله**.

تعظيم ومحبة السلف للنبي ﷺ أعظم محبة

قال **ابن القيم**: "إنّ النبي ﷺ ألقىٰ الله عليه من المهابة والمحبة .... ولهذا لم يكن بشر أحب إلىٰ بشر، ولا أهيب وأجلّ في صدره من رسول الله ﷺ في صدر الصحابة رضي الله عنهم قال **عمرو بن العاص** رضي الله عنه- بعد إسلامه: إنه لم يكن شخص أبغض إليّ منه. فلما أسلمت، لم يكن شخص

أحبّ إليّ منه، ولا أجلّ في عيني منه، قال: ولو سئلت أن أصفه لكم لما أطقت، لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه؛ إجلالاً له. (أخرجه مسلم)

وقال **عروة بن مسعود** لقريش: يا قوم، والله لقد وفدت علىٰ كسرىٰ وقيصر والملوك، فما رأيت ملكًا يعظِّمُه أصحابه؛ ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمدًا ﷺ، والله ما يحدُّون النظر إليه تعظيمًا له، وما تنخَّم نُخامةً إلا وقعت في كَفِّ رجلٍ منهم، فيدلك بها وجهَهُ وصدره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون علىٰ وَضُوئه". جلاء الأفهام (ص ١٨٨، ت: شعيب الأرناؤوط -عبد القادر الأرناؤوط)بتصرف يسير.

وعن **أسامة بن شريك** رضي الله عنه- قال: أتيتُ رسول الله ﷺ **وأصحابُه حولَه، وعليهم السَّكينةُ، كأنَّما علىٰ رؤوسهم الطيرُ**، فسلَّمتُ، ثم قعدتُ، فجاءت الأعراب من ها هنا وها هنا يسألونه، فقالوا: يا رسول الله، أَنَتَدَاوىٰ؟ قال: «**تَدَاوَوْا، فإنّ الله تعالىٰ لم يَضَعْ داءًا إلا وضع له دواءًا، غيرَ داء واحد، وهو الهَرَمُ**». صحيح: أخرجه أبوداود (٣٨٥٥).

وعن **أنس** رضي الله عنه-، قال: لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب به عليه بحجفة(ترس) له ... فأشرف النبي ﷺ ينظر إلىٰ القوم، فيقول أبو طلحة: "يا نبي الله بأبي أنت وأمي لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، **نحري دون نحرك**". متفق عليه.

وعن **عنه** رضي الله عنه- أيضًا: أنّ رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متىٰ الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها؟**»، قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «**أنت مع من أحببت**».

قال **أنس**: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: «**أنت مع من أحببت**»، فأنا أحب النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم. متفق عليه.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- قال: خرج النبي ﷺ في ساعةٍ لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر، فقال: «**ما جاء بك يا أبا بكر؟**» فقال: خرجت ألقىٰ رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه ...". صحيح: صححه الألباني في مختصر الشمائل (١١٣).

وعن **عائشة** رضي الله عنها، قالت: "جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إليَّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك

فما أصبر حتىٰ آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتىٰ نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾[النساء: ٦٩] الآية". **صحيح**: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٧٧)، وهو في الصحيحة (٢٩٣٣).

ويدخل في هذا الشوق إلىٰ لقائه ﷺ، إذ كل حبيب يحب لقاء حبيبه، وحينما قدم الأشعريون المدينة كانوا يرتجزون:

غدًا نلقىٰ الأحبة.....محمدًا وصحبه[٤٣٩].

وكان **خالد بن معدان الكلاعي** -وهو من أعلام التابعين- لا يأوي إلىٰ فراشه إلا وهو يذكر فيه شوقه إلىٰ رسول الله ﷺ، وإلىٰ أصحابه من المهاجرين والأنصار، ثم يسميهم ويقول: "هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك"، حتىٰ يغلبه النوم. أخرجه ابن عساكر في تاريخه (١٦/ ١٩٩).

ومن محبته ﷺ **تعظيم حديثه**،فعن محمد بن إسحاق بن خزيمة قال: قلت **لأحمد بن نصر** -المقرئ النيسابوري- وحدث بخبر عن النبي ﷺ: أتأخذ به؟ فقال: "أترىٰ علىٰ وسطي زُنَّارًا؟ لا تقل بخبر النبي ﷺ أتأخذ به؟ وقل أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن النبي ﷺ قلتُ به، شئتُ أم أبيتُ". ذم الكلام (٢/ ١٧٥).

قال **البخاري** رحمه الله: "سمعت الحميدي يقول: كنا عند **الشافعي** رحمه الله، فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال: "قضىٰ فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا"، فقال الرجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: "سبحان الله! تراني في كنيسة؟! تراني في بيعة؟! ترىٰ علىٰ وسطي زُنَّارًا؟! أقول لك: قضىٰ رسول الله ﷺ، وأنت تقول: ما تقول أنت؟!". أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي (ص ٤٧٤).

وحرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره وتعظيمه لازمٌ كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه. التوسل والوسيلة لابن تيمية (٢/ ١٢٩).

وذُكر عن **مالك** أنه سئل عن أيوب السَّختياني فقال: "ما حدثتكم عن أحد إلا وأيوب أفضل

---

(٤٣٩)**صحيح**: أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٥، ١٥٥، ١٨٣)، وهو في الصحيحة (٢/ ٥٠- ٥١).

منه. قال: وحجّ حجتين فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه".

وقال مصعب بن عبد الله: كان **مالك** إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائه. فقيل له يومًا في ذلك فقال: "لو رأيتم ما رأيتُ لما أنكرتم عليّ ما ترون، لقد كنت أرىٰ **محمد بن المنكدر** -وكان سيد القراء- لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلا يبكي حتىٰ نرحمه".

ولقد كنت أرىٰ **جعفر بن محمد** -وكان كثير الدعابة والتبسم- فإذا ذُكِرَ عنده النبي ﷺ اصفرَّ لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا علىٰ طهارة.

ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلا علىٰ ثلاث خصال: إما مصليًا، وإما صامتًا، وإما يقرأ القرآن. ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله.

ولقد كان **عبد الرحمن بن القاسم** يَذْكُرُ النبيَّ ﷺ فينظر إلىٰ لونه كأنه نزف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله ﷺ.

ولقد كنت آتي **عامر بن عبد الله بن الزبير** فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ لا يبقىٰ في عينيه دموع.

ولقد رأيت **الزهري** وكان لمن أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته.

ولقد كنت آتي **صفوان بن سليم** وكان من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ فلا يزال يبكي حتىٰ يقوم الناس عنه ويتركوه.

هذا كله نقله القاضي عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة. التوسل والوسيلة (٢/ ١٢٩-١٣٠).

ومن تمام محبته ﷺ كثرة الصلاة عليه، وسيأتي الكلام عليها في موضعها -إن شاء الله-، قال **القشيري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويواظب عليها -أي: الصلاة عليه- المحبون له السابقون إلىٰ الخيرات المسارعون، فهل لكم أيها المدعون لمحبة الرسول ﷺ أن تكونوا بهذه النصوص عاملين؟ إذ فيها الأجر العظيم من رب العالمين، كلا بل تتركون هذا الوارد كله طول حياتكم، وبعد التأذين فقط تكونون بها صارخين؟ وإنَّ هذا قطعًا ليس من علامة المحبين لسيد المرسلين ﷺ، وإن أحدكُم لا

يؤمن حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جاء به هذا المعصوم الأمين ﷺ، ليس ابتداع المبتدعين واختراع المخترعين". السنن والمبتدعات (ص ٢٣٨).

ومن تلك البدع التي حدثت في الصلاة عليه: صلاة الفاتح لما أغلق، وكتاب: "دلائل الخيرات"، وما فيه من صلوات مبتدَعات.

تنبيه مهم يتعلق بالغلو في محبته ﷺ وتعظيمه

تبيَّن مما سبق كيف عظم السلف النبي ﷺ، ووقروه، وقدموا سنته، ورفعوها، وشددوا النكير علىٰ من خالفها تعظيمًا لها، وقد جاء من بعدهم فغلوا وجفوا، وادعوا محبة النبي ﷺ فرفعوه فوق منزلته التي أنزله الله -عز وجل- وهي منزلة العبودية الكاملة، وأضفوا عليه -بعض أو كل- صفات الربوبية عياذًا بالله من ذلك غلوًا وإطراءً.

وقد ورد النهي عن هذا في كتاب الله تعالىٰ، فتركوا ما أُمِروا به من حقه، وأهم ذلك: اتباعه ﷺ، والتأدب معه بلزوم سنته ﷺ، وعدم إطرائه، وخالفوا أمر الله تعالىٰ، وأَمرَ رسوله ﷺ في ذلك، وتجاوزوا الحد الشرعي، والحق المرعي، وفعلوا ما نهاهم الله عنه بقوله: ﴿**قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٧٧]، فغلوا فيه ﷺ، وفعلوا ما نهىٰ عنه النبي ﷺ، فعن **عمر بن الخطاب** قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تطروني**(٤٤٠)**كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**». سيأتي برقم (٣٤٤٥).

وعن مطرف، قال: قال **أبي**: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ: فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «**السيد الله تبارك وتعالىٰ**» قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا، فقال: «**قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٦٣١١)، وأبوداود (٤٨٠٦)، وهو في صحيح الأدب المفرد (١٥٥).

وفي حديث **أنس** رضي الله عنه-: «**والله، ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله**». **صحيح**: أخرجه

---

(٤٤٠)هو حسن الثناء، أي: لا تبالغوا في مدحي، ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله، كما بالغت النصارىٰ في مدح عيسىٰ -عليه السلام-، فجعلوه إلها أو ابن إله.

أحمد (١٣٥٢٩)،وهو في الصحيحة (١٠٩٧).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أيضًا: "ما كان في الدُّنيا شخصٌ أحبَّ إليهم رؤيةً من رسولِ اللهِ ﷺ، وكانوا إذا رأَوْه لم يقوموا له، **لما كان يعلمون من كراهيتِه لذلك**". إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم: أخرجه الترمذي (٢٧٥٤)، وهو في الصحيحة (٣٥٨).

ومن ذلك وصف النبي ﷺ بما لا يليق به، من أوصاف هي من خصائص رب العزة والجلال، وكذلك وصف محبة الناس له ﷺ بالعشق[٤٤١]، وما ورد في البردة للبوصيري؛ من شركيات، وغلو، وإطراء، ووصفه بأنه نورٌ حسي، أو خلق من نور، أو أنه يعلم الغيب، أو أن الدنيا والآخرة من جود وعطاء رسول الله ﷺ.

وفي الحديث حبّ النبي ﷺ من الإيمان. **وفيه** وجوب محبة الله -عز وجل-، وتحريم تقديم أحد علىٰ محبته؛ لأنه إذا كان الإيمان منفيًا عمن قدم محبة أحد علىٰ النبي ﷺ، فعدم تقديمها علىٰ محبة الله -عز وجل- أولىٰ.

وفيه وجوب محبّة حديث النبي ﷺ؛ قراءةً وحفظًا وشرحًا، وتعلمًا وتعليمًا. **وفيه** أن الإيمان يتجزأ. **وفيه** وجوب تقديم قول النبي ﷺ علىٰ كل قول سواه. **وفيه** جواز محبة الولد والوالد، والأهل، وأنه يجوز أن تجتمع مع محبة الله ورسوله ولكن تكونُ تابعةً لها. **وفيه** الإيماء إلىٰ التفكر ومحاسبة النفس. **وفيه** وجوب تعظيم جناب النبي ﷺ.

---

(٤٤١) قال العلامة الشيخ **بكر أبو زيد** في "معجم المناهي اللفظية" (ص ٣٩٢): "امتناع إطلاقه في حق النبي ﷺ كما في اعتراضات ابن أبي العز الحنفي علىٰ قصيدة عليّ بن أيبك الصفدي؛ لأنّ العشق هو الميل مع الشهوة، وواجب تنزيه النبي ﷺ إذ الأصل عصمته ﷺ". ا.هـ.

٩- بَابُ حَلاَوَةِ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابُ حَلاَوَةِ الإِيمَانِ)**، مقصوده: أنّ الحلاوة من ثمرات الإيمان، وهي تأتي من أثر الأعمال الصالحة لا سيما أعمال القلوب المذكورة في الحديث، وأنّ الأعمال لها تأثير علىٰ زيادة الإيمان وقوته.

١٦- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المُثَنَّىٰ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ** (يلقىٰ) **فِي النَّارِ»**[٤٤٢].

أطرافه في: (الإيمان٢١، الأدب٦٠٤١، الإكراه٦٩٤١).

الشرح

هذا حديثٌ عظيمٌ، وأصلٌ من أصولِ الإسلام.

قوله: **(وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ)**، للإيمان لذة وحلاوة يجدها المرء في قلبه، أعظم من لذة الطعام والشراب، ونحوها، قال **عليٌّ** رضي الله عنه-: "إنه لن يجد عبد أو يذوق حلاوة الايمان حتىٰ يستيقن يقينًا غير ظانٍّ أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه". **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق واللالكائي، وابن بطة في الإبانة (١٤٥٨).

فينبغي أن نحرص علىٰ الأعمال الصالحة، ولا سيما التي تشتمل علىٰ أعمال القلوب، لاستلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق في الله تعالىٰ، وإيثار ذلك علىٰ أغراض الدنيا، فعن **العباس بن عبدالمطلب** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا**». أخرجه مسلم (٥٦).

قال الشيخ **أبو محمد ابن أبي جمرة**: "إنما عبَّر بالحلاوة؛ لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في

---

(٤٤٢) وأخرجه مسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤)، والنسائي (٤٩٨٧، ٤٩٨٩)، وابن ماجه (٤٠٣٣).

قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، فالكلمة هي كلمة الإخلاص، والشجرة أصل الإيمان، وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير، وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الثمرة، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة، وبه تظهر حلاوتها". الفتح (١/ ١١٨).

فقد كانوا يستلذون الطاعة، ويأنسون بربهم، ويُسرون بعبادته، مما يجعلها خفيفةً عليهم، فهذا **خالد بن الوليد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول حين ذاق طعم الإيمان، وخالط بشاشة قلبه: "ما من ليلة يهدىٰ إليَّ فيها عروسٌ أنا لها محب، أو أُبشَّرُ فيها بغلام، أحبَ إليَّ من ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد، في سرية أصبِّحُ فيها العدو". الجهاد لابن المبارك (١/ ٩١).

ويصور **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ عظمة محبة الله ولذتها فيقول: "إنّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة". وقال بعضهم: "مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه". مدارج السالكين (١/ ٤٥٤).

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمحبة الله تعالىٰ ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي علىٰ هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرّة عين المحبين، وحياة العارفين...". الوابل الصيب (ص ٤٩).

ونقل **ابن القيم** عن ابن تيمية أنه قال: "إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه؛ فإن الرب تعالىٰ شكور". وقال: "أما أنا فطريقتي: الفرح بالله والسرور به".

وكان يقول -في محبسه في القلعة-: "لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم علىٰ ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا".

وقال أيضًا: "ولما أدخل إلىٰ القلعة وصار داخل السور نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

ويعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قطّ مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من

أطيب الناس عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم علىٰ وجهه، وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منّا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه: فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا، وقوةً ويقينًا وطمأنينةً.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها". المصدر السابق (ص ١٠٥- ١٠٦).

وذلك لأنهم كانوا يعبدون الله تعالىٰ بالرغبة فيها؛ فالعبادة عندهم بذاتها نعيمًا وسرورًا، وقرة عين، ولم يكونوا يشعرون بثقلها، ولا يتكلفون بها عناء.

فالله تعالىٰ يجازي العبد في الدنيا بإحسانه وتقواه جزاءً موفورًا غير ما أعدّ له في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿**قُلْ يَا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]، فذكر الله تعالىٰ فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة.

فالإحسان له جزاءٌ معجلٌ ولابد، والإساءة لها جزاء معجلٌ ولابد،**ولو لم يكن إلا ما يجازىٰ به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه، وقرة عينه، وسروره ولذاته بمعاملة ربه عز وجل وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته، وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالىٰ** أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه.

وما يجازىٰ به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه وهذا أمر لا يكاد من له أدنىٰ حس وحياة يرتاب فيه بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة، ونار دنيوية وجهنم حاضرة، **والإقبال علىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه والرضا به وعنه، وامتلاء القلب بمحبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة**. المصدر السابق (ص ٦٧).

قال **شيخ الإسلام**: "فإنّ المخلصَ لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، **إذ ليس عند القلب السليم أحلىٰ، ولا ألذ، ولا أطيب، ولا أسرَّ، ولا أنعمَ من حلاوة الإيمان**، المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلىٰ الله، فيصير القلب منيبًا إلىٰ الله، خائفًا منه، راغبًا،

راهبًا، كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]". العبودية (ص ١٢٣).

فنسأل الله تعالىٰ؛ أن يثبتنا علىٰ الإيمان، ويحببه إلينا، وأن يزينه في قلوبنا، وأن يغرس شجرته فيها ويسقيها بأعمال لنا تقربنا من الله زلفىٰ؛ لنذوق حلاوة الإيمان، ونجد فيها طعم الحياة به، فنعيش ونحيا في لذته، ويختم لنا به، ونموت ونبعث علىٰ الإيمان -إن شاء الله-، حتىٰ تتم سعادتنا ولذتنا في الآخرة بالنظر إلىٰ وجه ربنا الكريم فـ «**اللهم إنا نسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، والشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، وزينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**». **صحيح**: صحيح النسائي (١٣٠٥)، وهو في صحيح الجامع (١٣٠١).

فيه أنّ للإيمان حلاوة يجدها المؤمن في قلبه. **وفيه** أنّ الإيمان يزيد وينقص.

قوله:(**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**)، معناه: "أن من استكمل الإيمان علم أن حق الله ورسوله ﷺ آكد عليه من حق أبيه وأمه وولده وزوجه وجميع الناس؛ لأن الهدىٰ من الضلال والخلاص من النار إنما كان بالله علىٰ لسان رسوله ﷺ، **ومن علامات محبته نصر دينه بالقول والفعل والذب عن شريعته والتخلق بأخلاقه** والله أعلم".الفتح (١٠/ ٤٦٣).

يقول **شيخ الإسلام**: "وليس للقلوب سرورٌ ولا لذةٌ تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه".الفتاوىٰ (٢٨/ ٣٢).

وتفسيره في قوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾ الآية [البقرة: ١٦٥]، والأنداد: الأمثال والنظراء، كما قال **ابن كثير** وغيره من المفسرين، فكلّ من صرف من العبادة شيئًا لغير الله رغبة إليه، أو رهبة منه فقد اتخذه ندًّا لله؛ لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

قال العلامة **ابن القيم** رحمه الله: "فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه أي مع الله بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقىٰ في قلبه بقية حب حتىٰ يبذلها له، فهذا الحب وإن سميَ

عشقًا[٤٤٣] فهو في غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن لا تكون محبته لغير الله". كتاب التوحيد وقرة عيون الموحدين (ص ٤٨).

قلت: فإن كان النبي ﷺ لم يقبل من عمر رضي الله عنه - أن يجعل محبته لنفسه أكثر من محبة النبي ﷺ في قلبه، فكيف بمحبة الله المعبود الحق، الذي محبته أعلىٰ وأعظم وأجل؟!

فينبغي أن يؤثر العبد مولاه علىٰ كل شيء، وأن يخلص له المحبة من كل وجه، ويقدم محابه علىٰ كل شيء لتكتمل له درجة ومنزلة المحبة، فيكون الله عز وجل أحب محبوب في قلبه فلا يرجو سواه، ولا يعبد غيره، ولا يخشىٰ إلا إياه، ولا يلجأ إلا إليه، ولا يرغب، ولا يدعو أحدا سواه.

وقد توعدّ الله -تعالىٰ- من آثر أهله وقرابته وعشيرته علىٰ الله ورسوله وجهاد في سبيله، فقال تعالىٰ: ﴿**قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ**﴾، إلىٰ قوله: ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ**﴾[التوبة: ٢٤].

فيه أن محبة الله ورسوله ﷺ مكتسبة. **وفيه** وجوب محبة الله ورسوله ﷺ. **وفيه** أنه قد يجتمع في القلب محبة الله ورسوله ﷺ ومحبة غير الله ورسوله ﷺ. **وفيه** أهمية نصرة دين الله -عز وجل-، وحفظ شرعه وسنة نبيه ﷺ. **وفيه** أهمية محاسبة النفس. **وفيه** أن هناك معوقات تشغل عن الله ورسوله ﷺ ينبغي الحذر منها، فمن تعلق بشيءٍ عذب به ولابد.

مشكل الحديث

فإن قيل: كيف يجمع بين الله ورسوله في ضمير واحد «**سواهما**»، وقد قال ﷺ للخطيب الذي قال:"ومن يعصهما فقد غوىٰ": «**بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعصي الله ورسوله**» أخرجه

---

(٤٤٣) ينظر ما قاله الشيخ **بكر أبو زيد** رحمه الله في العشق في هذا الأمر، تحت باب حب الرسول من الإيمان، باب رقم (٨).

مسلم (٨٧٠).

الجواب: إشراك الله ورسوله في ضمير واحد يجوز إن كان من الشارع، أما من الخلق فممنوع، لقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**بئس الخطيب أنت**»، قاله لما قال الخطيب: "ومن يعصهما فقد غوىٰ". رجح هذا شيخنا الألباني في رسالته خطبة الحاجة (ص ٢١).

قوله:(**وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**)، أي: أن تكون محبته خالصة لله -عز وجل-، لا يعتريها مصالح دنيوية، وتكون المحبة في الله مبنية علىٰ التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والتناصح في الله، وورد عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما ينال ولاية الله بذلك"، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتىٰ يكون كذلك". أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٩١٥).

وزاد ابن أبي حاتم: "وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا، وذلك لا يجدي علىٰ أهله شيئا"(٤٤٤).

وروي أيضًا عن **كعب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "من أحب في الله وأبغض في الله وأعطىٰ في الله، ومنع في الله فقد استكمل الإيمان". أخرجه تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٠٧)، وهو في الصحيحة (٣٨٠).

وجاء في رواية أخرىٰ من حديث **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**وأن يحب في الله، وأن يبغض في الله**». **صحيح**: أخرجه النسائي (٤٩٨٧)، وهو في الصحيحة (٣٤٢٣).

وعن **معاذ بن أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله ﷺ قال: «**من أعطىٰ لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله؛ فقد استكمل إيمانه**». **حسن**: أخرجه أحمد (١٥٦١٦)، والترمذي (٢٥٢١)، وهو في والصحيحة (١/ ١١٣).

وعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عن النبي ﷺ قال: «...**ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن خلة الإسلام أفضل**». متفق عليه.

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله...**»، فذكر

---

(٤٤٤)أخرجه محمد بن نصر المروزي تعظيم قدر الصلاة (٣٩٦) من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد به. فيه ضعف لكنه يستأنس به.

منهم: «**رجلانِ تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه**». متفق عليه.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه-، عن الرسول ﷺ قال: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي**». أخرجه مسلم (٢٥٦٦).

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما-، عن النبي ﷺ قال: «**أوثق عرىٰ الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله**». **حسن بشواهده**:أخرجه الطبراني (١١/ ٢١٥)، برقم (١١٥٣٧)، وغيره، وهو في الصحيحة (١٧٢٨).

وعن **أبي أمامة** رضي الله عنه-؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أحب لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**». **حسن صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وهو في الصحيحة (٣٨٠).

ومن إكرام الله -عز وجل- للمتحابين فيه، ما ورد في حديث **أبي أمامة** رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: «**ما أحب عبد عبدًا لله إلا أكرمه الله -عز وجل-**». **إسناده جيد**:أخرجه أحمد (١٨٥٢٤)، وهو في الصحيحة (١٢٥٦).

وينال المتحابون في الله قربًا يوم القيامة من الله تعالىٰ، ففي حديث **ابن عمر** رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الشهداء والأنبياء يوم القيامة؛ لقربهم من الله تعالىٰ ومجلسهم منه**»، فجثا أعرابي علىٰ ركبتيه فقال: يا رسول الله! صفهم لنا، وجَلِّهم لنا؟! قال: «**قوم من أفناء الناس؛ من نزاع القبائل، تصادقوا في الله، وتحابوا فيه، يضع الله -عز وجل- لهم يوم القيامة منابرَ من نور، يخاف الناس ولا يخافون، هم أولياء الله عز وجل الذين ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[يونس: ٦٢]». **إسناده صحيح، رجاله ثقات**:أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٠- ١٧١)، وهو في الصحيحة (٣٤٦٤).

ومن الإكرام لهم استحقاقهم لمحبة الله -عز وجل-، ففي الحديث الإلهي، الذي رواه **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ يحكي عن ربه عز وجل: «**حقت محبتي للمتحابين فيَّ، وحقت محبتي للمتواصلين فيَّ، وحقت محبتي للمتناصحين فيَّ، وحقت محبتي للمتزاورين فيَّ، وحقت محبتي للمتباذلين فيَّ، المتحابون في علىٰ منابرَ من نور، يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء**». **صحيح**:أخرجه أحمد (٢٢٨٣٤)، وهو في صحيح الجامع (٤٣٢١).

وقال **يحيىٰ بن معاذ الرازي**: "حقيقة المحبة ألا تزيد بالبر، ولا تنقص بالجفاء، وأما

المحبة المشوبة بالأغراض الدنيوية، والحظوظ البشرية، فغير مطلوبة؛ لأن من أحب لذلك انقطعت عند حصول غرضه، أو إياسه منه، بخلاف المحبة الخالصة؛ فإنه تحصل الألفة الموجبة للتعاون علىٰ البر والتقوىٰ". التوضيح (٢/ ٥٣٢).

قال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإنّك إذا أحببت الشخص لله كان الله هو المحبوب لذاته، فكلما تصورته في قلبك، تصورت محبوب الحق فأحببته، فازداد حبك لله، كما إذا ذكرت النبي ﷺ والأنبياء قبله والمرسلين وأصحابهم الصالحين وتصورتهم في قلبك، فإن ذلك يجذب قلبك إلىٰ محبة الله المنعم عليهم، وكل من المحب لله والمحبوب لله يجذب إلىٰ الله".

وقال -أيضًا-: "وأما من يرجو النفع والنصر من شخص، ثم يزعم أنه يحبه لله، فهذا من دسائس النفوس، ونفاق الأقوال، وإنما ينفع العبد الحبُّ لله، لما يحبه الله من خلقه؛ كالأنبياء والصالحين؛ لكون حبهم يقرب إلىٰ الله". الزهد والورع (ص ٤٥-٤٦).

قلت: وكلما قويت محبة العبد لله قويت محبته لأولياء الله، وأحبائه، وقويت محبته لأوامر الله وشرعه، ونصر دينه.

وإذا لم يفعل ذلك ويقم بواجب المحبة لأولياء الله فسوف يستبدله الله بخير منه، قال **شيخ الإسلام**: "فإذا أحب أنبياء الله، وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره، وقد قال تعالىٰ: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤]". الفتاوىٰ (٥/ ١٨٦).

فيه أن للحب والبغض علامات يعرف بها في الظاهر. **وفيه** أن المؤمن تابع في حبه وبغضه لله، وما يحبه الله ويبغضه. **وفيه** وجوب المحبة والبغض في الله. **وفيه** أن الحب والبغض في الله من الإيمان. **وفيه** ذم الدنيا وما فيها إلا ما كان منها مؤديًا إلىٰ الله ورسوله ﷺ.

قوله: (**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**)، إنَّ من وجد حلاوة الإيمان وخالط قلبه، وعلم أن الكافر في النار، يكره الكفر؛ لكراهيته لدخول النار.قال **الحافظ**: "أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب الأدب -برقم (٦٠٤١)-، بلفظة: «**وحتىٰ أن يقذف في النار أحبَّ إليه من أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه الله**»، وهي أبلغ من لفظ حديث الباب؛ لأنه سوىٰ فيه بين أمرين، وهنا جعل الوقوع في نار الدنيا أولىٰ من الكفر الذي أنقذه الله بالخروج منه

من نار الأخرىٰ". الفتح (١/ ١٢١).

وفي رواية النسائي (٤٩٨٧):«**وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا**». وفي رواية أحمد (١٣٤٠٧):«**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ... ورجل أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع يهوديًا ونصرانيًا**»، قال حسن: «**أو نصرانيًا**». إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

وفيه كراهية الكفر وأهله. **وفيه** أن يحذر المرء ويخاف علىٰ نفسه من الكفر ومقدماته والطريق إليه وهي البدع والمعاصي. **وفيه** وجوب الفرار بالدين من ديار الشرك. **وفيه** الحذر من عذاب الله -عز وجل-. **وفيه** عدم التجنس بجنسيات الكفار لأنه عقد ولاء، وتكثير لسوادهم، وقد يؤدي ذلك إلىٰ ردة المرء، أو ردة أبنائه -عياذًا بالله-.

١٠ - بَابٌ: عَلاَمَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ

١٧ - حَدَّثَنَا أَبُو الوَلِيدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُاللهِ بْنُ عَبْدِاللهِ بْنِ جَبْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ». (٤٤٥)

طرفه في: (مناقب الأنصار ٣٧٨٤).

الشرح

قوله: (آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ)، «آية»، أي: علاماته ودلالته، وفي رواية أخرىٰ: «**حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق**». أخرجه مسلم (٧٤). وفي رواية: «**لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**». أخرجه مسلم (٧٥).

"ومعنىٰ هذه الأحاديث أن من عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم في نصرة دين الإسلام والسعي في إظهاره وإيواء المسلمين وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام، وحبهم النبي ﷺ، وحبه إياهم وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه وقتالهم ومعاداتهم سائر الناس إيثارًا للإسلام، كان ذلك من دلائل صحة إيمانه وصدقه في إسلامه لسروره بظهور الإسلام والقيام بما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله ﷺ، ومن أبغضهم كان بضدِّ ذلك، واستدل به علىٰ نفاقه وفساد سريرته". شرح النووي علىٰ مسلم (٢/ ٦٤)، بتصرف.

فيه فضل الأنصار، وأن حبهم إيمان وبغضهم كفر ونفاق. **وفيه** أنّ محبة الأنصار واجبة شرعًا، ويكتمل إيمان العبد ويضعف بقدر ما في قلبه من محبة الأنصار وضده. **وفي هذا** ردٌّ علىٰ أعداء الملة الروافض؛ فإنّ الرافضة تجعل الأئمة الاثني عشر أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وغلاتهم يقولون: إنهم أفضل من الأنبياء؛ لأنهم يعتقدون فيهم الإلهية كما اعتقدتها النصارىٰ في المسيح.

---

(٤٤٥) وأخرجه مسلم (٧٤)، والنسائي (٥٠١٩).

وفيه ردٌّ علىٰ الخوارج والمستشرقين وكلُّ من طعن في الصحابة، ولا سيما في المهاجرين والأنصار، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ المهاجرين والأنصار والسابقين إلىٰ الإسلام وعلىٰ أهل بيعة الرضوان، ونطق القرآن بمدحهم في مواضع كثيرة؛ منها قوله: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[التوبة: ١٠٠]؛فقد "أخبر الله -عز وجل- أنه رضي عنهم ورضي أعمالهم ورضي عمن اتبعهم بإحسان فهم القدوة في الدين بعد رسول الله ﷺ بإصابة الحق وأقربهم إلىٰ التوفيق لما يُقرِّب إلىٰ رضاه". الحجة (٢/ ٤٢٧).

وقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩]. وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحجرات: ٣]. وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللهُ وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ**﴾ [الزمر: ١٨]. وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿**أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٧]. وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوىٰ وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها**﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيمانًا مَعَ إِيمانِهِمْ**﴾ الآية، [الفتح: ٤]. وقال تعالىٰ: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الفتح: ٢٩] إلىٰ آخر السورة.

فالواجب سلامةُ قلوبِنا تجاه أصحاب رسول الله ﷺ، المهاجرين والأنصار خاصة، والدعاء لهم كما قال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذين آمنُوا رَبنَا إِنَّك رؤوف رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

وخصّ الأنصار بهذه المنقبة العُظْمَىٰ؛ لما امتازوا به من الفضائل، وجعل حبهم من علامات كمال إيمان العبد، أو نفس إيمانه.

وحب الأنصار؛ لحسن وفائهم بما عاهدوا الله عليه من إيواء نبيه ﷺ ونصره علىٰ أعدائه زمن الضعف والعسرة، وحسن جواره، ورسوخ صداقتهم وخلوص مودتهم له ولأصحابه، بل

وإيثارهم لهم علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

فيه أن تسمية المهاجرين والأنصار تسمية شرعية وردت في الكتاب والسنة.

وفيه أنه يجوز تحويل أسماء قوم كانت بينهم حروب، وجمعهم علىٰ اسم صالح؛ لينسوا ما بينهم من خلاف، وأن يجمعوا علىٰ اسم فيه طاعة لله تعالىٰ، ويميزوا به.

وقد ثبت في عدة أحاديث بيان فضل الأنصار تذكر في موضعها من الكتاب-إن شاء الله تعالىٰ-.

وأما ما جاء في **محبة** الأنصار فقوله ﷺ: «**من أحبّ الأنصار أحبه الله حين يلقاه، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله حين يلقاه**». حسن: أخرجه أحمد (١٧٩٣٧)، وهو في التعليقات الحسان (٧٢٢٩).وقوله ﷺ: «**لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر**». أخرجه مسلم (٧٦).

وعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**حب الأنصار إيمان، وبغضهم نفاق**». **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (١١٦٦٨).

بل إنّ النبي ﷺ كان يحب الأنصار، ويعلن ذلك، فعن **أنس** رضي الله عنه- قال: رأىٰ رسول الله ﷺ نساءً وصبيانًا من الأنصار مقبلين من عرس، فقال: «**اللهم أنتم من أحبِّ الناسِ إليَّ**». متفق عليه.

ودعا النبي ﷺ لهم ولأبنائهم وأزواجهم وذراريهم، ومواليهم فقال: «**اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأزواج الأنصار ولذراري الأنصار، الأنصار كَرِشي**[٤٤٦] **وعيبتي ولو أن الناس أخذوا شعبًا وأخذت الأنصار شعبًا لأخذت شعب الأنصار ولولا الهجرة كنت امرأً من الأنصار**». أخرجه أحمد (١٢٥٩٤)، وأصله متفق عليه.

وأوصىٰ بهم خيرًا، وأوجب موالاتهم؛ فعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأنصار عيبتي التي أويت إليها، فاقبلوا من محسنهم، واعفوا عن مسيئهم، فإنهم قد أدوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم**». **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٦٥٠).

---

(٤٤٦) الكرش للحيوان المجتر بمنزلة المعدة للإنسان مستودع الثياب، **والمعنىٰ**: إنهم بطانتي وخاصتي، وموضع سري وأمانتي.

وعن **أنس بن مالك**رضي الله عنه- قال: خرجت مع جرير بن عبد الله البجلي في سفر، فكان يخدمني، فقلت له: لا تفعل. فقال: "إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا، آليت(حلفت) أن لا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته". أخرجه مسلم (١٨١).

فيه أنه يجوز للعبد أن يخبر عن مناقب قومه إن أمن غرورهم، وفتنتهم. **وفيه** أهمية نصرة النبي ﷺ، وسنته. **وفيه** فضل أهل الحديث، ووجوب محبتهم، فلا يبغضهم رجل مؤمن، قال **أبو عثمان الصابوني** رحمه الله، ولنعم ما قال: "إحدىٰ علامات أهل السنة حبهم لأئمة السنة وعلمائها وأنصارها، وأوليائها، وبغضهم لأئمة البدع الذين يدعون إلىٰ النار، ويدلون أصحابهم علىٰ دار البوار، وقد زين الله سبحانه قلوب أهل السنةِ ونورها بحبِ علماءِ السنةِ فضلًا منه -جل جلاله-". عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص١٠٧).

وفيه بغض المنافقين وأهل البدع والباطل للمؤمنين وأهل الحق والسنة والدين، قال **خيثمة**: "والله ما أحبَّ منافقٌ مؤمنًا أبدًا". صفة النفاق وذم المنافقين (٩٢).

وفيه أنّ العبد قد يقوم بعمل جليلٍ يبارك له فيه، وفي ذريته.

١١- بَابٌ

١٨- حَدَّثَنَا أَبُواليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُوإِدْرِيسَ عَائِذُاللهِ بْنُ عَبْدِاللهِ، **أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ** رضي الله عنه **وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ**(والنقيب: الناظر على القوم وعريفهم) **لَيْلَةَ العَقَبَةِ**(موضع بمنىً): **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ**(ما بين العشرة إلى الأربعين) **مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ**(أي: بكذب فظيع) **تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ**(أي: من قِبَلِ أنفسكم)، **وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَىٰ مِنْكُمْ**(ثبت على العهد) **فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**(فضلًا ووعدًا أي: بالجنة)، **وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا**(غير الشرك) **فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا**(بأن أقيم عليه الحد) **فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ**(فلا يعاقب عليه في الآخرة)، **وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**(بفضله) **وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ**(بعدله)» **فَبَايَعْنَاهُ عَلَىٰ ذَلِكَ.**(٤٤٧)

أطرافه في: (مناقب الأنصار٣٨٩٢، ٣٨٩٣، المغازي٣٩٩٩، التفسير٤٨٩٤، الحدود٦٧٨٤، ٦٨٠١، الديات٦٨٧٣، الفتن٧٠٥٥، الأحكام٧١٩٩، ٧٢١٣، التوحيد٧٤٦٨).

الشرح

قوله: **(ليلة العقبة)**،والعقبة، موضع بمنىٰ وهي التي تنسب إليها جمرة العقبة.

و"هذه أول بيعة عُقِدَت علىٰ الإسلام، وهي بيعة العقبة الأولىٰ بمكة، ولم يشهدها غير اثني عشر رجلا من الأنصار". شرح البخاري لابن بطال (١/ ٦٩).

وقال **ابن بطال** رحمه الله: "إن الأنصار هم المبتدئون بالبيعة علىٰ إعلان توحيد الله وشريعته، حتىٰ يموتوا علىٰ ذلك؛ فحبهم علامة الإيمان، ومجازاة لهم علىٰ حبهم من هاجر إليهم، ومواساتهم لهم في أموالهم كما وصفهم الله تعالىٰ، واتباعًا بحب الله ورسوله ﷺ لهم، فوجبت لهم محبة الله، ومن أحبه الله وجب علىٰ العباد محبته.

---

(٤٤٧)وأخرجه مسلم (١٧٠٩)، والترمذي (١٤٣٩)، والنسائي(٤١٦١، ٤١٦٢، ٤١٧٨، ٤٢١٠، ٥٠٠٢).

وقد مدح الله تعالىٰ الذين يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ﴾ [الحشر: ١٠]؛لأنهم سنوا لنا سنة حسنة، لهم أجرها وأجر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة". المصدر السابق (١/ ٦٩) بتصرف يسير.

وقوله: (بَايِعُونِي عَلَىٰ)، وهذا تصريح بأن هذه البيعة كانت بالمدينة؛ لأن بيعة النساء مدنية، **ومناسبته للترجمة**؛ أنّ الأنصار لهم من السبق إلىٰ الإسلام بمبايعة الرسول ﷺ ما استحقوا به هذه الفضيلة.

فدلّالحديث علىٰ فضل الأنصار، وأن حبهم من الإيمان، وكلما زادت محبتهم في قلب العبد زاد إيمانه.

وفي لفظ من حديث **عبادة**رضي الله عنه-، قال: «**بايعنا رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقومَ أو نقولَ بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم**».سيأتي برقم (٧١٩٩).

وكان ذلك في العقبة الآخرة، وقد أخبر الله -جل وعلا- عن تلك البيعة كما في قوله تعالىٰ: ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلىٰ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٢].

وقوله: (**أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ**)، اتفقت روايات حديث عبادة أنهم بايعوه علىٰ أن لا يشركوا بالله، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا، فهذا واضح موافق لما في الآية.

وفي بعض الروايات: "ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا ننتهب، ولا يعضه بعضنا بعضًا[٤٤٨]، ولا نعصي".متفق عليه.

وقوله: (**وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ**)، اختلف المفسرون في

---

(٤٤٨)العضيهة تعني: النميمة، وعن **ابن مسعود** رضي الله عنه مرفوعًا، قال: «**ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس**».أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

البهتان المذكور في آية بيعة النساء: فأكثرهم فسروه بإلحاق المرأة بزوجها ولدًا من غيره، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-. فتح الباري لابن رجب (١/ ٧٣).

وقال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد دلت مبايعة النبي ﷺ الرجال علىٰ أن لا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم: أن ذلك لا يختص بالنساء، وجميع ما فسر به البهتان في حق النساء يدخل فيه الرجال أيضا، فيدخل فيه استلحاق الرجل ولد غيره، سواء كان لاحقا غيره أو غير لاحق، كولد الزنا". المصدر السابق (١/ ٧٤).

ويدخل فيه الكذب والغيبة، وقد قال النبي ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**». أخرجه مسلم (٢٥٨٩)، وكذلك يدخل فيه القذف، وقد سمىٰ الله قذف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهتانًا عظيمًا، وكذلك النميمة من البهتان، كما في حديث **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مرفوعا، قال: «**ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة، القالة بين الناس**». أخرجه مسلم (٢٦٠٦)".المصدر السابق (١/ ٧٥) بتصرف.

قوله: **(وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ)**، تشمل جميعَ أنواع المعاصي؛ فهو من باب ذكر العام بعد الخاص، وهو قريب من معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[النور: ٥٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ [الممتحنة: ١٢]. وفي بعض ألفاظ الحديث: «**ولا تعصوني في معروف**»، سيأتي برقم (٣٨٩٢).

فيه دليل علىٰ أن الطاعة لا تكون إلا في المعروف، ولا يطاع في معصية الله؛ لأنّ حَقَّهُ مُقدَّم، كما في الحديث عن **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أن النبي ﷺ قال: «**لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف**». سيأتي برقم (٧٢٥٧).

وقوله: **(فَمَنْ وَفَىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ)**، أي: من قام بما أمر به فأجره علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً**﴾ [الفتح: ١٠].

وأما من لم يوف بها، بل نكث بعض ما التزم بالبيعة -ما عدا الشرك- فهو إلىٰ الله؛ وهؤلاء

علىٰ قسمين:

أحدهما: أن يعاقب في الدنيا، فأخبر أن ذلك كفارة له، وفي رواية: «**فهو كفارة له وطَهُور**». سيأتي برقم (٦٨٠١)؛لذلك ثبت عن النبي ﷺ أنه قال:«**ومن أتىٰ منكم حدًّا، فأقيم عليه، فهو كفارته**». أخرجه مسلم (١٧٠٩).

والثاني: أنه لم يعاقب في الدنيا بذنبه، بل ستر اللهُ عليه ذنبَهُ، ولم يُقَم عليه الحد؛ فهذا أمره إلىٰ الله في الآخرة، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، وهذا موافق لقول الله -عز وجل-: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

فيه ردٌّ علىٰ الخوارج؛ من جهة أن فعل العبد تحت المشيئة، وأنه لم يكفر بذنبه. **وفيه** ردٌّ علىٰ المرجئة؛ من جهة أنه قد يعذبه الله، وأن المعصية أضرت به. **وفيه** ردٌّ علىٰ بعض الفرق المعاصرة؛ بأن البيعة لا تكون إلا للإمام أو من ينوب عنه.

١٢- بَابٌ: مِنَ الدِّينِ الفِرَارُ مِنَ الفِتَنِ

قوله: **(بَابٌ: مِنَ الدِّينِ الفِرَارُ مِنَ الفِتَنِ)**، هذا باب في ترك المسلم الاختلاط بالناس ومعاشرتهم، واختياره العزلة والانقطاع فرارًا بدينه من الفتن، ولم يقل من الإيمان الفرار من الفتن كما هي عادته في تراجمه في (كتاب الإيمان)؛ لإرادته موافقة لفظ الحديث فيما يظهر -والله أعلم-، وإلا فالمقصود بالدين: الإيمان، فدل علىٰ أن الفرار من الفتن من الإيمان، وأن المؤمن يخاف علىٰ إيمانه من النقصان.

١٩-حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ،**عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ** ﷺ، **أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ**(رؤوسها) **وَمَوَاقِعَ القَطْرِ**(مواضع نزول المطر)**، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ»**(٤٤٩).

أطرافه في: (بدء الخلق ٣٣٠٠، المناقب ٣٦٠٠، الرقاق ٦٤٩٥، الفتن ٧٠٨٨).

الشرح

قوله: **(يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ)**، "أي: قرب الوقت وأوشك مجيئه، وإنما كان الغنم خير مال المسلم -حينئذ-؛ لأن المعتزل عن الناس بالغنم يأكل من لحومها ونتاجها، ويشرب من ألبانها، ويستفيد من أصوافها باللبس وغيره، وهي ترعىٰ الكلأ في الجبال وترد المياه؛ وهذه المنافع والمرافق لا توجد في غير الغنم". فتح الباري لابن رجب (١/ ١٠٧).

قال **أبوالزناد القرطبي** رحمه الله: "خص الغنم من بين سائر الأشياء حضا علىٰ التواضع، وتنبيها علىٰ إيثار الخمول وترك الاستعلاء والظهور، وقد رعاها الأنبياء والصالحون". شرح البخاري لابن بطال (١/ ٧١).

---

(٤٤٩)وأخرجه أبوداود (٤٢٦٧)، والنسائي (٥٠٣٦)، وابن ماجه (٣٩٨٠).

فما من نبي إلا رعىٰ الغنم، وفي الحديث: «**وصلوا في مرابض الغنم، فإنها بركة**». صحيح: صحيح أبي داود (١/ ٣٧)، برقم (١٦٩).

وفي الحديث: «**اتخذوا الغنم فإنها بركة**».**صحيح**: تخريج المسند لشعيب (٢٧٣٨١)، وهو فيصحيح الجامع (٨٢).

وفي هذا الحديث رد علىٰ الصوفية من وجهين:

الأول: ما قاله **ابن الجوزي**: "فيه دلالةٌ علىٰ فساد قول من زعم من المتصوفة أنه لا يصح لعبد التوكل علىٰ ربه إلا بأن يصبح ولا شيء عنده من عين ولا عَرَض ويمسي كذلك ألا ترىٰ كيف ادخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة". تلبيس إبليس (ص ٢٢٦).

والثاني: أن ما عليه الصوفية الآن من الضلال الواضح ليس من دين الله تعالىٰ في شيء يحملون أنفسهم أوزارًا من العبادات ليس لها خطام ولا زمام فتراهم يثقلون كاهلهم بذلك فيسيح أحدهم في البراري ويعاشر الأفاعي والوحوش ويطيل الصمت كل هذا حتىٰ يصل إلىٰ مرتبة الكشف وخوارق العادة؛ فهذا الفعل ليس من الدين في شيء؛ لأنه خروج عن العدل، وبعضهم يستدل بهذا الحديث علىٰ فعله!!

ورد عليهم من جهة أخرىٰ: وهي أن بعضهم: وهم الذين يدخلون البادية بلا زاد ولا عدة يزعمون أنهم متوكلون فيموتون في البراري.

قال **ابن الجوزي**: "هذا جاهل بحكم الشرع إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز دخول البادية بغير زاد وإن من فعل ذلك فمات بالجوع فإنه عاص لله تعالىٰ مستحق لدخول النار، وكذلك إذا تعرض بما غالبه العطب فإن الله جعل النفوس وديعة عندنا فقال: ﴿**وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ [النساء: ٢٩]". المصدر السابق (ص ٣٦٦).

قوله: (**شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ**)، **شعف الجبال**: رؤوسها، وشعفة كل شيء أعلاه؛ فإنها تعصم من لجأ إليها من عدو. و**مواقع القطر**: أماكن المطر؛ لأنه يجد فيها الكلأ والماء، فيشرب منها ويسقي غنمه، وترعىٰ غنمه من الكلأ.

والمقصود من الحديث قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث يدل علىٰ إباحة الانفراد والاعتزال عند ظهور الفتن، طلبًا لإحراز السلامة في الدين؛ خشية أن تحل عقوبة فتعم الكل،

وهذا كله من كمال الدين". شرح البخاري لابن بطال (١/ ٧١).

ومثله حديث **حذيفة بن اليمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وفيه قوله -عليه الصلاة والسلام: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتىٰ يدركك الموت وأنت علىٰ ذلك**». سيأتي برقم (٧٠٨٤). وغيره من الأحاديث.

وما ذلك إلا لعلو إيمانه؛ فيحرص علىٰ حفظ دينه ولا يضحي به، فرأس ماله هو دينه؛ فيفر من الفتن فراره من السبع، خشية تأثره بالفتن.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد اعتزل جماعة من أصحابه في الفتن في البوادي، وقال **الإمام أحمد**: إذا كانت الفتنة فلا بأس أن يعتزل الرجل حيث شاء، فأما إذا لم يكن فتنة؛ فالأمصار خير". فتح الباري (١/ ١٠٩).

قوله: (**يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ**)، والمراد أن الفرار للخوف علىٰ دينه من الفتن شعبة من شعب الدين؛ فتقدير الكلام: الفرار من الفتن شعبة من شعب الدين، وهو من صيانة الدين والحفاظ عليه.

وفي الحديث بيان أن يفر بدينه من الفتن، فالحامل له هو الفرار من الفتن المتحققة في حقه، وليس ذهابه في البراري والقفار هو طاعة وقربة بذاتها، كما جاء في الحديث: «**ليفرن الناس من الدجال في الجبال**» قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال:«**هم قليل**». أخرجه مسلم (٢٩٤٥).

وجاء في حديث**النواس بن سمعان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في قصة عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- وفيه: «**فحرّز عبادي إلىٰ الطور**». أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

فيه كون الفتن تؤثر في الإيمان وتخدش في الدين. **ففيه** ردٌّ علىٰ المرجئة. **وفيه** أهمية الهجرة لله، وإن كلف ذلك شيء من المشقة. **وفيه** الحرص علىٰ المال الحلال. **وفيه** علم من أعلام نبوته ﷺ. **وفيه** أن العزلة لا تمدح إلا إذا خشي الإنسان علىٰ دينه. وفي الحديث: «**المؤمنُ الَّذي يخالطُ النَّاسَ ويصبرُ علىٰ أذاهم، أعظمُ أجرًا منَ المؤمنِ الَّذي لاَ يخالطُ النَّاسَ ولاَ يصبرُ علىٰ أذاهم**». صحيح:أخرجه أحمد (٥٠٢٢)، وهو في صحيح ابن ماجه (٣٢٧٣)، واللفظ له.

١٣ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ» وَأَنَّ المَعْرِفَةَ فِعْلُ القَلْبِ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

قوله: (**بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ ...**)، هذا باب في بيان أن قول النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**»، يدلّ علىٰ أن المعرفة فعل القلب، وأن أعمال القلوب من الإيمان، وأن أفعال القلوب هي من الاعتقادات، لذلك قال تعالىٰ: ﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾، كسبت قلوبكم: أي: بما اعتقدته وأضمرته، فسمىٰ ذلك الاعتقاد فعلا للقلب، وأخبر أنه لا يؤاخذ عباده بالأعمال إلا بما اعتقدته وعزمت عليه قلوبهم؛ فثبت بذلك أن الإيمان من صفات القلوب، وهو خلاف قول الكرامية: أن الإيمان قول باللسان دون عقد بالقلب.

٢٠- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدَةُ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ **عَائِشَةَ** رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ، قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ(ليس حالنا كحالك) يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَغْضَبُ حَتَّىٰ يُعْرَفَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا**»(٤٥٠).

الشرح

قوله: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ، أَمَرَهُمْ مِنَ الأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ)، أي: بعمل سهل عليهم، يستطيعون المداومة عليه؛ وذلك أن خير الأعمال ما داوم عليه العبد، كما في الحديث أنه ﷺ«**كان أحب الدين إليه مادام عليه صاحبه**». سيأتي برقم (٤٣)، «**وإن أحب الأعمال إلىٰ الله ما دووم عليه، وإن قل**». أخرجه مسلم (٧٨٢)، وقد كان رسول الله ﷺ«**عمله ديمة**».متفق عليه.

وسبب هذا الحديث أنهم "كانوا لشدة حرصهم علىٰ الطاعات يريدون الاجتهاد في العمل،

---

(٤٥٠) وأخرجه مسلم (١١١٠)، وأبوداود (٢٣٨٩).

فربما اعتذروا عن أمر النبي ﷺ بالرفق، واستعماله له في نفسه أنه غير محتاج إلىٰ العمل، بضمان المغفرة له، وهم غير مضمون لهم المغفرة، فهم يحتاجون إلىٰ الاجتهاد ما لا يحتاج هو إلىٰ ذلك". فتح الباري لابن رجب (١/ ٨٩).

فبيَّن لهم -عليه الصلاة والسلام- أنه أولىٰ الناس بالأعمال الصالحة، وأنهم لا يمكنهم الزيادة علىٰ فعله؛ فإنَّ الله أكرمه وجعله أتقىٰ الناس وأعلمهم بالله وأخشاهم له، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّما يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله: (قَالُوا: إِنَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ...)، أرادوا بهذا الكلام طلب الإذن في الزيادة من العبادة، والرغبة في الخير، يقولون: أنت مغفور لك، لا تحتاج إلىٰ عمل، ومع هذا أنت مواظب علىٰ الأعمال، فكيف بنا وذنوبنا كثيرة، فرد عليهم، بقوله: (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا)، فأتقاكم: يدلُّ علىٰ الإشارة إلىٰ كمال القوة العملية، وأعلمكم: إلىٰ كمال القوة العلمية، وكان -عليه الصلاة والسلام- جامعًا لأقسام التقوىٰ، حاويًا لأقسام العلوم، وقد بلغ الدرجة العليا والمرتبة القصوىٰ منهما ﷺ. عمدة القاري (١/ ١٦٧)بتصرف.

في الحديث أن الأعمال الصالحة ترقي صاحبها إلىٰ المراتب السنية في الإيمان؛ فيزيد بزيادتها دونما تكلف، مع الاجتهاد والمجاهدة، من غير تشديد علىٰ النفس. **وفيه** ترفق العبد بنفسه، وبغيره في العبادات. **وفيه** النهي عن الغلو في العبادة. **وفيه** الغضب لله والخوف علىٰ الناس من أن يبتدعوا في الدين. **وفيه** أن أمة النبي ﷺ ليست مثله في العبادة والتقوىٰ ولابد أن تكون دونه، فإذا كان الصحابة ليسوا مثل النبي ﷺ في عبادته؛ فمن باب أولىٰ من بعدهم. **وفيه** ردّ علىٰ الكرامية الذين يقولون: إنه يكتفىٰ في الإيمان بقول اللسان، والحديث فيه الجمع بين قول اللسان وعمل القلب والجوارح.

وفيه أنّ الرجل الصالح ينبغي ألا يترك الاجتهاد في العمل اعتمادًا منه علىٰ صلاحه. **وفيه** ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يسقطون التكاليف عمن وصل عندهم مرتبة الولاية في زعمهم. **وفيه** أنّ من مقاصد الشريعة مراعاة أحوال الناس. **وفيه** أنه إذا اجتمع العلم والعمل فهي من أسباب ولاية الله -عز وجل-، وأهمية الجمع بينهما.

١٤- بَابٌ: مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابٌ: مَنْ كَرِهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ . . .)**، ترجم المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ حديث الباب؛ لبيان أن كراهة من كره العود في الكفر ككراهة الإلقاء في النار، وأن هذه الكراهة هي من شعب الإيمان.

٢١- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ»**(٤٥١).

تقدم في: (الإيمان١٦).

الشرح

قوله: **(وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ . . .)**،**معناه**: أن من وجد حلاوة الإيمان، وخالط قلبه؛ علم أن الكافر في النار، فكره الكفر لكراهيته لدخول النار. شرح البخاري لابن بطال (١/ ٦٨).

وهذا بذاته دليلٌ علىٰ قوة إيمانه بخلاف من يبيع دينه بعرض من الدنيا، ومثاله المرأة التي في قصة أصحاب الأخدود، وفيه: «**فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود**(الأخدود هو الشق العظيم في الأرض)**في أفواه السكك**(أي: أبواب الطرق)، **فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها**(اطرحوه فيها كرها)، **أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتىٰ جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست**(أي: توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول في النار)**أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك علىٰ الحق**». أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

---

(٤٥١)وأخرجه مسلم (٤٣)، والترمذي (٢٦٢٤)، والنسائي (٤٩٨٧، ٤٩٨٩)، وابن ماجه (٤٠٣٣).

وقصة خباب رضي الله عنه- وفيه: "**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب علىٰ غنمه، ولكنكم تستعجلون**". سيأتي برقم (٣٦١٢).

وخوف المرء دينه وكراهته للكفر أن يتخذ أسباب الثبات علىٰ الدين، بالدعاء بما ورد عن النبي ﷺ؛ ومن ذلك: «**يا ولي الإسلام وأهله مسكني بالإسلام حتىٰ ألقاك**». إسناده حسن:أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦١) وهو في الصحيحة (١٨٢٣).و: «**اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد**». إسناده حسن:أخرجه أحمد (٣٧٩٧)، وهو في الصحيحة(٢٣٠١).والتعوذ من: «... **الحور بعد الكور**». أخرجه مسلم (١٣٤٣).و:«**وأعوذ بك من الفقر والكفر والشرك والنفاق والسمعة والرياء**». صحيح: صحيح موارد الظمآن (٢٠٧٢)، والصحيح المسند للعلامة مقبل الوادعي (١/ ٥٦).و: «... **اللهم يا مقلب القلوب**».صحيح:أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٥٢٧).

قال **الحافظ** رحمه الله: "أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب الأدب -برقم (٦٠٤١)-، بلفظ: «**وحتىٰ أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلىٰ الكفر بعد إذ أنقذه الله**»، وهي أبلغ من حديث الباب؛ لأنه سوىٰ فيه بين أمرين، وهنا جعل الوقوع في نار الدنيا أولىٰ من الكفر الذي أنقذه الله بالخروج منه من نار الأخرىٰ". الفتح (١/ ١٢١)بتصرف يسير.

مشكل الحديث

وقوله: «**بعد إذ أنقذه الله**»، يطلق علىٰ من وقع فيه ثم ترك، وعلىٰ من جنبه الله الوقوع فيه أصالة أيضًا.

قال **ابن رجب** رحمه الله: "لا يستلزم أنه كان واقعًا فيه؛ فإن كل من أدخل الله الإسلام في قلبه؛ فقد أنقذه الله من الكفر، وإن لم يكن قد وقع في الكفر قبل ذلك؛ وهذا كما قال شعيب -عليه الصلاة والسلام-: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها**﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالىٰ: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَىٰ النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ **والمراد**: أنه

ينجيهم من الشرك ويدخلهم في الإيمان، وكثير منهم لم يكن داخلا في الشرك قط". فتح الباري (١/ ٩٣).

وقد تقدم شرح هذا الحديث قريبًا[٤٥٢]، ولله الحمد.

(٤٥٢)باب حلاوة الإيمان، باب رقم (٩)، حديث رقم (١٦).

١٥- بَابٌ: تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي الأَعْمَالِ

قوله: **(بَابٌ: تَفَاضُلِ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي الأَعْمَالِ)**، هذه الترجمة في بيان تفاضل أهل الإيمان في أعمالهم، وأنهم ليسوا سواء: فإيمان من أتىٰ بالفرائض، والواجبات، والمستحبات، وترك المحرمات، والمكروهات، وكثيرًا من المباحات؛ ليس كمن قصر فيما أوجب الله بتركها، وفيما نهىٰ عنه بإتيانها؛ وأراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بتبويبه الردّ علىٰ أهل البدع من المرجئة وغيرهم، الذين يزعمون أن الناس في الإيمان لا يتفاضلون؛ بل كلهم علىٰ إيمان جبريل وميكائيل!

٢٢- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَىٰ المَازِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ** (والخردل نباتٌ عُشْبِيّ) **مِنْ إِيمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا** (صاروا سودًا كالفحم)، **فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَا، أَوِ الحَيَاةِ**-شَكَّ مَالِكٌ- **فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ** (والحِبةُ بذر البقول) **فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً** (منعطفة منثنية تسرّ الناظر)**»**.

قَالَ وُهَيْبٌ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو: **«الحَيَاةِ»**، وَقَالَ: **«خَرْدَلٍ مِنْ خَيْرٍ»**(٤٥٣).

أطرافه في: (التفسير ٤٥٨١، ٤٩١٩، الرقاق ٦٥٦٠، ٦٥٧٤، التوحيد ٧٤٣٨، ٧٤٣٩).

الشرح

قوله: **(أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ)**، فيؤخذ منه تفاوت الناس في الإيمان بسبب أعمالهم، قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "تفاضل المؤمنين في أعمالهم لا شك فيه: وأن الذي خرج من النار بما في قلبه من مقدار حبة من خردل من إيمان؛ معلوم أنه كان ممن انتهك المحارم، وارتكب الكبائر، ولم تف طاعته لله عند الموازنة بمعاصيه. ومن أطاع الله وقام بما وجب عليه، وبرئ من مظالم العباد؛ فلا شك أن عمله أفضل من عمل

---

(٤٥٣) وأخرجه مسلم (١٨٤)، والنسائي (٥٠١٠)، وابن ماجه (٦٠).

الرجل المنتهك". شرح البخاري (١/ ٧٤).

فيه ردٌّ بالغ علىٰ الخوارج؛ الذين يقولون بعدم إخراج أحد من النار.

وعن **أبي سعيد الخدري**رضي الله عنه- أن ناسًا في زمان رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله! هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟

قال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة صحوا ليس فيها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله قال: «**ما تضارون في رؤية الله عز وجل يوم القيامة كما لا تضارون في رؤية أحدهما.**

إذا كان يوم القيامة أَذَّن مؤذن: يتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقىٰ أحد يعبد غير الله من الأنصاب والأصنام إلا يتساقطون في النار حتىٰ لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر وغُبَّرًا من أهل الكتاب فيهم اليهود فيقال لهم: ماذا كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيرًا ابنُ الله فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبةٍ ولا ولدٍ، ماذا تريدون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تَرِدُون؟ فيحشرون إلىٰ النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا، فيتساقطون في النار، ثم يدعىٰ النصارىٰ، فيقال لهم: ماذا كنتم تعبدون؟ قالوا: نعبدُ المسيحَ ابنَ اللهِ فيقال:كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ماذا تريدون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلىٰ جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا فيتساقطون في النار، حتىٰ إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله عز وجل من برٍّ وفاجرٍ أتاهم رب العالمين في أدنىٰ صورة من التي رأوه فيها، وقال: ما تنتظرون اتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا مرتين أو ثلاثًا، حتىٰ إن أحدهم ليكاد ينقلب فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونها فيقولون: نعم فيكشف الله عن ساقٍ فلا يبقىٰ أحدٌ ممن كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقىٰ من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقةً واحدةً كلما أراد أن يسجد خر علىٰ قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في الصورة التي رأوه فيها أول مرة فيقول: أنا ربكم فيقولون أنت ربنا، ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم، فتحل الشفاعة فيقولون: اللهم سلم سلم»، قيل: يا رسول الله وما الجسر؟قال:«دحض مزلةعليها خطاطيفُ وكلاليبُ وحَسَكَةٌ يكون بنجد لها شويكة يقال لها: السعدان فيمر المؤمنون كطرف

العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاود الخيل والركاب، فناجٍ مسلم، ومخدوشٍ مُرْسَل، ومكدوسٍ في نار جهنم، حتىٰ إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما فيكم من أحد بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق لله من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار قالوا: ربنا، كانوا يصومون معنا ويحجون ويصلون فيقال لهم: أَخْرِجوا من عرفتم صورهم فتحرم صورهم علىٰ النار فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلىٰ نصف ساقيه وإلىٰ ركبته، ثم يقولون: يا ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به؛ فيقول: ارجعوا من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا، فيقولون:ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيرًا فيقولون: ربنا لم نذر فيها أحدًا».

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم:﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤٠].

«فيقول الله: شفعت الملائكةُ وشَفَعَ النبيون وشفع المؤمنون ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد صاروا حممًا، فيلقيهم فيها في أفواه الجنة علىٰ نهر يقال له: نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبَّة في حميل السيل ألا ترونها يكون مما يلي الحجر أو الشجر فيكون منها إلىٰ الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون إلىٰ الظل أخيضر»قالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعىٰ بالبادية قال: «فيخرجون كاللؤلؤِ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهلُ الجنةِ هؤلاء عتقاء الله الذي أدخلهم الجنة بغير عمل عَمِلوه ولا خير قدموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا. قال فيقولون: أي ربِّ أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم أبدًا». صحيح لغيره:أخرجه أبونعيم الأصبهاني في مستخرجه (٤٥٩)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦١١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله عز وجل الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء».

فذكر الحديث إلىٰ أن قال:«... ثم يقول -يعني الربَّ تبارك وتعالىٰ-: ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم علىٰ قَدْرِ أعمالهم؛ فمنهم من يُعطىٰ نوره مثل الجبل العظيم يسعىٰ بين يديه، ومنهم من يعطىٰ نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يعطىٰ مثل النخلة بيده، ومنهم من يعطىٰ أصغر من ذلك حتىٰ يكون آخرهم رجلًا يعطىٰ نوره علىٰ إبهام قدميه يضيء مرةًويطفأ مرةً فإذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفئ، قام فيمرون علىٰ قدر نورهم؛ منهم من يمر كَطَرْفَةِ العين ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يَمُرُّ كالسحاب، ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الفَرَس، ومنهم من يمر كشد الرَّجُل حتىٰ يمر الذي يعطىٰ نوره علىٰ ظهر قدميه يحبو علىٰ وجهه ويديه ورجليه تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار، فلا يزال كذلك حتىٰ يخلص فإذا خلص وقف عليها فقال: الحمد لله الذي أعطاني ما لم يُعطِ أحدًا؛ إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها، قال: فَيَنْطَلِقُ به إلىٰ غدير عند باب الجنة فيغتسل فيعود إليه ريح أهل الجنة وألوانهم، فيرىٰ ما في الجنة من خلل الباب، فيقول: ربّ أدخلني الجنة، فيقول له: أتسأل الجنة وقد نجيتك من النار؟ فيقول: ربّ اجعل بيني وبينها حجابًا لا أسمع حَسِيسَها، قال: فيدخل الجنة ويرىٰ أو يرفع له منزل أمام ذلك كأن ما هو فيه إليه حلم، فيقول: ربّ أعطني ذلك المنزل، فيقول له: لعلك إن أعطيتكه تسأل غيره، فيقول:لا وعزتك لا أسألك غيره، وأي منزل أحسن منه فيعطاه فينزله، ويرىٰ أمام ذلك منزلًا كأن ما هو فيه إليه حلم، قال: رب أعطني ذلك المنزل، فيقول الله تبارك وتعالىٰ له: فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره، فيقول: لا وعزتك يا رب وأي منزل أحسن منه فيعطاه فينزله، ثم يسكت فيقول الله جل ذكره: ما لك لا تسأل فيقول: رب قد سألتك حتىٰ استحييتك وأقسمت حتىٰ استحييتك، فيقول الله جل ذكره: ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلىٰ يوم أفنيتها وعشرة أضعافه؟ فيقول: أتهزأ بي وأنت رب العزة، فيضحك الرب تبارك وتعالىٰ من قوله». قال فرأيت عبد الله بن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك. فقال له رجل: يا أبا عبدالرحمن ... قد سمعتك تحدث هذا الحديث مرارًا، كلما بلغت هذا المكانَ ضحكت؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يحدث هذا الحديث مرارًا، كلما بَلَغَ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتىٰ تبدو أضراسه. قال: «فيقول الرب جل ذكره: لا، ولكنِّي علىٰ ذلك قادر سل فيقول: الحقني بالناس فيقول الْحَقْ بالناس فينطلق يرمل في الجنة حتىٰ إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجدًا، فيقال له: ارفع

رأسك ما لك؟ فيقول: رأيت ربي أو تراءىٰ لي ربي فيقال: إنما هو منزل من منازلك».

قال:«ثم يلقىٰ رجلًا فيتهيأ للسجود له (تقديرًا واحترامًا وتعظيمًا) فيقال له: مه؟ فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول: إنما أنا خازن من خزانك وعبد من عبيدك تحت يدي ألف قهرمان علىٰ ما أنا عليه.

قال: فينطلق أمامه حتىٰ يُفْتَحُ له القصر»،قال:«وهو من درة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقها ومفاتيحها منها تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء فيها سبعون بابًا كل باب يفضي إلىٰ جوهرة خضراء مبطنة كل جوهرة تفضي إلىٰ جوهرة علىٰ غير لون الأخرىٰ في كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف أدناهن حوراءُ عيناءُ عليها سبعون حلة يُرىٰ مخُّ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفًا، فيقال له: اِشرف فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك». قال: فقال عمر ألا تسمع ما يحدثنا ابنُ أم عبد يا كعب عن أدنىٰ أهل الجنة منزلًا فكيف أعلاهم؟! قال:«يا أمير المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت إن الله جل ذكره خَلَقَ دارًا جعل فيها ما شاء من الأزواج والثمرات والأشربة ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه لا جبريلُ ولا غيرُهُ من الملائكة»، ثم قرأ كعب:﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٧].

قال: وخَلَقَ دون ذلك جنتين وزينهما بما شاء وأراهما مَنْ شاء من خلقه، ثم قال: من كان كتابه في عليين نزل في تلك الدار التي لم يرها أحد حتىٰ إن الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير في ملكه فلا تبقىٰ خيمة من خيم الجنة إلا دخلها من ضوء وجهه فيستبشرون بريحه، فيقولون واهًا لهذا الريح هذا ريح رجل من أهل عليين قد خرج يسير في ملكه».

قال: ويحك يا كعب إن هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها فقال كعب: «إن لجهنم يوم القيامة لزفرة ما من ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرّ لركبتيه حتىٰ إن إبراهيم خليل الله ليقول: رب نفسي نفسي حتىٰ لو كان لك عمل سبعين نبيًا إلىٰ عملك لظننت أن لا تنجو»[٤٥٤].

---

(٤٥٤)**صحيح**: أخرجه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم هكذا عن ابن مسعود مرفوعًا، وآخره من قوله: «إن الله جل ذكره خلق دارًا... إلخ». موقوفًا علىٰ كعب، وأحد طرق الطبراني صحيح، واللفظ له، وقال: الحاكم صحيح الإسناد. وهو في مسلم بنحوه باختصار عنه. وهو في الصحيحة (٢٦٠١)، وصحيح الترغيب

فيه تفاضل الناس، بأعمالهم. وفيه تفاضل أهل الإيمان، وتفاوت مراتبهم، جعلنا الله وإخواننا من أهل عليين.

٢٣- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِاللهِ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، **أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاسَعِيدٍ الخُدْرِيَّ** رضي الله عنه -، **يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ**(جمع ثدي)، **وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ**»، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ(فما فسرت) ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الدِّينَ**»(٤٥٥).

أطرافه: (فضائل الصحابة٣٦٩١، التعبير٧٠٠٨، ٧٠٠٩).

الشرح

قوله: (**رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ ...**)، مطابقة الحديث للترجمة؛ من جهة تأويل القميص بالدين، وكون الناس متفاضلون في لبس القميص، وقال **النووي** رحمه الله: "دلّ الحديث علىٰ أن الأعمال من الإيمان، وأن الإيمان والدين بمعنىٰ واحد وأن أهل الإيمان يتفاضلون".نقله عنه العيني في عمدة القاري (١/ ١٧٢).

ومن الأدلة -أيضًا- علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه ما جاء عن **أبي سعيد الخدري وابن عمر وأبي هريرة** رضي الله عنهم، أن النبي ﷺ قال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**»، قلنَ وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «**أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟**»، قلن: بليقال:«**فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟**»، قلن: بليقال:«**فذلك من نقصان دينها**». متفق عليه.

فهو وإن كان النقص ليس من فعلهن؛ لكن من صلىٰ وصام كان أكمل إيمانًا منهنّ بهذا

والترهيب (٣٧٠٤).

(٤٥٥)وأخرجه مسلم (٢٣٩٠)، والترمذي (٢٢٨٦)، والنسائي (٥٠١١).

الاعتبار لصلاته وصيامه، ومما يدلّ علىٰ ذلك أيضًا: حديث **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في المجاهدة وفيه: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**». أخرجه مسلم (٨٠).

ويفسره ويبين مدلوله حديث **أبي سعيد الخدري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**». أخرجه مسلم (٧٨).

في الحديث ضرب الأمثال لتقريب المعنىٰ، والتشبيه لتوضيح العلم، وقد مثل النبي ﷺ الثياب في قصرها وطولها بالدين، ومعلوم أن عمل عمر في إيمانه أفضل من عمل من بلغ قميصه ثدييه.فإيمانه أفضل من إيمانه بما زاد عليه من العمل، وتأويله ﷺ ذلك بالدين يدلّ أن الإيمان الواقع علىٰ العمل يسمىٰ دينًا، كالإيمان الواقع علىٰ القول.

وفيه ردٌّ علىٰ قول المرجئة الذين يزعمون أن إيمان المذنبين كإيمان جبريل، وأنه لا تفاضل في الإيمان، وقولهم غلط ظاهر. شرح البخاري لابن بطال (١/ ٧٤).

وفيه بيان أن أهل المعاصي من المسلمين لا يخلدون في النار. **ففيه** ردٌّ علىٰ الخوارج أيضًا.

١٦ - بَابٌ: الحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ

٢٤ - حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِاللهِ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَهُوَ يَعِظُ(يؤنب) أَخَاهُ فِي الحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»[٤٥٦].

طرفه في: (الأدب٦١١٨).

الشرح

قوله: (دَعْهُ فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ)، هو عمل قلبي صرح النبي ﷺ بأنه من الإيمان، فدلّ علىٰ أنه جزء وشعبة فيه وهو يمنع صاحبه من المعاصي والمنكرات، ومما يشهد لهذا المعنىٰ:

قوله ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**». متفق عليه.

وقال رسول الله ﷺ: «**الحياء خيرٌ كله**»، أو قال: «**الحياء كلّه خير**». أخرجه مسلم (٣٧).

وقال ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ دينٍ خُلُقًا، وخُلُقُ الإسلامِ الحياءُ**». حسن: صحيح ابن ماجه (٣٣٨٩).

وعن **قرة بن إياس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كنا عند النبي ﷺ فذكر عنده الحياء، فقالوا: يا رسول الله! الحياء من الدين؟ فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو الدين كله**». ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الحياء والعفاف والعي -عي اللسان، لا عي القلب-، والفقه من الإيمان، وإنهن يزدن في الآخرة، وينقصن من الدنيا، وما يزدن في الآخرة أكثر مما ينقصن من الدنيا، وإن الشح والعجز والبذاء من النفاق، وإنهن يزدن في الدنيا، وينقصن من الآخرة، وما ينقصن من الآخرة أكثر مما يزدن من الدنيا**». **صحيح**: صحيح الترغيب (٢٦٣٠).

فيه أن الفقه من الإيمان، وعدمه من خصال النفاق؛ وفي الحديث: «**خصلتان لا تجتمعان في منافق، حسن سمت، ولا فقه في الدين**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢ / ١١٤)، الصحيحة (٢٧٨).

فالحياء مانع من الشر، وإذا انتفىٰ الحياء عن العبد؛ فلا تسأل عما يفعله، كما جاء في حديث **أبيمسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولىٰ،**

---

(٤٥٦)وأخرجه مسلم (٣٦)، وأبوداود (٤٧٩٥)، والترمذي (٢٦١٥)، والنسائي (٥٠٣٣)، وابن ماجه (٥٨).

إذا لم تستحي فافعل ما شئت». **صحيح**:أخرجه أبوداود (٤٧٩٧)، وهو عند البخاري في صحيحه (٣٤٨٣، ٣٤٨٤).

فيضعف وَينقص إيمان العبد أو يزيد بقدر ما عنده من الحياء شدة وضعفًا.

وعن **أبي هريرة** مرفوعًا، قال: **"الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار"**. **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٠٠٩)، وهو في الصحيحة (٤٩٥)، وورد عن غيره من الصحابة.

وعن **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- مرفوعًا: **"إن الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر"**. **صحيح**: أخرجه الحاكم (١/ ٢٢)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣٦، ٢٦٣٧).

فالحياء يحجب صاحبه عن الأمور القبيحة عند الله، وعند الخلق.

وهو خلقٌ يبعثُ علىٰ اجتنابِ القبيح وما يُذَمُ به ويعابُ عليه شرعًا وعرفًا، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ونحوه.

ولكنه ربما يكون تخلقًا واكتسابًا، وربما يكون غريزةً وطبعًا، لكن حتىٰ ينال الأجر الشرعي لابدّ من نية، فيكون بذلك من الإيمان.

فالحياء هو ما كان في الخير، أما ما كان مانعًا من الخير فهو خجل، فالحياء ممدوح، والخجل مذموم.

وأعظم الحياء: الحياء من الله تعالىٰ، وهو أن يجدك الله حيث أمرك، ولايراك حيث نهاك، وذاك إنما يكون عن معرفة ومراقبة، وهو داخلٌ تحت قوله ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». متفق عليه.

وقال رسول الله ﷺ: «**الله أحقّ أن يستحيا منه من الناس**». **حسن**: أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به عند حديث (٢٧٨)، وأخرجه أبوداود موصولًا (٤٠١٧)، وحسنه شيخنا فيه.

وفي الحديث الآخر قال رسول الله ﷺ: «**استحيوا من الله حق الحياء**». قال: قلنا: يا رسول الله إنا نستحيي والحمد لله، قال: «**ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعىٰ، والبطن وما حوىٰ، ولتذكر الموت والبلىٰ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**». **حسن**: أخرجه أحمد (٣٦٧١)، والترمذي (٢٤٥٨)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٧).

وعن **سعيد بن يزيد** قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «**أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي من الرجل الصالح من قومك**».**صحيح**: أخرجه أحمد في الزهد (ص ٤٦)، وهو في صحيح الجامع (٢٥٤١)، والصحيحة (٧٤١).

وعن **أنس** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ:«**ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥).

ولما كَمُلَ إيمان النبي ﷺ: «**كان أشد حياء من العذراء في خدرها**». متفق عليه.

هل من ترك الذنوب حياء من الناس يكون مشركًا؟

الجواب: لا، والدليل ما ورد عن **حذيفة وزيد بن ثابت** رضي الله عنهما-، أن من فاتته الجمعة لا يصلي الظهر في المسجد بالكلية حياء من الناس. قال حذيفة: "لا خير فيمن لا حياء فيه".

وقال زيد: "من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله". فتح الباري لابن رجب (٦/ ١٠).

١٧ - بَابٌ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

قوله: (بَابٌ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾)، بَيَّنَ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن التوبة والصلاة والزكاة من الإيمان، وأن فعل ذلك دليل علىٰ أن صاحبها من أهل الإيمان، وأنه أخ لنا في الدين.

٢٥- حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ المُسْنَدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُورَوْحٍ الحَرَمِيُّ بْنُ عُمَارَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاقِدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ(أي: المشركين) حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا(أي: حفظوا ومنعوا) مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ». (٤٥٧)

الشرح

قوله: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ...)، الآمر هو الله جل وعلا، وجاء الأمر بمقاتلة الناس حتىٰ يقيموا الدين، ويؤمنوا كما قال -تعالىٰ-: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وأمر بقتال الناس أي: الكفار والمشركين، ويستثنىٰ من ذلك أهل الكتاب والمجوس إن أعطوا الجزية، ومن ثبت إسلامه عصم دمه وماله وعرضه.

فيه جواز قتال كل من ترك شعيرة ظاهرة وامتنع عن أدائها، وهذا أمر يُرْجَعُ فيه إلىٰ الإمام.

قوله: (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ)، أي: إلا إذا فعلوا ما يستوجب عقوبة مالية أو بدنية في الإسلام فإنهم يؤاخذون بذلك.

وقوله: (وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ)، أي: أمر سرائرهم إليه، وأما نحن فنحكم بالظاهر.

في هذا دليلٌ علىٰ أن هذه المذكورات هي من الإيمان، فمن أتىٰ بها لا يحل تكفيره، ولا

---

(٤٥٧) وأخرجه مسلم (٢٢).

قتاله، فإن جحدها فلا خلافَ في كفره.

وفيه أنّ الناس يعاملون بظواهرهم والله يتولىٰ سرائرهم. **وفيه** ردّ قول المرجئة: أن الإيمان غير مفتقر إلىٰ الأعمال.

فكلمة التوحيد تعصم صاحبَهَا بمجرد النطق والتلفظ بها، وإن قالها خوفًا من القتل وتعوذًا، فهي تعصمه حالًا، كما في حديث **أسامة بن زيد** رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**يا أسامة! أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟**». قال: قلت: كان متعوذًا. فما زال رسول الله ﷺ يكررها، حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. سيأتي برقم (٤٢٦٩).

فيه وجوب التلفظ باللسان، ولكن لا يكفي ذلك عند الله حتىٰ يوافق مافي القلب.

قال **اللالكائي**: "سياق ما روي عن النبي ﷺ في أن الإيمان تلفظ باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، قالوا: الدال علىٰ أنه تلفظ باللسان قوله عز وجل: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾ الآية [الحجرات: ١٤].

وما ثبت عن النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**». متفق عليه.

والدالة علىٰ أنه اعتقاد بالقلب، قوله: ﴿**وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾، وقوله: ﴿**وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات: ٧].

وقوله: ﴿**أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ**﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [المائدة: ٤١].

وحديث **أبي برزة وبريدة والبراء** رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلىٰ قلبه**». صحيح: أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٢٩٣٦)، وهو في "صحيح الترغيب" (٢٣٤٠).

والدلالة علىٰ أنه عملٌ، قال الله عز وجل: ﴿**وَما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: ٥].

وقال: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف:

١١٠]". شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤/ ٨٣٠).

١٨ - بَابُ مَنْ قَالَ إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ

لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وَقَالَ عِدَّةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣] عَنْ قَوْلِ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

قوله: (بَابُ مَنْ قَالَ إِنَّ الإِيمَانَ هُوَ العَمَلُ ...)، هذا الباب في الرد علىٰ المرجئة،وفيه بيان أن الإيمان هو العمل، وأن الأعمال من الإيمان، وأنّ المراد بالعمل: عمل القلب وعمل اللسان، والجوارح.

وذكر المصنف جملة من الآيات للدلالة علىٰ أن قول اللسان أيضًا من أعمال الإيمان، وبين أنّ من أهل العلم من فسر العمل الذي ذكر في الآية بقول: (كلمة التوحيد)، وقال بعضهم: إن المقصود من الآيات هو عمل الجوارح، واستدلوا بذلك علىٰ دخول الأعمال في الإيمان؛ كما في الحديث: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله علىٰ النار**». سيأتي (١٢٨).

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآيات حجة في أن العمل تنال به درجات الجنة، وأن الإيمان قول وعمل". شرح البخاري (١/ ٧٨). استنبط ذلك من الآيات.

قال **العلامة ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الذين فسروا الآية بهذا العمل الخاص يريدون (عن قول: لا إله إلا الله)، والعمل بمقتضاها، لا عن مجرد قولها باللسان فقط؛ لأن هذا لا يفيد إذا لم يعمل الإنسان بمقتضاها". شرح البخاري (١/ ٨٥).

وقال **ابن بطة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فقد أخبر الله تعالىٰ في كتابه في آيٍ كثيرة منه أن هذا الإيمان لا يكون إلا بالعمل وأداء الفرائض بالقلوب والجوارح، وبيَّنَ ذلك رسول الله ﷺ وشرحه في سنته وأعلمه أمته.

وكان مما قال الله تعالىٰ في كتابه، مما أعلمنا أن الإيمان هو العمل وأن العمل من الإيمان، ما قاله في سورة البقرة: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَىٰ الْمالَ عَلىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبىٰ وَالْيَتامىٰ**

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان وشرائطه من القول والعمل والإخلاص. ولقد سأل **أبو ذر** النبي ﷺ عن الإيمان؛ فقرأ عليه هذه الآية". الإبانة (٢/ ٧٧١).

٢٦- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ، وَمُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالاَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيَّبِ، عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ**». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(٤٥٨).

طرفه في: (الحج١٥١٩).

الشرح

قوله: (سُئِلَ: أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ)، جعل الإيمان هو العمل وهو أفضله، وهذه هي عقيدة السلف الصالح.

في هذا ردٌّ علىٰ المرجئة. **وفيه** أن العمل من الإيمان. **وفيه** أن العمل يطلق علىٰ عمل القلب كما يطلق علىٰ عمل الجوارح. **وفيه** تفاضل الأعمال. **وفيه** فضل وأهمية التوحيد، وأنه أوجب واجب علىٰ العبيد.

قال **أبوعبيدِ القاسم بن سلَّام** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإيمان عمل من أعمال تعبَّدَ اللهُ به عبادَهُ، وفرضه علىٰ جوارحهم، وجعل أَصْلَهُ في معرفةِ القلبِ، ثم جعل المنطق شاهدًا عليه، ثم الأعمال مصدقة له، وإنما أعطىٰ الله كل جارحة عملًا ولم يعطه الأخرىٰ، فعمل القلب الاعتقاد، وعمل اللسان القول، وعمل اليد التناول ... وكلها يجمعها اسم الإيمان، فالإيمان علىٰ هذا التناول إنما هو كله مبني علىٰ العمل". الإيمان (ص ٧٦) بتصرف يسير.

---

(٤٥٨) وأخرجه مسلم (٨٣)، والترمذي (١٦٥٨)، والنسائي (٢٦٢٤، ٣١٣٠، ٤٩٨٥).

فلابد من القول والعمل كي يدخل الجنة، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «**اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قولٍ أو عمل**». **صحيح**: صحيح ابن ماجه (٣١١٦).

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا مذهب جماعة أهل السنة، أن الإيمان قول وعمل. قال **أبوعبيد**: وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدىٰ، وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم". شرح البخاري (١/ ٧٩).

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "في الحديث أن الإيمان كله عمل؛ وهذا يناقض قول من قال: إن الإيمان ليس فيه عمل بالكلية؛ فإن الإيمان أصله تصديق بالقلب، ويتبع هذا التصديق قول اللسان". فتح الباري (١/ ١٢٠) بتصرف.

وقال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "التصديق هو أول منازل الإيمان، ويوجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله، ولا يقال له: مؤمنًا مطلقًا؛ لأن الله تعالىٰ فرض علىٰ عباده فرائض وشرع شرائع، لا يقبل تصديق من جحدها، ولم يرض من عباده المؤمنين بالتصديق والإقرار دون العمل". شرح البخاري (١/ ٧٩).

وفي الحديث فضل الجهاد والحج، ويأتي الكلام عليهما في موضعهما -إن شاء الله تعالىٰ-.

١٩- بَابُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، وَكَانَ عَلَىٰ الِاسْتِسْلاَمِ أَوِ الخَوْفِ مِنَ القَتْلِ

لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. فَإِذَا كَانَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، فَهُوَ عَلَىٰ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٤٥٩)[آل عمران: ٨٥].

قوله: (بَابُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الإِسْلاَمُ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ...)، هذا باب في بيان حكم من أسلم إسلامًا ظاهرًا، بسبب الخوف أو الاستسلام، لا إسلامًا حقيقيًا، ظاهرًا وباطنًا.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنىٰ هذا الكلام: **أن الإسلام يطلق باعتبارين:**

أحدهما: باعتبار الإسلام الحقيقي وهو دين الإسلام الذي قال الله فيه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾، وقال: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾.

والثاني: باعتبار الاستسلام ظاهرًا، مع عدم إسلام الباطن إذا وقع خوفًا؛ كإسلام المنافقين، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[الحجرات: ١٤]، وحمله علىٰ الاستسلام خوفًا وتقية". فتح الباري (١/ ١٢٥).

قوله: (لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾)، قال **ابن كثير**: "وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل -عليه السلام-، حين سأل عن الإسلام والإيمان والإحسان، فترقىٰ من الأعم إلىٰ الأخص، ثم إلىٰ الأخص منه...".

ثم أورد حديث **سعد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الذي في الباب؛ فقال: "فدلَّ هذا علىٰ أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلىٰ مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك، وهذا معنىٰ قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير.

وإنما قلنا هذا؛ لأن البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ذهب إلىٰ أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك". تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٤) بتصرف.

---

(٤٥٩)ذكرت هذه الآية في رواية أبي ذر علىٰ المستملي، وليست موجودة في نسخة "بيت السنة".

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهذا الإسلام الذي نفىٰ الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هل هو إسلام يثابون عليه؟ أم هو من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف:

أحدهما: إنه إسلام يثابون عليه، ويخرجهم من الكفر والنفاق؛ وهذا مروي عن الحسن، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وأبي جعفر الباقر، وهو قول حماد بن زيد، وأحمد بن حنبل، وسهل بن عبد الله التَّسْتُرِي، وأبي طالب المكي، وكثير من أهل الحديث والسنة والحقائق ...

والقول الثاني: إن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، مثل إسلام المنافقين، قالوا: وهؤلاء كفار، فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر؛ وهذا اختيار البخاري، ومحمد بن نصر المروزي، والسلف مختلفون في ذلك".

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "**والتحقيق** أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان؛ مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يعطىٰ اسم الإيمان المطلق؛ فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله؛ لأن ذلك إيجاب عليه، وتحريم عليه، وهو لازم له كما يلزمه غيره، وإنما الكلام في اسم المدح المطلق؛ وعلىٰ هذا **فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف**: يدخل فيه المؤمن حقًا، ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة-وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان، وفي الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر-، **ويدخل فيه الذين أسلموا وإن لم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم، لكن معهم جزء من الإيمان والإسلام يثابون عليه**".مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٢٣٨).

قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**﴾ [النساء: ٩٤]، أي: يعاملون بما يظهرون من الإسلام، وأما ما في القلوب لا يعلمه إلا الله -عز وجل-.

فلا بدّ أن يجتمع عمل الظاهر، مع عمل الباطن؛ قال **الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "باب القول بأن الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح؛ لا يكون مؤمنًا إلا أن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث.

وقال -**أيضًا**-: "اعلموا -رحمنا الله تعالىٰ وإياكم-أن الذي عليه علماء المسلمين: أن الإيمان واجب علىٰ جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح.

ثم اعلموا: أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق؛ إلا أن يكون معه الإيمان باللسان

نطقًا، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان؛ حتىٰ يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاث: كان مؤمنًا.

دلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة، وقول علماء المسلمين.

فأما ما لزم القلب من فرض الإيمان فقول الله -عز وجل-: ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾ إلىٰ قوله -جل وعلا-: ﴿**أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ**﴾ [المائدة: ٤١].

وقال -تبارك وتعالىٰ-: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَلكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿**قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٤]". الشريعة (٢/ ٦١١- ٦١٢) بتصرف.

وقال **الخلال**: "وفرق أصحاب أحمد بين الإيمان والإسلام، فقالوا حقيقة الإيمان التصديق وحقيقة الإسلام الاستسلام فلا يفهم من معنىٰ التصديق الاستسلام ولا يفهم من معنىٰ الاستسلام التصديق، واستدل أحمد بن حنبل بحديث الأعرابي وسؤاله عن الإسلام وسؤاله عن الإيمان، وجواب رسول الله ﷺ عنهما بجوابين مختلفين، واستدل أيضًا بحديث الأعرابي الآخر وقوله: يارسول الله أعطيت فلانًا ومنعتني! فقال له النبي ﷺ: «**ذلك مؤمن**» فقال الأعرابي: وأنا مؤمن، فقال له النبي ﷺ: «**أو مسلم**»، وبحديث وفد عبد القيس". العقيدة رواية أبي بكر الخلال لأحمد بن حنبل (١/ ١١٩).

والصحيح في هذا التفصيل: أن الإسلام والإيمان إن ذُكِرا في نص واحد؛ افترقا في المعنىٰ؛ كقوله: ﴿**قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا**﴾، وكحديث **جبريل** -عليه السلام-، وكحديث: **بريدة** رضي الله عنه- قال: كان النبي ﷺ إذا دخل المقابر قال: «**السلام علىٰ أهل الديار من المؤمنين والمسلمين**». أخرجه مسلم (٩٧٥)، وإن افترقا في نصٍّ فيكونان بنفس المعنىٰ؛ ككثير من النصوص.

قوله: (فَإِذَا كَانَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ، فَهُوَ عَلَىٰ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ ...)، فلابدَّ أن يحسن إسلامه، وينقاد بقلبه وجوارحه، وقد صح في الحديث:

عن **أبي سعيد الخدري** -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أسلم العبدُ فحسن إسلامُه كتب اللهُ له كل حسنةٍ كان أزلفها، ومُحيت عنه كلُّ سيئةٍ كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاصُ الحسنةُ بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائةِ ضعفٍ، والسيئةُ بمثلها إلا أن يتجاوز اللهُ عز وجل عنها**». أخرجه البخاري معلقًا (٤١)، ووصله النسائي (٤٩٩٨)، واللفظ له.

وعن **أبي هريرة** -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلىٰ سبع مائة ضعف وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها**». متفق عليه.

فقول اللسان وحده لا يكفي في حقيقة الإيمان، حتىٰ يكون عارفًا ومصدقًا منقادًا محبًا بقلبه، ناطقًا بلسانه، عاملًا بجوارحه، قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** -رحمه الله-: "وأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلابد أن يظهر موجبه ومقتضاه علىٰ الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه **دلّ علىٰ عدمه أو ضعفه**؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له، وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له". الفتاوىٰ (٧/ ٦٤٤).

ومن لوازم الشهادة أن تكون بصدق يبتغىٰ بها وجه الله -تعالىٰ-، أي: لابدّ أن تكون مصحوبة بإخلاصٍ محضٍ لا يخالطه شرك؛ كما ورد أن بعض الصحابة اتهم الصحابي **مالك بن دخشم** -رضي الله عنه- بالنفاق؛ فقال النبي ﷺ: «**ألا تراه قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجهَ اللهِ تعالىٰ؟!**». متفق عليه.

قال **النووي** -رحمه الله-: "قال ابن عبدالبر: "ولا يصح عنه النفاق فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه".

ثم قال: "فهذه شهادة من رسول ﷺ له بأنه قالها مصدقًا بها معتقدًا صدقها متقربًا بها إلىٰ الله تعالىٰ، وشهد له في شهادته لأهل بدر بما هو معروف؛ فلا ينبغي أن يُشكَّ في صدق إيمانه -رضي الله عنه-. **وفي هذه الزيادة: «يبتغىٰ بها وجه الله تعالىٰ» ردٌّ علىٰ غلاة المرجئة** القائلين: بأنه يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد؛ فإنهم تعلقوا بمثل هذا الحديث، وهذه الزيادة تدمغهم، والله أعلم". شرح مسلم (١/ ٢٧٥).

٢٧- حَدَّثَنَا أَبُو اليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ

سَعْدٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَىٰ رَهْطًا (جماعة إلىٰ العشرة) وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ (أي: أفضلهم) إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ (أي: أعلمه) مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا»، فَسَكَتُّ قَلِيلًا، ثُمَّ غَلَبَنِي (حملني علىٰ القول ثانية) مَا أَعْلَمُ مِنْهُ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ؟ فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا، فَقَالَ: «أَوْ مُسْلِمًا». ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ (يلقيه منكوسًا علىٰ وجهه) اللهُ فِي النَّارِ (أي: أتألف قلبه بالإعطاء مخافة من كفره إذا لم يعط)».

وَرَوَاهُ يُونُسُ، وَصَالِحٌ، وَمَعْمَرٌ، وَابْنُ أَخِي الزُّهْرِيِّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ.(٤٦٠)

طرفه في: (الزكاة١٤٧٨).

الشرح

قوله: (مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ)، أي: ما سبب عدولك عنه إلىٰ غيره.

قوله: (فَوَاللهِ إِنِّي لَأَرَاهُمُؤْمِنًا، فَقَالَ: أَوْ مُسْلِمًا)، أي: بل قل: (مسلمًا) بدل (مؤمنًا)؛ لأنك تعلم ظاهر أمره ولا تعلم حقيقة حاله، وليس لك أن تجزم بهذا.

وفي رواية: "إني لأُراه"، يعني: الظن الغالب.

قال **ابن رجب** رحمه الله: "والظاهر -والله أعلم- أن النبي ﷺ زجر سعدًا عن الشهادة بالإيمان؛ لأن الإيمان باطن في القلب، لا إطلاع للعبد عليه، فالشهادة به شهادة علىٰ ظن، فلا ينبغي الجزم بذلك". فتح الباري (١/ ١٣١). فأمره أن يشهد بالإسلام؛ لأنه أمر مطلع عليه.

قوله: (يَا سَعْدُ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ...)، وفي رواية مسلم: فضرب رسول الله ﷺ بين كتفي وعنقي، ثم قال: «**أقتالًا أي سعد؟! إني لأعطي الرجل** ...». فذكر الحديث.

وهذا من باب تأليف القلوب، قال **ابن رجب** رحمه الله: "فإن هذا يدلّ علىٰ أن النبي ﷺ

---

(٤٦٠) وأخرجه مسلم (١٥٠)، وأبوداود (٤٦٨٣، ٤٦٨٥)، والنسائي (٤٩٩٢، ٤٩٩٣).

وكله إلىٰ إيمانه؛ كما كان يعطي المؤلفة قلوبهم ويمنع المهاجرين والأنصار". فتح الباري (١/ ١٣١).

وفي الحديث: أنّ الإسلام له ظاهر وباطن. **وفيه** أنّ الإسلام الحقيقي هو المتلازم فيه بين الظاهر والباطن. **وفيه** أنّ الإسلام هو الدين الحقيقي الذي يقبله الله -تعالىٰ-. **وفيه** أنّ الإمام له قسم الأموال، وله أن يمنع ويعطي من شاء ما شاء. **وفيه** أنّ الإمام مأمور بالعدل لا المساواة بين الناس. **وفيه** النصيحة لولاة الأمور سرًا؛ ففي رواية: **"فقمت فساررته"**. **وفيه** أنّ النبي ﷺ كان لا يراجع بعد ثلاث. وأنّ المرأة لا تراجع زوجها بعد ثلاث، وكذلك الولد -أيضًا-. **وفيه** أنّ الترجيح في العطاء يكون علىٰ أساس المصلحة التي يراها الإمام. **وفيه** تأليف حدثاء العهد بالإسلام بالأموال. **وفيه** أنه يقال: **"حسن إسلامه"**، أو **"تنسك"**، أو **"مسلم"**، أو **"منأهل الاستقامة"**، أو نحو ذلك، ولا يقال: **"ملتزم"**؛ لأنها لفظة غير شرعية. **وفيه** تصحيح الأخطاء بلطف؛ كقوله: «**أو مسلمًا**»، وما كان في معناها مثل السؤال. **وفيه**خوف النبي ﷺ علىٰ أمته. **وفيه** عدم التألّي والقطع، أو الجزم للرجل بالإيمان الكامل، إلا ما ورد به النص. **وفيه** الردّ علىٰ غلاة المرجئة؛ في اكتفائهم في الإيمان بنطق اللسان. **وفيه** تنبيه الصغير للكبير فيما يظن أنه ذهل أو غفل عنه. **وفيه** الشفاعة عند الإمام ولا عيب علىٰ الشافع إن ردت شفاعته. ويأتي بقية الكلام عليه في كتاب الزكاة[٤٦١] -إن شاء الله-.

---

(٤٦١) باب قول الله تعالىٰ: ﴿لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافًا﴾، باب رقم (٥٣)، حديث رقم (١٤٧٧).

٢٠- بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلاَمِ مِنَ الإِسْلاَمِ

وقَالَ عَمَّارٌ: "ثَلاَثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ: الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ، وَبَذْلُ السَّلاَمِ لِلْعَالَمِ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ".

قوله: (**بَابٌ: إِفْشَاءُ السَّلاَمِ مِنَ الإِسْلاَمِ**)، أي: أن من الإسلام والإيمان بذل السلام للمسلمين جميعا.

قوله: (الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ)، أي: أن تعامل غيرك بما تحب أن يعاملك به، وهو من أقوم العدل، قال الله تعالىٰ: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ**﴾[النساء: ١٣٥].

وقوله:(وَبَذْلُ السَّلاَمِ لِلْعَالَمِ)، أي: إلقاؤه علىٰ من يلقاه؛ وهذا موافق للترجمة والحديث المذكور. وهو واجبٌ، وسيأتي الكلام عليه في موضعه بأدلته -إن شاء الله-.

وقوله: (وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ)، وهذا حضٌّ علىٰ مكارم الأخلاق واستئلاف النفوس، والإنفاق من الإقتار في الكرم غاية، وقد مدح الله مَن هذه صفته بقوله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [سورة الحشر: ٩].

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا عامٌّ في نفقة الرجل علىٰ أهله، وفي كل نفقة هي طاعة لله تعالىٰ، ودلَّ ذلك علىٰ أن نفقة المعسر علىٰ أهله أعظم أجرًا من نفقة الموسر، وهذا كله من كمال الإيمان". شرح البخاري (١/ ٨٤).

قال **ابن القيم**: "قد تضمنت هذه الكلمات أصولَ الخيرِ وفروعَهُ، فإنّ الإنصافَ يوجب عليه أداء حقوق الله كاملة موفرة، وأداء حقوق الناس كذلك، وأن لا يطالبهم بما ليس له، ولا يحملهم فوق وسعهم، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به، ويعفيهم مما يحب أن يعفوه منه، ويحكم لهم وعليهم بما يحكم به لنفسه وعليها، ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه، فلا يدعي لها ما ليس لها، ولا يخبثها بتدنيسه لها، وتصغيره إياها، وتحقيرها بمعاصي الله، وينميها ويكبرها ويرفعها بطاعة الله وتوحيده وحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه وإيثار مرضاته ومحابّه علىٰ مراضي الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق ولا مع الله بل يعزلها من البين(في بعض النسخ: البغي) كما عزلها الله، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه وعطائه ومنعه وكلامه وسكوته ومدخله ومخرجه، فينجي نفسه من البين، ولا يرىٰ لها مكانة يعمل عليها، فيكون ممن

ذمهم الله بقوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

والمقصود أنّ قول عمار رضي الله عنه-: "ثلاث من جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار"، كلام جامع لأصول الخير وفروعه.

وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه، وأنه لا يتكبر علىٰ أحد، بل يبذل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا يعرفه، والمتكبر ضد هذا، فإنه لا يرد السلام علىٰ كل من سلم عليه كبرًا منه وتيها، فكيف يبذل السلام لكلّ أحد.

وأما الإنفاق من الإقتار فلا يصدر إلا عن قوة ثقة بالله، وأن الله يخلفه ما أنفقه، وعن قوة يقين، وتوكل، ورحمة، وزهد في الدنيا، وسخاء نفس بها، ووثوق بوعد من وعده مغفرة منه وفضلًا، وتكذيبًا بوعد من يعده الفقر، ويأمر بالفحشاء. والله المستعان". زاد المعاد (٢/ ٣٧٢) بتصرف.

٢٨- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ، عَنْ أَبِي الخَيْرِ، **عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رضي الله عنهما-، **أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ** ﷺ: **أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ**(أي: تسلم) **عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ»**(٤٦٢).

تقدم في: (الإيمان١٢).

الشرح

قوله: (أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟)، أي: أي أعمال الإسلام أفضل بعد التوحيد؟ ويلزم من ذلك الاحتساب وربط الظاهر بالباطن.فيه تفاضل خصال الإيمان.وفيه أنّ الأعمال من الإيمان.

قوله: (تُطْعِمُ الطَّعَامَ)، هذا فعل أهل الإيمان، أنهم يهتمون بإطعام المسلمين الطعام، سيما المحتاجين، قال تعالىٰ: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ* ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ* أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾

(٤٦٢)وأخرجه مسلم (٣٩)، وأبوداود (٥١٩٤)، والنسائي (٥٠٠٠)، وابن ماجه (٣٢٥٣).

[سورة البلد: ١٤-١٨][٤٦٣].

وعن حمزة بن صهيب عن **أبيه** قال: قال عمر لصهيب: فيك سرف في الطعام! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خياركم من أطعم الطعام**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٣٩٧١)، وهو في الصحيحة (٤٤).

وكان **عبدالله بن عمر** رضي الله عنهما- يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «**أفشوا السلام وأطعموا الطعام وكونوا إخوانًا كما أمركم الله عزوجل**». **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٢٥٢)، وهو في الصحيحة (١٥٠١).

وعن **البراء بن عازب** رضي الله عنهما- قال: جاء أعرابي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله علمني عملًا يدخلني الجنة قال: «**إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: أعتق النسمة، وفك الرقبة، فإن لم تطق ذلك، فأطعم الجائع، واسق الظمآن**». **صحيح**: صحيح الموارد (١٠١٧)، وهو في صحيح الترغيب (٩٥١).

بل هذا هو برُّ الحج، فعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما- قال: سئل رسول الله ﷺ ما برُّ الحج؟ قال: «**إطعام الطعام، وطيب الكلام**». **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (١٤٥٢٢)، وهو في الصحيحة (١٢٦٤).

وكان **محمد بن المنكدر** بمنىٰ يذبح ويريق الدماء، وكان سيدًا، يطعم الطعام هناك، ويجتمع عنده القراء (أي: طلاب العلم). **وعنه** قال: "إنّ من موجبات المغفرة إطعام المسكين السغبان". وقال -أيضًا-: "يمكنكم من الجنة إطعام الطعام وطيب الكلام". الحلية لأبي نعيم (٣/ ١٤٩).

ويوضحه ما ورد عن عبدالله بن عبيدالله بن عمير عن أبيه عن **جده** أنه قيل لرسول الله ﷺ: ما الإسلام؟ قال: «**إطعام الطعام وطيب الكلام**»، قيل فما الإيمان؟، قال: «**السماحة والصبر**»[٤٦٤]. صحيح.

---

(٤٦٣)**قلت**: ولا يفهم من هذه الآية أن الإيمان جاء بعد هذه الخصال، إنما هو قبلها وباعثها، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ**﴾[الأعراف: ١١]، وقال **الشاعر**: قل لمن ساد ثم ساد أبوه ... ثم ساد قبل ذلك جده.

(٤٦٤) قال شيخنا **الألباني**:"حديث صحيح رجاله ثقات لولا عنعنة الحسن **ولكن له شاهد** من حديث **عمرو بن عبسة** في المسند (٤/ ٣٨٥)، وآخر من حديث **عبادة بن الصامت** (٥/ ٣١٨- ٣١٩)". راجع رسالة الإيمان لابن أبي شيبة (ص ١٨) طبعة: المدرسة السلفية.

قال **الإمام الألباني**: "إطعام الطعام من العادات الجميلة التي امتاز بها العرب علىٰ غيرهم من الأمم، ثم جاء الإسلام وأكد ذلك أيما توكيد كما في هذا الحديث الشريف، بينما لا تعرف ذلك أوربا، ولا تَذَوَّقُوهُ، اللهم إلا من دان بالإسلام منها كالألبان ونحوهم، وإنّ مما يؤسف له أن قومنا بدؤوا يتأثرون بأوربا في طريقة حياتها، ما وافق الإسلام منها وما خالف، فأخذوا لا يهتمون بالضيافة ولا يلقون لها بالًا، اللهم إلا ما كان منها في المناسبات الرسمية، ولسنا نريد هذا بل إذا جاءنا أي صديق مسلم وجب علينا أن نفتح له دورنا، وأن نَعْرِضَ عليه ضيافتنا، فذلك حق له علينا ثلاثة أيام، كما جاء في الأحاديث الصحيحة، وإنّ من العجائب التي يسمعها المسلم في هذا العصر الاعتزاز بالعربية، ممن لا يقدرها قدرها الصحيح، إذ لا نجد في كثير من دعاتها اللفظيين من تتمثل فيه الأخلاق العربية، كالكرم، والغيرة، والعزة، وغيرها من الأخلاق الكريمة التي هي من مقومات الأمم، ورحم الله من قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وأحسن منه قول رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم** -وفي رواية: **صالح-الأخلاق**»". الصحيحة (١/ ١١١) بتصرف يسير.

قوله: **(وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَىٰ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ)**، ذكر النبي ﷺ السلام بعد سؤال الرجل عن الإسلام -والإسلام والإيمان شيء واحد إذا افترقا-؛ فدلَّ الحديث علىٰ أن إفشاء السلام من الإيمان، وكل عمل صالح من الإيمان، وهذا ما قرره البخاري في كتاب الإيمان كلّه.

عن طارق بن شهاب قال: كنا عند **عبدالله** جلوسًا، فجاء آذنه، فقال: قد قامت الصلاة، فقام وقمنا معه فدخلنا المسجد فرأىٰ الناس ركوعا في مقدم المسجد فكبر وركع ومشينا وفعلنا مثل ما فعل فمر رجل مسرع فقال عليكم السلام يا أبا عبد الرحمن فقال: صدق اللهُ وبلَّغَ رسولَهُ، فلما صلينا رجع فولج علىٰ أهله وجلسنا في مكاننا ننتظره حتىٰ يخرج، فقال بعضنا لبعض: أيكم يسأله، قال طارق: أنا أسأله فسأله فقال عن النبي ﷺ قال: «**بين يدي الساعة تسليم الخاصة** ...».

صحيح: أخرجه المصنف في الأدب المفرد (١٠٤٩).

وعن أبي الجعد قال: لقي **عبدالله** رضي الله عنه- رجلٌ فقال: السلام عليك يا ابن مسعود، فقال عبدالله: صدق الله ورسوله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ من أشراط الساعة أن يمرّ الرجلُ**

في المسجد لا يُصلّي فيه ركعتين، وألا يُسلم إلا علىٰ من يعرف». قوي بالطرق:أخرجه ابن خزيمة (١٣٢٦)، والبيهقي في الشعب (٨٧٧٨)، وهو في الصحيحة (٦٤٩).

وفي رواية عن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ من أشراط الساعة: أن يُسلم الرجل علىٰ الرجلِ لا يُسلّم عليه إلا للمعرفة**». حسن: تخريج المسند لشعيب (٣٨٤٨)، وهو في الصحيحة (٦٤٨).

وفي رواية أخرىٰ: «**إنّ من أشراط الساعة إذا كانت التّحية علىٰ المعرفة**». حسن: تخريج المسند لشعيب (٣٦٦٤)، وهو في الصحيحة (٦٤٨).

والتسليم علىٰ المعرفة خلاف السُّنَّة، التي دعت إلىٰ إفشاء السلام، وإلقائه علىٰ منْ عرفت ومن لم تعرف.

ويؤكد ذلك حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا**(لا يكمل الإيمان إلا بالتحاب)، **أولا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**». أخرجه مسلم (٥٤). فجعل إفشاء السلام من الإيمان.

قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد أجاب بهذين الفعلين؛ وذلك لأنه كان في أحد الموضعين الحاجة إلىٰ إفشاء السلام وإطعام الطعام أكثر وأهم؛ لما حصل من إهمالهما والتساهل في أمورهما". شرح مسلم (٢/ ١٠).

وفي الحديث: «**إنّ موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام**». صحيح: أخرجه الطبراني في الكبير (٤٦٩)، وهو في صحيح الجامع (٢٢٣٢).

وعن **عبد الله بن عمرو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: قال رسول الله ﷺ: «**اعبدوا الرحمن، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام تدخلوا الجنان**». صحيح: أخرجه أحمد (٦٥٨٧)، والترمذي (١٨٥٥)، وهو في الصحيحة (٥٧١)، والإرواء (٣/ ٢٣٩).

٢١- بَابُ كُفْرَانِ العَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ

فِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

قوله: **(بَابُ كُفْرَانِ العَشِيرِ، وَكُفْرٍ دُونَ كُفْرٍ)**، هذه الترجمة يراد بها بيان أن المعاصي تسمىٰ كفرا، كما أن الطاعات تسمىٰ إيمانا، وأن المعاصي تنقص الإيمان، ولا تخرج إلىٰ الكفر الذي يوجب الخلود في النار، ووجه مناسبة هذه الترجمة لأبواب الإيمان وأموره؛ من جهة كون الكفر ضد الإيمان، وفي ذلك رد علىٰ الخوارج، ولعل البخاري كما ردّ علىٰ المرجئة في الأبواب السابقة، أراد أن يرد علىٰ الخوارج المارقة -والله أعلم-.

قوله: **(فِيهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ)**، أشار إلىٰ حديث **أبي سعيد** رضي الله عنه-، وفيه: «**يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار**»، إلىٰ أن قال: «**تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن**». سيأتي برقم (٣٠٤).

قال **الحافظ** رحمه الله: "وفائدة هذا: الإشارة إلىٰ أن للحديث طريقًا غير الطريق المساقة". الفتح (١/ ٨٣).

وذكر فيه كفران العشير يعني: الزوج، وفي هذا أبلغ ردّ علىٰ الخوارج، الذين يكفرون بالذنوب، ويطلقون الكفر الأكبر علىٰ من صدر منه أي كفر، أو وردت النصوص بإطلاق اسم الكفر عليه.

٢٩-حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما-، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ**»(أي: بسبب كفرهن) قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ:«**يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا**(قليلًا لا يعجبها)**، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**»(٤٦٥).

---

(٤٦٥)وأخرجه مسلم (٩٠٧)، وأبوداود (١١٨٩)، والنسائي (١٤٩٣).

أطرافه في: (الصلاة٤٣١، الأذان٧٤٨، الكسوف١٠٤٦، ١٠٥٢، بدء الخلق٣٢٠٢، النكاح٥١٩٧).

الشرح

قوله: **(فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ، يَكْفُرْنَ، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللهِ؟ قَالَ: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ)**، أي يجحدن حق الزوج لضعف عقلهن وقلة معرفتهن.

وقوله: **(وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ)**، أي: كفر النعمة والإحسان لا كفر الجحد، وهو كفر لا يخرج عن الملة.

وعن **عبد الرحمن بن شبل** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الفساق هم أهل النار**»، فقيل: يا رسول الله ومن الفساق؟ قال: «**النساء**»، فقال رجل: يا رسول الله! أولسن أمهاتنا، وأخواتنا، وأزواجنا؟! قال: «**بلىٰ، ولكنهن إذا أعطين لم يشكرن، وإذا ابتلين لم يصبرن**». صحيح: أخرجه أحمد (١٥٧٠٤)، والحاكم (٢٧٧٣)، وهو في الصحيحة (٣٠٥٨).

قال **الحافظ** رحمه الله: "المعاصي تسمىٰ كفرًا لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة، وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة، وهي قوله ﷺ: «**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحدٍ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها؛ من عظم حقه عليها، ولا تجد حلاوة الإيمان حتىٰ تؤدي حق زوجها**». صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٧٥٣١)، وهو فيصحيح الترغيب والترهيب (١٩٣٩)، فقرن حق الزوج علىٰ الزوجة بحقِّ الله، فإذا كفرت المرأة حق زوجها، وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية، كان ذلك دليلًا علىٰ تهاونها بحق الله؛ فلذلك يطلق عليها الكفر، لكنه كفر لا يخرج عن الملة.

ويؤخذ من كلامه مناسبة هذه الترجمة لأمور الإيمان من جهة كون الكفر ضد الإيمان". الفتح (١/ ٨٣).

وقال **المهلب** رحمه الله: "الكفر هاهنا هو كفر الإحسان، وكفر نعمة العشير، وهو الزوج، وتسخط حاله، وقد أمر الله رسوله بشكر النعم، وجاء في الحديث: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**».صحيح: صحيح أبي داود (٤٨١١)، وهو في الصحيحة (٤١٦). وشكر نعمة الزوج هو من باب شكر نعمة الله؛ لأن كل نعمة فضل بها العشير أهله، فهي من نعمة الله أجراها علىٰ يديه". شرح البخاري (١/ ٨٨).

وثبت في الحديث: «**لا ينظر الله إلىٰ امرأة لا تشكر لزوجها، وهي لا تستغني عنه**». صحيح:

أخرجه النسائي في السنن الكبرىٰ (٩١٣٥)، وهو في الصحيحة (٢٨٩).

وذكر الإمام **أبو عبيد القاسم بن سلّام** رَحِمَهُ اللَّهُ تفصيلًا جميلًا بعد أن ذكر مجموعة من الأحاديث والآثار الدالة علىٰ عدم إكفار المسلمين ببعض الأعمال أو الألفاظ التي أطلق عليها الشارع لفظ (الكفر)، أنقله بتصرف، فقال: "فهذه الآثار كلّها، وما كان في معناها، فهو عندي علىٰ ما فسرته لك، وكذلك الأحاديث التي فيها البراءة، فهي مثل قوله ﷺ: «**من فعل كذا وكذا فليس منا**»، لا نرىٰ شيئًا منها يكون معناه التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته، إنما مذهبه عندنا: أنه ليس من المطيعين لنا، ولا من المقتدين بنا، ولا من المحافظين علىٰ شرائعنا، وهذه الصفات وما أشبهها، وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك وإطلاق ذلك علىٰ بعض المعاصي، فهي **عندنا لا تثبت علىٰ أهلها كفرًا ولا شركًا يزيلان الإيمان عن صاحبه**.

إنما وجوهها: أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**أخوف ما أخاف علىٰ أمتي الشرك الأصغر**». **رجاله ثقات**: أخرجه أبي عبيد في الإيمان (٧٩)، وهو في الصحيحة (٩٥١)، وقد سمىٰ النبي ﷺ هذا الفعل شركًا، وليس هو الشرك بالله وقد فسره لك بقوله: «**الأصغر**»، وهذا يدلّ علىٰ أن هاهنا شركًا سوىٰ الذي يكون به صاحبه مشركًا بالله.

ومنه قول **عبدالله**: "الربا بضعة وستون بابًا، والشرك مثل ذلك" فقد أخبرك أن في الذنوب أنواعًا كثيرة تسمىٰ بهذا الاسم، وهي غير إشراك الذي يتخذ مع الله إلها غيره، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فليس لهذه الأبواب عندنا وجوه إلا أنها أخلاق المشركين، وتسميتهم، وسننهم، وألفاظهم، وأحكامهم، ونحو ذلك من أمورهم وأما الفرقان الشاهد عليه في التنزيل، فقول الله عز وجل: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤] وقال **ابن عباس**: "ليس بكفر ينقل عن الملة"، وقال **عطاء بن أبي رباح**:"كفر دون كفر".

فقد **تبين لنا أنه كفر ليس بناقل عن ملة الإسلام**، وأنّ الدين باق علىٰ حاله، وإن خالطه ذنوب، فلا معنىٰ له إلا خلاف الكفار وسنتهم، علىٰ ما أعلمتك من الشرك سواء؛ لأن من سنن الكفار: الحكم بغير ما أنزل الله، ألا تسمع قوله -تعالىٰ-: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾ [المائدة: ٥٠] تأويله وتفسيره عند أهل التفسير: أن من حكم بغير ما أنزل الله وهو علىٰ ملة الإسلام كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية، إنما هو أن أهل الجاهلية كذلك كانوا يحكمون، وهكذا قوله ﷺ:

«**ثلاثة من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والأنواء**». أخرجه مسلم (٩٣٤)، ومثله الحديث الذي يروىٰ عن **جرير وأبي البختري الطائي**: «**من سنة الجاهلية: النياحة، وصنعة الطعام، وأن تبيت المرأة في أهل الميت من غيرهم**». **صحيح**: صححه شيخنا **الألباني** في تخريجه لكتاب الإيمان لابن سلام (ص ٩٠).

وكذلك الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**». **متفق عليه**.

وليس معنىٰ هذه الآثار كلها من الذنوب: أن راكبها يكون جاهلًا ولا كافرًا ولا منافقًا، وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده، ومؤد لفرائضه، ولكن معناها أنها من أفعال الكفار محرمة منهي عنها في الكتاب وفي السنة، ليتركها المسلمون ويتجنبوها، فلا يتشبهوا بشيء من أخلاقهم ولا شرائعهم.

وكذلك حديثه في المرأة إذا استعطرت، ثم مرت بقوم يوجد ريحها: "**أنها زانية**"، فهل يكون هذا علىٰ الزنا الذي تجب فيه الحدود؟ ومثله قوله ﷺ: «**المستبان شيطانان يتهاتران، ويتكاذبان**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٤٨٣)، وهو في صحيح الجامع (٦٦٩٦)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٨١).

أفيقال عليه أنه أراد الشيطانين اللذين هم أولاد إبليس؟! إنما هذا كله علىٰ ما أعلمتك من الأفعال والأخلاق والسنن، وكذلك كل ما كان فيه ذكر كفر أو شرك لأهل القبلة فهو عندنا علىٰ هذا، ولا يجب اسم الكفر والشرك الذي تزول به أحكام الإسلام ويُلْحَق صاحبه بردة، إلا كلمة الكفر خاصة دون غيرها، وبذلك جاءت الآثار مفسرة". الإيمان لأبي عبيد (ص ٣٤) بتصرف.

فعن أبي عثمان النهدي، قال: دخلت علىٰ **ابن مسعود** رضي الله عنه- وهو في بيت مال الكوفة فسمعته يقول: "لا يبلغ بعبد كفرًا ولا شركًا حتىٰ يذبح لغير الله، أو يصلي لغيره". **إسناده صحيح**: أخرجه أبوعبيد (٢٩).

وعن أبي سفيان، قال: جاورت مع **جابر بن عبدالله** رضي الله عنهما- بمكة ستة أشهر، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحدًا من أهل القبلة كافرًا؟ فقال: "**معاذ الله**"، قال: فهل تسمونه: مشركًا؟ قال: "**لا**". **صحيح**: أخرجه أبوعبيد (٣٠).

وعن غالب بن خطاف القطان، عن **بكر بن عبد الله المزني** قال: لو انتهيت إلىٰ هذا المسجد

وهو غاص بأهله مفعم من الرجال، فقيل لي: أي هؤلاء خير؟ لقلت لسائلي: أتعرف أنصحهم لهم؟ فإن عرف عرفت أنه خيرهم، ولو انتهيت إلىٰ هذا المسجد وهو غاص بأهله مفعم من الرجال فقيل: أي هؤلاء أشر؟ لقلت لسائلي: أتعرف أيهم أغشهم لهم؟ فإن عرفه عرفت أنه شرهم.

وما كنت لأشهد علىٰ خيرهم أنه مؤمن مستكمل الإيمان، لو شهدت له بذلك لشهدت أنه في الجنة.

وما كنت أشهد علىٰ شرهم أنه منافق بريء من الإيمان، لو شهدت عليه بذلك لشهدت أنه في النار، ولكني أخاف علىٰ خيرهم وأرجو لشرهم: فإذا أنا خفت علىٰ خيرهم؛ فكم خوفي علىٰ شرهم؟! وإذا أنا رجوت لشرهم؛ فكيف رجائي لخيرهم؟! ثم قال: **هكذا السنة**. **حسن**: الزهد (٣٢٤٦).

وعن وهب -يعني: ابن منبه- قال: وسألت **جابرًا** رضي الله عنه -: هل في المصلين من طواغيت(٤٦٦)؟ قال: "لا"، وسألته: هل فيهم مشرك؟ قال: "لا". **إسناده حسن**: إتحاف الخيرة (ص

---

(٤٦٦)وقال أبويعلىٰ الموصلي: ثنا ابن نمير، ثنا أبي، ثنا الأعمش، عن أبي سفيان قال: "سألت جابرًا وهو مجاور بمكة وكان نازلا في بني فهر، فسأله رجل: هل كنتم تدعون أحدًا من أهل القبلة مشركًا؟ فقال: معاذ الله، ففزع لذلك.

قال: هل كنتم تدعون أحدًا منهم كافرًا؟ قال: لا"قال الحارث بن محمد بن أبي أسامة: ثنا أحمد بن يزيد، ثنا هاشم بن يزيد السعدي، عن نهشل بن سعيد، عن الضحاك بن مزاحم، قال: "قال ابن عمر: يا نافع، أدنني من سبيل الحاج- قال: وذلك بعد ضعف بصره- ففعل، فنظر إلىٰ أصحاب المحامل، فقال: رحمكم الله ما أنعمكم، ثم نظر إلىٰ أصحاب الجواليق السود عليها الرحال، فقال: أنتم الحاج لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، فاسمعوا مني حديثًا أحدثكموه عن رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: أهل قبلتنا مؤمنون، لا يخرجهم من الإيمان إلا الباب الذي دخلوا فيه [171] " قال: وثنا إسماعيل بن عبدالكريم، ثنا إبراهيم بن عقيل، عن أبيه، عن وهب- يعني ابن منبه- قال: وسألت جابرًا: هل في المصلين من طواغيت؟ قال: لا. وسألته: هل فيهم مشرك؟ قالت: لا - 443 "قال : أخبرنا أحمد بن جعفر ، أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد العزيز ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن حمزة ، حدثنا الحسن بن علي بن إسحاق السراج القاضي ، حدثنا محمد بن خالد بن خداش ، حدثنا سالم بن قتيبة عن منصور بن دينار عن عبد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رجل لابن عمر : إن لي جاراً يشهد علي بالشرك ، فقال ابن عمر : أفلا تقول : لا إله إلا الله فتكذبه . الحجة في بيان المحجة - 2999<حدَّثنا أبو خيثمة ، حدَّثنا عمر بن يونس ، حدَّثنا

(١٧١).

وعن طاووس قال: ذكر الخوارج عند **ابن عمر** رضي الله عنهما-؛ فقيل: إنهم يشركون الناس؟ فقال: **"لا يكونوا مشركين حتىٰ يقولوا مثنىٰ"**. الزهد (٣٢٤٩).

وعن سوار بن شبيب قال: كنت عند **ابن عمر**، إذ أتاه رجل جليد في العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبدالرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يألو(لا يقصر) وكلهم بغيض إليه أن يأتي دناءة، وهم في ذلك يشهد بعضهم علىٰ بعض بالشرك.

فقال رجل من القوم: وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم علىٰ بعض بالشرك؟

فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد علىٰ عبدالله الحديث، فقال عبدالله: لعلك ترىٰ، لا أبا لك، أني سآمرك أن تذهب فتقتلهم! عظهم وانههم، فإن عصوك فعليك نفسك، فإن الله -عز وجل- يقول: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥].**إسناده صحيح**: أخرجه الطبري (١٢٨٥٤)، وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير (ص٧٤٩).

وعن **قتادة** في قوله تعالىٰ: ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلىٰ عَذابٍ عَظِيمٍ**﴾ [التوبة: ١٠١]. قال: "فما بال أقوام يتكلفون علم الناس قال فلان في الجنة، وفلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري لعمري لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئًا ما تكلفته الأنبياء قبلك قال نبي الله نوح -عليه السلام-: ﴿**وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب -عليه السلام-: ﴿**بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [هود: ٨٦]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿**لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾ [التوبة: ١٠١].

وقد روي عن **ابن عباس** رضي الله عنهما- في قوله: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ**﴾ الآية [الأنعام: ١٢٨]، قال: "إن هذه الآية، آية لا ينبغي لأحدٍ أن يحكم علىٰ الله في خلقه، ولا ينزلهم جنةً ولا نارًا". [قال الشيخ الألباني معلقًا علىٰ هذا الأثر: "قلت هذا أثر منقطع لأن

عِكْرِمة ، حدَّثنا يزيد الرَّقَاشي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قلت له : يا أبا حمزة إن أناسًا يشهدون علينا بالكفر والشرك ، قال أنس رضي الله عنه : أولئك شر الخلق والخليقة . المطاب العالية

علي ابن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، وإن كان معناه صحيحا ثم إن في الطريق إليه عبد الله بن صالح وهو ضعيف.." انظر "رفع الأستار" "ص ٧١" هامش ٢٤، وقال بعض المحققين: **سنده حسن**]أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/ ١١٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (٤ / ١٣٨٨).

ولذلك قال تعالىٰ: ﴿**وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ**﴾ الآية [هود: ٣١].

٢٢- بَابٌ: المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلاَ يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلَّا بِالشِّرْكِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قوله: (**بَابٌ: المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ...**)، هذه الترجمة في الردّ علىٰ الخوارج والمعتزلة ونحوهم، في قولهم: إن المذنبين من المسلمين مخلدون في النار بذنوبهم، وقد نطق القرآن بتكذيبهم، كما استدل بذلك المصنف بقوله -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، والمراد بهذه الآية من مات علىٰ الذنوب، ولو كان المراد من تاب قبل الموت لم يكن للتفرقة بين الشرك وغيره معنىٰ، إذ التائب من الشرك قبل الموت مغفور له.

فبدأ المصنف في الرد علىٰ الخوارج الذين كان منشأ ضلالتهم في مسائل الإيمان.

نشأة الخوارج

كانت بدايتهم في عهده -عليه الصلاة والسلام-، حين جاء ذو الخويصرة، وقال للنبي ﷺ: «**اعدل يا رسول الله**» علىٰ ما يأتي في هذا الكتاب.

ثم ظهرت علىٰ صفة الطائفة، والفرقة عقيب قَبولِ علي بن أبي طالب رضي الله عنه- للتحكيم بعد معركة "صفين"، إذ اعتبروا أن ذلك التحكيم من الكفر، حيث كان شعارهم: "أن لا حكم إلا لله"، فقالوا كلمة حق، وأرادوا بها الباطل؛ فكفَّروا الصحابة، وخرجوا بالسيف علىٰ الإمام، وكفروا بالكبيرة، وما زالت عقائدهم بين المسلمين يتناقلونها جيلًا بعد جيل إلىٰ يومنا هذا.

قال معمر: وكان **قتادة** إذا قرأ هذه الآية: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**﴾ [آل عمران: ٧] قال: "إن لم تكن الحرورية أو السبئية فلا أدري من هم؟!، ولعمري لقد كان في أصحاب بدر والحديبية الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار خبر لمن استخبر، وعبرة لمن اعتبر، لمن كان يعقل أو يبصر، إن الخوارج خرجوا، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير بالمدينة، وبالشام، وبالعراق، وأزواجه يومئذ أحياء، والله إنْ خرج منهم ذكر ولا أنثىٰ حروريًا قط، ولا رضوا الذي هم عليه، ولا مالؤهم فيه، بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله ﷺ إياهم، ونعته الذي نعتهم به، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم، ويعادونهم بألسنتهم، وتشتد والله أيديهم عليهم إذا لقوهم". تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٨٢/ ٣٧٥).

وقد قال **سعد** رضي الله عنه- في قوله -تعالىٰ-: ﴿**يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً**﴾ [البقرة: ٢٦]: "يعني الخوارج".

صحيح: أخرجه ابن أبي حاتم (٢٨١).

وعن مصعب بن سعد، قال: سألت **أبي** فقلت: قوله -تعالىٰ-: ﴿**الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ**﴾ [البقرة: ٢٧] إلىٰ آخر الآية؟، فقال: "هم الحرورية (يعني: الخوارج)". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٩٠٨٠)، وابن كثير (١/ ٢٠٩).

وعن حميد بن مهران المالكي الخياط قال: سألت أبا غالب: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١١٨]قال: حدثني **أبو أمامة** رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**هم الخوارج**». **حسن**: أخرجه ابن أبي حاتم (٤٠٣٢).

وعن أبي غالب قال: سمعت **أبا أمامة** رضي الله عنه- يحدث، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ**﴾. [آل عمران: ٧] قال: «**هم الخوارج**»، وفي قوله: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٦]. قال: «**هم الخوارج**». **حسن**: أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٢).

وعن أبي الطفيل، قال: سأل عبد الله بن الكواء **عليًّا** رضي الله عنه- عن قوله: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً**﴾ [الكهف: ١٠٣]، قال: "أنتم يا أهل حروراء".**حسن**: أخرجه ابن جرير(١٨/ ١٢٧)، وغيره.

وعن أبي غالب، عن **أبي أمامة** رضي الله عنه- في قوله: ﴿**فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥] قال: "هم الخوارج". **حسن**: أخرجه ابن جرير (٢٣/ ٣٥٨).

وعن سعيد بن جُمْهَان، قال: أتيت **عبد الله بن أبي أوفىٰ** رضي الله عنه-، فسلمت عليه، فقال: من أنت؟ قلت: أنا سعيد بن جمهان، قال: ما فعل أبوك؟ قلت: قتلته الأزارقة، فقال: لعن الله الأزارقة: مرتين، أو ثلاثًا، حدثنا رسول الله ﷺ: «**إنهم كلاب أهل النار**»، قلت: الأزارقة وحدها أم الخوارج كلها؟ قال: بل الخوارج كلها. **صحيح**: أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (١٥٥٣)، وأحمد بن منيع.

تسميتهم

قال **القاضي عياض**: "سموا بهذا أخذًا من قوله ﷺ: «**يخرج من ضئضئ هذا**»، قيل: بهذا اللفظ سموا خوارج وقيل: بل لخروجهم عن الجماعة وقيل: بل لخروجهم عليها.

قلت: أول من سماهم بهذا الاسم هو النبي ﷺ. ولهم أسماء كثيرة فقد سموا "**بالشُرَاة**"،

في "شرح القاموس" وفي "لسان العرب": الشراة الخوارج، سموا بذلك؛ لأنهم والجوا (يعني: في اتباع أهوائهم وخروجهم علىٰ الأئمة، واستباحتهم الدماء)، ومنه حديث **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "أنه جمع بنيه حين أشرىٰ أهلُ المدينةِ مع ابن الزبير، وخلعوا بيعة يزيد"، أي: صاروا كالشراة في فعلهم، وخروجهم عن طاعة الإمام.

و"**الحرورية**" نسبة لقرية انحازوا إليها، بالقرب من الكوفة، يقال لها: "حروراء"، ويقال لهم: "**المحكمة**"، ومنهم: "**الأزارقة**"؛ أتباع نافع بن الأزرق.

ومنهم: "**النجدات**" نسبة لنجدة بن عامر الحنفي، ومنهم "**الإباضية**" وينسبون إلىٰ عبدالله بن إباض، وهي فرق لا تزال تدعوا إلىٰ بدعتها، وإلىٰ علم الكلام، وتحارب أهل السنة، وقد كان الخوارج يلقبون أنفسهم بـ "جماعة المسلمين"، ولا يزالون علىٰ هذا إلىٰ يومنا، حتىٰ إن "جماعة التكفير والهجرة" التي هي امتداد لهذه الفرقة في العصر الحديث يلقبون أنفسهم بنفس لقب أسلافهم "جماعة المسلمين"، و"جماعة الهجرة"، كما ورد عن سعيد بن جمهان، قال: كنا نقاتل الخوارج مع **عبد الله بن أبي أوفىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فلحقه غلامهم، فناداه وهو في ذلك الشط: يا فيروز، هذا مولاك عبد الله ابن أبي أوفىٰ، فقال: نعم الرجل هو لو هاجر، قال ما يقول عدو الله قال: يقول: نعم الرجل لو هاجر فقال: هجرة بعد هجرتي مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طوبىٰ لمن قتلهم وقتلوه** -ثلاثًا-». صحيح: أخرجه أحمد (١٩١٤٩)، وإتحاف الخيرة المهرة (٣٤٤٨)، واللالكائي في شرح السنة (٧/ ١٢٣٢).

وعن أبان قال خرجت خارجة من البصرة فقتلوا، فأتيت **أنسًا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فقال: "ما للناس فزعوا؟" قلت: خارجة خرجت قال: "يقولون ماذا؟". قال: قلت: يقولون: مهاجرين! قال: "إلىٰ الشيطان هاجروا"، أوليس قد قال رسول الله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح**»"[٤٦٧]. صحيح الإسناد.

طهر الله عقائد المسلمين وبلادهم منهم.

نحلتهم ومذهبهم

قولهم: في مسائل الأسماء والأحكام، أو الإيمان والكفر، وإنكار الشفاعة للعصاة

---

(٤٦٧)أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٨٦٦٢)، **ينظر في ذلك**: "دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين الخوارج،والشيعة"، للدكتور أحمد جلي.

وأهم ما اشتهروا به **التكفير بأي كبيرة من الكبائر**، قالوا: "من عصىٰ الله فهو كافر"، واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤]،وقالوا: إنها نص في أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله، فوجب أن يكون كافرًا. اللباب في علوم القرآن (٧/ ٣٥٠).

وقال **القرطبي**: "**إن حكم بما عنده علىٰ أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر**، وإن حكم به هوىٰ ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة علىٰ أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين، قال القشيري: ومذهب الخوارج أن من ارتشىٰ، وحكم بحكم غير الله فهو كافر". التفسير (٦/ ١٩١)، أضواء البيان (٦/ ١٣٨).

ويرون الخروج علىٰ أئمة الجور، وينتقصون بعض الصحابة، كمعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-، وعمرو بن العاص -رضي الله عنه-.

وينكر بعضهم شرط القرشية في الإمام، وينكرون الاستخلاف وولاية العهد، قال **البغوي** -رحمه الله-: "واتفقت الأمة من أهل السنة والجماعة علىٰ أن الاستخلاف سنة، وطاعة الخليفة واجبة، إلا الخوارج، والمارقة الذين شقوا العصا، وخلعوا رِبْقَةَ الطاعة". شرح السنة (١٠/ ٨٤).

قال **ابن بطال**: "إن الإمام يجوز له أن يجعل ولاية العهد بعده لرجل، ... وقد وردت السنة بمثله، وأجمعت الأمة علىٰ استعماله". شرح البخاري (٥/ ٢٢٣).

ومن عقائدهم المنحرفة، إنكارهم الشفاعة لأهل الكبائر من المسلمين، روىٰ ابن عباس قال: سمعت **عمر بن الخطاب** -رضي الله عنه- يقول: "أيها الناس، إنّ الرجم حق فلا تخدعن عنه، وإن آية ذلك أن رسول الله ﷺ قد رجم، وأن أبا بكر قد رجم، وأنا قد رجمنا بعدهما، وسيكون قوم من هذه الأمة يكذبون بالرجم، ويكذبون بالدجال، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا".

حسن: أخرجه أحمد (١٥٦)، وعبدالرزاق (١٣٣٦٤)، وحسنه شيخنا الألباني في (قصة المسيح الدجال/ ص ٣٠).

قال **ابن خزيمة**: "وأهل الجهل في هذا الفصل صنفان: **صنف** منهم **الخوارج والمعتزلة** أنكرت إخراج أحد من النار ممن يدخل النار، وأنكرت هذه الأخبار التي ذكرناها في الشفاعة، و**الصنف الثاني**:**الغالية من المرجئة** التي تزعم أن النار حرمت علىٰ من قال: لا إله إلا الله تتأول

هذه الأخبار التي رويت عن النبي ﷺ في هذه اللفظة علىٰ خلاف تأويلها".التوحيد (٢/ ٧٧٠).

وقالوا: بأن الإيمان كل لا يتجزأ، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وعلىٰ كل حال فإن جميع الفرق الضالة لها نصيب من الخروج، وهم داخلون في الجملة في الخوارج، وقد سبق بيان ذلك في الكلام علىٰ الإرجاء وأنهم خوارج(٤٦٨).

ويطعنون في السنة، نقل **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ عمن تكلم في الفرق قولهم عن الخوارج: "إنهم لا يطعنون في النقل؛ لتواتر ذلك؛ إنما يثبتونه علىٰ هذا الأصل، ولهذا قال النبي ﷺ في صفتهم:«**يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم**». متفق عليه. يتأولونه برأيهم من غير استدلال علىٰ معانيه بالسنة، وهم لا يفهمونه بقلوبهم؛ إنما يتلونه بألسنتهم".

قال: "والتحقيق أنهم أصناف مختلفة فهذا رأي طائفة منهم، وطائفة قد يكذبون النقلة، وطائفة لم يسمعوا ذلك، ولم يطلبوا علمه، وطائفة يزعمون أن ما ليس له ذكر في القرآن بصريحه ليس حجة علىٰ الخلق: إما لكونه منسوخًا، أو مخصوصًا بالرسول ﷺ، أو غير ذلك". الصارم المسلول (٢/ ١٨٨).

ويقولون بخلق القرآن، يقول **الأشعري**: "والخوارج جميعًا يقولون بخلق القرآن". مقالات الإسلاميين (١/ ٢٠٣).

ويقولون بتعطيل الصفات، ويظهر ذلك من خلال كتبهم؛ مثل إنكار رؤية الله في اليوم الآخر، والاستواء، واليد، وغيرها؛ **تأثرًا بالمعتزلة**؛ يقول **الأشعري**: "فأما التوحيد فإن قول الخوارج فيه كقول المعتزلة".المصدر السابق (١/ ٢٠٣).

وقد أنكروا خروج الدجال، وعذاب القبر، إلىٰ غير ذلك من آرائهم الفاسدة.

وقد نادوا بإسقاط حدّ الرجم للزاني المحصن، قال العلامة **الشنقيطي**: "ولم نعلم بأحد من أهل القبلة خالف في رجم الزاني المحصن، ذكرًا كان أو أنثىٰ إلا ما حكاه **القاضي عياض وغيره** عن الخوارج، وبعض المعتزلة كالنَّظَّام وأصحابه، فإنهم لم يقولوا بالرجم. وبطلان مذهب من ذكر من الخوارج وبعض المعتزلة؛ واضح من النصوص الصحيحة الصريحة الثابتة عن رسول الله ﷺ وأصحابه بعده".أضواء البيان (٥/ ٣٧٢).

---

(٤٦٨) تحت باب قول النبي ﷺ: «**بني الإسلام علىٰ خمس**»، باب رقم (١).

وخرقوا إجماع الأمة، فذهبوا إلىٰ أنّ يدَ السارق تقطع في القليل والكثير، وأنّ القطع يكون من المنكب، واليد تقطع في كل ما له قيمة علىٰ ظاهر الآية.

وأوجبوا علىٰ الحائض قضاء الصلاة كالصوم، وأنكروا المسح علىٰ الخفين، وأجازوا الجمع بين الأختين، وبين المرأة وعمتها وخالتها.

وحرموا قتل اليهود والنصارىٰ، وأباحوا قتل المسلمين، وهذا مصداق قوله -عليه الصلاة والسلام- في وصفهم: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**». متفق عليه.

٣٠- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ وَاصِلٍ الأَحْدَبِ، عَنِ المَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَاذَرٍّ رضي الله عنه -بِالرَّبَذَةِ (موضع بالبادية شرق المدينة)، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ (ثوبان من نوع واحد)، وَعَلَىٰ غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَاذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»(٤٦٩).

طرفاه في: (العتق ٢٥٤٥، الأدب ٦٠٥٠).

الشرح

قوله: (فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ)، أي: عن سبب إلباسه عبده مثل ما يلبس؛ لأنه خلاف المعهود.

قوله: (إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا)، سابت، أي: شاتمت، والرجل الذي عيره أبو ذر هو بلال الحبشي رضي الله عنه-.

فيه الاعتراف بالخطأ، والرجوع عنه.

---

(٤٦٩) وأخرجه مسلم (١٦٦١)، وأبوداود (٥١٥٧، ٥١٥٨)، والترمذي (١٩٤٥)، وابن ماجه (٣٦٩٠).

قوله: **(يَا أَبَاذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟)**، (فعيرته) نسبته إلىٰ العار،و(بأمه) بسبب أمه، وكانت سوداء؛ فقال له: يا ابن السوداء. وفي رواية: "وكانت أمه أعجمية؛ فعيرته بأمه". أخرجه مسلم (١٦٦١).

فيه أن التعيير سب، وأنه لا يجوز أن يعير المسلم.**وفيه** زجر العالم لأصحابه وأتباعه إذا رأىٰ منهم مخالفة.**وفيه** أن "عيرته" تتعدىٰ للمفعول الثاني بالباء؛ خلافًا لمن أنكره. **وفيه** نصرة المسلم لأخيه. **وفيه** مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قوله: **(إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)**،هذا التعيير من أخلاق الجاهلية، ففيك خلق من أخلاقهم، وكان ذلك من أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قبل أن يعرف تحريمه، فينبغي للمسلم أن لا يكون فيه شيء من أخلاقهم. **ويؤخذ من الحديث**: النهي عن التعيير وتنقيص الآباء والأمهات، وأنه من أخلاق الجاهلية.عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٤/ ٤٥) بتصرف يسير.

وفي الحديث: أن **أبا مالك الأشعري**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حدَّثَ أن النبي ﷺ قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**». أخرجه مسلم (٩٣٤).

وورد معناه عن **أبي هريرة**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "سببت رجلًا في الإسلام بأم له في الجاهلية، فاستعدىٰ علي رسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «**إنّ فيك لشعبة من الكفر**»، فلما ذكر الكفر اضطربت رجلاي، فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، **لا أَسُبُّ مسلمًا بعده أبدًا**". إسناده **حسن**: أخرجه البزار (٨٩١٧).

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يريد إنك في تعييره بأمه علىٰ خلق من أخلاق الجاهلية[٤٧٠]؛ لأنهم

---

(٤٧٠)في هذا رد علىٰ سيد قطب، حيث أطلق علىٰ المجتمعات المسلمة بأنها مجتمعات جاهلية، وهذا فيه تكفير ضمني للمجتمعات، وقد صرح في بعض المواضع بتكفير عامة المسلمين، بل وحكم علىٰ مساجد المسلمين بأنها مساجد ضرار؛ كما في تفسير سورة يونس "من ظلاله"، وكلامه في الظلال مشهور في ذلك. ويرد أيضًا علىٰ كتاب: (جاهلية القرن العشرين) لمحمد قطب؛ يقول الشيخ **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الذي أراه أن هذه الكلمة (جاهلية القرن العشرين) لا تخلو من مبالغة في وصف القرن الحالي، القرن العشرين، فوجود الدين الإسلامي في هذا القرن، وإن كان قد دخل فيه ما ليس منه؛ يمنعنا من القول بأن هذا القرن يمثل جاهلية كالجاهلية الأولىٰ؛ إذ لا تزال في هذه الأمة جماعة مباركة طيبة قائمة علىٰ هدي الكتاب والسنة، وهي أبعد ما تكون عن الجاهلية القديمة أو الحديثة، مع ما في ذلك من الإيهام بأنه لم يبق في المسلمين

كانوا يتفاخرون بالأنساب، فجهلت وعصيت الله في ذلك، ولم تستحق بهذا أن تكون كأهل الجاهلية في كفرهم بالله -تعالىٰ-". شرح البخاري (١/ ٨٥).

فكلُّ معصية فإنها من أمر الجاهلية، ولكن لا يكفر صاحبها؛ لأن التكفير له قواعد معروفة عند أهل العلم.

ومثله: حديث **جرير** رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**». متفق عليه. فتطلق الجاهلية والكفر والظلم والفسق علىٰ نوعين: الأكبر منها، والأصغر.

وكذلك قول **عمر** رضي الله عنه- في قصة حاطب: "يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق". سيأتي برقم (٣٠٠٧)، وقول **أسيد بن حُضير** لسعد رضي الله عنهما-: "إنما أنت منافقٌ تجادلُ عن المنافقين". سيأتي برقم (٢٦٦١)، ولم ينكر ﷺ هذه الأقوال وهي بمحضره.

قال العلامة **ابن عثيمين** رحمه الله: "وإنما كانت هذه المعاصي من أمر الجاهلية؛ لأن كل من عصىٰ الله فهو جاهل بما يستحق الله من التعظيم، ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَىٰ اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾ [النساء: ١٧]، والمراد بالجهالة: السفاهة، وعدم تقدير الله -عز وجل- وتعظيمه".شرح البخاري (١/ ٩٥).

في الحديث أنّ المعاصي من شعب الجاهلية والكفر. **وفيه** أن الإنسان قد يجتمع فيه من شعب الإيمان ومن شعب الجاهلية، فلا يجوز -والحالة هذه- أن يطلق عليه لفظ الجاهلية، وإنما تطلق عليه مقيدة؛ "**فيك جاهلية**".

وفيه أنه لا يجوز تكفير المسلم بارتكاب معصية. **وفيه** الرد علىٰ الخوارج ومن نحا نحوهم.

قوله: (**إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ ...**)،أي: خدمكم أو عبيدكم الذين يتخولون الأمور أي يصلحونها.

فيه فضل الإحسان إلىٰ الخلق والرحمة بهم. **وفيه** فضل التواضع. **وفيه** تفاضل الناس في

خير ... وعليه فهذا الإطلاق يحسن تقييده في الكفار وغير المسلمين". حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه (١/ ٣٩١ - ٣٩٤) بتصرف.

الدنيا، كما يتفاضلون في الآخرة. **وفيه** عدم تكليف الرعية بأكثر مما يطيقون. **وفيه** ما كان عليه الصحابة من التفقه في الدين. **وفيه** مواساة الخادم.

بَابُ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].
فَسَمَّاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ.

قوله: (بَابُ ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾)، هذا الباب في أن مرتكب المعصية لا يكفر بها، وأن صفة الإيمان لا تسلب عنه بالمقاتلة للمسلمين مع تسميتها كفرًا؛ فاستدل المصنف بالآية، ثم قال: (فَسَمَّاهُمُ الْمُؤْمِنِينَ).

وكذلك "فسر أهلُ العلم أحاديثَ: «**سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر**»، وحديث: «**ولا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**» مع الاتفاق علىٰ صحتها وكثرتها، وللإجماع المعلوم، والنص المعلوم علىٰ وجوب القِصَاص، ولو كان كفرًا علىٰ الحقيقة لأسقط القصاص.

وكذلك تأول كثير من علماء الإسلام حديث: «**ترك الصلاة كفر**»، مع ما ورد فيه من لفظ: «**الشرك**». أخرجه مسلم (٨٢)، وغير ذلك.

وكذلك حديث: «**النياحة كفر**». وحديث: «**الانتساب إلىٰ غير الأب كفر**»". إيثار الحق علىٰ الخلق لابن الوزير (ص ٣٩٠).

فأهل السنة لا يكفرون من ارتكب معصية؛ قال الإمام **أبوبكر الإسماعيلي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعتقاد أهل الحديث وأهل السنة والجماعة: يقولون: إنَّ أحدًا من أهل التوحيد ومن يصلي إلىٰ قبلة المسلمين؛ لو ارتكب ذنبًا، أو ذنوبًا كثيرة، صغائر أو كبائر مع الإقامة علىٰ التوحيد لله، والإقرار بما التزمه وقبله عن الله؛ فإنه لا يكفر به، ويرجون له المغفرة، قال -تعالىٰ-: ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨]". إعتقاد أئمة الحديث (ص ٦٤).

ونقل **الإمام أبوإسماعيل الصابوني** رَحِمَهُ اللَّهُ في اعتقاد أئمة السلف -أصحاب الحديث- (ص ٢٧٦): "إن أهل السنة يعتقدون أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة صغائرَ كانت أو كبائرَ؛ فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها، ومات علىٰ التوحيد والإخلاص؛ فإن أمره إلىٰ الله -عز وجل- إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة يوم القيامة سالمًا غانمًا غير مبتلىٰ بالنار، ولا معاقبَ علىٰ ما ارتكبه من الذنوب، واكتسبه ثم استصحبه -إلىٰ يوم القيامة- من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها؛ بل أعتقه وأخرجه منها إلىٰ نعيم دار القرار". بتصرف يسير.

وقال الإمام **البغوي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتفق أهل السنة علىٰ أن المؤمن لا يخرج عن الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر إذا لم يعتقد إباحتها، وإذا عمل شيئًا منها؛ فمات قبل التوبة، لا يخلد في النار؛ كما جاء به الحديث؛ بل هو إلىٰ الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه بقدر ذنوبه، ثم أدخله الجنة برحمته" شرح السنة (١/ ١٠٣).

ومن هنا قالوا: إنّ من كفر مسلمًا متأولًا لا يكفر، ولذلك نجد أن "**عليًّا** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "**لم نقاتل أهل النهروان علىٰ الشرك**"، ويقوي صحة ذلك عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه ردّ علىٰ أهل النهروان أموالهم، وقال فيهم: "**قوم بغوا علينا ... وهم من الكفر فروا**". **إسناده حسن**: أخرجه عبدالرزاق (١٨٦٥٦)، وابن أبي شيبة (٣٧٩٤٢).

ويوضحه أنّ ترك الخوارج للشرك الذي هو عبادة الأصنام وعبادة المخلوقين؛ كان معلومًا بالضرورة.

فالتأويل ونحوه لا يكفر به المسلم، وقد أشار إليه البخاري في "صحيحه" وترجم عليه من أن ذلك فيما إذا كفر أخاه متعمدًا غير متأول؛ محتجًّا بأن النبي ﷺ لم يكفر عمر في قوله لحاطب: "إنه منافق"، ولا معاذًا في قوله للذي خرج من الصلاة حين طول معاذ: "إنه منافق"، وأمثال ذلك مع التأويل كثيرة شهيرة.

وهذه فائدة جيدة تمنع من القطع بتكفير من أخطأ في التكفير متأولًا، فإنَّا لو كفرنا بذلك لكفرنا الجم الغفير؛ فالحمد لله علىٰ التوفيق لترك ذلك، والنجاة منه والبعد عنه". إيثار الحق علىٰ الخلق (ص٣٨٩) بتصرف.

قلت: وينبغي التنبه إلىٰ أنه لا يوجد نصٌّ يحث علىٰ التكفير، ولم يأمر الشرعُ به؛ بل وردت النصوص المانعة من ذلك، والزاجرة عنه، بحيث لو تورع عبد بترك التكفير، وتجنب ذلك مادام أنه أمر اجتهادي؛ فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله ﷺ، كاليهود والنصارىٰ، أو أجمعوا علىٰ تكفير صاحبه، بعد قيام الحجة عليه، وتوفر الشروط، وانتفاء الموانع، ومن النصوص التي تنهىٰ عن ذلك:

ما جاء عن **حذيفة بن اليمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن مما أتخوف عليكم رجلًا قرأ القرآن حتىٰ إذا رئيت بهجته عليه، وكان رداءًا للإسلام اعتراه إلىٰ ما شاء الله فانسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعىٰ علىٰ جاره بالسيف، ورماه بالشرك**». قال: قلت: يا رسول الله: أيهما

أولىٰ بالسيف: الرامي أم المرمي؟ قال: «**بل الرامي**». **حسن**: صحيح موارد الظمآن (٨١)، وهو في الصحيحة (٣٢٠١).

وعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما يكفر رجلٌ رجلًا إلا باء به أحدهما فإن كان كافرًا إنه لكما قال، وإن كان مسلمًا فقد كفر بتكفيره إياه**». **صحيح**: أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٨٦٤)، وابن حبان (٢٤٨)، وهو في الصحيحة (٢٨٩١).

وعن **أبي ذر** رضي الله عنه - مرفوعًا: «**ومن دعا رجلًا بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه** (أي: رجع)». **متفق عليه، واللفظ لمسلم**.

وشواهد هذه الأحاديث بغير لفظها كثيرة متواترة؛ منها أحاديث مروق الخوارج من الإسلام، وكان دينهم الذي اختصوا به من بين الداخلين في الفتن؛ هو تكفير بعض المسلمين بما حسبوه كفرًا، فوردت الأحاديث بمروقهم بذلك وتواترت.

٣١- حَدَّثَنَا عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ المُبَارَكِ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدَّثَنَا أَيُّوبُ، وَيُونُسُ، عَنِ الحَسَنِ، عَنِ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: ذَهَبْتُ لِأَنْصُرَ هَذَا الرَّجُلَ (هو علي بن أبي طالب)، فَلَقِيَنِي أَبُوبَكْرَةَ رضي الله عنه - فَقَالَ أَيْنَ تُرِيدُ؟ قُلْتُ: أَنْصُرُ هَذَا الرَّجُلَ، قَالَ: ارْجِعْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا التَقَىٰ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ** (معناه: مستحق لها)»، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المَقْتُولِ (أي فما ذنبه)؟ قَالَ: «**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[٤٧١].

طرفاه في: (الديات ٦٨٧٥، الفتن ٧٠٨٣).

الشرح

قوله: (**إِذَا التَقَىٰ المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**)، فقضىٰ عليهما أنهما في النار، وذكر السبب بقوله: (**إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَىٰ قَتْلِ صَاحِبِهِ**)، ولم يقل أنهما كفرا؛ فدلَّ علىٰ أن العبد لا يكفر بمعصية، ومن ذلك الاقتتال بين المسلمين إذا لم يستحله، أو يكون قتالهم بغضًا للإسلام والمسلمين.

---

(٤٧١) وأخرجه مسلم (٢٨٨٨)، وأبوداود (٤٢٦٨، ٤٢٦٩)، والنسائي (٤١٢٠، ٤١٢٣).

وفيالحديث دليلٌ علىٰ أنّ من هم بالشيء وشرع في العمل به ولم يدركه؛ يكتب له ما أراده، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. **وفيه** أنّ الإنسان إذا حَرِص علىٰ المعصية ومنعه مانع خارجي؛ فإن عليه وزرها. **وفيه** سؤال أهل العلم عما يشكل من النصوص. **وفيه** حرص الصحابة علىٰ بذل النصح.

٢٣- بَابٌ: ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ

قوله: **(بَابٌ: ظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ)**، والمعنىٰ أن المعاصي لا تُخرج صاحبها من الكفر، بل ينقص بها إيمانه، والناس متفاوتون في ذلك علىٰ قدر معاصيهم.

فبيَّن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن من عقيدة أهل السنة: الاعتقاد بأنه يوجد ظلم ولكنه دون الظلم الذي قال -تعالىٰ- فيه: ﴿**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣] كما أن ثمة كفر دون الكفر الأكبر، وفسق دون الفسق الأكبر، وأنه قد يجتمع في العبد شُعَب من شعب الإيمان، وشعب من شعب الكفر، وهي دون الكفر الأكبر؛ فيكون مؤمنًا بإيمانه، فاسقًا بكبيرته، قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وطوائف أهل الأهواء من الخوارج، والمعتزلة، والجهمية والمرجئة، كراميهم، وغير كراميهم يقولون: إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق، ... فغلطوا فيه، وخالفوا فيه الكتاب والسنة، وآثار الصحابة والتابعين لهم بإحسان، مع مخالفة صريح المعقول". مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٣٥٤).

وقال: "وأصل هؤلاء أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقًا للثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والحمد والذم؛ بل إما لهذا وإما لهذا؛ فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التي فعلها...".شرح العقيدة الأصفهانية (ص ١٩٠).

فيجتمع في العبد: إيمان وكفر، وإسلام ونفاق، وسنة وبدعة، وطاعة ومعصية؛ وهذا هو الذي عليه أهل السنة، والذي دلَّت عليه النصوص من الكتاب والسنة.

٣٢- حَدَّثَنَا أَبُوالوَلِيدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، ح قَالَ: وحَدَّثَنِي بِشْرُ بْنُ خَالِدٍ أَبُومُحَمَّدٍ العَسْكَرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ، **عَنْ عَبْدِاللهِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، **قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾**(أي: لم يخلطوه)[الأنعام: ٨٢] **قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**[لقمان: ١٣](٤٧٢).

---

(٤٧٢)وأخرجه مسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٧).

أطرافه في: (الأنبياء٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، التفسير ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، استتابة المرتدين٦٩١٨، ٦٩٣٧).

الشرح

قوله: (﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾)، قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فحملوا الآية (أي: الصحابة)علىٰ جميع أنواع الظلم، فبيَّن رسول الله ﷺ أن المراد بذلك الظلم الشرك خاصة، بقوله -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: ١٣]". شرح البخاري (١/ ٩٠) بتصرف.

فأظلم الظلم الشرك بالله؛ كما أخبر النبي ﷺ حينما سئل: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًا وهو خلقك**». سيأتي برقم (٤٤٧٧).

قوله: (قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ؟)، **هو الشاهد من إيراده**، فإنّ أصحاب النبي ﷺ فهموا بادئ الأمر ما علموه مسبقًا من أن هناك ظلم ليس هو شرك، فكلّ إنسان لا يسلم من الظلم، فظهر بذلك ما قرره الإمام البخاري من أن هناك ظلم دون ظلم، وعن **عطاء**، قوله: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [المائدة: ٤٥]، قال:"ظلم دون ظلم"[٤٧٣]. صحيح.

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٢] قال: "الأنداد هو الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلانة وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لأصحابه: ما شاءَ اللهُ وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانًا، هذا كلّه به شرك". **حسن**: أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٣٣٧).

ومن أمثلة ذلك أيضًا: ما ورد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤].

قال شيخنا الإمام **الألباني**: "قد اختلف العلماء في تفسير الكفر في الآية الأولىٰ علىٰ خمسة

---

(٤٧٣)أخرجه ابن أبي حاتم (٦٤٨٦)، والطبري وغيرهما، وقال **شيخنا**: عن عطاء بن أبي رباح قوله: (وذكر الآيات الثلاث): "كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم". **وإسناده صحيح**. الصحيحة (٦/ ٥١).

أقوال، ساقها ابن جرير (١٠/ ٣٤٦- ٣٥٧) بأسانيده إلىٰ قائليها، ثم ختم ذلك بقوله (١٠/ ٣٥٨): "وأولىٰ هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال: نزلت هذه الآيات في كفار أهل الكتاب؛ لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات فيهم نزلت، وهم المعنيون بها، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم، فكونها خبرًا عنهم أولىٰ.

فإن قال قائل: فإن الله -تعالىٰ ذكره- قد عمّ بالخبر بذلك عن جميع من لم يحكم بما أنزل الله، فكيف جعلته خاصًا؟

قيل: إن الله -تعالىٰ- عمَّ بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم -علىٰ سبيل ما تركوه- كافرون، وكذلك القول في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به هو بالله كافر؛ كما قال **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-؛ لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه؛ نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي".

وجملة القول: أن الآية نزلت في اليهود الجاحدين لما أنزل الله، فمن شاركهم في الجحد، فهو كافر كفرًا اعتقاديًا، ومن لم يشاركهم في الجحد فكفره عملي؛ لأنه عمل عملهم، فهو بذلك مجرمٌ آثمٌ، ولكن لا يخرج بذلك عن الملة كما تقدم عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-". الصحيحة (٦/ ٥١).

ومما يحسن ذكره هنا ما روىٰ ابن جرير (١٢٠٢٥، ١٢٠٢٦) من طريقين عن عمران بن حدير قال: أتىٰ **أبا مجلز** ناسٌ من بني عمرو بن سدوس (وفي الطريق الأخرىٰ: نفر من الإباضية) فقالوا: أرأيت قول الله: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ**﴾[المائدة: ٤٤] أحق هو؟ قال: "نعم"، قالوا: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[المائدة: ٤٥] أحق هو؟ قال: "نعم"، قالوا:﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ**﴾[المائدة: ٤٧] أحق هو؟ قال: "نعم".

قال: فقالوا: يا أبا مجلز فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: "هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون وإليه يدعون (يعني: الأمراء) فإن هم تركوا شيئًا منه عرفوا أنهم أصابوا ذنبًا".

فقالوا: لا والله، ولكنك تفرق (تخاف) قال: "أنتم أولىٰ بهذا مني! لا أرىٰ، وإنكم أنتم ترون هذا ولا تخرجون، ولكنها أنزلت في اليهود والنصارىٰ وأهل الشرك، أو نحوًا من هذا". إسناده **صحيح**: الصحيحة (٦/ ٥١).

فيه أنّ الظلم والكفر مراتب؛ كما أن الكبائر -أيضًا- مراتب، والصغائر مراتب، ومثلها

الأعمال الصالحة.

وفيه عدم التكفير بالمعصية. **وفيه** أنّ الإيمان يحبط بالشرك. **وفيه** جواز الردة علىٰ الناس قدرًا. **وفيه** أن البشر ليسوا بمعصومين ولو كانوا من الأولياء والصالحين سوىٰ الأنبياء. **وفيه** ردّ علىٰ الرافضة الذين يقولون بعصمة أئمتهم. **وفيه** أنّ علىٰ طلاب العلم إذا ظهر لهم فهم في نص؛ ينبغي أن يعرضوا ما فهموه علىٰ أهل العلم، فإما أن يصححوه لهم، أو يقروهم عليه. **وفيه** أن الصحابة مع أنهم أهل بيان وعربية، مع ذلك، فإنهم كانت تغيب عنهم بعض المعاني الشرعية، وأنه لابدّ من اللغة الشرعية مع اللغة العربية، ولا يكتفىٰ بها دون معرفة النصوص الشرعية. **وفيه** أهمية تفسير القرآن بالقرآن والسنة.

وفيه بيان تفاوت الظلم في أفراده، وأن الشرك أعظم أنواعه، فهو أظلم الظلم ليس فوقه ظلم.

وفيه أن النكرة في سياق النفي تفيد العموم، وأن الخاص يقضي علىٰ العام، والمبين علىٰ المجمل.

قال **أبو العباس القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"في هذا الحديث** ما يدلُّ علىٰ أن النكرة في سياق النفي تعم؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهموا من ذلك العموم لكل ظلم، وأقرهم النبي ﷺ علىٰ ذلك الفهم، وبين لهم أن المراد بذلك ظلم مخصوص". المفهم (١/ ٣٣٥).

وفيه أنّ المعاصي لا تسمىٰ شركًا. **وفيه** أنّ من لم يشرك بالله شيئًا، فله الأمن التام، وهو مهتد الهداية التامة.

فإن قيل: إن العاصي قد يعذب بها، فما هو الأمن والاهتداء الذي حصل له؟!

فالجواب: أن يقال: إنه آمِنٌ من التخليد في النار، مهتد إلىٰ طريق الجنة، والله -تعالىٰ- أعلم. أو يقال: إن الأمن والهدىٰ التامَّيْن لا يكونان إلا لمن هذا حاله، وأما من كان عنده نوع ظلم أو معصية فليس له من الأمن والهدىٰ إلا بقدر ما عنده من طاعة. قرة عيون الموحدين (ص٢٣)بمعناه.

فيهجواز تأخير البيان إلىٰ وقت الحاجة. **وفيه** أنّ اللفظ يحمل علىٰ خلاف ظاهره؛ لمصلحة دفع التعارض. **وفيه** بيان أن العام علىٰ عمومه حتىٰ يرد دليل الخصوص. **وفيه** جواز إطلاق اللفظ العام والمراد به الخصوص. البحر المحيط الثجاج (٣/ ٥١٥).

٢٤- بَابُ عَلَامَةِ المُنَافِقِ

قوله: **(بَابُ عَلَامَةِ المُنَافِقِ)**، المراد أن المعاصي تنقص الإيمان؛ كما أن الطاعات تزيده، فيكون بعض النفاق دون بعض، **وتظهر بذلك مناسبة الترجمة لأبواب الإيمان**، وبيَّن في هذا الباب أن للنفاق علامات يعرف بها الرجل؛ كما أن للإيمان علامات يعرف بها.

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنىٰ هذا الباب: أن تمام الإيمان بالأعمال، وأنه يدخل علىٰ المؤمن النقص في إيمانه بالكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة؛ كما يزيد إيمانه بأفعال البر". شرح البخاري (١/ ٩٠).

ويكون في هذا أبلغ ردٍّ علىٰ الفرقتين الضالتين المجرمتين: المرجئة والخوارج -أعاذنا الله والمسلمين من الضلال، وكفانا شرهم-؛ فإن الخوارج لا يجعلون المعاصي من شعب الكفر والنفاق؛ لأنهم يكفرون بارتكاب الكبيرة، والمرجئة الخبيثة تجعل الرجل مكتمل الإيمان، ولا يضره فعل مثل هذه الكبائر.

والنفاق لفظ جاء به الإسلام لم تكن العرب قبل الإسلام تعرفه، وهو مأخوذ من "نافقاء اليربوع"، وهو جحر من جحريه يخرج منه إذا أخذ عليه الجحر الذي دخل فيه.

قال **الحسن**: "من النفاق اختلاف اللسان والقلب واختلاف السر والعلانية واختلاف الدخول والخروج.

وكان **الحسن البصري** يقول: إنما الناس بين ثلاثة نفر: مؤمن ومنافق وكافر، فأما المؤمن فعامل بطاعة الله -عز وجل-، وأما الكافر فقد أذله الله -تعالىٰ- كما رأيتم.

وأما المنافق فههنا في الحُجَر والبيوت والطرق نعوذ بالله، والله ما عرفوا ربهم؛ بل عرفوا إنكارهم لربهم بأعمالهم الخبيثة، **ظهر الجفا وقل العلم وتركت السنة**، إنا لله وإنا إليه راجعون.حيارىٰ سكارىٰ ليسوا بيهود ولا نصارىٰ ولا مجوس فيعذروا.

وقال: إن المؤمن لم يأخذ دينه عن الناس، ولكن أتاه من قبل الله -عز وجل- فأخذه.

وإن المنافق أعطىٰ الناس لسانه ومنع اللهَ قلبه وعمله، فحدثان أحدثا في الإسلام: رجل ذو رأي سوء زعم أن الجنة لمن رأىٰ مثل رأيه فسلَّ سيفه، وسفك دماء المسلمين واستحل حرمتهم؛ ومترف **يعبد الدنيا لها يغضب وعليها يقاتل ولها يطلب**. وقال: يا سبحان الله، ما لَقِيت هذه الأمة من منافق قهرها واستأثر عليها، ومارق مرق من الدين؛ فخرج عليها صنفان خبيثان قد غمَّا كل

مسلم.

يا ابن آدم! دينَك دينَك! فإنما هو لحمك ودمك، فإن تسلم بها فيالها من راحة، ويا لها من نعمة، وإن تكن الأخرىٰ فنعوذ بالله؛ فإنما هي نار لا تطفأ، وحجر لا يبرد،ونفس لا تموت".

صحيح: صفة المنافقين للفريابي(٩١/ ٩٠).

فليحرص المسلم علىٰ دينه وعلىٰ إيمانه من أن يخدش، ولا يحملنه حبه للدنيا أو اتباعه لما يهواه؛ علىٰ أن يضيع دينه، ويسلك سبيل المنافقين.

٣٣-حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ أَبُوالرَّبِيعِ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ أَبُوسُهَيْلٍ، عَنْ أَبِيهِ،**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ**(أي: علامته ودلالته) **ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ**(بالخير في المستقبل) **أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»**(٤٧٤).

أطرافه في: (الشهادات٢٦٨٢، الوصايا٢٧٤٩، الأدب٦٠٩٥).

الشرح

قوله: **(آيَةُ الْمُنَافِقِ)**، أي: علامته، وهي التي يستدل بها علىٰ الشيء، والمنافق من النفاق؛ وهو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، أو هو من علانيته خير من سريرته؛ فيظهر للناس الصلاح، وفي الباطن وفي السر بخلاف ذلك.

وهناك علامات كثيرة، غير ما ذكر في الحديث، منها: ما جاء عن زر، قال: قال **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- : والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة! إنه لعهد النبي الأمي ﷺ إليَّ: «**أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق**». أخرجه مسلم (٧٨).

وعن **أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**». متفق عليه.

وعن **عبدالله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر،**

---

(٤٧٤)وأخرجه مسلم (٥٩)، والترمذي (٢٦٣١)، والنسائي (٥٠٢١).

ولا يدخل النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان». أخرجه مسلم (٩١).

وعن سليم بن عامر الخبائري عن **أبي أمامة الباهلي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "المنافق الذي إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا غنم غلَّ، وإذا أُمِر عصىٰ، وإذا لقي جَبُنَ؛ فمن كن فيه؛ ففيه النفاق كله، ومن كان فيه بعضهن؛ ففيه بعض النفاق. **إسناده صحيح**: أخرجه الفريابي في صفة المنافقين (٢٠).

وقال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافقٍ عليمِ اللسان**». صحيح: أخرجه أحمد (١٤٣، ٣١٠)، وهو في الصحيحة (١٠١٣).

وعن **عقبة بن عامر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثر منافقي أمتي قراؤها**». **صحيح لغيره**: أخرج أحمد (٢/ ١٧٥)، وهو في الصحيحة (٧٥٠).

وعن زياد بن حدير قال: قال **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إن أخوف ما أخاف عليكم ثلاثة: منافقٌ يقرأ القرآن لا يخطئ فيه واوًا ولا ألفًا، يجادل الناس أنه أعلم منهم؛ ليضلهم عن الهدىٰ، وزلة عالم، وأئمة مضلون". **إسناده صحيح**: صفة المنافقين (٢٩).

وقال **حذيفة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إن من أقرأ الناس المنافق الذي لا يترك واوًا ولا ألفًا، يلفته كما تلفت البقرة الخلا بلسانها". **صحيح**: صفة المنافقين للفريابي (٤٣).

وقال **معاذ بن جبل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إنّ من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال، **ويفتح فيها القرآن؛ حتىٰ يأخذه المؤمن والمنافق**، والرجل والمرأة، والصغير والكبير، والحر والعبد؛ فيوشك قائلًا أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن، ما هم بمتبعيَّ حتىٰ ابتدع لهم غيره، فإياكم وما ابتدع؛ فإن ما ابتدع ضلالة. وأنذركم زيغة الحكيم؛ فإنّ الشيطان قد يقول كلمة الضلالة علىٰ لسان الحكيم، **وقد يقول المنافق كلمة الحق**". **إسناده صحيح موقوفًا**: صحيح أبي داود (٤٦١١).

ومثل هذا **خشوع النفاق**،كما ورد عن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: "تعوذوا بالله من خشوع النفاق"، قال: قيل: يا أبا الدرداء، وما خشوع النفاق؟ قال: "أن ترىٰ الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع"[٤٧٥].

---

(٤٧٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٧١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٥٦)، وإسناده **منقطع**، وأخرجه أيضًا مرفوعًا بإسناد ضعيف، وثبت عند أبي نعيم في صفة المنافقين (١٥٦) من قول أبي إدريس الخولاني.

فالحذر الحذر من النفاق! وأهل البدع كلهم مشهور فيهم النفاق: كالخرافيين، والرافضة، والخوارج -كالذي قال للنبي ﷺ: "اعدل إنها قسمة ما أريد بها وجه الله". متفق عليه-، والجهمية، والقدرية والمعتزلة، والمرجئة وغيرهم، وكلما ابتدع الرجل؛ كان فيه نصيب من النفاق، والصد عن السنة والحديث، بقوله أو فعله، ﴿**رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً**﴾ [النساء: ٦١]، قال **أحمد بن سنان القطان**: "ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، فإذا ابتدع الرجل نُزِعَتْ حلاوة الحديث من قلبه". الحجة في بيان المحجة (١/ ٢٢٠) لقوام السنة.

وما نشاهده اليوم من ظهور النفاق ومظاهرة المشركين، والإعلان بالبدعة والزندقة فشيء لا يكاد يصدق، قال **حذيفة** رضي الله عنه-: "المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله ﷺ"، قال: قلت: يا أبا عبد الله، وكيف ذاك، قال: "إن أولئك كانوا يسرون نفاقهم، وإن هؤلاء أعلنوه". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٨٥٥١).

قال **شيخ الإسلام** رحمه الله: "ولم يكن علىٰ عهد حذيفة رضي الله عنه- من وصل إلىٰ هذا النفاق ولا إلىٰ قريب منه؛ فإنَّ هؤلاء إنما ظهروا في الإسلام في أثناء "الدولة العباسية" وآخر "الدولة الأموية" **لما عربت الكتب اليونانية** ونحوها.

والمقصود هنا: أن هؤلاء المتكلمين الذين زعموا أنهم ردوا عليهم لم يكن الأمر كما قالوه؛ بل هم فتحوا لهم دهليز الزندقة، ولهذا يوجد كثير ممن دخل في هؤلاء الملاحدة إنما دخل من باب أولئك المتكلمين؛ كابن عربي وابن سبعين وغيرهما". مجموع الفتاوىٰ (٥/ ٥٤٧).

وهذه العلامات والآيات تورث التهمة؛ فتقوىٰ وتضعف بحسبها، وقد كان الصحابة -خلا حذيفة- لا يعلمون أسماء المنافقين تعيينًا؛ بل كان النبي ﷺ لا يعرف بعضهم؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾ [التوبة: ١٠١]، وكان الصحابة يعلمون كثيرًا منهم بحسب هذه الأمارات؛ فيكون فيهم متهمًا بذلك، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «**أثقل الصلاة علىٰ المنافقين العشاء والفجر**». متفق عليه.

وعن **أبي بن كعب** رضي الله عنه-، قال: صلَّىٰ بنا رسول الله ﷺ يومًا الصبح، فقال: «**أشاهد فلان؟**»، قالوا: لا، قال: «**أشاهد فلان؟**»، قالوا: لا، قال: «**إن هاتين الصلاتين أثقل الصلوات علىٰ المنافقين، ...**». الحديث. **حسن**: صحيح أبي داود (٥٦٣).

وعن **ابن عمر** رضي الله عنهما- قال: "كنا إذا فقدنا الرجل في صلاة العشاء وصلاة الفجر أسأنا به

الظن"[٤٧٦]. صحيح موقوف.

وورد عن **كعب** رضي الله عنه- أنه قال: "فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرىٰ إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق (أي: مطعونًا عليه في دينه ومتهمًا بالنفاق)". سيأتي برقم (٤٤١٨).

وإياكم والتلون في الدين، ولتكن سريرتك خيرًا من علانيتك؛ فعن **الأحنف بن قيس** رضي الله عنه- قال: قدمت علىٰ **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه- فاحتبسني عنده حولًا؛ فقال: "يا أحنف إني قد بلوتك وخبرتك فرأيت علانيتك حسنة، **وأنا أرجو أن تكون سريرتك علىٰ مثل علانيتك**، وإنا كنا نُتَحَدَّث إنما يُهْلِكُ هذه الأمة كل منافق عليم". **صحيح**:أخرجه الفريابي في صفة المنافق (ص ٥٣، برقم ٢٧)، وأبو نعيم في صفة النفاق (ص ١٦٢، برقم ١٤٩).

وقال **بلال بن سعد**: "لا تكن وليا لله -عز وجل- في العلانية، وعدوه في السر". صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي (ص ١٢٥).

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: "قيل: ما يستقر في القلب من إيمان ونفاق؛ لا بد أن يظهر موجبه في القول والعمل، كما قال بعض السلف[٤٧٧]: ما أسرّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله علىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه، وقد قال تعالىٰ في حق المنافقين: ﴿**وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: ٣٠]". مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦٢٠).

وهذا يراه المؤمن غالبًا آية له، ولا يستغرب ذلك ففي قصة الدجال أنه مكتوب بين عينيه (كافر) يراه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٥٢].

قالسلام بن أبي مطيع: **رأىٰ أيوب** رجلًا من أصحاب الأهواء فقال: "إني لأعرف الذلة في وجهه، ثم تلا:﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٥٢]. ثم قال: هذه لكل مفتر، وكان يسمي أصحاب الأهواء خوارج، ويقول: "إنّ الخوارج اختلفوا في الاسم واجتمعوا علىٰ السيف". **صحيح**: سير النبلاء

---

(٤٧٦)أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٥٣)، وهو في صحيح موارد الظمآن (٣٦٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (١ / ١٠٠، ٤١٧).

(٤٧٧)ورد عن عثمان، وابن عباس رضي الله عنهما-.

(٦/ ٢١).

قال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه -يعني الآية- نائلة لكلّ من افترىٰ بدعة، فإنّ ذل البدعة ومخالفة الرسالة متصلة من قلبه علىٰ كتفيه، كما قال **الحسن البَصري**: إنّ ذلّ البدعة علىٰ أكتافهم، وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين". تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٤).

وقال **أبو قلابة**: "هي لكلِّ مبتدع من هذه الأمة إلىٰ يوم القيامة". وهو كما قال: فإن أهل الكذب والفرية عليهم من الغضب والذلة ما أوعدهم الله به. اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٨١).

وقال **ابن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ:"صاحب البدعة علىٰ وجهه غبار، وإن ادهن في اليوم ثلاثين مرة". **صحيح**: ذم الكلام (٥/ ٢١٨)، برقم (١٠١٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢٨٤).

وترجم **ابن منده**: "ذكر ما يدلّ علىٰ أن النفاق علىٰ ضروب: نفاق كفر، ونفاق قلب ولسان وأفعال؛ وهي دون ذلك". كتاب الإيمان (٢/ ٦٠٣).

فالنفاق -إذن- نوعان: **نفاق اعتقادي**؛ مثاله: "قوله سبحانه: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ* وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ* لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [التوبة: ٦٤- ٦٦]؛ وهذا نص في أن الاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، وقد دلت هذه الآية علىٰ أن كل من تنقص رسول الله ﷺ جادا أو هازلا؛ فقد كفر كفرًا أكبر.

وقد رُوي عن رجال من أهل العلم منهم ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض أنه قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك: "ما رأيتُ مثل قرائنا هؤلاء أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا ولا أجبنَ عند اللقاء"؛ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء.

فقال له عوف بن مالك: "كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلىٰ رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلىٰ رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق".

قال **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإنّ الحجارة لتنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿**أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ**

﴿كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]، ما يلتفت إليه ولا يزيده عليه". **إسناد صحيح**: أخرجه ابن جرير الطبري (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٦/ ١٨٢٩). وهذا النفاق الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ومن أمثلته أيضًا ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَىٰ الصَّلاةِ قامُوا كُسالىٰ يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاّ قَلِيلاً* مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلَىٰ هؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هؤُلاءِ﴾ [النساء: ١٤٢- ١٤٣].

فهم كالغنم العائرة بين غنمين، تعير لهذه تارة ولهذه تارة، ﴿وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا إِلَىٰ شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ﴾ [البقرة: ١٤].

ومثاله أيضًا: تكذيب الرسول ﷺ، أو تكذيب بعض ما جاء به، أو بغض الرسول ﷺ، أو بغض ما جاء به، أو المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ، أو الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ، مع إظهار الإسلام، وهذا كله كفر أكبر ناقل من الملة.

والمنافقون يبغضون الإسلام وأهله، فعن لقمان بن عامر أنه سمع **أبا أمامة الباهلي** رضي الله عنه- يقول: "المؤمن في الدنيا بين كافر يقتله، ومنافق يبغضه، ومؤمن يحسده، وشيطان قد وكل به". **إسناده حسن**: أخرجه الفريابي (٧١).

والمنافقون الخلص، والزنادقة: هم أيضًا متفاوتون، منهم الدعاة إلىٰ الباطل، والزندقة، ومنهم من هو دون ذلك، ومنهم من هو أشد من هذا ومردوا علىٰ النفاق، كما يقال شيطان وشيطان مريد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفاقِ﴾ [التوبة: ١٠١].

ومن أعظم شعب النفاق: الاشمئزاز من مرجعية الكتاب والسنة، والازدراء بالقرون المفضلة، وقول بعضهم عن القرآن إنه أسطورة تاريخية، كما قال الأولون: ﴿وَقالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥].

وتراهم يلهجون بذكر الكفار والإشادة بهم، والسعي في مدحهم، وقد امتلأت قلوبهم من تعظيمهم، وبعضهم يرىٰ أن الشريعة غير صالحة لهذا العصر، وهؤلاء من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، دعاة علىٰ أبواب جهنم، هذه كلها من شعب النفاق التي كفر بها هؤلاء أو كادوا، والتي يقارفها كثير من الكتاب المعاصرين فمستقل ومستكثر.

وأما النفاق العملي فمن أمثلته وعلاماته: ما ورد في حديث الباب، وقال **عبد الله ابن مسعود** رضي الله عنه-: "اعتبروا المنافق بثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان"، قال: وتلا هذه الآية: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ**﴾، إلىٰ قوله: ﴿**نِفاقًا فِي قُلُوبِهِمْ**﴾، إلىٰ قوله: ﴿**وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [سورة التوبة:٧٥- ٧٧]". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٦١١).

ومن أمثلته الكثيرة: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والفجور في الخصومة، والغدر بالعهود، والرياء-الذي لا يكون في أصل العمل-، وإظهار المودة للمؤمنين والقيام لهم بالخدمة مع إضمار عكسه في النفس -كالتقية عند الرافضة، فإنهم يتدينون بذلك-، ومثل ذي الوجهين، ومن أمثلته أيضا ما ورد في حديث: النبي ﷺ قال: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات علىٰ شعبة من نفاق**». أخرجه مسلم (١٩١٠).

ومنه حديث: «**المختلعات والمنتزعات هنّ المنافقات**». **إسناده صحيح**: أخرجه النسائي (٣٤٦١)، وأحمد (٩٣٤٧)، واللفظ له، وهو في الصحيحة (٦٣٢).

وحديث: «**شرُّ نسائكم المتبرجات المتخيلات وهنّ المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم**»[٤٧٨]. **صحيح**: أخرجه البيهقي (١٣٨٦٠)، وهو في الصحيحة (١٨٤٩).

ومن ذلك: ما ثبت عن **ابن عمر** رضي الله عنهما- أنه لقي ناسًا خرجوا من عند مروان فقال: من أين جاء هؤلاء؟ قالوا: خرجنا من عند الأمير مروان قال: وكل حق رأيتموه تكلمتم به، وأعنتم عليه، وكل منكر رأيتموه أنكرتموه ورددتموه عليه، قالوا: لا والله، بل يقول: ما ينكر، فنقول: قد أصبت، أصلحك الله، فإذا خرجنا من عنده قلنا قاتله الله، ما أظلمه وأفجره! قال **عبد الله**: " كنا بعهد رسول الله ﷺ نعد هذا نفاقًا لمن كان هكذا[٤٧٩]". **صحيح**: أخرجه أحمد (٥٣٧٣)، وأصله في

---

(٤٧٨)**قلت**: وما أكثر هذا النوع، وهذه الصفات اليوم في النساء إلا من رحم الله -نعوذ بالله من ذلك-، فكثر طلب الطلاق والخلع من الزوج، «**أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة**». صحيح الترغيب (٢٠١٨). وأما التبرج فحدث ولا حرج كما يقال.

(٤٧٩)**قلت**: سبحان الله! ما أشبه اليوم بالبارحة؛ فقد كان هذا النفاق علىٰ عهد رسول الله ﷺ، وهو تحسين ما عليه الأمراء في وجوههم، فإن خرجوا من عندهم ذموهم وسبوهم، وهذا مما اشتهر به الحزبيون ونحوهم؛ من كثرة مدح الحكام ونظمهم القصائد والأشعار فيهم،وهم مع ذلك يرمون علماء السنة بالنفاق وتحسين الباطل للحكام، ويلقبونهم بـ"علماء السلطان"، و"ذيل بغلة السلطان"، (رمتني بدائها وانسلت)، وكانوا هم أحق بها، وأهلها.

البخاري (٧١٧٨).

وعن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن **عبد الله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنه رأىٰ الناس يدخلون المسجد فقال: "من أين جاء هؤلاء؟" فقالوا: من عند الأمير، فقال: "إن رأوا منكرًا أنكروه، وإن رأوا معروفًا أمروا به؟". قالوا: لا، قال: "فما يصنعون؟"، قالوا: يمدحونه ويسبونه إذا خرجوا من عنده، فقال **ابن عمر**: "إنْ كنا لنعد النفاق علىٰ عهد رسول الله ﷺ فيما دون هذا". **إسناده حسن**: أخرجه الفريابي في صفة المنافقين (٦٦).

وعن أبي الشعثاء قال دخل نفر علىٰ **عبد الله بن عمر** من أهل العراق، فوقعوا في يزيدَ بن معاوية فتناولوه فقال لهم عبد الله: "هذا قولكم لهم عندي، أتقولون هذا في وجوههم؟" قالوا: لا، بل نمدحهم ونثني عليهم، فقال ابن عمر: "هذا النفاق عندنا". **إسناده صحيح**: أخرجه الفريابي في صفة المنافقين (٦٧).

ومن ذلك -أيضًا-: ما جاءت به الأحاديث بتسمية من ارتكب بعض المحظورات منافقًا؛ منها: ما ورد عن **عثمان بن عفان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أدركه الأذان في المسجد، ثم خرج لم يخرج لحاجة، وهو لا يريد الرجعة؛ فهو منافق**». **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٧٣٤)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣).

وعن **أبي الجعد الضمري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من ترك الجمعة ثلاثًا من غير عذر؛ فهو منافق**»[٤٨٠]. **صحيح**.

وعن **رجل من أصحاب** النبي ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**صلاة الصبح والعشاء لا يشهدهما منافق**»، قال أبوبشر: يعني: لا يواظب عليهما[٤٨١]. **صحيح**.

وعن **رافع بن خديج** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بصلاة المنافق؟، أن**

ومعلومٌ أن أزهد الناس في السلاطين هم أهل العلم من السلفيين، وأنهم أنصح الناس للأمة؛ حكامًا كانوا أو محكومين، ويتبعون في ذلك السلف في النصح للسلطان سرًّا، مع عدم مداهنتهم، وعدم الخروج عليهم قولًا وفعلًا.

(٤٨٠)أخرجه ابن حبان (٢٥٨)، وهو في صحيح موارد الظمآن (٥٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (٧٢٧).

(٤٨١)أخرجه أحمد (٢٠٥٩٩)، قال شعيب الأرنؤوط: "إسناده جيد"، وقال العلامة مقبل الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ١٥٥): "صحيح".

يؤخر العصر، حتىٰ إذا كانت الشمس كثرب البقرة(أي: غشاء رقيق جدًا، يغشىٰ الكرش والأمعاء) **صلاها»**[٤٨٢]. صحيح.

والفحش والبذاء من صفات النفاق، وفي الحديث: «**والبذاء والبيان شعبتان من النفاق**». **صحيح**: صحيح الترمذي (٢٠٢٧).

وعن **وهب بن منبه -أو وهب الذماري-** قال: "صفة المنافق: تحيته لعنة، وطعامه سحت، وغنيمته غلول، صَخِب بالنهار، خشب بالليل". **صحيح**: أخرجه الفريابي في صفة النفاق (٥٨).

وعن **الحسن** قال: "المنافق الذي إذا صلىٰ راءىٰ بصلاته، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله". **صحيح**: أخرجه الفريابي في النفاق (٦٤).

والمنافق صاحب هوىٰ، قال **الحسن** في هذه الآية: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[الجاثية: ٢٣]. قال: "هو المنافق لا يهوىٰ شيئًا إلا ركبه". **رجاله ثقات**: أخرجه الفريابي في صفة النفاق (٤٣).ولذلك نجدهم يسارعون في البدع، والمعاصي.

وعن **ابن مسعود**رضي الله عنه-، قال: "الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع"[٤٨٣]. **صحيح موقوفًا.**

واختلاف السر والعلانية في الواجبات، وذلك بعمل شيء من أعمال المنافقين؛ مع بقاء أصل الإيمان في القلب وصاحبه لا يخرج من الملة، ولا ينفىٰ عنه مطلق الإيمان، ولا مسمىٰ الإسلام، وهو معرض للعذاب كسائر المعاصي، دون الخلود في النار، وهذا النوع من النفاق مقدمة وطريق للنفاق الأكبر؛ لمن سلكه وكان دأبُه وديدَنَهُ.

قوله: **(وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ)**، أي: بالخير في المستقبل، وأعظمه خلف الوعد مع الله -عز وجل-: ﴿**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾ [التوبة: ٧٧].

فعن هارون بن رئاب، أن **عبدالله بن عمرو** رضي الله عنهما- لما حضرته الوفاة قال: "انظروا فلانًا لرجل من قريش، فإني كنت قلت له في ابنتي قولًا كشبيه العدة(أي: الوعد)، وما أحب أن ألقىٰ الله

---

(٤٨٢)أخرجه الحاكم (٧٠٢)، وهو في الصحيحة (١٧٤٥)، وأخرجه مسلم (١٩٥) عن أنس بن مالك نحوه.
(٤٨٣)أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٦٩١)، والبيهقي في السنن الكبير (٢١٠٠٧)، وهو في تحريم آلات الطرب (ص ١٠).

-عز وجل- بثلث النفاق، وأشهدكم أني قد زوجته". **رواته ثقات**: صفة المنافقين (١٩).

وعن طيسلة بن علي، قال: رأيت **عبد الله بن عمر** رضي الله عنهما- في أصول الأراك يوم عرفة، قال: وبين يديه رجل من أهل العراق. فقال: يا ابن عمر، ما المنافق؟ قال: "المنافق الذي إذا حدث كذب، **وإذا وعد لم ينجز**، وإذا ائتمن لم يؤد، وذنب بالليل، وذنب بالنهار". قال: يا ابن عمر، فما المؤمن؟ قال: "الذي إذا حدث صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا ائتمن أدىٰ، يأمن من أمسىٰ بعقوبة، من عارف أو منكر". **إسناده صحيح**: أخرجه أبوبكر الخلال في السنة (١٦٥١)، وابن بطة في الإبانة (٩٠٤).

وعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: "لا يصلح الكذب في جدٍ ولا هزلٍ، ولا أن يعدَ أحدكم ولده شيئًا؛ ثم لا ينجزه". **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٢٩٩).

فالحذر الحذر من خلف الوعد مع أحد من الناس، ولو مع ولدك الصغير، أو زوجك، فأنت القدوة لهم يا عبدالله!

٣٤- حَدَّثَنَا قَبِيصَةُ بْنُ عُقْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مَسْرُوقٍ، **عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رضي الله عنهما-، **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**.

تَابَعَهُ شُعْبَةُ، عَنِ الأَعْمَشِ.(٤٨٤)

أطرافه في: (المظالم ٢٤٩٥، الجزية والموادعة ٣١٧٨).

الشرح

قوله: **(أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا)**، قال **الترمذي**(٤/ ٣٧٥)، تحت حديث (٢٦٣٢): "معنىٰ هذا عند أهل العلم: نفاق العمل، وإنما كان نفاق التكذيب علىٰ عهد رسول الله ﷺ"، فشعب النفاق تكون في الوقوع في عمل من أعمال المنافقين.

وقال **النووي** في قوله: «**منافقًا خالصًا**»: "معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه

---

(٤٨٤)وأخرجه مسلم (٥٨)، وأبوداود (٤٦٨٨)، والترمذي (٢٦٣٢)، والنسائي (٥٠٢٠).

الخصال، قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه، فأما من يندر فليس داخلًا فيه، فهذا هو المختار في معنىٰ الحديث". شرح النووي (٢/ ٤٧).

تنبيه: فرق الله تعالىٰ في القرآن في مواطن بين اسم "المنافق المطلق"، وبين المسلم الذي في قلبه مرض؛ أي: شعبة من النفاق وعطفهم علىٰ بعضهم مبينا اشتراكهم في بعض شعب النفاق، كما قال -تعالىٰ-: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ**﴾[الأنفال: ٤٩]، وقال تعالىٰ -أيضًا-: ﴿**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾ الآية[الأحزاب: ٦٠].

قال **النووي**: "هذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مشكلًا من حيث إنّ هذه الخصال توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شكٌّ، وقد أجمع العلماء علىٰ أنّ من كان مصدقًا بقلبه، ولسانه، وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار؛ فإن إخوة يوسف ﷺ جمعوا هذه الخصال، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله". شرح النووي (٢/ ٤٦).

وقوله: **(وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدَعَهَا)**، ثم ذكر خصالًا عدة تدلّ علىٰ النفاق العملي. وتقدم ذكر أمثلة من ذلك في الحديث السابق.

فيه ردٌّ علىٰ المرجئة؛ حيث أمنوا علىٰ أنفسهم النفاق، وجعلوا أنفسهم في أعلىٰ المراتب؛ فعن سلام بن أبي مطيع قال: سمعنا **أيوب (السختياني)** وعنده رجل من المرجئة؛ فجعل الرجل يقول: إنما هو الكفر والإيمان، قال: وأيوب ساكت قال: فأقبل عليه أيوب فقال: أرأيت قوله: ﴿**وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾ [التوبة: ١٠٦] أمؤمنون هم أم كفار؟ قال: فسكت الرجل. قال: فقال **أيوب**: "اذهب فاقرأ القرآن فكل آية في القرآن فيها ذكر النفاق فإني أخافها علىٰ نفسي". **صحيح**: الفريابي في صفة المنافقين (٩٢).

وعن **سفيان الثوري** قال: "خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث: نقول: إنّ الإيمان قول وعمل وهم يقولون: الإيمان قول ولا عمل، ونقول: الإيمان يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص، ونحن نقول: النفاق وهم يقولون لا نفاق". **صحيح**: أخرجه الفريابي في صفة النفاق (٨٧).

فينبغي الخوف منه وعدم الأمن من أن يقع العبد في شيء من النفاق؛ فعن **جابر بن أبي إدريس الخولاني** أنه قال: "ما علىٰ ظهرها من بشر لا يخاف علىٰ إيمانه أن يذهب إلا ذهب".

أخرجه الفريابي (٧٤).

فمن علامة نفاقه، ألا يخاف علىٰ نفسه، وألا يسأل الله الثبات، وأن يأمن من مكر الله.

بل سيقل الإيمان ويزداد النفاق حتىٰ يكون هو الغالب علىٰ أهل الزمان؛ فعن **عبد الله بن عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-قال: "كان النفاق غريبًا في الإيمان، ويوشك أن يكون الإيمان غريبًا في النفاق". **إسناده حسن**: أخرجه الفريابي (٧٣).

وسيصير الناس إلىٰ فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه؛ وذلك قبل خروج المسيح الدجال، وسيخرج له كل منافق ومنافقة؛ ليلحقوا بالدجال، لا سيما حين ترجف المدينة ثلاث رجفات، ويدعىٰ يوم الخلاص.

وسيلحق المنافق العذاب في قبره، حين يفتن، ويسأل فيه ويقول: هاها سمعت الناسَ يقولون شيئًا فقلته: فيضرب ويقال له: لا دريت ولا تليت، ويوم القيامة حين يُدعَوْنَ إلىٰ السجود فلا يستطيعون، ثم مآلهم الدرك الأسفل من النار-عياذًا بالله-.

قوله: **(إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)**، تشمل كل أمانة، سواء كانت مالًا، أو عرضًا، أو كان نظرًا علىٰ أطفال صغار، أو سرًا يكتمه، والمجالس بالأمانة، والمرأة مؤتمنة علىٰ فرجها، والغسل من الجنابة، وغير ذلك؛ بل إذا خانك أحدٌ لم يحل لك أن تخونه، ففي الحديث عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلىٰ من ائتمنك، ولا تخن من خانك**». **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٥٣٥).

فلا تحل الخيانة في الدين والدنيا، وأمر الله -تعالىٰ- بأداء الأمانة؛ كما في قوله -سبحانه-: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلىٰ أَهْلِها وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً**﴾ [النساء:٥٨].

وعن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة، قال يؤتىٰ العبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله فيقال: أدِّ أمانتك فيقول: أي رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلىٰ الهاوية فينطلق به إلىٰ الهاوية وتَمْثُل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها، فيعرفها فيهوي في أثرها حتىٰ يدركها فيحملها علىٰ منكبيه حتىٰ إذا ظن أنه خارج قَلَّتْ عن منكبيه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين ثم قال: "**الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها وأشد ذلك الودائع** قال: -يعني زاذان- فأتيتُ **البراءَ بن عازب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فقلت

ألا ترىٰ إلىٰ ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا. قال: "صدق أما سمعت الله يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾[النساء: ٥٨]"(٤٨٥). حسن.

قوله: **(وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ)**، هو الإخبار بالشيء بخلاف ما هو، فإن كان عمدًا أثم، ويلحقه هذا الوعيد، أما إن كان هذا علىٰ سبيل الخطأ فقد يسمىٰ كذبًا أيضًا علىٰ لغة أهل الحجاز، فإنهم يقولون: كذب فلان، ويعنون: أخطأ، ومنه حديث: «**كذب أبو السنابل**». سيأتي برقم (٣٩٩١) يعني: أخطأ؛ **ولم يخصّ الكذب بالتعمد إلا المعتزلةُ ونحوهُم**.

والمؤمن لا يكون كذابًا، **ويؤخذ من الحديث**: أن المؤمن لا يكذب وإن أتىٰ ببعض المعاصي الأخرىٰ.

فهو خلقٌ بغيض جدًا يبغضه الله ورسوله ﷺ والمؤمنون، فعن **عائشة** رضي الله عنها، قالت: «**ما كان خلق أبغض إلىٰ رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يحدث عند النبي ﷺ بالكذبة، فما يزال في نفسه حتىٰ يعلم أنه قد أحدث منها توبة**». صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٧٣)، وهو في الصحيحة (٢٠٥٢).

وعن **عبد الله** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**وإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وإن الرجل ليكذب حتىٰ يكتب عند الله كذابًا**». متفق عليه.

وأشدُّه الحلف الكاذب؛ ليقتطع به حق مسلم، ويمين الغموس-الذي يغمس صاحبَهُ في جهنم-، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والسلطان الكذاب، وكلما ضعف داعيه كان الأمر أشد، والكذب للإفساد، والبهتان، والإفك، وقول وشهادة الزور، والكذب علىٰ الله ورسوله ﷺ -لفظًا أو معنىٰ-؛ ﴿**وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ**﴾ [النحل: ١١٦]، وأن يُرِي العبدُ عينه ما لم تر في المنام؛ فإن هذا لمن أفرىٰ الفِرىٰ، ونحو ذلك.

ويخرج من ذلك ما استثني من الكذب في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجلِ زوجته، وحديث المرأةِ زوجَها، كما أن المعاريض في موضعها لا تكون كذبًا.

---

(٤٨٥)أخرجه أحمد والبيهقي موقوفًا، وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في "كتاب الزهد" أنه سأل أباه عنه فقال إسناده جيد، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٢٩٩٥).

قوله:(وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ)، دلّ الحديث علىٰ أن الغدر في نقض العقود والعهود من الكبائر، ومن أشد ذلك وأغلظه نقض البيعة للإمام؛ فهذا من أشد الغدر، وقد احتج ابن عمر بحديث الغدر في هذا؛ فعن نافع، قال: لما خلع أهل المدينة يزيدَ بن معاوية، جمع **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، حشمه وولده، فقال: إني سمعت النبي ﷺ يقول: «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**» وإنا قد بايعنا هذا الرجل علىٰ بيع الله ورسوله، وإني لا أعلمُ غدرًا أعظم من أن يبايع رجل علىٰ بيع الله ورسوله ﷺ، ثم ينصب له القتال، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كانت الفيصل بيني وبينه. **متفق عليه، واللفظ للبخاري**.

وعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ قال: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أَعْطَىٰ بي ثم غدر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفىٰ منه ولم يعط أجره**». سيأتي برقم (٢٢٢٧)؛ وكلها تدخل في خلف الوعد، وغدر العهد.

ومن **أشد الغدر**-أيضًا-: غدر السلطان بالرعية، فعن **أبي سعيد الخدري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكلِّ غادرٍ لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة**». أخرجه مسلم (١٧٣٨).

قوله: (وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)، الفجور: هو أن يخرج عن الحق عمدًا؛ حتىٰ يُصَيِّرَ الحق باطلًا والباطل حقًا، وهذا مما يدعو إليه الكذب، كما قال ﷺ: «**إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار**». متفق عليه.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «**إن أبغض الرجال إلىٰ الله الألدُّ الخصم**»، قال تعالىٰ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ ويوضحه قوله ﷺ: «**إنكم لتختصمونَ إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي علىٰ نحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**». متفق عليه.يعني: أنه يحاول أن يثبت الحق لنفسه بكل ما أوتي من حججٍ ولسانٍ وبيانٍ.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة -سواء كانت خصومته في الدين أو في الدنيا- علىٰ أن ينتصر للباطل، ويخيل للسامع أنه حق، ويوهن الحق، ويخرجه في صورة الباطل، كان ذلك من أقبح المحرمات، ومن أخبث خصال النفاق، وعن **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- ، عن النبي ﷺ، قال: «**من خاصم في باطل وهو يعلمه لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع**». صحيح:

صحيح أبي داود (٣٥٩٧)، وفي رواية -أيضًا-: «**ومن أعان علىٰ خصومة بظلم، فقد باء بغضب من الله**»[(٤٨٦)]". جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٨٦).

فيه الحذر من هذه الصفات التي ذكرت في الحديث، وغيرها من صفات المنافقين، "والتخلق بهذه الأخلاق التي تؤول بصاحبها إلىٰ النفاق الحقيقي الكامل". سبل السلام (٧/ ١٤٨).

(٤٨٦)**صحيح لغيره**. أخرجه أبو داود، وهو في الصحيحة (١/ ٧٩٩)، والإرواء (٢٣٧٦)

٢٥- بَابٌ: قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابٌ: قِيَامُ لَيْلَةِ القَدْرِ مِنَ الإِيمَانِ)**، هذه الترجمة لبيان أن الأعمال من الإيمان، ومن تلك الأعمال قيام ليلة القدر، فمن قامها زاد إيمانه. قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لما بيَّن علامات النفاق وقبحها، رجع إلىٰ ذكر علامات الإيمان وحسنها؛ لأن الكلام علىٰ متعلقات الإيمان هو المقصود بالأصالة، وإنما تذكر متعلقات غيره استطرادًا، ثم رجع فذكر أنّ قيام ليلة القدر، وقيام رمضان، وصيام رمضان من الإيمان". الفتح (١/ ٩١).

٣٥-حَدَّثَنَا أَبُواليَمَانِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوالزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ،**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(٤٨٧).

أطرافه في: (الإيمان٣٧، ٣٨، الصوم١٩٠١، صلاة التراويح٢٠٠٨، ٢٠٠٩، فضل ليلة القدر٢٠١٤).

الشرح

قوله: **(مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ)**، هذا الحديث حجة علىٰ أن الأعمال إيمان؛ لأنه ﷺ جعل الصيام والقيام إيمانًا،**ففيه** ردٌّ علىٰ المرجئة، أنه لا ينفع التصديق ولا القول دون العمل.**وفيه** فضيلة جليلة لليلة القدر، وقيامها علىٰ سائر الليالي.**وفيه** تحري ليلة القدر وذلك بقيام العشر الأوخر، سيما الوتر منها.

وورد في فضل قيامها عند الحجر الأسود، حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**».

صحيح:أخرجه ابن حبان (٤٦٠٣)، وهو في الصحيحة (١٠٦٨).

وقوله: **(إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا)**، "يعني: مصدقًا بمشروعيتها، وبالثواب علىٰ قيامها، محتسبًا مريدًا بذلك وجه الله، بريئًا من الرياء والسمعة، راجيًا عليها ثوابه".شرح البخاري لابن بطال

---

(٤٨٧)وأخرجه مسلم (٧٦٠)، وأبوداود (١٣٧٢)، والترمذي (٦٨٣)، والنسائي (٢٢٠٢، ٢٢٠٦، ٢٢٠٧، ٥٠٢٧).

(١/ ٩٥) بتصرف يسير.

وكثير من الأعمال يَذكُر فيها النبَي ﷺ الاحتسابَ، كما في قوله ﷺ: «فليس من رجل يقع به الطاعون، فيمكث في بيته **صابرًا محتسبًا** يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد». سيأتي (٥٧٣٤)، وقوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا، وأدَّىٰ زكاة ماله طيبة بها نفسه **محتسبًا**». **حسن لغيره**: أخرجه أحمد (٨٧٣٧)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٣٦). وقوله: «إن قتلت في سبيل الله صابرًا **محتسبًا** مقبلًا غير مدبر كفر الله عنك خطاياك». أخرجه مسلم (١٨٨٥)، وقوله: «من أنفق نفقة علىٰ أهله وهو **يحتسبها** كانت له صدقة». متفق عليه. وقوله: «ما من مسلم يشاك شوكة في الدنيا **يحتسبها** إلا قضىٰ بها من خطاياه يوم القيامة». **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٣٩٢). هذا كله تأكيد لتذكر النية واستحضارها.

فيه إشارة إلىٰ تلازم عمل الجوارح وعمل القلب. **وفيه** أن الإخلاص شرط في العمل، وأن ثواب العمل متوقف عليه.**وفيه** فضل أعمال القلوب. **وفيه** أنّ عظم الأجر عند الله يكون بها، إذ إن القلوب هي أول ما ينظر الله إليه من العبد؛ كما في الحديث: «**ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**». أخرجه مسلم (٦٧٠٨).

قوله: **(غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)**،أي: ذنوبه الماضية، ولم يثبت في حديث: "غفر له ما تقدم من ذنبه **وما تأخر**"، -والله أعلم-.

٢٦- بَابٌ: الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابٌ: الجِهَادُ مِنَ الإِيمَانِ)**، قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا الباب كالأبواب المتقدمة، حجة في أن الأعمال إيمان؛ لأنه لما كان الإيمان بالله هو المخرج له في سبيله، كان الخروج إيمانًا بالله لا محالة". شرح البخاري (١/ ٩٥).

٣٦- حَدَّثَنَا حَرَمِيُّ بْنُ حَفْصٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالوَاحِدِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَارَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوزُرْعَةَ بْنُ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ، قَالَ: **سَمِعْتُ أَبَاهُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **- عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «انْتَدَبَ**(تكفل) **اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ**(أي: بالذي أصابه) **مِنْ أَجْرٍ**(أخروي) **أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ**(أثقل) **عَلَىٰ أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ**(القطعة من الجيش)**، وَلَوَدِدْتُ**(تمنيت) **أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ»**(٤٨٨).

أطرافه في: (الجهاد٢٧٨٧، ٢٧٩٧، ٢٩٧٢، فرض الخمس٣١٢٣، التمني٧٢٢٦، التوحيد٧٤٥٧، ٧٤٦٣).

الشرح

قوله: **(انْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لاَ يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانٌ بِي)**، أي: تكفل بالمطلوب وسارع بثوابه وحسن جزائه، فجعل الإيمان بالله هو السبب الداعي لخروج المسلم للجهاد في سبيل الله، فدل ذلك علىٰ أن الجهاد من الإيمان، بل هو من أجل أعمال الإيمان؛ فعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قال: سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**». سيأتي برقم (١٥١٩).

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا المعنىٰ أراد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ إثباته في كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها فقال: "باب أمور الإيمان"، و"باب الصلاة من الإيمان"، و"باب الزكاة من الإيمان"، و"باب الجهاد من الإيمان"، **وسائر أبوابه إنما أراد الرد بها علىٰ المرجئة** في قولهم:

---

(٤٨٨)وأخرجه مسلم (١٨٧٦)، والنسائي (٣١٢٢، ٣١٢٣، ٥٠٢٩، ٥٣٠)، وابن ماجه (٢٧٥٣).

إن الإيمان قول بلا عمل، وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة". شرح البخاري (١/ ٧٩).

ودلّ الحديث علىٰ أنه لا بد من تلازم الباطن مع الظاهر، وإصلاح النية والقصد، وأن عمل الجوارح مرتبط بالقلب، فكلما زاد العبدُ من عمل الجوارح زاد معه عمل القلب.

فإن تخلفت النية الصالحة عن العمل لم يكن مقبولًا؛ فعن **أبي موسىٰ الأشعري** رضي الله عنه- قال: أتىٰ النبي ﷺ رجل، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». **متفق عليه.**

وفي الحديث الآخر: عن **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه- أن النبي ﷺ، قال: «**من غزا وهو لا ينوي في غزاته إلا عقالًا فله ما نوىٰ**». **حسن لغيره**: أخرجه النسائي (٣١٣٨)، وصحيح الموارد (١٣٢٩).

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله والله أعلم بمن يكلم**(يجرح)**في سبيله إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك**». **متفق عليه.**

فقوله: «**والله أعلم بمن يكلم في سبيله**»، لدليل علىٰ أهمية عمل القلب، وصحة النية مع عمل الجوارح.

قوله: **(وَلَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِيمَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ)**، قال **القاضي عياض**: "قد بين في الحديث صورة المشقة؛ من أنه يشق عليهم التخلف بعده، ولا تطيب أنفسهم بذلك، وأنه لا يقدر علىٰ حملهم كلهم، ولا يقدرون هم علىٰ ذلك؛ لضيق الحال. **وفيه** رفقه ﷺ بأمته ورأفته بهم، وأنه يترك من أعمال البر لئلا يتكلفوه هم فيشق عليهم". إكمال المعلم (٦/ ٢٩٦). كما في رواية: «**لولا أن أشق علىٰ أمتي ماتخلفت عن سرية، ولكن لا أجد حمولة، ولا أجد ما أحملهم عليه، ويشق عليّ أن يتخلفوا عني، ولوددت . . .**»الحديث.سيأتي (٢٩٧٢).

قوله: **(وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ)**: تمنىٰ النبي ﷺ القتل في سبيل الله ثلاثًا؛ لينال أجر الشهادة ثلاث مرار، وإن مات علىٰ فراشه، وبهذا اجتمع له الأجر، والتخفيف علىٰ الأمة، وهذا أجر زائد.

ويأتي الكلام علىٰ بقية مباحثه في كتاب الجهاد، وغيره -إن شاء الله-.

٢٧- بَابٌ: تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابٌ: تَطَوُّعُ قِيَامِ رَمَضَانَ مِنَ الإِيمَانِ)**، القول في هذا الباب كالقول في الباب قبله، والمفهوم منه ليس إلا القيام في حال الإيمان؛ علىٰ أن القيام هذا هو تطوع وليس واجبًا.

٣٧-حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه **-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(٤٨٩).

تقدم في: (الإيمان٣٥).

الشرح

قوله: **(مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا)**، قال **النووي** رحمه الله: "لم يأمرهم أمر إيجاب وتحتيم؛ بل أمر ندب وترغيب". شرح مسلم (٦/ ٤٠).

وجعل النبيَ ﷺ قيامَ رمضان من الإيمان؛ فدلّ ذلك علىٰ أن قيام رمضان من أعمال الإيمان الجليلة؛ فهو يؤيد ما قرره المصنف رحمه الله.

والمراد **بالقيام** في الحديث: **صلاة التراويح** -صلاها في جماعة؛ وهذا أفضل، أو في بيته؛ فيحصل بذلك المقصود-.

وقوله: «**إيمانًا**»، أي: تصديقًا بمشروعيته. وقوله: «**واحتسابًا**»: أن يفعل ذلك ابتغاء وجه الله وبرغبة في ثوابه.

ومما ورد في هذا أيضًا حديث **عمرو بن مرة الجهني** رضي الله عنه- قال: جاء رجل من قضاعة إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقمته، وآتيت الزكاة؛ فقال رسول الله ﷺ: «**من مات علىٰ هذا كان من الصديقين والشهداء**». **صحيح**: أخرجه البزار وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما واللفظ لابن حبان،

---

(٤٨٩)وأخرجه مسلم(٧٥٩)، وأبوداود(١٣٧٢)، والترمذي(٦٨٣)، والنسائي(٢٢٠٢، ٢٢٠٦، ٢٢٠٧، ٥٠٢٧).

وهو في صحيح الترغيب (٧٤٩)؛فدلّ هذا علىٰ الصديقية بهذا العمل الذي وافق نية عمل الجوارح مع عمل القلب.

وتقدم الكلام عليه قبل بابين، ويأتي الكلام عليه بالتفصيل في كتاب الاعتكاف -إن شاء الله-.

٢٨- بَابٌ: صَوْمُ رَمَضَانَ احْتِسَابًا مِنَ الإِيمَانِ

٣٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُضَيْلٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(٤٩٠).

تقدم في: (الإيمان٣٥).

الشرح

القول فيه كالقول في الباب قبله، والمراد منه ليس إلا الصيام في حال الإيمان، علىٰ أن الصيام هنا هو الصيام الواجب.

قوله: **(مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا)**، جعل النبي ﷺ صوم رمضان من الإيمان، **قال ابن حبان**: إيمانًا بفرضه، احتسابًا أي مخلصًا.

قوله: **(وَاحْتِسَابًا)**، قال **الخطابي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "احتسابًا، أي: عزيمة؛ وهو أن يصومه علىٰ معنىٰ الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك، غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه". الفتح (٤/ ١١٥)

وقد جعل احتساب النية فيه من الليل شرط في صحته، ومن لم يبيت النية من الليل فلا صيام له.

وتقدم الكلام عليه قريبًا، ويأتي الكلام عليه بالتفصيل في كتاب الاعتكاف -إن شاء الله-.

---

(٤٩٠)وأخرجه مسلم (٧٦٠)، وأبوداود (١٣٧٢)، والترمذي (٦٨٣)، والنسائي (٢٢٠٢، ٢٢٠٣، ٢٢٠٤، ٢٢٠٥، ٢٢٠٦، ٢٢٠٧، ٥٠٢٧)، وابن ماجه (١٣٢٦، ١٦٤١).

٢٩- بَابٌ: الدِّينُ يُسْرٌ

قوله: (بَابٌ: الدِّينُ يُسْرٌ ...)، هذا الباب في بيان أنّ الدين اسم واقع علىٰ الأعمال، وترجم المصنف بجزء من لفظ الحديث للدلالة علىٰ هذا المعنىٰ.

وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَحَبُّ الدِّينِ إِلَىٰ اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ».

قوله: (وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَىٰ اللهِ الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ)، حسن لغيره: ذكره المصنف معلقًا، وهو موصول عند أحمد (٢١٠٧)، صحيح الأدب المفرد (٢٢٠، ٢٨٧).

٣٩- حَدَّثَنَا عَبْدُالسَّلاَمِ بْنُ مُطَهَّرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ مَعْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الغِفَارِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا (أي: الزموا التوسط في العمل) وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ (العمل أول النهار) وَالرَّوْحَةِ (العمل بعد الزوال) وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ (العمل آخر الليل)»[(٤٩١)].

أطرافه في: (المرضىٰ ٥٦٧٣، الرقاق ٦٤٦٣، التمني ٧٢٣٥).

الشرح

قوله: (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ) قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "وهذه كلها أعمال سماها ﷺ دينًا، والدين والإسلام والإيمان شيء واحد". شرح البخاري (١/ ٩٦).

و"الدين يسر"، أي: ذو يسر؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فأمر بسلوك ما فيه تيسير وتسهيل؛ لينشط الناس في العلم والعمل، ويُقبِلُوا علىٰ أعمال الإيمان؛ بحب ورغبة وقوة قلب.

واليسر يريده الله -عز وجل- منّا وبنا: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:

---

(٤٩١) وأخرجه النسائي (٥٠٣٤).

١٨٥]، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**». سيأتي برقم (٢٢٠)، وفي الحديث -أيضًا-: «**إن الله لم يبعثني معنتًا**». حسن: أخرجه الترمذي (٣٣١٨)؛ فالمعنىٰ أنّ الله -تعالىٰ- لم يبعثني مشددًا علىٰ الناس، ملزمًا لهم ما يصعب عليهم أداؤه، «**ولكن بعثني معلمًا ميسرًا**». أخرجه مسلم (١٤٧٨).

وعن **محجن بن الأدرع** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنّ خير دينكم أيسره** -ثلاثًا-». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٨٩٩٧)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٢٦١).

ومنه قوله ﷺ: «**يسروا ولا تعسروا**»، أي: يسروا علىٰ أنفسكم وعلىٰ الناس، وحببوا العبادة والخير إليهم، ولا تبغضوا الله إلىٰ عباده والعبادات إلىٰ خلقه.

ومن صور اليسر في الدين: ما جاء عن **عمران بن حصين** رضي الله عنه- قال: كانت بي بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة؛ فقال: «**صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب**». سيأتي برقم (١١١٧).

لذلك كان من هدي النبي ﷺ الأخذ بالأيسر بشرطه -أي: ما لم يكن إثمًا-؛ فعن **عائشة** رضي الله عنها أنها قالت: «**ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه** ...». سيأتي برقم (٣٥٦٠). (متفق عليه)

وقوله: **(يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ)**، أي: لا يتعمق أحدٌ في الدين ويترك الرفق إلا عجز وانقطع، فيبتلىٰ بأمور لا يستطيعها ولا يتحملها، سواء كان في **الأمور الشرعية** أو **الأمور القدرية**؛ كبني إسرائيل لمَّا تشددوا في وصف البقرة شدد عليهم فيها، وغيرها كثير.

قال **الحافظ**: "والمعنىٰ: لا يتعمق أحد في **الأعمال الدينية** ويترك الرفق إلا عجز وانقطع؛ فيغلب، قال **ابن المنير**: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا -ورأىٰ الناس قبلنا- أن كل متنطع في الدين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة؛ فإنه من الأمور المحمودة؛ بل منع الإفراط المؤدي إلىٰ الملال والسآمة، أو المبالغة في التطوع المؤدي إلىٰ ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته؛ كمن بات يصلي الليل كله، ويغالب النوم إلىٰ أن غلبته عيناه في آخر الليل؛ فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلىٰ أن خرج الوقت المختار، أو إلىٰ أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة". الفتح (١/ ٩٤) بتصرف.

وقد جاءت أحاديث بهذا المعنىٰ منها:

حديث **بريدة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم هديًا قاصدًا، فإنه من يشاد هذا الدين يغلبه**». **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (١٩٧٨٦).

وعن **أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٣٠٧٤)، وهو في صحيح الجامع (٢٢٤٦).

وروي عن **عبد الله بن عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: «**إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغضوا إلىٰ أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا بلغ بعدًا**». **رجاله ثقات**: أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١٣٣٤).

وعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٨٥١)، والنسائي (٣٠٥٧)، وهو في الصحيحة (٢١٤٤).

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**هلك المتنطعون**». أخرجه مسلم (١٠٩٤).

وعن **محجن بن الأدرع** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كنت أحرس النبَّي ﷺ ذات ليلة، (فخرج لبعض حاجته، فرآني فأخذ بيدي، فانطلقنا فمررنا علىٰ رجل يصلي يجهر بالقرآن، فقال رسول الله ﷺ: «**عسىٰ أن يكون مرائيًا**»، فقلت: يا رسول الله، يصلي يجهر بالقرآن)، فرفض رسول الله ﷺ يدي، ثم قال: «**إنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة**»، قال: ثم خرج رسول الله ﷺ ذات ليلة لبعض حاجته وأنا أحرسه، فأخذ بيدي، فمررنا علىٰ رجل يصلي بالقرآن"، فقلت: عسىٰ أن يكون مرائيًا، فقال رسول الله ﷺ: «**كلا، إنه أواب**»، قال: فنظرت، فإذا هو عبد الله ذو البجادين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-". **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (١٨٩٩٢)، وهو في الصحيحة (١٧٠٩).

قلت: فإنّ شدد أحد علىٰ نفسه؛ كان ذلك سببًا في ترك العمل أو تقليله، وهذا يؤدي إلىٰ ضعف الإيمان؛ بل قد يؤدي ذلك إلىٰ الانحراف عن الإيمان بالكلية، أو الردة عن الإسلام جملة؛ لذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: «**إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلىٰ سنتي؛ فقد أفلح، ومن كانت فترته لغير ذلك؛ فقد هلك**»[٤٩٢].حسن.

---

(٤٩٢) **حسن** أخرجه أحمد (٦٩٥٨)، وحسنه الألباني، وصححه في صحيح ابن حبان (١١)، من حديث **عبدالله**

وفي رواية: «**إن للإسلام شرة وإن لكل شرة فترة، فإن كان صاحبهما سدد وقارب فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع فلا ترجوه**». صحيح: أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٢ / ٨٩)، وهو في الصحيحة (٢٨٥٠).

وجاء في رواية:«**فمن اقتدىٰ بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني، إنّ لكل عمل شرة، ثم فترة فمن كانت فترته إلىٰ بدعة فقد ضل، ومن كانت فترته إلىٰ سنة فقد اهتدىٰ**». إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٤٧٤).

وقوله: **(فَسَدِّدُواوَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا)**، أخرجه المصنف في كتاب الرقاق بمعناه، ولفظه: «**سددوا وقربوا**» وزاد في آخره: «**والقصد القصد تبلغوا**».

ومعنىٰ «**سددوا**»: اقصدوا السداد في الأمور، أي: أصيبوا، وهو من الصواب.

و«**وقاربوا**»: في العبادة، أي: إذا لم تكن الإصابة فقاربوا، والمعنىٰ: وإن لم تصيبوا سنة النبي ﷺ علىٰ الوجه الأكمل، بأن تصلي مثلا الوتر إحدىٰ عشر ركعة، فاقترب من ذلك كأن توتر بسبع أو خمس أو ثلاث، بدلا من إحدىٰ عشر، فلا تترك العمل بالكلية، ولا تزد فيه عما ورد عن النبي ﷺ.

و«**وأبشروا**»: أي: بالثواب علىٰ العمل وإن قل، فهذه هي ثمرة لذلك؛ فأبشروا بأجر تام، ولن يضيع إذا سددتم ما أمكن، أو قاربتم إذا لم يمكن.

قوله: **(وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ)**، قال **ابن رجب** رحمه الله: "يعني: أن هذه الأوقات الثلاثة أوقات العمل، والسير إلىٰ الله -تعالىٰ-، وهي أول النهار، وآخره. **فالغدوة**: أول النهار، **والروحة**: آخره، **والدلجة**: سير آخر الليل. وفي "سنن أبي داود" (٢٥٧١): عن النبي ﷺ قال: «**إذا سافرتم، فعليكم بالدلجة؛ فإن الأرض تطوىٰ بالليل**». وصححه **الألباني**. فسير آخر الليل محمود في سير الدنيا بالأبدان، وفي سير القلوب إلىٰ الله بالأعمال. وأخرج البخاري هذا الحديث في أواخر كتابه، وزاد فيه: «**القصد القصد تبلغوا**». يعني: أن من دام علىٰ سيره إلىٰ الله في هذه الأوقات الثلاثة، مع الاقتصاد بلغ، ومن لم يقتصد، بل بالغ واجتهد، فربما

بن عمرو رضي الله عنهما-.

انقطع في الطريق ولم يبلغ".فتح الباري (١/ ١٥٣- ١٥٣).

وهذا هو السير الحسي، أخبر النبي ﷺ به مثلًا، وهو أن السائر لا يشق علىٰ نفسه، فكما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها، فيصل إلىٰ المقصود بغير تعب؛ فأنتم استعينوا علىٰ طاعة الله -عز وجل- بالأعمال في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، دون أن تشقوا علىٰ أنفسكم وتهلكوها.

لذلك غضب النبي ﷺ أشد الغضب، وأنكر علىٰ من أرادوا التشديد علىٰ أنفسهم، فعن **أنس** رضي الله عنه-، أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر؟ فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام علىٰ فراش، فحمد الله وأثنىٰ عليه؛ فقال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**». متفق عليه، واللفظ لمسلم. _____حديث عند متفق عليه واللفظ لمسلم ٧٤٦الشاملة

فيه الحض علىٰ الرفق في العمل، والاقتصاد فيه، وترك حمل النفس علىٰ المشقة؛ لأن الله -تعالىٰ- أوجب عليها وظائف من الطاعات، في وقت دون وقت، تيسيرًا منه، ورحمة.

وفيه التنبيه علىٰ أوقات النشاط؛ لأن الغدوة والروحة والدلجة أفضل أوقات المسافر؛ لأنها أوقات نشاطه.

وفيه ما قاله **ابن المنير** رحمه الله: أنه علم من أعلام النبوة، فقد رأينا -ورأىٰ الناس قبلنا- أن كل متنطع في الدين ينقطع.

وفيه الإشارة إلىٰ الأخذ بالرخصة الشرعية؛ فإن الأخذ بالعزيمة في موضع الرخصة قد يكون تنطُّعًا؛ كمن يترك التيمم عند العجز عن استعمال الماء، فيفضي به استعماله إلىٰ حصول الضرر، أو من يأخذ بالأشق من الأقوال؛ بحجة أنه يعمل بالأحوط مع وجود السعة والرحمة والتيسير من الله والرخصة، كالجمع بين الصلوات، والمسح علىٰ الخفين والجوربين والنعلين.

وفيه إشارة إلىٰ أن التشديد من فعل الخوارج، وأن من نتائج العقائد المنحرفة الخروج عن السنة، والتشديد والمشقة علىٰ الناس؛ فعن **الأزرق بن قيس**، قال: "كنا علىٰ شاطئ نهر بالأهواز،

قد نضب عنه الماء، فجاء **أبو برزة الأسلمي**رضي الله عنه -على فرس، فصلىٰ وخلىٰ فرسه، فانطلقت الفرس، فترك صلاته وتبعها حتىٰ أدركها، فأخذها ثم جاء فقضىٰ صلاته، وفينا رجل له رأي (يعني: من رأي الخوارج)، فأقبل يقول: انظروا إلىٰ هذا الشيخ، ترك صلاته من أجل فرس، فأقبل فقال: ما عنفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي متراخ، فلو صليت وتركته، لم آت أهلي إلىٰ الليل، وذكر أنه "قد صحب النبي ﷺ فرأىٰ من **تيسيره**". سيأتي برقم (٦١٢٧).

عن **ابن عمر**(رضي الله عنهما) قال: "إن الله يحب أن تؤتىٰ مياسره، كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه".

صحيح الإسناد: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٤٧٣).

٣٠- بَابٌ: الصَّلاَةُ مِنَ الإِيمَانِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. يَعْنِي صَلاَتَكُمْ عِنْدَ البَيْتِ.

قوله -تعالىٰ-: (﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾)، احتج البخاري -رَحِمَهُ اللَّهُ- بهذه الآية علىٰ إثبات أن الصلاة هي من الإيمان؛ بل سماها الله إيمانًا؛ فإنها علم الإيمان وأعظم خصاله البدنية.

وسبب نزول الآية ما جاء عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: "لما توجه النبي ﷺ إلىٰ الكعبة"، قالوا يا رسول الله: فكيف الذين ماتوا، وهم يصلون إلىٰ بيت المقدس؟ فأنزل الله -تعالىٰ-: ﴿**وَما كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٣]. **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٦٨٠).

فأطلق الله الإيمان علىٰ الصلاة، **ففيه** دليلٌ علىٰ أنها من الإيمان؛ ولا جرم أنها تشتمل علىٰ قول وعمل اللسان، وقول وعمل القلب، وعمل الجوارح، فاشتملت علىٰ التوحيد بأنواعه وأقسامه، والرغبة والرهبة، والدعاء الذي هو العبادة، وجميع خصال الإيمان.

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية أقطع الحجج للجهمية والمرجئة في قولهم: إن الفرائض والأعمال لا تسمىٰ إيمانا، وقولهم خلاف نص التنزيل؛ لأن الله سمىٰ صلاتهم إلىٰ بيت المقدس إيمانا، ولا خلاف بين أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في صلاتهم إلىٰ بيت المقدس.

ومثل هذه الآية قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيمانًا وَعَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [الأنفال: ٢-٣]". شرح البخاري (١/ ٩٧) مختصرًا.

٤٠- حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ خَالِدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوإِسْحَاقَ، عَنِ **البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَىٰ أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صَلَّىٰ قِبَلَ (أي: إلىٰ جهة) بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ (أي: كان يحب ذلك)، وَأَنَّهُ صَلَّىٰ أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلَّاهَا (إلىٰ الكعبة) صَلاَةَ العَصْرِ، وَصَلَّىٰ مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّىٰ مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَىٰ أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ (أي: أحلف بالله)

لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْإِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّىٰ وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ.

قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا أَبُوإِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا: أَنَّهُ مَاتَ عَلَىٰ القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ (أي قبل التحويل من بيت المقدس إلىٰ الكعبة) رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].(٤٩٣)

أطرافه في: (الصلاة٣٩٩، التفسير٤٤٨٦، ٤٤٩٢، أخبار الآحاد٧٢٥٢).

الشرح

قوله: (كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَىٰ أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ)، علىٰ أخواله، وهم بنو النجار؛ **ففيه** أن من نزل بلدًا، فالأولىٰ أن ينزل علىٰ ذوي رحمه، ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٦].

قوله: (وَأَنَّهُ صَلَّىٰ قِبَلَبَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا)، **فيه** فضل بيت المقدس. **وفيه** أن بيت المقدس كان قبلة ثم نسخت.

وقوله: (وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ)، **فيه** أن بيت الله الحرام أفضل من بيت المقدس. **وفيه** أن علىٰ العبد امتثال أمر الله ولو كان علىٰ خلاف هواه. **وفيه** أن الله -تعالىٰ- يسارع في هوىٰ النبي ﷺ. **وفيه** موافقة مراد النبي ﷺ لمراد ربه -تعالىٰ-.

قوله: (وَأَنَّهُ صَلَّىٰ أَوَّلَ صَلاَةٍ صَلَّاهَاصَلاَةَ العَصْرِ، وَصَلَّىٰ مَعَهُ قَوْمٌ)، **فيه** مشروعية النسخ في الأحكام والأوامر في هذه الشريعة، والرد علىٰ من أنكره، وهو جائز عقلًا، وواقع شرعًا؛ **وهذا مجمع عليه عند المسلمين**؛ خلافًا لليهود -لعنهم الله-، وبعض أهل البدع. **وفيه** جواز نسخ السنة بالقرآن؛ وهو جائز عند الجمهور. **وفيه** أن أول صلاة صلاها -إلىٰ الكعبة- العصر. **وفيه** فضل صلاة العصر؛ حيث جعلها الله أول صلاة إلىٰ القبلة الجديدة.

وقوله: (فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّىٰ مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَىٰ أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ

---

(٤٩٣) وأخرجه مسلم (٥٢٥)، والترمذي (٣٤٠، ٢٩٦٤)، وابن ماجه (١٠١٠).

رَاكِعُونَ)، **فيه** تعجيل صلاة العصر؛ حيث صلىٰ مع النبي ﷺ، وانصرف وأدرك الناس وهم يصلون صلاة العصر في مسجد قباء مع بعده عن المسجد النبوي؛ **ففيه** ردٌّ علىٰ الحنفية.

قوله: (فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِلَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ)، **فيه** الحلف بلا استحلاف. **وفيه** دليلٌ علىٰ وجوب قبول خبر الواحد، في العقائد والأحكام، وسيأتي الكلام عليه في كتاب خبر الآحاد -إن شاء الله-. **وفيه** الكلام مع المصلين لإصلاح صلاتهم. **وفيه** استجابة المصلي لكلام من كان خارجًا عن الصلاة، والرد علىٰ من أنكر ذلك. **وفيه** أن من تبين له الخطأ في صلاته، وأمكن استدراكه بدون قطعها؛ فإنه يستدركه ويمضي فيها، قال **الخطابي**: "فيه من العلم أن ما مضىٰ من صلاتهم كان جائزًا، ولولا جوازه لم يجز البناء عليه. **وفيه** دليلٌ علىٰ أن كل شيء له أصل صحيح في التعبد ثم طرأ عليه الفساد قبل أن يعلم صاحبه؛ فإن الماضي منه صحيح". معالم السنن (١/ ٢٤١).

وفيه أنّ الحركة في الصلاة لمصلحة الصلاة، ولو كانت كثيرة، فإنها لا تقطع الصلاة؛ لأنهم استداروا كما هم استدارة كاملة، فصلىٰ من كان إماما مكان آخر الصفوف.

وفيه بيان أن حكم الناسخ لا يثبت في حق المكلف حتىٰ يبلغه؛ لأن أهل قباء لم يؤمروا بالإعادة، مع كون الأمر باستقبال الكعبة وقع قبل صلاتهم تلك بصلوات. **وفيه** جواز تعليم من ليس في الصلاة من هو فيها، وأن استماع المصلي لكلام من ليس في الصلاة لا يفسد صلاته، خلافًا لمن منعه. **وفيه** صحة الصلاة الواحدة إلىٰ أكثر من جهة، فمن صلىٰ إلىٰ جهة باجتهاد، ثم تغير اجتهاده في أثنائها؛ فيستدير إلىٰ الجهة الأخرىٰ، حتىٰ لو تغير اجتهاده أكثر من مرة في صلاة واحدة؛ فتصح صلاته.

وفيه وجوب الصلاة إلىٰ القبلة، والإجماع علىٰ أنها الكعبة -شرفها الله تعالىٰ-. **وفيه** تبليغ العلم لمن جهله. **وفيه** بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الحرص علىٰ دينهم، والشفقة علىٰ إخوانهم، حيث قاموا بتبليغ نسخ القبلة في مساجد المدينة. **وفيه** بيان ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من كمال طاعتهم لله -تعالىٰ- ولرسوله ﷺ، وسرعة استجابتهم.

قوله: (وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْإِذْ كَانَ يُصَلِّي قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ...)، **فيه** مخالفة المسلمين لما كان عليه أهل الكتاب. **وفيه** أنّ أهل الباطل يفرحون بموافقتنا لهم لما هم عليه.

قوله: (أَنَّهُ مَاتَ عَلَىٰ القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ)، أي: فلم نعلم أن طاعتهم ضائعة أم لا؟ فأنزل الله الآية.

ففيه أن من وقع في منكر قبل أن يبلغه النسخ؛ فإنه لا إثم عليه في ذلك. **وفيه** أن الصحابة كانوا يهتمون بإخوانهم وأعمالهم؛ يخافون عليها من الضياع.

قوله: (فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾)، **فيه** أن من قام بالعمل بأمر الله لا يضره ما نقص منه. **وفيه** أنّ الصلاة تسمىٰ إيمانًا، وأنها من الإيمان. **وفيه** ردٌّ علىٰ المرجئة والخوارج. **وفيه** أنّ من امتثل أمر الله لا يضيع الله عليه أمره، ولا عمله، ولا يذهبه سدىٰ.

٣١- بَابُ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ

قوله: **(بَابُ حُسْنِ إِسْلاَمِ المَرْءِ)**، ساق المصنف هذه الترجمة في بيان إحسان العبد إسلامه، وأن هذا الإحسان دليلٌ علىٰ زيادة الإيمان في قلب العبد.

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَحُسْنُ إسلامِهِ؛ قد فسره ﷺ حين سئل ما الإحسان؟ فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»، أراد مبالغة الإخلاص لله بالطاعة والمراقبة له". شرح البخاري (١/ ٩٨).

٤١- قَالَ مَالِكٌ: أَخْبَرَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ، أَخْبَرَهُ **أَنَّ أَبَاسَعِيدٍ الخُدْرِيَّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **يَقُولُ: «إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ**(دخوله فيه بالظاهر والباطن)، **يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا**(قدمها)، **وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ**(المحاسبة والمجازاة بالمثل): **الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَاإِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ**(يعفو) **اللهُ عَنْهَا»**(٤٩٤).

الشرح

قوله: **(إِذَا أَسْلَمَ العَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ)**، قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أسلم إسلامًا حقيقيًا وليس كإسلام المنافقين". شرح النووي علىٰ مسلم (٢/ ١٤٨).

والمقصود بحسن الإسلام؛ هو أن يكون إسلامه حسنًا، اعتقادًا وإخلاصًا، ودخوله فيه بالباطن والظاهر، وأن يستحضر عند عمله قرب ربه منه، واطلاعه عليه؛ كما دل عليه تفسير الإحسان في حديث سؤال جبريل -عليه السلام-.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إحسان الإسلام، يكون بإكماله بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي، ومنه قول النبي ﷺ: «**مِن حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**».صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣١٧).

ومنه حديث **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أن النبي ﷺ سئل: أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: «**من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول**

---

(٤٩٤)وأخرجه النسائي (٤٩٩٨)، موصولًا.

والآخر». سيأتي برقم (٦٩٢١).

وعن **أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحسن فيما بقي؛ غفر له ما مضىٰ، ومن أساء فيما بقي؛ أخذ بما مضىٰ وما بقي**». **صحيح**: أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٨٠٦)، وهو في الصحيحة (٣٣٨٩).

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن المراد **بإحسانه في الإسلام**: فعل واجباته والانتهاء عن محرماته، والمراد **بالإساءة في الإسلام**: ارتكاب بعض محظوراته التي كانت ترتكب في الجاهلية". فتح الباري (١/ ١٥٤) بتصرف يسير.

فيه أنه يطلق علىٰ العبد المؤمن ونحوه أنه حسن إسلامه، أو تنسك، أو مستقيم، أو تدين لله، أو نحو ذلك من الألفاظ الشرعية، ولا يطلق عليه لفظ غير شرعي مثل: "ملتزم"، أو "صوفي"، أو "الحاج" ولا غير ذلك من الألقاب التي ليست في الكتاب والسنة ولا يعرفها السلف.

قوله: **(يُكَفِّرُ اللهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا)**، قال العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يحسن الإسلام بتمام الإخلاص لله -عز وجل-، والمتابعة لرسول الله ﷺ، فإذا فعل ذلك فإن الله -تعالىٰ- «**يكفر عنه كل سيئة كان زلفها**»، أي: أتىٰ بها، ولعلَّ ذلك في حال كفره، وأما بعد إسلامه فإن الله رتب تكفير السيئات علىٰ أعمال خاصة؛ كالصلوات الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، ورمضان إلىٰ رمضان". شرح البخاري (١/ ١١٨).

ويؤيد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ**﴾ [سورة الأنفال:٣٨]، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا دليلٌ علىٰ أنّ الإسلام إنما يكفر ما كان قبله من الكفر ولواحقه التي اجتنبها المسلم بإسلامه، فأما الذنوب التي فعلها في الجاهلية إذا أصر عليها في الإسلام فإنه يؤاخذ بها، فإنه إذا أصر عليها في الإسلام لم يكن تائبًا منها، فلا يكفر عنه بدون التوبة منها". فتح الباري (١/ ١٥٥).

وحديث **عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي ﷺ قال له: «**أما علمت أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله**». أخرجه مسلم (١٢١).

أما أعماله الصالحة التي كان يفعلها في جاهليته، فإنه قد ثبت قول النبي ﷺ **لحكيم ابن حزام** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في أعماله الصالحة التي كان يفعلها في الجاهلية يتعبد ويتبرر لله بها؛ قال له:

«**أسلمت علىٰ ما أسلفت من خير**». سيأتي برقم (١٤٣٦).

قوله: **(وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ القِصَاصُ: الحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا)**،أي: كتابة المجازاة، والمحاسبة بالمثل.

وحكىٰ الماوردي أن بعض العلماء أخذ بظاهر هذه الغاية المذكورة في الحديث؛ فزعم أن التضعيف لا يتجاوز سبعمائة، وردَّ عليه بقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ**﴾[البقرة: ٢٦١] والآية محتملة للأمرين: فيحتمل أن يكون المراد أنه يضاعف تلك المضاعفة بأن يجعلها سبعمائة، ويحتمل أنه يضاعف السبعمائة بأن يزيد عليها. والمصرح بالرد عليه حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما- المخرج عند المصنف في كتاب الرقاق ولفظه: «**كتب الله له عشر حسنات إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة**». سيأتي برقم (٦٤٩١).

فيه عظم رحمة رب العالمين، وفضله الواسع؛ حيث ضاعف الحسنات هذه المضاعفة، ولم يضاعف السيئة فرحمتهُ غلبت غضبَه، والله واسع المغفرة، جوادٌ كريم.

قوله: **(إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَاللهُ عَنْهَا)**، زاد سمويه في فوائده: «**إلا أن يغفر الله وهو الغفور**». **وفيه** ردٌّ علىٰ الخوارج وغيرهم من المكفِّرين بالذنوب والموجبين لخلود المذنبين في النار؛ فأول الحديث يردّ علىٰ من أنكر الزيادة والنقص في الإيمان؛ لأن الحسن تتفاوت درجاته، وآخره يرد علىٰ الخوارج والمعتزلة. الفتح (١/ ١٠٠).

٤٢-حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالرَّزَّاقِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَىٰ سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا**»(٤٩٥).

الشرح

قوله: **(إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلاَمَهُ)**، هذا هو الشاهد من الحديث، في هذا الباب،

---

(٤٩٥)وأخرجه مسلم (١٢٩).

وتقدم شرحه في الذي قبله.

قال ابن رجب: وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون الإكثار منه فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع الغفلة وعدم الإتقان.

قال **بعض السلف**: أن الرجلين ليقومان في الصف وبين صلاتمها كما بين السماء والأرض. (مجموع رسائل ابن رجب١/ ٣٥٢).

وقوله: (بِمِثْلِهَا)، زاد في رواية لمسلم: «**حتىٰ يلقىٰ الله** -عز وجل-».

وفي رواية لمسلم: قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل بسيئة وهو أبصر به فقال: **"ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها حسنة إنما تركها من جراي"**

فيه اعتبار النية في الأعمال أثرها.

وفيه أن الكفر مانع من وصول أجر الأعمال الصالحة إلىٰ صاحبها حتىٰ يسلم.

وفيه أن الإسلام الحقيقي يهدم ما كان قبله كالتوبة.

وفيه أن الحسنة تضاعف برحمة الله وأن السيئة لا تضاعف.

وفيه أننا لا نغتر بإسلام الرجل حتىٰ يحسن إسلامه .

وفيه أن الله يحصي علىٰ العبد الحسنات والسيئات ويجازي بها.

وفيه أن السيئة تكتب حسنة إن تركها لوجه الله.

وفيه أن السيئة تكتب عليه سيئة إن تركها لسبب آخر كأن يتركها كسلا أو تهاونًا أو خوفًا من العشير .

وفيه أن السيئة تكتب عليه سيئة إن قصدها وعزم عليها ولكن لم يقدر علىٰ إرتكابها ومنعه مانع خارجي للحديث قال النبيَّ ﷺ: **"إذا التقىٰ المسلمانِ بسيفَيْهما فالقاتل والمقتول في النار" قلت: يا رسول الله هذا القاتِل فما بالُ المقتول؟ قال: "إنّه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه"** (متفق عليه)

قال النبيَّ ﷺ: **"إذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه"**.رواه مسلم

وهناك حالة أخرىٰ: وهي أن تجاوز الرب عمن يشاء من عباده برجمته.

وهناك حالة أخرىٰ: أن يحدث نفسه بها فقط فإن الله يتجاوز عنه لحديث أبي هريرة : **"إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، مالم تعمل أو تتكلم"**.(متفق عليه)

وهناك حالة أخرىٰ: وهي أن يتمنىٰ فعل المعصية ولو تيسرت له كقول الرجل (لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمله قال رسول الله ﷺ فهما في الوزر سواء) (صحيح ابن ماجه/ ٣٤٠٦)

وتقلب السيئة حسنة لقول الله تعالىٰ: ﴿**إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحًا فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ**﴾ [الفرقان: ٧٠].

٣٢- بَابٌ: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَدْوَمُهُ

قوله: **(بَابٌ: أَحَبُّ الدِّينِ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- أَدْوَمُهُ)**، قال **الحافظ**: "مراد المصنف الاستدلال علىٰ أن الإيمان يطلق علىٰ الأعمال؛ لأن المراد بالدين هنا العمل، والدين الحقيقي هو الإسلام، والإسلام الحقيقي وهو الإيمان أيضًا، بل والإحسان، فيصح بهذا مقصوده.

ومناسبته لما قبله من قوله:«**عليكم بما تطيقون**» لأنه لما قدم أن الإسلام يحسن بالأعمال الصالحة أراد أن ينبه علىٰ أن علىٰ العبد ألا يشق علىٰ نفسه".الفتح (١/ ١٨٦) بتصرف.

ولا يشدد الإنسان علىٰ نفسه كي لا ينقطع عن العمل، وهذا أدعىٰ للمداومة عليه.

وقد امتدح الله تعالىٰ عباده المؤمنين، فقال: ﴿**إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج:٢٢- ٢٣].

وأثنىٰ سبحانه علىٰ خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ**﴾ [النحل: ١٢٠]. فإنّ من معاني القنوت التي ذكرها أهل العلم، هي المداومة علىٰ الطاعة.

وذم الله تعالىٰ عدم المواظبة علىٰ العمل، قال **المهلب وأبوالزناد الأندلسي القرطبي**: "وقد ذم الله من التزم فعل البر ثم قطعه بقوله تعالىٰ: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ [الحديد: ٢٧]". شرح البخاري لابن بطال (١/ ١٠٠).

٤٣-حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ هِشَامٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي،**عَنْ عَائِشَةَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: «مَهْ**(هي كلمة للزجر والنهي)**، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ**(أي: بالذي تطيقون المداومة عليه)**، فَوَاللهِ لَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا»، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ.**(٤٩٦)

أطرافه في: (التهجد١١٥١، ١١٣٢، الصوم١٩٧٠، الرقاق٦٤٦١، ٦٤٦٢، ٦٤٦٥).

---

(٤٩٦)وأخرجه مسلم (٧٨٥)، وأبو داود (١٣٦٨)، والنسائي (١٦٤٢، ٥٠٣٥)، وابن ماجه (٤٢٣٢).

الشرح

قوله: (دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: مَنْ هَذِهِ؟)، **فيه** أنه يجوز أن يسأل الرجل عمن في بيته من النساء، **وفيه** جواز السؤال عن أسماء النساء، سيما انقضت المصلحة ذلك، وقد وردت أحاديث اقتضت كثيرة فيها سؤال النبي ﷺ، عن أسماء النساء.

أن الإحسان في العمل وزيادة الإيمان يكون سببًا للمداومة علىٰ الأعمال

قوله: (قَالَتْ: فُلاَنَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلاَتِهَا)، **فيه** جواز ذكر أسماء النساء للرجال، وأنه لا حرج فيه خلافًا لمن استنكره من العامة.**وفيه** أننا لا نعجب بعمل المرء حتىٰ نعرضه علىٰ الكتاب والسنة، وأهل العلم.

وورد اسمها في إحدىٰ الروايات: (الحولاء بنت تويت).

قوله: (مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ)، أي: كُفَّ، مثل صه، أي: اسكت، والمعنىٰ: لا تكلفوا أنفسكم بالعمل بالطاعات إلا بما تبلغه طاقتكم؛ وذلك من أجل أن تستمروا عليها؛ وألا يحدث السآمةُ والكسلُ؛ (إنّ المنبت لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقىٰ). فينبغي أن تتخذوا أسباب المواظبة والمداومة علىٰ العمل الصالح ولو قل.

الفتاوىٰ لشيخ الإسلام (٢٥/ ٢٧٤)

فإنه المشروع المأمور به الذي يحبه الله ورسوله

فمتىٰ كانت العبادة توجب ضررًا يمنعه من فعلها

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "زجر عائشة عن قولها عن هذه المرأة في كثرة صلاتها وأنها لا تنام الليل، وأمرها بالكف عما قالته في حقها ... لمدحها بعمل ليس بممدوح في الشرع، وعلىٰ هذا فكثيرًا ما يذكر في مناقب العباد من الاجتهاد المخالف للشرع ينهىٰ عن ذكره علىٰ وجه التمدح به والثناء به علىٰ فاعله".فتح الباري (١/ ١٦٤) بتصرف.

كما يذكرون أن فلانًا كان يختم القرآن كلَّ ليلة، أو كذا وكذا ختمة في رمضان، وكلّ هذا مخالف للسنة، وقد ورد النهي عن ذلك.

قوله: (فَوَاللهِ لاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّىٰ تَمَلُّوا)، وفي رواية: «**فوالله لا يسأم الله حتىٰ تسأموا**».

أخرجه مسلم (٧٨٥).

قال **المهلب وأبو الزناد** -في شرح حديث الباب-: "إنما قال ذلك ﷺ -والله أعلم-، خشية الملال اللاحق بمن انقطع في العبادة". شرح البخاري لابن بطال (١/ ١٠٠).

وكان ينهىٰ عن التشديد علىٰ النفس المؤدي إلىٰ الانقطاع، وكذلك حال النبي ﷺ كان عمله ديمة، وكان إذا عمل عملًا أثبته، وقد كان ينهىٰ عن قطع العمل وتركه، كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال لابن عمرو: «**لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل**». متفق عليه. فإن شدد العبد علىٰ نفسه لابدّ أن يحدث له تقصير في أمور أخرىٰ، وقد تكون من الواجبات والفرائض، أو يحدث له انقطاع عن العمل، أو ضعف فيه، أو خروج عن السنة إلىٰ البدعة، والغلو، والتنطع، «**إنك إن فعلت ذلك هجمت**(أي: غارت أو ضعفت لكثرة السهر) **عيناك، ونفهت**(أي: تعبت وكلت) **نفسك، يعني صوم الدهر، وقيام الليل**». متفق عليه، باختلاف يسير، وهو في الصحيحة (٢٨٥٥).

"فإن دوام العمل وإيصاله ربما حصل للعبد به في عمله الماضي ما لا يحصل له فيه عند قطعه؛ فإن الله يحب مواصلة العمل ومداومته، ويجزي علىٰ دوامه ما لا يجزي علىٰ المنقطع منه.

وقد صح هذا المعنىٰ في الدعاء وأن العبد يستجاب له ما لم يعجل فيقول: «**قد دعوت فلم يستجب لي، فيدع الدعاء**»،فدلَّ هذا علىٰ أن العبد إذا أدام الدعاء وألحَّ فيه أجيب، وإن قطعه واستحسر منع إجابته وسمي هذا المنع من الله مللًا وسآمة مقابلة للعبد علىٰ مللِه وسآمته، كما قال تعالىٰ ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**﴾، [التوبة: ٦٧] فسمَّىٰ إهمالهم وتركهم نسيانًا مقابلة لنسيانهم له، هذا أظهر ما قيل في هذا". فتح الباري لابن رجب (١/ ١٥١).

و«**لا يمل الله**»، معناها ما قاله **الطحاوي** رحمه الله: "أي إنكم قد تملون فتنقطعون والله بعد مللكم وانقطاعكم علىٰ الحال التي كان عليها قبل ذلك من انتفاء الملل والانقطاع عنه". مشكل الآثار (٢/ ١٠٤).

وقيل في معناه، ما قاله **البغوي** رحمه الله: " قوله: «**لا يمل الله حتىٰ تملوا**» معناه: لا يمل الله وإن مللتم، لأن الملال عليه لا يجوز، ... ومعنىٰ: الملال: الترك، لأن من ملَّ شيئًا تركه وأعرض عنه، فكنىٰ بالملال عن الترك لأنه سبب الترك". شرح السنة للبغوي (٤/ ٤٩).

ويؤكد معنىٰ الترك ما قاله **ابن رجب** رحمه الله: "الملل والسآمة للعمل يوجب قطعه وتركه،

فإذا سأم العبد من العمل وملّه قطعه وتركه فقطع الله عنه ثواب ذلك العمل؛ فإنّ العبد إنما يجازىٰ بعمله، فمن ترك عمله انقطع عنه ثوابه وأجره إذا كان قطعه لغير عذر من مرض أو سفر أو هرم.". فتح الباري (١/ ١٦٥).

وقال العلامة **محمد بن إبراهيم آل الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا**»، من نصوص الصفات، وهذا علىٰ وجه يليق بالباري، لا نقص فيه، كنصوص الاستهزاء والخداع فيما يتبادر". فتاوىٰ ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٢٠٩).

"الواجب هو إمرار هذا الحديث كما جاء، مع الإيمان بالصفة، وأنها حق علىٰ الوجه الذي يليق بالله، من غير مشابهة لخلقه ولا تكييف، كالمكر والخداع والكيد؛ الواردة في كتاب الله عز وجل، وكلها صفات حق تليق بالله -سبحانه وتعالىٰ- علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورىٰ: ١١]". فتاوىٰ اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية (٢/ ٤٠٢).

وقال الإمام **ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله في الحث علىٰ الأعمال الصالحة: فإنّ الله جلَّ وعلا «**لا يمل حتىٰ تملوا**»، مللٌ يليق بالله، لا يشابه صفات المخلوقين في مللهم؛ فالمخلوقون لديهم نقص وضعف، وأما صفات الله فهي كاملة تليق به سبحانه لا يشابه خلقه، وليس فيها نقص ولا عيب، بل هي صفات تليق بالله سبحانه وتعالىٰ، لا يشابه فيها خلقه جل وعلا". فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (٣/ ١٥٨).

قوله: (وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَادَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ)، سمّت **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الأعمال دينًا بخلاف قول المرجئة.

والمداومة علىٰ الطاعات قد حث عليها النبي ﷺ في غير ما حديث، فقد قال ﷺ: «**يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتىٰ تملوا، وإن أحب الأعمال إلىٰ الله ما دام وإن قل**». سيأتي برقم (٥٨٦١).

وقال ﷺ: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يُدْخِلَ أحدَكُم عملُهُ الجنةَ، وأن أحب الأعمال إلىٰ الله أدومها وإن قل**». سيأتي برقم (٦٤٦٤). وكما قيل: قليلٌ دائم خير من كثير منقطع، وأشار في هذا الحديث إلىٰ أن الشأن ليس بكثرة العمل، وأن الله لن يدخله الجنة بعمله، بل باتباعه، وإحسانه في العمل، وإخلاصه لله رب العالمين، وبهذا يكون الإيمان، والمحافظة عليه، وهذا هو هدي النبي ﷺ في حياته وعبادته، فقد سئلت **زوجه أم المؤمنين عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عن عمله ﷺ،

قالت: «**كان عمله ديمة، وأيكم يطيق ما كان رسول الله ﷺ يطيق**». سيأتي برقم (١٩٨٧).

وعنها رضي الله عنها، قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملًا أثبته**». أخرجه مسلم (٧٤٦).

وكان السلف من الصحابة -رضوان الله عليهم- ومن بعدهم يحافظون علىٰ المستحبات والمندوبات، فضلا عن الواجبات، فعن **عائشة** رضي الله عنها أنها كانت تصلي الضحىٰ ثماني ركعات ثم تقول: **"لو نشر لي أبواي ما تركتها"**. **صحيح**: أخرجه مالك في الموطأ (٥٢٠) وابن أبي شيبة (٤٨٦٦)، وهو في هداية الرواة (١٢٧٠). فكانت تداوم وتواظب عليها.

وعن عمرو بن أوس، قال: حدثني عنبسة بن أبي سفيان، في مرضه الذي مات فيه بحديث يتسار إليه، قال: سمعت **أم حبيبة** رضي الله عنها، تقول: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**من صلىٰ اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة، بني له بهن بيت في الجنة**». قالت **أم حبيبة**: **"فما تركتهن منذ سمعتهنّ من رسول الله ﷺ"**، وقال **عنبسة**: **"فما تركتهن منذ سمعتهن من أم حبيبة"**، وقال **عمرو بن أوس**: **"ما تركتهن منذ سمعتهن من عنبسة"** وقال **النعمان بن سالم**: **"ما تركتهن منذ سمعتهن من عمرو بن أوس"**. أخرجه مسلم (٧٢٨).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ أنه كان يحدث عن **علي بن أبي طالب** رضي الله عنه-، أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي ﷺ تسأله خادمًا، فقال: «**ألا أخبرك ما هو خير لك منه؟ تسبحين الله عند منامك ثلاثًا وثلاثين، وتحمدين الله ثلاثًا وثلاثين، وتكبرين الله أربعًا وثلاثين**». ثم قال سفيان: إحداهنَّ أربع وثلاثون، **فما تركتها بعد**، قيل: ولا ليلة صفين؟ قال: **"ولا ليلة صفين"**. سيأتي برقم (٥٣٦٢). وزاد في الحديث: قال **عليّ** رضي الله عنه-: **"ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ"**، قيل له: ولا ليلة صفين؟ قال: **"ولا ليلة صفين"**. أخرجه مسلم (٨٠). يعني: يوم القتال في ذاك الوقت.

فمن داوم علىٰ العمل الصالح فهو متأس بالأنبياء والمرسلين، والصحابة والصالحين، ومن فضائل المداومة علىٰ العمل الصالح نيل محبة الله -جل وعلا-، فإنّ الله تعالىٰ يقول في الحديث الإلهي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**». سيأتي برقم (٦٥٠٢).

وورد أن رسول الله ﷺ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا،**

ما تقول: ذلك يبقي من درنه». قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: «**فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا**». متفق عليه. وما نال هذا الخير الكثير إلا بمداومته علىٰ تلك الطاعة.

ومن جميل ما في المواظبة والمداومة، ما قاله ﷺ: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالىٰ له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا**». سيأتي برقم (٢٩٩٦). فلا ينقطع الأجر بمرضه.

فعلىٰ العبد أن يسأل الله دائمًا الإعانة علىٰ العمل والمداومة عليه، لذلك قال النبي ﷺ **لمعاذ بن جبل** رضي الله عنه-: «**يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني علىٰ ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**». صحيح: أخرجه أبو داود (١٥٢٢).فلولا إعانة الله وتوفيقه علىٰ ذلك لما استطاع العبد المداومة علىٰ الطاعة؛ وكان ﷺ يستعيذ بالله من الحور بعد الكور -أي: الرجوع بعد التقدم-، ويستعيذ بالله من العجز والكسل.

وعلىٰ العبد أن يداوم علىٰ سؤال الله الثبات؛ فإنها دعوة الصالحين من عباد الله، قال تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾ [آل عمران: ٨].

وعن **أنس** رضي الله عنه- قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**». صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٤٠).

وعن **النواس بن سمعان الكلابي** رضي الله عنه-، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**» وكان رسول الله ﷺ يقول: «**يا مثبت القلوب، ثبت قلوبنا علىٰ دينك**». صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٩٩)، وهو في الصحيحة (٢٠٩١).

فيه الحض علىٰ التخفيف في أعمال النوافل، ويتضمن الزجر عن التشديد والغلو فيها، قال **القرطبي** رحمه الله: "وسبب ذلك أنّ التخفيف يكون معه الدوام والنشاط، فيكثر الثواب؛ لتكرار العمل، وفراغ القلب، بخلاف الشاق منها، فإنه يكون معه التشويش، والانقطاع غالبًا".

وفيه مشروعية الاقتصاد في العبادة.**وفيه** كراهة التنطع، والتعمق في العبادة. **وفيه** أنّ الله تعالىٰ يعامل عبده بما يعامله به هو، فإنّ أدام الإقبال عليه، أقبل عليه دائمًا، وإن أعرض عنه أعرض عنه، جزاءً وفاقًا.

فيه أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة في حقه ﷺ .

فيه تنبيه وتعليم الأهل وعدم السكوت عن أخطائهم.

فيه عدم الغلو في الأشخاص بعمل يظهر منهم حتىٰ يعرض علىٰ أهل العلم.

٣٣- بَابُ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]. ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]. وَقَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]. فَإِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الكَمَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ.

قوله: **(بَابُ زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ)**، هذا باب في بيان زيادة الإيمان ونقصانه، وهذا هو مذهب المصنف وأهل الحديث وسلف هذه الأمة، وذكر قبل هذا الباب الدوام علىٰ العمل؛ كي لا ينقص الدين والإيمان، ولذلك أتبعه بهذا الباب الذي في التحذير من نقص الإيمان.

وذكر -أيضًا- في الباب الأول من كتاب الإيمان الأدلة علىٰ زيادة الإيمان، وهي متضمنة لنقصانه.

ويحتمل أنه فصلها عن أختها، وهي زيادة الإيمان بزيادة الطاعات، للردِّ علىٰ المرجئة والخوارج، بعدما ذكر النفاق وأمور الجاهلية وشعبها؛ ليبين أنّ المعاصي تؤثر في الإيمان، وتضره، وأنّ المعاصي تنقصه ولا تذهب به جملة، فيكون في هذا ردٌّ علىٰ الخوارج، الذين يذهبون به جملة، ولا يقولون بنقصانه.

قال **ابن مندة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والأفعال المنهي عنها التي بفعلها يستحق نقصان الإيمان".الإيمان (١/ ٣٦٢).

وقال **العدني** في كتابه "الإيمان" (ص ١٠١): "باب نقصان الإيمان بنقصان الطاعات. واستدل بحديث: «**ناقصات دين**»".

والإيمان يتفاضل ليس في الأعمال الظاهرة فحسب، بل أيضًا يتفاضل في أصل الإيمان في القلب؛ لأنّ إقرار القلب يتفاوت؛ فإنّ خبر الواحد لا يساوي خبر الاثنين في الطمأنينة، وفي قصة إبراهيم -عليه السلام- أكبر دليل علىٰ هذا، فقد قال الله تعالىٰ فيها: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فيدلُّ علىٰ أنّ ما في القلب من الإقرار يتفاوت، فيكون أحيانًا اطمئنانًا، ويكون أحيانًا دون ذلك.

ولهذا قسَّمَ العلماء اليقين إلىٰ ثلاثة أقسام: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، كما دلّ علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾ [التكاثر: ٥- ٧]، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾ [الواقعة: ٩٥]. وهذا يدلُّ علىٰ

أنّ اليقين -فضلًا عن الإيمان- يتفاوت، فكيف بالإيمان؟! وبذلك يصير قول المخالفين في هذه المسألة باطلًا بالحس الواقع، وبالشرع الوارد.

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾)، استدل المصنف بقول الله تعالىٰ: ﴿**وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، فمِنْ لازمِ زيادةِ الهدىٰ أن يزيد الإيمان؛ لأنّ الإنسان كلّما ازداد علمًا بالله وآياته وصفاته ازداد إيمانًا، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿**وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً**﴾ [مريم: ٧٦]. قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويُفَسَّر هذا الهدىٰ بما في القلوب من الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، واليوم الآخر، وتفاصيل ذلك.

ويفسر بزيادة ما يترتب علىٰ ذلك من الأعمال الصالحة، إما القائمة بالقلوب كالخشية لله، ومحبته، ورجائه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، ونحو ذلك، أو المفعولة بالجوارح كالصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد والذكر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك، وكلُّ ذلك داخلٌ في مسمَّىٰ الإيمان عند السلف وأهل الحديث ومن وافقهم". فتح الباري (١/ ١٦٨).

وعن **حذيفة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا: «**أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة** ...». الحديث. متفق عليه.

وعن **عبدالله بن حبيب** قال: "حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرىٰ حتىٰ يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: **فتعلمنا العلم والعمل**". **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٢٣٤٨٢)، وغيره.

وعن **جندب بن عبدالله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيانٌ حزاورةٌ، فتعلمنا الإيمان قبلأن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانًا". **صحيح**: صحيح ابن ماجه (٥٢).

وعن **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-قال: "لقد لبثنا برهة من دهر وأحدنا ليؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، تنزل السورة علىٰ محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما يتعلم أحدكم السورة، ولقد رأيت رجالًا يؤتىٰ أحدهم القرآن قبل الإيمان يقرأ ما بين فاتحته إلىٰ خاتمته ما يعرف حلاله ولا حرامه ولا آمره ولا زاجره ولا ما ينبغي أن يوقف عنده

منه وينثره نثر الدقل". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن منده في الإيمان (١٠٦) وسعيد بن منصور وغيرهما .

وقوله: (﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾)، التصريح بزيادة الإيمان، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً**﴾ [الأنفال: ٢].

وقال: (﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾)، فيها دلالةٌ علىٰ زيادة الإيمان، ووجه ذلك ما قاله البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِذَا تَرَكَ شَيْئًا مِنَ الكَمَالِ فَهُوَ نَاقِصٌ)، فما اكتمل يومئذ لابدّ وقد كان ناقصًا، وكما أنه يكتمل فهو ينقص.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فدلّ علىٰ أنّ الدين ذو أجزاء يكمل بكمالها وينقص بفوات بعضها". فتح الباري (١/ ١٦٩).

وقال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: "شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالىٰ: ﴿**ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء**﴾ وقال: ﴿**لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾.

وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه ولا يكون به كافرًا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة**﴾. وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك. فقال: لسعد بن معاذ: كذبت والله؛ لا تقتله ولا تقدر علىٰ قتله؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احتملته الحمية. ولهذه الشبهة سمىٰ عمر حاطبًا منافقًا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «**إنه شهد بدرًا**» فكان عمر متأولًا في تسميته منافقًا للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة؛ كذبت لعمر الله لنقتلنه؛ إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين؛ هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق وإن كان قال ذلك لما رأىٰ فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين. ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعًا واحدًا بل فيهم المنافق المحض؛ وفيهم من فيه إيمان ونفاق؛ وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان؛ ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق علىٰ

ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك". مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٥٢٣).

فيه تنبيه إلىٰ أهمية تعليم الشباب المراهق وكذا من أسلم حديثًا الإيمان وواجباته وهو مما في القلوب من المحبة لله والخشية والخوف والإخلاص ونحو ذلك قبل تعليمهم وتحفيظهم القرآن كي ينتفعوا به، وما نراه اليوم من تعليم القرآن وتحفيظه قبل أو دون تعليمهم الإيمان فهو مخالف لعمل السلف فلذلك لا نجدهم ينتفعون به إلا قليلًا.

٤٤- حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ (قمحة) مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ (النملة الصغيرة) مِنْ خَيْرٍ».

قَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ: قَالَ أَبَانُ: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مِنْ إِيمَانٍ» مَكَانَ «مِنْ خَيْرٍ»(٤٩٧) (٤٩٨).

أطرافه في: (التفسير٤٤٧٦، الرقاق٦٥٦٥، التوحيد٧٤١٠، ٧٤٤٠، ٧٥٠٩، ٧٥١٠، ٧٥١٦).

الشَّرْح

قوله: (يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ... مِنْ إِيمَانٍ)، ذكرُ الأوزان-وكلُّها في القلب-؛ **يدل علىٰ**: أنَّ ما في القلب يتفاوت، **ويدلُّعلىٰ**: زيادة الإيمان ونقصانه.

فيه وجوب النطق بالشهادتين. **وفيه** التلازم بين الظاهر والباطن، ومواطأة اللسان لما في القلب.

ويوضِّحه: حديث **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عن النبي ﷺ؛ وفيه: «**فمن جاهدهم بيده؛ فهو**

---

(٤٩٧)في هذه المتابعة فائدتين:**الأولىٰ**: تصريح قتادة بالسماع، فإن قتادة يدلس؛ فأراد المصنف أن يبين علمه برواية التحديث، مع أنَّ العلماء تلقوا عنعنة قتادة في الصحيحين-بالقبول لها وتمشيتها-.
الثانية: لفظة: «**من إيمان**» مكان «**من خير**»، ففيها التصريح بما بوَّب له، وإن كان الخير يدخل في الإيمان.
(٤٩٨)وأخرجه مسلم (١٩٣)، والترمذي (٢٥٩٣)، وابن ماجه (٤٣١٢).

مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه؛ فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه؛ فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل». أخرجه مسلم (٥٠).

ويفسِّره ويبيِّن مدلوله: حديث **أبي سعيد الخدري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**». أخرجه مسلم (٤٩).

فدلَّ علىٰ: أنَّ الإيمان لا يزال يضعُف بتخلُّف تلك المراتب؛ وهو النقصان، وتحصيلُها؛ هو زيادته.

ومما يزيد المسألة وضوحًا -ويدلُّ علىٰ: أنَّ الإيمان ينقص-: قول النبي ﷺ: «**إنَّ الإيمان ليَخْلَق** (يصير باليًا قديمًا) **في جوف أحدكم كما يخلَقُ الثوب، فاسألوا الله أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم**». صحيح: أخرجه الطبراني (١٤/ ٧٠) برقم (١٤٦٦٨)؛ وهو في الصحيحة (١٥٨٥).

فدلَّ هذا علىٰ نقصان الإيمان، **وأنَّ** الأصل في الإيمان القلب، **وأنَّ** قول اللِّسان يؤثر في القلب، **ويدلُّ** علىٰ الترابط بين الجوارح والقلب، والتلازمِ بينهما.

ومن ذلك: حديث **أبي سعيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أيضًا، أنَّ النبي ﷺ قال: «**بينا أنا نائم، رأيت الناس يُعرضون عليَّ وعليهم قُمُصٌ: منها ما يبلغ الثُدِيّ، ومنها ما دون ذلك، وعُرض عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرُّه. قالوا: فما أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّين**» متفق عليه.

فدلَّ هذا: علىٰ زيادة الإيمان في أقوام، ونقصانه في آخرين.

ومن الأدلة -أيضًا- **علىٰ نقصان الإيمان**: ما جاء في الصحيحين من حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينهب نُهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها بأبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن**». وهذا لفظ مسلم.

فنفىٰ عنه **كمال الإيمان الواجب** بفعل هذه الكبائر؛ مما دلَّ علىٰ نقص الإيمان بفعلها.

وعن **حنبل** قال: قلت **لأبي عبد الله**: إذا أصاب الرجلُ ذنبًا، مِن زنا أو سرق يزايله إيمانه؟ قال: هو ناقص الإيمان؛ فخُلِع منه كما يُخْلَع الرجل من قميصه، فإذا تاب وراجع؛ عاد إليه إيمانه. السُّنة للخلال (٣/ ٦٠٧).

قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه: "القول الصحيح الذي قاله المحققون أنَّ معناه: **لا يفعل**

هذه المعاصي وهو كامل الإيمان؛ وهذا من الألفاظ التي تطلق علىٰ نفي الشيء ويُراد نفيُ كماله؛ ومختارهُ كما يقال: لا علمَ إلا ما نفع، ولا مالَ إلا الإبلُ، ولا عيشَ إلا عيشُ الآخرة.

وإنما تأوَّلناه علىٰ ما ذكرناه؛ لحديث **أبي ذر** -وغيره-: «**من قال لا إله إلا الله؛ دخل الجنة، وإن زنىٰ وإن سرق**». -سيأتي برقم (٥٨٢٧)-، وحديثِ **عبادة بن الصامت** الصحيح المشهور أنهم بايعوه ﷺ علىٰ أن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا إلىٰ آخره، ثم قال لهم ﷺ: «**فمن وفىٰ منكم؛ فأجره علىٰ الله، ومن فعل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا؛ فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب؛ فهو إلىٰ الله -تعالىٰ-: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه**» متفق عليه.

فهذان الحديثان، مع نظائرهما في الصحيح، مع قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، **ومع إجماع أهل الحق** علىٰ أنَّ الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يُكَفَّرُون بذلك؛ **بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان**، إن تابوا؛ سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مُصِرِّين علىٰ الكبائر؛ كانوا في المشيئة، فإن شاء الله -تعالىٰ- عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة، وكلّ هذه الأدلة تضطرنا إلىٰ تأويل هذا الحديث وشبهه". شرح النووي (٢/ ٤١).

وعن **أبي أُمامة** رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَن أحبَّ لله وأبغضَ لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله؛ فقد استكمل الإيمان**». **صحيح**: صحيح أبي داود (٤٦٨١).

وفي **الحديث** عن النبي ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٥٦٧)، وهو في الإيمان لابن أبي شيبة (٧)؛ قال **البغوي** رحمه الله: "**يريد: لا إيمان له كاملًا**". شرح السنة (١/ ٩٠).

وقال ﷺ: «**الطهور شطر الإيمان**». أخرجه مسلم (٢٢٣).

وعن **أبي الدرداء** رضي الله عنه- قال: "**مِن فِقه العبد: أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد: أن يعلم: أيزدادُ هو أم ينقص؟**"[٤٩٩]. **لا بأس به**.

---

(٤٩٩)أخرجه اللالكائي (٥/ ١٠١٦)، برقم (١٧١٠). أنا محمد بن أحمد البصير، قال: أنا عثمان بن أحمد، قال: نا حنبل، قال: حدثني أبوعبد الله، -يعنيك أحمد بن حنبل- قال: نا يزيد، قال: نا حريز بن عثمان، قال: سمعت أشياخنا، أو بعض أشياخنا، أن **أبا الدرداء** فذكره.

قلت: ولا يضرُّ الإبهام بالشيوخ؛ لأنهم جماعة -وهم مع ذلك من التابعين-، وأيضًا: فإنَّ الراوي عنهم هو حريز بن عثمان لا يروي إلا عن ثقة. قال أبو داود: وشيوخ حريز كلهم ثقات.

ويروىٰ ذلك عن عبد الله بن عمرو بن هند الجَمَلي عن **علي بن أبي طالب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "الإيمان يبدأ نقطة بيضاء في القلب: كلما ازداد الإيمان ازدادات بياضًا؛ حتىٰ يبيض القلب كله، والنفاق يبدأ نقطة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق؛ ازدادت حتىٰ يسودَّ القلب كله، والذي نفسي بيده لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود". **رجاله ثقات، وإسناده منقطع**:أخرجه أبو عبيد في الغريب، وابن أبي شيبة (٣٠٩٥٧).

عن**جندب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة، «**فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانا**» صحيح[٥٠٠].

وعن **عبدالله ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "الصبر نصف الإيمانِ، واليقينُ الإيمانُ كلُّه". إسناده صحيح: أخرجه الخلال في السنة (٨١٧).

وقال **أبوجعفر الخطمي** عن أبيه، عن جده عن **عمير بن حبيب**[٥٠١]قال: **"الإيمان يزيد وينقص"**، قيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: "إذا ذكرنا الله -عز وجل- وحمدناه وخشيناه؛ فذلك زيادته، فإذا غفلنا وضيعنا؛ فذلك نقصانه". إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة في "الإيمان" (١٤)، وعبدالله بن أحمد في "السنة" (٦٨٠،٦٢٤).

وعن **هشام بن عروة** قال: ما نقصَت أمانةُ عبد قطُّ؛ إلا نقصَ إيمانه". إسناده صحيح: أخرجه عبدالله بن أحمد في السنة (٧٩٥).

وعن الفضيل بن يسار قال: قال **محمد بن علي**: هذا الإسلام ودوَّر دائرة في وَسْطِها أخرىٰ- وهذا الإيمان الذي في وسطها مقصوراً في الإسلام-؛ قال: قال النبي ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني؛ وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها؛ وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق؛ وهو مؤمن**».

ثم قال: **"يخرج من الإيمان إلىٰ الإسلام، ولا يخرج من الإسلام، فإذا تاب؛ تاب الله عليه. قال: ورجع إلىٰ الإيمان"**. أخرجه أبوبكر الخلال في السنة (١٠٨٣).

قال **الآجري**: ما أحسن ما قاله محمد بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-؛ وذلك: أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛

---

(٥٠٠)عن حماد بن نجيح، نا أبو عمران الجوني قال ابن منده: البخاري استشهد بحماد هذا وهو صالح. الإيمان (١/ ٣٧٠)، ووثقه ابن ماجه صحيح ابن ماجه (٦١)، والإبانة الكبرىٰ لابن بطة (٢/ ٨٤٨)

(٥٠١)هو عمير بن حبيب بن خماشة الأنصاري الخطمي، له صحبة، ذكر البخاري أنه بايع تحت الشجرة.

يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي.

وقال **الحميدي**: سمعت **ابن عيينة** يقول: "**الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص**"، فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد! لا تقولنَّ: "يزيد وينقص"؛ فغضب وقال: "**اسكت يا صبيُّ، [بلىٰ!]**[٥٠٢]؛ **حتىٰ لا يبقىٰ منه شيء**"[٥٠٣].

وقال **الأوزاعي**: "الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، **فمن زعم أنَّ الإيمان يزيد ولا ينقص؛ فاحذروه فإنه مبتدع**". الشريعة للآجري (٢٤٥).

قال الإمام **الشافعي** -رحمه الله تعالىٰ-: "**الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص**".

وسأله رجل: أيُّ الأعمال عند الله أفضل؟ فقال: "**ما لا يَقبلُ عملًا إلا به**". قال: وما ذاك؟ قال: "**الإيمانُ بالله الذي لا إله إلا هو: أعلىٰ الأعمال درجة، وأشرفها منزلة، وأسناها حظًا**"، قال الرجل: ألا تخبرني عن الإيمان؛ قول وعمل أو قول بلا عمل؟ فقال: "**الإيمان عمل لله، والقول بعض ذلك العمل، وإنَّ الإيمان حالات ودرجات وطبقات: فمنها التامُّ المنتهي تمامُه، والناقصُ البيِّن نقصانُه، والراجحُ الزائد رجحانُه**". فقال الرجل: وإن الإيمان لَيتمّ وينقص ويزيد؟ قال الشافعي: "**نعم**". قال: وما الدليل علىٰ ذلك؟ قال: "إنَّ الله -جلَّ ذِكره- فرضَ الإيمان علىٰ جوارح بني آدم فقسَّمه فيها، وفرَّقه عليها، فليس من جوارحه جارحةٌ إلا وقد وُكِّلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها بفرضٍ من الله -تعالىٰ-.

فمن لقي الله حافظًا لصلواته حافظًا لجوارحه، مؤديًا بكل جارحة من جوارحه ما أمر الله به وفرض عليها؛ لقي الله مستكملَ الإيمان من أهل الجنة.

ومن كان لشيءٍ منها تاركًا متعمدًا، مما أمر الله به؛ لقي الله ناقص الإيمان". قال الرجل: قد عرفت نقصانه وإتمامه، فمن أين جاءت زيادته؟ فقال **الشافعي**: "قال الله -جلَّ ذكره-: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ [التوبة: ١٢٤]. ولو كان هذا الإيمان كله واحدًا لا نقصان فيه ولا زيادة؛ لم يكن لأحدٍ فيه فضل، واستوىٰ الناس وبطل التفضيل؛ ولكن: بتمام الإيمان؛ دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان؛ تفاضَل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من

---

(٥٠٢) **إسناده صحيح**: أخرجه الآجري (٢٦٨)، ومن طريقه ابن بطة (١١٥٥).

(٥٠٣) عقيدة أبي حاتم (ص١٥٠).

الإيمان؛ دخل المُفرِّطون النار". مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٣٨٧- ٣٩٣).

قال الإمام **ابن خزيمة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "بَابُ ذكرِ الأخبار المصرِّحة عن النبي ﷺ أنه قال: إنما يخرج من النار من كان في قلبه في الدنيا إيمان دون من لم يكن في قلبه في الدنيا إيمان -ممن كان يقر بلسانه بالتوحيد خاليًا قلبه من الإيمان-، مع البيان الواضح أن الناس يتفاضلون في إيمان القلب ضد قول من زعم من غالية المرجئة أن الإيمان لا يكون في القلب، وخلاف قول من زعم من غير المرجئة أن الناس إنما يتفاضلون في إيمان الجوارح الذي هو كسب الأبدان؛ فإنهم زعموا أنهم متساوون في إيمان القلب الذي هو التصديق وإيمان اللسان الذي هو الإقرار، مع البيان أن للنبي ﷺ شفاعات يوم القيامة علىٰ ما قد بينتُ -قبلُ-، لا أن له شفاعة واحدة فقط". التوحيد لابن خزيمة (٢/ ٧٠٢).

٤٥- حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ الصَّبَّاحِ، سَمِعَ جَعْفَرَ بْنَ عَوْنٍ، حَدَّثَنَا أَبُوالعُمَيْسِ، أَخْبَرَنَا قَيْسُ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ **عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَجُلًا، مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ؛ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، قَالَ عُمَرُ: «قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»(٥٠٤).

أطرافه في: (المغازي ٤٤٠٧، التفسير ٤٦٠٦، الاعتصام٧٢٦٨).

الشَّرْح

قوله: (**آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ**)، يدلُّ علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه؛ كما هو مقرَّر عند أهل السنة والجماعة.

وقوله: (**لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا**): أي: لعظَّمناه وجعلناه عيدًا لنا في كل سنة؛ لعظم

(٥٠٤)وأخرجه مسلم (٣٠١٧)، والترمذي (٣٠٤٣)، والنسائي (٣٠٠٢، ٥٠١٢).

ما حصَل فيه من إكمال الدِّين.

قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية حجَّة في زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأن هذه الآية نزلت يوم عرفة في حجة الوداع، يومَ كَمُلتِ الفرائض والسنن واستقرَّ الدِّين، وأراد الله قبض نبيه؛ فدلَّت علىٰ أنَّ كمالَ الدِّين إنما حصل بتمام الشريعة: فمن حافظ علىٰ التزامها؛ فإيمانه أكمل من إيمان من قصّر في ذلك وضيَّع". شرح البخاري (١/ ١٠٢).

وكمالُ الدِّين لا يتوقف علىٰ كمال أحكامه وشرائعه، بل وكمالُ أموره في قلوب المؤمنين -وهو تابع لكمال شرائعه-، فلو اكتمل في القلوب؛ انبعث في نشاطٍ ورغبة وخوف ورهبة، وقويَ يقينه وسكن قلبه إلىٰ مولاه؛ فامتثل الأوامر واجتنب المناهي، وكلما زاد الإيمان وكمُل؛ كلما زاد اجتهادًا وطمأنينة وسكينة ومحبة ورغبة لأوامر الله وشرائعه وأحكامه، واطمأن قلبه بها ولها، وازداد شوقًا فيما عند الله، ورغب في عظيم ثوابه وجزيل عطائه.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والسكينةُ طمأنينةٌ في القلب غيرُ علمِ القلب وتصديقِه؛ ولهذا قال يوم حنين: ﴿**ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا**﴾[التوبة: ٢٦]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا**﴾[التوبة: ٤٠]، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار؛ وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم؛ **دلَّ** علىٰ أنَّ الإيمان المزيدَ حالٌ للقلب وصفةٌ له وعملٌ؛ مثلُ طمأنينتِه وسكونِه ويقينِه.

واليقينُ: قد يكون بالعملِ والطمأنينة؛ كما يكون بالعلمِ.

والرَّيْبُ -المنافي لليقين-: يكون ريبًا في العلم، وريبًا في طمأنينة القلب؛ ولهذا جاء في الدعاء المأثور: «**اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا**». حسن: أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٠١).

وفي حديث **الصديق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ أنه قال: «**سلوا الله العافية واليقين؛ فما أعطي أحدٌ بعد اليقين شيئًا خيرًا من العافية؛ فسلوهما الله -تعالىٰ-**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)،

وغيره، وهو في تحقيق الإيمان لابن تيمية (٢١٧).

فاليقينُ عند المصائب -بعدَ العلم بأن الله قدَّرها- سكينةُ القلب وطمأنينته وتسليمه؛ وهذا من تمام الإيمان بالقدر -خيره وشرِّه-؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [التغابن: ١١]؛ قال **علقمة**: "هو الرجل تصيبه المصيبةُ فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضىٰ ويسلم". أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧٢٣٣). ويروىٰ عن ابن مسعود رضي الله عنه-.

وأما قوله -تعالىٰ-: ﴿**يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾، هُدَاه لقلبه؛ هو زيادة في إيمانه". الإيمان الكبير لابن تيمية (١١٩).

وفيها أنَّ دينَ الله اكتمل، ولا يمكن ولا يجوز الزيادةُ فيه، وأيَّةَ زيادةٍ فيه؛ فهي من البدع المحدثة المردودة علىٰ صاحبها؛ وفي الحديث: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**». **متفق عليه.**

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية**: "**البدعةُ**: هي الدِّين الذي لم يأمرِ اللهُ به ورسولُهُ، فمن دانَ دينًا لم يأمر الله ورسوله به؛ فهو مبتدع بذلك، وهذا معنىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ**﴾ [الشورىٰ: ٢١].

ولا ريبَ أنَّ هذا يُشكِل علىٰ كثير من الناس؛ لعدم عِلمهم بالنصوصِ ودِلالتها علىٰ المقاصد، ولعدم علمهم بما أُحدِثَ من الرَّأيِ والعملِ، وكيف يردُّ ذلك إلىٰ السنة؛ كما قال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه-: "**رُدُّوا الجَهالات إلىٰ السُّنة**". الاستقامة لابن تيمية(١/ ٥).

وفيها أنَّ الدِّينَ ما كان آنذاك؛ يوم قال الله -تعالىٰ-: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ ...**﴾: "**فما لم يكن يومئذ دينًا؛ لا يكون اليوم دينًا، ولا يصلُح آخِرُ هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أولها**"؛ كما قال الإمام **مالك** رحمه الله.

فلنحرص علىٰ الدِّين الأول، والأمر العتيق-قبل أن يُحْدِثَ الناسُ ما أحدثوا فيه-؛ قال **ابن مسعود** رضي الله عنه-: "وإياكم والتبدُّعَ، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق؛ **وعليكم بالعتيق**". أخرجه الهيتمي في مجمع الزوائد (١/ ١٣١)، وهو في الصحيحة (٤٢).

وكان **ابن مسعود** رضي الله عنه- يوصي الرجالَ والنساءَ ويقول: "**من أدركَ منكم من امرأةٍ أو**

رجلٍ؛ فالسَّمتَ (أي: الطريق)**الأول! السمتَ الأول!؛ فإنَّا علىٰ الفطرة"**. صحيح: أخرجه الدارمي (٢١٣).

وقال **بعض التابعين**: **"وُلدتُّ قبل الاعتزال"**، وقال **الشعبي**: **"كنتُ ولا رفضَ في الدنيا"**، وذُكِرَ القدَرُ عند **مجاهد**؛ فقال: **"كفرتُ بدينٍ ولدتُّ قبله"**.

فإياك وما يسمونه بـ: **"إسلام اليوم"**، و**"الإسلام المعاصر"**-ونحو هذا مما أحدثه أهل الضلال والحركيون-، و**"الإسلام الشيعي"**، و**"الإسلام الصوفي"**؛ فلا يوجد إلا دينٌ واحدٌ، وإسلامٌ واحدٌ -الذي ارتضاه الله لعباده قبل أن يحدث الناس ما أحدثوا-؛ قال **ابن مسعود** رضي الله عنه- : **"يا أيها الناس إنكم ستُحدِثون ويحدَث لكم، فإذا رأيتم محدَثًا؛ فعليكم بالأمر الأول"**.

صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧١٧٧)،والمروزي في السنة (٨٠)، وصحَّحه ابن رجب في جامع العلوم والحكم.

وفيها أنَّ الدِّينَ شاملٌ بنصوصه لكلِّ متطلبات الناس، وليس بحاجة إلىٰ رأي فلانٍ، ولا فلسفة فلان؛ ويفي بجميع مسائل الشرع، وهي متضمنةٌ نصوصَ الشريعة من الكتاب والسنة.

وليس لأحدٍ أن يقول: إنَّ السنة لا تفي بأبواب الشريعة، سيَّما فروع الفقه، ويصُدَّ بهذا القول عن اتباعها، أو تعلمها، أو الحرص عليها-كأبي المعالي الجويني-؛ فعن **أبي ذر** رضي الله عنه قال: **"تركنا رسولُ اللهِ ﷺ وما طائر يقلِّبُ جناحيه إلا هو يذكرنا منه علمًا"**. فقال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يُقَرِّبُ من الجَنَّةِ ويباعدُ من النارِ إلا وقد بُيِّنَ لكم**».صحيح: أخرجه أحمد والطبراني وهو في الصحيحة (١٨٠٣).

قال **وكيعٌ** رحمه الله: **"ما قال أصحابُ الرأيِ في شيء يُحتاجُ إليه؛ إلا ونحنُ نروي فيه بابًا"**.

صحيح: أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٧٨٩).

وقد سُئل شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله عمن يقول: إنَّ النصوص لا تفي بعُشرِ مِعشار الشريعة، هل قوله صواب؟

الجواب: "الحمد لله رب العالمين، هذا القول قاله طائفةٌ من أهل الكلام والرأي كأبي المعالي وغيره، وهو خطأ؛ بل الصواب الذي عليه جمهور أئمة المسلمين: أنَّ النصوصَ وافيةٌ بجمهور أحكام أفعال العباد، ومنهم من يقول: إنها وافية بجميع ذلك.

وإنما أنكر ذلك من أنكره؛ لأنه لم يفهم معاني النصوص العامة التي هي أقوالُ اللهِ ورسولِهِ

وشمولها لأحكام أفعال العباد؛ وذلك أنَّ الله بعث محمدًا ﷺ بجوامع الكلم، فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التي هي قضية كلية وقاعدة عامة تتناول أنواعًاكثيرة، وتلك الأنواع تتناول أعيانًا لا تحصىٰ؛ فبهذا الوجه تكون النصوصُ محيطةً بأحكام أفعال العباد.

والكلامُ في **عامة مسائل النِزاع بين المسلمين إذا طُلب ما يفصِل النِزاعَ من نصوص الكتاب والسنة وُجد ذلك، وتبيَّن أنَّ النصوصَ شاملةٌ لعامة أحكام الأفعال**. وكان الإمام **أحمد**يقول: إنه ما من مسألة يُسأل عنها إلا وقد تكلَّم الصحابة فيها أو في نظيرها، والصحابةُ كانوا يحتجُّون في عامة مسائلهم بالنصوص -كما هو مشهور عنهم-، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأي ويحتجون بالقياس الصحيح -أيضًا-". إعلام الموقعين (٢/ ٩).

قال ابن القيم: " والنصوص محيطة بأحكام الحوادث بالكلية عند المجتهدين قد تخفي موافقته أو مخالفته" إعلام الموقعين (١/ ٣٢)

فعلىٰ المسلم أن يعتصم بالكتاب والسنة؛ ففيهما الكفاية والغنية، وفيهما الخير والبركة: فمن رام النصَّ؛ وجدَه، فإن لم يعلمِ النصَّ علىٰ الحكم مَصرَّحًا به؛ فبطريقٍ من طُرقِ الاستنباطِ، فإن لم يجد؛ فبإجماع السلف، فإن لم يعلم؛ فبأقوال الصحابة وأفعالهم؛ وينبغي الاعتناء -أيضًا- بآثار الصحابة والسلف؛ وفقههم أعظم فقه، وكما أنَّ عقيدتهم أسلمُ عقيدةٍ؛ فمنهجهم وعقيدتهم وأقوالهم أسلمُ وأحكمُ وأعلمُ رضي الله عنهم.

وفيها أنَّ في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ كفايةً وغنيةً ونورًا وهدىً وبركةً وإيمانًا، والناس ليس بحاجة إلىٰ تشريعات، ولا قوانين، ولا بدع محدثة، ولا آراء، ولا فكر، ولا حركة، ولا زيادة في الدين غير ما ورد فيهما، ومن لم يكتف بالكتاب والسنة فلا كُفي بشيء، ولو عاش الرجل، ولم يقرأ كتابًا غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعكف عليهما، وورد ينهل ويرشف من معينهما، ولم يتعداهما، أغناه الله وهداه، وكفاه، ووقاه، وآواه، وقربه وأدناه، ونصره وسدده وأغناه، وأعانه ووفقه وأقناه. قال تعالىٰ: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ [العنكبوت: ٥١].

قال الحافظ **الذهبي** رحمه الله: "شرع لنا نبيُّنا ﷺ كل عبادة تُقَرِّبنا إلىٰ الله، وعلّمنا ما الإيمانُ وما التوحيدُ، وتركنا علىٰ البيضاء ليلها كنهارها؛ فأي حاجة بنا إلىٰ البدع في الأقوال والأعمال والأحوال المحدثات.

في السنة كفاية وبركةٌ، فياليتنا ننهض ببعضها علمـًا وعملاً وديانةً ومعتقدًا". جزء في التمسك بالسنن (ص ٤٦).

قال الإمام **ابن باز** رحمه الله: "لقد استوعبت شريعتنا المطهرة (كل شيء) ولله الحمد والمنة، إن دين الإسلام الحنيف قد أكمله الله، وما من شأن من شئون الدنيا والآخرة إلا وفي هذا الدين له حكم وبيان واضح جلي لمن رزق البصيرة فيه، فهو **دين كامل شامل**". فتاوىٰ (٢٣/ ٤٢٤).

فالله ورسوله والصحابة لم يدَعوا شيئًا من أمر الدين إلا بينوه لنا، وما من داء إلا وله دواء علمه من علمه وجهله من جهله، قال **البربهاري** رحمه الله: "فمن زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب رسول الله ﷺ فقد كذبهم وكفىٰ بهذا فرقة وطعنًا عليهم فهو مبتدع ضال مضل محدث في الإسلام ما ليس فيه". شرح السنة للبربهاري (٣٩).

وفيها دليلٌ علىٰ أنها من آخر ما نزل، قال **محمد بن نصر المروزي** رحمه الله: "قبض الله رسوله ﷺ إليه بعد أن أكمل للمسلمين دينهم فقال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]، نزلت ورسول الله ﷺ واقف بعرفات فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام ورجع رسول الله ﷺ فمات". يعني: بعد حجة الوداع.

وقوله: (**وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**)، بالهداية والتوفيق والنصر علىٰ الكفر وأهله وهدم معالم الجاهلية. قال تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ**﴾ [البقرة: ٢٣١]، فينبغي أن يشكر العبدُ ولا ينسىٰ هذه النعمة العظمىٰ: نعمة الإسلام والسنة، كان **أبوالعالية** يقول: "قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم ﷺ بعشر سنين، وقد أنعم الله عليَّ بنعمتين ما أدري أيهما أفضل: أن هداني للإسلام، أو لم يجعلني حروريًا". صحيح: أخرجه الفريابي في القدر (٣٥٢).

وقال **مجاهد** قال: "ما أدري أي النعمتين أعظم أن هداني للإسلام أو عافاني من هذه الأهواء". صحيح: أخرجه الدارمي (٣٠٩)، والبيهقي في الشعب (٤٥٠٨) وغيرهما.

فإنَّ ذكر النعمة هو من شكرها؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [النحل: ١١٤]، ومن شكر النعم أن نظل متمسكين مغتبطين فرحين بها، ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[يونس: ٥٨]، فيستشعر العبد أن الله تعالىٰ هو وحده

المتفضل بأن خصه وإخوانه المسلمين السلفيين بهذه النعمة الكبرىٰ، ولو شاء لجعله كافرًا وخلده في النار، ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ* فَضْلًا مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧-٨].

ويدعو الله أن يثبته علىٰ هذه النعمة ولا يغيرها، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾[النمل: ١٩]، وفي الحديث:«**اللهم احفظني بالإسلام قائمًا واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا ...**». صحيح:أخرجه ابن حبان (٩٣٤) وصححه الألباني في موارد الظمآن (٢٤٣٠)،

«**يا ولي الإسلام وأهله ثبتني علىٰ الإسلام حتىٰ ألقاك**». صحيح:أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٦١)، والبيهقي في الدعوات (٢٥٤)، وهو في الصحيحة (١٤٧٦).

وينبغي أن يخاف من زيغ القلب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

فاحذروا أن تبدلوا نعمة الله كفرًا، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فإن أكثر الناس في الضلال المبين؛ لذلك قال تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

وذكر نعمة الله -تعالىٰ- في الآية مع قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ﴾، فيه بيان لعظم المنة بالإسلام الأول الذي كان عليه الأولون السابقون من المهاجرين والأنصار الذين ﷺ ورضوا عنه، ورضي لهم ومنهم هذا الإسلام.

ومن نعمة الله علىٰ من بعدَهم أن هداهم لطريق سلفهم ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾، فلحقوا بـ: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٧]، الذين أُمرنا أن نسأل الله تعالىٰ في كل ركعة أن يلحقنا بهم، بقولنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وهذه هي السلفية التي ندعو الله أن نحيا عليها ونموت عليها، وهي نعمة ملازمة لنعمة الإسلام الأول.

وتظهر تمام المنة والنعمة، في الآخرة حين يرىٰ المؤمنون ربهم -عزوجل-، كما جاء في الحديث: «**فيتجلىٰ لهم ربهم عز وجل حتىٰ ينظروا إلىٰ وجهه -عز وجل- وهو يقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي هذا محل كرامتي فسلوني**». صحيح الترغيب والترهيب (٣٧٦١)

وفيها أنَّ هذه الآية فيها بيان ما منّ الله تعالىٰ به علىٰ هذه الأمة، حيث أكمل دينها، وأتمّ نعمه عليها، بحيث لا تحتاج إلىٰ زيادة في أمر الدين، فكلّ ما حدث بعد أن أكمله الله تعالىٰ، مما لا دليل له منه يُعتبر بدعة ضلالة، كما ثبت ذلك من حديث **عائشة** رضي الله عنها، عن النبيّ ﷺ قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردّ**»، متّفق عليه، وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ**».

وفيه فضل يوم عرفة؛ حيث إنه نزلت فيه هذه الآية الكريمة، وفيه بيان وقت، ومكان نزول هذه الآية.

وفيه ما كان عليه عمر رضي الله عنه- من العناية بمكان نزول الآية، وزمانها.

وفيه أنه استُدل بهذا الحديث علىٰ مزية الوقوف بعرفة يوم الجمعة علىٰ غيره من الأيام، لأن الله تعالىٰ إنما يختار لرسوله ﷺ الأفضل، وأن الأعمال تَشْرُف بشرف الأزمنة كالأمكنة، ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع.

قوله: (قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ...)،أشار عمر رضي الله عنه إلىٰ أن يوم نزولها يوم عيد عند المسلمين فقد نزلت يوم الجمعة، وهو يوم عيد لنا ويوم عرفة الذي يتحقق العيد بأوله.

من أسباب زيادة الإيمان، وبضد ذلك يكون نقصانه:

التقرب إلىٰ الله والتعرف إليه بتحقيق التوحيد بألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ.فإنه ولا شك كلما ازداد بها تحقيقًا ازداد إيمانًا.

فعل الفرائض والنوافل والإحسان فيها، والإصابة في صفاتها، والمكاثرة والمسارعة والمداومة في ذلك.

ترك المعاصي والمنهيات تقربًا إلىٰ الله وابتغاء وجهه سبحانه.

النظر والاعتبار في آيات الله الشرعية، ومنها العلم، وآياته الكونية المورث للعلم والعمل، ولين القلب.

الإقبال علىٰ الدار الآخرة والسعي لها، والزهد في الدنيا والإعراض عن زخرفها بملاحظة ما أعده الله لعباده الصالحين المستكملين للإيمان، وما أعده لإرضائهم.

التزام السنة النبوية والعض عليها بالنواجذ، ولو مع قلة المعاون علمًا وفهمًا وعملًا ودعوة.

كثرة سؤال الله والتضرع إليه بالثبات علىٰ دينه، وحسن العاقبة وسؤاله الهداية وحسن العمل وقبوله والاستزادة من الخير، والانطراح بين يديه لاسيما في الأوقات الفاضلة المستجابة.

ويؤخذ من الحديث أن الأعياد لا تكون بالرأي والاختراع كما يفعله أهل الكتاب من قبلنا؛ إنما تكون بالشرع والاتباع.

٣٤- بَابٌ: الزَّكَاةُ مِنَ الإِسْلَامِ

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

قوله: **(بَابٌ: الزَّكَاةُ مِنَ الإِسْلَامِ)**، هذه الترجمة لبيان ما يقرره المصنف من أن الأعمال من الإيمان، ومن تلك الأعمال: الزكاة، فمن أدَّاها زاد إيمانه، ومن قصر نقص، والمقصود أن الزكاة شعبة من شعب الايمان، وأظن أنه قال من الإسلام تأدبًا مع الحديث، وإلا فلا فرق بين أن يقول: من الإسلام أو من الإيمان، لأنهما هنا بمعنىٰ واحد، قال **ابن خزيمة**: "باب البيان: أن إيتاء الزكاة من الإيمان، إذ الإيمان والإسلام اسمان لمعنىٰ واحد".صحيح ابن خزيمة (٤/ ٦).

قوله تعالىٰ: **(﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾)**، قال **العلامة ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعنىٰ: ما أمروا بشيء إلا هذا؛ لأن العبادة هي كل ما أمر الله به، وقد اشترط فيها سبحانه شرطين: الإخلاص، وأن يكونوا حنفاء؛ أي: متبعين". شرح البخاري (١/ ١٣٢).

وهذه الآية تدل علىٰ ما ترجم له البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أن الزكاة من الإسلام؛ فإن دين القيمة هو دين الإسلام، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا أُطلق الإسلام دخل فيه الإيمان وبالعكس. وقد استدل علىٰ أن الأعمال تدخل في الإيمان بهذه الآية". فتح الباري لابن رجب (١/ ١٨)

بل قال **الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليس عليهم (أي المرجئة) أحجُّ من هذه الآية". السنة للخلال (١٠٣٨).

واستدل الأوزاعي بقوله تعالىٰ: **﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾** إلىٰ قوله **﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾** [الشورىٰ: ١٣]، وقال: **الدين**: الإيمان والعمل، واستدل بقوله تعالىٰ: **﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾** [التوبة: ١١]. السنة للخلال (١٠٢٥).

والحنيف: وهو المائل عن الضلال إلىٰ الهدىٰ.

٤٦- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ عَمِّهِ أَبِي سُهَيْلِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ،أَنَّهُ سَمِعَ طَلْحَةَ ابْنَ عُبَيْدِاللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ (أي منتشر الشعر منتفشه)، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ (شدة صوت مرتفع متكرر) وَلاَ يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّىٰ دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». قَالَ: فَأَدْبَرَ (ذهب) الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لاَ أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»(٥٠٥).

أطرافه في: (الصوم١٨٩١، الشهادات٢٦٧٨، الحِيَل٦٩٥٦).

الشَّرْح

قوله: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرَ الرَّأْسِ)، هو ضمام بن ثعلبة، كان قدومه سنة تسع من الهجرة، وفي رواية: "عَلَىٰ جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ" أي: أبركه، المراد: عند باب المسجد، كما في رواية: "وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ". مسند أحمد (٢٣٨٠).وفي رواية: "ثُمَّ عَقَلَهُ"، أي: شد علىٰ ساقه مع ذراعه حبلًا بعد أن ثنىٰ ركبته، فقال:"أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟": قالوا: لا يخلو سؤاله إما أنه كان قبل نزول النهي عن مخاطبة النبي ﷺ باسمه، وإما أنه يحمل ما صدر منه علىٰ الجهل بالشرع في قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، قوله: (فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلاَمِ)، فأمره بأعمال الإسلام الظاهرة، التي يُحْكم بها للعبد بالإسلام، وكلها من أمور الإيمان الظاهرة، والله يتولىٰ السرائر، فأمره بمباني الإسلام.

وقوله: (خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ)، فأمره بالصلوات الخمس ولَم يبدأ بالشهادتين، لأنه جاء مسلمًا علىٰ الصحيح،

(٥٠٥) وأخرجه مسلم (١١)، أبوداود (٣٩١، ٣٩٢، ٣٢٥٢)، والنسائي (١٩٩٤، ١٩٩٧، ٥٠٣٢).

ولأنه لم يسأل عنها، بل سأل عن الصلوات الخمس، وأراد أن يستثبت مما نقل له عنه.

وقوله: (وَصِيَامُ رَمَضَانَ. قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ)، وقد سبق بيان أن صيام شهر رمضان من الإيمان، وأنه لا يجب كلُّ عام -فرضًا- غير رمضان، ويأتي تتمت الكلام علىٰ ذلك في كتاب الصوم[٥٠٦] -إن شاء الله-.

وقوله: (الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لاَ، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ)، فيه دليلٌ علىٰ أن الزكاة من الإيمان، وهي من شعب الإيمان، وذكر من صفات المؤمنين أنهم يؤتون الزكاة، كما في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[المؤمنون: ٤]، وقد بُنِيَ الإسلامُ علىٰ خمس، أحدِهَا الزكاة، فهي ركنٌ ركين، وهي أخت الصلاة، وقرينتها في كتاب الله، وصحّ قول النبي ﷺ: «**خمس من جاء بهنَّ مع إيمان دخل الجنة: ...وأعطىٰ الزكاة طيبة بها نفسه**». **حسن**: صحيح أبي داود (٤٢٩)، وهو في صحيح الترغيب (٧٣٨)

وصح رسول الله ﷺ: «**أسهم الإسلام ثلاثة: الصلاة والصوم، والزكاة**». **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد مطولًا (٢٥١٦٤)، واللفظ له، وهو في صحيح الترغيب (٧٤٠)، وفي حديث آخر ثمانية، ذكرها فيه، صحيح الترغيب (٧٤١).

ومما يؤكد أنها من الإيمان: عن **عبد الله بن معاوية الغاضري** رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ من فعلهنَّ فقد طَعِمَ طَعْمَ الإيمان من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطىٰ زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام** ولا يعطىٰ الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ولكن من وسط أموالكم فإن الله لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره». **صحيح لغيره**: صحيح أبي داود (١٥٨٠)، وهو في "صحيح الترغيب" (٧٥٠)، و"الصحيحة" (١٠٤٦).

قال **ابن رجب** رحمه الله: "فالصدقة برهان علىٰ صحة الإيمان وطيب النفس بها علامة علىٰ وجود حلاوة الإيمان وطعمه .... كما قال **أبو الدرداء** في الحديث، وكان يقول: "**لا يفعل ذلك إلا مؤمن**"، وسبب هذا أن المال تحبه النفوس وتبخل به فإذا سمحت بإخراجه لله عز وجل دل ذلك علىٰ صحة إيمانها بالله ووعده ووعيده". جامع العلوم والحكم (ص ٢١٨)، بتصرف.

---

(٥٠٦) باب وجوب صوم رمضان، باب رقم (١).

وترك أداء الزكاة من شعب الكفر، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[فصلت: ٧].ولم يذكر الحج؛ لاحتمال عدم وجوبه آنذاك، بخلاف المذكورات، والله أعلم.

قوله: (وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لاَ أَزِيدُ عَلَىٰ هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ)، قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث حجة أن الفرائض تسمىٰ إسلامًا، ودل قوله: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**» علىٰ أنه إن لم يصدق في التزامها أنه ليس بمفلح، وهذا خلاف قول المرجئة". شرح البخاري (١/ ١٠٤).

فيه قبول خبر الواحد. **وفيه** جواز الاستحلاف علىٰ الحق ليحكم باليقين. **وفيه** أنّ العوام المقلدين مؤمنون؛ قال **ابن الصلاح**: " وفي هذا الحديث دلالة علىٰ صحة ما ذهب إليه أئمة العلماء: في أن العوام المقلدين[٥٠٧] مؤمنون، وأنه يكتفىٰ منهم بمجرد اعتقادهم الحق من غير شك، خلافا لمن أنكر ذلك من المعتزلة؛ وذلك أنه ﷺ قرر ضماما علىٰ ما اعتمد عليه في تعرف رسالته، وصدقه ﷺ من مناشدته ومجرد إخباره إياه بذلك، ولم ينكر عليه ذلك قائلا له: إن الواجب عليك أن تستدرك ذلك من النظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة القطعية التي تفيدك العلم -والله أعلم-". صيانة صحيح مسلم (ص ١٤٤).

وفيه حرص الصحابة علىٰ تعلُّم الخير. **وفيه** أنَّ تعلُّمهم كان لأجل العمل. **وفيه** الرحلة في طلب العلم والحديث. **وفيه** طلب علوِّ الإسناد. **وفيه** الاهتمام بالفرائض قبل النوافل. **وفيه** فضيلة ظاهرة لضِمام. **وفيه** أنَّ الطالب ينبغي أن يستفسر عما لا يعلمه، وأن لا يخجل من سؤال أهل العلم أمام الناس، ولا بأس من مراجعته. **وفيه** أنَّ الصلاة والزكاة من الإسلام. **وفيه** أنه لا يجبُ غيرُ الصلوات الخمس في اليوم، وأنَّ الوتر وغيره -مما يُصلَّىٰ في كلِّ يوم وليلة- ليس بواجب؛ خلافًا للحنفية. **وفيه** أنَّ صيام رمضان هو الواجب. **وفيه** عدمُ وجوب غير الزكواتِ بشرطه إلاَّ لعارض يعرضُ، وكذا الصيام والصلاة-كأن ينذر نذرًا-. **وفيه** عدمُ الزيادة علىٰ الفرائض وعدم الانتقاص؛ ينجي يوم القيامة. **وفيه** ردٌّ علىٰ المرجئة -حيثُ علَّقَ الفلاحَ علىٰ عدم النقصان من الفرائض؛ إذ لو نقص لم يُفلح-. **وفيه** يُسْرُ هذه الشريعة.

---

(٥٠٧) يعني: المقلد علىٰ مذهب المعتزلة، وإلا فإن هذا ليس مقلدًا.

وقوله: «**أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ**»، فقد جاءت زيادة فيها: «**أفلح وأبيه إن صدق**»، وهي وإن كانت عند مسلم إلا أن هذه اللفظ تفرد بها إسماعيل بن جعر وخالف فيها مالكًا.

وهذه لفظة غير محفوظة في هذا الحديث من حديث من يحتج به. وقد روىٰ هذا الحديث مالك وغيره عن أبي سهيل لم يقولوا ذلك فيه (وأبيه).

وقد روي عن إسماعيل بن جعفر هذا الحديث وفيه: «**أفلح والله إن صدق**»، أو «**دخل الجنة والله إن صدق**»، وهذا أولىٰ من رواية من روىٰ وأبيه. لأنها لفظة منكرة تردها الآثار الصحاح وبالله التوفيق.

ونقل الصنعاني عن ابن عبد البر قوله، وأقره.

وقال **الحافظ**: وحكىٰ السهيلي عن بعض مشايخه أنه قال: هو تصحيف، وإنما كان (والله)، فقصرت اللامان.

واستنكر القرطبي هذا وقال: "إنه يخرم الثقة بالروايات الصحيحة"( ).!!

قلت: لا يخرم ذلك بالروايات الصحيحة، إلا إذا لم يكن ثمة شذوذًا، بل إن عدم الحكم علىٰ الحديث بالشذوذ، بله النكارة يكون إهمالًا لقواعد هذا العلم وأصوله.

وقال **الحافظ**: وزعم بعضهم أن بعض الرواة صحف قوله: (وأبيه)، من قوله: (والله)، وهو محتمل، ولكن مثل ذلك لا يثبت بالاحتمال( ).

ورواية: «**أفلح إن صدق**»، اتفق الشيخان عليها، ولم يختلف في إسنادها ولا متنها، بعكس اللفظة الأخرىٰ، فلم يروها إلا مسلم، مع إشارته لضعفها أو شذوذها، والمخالفة فيها، وليست في الأصول.

وكذلك فإنّ الرواية الصحيحة المحفوظة، لها شاهد من حديث **أنس** بلفظ: «**إن صدق ليدخلن الجنة**»( ).

وصرح باسمه (ضمام بن ثعلبة) عند البخاري سيأتي برقم (٦٣).

وله شاهد آخر من حديث أبي هريرة أن أعرابيًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! دلَّني علىٰ عمل إذا عملتُهُ دخلت الجنة؟. قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيمُ الصلاة**

المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان». قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد علىٰ هذا شيئًا أبدًا، ولا أنقص منه، فلما ولّىٰ قال النَّبِيُّ ﷺ: «**من سرَّه أن ينظر إلىٰ رجل من أهل الجنة، فلينظر إلىٰ هذا**». أخرجه مسلم (١٤).

وقد صرح باسمه (ضمام بن ثعلبة) عند النسائي (ح٢٠٩٤)، وعند أبي داود الطيالسي (٢٣٢٩)، والتمهيد لابن عبد البر (١٦/ ١٦٩).

وله شاهد ثالث من حديث **ابن عباس** مرفوعًا وفيه: «**والذي نفسي بيده، لئن صدق ليدخلن الجنة**».

وقد صرح فيها باسم (ضمام بن ثعلبة) صاحب هذا السؤال.

أخرجه الدارمي (٦٧٧)، من طريق محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب، وعطاء كان قد اختلط، وابن فضيل روىٰ عنه بعد الاختلاط، ولكنه لم ينفرد به فقد أخرجه الطبراني (٨/ ٣٦٦)، (٨١٥١) بمتابعة موسىٰ أبي جعفر الفراء.

ومن رواية الثوري عن موسىٰ بن أبي جعفر عند الطبراني (٨١٥٠).

وله طريق أخرىٰ عند الدارمي (٦٧٨) وفيها محمد بن حميد عن ابن إسحاق وابن حميد ضعيف.

ولكنه توبع عليه من سعد بن إبراهيم عن ابن إسحاق به، عند أحمد (١/ ٢٥٠)، ومن يونس بن بكير عند الحاكم (٣/ ٥٥).

وتابعه كذلك سلمة بن الفضل عن ابن إسحاق عند أبي داود (٤٨٧)، والطبراني (٨/ ٣٦٤)، (٨١٤٩)، وعليه فالإسناد حسن لأجل ابن إسحاق وقد صرح عندهما بالتحديث.

وله شاهد رابع من حديث **ابن عمر**، وفيه التصريح باسمه كذلك عزاه الحافظ في "الإصابة" (٣/ ٤٨٧) لابن مندة وغيره، وهو عند أبي نعيم في "معرفة الصحابة" (٣/ ١٥٤٣).

فالقصة إذن واحدة، وعليه فلا يمكن الحكم علىٰ لفظة (وأبيه) إلا بالنكارة والشذوذ، والله أعلىٰ وأعلم.

ولعله يشهد له أيضًا حديث **أبي أيوب**، قال: جاء رجل إلىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فقال: دُلني علىٰ

عمل أعمله يدنيني من الجنة ويباعدني من النار. قال: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك**». فلما أدبر قال رسول الله ﷺ: «**إن تمسك بما أُمر به دخل الجنة**». أخرجه مسلم (١٣).

وكذلك فإنّ رواية مالك في الجملة أصح من رواية إسماعيل بن جعفر وذلك لأمور:

أ- أن مالكًا أوثق وأتقن من إسماعيل بن جعفر، فقد وُصِف مالك بأنه رأس المتقنين، وكبير المتثبتين، كما في "التقريب". ووصفه ابن معين بقوله: "أمير المؤمنين في الحديث"( ). وقال يحيىٰ القطان: "ليس في القوم أصح حديثًا من مالك"( ).

وانظر إلىٰ ما قاله أبو حاتم الرازي رحمه الله: "إذا خالفوا مالكًا من أهل الحجاز حكم لمالك"( )، فهذا نص صريح من هذا الإمام الفذ علىٰ تقديم مالك علىٰ من خالفه من أهل الحجاز كلهم.

بعكس إسماعيل فإنه مع ثقته فقد وصف بالخطأ وإن كان علىٰ قلة فيه، فقد قال يحيىٰ بن معين: "ثقة مأمون قليل الخطأ صدوق" (تاريخ بغداد ٦/ ٢٢٠).

ب- أن مالكًا توبع علىٰ روايته، من إسماعيل نفسه عند البخاري (١٥٢٦)، والنسائي (٢٠٩٠) باللفظ المحفوظ.

جـ- أن مالكًا رواه عن عمه وهو غالبًا أدرىٰ بحديثه.

د- أن الشك المذكور في رواية إسماعيل يدل علىٰ عدم ضبطه للرواية فتارة يرويه: "أفلح وأبيه، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق"، وتارة يرويه: "أفلح والله إن صدق"، وتارة: "أفلح إن صدق" مثل رواية مالك، ومما لا شك فيه أن اللفظ الذي توبع عليه من غيره يكون هو المحفوظ، وغيره هو الشاذ.

هـ- أن بعض أهل هذا الشأن قد تكلم في رواية إسماعيل لهذه اللفظة وحكموا عليها بالشذوذ كما تقدم.

من ضعف الحديث من أئمة هذا الشأن

تقدم النقل عن ابن عبد البر والصنعاني، وكذا القرافي ( )، وابن قدامة ( )، والإمامان الألباني( )، وابن باز( )، والعلامة ابن عثيمين( ).

وقال **السهيلي**: "لا يصح لأنه لا يظن بالنَّبِيِّ ﷺ كان يحلف بغير الله، ولا يقسم بكافر، تالله إن ذلك لبعيد من شيمته"( ). **ينظر**: تفصيل ذلك في رسالتي (تنبيه الغافل والنبيه إلىٰ تضعيف روايات وأبيك أو وأبيه).

٣٥- بَابٌ: اتِّبَاعُ الجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابٌ: اتِّبَاعُ الجَنَائِزِ مِنَ الإِيمَانِ)**، هذا الباب حُجَّةٌ لأهل السنة أنَّ الأعمالَ إيمانٌ؛ لأنه ﷺ جعل اتباع الجنازة إيمانًا، وهو بنفس ما مرَّ من الأبواب في إثبات أنَّ الأعمال من الإيمان.

٤٧- حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِاللهِ بْنِ عَلِيٍّ المَنْجُوفِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَوْحٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنِ الحَسَنِ، وَمُحَمَّدٍ،**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **قَالَ: «مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّىٰ يُصَلَّىٰ عَلَيْهَا وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ**(مثلُ الجبلين العظيمين)**، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّىٰ عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ؛ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ»**.

تَابَعَهُ عُثْمَانُ المُؤَذِّنُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ نَحْوَهُ.(٥٠٨)

أطرافه في: (الجنائز١٣٢٣، ١٣٢٥).

الشَّرْح

قوله: **(مَنِ اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا)**، قال **أبوالزناد القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "حَضَّ ﷺ علىٰ التواصل في الحياة وبعدَ الممات؛ والذي حضَّ عليه في الحياة: هو صِلةُ الإخوان وعدمُ مقاطعتِهم والنهيُ عن التدابُرِ، والذي حض عليه من الصِّلة بعد الممات: فهو تشييعهُ إلىٰ قبره والدعاءُ له؛ فهذا حقُّ المؤمن علىٰ المؤمن".شرح البخاري لابن بطال (١/ ١٠٨).

سبق في حديث: «**من يقم ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا**» بيانُ معنىٰ: «**إيمانًا**»؛ يعني به: مشروعية ذلك، و«**احتسابًا**»: يريد بذلك وجه الله تعالىٰ؛ **وفي** هذا بيانُ أهمية التلازم بين الظاهر والباطن، وعملِ الجوارح وعمل القلب، وبيانٌ لشرطَيْ قَبولِ عمل المسلم: وهما الإخلاصُ،

---

(٥٠٨)وأخرجه مسلم (٩٤٥)، وأبوداود (٣١٦٨)، والترمذي (١٠٤٠)، والنسائي (١٩٩٤، ١٩٩٧، ٥٠٣٢)، وابن ماجه (١٥٣٩).

والمتابعةُ للنبي ﷺ.

ويشترطُ في هذا الأجرِ: أن يتبَعها من بيتها؛ لرواية: «**من خرج مع جنازة من بيتها، وصلَّىٰ عليها، ثم تبِعها حتىٰ تدفنَ** ...». الحديثأخرجه مسلم (٩٤٥).

قوله:(**فَإِنَّهُ يَرْجِعُ مِنَ الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ**)، جاء في رواية: وقيل: وما القيراطان؟ قال: «**مثل الجبلين العظيمين**» متفق عليه.

وفي حديث **أبي هريرة** -مرفوعًا-: قيل: وما القيراطان؟ قال: «**أصغرهما مثل أحد**». أخرجه مسلم (٩٤٥).

قال **سالم بن عبد الله بن عمر**: وكان **ابن عمر** رضي الله عنهما- يصلي عليها ثم ينصرف، فلما بلَغه حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه-؛ قال: "**لقد ضيَّعنا قراريطَ كثيرةً**". أخرجه مسلم (٩٤٥).

ويأتي بقية الكلام عليه في كتاب الجنائز[٥٠٩] -إن شاء الله-.

---

(٥٠٩) باب فضل اتباع الجنائز، باب رقم (٥٧)، حديث رقم (١٣٢٣، ١٣٢٤).

٣٦ - بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَىٰ عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَىٰ إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ- وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَىٰ النِّفَاقِ وَالعِصْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، لِقَوْلِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

قوله: **(بَابُ خَوْفِ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لاَ يَشْعُرُ)**، "مرادُ البخاريِّ بهذا الباب: الردُّ على المرجئة القائلين بأنّ المؤمن يقطعُ لنفسه بكمال الإيمان، وأنَّ إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، وأنه لا يخافُ علىٰ نفسه النفاق العمليَّ مادام مؤمنا". فتح الباري لابن رجب (١/ ١٩٢).

وفي **هذه الترجمة**: تحذيرٌ لئلاَّ يغترَّ المسلمُ بما يقوم به من الأعمال التي هي من الإيمان؛ فيظنَّ في نفسه خيرًا، وتأتي **هذه الترجمة** ردًّا لقول المرجئة: "إنَّ الله لا يعذب علىٰ شيء من المعاصي لمن قال: لا إله إلا الله، ولا يحبط عمله بشيء من الذنوب"؛ بل ينبغي للمؤمن أن يخاف علىٰ نفسه النفاق، وسوء الخاتمة، ولا يأمن مكر الله؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأعراف:٩٩][٥١٠]، فينبغي التعوذ منه كثيرًا.

وقال: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال **بعض السلف** في قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ [الزمر: ٤٧]: "أعمالٌ كانوا يحسِبونها حسناتٍ بدتْ لهم سيئاتٍ، وإنما لحِقهم ذلك؛ لعدم المراعاة وقِلَّة الإخلاص، أو لتعدِّيهم السنةَ وركوبِهم-بالتأويل- وجوهَ الفتنة". شرح البخاري لابن بطال (١/

---

(٥١٠)عن **ابن مسعود** رضي الله عنه قال: أكبر الكبائر الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من روح الله، والأمن من مكر الله. **صحيح**: أخرجه ابن جرير (٩١٩١)، وعبدالرزاق (١٩٧٠١)، والطبراني وغيرهم.

.(١١٠)

وعن **جبير بن نفير** قال: دخلت علىٰ **أبي الدرداء**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- منزلَه بحمصَ فإذا هو قائمٌ يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد؛ فجعل يتعوذ بالله -عز وجل- من النفاق، فلما انصرف قلت له: غفر الله لك يا أبا الدرداء! ما أنت والنفاق؟! ما شأنك وما شأن النفاق؟! فقال: "اللهم غَفرًا -ثلاثًا-؛ لا يأمنُ البلاء من يأمن البلاء، والله! إنَّ الرجل لَيُفتَنُ في ساعة واحدة؛ فينقلبُ عن دينه". **صحيح**: أخرجه الفريابي (٦٩).

وفي الحديث: "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقىٰ أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته علىٰ رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدي الأمانة فيقال"(متفق عليه)

وعن يزيدَ بن مرثد قال: ذُكِرَ الدَّجالُ في مجلسٍ فيه **أبو الدرداءِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فقال نوفٌ البِكاليُّ: لَغيرُ الدجالِ أخوَفُ مني من الدَّجال!، فقال أبو الدرداء: ما هو؟؛ فقال نوفٌ: **"أخاف أن أسلب إيماني وأنا لا أشعر"**.

فقال **أبو الدرداء**: ثكلتك أمُّك يا ابن الكِندية! وهل في الأرض مئةٌ يتخوَّفون ما تتخوَّفُ؟! ثكلتك أمك يا ابن الكندية! وهل في الأرض خمسون يتخوفون ما تتخوفُ؟! ثم قال: وثلاثونَ؟! ثم قال: وعشرونَ؟! ثم قال: وعشرةٌ؟! ثم قال: وخمسةٌ؟! ثم قال: وثلاثةٌ؟! كل ذلك يقول: ثكلتك أمك!

ثم قال **أبو الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "والذي نفسي بيده ما أمِنَ عبدٌ علىٰ إيمانه إلاَّ سُلِبَهُ أو انتُزِعَ منه؛ فيفقِدَه، والذي نفسي بيده ما الإيمان إلاَّ كالقميص يتقمَّصُه مرَّة ويضعُه أخرىٰ". إسناده **لا بأس به**[(٥١١)]: أخرجه الفريابي (٧٥).

وعن أسلمَ أبي عمران قال: سمعت **أبا أيوب الأنصاري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-يقول: **"لَيأتينَّ علىٰ الرجل أحايِينُ وما في جِلده مَوضِعُ إبرة من نفاق، وإنه ليأتي عليه أحايين وما في قلبه موضع إبرة من إيمان"**. **صحيح**: أخرجه الفريابي (٧٦، ٧٧).

---

(٥١١)لأجل الوَضِيْن، ومثله لا بأس به في مثل هذا الأثر.

وقد كان السَّلفُ يهضِمون حقَّ أنفسِهم، ولا يرون أنفسَهم شيئًا؛ فعن الحارث بنِ سُوَيد قال: قال **عبداللهابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **"لوددتُّ أني روثةٌ انفلتت عني فنُسِبتُ إليها فسُمِّيتُ عبدَالله بنَ روثة؛ وأنَّ الله غفَر لي ذنبًا واحدًا"**. **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٢٢)، وله طريق أخرىٰ مختصرًا (٣٤٥٢٦).

وعن أبي عثمان قال: قلت **لأبي رجاء العطارديِّ**: هل أدركتَ ممن أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق -وكان قد أدرك **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؟ قال: **"نعم! إني أدركت منهم -بحمد الله- صدرًا حسنًا؛ نعم! شديدًا، نعم! شديدًا** (أي: يخشون علىٰ أنفسهم النفاقَ شديدًا)**"**. **صحيح لغيره**: أخرجه الفريابي (٨١)؛ يشهد له أثر ابن أبي مليكة.

فالصحابة لم تكن همتُهم وخوفُهم الأكبرُ من النفاق-أن يبطنوا الكفر ويظهروا الإسلام-، فهذا أمر ظاهرٌ؛ وإنما كانوا يخشون أن يقعَ أحدُهم في شعبةٍ من شُعب النفاق الدقيقةِ والخفيَّة: كخوفهم من الرياء، والشرك الخفيِّ.

وعن **معاوية بن قرة** أنه كان يقول: **"أن لا يكون فيَّ نفاق أحب إليَّ من الدنيا وما فيها؛ كان عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **يخشاهُ وآمنه أنا؟!"**. صفة النفاق للفريابي (٨٠).

فهناك أعمال خفية في **القلب**، لا ينتبه لها كثير من الناس؛ فيها عطبهُ وفسادهُ؛ فليحذرها المؤمن الموحِّد! فإنها من صفات أهل النار.

وقد قنع بعض المتدينين اليوم بمجرد معرفتهم للأمور الشركية الظاهرة: كدعاء غير الله، والذبح والنذر لغير الله، والطواف بالقبور، والتبرك بها، والصلاة إليها.وظنوا أن مجرَّدتركِ مثلِ هذه المظاهرِ الشركية يكونون قد أَتَوْا بما يجب عليهم من التوحيد، ولا يعلمون أنه يجب عليهم تعلّم بعض تفاصيل هذه الأمور، ولا يعلمون أن هناك من الذنوب العظام والشركيات الخفية، الكامنة في النفوس حذّر منها النبيُّ ﷺ أصحابَه، وخافها عليهم.

لذلك قال: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ...**». **صحيح**: تخريج المسند لشعيب (٢٣٦٣٠)، وهو في صحيح الترغيب (٣٢)،

وحتىٰ سأل أبوبكر الصديق رسولَ الله ﷺ عن السلامة منه، وعلَّمَهُ الاستعاذةَ من الرياء.

يقول شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"**واعلم أنَّ كثيرًا من الناس يسبِقُ إلىٰ ذهنه من ذكر

الذنوب: الزنا والسرقة ونحو ذلك؛ فيستعظم أنَّ كريمـًا يفعل ذلك، ولا يعلم أنَّ أكثر العقلاء لا يسرقون؛ بل ولا يزنون حتىٰ في جاهليتهم وكفرهم ... ولكن الذنوب التي هي في باب الضلال في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما يدخل في ذلك من البدع التي هي من جنس العلو في الأرض، والفخر والخُيلاء والحسد والكبر والرياء ونحو ذلك؛ هي في الناس الذين هم متعفِّفون عن الفواحش".من كتاب: "شرح حديث أبي بكر: اللهم إني ظلمت نفسي"، لشيخ الإسلام (ص ٥٤).

قلت: ومن ذلك -أيضًا-: التسخُّطُ علىٰ الأقدار، والقنوط، وكذا العُجب، والتسميع بالعمل، واختلاف السر والعلانية، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والجزع عند المصائب، والفخر والبطر عند النعم، وسوء الظن بالله -تعالىٰ-،-فإن ذلك من أعظم الذنوب- ، وخوفُ المخلوق دون الخالق، ورجاء المخلوق دون الخالق، والتوكل علىٰ المخلوق دون الخالق، والتوكل علىٰ الأسباب، والاستهزاء بآيات الله وجَحدُ الحقِّ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة، والتعصب بالباطل، وعدمُ التسليمِ للنصوص والإذعانِ لها، ويقعون في **شرك الطاعة**: فيتعصبون للمذهب، ويَدَعون النصوصَ الصريحة؛ تمسكًا بمذهب إمامهم أو شيخهم، ونحو ذلك.

وهناك تقصير في شعب الإيمان العظيمة الجليلة -التي يتهاون بها كثير من الناس-؛ قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ونحنُ نعلم أنَّ التوكُّلَ علىٰ الله فرضٌ، والإخلاصَ له فرضٌ، ومحبةَ الله ورسوله ﷺ فرضٌ، والصبرَ علىٰ فِعل ما أَمَرَ اللهُ به وعما نهىٰ الله عنه وعلىٰ المصائب التي تصيبه فرضٌ، وخشيةَ الله وحده -دون خشية الناس- فرضٌ، والرجاءَ لله -وحده- فرضٌ، وأمثال ذلك من الأعمال الباطنة والظاهرة؛ والتي يحصل التقصير في كثير منها لعامة الخلق.

وأيُّ نوع من هذه الأنواع إذا تدبَّر بعضُ الصِّديقين فيه حاله؛ يجده قد ظلم نفسه فيه ظلمًا كثيرًا". المصدر السابق (ص ٨٩).

فينبغي للمؤمن أن يخاف من أن يَحبطَ عملُه، وهو لا يشعر بحبوطه؛ لقول الله -تعالىٰ-: **﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾** [الحجرات: ٢]. وهذا مَثَلٌ من أمثلة المعاصي التي

يكون فيها حبوط الأعمال.

ولذا لما نزلت هذه الآية: جلس **ثابت بن قيس بن شمّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في بيته -وكان جهوريَّ الصوت-، وقال: أنا من أهل النار! واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعدَ بن معاذ، فقال: «**يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ اشتكىٰ؟**»، قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوىٰ، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ؛ فقال ثابت: أُنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعِكم صوتًا علىٰ رسول الله ﷺ؛ فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعدٌ للنبي ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**». متفق عليه.

فثمرةُ الخوف من حُبوط العمل هي الجنة: فالإنسان كلما صدقَ؛ رفع الله له ذِكرَه، وكلما خاف؛ أمَّنه الله -عزَّ وجلَّ-.

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالخوف من إحباط العمل، والابتعاد عن أسبابه؛ فقال -سبحانه-: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ [محمد: ٣٣].

ثم **ذكر البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ أقوال أئمة التابعين، وما نقلوه عن الصحابة؛ أنهم -مع اجتهادهم وفضلهم- يستقِلُّون أعمالهم، ويخافون ألاَّ ينجون من عذاب ربهم.

ولذلك ثبت عن **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قلت: يا رسول الله! ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الذي يزني؟، ويسرق؟، ويشرب الخمر؟ قال: «**لا! يا بنت أبي بكر -أو يا بنت الصديق-؛ ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو يخاف أن لا يتقبل منه**». حسن: الترمذي(٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨) واللفظ له، وهو في الصحيحة (١٦٢).

لكن **مع كلِّ هذا**: فلا ينبغي للعبد أن يُغلِّبَ النظرَ إلىٰ جانب الذنب والرهبة؛ فيَقِلَّ رجاؤه ويُسيء الظنَّ بسيِّده ومولاه؛ بل يكون الحال كما قال **الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلما قسىٰ قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سُلَّمًا
تعاظمني ذنبي فلـــما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوُك أعظمًا
فما زلتَ ذا جود وفضل ومنة ... تجود وتعفو منةً وتكرمًـا

فياليت شعري هل أصير لجنةٍ ... أهنا وإما للسعير فأندمَـا[٥١٢]

وعلىٰ كل حال: فكلما زاد إيمانُ العبد؛ عظُمَ خوفه من النفاق، وزادَت خشيتُه لربه، وزادَ اجتهادُه في الأعمال الصالحة، وعَظُمَ رجاؤه في مولاه، وامتلأ قلبه من محبته، وأحسنَ الظنَّ به، ولهجَ بذكره، واشتاق للِقاء ربه؛ فأحبَّ اللهُ لقاءَه، وقرَّبه إليه، ورفَعه عنده.

وقوله: (وقال إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَىٰ عَمَلِي...)، قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإنما قال ذلك -والله أعلم-؛ لأنَّ الله -تعالىٰ- ذمَّ من أمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر وقصّر في عمله؛ فقال: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢-٣]؛ فخشي -أي: إبراهيم- أن يكون مكذبًا؛ إذْ لم تُمَنِّيهِ الغايةُ من العمل، وأشفق من تقصيره. **وهكذا ينبغي أن تغلِبَ الخشيةُ علىٰ المؤمن**". شرح البخاري (١/ ١٠٩).

عن **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم المنافقَ العليم، قالوا: وكيف يكون المنافق عليما؟ قال: يتكلمُ بالحكمة ويعملُ بالجور -أو قال: بالمنكر-". تعظيم قدر الصلاة للمروزي (٦٨٥).

وقوله: (وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاَثِينَ...، ويُذكَرُ عن الحَسَن: مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ...)، قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنما هذا -والله أعلم-؛ لأنها طالت أعمارُهم حتىٰ رأوا من التغيير ما لم يَعهَدوه، ولم يقدِروا علىٰ إنكاره؛ فخشوا علىٰ أنفسهم أن يكونوا في حيِّزِ مَن دَاهنَ ونَافقَ". شرح البخاري (١/ ١٠٩).

ومن ذلك: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان يخاف علىٰ نفسه النفاق؛ فعن **حذيفة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: دُعِيَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لجنازة، فخرج فيها -أو يريدُها-، فتعلَّقتُ به، فقلت: اجلس يا أمير المؤمنين، فإنه من أولئك! فقال: "نشَدتُّك الله أنا منهم؟"، قال: "لا!، ولا أبرِّئُ أحدًا بعدكَ".

صحيح: أخرجه البزار (٢٨٨٥)، وهو في مساوئ الأخلاق للخرائطي(٢٩٧) من طريق آخر فيه ضعف.

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: ليس مراده: "لا أبرئ غيرك من النفاق"؛ بل المراد: لا أفتح علىٰ نفسي هذا الباب؛ فكل من سألني هل سماني لك رسول الله

---

(٥١٢)مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١١١).

ﷺ؟ فأزكيه". الداء والدواء (ص: ٤٢).

قال **حذيفة** -في خير القرون-: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «**لا تضرك الفتنة**». **صحيح**: أخرجه أبوداود (٤٦٦٤، ٤٦٦٥). وفيه انقطاع؛ ولكن يشهد له ما أخرجه الحاكم (٥٨٣٧).

وقال **أيوب** رحمه الله: "**كلُّ آية في القرآن فيها ذِكر النفاق؛ أخافُها علىٰ نفسي**". وقال **معاوية بن قرة** رحمه الله: "**كان عمر يخشاه وآمنه أنا؟**". صفة المنافق للفريابي (ص ١٢٠).

وتقدم قريبًا عن جمع من السلف الخوفُ علىٰ أنفسهم من النفاق.

فاحذر -أيها المسلم!- المخاطرةَ بدينك بمجالسة المنافقين وأهل البدع؛ خوفًا علىٰ نفسك، ولا تحسن الظن بنفسك كثيراً وتغترَّ بعملِك والاعتذارِ لنفسك؛ فتسقط في مَهلكة.

قال **ابن بطة** رحمه الله: "فالله! الله! معشر المسلمين، لا يحملنَّ أحدًا منكم حُسن ظنه بنفسه وما عهِده من معرفته بصحة مذهبه؛ علىٰ المخاطرة بدينه". الإبانة (٢/ ٤٦٩).

قال **ابن رجب** رحمه الله: "وأصل هذا يرجع إلىٰ أنَّ النفاق أصغرُ وأكبرُ؛ فالنفاقُ الأصغرُ: هو نفاق العمل، وهو الذي خافه هؤلاء علىٰ أنفسهم؛ وهو باب النفاق الأكبر، فيخشىٰ علىٰ من غلبتعليه خصال النفاق الأصغر -في حياته-؛ أن يخرجه ذلك إلىٰ النفاق الأكبر، حتىٰ ينسلخ من الإيمان بالكلية؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام: ١١٠]". فتح الباري (١/ ١٩٥).

وقوله: (مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَىٰ إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ)، هذا مذهب أهل السنة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**فلا تُزَكّوا أنفُسَكُم هُوَ أعلَمُ بمَن اتَّقىٰ**﴾ [النجم: ٣٢]، فلا أحد يستطيع أن يزكي نفسه بهذه التزكية؛ بخلاف قول المرجئة والجهمية.

قال **سعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي** رحمه الله: "هو إذا أقدَم علىٰ هذه المقالة؛ أقربُ أن يكون إيمانه كإيمان إبليس؛ لأنه أقرَّ بالربوبية وكفرَ بالعمل". شرح البخاري لابن بطال (١/ ١٠٩). فهذا بلا شك من الغرور الذي يستوجِب إحباطَ الأعمال.

وقال **الآجري** رحمه الله: "احذروا -رحمكم الله- قولَ من يقول: إنَّ إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل!، ومن يقول: أنا مؤمن عند الله!، وأنا مؤمن مُستكمِل الإيمانِ!؛ هذا كله مذهب أهل

الإرجاء".الشريعة (٢/ ٦٨٧).

وقال **الفضيل بن عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ رادًا علىٰ المرجئة الأخباث-: "يا سفيه! ما أجهلك! لا ترضىٰ أن تقول: أنا مؤمن حتىٰ تقول: أنا مستكمل الإيمان؟! لا والله! لا يستكمل العبد الإيمان حتىٰ يؤدي ما افترض الله عليه، ويجتنبَ ما حرَّم الله عليه، ويرضىٰ بما قَسَمَ الله له، ثم يخافَ - مع ذلك- ألاَّ يتقبل منه". شرح البخاري لابن بطال (١/ ١١٠).

قال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويتناول -أي: الإسلام-: من أتىٰ **بالإسلام الواجب** وما يلزمه من الإيمان، ولم يأت **بتمام الإيمان الواجب**، وهؤلاء ليسوا فساقًا تاركين فريضةً ظاهرة، ولا مرتكبين محَّرمًا ظاهرًا، لكن تركوا من حقائق الإيمان الواجبة علمًا وعملًا بالقلب يتبعه بعض الجوارح ما كانوا به مذمومين.

وهذا هو النفاق الذي كان يخافه السلف علىٰ نفوسهم، فإن صاحبه قد يكون فيه شعبة نفاق، وبعد هذا ما ميز الله به المقربين علىٰ الأبرار أصحاب اليمين من إيمان وتوابعه، وذلك قد يكون من باب المستحبات".مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٤٢٨).

قوله: (وَيُذْكَرُ عَنِ الحَسَنِ: "مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلاَ أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ")، وعن جعفر بن حيان قال: قيل **للحسن**: إنهم يقولون: "لا نفاق!"؛ فقال **الحسن**: "لَأن أعلم أني بريء من النفاق؛ أحب إليَّ من طلاع الأرض ذهبًا". **إسناده صحيح**: أخرجه الفريابي (٧٢).

وكان **الحسن** يقول: "إن القوم لما رأوا هذا النفاق يغُول (يخطف) الإيمان لم يكن لهم همّ غير النفاق".

وقال **الحسن**: "والله! ما أَصْبَحَ ولا أمْسىٰ مؤمن إلا وهو يخاف النفاق علىٰ نفسه".

فمن خاف النفاق فهو علامة إيمانه وتقواه وخشيته لله -تعالىٰ-؛ كما جاء في الحديث أن أناسًا من أصحاب النبي سألوه إنا نجد في أنفسنا ما يتعاضم أحدنا أن يتكلم به فقال : «**أو قد وجتموه؟!**»، قالوا: نعم، قال:«**ذاك صريح الإيمان**».أخرجه مسلم (١٣٢).

وقال **عبدالله ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "المؤمن يرىٰ ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، والمنافق يرىٰ ذنبه كذباب وقع علىٰ أنفه؛ فطار فذهب". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٥٣٨)، وهو في صحيح مسلم مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ.

وقوله: (وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الإِصْرَارِ عَلَىٰ النِّفَاقِ...)، فمراده أن الإصرار علىٰ المعاصي وشعب النفاق من غير توبة؛ يخشىٰ منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلىٰ النفاق الخالص، وإلىٰ سوء الخاتمة- نعوذ بالله من ذلك-؛ كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر. فتح الباري لابن رجب (١/ ١٩٧).

وفي الحديث عن **عبدالله بن عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عن النبي ﷺ قال: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر الله لكم، **ويلٌ لأقماع القول**[٥١٣]، **ويل للمصرين؛ الذين يصرون علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون**». صحيح: أخرجه أحمد (٦٥٤١)، وهو في الصحيحة (٤٨٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٢٥٧).

قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قيّد المصرين بالعالمين؛ لأن من لا يعلم قبح الذنب لا عقاب عليه.والمراد بـ: "أقماع القول" الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأن الحفظ والعلم المراد بهما العمل؛ ولذا قال: "وهم يعلمون". التنوير شرح الجامع الصغير (٢/ ٢٨٤).

فالإصرار علىٰ الكبائر صفة أهل النار، قال -تعالىٰ-: ﴿**وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ**﴾ [الواقعة: ٤٦].

٤٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَرْعَرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، **عَنْ زُبَيْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا وَائِلٍ عَنْ المُرْجِئَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**سِبَابُ المُسْلِمِ فُسُوقٌ**(فجور وخروج عن الحق)، **وَقِتَالُهُ**(بغير حق) **كُفْرٌ**»[٥١٤].

طرفاه في: (الأدب٦٠٤٤، الفتن٧٠٧٦).

الشَّرْح

---

(٥١٣)**أقماع القول**: الذين آذانهم كالقُمع، يدخل فيه سماع الحق من جانب، ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه.

(٥١٣)وأخرجه مسلم (٦٤)، والترمذي (١٩٨٣، ٢٦٣٤، ٢٦٣٥)، والنسائي (٤١٠٥، ٤١١١)، وابن ماجه (٤٦، ٦٩، ٣٩٣٩).

(٥١٤) وأخرجه مسلم (٦٤) والترمذي (١٩٨٣، ٢٦٣٤، ٢٦٣٥) والنسائي (٤١٠٥، ٤١١١) وابن ماجه (٤٦، ٦٩، ٣٩٣٩).

قوله: (قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ،عَنْ زُبَيْدٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَاوَائِلٍ عَنْ المُرْجِئَةِ)، وفي رواية النسائي (٤١٠٩) عن شُعْبَةُ قَالَ: قُلْتُ لِحَمَّادٍ: سَمِعْتَ مَنْصُورًا، وَسُلَيْمَانَ، وَزُبَيْدًا، يُحَدِّثُونَ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**» **مَنْ تَتَّهِمُ؟ أَتَتَّهِمُ مَنْصُورًا؟ أَتَتَّهِمُ زُبَيْدًا؟ أَتَتَّهِمُ سُلَيْمَانَ؟**" قَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أَتَّهِمُ أَبَا وَائِلٍ.

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فظهر من هذا أن سؤاله كان عن معتقدهم، وأن ذلك كان حين ظهورهم، وكانت وفاة أبي وائل سنة (٩٩)، وقيل: سنة (٨٢)، **ففي** ذلك دليلٌ علىٰ أن بدعة الإرجاء قديمة". الفتح (١/ ١١٢).

وقال العلامة **الإتيوبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الظاهر أن حمّادًا -هنا- هو ابن أبي سُليمان، وهو شيخٌ لشعبة، وكان مرجئًا، والظاهر أنه جرىٰ بينه وبين شعبة النقاش في الإرجاء، فذكر له شعبة هذا الحديث محتجًّا عليه، ثم قال له: أتتّهم هؤلاء الرواة، إنهم حدّثوا بحديث غير ثابت عن النبيّ ﷺ؟ فقال: لا أتهمهم، وإنما أتّهم شيخهم، أبا وائل.

وإنما اتّهم أبا وائل؛ لأنه كان يردّ علىٰ هذا الرأي الباطل، ويذكر حديث **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- هذا احتجاجًا علىٰ إبطاله". ذخيرة العقبىٰ (٣٢/ ١١١).

قوله (**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**)، الكفر المذكور في الحديث، ليس المراد به الكفر المخرج من الملة؛ لذلك قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ٩- ١٠]، فسماهم المؤمنين.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» وقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»، وهذا مستفيض عن النبي ﷺ في "الصحيح" من غير وجه فإنه أمر في حجة الوداع أن يُنادىٰ به في الناس فقد سمىٰ من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفارًا؛ وسمَّىٰ هذا الفعل كفرًا؛ ومع هذا فقد قال -تعالىٰ-: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ إلىٰ قوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ٩- ١٠] فبيَّن أن هؤلاء لم يخرجوا من الإيمان بالكلية، ولكن فيهم ما هو كفر، وهي هذه الخصلة. كما قال بعض

الصحابة: "كفر دون كفر". وكذلك قوله ﷺ: «**من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**». أخرجه مسلم (٦٠). فقد سماه أخاه حين القول؛ وقد أخبر أن أحدهما باء بها، فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه بل فيه كفر". الإيمان الكبير (ص١٨٦).

والشاهد من هذا الحديث في هذا الباب أنّ هذه المعاصي تؤثر في إيمان العبد، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بخلاف قول المرجئة الذين يرون أن سباب المسلم إيمان لا فسوق، وقتاله كذلك سيان، وهذا من أضل ما يعتقد الناس.

٤٩ - أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ حُمَيْدٍ، **حَدَّثَنِيأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، **أَنَّ رَسُولَ اللهِ** ﷺ **خَرَجَ يُخْبِرُ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، فَتَلاَحَىٰ**(أي: تنازع وتخاصم) **رَجُلاَنِ مِنَ المُسْلِمِينَ فَقَالَ: «إِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ القَدْرِ، وَإِنَّهُ تَلاَحَىٰ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَرُفِعَتْ**(أي: رُفِع العلم بها)**، وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ، التَمِسُوهَا**(اطلبوها) **فِي السَّبْعِ وَالتِّسْعِ وَالخَمْسِ»**.

طرفاه في: (صلاة التراويح٢٠٢٣، الأدب٦٠٤٩).

الشَّرْح

قوله: **(وَإِنَّهُ تَلاَحَىٰ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، فَرُفِعَتْ)**، **الملاحاة**، تعني: المخاصمة، والشاهد من ذلك أن هذه المعصية -وهي رفع الصوت والجدال- كانت سببًا في ضياع الخير عنهم، مع أنهم لم يشعروا أنها تصل إلىٰ هذه الدرجة؛ فدلّ علىٰ أن المخاصمة هي سبب لذهاب الخير، ويدل علىٰ ذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

والتلاحي: قد فسر بالسباب، وفسر بالاخصام والمماراة من دون سباب. ويؤيد هذا: أنه جاء في رواية: "**فجاء رجلان يَحْتَقَّان**". أخرجه مسلم (٥٧٤)، أي: يطلب كل واحد منهما حقه من الآخر ويخاصمه في ذلك. فمن فسره **بالسباب** احتمل عنده إدخال البخاري للحديث في هذا الباب أن السباب تُعَجل عقوبته حتىٰ يحرم المسلمون بسببه معرفة بعض ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم. وإنما رجا النبي ﷺ أن يكون ذلك خيرًا؛ لأن إبهام ليلة القدر أدعىٰ إلىٰ قيام

العشر كلها، أو أوتارها في طلبها، فيكون سببًا لشدة الاجتهاد وكثرته.

ولكن بيان الليلة ومعرفتهم إياها بعينها له مزية علىٰ إبهامها، فرفع ذلك بسبب التلاحي؛ فدل هذا الحديث علىٰ أن الذنوب قد تكون سببًا لخفاء بعض معرفة ما يُحتاج إليه في الدين.

وقال **ابن سيرين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ما اختلف في الأهِلَّة حتىٰ قتل عثمان"، فكلما أحدث الناس ذنوبًا أوجب ذلك خفاء بعض أمور دينهم عليهم، وقد يكون في خفائه رخصة لمن ارتكبه وهو غير عالم بالنهي عنه، إذ لو علمه ثم ارتكبه لاستحق العقوبة. فتح الباري لابن رجب (١/ ٢٠٣- ٢٠٤).

ووجه مناسبة الحديث للترجمة، ما قاله **الحافظ**: "وهذه الملاحاة مستلزمة لرفع الصوت، ورفعه بحضرة النبي ﷺ منهيٌ عنه، لقوله -تعالىٰ-: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ**﴾ الآية [الحجرات ٢]. ومن هنا يتضح مناسبة الحديث للترجمة، ومطابقتها له، وقد خفيت علىٰ كثير من الشراح". الفتح (١/ ٢٠٦) بتصرف يسير.

فيه أنّ المخالفة قد لا يقصدها العبد، ويعاقب عليها من بعض الوجوه، وإن كان لا يعاقب عليها في الآخرة.

٣٧ - بَاب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ وَالإِسْلاَمِ وَالإِحْسَانِ وَعِلْمِ السَّاعَةِ، وَبَيَانِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: «جَاءَ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»؛ فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِينًا، وَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِوَفْدِ عَبْدِالقَيْسِ مِنَ الإِيمَانِ، وَقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

قوله: (**بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الإِيمَانِ وَالإِسْلاَمِ وَالإِحْسَانِ...**)، هذه الترجمة في بيان: بماذا يكون الرجل مؤمنًا؟ ومَن المؤمنُ في الشريعة؟

وقوله: (**فَجَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ دِينًا**)، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "تبويب البخاري -هاهنا- واستدلاله وتقريره يدلّ علىٰ أنه يرىٰ أن مسمىٰ الإيمان والإسلام واحد". فتح الباري (١/ ٢٠٦).

وقوله: (**وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾**)، قال العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن يطلب دينًا يدين الله به غير دين الإسلام؛ فإنه لا يقبل منه؛ لأن الإسلام نَسَخ جميع الأديان السابقة، **ومن هنا نعرف أن من زعم أنَّ ما عليه أهل الكتاب اليوم دينٌ يقبله الله؛ فإنه كافر مرتدٌ عن الإسلام**، ويستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه كفرًا وردَّة؛ لأنه مكذِّبٌ لله ولرسوله ولإجماع المسلمين". شرح البخاري (١/ ١٤٢).

٥٠- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا أَبُوحَيَّانَ التَّيْمِيُّ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا** (أي: ظاهرًا) **يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ».**

قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: مَتَىٰ السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا (علاماتها): **إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا** (أي: مالكها وسيدها)، **وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ** (السود) **فِي البُنْيَانِ** (أي: تفاخروا بطولها وتكاثروا)، **فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ»، ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ**

عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[لقمان: ٣٤] الآيَةَ، ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: «رُدُّوهُ». فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ».

قَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ: جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الإِيمَانِ.(٥١٥)

طرفه في: (التفسير ٤٧٧٧).

الشرح

هذا حديث عظيم مشتمل علىٰ جميع الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلومُ الشريعة -كلُّها- راجعة إليه ومتشعبة منه، فهو كالأمّ للسنة؛ كما سميت الفاتحة: أمّ القرآن.

قوله: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ...)، أي: ظاهرًا لهم، والبروز الظهور. **وفيه** اتخاذ المكان المرتفع؛ كسرير أو كرسيٍّ أو دكان -ونحوه-؛ لتحديث الناس.

وفي رواية: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ يومًا لأصحابه: «**سلوني!**» فهابوه أن يسألوه؛ فجاء رجل حتىٰ وضع يديه علىٰ ركبتيه؛ فقال: يا محمد! أخبرني عن الإيمان؟ فذكر مثله. **ففيه** جواز قول العالم لأصحابه وطلابه: سلوني.

وفيه هيبة النبي ﷺ وعلماء السنة؛ فقد كانوا يفْرقون منهم. **وفيه** أن من امتنع عن طلب العلم لعلة؛ فإن الله يبلغ دينه، ويقيم حججه علىٰ العباد، ويتم بلاغ شرعه.

وسياق حديث أبي هريرة -هنا- غير سياق حديث عمر في مسلم؛ ففي رواية لحديث **عمر**: "بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم **إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا نرىٰ عليه أثر السفر ولا نعرفه، حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ فأسند ركبته إلىٰ ركبته، ووضع كفيه علىٰ فخذيه ثم قال: يا محمد!**".

حديث جبريل عن عمر انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري، واتَّفقا علىٰ إخراجه من حديث أبي هريرة.

ففيه استحباب لُبس البياض من الثياب. **وفيه** أنَّ الملائكة يتشكلون في صورة الرجال؛ كما

---

(٥١٥) وأخرجه مسلم (٩، ١٠)، والنسائي(٤٩٩١)، وابن ماجه(٦٤، ٤٠٤٤).
وهذا الحديث انفرد به مسلم عن البخاري، من حديث **عمر** رضي الله عنه، وهو عند البخاري في خلق أفعال العباد.

تمثلوا لإبراهيم ولوط وداود عليهم السلام، وأنه ليس في هذا جواز التمثيل؛ خلافًا لمن أجازه.

وفيه أنه ينبغي للعالم أن يتواضع ويصفح عمن جفا عليه من السائلين؛ لكون السائل وضع يديه علىٰ فخذي النبي ﷺ، وكونه ناداه باسمه مجردًا.

وفي رواية **النسائي** -عن أبي فروة-: "وإنَّا لجلوس ورسول الله ﷺ في مجلسه، إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهًا، وأطيب الناس ريحًا، كأن ثيابه لم يمسها دنس". وفي رواية مسلم من حديث **عمر** رضي الله عنه-: "بينما نحن ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر". وفي رواية ابن حبان: "شديد سواد اللحية لا يرىٰ عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ وأسند ركبتيه ووضع كفيه علىٰ فخذيه". **ولسليمان التيمي**: "ليس عليه سحناء وليس من البلد فتخطىٰ حتىٰ برك بين يدي النبي ﷺ كما يجلس أحدنا في الصلاة ثم وضع يده علىٰ ركبتي النبي ﷺ". ولم يكن النبي ﷺ يعلم أنه جبريل؛ لأنه جاء في صورة أعرابي.

وفيه كرامة للصحابة؛ حيث رأوا جبريل ولو رأوه في غير صورته.

وفي حديث **ابن عمر**: كنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل حسَنُ الوجه طيِّبُ الريح نقيُّ الثوب، فقال: السلام عليك يا رسول الله! أَدْنُو منك؟ قال: «**ادنه**»، فدنا دنوة -قال ذلك مرارًا-؛ حتىٰ اصطكت (التصقت) ركبتاه بركبتي النبي ﷺ، فقال: يارسول الله ما الإسلام؟ قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان، والغسل من الجنابة**»، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: «**نعم**»، قال: صدقت، قال: فما الإيمان؟ قال: «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والقيامة والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله**»، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟ قال: «**نعم**»، قال: صدقت، فما الإحسان؟ قال: «**تعبد الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك**»، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: «**نعم**»، قال: صدقت، قلنا: ما رأينا رجلًا أحسن وجهًا ولا أطيب ريحًا ولا أشدَّ توقيرًا للنبي ﷺ، وقوله للنبي ﷺ: صدقت. فقال رسول الله ﷺ: «**عليَّ بالرجل**»، فقمنا وقمتُ أنا علىٰ طريق من طرق المدينة فلم نرَ شيئًا؛ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تدرون من هذا؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا جبريل يعلمكم مناسك دينكم، ما أتاني في صورة قط إلا عرفته إلا**

هذه الصورة». حسن: أخرجه الطبراني (١٣٥٨١).

فيه أخذُ الزينة عند العلم والتعليم؛ من طيب وثوب نقي -ونحو ذلك-. **وفيه** أنَّ الإسلام والإيمان إذا افترقا؛ اجتمعا، وإذا اجتمعا؛ افترقا.

وفي **رواية**: عن سليمان بن بريدة قال: يحيىٰ بن يَعمر وحميد بن عبدالرحمن (الحميري) عن **عبدالله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فقال أحدهما لصاحبه: لو كنا في قطر من أقطار الأرض لكان ينبغي لنا أن نأتي هذا نسأله؛ فأتياه فقالا له: **إنا قوم نطوف الأرض ونلقىٰ أقوامًا يختصمون في الدين ونلقىٰ أقوامًا يقولون لا قدر**. قال: إذا لقيتم هؤلاء فأخبروهم أنَّ عبدالله بن عمر بريء منهم وهم بُرَآءُ منه -ثلاث مرات يعيدها-، ثم قال: كنا عند رسول الله ﷺ فإذا شابٌ حسن الوجه، حسن الهيئة، حسن الثياب؛ فقال: أَدنو يا رسول الله؟، قال: «**ادن**»، فدنا حتىٰ ظننت أن ركبتيه قد مسَّتا ركبة النبي ﷺ قال: يا رسول الله! ما الإيمان؟ قال: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره**»، قال: صدقت، قال: فعجبنا من قوله: صدقت؛ كأنه أعلم منه، ثم قال: فما شرائع الإسلام؟قال: «**تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان، والاغتسال من الجنابة**». قال: صدقت. قال: فعجبنا من قوله: صدقت؛ كأنه يعلم، قال: يا رسول الله! متىٰ الساعة؟ قال: فأعظم رسول الله ﷺ ذكرها؛ فطأطأ رأسه يفكر فيها، ثم قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». قال: فعجبنا من قوله؛ كأنه يعلمه، ثم انطلق -ونحن ننظر إليه-، قال رسول الله ﷺ: «**عليَّ الرجل! عليَّ الرجل!**»،فطلبناه؛ فما يُدرىٰ في الأرض ذهب أو في السماء؛ قال:«**ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم، ما أتاني في صورة إلا عرفته إلا هذه الصورة**»(٥١٦).

وفي **رواية**: **عن أبي هريرة وأبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قالا: كان رسول الله ﷺ يجلس بين ظهراني أصحابه، فيجيء الغريب فلا يعرفه ولا يدري أين هو حتىٰ يسأل، فقلنا يا رسول الله لو جعلنا لك مجلسًا فتجلس فيه حتىٰ يعرفك الغريب، فَبَنَيْنَا له دكانًا من طين (فكان يجلس عليه) فكنّا نجلس بجانبيه (حوله) فكنا جلوسًا (فإنا لجلوس) ورسول الله ﷺ يجيء في مجلسه، إذ أقبل رجلٌ أحسن الناس وجهًا وأطيب الناس ريحًا وأنقىٰ الناس ثوبًا كأنّ ثيابه لم يصبها دنس حتىٰ سلم من

---

(٥١٦) قال **أبو نعيم**: "صحيح ثابت، رواه غير واحد عن سليمان عن بريدة، أخرجه مسلم في صحيحه من حديث علقمة وسليمان". الحلية (٨/ ٢٠٢).

عند طرف السماط (البساط) فقال: السلام عليكم يا محمد! قال: فرد عليه السلام، ثم قال له: أدنو يا محمد؟قال: «**ادن**» فما زال يقول: أدنو يا محمد؟، فيقول محمد ﷺ: «**ادن**» حتىٰ وضع يديه علىٰ ركبتي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، ما الإسلام؟ قال: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**» قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: «**نعم**» قال: صدقت، فأنكرنا منه قوله: صدقت، قال: يا محمد، فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبالقدر كله**» فقال: يا محمد، أخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» قال: صدقت، قال: يا محمد، فأخبرني عن الساعة، قال: فنكس ولم يجبه، ثم عاد فلم يجبه، ثم عاد فلم يجبه، ثم رفع رأسه فحلف بالله أو قال: «**والذي بعث محمدًا بالهدىٰ ودين الحق، ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن لها علامات تعرف بها، إذا رأيت رعاء البهم يتطاولون في البنيان، ورأيت الحفاة العراة ملوك الأرض، وإذا ولدت الأمة ربها، في خمس من الغيب لا يعلمها إلا الله**» ثم قرأ ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ**﴾ إلىٰ ﴿**عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤] ثم سطع غبار من السماء، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي بعث محمدًا بالهدىٰ ودين الحق، ما أنا بأعلم به من رجل منكم، وإنه لجبريل جاء ليعلمكم في غير صورة دحية الكلبي**»(٥١٧). صحيح.

وعَن **أَنَسٍ** رضي الله عنه -، قال: بينما رسول الله ﷺ جالسًا مع أصحابه، إذ جاءه رجل عليه ثياب السفر، يتخلل الناس، حتىٰ جلس بين يدي رسول الله ﷺ فوضع يده علىٰ ركبة رسول الله ﷺ، فقال: يامحمد ما الإسلام؟ قال: «**شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**»، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟ قال: «**نعم**»، قال: صدقت، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: انظروا هو يسأله وهو يصدقه، كأنه أعلم منه -ولا يعرفون الرجل-. ثم قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: «**الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وبالموت، وبالبعث،**

---

(٥١٧) أخرجه إسحاق ابن راهوية في مسنده (١٦٥)، والطبراني (١٣٥٨١)، الزيادات عند البزار. وأما قوله: «**في صورة دحية الكلبي**»، فالظاهر أنها زيادة غير صحيحة، إذ لو ثبتت لعرفه رسول الله ﷺ، وهي مخالفة لرويات الصحيحين وغيرهما أنه جاء في صورة أعرابي، ولم يكن دحية كذلك، ووردت في بعض الروايات: «**ما أتاني في مثل صورته اليوم قط**»، وكان جبريل يأتي في صورة دحية كثيرًا.

وبالحساب، وبالجنة، وبالنار، وبالقدر كله»، قال: فإذا فعلتُ ذلك فأنا مؤمن ؟ قال: «**نعم**»، قال: صدقت، قال: يا محمد ما الإحسان؟ قال: «**أن تخشىٰ الله كأنك تراه، فإن لم تره فإنه يراك**»، قال: فإذا فعلت ذلك فأنا محسن؟ قال: «**نعم**»، قال: صدقت، قال: يا محمد متىٰ الساعة؟ قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**»، وأدبر الرجل فذهب، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**عليَّ بالرجل**»، فاتبعوه يطلبونه، فلم يروا شيئًا ، فعادوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالوا : يارسول الله اتبعنا الرجل فطلبناه فما رأينا شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك جبريل** ﷺ **جاءكم ليعلمكم دينكم**»(٥١٨).صحيح.

وفيه حرص الصحابة علىٰ تعلم العلم. **وفيه** إفشاء السلام علىٰ العالم بحضرة أصحابه؛ لرواية: "أتاه رجلٌ حسن الوجه، طيب الريح، نقي الثوب فقال: السلام عليك يا رسول الله ﷺ أدنو منك؟"، وفي رواية: "إذ أقبل رجل يسلم علىٰ رسول الله ﷺ، فردّ رسول الله ﷺ ورد الملأ"، وفيه ردّ السلام علىٰ الداخل للمسجد. **وفيه** جواز سؤال الرجل العالمِ لا ليعلَمَ؛ إنما ليستفيد الناس.

قوله: (فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟)، **فيه** أنَّ الإيمان قول وعمل، وأنه متفاوت المراتب، وأنه يزيد وينقص. **وفيه** رد علىٰ الفلاسفة والزنادقة، وردٌّ علىٰ المرجئة، وردٌّ علىٰ الخوارج؛ حيث غاير بين عدم الإشراك به وبين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وفيه ردٌّ علىٰ الرافضة؛ حيث جعلوا الإيمان بإمامة عليّ من أصول الإيمان، وعصمة أهل البيت -كذلك-. **وفيه** ردٌّ علىٰ الصوفية وجميع أهل البدع؛ من جهة عبادة الله وحده وعدم الشرك بالله، والاتباع الذي هو من مقتضيات الشريعة؛ كما في رواية: «**وشهادة أن محمدًا رسول الله**».

ومما يدلّ علىٰ أركان الإيمان: قوله تعالىٰ ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قال تعالىٰ: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**

---

(٥١٨) أخرجه البزار (٦٩٥١) قال: وهذا الحديث لا نعلمه يروىٰ، عَن أَنَس إلاَّ من هذا الوجه بهذا الإسناد والضحاك بن نبراس قد روىٰ، عن ثابتٍ غير حديث وليس به بأس، غريب من حديث أنس.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٥٢].

وقال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

قوله: (قَالَ: الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ)، والإيمان بالله أن تؤمن بربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته. فيه أنَّ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا في نصٍّ -كهذا-؛ افترقا في المعنىٰ، ودلّ علىٰ أن كل واحد له معنىٰ غير الآخر، وإذا افترقا وأفرد أحدهما في نص؛ اجتمعا ودلّ كل منهما علىٰ معنىٰ الآخر.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللهُ: "في هذا الباب: أنَّ الإسلام والإيمان تختلف دلالته بالإفراد والاقتران؛ فإن أفرد أحدهما: دخل فيه الآخر؛ فلذلك فسَّر النبي ﷺ الإيمان المسئول عنه مفردًا في حديث وفد عبد القيس؛ بما فسر به الإسلام في حديث جبريل الذي قرن فيه الإسلام بالإيمان.

وإن اقترنا: كان هذا له معنىٰ، وهذا له معنىٰ. **وبكل حال**: فالأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، لا يختلفون في ذلك". فتح الباري (١/ ٢٠٧).

وفيه أنّ الإيمان له أصل وفرع. **وفيه** أنَّ أعظم واجبٍ علىٰ الناس هو التوحيد. قال **ابن منده** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الله -عز وجل-: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ [إبراهيم: ٢٤]؛ فضربها مثلًا لكلمة الإيمان وجعل لها أصلًا وفرعًا وثمرًا تؤتيه كل حين فسأل النبي ﷺ أصحابه عن معنىٰ هذا المثل من الله فوقعوا في شجر البوادي، فقال **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: فوقع في نفسي أنها النخلة فاستحييتُ، فقال النبي ﷺ: «**هي النخلة**»، ثم فسر النبي ﷺ الإيمان بسنته إذ فهم عن الله مثله فأخبر أن الإيمان ذو شعب أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله فَجَعَلَ أصلَهُ الإقرارَ بالقلب واللسان، وجعل شعبه الأعمال: فالذي سمَّىٰ الإيمان التصديق؛ هو الذي أخبر أن الإيمان ذو شعب.

فمن لم يسمِّ الأعمال شعبًا من الإيمان كما سماها النبي ﷺ ويجعل له أصلًا وشعبًا كما جعله الرسول ﷺ كما ضرب الله المثل به كان مخالفًا له، وليس لأحد أن يفرق بين صفات النبي ﷺ للإيمان فيؤمن ببعضها ويكفر ببعضها؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان بدأ بالشهادة وقال لوفد عبد القيس: «**أتدرون ما الإيمان؟**»فبدأ بالشهادة وهي الكلمة أصل الإيمان والشاهد بلا إله إلا الله هو المصدق المقر بقلبه يشهد بها لله بقلبه ولسانه يبتدئ بشهادة قلبه والإقرار به، ثم يثني بالشهادة بلسانه والإقرار به بنية صادقة، يرجع بها إلىٰ قلب مخلص فذلك المؤمن المسلم ليس كما شهد به المنافقون إذ قالوا ﴿**نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ**﴾[المنافقون: ١] قال الله: ﴿**وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾[المنافقون: ١]".الإيمان لابن منده (ص ٣٥٠).

وفيه وجوب الإيمان بالغيب، وفي بعض الروايات: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره من الله -عزوجل-**»، وهذا داخل في الإيمان بالله، إذ إن القدر من أفعال الله؛ **ففيه** ردٌّ علىٰ القدرية، والجبرية.

وفيه أنَّ الغيبيات لا تدرك بالنظر والاستدلال العقلي وإنما يكون ذلك بطريق الوحي. **وفيه** وجوب معرفة الأسماء والصفات التي أثبتها الله -تعالىٰ- لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ، من

قوله:«**أن تؤمن بالله**». **وفيه** ردٌّ علىٰ الجهمية في، والمعتزلة "في نفيهم لبغض الصفات، وفي جعلهم الإيمان خمسة أصول-هي إلىٰ الشرك أقرب-"، ونحوهم.

وفيه ردٌّ علىٰ الجماعات والفرق المعاصرة في تقديم غير التوحيد عليه، وجعلهم الأولوية لما يدعون الناس إليه من دعوة للتبليغ، أو دعوة للخلافة، أو دعوة للحاكمية أو دعوة للجهاد. وحقيقة توحيد الله توجب توحيد الكلمة، وأنّ أيّة دعوة علىٰ خلاف هذا هيَ دعوة تحزب وتفرق وتمزيق للأمة، وفيها من المشاقَّة لله ورسوله ﷺ بقدر بُعدها عن حقيقة التوحيد بشِقيه، وهم مع كل ما يدعون الناس إليه وما تسمع منهم من جعجعة لم يهتموا بإصلاح عقائد وصلاة وعبادات أتباعهم؛ يعني: لم يصلحوا دينهم بل وينكرون علىٰ من يقوم بهذا الواجب -وإلىٰ الله المشتكىٰ-.

وفيه إشارة إلىٰ تلازم عمل الظاهر مع عمل الباطن، وعدم فصلهما. **وفيه** ردّ علىٰ القائلين بوحدة الوجود، وأهل الحلول والاتحاد؛ حيث غاير -سبحانه- بينه وبين خلقه من الملائكة والرسل وغيرهم.

وقوله: **(وَمَلَائِكَتِهِ)**، الإيمان بالملائكة: هو التصديق بوجودهم وأنهم كما وصفهم الله -تعالىٰ- عبادٌ مكرمون، وقدَّم الملائكة علىٰ الكتب والرسل نظرًا للترتيب الواقع؛ لأنه -سبحانه وتعالىٰ- أرسل الملك بالكتاب إلىٰ الرسول؛ وليس فيه متمسَّكٌ لمن فضل الملَك علىٰ الرسول.

فيه الإيمان بالملائكة علىٰ الإجمال، والإيمان بهم علىٰ التفصيل؛ بأسماء من ذكر منهم، وما ورد فيهم.

وقوله: **(وَكُتُبِهِ)**، الإيمان بكتب الله: التصديق بأنها كلام الله وأن ما تضمنته حق. **فيه** الإيمان بجميع كتب الله المنزلة علىٰ رسله، إيمانًا إجماليًا، وإيمانًا مفصلًا؛ كالإيمان **بالتوراة** التي كتبها الله بيده لموسىٰ -عليه الصلاة السلام-، **والإنجيل** الذي أنزل علىٰ عيسىٰ -عليه الصلاة السلام-، **والزبور** الذي أنزل علىٰ داود - عليه الصلاة السلام -، **وصحف** إبراهيم وموسىٰ وغيرها.

وقوله: **(وَبِلِقَائِهِ)**، أي: لقاء المحاسبة، لقول الله -تعالىٰ-: ﴿**يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ* فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾[الانشقاق: ٦-٧]وقيل: المراد باللقاء رؤية

الله -تعالىٰ-، وأنها حق؛ وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله -تعالىٰ- في الآخرة؛ إذ جعلت من قواعد الإيمان. إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة كما هي عقيدة أهل السنة والحديث، من قوله: «**بلقائه**».

وقوله: **(وَرُسُلِهِ)**، أي: الإيمان برسل الله جميعًا -أيضًا- إجمالًا وتفصيلًا وبما جاءوا به، فعن **أبي هريرة** مرفوعًا: «**صلوا علىٰ أنياء الله ورسله فأن الله بعثهم كما بعثني**». "الصحيحة (٢٩٦٣).

وعن **عائشة** رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ: «**إذا سلمتم عليَّ سلموا علىٰ المرسلين فإنما أنا لرسول من المرسلين**». "الصحيحة" (٢٩٦٣).

قال: أن تؤمن بما سمىٰ الله في كتابه من رسله (وسمىٰ رسوله) وتؤمن بأنه سماهم رسلًا وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسلهم وتؤمن بمحمد وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل وإيمانك بهم إقرارك بهم، وإيمانك بمحمد ﷺ إقرارك به وتصديقك إياه يامن اتبعت إياه علىٰ ما جاء به أديت الفرائض أحللت الحلال وحرمت الحرام فوقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات.

قوله: **(وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ)**، فيجب الإيمان بأركان الإيمان هذه ومتىٰ لم يؤمن العبد بشيء منها كفر بالله العظيم.

وفي بعض الروايات: « **وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان** » قال فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟[٥١٩]. صحيح لغيره.

وفيه الإيمان بالبعث والنشور.

قوله: **(قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)**، وفي رواية -من حديث **ابن عباس**-: «**الإسلامُ أنْ تُسلِمَ وَجهَكَ للهِ، وتَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّ محمدًا عَبدُه ورَسولُه**». صحيح: تخريج المسند لشعيب (٢٩٢٤).

---

(٥١٩) أخرجه أحمد (٢٩٢٤)، وفيه شهر بن حوشب، وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الروياني (١٤٢٥)، وفيه عبدالملك بن قدامة وهو ضعيف. والطبراني في مسند الشاميين (٢٤٤٠) بإسناد ضعيف.

فيه وجوب الشهادة بالتوحيد. **وفيه** ذمُّ الشرك وأهله، وهجرُه وهجرُ أهله. **وفيه** أنَّ أعظم واجب علىٰ الناس هو التوحيد؛ حيث قدمه لما سئل عن الإسلام، ولما سئل عن الإيمان. **وفيه** أهمية توحيد الإلهية ووجوبه علىٰ العباد. **وفيه** الإشارة إلىٰ شرطَيْ قَبول عمل المسلم؛ وهما: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

قوله: **(وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ)**، وفي رواية: «**الحج من استطاع له سبيلًا، والغسل من الجنابة**»، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "رواية ابن حبان، أضاف إلىٰ ذلك «**الاعتمار والغسل من الجنابة وإتمام الوضوء**»، وفي هذا تنبيه علىٰ أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في مسمّىٰ الإسلام وإنما ذكرنا ههنا أصول أعمال الإسلام التي ينبني عليها في حديث **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: «**بني الإسلام علىٰ خمس**»". جامع العلوم والحكم (١/ ٩٨).

فيه وجوب الصلاة والزكاة وصوم رمضان، والحج وأنها مباني وأركان الإسلام. **وفيه** ما قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أنّ من أكمل الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلمًا حقًا مع أن من أقر بالشهادتين صار مسلمًا حكمًا فإذا دخل في الإسلام بذلك ألزم بالقيام ببقية خصال الإسلام ومن ترك الشهادتين خرج من الإسلام، وفي الصلاة خلاف". المصدر السابق (١/ ٩٨) بتصرف يسير.

وفيه وجوب غُسل الجنابة والوضوء والاعتمار. **وفيه** أهمية عمل الظاهر، وأنه من الإيمان. **وفيه** المغايرة بين الأعمال الظاهرة والباطنة. **وفيه** أن مرتبتي الإيمان والإحسان أعلىٰ من مرتبة الإسلام. **وفيه** جواز إطلاق رمضان علىٰ الشهر. **وفيه** أنّ المكوس والضرائب التي تفرض علىٰ الناس بدعة محدثة وهي مردودة؛ وهي محرمة -لا يجوز الوفاء بها-، وأنها من أكبر الكبائر التي تعود علىٰ الدول بالهوان.

قوله: **(مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)**، وفي رواية: «**قال تعمل لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه**»، وفي أخرىٰ: «**قال: أن تخشىٰ الله كأنك تراه فإلا تكن تراه**».

وعن سويد بن غفلة قال: أخذ **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بيدي فقال: "يا أبا أمية! إني لا أدري لعلنا لا نلتقي بعد يومنا هذا،**اتق الله ربك إلىٰ يوم تلقاه كأنك تراه**، وأطع الإمام وإن كان عبدًا حبشيًا مجدعًا، إن ضربك فاصبر، وإن أهانك فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن أمرك بأمر ينقص دينك فقل: طاعة مني، دمي دون ديني، ولا تفارق الجماعة". **إسناده صحيح**: أخرجه الداني في السنن الواردة

في الفتن. وقوله: "ينقص دينك"، دليل علىٰ نقصان الإيمان بالمعاصي.

وقال -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ [البقرة: ١١٢]، وقوله -سبحانه-: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾[النساء: ١٢٥]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَىٰ اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ [لقمان: ٢٢].وقوله ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء**». أخرجه مسلم (١٩٥٥).

وقوله -عزّ وجل-: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾ [الرحمن: ٦٠]، أَي: ما جزاءُ مَنْ أَحسَن في الدُّنيا إِلا أَن يُحسن الله إِليه في الآخرة، فالله -عز وجل- محسن أحسن كل شيء خلقه فأتقنه وأبدع صنعته وصبغته، وأحسن إلىٰ خلقه بعموم نعمه وشمول كرمه وسعة رزقه مع مخالفتهم لأمره ونهيه، وأحسن إلىٰ المؤمنين فوعدهم الحسنىٰ وعاملهم بفضله، وأحسن إلىٰ من أساء فأمهله، ثم حاسبه بعدله، أو عامله بفضله.

فمنزلة الإحسان -وهو مقام الشهود-؛ يجعل أهل الإحسان يقولون: ﴿**فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[آل عمران: ٥٣].

وكان أبوعثمان **سعيد بن إسماعيل** يقول: "صدقُ الإخلاص نسيان رؤية الخلق لدوام النظر إلىٰ الخالق و**الإخلاص**: أن تريد بقلبك وبعملك وعلمك وفعلك رضا الله -تعالىٰ-؛ خوفًا من سخط الله كأنك تراه بحقيقة علمك بأنه يراك؛ حتىٰ يذهب الرياء عن قلبك، ثم تذكر منة الله عليك إذ وفقك لذلك العمل؛ حتىٰ يذهب العجب من قلبك، وتستعمل الرفق في عملك؛ حتىٰ تذهب العجلة من قلبك؛ وقال رسول الله ﷺ: «**ما جُعل الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه**». شعب الإيمان (٥/ ٣٤٨).

فمراقبة الله في السر والعلن، وفي كل حركة وسكنة؛ ليستشعرَ العبدُ نظرَ الربِّ إليه، واطلاعَه عليه؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**﴾ [الرعد: ١٠].

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يشير الحديث إلىٰ أن العبد يعبدُ الله -تعالىٰ- علىٰ هذه الصفة: وهو استحضار قربه وأنه بين يديه كأنه يراه، وذلك يوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم؛

كما جاء في رواية **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**أن تخشىٰ الله كأنك تراه**»، ويوجب -أيضًا- النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها، وقد وصَّىٰ النبي ﷺ جماعة من الصحابة بهذه الوصية".جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٦).

فعن **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: جاء رجلٌ إلىٰ النبي ﷺ فقال: زودني حكمة أعيش بها؛ فقال: «**استح الله كما تستحي رجلًا من صالحي عشيرتك لا يفارقك**».إسناده: روىٰ **الحافظ أبو بكر الإسماعيلي من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة: حدثني أبي عن نصر بن علقمة عن أخيه عن عبد الرحمن بن عائذ قال: قال عمر** هذا حديث غريب، **وله شاهد** من حديث سعيد بن يزيد قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «**أوصيك أن تستحي من الله كما تستحي من الرجل الصالح من قومك**»[٥٢٠].صحيح.

وقد تكررت وصية النبي ﷺ الناسَ بأن يعبدوا الله كأنهم يرونه -سبحانه- في غير ما حديث؛ منها: حديث**ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي، فقال: «**اعبد الله كأنك تراه،وكنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**»[٥٢١].صحيح.

وعن رجل من بني النخع قال سمعت **أبا الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حين حضرته الوفاة قال: أحدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول:«**اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك واعدد نفسك في الموتىٰ وإياك ودعوة المظلوم فإنها تستجاب**». **حسن لغيره**:أخرجه الطبراني، وهو في صحيح الترغيب (٣٣٥١).

وعن عبد الله بن مرة قال: قال **أبو الدرداء**: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتىٰ، واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يلهيكم، واعلموا أنَّ البر لا يبلىٰ وأن الإثم لا ينسىٰ". رجاله ثقات لكنه منقطع:أخرجه وكيع في الزهد (١١)، وابن المبارك في الزهد (١١٥٥)، وهناد في الزهد (٥٠٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٢٢).

وعن أبي سلمة، أن معاذ بن جبل- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: يا رسول الله أوصني، قال: «اعبد الله

---

(٥٢٠)أخرجه مجشل في تاريخ واسط (ص٢٠٩) باختلاف يسير، وأحمد في الزهد (ص٤٦)، والبيهقي في الشعب(٧٧٣٨)، وهو في صحيح الجامع (٢٥٤١)،والصحيحة (٧٤١).

(٥٢١)أخرجه أحمد (٦١٥٦)، وهو في الصحيحة (١٤٧٣).

كأنك تراه، وعد نفسك في الموتىٰ، واذكر الله عند كل حجر، وعند كل مدر، وإذا عملت السيئة فاعمل إلىٰ جانبها حسنة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك بك من هذا كله». قال: ما هو يا رسول الله ؟ قال: «هذا» وأشار إلىٰ لسانه، فقال معاذ: هذا يا رسول الله هذا كأنه ... هذه . فقال رسول الله ﷺ: «وهل يكب الناس علىٰ مناخرهم في نار جهنم إلا هذا».
مرسل:أخرجه الطبراني (٣٧٤)،شعب الإيمان من طريق أخرىٰ (٥٤٨)،وأصله في الصحيحة (١٤٧٥). ؟؟

وروىٰ أبونعيم من حديث **عبد الله بن علوية العامري** مرفوعًا: "ثلاثٌ من فعلهن فقد طعِم الإيمان: إن عبد الله وحده وأعطىٰ زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدَّرنة ولا الشّرط اللئيمة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم وزكىٰ نفسه"، وقال رجل: يا رسول الله! ما تزكية المرء نفسه؟ فقال: «**يعلم أنَّ الله معه حيث كان**».إسناده صحيح،: الصحيحة (٣/ ٣٨).

وعن**أنس** رضي الله عنه – أن رجلًا قال: يا رسول الله! حدثني بحديث واجعله موجزًا. فقال:«**صل صلاة مودع فإنك إن كنت لا تراه فإنه يراك**». حسن:أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٤٢٧)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٠).

وفي حديث **حارثة** رضي الله عنه – المشهور، وقد روي من وجوه مرسلة، وروي متصلًا والمرسل أصح أن النبي ﷺ قال له: «**يا حارثة كيف أصبحت**» قال: أصبحت مؤمنًا حقًا. قال: «**انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة**» قال: يا رسول الله عزفتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلىٰ أهل النار كيف يتعاوون فيها. قال: «**أبصرت فالزم عبدٌ نورَ اللهُ الإيمانَ في قلبه**»(٥٢٢). **حسن لغيره.**

---

(٥٢٢)أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦) واللفظ له، وفي حديث حارثة المشهور وقد روي من وجوه مرسلة وروي متصلا والمرسل أصح أن النبي صلىٰ الله عليه و سلم قال له: (يا حارثة كيف أصبحت) قال: أصبحت مؤمنـًا حقـًا، قال: (انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة) قال: يا رسول الله عزفتُ نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزا وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها وكأني أنظر إلىٰ أهل النار كيف يتعاوون فيها قال: (أبصرت فالزمْ، عبد نور الله الإيمان في قلبه (صحيح لغيره
التخريج :

حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا أبو كريب ثنا زيد بن الحباب ثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم : عن الحارث بن مالك الأنصاري رواه الطبراني

وأخرجه البيهقي في الشعب، بنفس الإسناد

و قد أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي أنا علي بن الفضيل بن محمد بن عقيل ثنا مطين ثنا محمد بن العلاء ثنا زيد ثنا ابن لهيعة ثنا خالد بن يزيد السكسكي عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم عن الحارث بن مالك : أنه مر برسول الله صلىٰ الله عليه و سلم فقال له : كيف أصبحت يا حارثة قال : أصبحت مؤمنا حقا قال : انظر ما تقول أن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك قال : عزفت نفسي عن الدنيا و كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزا و كأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها و كأني أنظر إلىٰ أهل النار يتضاغون فيها قال : يا حارثة عرفت فالزم قالها ثلاثا هذه القصة في الحارث بن مالك و يقال : حارثة و قصة الأم في الحارثة بن النعمان

وروىٰ محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة :

- 362 حدثنا محمد بن مقاتل المروزي ثنا يوسف بن عطية ثنا ثابت عن أنس بن مالك قال بينما رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار فقال له النبي صلىٰ الله عليه و سلم كيف أصبحت يا حارث قال أصبحت مؤمنا بالله حقا قال انظر ما تقول إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولك قال يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني بعرش ربي بارزا أو كأني أنظر إلىٰ أهل الجنة كيف يتزاورون فيها وكأني أنظر إلىٰ أهل النار كيف يتعاوون فيها قال أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه فقال يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة فدعا رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم له بالشهادة فنودي يوما في الخيل فكان أول فارس ركب وأول فارس استشهد فبلغ أمه فجاءت إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم فقالت يا رسول الله أخبرني عن ابني إن يك في الجنة لم أبك ولم أحزن وإن يك غير ذلك بكيته ما عشت في الدنيا قال يا أم حارث إنها ليست بجنة واحدة ولكنها جنة في جنان فالحارث في الفردوس الأعلىٰ فرجعت وهي تضحك وتقول بخ بخ لك يا حارث .

قال محمد بن نصر المروزي رَحِمَهُ اللَّهُ: " أفلا ترىٰ أن النبي صلىٰ الله عليه و سلم أنكر قوله أصبحت مؤمنا حقا حتىٰ سأله عن حقيقة إيمانه ما هي فلما أخبره بالعلامات التي تدل علىٰ حقائق الإيمان واستكماله أجاز ذلك له حينئذ وقال عبد نور الله الإيمان في قلبه فحقيقة الإيمان واستكماله لا يجوز إلا بأداء الأعمال المفترضة واجتناب المحارم فأما اسم الإيمان وحكمه فإنه يلزم بالدخول في الإيمان وإن لم يكن يستكمله وكذلك جميع الأعمال إذا دخل الناس فيها استحقوا اسمها عند ابتدائها والدخول فيها ثم يتفاضلون في استكمالها بالازدياد في الأعمال فمن ذلك القوم يصلون فمن بين مستفتح للصلاة قائم وراكع وساجد وجالس فيقال لهم جميعا مصلون قد لزمهم الاسم بالدخول في الصلاة وإن لم يستكملوها وكذلك الصيام والحج وسائر الأعمال لو أ نفرا أمروا أن يدخلوا دارا فدخلها أحدهم فلما تغيب الباب أقام مكانه وجاوزه

الثاني بخطىٰ ومضىٰ الثالث إلىٰ وسطها والرابع إلىٰ منتهاها لقيل لهم جميعا داخلون وإن كان بعضهم أكثر دخولا من بعض وهذا لا يدفعه أحد يعرف كلام العرب فكذلك الإيمان الدخول فيه في سائر الأعمال، قال الله جل وعز ادخلوا فىٰ السلم كافة، وقال إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ".

أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي بن المؤمل الماسرجسي ثنا أبو عثمان عمرو بن عبد الله البصري ثنا الحسن بن عبد الصمد القهندري ثنا أبو الصلت الهروي انا يوسف بن عطيه ثنا ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم خرج يوما فاستقبله شاب من الأنصار يقال له : حارثة بن النعمان فقال له : كيف أصبحت يا حارثة قال : أصبحت مؤمنا حقا قال : فقال رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم : انظر ما تقول فإن لكل حق حقيقة إيمانك قال : فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري و كأني أنظر إلىٰ عرش ربي بارزا و كأني أنظر إلىٰ أهل الجنة كيف يتزاورون فيها و كأني انظر إلىٰ أهل النار كيف يتعادون فيها فقال : فقال له النبي صلىٰ الله عليه و سلم : أبصرت فالزم مرتين عبد نور الله الإيمان في قلبه قال : فنودي يوما في الخيل يا خيل الله إركبي فكان أول فارس ركب و أول فارس استشهد فجاءت أمه إلىٰ النبي صلىٰ الله عليه و سلم فقالت : يا رسول الله أخبرني عن ابني حارثة أين هو إن يكن في الجنة لم أبك و لم أحزن و إن يكن في النار بكيت ما عشت في الدنيا قال : فقال : لها رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم يا أم حارثه إنها ليست بجنة و لكنها جنان و حارثة في الفردوس الأعلىٰ قال : فانصرفت و هي تضحك و تقول : بخ بخ لك يا حارثه كذا قال : حارثه بن النعمان أخجه البهقي في شعب الإيمان .وقال أيضا البيهقي: هذا منكر وقد خبط فيه يوسف فقال مرة الحارث وقال مرة حارثة ورواه من طريق أخرىٰ: ١٠٥٩٢ – و أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو عبد الله الصنعاني ثنا إسحاق الدبري أنا عبد الرزاق أنا معمر عن صالح بن سمار و جعفر بن برقان : أن النبي صلىٰ الله عليه و سلم قال : للحارث بن مالك ما أنت يا حارث بن مالك أو قال : يا حار قال : مؤمن يا رسول الله قال : مؤمن حقا قال : مؤمن حقا قال : فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة ذلك قال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري و كأني أنظر إلىٰ عرش ربي حين يجاء به و كأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها و كأني أسمع عواء أهل النار فقال النبي صلىٰ الله عليه و سلم : مؤمن نور الله قلبه وقال البيهقي: هذا منقطع.

كذا أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان أن النبي ﷺ قال للحارث

وقال أبو عاصم خشيش بن أصرم في كتاب الاستقامة له حدثنا عبد العزيز بن أبان أخبرنا مالك بن مغول عن فضيل بن غزوان قال أغير علىٰ سرح المدينة فخرج الحارث بن مالك فقتل منهم ثمانية ثم قتل وهو الذي قال له النبي ﷺ كيف أصبحت يا حارثة ورواه بن أبي شيبة عن بن نمير عن مالك بن مغول بالمرفوع ولم يذكر فضيل بن غزوان قال بن صاعد بعد أن أخرجه عن الحسين بن الحسن المروزي عن بن المبارك لا أعلم صالح بن مسمار أسند الا حديثا واحدا وهذا الحديث لا يثبت موصولا<الحارث بن مالك الأنصاري روىٰ حديثه ابن المبارك في الزهد عن معمر عن صالح بن مسمار أن النبي ﷺ قال يا حارث بن مالك كيف

أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا
قال إن لكل قول حقيقة فما حقيقة ايمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلىٰ عرش ربي وكأني أنظر إلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها وكأني أسمع عواء أهل النار فقال مؤمن نور الله قلبه وهو معضل و
وأخرجه في التفسير عن الثوري عن عمرو بن قيس الملائي عن يزيد السلمي قال قال رسول الله ﷺ للحارث كيف أصبحت يا حارث قال من المؤمنين قال أعلم ما تقول فذكر نحوه وزاد في آخره فقال يا رسول الله أدع الله لي بالشهادة فدعا له فأغير علىٰ سرح المدينة فخرج فقاتل فقتل
وجاء موصولا من طرق أخرىٰ وأخرجه الطبراني من طريق سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم وابن منده من طريق سليمان بن سعيد عن الربيع بن لوط كلاهما عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال يا رسول الله أنا من المؤمنين حقا فقال انظر ما تقول الحديث وفي آخره من سره أن ينظر إلىٰ من نور الله قلبه فلينظر إلىٰ الحارث بن مالك
قال بن منده ورواه زيد بن أبي أنيسة عن عبد الكريم بن الحارث عن الحارث بن مالك ورواه جرير بن عتبة بن عبد الرحمن عن أبيه عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ دخل المسجد فإذا الحارث بن مالك فحركه برجله فذكر الحديث
وعَنْ زُبَيْدٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : كَيْفَ أَصْبَحْت يَا حَارِثَ بْنَ مَالِكٍ ، قَالَ : أَصْبَحْت مُؤْمِنًا حَقًّا ، قَالَ : إنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ ذَلِكَ ، قَالَ : أَصْبَحْت عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرْت لَيْلِي وَأَظْمَأْت نَهَارِي وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلَىٰ عَرْشِ رَبِّي قَدْ أُبْرِزَ لِلْحِسَابِ ، وَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ إلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ ، وَلَكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ : عَبْدٌ نَوَّرَ الإيمَانِ فِي قَلْبِهِ ، إذْ عَرَفْت فَالْزَمْ. أخرجه ابن أبي شيبة (ج ١١ / ص ٤٣)(٣١٠٦٤) صحيح لغيره

وبمعناه من حديث معاذ في الأمالي الشجرية (ص٢٢): قال أخبرنا أبو محمد بن عمر بن عبد الله بن رستة بن المهيار البغدادي قراءة عليه. قال حدثنا عمر بن يوسف إملاء، قال حدثنا محمد بن عبد الله المهري، قال حدثنا أبو الدرداء الخراساني. قال حدثنا إسحق بن عبد اله بن كيسان، عن أبيه عن ثابت عن أنس، أن معاذاً دخل علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم وهو متكئ فقال له: كيف أصبحت يا معاذ؟ قال: أصبحت بالله مؤمنًا، قال أن لكل قول مصداقًا ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟ فقال يا نبي الله ما أصبحت صباحًا قط إلا ظننت أني لا أمسي، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرىٰ، وكأني أنظر إلىٰ كل أمة جاثية، كل أمة تدعىٰ إلىٰ كتابها ومعها نبئها وأوثانها وأربابها التي كانت تعبد من دون الله، وكأني أنظر إلىٰ عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، قال: عرفت فالزم."
وبه " قال أخبرنا أبو القاسم الذكواني قراءة عليه. قال أخبرنا ابن حيان. قال أخبرنا دليل بن إبراهيم. قال حدثنا

وسُئل النبي ﷺ عن كشف العورة خاليًا فقال: «**الله أحق أن يستحيا منه**». حسن: أخرجه ابن ماجه (١٥٧٢). (صحيح الجامع:٢٠٣)

وكذلك قول **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- لعروة بن الزبير حين خطب ابنته وهما في الطواف فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال:"كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا" .أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٠٩)، وأخرجه الفاكهي في "أخبار مكة" (٣٣٩).

وقال **فضيل بن عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿**إِن الله يحب الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٥] "من كانت تحت يده دجاجة فلم يحسن إليها؛ لم يكن من المحسنين". تفسير السمعاني (١/ ١٩٥).

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله؛ فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله؛ فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان -هاهنا-: هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانًا إلىٰ الناس أو إلىٰ نفسه، فأعظم

أبو الدرداء يعني المروزي عبد العزيز بن منيب. قال حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه عن ثابت عن أنس بن مالك، أن معاذ بن جبل دخل علىٰ النبي صلىٰ الله عليه ويله وسلم وهو متكئ فقال: " كيف أصبحت يا معاذ؟ قال أصبحت بالله مؤمنـًا، قال إن لكل قول مصداقـًا ولكل حق حقيقة، فما مصداق ما تقول؟ فقال يا نبي الله: ما أصبحت صباحـًا قط إلا ظننت أني لا أمسي وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أني لا أصبح، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرىٰ، وكأني أنظر إلىٰ كل أمة جاثية كل أمة تدعي إلىٰ كتابها معها نبيها وأوثانها وأربابها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إلىٰ عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة، قال قد عرفت فالزم " . الأمالي الشجرية (ص٢٣ .(وورد من حديث عوف بن مالك، والظاهر أن أحد رواته وهم في اسم صحابيه فإنه معروف بالحارث بن مالك:
وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحٍ الأَنْصَارِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَقِيَ عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَصْبَحْت يَا عَوْفَ بْنَ مَالِكٍ ، قَالَ : أَصْبَحْت مُؤْمِنًا حَقًّا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً ، فَمَا ذَلِكَ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ : أَلَمْ أَظْلف نَفْسِي ، عَنِ الدُّنْيَا ، أَسْهَرْت لَيْلِي وَأَظْمَأْت هَوَاجِرِي وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ عَرْشِ رَبِّي ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغُونَ فِيهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : عَرَفْت أَوْ آمَنْت فَالْزَمْ.
مصنف ابن أبي شيبة(ج ١١ / ص ٤٢)(٣١٠٦٢) قال محققه: صحيح لغيره>والذي يقف علىٰ هذه الطرق يقطع بأن لها أصلاً، وأن الحديث حسن لغيره علىٰ أقل أحواله< .سيما وأن لقصة شهادة حارثة أصلا في الصحيح

الإحسان: الإيمان والتوحيد والإنابة إلىٰ الله -تعالىٰ- والإقبال إليه والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه؛ إجلالًا ومهابةً، وحياءً ومحبةً وخشيةً.

فهذا هو **مقام الإحسان**؛ كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل -عليه السلام- عن الإحسان فقال: «**أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه**»، فإذا كان هذا هو الإحسان؛ فرحمته قريب من صاحبه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ يعني: هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يُحسن ربه إليه، قال **ابن عباس** رضي الله عنهما-: "هل جزاء من قال: لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة؟".

حسن: أخرجه الطبراني في الدعاء (١٥٤٤، ١٥٤٥)، بإسنادين ضعيفين يقوي أحدهما الآخر.

ونذكر بعض من أمثلة إجلال السلف وإحسانهم مع الله تعالىٰ في عمل واحد مثل الوضوء، ما قال **ابن رجب** رحمه الله: "ملاحظة جلال من أمر بالوضوء، ومطالعة عظمته وكبريائه، وتذكر التهيؤ للقيام بين يديه ومناجاته في الصلاة، فذلك يهون كل ألم ينال العبد في طلب مرضاته من برد الماء وغيره، وربما لم يشعر بالماء بالكلية، كما قال بعض العارفين: بالمعرفة هانت علىٰ العاملين العبادة".

ثم قال: قال **سعيد بن عامر**: بلغني إن (إبراهيم الخليل) كان إذا توضأ سُمع لعظامه قعقعة.

وكان **علي بن الحسين** إذا توضأ اصفرّ، فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟! فيقول أتدرون بين يدي مَن أريد أن أقوم له؟

وكان **منصور بن زاذان** إذا فرغ من وضوئه يبكي حتىٰ يرتفع صوته، فقيل له: ما شأنك؟! فقال: وأي شيء أعظم من شأني، إني أريد أن أقوم بين يدي من لا تأخذه سنة ولا نوم، فلعله يرضىٰ عني.

وكان **عطاء السليمي** إذا فرغ من وضوئه ارتعد وانتفض وبكىٰ بكاءً شديدًا، فقيل له في ذلك، فقال: "إني أريد أن أتقدم إلىٰ أمر عظيم: إني أريد أن أقوم بين يدي الله عز وجل".

وكانوا يستحضرون اطلاع الله -عز وجل- علىٰ عبده في حال العمل له، وتحمل المشاق لأجله، فمن تيقنّ أن البلاء بعين من يحبه هان عليه الألم، كما أشار تعالىٰ إلىٰ ذلك بقوله عز وجل لنبيه: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾[الطور: ٤٨]، وقوله تعالىٰ لموسىٰ وهارون -عليهما السلام-: ﴿**لا تَخافا إِنَّني مَعَكُما أَسْمَعُ وَأَرىٰ**﴾[طه: ٤٦]". شرح حديث اختصام الملأ الأعلىٰ

(ص ١١).

فانظروا -رحمكم الله- كيف حال السلف في تعظيمهم لله تعالىٰ ذي الجلال والإكرام.

وقوله: **(فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)** "**قيل**: إنه تعليل للأول؛ فإنّ العبد إذا أمر بمراقبة الله تعالىٰ في العبادة واستحضار قربه من عبده حتىٰ كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه فيستعين علىٰ ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع علىٰ سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلىٰ **المقام الثاني**: وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلىٰ قرب الله من عبده ومعيته حتىٰ كأنه يراه، **وقيل**: بل هو إشارة إلىٰ أن من شق عليه أن يعبد الله -تعالىٰ- كأنه يراه فليعبد الله علىٰ أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه؛ كما قال بعض العارفين: "اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك"، وقال بعضهم: "خف الله علىٰ قدر قدرته عليك واستحي من الله علىٰ قدر قربه منك". جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٨- ١٢٩).

والدليل علىٰ ذلك قوله-تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فالذين يخشون ربهم بالغيب هم الذين يعرفون حقَّ الله عليهم ومراقبته إياهم في السر والعلن، ويعلمون أنه مطلعٌ عليهم مهما تستروا، وهم دائمًا منيبون إلىٰ الله كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿**هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**﴾ [ق: ٣٢- ٣٣]، وهذه أعلىٰ درجات السلوك مع الله -تعالىٰ- كما بيَّن أنها منزلة العلماء.

وقال **حافظ حكمي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فبيَّن ﷺ أنَّ الإحسان علىٰ مرتبتين متفاوتتين:

أعلاهما: عبادة الله كأنك تراه؛ وهذا **مقام المشاهدة**: وهو أن يعمل العبد علىٰ مقتضىٰ مشاهدته لله -تعالىٰ- بقلبه وهو أن يتنوَّر القلب بالإيمان وتنفذ البصيرة في العرفان؛ حتىٰ يصير الغيب كالعيان؛ وهذا هو **حقيقة مقام الإحسان**.

الثاني: **مقام المراقبة**: وهو أن يعمل العبد علىٰ استحضار مشاهدة الله إياه واطلاعه عليه وقربه منه فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه؛ فهو مخلص لله -تعالىٰ-؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلىٰ غير الله -تعالىٰ- وإرادته بالعمل، ويتفاوت أهل هذين المقامين بحسب نفوذ البصائر". أعلام السنة (ص ٩٦).

فالعبد الذي بلغ هذه المنزلة يعبد ربه مخلصًا، لا يلتفت إلىٰ أحد سواه، فلا ينتظر ثناء الناس، ولا يخشىٰ ذمَّهم؛ إذ حسبه أن يرضىٰ عنه ربه، ويحمده مولاه.

وإذا وصل العبد إلىٰ هذه الحالة، فإنه يصبح في منزلة عظيمة عند ربه -عَزَّ وَجَلَّ-؛ كما في حديث الولي: «**وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، هو يكره الموت، وأنا أكره مساءته**». سيأتي برقم (٦٥٠٢).

وهذا العبد تساوت علانيته وسره، فهو عابد لربه في الخلوة والجلوة، موقن -تمام اليقين- أنّ الله مطلعٌ علىٰ ما يكنه قلبه، وتوسوس به نفسه، هيمن الإيمان علىٰ قلبه، واستشعر مراقبة ربه واطلاعه عليه؛ فاستسلمت جوارحه لباريها، فلا يعمل بها من العمل إلا ما يحبه الله ويرضاه، مستسلم لربه الاستسلام التام.

وحيث تعلق قلبه بربه فلا يستعين بمخلوقٍ، ولا يتعلق بأحد؛ لاستغنائه بالله، ولا يشتكي لإنسان؛ لأنه أنزل حاجته بالله -سبحانه-؛ وكفىٰ به معينًا، وهاديًا ووليًا ونصيرًا، ولا يستوحش في مكان، ولا يخاف من أحد، ولا يخشىٰ أحدًا؛ لأنه يعلم أن الله معه في كل أحواله، وهو حسبه ونعم النصير. كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا**﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وليُعلم أنّ الله -تعالىٰ- لن يُرىٰ في الدنيا؛ قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كلُّ من ادَّعىٰ أنه رأىٰ ربه بعينه قبل الموت فدعواه باطلة **باتفاق أهل السنة والجماعة**؛ لأنهم اتفقوا جميعًا علىٰ أنَّ أحدًا من المؤمنين لا يرىٰ ربه بعيني رأسه حتىٰ يموت. وثبت ذلك في صحيح مسلمعن **النواس بن سمعان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عن النبي ﷺ، أنه لما ذكر الدجال قال: «**واعلموا أن أحداً منكم لن يرىٰ ربه حتىٰ يموت**»، وكلّ من قال من العُبَّاد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأىٰ ربه بعيني رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان". مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٣٠).

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُفي هذا الحديث: "إشارةٌ إلىٰ أنّ العابد يتخيل ذلك في عبادته، لا أنه يراه حقيقة لا ببصره ولا بقلبه، وأما من زعم أن القلوب تصل في الدنيا إلىٰ رؤية الله عيانًا كما تراه

الأبصار في الآخرة -كما يزعم ذلك من يزعمه من الصوفية- فهو زعم باطل.

فإنّ هؤلاء الصوفية يزعمون أنّ رؤية القلب تصير حالًا ومقامًا دائمًا أو غالبًا لهم، ومن هنا ينشأ تفضيل الأولياء علىٰ الأنبياء، ويتفرع علىٰ ذلك أنواع من الضلالات والمحالات والجهالات، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم". فتح الباري (١/ ١٩٥).

بل إنَّ نبينا محمدًا ﷺ لم يره بعيني رأسه يقظةً علىٰ الصحيح، فإنّ أعظم نعيم يكرم الله به العباد يوم القيامة النظر إليه سبحانه، نسأل الله الكريم أن يمنَّ علينا بفضله وجوده بأنْ نراه في الآخرة، فما أُعطي العبد نعيمًا أعظمَ، ولا ألذَّ من النظر إليه يوم القيامة، وقد حُرِمَ النبي ﷺ من عنقود عنب في الدنيا؛ لأنه من نعيم الجنة، فكيف يراه وينعم بالنظر إليه في الدنيا؛ ولذلك قال ﷺ: «**حجابُه النور**»، وقال: «**نورٌ أنَّىٰ أراه**»، وقال: «**رأيتُ نورًا**».

وفيه أنّ عدم رؤية الله في الدنيا لا تستلزم عدم رؤيته في الآخرة؛ بل إنها كائنة للمؤمنين في الآخرة كما دلَّ عليه الحديث نفسه.

وقوله: «**فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، هو كما قال -تعالىٰ-: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَىٰ**﴾[العلق: ١٤]، وقوله: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ**﴾[طه: ٤٦]، وقوله: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ* وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾[الشعراء: ٢١٨-٢١٩]، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ**﴾الآية[يونس:٦١]، يرىٰ أحوالكم فيه علىٰ تفصيلاتها، شاهد وشهيد عليكم، يرىٰ أعمالكم، يسمع كلامكم، ويبصر أحوالكم جل وعلا، وقد أخبر الله تعالىٰ بقربه ممن دعاه، وإجابته له، فقال: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[البقرة: ١٨٦]، وقد رُوِيَ في سبب نزولها:

عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس علىٰ واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: (اربعوا علىٰ أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم. متفق عليه.

)حاشية (وورد في سبب نزول هذه الآية: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) [البقرة: ١٨٦]، حديث النعمان بن بشير مرفوعا بلفظ: النعمان بن بشير -

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- : قال: قال رسول الله ﷺ «الدُّعاءُ: هو العبادة. وقرأَ { **ادْعُونِي أَستجِبْ لكُمْ ، إنَّ الَّذِينَ يسْتكبِرُونَ عن عِبادَتي سيدخُلونَ جَهنَّم داخِرينَ** } [غافر : ٦٠] فقال أصحابُهُ: أَقرِيبٌ ربُّنَا فنناجِيهِ، أم بعيد فنُناديهِ؟ فنزلتْ { **وإذا سألكَ عبادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداع إذا دعَانِ** } [البقرة : ١٧٦]».الآية. صحيح: أخرجه أبوداود والترمذي وغيرهما.

روي أن أعرابيا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فناديه[٥٢٣]؟ فأنزل الله -عزَّوجلَّ-: (**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**)[البقرة:١٨٦ .[صحيح لغيره، خرجه ابن جرير وابن أبي حاتم . وإسناده ضعيف، لكن يشهد له ما سبق، وما يأتي.

ولكنه له شاهد من مراسيل الحسن أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتابه السنة ١ / ٢٧٧ و ابن حبان في كتابه الثقات ٨ / ٤٣٦ و ذكره سببا لنزول الآية الطبري في تفسيره ٢ / ١٥٨ و ابن كثير في تفسيره ١ / ٢١٩ و القرطبي في تفسيره ٢ / ٣٠٨

وفي الحديث: «**صل صلاة مودع؛ كأنك تراه، فإن كنت لا تراه؛ فإنه يراك**». تقدم تخريجه.

فيه وجوب مراقبة الله -تعالىٰ-، في طاعته وعبادته، وأن يعلم أنه معه من فوق عرشه، بصير بأمره عليم بشأنه؛.**وفيه** أنّ علىٰ العبد إن علم أن الله يراه؛ فحينئذ يحترز في عمله من معصية الله ومن كل ما يغضبه.

وفيه أنَّ علىٰ المسلم أن يتقي ذنوب الخلوات والسر. فعن **ثوبان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لأعلمنَّ أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا، فيجعلها الله -عز وجل- هباءً منثورًا**»، قال ثوبان: يا رسول الله صفهُمْ لنا، جلِّهِمْ لنا أن لا نكون منهم، ونحنُ لا نعلم، قال: «**أما إنهم إخوانكم، ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنَّهُم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها**». **صحيح**: صحيح ابن ماجه(٣٤٤٢)، وهو في الصحيحة (٥٠٥).

وكان الإمام **أحمد** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- ينشِدُ هذين البيتين[٥٢٤] -قائلًا-:

---

(٥٢٣) ذكره سبب النزول عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ. أنّ أعرابيًا قال: يا رسول الله، أقريبٌ ربنا فنناجيه، أم بعيد فناديه؟ فأنزل الله -عزَّوجلَّ-: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ**﴾ [البقرة:١٨٦]. أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٥٢٤) تاريخ بغداد (٦/ ٤٤٨،ت: بشار).

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقلْ ... خلوتُ ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أنّ ما تخفي عليه يَغيبُ

فينبغي للعبد أن يعسىٰ في تحقيق منزلة الإحسان وهي المنزلة العليا فإن عبد العبد ربه بها شمل بإحسانه كل شيء كما قال السعدي عند تفسير قوله تعالىٰ (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) "وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال.

ويدخل فيه الإحسان بالجاه، بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك، الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس، من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشييع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملًا والعمل لمن لا يحسن العمل ونحو ذلك، مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضًا، الإحسان في عبادة الله تعالىٰ"[٥٢٥].تفسير السعدي (ص ٩٠).

وفيه أنَّ الإحسان هو أعلىٰ منزلة من الإيمان.

وفيه أنّ الإسلام والإيمان والإحسان كلُّ ذلك دين.قال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كلُّ ما سأل عنه من **الإسلام والإحسان**؛ فاسم **الإيمان والدِّين** واقعٌ عليه، ألا ترىٰ قوله في حديث هرقل: "هل يرتد أحدٌ منهم سخطة لدينه؟ فزعمتَ أن لا! وكذلك الإيمان"، فسماه مرة **بالدِّين** ومرة **بالإيمان**؛ فهي **أسماء متعاقبة لمعنىٰ واحد**، بخلاف قول **المرجئة**". شرح البخاري (١/ ١١٥).

قوله: (مَتَىٰ السَّاعَةُ؟)، كقوله -تعالىٰ-: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا* إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٤].

قال العلامة **عبد المحسن العباد** -حفظه الله

"تعدَّدت الأسئلة للرسول ﷺ عن الساعة، وكان النَّبيُّ ﷺ يُجيب مَن سأله ببيان بعض أماراتها، أو يُلفت نظر السائل إلىٰ ما هو أهم من سؤاله.

---

(٥٢٥) ومن أراد التوسع في الإحسان، فليقرأ شرح هذا الحديث في كتاب ابن رجب "جامع العلوم والحكم"، وأورد له أمثلة، وشرحه حافظ حكمي في المجلد الثاني من معارج القبول، وأورد له أمثلة.

فعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في صحيح البخاري (٥٩) أَنَّ أعرابيًّا سأل النَّبِيَّ ﷺ، وقال: متىٰ الساعة؟ فقال: «**فإذا ضُيِّعت الأمانةُ فانتظر الساعة**» الحديث.

وعن **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أَنَّ رجلاً سأل النَّبِيَّ ﷺ عن الساعة، فقال: متىٰ الساعة؟ قال: «**وماذا أعددتَ لها؟**» قال: لا شيء، إلاَّ أنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَه ﷺ، فقال: «**أنتَ مع مَن أحببتَ**». متفق عليه". شرح حديث جبريل في تعليم الدين (ص ٧٧).

قوله: **(مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)**، معناه: أَنَّ الخلق لا يعلمون متىٰ تقوم، وأَنَّ أيَّ سائل أو أيَّ مسئول سواء في عدم العلم بها، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: أَنَّ علمَ الخلق كلِّهم في وقت الساعة سواء؛ وهذا إشارة إلىٰ أَنَّ الله -تعالىٰ- استأثر بعلمها". جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٥).

وفيه أَنَّ النبي ﷺ لا يعلم الغيب. **وفيه** ردٌّ علىٰ البوصيري وغيره من المتصوفة وغُلاتهمفي إدعائهم علم الغيب للنبيَّ ﷺ وقوله (فإن من جودكم الدنيا وضرتها، ومن علومك علم اللوح والقلم).

تنبيه:

قال شيخنا **العباد** -حفظه الله-: "ويُشرَع للمسئول إذا لم يكن عنده جواب أن يقول: لا أدري، أو الله أعلم؛ لصلاحية ذلك لكلِّ سؤال، بخلاف: الله ورسوله أعلم، فلا تصلح لكلِّ سؤال، فلو سأل سائل: متىٰ تقوم الساعة تعيَّن في الجواب قول: الله أعلم؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يعلم متىٰ تقوم الساعة.

وأيضًا؛ فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ بعد موته لا يعلم بما يحصلُ لأمَّته من بعده؛ لحديث **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أنا فرطُكم علىٰ الحوض، وليُرفعنَّ رجالٌ منكم ثم ليختلجنَّ دوني، فأقول: يا ربِّ أصحابي! فيُقال: إنَّك لا تدري ما أحدثوا بعدك**». متفق عليه.

والمراد بالأصحاب المشار إليهم في الحديث: الذين ارتدُّوا بعد موته ﷺ وقُتلوا علىٰ أيدي الجيوش التي أرسلها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لقتال المرتدِّين". شرح حديث جبريل (ص ٧٩).

ففيه عدم التجرؤ علىٰ الفتيا بغير علم. **وفيه** أنه ينبغي للعالم أن لا يستنكفَ أن يقول: الله أعلم فيما لا يدري، وعليه أن يعلمه لأتباعه. **وفيه** إثبات صفة العلم لله -تعالىٰ-.

قوله: (وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا)، قال شيخنا **العباد** -حفظه الله-: "وفي رواية: قال: **"فأخبرني عن أماراتها** ..."، أماراتها: علاماتها، وعلامات الساعة تنقسمُ إلىٰ قسمين: علامات قريبة من قيامها، كخروج الشمس من مغربها، وخروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسىٰ ابن مريم -عليه الصلاة والسلام- من السماء، وغيرها. وعلامات قبل ذلك: ومنها العلامتان المذكورتان في هذا الحديث". المصدر السابق.

وفيه أنَّ العالم قد يعدل عن الكلام -فيما لا يفيد المتعلم- إلىٰ ما يفيده وينفعه.

قوله: (إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا)، قال **أبوالقاسم الأصبهاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: أن يكثر أولاد السراري، وقد كانوا في الابتداء يرغبون في أولاد الحرائر، وقلّ من يتخذ منهم السُرِّيَّة". الحجة في بيان المحجة (١/ ٤٤٩).

وفي رواية: «**أن تلد الأمة ربتها**»، وفي أخرىٰ: «**وولدت الإماء رباتهن**»، أي: أن تحكمَ البنت علىٰ الأم -من كثرة العقوق- حكمَ السيدة علىٰ أمَتِها، وورد في الحديث: «**وأعوذ بالله من ولدٍ يكون عليَّ ربًّا، ومن زوجة تشيبني قبل المشيب**». **إسناده جيد**: أخرجه الطبراني في الدعاء (١٣٣٩)، وهو في الصحيحة (٣١٣٧).ولما كان العقوق في النساء أكثر؛ خصّت البنت والأم بالذكر في هذه الرواية.

وفيه ذم الاستعلاء علىٰ الوالدين، والترفع عليهما بقول أو فعل، ولو بإظهار الغلبة في الحجة عليهما، أو رفع الصوت عندهما، ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾[الإسراء: ٢٤]، وقد كان **ابن سيرين** رَحِمَهُ اللَّهُ إذا خاطب أمه، خفض صوته؛ حتىٰ يظنَّ الناس أنه مريض عندها؛ فعن ابن عون، قال: "**كان محمد بن سيرين إذا كان عند أمه؛ خفض من صوته، وتكلم رويدًا**". مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٢٢٩).

تنبيه: أشراط الساعة لا يؤخذ منها حكم شرعي إلا بدليلٍ أو قرينة.

قوله: (وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ)، وفي رواية: «**ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس؛ فذلك من معالم الساعة وأشراطها**». قال: يا رسول الله، ومَنْ أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال: «**العرب**». **حسن**: أخرجه أحمد (٢٩٢٤)، قال **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ:"قلت: وهذا إسناد لابأس به في الشواهد". الصحيحة (٣/ ٢٣٢/ ١٣٤٥).

والمراد: أنه يكثر العقوق، وتفسد الأمور، وتنعكس الأحوال؛ حتىٰ يصبح السيد مسودًا،

والأجير الصعلوك سيدًا، كما جاء في الحديث: «**لا تذهب الدنيا حتىٰ تصير للكع بن لكع**». الجامع الصغير (١٣٢٢٨).

فقوله: «**وإذا تطاوَل رعاة الإبل البهم في البنيان**»، أي: تَفَاخر أهل البادية بالأبنية المرتفعة بعد استيلائهم علىٰ البلاد وتصرفهم في الأموال(٥٢٦). ومعنىٰ البهم: السود، وهي أسوأها عندهم.

قوله: (**فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ تَلاَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...**)، أي: علم وقت الساعة داخل في أمور خمسة وهي المذكورة في الآية: ﴿**إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾ الآية.

وعن **سلمة بن الأكوع** رضي الله عنه -قال: "كنا مع النبي ﷺ في قبة حمراء إذ جاء رجلٌ علىٰ فرسٍ عطوف تتبعها مهرة فقال: من أنت؟ قال: أنا رسول الله. قال: فمتىٰ الساعة؟ قال: «**غيب ولا يعلم الغيب إلا الله**». قال: فمتىٰ يمطر الغيث؟ قال: «**غيب ولا يعلم الغيب إلا الله**». قال: فما في بطن فرسي؟ قال: «**غيب ولا يعلم الغيب إلا الله**». قال: فأعطني سيفك هذا. قال: «**ها**». فأخذه فسلّه ثم هزه فقال له رسول الله ﷺ: «**إنك لن تستطيع الذي أردت**». ثم قال: «**إنّ هذا أقبلَ، فقال: آتيه فأسأله، ثم آخذ سيفي فأقتله**»، فغمد السيف"(٥٢٧). إسناده علىٰ شرط مسلم.

وهذه الخمس المذكورة مما استأثر الله بعلمها، وسماها الله -عزَّ وجلَّ- مفاتح الغيب؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾[الأنعام: ٥٩]؛ فلا يعلمها نبيٌّ مرسل ولا مَلَكٌ مُقرّب، فمن ادّعىٰ(٥٢٨) علم شيءٍ من هذه الخمس؛ فقد

---

(٥٢٦)يشير الحديث إلىٰ الواقع الذي نراه في العرب؛ من تفاخرٍ وتطاولٍ في الناطحات السحاب.

(٥٢٧)أخرجه الروياني في مسنده (١١٣٠)، والطبراني (٦٢٤٥) في المعجم الكبير، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (١٤). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٨٦٩): "رجاله رجال الصحيح". وقال الذهبي في التلخيص: "علىٰ شرط مسلم".

(٥٢٨)فلو سأل سائل: كيف لا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ونحن اليوم نعام مافي الأرحام؟

الجواب: أنه علم ذلك محدود بوقت معين بهد التخليق وعلموا ذلك بأجهزة معينة فلم يعد من الغيب بل من الشهادة،كما لو علم ذلك بعد الولادة، ولكنهم لا يعلموا قبل التكوين ثم مع ذلك هو ظن وقد يخطئون

أعظم الفرية، وافترىٰ علىٰ الله الكذب، وقد قال الله -تبارك وتعالىٰ-: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾[النحل: ١٠٥].

وكذلك سمَّاها رسول الله ﷺ كما في قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متىٰ يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله**». سيأتي برقم (٦٩٤٤).

وقد جاء ذكرها في آخر سورة لقمان في قول الله -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤].

وسبب تسميتها بمفاتيح الغيب: لأنها مفاتيح لما بعدها؛ كما ذكر العلماء؛ فقالوا: قيام الساعة مفتاح لليوم الآخر، ونزول الغيث مفتاح لحياة الأرض، وعلم ما في الأرحام مفتاح لحياة المخلوقات، وما تدري نفس ماذا تكسب غدًا مفتاح للأرزاق، وما تدري نفس بأي أرض تموت مفتاح قيامة كل إنسان.

قوله: (فلمَّا أَدْبَرَ فَقَالَ: رُدُّوهُ، فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا)، وفي رواية: "قال: **ثم انطلق فلبثت ثلاثًا** ثم قال«**يا عمر أتدري من السائل؟**» قلت: **الله ورسوله أعلم**".

وفي رواية أخرىٰ: قال عمر: "ثم قال: «**عليَّ الرجل**» فلم يروا شيئًا، فمكث يومين أو ثلاثة فقال: «**يا ابن الخطاب! تدري من ذاك السائل عن كذا وكذا؟**»".

وفي أخرىٰ: "ثم سطع غبار من السماء؛ فقال رسول الله ﷺ: «**والذي بعث محمدًا بالهدىٰ ودين الحق! ما أنا بأعلم منه من رجل منكم، وإنه لجبريل -عليه السلام- جاءكم يعلمكم**»".

صحيح: أخرجه إسحاق ابن راهوية في مسنده (١٦٥).

قال شيخنا **العباد** -حفظه الله-: "وجاء أنَّه أخبر عمر بعد ثلاث، ولا تنافي بين ذلك؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر الحاضرين ولم يكن عمر رضي الله عنه- معهم؛ بل يكون انصرف من المجلس، واتَّفق

فيه.".

له أنَّه لقي النَّبيَّ ﷺ بعد ثلاث فأخبره". يعني: أنه جبريل.

قوله: **(هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ)**، فسمَّىٰ السؤال علمًا وتعليمًا؛ وذلك أن الناس لم يسألوا عن هذا فأراد أن يعلّمهم، وفي رواية: «**ذاك جبريل -عليه السلام- أتاكم يعلمكم معالم دينكم**».قال أبو زرعة:"**أراد أن تعلموا؛ إذ لم تسألوه**".

وفي رواية -فيها بعض اللِّين-: «**لم يأت علىٰ حال أنكرته قبل اليوم**». خلق أفعال العباد (١٥١).

وفيه عظم هذا الحديث، وأنه أصل لمعرفة الدين؛ فقد جمع قواعده وأسسه[٥٢٩]. **وفيه** ما كان عليه النبي ﷺ من جوامع الكلم. **وفيه** أن الدِّين ما كان عن وحي ونصٍّ، وليس عن آراء وأذواق.

---

(٥٢٩)هذا الحديث يشرحُ الدِّينُ -كلُّه- من خلاله. فابن عثيمين له شرح عليه في مجلد كبير؛ قال فيه: لو اتخذ التبليغيون هذا الحديث -يعني: في دعوتهم-؛ لكفاهم! وكذلك ابن سعدي والعبّاد لهما شرح ماتع عليه؛ وكتاب معارج القبول مبني علىٰ هذا الحديث -أيضًا-.

٣٨- بَابٌ

٥١- حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ، أَنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، أَخْبَرَهُ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، "أَنَّ هِرَقْلَ، قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّىٰ يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ، حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ"(٥٣٠).

تقدم في: (بدء الوحي٧).

الشَّرْح

قوله: (سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ)، قال **ابن رجب**: "ومقصوده أنّ الإيمان يزيد حتىٰ يتم، وأن الدين هو الإيمان؛ فإنه سأله: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ ثم أجاب بأن الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد". فتح الباري (١/ ٢٢٢)، **فيه** أن الإيمان يزيد وينقص.

وفيه دليلٌ علىٰ أن زيادة الأتباع بدعوة الناس إلىٰ ما دعا رسول الله ﷺ الناس إلىٰ الإسلام الأول وهو التعليم بالكتاب والسنة، فيدخل الناس في دين الله أفواجًا.

وفيه أنه ينبغي ألّا نشغل أنفسنا بكثرة الأتباع، ولا نحرص علىٰ ذلك، لكن نحرص علىٰ هداية الناس، وأن نفرح النبي ﷺ بتكثير أمته، بقيامنا بالدعوة إلىٰ الكتاب والسنة، وكثرة التزوج، وكثرة النسل، «**فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**». **صحيح**: ينظر "الإرواء" (١٧٨٤).

قوله: (وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّىٰ يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ)، شاهد لزيادة الإيمان ونقصانه، وهذا ما قرره المصنف -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ-، **وفيه** ما استدل به المصنف من أن الدِّين هو الإيمان.

ومعناه: أن أمر الإيمان لا يتم؛ لأنه يظهر نورًا، ثم لا يزال في زيادة، حتىٰ يتم بالأمور

---

(٥٣٠) وأخرجه مسلم (١٧٧٣)، وأبوداود (٥١٣٦)، والترمذي (٢٧١٧).

المعتبَرة فيه، من صلاة، وزكاة، وصيام، وغيرها، ولهذا نزلت في آخر سنيّ النبيّ ﷺ: ﴿**اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**﴾ الآية [المائدة: ٣]، ومنه: ﴿**وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**﴾ الآية [التوبة: ٣٢]، وكذا جرىٰ لأتباع النبي ﷺ لم يزالوا في زيادة، ودخل الناس في دين الله أفواجا. وفي هذا دليل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، فالإسلام يعلو ولا يعلىٰ عليه، حتىٰ كَمُل بهم ما أراد الله من إظهار دينه، وتمام نعمته، فله الحمد والمنّة. قاله في "الفتح".

قوله: (حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ)، قال **القرطبي** رحمه الله: "أصل البشاشة: التلطف، والتأنس عند اللقاء، يقال: بَشّ به، وبشبش، ومعنىٰ هذا أن القلوب المنشَرِحَة إذا سمعت الإيمان، وأصغت إليه بشَّت له، ورحّبت بلقائه، كما يُفْعَل بالغائب عند اللقاء، ثم إذا حَلَّ الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه، وتوالت عليه أنواره، حتىٰ يَكره أن يعود في الكفر، كما يَكره أن يُقْذَف في النار". المفهم (٣/ ٦٠٥).

فيه ثبات أهل الحق أهل الحديث والأثر، وأنهم لايضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتىٰ الموت. **وفيه** أنّ الإيمان إذا خالط القلب، وكان الرجل سليم الاعتقاد، يكون راسخًا رسوخ الجبال في قلبه، لا يتزلزل، ولا يتزعزع، فيكون الرجل من أهل السنة، أكثر ثباتًا وطمأنينة، وليس فيه تذبذب.

قال **شيخ الإسلام** رحمه الله: "وكذلك ما يوجد من رجوع أئمتهم -أي أئمة البدع- إلىٰ مذهب عموم أهل السنة وعجائزهم كثير، وأئمة السنة والحديث لا يرجع منهم أحد؛ لأن: الإيمان حين يخالطُ بشاشته القلوب لا يسخطه أحد". مجموع الفتاوي (٤/ ٢٣).

ومباحثه تقدمت في "كتاب بدء الوحي"[٥٣١]، ولله الحمد.

---

(٥٣١) باب رقم (١)، حديث رقم (٧).

٣٩- بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ

قوله: **(بَابُ فَضْلِ مَنِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ)**، هذا بابٌ في بيان فضل من طلب البراءةَ والسلامة لدينه، وأنَّ الدِّين والإيمان قد يُخدَش وتؤثر فيه الزلاَّتُ والوقوعُ في المشتبهات، وأنَّ مَن عافاه الله من ذلك؛ فهو دليلٌ علىٰ كمال إيمانه؛ ولذلك قال ﷺ: «**فضل العلم أحبُّ إليَّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع**». صحيح: أخرجه الحاكم (١/ ١٧٠)، (٣١٤)، وهو في "صحيح الجامع" (٤٢١٤).

٥٢- حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّاءُ، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ **النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ** رضي الله عنه- يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا**(أي: لا يعلم حكمها) **كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: فَمَنِ اتَّقَىٰ المُشَبَّهَاتِ؛ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ؛ كَرَاعٍ يَرْعَىٰ حَوْلَ الحِمَىٰ**(موضع الكلأ الذي مَنعَ منه السلطانُ الناسَ) **يُوشِكُ**(أي: يقرُب) **أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًىٰ، أَلاَ إِنَّ حِمَىٰ اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**(أي: المعاصي التي حرمها)، **أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»(٥٣٢).

طرفه في: (البيوع ٢٠٥١).

الشَّرْح

عن **أبي داود السِّجستاني** رحمه الله أنه قال: "أصول السنن في كلّ فنٍ أربعة أحاديث:

أحدها: حديث **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوىٰ**».

---

(٥٣٢)وأخرجه مسلم (١٥٩٩)، وأبوداود (٣٣٢٩، ٣٣٣٠)، والترمذي (١٢٠٥)، والنسائي (٤٤٥٣، ٥٧١٠)، وابن ماجه (٣٩٨٤).

والثاني: حديث **النعمان بن بشير** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحلال بيِّن والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات فمن اتقىٰ الشبهات؛ استبرأ لدينه وعرضه**». الحديث

والثالث: حديث **أبي هريرة** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ: «**من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**».

والرابع: حديث **سهل بن سعد** عن النبي ﷺ أنه قال: «**ازهد في الدنيا؛ يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس؛ يحبك الناس**»". التمهيد لابن عبدالبر (٩/ ٢٠١).

ونظمها بعضهم في قوله:

عُمْدَةُ الدِّين عندنا كلمات أربع من كلام خير البرية
اتق المشبهات وازهد ودع ما ليس يعنيك واعملن بنية

قال **أبوالعباس القرطبي** رحمه الله: "لو أمعنوا النظر في هذا الحديث كله -من أوَّله إلىٰ آخره- ؛ لوجدوه متضمنًا لعلوم الشريعة كلها -ظاهرها وباطنها-.

وأعِد النظرَ فيما عقَدناه من الجُمل في الحلال والحرام، والمتشابهات، وما يُصلِح القلوب وما يفسدها، وتعلُّقِ أعمال الجوارح بها؛ وحينئذٍ: يستلزم ذلك الحديثُ؛ معرفةَ تفاصيلِ أحكام الشريعة كلِّها -أصولِها وفروعِها-". المفهم (٧/ ١٧)مختصرًا.

قوله: (**الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ**)، يؤيده: ما ورد عن **حُريث بن ظُهَير** -وكان من أصحاب عبد الله- قال: قال **عبدالله بن مسعود** رضي الله عنه-: "لقد أتىٰ علينا حينٌ وما نسأل، وما نحن هناك، وإنَّ الله قدَّر أن بلغَ بي ما ترون، فإذا سُئِلتم عن شيء: فانظروا في كتاب الله، فإن لم يكن في كتاب الله؛ فانظروا سنةَ رسول الله ﷺ، فإن لم يكن سنة نبي الله؛ فما اجتمع عليه المسلمون، فإن لم يكن اجتمع عليه المسلمون؛ فاجتهد رأيك: ولا تقل إني أخاف وإني أخشىٰ؛ فإنَّ الحلالَ بيِّنٌ والحرام بيِّن، وبين يدي ذلك مشبهاتٌ؛ فدع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك.

صحيح: أخرجه الدارمي (١٦٨)، والنسائي (٥٣٩٧)، والهروي في ذم الكلام (٣٦١) واللفظ له،وصححه شيخنا الألباني.

قال **النووي** رحمه الله: "إنّ الأشياء ثلاثةُ أقسام:

حلالٌ بيّن واضح لا يخفىٰ حِلُّه؛ كالخبز والفواكه والزيت والعسل والسمن والبن مأكول

اللحم وبيضه -وغير ذلك من المطعومات-، وكذلك الكلام والنظر والمشي -وغير ذلك من التصرفات-؛ فهي حلال بيّنٌ واضح لاشكّ في حله.

وأما الحرام البيّن؛ فالخمر والخنزير والميتة والبول والدم المسفوح، وكذلك الزنا والكذب والغيبة والنميمة والنظر إلىٰ الأجنبية -وأشباه ذلك-.

وأما المشتبهات؛ فمعناه: أنها ليست بواضحة الحل ولا الحرمة؛ فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يعلمون حكمها، وأما العلماء؛ فيعرفون حكمها: بنصٍ أو قياسٍ أو استصحاب أو غير ذلك". شرح مسلم (١١/ ٢٨).

ففيه ذم من قال: هذا حلال وهذا حرام، وهذا شرط وهذا واجب -ونحوه-؛ بلا دليل من الكتاب والسنة. وفي **الأثر**: عن **أبي حفص** في قوله: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ**﴾ [النحل: ١١٦]، قال: نزلت في علماء السوء؛ يفتون الناس برأيهم. أخرجه الهروي في ذم الكلام (٣٦٢).

وعن **عطاء** قال: "**ليس الدينُ الرأيَ؛ ولكنه السمعُ**(أي: النصوص)". **إسناد صحيح**: أخرجه الهروي في ذم الكلام وأهله (٣٦٦).

وفيه أن علىٰ المسلم أن يتبع النص الواضح البين الذي في كتاب الله -تعالىٰ-، أو في سنة رسوله ﷺ، أو ما كان من إجماع الصحابة؛ ليكون علىٰ بينة من أمره، ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨]، ولا يدخل في خلافياتِ وآراءِ الرجال، وقد ورد في الأثر عن شريح أنَّ **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه- كتب إليه: "إذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به؛ ولا يلفتنك عنه الرجال، فإن جاءك أمر ليس في كتاب الله؛ فانظر سنة رسول الله ﷺ؛ فاقض بها، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله وليس فيه سنة من رسول الله ﷺ؛ فانظر ما اجتمع الناس عليه؛ فخذ به، فإن جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ﷺ ولم يتكلم فيه أحد قبلك؛ فاختر أي الأمرين شئت؛ إن شئت أن تجتهد برأيك وتُقْدِم فتَقَدَّم، وإن شئت أن تتأخر فتأخر؛ ولا أرىٰ التأخر إلا خيرًا لك". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٩٩٠)، والنسائي (٥٣٩٩)، وصححه شيخنا الألباني.

وفيه أن علىٰ المسلم أن يتعلَّم -أولًا- المسائل الجلية، والمنصوص عليها؛ وفي مثلها قال

النبي ﷺ: «**تركتكم علىٰ مثل البيضاء نقية، لا يزيغ عنها إلا هالك**». صحيح:أخرجه ابن ماجه (٥)، وهو في الصحيحة (٦٨٨). فيعتني بها -حفظًا ودراسة وتعلمًا وتعليمًا-؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩]، والعالم هو الذي يعلِّم الناس صغار العلم -أي: ما وضَح منه- قبل كباره -وهو: ما دق وكان خفيًا منه-؛ فإنه إن فعل ذلك كان علىٰ خير: فيتعلم الجلي قبل الخفي-وهو: ما يحتاج إلىٰ إمعانِ نظرٍ، وما دق من مسائل العلم المستنبطة، ومسائل القياس والعلة، وما كان من رأي ونحوه؛ وهي المشتبهة التي لا يعلمها كثير من الناس؛ وقد يصيب فيها العالمُ وقد يخطئ-.

وفيه الحرص علىٰ أكل الحلال المحض، والابتعاد عن أكل الحرام؛قال **أبو العباس القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الأصل المصحِّح للقلوب والأعمال: أكلُ الحلال، ويُخاف علىٰ آكل الحرام والمتشابه ألا يقبل له عمل، ولا تسمع له دعوة؛ ألا تسمع قوله -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[المائدة:٢٧]، ومما يدل عليه قوله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾**[المؤمنون: ٥١] وَقَالَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾[البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ، يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ؛ فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟». أخرجه مسلم (١٠١٥).

ولَمَّا شرِب **أبو بكر**-رضىٰ الله عنه- جرعة لبن من شبهة استقاءها؛ فأجهده ذلك حتىٰ تقيأها. فقيل له: أكلّ ذلك في شربة؟!؛ فقال: "والله! لو لم تخرج إلا بنفسي لأخرجتها؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل لحم نبت من سحت فالنار أولىٰ به**»[٥٣٣].

وعند هذا: يعلمُ الواحد منا قدر المصيبة التي هو فيها، وعِظم المحنة التي ابتلي بها: إذِ المكاسبُ في هذه الأوقات قد فَسدت، وأنواع الحرام والشبهات قد عمَّت؛ فلا يكاد أحدٌ منَّا

---

(٥٣٣)صحيح الجامع الصغير (٤٥١)، والصحيحة (٢٦٠٩)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٤٢)، وهو في صحيح موارد الظمأن(١٣٠٢)، (١٥٧٠)، من حديث **كعب بن عجرة** بغير هذه القصة. وقصة الحديث ورد معناها عند البخاري من حديث **عائشة** برقم (٣٨٤٢).

اليوم يتوصل إلىٰ الحلال، ولا ينفك عن الشبهات!

فإن الواحد منَّا -وإنِ اجتهد فيما يعمله- فكيف يعمل فيمن يعامله -مع استرسال الناس في المحرمات والشبهات، وقلَّة من يتقي ذلك من جميع الأصناف والطبقات، مع ضرورة المخالطة، والاحتياج للمعاملة-؟!

وعلىٰ هذا: فالخلاص بعيد، والأمر شديد، ولولا النهي عن القنوط واليأس؛ لكان ذلك الأولىٰ بأمثالنا من الناس، لكنَّا إذا دفعنا عن أنفسنا أصول المحرمات، واجتهدنا في ترك ما يمكننا من الشبهات، فعفو الله -تعالىٰ- مأمول، وكرمه مرجوّ، ولا ملجأ إلا هو، ولا مَفزع إلا إليه، ولا استعانة إلا به، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم". المفهم (١٤/ ١١٨). **قلت**: قال هذا في زمانه! فما عساه أن يقول في زماننا؟!

تنبيه: واعلم أنَّ آيات الصفات من **المحكم البيّن الواضح**، وليست من المتشابه، فإنما المتشابه ما أَشكل معناه والسلف كلهم علىٰ إثبات صفات الرب -سبحانه- علىٰ ما يليق بجلاله؛ وهم علىٰ قول ومنهج واحد، لا يحيدون عنه، ولا يلتبس عليهم.

وإنما **المتشابه**: هو الخوض في الكيفية وحقيقة الصفة، وليس معناها؛ فهذا الذي نكِل علمه إلىٰ الله مع جزمنا بقاعدة: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١].

والناس فيما يشتبه عليهم من الأحكام الشرعية علىٰ قسمين:

أحدهما: من يكون متبينًا لها عالمًا بها، فهذا هو العالم العارف؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ [آل عمران: ٧].

وثانيهما: من لا يتبيّنها ولا يعلم حكمها؛ كما جاء في الحديث.

وقوله: (**لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**)، فقد نفىٰ العلمَ عن كثير من الناس، وليس عن الناس كلهم؛ وهؤلاء: منهم المتقي الشبهات، التارك لها، ومنهم الواقع في الشبهات، المسارع إليها.

وقوله: (**فَمَنِ اتَّقَىٰ المُشَبَّهَاتِ**)، فيه دليل علىٰ وجوب اتقاء الشبهات والابتعاد عنها، وعدم الدخول فيها؛ وذلك لأمرين ذُكرا في الحديث.

وقوله: (**اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ**)، أي: طلبَ البراءة والسلامة لدينه؛ فيسلم عند ربه،

وطلب البراءة لعرضه؛ ليسلم عند الناس من أن يطعنوا فيه؛ فينبغي للفطن أن يبتعد عما يخدش دينه ويثلم إيمانه وعرضه وما يُعاب عليه عند الناس، **ولا يبلغ العبد حقيقة ذلك إلا بأن يترك أبوابًا من الحلال**؛ ليكون حاجزًا له عن الحرام؛ كما روي أنه: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين؛ حتىٰ يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس**».

وفي رواية لحديث الباب: «**اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؛ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ، وَمَنْ أَرْتَعَ فِيهِ؛ كَانَ كَالْمُرْتِعِ إِلَىٰ جَنْبِ الْحِمَىٰ يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًىٰ، وَإِنَّ حِمَىٰ اللهِ فِي الْأَرْضِ مَحَارِمُهُ**». صحيح:أخرجه ابن حبان (٥٥٦٩)، وهو في الصحيحة (٨٩٦).

ولذلك قال **بعض الصحابة**: "**كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام**". الترغيب والترهيب لقوام السنة (٨١٣) بدون سند.

وقال **عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "**كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة الربا**".؟؟؟أخرجه عبدالرزاق (١٤٦٨٣).

وقال **الإمام أحمد**: "وروي عن **ابن عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: "**إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها**". الورع ـ رواية المروزي (١٧٨).

وقال **حسان بن أبي سنان** رَحِمَهُ اللهُ: "**ما من شيء أهون من الورع: إذا رابك شيء؛ فدعه**". أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، ووصله أبو نعيم في الحلية.

قال **الحسن البصري** رَحِمَهُ اللهُ: "**ما زالت التقوىٰ بالمتقين حتىٰ تركوا كثيرًا من الحلال مخافة الوقوع بالحرام**". أخرجه ابن أبي الدنيا؛ كما في الدر المنثور (١/ ٦١).

قلت: وهو عند ابن أبي الدنيا في الورع (ص: ٥٦) بلفظ: "**أدركت أقوامًا يُدْعَوْنَ إلىٰ الحلال وهم مجتهدون فيه، فيدعونه يقولون: نخشىٰ أن يفسدنا حتىٰ يموتوا جهدا**".

وقال **ميمون بن مهران** رَحِمَهُ اللهُ: "لا يسلم للرجل الحلال حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال". حلية الأولياء (٤/ ٨٤).

وقال **سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ اللهُ: "لا يصيب عبدٌ حقيقة الإيمان حتىٰ يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتىٰ يدع الإثم وما تشابه منه". الورع لأحمد رواية المروذي (٤٣٩).

وقال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الورع من قواعد الدين"**. مجموع الفتاوىٰ (٢٩/ ٣١٥).

لذلك كان ورع الكبراء وذوي البصائر: قد انتهىٰ بهم إلىٰ الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله علىٰ البينة الواضحة والبصيرة الفائقة. كتاب إيقاظ الهمم شرح متن الحكم (٧٥).

وأخبر النبي ﷺ أنّ الورع سيقل في الناس مع تأخر الزمان؛ فعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله ﷺ قال: «**ليأتين علىٰ الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال بحلال أم بحرام**». سيأتي برقم (٢٠٨٣).

وقوله: **(وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ)**، وزاد في رواية: «**وقع في الحرام**» أخرجه مسلم (١٥٩٩)، **والشبهات**: هي حجاب المحرمات؛ فاحرص أيها المسلم علىٰ ألا تهتك ستر المحرمات بدخولك في الشبهات.

وفيه ما قاله **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "سدّ الذرائع إلىٰ المحرمات، وتحريم الوسائل إليها". جامع العلوم والحكم (١/ ٢٠٩).

وقوله: **(كَرَاعٍ يَرْعَىٰ حَوْلَ الحِمَىٰ؛ يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًىٰ)**، **والحمىٰ**: هو الشيء الممنوع؛ وذلك أنّ الملوك تحمي بعض الأراضي إذا أخصبت، فتمنع الرعي فيها، لمصلحة خاصة أو عامة، فمن تعدىٰ ودخل في ذلك الحمىٰ؛ عرَّض نفسه للعقوبة، فكذلك من قرَّب نفسه من الشبهات بمواقعتها؛ فإنها تحمله للوقوع في المحرمات.

وفيه إشارة إلىٰ أنَّ الشبه خطَّافة، وأنَّ من ترك نفسه لها خطفته وجرَّته وجرَّأته؛ كما أنَّ المشتبهات تأخذه وتهلكه.

وفيه ما قاله **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من سيَّب دابته ترعىٰ بقرب زرع غيره؛ فإنه ضامن لما أفسدته من الزرع، ولو كان ذلك نهارًا -هذا هو الصحيح-؛ لأنه مُفَرِّط بإرسالها في هذه الحال". جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٠).

وقوله: **(أَلاَ إِنَّ حِمَىٰ اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ)**، فهي ما حماها الله عن عباده، أي: منعهم من قربانها وإتيانها.

وجاء في رواية: «**وبين ذلك أمور مشتبهة فمن ترك ما اشتبه عليه؛ كان لما استبان له أترك، ومن اجترأ علىٰ ما يشك فيه؛ أوشَكَ أن يواقع ما استبان له. والمعاصي حمىٰ الله: ومن يرتع حول**

الحمىٰ؛ يوشك أن يواقعه». متفق عليه.

وقوله: **(أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ؛ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ؛ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ)**، المضغة، معناها: قطعة من اللحم، وسميت بذلك؛ لأنها تمضغ في الفم لصغرها.

فيه إشارة إلىٰ أن المتشابهات تفسد القلب، فإن من صيانة العبد دينَهُ وحفظه إياه أن يَنأَىٰ بنفسه -بعيدًا- عن الشبهات.

ولا ينفع عند الله إلا **القلب السليم**؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ* إِلاّ مَنْ أَتَىٰ اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٨- ٨٩]". جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٠).

وفيه حرص المسلم علىٰ سلامة قلبه؛ وقد كان ﷺ يدعو: «**اللهم إني أسألك قلبا سليمًا، ولسانًا صادقًا**». **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١٧١٣٣)، وهو في الصحيحة (٣٢٢٨)، وكان يدعو ﷺ بثبات قلبه؛ فعن **أم سلمة** رضي الله عنها، قالت: «كنت أسمع النبي ﷺ يكثر أن يدعو به:«**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، قلت: يا رسول الله، دعوة أراك وأسمعك تكثر أن تدعو بها: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**»، قال: «**ليس من آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٦٣٠)،صحيح الترمذي (٣٥١٧)، صحيح موارد الظمأن (٢٠٥٠)، وقد ورد عن جمعٍ من الصحابة؛ فنحن أولىٰ بذلك.

قال **ابن رجب**-: "إشارةٌ إلىٰ أنَّ صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه المحرمات واتقاءه للشبهات؛ بحسب صلاح حركة قلبه.

فإذا كان قلبه **سليمًا** ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الوقوع فيما يكرهه؛ صَلَحَت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلِها، وتوقٍّ للشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب **فاسدًا** قد استولىٰ عليه اتباع الهوىٰ وطلب ما يحبه ولو كرهه الله؛ فسَدت حركات الجوارح كلها وانبعثت إلىٰ كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوىٰ القلب.

و**لهذا يقال**: القلب ملك الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره لا يخالفونه في شيء من ذلك: فإن كان المِلكُ صالحًا؛ كانت

هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدا؛ كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة.

وفيه أن ما كتمه العبد في قلبه؛ يظهر ولابد علىٰ جوارحه؛ قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** -في **شرح هذا الحديث**-: "فبيّن أنَّ صلاح القلب مستلزمٌ لصلاح الجسد: فإذا كان الجسد غير صالح؛ دلَّ علىٰ أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح؛ فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به؛ لا يكون قلبه مؤمنًا، حتىٰ أن المُكْرَهَ إذا كان في إظهار الإيمان؛ فلابد أن يتكلم مع نفسه، وفي السر مع من يأمن إليه، ولابد أن يظهر علىٰ صفحات وجهه وفلتات لسانه -كما قال عثمان- ، وأما إذا لم يَظْهَرْ أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله -قطّ-؛ فإنه يدل علىٰ أنه ليس في القلب إيمان، وذلك أن الجسد تابع للقلب؛ فلا يستقر شيء في القلب إلا ظهر موجبه ومقتضاه علىٰ البدن -ولو بوجه من الوجوه-". مجموع الفتاوىٰ (١٤/ ١٢١).

وفيه أنَّ القلب أصلٌ والجوارح تابعة له: فإذا صلح الأصل؛ صلحت الجوارح، وإذا فسد الأصل؛ فسدت الجوارح؛ قال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالظاهر والباطن متلازمان: لا يكون الظاهر مستقيمًا إلا مع استقامة الباطن، وإذا استقام الباطن؛ فلا بد أن يستقيم الظاهر". مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٢٧٢).

فالتلازم بينهما -صلاحًا وفسادًا-، وهذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة؛ خلافًا للمرجئة الذين يرون أن الإيمان يكون كاملًا في القلب، ولو لم تعمل الجوارح.

وفيه أنه لابد من انقياد الجوارح، وانبعاثها بالعمل- إن صح إيمان العبد، وصلح ما في قلبه-، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال المحققون من العلماء: كل مؤمن مسلم، فإن من حقَّق الإيمان، ورسخ في قلبه؛ قام بأعمال الإسلام، فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح بالأعمال.

وليس كل مسلم مؤمنًا: فإنه قد يكون الإيمان ضعيفًا؛ فلا يتحقق القلب به تحقيقًا تامًا، مع عمل جوارحه أعمال الإسلام فيكون مسلمًا، وليس بمؤمن الإيمان التام". جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٩).

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب **فلابدَّ أن يظهر موجبه ومقتضاه علىٰ**

الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل علىٰ عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه، وهي التصديق لما في القلب، ودليل عليه وشاهد له، وهي شعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له؛ لكن ما في القلب هو الأصل لما علىٰ الجوارح؛ كما قال **أبوهريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **"إنَّ القلب ملك، والأعضاء جنوده: فإن طاب الملك؛ طابت جنوده، وإذا خبث الملك؛ خبثت جنوده"**. مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٦٤٤).

وفي معناه حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما الأعمال كالوعاء إذا طاب أسفله طاب أعلاه وإذا فسد أسفله فسد أعلاه**». أخرجه ابن ماجه بسند صحيح.

وفيه أنَّ فساد ما في القلوب وصلاحه، يظهر علىٰ الجوارح، فما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله علىٰ صفحات وجهه أو فلتات لسانه.

وفيه أنَّ صحة المعتقد، يوجب صحة واستقامة الأعمال، ومعرفة الحق من الباطل، والصواب والخطأ من الأقوال؛ فتصح تصوراته، وتنفذ بصيرته، فتصح تصوارته وتنفذ البصيرة قال **الحسن البصري** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"إن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال"**. الزهد لابن المبارك (١٥٦٥).

وصحَّ أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله لا يَنظُر إلىٰ صوركُم وأموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبِكم وأعمالِكُم**». **متفق عليه**، وهذا لفظ مسلم. فالحق والصراط المستقيم مع أهل الحديث والأثر.

وفيه أهمية تعلم وتعليم العقيدة، فإن استقامة العبد في شؤونه بها، واستقامة المجتمعات والدول، في صحة المعتقد؛ قال النبي ﷺ: «**لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيم لسانه...**». حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨) وفي الصحيحة (٢٨٤١)؛ فهناك ارتباط وثيق بين القلب واللسان، وعمل الباطن وعمل الظاهر.

وفيه الخوف من فساد القلب؛ بظلمته، ونفاقه، وأمراضه، وشبهاته، وشهواته، وأهوائه، فلا يبصر الحق، ولا يهتدي للصواب، ولا يكون موفقًا، ولهذا جاء في الحديث: «**تُعرض الفتن علىٰ القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ تصير علىٰ قلبين، علىٰ أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز، مجخيًّا لا يعرف معروفًا، ولا ينكر**

منكرًا، إلا ما أشرب من هواه ...». الحديث أخرجه مسلم (١٤٤).

ويُروىٰ عن **عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: **"أصلحوا آخرتكم؛ تصلح لكم دنياكم، وأصلحوا سرائركم؛ تصلح لكم علانيتكم"**.حلية الأولياء (٥/ ٢٦٦).

وفيه أنَّ الله -تعالىٰ- سيجمع الأولين والآخرين، ويبلو ما في قلوبهم، ﴿**يَوْمَ تُبْلَىٰ السَّرَائِرُ**﴾ [الطارق: ٩]، وما في الضمائر، ﴿**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾[العاديات: ١٠]، وحوسب العبد علىٰ الصغير والكبير.

قال العلامة **الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "القلوب هي مناط العمل ومعقد النية، والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها علىٰ النية؛ كما في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»، والنية محلها القلب.

ولذا ذكره في معرض الذم: ﴿**فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وفي معرض المدح: ﴿**وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾[الأنفال: ٢]". أضواء البيان (٩/ ٦٨)، بتصرف.

وفيه إشارة إلىٰ أن أطهر قلب، وأطيب نفس، من ذرية آدم، الذي جاءت النصوص فيه؛ هو رسول الله ﷺ، **وجاءت النصوص بأن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمدٍ ﷺ أطهر قلب، وخير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته**، وكان أول ذلك أن غسل الله قلبه، وأخرج حظ الشيطان منه، ثم غسله أخرىٰ، وملأه حكمة وعلمًا، وإيمانًا، وأنزل عليه الوحي، وكان أول ما نزل؛ نزل علىٰ قلب محمد؛ ليكون للعالمين نذيراً، **ثم نظر الله في قلوب الناس بعد قلب محمد ﷺ؛ فوجد قلوب أصحابه؛ فاصطفاهم لصحبة نبيه ﷺ، واختارهم لحفظ دينه، والقيام بشريعته**، فهداهم علىٰ يديه، ورفع بهم الدين.

وقد ثبت في الأثر عن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: قال: **"إن الله -عز وجل- نظر في قلوب العباد؛ فاختار محمدا؛ فبعثه برسالاته وانتخبه بعلمه، ثم نظر في قلوب الناس بعده؛ فاختار له أصحابه؛ فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه ﷺ، فما رآه المؤمنون حسنا؛ فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا؛ فهو عند الله قبيح"**. صحيح أخرجه أحمد في المسند (٣٦٠٠): الضعيفة (١٧/ ٢).

وفي الحديث غير ما تقدر أنَّ من عِظم رحمةِ الله وفضلِه أن وضَّح للناس الحلال والحرام. **وفيه** أنَّ الحلال والحرام ليس مُعضِلة لا علىٰ الصغير ولا علىٰ الكبير-فلا يحتاج في معرفته إلىٰ عالم كبير-. **وفيه** أنَّ الحلال ما أحلَّه الله ورسولهﷺ، قال تعالىٰ: **(وقد فصل لكم ما حَرمَ**

عليكم). وكذلك الحرام. **وفيه** فضل العلم والرسوخ فيه. **وفيه** إشارة إلىٰ قاعدة: الحاظر مقدَّمٌ علىٰ المبيح. **وفيه** فضل الورع وأهميته وأنه من الدِّين والإيمان. **وفيه** إشارة إلىٰ أنَّ من لم يتوقَّ الشبهة في كسبه وعيشه؛ عرَّضَ نفسه للطعن من الناس. **وفيه** إشارة إلىٰ المحافظة علىٰ الدِّين والمروؤة. **وفيه** أنَّ اختلافَ أهل العلم في مسألة لم تتَّضِح بيقين؛ ينبغي أن تُجتنبَ. **وفيه** أنَّ الشُّبهةَ ينبغي أن تكون مُعتبرةً لا مُتوهَّمةً، وإلاَّ لم يَسلم لك مأكلٌ ولا مَشربٌ بدون دليلٍ وبعض الناس تأتيهم وسوسة فيوردون الشبهات علىٰ كل شيء حتىٰ أنه قد يتوهم أن زوجته ربما تكون أخته من الرضاعة بمجرد الظن والتخمين. **وفيه** الردُّ علىٰ مُنكري القياسِ؛ لجواز بقاء المجملِ في حقِّ بعضٍ دون بعضٍ-لا يعلمها كثيرٌ، ويعلمها البعض-. **وفيه** جواز ضرب الأمثال لتقريب العلم للطلاَّبِ. **وفيه** أنَّ الشبهةَ تكونُ في حقِّ أُناسٍ، وليس هي كذلك عند غيرهم. **وفيه** الاهتمام بالقلب وإخلاصه. **وفيه** أنَّ المشبهات والولوج فيها له تأثيرٌ علىٰ القلوب. **وفيه** أنَّ العقل في القلب. **وفيه** الحذرُ من فسادِ القلب؛ وأنه مُفسِدٌ لجميع الجسد، وأنه هو الذي يأمُرُ وينهىٰ. **وفيه** أنَّ الأعضاء لها ارتباطٌ بعضها ببعضٍ. **وفيه** رد علىٰ الذين يخالفون الشرعَ ويقولون أنَّ قلوبنا سليمة؛ فإنه يحاجُّهم هذا الحديثُ.

٤٠- بَابٌ: أَدَاءُ الخُمُسِ مِنَ الإِيمَانِ

قوله: **(بَابٌ: أَدَاءُ الخُمُسِ مِنَ الإِيمَانِ)**، عُقِدت هذه الترجمة لبيان ما يقرره المصنف من أنَّ الأعمال من الإيمان، ومن تلك الأعمال: أداء الخمس من المغنم، فمن أداها؛ زاد إيمانه، ومن قصر في ذلك؛ نقص إيمانه. والمقصود: أنَّ أداء الخمس شعبة من شعب الايمان.

قال **المهلب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجهُ ما ترْجَم له في الإيمان بَيِّنٌ؛ لأنه أمرهم بأربع: فبدأ بالإيمان بالله -تعالىٰ-، وختم بأداء الخمس؛ فدخل ذلك كلُّه في جملة الإيمان". التوضيح (١٨/ ٣٩١).

٥٣- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الجَعْدِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ،عَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- يُجْلِسُنِي عَلَىٰ سَرِيرِهِ، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي حَتَّىٰ أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا(أي: نصيبا) مِنْ مَالِي، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِالقَيْسِ لَمَّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ القَوْمُ -أَوْ مَنِ الوَفْدُ؟**». قَالُوا: رَبِيعَةُ. قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالقَوْمِ -أَوْ بِالوَفْدِ- غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَىٰ**». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ(منزل القبيلة) مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**». قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ**». وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالمُزَفَّتِ -وَرُبَّمَا قَالَ: المُقَيَّرِ- وَقَالَ: «**احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**»(٥٣٤).

أطرافه في: (العلم٨٧، مواقيت الصلاة٥٢٣، الزكاة١٣٩٨، فرض الخمس٣٠٩٥، المناقب٣٥١٠، المغازي٤٣٦٨، ٤٣٦٩، الأدب٦١٧٦، أخبار الآحاد٧٢٦٦، التوحيد٧٥٥٦).

---

(٥٣٤)وأخرجه: مسلم (١٧)، وأبوداود (٣٦٩٢، ٤٦٧٧)، والترمذي(١٥٩٩، ٢٦١١)، والنسائي (٥٠٣١، ٥٦٩٢).

الشَّرْح

قوله: (يُجْلِسُنِي عَلَىٰ سَرِيرِهِ)، **فيه** فضل ابن عباس ومكانه في العلم. **وفيه** جواز اتخاذ المحدِّث المستملي -الذي يكون بينه وبين الناس-؛ وفي رواية: "كنت أترجم بين ابن عباس ويبين الناس". **وفيه** أنه يُكتفىٰ في الترجمة بواحد ثقة. **وفيه** حثٌّ علىٰ أن يتواضع العالم؛ فيجلس معه من هم دونه في العلم والفضل.

قوله: (أَقِمْ عِنْدِي حَتَّىٰ أَجْعَلَ لَكَ سَهْمًا مِنْ مَالِي، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ)، وسبب إقامته؛ رؤيا رآها أبو جمرة نصر بن عمران: فعن أبي جمرة أنه قال: "تمتعت فنهاني ناس عنها فسألتُ **ابنَ عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فأمرني بها فرجعت إلىٰ بيتي فنمت، فأتاني آتٍ في المنام فقال: **عمرة متقبلة وحج مبرور** فأتيت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فأخبرته فقال: الله أكبر سنة أبي القاسم ﷺ، أو سنة رسول الله ﷺ.**متفق عليه**.

وفيه جواز الدَّورات العلمية المكثفة لمدَّةِ شهرين. ورواية مالك بن الحويرث فيها: عشرون يومًا، **وفيه** جواز العمل بالحديث المنسوخ؛ إن لم يبلغه الناسخ -وابن عباس سألته امرأة عن الانتباذ ...؛ فأفتاها بهذا الحديث-، كما في بعض روايات الحديث. **وفيه** أنَّ العالم الجليل قد يغيب عنه الناسخ وبعض السنة فضلًا عمن دونه.

قوله: (مَنِ القَوْمُ -أَوْ مَنِ الوَفْدُ؟ قَالُوا: رَبِيعَةُ)، الوفد الجماعة المختارة من القوم؛ ليتقدموهم في لُقِيِّ العظماء. **وفيه** دليلٌ علىٰ استحباب سؤال القاصد عن نفسه؛ كي يُتزله منزلته. **وفيه** التعبير عن البعض بالكلِّ -فهُمْ من ربيعة وليس كلهم-.

قوله: (مَرْحَبًا بِالقَوْمِ -أَوْ بِالوَفْدِ- غَيْرَ خَزَايَا وَلاَ نَدَامَىٰ)، "خزايا"، أي: غير مهانين ولا مفضوحين. "ولا ندامىٰ"، أي: غير نادمين؛ والمعنىٰ: أنهم أسلموا طوعًا من غير حربٍ أو سبي.

فيه دليلٌ علىٰ تأنيسِ الضيفِ؛ سيَّما البعيد. **وفيه** التعبير عنه-أي: الضيف- بمرحبًا، وأنه يقابلُ بالحفاوةِ -ففي رواية: "**فبشرهم بالخير عاجلًا وآجلًا**"-. **وفيه** تبشير الناس بما يسرهم.

قوله: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ...)،أي: لحرمة القتال فيه عندهم.

فيه أنهم كانوا مسلمين حينئذٍ. **وفيه** أنَّ الطالب يبدأ بالأهم فالأهم. **وفيه** إبداء العذر عن العجز عن توفية الحق. **وفيه** الرحلة في طلب العلم. **وفيه** أنَّ النية في التعلم تكون للعمل وتبليغ الناس.

قوله: (فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلْ بِهِ الجَنَّةَ): أي: قاطع واضح يفصل المنازعة بين الحق والباطل ولا يُشكِل. **وفيه** تعليم الناس ما وجب عليهم من أمور دينهم وعدم الاثقال عليهم، والاعتناء بتيسير العلم وضبطه لهم. **وفيه** أن طالب العلم له أن يطلب من شيخه ذلك. **وفيه** الحرص علىٰ علم السنة والحديث.

قوله: (نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا)،أي: من خلفنا من قومنا الذين خلفناهم في بلادنا. **وفيه** أن علىٰ طالب العلم أن يتعلم العلم بنية انتفاعه هو به، ونفع الناس. **وفيه** الحرص علىٰ تبليغ العلم والإنتفاع به.

قوله: (وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ)، **فيه** أنَّ الأمر والنهي ليس لأحد من البشر إلا رسول الله ﷺ بأمر الله. **وفيه** أنَّ العالم ينبغي أن يعتني بالمتعلم، ويعلِّمه القدر المناسب له -كمًّا وكيفًا-

قوله: (أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟)، إذا فسر الإيمان بأركان الإسلام والأفعال الظاهرة، فهذا يدل علىٰ أن الإيمان يطلق ويراد به الإسلام، وأن الأعمال داخلة في الإيمان كما تدخل في الإسلام، والأدلة علىٰ هذا كثيرة جدًا، ذكر البخاري جملة غير قليلة منها، بل لا يكاد عمل يخلو من ذلك، لارتباطه بالقلب الذي هو محل الإيمان، ولابد فيه من نية وحسبة. **فيه** ردٌّ علىٰ المرجئة الذين أخرجوا الأعمال عن مسمَّىٰ الإيمان.

وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من حسن الخلق. **وفيه** أنَّ الإيمان يطلق علىٰ الإسلام، وأنَّ الأعمال من الإيمان، وأنه قولٌ وعملٌ واعتقادٌ. **وفيه** تعلم التوحيد وتعليمه، وأنه أول واجب علىٰ الناس؛ ولو كانوا مسلمين.

قوله: (قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)، **فيه** قول: "الله ورسوله أعلم"، وأنها تطلق في حياته ﷺ ولا أعلم أن أحدا من السلف استعملها بعد وفاته .

قوله: (شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ . . .)، فيه أنَّ أعظم أنواع التوحيد هو توحيد العبادة (الألوهية). وفيه توحيد النبي ﷺ بالاتباع. وفيه جواز إطلاق رمضان علىٰ الشهر؛ خلافًا لمن منعه.

قوله: (وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ)، أي: الغنائم؛ وهي الأموال المأخوذة من الكفار قهرًا.

فيه أنَّ أداء الخُمس من الإيمان. وجاء الأمر في كتاب الله بذلك؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفيه ردٌّ علىٰ المرجئة وأهل البدع.

قوله: (وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الحَنْتَمِ . . .)، الحنتم، هي: الجرَّة أو الجِرار الخضر، أو الطين المطبوخ (الآجُر). وَالدُّبَّاءِ: القرع اليابس، كانوا يتخذون منه الأوعية. وَالنَّقِيرِ: جذع النخلة ينقر وسطه فيتخذ منه وعاء.وَالمُزَفَّتِ: ما طلي بالزفت؛ وهو المقيَّر.والمُقَيَّرِ: ما طلي بالقار: وهو نبت يحرق إذا يبس؛ تطلىٰ به السفن والإبل، قال ابن الأثير: رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: "تحريم الانتباذ فِي هذه الظروف كَانَ فِي صدر الإِسلام، ثم نسخ".

قلت: يدل علىٰ ذلك، حديث بريدة وغيره.

وقَولَه: (احْفَظُوهُنَّ، وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ)، فيه الأمر بحفظ العلم. وفيه الأمر بتبليغ العلم وأنه يحرُم كتمانه. وفيه العمل بخبر الآحاد في العقيدة والأحكام. وفيه أنَّ قوله: احفظوهن: دليلٌ علىٰ شرط الضبط في الحديث. وأنَّ قوله: «وأخبروا بهنّ»: دليلٌ علىٰ شرط الاتصال في الحديث الصحيح، قلت: وينبغي أن يؤخذ المصطلح بدليله من الكتاب .

٤١- بَابُ مَا جَاءَ: إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ

فَدَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ وَالوُضُوءُ وَالصَّلاَةُ والزَّكَاةُ وَالحَجُّ وَالصَّوْمُ وَالأَحكَامُ. وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] عَلَىٰ نِيَّتِهِ، ونَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَىٰ أَهْلِهِ -يَحْتَسِبُهَا- صَدَقَةٌ، وَقَالَ: «وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ».

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ: إِنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّةِ وَالحِسْبَةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ)، هذه **الترجمة** في بيان أنَّ هذه الثلاث هي في الأعمال شرطٌ لقبولها، ولما كان لفظ: **"الحسبة"**، من الاحتساب، وهو: الإخلاص، كان ذكره عقيب النية أولىٰ؛ لأن النية إنما تعتبر إذا كانت بالإخلاص؛ وبهذا المعنىٰ، قال -تعالىٰ-: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥]، وعن **أبي ذرٍّ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ: «**لا أجر إلا عن حسبة، ولا عمل إلا بنية**». صحيح: أخرجه الديلمي في الفردوس (٧٨٩٤)، وهو في الصحيحة (٢٤١٥)، وقد تقدم.

وقد عقَد المصنف هذا الباب علىٰ ثلاث تراجم، وأخرج في هذا الباب ثلاثة أحاديث؛ لكل ترجمة حديث: فحديث **عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-؛ لقوله: «**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**»، ولقوله: «**وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ**»، وحديث **أبي مسعود ،وسعد بن أبي وقاص** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-؛ لقوله: «**وَالحِسْبَةِ**».

ووجه المناسبة بين هذا الباب والذي قبله: أنَّ الذي ذُكِر قبلُ هو الأعمال التي يدخل بها العبد الجنة، والذي ذكر هنا: أن العمل لا يكون عملًا صحيحًا إلا بعمل القلب، أي: بالنية والإخلاص.

وقوله: (فَدَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ، وَالوُضُوءُ، وَالصَّلاَةُ، وَالزَّكَاةُ، وَالحَجُّ، وَالصَّوْمُ، وَالأَحْكَامُ)، أي: فدخلت جميع الأعمال، والعبادات القلبية والقولية والفعلية والبدنية تحت هذا الباب، بل حتىٰ المباحات ينبغي أن يكون له فيها نية صالحة، فعن **زُبَيد بن الحارث اليامي** رَحِمَهُ اللهُ قال: **"يسرني أن يكون لي في كل شيء نية؛ حتىٰ في الأكل والشرب والنوم"**. الزهد لابن المبارك (١٩٥).

قال شيخنا **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللهُ: "كل هذه دخلت في مسمىٰ الإيمان، ودخلت في عموم النية، فيكون مما احتسبه الإنسان من الإيمان؛ لأن كون الإنسانِ يعمل، وهو في قلبه أنه يحتسب الأجر عند الله؛ فهذا إيمان بالله، وإيمان بالثواب". شرح البخاري (١/ ١٦٥).

وقوله: (وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ عَلَىٰ نِيَّتِهِ . . .)، كلّها أدلة تدلّ علىٰ أهمية النية مع كل عمل، والاحتساب فيها، وأنَّ أيَّ عمل: إن تخلفت عنه النية؛ لا يكون صحيحًا ولا مقبولاً؛ فعن **سفيان** رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال في قوله -تعالىٰ-: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]، قال: "**ما أريد به وجهه**". شعب الإيمان (٦٤٩٠).

وعن **الربيع بن خثيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**كلّ ما لا يبتغي به وجه الله يضمحل**". الزهد لأحمد (١٩٦٣)، والمصنف لابن أبي شيبة (٣٥٥٧٧)، والمخلصيات (٢٥٦٩).

فمن غزا ولم ينو إلا عقالًا فله ما نوىٰ، وليس له غير ذلك، فإن أشرك في نيته، فليس هذا لله؛ بل لمن أشرك فيه مع الله.

٥٤- حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ، عَنْ **عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا**(يحصلها نيةً وقصدًا)**، أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَىٰ مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»[٥٣٥].

تقدم في: (بدء الوحي١).

الشَّرْح

قوله: (**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ**)، وقد أدخل **البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ الإيمانَ في جملة الأعمال، فيشترط فيها النية، وهو اعتقاد القلب. وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث في أول كتاب بدء الوحي[٥٣٦]

---

(٥٣٥) وأخرجه مسلم (١٩٠٧)، وأبو داود (٢٢٠١)، والترمذي (١٦٤٧)، والنسائي (٧٥، ٣٤٣٧، ٣٧٩٤)، وابن ماجه (٤٢٢٧).

(٥٣٦)باب رقم (١)، حديث رقم (١).

بالتفصيل، ولله الحمد.

وقال **ابن بطال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**أراد البخاري الرد علىٰ من زعم من المرجئة: أن الإيمان قول باللسان دون عقد القلب**، ألا ترىٰ إلىٰ تأكيده بقوله: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ**» إلىٰ آخر الحديث". شرح البخاري (١/ ١٢٠).

وقال **الطبري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**في هذا الخبر من الفقه**: تصحيح قول من قال: كلُّ عامل عمل عملاً فهو وإن كان في رأي العين عند من يراه علىٰ وجه؛ فإنه فيما بين العامل وبين ربه علىٰ ما صرفه إليه بنيته ونواه بقلبه، لا علىٰ ما يبدو لعين من يراه". تهذيب الآثار مسند عمر (٢/ ٧٨٧).

وكون النية شرطًا أساسًا في العمل، لا يعني الغُلُوّ في استحضارها؛ لأنَّ ذلك يفسد علىٰ المتعبد عبادته؛ فإن مجرد قصد العمل يكون نِيَّة له، بدون تكلف استحضارها وتحقيقها.

فيه أن النية مَحلُّها القلب، والتلفظ بها بدعة، قال **البغوي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والنية: قصدك الشيء بقلبك". شرح السنة (١/ ٤٠٢).

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "محلُّ النية القلب دون اللسان، باتفاق أئمة المسلمين في جميع العبادات: الصلاة والطهارة، والزكاة، والحج، والصيام، والعتق والجهاد، وغير ذلك ... فإنّ النية هي من جنس القصد؛ ولهذا تقول العرب: نواك الله بخير: أي قصدك بخير". الفتاوىٰ الكبرىٰ (٢/ ٨٨) مختصرًا.

٥٥- حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَدِيُّ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَاللهِ بْنَ يَزِيدَ، **عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا**(أي: يريد بها وجه الله) **فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ»**(٥٣٧).

طرفاه في: (المغازي ٤٠٠٦، النفقات٥٣٥١).

الشَّرْح

(٥٣٧)وأخرجه مسلم (١٠٠٢)، والترمذي (١٩٦٥)، والنسائي (٢٥٤٥).

قوله: (إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَىٰ أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا)، والحسبة؛ يعني: الاحتساب، فينوي العمل، ويحتسب أجره عند الله، يقال: احتسبت بكذا أجرًا عند الله، أي: أنوي به وجه الله -تعالىٰ-. ومنه قوله ﷺ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدم من ذنبه**». تقدم قريبًا (٣٨).

ومهما احتسب العبد نفقاته علىٰ أهله؛ كانت له تلك الأجور بقدر ما ينفق. **وفي هذا** حثٌّ علىٰ تكثير الأهل الزوجات، والذرية، ومن تلزمه نفقاتهم. **وفيه** عدم إهمال هذا الاحتساب؛ كي لا يُفَوِّتَ علىٰ نفسه تلك الصدقات، وهذه من النفقات الواجبة، التي يهمل كثير من الناس الاحتساب فيها، وينساها، وهي أولىٰ من كثير من الصدقات -إن تساوت النفقات-؛ فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «دينار أنفقته في سبيل الله عز وجل، ودينار في المساكين، ودينار في رقبة (أي: في إعتاقها)، ودينارٌ في أهلك،**أعظمها أجرًا الدينار الذي تنفقه علىٰ أهلك**». أخرجه مسلم (٩٩٥)، وأحمد واللفظ له. وذلك لأنها من النفقات الواجبة، وأما غيرها فدونها.

ويشمل الأهل: الوالدين، والزوجة، والأولاد، ومن تلزمه نفقتهم.

٥٦- حَدَّثَنَا الحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ،**عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ** رضي الله عنه-، **أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»**(٥٣٨).

أطرافه في: (الجنائز ١٢٩٥، الوصايا ٢٧٤٢، ٢٧٤٤، مناقب الأنصار٣٩٣٦، المغازي٤٤٠٩، النفقات٥٣٥٤، المرضىٰ٥٦٥٩، ٥٦٦٨، الدعوات٦٣٧٣، الفرائض٦٧٣٣).

الشَّرْح

قوله: (حَتَّىٰ مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ)، استنبط منه النووي أنّ حظ النفس وشهوتها إذا وافق الحق لايقدح في الثواب؛ لأن وضع اللقمة في فيِّ الزوجة يقع غالبًا في حالة المداعبة. وفي

---

(٥٣٨) وأخرجه مسلم (١٦٢٨) وأبو داود (٢٨٦٤) والترمذي (٢١١٦)، وابن ماجه (٢٧٠٨).

الحديث: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**». أخرجه مسلم (١٠٠٦).

فيه حسن العشرة مع الأهل: بإطعام الرجل زوجته وولده بيده بنية حسن العشرة، وإتمام الإحسان، والقيام بالواجبات، وتعليمهم الرحمة، والمحبة والود، وإدخال السرور عليهم. فإن أراد الأجر؛ نوىٰ ذلك، وينبغي ألا يقع في شيء من المنِّ والأذىٰ، ولو سمع من زوجته ما يؤذيه، أو كفرانًا للنعمة أو العشير؛ يحتسب ذلك، ولأنه يفعله يبتغي به وجه الله؛ فلا يضره: مدحُوه أو ذمُّوه، شكروه أو كفروه.

ويأتي الكلام عليه مستوفىٰ في كتاب الوصايا[٥٣٩]، وغيره -إن شاء الله-.

---

(٥٣٩) باب أن يترك ورثته أغنياء، خير من أن يتكففوا الناس، باب رقم (٢)، حديث رقم (٢٧٤٢)، باب الوصية بالثلث، باب رقم (٣)، حديث رقم (٢٧٤٤).

٤٢- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

قوله: (قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: الدِّينُ النَّصِيحَةُ ...)، قال **الخطابي** رحمه الله: "النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له قال ويقال هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام وليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفى بها العبارة عن معنىٰ هذه الكلمة كما قالوا في الفلاح ليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه". شرح النووي علىٰ مسلم (٢/ ٣٧).

ذكر المصنف هذا الحديث معلقًا مشيرًا لحديث **تميم الداري** رضي الله عنه- وهو عند مسلم موصولًا، بلفظ: «**الدِّين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**». أخرجه مسلم (٥٥)، ولم يذكره المصنف موصولًا؛ لأنه ليس علىٰ شرطه.

فالنصيحة لله تكون بالإيمان به -سبحانه وتعالىٰ- والاعتقاد الجازم بأنه ربُّ كل شيء ومليكُه، وأنه الخالق -وحده-، المدبر للكون كله، وأنه هو الذي يستحق العبادة -وحده- لا شريك له، وأن كل معبود سواه، فهو باطل وعبادته باطلة؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [الحج: ٦٢]، وأنه -سبحانه وتعالىٰ- متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، منزه عن كلّ نقص وعيب. وهذا هو التوحيد بأنواعه الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

فأما النصيحة لله في ربوبيته: فتتجلىٰ في الإقرار بأنّ الله وحده هو الخالق للعالمين، وهو المدبر، المحيي، المميت، وهو الرزاق، ذو القوة المتين المتصرف في هذا الملكوت وحده، لاشريك له.

والإقرار بهذا النوع مركوز في الفطر، لا يكاد ينازع فيه أحدٌ من الأمم؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ**﴾ [الزخرف: ٩]، فيذكر الله عن المشركين أنهم يعترفون لله بالربوبية والانفراد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة.

ولم ينكر توحيد الربوبية ويجحدِ الربَّ إلا شواذ من الناس -هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا- لم يحققوا النصيحة لله، وإنما حققوها للطبيعة والمادة اللتين تشهدان أنه لا إله

إلا الله.

فيا عجبًا كيف يعصىٰ الإله أم كيف يجحده الجاحد ... وفي كلّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ علىٰ أنه واحد

وأما النصيحة لله في ألوهيته: فهي أنّ يعبد وحده بجميع أنواع العبادات، وألا يتوجه بشيء إلا له -سبحانه وتعالىٰ-، فمن دعا غير الله، أو ذبح أو نذر لغير الله، أو استعان أو استغاث بميت أو حي غائب فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد أشرك الشرك الأكبر وأذنب الذنب الذي لا يغفر إلا بالتوبة؛ كما يفعل اليوم عند الأضرحة المبنية علىٰ القبور، فإنّ الله لا يرضىٰ أن يشرك معه في عبادته أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ولا غيرهم، قال -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ**﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ١٨]، وقال سبحانه: ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء: ٣٦].

فكلّ عبادة توجه بها إلىٰ غير الله فهي خروج عن النصيحة لله، وعن أداء الحق له -سبحانه وتعالىٰ-.

وأما النصيحة لله في أسمائه وصفاته: فتكمن في إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال، ونفي ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١].

فهذه الأمور كلها واجبة الإقامة بجميع الجوارح وحسب الطاقة، يقول **ابن رجب** رحمه الله: "فالفرض منها -أي النصيحة- مجانبة نهيه وإقامة فرضه بجميع جوارحه ما كان مطيقًا له، فإنْ عجز عن الإقامة بفرضه لآفة حلت به من مرض أو حبس، أو غير ذلك عزم علىٰ أداء ما افترض عليه متىٰ زالت عنه العلة المانعة له، وقد ترفع الأعمال كلها عن العبد في بعض الحالات ولا يرفع عنهم النصح لله، فلو كان من مرض بحال لا يمكنه عمل شيء من جوارحه بلسان ولا غيره غير أن عقله ثابت؛ لم يسقط عنه النصح لله بقلبه، وهو أن يندم علىٰ ذنوبه، وينوي إن صح أن يقوم بما افترض الله عليه ويجتنب ما نهاه عنه وإلا كان غيرَ ناصح لله بقلبه". جامع العلوم والحكم (١/ ٢٢١).

ومن الأمور المستحبة في حقه -تعالىٰ-: أن يراقب المسلمُ اللهَ دائمًا في السر والعلن، فيما يأتي وما يذر من الأمور المستحبة، وأن يستحضر مقامه بين يدي الله دائمًا في الآخرة، ونحو ذلك

مما يدخل في المستحبات.

وأما النصيحة للكتاب: فقد قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإيمان بأنه كلام الله -تعالىٰ- وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر علىٰ مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته، وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين والتصديق بما فيه، والوقوف مع أحكامه، وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه، والتفكر في عجائبه، والعمل بمحكمه، والتسليم لمتشابهه، والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه، ونشر علومه". شرح النووي (٢/ ٣٨).

وقال **محمد بن نصر المروزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما النصيحة لكتاب الله فشدة حبه وتعظيم قدره إذ هو كلام الخالق وشدة الرغبة في فهمه ثم شدة العناية لتدبره والوقوف عند تلاوته بطلب معاني ما أحب الله أن يفهمه عنه فيقوم به لله بعد ما يفهمه بما أمر به كما يحب ويرضىٰ ثم ينشر ما فهم في العباد ويديم دراسته والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه". تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٩٣). وإنكار عقيدة السلف فيه وإنكار العقائد الباطلة فيه القول بخلق القرآن ونحوه.

وأما النصيحة للرسول ﷺ: فقد قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "تصديقه علىٰ الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حيًا وميتًا، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها واستثارة علومها، والتفقه في معانيها والدعاء إليها، والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك". شرح مسلم للنووي (٢/ ٣٩) بتصرف يسير.

وقال **محمد بن نصر المروزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما النصيحة لرسول الله ﷺ في حياته فبذل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته والمسارعة إلىٰ محبته، وشدة الغضب والإعراض عمن يدين بخلاف سنته والإعراض عمن ضيعها لدنيا يؤثره عليها كان منه قريبا أو بعيدًا، ثم التشبه به في جميع هديه". (٢/ ٦٩٣).

ومن النصيحة للرسول ﷺ: أن يؤمن العبد بأنه -عليه الصلاة والسلام- هو خاتم الأنبياء

والمرسلين، وأن كل دعوة للرسالة بعده -عليه الصلاة والسلام- كذب وزور وباطل وطغيان، وأنه يُحَبّ -عليه الصلاة والسلام- لأمر الله -جل وعلا- بذلك، فتقدم محابه علىٰ محاب العبد.

ومن النصيحة له ﷺ عدم إنزاله منزلة فوق منزلته التي أنزلها الله له وهي: العبودية فلا يدعىٰ من دون الله ولا يستغاث به، ولا يحلف به وبالجملة لايغلوا أحد فيه بأنه يعتقد فيه علم الغيب أو إطراءه والمبالغة في الثناء عليه لقوله -عليه السلام-: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ ابن مريم**».

وأما النصيحة لأئمة المسلمين -وهم العلماء والأمراء-: **فالأمراء** في الأمور الدنيوية وكل ما يتعلق بالمسلمين العامة، و**العلماء** في الأمور الدينية.

فالنصيحة لأهل العلم: أن يُحَبُّوا، وأن يُذب عن أعراضهم، وأن يؤخذ ما ينقلونه من العلم، وأن ينصروا فيما نصروا فيه الشريعة، وأن تحفظ لهم مكانتهم، وهذه كلها حقوق واجبة لهم؛ لأن لهم في الملة مقام عظيم، وإذا طعن في أهل العلم، أو لم تبذل لهم النصيحة الواجبة بهذا المعنىٰ، فإنَّ الشريعة تضعف هيبتها في نفوس الناس؛ ولأنه إذا نيل من العالم، أو لم ينصر، ولم يحترم؛ فإنَّ الشريعة يزدادُ ضعفها في نفوس الناس؛ فإنه إنما ينقلها أهل العلم.

وما أفلح قوم -والله!- أهانوا علماءهم، واستخفوا بهم، وضربوا بأقوالهم عُرض الحائط؛ وما تخلق رجلٌ أهانَ من أعزَّهُ الله بفقهِ شريعته.

ومن النصيحة لهم -أيضًا-: عدم التعصبِ لأقوالهم، واعتقادُ أنهم بشرٌ يصيبون ويخطئون، وأنه لا مانع أن تبيّن أخطاؤهم بعلمٍ وأدب، وتردّ أقوالهم بالسنة التي خالفوا فيها، دون الحطِّ من مكانتهم، مع حفظ حقهم، واعتقاد أنهم بين الأجر والأجرين.

وأما النصيحة للأمراء والحكام: فقد قال **النووي** رحمه الله: "معاونتهم علىٰ الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم. قال **الخطابي** رحمه الله: **ومن النصيحة** لهم الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم، إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يدعىٰ لهم بالصلاح". شرح مسلم (٢/ ٣٩).

ومن النصيحة لهم -أيضًا-: أن يُعطوا حقهم الذي أعطاهم الله -جلَّ وعلا-، وبيَّنه -تعالىٰ- في الكتاب، وبينه رسول الله ﷺ في السنة: من طاعتهم في المعروف؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾ الآية [النساء: ٥٩]، وعدم طاعتهم في المعصية؛ لكن لا يجوز الخروج عليهم بسببها؛لقوله ﷺ: «**ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة**». أخرجه مسلم(١٨٥٥).

و: «**من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية**». أخرجه مسلم (١٨٤٨).

وقال ﷺ: «**علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**». متفق عليه، واللفظ لمسلم.

فلا يجوز منازعة ولاة الأمور ولا الخروج عليهم؛ إلا أن يظهر منهم كفرٌ بواحٌ -أي: ظاهر مكشوف-قال الإمام **أحمد** -رحمها الله-: حتىٰ لا يختلف في ذلك- وكانت لهم قدرة علىٰ ذلك، أما إذا لم يكن عندهم قدرة؛ فلا يخرجوا، أو كان الخروج يسبب شرا أكثر؛ فليس لهم الخروج رعايةً للمصالح العامة، **وللقاعدة الشرعية المجمع عليها**:(أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو شر منه؛ بل يجب درءُ الشر بما يزيله أو يخففه)، وأما درء الشر بشر أكثر؛ فلا يجوز بإجماع المسلمين.

ومن النصيحة لهم -أيضًا-: أن تنبههم علىٰ ما يخطئون فيه، وما يتجاوزون فيه الشريعة، وهذه المرتبة -كما قال **ابن دقيق العيد** في شرحه وغيرُه-: "هذه فرض كفاية تسقط بفعل البعض من أهل العلم ونحوهم". **لم أجد كلامه!! ربما يكون بتصرف**

وهذه النصيحة الخاصة لولاة الأمر لها شروط وضوابط: فمن ذلك: أن تكون برفق، وسهولة لفظ؛ لأن حال ولي الأمر -في الغالب- أنه تشقُّ عليه النصيحة، إلا إذا كانت بلفظ حسن. وقد قال -جل وعلا- لموسىٰ وهارون: ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ**﴾ [طه: ٤٤] -أي: لفرعون-.

ومن ذلك: أن تكون النصيحة لولي الأمر سرًّا وليست بعلن؛ لأن الأصل في النصيحة بعامة -لولي الأمر ولغيره-: أن تكون سرًا، لحديث **عياض بن غنم** رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**من أراد أن ينصح لذي سلطان في أمرٍ فلا يبده علانية، ولكن ليأخذ بيده، فيخلو به، فإن قبل منه فذاك،**

وإلا كان قد أدىٰ الذي عليه له». صحيح: أخرجه أحمد (١٥٣٣٣) وفيه قصة، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٩٧) واللفظ له، ظلال الجنة (١٠٩٦).

وفي حديث **أسامة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أنه جاءه جماعة، وقالوا له: ألا تنصح لعثمان؟ ألا ترىٰ ما نحن فيه؟ فقال: "قد كلمته ما دون أن أفتح بابا أكون أول من يفتحه". سيأتي برقم (٧٠٩٨). فدلّ ذلك علىٰ اشتراط أن تكون النصيحة لهم سرًا.

وسُئل **مالك بن أنس** رَحِمَهُ اللَّهُ: أيأتي الرجل إلىٰ السلطان فيعظه وينصح له ويندبه إلىٰ الخير؟ فقال: "**إذا رجا أن يسمع منه، وإلا فليس ذلك عليه**". التمهيد (٢١/ ٢٨٥).

وقال **أبو عمر ابن عبدالبر** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن لم يكن يتمكن نصح السلطان فالصبر والدعاء، فإنهم كانوا ينهون عن سب الأمراء". التمهيد (٢١/ ٢٨٧).

فينبغي لأهل السنة أن يعتنوا بهذا الأصل، فالنصيحة لهم تكون بتأدية حقوقهم المعلومة شرعًا.

وأما النصيحة لعامة المسلمين فهي إرشادهم لما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، بأن يحبوا في الله، وأن ينصروا في الحق، وأن يتعاون معهم علىٰ الخير والهدىٰ، وألا يتعاون معهم علىٰ الإثم والعدوان، وأن يبين لهم الحق، وأن يعطوا حقوقهم وأن يلزموا، وأن تلزمهم بأمر الله -جل وعلا- إذا كانوا تحت يدك، وهذا علىٰ قدر الاستطاعة.

قال **ابن الصلاح** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**والنصيحة لعامة المسلمين**: إرشادهم إلىٰ مصالحهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم وستر عوراتهم... ونصرتهم علىٰ أعدائهم والذب عنهم ومجانبة الغش والحسد لهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه". ينظر: صيانة صحيح مسلم (٢٢٣- ٢٢٤).

ومن النصيحة لعامة المسلمين: أن تدل المسلم وترشده إذا استشارك، ففي حديث: **أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي ﷺ قال له: «**هل لك خادم؟**» قال: لا، قال: «**فإذا أتانا سبيٌ فأتنا**»، فأتي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث فأتاه أبو الهيثم، فقال النبي ﷺ: «**اخترْ منهما**»، فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ المستشار مؤتمن، خذْ هذا فإني رأيته يصلي واستوص به معروفًا**»، فانطلق أبو الهيثم إلىٰ امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته:

ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تعتقه، قال: فهو عتيق، فقال النبي ﷺ: «**إنّ الله لم يبعث نبيًا ولا خليفةً إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالًا، ومن يوق بطانة السوء فقد وقي**». صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٦٩)، وهو في الصحيحة (١٦٤١).

ومن حق المسلم علىٰ أخيه إذا استنصحه أن ينصح له؛ ففي الحديث: «**وإذا استنصحك فانصح له**». أخرجه مسلم (٢١٦٢).

ومن النصح له أن تكفه عن ظلمه، كما في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**». سيأتي برقم (٢٤٤٣).

قوله: (وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾)، يعني: أن النصيحة من الدين، وإذا كانت من الدين فهي من الإيمان، وإذا زادت النصيحة في الأعمال واكتملت؛ اكتمل الإيمان بكمالها، فهي قابلة للزيادة والنقصان، وينقص الدين والإيمان بنقصانها. واحتج بقول الله -تعالىٰ-: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[التوبة: ٩١] فنصيحتهم لله ورسوله أن يكون المانع من جهادهم تلك الأسباب، مع عدم تخليهم عن باقي الواجبات، فهذه هي علامة النصح؛ فلابد لمن تخلف عن عبادة لعذر أن يكون في قلبه نصح لله ورسوله ﷺ.

٥٧- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنِي قَيْسُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ **جَرِيرِ بْنِ عَبْدِاللهِ** رضي الله عنه-، قَالَ: «بَايَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ(أي: عاقدته) عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»(٥٤٠).

أطرافه في: (الإيمان٥٨، مواقيت الصلاة٥٢٤، الزكاة١٤٠١، البيوع٢١٥٧، الشروط٢٧١٤، ٢٧١٥، الأحكام٧٢٠٤).

---

(٥٤٠)وأخرجه مسلم (٥٦)، وأبو داود (٤٩٤٥)، والترمذي (١٩٢٥)، والنسائي (٤١٥٦، ٤١٥٧، ٤١٧٥).

٥٨- حَدَّثَنَا أَبُو النُّعْمَانِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ زِيَادِ بْنِ عِلاَقَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ جَرِيرَ بْنَ عَبْدِاللهِ -رضي الله عنه-، يَقُولُ يَوْمَ مَاتَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَالوَقَارِ(أي: الْحِلْمُ والرَّزانة)، وَالسَّكِينَةِ(أي: السكون والتأني)، حَتَّىٰ يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ، فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ الآنَ. ثُمَّ قَالَ: اسْتَعْفُوا لِأَمِيرِكُمْ(أي: اطلبوا له العفو من الله)، فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ العَفْوَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، قُلْتُ: أُبَايِعُكَ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ، فَشَرَطَ عَلَيَّ: «وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ»، فَبَايَعْتُهُ عَلَىٰ هَذَا، وَرَبِّ هَذَا المَسْجِدِ! إِنِّي لَنَاصِحٌ لَكُمْ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَنَزَلَ.(٥٤١)

تقدم في: (الإيمان٥٧).

الشَّرْح

قوله: (وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ)، في الحديثين هما الشاهد من إيراده، والمناسبة للترجمة فيهما ظاهرة، والنصيحة للمسلم من مقتضىٰ حديث: «**لا يؤمن أحدكم، حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». تقدم برقم (١٣). فمن تمام النصح أن تَنصح لأخيك بما تحب أن يُنصح لك به من الخير.

وجاء في رواية أحمد (١٩٢٤٩) وأبي داود (٤٩٤٥):"وكان -يعني جريرًا- إذا باع الشيء أو اشتراه، قال: **أما إن الذي أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناك فاختر**".

وهذا يتضمن ما ذكر في حديث «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، فالنصيحة لكل مسلم تشتمل علىٰ النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، بل هو نفسه داخل في النصيحة، يجب أن ينصح نفسه في كل قول وعمل.

قوله: (يَوْمَ مَاتَ المُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، قَامَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِاتِّقَاءِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَالوَقَارِ وَالسَّكِينَةِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكُمْ أَمِيرٌ، فَإِنَّمَا يَأْتِيكُمُ

---

(٥٤١)وأخرجه مسلم (٥٦)، والنسائي (٤١٧٤، ٤١٨٩).

الآنَ)، فأمرهم بعد موت أميرهم بتقوىٰ الله، والسكينة، وعدم الفوضىٰ، ونصيحة جرير رضي الله عنه- **للقوم بعد موت أميرهم غاية في إرادة الخير والنصح لهم**؛ فإنه يخشىٰ من الاختلاف والفرقة، فقام بهذه النصيحة العظيمة حتىٰ يأتيهم أمير؛ وهذا هو الواجب علىٰ الناس، البعد عن الفوضىٰ، ونحوها، حفاظًا علىٰ دماء وأعراض وأموال الناس؛ فإن الفتنة إذا وقعت عَمَّ البلاء، وانتهكت الأعراض، وضاعتِ الأموال، وأزهقت الأنفس، ولذلك فإن مثل هذه الاختلافات سيما في غياب الأمير يمكن أن يحدث من الفتن ما يهلك الأمة، قال **أبوالحارث الصائغ** سألت أباعبدالله -يعني: **أحمد بن حنبل**- في أمر كان حدث ببغداد، وهَمَّ قومٌ بالخروج. فقلت يا أبا عبد الله ما تقول في الخروج مع هؤلاء؟ فأنكر ذلك عليهم. وجعل يقول: "سبحان الله! الدماء، الدماء، لا أرىٰ ذلك ولا آمر به. الصبر علىٰ ما نحن فيه خير من الفتنة التي يسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أمَا عَلمتَ ما كان الناس فيه -يعني أيام الفتنة-؟".

قلتُ: والناس اليوم أليس هم في فتنة[٥٤٢] يا أبا عبد الله؟ قال: "وإن كان!! فإنما هي فتنة الخاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة وانقطعت السبل. الصبر علىٰ هذا ويَسْلم لك دينُك خيرٌ لك". ورأيته ينكر الخروج علىٰ الأئمة وقال: الدماء لا أرىٰ ذلك ولا آمر به". المسائل المروية عن أحمد في العقيدة (٢/ ٤)، ومن صفات أهل السنة والجماعة أنهم نَصَحَةٌ للأمة، فينبغي أن يتحرىٰ هدي الشريعة، وأن ينصح وفق ما بينته الشريعة.

تم بحمد الله شرح كتاب الإيمان

(٥٤٢) يعني: فتنة خلق القرآن.

٣- كِتَابُ العِلْمِ



٣- كِتَابُ العِلْمِ

قوله: (**كِتَابُ العِلْمِ**)، ذكر البخاريُّ -هنا- "**كتاب العلم**"، وقدَّم المصنف هذا الكتاب علىٰ سائر الكتب التي بعده؛ لأنَّ مدار تلك الكتب والأحكام -كلِّها- علىٰ العلم.

والعلم: نقيض الجهل، وليس هناك تعريف للعلم بأبلغ من لفظة: "العلم".

والذي يراد به -هنا-: **العلمُ الشرعيّ**، وهو: معرفة الهدىٰ بدليله، وهو الذي جاءت النصوص بفضله وتكريم أهله، فعلمُ الوَحي: هو ما أنزلهُ اللهُ علىٰ رسولِهِ من البيِّنات والهدىٰ(٥٤٣).

---

(٥٤٣) فالعلوم الدنيوية، تأخذ الأحكام الشرعية الخمسة، فما أدىٰ إلىٰ واجب فهو واجب، وما أدىٰ إلىٰ مستحب فهو كذلك، وكذا في سائر الأحكام الخمسة.

وممَّا يؤسف له ما نراه في هذا الزمن من أنَّ كثيرًا من طلاب العلم وأهل الخير، فضلًا عن عامَّة الناس يحرصون أشدّ الحرص علىٰ العلوم الدنيوية، وبعضهم إن رأىٰ من ولده نباهة ونجابة وذكاء سارع إلىٰ تعليمه الأمور الدنيوية وحثّه عليها، ﴿**يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ**﴾ [الروم: ٧].

وكأنّ الأمة ليست بحاجة لعلماء ربانيين، ولا لدعاة مخلصين، بل وحثّوا الفاشل الغبي البليد، وقليل الفهم علىٰ دراسة العلوم الشرعية، فنتج عن ذلك ما نراه من جهل المتصدِّرين للدعوة، وبقيت الأمة في جهلها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١- بَابُ فَضْلِ العِلْمِ

وَقَوْلِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وَقَوْلِهِ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قوله: (**بَابُ فَضْلِ العِلْمِ ...**)، لم يذكر تحته حديثًا، ويحتمل أنَّه لم يثبت عنده شيء في هذا علىٰ شرطه، مع أنَّه ثمَّة أحاديث صحاح في هذا الباب.

وممَّا ورد من النصوص في **بيان العلم وفضله**: قول الله -تعالىٰ-: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩].

والنصوص في **الحثِّ علىٰ العلم وبيان فضله** كثيرة جدًا، تقدَّم جملة صالحة منها في المقدمة.

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾)، قيل في تفسيرها: "يرفع الله المؤمن العالم علىٰ المؤمن غير العالم"، ورفعة الدرجات تدلُّ علىٰ الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات؛ ورفعتها تشمل: المعنوية في الدنيا بعلوِّ المنزلة وحسن الصيت؛ والحسيَّة في الآخرة بعلو المنزلة في الجنَّة. الفتح (١/ ١٤١).

وصدق القائل:

العلمُ يرفع بيتًا لا عِمادَ له ... والجهلُ يهدِم بيتَ العزِّ والشرفِ.

وقال **زيد بن أسلم** في قوله -تعالىٰ-: ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال: "بالعلم". أخرجه أحمد (٤٤٩).

ومن فضائله -أيضًا-: أنَّه يرفع صاحبه فوق درجة العابد؛ فعَنْ **أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ** رضي الله عنه- قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَضْلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَاكُمْ**». صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، وهو في صحيح الجامع (٤٢١٣).

وعن عامر بن واثلة، أنَّ نافع بن عبد الحارث، لقي **عمر** رضي الله عنه- بعسفان -وكان عمر يستعمله علىٰ مكة-؛ فقال: من استعملت علىٰ أهل الوادي، فقال: ابن أبزىٰ، قال: ومن ابن

أبزىٰ؟ قال: مولىٰ من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولىٰ؟ قال: إنَّه قارئ لكتاب الله -عزَّ وجلَّ-، وإنَّه عالم بالفرائض، قال **عمر**: أمَا إنَّ نبيكم ﷺ قد قال: «**إنَّ الله يرفعُ بهذا الكتاب أقوامًا، ويضعُ به آخرين**». أخرجه مسلم (٢٦٩).

وكان **ابن عمر** رضي الله عنهما- يسوّي **لمجاهد** ركابه. أخرجه ابن أبي شيبة (٢٥٦٤١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٢٨٥، من طريق ابن أبي شيبة وطريق آخرىٰ)، والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن (٦٧١).

وعن أبي العالية رحمه الله قال: "كنت آتي **ابن عباس** رضي الله عنهما- وهو علىٰ سريره وحوله قريش؛ فيأخذ بيدي فيجلسني معه علىٰ السرير؛ فيغامزني قريش، ففطن لهم ابن عباس؛ فقال: كذاك هذا العلم يزيد الشريف شرفـًا، ويُجلِس المملوك علىٰ الأسِرَّة". سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٨، ط: الرسالة)، وتاريخ الإسلام (٦/ ٣٠٧، ط: التوقيفية).

وقال **الأعمش**: "أنا ممَّن رفعه الله بهذا العلم، ولولا العلم لكنت بَقّالًا يقذرني الناس أن يشتروا مني". حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٥٤)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (١٠/ ٥).

وقال **أبو الأسود الدؤلي**: "ليس شيء أعزَّ من العلم، **الملوك** حُكَّامٌ علىٰ الناس، و**العلماء** حُكَّامٌ علىٰ الملوك". تذكرة السامع والمتكلم (ص١٠).

هذا، واعلم أنَّ كثيرًا من الموالي والمماليك لـمَّا أقبلوا علىٰ العلم رفعهم الله؛ حتىٰ صار الملوك يقصدونهم للتعلُّم منهم.

وقوله: (﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾)، أخرج ابن أبي داود **بسند صحيح** عن إبراهيم، عن **علقمة** قال: صليت إلىٰ جنب **عبدالله** (يعني: ابن مسعود)، فافتتح سورة طه، فلما بلغ: ﴿**رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤]؛ قال: "**ربِّ زدني علمًا، ربِّ زدني علمًا**". نتائج الأفكار للحافظ (٣/ ١٩٣).

وقال **ابن كثير** رحمه الله: "أي: زدني منك علمًا. قال **ابن عيينة** رحمه الله: ولم يزل ﷺ في زيادة من العلم حتىٰ توفَّاه الله -عزَّ وجلَّ-". تفسيره (٥/ ٣١٩، ط: دار طيبة)، وهذا من عظيم مكانة العلم؛ أنَّ الله -تعالىٰ- لم يأمر نبيه بالاستزادة من شيء إلا من العلم؛ وكفىٰ بذلك **شرفًا وفضلًا**.

وفي هذه الآية: فضيلة الاشتغال بعلمَيْ الكتاب والسنة. **وفيها**: أنَّ المؤمنين علىٰ درجات، تتفاوت منازلهم بتفاوت علمهم وأعمالهم. **وفيها**: **أنَّه** علىٰ طالب العلم أن يسعىٰ في الاستكثار منهما. **وفيها**: الحثُّ علىٰ الدعاء بزيادة العلم النافع؛ وهذا ما كان يفعله دائمًا -عليه الصلاة

والسلام-، فكان يقول بعد كل صلاة فجر: «**اللهم إنِّي أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبَّلًا**». **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٩٢٥).

وفيها: أنَّ العبد يظلُّ طالبًا للعلم، طالبًا الاستزادة منه؛ إلىٰ أن يفارق الدنيا، لا يقف عند حدٍّ؛ حتىٰ قيل **لأحمد**: إلىٰ متىٰ المحبرة؟ قال: إلىٰ المقبرة.

تنبيه مهم: كيف يأتي النهم في العلم؟

الجواب: لا يزال الرجل مقبلًا علىٰ العلم النافع؛ حتىٰ تحصل له نهمة عظيمة فيه، ولذَّة في تحصيله، ومن ثمَّ ينالُ بركته.

فعَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**مَنْهُومَانِ لا يَشْبَعَانِ: طَالِبُ عِلْمٍ، وَطَالِبُ دُنْيَا**». **صحيح**: أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣٨٨) والبزار (٤٨٨٠) وهو في صحيح الجامع (٦٦٢٤).

٢- بَابُ مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِي حَدِيثِهِ، فَأَتَمَّ الحَدِيثَ ثُمَّ أَجَابَ السَّائِلَ

قوله: **(بَابُ مَنْ سُئِلَ عِلْمًا وَهُوَ مُشْتَغِلٌ فِي حَدِيثِهِ ...)**، لعلَّ مراد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الباب أن يبيِّن أنَّه لا يلزم المفتي أن يقطع حديثه ليجيب المستفتي، بل له أن يمضيَ في حديثه؛ لأنَّ السائل الأول مقدَّم علىٰ غيره، ثمَّ يجيبه، وليس ذلك من كتمان العلم؛ لأنَّ الحقَّ للأسبق، وقد بوَّبَ **ابن حبان** رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه: "ذكر الخبر الدالِّ علىٰ إباحة إعفاء المسؤول عن العلم عن إجابة السائل علىٰ الفور".

٥٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ(٥٤٤)، ح وحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ المُنْذِرِ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ

---

(٥٤٤) الكلام علىٰ صحة الحديث:

هذا الحديث ضعَّفه شيخنا الألباني في "الضعيفة" (٦٩٤٧)، وذكر أنَّ علته فليح بن سليمان، قال **الحافظ** في الفتح: "صدوق تكلَّم بعض الأئمَّة في حفظه ولم يخرج البخاري من حديثه في الأحكام إلا ما توبع عليه وأخرج له المواعظ والآداب وما شاكلها طائفة من أفراده وهذا منها". الفتح (١/ ١٤٢، ط: دار المعرفة).

قلت: يعني أنَّ السلف كانوا لا يشدِّدون في المواعظ، والآداب، ونحوها.

أمَّا تضعيف الحديث فلسنا نوافق شيخنا عليه؛ لأنّ الرجل حديثه -إن شاء الله- محتمل للتحسين.

والمتن مؤيَّد بنصوص كثيرة يأتي بعضها، في ضياع الأمانة وتولية الأمر لغير أهله، ولعلَّه لذلك أخرجه البخاري، وقد أقرّ البخاري عليه أئمةُ الإسلام الذين تلقَّوا كتابه بالقبول، ولا ينبغي أن يضعَّف فيه إلا ما كان ضعيفًا ضعفًا بيِّنًا كالشمس، وقد رأينا الشيخ صحَّح الحديث في غير موطن من كتبه.

له في البخاري نحو عشرة أحاديث من نفس الطريق عنه، ونحو ثلاثين حديثًا، عنه فهل هي ضعيفة كلها؟!

مع أنّ شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ صحح كثيرًا منها في كتبه الأخرىٰ. والحديث حسَّنه ابن القطان لأجله في بيان الوهم والإيهام (٥/ ٦٥٣)، وقال أيضًا: "وقال مظفر بن مدرك: كنَّا نتَّهمه؛ لأنَّه كان يتناول من أصحاب النبي ﷺ، قال **ابن القطان**: وهذا (أضعف) ما رمي به". البدر المنير لابن الملقن (٣/ ٥٠٩).

قال **الحافظ**: "وفليح لقب مشهور من طبقة مالك احتجَّ به البخاري وأصحاب السنن وروىٰ له مسلم حديثًا واحدًا وهو حديث الإفك وضعَّفه يحيىٰ بن معين والنسائي وأبو داوود".

وقال **الساجي**: هو من أهل الصدق، وكان يهم، وقال **الدارقطني**: مختلف فيه ولا بأس به، وقال **ابن عدي**: له أحاديث صالحة مستقيمة وغرائب **وهو عندي لا بأس به**.

قلت: لم يعتمد عليه البخاري اعتماده علىٰ مالك وابن عيينة وأضرابهما وإنَّما أخرج له أحاديث أكثرها في المناقب وبعضها في الرقاق". مقدمة الفتح (٢/ ٣٥٨).

قلت: وقال **ابن معين** في رواية عنه: "أبو أويس مثل فليح: صدوق وليس بحجَّة"، وفي رواية ضعَّفه، والظاهر أنَّ

فُلَيْحٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنِي هِلاَلُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ -أُرَاهُ- السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟».

قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ (أي: أُسْنِدَ) الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

طرفه في: (الرقاق٦٤٩٦).

الشرح

قوله: (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ القَوْمَ)، **فيه** مشروعية إطلاق مجلس التحديث أو مجلس العلم على (درس العلم)، **وفيه** تعليم الناس في أوقات مختلفة.

وقوله: (جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟)، وهذا سؤال لا يفيد السائل؛ كما جاء في حديث جبريل، قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**». متفق عليه. ولكن انتقل به إلى أمر نافع له، فأخبره بأشراطها؛ كما فعل -هنا-؛ **ففيه** صحة مقولة: "حسن السؤال

قصده بهذا التضعيف أنَّه دون مرتبة الثقة جميعًا بين قوليه، وسئل **أبو حاتم** فقال: "ما به بأس، ليس بذاك القوى"، ومعلوم أنَّ أبا حاتم من المتشدِّدين، فكلمته (ما به بأس) تدلُّ على تقويته.

والشيخ نفسه قال في الصحيحة: "قال **الحافظ**: وهو مضعَّف عند ابن معين والنسائي وأبي داوود، ووثقه آخرون فحديثه حسن". الإرواء (٣/ ١٠٥).

وقال في الصحيحة (١/ ١٢٨): "مختلف فيه، وقد ضعَّفه جماعة، ومشَّاه بعضهم، واحتجَّ به الشيخان في صحيحهما، "والراجح عندنا أنَّه صدوق في نفسه، وأنَّه يخطئ أحيانًا، فمثله حسن الحديث -إن شاء الله تعالى-، إذا لم يتبيَّن خطؤه".

قلت: هذا الحكم الأخير هو اللائق، وهو صنيع الشيخ وغيره وكثير من الأئمَّة، والله أعلم.

وأيضًا هناك أصول صحيحة جدًا في بيان ضياع الأمانة في آخر الزمان بما يوافق الحديث، وأن يوسَّد الأمر لغير أهله، ومن ذلك أن يتَّخذ الناس رؤوسًا جهالًا يضلُّون الناس، وغير ذلك ممَّا يأتي في الباب ممَّا يقوِّي المعنى العام في الحديث.

نصف العلم". **وفيه** مشروعية السعي للعلم والحرص عليه، فإن كان الأعراب جاؤوا وسألوه؛ فغيرهم ينبغي أن يكونوا أحرص. **وفيه** أنَّه يندب التعليم علىٰ طريقة السؤال والجواب.

وقد تكرَّر وتعدَّد هذا السؤال علىٰ النبي ﷺ، واختلفت الإجابة منه بحسب حال السائل.

قوله: (فَمَضَىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ)، استمرَّ يحدِّثُ ولم يجبه ابتداءً، ففيه أنَّ للعالم أن ينبِّه المتعلِّم بالإعراض عنه.

قوله: (فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ -أُرَاهُ- السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ)، فدلّ علىٰ أنَّه ﷺ سمع حديث السائل، ولم يجبه حتىٰ أتمَّ ما هو فيه من الحديث، ثمَّ سأل عنه وأجابه بعدما أنهىٰ حديثه.

والذي قال: (أُراه)، هو فليح، والمعنىٰ: أظنُّ أنَّه قال: أين السائل عن الساعة؟

وفيه أنَّ الدروس تكون علىٰ السبق، ويقدم الأسبق، وكذا الفتاوىٰ والحكومات وغير ذلك، فإن استوت الحقوق فيفاضل بين الناس بالقرعة.

وفيه أهمية تثبُّت العالم من السائل. **وفيه** الرفق بالمتعلِّم وإن جفا في سؤاله أو جهل؛ لأنَّ النبي ﷺ لم يوبِّخه علىٰ سؤاله قبل كمال حديثه. **وفيه** تعليم السائل والمتعلِّم، والاهتمام بشأنهما وسؤالهما؛ لقول النبي ﷺ: «**أين السائل؟**»، ثمَّ أجابه عن الذي سأله عنه، ونظير هذا في الذي سأل عن الساعة وقد أقيمت الصلاة، فلما فرغ ﷺ من الصلاة قال: أين السائل؟ فأجابه. **وفيه** أنَّ من أدب المتعلِّم أنْ لا يسأل العالم ما دام مشتغلًا بحديث أو غيره؛ لأنَّ من حقِّ القوم الذين بدأ بحديثهم ألا يقطعه عنهم؛ حتىٰ يتَّمه؛ لأنَّهم أحقُّ به من السائل.

مسألة: حكم السؤال أثناء اشتغال العالم بالعلم أو الخطيب بالخطبة.

الأصل ألَّا يقطع العالم أو الخطيب خطبته إلا لأمر فيه مصلحة عامة، أو تعليم دين، وبما يراه الخطيب أصلح، وإلا فلا يجيب سائلًا ولا ينشغل بغير الخطبة، وقد قطع النبي ﷺ الخطبة وأخَّرَ الصلاة وغير ذلك؛ لمراعاة السائل والمتحدث؛ كما في حديث **أبي رفاعة** رضي الله عنه- قال: "انْتَهَيْتُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! رَجُلٌ غَرِيبٌ، جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، لَا يَدْرِي مَا دِينُهُ! قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَرَكَ خُطْبَتَهُ؛ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ إِلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرْسِيٍّ -

حَسِبْتُ قَوَائِمَهُ حَدِيدًا-، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ أَتَىٰ خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا ". أخرجه مسلم (٨٧٦).

وكذلك ما جاء عَنْ **جَابِرِ بْنِ عبدالله** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ (وهو: سليك بن هدبة الغطفاني) وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَقَالَ: «**أَصَلَّيْتَ يَا فُلاَنُ؟**» قَالَ: لاَ، قَالَ: «**قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ**». سيأتي برقم (٩٣٠)، وهذا ممَّا يهتمُّ به في أمور الدين؛ لأنَّه لا يجوز تأخير البيان في حقِّه.

وكذا ما جاء عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وفيه: "بَيْنَمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِذْ دَخَلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، فَعَرَّضَ بِهِ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا بَالُ رِجَالٍ يَتَأَخَّرُونَ بَعْدَ النِّدَاءِ؟ فَقَالَ عُثْمَانُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ...". أخرجه مسلم (٨٤٥).

وكذا عَنْ **أَنَسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ مَا تُقَامُ الصَّلاَةُ يُكَلِّمُهُ الرَّجُلُ، يَقُومُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ فَمَا يَزَالُ يُكَلِّمُهُ»، وَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَهُمْ يَنْعَسُ مِنْ طُولِ قِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٥١٨)، وعبدالرزاق في مصنفه (١٩٣١).

وكذلك إن كان للسائل ضرورة ملحَّة ناجزة؛ فتُقدم إجابته؛ لأنَّ الشرع مبنيٌّ علىٰ تكثير المصالح وتقليل المفاسد.

وقوله: **(فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ)**، أي: أهمل الوفاء بالعهد والأمانة؛ ولذلك جاء في الحديث: «**أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْأَمَانَةُ، وَآخِرُهُ الصَّلَاةُ**». **صحيح**: أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق (١٧١)، وعبدالرزاق (٥٩٨١)، وهو في الصحيحة (١٧٣٩).

وعَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلاَّ قَالَ: «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٥٧٨)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٠٤).

قوله: **(فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ)**، أي: إذا كان الأمر كذلك فترقَّب الساعة: وهو الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وسمِّيت بذلك؛ لأنَّها تفجأ الناس في ساعة؛ فيموت الخلق كلُّهم بصيحة واحدة.

ففيه الاستعداد والترقُّب ليوم القيامة، حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم. **وفيه** عدول العالم في الجواب عن السؤال الذي لا يفيد إلىٰ جواب مفيد. **وفيه** ذمُّ تضييع الأمانة.

وفيه أنَّ الأمانة ليست مقتصرة علىٰ العروض، فالوضوء والغسل من الجنابة من الأمانة،

فعن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**خمسٌ من جاء بهن مع إيمانٍ دَخَلَ الجنةَ: مَن حافظَ علىٰ الصلواتِ الخمسِ، علىٰ وُضوئهنّ، وركوعهنَّ، وسجودهنَّ، ومواقيتهنَّ، وصام رمضان، وحجّ البيتَ إنْ استطاع إليه سبيلاً، وآتىٰ الزكاة طيّبةً بها نفسُه، وأدّىٰ الأمانةَ**». قيل: يا رسول الله! وما أداءُ الأمانةِ؟ قال: «**الغُسل من الجنابة، إنَّ الله لم يَأمَنِ ابنَ آدم علىٰ شيءٍ من دينِه غَيرها**». **حسن**: أخرجه أبوداود (٤٢٩)، والطبراني في الصغير (٧٧٢)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٩).

والمجالسُ بالأمانة، قال رسول الله ﷺ: «**إنّما المَجالِسُ بالأمانَةِ**». **حسن**: صحيح الجامع (٤٠٩٥)، أي: حسنها وشرفها بأمانة حاضريها، وعَنْ **عبدِاللهِ بْنِ جَعْفَرٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: "أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ خَلْفَهُ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ...". الحديث. أخرجه مسلم (٣٤٢)، فهذا الحديث يدلُّ علىٰ وجوب حفظ السرِّ، وهو نوع من الأمانة التي أمر الله -تعالىٰ- بحفظها؛ حيث يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨].

وإنَّ من أداء الأمانة ما ورد عن **أبي بن كعب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: "من الأمانة أنَّ المرأة ائتمنت علىٰ فرجها". **صحيح**: أخرجه سعيد بن منصور (١٣١٢).

وعَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**». **حسن صحيح**: أخرجه أبوداود (٣٥٣٥)، وهو في الصحيحة (٤٢٣).

قوله: (**كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟**)، **فيه** مراجعة العالمِ إذا لم يفهم السائلُ؛ حتىٰ يتَّضح له جوابُه.

وقوله: (**إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**)، وفي لفظ: «**أسند**»، أي: فُوِّضَ الأمر وأسند وولِّي غير أهل الدِّين والأمانة والقوَّة. وكان من شأنهم أنَّ الأمير تُجعل تحته وسادة؛ فلذلك وقع التعبير بذلك -هنا-.

فيه -ما ذكره **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أنَّ الأئمة (الأمراء) قد ائتمنهم الله علىٰ عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم؛ فينبغي لهم تولية أهل الدِّين (يعني: الأمناء)، فإذا قلَّدوا غير أهل الدِّين؛ فقد ضيَّعوا الأمانة التي قلَّدهم الله -تعالىٰ- إيَّاها؛ لأنَّه لا دين لمن لا أمانة له؛ فينبغي أن يُختار أصحابُ الولايات؛ بحيث يوضعون في ولاياتهم كلٌّ بحسبه، وفي مكانه المناسب له.

قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "معناه أنَّ الأئمة قد ائتمنهم الله علىٰ عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، لقوله ﷺ: «**كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئول عن رعيته**»، فينبغي لهم تولية أهل الدِّين والأمانة للنظر في أمر الأمَّة، فإذا قلَّدوا غير أهل الدين، واستعملوا من يُعينهم علىٰ الجَور والظلم؛ فقد ضيَّعوا الأمانة التي فرض الله عليهم". شرح البخاري (١/ ١٣٨).

فعلىٰ أهل الولايات أن يقوموا بواجب إمرتهم؛ قال ﷺ: «**مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلَّا يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا؛ لَا يَفُكُّهُ إِلَّا الْعَدْلُ، أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ**». صحيح: أخرجه أحمد (٩٥٧٣)، وهو في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين (١٣٩٥)، والصحيحة (٢٦٢١).

وعن **معقل بن يسار** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**». متفق عليه. وفي رواية لمسلم: «**ثُمَّ لَا يَجْهَدُ لَهُمْ وَيَنْصَحُ، إِلَّا لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمُ الْجَنَّةَ**».

وفيه وجوب الاهتمام والنظر في مصالح العباد؛ فينبغي للأئمَّة النظر في أمور الدنيا والدين.

وفيه أنَّه ينبغي أن يؤخذ العلم عن أهله، وهم الأكابر من أهل السنَّة، وكذا سائر العلوم والمعارف والحِرَف؛ ينبغي أن تؤخذ من أهلها؛ إذ إنَّ إسناد الأمر إلىٰ غير أهله إنَّما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم، وانتشار البدع والأهواء، و-أيضًا-: حين يصير الحفاةُ العراةُ رعاءُ الشاء -وهم أهلُ الجهل والجفاء-؛ **رؤوسَ الناس**، وحديث الباب هو بمعنىٰ حديث **عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، عَنْ النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**» متفق عليه.

وإذا صار ملوك الناس ورؤوسهم علىٰ هذه الحال؛ انعكست سائر الأحوال: فيؤتمن الخائن ويخوَّن الأمين، وقد ورد هذا المعنىٰ من ضياع الأمانة -أيضًا- في حديث **أَنَسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مرفوعًا: «**إِنَّ أَمَامَ الدَّجَّالِ سِنِينَ خَدَّاعَةً، يُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**». صحيح: أخرجه أحمد (١٣٢٩٨)، والبزار (٢٧٤٠)، وسنده جيد، وهو في الصحيحة (١٨٨٧)، ومثله لابن ماجه (٤٠٣٦)، وأحمد (٧٩١٢) من حديث **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وفيه: قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**الرَّجُلُ التَّافِهُ يتكلَّم فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**». صحيح:

الصحيحة (١٨٨٧).

قال **أبو عبيد**: "هو الرجل التافه الخسيس ينطق في الأمور العامَّة" الحوادث والبدع (٧٩).

وأخرجه ابن حبان (٦٨٤٤٩) بلفظ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْفُحْشُ، وَالْبُخْلُ، وَيُخَوَّنَ الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، وَيَهْلِكَ الْوُعُولُ، وَتَظْهَرَ التُّحُوتُ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا الْوُعُولُ وَالتُّحُوتُ؟ قَالَ: «**الْوُعُولُ: وجُوهُ النَّاسِ وَأَشْرَافُهُمْ، وَالتُّحُوتُ: الَّذِينَ كَانُوا تَحْتَ أَقْدَامِ النَّاسِ لَا يُعْلَمُ بِهِمْ**». الصحيحة (٣٢١١)، وَممَّا يدلُّ علىٰ تبدُّل الأحوال ما ورد عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ تَصِيرَ لِلْكَعِ ابْنِ لُكَعٍ**». صحيح: أخرجه أحمد (١٥٨٣١) وهو في الصحيحة: (١٥٠٥)، وله شواهد كثيرة.

وَعَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَيْفَ بِكُمْ وَبِزَمَانٍ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ زَمَانٌ يُغَرْبَلُ النَّاسُ فِيهِ غَرْبَلَةً، تَبْقَىٰ حُثَالَةٌ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ، وَأَمَانَاتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا، فَكَانُوا هَكَذَا** (وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ). فَقَالُوا: وَكَيْفَ بِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**تَأْخُذُونَ مَا تَعْرِفُونَ، وَتَذَرُونَ مَا تُنْكِرُونَ، وَتُقْبِلُونَ عَلَىٰ أَمْرِ خَاصَّتِكُمْ، وَتَذَرُونَ أَمْرَ عَامَّتِكُمْ**». صحيح: أخرجه أحمد (٧٠٤٩)، أبوداود (٤٣٤٣)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وهو في صحيح الجامع (٤٤٧٠).

وعن **حذيفة بن اليمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: حدَّثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا انتظر الآخر، حدَّثنا: «**أَنَّ: الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ونزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنَّة**»، ثمَّ حدَّثنا عن رفعها قال: «**ترفع الأمانة، فينام الرجل، ثمَّ يستيقظ، وقد رفعت الأمانة من قلبه، ويبقىٰ أثرها مثل الوكت** (أَثَرُ الشَّيءِ اليَسيرُ مِنْهُ)، **ثمَّ ينام النومة، فتقبض الأمانة من قلبه، فيظلُّ أثرها مثل المجل** (أي: مثل الانتفاخات التي تخرج في الأيدي عند كثرة العمل) **كجمر دحرجته علىٰ رجلك فنفط فتراه منتبرًا** (أي: مرتفعًا متورمًا) **وليس فيه شيء، ثمَّ أخذ حصىٰ فدحرجه علىٰ رجله، فيصبح الناس يتبايعون، لا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة؛ حتىٰ يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبَّة من خردل من إيمان**».

يقول **حذيفة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "ولقد أتىٰ عليَّ زمان، وما أبالي أيَّكم بايعت: لئن كان مسلمًا؛ ليردَّنَّه عليّ دينه، ولئن كان نصرانيًا أو يهوديًا؛ ليردَّنَّه عليّ ساعيه، وأمَّا اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلانًا وفلانًا". متفق عليه. فكلُّ هذه الأحاديث -وغيرها- هي شواهد لحديث الباب؛ لذلك

نحن لا نوافق شيخنا الألباني -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- علىٰ تضعيفه للحديث، ونحن مع الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في التصحيح، ومع غيره ممَّن صحَّحه كالبغوي.

ومن ضياع الأمانة: أن يوضع الخيار؛ وهو تسويد الأمر إلىٰ غير أهله. وضياع الصلاة -أيضًا- من ضياع الأمانة؛ قال الزُّهْرِيُّ: دَخَلْتُ عَلَىٰ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِدِمَشْقَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: «**لاَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا أَدْرَكْتُ إِلَّا هَذِهِ الصَّلاَةَ وَهَذِهِ الصَّلاَةُ قَدْ ضُيِّعَتْ!**». سيأتي برقم (٥٢٩، ٥٣٠)، وكذلك إضاعة العيال وتربيتهم علىٰ غير الكتاب والسنَّة، هو من ضياع العلم، وضياع الأمانة، فعَنْ سُفْيَانَ، قَالَ: قَالَ هِشَامٌ، عَنْ **أَبِيهِ**، قَالَ: "ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (١٠).

وأعظم الأمانات: أمانة الدين والعلم، وقد أخذ الله الميثاق علىٰ أهل العلم أن يبيِّنوه وأن يؤدُّوه بكلِّ أمانة، ومن ذلك -أيضًا-: تحقيق المسائل، وذكر الراجح للناس، وذكر الأحاديث الصحيحة، وألا يذكروا لهم شيئًا إلا بعد التأكُّد منه والتثبُّت فيه، والتيقُّن من صحَّته.

وممَّا يخالف الأمانة ومن الغش للمسلمين تدليس الرواة، وذكر الأدلَّة الضعيفة بله الموضوعة، دون تثبُّت، وتأويل النصوص وتحريفها، وكتمانها؛ فكلُّ هذا يخالف أمانة العلم.

وقد كانوا يستودعون الله دينهم وأماناتهم وخواتيم أعمالهم، وإنَّ الله إذا استُودِع شيئًا حفظه.

٣- بَابُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالعِلْمِ

قوله: **(بَابُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالعِلْمِ)**، هذا بابٌ في بيان جواز رفع العالم صوته بالعلم عند الحاجة، وهذا لا ينافي وقار العالم، كما لا ينافي قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ**﴾ [لقمان: ١٩]؛ وقد نهينا عن رفع الصوت حيث لا مصلحة من ذلك، ولاسيَّما عند الدعاء والذكر، وقراءة القرآن؛ كما قال -تعالىٰ- في خفض الصوت بالذكر: ﴿**وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ**﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وممَّا ورد من النهي عن الرفع فيه: الرفع في الطرقات ونحوها؛ فقد ورد في صفته ﷺ بأنَّه ليس بصخَّاب بالأسواق، وكان عليه الوقار، وصوته لا يرتفع إلا عند الحاجة.

فإنَّ الرفع في موطنه حسَنٌ؛ لتحقيق المصالح، فقد يحتاج العالم لرفع صوته في الخطبة ونحوها؛ فعن **جابر بن عبدالله** رضي الله عنهما-، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه، **وعلا صوتُهُ**، واشتدَّ غضبه؛ حتىٰ كأنَّه منذر جيش يقول: «**صبَّحكم ومسَّاكم**». أخرجه مسلم (٨٦٧).

وورد عن **النُّعمانِ بن بَشيرٍ** رضي الله عنهما-قالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**أَنْذَرْتُكُم النَّارَ، أَنْذَرْتُكُم النَّارَ**»، فما زالَ يقولُها حتَّىٰ لو كانَ في مَقامِي هذا سَمِعَهُ أَهْلُ السُّوقِ، وحتَّىٰ سَقَطَتْ خَمِيصَةٌ كانتْ عَلَيهِ عِنْدَ رِجْلَيهِ. **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (١٨٣٦٠)، وابن حبان (٦٦٧)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٥٩).

فبالَغَ في الإنذار ورفعَ صوتَه فيه، وكذلك السَّلف كانوا يتخذون المستملي ليبلِّغ عنهم الحديث، كما يشرع رفع الصوت في بعض الأذكار؛ كما في التلبية: «**أفضل الحجِّ العَجُّ** (رفع الصوت بالتلبية) **والثَّجُّ** (إراقة دم الهدي)». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٩٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، وهو في الصحيحة (١٥٠٠).

وكان أصحابُ النَّبيِّ ﷺ يرفعون أصواتهم بالتلبية حتىٰ تبحَّ أصواتهم. صحَّحه شيخنا في "مناسك الحج والعمرة" (ص ١١)؛ ومن ذلك -أيضًا- حديث الباب.

٦٠- حَدَّثَنَا أَبُوالنُّعْمَانِ عَارِمُ ابْنُ الفَضْلِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُوعَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ، **عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رضي الله عنهما-، **قَالَ: تَخَلَّفَ عَنَّا** (أي: تأخر خلفنا) **النَّبِيُّ** ﷺ **فِي سَفْرَةٍ**

سَافَرْنَاهَا فَأَدْرَكَنَا (أي: لحِق بنا) -وَقَدْ أَرْهَقَتْنَا الصَّلاَةُ (أي: أعجلتنا؛ لضيق وقتها) - وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَىٰ أَرْجُلِنَا، فَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ (العقب، مؤخر القدم) مِنَ النَّارِ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا.(٥٤٥).

طرفاه في: (العلم٩٦، الوضوء١٦٣).

الشرح

قوله: (تَخَلَّفَ عَنَّا النَّبِيُّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ)، في رواية عند مسلم: "رَجَعْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ"، فيه أنّ التعليم يكون في كلِّ مكان وزمان، وفي الحضر والسفر، ولا يتوقَّف ويقتصر فيه علىٰ مجالس العلم والتحديث.

وقوله: (أَرْهَقَتْنَا الصَّلاَةُ)، وفي لفظ عند مسلم (٢٤١): "وقد حضرت صلاةُ العصر"، أي: استأخرنا عنها حتىٰ دنا وقت الأخرىٰ، والمراد: غشيتنا الصلاة، وأعجلتنا لضيق الوقت؛ كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد يكون تركُ أصحاب الرسول ﷺ الصلاة في الوقت الفاضل؛ لطمعهم بأن يصلوا خلف النبي ﷺ؛ فلا يُظنُّ بأصحاب النبي ﷺ أن يؤخِّروا الصلاة إلا لأمر مهم، ولاسيما أنَّ صنيعهم هذا في صلاة العصر، وحينما خشوا فوات وقت الصلاة، توضؤوا مسرعين، ولم يحسنوا وضوءهم، فأدركهم الرسول ﷺ -وهم علىٰ ذلك-؛ فزجرهم وأنكر عليهم إساءتهم في الوضوء.

وقوله: (وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَىٰ أَرْجُلِنَا)، أي: نغسل غسلًا خفيفًا؛ كأنَّه مسح، وفي رواية: "فَتَوَضَّؤُوا وَهُمْ عِجَالٌ فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ وَأَعْقَابُهُمْ تَلُوحُ لَمْ يَمَسَّهَا الماءُ". أخرجه مسلم (٢٤١).

فيه حرص الصحابة علىٰ أداء العبادة، وبيان فضلهم. وفيه أنَّ صحة القصد لا تكفي لقبول العمل حتىٰ يكون خالصًا صوابًا؛ "فكم من مريد للخير لم يصبه". صحيح: أخرجه الدارمي (٢١١)، وهو في الصحيحة (٢٠٠٥).

---

(٥٤٥) وأخرجه مسلم (٢٤١)، وأبوداود (٩٧).

وفيه أنَّه لا ينبغي أن يُستصغَر أيُّ أمر من أمور الدين. **وفيه** ردٌّ علىٰ الروافض الذين يقولون بالمسح علىٰ القدمين؛ ولذلك بوَّب البخاري بابًا يأتي في الوضوء بقوله: "باب غسل الرجلين ولا يمسح علىٰ القدمين"(٥٤٦). **وفيه** مشروعية الوضوء قبل الصلاة.

قوله: **(فَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ)**، هذا هو موضع الشاهد من الحديث للترجمة، يعني: رفع الصوت بالعلم للحاجة. و(**وَيْلٌ**)، هي كلمة عذاب وهلاك، وعن **عطاء بن يسار**، أنَّه قال: "الويل وادٍ في جهنم، لو سُيِّرت فيه الجبال لماعت من حرِّه". الزهد والرقائق لابن المبارك (٢/ ٩٥).

وقوله: (**الأعقاب**)، جمع عقب، والعقب، مؤخر القدم، قال **الأصمعي**: العقب: ما أصاب الأرض من مؤخر الرِّجْل إلىٰ موضع الشراك. وفي رواية عند مسلم (٢٤٢): «**وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ؛** (وهي: العصبة التي فوق العقب) **مِنَ النَّارِ**». وفي رواية: «**وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ، وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ**». **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٧١٠)، وابن خزيمة (١٦٣)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٠)، يعني المواطن التي يمكن ألا يصلها الماء.

فيه مشروعية رفع الصوت بالعلم إذا كان في المجلس عدد كبير من المستمعين، وقد يتَّخذ العالمُ المستمليَ؛ ليبلِّغ عنه، إذا لم يبلغهم صوته، فقد روي عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنَّه كان له مترجم يبلِّغ بينه وبين الناس. **وفيه** اتخاذ أسباب إسماع الحاضرين إمَّا برفع صوته، أو اتخاذ مكبر الصوت، وأنَّه موافق لمقاصد الشرع، أو اتخاذ من يبلِّغ عنه؛ كالمستملي ونحوه، ومن هنا لُقِّبَ الخطيب البغدادي بـ(الخطيب)؛ لأنَّه كان يحدِّث الناس علىٰ فرس ليسمعهم. **وفيه** أنَّ للعالم أن يرفع صوته بالإنكار، وليس هذا منافيًا للوقار، **وفيه** أنَّه ينبغي التنويع في التعليم والتذكير؛ فلا يكون ذلك علىٰ وتيرة واحدة. **وفيه** أنَّ للعالم أن ينكر ما رآه من التضييع للفرائض والسنن، وأن يغلّظ القول في ذلك، وينبغي له أن يتعاهد الناس، وينبِّههم علىٰ ما يداخلهم من مخالفات. **وفيه** مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالقول، وأنَّ الصحابة -مع علمهم وفضلهم- قد يجهلون بعض أمور الطهارة حتىٰ يعلمهم النبي ﷺ دينهم. **وفيه** متابعة العالم لطلابه وملاحظته لهم في عبادتهم وشؤونهم؛ ليربِّيهم ويزكِّيهم، فإنَّ عدم سكوته عنهم، هو من العلم الذي يأخذونه

---

(٥٤٦) كتاب الوضوء، باب رقم (٢٧).

منه. **وفيه** مشروعية تعليم الجاهل وإرشاده. **وفيه** أنَّ غسل القدمين واجب. **وفيه** تنبيه الناس إلىٰ القليل والكثير من العلم.

وقوله: (بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ ... مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا)، **فيه** تكرار المسألة توكيدًا لها ومبالغة في وجوبها. **وفيه** مشروعية تكرار العلم ليفهم ويحفظ، وكان من هديه ﷺ أنَّه إذا تكلَّم بكلمة تكلَّم ثلاثًا؛ لتفهم عنه. **وفيه** أنَّ رفع الصوت بالعلم؛ يؤدي إلىٰ اهتمام المستمع له.

فيشرع رفع الصوت بالعلم، ولكن يجب الحذر من رفعه عند رسول الله ﷺ -حيًا أو ميتًا-؛ فالخلاف عنده مذموم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ الآية [الحجرات: ٣].

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يغضُّون أصواتهم عنده ﷺ؛ يقول **عروة بن مسعود** لقريش -وذلك لـمَّا رأىٰ من تعظيم أصحاب محمد ﷺ له-: أي قوم، والله لقد وفدت إلىٰ الملوك، ووفدت إلىٰ كسرىٰ، وقيصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملِكًا قط، يعظِّمه أصحابُهُ، ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمدًا، ووالله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم، فدلك بها وجهه، وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ اقتتلوا علىٰ وضوئه، **وإذ تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده**، وما يحدُّون إليه النظر، تعظيمًا له. أخرجه البخاري (٢٧٣٢).

والصحابة رضي الله عنهم؛ لم يكونوا يجاوزون الحدَّ في تعظيمه ﷺ، والعجب من بعض الناس اليوم أنَّهم يدّعون تعظيمه وتوقيره، ويقعون في أخطاء شنيعة كاجتماعهم قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعًا مزعجًا؛ وكلُّ هذا مناف لتوقيره ولا يجوز، ولا يليق؛ فإنَّ حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وقد شدَّد **عمر** رضي الله عنه- النكير علىٰ رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ، فقال: "لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا. سيأتي برقم (٤٧٠).

ومن تعظيم السلف للنبي ﷺ **بعد مماته** ما ذكره القاضي عياض عن **محمد بن حميد** أنَّه قال: "ناظر أبو جعفر أميرُ المؤمنين مالكًا في مسجد الرسول ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، **لا ترفع صوتك في هذا المسجد**، فإنَّ الله -تعالىٰ- أدّب قوما فقال: ﴿**لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ**﴾ [الحجرات: ٢] الآية، ومدح قومًا فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ**

اللهِ﴾ [الحجرات: ٣] الآية، وذمَّ قومًا فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الحجرات: ٤] الآية، **وإنّ حُرمته ميتًا كحرمته حيًا**؛ فاستكان أبو جعفر". قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ١٣٠).

فائدة:

قال العلامة **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم؛ فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم علىٰ ما جاء به ورفعها عليه؟! أليس هذا أولىٰ أن يكون محبطًا لأعمالهم؟!". إعلام الموقعين (١/ ٤١).

٤- بَابُ قَوْلِ المُحَدِّثِ: حَدَّثَنَا، وَأَخْبَرَنَا، وَأَنْبَأَنَا

وَقَالَ لَنَا الحُمَيْدِيُّ(٥٤٧): كَانَ عِنْدَ ابْنِ عُيَيْنَةَ "حَدَّثَنَا"، و"أَخْبَرَنَا"، و"أَنْبَأَنَا"، وَ"سَمِعْتُ" وَاحِدًا. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ(٥٤٨): حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ. وَقَالَ شَقِيقٌ(٥٤٩): عَنْ عَبْدِاللهِ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ كَلِمَةً. وَقَالَ حُذَيْفَةُ(٥٥٠): حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ. وَقَالَ أَبُو العَالِيَةِ(٥٥١): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ. وَقَالَ أَنَسٌ(٥٥٢): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-. وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ(٥٥٣): عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّكُمْ -عَزَّ وَجَلَّ-.

أشار البخاري بهذه الترجمة إلىٰ أنَّه بنىٰ كتابه علىٰ الأدلَّة الشرعية، وأنَّ هذه الألفاظ كلَّها

---

(٥٤٧) قال شيخنا **الألباني** في "المختصر": "في رواية كريمة والأصيلي: وقال لنا الحميدي، وكذا ذكره أبو نعيم في "المستخرج"، فهو متصل.

قلت: في هذه الرواية ما يؤكِّد أنَّ قول المؤلف: قال فلان (من شيوخه) كقوله عنه: قال لي فلان؛ خلافا لبعض المعاصرين حيث صرَّح بأنَّ القول الثاني كالأول في أنَّه منقطع، وقد رددتُ عليه في كتابي "تحريم آلات الطرب"، وهو وشيك الصدور بإذن الله تعالىٰ".

تنبيه: طبع الكتاب وصدر -ولله الحمد والمنَّة-، وهو كتاب ماتع، فذّ في بابه.

وقوله: (كان عند ابن عيينة ...): إيراده له يدلُّ علىٰ اختياره له. وكذا قال ابن عثيمين في "شرح البخاري" (١/ ١٨٠).

(٥٤٨) قال شيخنا **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: فهو طرف من الحديث المشهور في خلق الجنين، وسيأتي موصولًا في (ج٢/ ٦٠ -أحاديث الأنبياء/ ٢ -باب).

(٥٤٩) قال شيخنا **الألباني**: فقد وصله المصنف في "الجنائز، (٢/ ٦٩)، و"التفسير" (٥/ ١٥٣)، لكن ليس فيه تصريح عبدالله-وهو ابن مسعود-بالسماع؛ خلافا لما يشعر به كلام الحافظ هنا، وإنَّما وصله بذكر السماع فيه الإمام مسلم في "الإيمان" في رواية له، وسيأتي الحديث في "٢٣ -الجنائز/ ١ -باب" بإذن الله تعالىٰ".

(٥٥٠) قال العلامة **الألباني**: هذا طرف حديث وصله المؤلف في (ج ٤/ ٨١ -الرقاق/ ٣٤ -باب).

(٥٥١) قال الإمام **الألباني**: هذا طرف حديث وصله المصنف في (٢/ ٦٠ -أحاديث الأنبياء/ ٢٥ -باب)، **وأبو العالية** هو رفيع الرياحي.

(٥٥٢) قال شيخنا **الألباني**: (وصله المؤلف في (٤/ ٩٧ -التوحيد/ ٥٠ -باب).

(٥٥٣) قال شيخنا **الألباني**: (وصله المصنف في"٣٠ -الصوم/ ٩ -باب).

في السنَّة بمعنىٰ؛ وهذا هو اختياره؛ وهو ما يعرف عند المحدثين بصيغ التحمُّل والأداء.

قوله: **(بَابُ قَوْلِ المُحَدِّثِ)**، والمُحَدِّثُ -كما عرَّفه أهل العلم-: من اشتغل بالحديث روايةً -أي: من جهة الأسانيد-، ودرايةً -أي: من جهة المتن وفقه الحديث-.

وقوله: **(حَدَّثَنَا، وَأَخْبَرَنَا، وَأَنْبَأَنَا)**، هذه ألفاظ من صيغ الأداء ومعناها واحد؛ عند البخاري وبعض أهل العلم(٥٥٤).

ثمَّ ذكر المصنف آثارًا عدَّة تدلُّ علىٰ ألفاظ التحمُّل للرواية وصيغ الأداء، ومراده من تعاليق الصحابة بيان أنَّهم كانوا تارة يقولون "حدثنا"، وأحيانا "سمعت" بنفس المعنىٰ؛ فدلَّ ذلك علىٰ أنَّهم لم يفرِّقوا بين تلك الصيغ.

وأمَّا الأحاديث المعلَّقة عن ابن عباس وأنس وأبي هريرة رضي الله عنهم فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه، ذكرها تنبيهًا منه علىٰ أن لفظ **(عَنْ)** كلفظ **(حَدَّثَنَا)** عند رواية راوي الحديث الثقة غير المدلِّس عن شيخه(٥٥٥).

---

(٥٥٤) وقال بعضهم: ولكلِّ صيغة معنىٰ تدلُّ عليه.

فقوله: (حَدَّثَنَا)، عندهم هو ما سمع من لفظ الشيخ، وخصَّه بعضهم بأن يقال ذلك فيما حدَّث به الشيخ جماعة هو فيهم، وأن يقال: **(حدثني)** فيما حدَّث به الراوي وحده، والظاهر من صنيع البخاري أنَّه لا فرق.

وقوله: (أَخْبَرَنَا)، عند بعضهم هذا لفظ صالح لما حدَّث به الشيخ، ولما قرئ عليه فأقرَّ به، أو بأن يقول القارئ: أخبرك فلان؟ فيقول: نعم، فلفظ الإخبار أعمُّ من لفظ التحديث، فكلُّ تحديث إخبار، لا العكس، والكلام في **(أخبرنا وأخبرني)**، كما قيل في **(حدثنا وحدثني)**.

وقوله: (أَنْبَأَنَا)، يطلقه بعضهم بمعنىٰ أخبرنا أو حدثنا، واصطلح عليه المتأخرون علىٰ الإجازة، ومن الناس من يطلق علىٰ "الإجازة"؛ أخبرنا، ومنهم من يشترط البيان كـ(أخبرنا إجازة)، والأولىٰ أن لا يستعمل فيها (أخبرنا) بالإطلاق لا بالتقييد، لبعد دلالة لفظ "الإجازة" عن "الإخبار"؛ إذ معناها في الوضع الإذْنُ في الرواية، كما ذكر ذلك **ابن دقيق العيد**. في كتابه الاقتراح في فن الاصطلاح (١/ ٢٤).

اختلف العلماء في حكم هذا قال **شيخنا ابن عثيمين** رحمه الله: "وكل هذا مستحسن وليس بواجب عندهم، وإنما أرادوا التمييز بين أحوال التحمُّل **وظنَّ بعضهم أنَّ ذلك علىٰ سبيل الوجوب**، فتكلَّفوا في الاحتجاج له وعليه بما لا طائل تحته". شرح البخاري (١/ ١٨٢) بتصرف.

(٥٥٥) **احتراز**: يكون حكمه الوصل هذا في حالة ثبوت اللقاء وأمن التدليس.

والتدليس: لغة: مشتق من الدَلَس؛ وهو الظلام، ثمَّ استعمل بمعنىٰ إخفاء العيب، ثمَّ استعمل في المصطلح لأنَّ

وفي هذا دليل علىٰ أنَّ هذا العِلْم قد أُخذ من الأدلَّة الشرعية في كلِّ شيء؛ حتىٰ المصطلحات الحديثية والأصولية، فلا تكاد تجد شيئًا في اصطلاح أهل هذا الفنِّ إلا وعليه دليل أو أثر يدلُّ عليه، وهذه مسألة ضرورية، يحسن التنبيه عليها(٥٥٦).

المدلِّس يكون بصنيعه هذا قد أظلم شيئًا من أمر الحديث، وهو متعدد الأنواع، وإنَّ أصل التدليس نوعان؛ باعتبار إسقاط الراوي، أو ذكره وتعمية وصفه.

تعريفه اصطلاحًا؛ أن يروي الراوي الثقة بعض الأحاديث التي لم يسمعها من شيخه -الذي سمع منه-، حاذِفًا الواسطة، قاصدا الإيهام، بصيغة تحتمل سماعه كـ(عن) و(أن) و(قال) و(ذكر)، وهذا ما يسميه أهل الفن **تدليس الإسناد**.

(٥٥٦) **مثال ذلك**: أدلة كثيرة وردت في شروط الحديث الصحيح، **ومثال آخر**: دليل تقوية الحديث الضعيف بتعدد الطرق؛ قال تعالىٰ: ﴿**أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرىٰ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، انظر ما قاله العلامة **الألباني** (تحريم الآلات الطرب/ ص٧٠)، قال تعالىٰ: ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ**﴾ [القصص: ٣٥]، وقوله: ﴿**فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ**﴾ [يس: ١٤]، وحديث ذي اليدين، وحديث عمر في الاستئذان، وقصته مع أبي موسىٰ رضي الله عنهما.

٦١- حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ دِينَارٍ، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**». فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي، قَالَ عَبْدُاللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ. ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»(٥٥٧).

أطرافه في: (العلم٦٢، ٧٢، ١٣١، البيوع٢٢٠٩، التفسير٤٦٩٨، الأطعمة٥٤٤٤، ٥٤٤٨، الأدب٦١٢٢، ٦١٤٤).

الشرح

قوله: (**وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ**)، شبَّهَ المسلمَ بالنخلة في كثرة خيرها وعموم نفعها.

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللهُ: "وبركة النخلة موجودة في جميع أجزائها، مستمرِّة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلىٰ أن تيبس: تؤكل أنواعا، ثمَّ بعد ذلك ينتفع بجميع أجزائها؛ حتىٰ النوىٰ في علف الدواب، والليف في الحبال، وغير ذلك ممَّا لا يخفىٰ، وكذلك بركة المسلم عامَّة في جميع الأحوال، ونفعه مستمرٌّ له ولغيره حتىٰ بعد موته". الفتح (١/ ١٤٥- ١٤٦).

وقوله: (**فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**)، جاء في رواية للمصنف في التفسير: «**أخبروني**»، وفي رواية أخرىٰ: «**أنبئوني**»، فنستفيد من مجموع رواياتِ هذا الحديثِ التسويةَ بين صيغ الأداء؛ وبهذا تظهر مطابقة الحديث للترجمة، قال شيخنا **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللهُ: "دلّ ذلك علىٰ أنَّ التحديث والإخبار والإنباء عنده سواء، وهذا لا خلاف فيه عند أهل العلم بالنسبة إلىٰ اللغة، ومن أصَرَح الأدلة قوله -تعالىٰ-: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾ [الزلزلة: ٤]، ﴿**وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ [فاطر: ١٤]". شرح البخاري (١/ ١٨١).

فيه أنَّ ألفاظ التحمل والأداء -كـ"حدثنا"، و"أخبرنا"، و"أنبأنا"، و"سمعت"-: كلُّها بمعنىٰ واحد من حيثُ ورودها في الأدلة الشرعية، وإن كانت مختلفة في اصطلاحات بعض أهل العلم. **وفيه** إشارة إلىٰ أنَّ صيغة: (أن، وعن) محمولة علىٰ الاتصال والسماع إلاَّ إذا كانت من مدلِّس. **وفيه** أنَّ اصطلاح التحديث وغيره من صيغ الأداء ليس حادثًا، **وفيه** أنَّ أولَّ من سمىٰ

---

(٥٥٧) وأخرجه مسلم (٢٨١١)، والترمذي (٢٨٦٧)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٦١).

الحديث حديثًا رسولُ الله ﷺ؛ كما في حديث: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**». **صحيح**: أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ٨)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٩٥). وسائر فوائده تأتي في الباب الذي يليه.

٥- بَابُ طَرْحِ الإِمَامِ المَسْأَلَةَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ؛ لِيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ

قوله: (**بَابُ طَرْحِ الإِمَامِ المَسْأَلَةَ**)، قال **المهلَّب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "طرح المسائل علىٰ التلاميذ؛ لترسخ في القلوب وتثبت؛ لأنَّ ما جرىٰ منه في المذاكرة لا يكاد يُنسىٰ" شرح ابن بطَّال (١/ ١٤١)، وقد فعل ذلك النبي ﷺ حيث طرح السؤال علىٰ أصحابه الكبار منهم والصغار؛ كما في حديث الباب.

وقوله: (**لِيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ**)، أي: ليمتحن فقههم وعلمهم.

٦٢- حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ، حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ دِينَارٍ، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**». قَالَ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي. قَالَ عَبْدُاللهِ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»(٥٥٨).

تقدم في: (العلم٦١).

الشرح

وفي رواية -أخرىٰ- لهذا الحديث -بسياقٍ أتمّ منه- أنَّه قال: كنت عند النبي ﷺ وهو يأكل جُمَّارًا (قلب النخلة من أعلاها)، فقال: «**إنَّ من الشجر شجرة لا يسقط ورقها تؤتي أكلها كلَّ حين وإنَّها مثل المسلم، ما أخذت منها من شيء نفعك، فحدِّثوني ما هي؟**» قال عبدالله: فوقع الناس في شجر البوادي، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلَّمان، ووقع في نفسي أنَّها النخلة؛ من أجل الجمَّار

(٥٥٨) وأخرجه مسلم (٢٨١١).

الذي أُتي به، فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم؛ فاستحييت، فسكتُّ.

ثمَّ قالوا: أخبرنا بها يا رسول الله، قال: «**هي النخلة**».

قال **عبدالله**: فلمَّا قمنا قلت لعمر: يا أبتاه! والله! لقد كان وقع في نفسي أنَّها النخلة، فقال: ما منعك أن تكلَّم؟ قلت: لم أركم تكلَّمون؛ فكرهت أن أتكلَّم.

فقال **عمر**: "لأن تكون قلتها أحبُّ إليّ من أن يكون لي كذا وكذا". الحديث مع زياداته من الصحيحين وغيرهما، من كتاب جامع المسانيد والسنن (٤/ ١٨)، وهو في الصحيحة (٢٢٨٥).

وقوله: (**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**)، **فيه** إلقاء العالم المسألة الخفية علىٰ أصحابه؛ ليختبر أفهامهم ويرغبهم في التفُّقه، وقد قال -سبحانه- ﴿**فَامْتَحِنُوهُنَّ**﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقال: ﴿**فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**﴾ [النساء: ٦]، فأصل مبدأ الاختبار مشروع للمصلحة. **وفيه** جواز اختبار الطلاب بعد الدراسة، وقد كانوا يختبرون العالم الذي يريدون أن يأخذوا منه العلم -أيضًا-، **وفيه** أنَّه يشرع للعالم أن يحرِّض الناس والطلاب، ويحثُّهم علىٰ العلم وتفهُّمه، **وفيه** ضرب الأمثال؛ لتقريب العلم للأفهام، وتصوير المعاني في الأذهان وترسيخها. **وفيه** مشروعية السؤال والجواب في العلم والتعليم. **وفيه** التنويع في وسائل التعليم. **وفيه** فضل المؤمن وأنَّه مبارك أينما كان، ومنه قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ**﴾ [مريم: ٣١].

وفيه بيان ما كان عليه النبي ﷺ من تربية أصحابه تربية علمية سلوكية. **وفيه** أنَّ التشبيه لا يلزم أن يكون من جميع الوجوه. **وفيه** مشروعية القياس.

وقوله: (**فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي**)، أي: ذهبت أفكارهم وجالت في الشجر الذي ينبت في البوادي، وهي جمع بادية.

وقوله: (**قَالَ عبدالله: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ**)، فاستحيىٰ لوجود الكبار كأبي بكر وعمر، فلم يُرد أن يظهر تفوُّقه عليهم، **ففيه** توقير الكبار، وترك التكلُّم عندهم، وعدم إظهار التميُّز عليهم، **وفيه** إشارة إلىٰ أنَّه ينبغي للشخص إذا أُلقي عليه سؤال خفي؛ أن يتفطن للقرائن الواقعة عند السؤال؛ كما تفطن ابن عمر إلىٰ أنَّها النخلة بالجُمّار الذي كان ﷺ يأكله؛ **وفيه** جواز تجمير النخل؛ كتشذيب التين، وأنَّ ذلك لا يعدُّ من إضاعة المال، **وفيه** جواز

بيع الجُمَّار، وأكله؛ لأنَّ كلَّ ما جاز أكله؛ جاز بيعه.

ووقع في بعض الروايات: قال **عبدالله**: "حدَّثتُ أبي بما وقع في نفسي"، فقال **عمر**: "لأن كنتَ قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا". سيأتي برقم (١٣١)؛ وإنَّما كان ذلك لما طُبع عليه الإنسان من محبَّة الخير لنفسه ولولده، ولتظهر فضيلة الولد في الفهم في صغره، وليزداد من النبي ﷺ حَظوة، وقد يدعو له النبي ﷺ. **وفيه** سرور الوالد بولده؛ لنباهته وفهمه، وأنَّ ذلك لا يقدح في إخلاصه، **وفيه** الإشارة إلىٰ حقارة الدنيا في عين عمر رضي الله عنه -؛ لأنَّه قابل فهم ابنه لمسألة واحدة بحُمُر النَعم، مع عظم مقدارها وغلاء ثمنها، **وفيه** فضل الحياء ما لم يفوِّت مصلحة، **وفيه** أنَّ العالم الكبير قد تخفىٰ عليه بعض المسائل، ويحصلها من هو دونه. **وفيه** أنَّ الله يؤتي فضله من يشاء، وأنّ العلم توفيق ومواهب؛ ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾ [الأنبياء: ٧٩]. **وفيه** أنَّه لا يُكره للولد أَنْ يُجيب بما يعرف بحضرة أبيه، وإن لم يعرفه الْأَب، وليس في ذلِك إساءة أَدب منه. **وفيه** فضيلة ظاهرة لابن عمر رضي الله عنهما -؛ وقد قال فيه **الذهبي**: "روىٰ علمًا كثيرًا نافعًا عن النبي ﷺ، وعن أبيه، وأبي بكر، وعثمان، وعلي، ...، وغيرهم. سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٤، ط: الرسالة)، وقال -أيضًا-: "ولابن عمر أقوال وفتاوىٰ". وقد مَنَّ الله -تعالىٰ- عليه بعشرات السنين التي مكنته من إفادة الناس بعلمه وفتاواه؛ قال **مالك** رحمه الله: "كان إمامَ الناس عندنا -بعدَ زيدِ بن ثابت- عبدُالله بن عمر، مكث سِتّين سنةً يُفتي الناس". السير (٣/ ٢٢١).

وروىٰ مالك عن **نافع**: "كان **ابن عمر وابن عباس** رضي الله عنهم يجلسان للناس عند مقدم الحاجِّ، فكنت أجلس إلىٰ هذا يومًا، وإلىٰ هذا يومًا، فكان ابن عباس يجيب ويفتي في كلِّ ما سُئل عنه، وكان **ابن عمر** يردّ أكثرَ ممَّا يُفتي". **صحيح**: أخرجه البيهقي في الكبير (١٢٠).

قوله: (**قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ**)، شبَّهَ ﷺ النخلةَ بالمسلم؛ كما شبهها الله في كتابه، وضرب بها المثل للناس؛ فقال: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ**﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]. فهي أشبهت المسلم في كثرة برها، ودوام ظلِّها، وطيب ثمرها، ويتخذ منها منافع كثيرة من خشبها وورقها وأغصانها، فتستعمل جذوعًا، وحطبًا، وعصبًا، ومخاصرَ، وحصرًا، وحِبالًا، وأوانيَ، ثمَّ ينتفع بنواها علفًا للأنعام. والمؤمن خير كله؛ من كثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه،

ومواظبته علىٰ عبادته؛ فكأنَّ الخير لا ينقطع منه، فهو دائم؛ كما تدوم أوراق النخلة فيها، ثمَّ الثمر الكائن منها في أوقاته. شرح البخاري للسفيري (٢/ ٣٥١).

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "تضمَّن -هذا- تشبيهَ المسلمِ بالنخلة من كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده علىٰ الدوامِ". زاد المعاد (٤/ ٣٦٥) بتصرف.

وعَنِ **ابْنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّخْلَةِ، مَا أَتَاكَ مِنْهَا نَفَعَكَ**». **إسناده صحيح**: أخرجه البزار " كشف الأستار " (٤٣)، وهو في الصحيحة (٢٢٨٥).

وفيه فضل النخل وبركته، وعظيم فوائده ومنافعه.

٦- بَابُ مَا جَاءَ فِي العِلْمِ

وَقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قوله: **(بَابُ مَا جَاءَ فِي العِلْمِ)**، تقدَّم الكلام -في الباب الأول- علىٰ فضل العلم وطلب الزيادة منه، وسيأتي مزيد من الكلام عليه -إن شاء الله- بعد أبواب.

قلت: لم يذكر تحته حديثًا، ليس لعدم ورود الأحاديث فيه، فإمَّا أنَّه لم يجد منها شيئًا علىٰ شرطه، وإمَّا أنَّه اكتفىٰ بما ذكر من الآيات.

وقوله: **(﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾)**، سبق الكلام علىٰ هذه الآية، قال الشيخ **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا أمرٌ مِن الله مُوجّهٌ للرسول ﷺ أن يقول: ﴿**رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤]، أي: علمًا نافعًا -وإن لم يرد هذا التقييد في الدعاء-؛ إذ إنَّه لا يمكن لمن يطلب زيادة علم من الله؛ يطلبه ضارًّا -أبدًا-". شرح البخاري (١/ ١٧٤) باختصار وتصرف، كما أنَّ سياق الآية يدلُّ عليه: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾ [طه: ١١٤]؛ فدلَّ علىٰ أنَّ المراد بالعلم -في الآية- إنَّما هو العلم النافع المتمثِّل في الوحي.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يسأل الله علمًا نافعًا، فعَنْ **أُمِّ سَلَمَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: " كان رسول ﷺ يَقُولُ إِذَا صَلَّىٰ الصُّبْحَ حِينَ يُسَلِّمُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**». **حسن**: أخرجه أحمد (٢٦٥٢١)، وابن ماجه (٩٢٥)، وهو في تمام المنة (ص٢٣٣).

وورد عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنَّه كان إذا شرب ماء زمزم قَالَ: "اللهم إنِّي أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء". **حسن**: أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٧٠٨، ١١٠٧)، والدارقطني

(٢٣٧)، وأخرج ابن أبي داود **بسند صحيح** عن إبراهيم عن علقمة قال: صليت إلىٰ جنب **عبدالله** (يعني: ابن مسعود) فافتتح سورة طه، فلما بلغ ﴿**رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾ [طه: ١١٤] قال: "**ربِّ زدني علمًا، ربِّ زدني علمًا**"، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكفىٰ بهذا شرفًا للعلم، أن أمر نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه". مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠، ط: العلمية).

وقال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: زدني منك علمًا؛ وقال **ابن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ: ولم يزل ﷺ في زيادة حتىٰ توفَّاه الله -عزَّ وجلَّ-". تفسير ابن كثير (٥/ ٢٨١، ط: العلمية). وقد قيل: ما أمر الله رسوله ﷺ بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.

وهذا ما كان يفعله دائمًا -عليه الصلاة والسلام-؛ فقد صحّ عن **جابر بن عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اللهم إنِّي أسألك علمًا نافعًا، وأعوذ بك من علم لا ينفع**». **حسن صحيح**: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨٢)، وهو في الصحيحة (١/ ١٥).

وعن **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي ﷺ أنَّه كان يقول: «**اللهم! انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينفعني، وارزقني علمًا تنفعني به**». **صحيح لغيره**: أخرجه الحاكم (١/ ٥١٠)، والطبراني في "الدعاء" (٣/ ١٤٠٥، ١٤٥٥)، وهو في الصحيحة (٣١٥١).

وقال **الإمام الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَحُقَّ علىٰ طلبة العلم بلوغُ غاية جُهدهم في الاستكثار من علمه -يقصد: القرآن-، والصبرُ علىٰ كل عارض دون طلبه، وإخلاصُ النية لله -تعالىٰ- في إدراكه نصًا واستنباطًا، والرغبةُ إلىٰ الله -تعالىٰ- في العون عليه؛ فإنَّه لا يُدرك خير إلا بعونه". الرسالة (ص: ١٩).

القِرَاءَةُ وَالعَرْضُ عَلَىٰ المُحَدِّثِ

وَرَأَىٰ الحَسَنُ، وَالثَّوْرِيُّ، وَمَالِكٌ: "القِرَاءَةَ جَائِزَةً".

وَاحْتَجَّ بَعْضُهُمْ(٥٥٩) فِي القِرَاءَةِ عَلَىٰ العَالِمِ: بِحَدِيثِ ضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ(٥٦٠) قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: "فَهَذِهِ قِرَاءَةٌ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، أَخْبَرَ ضِمَامٌ قَوْمَهُ بِذَلِكَ فَأَجَازُوهُ(٥٦١)".

وَاحْتَجَّ مَالِكٌ: "بِالصَّكِّ يُقْرَأُ عَلَىٰ القَوْمِ، فَيَقُولُونَ: أَشْهَدَنَا فُلاَنٌ، وَيُقْرَأُ ذَلِكَ قِرَاءَةً عَلَيْهِمْ، وَيُقْرَأُ عَلَىٰ المُقْرِئِ، فَيَقُولُ القَارِئُ: أَقْرَأَنِي فُلاَنٌ".

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ الوَاسِطِيُّ، عَنْ عَوْفٍ، عَنِ الحَسَنِ، قَالَ: "لاَ بَأْسَ بِالقِرَاءَةِ عَلَىٰ العَالِمِ".

وَأَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الفَرَبْرِيُّ، وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عُبَيْدُاللهِ بْنُ مُوسَىٰ عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: إِذَا قُرِئَ عَلَىٰ المُحَدِّثِ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَقُولَ: حَدَّثَنِي.

قَالَ: وَسَمِعْتُ أَبَاعَاصِمٍ يَقُولُ: عَنْ مَالِكٍ، وَسُفْيَانَ: القِرَاءَةُ عَلَىٰ العَالِمِ وَقِرَاءَتُهُ سَوَاءٌ.

قوله: **(القِرَاءَةُ وَالعَرْضُ عَلَىٰ المُحَدِّثِ)**، أورد المصنف هذه العبارة؛ لأنَّ بعض المحدِّثين (٥٦٢) لا يعتدّون إلا بما سمعوه من ألفاظ المشايخ دون ما يقرأ عليهم، لذلك ردَّ عليهم البخاري، وبيّن حكم القراءة والعرض (٥٦٣) علىٰ المحدِّث، وأعقبه بذكر رأي **الحسن والثوري**

---

(٥٥٩) هو: أبوسعيد الحداد. ذكره الحافظ في "الفتح".

(٥٦٠) سيذكره المصنف تحت هذا الباب من حديث أنس، لكن ليس فيه أنَّ ضمامًا أخبر قومه بذلك، وإنَّما هو في الحديث من رواية ابن عباس. أخرجه بطوله الدارمي في "سننه" (١/ ١٦٥- ١٦٧)، وأحمد (١/ ٢٦٤). وسنده حسن.

(٥٦١) قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ في "الفتح": "أي قبلوه منه، ولم يقصد الإجازة المصطلحة بين أهل الحديث".

(٥٦٢) ذهب جمع من العلماء إلىٰ ذلك، منهم: أبوعاصم النبيل، وعبدالرحمن بن سلام الجُمَحِي، ووكيع، ومحمد بن سلام، ولا يعتد برأيهم في هذا. **ينظر**: "تدريب الراوي (١/ ٥٣٧- ٥٣٨).

(٥٦٣) وأدلة حجية العرض ما يلي:

أولًا: السنَّة؛ وهو ما جاء في حديث **ضمام بن ثعلبة** الذي نحن بصدد شرحه، وقد قال **البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليس

ومالك؛ استئناساً بهم لما يعتقده -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-.

وقوله: "**القِرَاءَةُ وَالعَرْضُ**"، هما من ناحية بمعنىٰ واحد؛ حيث إنَّ العرضَ قراءةٌ، وقد يختلف معناهما من حيث إنَّ **العَرْضَ**: "عبارةٌ عمَّا يعارِض به الطالب أصل (أي كتاب) شيخه معه أو مع غيره بحضرته"، فيكون كلُّ عرضٍ قراءةً، ولا عكس.

وإمَّا **عرض مناولة**، وهو: أن يجيء الطالب إلىٰ الشيخ بكتاب؛ فيعرضه عليه، فيتأمَّله الشيخ -وهو عارفٌ متيقِّظ-، ثمَّ يعيده إليه، ويقول له: وقفت علىٰ ما فيه، وهو حديثي عن فلان، فأجزتُ روايته عنِّي، أو نحو ذلك.

وقوله في الآثار: (القِرَاءَةَ جَائِزَةً)، أي: في صحَّة النقل عن المحدِّث، ولم يذكر السماع؛

يروىٰ عن النبي ﷺ في القراءة علىٰ العالم -أو قال: المحدِّث- حديث أصحُّ من حديث ضمام"، فقد أخبر بذلك قومه فقبلوا منه مع أنَّه لم يسمع من النبي ﷺ وإنَّما أقرَّه النبي ﷺ، وممَّا يمكن أن يستدلَّ به في هذا المقام: معارضة جبريل القرآن علىٰ النبي ﷺ.

ثانيًا: الاستدلال بعرض القرآن علىٰ المقرئ؛ وفي هذا احتجاج مالك بالصك يقرأ، وكذلك ما جاء عن **مطرف بن عبدالله** قال: سمعت مالكًا، يأبىٰ أشد الإباء علىٰ من يقول: إنَّه لا يجزيه العرض، ولا يجزيه إلا السماع، ويقول **مالك**: "إذا قرأت علىٰ القارئ فسئلت: من أقرأك؟ أليس تقول: فلان، وهو لم يقرأ عليك، إنَّما قرأت أنت عليه، فلا ترىٰ ذلك يجزيك في الحديث وترىٰ أنَّه يجزيك في القرآن، والقرآن أعظم، فكيف لا تأخذ الحديث عرضًا وتريد ألَّا تأخذ إلا سماعًا، وذلك المحدث إنّما أخذه عرضًا، فكيف جوَّزت للمحدث أن يحدِّثك ما أخذه عرضًا ولم تجوز لنفسك أن تعرض عليه كما عرض هو؟!". الكفاية (ص ٢٧٠، ط: دائرة المعارف العثمانية).

ثالثًا: ذكر غير واحد من أهل العلم حجية العرض علىٰ المحدث، قال **الخطيب البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذهب بعض الناس إلىٰ كراهة العرض، وهو: القراءة علىٰ المحدِّث، ورأوا أنَّه لا يعتدُّ به إلا بما سمع من لفظه، وقال جمهور الفقهاء والكافة من أئمَّة أهل العلم بالأثر: إنَّ القراءة علىٰ المحدِّث بمنزلة السماع منه في الحكم". الكفاية (ص ٢٥٩، ط: دائرة المعارف العثمانية).

يقول **الحافظ** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "وقد انقرض الخلاف في كون القراءة علىٰ الشيخ لا تجزي، وإنَّما كان يقوله بعض المتشدِّدين من أهل العراق". الفتح (١/ ١٩٨). ومن الآثار في ذلك قول **عبدالرزاق**: "سمعنا وعرضنا، وكلٌّ سماع". الكفاية (ص ٢٧١، ط: دائرة المعارف العثمانية).

وعن **إبراهيم بن سعد** أنَّه قال: ألا تَدَعون تنطُّعَكم يا أهل العراق؟ العرض مثل السماع. البيهقي في "المعرفة" (١/ ٣٢).

لأنَّه لا نزاع فيه.

وقوله: (وَاحْتَجَّ مَالِكٌ: بِالصَّكِّ)، **الصكُّ**: الكتاب، قَالَ **الْجَوْهَرِيُّ**: وهو "فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ"(٥٦٤).

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد -هنا-: المكتوب الذي يُكتب فيه إقرار المقرّ؛ لأنَّه إذا قرئ عليه فقال: "نعم"؛ ساغت الشهادة عليه به -وإن لم يتلفَّظ هو بما فيه-، فكذلك إذا قرئ علىٰ العالم فأقرَّ به؛ صحَّ أن يُروىٰ عنه". الفتح (١/ ١٤٩، ط: دار المعرفة).

وقوله: (وَيُقْرَأُ عَلَىٰ المُقْرِئِ)، المقصود قراءةُ التلميذ القرآنَ علىٰ المقرئ، حيث إنَّه يقول بعد ذلك: أقرأني فلان؛ وهذا قياس من الإمام مالك قراءة الحديث علىٰ القرآن.

فذكر الآثارَ للدلالة علىٰ الاحتجاج بالقراءة أو العرض علىٰ الشيخ، وأن لا حجَّة لمن ردَّ ذلك.

وفي أثر سفيان(٥٦٥): (إِذَا قُرِئَ عَلَىٰ المُحَدِّثِ فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَقُولَ: حَدَّثَنِي)، بالإفراد أو "سمعتُ"؛ كما جاء في رواية غير أبي ذر، أفاده **القسطلاني**. إرشاد الساري (١/ ١٥٩).

قال **الكرماني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: علىٰ القارئ أن يقول: (حدَّثني)؛ كما جاز أن يقول: (أخبرني)، وهذا مشعر بأن لا تفاوت عند البخاري بين حدَّثني وأخبرني، وبين أن يقرأ علىٰ الشيخ أو يقرأ الشيخ". الكواكب الدراري (٢/ ١٥).

وعليه؛ فصيغة الأداء لمن قرأ علىٰ الشيخ؛ أن يقول: (حدَّثني) ونحوها؛ قال **شعبة**: كتب إليَّ منصور بحديث، ثمَّ لقيته فسألته؛ فقال: أليس قد كتبت به إليك؟! إذا كتبت به إليك؛ فقد حدَّثتك. قال: وسألت أيوب السختياني؛ فقال مثل ذلك. سنن الدارمي (٩٥٩)، ذمُّ الكلام وأهله (٩٧٩).

٦٣- حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ سَعِيدٍ -هُوَ المَقْبُرِيُّ- عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، يَقُولُ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي

---

(٥٦٤) **انظر**: "الصحاح" للجوهري (٤/ ١٥٩٦)، (مادة: ص ك ك).

(٥٦٥) نسب البغوي هذا الأثر إلىٰ سفيان بن عيينة، وهو خطأ! والصواب: أنه من كلام الثوري، والله أعلم.

المَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَىٰ جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ (أبركه) فِي المَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ (أي: بينهم)، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ المُتَّكِئُ. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِالمُطَّلِبِ! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**». فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ (أي: لا تغضب)، فَقَالَ: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**»، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ (أي: سألتك بالله)، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ (أي: رمضان)؟ قَالَ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ (وهي الزكاة) مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَىٰ فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ نَعَمْ**». فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ.

وَرَوَاهُ مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، وَعَلِيُّ بْنُ عَبْدِالحَمِيدِ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ المُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا(٥٦٦).

الشرح

قوله: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ)، هو ضمام بن ثعلبة، وكان قدومه سنة تسع من الهجرة.

قوله: (عَلَىٰ جَمَلٍ، فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ)، أي: أنَّه جاء علىٰ جمل وأبركه، والمراد: عند باب المسجد؛ كما في رواية: **"وَأَنَاخَ بَعِيرَهُ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ"**. حسن: أخرجه أحمد (٢٣٨٠)، ثمَّ عقلَه، يعني: شدّ علىٰ ساقه مع ذراعه حبلًا -بعدَ أن ثنىٰ ركبته-، **فيه** جواز عقل البعير عند باب المسجد. **وفيه** إشارة إلىٰ طهارة أبوال الإبل وأبعارها، **وفيه** فضل

---

(٥٦٦) وأخرجه مسلم (١٢)، وأبوداود (٤٨٦)، والترمذي (٦١٩)، والنسائي (٢٠٩٢، ٢٠٩٣)، وابن ماجه (١٤٠٢).

الرحلة في طلب العلم.

قوله: (أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟)، **فيه** دليلٌ علىٰ أنَّ النبي ﷺ لم يكن متميِّزًا بمجلس خاص، ولا لباس خاص من بين أصحابه؛ كما يفعل بعض المشايخ اليوم في بعض البلاد. **وفيه** دليلٌ علىٰ شدَّة تواضعه؛ حيث لم يتميِّز بين أصحابه، بل كان يخالطهم ويجالسهم كأنَّه واحد منهم، ولم ينكروا علىٰ ضمام أن ذكر النبي ﷺ باسمه.

وقوله: (وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ)، المراد: أنَّه استوىٰ علىٰ وطاء، متكئا بين أصحابه.

فيه جواز الاتِّكاء بين الأولاد والأصحاب، ولا سيَّما من الكبار في السنِّ أو العلم.

وقوله: (فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ)، يعني: المشرب بالحمرة؛ فقد جاء في بعض الروايات أنَّه: "أزهر اللون". كما عند مسلم (٨٢)، فلا ينافي ذلك ما يأتي في صفة النبي ﷺ أنَّه ليس بالأبيض؛ لأنَّ الأبيض المنفي هو الأمهق، وورد وصفه في بعض الروايات بأنَّه (آدم) أي: أسمر، فالأمر نسبي، فهو أسمر بالنسبة لمن كان بياضه كالبياض الأوروبي، وهو أبيض بالنسبة للبياض العربي، وهو اللون الحنطي القمحي، ولذلك المثبت -هنا- بياضٌ نيِّرٌ أزهرُ حنطيٌّ فاتح، **ففيه** جواز أن يُعَرَّفْ الرجل بصفته من البياض والحمرة، والطول والقصر.

قوله: (فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِالمُطَّلِبِ)، **فيه** نسبة الرجل لبعض أجداده، وقد قال ﷺ: «**أنا النبيّ لا كذب ... أنا ابنُ عبدالمطلب**». متفق عليه.

وورد في بعض الروايات قال: "يا محمد"، **وفيه** جواز تسمية الأقلِّ للأعلىٰ دون أن يُكْنِيَه، إلا أنَّ ذلك منسوخ في حقِّ الرسول ﷺ لقوله -تعالىٰ-: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا**﴾ [النور: ٦٣]، قال الحسين بن علي: سمعت **الشافعي** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "يكره للرجل أن يقول: الرسول، ولكن يقول: قال رسول الله ﷺ تعظيمًا له". أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (١٤٢٨).

وعن ابن أبي نجيح، عن **مجاهد**، في قوله: ﴿**وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ**﴾ [الحجرات: ٢] يقول: "لا تنادوه باسمه نداء، ولكن قولوا قولًا ليِّنًا: يا رسول الله، وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ**﴾ [الحجرات: ٤]، "يعني: أعراب بني تميم". المصدر السابق (١٤٢٩).

قوله: (قَدْ أَجَبْتُكَ)، أي: سمعت كلامك، كالمقرِّ له، مع أنَّه لم يجب بالنطق.

وفي بعض الروايات قال: "أتانا رسولك فأخبرنا ..." أخرجه النسائي (٢٠٩١).

فيه قبول خبر الواحد. **وفيه** أنَّ القراءة علىٰ العالم والعرض عليه جائز مثل السماع. **وأنَّ** هذه الرواية دليل لما قرَّره المصنف من العرض والقراءة علىٰ الشيخ.

وقوله: (إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي المَسْأَلَةِ، فَلاَ تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ)، أي: لا تغضب(٥٦٧).

فيه أنَّه ينبغي أن يقدِّم الإنسان بين يدي حديثه بمقدِّمة يعتذر فيها؛ ليقع حديثه عند محدَّثه موقعًا حسنًا، ويصبر له.

وقوله: (سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ)، أي: عمَّا ظهر لك.

وقوله: (أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَىٰ النَّاسِ كُلِّهِمْ؟)، أي: وأسألك بربِّ مَن قبلك مِن الأنبياء، هل أرسلك الله إلىٰ الناس كافة؟

فيه جواز الاستحلاف علىٰ الحقِّ؛ ليكون علىٰ اليقين؛ لذلك جاء مستثبتًا، وطالبًا لعلو الإسناد. **وفيه** عموم رسالته ﷺ.

وفيه أنّ العوام مؤمنون، بما وصلهم من خبر عن الله ورسوله ﷺ، قال **ابن الصلاح** رحمه الله: "وفي هذا الحديث دلالةٌ علىٰ صحَّة ما ذهب إليه أئمَّة العلماء في أنَّ العوام مؤمنون، وأنَّه يكتفي منهم بمجرد اعتقادهم الحقَّ جزمًا من غير شكٍّ وتزلزل(٥٦٨).

فقال: (اللَّهُمَّ نَعَمْ)، أي: يا الله! تبرُّكًا باسم الله -عزَّ وجلَّ-، يقرُّه علىٰ القول الذي سأله عنه.

---

(٥٦٧) أمَّا في غير الغضب فلا يقال: موجدة، بل يقال في المطلوب: وجده وجودًا، وفي الضالة: وجدها وجدانا، وفي الحزن: وجد وجدًا، وفي المال: وجد جدة أي: غنىٰ. (منحة الباري).

(٥٦٨) خلافًا لمن أنكر ذلك من المعتزلة، وذلك أنَّه ﷺ أقر ضمامًا علىٰ ما اعتمد عليه في تعرُّف رسالته وصدقه ﷺ؛ من مناشدته ومجرد إخباره إيَّاه بذلك، ولم ينكر عليه ذلك قائلًا له: إنَّ الواجب عليك أن تستدرك ذلك من النظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلَّة القطعية التي تفيدك العلم، والله أعلم". صيانة صحيح مسلم (١٤٤).

قوله: (أَنْشُدُكَ بِاللهِ)، أي: أسألك به، **وفيه** أنّ السؤال يكون بالله -وحده-.

وقوله: (آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ)، كلّ ما وجب عليه وجب علىٰ أمته؛

وقوله: (آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ)، أي: رمضان من كل سنة.

وقوله: (آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَىٰ فُقَرَائِنَا)، يعني بالصدقة: الزكاة؛ وذكر صنف الفقراء؛ لأنَّهم أغلب أصناف الزكاة الثمانية.

وقد ورد ذكر الحجِّ في إحدىٰ الروايات التي سقناها، ولفظها: "قال: فأنشدك به! آلله أمرك أن يَحُجَّ هذا البيت من استطاع إليه سبيلًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم نعم**»".

وقوله: (آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ)، أي: من الوحي، هذا القول من ضمام إخبارًا عن إيمانٍ سالِفٍ -وهو اختيار القاضي عياض والحافظ-، انظر: الفتح (١/ ١٥٢).

وقوله: (وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ)، والمراد ببني سعد: بنو سعد بن بكر بن هوازن، **فيه** أنَّه ينبغي علىٰ الإنسان أن يُعرِّف بنفسه ولا يبهمها. **وفيه** دليلٌ علىٰ علم معرفة الأنساب.

٧- بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي المُنَاوَلَةِ، وَكِتَابِ أَهْلِ العِلْمِ بِالعِلْمِ إِلَىٰ البُلْدَانِ

وَقَالَ **أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ**: نَسَخَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ المَصَاحِفَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَىٰ الآفَاقِ(٥٦٩).

وَرَأَىٰ **عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ**، وَيَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ذَلِكَ جَائِزًا(٥٧٠).

وَاحْتَجَّ بَعْضُ أَهْلِ الحِجَازِ فِي المُنَاوَلَةِ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ كَتَبَ لِأَمِيرِ السَّرِيَّةِ كِتَابًا وَقَالَ ﷺ: «**لاَ تَقْرَأْهُ حَتَّىٰ تَبْلُغَ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا**»(٥٧١). فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ المَكَانَ قَرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

قوله: (**بَابُ مَا يُذْكَرُ فِي المُنَاوَلَةِ ...**)، لـمَّا فرغ البخاري من تقرير مسألة السماع والعرض في التحمُّل؛ أعقبه بذكر وجه من أوجه التحمُّل المعتبرة عند أهل الفن، وهي المناولة والمكاتبة(٥٧٢).

---

(٥٦٩) هو طرف من حديث طويل يأتي موصولًا بتمامه في كتاب فضائل القرآن، باب رقم (٣)، برقم (٤٩٨٧).

(٥٧٠) قال **الحافظ**: "أما أثر ابن عمر، فوصله أبوالقاسم ابن منده في "كتاب الوصية" بسند صحيح عن أبي عبدالرحمن الحبلي، عن عبدالله نحوه. فيحتمل أنَّه عبدالله بن عمر، فقد جاءت في جميع نسخ البخاري بضم العين، والحبلي سمع منه.

ويحتمل أنَّه عبدالله بن عمرو، فإنَّ الحُبُلِي مشهور بالرواية عنه"(الفتح). ولكن فيما يظهر -والله أعلم- أنَّه ابن عمرو؛ لما قاله **الخطيب** عن أهل الصنعة: إذا قال المصري عن عبدالله فمراده عبدالله بن عمرو بن العاص، وإذا قال الكوفي عبدالله فمراده ابن مسعود، والحبلي مصري.

وأمَّا أثر يحيىٰ بن سعيد ومالك- وهو ابن أنس- فوصله الحاكم في "علوم الحديث" (ص ٢٥٩) **بإسناد جيد** عنهما.

(٥٧١) وصله ابن إسحاق عن عروة بن الزبير مرسلًا، والطبري في "التفسير" من حديث جندب البجلي **بسند حسن**؛ كما في "الفتح"، وقال: فبمجموع هذه الطرق يكون **صحيحًا**.

(٥٧٢) ويلتحق بالمناولة قسم آخر من أقسام التحمُّل، يسمَّىٰ بـــ: (**إعلام الشيخ**)، وهو أن يعلم الشيخ الطالب لفظًا بشيء من مرويه مجرَّدًا عن الإجازة، رواه الشيخ سماعًا أو إجازة أو غيرهما.

فجزم بعضهم بمنع الرواية به، وذلك لعدم إذنه له، وربَّما لا تجوز روايته عنه؛ لخلل يعرف فيه، وإن سمعه، كالشهادة علىٰ شهادة الشاهد، فإنَّه لا يكفي إعلامه بها ولا سماعها منه، بل لابدَّ أن يأذن له في أن يشهد علىٰ شهادته، قال ابن الصلاح: وهذا ممَّا تساوت فيه الشهادة والرواية؛ لأنَّ المعنىٰ يجمعهما وإن افترقا في غيره.

قال **ابن الملقِّن** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكلٌّ منهما قد يقترن به الإجازة وقد لا يقترن، ولم يصرِّح بالإجازة المجرَّدة، ويحتمل أنَّه يرىٰ أنَّها من أنواع الإجازة، **والخطيب**: أطلق اسم الإجازة علىٰ ما عدا السماع، وجعل المناولة والعرض من أنواعها، واستدلَّ علىٰ الإجازة بعين ما استدلَّ به البخاري علىٰ المناولة". التوضيح (٣/ ٢٩٣، ط: دار النوادر).

فالمناولة: هي إعطاء الشيخ الطالبَ شيئًا من مروياته، ويقول له: هذا من مروياتي، أو من حديثي، أو نحو ذلك.

قال بعضهم: هي صحيحة تجوز الرواية بها؛ لإشعارها بالإذن في الرواية، والذي يظهر من صنيع البخاري -والله أعلم- قبولها؛ حيث أطلق لفظ المناولة في الترجمة، واحتجَّ بفعل النبي ﷺ حيث أرسل بالكتاب وأعطىٰ الكتب، ولم يشترط شيئًا آخر.

وقوله: (وَكِتَابِ أَهْلِ العِلْمِ بِالعِلْمِ إِلَىٰ البُلْدَانِ)، أي: إلىٰ أهلها.

فعطف المصنف علىٰ المناولة قسمًا آخر من أقسام التحمُّل وهو **المكاتبة**، وهي: أن يكتب الشيخ حديثه، أو شيئًا من مروياته، أو تأليفه بخطه -نظما كان أو نثرا، وهذه أعلىٰ المراتب-، أو يأذن لمن يثق به بالكتابة عنه لغائب أو حاضر عنده ببلده، ويرسله بعد تحريره إلىٰ الطالب، ويأذن له في روايته عنه.

وقد سوَّىٰ **الإمام البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ بينها وبين المناولة من حيث القوَّة.

قال **الإتيوبي**: "وحاصل المعنىٰ: أنَّه إذا اقترنت الكتابة بالإجازة فهي في القوَّة والصحَّة؛ كالمناولة المقرونة بالإجازة". شرح الإتيوبي علىٰ ألفية السيوطي (١/ ٤٣٥).

قوله: (نَسَخَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ المَصَاحِفَ فَبَعَثَ بِهَا إِلَىٰ الآفَاقِ)، استدلَّ

وذهب كثير من أئمَّة الحديث إلىٰ الجواز قياسًا علىٰ شهادة الشاهد بما سمعه من المقرِّ، وإن لم يأذن له فيها، قال **الرامهرمزي**: تجوز له الرواية به، وإن منعه الشيخ بأن قال له: لا تروه عني، أو لا أجيزه لك؛ قياسًا علىٰ ما إذا منعه من التحديث بما سمعه. **انظر**: (كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري لمحمد الجكني الشنقيطي المتوفىٰ: ١٣٥٤هـ).

وأمَّا مسألة العمل، فإذا صحَّ عند أحد ما حصل الإعلام به من الحديث؛ فيجب العمل بمضمونه، سواء أجزنا الرواية به أم لا؛ لأنَّ العمل يكفي فيه صحتُه في نفسه؛ كنقل الحديث من الكتب المعتمدة.

المصنِّف بأثر عثمان في المصاحف، وذلك حين صار اختلاف بين الناس في القراءة، فيقول هذا: "هكذا أقرأني رسول الله"، ويقول هذا: "هكذا أقرأنيها رسول الله"، ويكاد يُضلّل بعضُهم بعضًا، وخِيفَت الفتنة؛ فجمعهم رضي الله عنه- علىٰ حرف واحد، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام رضي الله عنهم؛ أن ينسخوها، ثمَّ بعث مصحفًا إلىٰ مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، وآخرَ إلىٰ الكوفة، وأمسك بالمدينة واحدًا. وعثمان رضي الله عنه- فعلُه سنَّة متَّبعة، ولا سيَّما مع إقرار الصحابة له علىٰ ذلك، وإجماعهم عليه وعدم إنكار أحد منهم عليه في ذلك.

وقوله: (وَرَأَىٰ عَبْدُاللهِ بْنُ عُمَرَ... ذَلِكَ جَائِزًا)، أي: يحلُّ محلَّ السماع عندهم، فيسوغ فيها التعبير بالتحديث والإخبار؛ قال **ابن عثيمين** رحمه الله: "وهذا القول حقٌّ؛ لأنَّ فيه مصلحة، فبدلاً من أن يجلس الشيخ ليقرأ عليه الكتاب، ويُمْضي وقتًا؛ فإنَّه يناول هذا الطالب؛ فيروي عنه". شرح البخاري (١/ ١٩٢). وقال بذلك **الزهري**، لكنَّها أحط مرتبة من السماع عند الأكثرين.

وفي هذا دليل علىٰ جواز تأليف الكتب وطباعتها ونشرها مع التأكُّد من نسبة الكتاب إلىٰ مؤلِّفه، وتدخل الوجادة في ذلك.

وقوله: (وَاحْتَجَّ بَعْضُ أَهْلِ الحِجَازِ فِي المُنَاوَلَةِ...)، هو الحميدي شيخ البخاري، و(الحِجَاز)[٥٧٣]: مكة والمدينة وقراهما؛ واحتجُّوا (في المناولة)، أي: في جوازها.

وقوله: (بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ كَتَبَ ...)، وهذه حجَّة صحيحة؛ لأنَّ الرسول ﷺ أمر بكتابة كتب الكتاب وناوله إياه مكتوبًا، وأمره أن يبلِّغ الناس بما فيه إذا بلغ المكان المحدَّد، فهذه مناولة وإجازة.

وقوله: (لِأَمِيرِ السَّرِيَّةِ كِتَابًا)، هو عبدالله بن جحش الأسدي[٥٧٤]، **والسريَّة**؛ هي

---

(٥٧٣) سمِّيت بذلك؛ لأنَّها حجزت بين نجد والسراة -وهو جبل من اليمن إلىٰ بوادي الشام يحجز نجد عن تهامة-.

(٥٧٤) أبومحمد الأسدي، أمُّه أميمة بنت عبدالمطلب عمَّة الرسول ﷺ، أسلم مبكِّرًا قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وهاجر الهجرتين إلىٰ أرض الحبشة، وأخته زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، ثمَّ هاجر إلىٰ

القطعة من الجيش، وكانوا اثني عشر رجلاً من المهاجرين، وكانت في رجب من السنة الثانية، قبل بدر الكبرىٰ(٥٧٥).

وقوله: (فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ المَكَانَ)، هو "نَخْلَةُ"؛ موضع بين مكة والطائف، وهو وادٍ كبير من أودية الحجاز، يقع اليوم شمال شرق مكة علىٰ بُعد ثلاثة وأربعين كيلومترًا.

وقوله: (قَرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ)، فقبلوا منه وأجازوه في ذلك، مع أنّه لم يسمع من النبي ﷺ ذلك، ولكن اكتفىٰ بتناول الكتاب.

فائدة: ذكر **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ البخاري لم يذكر من أقسام التحمُّل الإجازةَ المجرَّدة عن المناولة أو المكاتبة، ولا الوجادة ولا الوصيَّة ولا الإعلام المجرَّداتِ عن الإجازة، وكأنَّه لا يرىٰ بشيء منها(٥٧٦). الفتح (١/ ١٥٦ ط: دار المعرفة).

٦٤ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِاللهِ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عبدالله بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ **عبدالله بْنَ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ (يعطيه) إِلَىٰ عَظِيمِ البَحْرَيْنِ (أي أميرها)، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ".

فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ المُسَيِّبِ قَالَ: فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ»(٥٧٧).

أطرافه في: (الجهاد٢٩٣٩، المغازي٤٤٢٤، أخبار الآحاد٧٢٦٤).

المدينة، فأمَّره رسول الله ﷺ علىٰ هذه السريَّة، ثمَّ شهد بدرًا، ثمَّ أحدًا وقتل بها بعد أن قُطع أنفه وأذنه، ويقال عنه المجدَّع في الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. **انظر:** التوضيح لابن الملقن، و"أسد الغابة" لابن الأثير.

(٥٧٥) **قيل:** هي أول سرية بعثها رسول الله ﷺ وأميرها هو أول أمير أمَّره، وغنيمته أول غنيمة غنمها المسلمون، انظر: "أسد الغابة" لابن الأثير، و"التوشيح شرح الجامع الصحيح" عند شرح هذا الحديث.

(٥٧٦) وذكر أنَّ البخاري يستعمل صيغة: "قال لي" ليفرِّق بين ما يبلغ شرطه وما لا يبلغ، والله أعلم.

قلت: هذا محتمل، ويحتمل أنَّه رآها، لكن ليس من شرطه أن يذكر جميع الأقسام والأنواع، أو أنَّه اكتفىٰ ببعضها؛ تنبيهًا علىٰ سائرها، أو لعلَّه كان يرىٰ أنَّها داخلة فيما ذكره.

(٥٧٧) وأخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥٨٥٩، ٨٨٤٦).

الشرح

قوله: (بَعَثَ بِكِتَابِهِ رَجُلًا)، أي: أرسل بكتاب فيه دعوةُ عظيمِ البحرين للإسلام مع عبدالله بن حُذافة السهمي(٥٧٨)، ودلَّ هذا علىٰ صحَّة المكاتبة(٥٧٩)، ويمكن أن يستدلَّ به علىٰ المناولة من جهة أنَّ النبي ﷺ ناول الكتاب لرسوله، وأمره أن يخبر عظيم البحرين بأنَّ هذا كتاب رسول الله ﷺ -وإن لم يكن سمع ما فيه ولا قرأه-. انظر: الفتح (١/ ١٥٥).

وقوله: (وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ البَحْرَيْنِ)، وأمر عبدالله بن حذافة أن يناوله ويعطيه لأمير البحرين، والله أعلم.

وقوله: (فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ)، وهو لقب لكل مَن مَلَكَ الفُرسَ، ويقال اسْمه: أَبَرْويز ابن هُرْمُز بن ملك الْفرس أَنو شرْوَان.

فيه جواز المناولة والمكاتبة في العلم. **وفيه** دليل علىٰ قَبُول خبر الواحد. **وفيه** أنَّ النبي ﷺ قد بلَّغ دعوته لأمَّة الدعوة والإجابة بكلِّ وسيلة ممكنة، مشافهة بالقول والفعل والتقرير، والمكاتبة ونحوها. **وفيه** أنَّ من لم يستطع تبليغ الدعوة مشافهة، فليكتب، وليصنِّف في العلم.

وفيه مشروعية تأليف الكتب، والنشر والتوزيع، لكن علىٰ أن تكون تلك الكتب قائمة علىٰ تفسير القرآن، وشرح الحديث، وما شابهها.

وفيه أنَّ دعوة النبي ﷺ للناس كافة، وليست خاصَّة بالعرب. **وفيه** فضيلة لعبدالله بن حذافة السهمي رضي الله عنه-. **وفيه** جواز الدعاء علىٰ الظالم، ولا سيَّما من استكبر عن قَبُول الحقِّ؛ كما دعا علىٰ من استكبر أن يأكل بيمينه، أن تُشلَّ يده. **وفيه** بيان شؤم من ردَّ سنَّة النبي ﷺ. **وفيه** جواز الدعاء علىٰ من ظلم وطغىٰ استكبارًا. **وفيه** أنَّ غالب مسائل الأصول عليها أدلَّة من الكتاب والسنَّة، علمها من علمها وجهلها من جهلها. **وفيه** أنَّ الدعوة -غالبًا- تكون مؤيَّدة بالضعفاء.

---

(٥٧٨) هو القرشي، يكنىٰ أبا حذافة، أسلم قديمًا، وصحب النبيَّ ﷺ وهاجر إلىٰ الحبشة الهجرة الثانية، وأرسله الرسول ﷺ بكتابه إلىٰ كسرىٰ، وكان فيه دعابة، وأسَرته الروم، توفي بمصر في خلافة عثمان رضي الله عنه-. انظر: "أسد الغابة".

(٥٧٩) يمكن أن يستدل للمكاتبة بجميع كتب النبي ﷺ التي كتبها للملوك والأمراء وغيرهم.

وقوله: (فَحَسِبْتُ أَنَّ ابْنَ المُسَيِّبِ)، القائل هو: ابن شهاب(٥٨٠).

وقوله: (أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ)، أي: غاية التمزيق ومنتهاه، وهو -هنا- التفريق والتشتيت، فكانت هذه البشارة الأولىٰ منه -عليه الصلاة والسلام-، وقد حدث ذلك؛ فمزَّق اللهُ مُلْكَهُ ومُلْكَ قومه، وقتله ابنه شيرويه، فأُتي من مأمنه، ويؤيِّده -أيضًا- قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إِذَا هَلَكَ كِسْرَىٰ فَلاَ كِسْرَىٰ بَعْدَهُ**». متفق عليه. وقوله -لـمَّا بلغَهُ أنَّ فارس ملَّكوا ابنةَ كسرىٰ عليهم-: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» سيأتي برقم: (٤٤٢٥). ويقال أنَّه بعث إلىٰ النبي ﷺ بتراب؛ فقال: «**بعث إليَّ بتراب، أما إنَّكم ستملكون أرضه**» المختصر الكبير في سيرة الرسول لابن جماعة (ص ١١٥)، ويؤيِّده أنَّ النبي ﷺ بشَّر هذه الأمَّة ببشارة أخرىٰ، وهي أنَّها ستملك مُلك كسرىٰ، ففي صحيح مسلم (١٨٢٢، ٢٩١٩) عن **جابر بن سمرة** رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «... **عُصَيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الأَبْيَضَ، بَيْتَ كِسْرَىٰ...**». إلا أنَّ الحافظ قال: قصة الدعاء مرسلة(٥٨١)، وأمَّا قصة الكتاب فموصولة.

٦٥- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أبوالحَسَنِ المَرْوَزِيُّ، أَخْبَرَنَا عبدالله، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه- قَالَ: " كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابًا- أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ - فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا مَخْتُومًا، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، نَقْشُهُ: مُحَمَّدٌ

---

(٥٨٠) قال شيخنا **الألباني** رحمه الله: قول ابن المسيب هذا مرسل، لم يذكر من حدَّثه بذلك عن النبي ﷺ، لكن قد جاء موصولًا من حديث التنوخي عند أحمد (٣/ ٤٤١) وغيره من حديث عبدالله بن حذافة السهمي عند ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٦٠).

لم تثبت قصة ردَّة عبيد الله بن جحش. **ينظر** كتاب: "ما شاع ولم يثبت في السيرة" د محمد عبدالله العَوْشَن (ص٤١).

(٥٨١) **صحيح**: قال شيخنا **الألباني** في المختصر: لكن قد جاء موصولًا من حديث التنوخي عند أحمد (٣/ ٤٤١) وغيره من حديث عبدالله ابن حذافة السهمي عند ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٦٠).

وقال **شيخنا** في التعليق علىٰ فقه السيرة للغزالي: **حديث صحيح**، رواه البخاري في صحيحه: (٨/ ١٠٤)؛ وأبوعبيد عن سعيد بن المسيب مرسلاً ومرفوعا؛ وروي من وجوه أخر مرسلًا، فليرجع إليها من شاء في (البداية والنهاية): (٤/ ٢٦٨).

رَسُولُ اللهِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ".

فَقُلْتُ لِقَتَادَةَ: مَنْ قَالَ نَقْشُهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ؟ قَالَ: أَنَسٌ.(٥٨٢)

أطرافه في: (الجهاد٢٩٣٨، اللباس٥٨٧٠، ٥٨٧٢، ٥٨٧٤، ٥٨٧٥ ٥٨٧٧، الأحكام٧١٦٢).

الشرح

قوله: (كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابًا -أَوْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ-)، والشكُّ من الراوي، والمعنىٰ: كتب الكاتب بأمره كتابًا إلىٰ الروم أو العجم، وقد جاءت روايتان بهذا، وفي رواية عند مسلم: (**أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَىٰ كِسْرَىٰ، وَقَيْصَرَ، وَالنَّجَاشِيِّ، فَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا بِخَاتَمٍ**). أخرجه مسلم (٢٠٩٢). **فيه** الاكتفاء بواحد ثقة في حمل كتاب الحاكم إلىٰ غيره إذا لم يشكَّ في الكتاب ولا أنكره.

وقوله: (إِنَّهُمْ لاَ يَقْرَءُونَ كِتَابًا إِلَّا مَخْتُومًا)، أي: مطبوعًا عليه بتوقيع المرسِل، وهذا المستفاد من ذكر الحديث في هذا الباب، وهو أن يكون الكتاب مختومًا؛ ليحصل الأمن من توهُّم تغييره، لكن قد يستغنىٰ عن ختمه إذا كان الحامل عدلًا مؤتمنًا، قاله **الحافظ**، أو بأي طريق يحصل به الأمن من التبديل.

قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "خَتْمُ كتبِ السلطان والقضاة والحكَّام، سنَّة متَّبعة، وإنَّما كانوا لا يقرءون كتابًا إلا مختومًا خوفًا علىٰ كشف أسرارهم، وإذاعة تدبيرهم؛ فصار الختم للكتاب سنَّة بفعل النبي ﷺ، وقيل في قوله -تعالىٰ-: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٢٩]، إنَّه كان مختومًا". شرح البخاري (١/ ١٤٨).

وقوله: (فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ)، فيه لغات، والمشهور منها أربعة: (خاتَم - خاتِم - خاتام - وخيتام)، وجمعه: خواتم، وخواتيم. **فيه** مشروعية تصديق الكتب، واتِّخاذ وسائل الحفاظ عليها من التغيير والتبديل والتزوير، ولذلك لـمَّا اتخذ النبي ﷺ خاتمًا ونقشه؛ نهىٰ الناس

---

(٥٨٢) وأخرجه مسلم (٢٠٩٢)، وأبوداود (٤٢١٤، ٤٢١٥)، والترمذي (٢٧١٨)، والنسائي (٥٢٠١، ٥٢٧٨).

أن ينقشوا علىٰ نقشه. **وفيه** جواز الأخذ من الكفار النظم والتراتيب الإدارية ونحوها، مادام أنَّها لا تخالف شرع الله وكانت فيها مصلحة، ولا يعدُّ هذا من الحكم بغير ما أنزل الله، أو من أحكام الجاهلية؛ وذلك مثل إشارات المرور ونحوها. **وفيه** جواز اتخاذ الختم. **وفيه** قطع الحجج علىٰ الخلق. **وفيه** أنَّه لا بأس بدخول شيء من ذكر الله الخلاء ولا سيَّما إن كان غير ظاهر؛ لأنَّ نقش خاتمه (محمدٌ رسول الله)، ولم يثبت أنَّه كان ينزع خاتمه عند الخلاء، وغايته أنَّه كان يجعله في يمينه، ويجعل فصّه ممَّا يلي كفَّه.

وقوله: (نَقْشُهُ)، أي: محفور عليه، والنقش في اللغة التلوين، **فيه** جواز أن ينقش الرجل خاتمه، وأن يكتب اسمه عليه، بل واسم الله -تعالىٰ-، وهكذا كان خاتمه، وخواتيم أصحابه، وصنيع كثير من السلف؛ خلافًا لمن كرهه.

وقوله: (كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَىٰ بَيَاضِهِ فِي يَدِهِ)، أي: كأنِّي أنظر إلىٰ بياض الخاتم، **ففيه** جواز لبس الخاتم وأنَّه لا يعدُّ من الترفُّه ونحوه، ولا ينافي الزهد في الدنيا، وجاءت الروايات أنَّ خاتمه **"كان في يده اليمنىٰ"**. أخرجه مسلم (٢٠٩٤)، وهو الصحيح الغالب، ووردت بأنَّه: **"كان في اليسرىٰ"**. أخرجه مسلم أيضًا (٢٠٩٥). ويحتمل أنَّه كان لعلَّة؛ إذ الأصل استعمال اليمين في شأنه كلِّه، إلا ما كان من الأمور المستقبحة، ويأتي في موضعه -إن شاء الله-. **وفيه** أنَّ التوقيع كالختم في الحكم؛ لوجود العلة ذاتها، وإن كان الختم أضبط، **وفيه** جواز لبس الفضَّة للرجال.

وقوله: (فَقُلْتُ لِقَتَادَةَ)، القائلُ: شعبة؛ وذلك ليأمن من تدليس قتادة، وكونه سمعه بيقين -كما هو- من أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

٨- بَابُ مَنْ قَعَدَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ
وَمَنْ رَأَىٰ فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا

قوله: **(بَابُ مَنْ قَعَدَ حَيْثُ يَنْتَهِي بِهِ المَجْلِسُ ...)**، بعد أن ذكر المصنِّف أبوابًا ماضية في صفات العالم(٥٨٣)، ساق هذا الباب في بيان ما ينبغي للطالب أن يكون عليه من الأدب في مجالس العلم في حلقه، كالدنوِّ من الشيخ ونحوه.

٦٦- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عبدالله بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّ أَبَا مُرَّةَ -مَوْلَىٰ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ- أَخْبَرَهُ عَنْ **أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ**(٥٨٤) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ، قَالَ: فَوَقَفَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَىٰ فُرْجَةً (فراغًا بين شيئين) فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَىٰ اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**»(٥٨٥).

طرفه في: (الصلاة ٤٧٤).

---

(٥٨٣) قال **ابن الملقن**: لو أخَّر البخاري هذا الباب رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ ما بعد الباب الذي يليه وهو باب قوله ﷺ: «**رب مبلغ أوعىٰ من سامع**» لكان أولىٰ؛ لأنَّ فيه معنىٰ التحمل عن غير العارف وغير الفقيه. شرح البخاري (٣/ ٣٠٤).

(٥٨٤) **أبو واقد الليثي**: اختلف في اسمه، أسلم يوم الفتح، وأخبر عن نفسه أنَّه شهد حنينًا، قال: وكنت حديث عهد بكفر، وهذا يدلُّ علىٰ تأخُّر إسلامه، وشهد اليرموك، ثمَّ جاور بمكة سنة ومات بها، ودفن بمقبرة المهاجرين.

فائدة: في الصحابة من يكنىٰ بهذه الكنية ثلاثة: هذا أحدهم، وثانيهم أبوواقد مولىٰ رسول الله ﷺ، وثالثهم أبوواقد النميري. **انظر**: أسد الغابة، والإصابة، وليس للبخاري عن أبي واقد غير هذا الحديث، لم يروه عنه إلا أبومرة، ولم يرو عن أبي مرة إلا إسحاق. "عمدة القاري"(٢/ ٣٢).

(٥٨٥) وأخرجه مسلم (٢١٧٦)، والترمذي (٢٧٢٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩٠٠، ٥٩٠١).

الشرح

قوله: (بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ)، **فيه** أنَّ مجالس العلم ينبغي أن تكون في المساجد، وهو الأفضل، والمسجد هو الأصل، «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ ...**». أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وقال **عبدالرحمن بن معقل**: "كنا نُتَحَدَّثُ أنَّ المسجد حصن حصين من الشيطان". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٦١٣)

وفيه أنَّ حلق العلم ينبغي أن يُعتنىٰ فيها بالكتاب والسنَّة، **وليس فيه** دليل ولا مستمسك لمن قال بعدم وجوب تحيَّة المسجد، لاحتمال وجودهم من قبلُ في المسجد، ثمَّ أتوا إلىٰ الحلقة بعد ذلك، واحتمال أنَّهم دخلوا المسجد وصلَّوا تحيَّة المسجد، ويحتمل غير ذلك، فلا ينبغي أن يؤخذ الحكم من نصٍّ محتمل كهذا ونضرب به نصوصًا صريحة في الباب، وسيأتي المزيد من الكلام في موضعه من الكتاب حول تحية المسجد -إن شاء الله-، ولتراجع رسالتي: (**إعلام الهاجد والساجد بأحكام تحية المساجد**).

قوله: (إِذْ أَقْبَلَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ)، النفر؛ هو العدد من الرجال من الثلاثة إلىٰ العشرة، وإقبالهم إمَّا إلىٰ المجلس أو إلىٰ جهتهم.

وقوله: (فَأَقْبَلَ اثْنَانِ)، أي: إلىٰ رسول ﷺ، وحلقة العلم، **فيه** مشروعية الإقبال علىٰ العلم والذكر. **وفيه** مشروعية السلام للداخل للمسجد، ولو كان الناس في حلقة العلم، كما جاء في رواية: "**فَلَمَّا وَقَفَا عَلَىٰ مَجْلِسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَلَّمَا**". **صحيح**: أخرجه في الموطأ (٤)، والترمذي (٢٧٢٤).

وقوله: (فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَىٰ فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا)، فرجة أي: فراغًا في الحلقة، **ففيه** الحثُّ علىٰ المزاحمة في الخير، بشرط ألا يؤذي أحدًا، **وفيه** الالتحاق بحلقة العلم دون تخطِّي الرقاب، **وفيه** بيان ما كان عليه السلف من الحرص علىٰ التعلُّم. **وفيه** الأدب في مجالس العلم. **وفيه** الدنوُّ من الشيخ في حلقة العلم، وقد ورد في فضل الدنو حديثُ **أوس بن أوس الثقفي** رضي الله عنه- قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من غسَّل يوم الجمعة ...**»، وفيه: **ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ**». **صحيح**: أخرجه أبوداود (٣٤٥)، وغيره، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٦٩٠)،

وينبغي أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، كما قال **جَابِرُ بْنُ سَمُرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ أَحَدُنا حَيْثُ يَنْتَهِي". **صحيح**: أخرجه أبوداود (٤٨٢٥)، وهو في الصحيحة (٣٣٠)، قال **شيخنا الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وفي الحديث** تنبيه علىٰ أدب من آداب المجالس في عهد النبي ﷺ، طالما أهمله الناس اليوم، حتىٰ أهل العلم، وهو أنَّ الرجل إذا دخل المجلس، يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولو عند عتبة الباب، فإذا وجد مثله فعليه أن يجلس فيه، ولا يترقَّب أن يقوم له بعض أهل المجلس من مجلسه، كما يفعل بعض المتكبرين من الرؤساء، والمتعجرفين من المتمشيخين، فإنَّ هذا منهي عنه صراحة في قوله ﷺ: «**لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا**». أخرجه مسلم (٢١٧٧)، وزاد في رواية: "وَكَانَ **ابْنُ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- إِذَا قَامَ لَهُ رَجُلٌ عَنْ مَجْلِسِهِ؛ لَمْ يَجْلِسْ فِيهِ". وهي في الصحيحة (١/ ٦٤٨).

فيه الحثُّ علىٰ التواضع في المجالس، وألَّا يتقدَّم تعظيمًا لنفسه، ولا يفرِّق بين الجالسين، أو يقيم من يرىٰ نفسه أعلىٰ منه، قال **المُنَاوي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن هذَّب نفسه حتىٰ رَضِيَتْ منه بأن يجلس حيث انتهىٰ به المجلس كما كانت عادة المصطفىٰ ﷺ؛ -عُدَّ-: متواضعا لله حقًّا، فالفضيلة إنَّما هي بالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية، لا برفعة المواضع، ولا بالخلع ولا بالمناصب، فلو جلس ذو الفضيلة عند النعال؛ لصار موضعه صدرًا، وعكسه، فليُحْذر من هذا التنافس المذموم شرعًا؛ فإنَّه سُمٌّ قاتل". فيض القدير (٢/ ٥٢٥) بتصرف، **وفيه** بيان أنّ علىٰ القادم أن يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يضيِّق علىٰ الناس؛ فإنَّ الحقَّ للأسبق. فعَنْ **ابْنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ مَجْلِسٍ فَأُوسِعَ لَهُ، فَلْيَجْلِسْ، فَإِنَّهَا كَرَامَةٌ أَكْرَمَهُ اللهُ بِهَا وَأَخُوهُ الْمُسْلِمُ** (أي: وأكْرَمَهُ بها -أيضًا- أخوه المسلم)، **فَإِنْ لَمْ يُوسَعْ لَهُ فَلْيَنْظُرْ أَوْسَعَ مَوْضِعٍ فَلْيَجْلِسْ فِيهِ**». **صحيح**: أخرجه الخطيب (٢/ ١٣٣)، وهو في صحيح الجامع (٤٦٢)، والصحيحة (١٣٢١)، وقال **بدر الدين ابن جماعة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلا يتخطَّىٰ رقاب الحاضرين إلىٰ قرب الشيخ من لم تكن منزلته كذلك؛ بل يجلس حيث انتهىٰ به المجلس؛ كما ورد في الحديث، فإن صرَّح له الشيخ والحاضرون بالتقدُّم أو كانت منزلته أو كان يعلم إيثار الشيخ والجماعة لذلك فلا بأس.

ولا يقيم أحدًا من مجلسه أو يزاحمه قصدًا، فإن آثره الغير بمجلسه لم يقبله إلا أن تكون في ذلك مصلحة يعرفها القوم وينتفعون بها من بحثه مع الشيخ لقربه منه أو لكونه كبير السنِّ أو كثير الفضيلة والصلاح". التذكرة (ص ٥٥).

ولا يتعارض هذا مع ما جاء في الحديث عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن **عبدالله بن عمرو** رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلاَّ بِإِذْنِهِمَا**». إسناده حسن: صحيح الأدب المفرد (١١٤٢)؛ لأنَّ الذي ورد في حديث الباب أنَّه وجد فرجة، وأمَّا حديث عدم التفريق بين اثنين، أو تخطِّي الرقاب؛ ففيما لم تكن بينهما فرجة.

وقوله: (وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا)، هو نفسه الذي قال عنه في أول الحديث: "وَذَهَبَ وَاحِدٌ"، لأنَّه لم يُقْبِل إلىٰ رسول الله ﷺ، واستمرَّ في إدباره ولم يرجع.

وقوله: (فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ)، أي: عمَّا كان مشتغلًا به من الخطبة أو تعليم العلم أو الذكر ونحوه.

قوله: (قال: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟)، "ألا" -هنا-: للعرض؛ لبيان شأن هؤلاء النفر الثلاثة؛ ترغيبًا في فعل بعضهم، وترهيبًا من فعل الثالث، **فيه** الترفُّق في التعليم، وتهيئة ذهن الطلاب للعلم، **وفيه** إلقاء المسألة وعرضها علىٰ الأصحاب والطلاب، ولا ينتظر أن يطرح الناس عليه السؤال؛ لأنَّ في ذلك نشرًا للعلم.

وجاء في رواية من حديث **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه -، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعِظُ أَصْحَابَهُ فَإِذَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ يَمُرُّونَ، فَجَاءَ أَحَدُهُمْ فَجَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَضَىٰ الثَّانِي قَلِيلًا ثُمَّ جَلَسَ، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَمَضَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَّا هَذَا الَّذِي جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْنَا فَإِنَّهُ تَابَ فَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الَّذِي مَضَىٰ قَلِيلًا ثُمَّ جَلَسَ فَإِنَّهُ اسْتَحْيَىٰ فَاسْتَحْيَىٰ اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الَّذِي مَضَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَإِنَّهُ اسْتَغْنَىٰ فَاسْتَغْنَىٰ اللهُ عَنْهُ**». صحيح: أخرجه الحاكم (٧٦٥٣).

وقوله: (أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَىٰ إِلَىٰ اللهِ فَآوَاهُ اللهُ)، أي: انضمَّ والتجأ، ودخل مجلس ذكر الله، فضمَّه الله إليه، وقرَّبه إلىٰ جنته، كما جاء في الحديث في عيادة المريض: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**». أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، والتحلُّق حول الشيخ هو الذي ينبغي أن يكون عليه طلاب العلم في مجالس العلم؛ حيث إنَّ الصحابة كانوا يقتربون منه؛ لذلك ورد: "انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، حَتَّىٰ يُقَالَ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ". صحيح: أخرجه أبوداود (٢٦٢٨)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٢٧).

وجاء في الحديث -أيضًا-: «**مَنْ تَوَضَّأَ وَجَاءَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ فَهُوَ زَائِرُ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَحَقٌّ**

عَلَىٰ الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ». حسن: أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٣٩)، وهو في الصحيحة (١١٦٩).

وفي الحديث الإلهي: «**ومَنْ تقرَّبَ إليَّ شبرًا تقرَّبتُ منه ذراعًا، ... وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**». متفق عليه.

قال شيخنا الإمام **ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ في كلامه علىٰ صفة (**الهرولة**): "وهذا الحديث الصحيح يدلُّ علىٰ عظيم فضل الله –عزَّ وجلَّ–، وأنَّه بالخير إلىٰ عباده أجود، فهو أسرع إليهم بالخير والكرم والجود، منهم في أعمالهم، ومسارعتهم إلىٰ الخير والعمل الصالح.

ولا مانع من إجراء الحديث علىٰ ظاهره علىٰ طريقة السلف الصالح، فإنَّ أصحاب النبي ﷺ سمعوا هذا الحديث من رسول الله ﷺ ولم يعترضوه، ولم يسألوا عنه، ولم يتأوَّلوه، وهم صفوة الأمَّة وخيرها، وهم أعلم الناس باللغة العربية، وأعلم الناس بما يليق بالله وما ينبغي نفيه عنه –سبحانه وتعالىٰ–.

فالواجب في مثل هذا أن يُتلقَّىٰ بالقبول، وأن يحمل علىٰ خير المحامل، وأنَّ هذه الصفة تليق بالله، لا يشابه فيها خلقَهُ، فليس تقرُّبه إلىٰ عبده مثل تقرُّب العبد إلىٰ غيره، وليس مشيه كمشيه، ولا هرولته كهرولته، وهكذا غضبه، وهكذا رضاه، وهكذا مجيئه يوم القيامة، وإتيانه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، وهكذا استواؤه علىٰ العرش، وهكذا نزوله في آخر الليل كلَّ ليلة، كلُّها صفات تليق بالله –جلَّ وعلا–، لا يشابهُ فيها خَلْقَه". فتاوىٰ نور علىٰ الدرب (١/ ٦٨).

وممَّا ينبغي أن يُعرَف أنَّ مثل هذا النص المقصود به الخبر، وأنَّه جاء بمعرض الترغيب، فهذه من النصوص التي يقول السلف: نُمِرُّها كما جاءت؛ لأنَّ لوازمها كثيرة **ولكن لا نفسرها بلازم واحد من لوازمها، أو بمعنىٰ واحد من معانيها ونجعله هو تفسيرها؛ فنقع في شيء من التأويل** والتحكُّم بلا دليل.

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فلو لم يكن لطالب العلم إلا أنّ الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكفىٰ به فضلًا". مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٣).

وفيه أنّ من جلس إلىٰ حلقة فيها علم –أو ذكر– أنَّه في كنف الله وقريب منه، وهو ممَّن تضع له الملائكة أجنحتها. وبوَّب له ابن حبان (١/ ٥٤٨): "ذكر أمان الله –جلَّ وعلا– من النار من آوىٰ إلىٰ مجلس علم ونيَّته فيه صحيحة".

وقوله: **(وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا)**، أي: من المزاحمة والقرب فتركها، أو استحيا من أن يعرض ذاهبًا فبقي، **وهذا هو الأرجح** في سبب الاستحياء؛ ففي لفظ: «**ومضىٰ الثاني قليلًا ثم جاء فجلس**». أخرجه الحاكم (٧٦٥٣)، فالمعنىٰ: أنَّه استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث.

والحياء المذموم في العلم هو الذي يبعث علىٰ ترك التعلُّم. **ففيه** الحثُّ علىٰ الحياء ما لم يصدَّ عن الخير، قالت **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهنَّ الحياء أن يتفقَّهنَ في الدين". حسن: أخرجه ابن ماجه (٦٤٢)، ويأتي عند المصنف معلقًا. وهو عند مسلم موصولًا (٣٣٢) من طريق ابن ماجه. وقال **مجاهد**: "لا يتعلَّم العلم مستحي ولا مستكبر" يأتي عند المصنف معلَّقًا في باب الحياء، **وفيه** أنّ من قصد العلم، ومجالسه، فاستحيا ممَّن قصده، ولم يمنعه الحياء من التعلُّم ومجالسة العلماء؛ فإنَّ الله يثيبه علىٰ ذلك.

وقوله: **(فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ)**، فيه إثبات صفة الحياء لله تعالىٰ، ولا نقول إنّ استحياء الله كاستحياء المخلوق -تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيراً-؛ لأنَّ الله -تعالىٰ-: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورىٰ: ١١]، ويقول -سبحانه-: ﴿**وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والله -سبحانه- لا يستحي أن يقول الحقَّ، ويأمر بالحقِّ -جلَّ وعلَا-، وتقول **أم سليم** لـمَّا سألت النبي ﷺ: "يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحِي مِنَ الحَقِّ ...". سيأتي برقم (٦٠٩١). وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**». صحيح: أخرجه أبوداود (١٤٨٨)، وهو في صحيح الجامع (١٧٥٧).

وممَّن أثبت صفة الاستحياء من السلف الإمام **أبوالحسن محمد بن عبدالملك الكَرَجِي**، فيما نقله عنه شيخ الإسلام موافقًا له -(مجموع الفتاوىٰ ٤/ ١٨١)؛ وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية:

وهو الحيي فليس يفضح عبده ... عند التجاهر منه بالعصيان
لكنه يُلْقِي عليه ستره .. . فهو السِّتِّير وصاحب الغفران

قال العلامة **خليل الهراس** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وحياؤه -تعالىٰ- وصف يليق به، ليس كحياء المخلوقين، الذي هو تغيُّر وانكسار يعتري الشخص عند خوف ما يعاب أو يذمُّ، **بل هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه**؛ فالعبد يجاهره بالمعصية

مع أنَّه أفقر شيء إليه وأضعفه لديه، ويستعين بنعمه علىٰ معصيته، **ولكنَّ الرب -سبحانه- مع كمال غناه وتمام قدرته عليه يستحي من هتك ستره وفضيحته، فيستره بما يهيؤه له من أسباب الستر، ثمَّ بعد ذلك يعفو عنه ويغفر"**(٥٨٦)، **ففي الحديث** دليل علىٰ إثبات صفة الحياء لله -عزَّ وجلَّ-، بهذا الدليل: «**فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ**».

وقوله: **(وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ)**، ترك مجلس النبي ﷺ. **وفيه** جواز الإخبار عن أهل المجاهرة بالمعاصي؛ ولا يُعدُّ هذا من الغيبة.

وقوله: **(فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ)**، ضدُّ الإقبال عليه، وهذا الإعراض صفة تليق بالله -سبحانه-، ومن آثارها: عدم التوفيق للجلوس مع هؤلاء القوم البررة الأطهار، وعدم التعرُّض لرحمته وعفوه؛ بل يتعرَّض -بذلك- لمقته وسخطه، فهي صفة من صفاته جلَّ جلاله، نثبتها لله -تعالىٰ- كسائر الصفات.

ففيه ذمُّ الإعراض عن مجالس الذكر، فإنَّ من أعرض عن الله؛ فقد عرَّض نفسه لسخطه -جلَّ جلاله-، وهذا محمول علىٰ من ذهب معرضًا لا لعذر، هذا إن كان مسلمًا، ويحتمل أن يكون منافقا واطَّلع النَّبيُّ ﷺ علىٰ أمره.

وهذا له نصيب(٥٨٧) ممَّن قال الله فيه: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه: ١٢٤]، ومن ذلك -أيضًا- ما ورد عن **أبي هريرة** رضي الله عنه-، أنَّه رأىٰ رجلًا يجتاز المسجد خارجًا بعد الأذان، فقال: **"أَمَّا هذا فقد عصىٰ أبا القاسم** ﷺ". أخرجه مسلم (٦٥٥).

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يَسْمَعُ النِّدَاءَ أَحَدٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهُ إِلا لِحَاجَةٍ، ثُمَّ لا يَرْجِعُ؛ إِلا مُنَافِقٌ**». **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٧٣٤)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٣) عن **عثمان** بن عفان رضي الله عنه-. فهذا الخارج متشبِّه بالشياطين عند سماع الأذان؛ فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه-، أنّ

---

(٥٨٦) صفات الله -عز وجل- الواردة في الكتاب والسنة لعلوي بن عبدالقادر السقاف (ص ١٢٥).

(٥٨٧) **ينظر**: التنبيه علىٰ المخالفات العقدية في الفتح (ص ١٤)، بتقديم وإقرار ابن باز عليه، والفوزان وجماعة.

رسول الله ﷺ قال: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتىٰ لا يسمع التأذين**» متفق عليه.

وكما قال للرجل الذي طلب منه أن يقيله بيعته، ويرجع إلىٰ البادية، ولم يأذن له، فخرج الرجل بغير إذن؛ فقال ﷺ: «**المدينة تنفي خبثها**». متفق عليه، قال -تعالىٰ-: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال **عبدالله بن أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: ذُكِر عند **أبي** رجل من أهل البصرة ممن كان يحدِّث، فقلت: إنَّه واقفي يقف؛ وقد **تَرَكَ أصحاب الحديث** ما يأتونه. فقال: "أبعده الله". "العلل" برواية عبد الله (١٤٤٢).

وعن **أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: "ما الناس إلا أصحاب الحديث، فإذا رأيت الرجل قد كتب الحديث ثمَّ تركه فاتَّهمه". مجموع فيه عشرة أجزاء حديثية (٤٨٠).

وعن **أبي بكر أحمد بن عبد الرحمن النسفي المقرئ** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "كان مشايخنا يسمُّون أبابكر ابن إسماعيل: (**أبا ثمود**)؛ لأنَّه كان من أصحاب **الحديث**، فصار من أصحاب **الرأي**، يقول الله -تعالىٰ-: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**﴾ [فصلت: ١٧]". شرف أصحاب الحديث (١٥٥).

فالحذرَ! الحذرَ! أن تُدعىٰ إلىٰ مجلس ذكر؛ فتتولَّىٰ وتعرض، وتنصرف عنه، وما يدريك لعلَّك تنتفع فيه بكلمة تكون فيها نجاتك، وإيَّاك يا عبدالله! والاستهانة بمجالس السنَّة، وهذا فيمن أعرض عن مجلس واحد، فكيف يمن يُعرض عن طلب العلم بالجملة، وعن السنة بالكلية؟!!.

٩- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ»

قوله: (**بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ**)، ترجم المصنف بجملة من الحديث المرفوع، ولا شكَّ أنَّ قوله ﷺ، أولىٰ من قول غيره، فأشار بهذه الترجمة إلىٰ جواز التحمُّل والأخذ عن الراوي الثقة، ولو لم يكن فقيهًا ولا عالمًا إذا ضبط ما يحدِّث به، وكان يقظًا، ومشيرًا إلىٰ أنَّ ذلك قلَّما يقع، وأنَّ من يروي حديثًا يكون عالمًا به غالبًا، لقوله: (رُبَّ) التي للتقليل، وقد تكون للتكثير، بحسب السياق.

وأمَّا ما جاء في الحديث -هنا- فهو للتقليل فيما يظهر؛ لأنَّ الغالب أنَّ السامع يكون أوعىٰ من المبلِّغ؛ لأنَّه يشاهد المتكلِّم، فيكون أبلغ في الوعي من السامع. شرح البخاري لابن عثيمين (١/ ١٩٨).

والحديث ذكره المصنف -هنا- معلَّقًا، وهو موصول عنده في كتاب الحجِّ، من حديث **أبي بكرة** رضي الله عنه-، وثبت أيضًا من حديث **ابن مسعود** رضي الله عنه- بلفظ: «**رَحِمَ اللهُ مَنْ سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَىٰ مِنْ سَامِعٍ**»(٥٨٨). صحيح.

٦٧- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ **أَبِيهِ** رضي الله عنه-، **ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ** (هو أبو بكرة) **بِخِطَامِهِ** -أَوْ: بِزِمَامِهِ (هو الحبل يُشدُّ علىٰ رأس البعير)-، **قَالَ: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟». فَسَكَتْنَا حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَىٰ اسْمِهِ، قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟». قُلْنَا: بَلَىٰ. قَالَ: «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟». فَسَكَتْنَا حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ بِذِي الحِجَّةِ؟». قُلْنَا: بَلَىٰ. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ** (أي سفكها) **وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ** (موضع المدح والذم من الإنسان) **بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا** (مكة وما حولها)**، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ** (الحاضر) **الغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ**

---

(٥٨٨) **صحيح**: التعليقات الحسان (٦٨)، وابن ماجه (٢٣٢). **ينظر**: دراسة «**حديث نضر الله ...**» رواية ودراية للشيخ عبد المحسن العباد -حفظه الله-.

هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ (أفهم للحديث وأحفظ له) مِنْهُ»(٥٨٩).

أطرافه: (العلم١٠٥، الحج١٧٤١، بدء الخلق٣١٩٧، المغازي٤٤٠٦، التفسير٤٦٦٢، الأضاحي٥٥٥٠، الفتن٧٠٧٨، التوحيد ٧٤٤٧).

الشرح

قوله: (قَعَدَ عَلَىٰ بَعِيرِهِ، وَأَمْسَكَ إِنْسَانٌ)، هو أبوبكرة، وإنَّما أمسك بخطامه ليتفرَّغ للحديث، ولا يشتغل بإمساك البعير، **فيه** جواز القعود علىٰ ظهر الدواب -وهي واقفة- إذا احتيج إلىٰ ذلك ما لم يكن هناك مشقَّة عليها، والنهي الوارد في ذلك مخصوص بألا تكون هناك حاجة، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قال: «**إيَّاكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإنَّ الله -تعالىٰ- إنَّما سخرها لكم لتبلِّغكم إلىٰ بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجاتكم**». صحيح: صحيح أبي داود (٢٣١٣)، والصحيحة (٢٢). يعني: اتركوا جلوسكم عليها وهي واقفة كما تجلسون علىٰ المنابر فإنَّ ذلك يؤذيها، وينافي الرحمة بها.

ومع ذلك فقد ورد في السنة الخطبة علىٰ الدابة، فحيث كانت المصلحة، وكانت مطيقة فلا بأس به جمعًا بين الأدلة، فعن **عمرو بن خارجة** رضي الله عنه-: أنّ النبي ﷺ **خطب علىٰ ناقته** وأنا تحت جرانها (باطن عنقها، تحفة الأحوذي) وهي تقصع بجرتها (أي تخرج ما في بطنها ثم تمضغه ثانية، السابق) وأنَّ لعابها يسيل بين كتفي فسمعته يقول: «**إنّ الله أعطىٰ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه** ...». صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٢١)، **فيه** مشروعية الخطبة علىٰ موضع عالٍ ليكون أبلغ في إسماعها للناس، ورؤيتهم إياه، ولا سيَّما عند المزاحمة والعدد الكثير.

وقوله: (بِخِطَامِهِ -أَوْ: بِزِمَامِهِ-)، **الخطام**: هو الحبل الذي يقاد به البعير، سمي بذلك؛ لأنَّه يقع علىٰ الخطم الذي هو الأنف، فيجعل في أحد طرفيه حلقة يسلك فيها الطرف الآخر حتىٰ يصير كالحلقة ثمَّ يقلَّد البعير ثمَّ يثنىٰ علىٰ مخطمه، فأمَّا الذي يجعل في الأنف دقيقًا فهو الزمام.

قوله: (أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟، فَسَكَتْنَا حَتَّىٰ ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ سِوَىٰ اسْمِهِ)، **فيه** عرض المسألة علىٰ الطالب، شحذا لذهنه، وتهيئته لاستقبال العلم. **وفيه** ما كان عليه أصحاب النبي ﷺ

(٥٨٩) وأخرجه مسلم (١٦٧٩)، وأبوداود (١٩٤٥)، والترمذي (٢١٥٩)، وابن ماجه (٣٠٥٨).

من الأدب الشديد مع رسول الله ﷺ. **وفيه** خوف الصحابة رضي الله عنهم أن يقولوا أو يتكلَّموا دون علم.

وقولهم: **(يَوْمَ النَّحْرِ)**، وهو أعظم الأيام عند الله، وهو يوم الحجِّ الأكبر.

وقوله: **(فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ)**، أي: سفك دمائكم، وأخذ أموالكم، وسلب أعراضكم -**والعِرض**: موضع المدح والذمِّ من الإنسان، سواء كان في نفسه أو فيما له تعلُّق به-؛ فيحرم عليكم المساس بها والاعتداء عليها؛ فعن **عبدالله بن مسعود** رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَدْنَاهَا مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَأَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ**». **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٢٠٠٥)، وهو في الصحيحة (١٨٧١).

وقوله: **(كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا)**، أي: كحرمة تعاطي هذه الموبقات في هذا اليوم العظيم، إذ إنَّ الذنب يعظم ويشتدُّ إثمه بفعله في مكان أو زمان عظيم الحُرمة؛ كالَحرم، والأشهر الحرم.

وقوله: **(فِي شَهْرِكُمْ هَذَا)**، والمقصود -هنا-: شهر ذي الحجَّة الذي حجَّ فيه النبي ﷺ.

وقوله: **(فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)**، مكة وما حولها، **فيه** أنَّ ما كان حرامًا بيِّنَ الحِرمة يشرع للعالِم أن يؤكِّد حرمته، ويغلظ فيه القول. **وفيه** تأكيد حرمة المال والدم والعِرض. **وفيه** دليل علىٰ مشروعية ضرب الأمثال، وإلحاق النظير بالنظير قياسًا. قاله **النووي والحافظ**، انظر شرح مسلم (٨/ ١٨٢)، الفتح (٣/ ٥٧٦).

وقوله: **(لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ)**، أي: الحاضر، وأمرُ النبي ﷺ علىٰ الوجوب، فلا يجوز -والحالة هذه -كتمان العلم وعدم تبليغه، **وفيه** أنَّ علىٰ من تعلَّم علمًا يجب عليه تبليغه وتبيينه لمن لا يفهمه، وهو الميثاق الذي أخذه الله -تعالىٰ- علىٰ العلماء: ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: ٦٧]، فعلىٰ كل حال، لابد من البلاغ علىٰ من سمع الحديث؛ لقوله -عليه السلام-: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**». سيأتي برقم (٣٤٦١)، وفي الحديث: «**تسمعون ويُسمع منكم، ويُسمعُ ممَّن يَسمع منكم**». **صحيح**: أخرجه أبوداود (٣٦٥٩) وابن حبان في صحيحه (٦٢) وهو في الصحيحة

(١٧٨٤).

وبوَّب له **ابن حبان** رَحِمَهُ اللَّهُ في "صحيحه" (٦/ ٧٠): "ذكر الإخبار عن سماع المسلمين السنن خلفٍ عن سلف"؛ وقد كان السلف يتأثَّمون إذا لم يبلِّغوا حديثًا سمعوه من النبي ﷺ.

وأوَّل مَن يجب علىٰ المسلم تعليمُهم، هم: أهله، ثمَّ الأدنىٰ فالأدنىٰ وسائر من هو مسئول عنهم. فعن **الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ، في قول الله -عز وجل-: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ [التحريم: ٦] قال: "**أدِّبوهم وعلِّموهم**". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي الدنيا في النفقة علىٰ العيال (٣٢٤).

وعلىٰ كلِّ من ولَّاه الله ولايةً أن يقوم بتعليم من ولَّاه الله أمرهم؛ كإمام المسجد يجب عليه أن يعلِّم المصلين ما وجب عليهم، وأن يقيم فيهم السنن، ويحذِّرهم من أخطائهم، ومن البدع المنتشرة بين الناس؛ ليتقوها ويحذروها.

وفائدة تبليغ العلم -وإن لم يستجب الناس-: براءةُ الذمة، وقطعُ العذر، وإقامة الحجَّة، وأن يُحفظ الدين وينتفعَ به الناس، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأمرَ ﷺ بالتبليغ عنه؛ لما في ذلك من حصول الهدىٰ بالتبليغ، وله ﷺ أجر من بلَّغ عنه، وأجر من قَبِلَ ذلك البلاغ، وكلَّما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب، فكلُّ من هَدىٰ واهتدىٰ بتبليغه فله أجره؛ لأنَّه هو الداعي إليه **ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبُّه ﷺ لكفىٰ به فضلًا**، وعلامة المحبِّ الصادق أن يسعىٰ في حصول محبوبِ محبوبه، ويبذل جهده وطاقته فيها، ومعلوم أنَّه لا شيء أحبَّ إلىٰ رسول الله ﷺ من إيصاله الهدىٰ إلىٰ جميع الأمة، فالمبلِّغ عنه ساعٍ في حصول محابِّه، فهو أقرب الناس منه، وأحبُّهم إليه، وهو نائبه وخليفته في أمَّته، وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعلم وأهله". مفتاح دار السعادة (١/ ٧٣).

وفيه أنّ العلم الذي يُحرص علىٰ تبليغه هو علم الكتاب والسنَّة، وليس قال فلان وقال فلان. **وفيه** دليل علىٰ شرطَي الاتصال والضبط في الحديث الصحيح. **وفيه** أنَّ هذا الدِّين مأخوذ بالإسناد المتَّصل. **وفيه** ردّ علىٰ بعض الصوفية الذين يقولون: "حدَّثني قلبي عن ربي"؛ وإنَّما يؤخذ العلم عن أهله الثقات.

وقوله: (**فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْهُ**)، «**عَسَىٰ**»، للطمع والرجاء، و«**أَوْعَىٰ**»، أي: أفهم للحديث المبلَّغ وأحفظ له. فإمَّا أن يكون المبلَّغ أوعىٰ وأحفظ

من السامع للحديث، أو أفقه من المبَلِّغ؛ لأنَّ العلم مواهب، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

فيه أنَّنا نقبل الحديث ممَّن يتقن حفظه، ولو كان جاهلًا بفقهه -كما سبق-. **وفيه** فضل أهل الحديث. **وفيه** أهمية حفظ العلم، ولا سيَّما الحديث في هذا العصر، حيث قلَّ جدًا حافظوه، ووردت نصوص كثيرة تحث علىٰ حفظه، وإتقانه، وقد حُفظ في الأمَّة -ولله الحمد والمنة-، حفظ صدر، وحفظ سطر، فلله درُّ أهل الحديث والأثر. **وفيه** أنَّ الطالب قد يفقه ما لا يفقه الشيخ، وإن كان هذا خلاف الأصل. **وفيه** أنَّه يمكن أن يكون في الأمَّة من يفضل بعض آحاد الصحابة في الحفظ، وهذا فضل جزئي، وأمَّا الفضل الكلي فلهم خاصَّة؛ بسبقهم في الإسلام، وبصحبتهم للنبي ﷺ، وهذه مرتبة لا يبلغها أحد من الناس غيرهم، وهي فوق كلِّ فضيلة، ولهم بها أجر كلِّ من أتىٰ بعدهم إلىٰ يوم القيامة. **وفيه** التنويع في طرق التعليم.

قال **المهلَّب** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وفيه** أنَّه قد يأتي في آخر الزمان من يكون له من الفهم في العلم ما ليس عند بعض من تقدَّمه، إلا أنَّ ذلك يكون في الأقلِّ، لأن رُبّ موضوعة للتقليل". شرح البخاري لابن بطَّال (١/ ١٥٠). وفي الحديث: «**مَثَلُ أُمَّتِي كَالْمَطَرِ لَا يُدْرَىٰ أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ**». **صحيح**: أخرجه الروياني في مسنده (١٣٤٣)، والطبراني في الأوسط (٣٦٦٠)، وهو في الصحيحة (٢٢٨٦).

وهذه الجملة من حديث الباب: «**فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْهُ**»، **هي الشاهد** للترجمة، وفي رواية: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**». **صحيح**: صحيح ابن ماجه (١٨٨). وفي رواية: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**». **صحيح**: أخرجه الدارمي (٢٣٣).

وقد سمَّىٰ النبيُّ ﷺ الحديثَ فقهًا، وأصبح بعضهم يطلقه علىٰ الرأي وكتب الرأي (كتب الفقه)، وهو خطأ واضح؛ لأنَّها لم تكن موجودة عند المتقدِّمين؛ قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"إنَّ** المتقدِّمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، **ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)"**. الفتاوىٰ (١٨/ ٧٤- ٧٥).

والصحيح أنَّ الفقه كلَّه في حديث رسول الله ﷺ، قال الإمام **وكيع بن الجراح** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لقيني أبوحنيفة، فقال لي: لو تركتَ كتابةَ الحديث وتفقَّهت، أليس كان خيرًا؟ قلت: **أفليس الحديث يجمع الفقه كلَّه؟**، قال: ما تقول في امرأة ادّعت الحمل، وأنكر الزوجُ؟ فقلت له: حدثني

عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبي ﷺ لاعن بالحمل، فتركني، فكان بعد ذلك إذا رآني في طريق يأخذ في آخر". **صحيح**: الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦١)، برقم (٧٨٧).

وعن محمد بن عبدالوهاب قال: قلت **لعلي بن عثَّام**: رجل يقول ليس في حديث رسول الله ﷺ فقه، فقال: "هذا فاجر فأين الفقه؟ وأين الخير إلا فيه؟!!". ذمُّ الكلام وأهله (٢/ ٧١).

١٠ - بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ

قوله: (**بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ**)، هذا الباب نفيس ومهمٌّ جدًّا.

قال **ابن المنير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أراد به أنّ العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو متقدِّم عليهما؛ لأنَّه مصحِّح للنيَّة المصحِّحة للعمل". الفتح (١/ ١٦٠).

فالعبادة لا تصحُّ إلا بعلم، وفي الحديث: «**فضل العالم علىٰ العابد كفضل القمر علىٰ سائر الكواكب**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١٧٦٣)، والترمذي (٢٦٨٢). وفي الرواية الأخرىٰ: «**كفضلي علىٰ أدناكم**». **صحيح** أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٨١).

ومن أراد الأدلَّة علىٰ وجوب تعلُّم العلم قبل العمل، وأن مَن عَبَدَ اللهَ بغير علم يضرُّ نفسَه وغيره بسبب الجهل؛ فلينظر إلىٰ قصة الرجل الذي قتل مائة نفس، وقصة جُريج كيف فضّل صلاة النافلة علىٰ استجابته لأمه، فدعت عليه، واستجيب لها فيه.

لِقَوْلِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾ [محمد: ١٩]، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ.

«**وَأَنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا العِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ** (نصيب) **وَافِرٍ** (عظيم من ميراث النبوة)»[٥٩٠].

«**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ**»[٥٩١].

وَقَالَ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وَقَالَ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وَقَالَ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٥٩٢]. و«**وَإِنَّمَا العِلْمُ**

---

(٥٩٠) قال شيخنا **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا طرف من حديث أخرجه أبوداود وغيره عن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا، وله شواهد يتقوَّىٰ بها كما قال الحافظ، وهو مخرَّج في "التعليق الرغيب" (١/ ٥٣).

(٥٩١) قال شيخنا **الألباني**: هذا طرف أيضًا من الحديث المذكور آنفًا، وهذه الجملة منه أخرجها مسلم في "صحيحه" من حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥٩٢) وصله المصنف بعد بابين من حديث **معاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بِالتَّعَلُّمِ»(٥٩٣).

وَقَالَ أبوذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ (السيف الصارم) عَلَىٰ هَذِهِ- وَأَشَارَ إِلَىٰ قَفَاهُ- ثُمَّ ظَنَنْتُ أَنِّي أُنْفِذُ كَلِمَةً سَمِعْتُهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ أَنْ تُجِيزُوا عَلَيَّ لَأَنْفَذْتُهَا"(٥٩٤).

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]؛ حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ(٥٩٥).

وقوله: (لِقَوْلِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾، فَبَدَأَ بِالعِلْمِ)، أي حيث قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ﴾، ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، والخطاب -وإن كان للنبي ﷺ- فهو متناول لأمَّته، وفيه وجوب النطق بها وتعلُّم معناها، وأنَّه فرض عين، وكلُّ ما أوجبه الله يجبُ تعلُّمه قبل القيام به.

وقوله: (وَأَنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَرَّثُوا العِلْمَ، مَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)، هذا طرف من حديث، ولفظه: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّ النبي ﷺ، قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَىٰ الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(٥٩٦). صحيح.

وهذا الطرف من الحديث لا يعدُّ من معلَّقات البخاري؛ لأنَّه لم يذكر أنَّه حديث، إلا أنَّ

---

(٥٩٣) قال شيخنا **الألباني**: وهو طرف من حديث رواه أبوخيثمة (١١٤) بسند صحيح عن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، ورواه غيره عنه مرفوعًا، **وله شاهد** من حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وآخر من حديث **معاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مخرَّج في "الصحيحة" برقم (٣٤٢).

(٥٩٤) وصله الدارمي وأبونعيم في "الحلية".

(٥٩٥) وصله ابن أبي عاصم **بسند حسن**، والخطيب بسند آخر **صحيح**.

(٥٩٦) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبوداود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وهو في صحيح الجامع (٢١١٧). **ينظر**: شرح حديث أبي الدرداء في مجموع رسائل ابن رجب (١/ ١٢).

ذكره له يُشعر بأنَّ له أصلًا عنده، قاله **الحافظ**.

والعلماء هم أتباع الأنبياء وورثتهم، وإنَّ الأنبياء لم يورِّثوا درهمًا ولا دينارًا، ولم يورِّثوا شيئًا من حظوظ الدنيا الدنيئة؛ لقول الله -تعالىٰ-: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [فاطر: ٣٢]، وقد قال النبي ﷺ: «**لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**». متفق عليه. وإنَّما ورَّثوا العلم، والعمل به، والدعوة إليه، فمن وَرِثَ النَّبيَّ ﷺ وأخذ العلم؛ فيجب عليه أن يقوم ببقية الإرث، وهو العمل والدعوة، وإلا لكان كمن ورث المال ولم ينتفع به. **انظر**: الشرح لابن عثيمين، وعن عبدالله الرومي عن **أبي هريرة** رضي الله عنه-، أنَّه مرَّ بسوق المدينة، فوقف عليها، فقال: "يا أهل السوق، ما أعجزكم!"، قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: "**ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم، وأنتم هاهنا لا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه**" قالوا: وأين هو؟ قال: "في المسجد"، فخرجوا سراعًا إلىٰ المسجد.

ووقف أبوهريرة لهم حتىٰ رجعوا، فقال لهم: "ما لكم؟" قالوا: يا أبا هريرة! فقد أتينا المسجد، فدخلنا، فلم نر فيه شيئًا يقسم، فقال لهم أبوهريرة: "أما رأيتم في المسجد أحدًا؟" قالوا: بلىٰ، رأينا قومًا يصلُّون، وقومًا يقرءون القرآن، **وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام**. فقال لهم أبوهريرة: "**ويحكم، فذاك ميراث محمد ﷺ**". **حسن موقوف**: أخرجه الطبراني في الأوسط (١٤٢٩)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٨٣).

قال **ابن حبان** في حديث «**العلماء ورثة الأنبياء**»: "**فيه** بيان واضح أنَّ العلماء الذين لهم الفضل الذي ذكرنا **هم الذين يُعلِّمون علم النَّبي ﷺ دون غيره من سائر العلوم**، ألا تراه يقول: «**العلماء ورثة الأنبياء**» والأنبياء لم يورِّثوا إلا العلم، وعلم نبينا ﷺ سنَّته، فمن تعرَّىٰ عن معرفتها لم يكن من ورثة الأنبياء". صحيح ابن حبان (١/ ٢٩١).

وجاء في وصف **ورثة الأنبياء أهل الحديث والأثر الذين هم أهل العلم حقًا وصدقًا، في قول الإمام أحمد** رحمه الله: "الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، ويحيون بكتاب الله -تعالىٰ- الموتىٰ، ويُبصِّرون بنور الله أهلَ العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه؟ وكم من ضالٍّ تائه قد هدوه؟ فما أحسن أثرهم علىٰ الناس، وما أقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين....". إعلام الموقعين (٢/ ١٣)، نقلًا عن مقدمة "الردّ علىٰ الجهمية

".

قوله: **(وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا)**، هذا -أيضًا- جزء من حديث **أبي الدرداء** رضي الله عنه- السابق، وقوله: «**طريقًا**»: نكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ فتتناول أنواع الطرق الموصلة إلىٰ تحصيل العلوم الدينية من الكتاب والسنَّة. **ففيه** الحثُّ علىٰ العلم، وأنّ العلم بالتلقِّي، **وفيه** بذل السبب في تحصيله؛ بل والرحلة إليه. **وفيه** أنّ العلم من أعزِّ وأفضل ما بذَلَ العبدُ فيه الوقت، والجهد، والمال.

وقوله: **(يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا)**، سواء كان قليلًا أو كثيرًا. **فيه** حثٌّ علىٰ الاستكثار من العلم، والسعي والجدُّ والاجتهاد في طلبه.

وقوله: **(سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ)**، فمن سار علىٰ طريق الطلب يسَّر الله له طريقه إلىٰ الجنَّة في الآخرة، وفي الدنيا؛ بأن يوفِّقه للأعمال الصالحة الموصلة إلىٰ الجنَّة، وسهَّل عليه ما يزيد به علمَه؛ لأنَّه -أيضًا- من طرق الجنَّة، بل أقربها، ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩]، **وفي** هذا بشارة بتسهيل العلم علىٰ طالبه. وعن **قتادة** في قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ١٦]، يقول: "فهل من طالب خير فيعان عليه؟". المخلصيات (٩٨٦).

وفيه أنَّه إذا كان طريق الجنَّة ييسِّره الله لطالب العلم، والجنَّة حُفَّت بالمكاره، والطريق إليها شاقٌّ، فمن باب أولىٰ أن ييسِّر الله له أمور دنياه، ويسهِّل عليه أمور معاشه، وشئونه الدنيوية، وفي الحديث: **(إنَّ الله يقول: يا ابن آدم تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً وأسدَّ فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلاً ولم أسدَّ فقرك)**. الصحيحة (١٣٥٩).

وفيه فضل عظيم للعلم وأهله. **وفيه** أنّ أسهل طريق للجنَّة أن يطلب العبدُ العلمَ، زادنا الله وإخواننا علمًا نافعًا.

قوله: **(﴿إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾)**، أي: يخاف، والخشية أكمل من الخوف؛ لأنَّها تكون مع العلم، أمَّا الخوف فيكون مع العلم وعدمه، فالمعنىٰ: إنَّما يخاف من الله من علم قَدْرَه وقدرته ووعيده، وسلطانه وعظمته، وهم العلماء، قال **ابن عباس** رضي الله عنهما نحوه، انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٤٦٢).

قال **ابن تيمية**: "وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ كل من خشي الله فهو عالم، وهو حقٌّ، ولا يدلُّ علىٰ أنَّ كلَّ عالم يخشاه". مجموع الفتاوىٰ (٧/ ٥٣٩).

فيها أنَّ العلماء هم أعلم الناس بالله وبأسمائه وصفاته وتوحيده، وآياته وأحكامه، ويعلمون ما يجوز عليه وما لا يجوز، وهم أشدُّ الناس تعظيمًا وتقديرًا وخشية له، فكلَّما ازداد العبد علمًا بالله ازداد منه خوفًا، فالعلماء هم أهل الخشية من الله، وفي الحديث: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا**». تقدم برقم (٢٠)، وقال -أيضًا-: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ**». متفق عليه، قالت امرأة **للشعبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: أيُّها العالم، أفتني، فقال: "إنَّما العالم من خاف الله عزَّ وجلَّ". جامع بيان العلم (٨٨٦)، وعن **يحيىٰ بن أبي كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "العالم من خشي الله، وخشية الله الورع". المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (٥٠٥).

وقد روىٰ الدارمي عن عِمران المنقَرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قلت **للحسن** يومًا في شيء: ما هكذا قال الفقهاء، قال: "ويحك هل رأيت فقيهًا؟ إنَّما **الفقيه**: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، **البصير بأمر دينه، المداوم علىٰ عبادة ربِّه**". صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٣٦/ ٦٧، حاشية: ١).

وقال **الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ: "العالم الذي وافق علمه عمله". جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٨، برقم ١٢٤١).

وقال **الشَّافِعِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليس العلم ما حُفِظَ، العلم ما نَفَعَ" مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٤٩). ومن ذلك دوام السكينة، والوقار والخشوع والتواضع لله والخضوع.

وممَّا كتب **مالك** إلىٰ الرشيد-رحمهما الله-: "إذا علمت علمًا فَلْيُرَ عليك علمه وسكينته وسمته ووقاره وحلمه لقوله ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»". تذكرة السامع والمتكلم (ص ١٥- ١٦).

ويروىٰ عن **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "تعلَّموا العلم وعلِّموه الناس، وتعلَّموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلَّمتم منه ولمن علَّمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء، فلا يقوم جهلكم بعلمكم". أخرجه ابن عبد البر في جامع العلم وفضله (٨٩٣)، بإسناد فيه ضعف.

وعن السلف: حقٌّ علىٰ العالم أن يتواضع لله في سِرِّه وعلانيته، ويحترس من نفسه، ويقف علىٰ ما أشكل عليه. تذكرة السامع والمتكلم (ص ١٦).

وفيها أنَّ الذي يوفِّقه الله للعلم النافع يهديه إلىٰ العمل الصالح -غالبًا-، وعليه فينبغي أن

يُستفتىٰ العلماء، وأن يُستشاروا في الأمور؛ لكمال عقلهم وعلمهم، وتوفيق الله لهم، وتسديده إيَّاهم. **وفيه** أنّ العلم يهتف بالعمل، ولذلك جاء في الحديث الثابت عن النبي ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كلِّ خلفٍ عدُولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**».

حسن أو صحيح لغيره: ينظر تخريجه في تحقيقي لكتاب الشريعة للآجري رحمه الله، "قال **النووي** رحمه الله في أول "تهذيبه" عند ذكر هذا الحديث: "وهذا إخبار منه ﷺ بصيانة العلم وحفظه وعدالة ناقليه، وأنّ الله -تعالىٰ- يوفِّق له في كلِّ عصر خلفًا من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كلِّ عصر، وهذا وقع -ولله الحمد-، وهذا من أعلام النبوة، ولا يضرُّ مع هذا كون بعض الفساق يعرف شيئًا من العلم، فإنَّ الحديث إنَّما هو إخبار بأنَّ العدول يحملونه لا أنَّ غيرهم لا يعرف شيئًا منه".

علىٰ أنَّه قد يقال: ما يعرفه الفساق من العلم ليس بعلم حقيقة؛ لعدم عملهم به، وقد صرَّح به **الشافعي** في قوله:

ولا العلم إلا مع التقىٰ ... ولا العقل إلا مع الأدب"[٥٩٧]

وفيها عدالة العلماء، وتوثيقهم، قال الإمام **ابن قيم الجوزية** رحمه الله: "وهذا يتضمَّن تعديله ﷺ لحملة العلم الذي بعث به وهو المشار إليه في قوله: «**هذا العلم**»، فكلُّ من حمل العلم المشار إليه لابدَّ وأن يكون عدلًا؛ ولهذا اشتهر عند الأمَّة عدالة نقلته وحملته اشتهارًا لا يقبل شكًّا ولا امتراءً، ولا ريب أنَّ من عدَّله رسول الله ﷺ لا يُسمع فيه جرح؛ فالأئمَّة الذين اشتهروا عند الأمَّة بنقل العلم النبوي وميراثه كلُّهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ؛ فما حَمَل عِلمَ رسولِ الله ﷺ إلا عدل[٥٩٨]... ولكن قد يُغلط في مسمَّىٰ العدالة فيُظنُّ أنَّ المراد بالعدل من لا ذنب له،

---

(٥٩٧) فتح المغيث (٢/ ١٨، ط: مكتبة السنة)، مختصرًا.

(٥٩٨) قال **ابن القيم**: "ولهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمَّة جرحه والقدح فيه؛ كأئمَّة البدع ومن جرىٰ مجراهم من المتهمين في الدين، فإنَّهم ليسوا عند الأئمَّة من حملة العلم". مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٣).

قلت: فالعالم الذي لا يخشىٰ الله ولا يعمل بعلمه، ففي الحقيقة هذا ليس بعالم، فقد جاء فيه وعيد شديد، وذمٌّ غليظ؛ فمن ذلك قوله-تعالىٰ-: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا

وليس كذلك، بل هو عدل مؤتمن علىٰ الدين، وإن كان فيهم ما يتوب إلىٰ الله منه، فإنَّ هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية". مفتاح دار السعادة (١/ ١٦٣).

قلت: فما أحسن قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ولا سيَّما لو أضفنا إليه الوصف المذكور في الحديث، من نفيهم عن العلم والدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وهذه صفة أئمَّة هذا الشأن، ولا شكَّ في عدالتهم.

والعمل بالعلم يورث صاحبه التواضع والبعد عن التكبُّر؛ فقد روي عن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من تعلَّم علمًا لا يعمل به؛ لم يزدْهُ العلمُ إلا كبرًا". الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني (٢/ ٨٧٥)، **بإسناد منقطع**.

فينبغي لطلاب العلم وأهله أن يجاهدوا أنفسهم في طاعة الله، ويعملوا بالعلم، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها علىٰ تعلُّم الهدىٰ ودين الحقِّ الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتىٰ فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها علىٰ العمل به -بعد علمه-، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرَّها لم ينفعها.

أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢- ٣].

ومن مساوئ عدم العمل بالعلم ضعف التأثير علىٰ العامة، فإنّ النفوس مجبولة علىٰ عدم الانقياد لمن يخالف قولُه فعلَه، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتدائهم بالأقوال المجردة.

وممَّا جاء في هذا المعنىٰ حديث **أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**». أخرجه مسلم (٢٢٣). والمعنىٰ: تنتفع به إن تلوته وعملت به، وإلا فهو حجَّة عليك. تحفة الأحوذي (٩/ ٣٥٠).

وَعَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عبد يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ**: ... وفيه: **وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ**». وفي رواية: «**وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ؟**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، وهو في صحيح الجامع (٧٢٩٩)، والصحيحة (٩٤٦).

وأوَّل من تسعَّر به النار يوم القيامة ثلاثة، فذكر منهم رجل تعلَّم العلم وعلَّمه ليقال عالم. أخرجه مسلم (١٩٠٥).

الثالثة: أن يجاهدها علىٰ الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدىٰ والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها علىٰ الصبر علىٰ مشاقِّ الدعوة إلىٰ الله، وأذىٰ الخلق، ويتحمَّل ذلك كلَّه لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإنَّ السلف مجمعون علىٰ أنَّ العالم لا يستحقُّ أن يسمَّىٰ ربانيًا حتىٰ يعرف الحقَّ ويعمل به ويعلِّمه، فمن علم وعمل وعلَّم؛ فذاك يدعىٰ عظيمًا في ملكوت السماوات". زاد المعاد (٣/ ٩)، (**إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ، حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّىٰ الْحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ**). صحيح: تقدم.

أَمَّا العالم الذي لا يعمل بعلمه فقد وردت النصوص بذمِّه، بل ولا يعتبر عالمًا حقيقة، ويدلُّ لذلك ما ورد عَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرْ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لِأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**». صحيح: أخرجه أحمد (٦٥٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٠)، وهو في الصحيحة (٤٨٢).

قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللهُ: "«**وهم يعلمون**» قبحه والوعيد عليه، وقيد المصرين بـ: (العالمين)؛ لأنَّ من لا يعلم قبح الذنب لا عقاب عليه. والمراد بأقماع القول الذين لا يعملون بما يعلمون؛ لأنَّ الحفظ والعلم المراد بهما العمل، ولذا قال: «**وهم يعلمون**»". التنوير شرح الجامع الصغير (٢/ ٢٨٤).

ومما ورد في عقوبة ذلك ما جاء عن **أنس** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مررتُ ليلة أسري بي علىٰ قوم تُقرض شفاههم بمقاريض** (المقص) **من نار، كلَّما قرضت وفت، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمَّتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به**». صحيح: أخرجه أحمد (١٣٠٥٣)، وهو في صحيح الترغيب (١٢٥).

وفي رواية: «**الخطباءُ مِنْ أُمَّتِكَ، الذين يأمرونَ الناسَ بالبِرِّ وينْسَوْنَ أنفسهم وهُمْ يَتْلونَ الكِتابَ أفَلا يَعْقِلونَ؟!**». أخرجه أحمد (١٣٥١٥)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٢٧)، والصحيحة

(٢٩١).

وهذا يدلّ علىٰ أنَّ ترك العمل بالعلم من أكبر الكبائر؛ لذلك جاءت تلك النصوص في الوعيد لمن يعمل بخلاف ما يعلّم الناس، وعن **أسامة بن زيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ** (تخرج) **أَقْتَابُ** (أمعاء) **بَطْنِهِ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَىٰ** (حجر يطحن به) **فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَىٰ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**». متفق عليه. وفي رواية: «**إِنِّي كُنْتُ آمُرُكُمْ بِأَمْرٍ، وَأُخَالِفُكُمْ إِلَىٰ غَيْرِهِ**». إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢١٨٤٢).

وَعَنْ **جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِاللهِ البَجَلِي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَىٰ نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ**»(٥٩٩). صحيح.

وممَّا يؤيِّد تلك النصوص المتظافرة علىٰ ذمِّ هذه الأفعال المشينة، والمعصية الشنيعة، ما ورد عن السلف في هذا، من ذلك أنَّ **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان يأمر بالعمل بالعلم فيقول: "تعلَّموا، تعلَّموا، فإذا عَلِمْتُم فاعملوا". صحيح: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٥، برقم ١٢٦٦). وأخرجه الدارمي (١/ ١٠٣).

وقال **معاذ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "اعلموا ماشئتم أن تعلموا؛ فلن ينفعكم الله بعلم حتىٰ تعملوا". الزهد لأبي داود (٢٠١).

وقال **جندب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إنَّ مثل الذي يعلِّم الناس ولا يعمل بعلمه؛ كمثل السراج يضئ للناس، ويحرق نفسه". المصدر السابق (٣٥١).

فكانوا يخافون ترك العمل ويستعظمونه، فقد قال **أبوالدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إنَّما أخشىٰ من ربِّي يوم القيامة أن يدعوني علىٰ رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك ربِّي، فيقول لي: ما عملْتَ فيما علِمتَ؟". **صحيح لغيره**: صحيح الترغيب والترهيب (١٢٩).

---

(٥٩٩) **صحيح**: أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣١٤)، والطبراني في الكبير (١٦٨١)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١٣١)، والصحيحة (٧/ ١١٣٣).

وفي الأثر -أيضًا- عن **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله يخشىٰ الله، ليس بعالم بأمر الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشىٰ الله، فذاك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشىٰ الله، فذلك العالم الفاجر". **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمي (٣٦٣).

وقال **هلال بن العلاء** رَحِمَهُ اللَّهُ: "طلب العلم شديد، وحفظه أشد من طلبه، والعمل به أشد من حفظه، والسلامة منه أشدُّ من العمل به، ثمَّ أنشد يقول:

يموت قوم ويُحْيي العلمُ ذكرَهُم ... والجهلُ يُلْحِقُ أمواتًا بأمواتِ[٦٠٠]

والعلم لا يثبت حتىٰ يعمل به، كما قال الأول:

هتف العلم بالعمل ... فإن أجابه وإلَّا ارتحل

وعقوبة تارك العمل بالعلم عظيمة، كما ثبت أنَّه من الثلاثة الأُوَلِ الذين تسعَّر بهم النار.

وعالمٌ بعلمه لم يعملنْ ... معذبٌ من قبل عبادِ الوثنْ

قال الحافظ **الذهبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكىٰ علىٰ نفسه، ومن طلبه للمدارس والإفتاء والفخر والرياء تحامق، واختال، وازدرىٰ الناس، وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس". السير (١٨/ ١٩٢).

وقال **الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من طلبه للفخر والرياء والجدل والمراء، وتأكَّل به الأغنياء، وجالس به الملوك، وأبناء الملوك؛ لينال به الدنيا، فهو ينسب نفسه إلىٰ أنَّه من العلماء، وأخلاقه أخلاق أهل الجهل والجفاء، فتنة لكلِّ مفتون، لسانه لسان العلماء، وعمله عمل السفهاء". أخلاق العلماء (ص ١٣٨).

عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تعلَّمَ العلْمَ ليُباهِيَ بِهِ العلماءَ، أوْ يُمارِيَ بِهِ السفهاءَ، أوْ يصرِفَ بِهِ وجوهَ الناسِ إليه، أدخَلَهُ اللهُ جهنَّمَ**». **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦٦٤).

قال **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ: يقال: "تعوَّذوا بالله من فتنة العابد الجاهل، وفتنة العالم الفاجر، فإنَّ فتنتهما فتنة لكلِّ مفتون". أخلاق العلماء للآجري (ص ٨٧).

وقال **سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كانوا يقولون: من فسَد من العلماء ففيه شَبَهٌ من اليهود،

---

(٦٠٠) الترغيب والترهيب لأبي القاسم الأصبهاني (٢/ ٨٧٤).

ومن فسَد من العبَّاد ففيه شَبَهٌ من النصارىٰ". ذكره ابن تيمية وابن القيم في أكثر من موضع.

وقال **مكحول** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّه لا يأتي علىٰ الناس ما يوعدون حتىٰ يكون عالمهم فيهم أنتن من جيفة حمار". أخلاق العلماء للآجري (ص ٨٨).

وقوله: (﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾)، أي: وما يعقل الأمثال التي قال الله -تعالىٰ- عنها: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾ [العنكبوت: ٤٣]، والمراد: وما يعقل ويفهم الارتباط بين المثل وما مُثِّل به كما في الآيات إلا العلماء الذين يعقلون عن الله، فيعملون بطاعته ويجتنبون سخطه، بخلاف الجهلة. فالفهم عن الله مختص بالعلماء؛ كما ورد في الأثر عن **علي** "أو فهماً يؤته الله عبداً في كتابه" سيأتي للمصنف.

وقوله: (﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾)، فالمعنىٰ: لو كنَّا من أهل العلم لعلمنا ما يجب علينا فعملنا به فنجونا، وما كنَّا في عداد أهل النار، فإنَّ حقيقة الأمر أنَّهم يسمعون ويدركون، فقد جاءتهم الرسل وبلَّغتهم، ولكنَّهم تمنوا لو كانوا يسمعون سماع تفُّهم وانقياد واستجابة، فالسماع يطلق ويراد به سماع إدراك، كقوله ﷺ: «**ما أذن الله لشيء كأَذَنِهِ لنبي حسن الصوت بالقرآن، يجهر به**». متفق عليه، ويطلق ويراد به سماع استجابة، كقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**سمع الله لمن حمده**»، وهو -سبحانه- سميع الدعاء، يعني: يجيب من دعاه.

فإنَّ الإنسان إذا سمع قرآنًا وهو شاهد القلب -حاضره- وانتفع به، فهذا هو العاقل، كما قال -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: ٣٧]، والقلب: هو العقل[٦٠١]، **فيه** أنّ مدار التكليف علىٰ أدلَّة السمع (النصوص) والفهم لها؛ ويكون

---

(٦٠١) **تنبيه**: أورد شراح الكتب بعض الأحاديث في العقل وفضله، ولكن جميعها لا يخلو من علة، وقد نزهت كتابي هذا من ذكر تلك الأحاديث الضعيفة فإنّ في الصحيح غنية وكفاية ولله الحمد.
قال شيخنا **الألباني** في الضعيفة برقم (١): "ومما يحسن التنبيه عليه **أنَّ كل ما ورد في فضل العقل من الأحاديث لا يصحُّ منها شيء**، وهي تدور بين الضعف والوضع، وقد تتبَّعت ما أورده منها أبوبكر بن أبي الدنيا في كتابه "العقل وفضله" فوجدتها كما ذكرتُ لا يصحُّ منها شيء.
وقال العلامة **ابن القيم** في "المنار المنيف" (ص ٢٥): "**أحاديث العقل كلُّها كذب**"، لذلك قال **الذهبي**: عن صاحب "كتاب العقل" ليته لم يصنفه"، وما أحسن ما قال **الذهبي**: "وإذا رأيتَ المتكلِّم المبتدع يقول:

ذلك بإعمال العقل والقواعد المقرَّرة في كلِّ باب.

وأيضًا قال الله-تعالىٰ- عن الذين لا يستجيبون لشرعه: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ٤٤]، قال **السعدي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وذلك أنَّ العقل يحثُّ صاحبَهُ أن يكون أوَّل فاعل لما يأمر به، وأوَّل تارك لما ينهىٰ عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشرِّ فلم يتركه، دلَّ علىٰ عدم عقله وجهله، خصوصًا إذا كان عالمًا بذلك، قد قامت عليه الحجَّة". (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص (٥١)).

قوله: (﴿**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾)، هذا استفهام بمعنىٰ النفي؛ يعني: لا يستوي الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام صار أبلغ؛ لأنَّه يكون فيه معنىٰ التحدِّي، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ**﴾ [فاطر: ٢٠]، فيه مدحٌ للعلم وذمٌ للجهل.

ومن عجائب هذا الزمان أن تجد من يصدُّ عن أفضل العلوم وأعظم الكتب بعد كتاب الله، وهي كتب السنة، ويزهِّد في دراستها وحفظها، ويذمّ من يقوم بتعليمها، وما أحسن ما قال بعضهم:

أتانا أنّ سهلًا ذمّ جهلًا ... علومًا ليس يعرفهنَّ سهلُ
علومًا لو دراها ما قلاها ... ولكنَّ الرضىٰ بالجهلِ سهلُ

وإنِّي لأحثُّ الناس علىٰ العلم الصحيح، والمنبع الصافي النقي وهو كتاب الله تعالىٰ، والإقبال علىٰ تفسيره؛ كتفسير ابن كثير، وأرغِّبهم في تعلُّم السنة وحفظها، وفهم الصحيحين، وحفظهما، والتفُّقه فيهما، وفي غيرهما من كتب السنن، إذ لا شيء أنفع من هذه الكتب، ولا أيسر ولا ألذَّ، ولا أروح، ولا أهدىٰ منها، قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "القرآن العظيم واضح العبارة علىٰ ما لا نهاية، والمتون في أنهىٰ مراتب الغموض ...، ولو وجَّه الطالبُ فِكْرَهُ تلقاء الكتاب والسنَّة لعرف المطلوب منه بأوضح عبارة، وأشرف إشارة مع السعة في الأمر، **ولا أشرف ولا ألذّ ولا أنقىٰ ولا أبقىٰ ولا أروح من قراءة أحاديث رسول الله** ﷺ، ولو كان فهمها متوقِّفٌ علىٰ ما ذكر من العلوم

دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات العقل، فاعلم أنَّه أبوجهل". سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٢).

والدقائق لم تكن شريعته سمحة سهلة ليلها كنهارها، بل ربَّما كان هذا من الغلوِّ في الدين والتشديد والحرج الذي رفعه الله بفضله". مزالق الأصوليين (ص ١٠٠).

وقوله: **(مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)**، أي: يفهِّمه، كما قال -تعالىٰ-: ﴿**يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ [طه: ٢٨]، أي: يفهموا قولي، وقال: ﴿**لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ [النساء: ٧٨]، أي: لا يفهمونه، وهذا جزء من حديث **معاوية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، يأتي موصولًا بعد بابين؛ لذلك جزم به، ومناسبةُ ذكرِهِ هنا؛ أنّ الفقه في الدين هو الفهم فيه؛ يعني فهمَ أحكامِهِ، وحِكَمِهِ، وعِلَلِهِ، وأسرارِهِ، ثمَّ يعمل به.

وفيه محبة الله لطالب علم الوحيين، وأنَّه -سبحانه- أراد به خيرًا فقرَّبه من وحيه، وعلَّمه، وفقَّهه في شرعه، فهي بشارة لمن رزقه الله -تعالىٰ- الفقه في الدين، ولعلّ هذه من عاجلِ بشرىٰ المؤمن.

وفيه أنّ الفقه ليس مقتصرًا علىٰ الأحكام فحسب؛ بل يشمل التفقُّه في الدين كلِّه؛ ومنه العقيدة وغيرها.

ولذلك لـمَّا جاء الأشعريون فقالوا للنبي ﷺ: جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ، قَالَ: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**...». سيأتي برقم (٣١٩١). أرادوا التفقُّه في الدين فسألوا عن مسألة عقدية، وأيضًا: ذكر لهم حديثًا من أحاديث الغيب، فهذا من فقههم، وما أخبرهم به هو بذاته فقه، **وفيه** أنّ العلم والفقه مواهبُ من الله -تعالىٰ-، يهبها لمن يشاء من خواصِّ عباده.

وفيه أنّ التفقه يكون في الكتاب والسنَّة، وكتب الحديث والسنَّة، وليس في كتب (الرأي) التي يسمُّونها بكتب الفقه؛ لأنّ الحديث بذاته فقه، ومع ذلك فإنَّه يستنبط منه، ولا بأس بأن يستفاد من كتب الفقه في فهم الحديث؛ لكن بشرط عدم الابتداء بها، قال **ابن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليكنْ الذي تعتمدون عليه هذا الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسِّر لكم الحديثَ". **صحيح**: أخرجه الهروي في ذم الكلام (٣٣٥)، وابن عبدالبر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٣١، ١٠٥٠، ١٠٧٠)، وأبونعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٦٥).

وقد سأل الشيخ الدكتور رياض بن سعيد سماحة الإمام **ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ عن كيفية البداية

لطالب العلم في الفقه، هل تكون من كتب المذهب أو كتب أحاديث الأحكام، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "بكتب أحاديث الأحكام، ويخشىٰ عليه التمذهُّب إن ترك الحديث"، ثم قال: "وقد أنعم الله عليّ بمنهج أهل الحديث من أربعين سنة، وإلا كنت سأكون حنبليًا"[٦٠٢].

ويؤيد ذلك ما جاء في فتوىٰ اللجنة الدائمة: فقد سئلت اللجنة: هل قلَّة الكتب الفقهية هي التي أدَّت بنا إلىٰ هذا الوضع، وكذا التفسير؟ إذا كان كذلك فأفيدونا ببعضٍ من هذه الموارد وأجركم علىٰ الله.

الجواب: التقليل من طلب العلم من مصادره: الكتاب والسنة، وما فهم منهما، وما يعين علىٰ فهمهما؛ هو السبب في التأخُّر، وهو الذي أدَّىٰ بالناس إلىٰ هذا الوضع.

وبالله التوفيق وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه وسلم[٦٠٣].

قال العلامة **الفُلَّاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قلت: فهذه الأحاديث والآثار مُصَرِّحة بأنَّ اسم العلم إنَّما يطلق علىٰ ما في كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ والإجماع أو ما قيس علىٰ هذه الأصول عند فقد نص علىٰ ذلك عند من يرىٰ ذلك لا علىٰ ما لهج به أهل التقليد والعصبية من حصرهم العلم علىٰ ما دُوِّن من كتب الرأي المذهبية، مع مصادمة بعض ذلك لنصوص الأحاديث النبوية.

قال **الشعبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وما قالوا فيه برأيهم فبل عليه!"، وهذا في عصر التابعين الذين شهد لهم سيد المرسلين ﷺ بالخيرية، فما بالك برأي أهل القرن الثالث عشر الذين جعلوا دينهم الحمية والعصبية، وانحصروا علىٰ طوائف، فطائفة منهم خليليون ادَّعوا أنَّ جميع ما أنزل علىٰ محمد ﷺ محصور في مختصر خليل، ونزَّلوه منزلة كتاب الله العزيز الجليل، فصاروا يتَّبعون مفهومه ومنطوقه وكلَّ دقيق فيه وجليل.

وَطَائِفَة مِنْهُم كنزيون أَو دريّون، ادَّعوا أَنَّ مَا فِي هذَيْن الْكِتَابَيْنِ هُوَ الْعلم، وأنَّهما معصومان من الْخَطَأ وَالوهم، فَإِن شَذَّ شَيْء عَن هذَيْن من علمٍ؛ فالعمدة علىٰ مَا فِي الأسعدية والخيرية،

---

(٦٠٢) ذكرها في تغريدة له علىٰ حسابه الخاص في "تويتر".

(٦٠٣) فتاوىٰ اللجنة الدائمة - ١ (١٢/ ٨٣)، السؤال الخامس من الفتوىٰ رقم (٥٧٣٨).
اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء. عبدالله بن قعود ... عبدالله بن غديان ... عبدالرزاق عفيفي ... عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

وَمَا فِي هَذِه الْكتب عِنْد عُلَمَائهمْ مقدّم فِي الْعَمَل علىٰ مَا نزل بِهِ جِبْرِيل علىٰ خير الْبَرِيَّة عَلَيْهِم الصَّلَوَات والتسليمات والبركات وعَلىٰ من تَبِعَهُمْ.

وَطَائِفَة مِنْهُم منهجيون أَو منهاجيون، فيبحثون عَن منطوقهما ومفهومهما، وَبِمَا فيهمَا يتعبدون، فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون". إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ٢٦، ط: دار المعرفة).

وقال الشيخ العلامة **حمد بن ناصر بن معمر**(٦٠٤) رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمتعصِّبون لمذاهب الأئمَّة تجدهم في أكثر المسائل قد خالفوا نصوص أئمَّتهم، واتَّبعوا أقوال المتأخرين من أهل مذهبهم، **فهم يحرصون علىٰ ما قاله الآخِر، فالآخِر؛ وكلَّما تأخَّر الرجل أخذوا بكلامه، وهجروا أو كادوا يهجرون كلام من فوقه**؛ فأهل كلِّ عصر إنَّما يقضون بقول الأدنىٰ فالأدنىٰ إليهم، وكلَّما بعد العهد، ازداد كلام المتقدمين هجرًا ورغبة عنه، حتىٰ إنَّ كتب المتقدِّمين لا تكاد توجد عندهم، فإن وقعت في أيديهم، فهي مهجورة.

فالحنابلة قد اعتمدوا علىٰ ما في "الإقناع" و"المنتهىٰ"، ولا ينظرون فيما سواهما، ومن خالف مذهب المتأخِّرين فهو عندهم مخالف لمذهب أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، مع أنَّ كثيرًا من المسائل التي جزم بها المتأخِّرون مخالفة لنصوص أحمد، يعرف ذلك من عرفه، وتجد كتب المتقدِّمين من أصحاب أحمد مهجورةً عندهم؛ بل قد هجروا كتب المتوسِّطين، ولم يعتمدوا إلا علىٰ كتب المتأخِّرين.

فـــ"المغني" و"الشرح" و"الإنصاف" و"الفروع" ونحو هذه الكتب، التي يَذْكُرُ فيها أهلُها خلاف الأئمَّة، أو خلاف الأصحاب؛ لا ينظرون فيها؛ فهؤلاء في الحقيقة أتباع الحجاوي وابن النجَّار، لا أتباع الإمام أحمد.

وكذلك متأخرو **الشافعية**، هم في الحقيقة: أتباع ابن حجر الهيتمي صاحب "التحفة"،

---

(٦٠٤) هو أحد أئمة الدعوة النجدية، **واسمه**: حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر التميمي (١١٦٠هـ-١٢٢٥هـ)، ولد في العيينة، وانتقل إلىٰ الدرعية.طلب شريف مكة غالب بن مساعد في (١٢١١ هـ) من الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود رَحِمَهُ اللَّهُ أن يرسل عالمًا ليناظر علماء الحرم في شيء من أمور الدين، فأرسل ابنَ معمر علىٰ رأس وفد من العلماء، فناظرهم وظهر عليهم. عندما ضم ابن سعود الحجاز (١٢٢٠هـ) بعث ابن معمر مشرفًا علىٰ أحكام قضاة مكة المكرمة، وتوفي هناك بعد أن مكث أربع سنين ودفن في البياضية. **ينظر**: مجموعة الرسائل والمسائل والفتاوىٰ- آل معمر حمد بن ناصر (١/ ٥).

وأضرابه من شرَّاح "المنهاج"، فما خالف ذلك من نصوص الشافعي؛ لا يعبؤون به شيئًا.

وكذلك متأخرو **المالكية**، هم في الحقيقة: أتباع خليل، فلا يعبؤون بما خالف مختصر خليل شيئًا، ولو وجدوا حديثًا ثابتًا في الصحيحين، لم يعملوا به إذا خالف المذهب، وقالوا: الإمام الفلاني أعلم منَّا بهذا الحديث، ﴿**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]؛ وكلّ أهل مذهب اعتمدوا علىٰ كتب متأخريهم؛ فلا يرجعون إلا إليها، ولا يعتمدون إلا عليها.

وأمَّا كتب الحديث؛ كالأمهات الست، وغيرها من كتب الحديث، وشروحها، وكتب الفقه الكبار، التي يذكر فيها خلاف الأئمَّة وأقوال الصحابة والتابعين؛ فهي عندهم مهجورة؛ بل هي في الخزانة مسطورة، للتبرُّك بها لا للعمل.

ويعتذرون بأنَّهم قاصرون عن معرفتها، فالأخذ بها وظيفة المجتهدين، والاجتهاد قد انطوىٰ بساطه من أزمنة متطاولة، ولم يبق إلا التقليد، والمقلِّد يأخذ بقول إمامه، ولا ينظر إلىٰ دليله وتعليله". الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ٢٧).

قلت: ولا شكَّ في أنَّ كتب المتقدِّمين أنفع وأولىٰ، وأقعد وأهنأ وأبرأ وأمرأ من كتب المتأخِّرين؛ قال **الشاطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فينبغي) "أن يتحرىٰ -الطالب- كتب المتقدِّمين من أهل العلم المراد؛ فإنَّهم أقعد به من غيرهم من المتأخِّرين، وأصل ذلك التجربة والخبر.

أمَّا التجربة؛ فهو أمر مشاهد في أيِّ علم كان، فالمتأخِّر لا يبلغ من الرسوخ في علم ما يبلغه المتقدِّم، وحسبك من ذلك أهل كلِّ علم عملي أو نظري؛ فأعمال المتقدِّمين -في إصلاح دنياهم ودينهم- علىٰ خلاف أعمال المتأخِّرين، وعلومهم في التحقيق أقعد، فتحقُّق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقُّق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلىٰ الآن ...

وأمَّا الخبر؛ ففي الحديث: «**خَيْرُ الْناس قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**». متفق عليه.

وعن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ أنَّه قال: "ليس عامٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم، ثمَّ يحدث قوم يقيسون الأمور برأيهم؛ فيهدم الإسلام ويثلم". ومعناه موجود في "الصحيح" في

قوله: «**وَلَكِنْ يَنْتَزِعُهُ مَعَ قَبْضِ الْعُلَمَاءِ بِعِلْمِهِمْ؛ فَيَبْقَىٰ نَاسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتَوْنَ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ، فَيَضِلون ويُضَلون**». **إسناده صحيح**: أخرجه ابن وضَّاح في البدع (٢٣٢)، والطبراني في الكبير (٨٥٥١).

فكتبُ المتقدِّمين وكلامُهم وسيرُهم؛ أنفعُ لمن أراد الأخذ بالاحتياط في العلم، علىٰ أيّ نوع كان، وخصوصًا علم الشريعة، الذي هو العروة الوثقىٰ، والوَزَرُ الأحمىٰ، وبالله -تعالىٰ- التوفيق". الموافقات (١/ ١٤٧) بتصرف يسير.

فإن قيل: فأين كتب الفقه التي تريدوننا أن نأخذ منها الفقه؟

الجواب: إنَّنا نعتقد أنّ عامَّة الفقه في كتب الحديث والسنَّة؛ لأسباب منها:

الأول: ما جاء في النصوص من تسمية الحديث فقهًا، منها ما سبق معنا.

ومنها قوله ﷺ: «**فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ** ...». فهذا يدلّ علىٰ أنّ حافظ الكتاب والسنَّة حافظ لفقه عظيم، بل أعلىٰ وأقوىٰ فقه، وأرفع منزلة من فهم كل ذي فقه، كما أطلق العلماء عليه هذا الاسم، ويطلق علىٰ الكتاب والسنَّة، فالمحدِّث فقيه، ولا يتصَّور في المحدِّث إلا أن يكون فقيهًا.

وقد سبق أن ذكرنا قول **وكيع بن الجراح** رحمه الله: "لقيني أبوحنيفة، فقال لي: لو تركت كتابة الحديث وتفقهت، أليس كان خيرًا؟ قلت: "أفليس الحديث **يجمع الفقه كلَّه**؟". صحيح: الفقيه والمتفقه (٢/ ١٦١)، برقم (٧٨٧).

وعن **عبدالله بن الحسن الهسنجاني** رحمه الله، قال: كنت بمصر، فرأيت قاضيًا لهم في المسجد الجامع، وأنا ممراض، فسمعت القاضي يقول: مساكين أصحاب الحديث! لا يحسنون الفقه.

فحبوت إليه، فقلت: اختلف أصحاب النبي ﷺ في جراحات الرجال والنساء، فأيُّ شيء قال علي ابن أبي طالب، وأيُّ شيء قال زيد بن ثابت، وأيُّ شيء قال عبد الله بن مسعود؟ فأفحم. قال عبدالله: فقلت له: زعمتَ أنَّ أصحاب الحديث لا يحسنون الفقه، وأنا من أَخَسّ أصحاب الحديث، سألتك عن هذه فلم تحسنها، فكيف تنكر علىٰ قومٍ أنَّهم لا يحسنون شيئًا وأنت لا تُحسِنهُ؟. شرف أصحاب الحديث (ص ٧٧)، والضعفاء لأبي زرعة (٢/ ٧٧٣).

قال **أبو عَرُوبة الحرّاني** رحمه الله: "الفقيه إذا لم يكن صاحب حديث؛ يكون **أعرج**". شرف

أصحاب الحديث (ص ٧٠). **قلت**: بل أعمىٰ.

وقال الإمام **أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ في التمسُّك بالحديث وترك الرأي:

دِينُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَخْبَارُ... نِعْمَ الْمَطِيَّةُ لِلْفَتَىٰ آثَارُ
لَا تَرْغَبَنَّ عَنِ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ...فَالرَّأْيُ لَيْلٌ وَالْحَدِيثُ نَهَارُ
وَلَرُبَّمَا جَهِلَ الْفَتَىٰ أَثَرَ الْهُدَىٰ...وَالشَّمْسُ بَازِغَةٌ لَهَا أَنْوَارُ

وقال بعضهم:

عَلَيْكُمْ بِالْحَدِيثِ فَلَيْسَ شَيْءٌ ... يُعَادِلُهُ عَلَىٰ كُلِّ الْجِهَاتِ
نَصَحْتُ لَكُمْ فَإِنَّ الدِّينَ نُصْحٌ ... وَلَا أُخْفِي نَصَائِحَ وَاجِبَاتِ
وَجَدْنَا فِي الرِّوَايَةِ كُلَّ فِقْهٍ ... وَأَحْكَامًا وَمِنْ كُلِّ اللُّغَاتِ
بِذِكْرِ الْمُسْنَدَاتِ أَنِسْتُ لَيْلِي ... وَحِفْظُ الْعِلْمِ خَيْرُ الْفَائِدَاتِ
أَئِمَّتُنَا النُّجُومُ وَهَلْ رَشِيدٌ ... تَكَلَّمَ فِي النُّجُومِ الزَّاهِرَاتِ[٦٠٥]

وقال الحافظ **محمد بن علي الصوري**:

قل لمن عاند الحديث وأضحىٰ ... عائبًا أهله ومن يدَّعيهِ
أبعلمٍ تقول هذا أَبِنْ لي ... أم بجهل فالجهل خلق السفيهِ
أيعاب الذين هم حفظوا ... الدين من الترُّهات والتمويهِ
وإلىٰ قولهم وما قد رووه ... راجعٌ كلُّ عالم وفقيهِ[٦٠٦]

بل قال العلامة **الفلَّاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"فإنَّ اسْم الْفَقِيه عِنْد السّلف إِنَّمَا يَقع علىٰ من علم الْكتاب وَالسنَّة وآثار الصَّحَابَة وَمن بعدهمْ من عُلَمَاء الْأمَّة، وَأمَّا من اشْتغل بآراء الرِّجَال واتَّخذه دينًا ومذهبًا، ونبذ كتاب الله وَسنَّة رَسُول الله ﷺ وقضايا الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ وآثارهم من وَرَائه؛ فَلَا يُطلق عَلَيْهِ اسْم الْفَقِيه بل هُوَ باسم الْهوىٰ والعصبية أولىٰ"**. إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ٢٨).

والثاني: أن كثيراً من كتب السنَّة فيها نصوص، وفيها فتاوىٰ النبي ﷺ، وما قضىٰ به، وما فهمه من كتاب الله تعالىٰ، وما فيها من اجتهاده المعصوم، وما فيها من فتاوىٰ أصحابه، وفهمهم

---

(٦٠٥) شرف أصحاب الحديث (ص ٦٢، ط: دار إحياء السنة).
(٦٠٦) شرف أصحاب الحديث (ص ٧٧).

للكتاب والسنَّة، والتنصيص علىٰ مسائل لا يحتاج إلىٰ نظر، ولا قياس، وأنَّ ما خالفها من الآراء لا عبرة به؛ إذ لا اجتهاد مع النصِّ، وإذا جاء الأثر بطل النظر.

والثالث: أنَّ واقع حال كتب الحديث أكثرُها صُنِّفَ علىٰ أبواب الفقه، والمسائل الفقهية، وترجم أصحابها في كثير منها، وصرَّحوا بالأحكام المأخوذة والمستنبطة من الحديث، فالأمر ليس كما يظنُّ بعضهم أنَّها كتب سُردت فيها الأحاديث سردًا دون ترتيب وتبويب، ودون فقه واستنباط.

وإنّي لأعجب كيف يكون الرجل فقيهًا وهو لم يدرس السنَّة، ولم يحفظها؛ بل لم يتضلَّع منها ومن هذا النور، قال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وربَّما اعتمد علىٰ قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم؛ لقلَّة التفاته إلىٰ معرفة النقل، **وإنَّما الفقه استخراج من الكتاب والسنَّة، فكيف يستَخْرِجُ من شيءٍ لا يعرفه؟!**". تلبيس إبليس (ص ١٠٣).

ونقل الشيخ عبدالأوَّل رَحِمَهُ اللَّهُ عن والده شيخنا العلامة المحدِّث **حماد الأنصاري** رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: "إنّ الحافظ الخطيب البغدادي ألَّف الكتب التالية "شرف أصحاب الحديث" و"الفقيه والمتفقه" و"كتاب الاحتجاج"؛ ردًّا علىٰ الأحناف الذين ينتقدون أهلَ الحديث؛ لاشتغالهم بالحديث، وتركهم ما هم عليه من الرأي، ثمَّ قال الوالد: والفقه إنَّما يكون من النصوص لا من الفراغ". المجموع في ترجمة العلامة المحدث حماد الأنصاري لولده عبدالأوَّل (٢/ ٥٢٩).

رابعًا: ثمَّ إنّ كتب الحديث مليئةٌ بالنصوص للمسائل، وكثرة الحجج؛ ممَّا يجعل المسلم علىٰ بصيرة من أمر دينه، ويقين فيما يتعبَّد لله به، وهذا بخلاف غيرها من الكتب، فإنَّها تعتمد الرأي والتخمين، والظنون.

فعلىٰ المسلمين أن يعودوا إلىٰ كتاب ربهم دراسةً وفهمًا وتدبُّرًا وعملًا، وكذا السنَّة المباركة من أصولها ومنبعها، وأن يعتنوا بها دراسةً وحفظًا وتفقُّهًا وفهمًا واستنباطًا وعملًا ودعوةً؛ كي يعود الناس إلىٰ دينهم الحقِّ، وأن يعملوا بشريعة ربهم الأعلىٰ، والقرآن قد هُجِر تفسيره، والسنة قد هُجِرَتْ قراءتها وحفظها ودراستها إلا من فئة قليلة.

خامسًا: علىٰ أنّ الفقه -أيضًا- ليس محصورًا في مسائل الأحكام فحسب؛ بل التفقُّه يكون في جميع مسائل الدين؛ العقيدة والتوحيد، الذي كان يُسَمَّىٰ (**الفقه الأكبر**)، والأخلاق، والآداب،

والأحكام والحلال والحرام وغيرها، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأمَّا فقهاء أهل الحديث العاملون به، فإنّ معظم همِّهم البحث عن معاني كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، وما يفسِّره من السنن الصحيحة وكلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعن سنَّة رسول الله ﷺ ومعرفة صحيحها وسقيمها، ثمَّ التفقُّه فيها وتفهُّمها، والوقوف علىٰ معانيها، ثمَّ معرفة كلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان في أنواع العلوم من التفسير والحديث، ومسائل الحلال والحرام، وأصول السنة والزهد والرقائق وغير ذلك، وهذه هي طريقة الإمام أحمد ومن وافقه من علماء الحديث الربانيين، **وفي معرفة هذا شغلٌ شاغل عن التشاغل بما أُحْدِثَ من الرأي ممَّا لا ينتفع به، ولا يقع**، وإنَّما يورث التجادل فيه كثرة الخصومات والجدال وكثرة القيل والقال، وكان الإمام أحمد كثيرًا إذا سئل عن شيءٍ من المسائل المتولِّدات التي لا تقع يقول: دعونا من هذه المسائل المحدثة". جامع العلوم والحكم (١/ ٢٤٩).

وقوع خلط في معنىٰ الفقه في الدين:

قد وقع بعض الناس في تبديل وتحريف للكلمات الشرعية ومعانيها، ومن ذلك لفظة: **(الفقه)**، قال **أبوحامد الغزَّالي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أنَّ منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية، تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها، ونقلها بالأغراض الفاسدة إلىٰ معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول؛ **مثل: الفقه**: فقد تصرَّفوا فيه بالتخصيص، لا بالنقل والتحويل؛ إذ خصَّصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوىٰ، والوقوف علىٰ دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلِّقة بها، فمن كان أشدَّ تعمُّقًا فيها وأكثر اشتغالًا بها يقال: هو الأفقه ...، إلىٰ أن قال: إنّ التجرد لذلك يقسّي القلب ويَنْزِع الخشية منه.

وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلَّىٰ بحبل الغرور وتتشبَّه بالخلف، **فكلّ ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس، وما أكبّ الناسُ عليه فأكثره مبتدع ومحدَث**، وقد صحَّ قول رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبىٰ للغرباء**»". إحياء علوم الدين (١/ ٢٨- ٣٤) مختصرًا.

وصدق من قال:

كُلُّ الْكَلَامِ سِوَىٰ الْقُرْآنِ مشغلة ... إِلَّا الْحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ

وَالْعِلْمُ مُتَّبَعٌ مَا كَانَ "حَدَّثَنَا" ... وَمَا سِوَىٰ ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ[٦٠٧]

وقوله: **(وَإِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)**، هذا حديث مرفوع، عَنْ **أَبِي الدَّرْدَاءِ** رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ**». **صحيح**: أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٦٣)، وهو في الصحيحة (٣٤٢).

ورواه ابن أبي عاصم والطبراني من حديث **معاوية** رضي الله عنه- بلفظ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْفِقْهُ بِالتَّفَقُّهِ، وَمَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٦٠٨]. **حسن لغيره**: صحيح الترغيب (٦٧).

وقال **ابن مسعود** رضي الله عنه-: "إنّ الرجل لا يولد عالمًا، وإنَّما العلم بالتعلُّم". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦١٢٣).

وهذا البغوي رحمه الله يبين كيفية الانتفاع بالقرآن والحديث، والتفقُّه فيهما؛ فيقول: "التلاوة إنَّما تأتي بالتعلُّم والحفظ بالدرس، والتفهُّم إنَّما يكون بصدق النية، وتعظيم الحرمة، وطيب الطعمة". شرح السنة (١/ ٢٦٤).

"فليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من النبي ﷺ وورثته، ولا يتأتَّىٰ إلا بالتعلُّم؛ بل وبالتعلُّم الجاد، وكما قيل: "العلم لا يعطيك بعضه حتىٰ تعطيه كلَّك"، فلابدّ من التفرُّغ والاجتهاد التامِّ للعلم والمذاكرة والمناقشة والحفظ؛ لأنَّ المذاكرة تحفظ العلم، والمناقشة تفتح ذهن الطالب حتىٰ يستطيع أن يعرف الأدلَّة، ويستنبط الأحكام منها". قاله العلامة **ابن عثيمين** رحمه الله. انظر: شرحه علىٰ البخاري.

قال **القرطبي** رحمه الله عند تفسير قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ**﴾ الآية [الأنعام: ٩٣]: "قلت: ومن هذا النمط من أعرض عن الفقه والسنن وما كان عليه السلف من السنن، فيقول: وقع في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم،

---

(٦٠٧) شرف أصحاب الحديث (١٦٣).

(٦٠٨) **حسن لغيره**: أخرجه الطبراني في الكبير (٩٢٩)، والبيهقي في الكبير (٣٥٢)، قال **الحافظ**: **إسناده حسن**، وحسنه لغيره شيخنا **الألباني** في "صحيح الترغيب والترهيب" (١/ ١٣٦)، برقم (٦٧).

ويزعمون أنَّ ذلك لصفائها من الأكدار وخلوِّها من الأغيار، فتتجلَّىٰ لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون علىٰ أسرار الكليات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، ويقولون: هذه الأحكام الشرعية للعامَّة إنَّما يحكم بها علىٰ الأغبياء والعامَّة، وأمَّا الأولياء وأهل الخصوص، فلا يحتاجون لتلك النصوص. وقد جاء فيما ينقلون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون". تفسير القرطبي (٧/ ٣٩، ط: دار الكتب المصرية).

قلت: وهو ما يعبر عنه لدىٰ الخوارج باسم **"الإلهام"**، ولدىٰ الصوفية باسم **"فتيا القلب"**[٦٠٩]، وغيرها من ألفاظ أهل الجهل ووساوس الشيطان، قال **ابن القيم** نقلًا عن شيخه **ابن تيمية** -رحمهما الله تعالىٰ: "وأمَّا ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: حدَّثني قلبي عن ربِّي، فصحيح أنَّ قلبه حدَّثه، ولكن عمَّن؟ عن شيطانه، أو عن ربِّه؟

فإذا قال: حدثني قلبي عن ربِّي، كان مسندًا الحديث إلىٰ من لم يعلم أنَّه حدثه به، وذلك كذب، قال: ومحدَّث الأمَّة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّه به يوما من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك ...". مدارج السالكين (١/ ٦٤، ط: دار الكتاب العربي).

إنَّهم يعيشون علىٰ الإلهامات، والرؤىٰ المنامية ونحو ذلك من الأحوال الشيطانية التي يدينون بها، ﴿**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ**﴾ [النجم: ٢٣].

ومن ذلك -أيضًا- ما يسمِّيه أهل البدع والخرافة بالعلم اللَّدُنِّي، قال الله -تعالىٰ- في حق الخضر -عليه السلام-: ﴿**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥] ويسمِّيه بعضهم بـ "علم الباطن"، أو "علم الحقيقة"، وهذا كلُّه باطل إلا ما كان له شاهد ودليل من الكتاب والسنَّة.

وقد أجمع المسلمون علىٰ أنَّه لا يحلُّ لمسلم أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ، وأنَّ من

---

(٦٠٩) أما علىٰ طريقة الصوفية، والتبليغيين ونحوهم؛ حيث يستدلون بقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويعنون به: أنّ المرء يلهم العلم بالعبادة! ويزعمون أنَّ **أبايزيد البسطامي** قال في هذا المقام، في علماء الرسوم: "أخذتم علمَكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أمثالنا: حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثنا فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا: مات"، فلا حجاب بين الله وبين عبده أعظم من نظره إلىٰ نفسه وأخذه العلم عن فكره ونظره، وإن وافق العلم فالأخذ عن الله أشرف". دراسات في التصوف (ص: ١٣٥) لإحسان إلهي ظهير.

اعتقد أنَّه يسعه ذلك أنَّه كافر.

كما أجمع أهل العلم علىٰ عدم جواز اعتماد الرؤىٰ في شيء من الدين ألبتَّة، وإن كان يستأنس بها، فمصادر التلقي عند أهل السنة: الكتاب والسنَّة وعمل السلف، والإجماع، وما كان من قياس علىٰ ذلك.

وإنَّما العلم بالتعلُّم، ويؤخذ العلم من أهله، ويسعىٰ في تحصيله من ذويه، والله -تعالىٰ- هو الموفق لهذا ولفهمه وتفهيمه، فيُفَقِّهُ عبدَهُ في الدين.

وقول **أبي ذر** رضي الله عنه-: (لَوْ وَضَعْتُمُ الصَّمْصَامَةَ ...): أي: السيف الصارم الذي لا ينثني، ومقصد **أبي ذر**: أنَّني سأقوم بتبليغ العلم مهما كان الأمر، ولو جعلتم السيف علىٰ رقبتي لتمنعوني من البلاغ؛ فلن أبالي، فإنَّه إن أمكنني أن أبلِّغَ كلمة سمعتها من النبي ﷺ لبلَّغتها قبل أن تقتلوني؛ بل سأقوم بواجب البلاغ علىٰ كل حال.

قال **الحافظ** رحمه الله: "هذا التعليق رُويناه موصولًا في مسند الدارمي وغيره من طريق الأوزاعي حدَّثني أبوكثير -يعني: مالك بن مرثد- عن أبيه قال: أتيتُ أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطىٰ، وقد اجتمع عليه الناس يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه ثمَّ قال: ألم تُنْهَ عن الفتيا؟ فرفع رأسه إليه فقال: أرقيب أنت عليَّ؟ **"لو وضعتم** ...". فذكر مثله. الفتح (١/ ١٩٤).

فيه دليلٌ علىٰ الصدع بالحقِّ وعدم كتان العلم، مهما كلَّف العبدَ من المشقة في تبليغه.

وفيه الحثُّ علىٰ تعليم العلم، والصبر علىٰ الأذىٰ فيه، طلبًا للثواب. وسيأتي الكلام علىٰ وجوب تبليغ العلم في باب: **"ليبلغ الشاهدُ الغائبَ"**(٦١٠)، والظاهر أنَّه رضي الله عنه- كان يرىٰ أنَّ ما عنده من العلم واجب عليه تبليغه، وأنَّه لا أحدَ يقوم بذلك غيره؛ وأنَّه لا سمعَ ولا طاعة لمن منعه من التبليغ.

مسألة: هل لو مَنعَ وليُّ الأمر العالمَ من التحديث، هل يسمع ويطيع له؟

الجواب:

فيه تفصيل: وهو: إن علم أنّ ما عنده من علم يجب التحديث به، لعدم توفُّره بين الناس،

---

(٦١٠) باب رقم (٣٧).

ولم يبثَّه أحد غيره في الناس، فلا يجوز -والحالة هذه- كتمان العلم وعدم إشهاره، ولا طاعة حينئذ لمخلوق في معصية الخالق، ومثل هذا ورد عن بعض السلف: "لنحدِّثنّ بكذا وكذا رغم أنف فلان". والله أعلم.

أمَّا إن لم يتعيَّن عليه كأن يقوم غيره بنشره، فطاعة ولي الأمر واجبة ومتعيِّنة حينئذ؛ فيمسك، وفي هذا قَالَ **عَمَّارٌ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أما تذكر -يا أمير المؤمنين- إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأمَّا أنت فلم تصلِّ، وأمَّا أنا فتمعَّكت في التراب وصلَّيت، فقال النبي ﷺ: «**إنَّما كان يكفيك أن تضرب بيديك الأرض، ثمَّ تنفخ، ثمَّ تمسح بهما وجهك، وكفِّيك**» فقال عمر: "اتق الله يا عمار قال: إن شئت لم أحدِّث به".

قال الحكم: وحدَّثنيه ابن عبد الرحمن بن أبزىٰ، عن أبيه، مثل حديث ذر قال: وحدَّثني سلمة، عن ذر، في هذا الإسناد الذي ذكر الحكم، فقال **عمر**: "نولِّيك ما تولَّيت". أخرجه مسلم (٣٦٨).

قال **النووي**: "ومعنىٰ قول عمار: إن رأيت المصلحة في الإمساك عن التحديث به راجحة علىٰ التحديث به وافقتك وأمسكتُ، فإنِّي قد بلَّغته فلم يبق عليَّ فيه حرج، فقال له **عمر**: "نولِّيك ما تولَّيت"؛ أي: لا يلزم من كوني لا أتذكَّره أن لا يكون حقًّا في نفس الأمر، فليس لي منعك من التحديث به". وانظر شرح النووي (٤/ ٦٢). **قلت**: والظاهر أنَّ عَمَّارا قال ذلك بعدما حدَّث به، فزال المحظور.

وقوله: (﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾)، سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم منسوبون إلىٰ الربِّ -تعالىٰ-، وذلك لإخلاصهم وشدة تعلُّقهم بربِّهم -جلَّ وعلا-، وأنَّهم لا يخرجون عن شرعه؛ بل هم متمسِّكون بأوامره، منتهون عن زواجره، ولأنهم يَرُبُّون العلم، أي: يقومون به في الناس، ويربُّونهم علىٰ العمل به.

وقوله: (حُكَمَاءَ)، جمع حكيم؛ **والحكمة**: صحَّة القول والعقد والفعل، وهي وضع الشيء في موضعه، وفي بعض الروايات: (حُلَمَاءَ)، جمع حليم؛ **والحلم**: الطمأنينة عند الغضب.

وقوله: (فُقَهَاءَ)، جمع فقيه؛ **والفقيه**: هو الذي يفهم الأدلَّة الشرعية من الكتاب والسنَّة

والإجماع نصًا واستنباطًا. الاستقامة (١/ ٦١) بتصرف يسير.

وقوله: (عُلَمَاءَ)، قال **ابن الأعرابي**: "لا يقال للعالم ربانيّ حتىٰ يكون عاملًا معلِّمًا". الفتح (١/ ١٦٢، ط: دار المعرفة).

وقال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]: "حقٌّ علىٰ من تعلَّم القرآن أن يكون فقيهًا، (تَعلَمُونَ)، أي: تفهمون معناه، وَقُرِئَ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم، ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تحفظون ألفاظه". تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧، ط: الكتب العلمية)، **قلت**: فينبغي لطلاب العلم أن يعتنوا بفهم النصوص وحفظها، وهذا المنهج لابدَّ منه لطالب العلم؛ أن يجمع بين الحفظ للنصوص، والدراسة والفهم والشرح لها إن أراد أن يكون له شأن في العلم، وأن يكون من أهله حقًّا.

وقوله: (وَيُقَالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ)، قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَالْمُرَادُ بِصِغَارِ الْعلم: مَا وضح من مسَائِله، وبكباره ما دقَّ مِنْهَا". الفتح (١/ ١٦٢).

قلت: الرباني الذي يربِّي الناس ويأخذهم بالوحي، فيربِّيهم علىٰ صغار العلم قبل كباره، والمقصود: أنَّه يعلّمهم ما وضحت أدلته مثل التوحيد ومسائله، والحلال والحرام؛ لأنَّ الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، والمسائل التي فيها نصوص واضحة جلية صريحة، فيتم تعلُّم هذه المسائل أولاً قبل كبار العلم، وهي المسائل التي تحتاج إلىٰ إمعان نظر، وفيها شيء من غموض، ودقَّة فهم، وقياس، واستنباط، ولا تعلم وتدرك إلا بمشقَّة، فيكون متأسِّيًا بالنبي ﷺ فيما علَّم أصحابه، وفيما بدأ به معهم.

وهذا من باب التيسير علىٰ الناس في العلم، وتقديم الأوجب والأهمِّ علىٰ المهمِّ، وينبغي أن يسلك سبيل السلف في العلم.

فالذي علَّمنا آداب قضاء الحاجة، وعلَّمنا الصلاة وكلَّ شيء؛ قد علمنا كيف نأخذ العلم، وفصَّل لنا هذا الأمر تفصيلًا، فكما فرض الصلاة والزكاة وبيّن لنا أحكامهما، فكذلك العلم فرضه علينا، وحثَّنا عليه، وبيَّنه لنا، وفصَّل لنا كيف نأخذه، وما سبيله؟

وذلك بأن يبدأ المسلم بتقديم ما جاء تفصيله في الكتاب والسنَّة، والأثر، ويؤخِّر مسائل

التفريع، المستنبطة من الأدلة، والمقيسة عليها؛ قال **ابن عبدالبر الأندلسي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وطائفة (غارقة) في الجهل لم يعنوا بحفظ سنَّة ولا الوقوف علىٰ معانيها ولا بأصل من القرآن ولا اعتنوا بكتاب الله -جلَّ وعزَّ- فحفظوا تنزيله، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله (أي: تفسيره)، ولا وقفوا علىٰ أحكامه، ولا تفقَّهوا في حلاله وحرامه، **قد اطَّرحوا علم السنن والآثار وزهدوا فيهما، وأعرضوا عنهما**؛ فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرَّقوا بين التنازع والائتلاف.

بل عوَّلوا علىٰ حفظ ما دُوِّن لهم من الرأي والاستحسان الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان، وكان الأئمَّة يبكون علىٰ ما سلف وسبق لهم فيه، ويودُّون أنَّ حظَّهم السلامة منه". جامع بيان العلم (٢/ ٣٢٧).

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نصٌّ عن الله ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن الإمام الذي زعموا أنهم قلَّدوه دينهم، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق، ويبيحون به الفروج والدماء والأموال علىٰ قول ذلك المصنِّف، وأجلُّهم عند نفسه وزعيمُهم عند بني جنسه: من يستحضر لفظ الكتاب، ويقول: هكذا قال، وهذا لفظه؛ فالحلال ما أحلَّه ذلك الكتاب، والحرام ما حرَّمه، والواجب ما أوجبه، والباطل ما أبطله، والصحيح ما صحَّحه!!". إعلام الموقعين (٤/ ١٣٠).

فالسلف كانوا يحرصون علىٰ الاشتغال بالكتاب والسنَّة قبل كلِّ شيء، فعن عياش القطان، قال: قلت **لأحمد بن حنبل** رَحِمَهُ اللَّهُ: أشتهي أن أجمع حديث الأنبياء؛ فقال لي أحمد: "حتىٰ تفرغ من حديث نبينا ﷺ". الجامع لأخلاق الراوي (١٩٢٥). فإن كان هذا في جمع أحاديث الأنبياء؛ فكيف بكلام البشر، وبعض متون المقلِّدة من أصحاب المذاهب؟!

وأمَّا **كبار العلم** التي تحتاج إلىٰ استنباط، وإمعان نظر، ودقَّة فهم كتفريعات المسائل وما يقرَّر بالقياس ونحوه من المسائل التي تحتاج إلىٰ علوم الآلة والدُّربة علىٰ استعمالها، ومعرفة المصالح والمفاسد، ومعرفة الخلاف والترجيح بين الأقوال الكثيرة المتباينة، في المذهب الواحد، فضلًا عن المذاهب الأخرىٰ؛ فهذه التي تؤخَّر وتحتاج إلىٰ تبحُّر في علوم الآلة، والاطلاع الواسع، ومعرفة بلسان العرب، ومدلولات الألفاظ، وقد تحتاج إلىٰ مناظرات طويلة، ودقَّة فهم، فهذه هي كبار العلم.

ومن كبار العلم أيضًا: تلك الكتب التي فيها اختلاف العلماء وذكر أدلَّة كلِّ فريق والترجيح بينها، وما يسميه بعضهم بالفقه المقارن، أو تفريعات المسائل التي تؤخذ من القياس ونحوه، فهي من كبار العلم وهي التي تؤخَّر.

أقول هذا؛ لأنِّي سمعت من بعض طلاب العلم ما يُضْحِكُ الثكلىٰ، فقد فسَّر صغار العلم بالكتب والرسائل الصغيرة(٦١١)، وكبار العلم بالكتب الكبيرة والمطوَّلات، وهذا خطأ بيِّن لمن

---

(٦١١) وهذا غريب من جهات كثيرة:

من جهة أنَّ هذه الكتب الصغيرة لم تكن أُلِّفت يوم نزلت هذه الآية ولا يوم فسِّرت بهذا.

ومن **جهة أخرىٰ**: أنَّ كثيرًا من الناس ممَّن يقرأ الكتب والمتون الصغيرة والمختصرة يجدها مملؤوة بالضمائر وهي أكثر صعوبة، وأشدُّ تعقيدًا من كثير من المطوَّلات، بل قد يختصره مؤلفه اختصرًا مخلاً، ولذلك فإنَّ بعضهم لـمَّا أراد أن يشرح كتابه تحيَّر في عبارته، فقال: لعلِّي قصدت، ولعلِّي أردت كذا، وينسىٰ أو يشكل عليه شرح كلامه، فكيف يشرحه أو يفهمه غيره؟!! فاللهم غفرا. ومثل هذه الكتب ممَّا لا ينصح بتعلُّمها أصلاً.

ولـمَّا كانت بعض المطولات فيها بسط للمسألة مع ذكر الأدلة؛ فهذا أسهل للطالب المبتدئ وأعون له علىٰ حصول المقصود، كما ذكر ذلك **بدر الدين الحلبي** في كتابه الماتع "التعليم والإرشاد"، فقال: «إنَّ الكتب المختصرة مضرَّة بالتعليم وقاطعة عنه، وأنَّ الاشتغال بمبسوطات الكتب لابدَّ منه في ابتداء التعليم.

وأنَّ المختصرات لا ينبغي أن يمسّها إلا من يريد أن يجعلها تذكرة يتذكَّر بها ما يعلمه، ولا ينبغي أن يمسَّها من يريد أن يتعلَّم منها ما يجهل، فإنَّها لا تفيدُ شيئًا». (التعليم والإرشاد/ ص١٢٦)

فتعلم مثل هذه المبسوطات أيسر في الفهم من المختصرات التي فيها من الغموض ما يعلمه القاصي والداني ممَّا يخالف البيان والفصاحة والبلاغة، والكتاب الواضح المدعَّم بالنصوص، والمبيَّن بالآثار سواء كان صغيرًا أو كبيرًا هو من تعليم الناس صغار العلم قبل كباره.

ومن **جهة ثالثة** أنَّه قد يكون الكتاب كبيرًا وقد شحنه مؤلفه بالأغلوطات وتشقيقات المسائل، وصعوبة العبارة مع وعورة أسلوبه وهو عسير الفهم، بعيد المنال، وهذا مخالف لقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: (**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**)، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»، ولقوله: «**وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**». أخرجه مسلم (١٤٧٨).

ومن **جهة رابعة**: لو قلنا: بدراسة مثل هذه المتون، فكيف نقدِّم غير الكتاب والسنة عليهما؟! فدراستهما وتعلُّمهما أهمُّ وأعظم من كلِّ وجه، فنبدأ مع الطلاب ونقدِّم ما قدَّمه الله ورسوله.

ومن **جهة خامسة**: لو مات الشخص ولم يتعلَّم كتاب الله وسنَّة رسوله، هل سيسأل عن ذلك أم لا؟ أمَّا هذه الكتب والمتون لو مات الرجل ولم ينظر فيها، ولم يتعلَّمها هل يسأله ربُّه عن عدم تعلُّمها، وهل هناك نصٌّ

تأمَّله، فإنَّه لم يكن ثمة رسائل صغيرة، حين أنزل الله تعالىٰ هذه الآية، ولكن المراد ما ذكرناه، أنَّ العلم منه ما هو واضح، وجاءت به النصوص الصريحة الجلية، ومنه ما هو من قبيل المسائل الخفية.

ورُبَّ رسالة صغيرة كبعض المتون الفقهية هي أشدُّ وعورة من الكتب الكبيرة، وفيها تعسير علىٰ الناس، ورب كتاب كبير واضح وضوحًا بيِّنا فيكون ميسَّرا،ككتاب الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ (القمر/ ١٧)، ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**﴾ [مريم: ٩٧]، ثمَّ الأمر مع ذلك يرجع إلىٰ معلِّم الناس والشارح أيضًا للكتاب، فربَّما سهَّل الصعب، وربما عسَّر وصعَّب السهل.

يحثُّ علىٰ تعلُّمها، أمَّا نصوص الكتاب والسنَّة فظاهرة ومتظاهرة في وجوب تعلُّمهما والتفقُّه فيهما. إلىٰ غير ذلك من الأمور والوجوه في تفضيل دراسة الوحيين، ولا مقارنة بينهما.

١١- بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالعِلْمِ كَيْ لاَ يَنْفِرُوا

قوله: (**بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَالعِلْمِ كَيْ لاَ يَنْفِرُوا**): ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ الهدي النبوي في كيفية التبليغ، وأنَّه ﷺ كان يقلِّل من الوعظ كذكر الجنّة والنار، وعذاب القبر ونعيمه، ونحوه، لئلا ينفر أصحابه ويملُّوا، فالشرع قد حثَّ علىٰ التيسير والتبشير وعدم التنفير، وقد نهىٰ عن التنفير بقوله: «**إنَّ منكم منفِّرين**». متفق عليه.

٦٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ (الْفِرْيَابِيَّ)، قَالَ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ (الثَّوْرِيُّ)، عَنِ الأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ (شَقِيق بن سَلَمَةَ)، عَنِ **ابْنِ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: "**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا** (يتعهدنا) **بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ** (المشقةِ والملل) **عَلَيْنَا**"(٦١٢).

طرفاه في: (العلم٧٠، الدعوات٦٤١١).

الشرح

قوله: (**يَتَخَوَّلُنَا**)، أي: يتحرَّىٰ الأيام التي يعظنا فيها، فيتعاهدنا مراعيًا أوقات نشاطنا، فلا يكثر علينا خوفًا علينا من الملل والسآمة.

وقوله: (**بِالْمَوْعِظَةِ**)، هي: التذكير بما يحرِّك القلب والنفس، فهي ليست كعامَّة مسائل العلم.

وقوله: (**كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا**)، أي: لا يحبُّ أن يصيبنا الملل، ولذلك قال **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لا تملُّوا الناس فيملُّوا الذكر". **صحيح**: أخرجه الدارمي (٤٦٠)، والطبراني (٨٦٣٤).

وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار، قال: قال **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لا تُبغِّضوا الله إلىٰ عباده، يكون أحدكم إمامًا فيطوِّل عليهم ما هم فيه، ويكون أحدكم قاصًّا، ويطوِّل عليهم ما هم فيه". صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٥١٧)، وعن عكرمة، قال: قال لي **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "ولا ألفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم، فتقصُّ عليهم، فتقطع عليهم حديثهم فتملُّهم، ولكن أنصت (اسكت)، فإذا أمروك فحدِّثهم وهم يشتهونه، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإنِّي عهدت

---

(٦١٢) وأخرجه مسلم (٢٨٢١)، والترمذي (٢٨٥٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٨٩).

رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك (أي: الاجتناب)". سيأتي برقم (٥٩٧٨).

وقالت **عائشة** رضي الله عنها لقاصّ المدينة: "ضع صوتك عن جلسائك، **وتحدَّث ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا أعرضوا عنك فأمسك**، وإيَّاك والسجع في الدعاء". **صحيح الإسناد**: أخرجه عمر بن شبَّة (١/ ١٢).

وعن **عبدالله** رضي الله عنه- قال: "إنّ للقلوب لنشاطًا وإقبالًا، وإنَّ لها تولية وإدبارًا، فحدِّثوا الناسَ ما أقبلوا عليكم". **صحيح لغيره**: أخرجه الدارمي (٤٦١)، وله طريق أخرىٰ أخرجه الخطيب في "الجامع" (٧٤١).

وقال -أيضًا-: "حدِّثِ القومَ إذا أقبلتْ عليك قلوبُهم، فإذا انصرفتْ عنك، فلا تحدِّثْهم، فقال له: وما علامة ذلك؟، قال: إذا أحدقوا إليك أبصارهم فقد أقبلت عليك قلوبهم، فإذا اتَّكأ بعضهم علىٰ بعض فقد انصرفت عنك قلوبهم، فلا تحدِّثهم". **لا بأس به**: أخرجه البيهقي في المدخل (١٧٠٧).

وعن **الحسن** رحمه الله قال: كان يقال: "حدِّثِ القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا، فاعلم أنَّ لهم حاجات". **إسناده حسن**: أخرجه الدارمي (٤٦٣).

وممَّا يعين -أيضًا- علىٰ عدم الملال والسآمة: قلَّة الكلام في الوعظ، فإنَّ قصر الخطبة مئنَّة من فقه الرجل؛ كما جاء في الحديث، ولذلك أمر ﷺ بقصْرها؛ بقوله: «**فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ**». أخرجه مسلم (٨٦٩)، وعَنِ **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما قَالَ: قَدِمَ رَجُلَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ خَطِيبَانِ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَامَا فَتَكَلَّمَا ثُمَّ قَعَدَا، وَقَامَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، خَطِيبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِهِمَا، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يخطب، فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا قَوْلَكُمْ، فَإِنَّمَا تَشْقِيقُ الْكَلَامِ** (تزيينه والمبالغة فيه، والإكثار منه) **مِنَ الشَّيْطَانِ**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٥٦٨٧)، وابن حبان (٥٧١٨)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٦٧٥)، والصحيحة (١٧٣١)، وَعن **أَبِي يَزِيدَ** -أَوْ: **مَعْنَ بْنَ يَزِيدَ** رضي الله عنه- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اجْتَمِعُوا فِي مَسَاجِدِكُمْ، وَكُلَّمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فَلْيُؤْذِنُونِي**». فَأَتَانَا أَوَّلَ مَنْ أَتَىٰ، فَجَلَسَ، فتكَلَّمَ مُتَكَلِّمٌ مِنَّا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لِلْحَمْدِ دُونَهُ مَقْصَدٌ، وَلاَ وَرَاءَهُ مَنْفَذٌ، فَغَضِبَ فَقَامَ، فَتَلاَوَمْنَا بَيْنَنَا، فَقُلْنَا: أَتَانَا أَوَّلَ مَنْ أَتَىٰ، فَذَهَبَ إِلَىٰ مَسْجِدٍ آخَرَ ...". **صحيح**: صحيح الأدب المفرد (٦٧٧). وعن **أنس** رضي الله عنه- قال: خطب رجل عند **عمر** رضي الله عنه-

فأكثر الكلام، فقال عمر: "إنَّ كثرة الكلام في الخطب من **شقاشق**[٦١٣] **الشيطان**". صحيح: صحيح الأدب المفرد (٦٧٦)، وعَنْ **مُجَاهِدٍ**، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا مُبَلِّغًا وَإِنَّ تَشْقِيقَ الْكَلَامِ فِي الْخُطَبِ من الشَّيْطَانِ**»[٦١٤]. صحيح،

وجاء عَنْ **عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا، وَقَامَ رَجُلٌ فَأَكْثَرَ الْقَوْلَ؛ فَقَالَ عَمْرٌو: لَوْ قَصَدَ فِي قَوْلِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ**، -أَوْ: **أُمِرْتُ**-، **أَنْ أَتَجَوَّزَ فِي الْقَوْلِ، فَإِنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ**». حسن الإسناد: صحيح أبي داود (٥٠٠٨).

قال **ابن عبدالبر** رَحِمَهُ اللهُ: "كان يقال ستَّة إذا أهينوا فلا يلوموا أنفسهم: ...، **والمقبل بحديثه علىٰ من لا يسمع منه ولا يصغي إليه**". الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٩٩).

وممَّا يعين علىٰ عدم الملال -أيضًا-: التذكير والوعظ بنصوص القرآن والسنَّة؛ قال -سبحانه-: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ**﴾ [الأنبياء: ٤٥]، وقوله: ﴿**لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿**قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**﴾ [يونس: ٥٧]. وقوله: ﴿**وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾ [طه: ١١٣]، وفي حديث **العرباض بن سارية** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- مرفوعًا: "قام فينا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ فوَعَظَنا مَوْعِظَةً بليغةً، وجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العيونُ ...". الحديث **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧١٤٤)، وابن ماجه (٤٢)، واللفظ له.

فينبغي مراعاة نفوس الناس عند الموعظة والتدريس، وممَّا يؤكد هذا ويزيده وضوحًا النهي عن التحلُّق قبل الجمعة؛ فإنَّه يَذهب بمقصودها، قال العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللهُ في شرحه للحديث: "ويدخل فيه المواعظ المكثرة التي قد ينفر منها الناس، فأنت تنظر للحال وما تقتضيه من موعظة أو إمساك، أو إلقاء مسائل علمية فقهية أو غير ذلك، والمهم ألا تملَّ الناس؛ لأنَّك إذا أمللتهم كرهوا الجلوس معك، وإذا أعطيتهم الراحة فإنَّهم يألفونك ويحبونك وينتفعون منك

---

(٦١٣) والشقاشق جمع شقشقة: وهي الجلدة الحمراء التي يخرجها الجمل من جوفه، فينفخ فيها فتظهر من شدقه. **والمراد**: أنَّه كلام لا طائل تحته.

(٦١٤) **صحيح**: أخرجه عبدالرزاق (انظر جامع معمر الملحق بالمصنف ٢٠٢٠٩)، والهروي في ذمّ الكلام وأهله (١/ ١١٤)، برقم (٩٩).

أكثر".

وقلت: وبالجملة فالمقصود هو البُعد ما أمكن في المواعظ عمَّا يصيب الناس من ملل وسآمة، وإن كان قصده حسنًا، وليس معنىٰ هذا أن يقصَّ للناس، ويأتي بالغرائب والعجائب كي يشدَّ انتباههم، لكن عليه بالسنَّة.

فيه التخفيف علىٰ الناس في الوعظ، فلا يعظهم ويذكرهم كلَّ يوم، مخافة السآمة عليهم.

وفيه التقليل من الكلام ما أمكن خشية الملالة، "فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ" كما قيل.

وفيه مراعاة أحوال الناس ولو عند الخير، فلا يزيد منه عن القدر المعتاد، في العلم والعمل، قال **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "يا أيُّها الناس! لا تبغِّضوا اللهَ إلىٰ عباده: يكون أحدكم إمامًا فيطوِّل عليهم ما هم فيه، ويكون أحدكم قاصًا ويطول عليهم ما هم فيه". **حسن**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٥١٧)، وابن عبدالبر في التمهيد (١٩/ ١٢)، وأبوداود في الزهد (٧٠).

وفيه جواز جعل يومٍ لأهل العلم وطلابه يذكرهم فيه.

وفيه إشارة إلىٰ التفريق بين الوعظ والتذكير، والعلم وتعليم الدين، فالحلال والحرام لا ينبغي أن يخلو منه يوم، فلابدَّ من التفريق بين العلم ومعرفة الأحكام ونحو ذلك، وبين الموعظة، فمن الخطأ الذي يقع فيه بعض الناس التسوية بينهما استدلالًا بحديث ابن مسعود علىٰ أنَّ دروس العلم في العقيدة والأحكام ونحوهما تكون أسبوعيًا، وربما جعلوها شهريًا ونحو ذلك.

فرسول الله ﷺ كان لا يترك تعليمهم ما نزل عيه من الوحي وبلاغه، ولو كان ذلك في اليوم مرَّات؛ لقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: ٦٧]، بل كانوا يتناوبون عليه، كما يأتي في باب التناوب في العلم، وورد أنَّه كان يكثر من تحديثهم وتعليمهم، فيحدِّثهم الليلة كاملة، والنهار كاملًا -أحيانًا-.

فَعَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: "لَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُنَا الْيَوْمَ وَاللَّيْلَةَ عَن بني إِسْرَائِيل لَا يقوم إِلَّا لحَاجَة". **صحيح**: أخرجه أبوداود (٣٦٦٣)، وابن حبان (٦٢٥٥) واللفظ له، وهو في صحيح موارد الظمآن (٩٤)، وعَنْ **أَبِي زَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "صَلَّىٰ بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْفَجْرَ، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ حَضَرَتِ الظُّهْرُ، فَنَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ حَضَرَتِ

الْعَصْرُ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَخَطَبَنَا حَتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ"، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا. أخرجه مسلم (٢٨٩٢)، وَقَالَ خَبَّابٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا بَلَغْنَا السَّاعَةَ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا، قُمْنَا وَتَرَكْنَاهُ حَتَّىٰ يَقُومَ". **صحيح**: صحيح ابن ماجه (٣٣٤٦)، وهذا من سخائه بالعلم؛ أنَّه كان لا يقوم حتىٰ يقوموا هم وينصرفوا من عنده.

فيه شدَّة حرص السلف علىٰ العلم والانتفاع بالتذكير والموعظة، **وفيه** أنّ العالم يرىٰ ما لا يرىٰ الطالب. **وفيه** أنَّه قد يكون الملال من الخير، ولو كان الناس فيه أهل صلاح وتُقىٰ، **وفيه** أنَّ درء المفاسد مقدَّم علىٰ جلب المصالح، **وفيه** أنَّ خوف المعلم علىٰ طلابه قد يكون بترك ما ظاهره الخير، ومآله ليس كذلك. **وفيه** تعاهد النبي ﷺ أصحابه بالموعظة، واهتمامه ﷺ بأصحابه والنظر في مصالحهم وشفقته عليهم، وفيه اعتناء الشيخ المربِّي بالجوانب التي يحتاجها الطالب، من نصح ووعظ وتذكير، وتعليم، وتربية وتزكية، ووصايا، ودعاء له، وإرشاد، **وفيه** بيان أنَّ النفس تملُّ وتسأم ولو من بعض أعمال البرِّ، **وفيه** جعل العالم لأهل العلم وطلابه أيامًا معلومة، **وفيه** مشروعية تخصيص يوم للموعظة غير يوم الجمعة؛ كما جاء في بعض روايات هذا الحديث من فعل ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّه خصَّص يوم الخميس للموعظة، وهذا التخصيص لا يكون بدعة. **وفيه** استحباب ترك الجدِّ في العمل الصالح -أحيانًا-؛ خشية الملال: «**فإنَّ الله لا يملُّ حتىٰ تملُّوا**» متفق عليه، **وفيه** إشارة إلىٰ أنّ خير الأعمال أدومها وإن قلَّ. **وفيه** كراهة تشبيه غير الرواتب بالرواتب؛ بالمواظبة عليها في وقت معيَّن دائمًا، **وفيه** أنَّ علىٰ العالم أن يقتدي بالنبي ﷺ في طرق الدعوة، ومجالس العلم، وأساليبها، وأزمانها، ومدَّتها، ونوعها.

٦٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أبوالتَّيَّاحِ، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا**»(٦١٥).

طرفه في: (الأدب٦١٢٥).

الشرح

(٦١٥) وأخرجه مسلم (١٧٣٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٩٠).

قوله: **(يَسِّرُوا)**، أمر بسلوك ما فيه تيسير وتسهيل[٦١٦]؛ لينشط الناس في العلم والعمل ويقبلوا علىٰ العلم بمحبة ورغبة، ومن طرق التيسير في العلم طريقة البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد كان من هديه ﷺ أنَّه: «**مَا خُيِّرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا**». متفق عليه.

واليسر يريده الله -عز وجل- منا، وبنا، ﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**» سيأتي برقم (٢٢٠). وفي الحديث -أيضًا-: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا**»، فالمعنىٰ: أنَّ الله -تعالىٰ- لم يبعثني مشدِّدًا علىٰ الناس، ملزمًا لهم ما يصعب عليهم أداؤه، «**وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا**». أخرجه مسلم (١٤٧٨).

وهذا فيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ معلِّم الناسَ الخير، ينبغي له أن يأخذ بأيدي الناس إلىٰ الطاعة والخير، ومن ذلك ألّا يشدِّد عليهم في المسائل والأحكام، بل يحبُّ التيسير عليهم، ويكون في أسلوبه هيِّنًا ليِّنًا سهلًا سمحًا، ويأخذ بأيديهم إلىٰ الله، ويحبِّبهم في العلم، والعمل، وفيما يعطيهم من العلم يعطيهم القدر الملائم لهم، فقد كان ﷺ رفيقًا رحيمًا بالطلاب؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن أمثلة **تيسيره** ﷺ: ماجاء عَنِ الأَزْرَقِ بْنِ قَيْسٍ، قَالَ: "كُنَّا عَلَىٰ شَاطِئِ نَهَرٍ بِالأَهْوَازِ، قَدْ نَضَبَ عَنْهُ المَاءُ، فَجَاءَ **أبوبَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَلَىٰ فَرَسٍ، فَصَلَّىٰ وَخَلَّىٰ فَرَسَهُ، فَانْطَلَقَتِ الفَرَسُ، فَتَرَكَ صَلاَتَهُ وَتَبِعَهَا حَتَّىٰ أَدْرَكَهَا، فَأَخَذَهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَضَىٰ صَلاَتَهُ، وَفِينَا رَجُلٌ لَهُ رَأْيٌ (من رأي الخوارج)، فَأَقْبَلَ يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الشَّيْخِ، تَرَكَ صَلاَتَهُ مِنْ أَجْلِ فَرَسٍ، فَأَقْبَلَ فَقَالَ: مَا عَنَّفَنِي أَحَدٌ مُنْذُ فَارَقْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: إِنَّ مَنْزِلِي مُتَرَاخٍ، فَلَوْ صَلَّيْتُ وَتَرَكْتُهُ، لَمْ آتِ أَهْلِي إِلَىٰ اللَّيْلِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ "**قَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ فَرَأَىٰ مِنْ تَيْسِيرِهِ**". سيأتي برقم (٦١٢٧)، وعَنْ **مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ:

---

(٦١٦) ومن أعجب ما سمعت قول بعضهم: عسِّروا العلم، فإنَّهم كانوا يعسِّرونه علىٰ الطالب ليتميَّز الطالب المجدُّ الذي يصبر علىٰ العلم، من غيره، وهذا الكلام غريب جدا، وهو مخالف لجميع النصوص الشرعية، فكتاب الله ميسَّر للتلاوة والحفظ، وميسَّر للفهم، وميسَّر للعمل به، وهكذا السنَّة!!.

يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ،... وفيه: فَلَمَّا صَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، **مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي** ...". الحديث. أخرجه مسلم (٥٣٧).

وعن **ابن عمر** رضي الله عنهما قال: "إنّ الله يحبُّ أن تؤتىٰ مياسره، كما يحبُّ أن تؤتىٰ عزائمه"[٦١٧]. **صحيح الإسناد**، وعن **إبراهيم التيمي** رحمه الله قال: "إنّ الله يحبُّ أن تؤتىٰ مياسره، كما يحبُّ أن تطاع عزائمه". **صحيح الإسناد**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٤٧٧)، وصحّ عن **عطاء** رحمه الله، أنَّه قال: "إذا تنازعك أمران، فاحمل المسلمين علىٰ أيسرهما". **لا بأس به**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٤٧٨).

ومن ذلك: التيسير علىٰ الناس في العلم، والمناهج الدراسية، وأسلوب التدريس ووقته.

ومن رحمة الله -تعالىٰ- بالخلق أن يسَّر الله كتابه وسنَّة نبيه ﷺ للناس، ولا ريب أنَّ كثيرًا من نصوص الكتاب أسهل في العبارة، والأسلوب، والفهم، وأيسر في المأخذ؛ ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ [القمر: ١٧]، ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**﴾ [مريم: ٩٧]، فلن نجد أيسر ولا أسهل ولا أضوأ ولا أنور ولا أهدىٰ من الكاب والسنَّة، ففيهما الخير الكثير الذي ليس في الكتب الأخرىٰ.

قال **ابن القيم** رحمه الله: "لا تجدُ كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا من كلام الله -سبحانه-؛ ولهذا سمَّاه سبحانه بيانًا، وأخبر أنَّه يسره للذِّكر، وتيسيره للذكر يتضمَّن أنواعًا من التيسير؛ **إحداها**: تيسير ألفاظه للحفظ، **الثاني**: تيسير معانيه للفهم، **الثالث**: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال". الصواعق المرسلة (٣٣٠- ٣٣٥)، باختصار.

وقال الإمام **الصنعاني** رحمه الله: "القرآن العظيم واضح العبارة علىٰ ما لا نهاية، والمتون في أنهىٰ مراتب الغموض ...، ولو وجَّه الطالب فكره تلقاء الكتاب والسنَّة لعرف المطلوب منه بأوضح عبارة وأشرف إشارة مع السعة في الأمر، ولا أشرف ولا ألذّ ولا أنقىٰ ولا أبقىٰ ولا أروح من قراءة أحاديث رسول الله ﷺ، **ولو كان فهمها متوقِّفًا علىٰ ما ذكر من العلوم والدقائق لم تكن شريعته سمحة سهلة ليلها كنهارها؛ بل ربَّما كان هذا من الغلو في الدين والتشديد والحرج الذي**

---

(٦١٧) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢٦٤٧٣)، وجاء مرفوعًا عند أحمد (٥٨٦٦)، وابن حبان (٢٧٤٢)، وانظر: الإرواء (٥٦٤).

رفعه الله بفضله". مزالق الأصوليين (ص ٩٩- ١٠٠).

وقال -أيضًا-: "ولو كان من أراد فهمه (أي: القرآن) كُلِّف قراءة المطوّل، وحاشية الشلبي، وتحقيق الأطول، لذهب عمره قبل الوصول إلىٰ الموصل". المصدر السابق (ص ٩٥- ٩٦).

ولذلك قال العلامة **الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "تعلُّم الكتاب والسنَّة أيسر من تعلُّم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة ...، والله -جل وعلا- يقول في مريم: ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**﴾ [مريم: ٩٧].

فهو كتاب ميسَّر بتيسير الله لمن وفَّقه الله للعمل به، ويقول: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ٥٢]". أضواء البيان (٧/ ٢٦٢).

قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن عرف كتبَ الحديث علم أنَّ الأمر يسير في العلم، وأنّ العمدة العمل، وهذا اغتراب الدين". مزالق الأصوليين (ص ٨٨).

وقوله: **(وَلَا تُعَسِّرُوا)**، هذا تصريح بالنهي عن التعسير في جميع الأحوال، فيمنع أن يكون هذا دأبه وديدنه وطريقته وهديه، سواء علىٰ نفسه أو علىٰ غيره، وهذا في جميع الأمور، فلا تشدِّدوا فَيُشَدِّدَ الله عليكم، ولهذا جاء أنّ النبي ﷺ كان يخطب، إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبوإسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظلَّ، ولا يتكلَّم، ويصوم. فقال النبي ﷺ: «**مره فليتكلَّم وليستظلَّ وليقعد، وليتمَّ صومه**». سيأتي برقم (٦٧٠٤).

ولما كان هذا الحديث في كتاب العلم، فيحسن التنبيه علىٰ ما وقع من التعسير في طرق التعليم، مثل فساد طريقة التأليف، والتعقيد في الأسلوب، وغيرها، وهذا من أسباب الصدِّ عن العلم والتعلُّم، ويعرف هذا بالنظر لأول وهلة في أيِّ كتاب أو متن مختصر من كتب الفقه المذهبية، فقد كانوا يتبارون في إغلاق العبارة، والإكثار من الضمائر، وتكلُّف السجع، إلىٰ غير ذلك ممَّا هو مخالف لهدي سلف الأمَّة، ومقاصد الشريعة الغرَّاء السمحة؛ من تسهيل الدين وتيسيره؛ ليفهمه الصغير والكبير والذكر والأنثىٰ، والحرُّ والعبد، وهذا -أيضًا- خلاف البلاغة.

ولقد بغَّضَ هؤلاء العِلمَ إلىٰ الناس، وبَغَّضُوا النَّاسَ في الشرع الحنيف، حتىٰ إنَّ بعض الطلاب كانوا ينفرون من دروس الفقه بسبب ما يجدونه من تعقيد في عبارته، وصعوبة في فهمه، وكأنَّها طلاسم، وكرِهوا تعلُّم الشريعة وأحكامها بسبب ما ذكرنا.

ومن التعسير -أيضًا- أنَّك قد تجد -غير المتون الصغيرة المعقدة- كتابًا كبيرًا وقد شحنه مؤلفه بالأغلوطات وتشقيقات المسائل، وهو مع ذلك وعر في أسلوبه، عسير في فهمه أيضاً.

وأنا أعتقد أنَّ من قلَّة الفقه أن يطلق علىٰ مثل هذه الكتب (فقه)؛ إذ الفقيه من ييسِّر علىٰ الناس، وينشر في الناس الأدلَّة الصحيحة، ونور الكتاب والسنَّة، وتفهيمهما للناس، ويعتني بها ويحرص علىٰ شرحها، ويقلُّ كلامه، وتكثر حججه، ويقرِّب الناس من الله، ويحبِّب العباد إلىٰ ربِّهم -عزَّ وجلَّ-، ويأخذ بأيديهم إلىٰ العلم والهدىٰ.

يقول العلامة **مقبل الوادعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قول نبينا محمد ﷺ: «**بعثت بالحنيفيّة السّمحة**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٢٣٤٥)، وهو في الصحيحة (٢٩٢٤). ويقول: «**إنّ هذا الدّين يُسر**». صحيح: صحيح النسائي (٥٠٤٩).

فالعلم ميّسر، واختلافات العلماء هي التي شغلت طلاب العلم عن الكتاب والسنَّة؛ بل صيَّرتْهم شيعًا وأحزابًا، ولقد أحسن من قال:

لَوْلَا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لمَا وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ لا "المُغْني" وَلا "العُمَدُ"
يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وبالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ

ثمَّ هم يصعّبون الشيء السهل، فالنبي ﷺ كان يصف الصلاة وهو علىٰ المنبر، وكان عثمان يصف الوُضوءَ للصحابة بالفعل، وكان علي بن أبي طالب يصف الوُضوء -أيضًا- لأصحابه بالفعل، وأنا أسأل: هل عبارات "زاد المستقنع" أسهل أم عبارات "بلوغ المرام"؟ فتجد عبارات في "زاد المستقنع" ربَّما يتحيَّر القارئ فيها، وقد ذكر بعض الإخوة في رسالة له أشياء طيِّبة في هذا". تحفة المجيب علىٰ أسئلة الحاضر والغريب (ص ٢٣٧)، بتصرف يسير.

ومن آثار هذا التعقيد والتعسير: قلَّة المتفقهين في الدين، وتطلُّع الطلاب إلىٰ العلوم الدنيوية، وتركهم للعلوم الدينية؛ وهذه نتيجة طبيعية لفقه هذا شأنه، ولدين هذا رسمه، ولعلم هكذا يكون تعلُّمه.

فكتُب البشر هي أصعب من الكتاب والسنَّة في فهمها، وقد يكون فيها من الوعورة الشيء الكثير، والملل والسآمة، ولا تكاد تفهم كتابًا من كتب الرأي التي تسمَّىٰ بـ(بكتب الفقه) إلا بشقٍّ

الأنفس[٦١٨]، ولذلك تجد المتن قد شرحه شارح، فيأتي آخر فيضع حواشٍ علىٰ هذا الشرح، ثم توضع التقريرات علىٰ تلك الحواشي وهلمَّ جرًّا!!.

وممَّا ينبغي أن يذكر -هنا- ما قاله العلَّامة **بدر الدين الحلبي** رَحِمَهُ اللَّهُ حول الاعتناء بالمطوَّلات، وأنَّها أيسر للطالب المبتدئ من المختصرات، قال: "إنّ الكتب المختصرة مُضرّة بالتعليم وقاطعة عنه، وأنَّ الاشتغال بمبسوطات الكتب لابد منه في ابتداء التعليم.

وأنَّ المختصرات لا ينبغي أن يمسّها إلا من يريد أن يجعلها تذكرة يتذكَّر بها ما يعلِّمه، ولا ينبغي أن يمسَّها من يريد أن يتعلَّم منها ما يجهل، فإنَّها لا تفيدُ شيئًا". التعليم والإرشاد (ص ١٢٦).

فنجد أنّ أصحاب هذه الكتب يتشدَّدون في بعض المسائل، ممَّا يسبب عنتًا كبيرًا علىٰ الناس؛ قال **عمير بن إسحاق**: "لمن أدركتُ من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر ممن سبقني منهم، فما رأيتُ قومًا أيسرَ سيرةً، ولا أقلَّ تشديدًا منهم". **إسناده صحيح إليه**: أخرجه الدارمي (١٢٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٥٤٩).

يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنّ أكثر المتعمِّقين في العلم من المتأخِّرين يقترن بتعمُّقهم التكلُّف المذموم من المتكلِّمين والمتعبِّدين: وهو القول والعمل بلا علم وطلب ما لا يدرك. وأصحاب محمد ﷺ كانوا -مع أنَّهم أكمل الناس علمًا نافعًا وعملًا صالحًا- أقلُّ الناس تكلُّفًا، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدي الله بها أمَّة، وهذا من منِ الله علىٰ هذه الأمَّة.

وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلُّفات والشطحات ما هو من أعظم الفضول المبتدعة، والآراء المخترعة لم يكن لهم في ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقَّاة ممَّن ساء

---

(٦١٨) أذكر أنني كنت ضيفًا علىٰ أحد المشايخ الذين يشرحون كتب المذهب المالكي، وجرىٰ الحديث حول الفرق بين صحيح البخاري وكتب الحديث، وبين كتب المذاهب، فقال: والله إنَّ كتب الحديث لذيذة وسهلة، أمَّا كتب المذاهب فصعبة، ثمَّ قال لولده: ناولني جزءًا من هذا الكتاب، يعني: لكتاب أمامه من المطولات عند المالكية، وقال لنا: اقرؤوا من أيِّ مكان من هذا الكتاب، هل تفهمون شيئًا منه؟! فلم يفهم أحد الحاضرين شيئًا. فقال: هذا الفرق بين هذه الكتب وكتب السنَّة، انظر المقدمة فقد فصلت في الكلام علىٰ فضل كتب الحديث ووجوب العناية بها.

قصده في الدين". مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٣٨).

فظهر التكلُّف جليًا في فساد طريقة التأليف، والتعقيد في الأسلوب، وكان ذلك من أسباب الصدِّ عن العلم والتعلُّم.

هذا غير امتلاء هذه الكتب بالأحاديث الضعيفة بل الموضوعة، والاحتجاج بها، واستنباط الأحكام منها، مع إجماعهم علىٰ عدم جواز الأخذ بالضعيف في الأحكام، هذا غير تحريفهم للنصوص تعصُّبًا لمذاهبهم، وتقديمهم أقوال العلماء المتأخِّرين علىٰ أقوال الأئمَّة المتقدِّمين، وخوضهم في مسائل خيالية، وانشغالهم بالافتراضات السخيفة؛ ولذلك تجد الظُّلْمَة علىٰ هذه الكتب، فإنّ علىٰ الحق نورًا، وراحة وسرورًا، ولذةً وانشراحًا وحبورًا.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا ما يولِّده الفقهاء من المسائل التي لا تقع أو لا تكاد تقع إلا نادرًا، فكان (أي: الإمام أحمد) ينهىٰ كثيرًا عن الكلام فيها؛ لأنَّه قليل الفائدة، ويشغل عمَّا هو أهمُّ منه ممَّا يحتاج إلىٰ معرفته". الردُّ علىٰ من اتَّبع غير المذاهب الأربعة (ص ٤٨).

وقال **القاسم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّكم تسألون عن أشياء ما كنَّا نسأل عنها، وتنقِّرون (تتكلَّفون البحث) عن أشياء ما كنَّا ننقِّر عنها، وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي؟! ولو علمناها ما حلّ لنا أن نَكْتُمَكُمُوهَا". **صحيح**: أخرجه الدارمي (١٢٠).

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن أحالك علىٰ غير "أخبرنا" و"حدَّثنا" فقد أحالك: إمَّا علىٰ خيال صوفي، أو قياس فلسفي أو رأي نفسي، فليس بعد "القرآن" و"أخبرنا" و"حدَّثنا" إلا شبهات المتكلِّمين. وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين. ومن فارق الدليل ضلَّ عن سواء السبيل. ولا دليل إلىٰ الله والجنَّة سوىٰ الكتاب والسنَّة. وكلُّ طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنَّة فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم". مدارج السالكين (٢/ ٤٦٨).

ولذلك قال **عبد الله بن أحمد بن شبويه** رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت أبي يقول: "من أراد علم القبر فعليه بالأثر، ومن أراد علم الخبز فعليه بالرأي". شرف أصحاب الحديث (١٥٣).

وكان من جرَّاء ذلك ونتائجِه -غير صدّ الناس عن التعلُّم، وكراهية الكتب التي تسمَّىٰ بكتب الفقه- ما قاله **العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم يا أخي! أنَّ هذا الإعراض عن كتاب الله

وسنَّة رسوله ﷺ، واعتقاد الاستغناء عنهما بالمذاهب المدوَّنة الذي عمَّ جُلَّ مَن في المعمورة من المسلمين من أعظم المآسي والمصائب، والدواهي التي دهت المسلمين من مدَّة قرون عديدة.

ولا شكّ أنّ النتائج الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن الكتاب والسنَّة من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم -الآن- من تحكيم القوانين الوضعية المنافية لأصل الإسلام؛ لأنّ الكفار إنَّما اجتاحوهم بفصلهم عن دينهم بالغزو الفكري عن طريق الثقافة وإدخال الشبه والشكوك في دين الإسلام". أضواء البيان (٧/ ٣٧٨).

وكان من نتائج هذه الكتب التي عكف بعضهم عليها، حتىٰ أعجبوا بها: أن وصل بهم الأمر إلىٰ بغض كتب الحديث وأهله، وكرهوا ذكر الدليل والحجَّة، وشغفوا بأقوال الرجال.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر: ٣]: "فإنَّه سبحانه بتر شانئَ رسوله ﷺ من كلِّ خير ...، وهذا جزاء من شنأ بعضَ ما جاء به الرسول ﷺ وردَّه لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره أو كبيره.

وكذا من آثر كلام الناس وعلومهم علىٰ القرآن والسنَّة، فلولا أنَّه شانئ لما جاء به الرسول ﷺ ما فعل ذلك، حتىٰ إنَّ بعضهم لنسيَ القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان". مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ٥٢٦)، بتصرف.

ومن التعسير: دراسة المنطق والفلسفة ونحوها، واختيار الكلمات البعيدة عن مسامع الناس، وكلُّ ما فيه صعوبة في الفهم هو داخل في هذا الحديث، فالعلم قطرة كثَّرها الجهَّال، فمن الفقه أن توجز، وقد اخْتُصر للنبي ﷺ الكلام اختصارًا، ولذلك كان ﷺ يقول: «**قِصَر الخطبة مئنَّة من فقه الرجل**» رواه مسلم (٨٦٩)، والصحابة أقلُّ الناس كلامًا بعد نبيهم ﷺ، والأمر كما نقلنا عن شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: "وأصحاب محمد ﷺ كانوا -مع أنَّهم أكملُ الناسِ علمًا نافعًا وعملًا صالحًا- أقلَّ الناس تكلُّفًا يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف ما يهدي الله بها أمَّة ...". الفتاوىٰ (٤/ ١٣٨)، ومن بعدهم أكثر منهم كلاما، ومن بعدهم أكثر من هؤلاء، وهلمَّ جرًّا.

ومن التعسير -أيضًا- علىٰ المبتدئين من الناس في العلم والتعليم ذكر الأقوال الكثيرة في المسألة الواحدة، وذكر أدلة المختلفين واستدلالاتهم، ومناقشة كلِّ قول، والجواب عنه، وغير

ذلك، فلم يكن هذا من هدي السلف في عرض المسائل، فكثرة الكلام والاختلافات لم يكن من هديهم، إذ المهم عندهم هو الوصول للحق بأخصر عبارة، وأسهل طريق، فكان **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مثلًا يُسأل فيقول الذي يعلمه، ويذكر الدليل، وكذا **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما، وربَّما اقتصر أحدهم علىٰ ذكر الدليل دون أن يتكلَّم بكلمة من عنده.

وكذلك العلماء المعاصرون أهل الهدىٰ؛ كالألباني وابن باز وغيرهما، كانوا يذكرون الصواب والدليل، ولا يتعرَّضون للخلاف إلا نادرًا أو إشارة.

وبالجملة: فالخير كلُّه في اتباع من سلف، والشرُّ كلُّ الشرِّ في الخروج عن هديهم وطريقهم في العلم وغيره.

وقوله: **(وَبَشِّرُوا)**، من البشارة، وهي الإخبار بالخير، وكان ﷺ يعجبه الفأل الحسن؛ فالعبد إذا بشِّر تفاءل ونشط في أعمال الخير، وحصل له خير، وفي لفظ: «**عَلِّمُوا ويَسِّروا وَلَا تُعَسِروا وبشِّروا ولا تنفِّروا**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٥٥٦)، وهو في الصحيحة (١٣٧٥).

قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه (١٢/ ٤١): "وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمِّها إلىٰ التبشير"، وكثيرًا ما كان ﷺ يبشِّر أصحابه، كقوله: «**أبشروا وأمِّلوا خيرًا**». سيأتي برقم (٣١٥٨). و«**أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم**». متفق عليه.

فيه الأمر بالتبشير بفضل الله -تعالىٰ- وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته. **وفيه** تغليب الترغيب علىٰ الترهيب، وفي لفظ عند الصحيحين: «**وسكِّنوا**»، من التسكين ضدُّ التحريك والنفور، والمراد إدخال الطمأنينة والهدوء علىٰ النفوس.

وقوله: **(وَلَا تُنَفِّرُوا)**، بذكر التخويف وأنواع الوعيد، فلا تنفِّروا الناس عن الأعمال الصالحة بالشدَّة والغلظة: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]. **وفيه** النهي عن التنفير بذكر التخويف وحده، وفعل ما ينَفِّر من العلم.

ومن التنفير -أيضًا-؛ الذي نهينا عنه: أن يطيل الإمام بالجماعة أكثر ممَّا ورد في السنَّة، كما في قصَّة **معاذ بن جبل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وقول النبي ﷺ «**إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ**». متفق عليه. وقوله: «**أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ**». متفق عليه، وأيضًا في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد وهمَّ بعض الصحابة أن يقع به،

فقال لهم: (**إنَّما بعثتم ميسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين**) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وعَنْ **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَىٰ الْعُنْفِ**». متفق عليه، واللفظ لمسلم.

ومن الرفق في الدعوة، وعدم التنفير فيها ما قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطُّف ليقبل، **وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج؛ لأنَّ الشيء إذا كان في ابتدائه سهلًا حُبِّب إلىٰ من يدخل فيه وتلقَّاه بانبساط وكانت عاقبته غالبًا الازدياد بخلاف ضدِّه**". الفتح (١/ ١٦٣).

ومن ذلك ما قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**فيه** تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليهم، وكذلك من قارب البلوغ من الصبيان ومن بلغ ومن تاب من المعاصي، كلُّهم يتلطَّف بهم ويدرَّجون في أنواع الطاعة قليلًا قليلًا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف علىٰ التدريج، فمتىٰ يُسِّر علىٰ الداخل في الطاعة، أو المريد للدخول فيها سهلت عليه، وكانت عاقبته غالبًا التزايد منها، ومتىٰ عسرت عليه أوشك ألَّا يدخل فيها وإن دخل أوشك أن لا يدوم أو لا يستحليها.

وفيه أمر الولاة بالرفق واتفاق المتشاركين في ولاية ونحوها وهذا من المهمَّات؛ فإنّ غالب المصالح لا يتمُّ إلا بالاتفاق، ومتىٰ حصل الاختلاف فات. **وفيه** وصية الإمام الولاة وإن كانوا أهل فضل وصلاح، كمعاذ وأبي موسىٰ فإنَّ الذكرىٰ تنفع المؤمنين". شرح مسلم (١٢/ ٤١).

ومن التنفير في علم الأصول: ما ذكره **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "أطلقوا **فنّ الأصول** علىٰ مسائل لا يحتاج إليها العبد في أمر دينه أصلًا ولا فرعًا، **فإنَّه ليس من الأصول ولا من لغة العرب تقسيم العلم إلىٰ التصوُّر والتصديق**، وكلُّ واحد إلىٰ كسبي وبديهي، ولا عرف حبر الأمَّة وترجمان القرآن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ الحد حقيقي ورسمي ولفظي، ولا الذاتيات، واللوازم، والماهية، والكليات الخمس، ولا العرض اللازم والمفارق ... **وهذه الأمور صارت كالضروريات عند من أراد معرفة كتب الأصول، والأمر أقرب من هذا، وقد يكون من أضرّ المضار معرفته، فأحقر أحواله أن يكون من اللغو**، نعوذ بالله من ذَرَبِ اللسان[٦١٩]، **ومعلومٌ أنَّه لا يعني الإنسان الاشتغال**

---

(٦١٩) **تتمة كلامه**: "ولا عرف القضية أنَّها تسمَّىٰ في البرهان مقدِّمات، ولا الكلية، والجزئية، والمحمول والموضوع، والرابطة، والشخصية، والطبيعية، والمهملة، والخارجية، والذهنية، والمعدولة، واللزومية،

باسم المشترك إذا أطلق علىٰ معنييه، هل هو من قسم الحقيقة أم المجاز؟ وأيُّ فائدة تترتَّب علىٰ هذا في الدين؟!". مزالق الأصوليين (ص ٩٤).

قال العلامة **أبو شامة المقدسي** (توفي: ٦٦٥): "وعلم الأصول منقسم إلىٰ ما يسمَّىٰ أصولَ الدِّين، وإلىٰ ما يُسمَّىٰ أصولَ الفقه، وقد أُلْحِق بكلٍّ واحدٍ من العِلْمَينِ **أشياءُ كثيرة، وأبحاث عسيرة من عِلم الكلام، وشُبَهِ أهل الجدالِ والخصامِ**، والأَولىٰ بمن صحَّ إيمانُهُ، ووضح برهانه، ألَّا يضيع فيها زمانَهُ، وقد دسَّ فيهما بعضُ من انتهض، أو كان في قلبه مرض، من علومِ الأوائل المنكرة، أمورًا ضارَّةً مستنكرة، حتىٰ صار المشتغلُ بتلك العلوم، يتستَّرُ باسم الأصول وهو ملوم". خطبة الكتاب المؤمَّل للردِّ إلىٰ الأمر الأوَّل (ص ٣٤، ط: أضواء السلف).

ومن ذلك إدخال المنطق والفلسفة في المدارس، والمعاهد، والجامعات الشرعية، قال الحافظ **الذهبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن فتاويه: -يعني: ابن الصلاح: أنَّه سُئل عمَّن يشتغل بالمنطق والفلسفة، **فأجاب**: "الفلسفة أسُّ السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيَّدة بالبراهين، ومن تلبَّس بها قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأظلم قلبه عن نبوة محمد ﷺ ...، إلىٰ أن قال:

واستعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية -ولله الحمد- افتقار إلىٰ المنطق أصلًا، هو قعاقع قد أغنىٰ الله عنها كلَّ صحيح الذهن، فالواجب علىٰ السلطان -أعزَّه الله- أن يدفع عن المسلمين شرَّ هؤلاء المشائيم، ويخرجهم من المدارس ويبعدهم". سير النبلاء (٢٣/ ١٤٣).

والاتفاقية ...

وأرسل رسولُ الله ﷺ معاذًا إلىٰ اليمن ولم يُعرِّفه أنّ عكس النقيض تبديل يقتضي الطرفين، ولا عرَّفه العكس المستوي، وأنّ الجزئية لا تنعكس أصلًا.

ومعلومٌ أنَّه لا يعني الإنسان الاشتغال باسم المشترك إذا أطلق علىٰ معنييه، هل هو من قسم الحقيقة..". مزالق الأصوليين (ص ٩٤)".

١٢ - بَابُ مَنْ جَعَلَ لِأَهْلِ العِلْمِ أَيَّامًا مَعْلُومَةً

قوله: (بَابُ مَنْ جَعَلَ لِأَهْلِ العِلْمِ أَيَّامًا مَعْلُومَةً)، المقصود من هذا الباب: أنَّه لا بأس من جعلِ العالم بعضَ الأيام ليعِظ فيها الناس، أو يعلِّم فيها الطلاب. فتخصيصُ يوم وتعيينه -بقدر الحاجة والمصلحة- لهذا؛ ممَّا لا حرج فيه -إن شاء الله-تعالىٰ-.

٧٠- حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: كَانَ عَبْدُاللهِ رضي الله عنه- يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ! لَوَدِدْتُ (أحببت) أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يَوْمٍ. قَالَ: "أَمَا إِنَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ (أتعاهدكم) بِالْمَوْعِظَةِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِهَا، مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا". (٦٢٠)

تقدَّم في: (العلم ٦٨).

الشرح

قوله: (عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: كَانَ عَبْدُ اللهِ يُذَكِّرُ النَّاسَ فِي كُلِّ خَمِيسٍ ...)، وفي رواية قال: "كنا ننتظر عبدَ الله إذ جاء يزيد بن معاوية، فقلنا: ألا تجلس؟ قال: لا، ولكن أدخل فأُخرِج إليكم صاحبكم وإلا جئتُ أنا فجلستُ، فخرج عبد الله وهو آخذ بيده، فقام علينا فقال: أما إني أَخبرُ بمكانكم؛ ولكنَّه يمنعني من الخروج إليكم: أنَّ رسول الله ﷺ كان يتخوَّلنا بالموعظة في الأيام، كراهية السآمة علينا". متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

فيه بيان ما كان عليه الصحابة من الاقتداء بفعله ﷺ، والمحافظة علىٰ استعمال سننه، وأنَّ العلم والتعليم يسير فيه العالم بسيرة النبي ﷺ؛ فلا يحدث شيئًا فيه بغير دليل، ولا يرجع في ذلك إلىٰ ذوقه وعقله ورغبته ورغبات الناس، ولا يحدثُ أسلوبًا وطريقة غير طريقة النبي ﷺ وهديه.

وفيه التخفيف علىٰ الناس بجعل بعض الأيام للتعليم، والتيسيرُ عليهم والرفقُ بهم؛ اقتداء بالنبي ﷺ في الرفق بأمَّته؛ ليأخذوا العلم والعمل بنشاط وحرص عليهما، وقد وصفه الله -تعالىٰ- بهذه

---

(٦٢٠) وأخرجه مسلم (٢٨٢١)، والترمذي (٢٨٥٥)، والنسائي في السنن الكبرىٰ (٥٨٥٨).

الصفة؛ فقال: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وفيه أنَّه لا بأس للواعظ أن يجعل للناس يومًا معينًا معلومًا يذكِّر فيه الناس؛ ولا يُعدُّ هذا من البدع، وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ جعل للنساء يومًا، يذكِّرهن فيه؛ فَعَنْ **أَبِي سَعِيدٍ** رضي الله عنه- قال: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، فَقَالَ: «**اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا**»، فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوِ اثْنَيْنِ؟ قَالَ: فَأَعَادَتْهَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ**». متفق عليه، ولا بأس بتخصيص النساء بيوم لتعليمهنَّ بعض أحكامهنَّ، وعدم إهمال تدريسهنَّ؛ فإنهنَّ شقائق الرجال؛ كما ورد بذلك الحديث، ويجب عليهنَّ ما يجب علىٰ الرجال، وطلبُ العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة، وقد ترجم البخاري له: (باب تعليم النبي ﷺ أمَّته من الرجال والنساء ممَّا علَّمه اللهُ ليس برأي ولا تمثيل)[٦٢١].

أي: علَّمهم الكتاب والسنَّة، ولم يعلِّمهم الرأي ولا القياس؛ لذلك قال **المهلَّب** رحمه الله: "**فيه من الفقه**: أنَّ العالم إذا أمكنه أن يحدِّث بالنصوص عن الله ورسوله ﷺ؛ فلا يحدِّث بنظره ولا قياسه". شرح ابن بطَّال (١٠/ ٣٥٧).

تنبيه:

لا يستدلُّ بهذا الحديث علىٰ الاكتفاء بدرس علمي واحد كلَّ أسبوع؛ كما يفعله بعض طلاب العلم، فهذا خطأ ظاهر؛ لأنَّه -عليه الصلاة والسلام- كان يعلِّمُ الناسَ الحلال والحرام كلَّ يوم؛ بل كانوا يتناوبون النزول عليه ﷺ؛ كما قال **عُمَرُ** رضي الله عنه-: "وكان لي جارٌ من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلىٰ رسول الله ﷺ فينزل يوما وأنزل يوما فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وأنزل فآتيه بمثل ذلك". **متفق عليه**؛ وهذا لفظ ابن حبان، وانظر: التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان (٦/ ٣١٨).

وعن **عقبة بن عامر الجهني** رضي الله عنه- قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فكنا نتناوب الرَّعْيَة، فلما كانت نوبتي سرَّحت إبلي، ثمَّ رجعت فجئت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس

---

(٦٢١) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب رقم (١٠)، برقم (٧٣١٠).

فسمعته يقول: «**ما من مسلم يتوضَّأ فيسبغ الوضوء، ثمَّ يقوم في صلاته فيعلم ما يقول إلا انفتل كيوم ولدته أمُّه من الخطايا ليس عليه ذنب** ...». أخرجه مسلم (٢٣٤)، والحاكم (٣٥٠٨)؛ واللفظ له، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٠، ٣٩٥، ٥٤٦).

فلم يكن ﷺ يترك تعليمهم دينهم، بل كان يعلِّمهم في كلِّ مناسبة، وكلِّ يوم، سفرًا وحضرًا؛ وهذا بخلاف الموعظة والتذكير.

وعلىٰ كلِّ حال: فالأمر يُرجع فيه إلىٰ تقدير المصلحة والحاجة، وإن كان **الأصل في التعليم**: المواظبة والكثرة؛ إلا إن اقتضت المصلحة غير ذلك، و**الأصل في الوعظ والتذكير**: أنَّه يتخوَّلهم بالموعظة؛ كما في الحديث؛ لأنَّ الوعظ كالملح للطعام، فإن كثر حصلت السآمة ولابدَّ، كما بيَّنَّا ذلك من قبل.

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يستفاد من الحديث استحباب ترك المداومة في الجدِّ في العمل الصالح؛ خشية الْمَلَالِ، وإن كانت المواظبة مطلوبة، لكنها علىٰ قسمين: **إمَّا** كلَّ يوم مع عدم التكلُّف، **وإمَّا** يومًا بعد يوم؛ فيكون يوم الترك من أجل الراحة؛ ليقبل علىٰ الثاني بنشاط، وإمَّا يومًا في الجمعة -أي: الأسبوع، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص؛ و**الضابط**: الحاجة مع مراعاة وجود النشاط". الفتح (١/ ١٦٣).

وما ذكره الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ قد سبق عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه قال: "حَدِّث الناس كلَّ جمعة مرَّة، فإن أبيت فمرَّتين، فإن أكثرت فثلاث مرَّات، ولا تُمِلَّ الناس هذا القرآن، ولا أُلْفِينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقُصُّ عليهم؛ فتقطعُ عليهم حديثَهم؛ فتُمِلَّهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك؛ فحدِّثهم وهم يشتهونه ...". سيأتي برقم (٦٣٣٧).

وقد تقدَّم شرح هذا الحديث قريبًا[٦٢٢]، ولله الحمد.

---

(٦٢٢) برقم (٦٨).

١٣ - بَابٌ مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ

قوله: **(بَابٌ مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)**: ترجم البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الترجمة وهي جزء من الحديث، وقد سبق الكلام علىٰ هذه الجملة من الحديث تحت باب (١٠): العلم قبل القول والعمل، وسيأتي المزيد من الكلام عليه في هذا الباب وغيره.

٧١- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يُونُسَ (بن يزيد الأيلي)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: قَالَ[٦٢٣] حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ: **سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ**[٦٢٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، **خَطِيبًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ** ﷺ **يَقُولُ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي، وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ قَائِمَةً عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»**[٦٢٥].

أطرافه في: (فرض الخمس٣١١٦، مناقب٣٦٤١، الاعتصام٧٣١٢، التوحيد٧٤٦٠).

الشرح

قوله: **(سمعتُ مُعَاوِيَةَ خَطِيبًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ)**، **فيه** جواز التحديث علىٰ المنبر. **وفيه** حرص معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - علىٰ نشر العلم؛ لأنَّ نشره علىٰ المنبر أعمُّ وأوسع وأسمع، **وفيه** اهتمام الولاة بتبليغ الناس العلم من الكتاب والسنَّة.

وقوله: **(مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا)**، **فيه** إثبات الإرادة لله علىٰ ما يليق بجلاله، وهو مذهب أهل السنة.

وقوله: **(يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)**، أي: يفهّمه فيه، قال -تعالىٰ-: ﴿**يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ [طه: ٢٨]؛ أي: يفهمونه، ثم خُصَّ به **علم الشريعة**، والعالمُ به يسمىٰ: **فقيهًا**.

---

(٦٢٣) يمكن أن يقال: إنَّ البخاري لم يصرِّح بالتحديث -مع أنَّ الأئمة اتفقوا علىٰ تحديث ابن شهاب عن حميد-؛ لأجل شهرة تحديث ابن شهاب عنه بهذا.

(٦٢٤) ابن أبي سفيان، كاتب الوحي، أسلم عام الفتح، وعاش ثمانيًا وسبعين سنة، ومات سنة ستين في رجب، ومناقبه جمَّة، وهو أول ملك في الإسلام، روي له عن رسول الله ﷺ مائة وثلاثة وستون حديثًا.

(٦٢٥) وأخرجه مسلم (١٠٣٧)، وابن ماجه (٢٢١).

و**الفقه في الدِّين**: هو علامة السعادة، وهو العلم الذي يُكسِب صاحبه خشية الله، ويُورثه تعظيم حرمات الله ومراقبته، ويدفعه إلىٰ أداءِ فرائضِ الله، وإلىٰ تركِ محارمه، وإلىٰ الدعوة إلىٰ الله -عزَّ وجلَّ-، وبيانِ شرعِه لعباده.

و(**الدِّينِ**): هو ما بعثَ الله به رسولَه ﷺ؛ وهو ما يجب علىٰ المرء التصديقُ به من العقيدةِ والتوحيد والعمل به، وعلىٰ كلِّ أحد أن يُصَدِّقَ محمدًا ﷺ فيما أخبر به، ويطيعَه فيما أمر، تصديقًا عامًّا، وطاعة عامَّة؛ قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الفقه في الدين: فهم معاني الأمر والنهي؛ ليستبصر الإنسان في دينه، ألا ترىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿**لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢]، فقرن الإنذار بالفقه؛ فدل علىٰ أنَّ **الفقه**: ما وزع (منع) عن محرم أو دعا إلىٰ واجب؛ وخوف النفوس مواقعه المحظورة، لا ما هوَّن عليها استحلال المحارم بأدنىٰ الحيل". الفتاوىٰ الكبرىٰ (٦/ ١٧١).

وسبق الكلام علىٰ ذلك في حديث جبريل[٦٢٦] -عليه السلام- في قولِه: «**يعلِّمكم دينكم**»، وأيضًا: عند قول المصنف: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[٦٢٧] [المائدة: ٣].

فيكونُ **التفقُّه في الدين كلِّه** -يعني: في كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، وفي سنَّة رسوله ﷺ-: هو **التفقُّه** في الإسلام كلِّه؛ بمعرفة العقيدة والتوحيد والأحكام الشرعية والأخلاق والآداب المرعية بأدلَّتها التي أمرنا الله بها، وما نهانا عنه -سبحانه وتعالىٰ-، وبما يجب علىٰ العبد من حقِّ الله وحقِّ عباده، وفهم ذلك والعمل به.

قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وفي الحديث**: دليل ظاهر علىٰ شرف الفقه في الدين والمتفقِّهين فيه علىٰ سائر العلوم والعلماء؛ **والمراد به معرفة الكتاب والسنَّة**". سبل السلام (٢/ ٦٨٨).

وممَّا يؤكِّد أنَّ **الفقه والتفقُّه** لا يكون إلا في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، لا في آراء الرجال وكتب الرأي؛ ما قاله الإمام **الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "علامة من أراد الله به خيرًا: سلوك هذا الطريق، كتاب الله، وسنن رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه ومن تبعهم بإحسان -رحمة الله تعالىٰ عليهم-

---

(٦٢٦) كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ...، باب رقم (٣٧)، حديث رقم (٥٠).

(٦٢٧) كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، باب رقم (٣٣).

وما كان عليه أئمَّة المسلمين في كل بلد إلىٰ آخر ما كان من العلماء مثل الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلَّام، ومن كان علىٰ مثل طريقتهم". الشريعة (١/ ١٢٤).

وقال العلَّامة **الفلَّاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأنَّ اسم **الفقيه** عند السلف إنَّما يقع علىٰ من علم الكتاب والسنَّة وآثار الصحابة ومن بعدهم من علماء الأمَّة، وأمَّا من اشتغل بآراء الرجال واتَّخذه دينًا ومذهبًا، ونبذ كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وقضايا الصحابة والتابعين وآثارهم من ورائه؛ فلا يطلق عليه اسم الفقيه؛ بل هو باسم الهوىٰ والعصبية أولىٰ وأحرىٰ". إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ١٤٠، طبعة دار البخاري).

وقال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان **الفقهاء** في قديم الزمان هم أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتىٰ قال المتأخِّرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن وأن نعتمد علىٰ الكتب المشهورة في الحديث، كـ "سنن أبي داود" ونحوها، ثمَّ استهانوا بهذا الأمر أيضًا وصار أحدهم يحتجُّ بآية لا يعرف معناها؛ وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا؟ وربَّما اعتمد علىٰ قياس يعارضه حديث صحيح، ولا يعلم لقلَّة التفاته إلىٰ معرفة النقل، وإنَّما **الفقه**: استخراج من الكتاب والسنَّة". تلبيس إبليس (ص ١٠٣، ط: دار الفكر).

والتفقُّه -أيضًا-: يورث خشية الله[٦٢٨] وتعظيمه ومراقبته، فإنَّه رأس العلم؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي الحديث: «**إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ**». متفق عليه، وقال **الحسن البصري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّما الفقيه الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم علىٰ عبادة ربه (الذي لا يهمز من فوقه، ولا يسخر بمن دونه، ولا يبتغىٰ علىٰ علم علَّمه الله -تعالىٰ- أجرًا)". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥١٨٨) وما بين القوسين زاده الآجري في أخلاق

---

(٦٢٨) وأهل الحديث من الأئمَّة المعاصرين: كالألباني، وابن باز، وابن عثيمين، ونحوهم؛ هم الراسخون في العلم، وهم **أهل الخشية والإنابة**، وهم الربانيون العاملون، المصلحون، وهم أعلم الناس بجميع الفقهيات: (فقه الكتاب - فقه السنة - فقه اللغة - فقه الواقع - فقه السنن الشرعية والكونية - فقه الخلاف ...إلخ)، وهم أهل الفهم والاجتهاد في الشريعة، وأصحاب تمرس فيه، وخبرة طويلة، وبعد نظر، وبصيرة ودراية، وإلهام وتوفيق وهداية.

العلماء (٧٤).

فالفقه لا يعطيه الله لكلّ أحد؛ بل هو اصطفاء منه -سبحانه- وتوفيق، يدلُّ علىٰ ذلك قول النبي ﷺ في حديث **ابن عباس** رضي الله عنهما: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**». سيأتي برقم (١٤٣). وقول **علي** رضي الله عنه-: "إلا فهمًا يُعطىٰ رجل في كتابه". سيأتي برقم (٦٩٠٣)؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾ [الأنبياء: ٧٩].

فمن أراد الله به شرًّا تركه وجهْله، وأبعده عن هداه، وخلَّىٰ بينه وبين نفسه والشيطان يعبثان به، ويتخبَّط خبط عشواء في ضلاله وغيِّه، لأنَّ مفهوم هذا الحديث: أنَّ من لم يتفقَّه في الدِّين فقد حُرِم الخير، ولم يرد الله به خيرًا؛ قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: "وكلُّ من أراد الله به خيرًا لا بدَّ أن يفقِّهه في الدين، فمن لم يفقِّهه في الدين؛ لم يرد الله به خيرًا". مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٨٠).

ومن أقبل علىٰ الكتب، وأقوال الرجال، وأعرض عن تعلُّم الكتاب والسنة والتفقُّه فيهما فهو بعيد عن الفقه في الدين، ولم يرد الله به خيراً، وقال العلَّامة **ابن باز** رحمه الله: "فمن أعرض عن هذين الأصلين (يعني: الكتاب والسنة) وغفل عنهما؛ فذلك دليل وعلامة علىٰ أنَّ الله -سبحانه- لم يرد به خيرًا؛ وذلك علامة الهلاك والدمار، وعلامة فساد القلب وانحرافه عن الهدىٰ". مجموع فتاوىٰ ابن باز (٩/ ١٢٩- ١٣٠).

وقد نعىٰ الله علىٰ المشركين أنَّهم: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ**﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال قوم **شعيب**-عليه السلام-: ﴿**يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ**﴾ [هود: ٩١]، فقلَّة الفقه كما أنَّها في المشركين: فهي أيضًا من صفات المنافقين، كما قال -تعالىٰ-: ﴿**صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقوله: ﴿**وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [التوبة: ٨٧].

فالفقه في الدِّين: علامة من علامات الإيمان، واتباع لسبيل المؤمنين؛ قال **ابن القيم** رحمه الله: "فإنَّ حُسن السمت والفقهَ في الدِّين من أخصِّ علامات الإيمان، ولن يجمعهما الله في منافق؛ فإنَّ النفاق ينافيهما وينافيانه". مفتاح دار السعادة (١/ ٧٥)، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خَصْلَتَانِ لا تجتمعانِ في منافق: حُسْن سَمْتٍ، وفقه في الدِّين**». حسن: أخرجه الترمذي (١٩٦٢)، وهو في الصحيحة (٢٧٨)، قال **ابن القيم** رحمه الله: "... فجعل الفقه في الدين منافيًا للنفاق، بل لم يكن

السلف يطلقون اسم الفقه إلا علىٰ العلم الذي يصحبه العمل ...، كما سبق من كلام **الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ.

قالوا: فهذا القرآن والسنَّة، وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين، يدلُّ علىٰ أنَّ العلم والمعرفة مستلزم للهداية، وإنَّ عدم الهداية دليل علىٰ الجهل وعدم العلم". مفتاح دار السعادة (١/ ٨٩)، بتصرف يسير.

وفيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الفقه هو فقه الكتاب والسنَّة، وهو فقه أصحاب الحديث؛ حيث جمع ﷺ بين صفات أهل الحديث والأثر؛ وهم الفرقة الناجية، وبين قوله: «**من يرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدين**»، في حديث واحد.

وفيه فضل التفقُّه في نصوص الكتاب والسنَّة وفهم معانيهما؛ فلذلك حثَّ النبيُّ ﷺ علىٰ التفقُّه في الدِّين، وأخبر أنَّ خير الناس من فقه في الدِّين: «**النَّاسُ مَعَادِنُ: خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهم فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**». متفق عليه.

قال **الخطيب البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والواجب علىٰ من خصَّه الله تعالىٰ بهذه المرتبة، وبلَّغه إلىٰ هذه المنزلة، أن يبذل مجهوده في تتبُّع آثار رسول الله ﷺ وسنَّته، وطلبها من مظانِّها، وحملها عن أهلها، والتفقُّه بها والنظر في أحكامها، والبحث عن معانيها والتأدُّب بآدابها". الكفاية (ص ٥).

ولذلك قال **وكيع** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يا فتيان **تفهَّموا فقه الحديث**، فإنَّكم إن تفهَّمتم فقه الحديث لم يقهركم أهل الرأي". **إسناده صحيح**: أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٧٨٨)، وهو في "نصيحة أهل الحديث" (ص٤١).

فالحكمة والبصيرة، والفهم، والاستنباط، وقياس الشبيه بشبيهه، والنظير بنظيره، وربط النصوص بواقع الناس، والنظر إلىٰ المصالح والمفاسد، وروح الشرع ومقاصده، ومآلات الأمور وعواقبها، والمصالح المرسلة وسدِّ الذرائع، وحمل المتشابه علىٰ المحكم من النصوص وغير ذلك؛ كلُّ هذا من **الفقه** المأخوذ من الوحيين تأصيلًا وتقعيدًا وتطبيقًا وتنزيلًا.

وفيه فضل علماء الكتاب والسنَّة وآثار الصحابة والسلف علىٰ سائر الناس، وأنَّ العلم

يؤخذ منهم، ولا يؤخذ من المثقَّفين والقصاصين والمفكرين -ونحوهم-[٦٢٩]، ولا من متعصِّبي المذاهب، قال **ابن رجب** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: "... قد فتن كثير من المتأخِّرين بهذا فظنُّوا أنَّ من كثر كلامه وجداله وخِصامه في مسائل الدِّين فهو أعلم ممَّن ليس كذلك؛ وهذا جهل محض، وانظر إلىٰ أكابر الصحابة وعلمائهم: كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد ابن ثابت كيف كانوا! كلامهم أقلّ من كلام ابن عباس وهم أعلم منه ...، وكذلك كلام أتباع

---

(٦٢٩) انتشر بين الناس: كتب الفكر، والمفكر الإسلامي، والمفكرون، ولا يوجد في الإسلام مثل هذه العبارات، ولا هذه الألقاب؛ لأنَّ الناس ثلاثة: إمَّا عالم رباني، أو متعلِّم علىٰ سبيل النجاة، أو رعاع أتباع كل ناعق؛ كما قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلا يؤخذ العلم إلا عن أهله الذين هم أهله حقًا، ولا يؤخذ من الصحفيين ولا المثقَّفين ولا الحركيين ولا المفكِّرين، ولا يؤخذ من فاسق ولا منافق؛ وإن كان فصيحًا، عليمَ اللسان، متفيهقًا، حافظًا لكلام أهل العلم، بل حافظًا للنصوص؛ ففي الحديث: «**كل منافق عليم اللسان**» ...

وقد سئل **سماحة شيخنا ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ: "بعض الناس يعتمد علىٰ الكتب الفكرية والثقافية، ويقرأ منها ثمَّ بعد ذلك يظنّ أنَّه عالم وداعية مع أنَّه ضعيف في الفقه والدين ...؟

فأجاب: العلم قال الله وقال رسوله وليس قال فلان وفلان ...، بعد ذلك قول أهل العلم بما يفسِّرونه ويوضِّحونه للناس، وأهل العلم هم خلفاء الله في عباده بعد الرسل، قال -جلَّ وعلا-: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ [آل عمران: ١٨]، و**العلم** هو: العلم بالله وبدينه، قال -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]؛ وهم الرسل وأتباعهم أهل البصائر..، أهل القرآن والسنَّة ...، ولا يكون طالب العلم من أهل العلم إلا بتدبُّر وتعلُّم كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ والأخذ من علماء السنَّة؛ هذا **هو طريق العلم**: أن يقبِل علىٰ الطاعات والتدبُّر ... والاستفادة ...، ويطالع ما أشكل عليه في كتب التفسير المعتمدة، "كـ(تفسير ابن كثير)، و(البغوي) ونحوهما ...، ويعتني بكتب الحديث الشريف، ويأخذ العلم عن علماء أهل السنة والجماعة من أهل البصيرة، لا من علماء الكلام، ولا من علماء البدع، ولا من الجهلة، فالعلم الذي ليس من كتاب الله وسنَّة رسوله لا يسمَّىٰ علمًا؛ بل يسمَّىٰ جهلًا وإن كان علمًا نافعًا في الدنيا؛ لكن المقصود: الذي ينفع في الآخرة، وينقذ من الجهالة، ويتبصَّر به الإنسان في الدين ويعرف ما أوجب الله عليه، وما حرَّم عليه هذا هو **العلم الشرعي**". مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة (٩/ ٢٣٥-٢٣٦).

قلت: فالناس لم يعودوا يميِّزون بين الصحيح والسقيم، وبين الغثِّ والسمين، ولكنهم يُعجبون بكلِّ غريب، أو طرفة، أو قصَّة، أو كلِّ مؤثر من الحديث والكلام؛ ولو كان من أضعف الحديث وأوهاه، وأبعده من الصواب وأرداه.

التابعين: كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم.

وقد كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا؛ ولهذا ورد النهي عن كثرة الكلام والتوسُّع في القيل والقال ...، فيجب أن يعتقد أنَّه ليس كلُّ من كثر بسطه للقول وكلامه في العلم كان أعلم ممَّن ليس كذلك.

وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسَّع في القول من المتأخِّرين أنَّه أعلم ممَّن تقدَّم، فمنهم من يظنُّ في شخص أنَّه أعلم مِن كلِّ من تقدَّم من الفقهاء المشهورين المتبوعين، فإذا كان مَن بعدهم أعلمَ منهم لاتساع قوله؛ كان أعلمَ ممَّن كان أقلَّ منهم قولًا بطريق الأولىٰ؛ كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقتهم، وممَّن قبلهم من التابعين والصحابة -أيضًا-.

فإنّ هؤلاء كلَّهم أقلُّ كلامًا ممَّن جاء بعدهم؛ وهذا انتقاص عظيم للسلف الصالح، وإساءةُ ظنٍّ بهم، ونسبَتهُ لهم إلىٰ الجهل وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ ولقد صدق **ابن مسعود** رضي الله عنه-: "إنَّكم في زمان كثير علماؤه قليلٌ خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه (فقهاؤه) كثير خطباؤه". أخرجه الحاكم (٨٤٨٧)، وهو في الصحيحة (٢٥١٠)؛ فمن كثر علمه وقلَّ قوله؛ فهو الممدوح، ومن كان بالعكس؛ فهو مذموم.

وقد شهد النبي ﷺ لأهل اليمن بالإيمان والفقه، وأهل اليمن أقلُّ الناس كلامًا وتوسُّعًا في العلوم؛ لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك؛ وهذا هو الفقه والعلم النافع". فضل علم السلف علىٰ علم الخلف (ص ٥٣- ٥٨).

قال الذهبي: "**وكانوا يعيبون علىٰ الرواة الذين يحفظون وينقلون دون تفقُّه**[٦٣٠]". السير

---

(٦٣٠) فهذا -مثلاً- ابن خلَّاد أبوبكر أحمد بن يوسف النصيبي (ت٣٥٩)، قال عنه الخطيب: **كان لا يعرف شيئا من العلم، غير أنَّ سماعه صحيح**، وقد سأل أبا الحسن الدارقطني فقال: أيُّما أكبر الصاع أو المدُّ؟ فقال للطلبة: انظروا إلىٰ شيخكم، وقال **أبونعيم**: كان ثقة. وكذا وثَّقه أبو الفتح بن أبي الفوارس، وقال: **لم يكن يعرف من الحديث شيئًا**.

قلت: فمن هذا الوقت -بل وقبله- صار الحفَّاظ يطلقون هذه اللفظة علىٰ الشيخ الذي سماعه صحيح بقراءة متقن، وإثبات عدل، وترخَّصوا في تسميته بالثقة، وإنَّما الثقة في عرف أئمّة النقد كانت تطلق علىٰ العدل في نفسه، المتقن لما حمله، الضابط لما نقل، ويكون له مع ذلك فهم ومعرفة بالفن، فتوسَّع المتأخرون في

(١٦/ ٦٩، ط: الرسالة).

وفقه الحديث ومعرفة الصواب في معناه من الأمور المهمَّة، فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال؛ ولكنَّه نور يقذف في القلب، يفهم به العبد الحقَّ، ويميِّز به بينه وبين الباطل، ويعبِّر عن ذلك بعبارات وجيزة محصِّلة للمقاصد، وليحرص علىٰ فقهه بفهم السلف، وفقه السنَّة بالسنَّة والأثر.

قال **الخطيب البغدادي**: "وإذا روىٰ المحدِّثُ حديثًا فيه كلام غريب فسَّره أو معنىٰ غامض بيَّنه وأظهره".

وقال **عبد الرحمن بن مهدي**: لو استقبلت من أمري ما استدبرت لكتبت بجنب كلِّ حديث تفسيره". الجامع للخطيب (١٣٣٠).

وقال **أبوأسامة**: "تفسير الحديث خير من سماعه". الجامع للخطيب (١٣٣١).

وعن أبي معمر قال: كنَّا إذا سمعنا من **عبدالله** شيئًا نكرهه سكتنا حتىٰ يفسِّره لنا.

فقال لنا **عبدالله** ذات يوم: إنَّ السُّقم لا يكتب لصاحبه أجر، فساءنا ذلك، وكبُر علينا، قال: "ولكن يكفّر به الخطايا". الجامع للخطيب (١٣٣٢).

وينبغي أن يكون فقه الحديث مبنيًّا علىٰ الأثر، علىٰ طريقة أهل الحديث، لا الرأي، والقيل والقال، قال إبراهيم الحربي: قيل لأحمد في الحديث ما لا ندري أيش معناه، قال: نعم كثير، ومن يتعاطىٰ معنىٰ ذلك يخطئ كثيرا إلا بأثر. أخرجه الخطيب في كتابه الجامع (١٣٣٧).

وفيه ردٌّ علىٰ أصحاب فقه الواقع؛ قال العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ ما ملخَّصهُ-: "فإنّ الفقه في الدِّين خير من الفقه في الواقع، وأمَّا معرفة الواقع وأحوال الناس؛ فهو وسيلة إلىٰ معرفة ما يناسبه من الأحكام، وليس هو الغاية؛ إنَّما الغاية هي الفقه في الدين". جلسات رمضانية للعثيمين (٢٢/ ١١ بترقيم الشاملة آليًا)، بتصرف وتلخيص.

وفيه الحثّ علىٰ الفقه في الدِّين عمومًا، وجميع أبواب الدين، وليس في الأحكام فحسب، فبعض الناس حصر الفقه المذكور في الحديث في مسائل الأحكام، ولم ينتبهوا إلىٰ أنَّ المراد

إطلاقها.

التفقُّه في النصوص كلِّها، سواء كانت في العقائد أو في الأحكام أو الآداب أو غيرها، وقد سبق أن أشرنا إلىٰ ذلك.

وفي معنىٰ التفقُّه في الدين: أن يكون الفهم في النصوص بالرجوع إلىٰ العلماء، ولو اعتمد الطالب علىٰ فهمه للدين دون الرجوع إلىٰ العلماء؛ ضلَّ وأضلَّ، ولذلك فإنَّ رفعَ العلم بموت العلماء؛ كما قال ﷺ في لفظ: «**ذهابه بذهاب أوعيته**». **صحيح**: علىٰ شرط مسلم؛ قاله شعيب الأرنؤوط في تخريج مشكل الآثار (٣٠٣). وكذا ترك العمل بالعلم.

ولـمَّا حدَّث النبي ﷺ بحديث: «**هذا أوان رفع العلم**»، قال رجل من الأنصار -يقال له: زياد بن لبيد-: "يا رسول اللهِ! يرفع العلم وقد أُثبِت، ووعته القلوب؟!".

وفي لفظ: "وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، ويقرئه أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟!". فقال له رسول الله ﷺ: «**إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة!**»، ثمَّ ذكر له ضلالة اليهود، والنصارىٰ علىٰ ما في أيديهم من كتاب الله.

وفي لفظ: «**أو ليس هذه اليهود والنصارىٰ يقرءون التوراة والإنجيل لا ينتفعون ممَّا فيهما بشيء؟!**»، فلقي جبيرُ بنُ نفيرٍ شدادَ بنَ أوسٍ بالمصلَّىٰ، فحدَّثه هذا الحديث عن **عوف بن مالك** فقال: صدق عوف، ثم قال: "**وهل تدري ما رفع العلم؟**" قال: قلت: لا أدري! قال: "**ذهاب أوعيته**".

وفي لفظ: قال جبيرُ بنُ نفيرٍ: فلقيتُ شدادَ بنَ أوسٍ وحدثته بحديث عوف بن مالك، فقال: صدق عوف، ثمَّ قال: ألا أخبرك بأوّل ذلك يرفع؟ قلت: بلىٰ، قال: الخشوع حتىٰ لا ترىٰ خاشعًا[٦٣١]. **صحيح**.

فعاب ﷺ علىٰ **زياد بن لبيد** رضي الله عنه -أنَّه لم يفقه حديثه، ولم يتفهَّمه جيدًا، ونبَّهه إلىٰ أهمية النظر في الأمور، وأنَّ النصوص بغير علماء يعلِّمونها الناس قد لا تنفعهم؛ بل قد لا يفهمونها فهمًا مستقيمًا؛ فيضِلُّون بسبب ذلك، فوجود العلماء والفقهاء في الأمَّة الذين يفقَهون الكتاب والسنَّة؛

---

(٦٣١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٦٥٣) من حديث **أبي الدرداء**، وابن ماجه من حديث **زياد بن لبيد** (٤٠٤٨)، وأحمد (١٧٤٧٣)، وابن حبان (٤٥٧٢)، والبزار (٢٧٤١) من حديث **عوف بن مالك الأشجعي**.

وهم أهل البصيرة هو سببٌ للخير والهدىٰ بين الناس؛ وإلا وقع الشقاق والاختلاف بينهم، وظنَّ كلُّ واحد أنَّ فهمه هو الصحيح، وعلمه هو الصواب، وما عليه هو الهدىٰ، وضدُّ ذلك عند مخالِفه؛ وقد ورد في الأثر عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "قَدِمَ علىٰ **عمرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- رجلٌ، فجعَلَ عمرُ يَسْأَلُهُ عن الناس، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ! قد قرأَ القرآنَ منهم كذا وكذا. فقلتُ: واللهِ! ما أُحِبُّ أنْ يُسَارِعُوا يومَهم هذا في القرآنِ هذه المسارعة. قال: فزَبَرَني (زجرني) عمر، ثمَّ قال: مَهْ! فانطَلَقْتُ إلىٰ منزلي مُكْتَئِبًا حزينًا، فقلتُ: قد كنتُ نزلتُ من هذا بمنزلة، ولا أُراني إلَّا قد سقطتُ من نفسهِ؛ فاضطجعتُ علىٰ فراشي، -حتىٰ عادني نسوةُ أهلي، وما بي وجَعٌ-، فبينا أنا علىٰ ذلك؛ قيل لي: أَجِبْ أميرَ المؤمنين. فخرجتُ، فإذا هو قائمٌ علىٰ الباب ينتظرني، فأخَذَ بيدي ثمَّ خلا بي، فقال: ما الذي كرهتَ ممَّا قال الرجلُ آنفًا؟ **قلتُ**: يا أميرَ المؤمنينَ؛ إنْ كنتُ أَسَأْتُ فإنِّي أَستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه، وأنزلُ حيثُ أحبَبْتَ. قال: لتُخْبِرَنِّي.

قلتُ: متىٰ ما يُسَارعوا هذه المسارعة يَحْتَقُّوا، ومتىٰ ما يحتقُّوا يَخْتَصِمُوا، ومتىٰ ما يَخْتَصِمُوا يختلفوا، ومتىٰ ما يختلفوا يقتتلوا. قال: لِلَّهِ أبوكَ! لقد كنتُ أكتُمَها الناسَ حتىٰ جئتَ بها"[٦٣٢]. صحيح.

وفي لفظ: "... فأرسل إلىٰ **ابن عباس** قال: كيف تختلف هذه الأمَّة وكتابها واحد ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟ قال **ابن عباس**: يا أمير المؤمنين، إنَّما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنَّه يكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ولا يعرفون فيم نزل فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكلِّ قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا[٦٣٣] ...". سبق تخريجه -آنفًا-.

---

(٦٣٢) **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٢٠٣٦٨)، والهروي في ذمّ الكلام وأهله (١٩٨)، والفسوي في المعرفة والتاريخ (٥١٦/ ١)، والخطيب في الجامع (١٩٤/ ٢) باللفظ الآتي، وذكره الذهبي في "السير" (٣٨٨/ ٤).

(٦٣٣) كما حدث في التاريخ من قتال وفتن، وإحن ومحن، كمحنة خلق القرآن، وفتنة الجهمية، وفتن الخوارج وسفكهم الدماء، وفتن الروافض، وجميع فتن الفرق، وما جرىٰ علىٰ الإسلام والمسلمين من آثارها الوخيمة، وأيضًا فتن المذهبية والتعصُّب المذهبي بين المنتمين إلىٰ أهل السنَّة، من ذلك ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "تاريخه": عن العزيز صاحب مصر، ابن صلاح الدين، " أنَّه عزم في هذه السنة علىٰ إخراج الحنابلة من بلده، ويكتب إلىٰ بقية إخوته بإخراجهم من البلاد، وشاع ذلك عنه وذاع، وسمع ذلك منه

قلت: ومعنىٰ "يحتقُّوا"، أي: يدَّعي كلُّ واحد أنَّ الحقَّ معه؛ كما هو الواقع اليوم،

وصرَّح به، وكلُّ ذلك من معلِّميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية، وقلَّة علمه بالحديث، فلمَّا وقع منه هذا، ونوىٰ هذه النية القبيحة الفاسدة أهلكه الله، ودمره سريعًا، وعظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام، عند الخاص والعام". البداية والنهاية (١٣/ ١٨).

وقال أيضًا: "وقعت فتنة بدمشق بسبب الحافظ عبد الغني المقدسي، وذلك أنَّه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي، فذكر يومًا شيئًا من العقائد، فاجتمع القاضي ابن الزكي، وضياء الدين الخطيب الدولعي بالسلطان المعظَّم، والأمير صارم الدين برغش، فعقد له مجلسًا فيما يتعلق بمسألة الاستواء علىٰ العرش والنُّزول والحرف والصوت، فوافق النجم الحنبلي بقية الفقهاء واستمرَّ الحافظ علىٰ ما يقوله لم يرجع عنه، واجتمع بقية الفقهاء عليه، وألزموه بإلزامات لم يلتزمها، حتىٰ قال له الأمير برغش: كلُّ هؤلاء علىٰ الضلالة، وأنت وحدك علىٰ الحقِّ؟!.

قال: نعم، فغضب الأمير، وأمر بنفيه من البلد، فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره، وأرسل برغش الأسارىٰ من القلعة فكسروا منبر الحنابلة وتعطَّلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة، وأخرجت الخزائن والصناديق التي كانت هناك، وجرت خبطة شديدة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن". البداية والنهاية (١٣/ ٢٠،٢١).

وقال **ابن الأثير**: "وفي سنة ٣٢٣، عظم أمر الحنابلة (ببغداد)، وقويت شوكتهم، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه، وإن وجدوا مغنية ضربوها، وكسروا آلة الغناء...فأرهجوا بغداد، وركب صاحب الشرطة ونادىٰ في جانبي بغداد: لا يجتمع من الحنابلة اثنان...، ولا يصلِّي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم، في صلاة الصبح والعشاءين".

وقال **ابن الأثير**: "كان أهل المدينة ثلاث طوائف: طوائف شافعية، وهم الأقلُّ، وحنفية وهم الأكثر، وشيعة وهم السواد الأعظم، فوقعت العصبية بين السنَّة والشيعة، فتظافر عليهم الحنفية والشافعية، وتطاولت بينهم حروب، حتىٰ لم يتركوا من الشيعة من يعرف.

فلما أفنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية، ووقعت بينهم حروب، كان الظفر في جميعها للشافعية، هذا مع قلة عدد الشافعية، وكانت الحنفية يجيؤون إلىٰ البلد بالسلاح الشاك، ويساعدون أهل نحلتهم، فلم يعنهم ذلك شيئًا حتىٰ أفنوهم... ولم يبق من الشيعة والحنفية إلا من يخفي مذهبه، ووجدت دورهم كلها مبنية تحت الأرض، ودروبهم التي يسلك بها إلىٰ دورهم علىٰ غاية الظلمة، وصعوبة المسلك، ولولا ذلك لما بقي فيها أحد". بدعة التعصب المذهبي (ص٢١٣).

وذكر **ياقوت الحموي** عن مدينة أصفهان، بعد أن ذكر مجدها قال: "وقد فشا الخراب في نواحيها، لكثرة الفتن، والتعصب بين الشافعية والحنفية، والحروب المتَّصلة بين الحزبين، فكلَّما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرىٰ، وأحرقتها وخربتها لا يأخذهم في ذلك إل ولا ذمة...وكذلك الأمر في قراها". بدعة التعصُّب المذهبي (ص٢١٤)، نقلاً عن معجم البلدان (١/ ٢٧٣).

(**وإعجاب كل ذي رأي برأيه**)، فمع شدة الاختلافات والخصومات، يدَّعي كل طرف أنَّه المحقُّ دون مخالفه، فرحم الله سلفنا؛ ما أبصرهم!

قال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقبض الأمانة والإيمان ليس هو قبض العلم؛ فإنَّ الإنسان قد **يؤتىٰ إيمانًا مع نقص علمه**: فمثل هذا الإيمان قد يرفع من صدره؛ كإيمان بني إسرائيل لـمَّا رأوا العجل.

وأمَّا من **أوتي العلم مع الإيمان**: فهذا لا يرفع من صدره؛ ومثل هذا لا يرتدُّ عن الإسلام قط، بخلاف **مجرد القرآن أو مجرد الإيمان**: فإنَّ هذا قد يرتفع؛ فهذا هو الواقع. لكن أكثر ما نجد الردَّة فيمن عنده قرآن بلا علم وإيمان، أو من عنده إيمان بلا علم وقرآن. فأمَّا من أوتي القرآن والإيمان فحصل فيه العلم؛ فهذا لا يرفع من صدره. والله أعلم". مجموع الفتاوىٰ (١٨/ ٣٠٥).

قلت: وهذا كلام شديد الأهمية.

وفيه أهمية وجودِ وإيجادِ علماء من أهل الاجتهاد والفقه في الكتاب والسنَّة، وأنَّه يجب علىٰ الأمَّة إيجاد الكفاية في هذا الباب، فإن كانت الأمَّة تعتني بوجود الكفاية في الطب ونحوه؛ فأولىٰ من ذلك إيجاد أئمَّة من أهل الاجتهاد والمعرفة بالكتاب والسنَّة، قال **شيخنا الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقال **الشيخ الخُضري**: "فبعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولًا بدراسة الكتاب، ورواية السنَّة اللذَيْن هما أساس الاستنباط، صار في هذا الدَّور يتلقَّىٰ كتب إمام معين، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دوَّنه من الأحكام، فإذا أتمَّ ذلك صار من العلماء الفقهاء!".

قلت: -(أي: الألباني)-: وممَّا لا شكّ فيه عند غير المتعصِّب **أنَّ هذه الطريقة السلفية هي وحدها الكفيلة بإخراج العلماء الفقهاء حقيقة**، كيف لا؟! والإمام **مالك** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "لا يصلح آخر هذه الأمَّة إلا بما صلح به أوَّلها". مجلة المسلمون نقلًا عن "مقالات الشيخ الألباني" (ص٣٢).

وقوله: (**وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللهُ يُعْطِي**)، لـمَّا حثَّ النَّبيُّ ﷺ ورغَّب في الفقه في دين الله بيَّن أنَّه قاسم يقسم العلم بين العباد، ويوزِّعه عليهم، كما يقسم المال؛ فيلقي حديثه، وينشره بين الناس، وأنَّ الذي يعطيه هو الله -عزَّ وجلَّ-، وهو الذي يرزق من شاء من عباده النصوصَ والفقهَ فيها وفهمها؛ ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣]؛ **فالقاسم**: يقسم حيث أُمِرَ، و**المعطي**: هو المدبِّر للقاسم؛ **ففيه** أنّ النبي ﷺ لا يملك عطاءً ولا نفعًا ولا

ضرًّا.

وقوله: **(وَلَنْ تَزَالَ هَذِهِ الأُمَّةُ)**، أي: جماعة من هذه الأمَّة، يؤيِّد هذا المعنىٰ رواية أخرىٰ عند البخاري: «**لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ**». سيأتي برقم (٣٦٤١)، وجاءت روايات أخرىٰ بلفظ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهرين علىٰ الحقِّ يقاتلون**». متفق عليه، وهم أهل السنَّة والجماعة؛ أهل الحديث والأثر، ومن كان علىٰ منهج النبي ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم-؛ كما بيَّن ذلك النبي ﷺ بقوله: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**». **صحيح**: أخرجه الحاكم (٥٩)، وهو في الصحيحة (٢٠٤).

وقد جزم **البخاري** رحمه الله بأنّ المراد بهم أهل العلم بالآثار، وقال الإمام **أحمد** رحمه الله: "إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم".

وقال **الخطيب البغدادي** رحمه الله: "قد جعل الله تعالىٰ أهله (أهل الحديث) أركان الشريعة، وهدم بهم كلَّ بدعة شنيعة. فهم أمناء الله من خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمَّته، والمجتهدون في حفظ ملته.

أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائره، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة، وكلُّ فئة تتحيَّز إلىٰ هوىٰ ترجع إليه، أو تستحسن رأيًا تعكف عليه، سوىٰ أصحاب الحديث، فإنَّ الكتاب عدَّتهم، والسنَّة حجَّتهم، والرسول فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يعرِّجون علىٰ الأهواء، ولا يلتفتون إلىٰ الآراء، إذا اختلف في حديث، كان إليهم الرجوع، فما حكموا به، فهو المقبول المسموع، وكلُّ مبتدع باعتقادهم يتظاهر، وعلىٰ الإفصاح بغير مذاهبهم لا يتجاسر.

من كادهم قصمه الله، ومن عاندهم خذله الله، لا يضرُّهم من خذلهم، ولا يفلح من اعتزلهم، المحتاط لدينه إلىٰ إرشادهم فقير، وبصر الناظر بالسوء إليهم حسير؛ وإنَّ الله علىٰ نصرهم لقدير". شرف أصحاب الحديث (٨- ٩).

وقال **الخطيب** رحمه الله أيضًا-: "لا يتعصَّبون لغير السنَّة". قال **عبدان** رحمه الله: "هم أصحاب الحديث الأوائل". شرف أصحاب الحديث (٢٣).

قلت: يعني: لا يتعصَّبون لمذهب من المذاهب، ولا فرقة، ولا لطائفة، ولا لشخص غير النبي ﷺ.

دعا لهم النبي ﷺ بالنضرة في الوجه بقوله: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا**

سَمِعَهَا ...». **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، والبزار (٣٤١٦)، قال **القاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "خصّ مبلِّغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء؛ لأنَّه سعىٰ في نضارة العلم وتجديد السنة؛ فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله". مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٨).

وهم حفظةُ الدِّين؛ قال أبوداود: "لولا هذه العصابةُ؛ لاندرس الإسلام -يعني: أصحاب الحديث الذين يكتبون الآثار-". شرف أصحاب الحديث (ص ٥٢).

وقال **علي ابن المديني** رَحِمَهُ اللَّهُ في قول النبي ﷺ: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَىٰ الْحَقِّ** ...»-: "هم أصحاب الحديث الذين يتعاهدون مذاهب الرسول ﷺ ويذبُّون عن العلم، لولاهم لم نجد عند المعتزلة والرافضة والجهمية وأهل الرأي شيئًا من سنن المرسلين". الكامل لابن عدي (١/ ١٢١).

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وبهذا يتبيَّن أنَّ أحقَّ الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنَّة؛ الذين ليس لهم متبوع يتعصَّبون له إلا رسول الله** ﷺ، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأئمَّتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها واتباعًا لها ...، الذين يردُّون المجمل إلىٰ ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول؛ بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه". مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٤٧).

والحقُّ حليفهم؛ وهم أهل الصراط المستقيم، والصواب في القول والعمل؛ قال **أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أهل الحديث أفضل من تكلَّم في العلم" تهذيب الكمال (١٧/ ٤٣٧)، شرف أصحاب الحديث (٤٧)، وبنحو هذا قال **الأوزاعي** رَحِمَهُ اللَّهُ شرف أصحاب الحديث (٤٨).

وقال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أعلم الناس بذلك أخصُّهم بالرسول ﷺ وأعلمهم بأقواله وأفعاله ...، وأعلمهم بأصحابه وسيرته وأيامه وأعظمهم بحثا عن ذلك ...، وأعظمهم تديُّنًا به واتباعًا له واقتداء به؛ وهؤلاء هم أهل السنَّة والحديث ...، أفلا يعلم من له أدنىٰ عقل ودين أنَّ **هؤلاء أحقُّ بالصدق والعلم والإيمان والتحقيق ممَّن يخالفهم**، وأنَّ عندهم من العلوم ما ينكرها الجاهل والمبتدع وأنَّ الذي عندهم هو الحقُّ المبين، وأنَّ الجاهل بأمرهم والمخالف لهم هو الذي معه

من الحشو ما معه!! ومن الضلال كذلك!!". مجموع الفتاوىٰ (٤/ ٨٥)، (٤/ ٤٩)، (٦/ ٣٥٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا-: **"وأنَّهم ينالون في المدَّة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال؛ ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾** [محمد: ١٧]، **﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا* وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا* وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾** [النساء: ٦٦-٦٨]؛ **فلا تجد مسألة خولفوا فيها إلا وقد تبيَّن أنَّ الحقَّ معهم"**. مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٠).

قلتُ: هذا كلامٌ جميلٌ عظيمٌ يدلُّ علىٰ بركتهم؛ فعلىٰ طالب العلم أن يلزم أهل الحديث والسنَّة، وأن يأخذ منهم العلم، وهذه من أوجب الواجبات عليه، وإلا تخبَّط خبط عشواء، وانحرف عن الطريق المستقيم.

قال **موسىٰ بن حزام الترمذي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كنت أختلف إلىٰ أبي سليمان الجوزجاني في كتب محمد، فاستقبلني **أحمد بن حنبل**، فقال: إلىٰ أين؟ قلت: إلىٰ أبي سليمان. فقال: العجب منكم! تركتم إلىٰ النبي ﷺ: يزيد عن حميد عن أنس، وأقبلتم علىٰ ثلاثة إلىٰ **أبي حنيفة** رَحِمَهُ اللَّهُ: أبوسليمان عن محمد عن أبي يوسف عنه[٦٣٤]! قال: فانحدرت إلىٰ يزيد بن هارون". سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٣١، ط: الرسالة).

وقال **البربهاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "عليك بالآثار، وأهل الآثار؛ وإيَّاهم فاسأل، ومعهم فاجلس، ومنهم فاقتبس"[٦٣٥]. شرح السنة (ص٢٠)، وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأهل العلم بالحديث أخصُّ الناس بمعرفة ما جاء به الرسول ﷺ ومعرفة أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ فإليهم المرجع في هذا الباب لا إلىٰ من هو أجنبي عن معرفته، ليس له معرفة بذلك، ولولا أنه قلَّد في الفقه لبعض الأئمَّة؛ لكان في الشرع مثل آحاد الجهال من العامَّة". درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٣٠٢).

وقال **صديق حسن خان** رَحِمَهُ اللَّهُ: "عليك يا باغي الخير، وطالب النجاة بلا ضير، أن تكون

---

(٦٣٤) بعني سماع كتبه.

(٦٣٥) ومن أراد المزيد في هذه المسألة فليراجع كتاب "الاعتصام" للشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فإنَّه كتاب جليل، عظيم النفع، كبير الفائدة، لم يُصَنَّفْ في بابه مثلُهُ. والتعليق علىٰ الطحاوية لشيخنا العلامة الألباني (ص٤٨).

محدِّثًا، أو متطفِّلًا علىٰ المحدِّثين، وإلا فلا تكن، فليس فيما سوىٰ ذلك من عائدة تعود إليك".

صفة صلاة النبي ﷺ (ص ١٧٦).

قال **عبدة بن زياد الأصبهاني** رَحِمَهُ اللَّهُ:

دين النبي محمدٍ أخبارُ .. . نعم المطية للفتىٰ الآثارُ
لا ترغبنَّ عن الحديث وأهله . .. فالرأي ليل والحديث نهارُ
ولربما غلِطَ الفتىٰ سبل الهدىٰ ... والشمس بازغة لها أنوار[٦٣٦]

وقال **هبةالله بن الحسن الشيرازي** رَحِمَهُ اللَّهُ:

عليك بأصحاب الحديث فإنَّهم ... علىٰ منهج للدين ما زال مَعْلَمَا
وما النور إلا في الحديث وأهله ... إذا ما دَجىٰ الليلُ البهيمُ وأظلما
وأعلىٰ البرايا مَن إلىٰ السنن اعتزىٰ ... وأغوىٰ البرايا من إلىٰ البدع انتمىٰ
ومَنْ تركَ الآثارَ قد ضلَّ سعيُه ... وهل يترُكُ الآثارَ من كان مُسْلِما[٦٣٧]

ولا ينبغي مخالفة أهل الحديث أو ترك سبيلهم، ولا الاشتغال بالرأي وأهله، فإنَّه الزيغ والانحراف.

وقال شيخنا **الألباني** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: "إنَّ كلَّ المؤمنين بالدِّين الإسلاميِّ: فهم علىٰ خطرٍ في إيمانهم إذا لم يعتمدوا علىٰ **مذهب أهل الحديث في تلقِّيهم للدِّين**؛ فإنَّهم أعلم الناس بما هو منه ثبوتًا، وما ليس منه روايةً، **وأعرف الناس بمعانيها ومقاصدها**؛ لأنهم تلقُّوا كلَّ ذلك عن رسول الله ﷺ بالطرق العلمية الصحيحة التي لا سبيل إلىٰ معرفة الدِّين إلاَّ بها، وبدونها يصيرُ الدِّينُ هوىً متَّبعًا؛ وهذا هو الدَّاءُ العُضال الذي أصابَ العالم الإسلامي اليوم، ولم ينجُ منه إلاَّ **الطائفة المنصورة** التي بشَّرَ بها رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة متواترة". قصة المسيح الدجال (ص: ٢٩).

ومن الطرائف: ما قاله **أبو طاهر بركة بن سنان الحوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ناظرت أبا الحسن المغازلي في التفضيل بين مالك والشافعي، ففضَّلت الشافعيَّ لأنِّي أنتحل مذهبه، وفضَّل مالكًا لأنَّه كان ينتحل مذهبه، فاحتكمنا إلىٰ أبي مسلم الليثي البخاري، ففضَّل الشافعيَّ، فغضب أبو

---

(٦٣٦) شرف أصحاب الحديث للخطيب (ص ٧٦).
(٦٣٧) لوائح الأنوار السنية (٢/ ٣٦٣).

الحسن وقال: لعلَّك علىٰ مذهبه، فقال: **نحن أصحابَ الحديثِ الناسُ علىٰ مذاهبنا فلسنا علىٰ مذهب أحد**؛ ولو كنَّا ننتسب إلىٰ مذهب أحد لقيل أنتم تضعون له الأحاديث". سؤالات السلفي (ص ١١٨)، تاريخ الإسلام (٣١/ ١٢٠).

وقوله: **(قَائِمَةً عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ)**، وهذه الجملة مثل قوله ﷺ عند مسلم: «**عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ**»، وفي رواية: عَنْ أَبِي عبدالله الشَّامِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ **مُعَاوِيَةَ** رضي الله عنه -، يَخْطُبُ يَقُولُ: "يَا أَهْلَ الشَّامِ حَدَّثَنِي الْأَنْصَارِيُّ -قَالَ شُعْبَةُ: يَعْنِي: **زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ**- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ**»، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوهُمْ **يَا أَهْلَ الشَّامِ**"(٦٣٨). صحيح لغيره: أخرجه أحمد (١٩٢٩٠)، ويشهد له حديث معاذ في البخاري.

وقوله: **(لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ)**، أي: من خالفهم من غيرهم، وفي رواية عند البخاري: «**مَنْ كَذَّبَهُمْ**»، لتأكيد التأبيد بعدم المضرَّة؛ كأنَّه قال: لا يضرُّهم أبدًا.

وفي رواية: «**لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**»، يعني: ممَّن كان منهم، ولم يقم بنصرتهم، ونكَل عن تأييدهم.

و«**أَمْرُ اللهِ**»، أي: الريحُ التي تقبض روح كلِّ من في قلبه شيء من الإيمان، ويبقىٰ شرار الناس فعليهم تقوم الساعة. **فيه** إشارة إلىٰ ذمٍّ من طعن في أهل الحديث ومن يعتني بالسنَّة والتفقُّه في النصوص.

قال الحافظ **الذهبي** رحمه الله: "... كان في هذا الوقت خلقٌ من أئمَّة أهل الرأي والفروع وعدد من أساطين المعتزلة والشيعة وأصحاب الكلام؛ الذين مشوْا وراءَ المعقول وأعرضوا عمَّا سلف من التمسُّك بالآثار النبوية، وظهر في الفقهاء التقليد وتناقص الاجتهاد؛ فسبحان من له الخلق والأمر.

فبالله عليك يا شيخ؛ ارفق بنفسك، والزم الإنصاف، ولا تنظر إلىٰ هؤلاء الحفَّاظ النظر الشَّزَر، ولا ترمقنَّهم بعين النقص، ولا تعتقد فيهم أنَّهم من جنس محدِّثي زماننا؛ حاشا وكلا!

---

(٦٣٨) ولقد رأينا أنّ أئمَّة العلم المحققين، الذين نأخذ عنهم العلم، كان أكثرهم من أهل الشام: كشيخ الإسلام ابن تيمية، وطلابه كابن القيم وابن كثير وابن عبد الهادي والذهبي، وفي زمنهم ابن دقيق العيد، وقبلهم النووي، ومن المتأخرين العلامة الإمام الألباني؛ -رحمهم الله جميعًا-.

فما في مَن سَمَّيت أحد -ولله الحمد- إلا وهو بصيرٌ بالدِّين، عالمٌ بسبيل النجاة. وليس في كبار محدِّثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة؛ فإنِّي أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال -إن أعوزَك المقال-: مَنْ أحمد؟ ومَا ابن المديني؟ وأيُّ شيء أبو زرعة؟ وأبو داود؟ هؤلاء محدِّثون، **ولا يدرون ما الفقه وما أصوله، ولا يفقهون الرأي، ولا علم لهم بالبيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق**، ولا يعرفون الله -تعالىٰ- بالدليل، **ولا هم من فقهاء الملَّة**"(٦٣٩).

فاسكت بحلم، أو انطق بعلم؛ **فالعلم النافع**: هو ما جاء عن أمثال هؤلاء". تذكرة الحفاظ (٢/ ١٥٠).

وممَّا يحسن ذكره هنا ما ورد عن **حفص بن غياث** رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: "كُنَّا ببغداد يجيئنا أصحاب الحديث، فيقول لهم **ابن إدريس**: عليكم **بالشِّعْر والعربيّة**. فقلت: ألا تتّقي الله؟ قوم يطلبون **آثَارَ**

---

(٦٣٩) **قلت**: سبحان الله، تشابهت قلوبهم!! فإن كانت هذه التُّرُّهات قد قيلت في مثل أحمد وغيره؛ فلا نستغرب أن تقال فيمن جاء بعدهم، ممَّن نهج نهجهم، وسار علىٰ دربهم، حتىٰ قيلت في محدثي أهل زماننا من أمثال شيخنا الإمام الألباني وغيره، **وهل الفقه إلا في الكتاب والسنة وآثار سلف الأمَّة؟!**

وقد ظنَّ كثير من الناس أنَّ معاداة أهل الحديث والعكوف علىٰ آراء الرجال من (قال) و(قالوا) و(قلنا) هو العلم، وأعرض أكثرهم عن كتاب الله -عزَّ وجلَّ- وصحيح السنة النبوية تعلمًا وتعليمًا وفهمًا واستنباطًا وعملًا؛ وقد قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ شرح نونية ابن القيم للهراس ٢/ ٢٧٢]:

تقدَّمت الألقاب التي وضعوها لأهل الحديث ومعانيها....

هم يشهِدُونكُمُ علىٰ بُطلانها ... أَفَتُشهِدُونهم علىٰ البُطْلَانِ
ما ضرَّهمْ واللهِ بغضُكُمُ لهمْ ... إذْ وافَقُوا حقًّا رِضَىٰ الرَّحمانِ
يا مَنْ يُعادِيهِمْ لِأجلِ مآكل ... وَمَناصبٍ ورياسةِ الْإِخْوَانِ
تُنْبِيكَ هَاتِيكَ العَدَاوةُ كمْ بِهَا ... من حسرةٍ ومذلَّةٍ وهَوَانِ
ولسوْفَ تَجْنِي غَيَّهَا واللهِ عَنْ ... قُرْبٍ وَتَذْكُرُ صِدْقَ ذِي الْإِيمَانِ
فاذا تَقَطَّعَتِ الوسائلُ وانْتَهَتْ ... تِلْكَ الْمَآكِلُ فِي سَرِيعِ زَمَانِ
فهُناكَ تَقْرَعُ سِنَّ نَدْمَانٍ عَلَىٰ التْـ ... ـتَفْرِيطِ وَقْتَ السَّيْرِ والإِمْكَانِ
وهناكَ تَعْلَمُ ما بضاعَتُك الَّتِي ... حَصَّلْتَهَا في سالفِ الأزمانِ
إلَّا الوَبَالُ عليكَ والْحَسَرَاتِ وَالْـ ... ـخُسرانُ عند الوضعِ في الميزانِ
قيلٌ وقالٌ ماله من حاصِلٍ .. . إلا العناءُ وكَلُّ ذي الأذهانِ

رَسُولِ اللهِ ﷺ تأمرهم يطلبون هذا! لئن عُدت؛ لأسوءَنَّك". تاريخ الإسلام (١٣/ ٨٥).

قلت: لا نقلِّل من شأن العربية بهذا، لكن المقصود أن يُعطَىٰ كل شيء قدره، ولا يترك الكتاب والسنة لتلك العلوم التي هي معينة علىٰ الفهم لمراد الله ورسوله ﷺ، وليست مقصودة لذاتها أصالة.

وقال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "قد لهج بذمِّ أصحاب الحديث صنفان: أهل الكلام وأهل الرأي؛ فهم في كلِّ وقت يقصدونهم: بالثلب والعيب **وينسبونهم إلىٰ الجهل وقلَّة العلم**.

وقالوا: غثاء وغثر وزوامل أسفارٍ، وقالوا: أقاصيص وحكايات وأخبار وربما قرؤوا: ﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٥]؛

وفي **الحقيقة**: ما ثَلَموا إلا دينهم، ولا سعوا إلا في هلاك أنفسهم، وما للأساكفة وصوغ الحليِّ، وما للحدَّادين وتقليب العطر والنظر في الجواهر، أما يكفيهم صدأ الحديد، ونفخ في الكير، وما لأهل الكلام ونقد حملة الأخبار؟! وما أحسن قول من قال:

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ بَلَاءُ ... عَدَاوَةُ غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينِ
يُنِيلُكَ مِنْهُ عِرْضًا لَمْ يُصُنْهُ ... وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عِرْضٍ مَصُونِ

لكنّ **الحقَّ عزيز!** وكلٌّ -مع عزَّته- يدَّعيه، ودعواهم الحقَّ؛ تحجبهم عن مراجعة الحقِّ.

نعم إنَّ علىٰ الباطل ظلمة، وإنَّ علىٰ الحقِّ نورًا: ولا يبصر نور الحقِّ إلا من حُشي قلبه بالنور، ومن لم يجعل الله له نورا؛ فما له من نور، فالمتخبِّط في ظلمات الهوىٰ والمتردِّي في مهاوي الهلكة والمتعسِّف في المقال؛ لا يُوفَّق للعَوْد إلىٰ الحقِّ، ولا يُرشد إلىٰ طريق الهدىٰ؛ ليظهر (أي: بذلك) وعورة مسلكه وعزُّ جانبه وتأبِّيه إلا علىٰ أهله؛ ﴿**كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٠٨]﴾". الانتصار لأصحاب الحديث (ص ١ وما بعدها).

وعن **عبدالله بن الحسن الهسنجاني** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: كنت بمصر، فرأيت قاضيًا لهم في المسجد الجامع، وأنا ممراض، فسمعت القاضي يقول: مساكين أصحاب الحديث لا يحسنون الفقه.

فحبوت إليه، فقلت: اختلف أصحاب النبي ﷺ في جراحات الرجال والنساء، فأيُّ شيء

قال علي ابن أبي طالب، وأيُّ شيء قال زيد بن ثابت، وأيُّ شيء قال عبد الله بن مسعود؟ فأفحم. قال عبد الله: فقلت له: زعمتَ أنَّ أصحاب الحديث لا يحسنون الفقه، وأنا من أَخَسّ أصحاب الحديث، سألتك عن هذه فلم تحسنها، فكيف تنكر علىٰ قومٍ أنَّهم لا يحسنون شيئًا وأنت لا تُحسِنهُ؟. شرف أصحاب الحديث (ص ٧٧)، والضعفاء لأبي زرعة (٢/ ٧٧٣).

قال **أبو عَرُوبة الحرّاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الفقيه إذا لم يكن صاحب حديث؛ يكون **أعرج**". شرف أصحاب الحديث (ص ٧٠). **قلت**: بل أعمىٰ.

وعن **محمد بن عبد الوهاب** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "قلت **لعلي بن عثَّام** رَحِمَهُ اللَّهُ: رجل يقول: ليس في حديث رسول الله ﷺ فقهٌ! فقال: هذا فاجر! فأين الفقه؟ وأين الخير؟؛ إلا فيه". ذمُّ الكلام وأهله (٢/ ٧١).

وورد عن الحافظ الإمام **أبي العباس أحمد بن علي الأبَّار البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "رأيت بالأهواز رجلًا قد حفَّ شاربه، وأظنُّه قد اشترىٰ كتبًا وتعبَّأَ للفتيا، فذكروا أصحاب الحديث، فقال: ليسوا بشيء، وليس يسوون شيئًا!! فقلت له: أنت لا تحسن تصلي! قال: أنا؟ قلت: نعم. قلت: إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا افتتحت الصلاة ورفعت يديك؟ فسكت. فقلت له: فإيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا وضعت يديك علىٰ ركبتيك؟ فسكت. قلت: إيش تحفظ عن رسول الله ﷺ إذا سجدت؟ فسكت. قلت: ما لك لا تتكلَّم! ألم أقل لك: إنَّك لا تحسن تصلي؟ أنت إنَّما قيل لك: تصلي الغداة ركعتين، والظهر أربعًا، فالزم ذا خير لك من أن تذكر أصحاب الحديث؛ فلستَ بشيء، ولا تحسِنُ شيئًا"(٦٤٠). **صحيح**.

قال **قتيبة بن سعيد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا رأيت الرجل يحبُّ أهلَ الحديث؛ مثل: يحيىٰ بنِ سعيد القطَّان، وعبدِ الرحمن بنِ مهدي، وأحمدَ بنِ حنبل، وإسحاقَ ابنِ راهويه -وذكر آخرين-؛ فإنَّه علىٰ السنة، ومن خالف هذا؛ فاعلم أنَّه مبتدع". شرف أصحاب الحديث (ص ٧١).

وقال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ الذين يعيبون أهل الحديث ويعدلون عن

---

(٦٤٠) الكفاية للخطيب (ص ٥) -واللفظ له-، وبنحوه في تاريخ دمشق لابن عساكر (٥/ ٧٤)، ومختصرًا في سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٤٤) -وذكر محققه في الحاشية زيادات -ليست فيه- من تاريخ ابن عساكر؛ قد ساقها الخطيب كلَّها-.

مذهبهم جهلة زنادقة منافقون بلا ريب؛ ولهذا لـمَّا بلغ الإمامَ أحمد عن ابن أبي قتيلة أنَّه ذكر عنده أهل الحديث بمكة، فقال: أهل الحديث قوم سوء؛ فقام الإمام أحمد وهو ينفض ثوبه، ويقول: زنديق، زنديق، زنديق، ودخل بيته؛ فإنَّه عرف مغزاه". الفتاوىٰ (٤/ ٩٦).

فيه أنّ بعض هذه الأمة يبقىٰ علىٰ الحقِّ أبدًا، **وفيه** فضل أهل الحديث ومن تبعهم، **وفيه** حَثٌّ منه عليه الصلاة والسلام علىٰ ألا تستوحش من قلَّة السالكين، وكثرة الهالكين. **وفيه** أنّ الاستمساك والاعتصام بالكتاب والسنَّة سببٌ في الثبات علىٰ الحقِّ والموت عليه. **وفيه** عدم خلوِّ الزمان من مجتهد.

١٤- بَابُ الفَهْمِ فِي العِلْمِ

قوله: **(بَابُ الفَهْمِ فِي العِلْمِ)**، هذا بابٌ في بيان الفهم والتفقُّه في الكتاب والسنَّة؛ وهو يتفاوت بحسب جِبِلَّة العبد، والإخلاص، والتوفيق، وتحصيل الوسائل المعينة علىٰ ذلك.

وهذا الباب يختلف عن **الباب الذي قبله**؛ حيثُ إنَّ السابق كان في فضل التفقُّه في الدِّين والحرص علىٰ تعلُّمِ الكتاب والسنة؛ أمَّا **هذا الباب**؛ ففي مسألة التفهُّم للنصوص، وأنَّ هذا العلم مواهبُ وفتوحاتٌ من الله -تعالىٰ-، يستعمل فيها العبد ما أعطاه الله -تعالىٰ- من نعمة البصيرة، وما وَهبه من ملاحظة ما احتفَّ بالمسائل من قرائن وأحوال، وما فَتح عليه من فيض عطائه وعظيم مننه وكريم جوده؛ فإنَّ خير ما يعطي اللهُ العبدَ فقهًا في النصوص، واستقامةً في التصوُّرات، وهدًىٰ في الطريق.

فكأنَّه أراد أن يقول في **الباب السابق**: ما الذي ينبغي لطالب العلم والعالم أن يفعلا؟، أن يُثَوِّرَ كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ؛ ففيهما فقه عظيم، يوصله إلىٰ مراده من العلم.

وكأنَّه يقول في **هذا الباب**: هذا الفقه ليس إلىٰ العبد، بل هو محضُ فضل الله -تعالىٰ-؛ فعلىٰ العالم أن يلجأ إلىٰ الله ويستعين به في تحصيل المراد، وأن يهديه إلىٰ صراطه المستقيم، والحقِّ والصواب؛ فإنَّه هو وحده الذي يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم، ويهدي العبد لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنه، وهو وحده الذي يعطيه من الذكاء والفطنة، ويمنحه من الفقه في نصوص الوحيين، ويقذف في قلبه من الفهم الصحيح.

قال **عليّ** رضي الله عنه-: "إلاَّ فهمًا يُعطَىٰ رجل في كتابه". سيأتي برقم (٦٩٠٣)، وقال **مالك** رحمه الله: "إنَّ العلم ليس بكثرة الرواية ولكنَّه نور يجعله الله في القلوب"، وقال رحمه الله أيضًا-: "العلم والحكمة نور يهدي اللهُ به من يشاء، وليس بكثرة المسائل". أخرجهما ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٣٩٥، ١٣٩٨)؛ يعني بذلك: فهم معانيه واستنباطه.

قال **الحافظ** رحمه الله: "والفهم فطنة يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به من قول أو فعل" الفتح (١/ ١٦٥).

فلو كان العبد حافظًا للنصوص، مدركا لمعناها، وضابطًا لقواعد العلم، محصِّلًا لعلوم الآلة وغيرها؛ ما نفعه ذلك كلَّه إن لم يصحبه معونة ورعاية وعناية وهداية من الله -تعالىٰ-.

قال بعضهم:

إذا لَمْ يَكُنْ عونٌ من الله للفتىٰ ... فأوَّلُ ما يجني عليه اجتِهادُهُ
فإن كان عونُ اللهِ للعبدِ واصلًا ... تأتَّىٰ له من كلِّ شيءٍ مدادُهُ

ومِمَّا **يُعين علىٰ الفهم والفقه**: كثرة الاطلاع علىٰ نصوص الشرع، مع شروح العلماء لها، والتمكُّن من علوم الآلة، والدُّربة علىٰ الاستنباط، وعرض ما استنبطه علىٰ أهل الاجتهاد، مع الإخلاص والنية الحسنة، والاستعانة بالله -تعالىٰ-، علىٰ الفهم، وكثرة الدعاء واللجوء إلىٰ الله -تعالىٰ-، ومجالسة ومصاحبة أهل العلم لا سيَّما الكبار منهم وأهل الاجتهاد، والاطلاع علىٰ طرق استنباط أهل الفقه، واستدلالاتهم.

و**عليك يا طالب العلم!** بكثرة التضرُّع إلىٰ الله والتذلل بين يديه، ولا سيَّما في أوقات الإجابة، وكذلك اللهج بالأدعية المأثورة؛ مثل ما ورد في الحديث الصحيح أنَّه ﷺ كان يقول: «**اللهم! ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السماوات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحقِّ بإذنك؛ إنَّك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**». أخرجه مسلم (٧٧٠).

فهذا **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ كان يقول: "ربَّما طالعت علىٰ الآية الواحدة نحوَ مائةِ تفسير، ثمَّ أسأل الله الفهم؛ وأقول: يا معلِّم آدم وإبراهيم! علِّمني، وكنت أذهب إلىٰ المساجد المهجورة ونحوها وأمرِّغ وجهي في التراب؛ وأسأل الله -تعالىٰ- وأقول: يا معلِّم إبراهيم! فهِّمني". العقود الدرية في مناقب ابن تيمية (ص ٤٢، ت: الفقي).

والأمرُ كما قال **ابن القيم** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: "ومن الله سبحانه الاستمداد، وعليه التوكُّل وإليه الاستناد؛ فإنَّه لا يخيبُ من توكَّل عليه، ولا يضيعُ من لاذَ به وفوَّض أمرَه إليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل". مفتاح دار السعادة (١/ ٣٢، ط: علمية)، فلا ينبغي أن يعتمد العبد علىٰ حفظه وذكائه، وما لديه من محفوظات، وعلوم آلة ونحو ذلك، فيؤتىٰ من قِبَلِ نفسه، ويكله الله إليها، ويخذله، ولا يوفق للصواب والحقِّ.

والنيات الصالحات من أعظم ما يفتح الله بها علىٰ العبد في فهم القرآن والسنَّة، ومن هذا ما جاء في الأثر المعروف الذي رواه **إبراهيمُ بن يعقوبَ الجوزَجانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد ذكره

الطلَمنكِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عن زياد عن **معاذ بن جبل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "يقرأ القرآن رجلان؛ **فرجل**: له فيه هوًىٰ ونيةٌ يفْلِيه فَلْيَ الرأس يلتمس أن يجد فيه أمرًا يخرج به علىٰ الناس؛ أولئك شِرارُ أمَّتهم، أولئك يُعمِي الله عليهم سُبل الهدىٰ، **ورجلٌ**: يقرؤه ليس فيه هوىٰ ولا نية يفليه فلي الرأس، فما تبيَّن له منه عمل به وما اشتبه عليه وكَله إلىٰ الله؛ ليتفقهنَّ فيه فِقهًا ما فقهَه قوم قطُّ، حتىٰ لو أنَّ أحدهم مكث عشرين سنة؛ فليبعثنَّ الله له من يبيِّنُ له الآية التي أشكَلت عليه أو يُفهِّمه إياها من قبل نفسه"[(٦٤١)]. **إسناده لا بأس به.**

فينبغي **لطلاب العلم** أن يعتنوا بالتفقُّه في كتاب الله -تعالىٰ- وفي كتب السنَّة والحديث والأثر، وأن يكون هذا شأنُهم في العلم، وهِجِّيرُهم في الدعوة إلىٰ ذلك.

وهذا من معاني قوله -تعالىٰ-: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ** ...﴾ الآية [التوبة: ١٢٢]، قال العلامة **الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنَّما هو إنذارٌ بالوحي ممَّن تفقَّه في الدِّين، وصار يُنذِر بما علِمه من الدِّين؛ كما يدلُّ عليه قوله -تعالىٰ- قبله: ﴿**لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**﴾، فهو يدلُّ علىٰ أنَّ قوله: ﴿**وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ**﴾؛ أي: بما تفقَّهوا فيه من الدِّين، وليس التفقُّه في الدِّين؛ إلا علمَ كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

فتبيَّنَ أنَّ الآية لا دليل فيها البتة لطائفة التقليد، الذين يوجبون تقليد إمام بعينه، من غير أن يُرَدَّ من أقواله شيء، ولا يؤخذَ من أقوالِ غيره شيءٌ، وتُجعل أقوالُه عيارًا لكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ: فما وافق أقواله منهما؛ قُبل، وما لم يوافقها منهما؛ رُدَّ.

وهذا النوع من التقليد لا شكّ في بطلانه، وعدم جوازه". أضواء البيان (٧/ ٥٦٠-٥٦١ ط. عطاءات العلم).

ولقد حثَّ العلماء علىٰ التفقه في الدِّين لقوله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**». **متفق عليه**، وقوله ﷺ في دعائه لابن عمِّه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**». **متفق عليه**، وأخرجه ابن حبان (٧٠١٥) واللفظ له.

---

(٦٤١) إن كان زياد المذكور ثقة، وهو الظنُّ به؛ لأنَّ طبقته طبقة كبار التابعين؛ حيث روىٰ عن معاذ، وروىٰ عنه تابعي، ومع ذلك فإنِّي لم أقف عليه، وعمارة بن راشد محلُّه الصدق، وقد روىٰ عنه جمع من أهل الشام ومصر، وهو في عداد التابعين، وهي طبقة عليا ولم يجرحه أحد، **ينظر**: مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٩٤).

قال **أبو عمر بن عبد البرِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"القرآنُ أصلُ العلم**: فمن حفظه قبل بلوغه، ثَّم فرغَ إلىٰ ما يستعينُ به علىٰ فهمه من لسان العرب؛ كان ذلك له عونًا كبيرًا علىٰ مراده منه، ومن سنن رسول الله ﷺ، ثمَّ ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه ويقف علىٰ اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك؛ وهو أمرٌ قريبٌ علىٰ من قرَّبه الله -عزَّ وجلَّ- عليه، ثمَّ ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله ﷺ؛ فبها يصل الطالب إلىٰ مراد الله -عزَّ وجلَّ- في كتابه؛ **وهي تفتح له أحكام القرآن فتحًا"**. جامع بيان العلم (٢/ ١١٢٩، ط: ابن الجوزي). **قلت**: وهو كلام مهم جدًّا لطلاب العلم.

وأخرج ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن **ابن عون** رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: "ثلاثٌ أحبُّهنَّ لي ولإخواني: هذا القرآن يتدبُّره الرجل ويتفكَّر فيه، فيوشك أن يقع علىٰ علم لم يكن يعلمه؛ وهذه السنَّة يطلبها ويسأل عنها، ويذر الناس إلا من خير"، قال **أحمد بن خالد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، فكان ابن وضَّاح رَحِمَهُ اللَّهُ يعجبه الخبر؛ ويقول: جيِّد جيِّد". وأخرجه البخاري معلقًا، وانظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٦٦)، (١٤١٥).

فالحفظ وحده لا يكفي؛ بل ينبغي الاعتناء بالفهم والتفقُّه في الكتاب والسنَّة؛ وفي الأثر عن **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "... خلا عمر بن الخطاب ذات يوم فجعل يحدِّث نفسه، فأرسل إلىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: "كيف تختلف هذه الأمَّة، وكتابها واحد، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟" قال **ابن عباس**: "يا أمير المؤمنين، إنَّما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنَّه يكون بعدنا أقوامٌ يقرءون القرآن ولا يعرفون فيم نزل، لكلِّ قوم فيه رأي، فإذا كان لكلِّ قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا ...". سبق تخريجه.

وعن **عبدالله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إنَّك في **زمان**: كثيرٌ فقهاؤه، قليل قرَّاؤه، تُحفظ فيه حدودُ القرآن وتُضيَّع حروفه؛ ...؛ يطيلون فيه الصلاة، ويقصرون الخطبة؛ يبدون أعمالهم قبل أهوائهم، وسيأتي علىٰ الناس **زمان**: قليلٌ فقهاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن وتُضيَّع حدوده؛ ...؛ يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة؛ يبدون فيه أهواءهم قبل أعمالهم"[٦٤٢]. **صحيح**.

---

(٦٤٢) **صحيح**: أخرجه مالك في الموطأ -رواية يحيىٰ- (٨٨)، منقطع، وقال الحافظ في " الفتح" (١٠ / ٥١٠): وسنده صحيح، ومثله لا يقال من قبل الرأي، **ينظر**: الصحيحة (٣١٨٩)، بل ورد مرفوعًا عن **حكيم بن حزام** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكم قد أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه، قليل خطباؤه، كثير

قال **أبوعبدالرحمن السُّلمي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "حدَّثنا من كان يُقرِئنا[٦٤٣] من أصحاب النبي ﷺ: أنَّهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرىٰ حتىٰ يعلموا ما في هذه من العلم والعمل؛ قالوا: **فعَلِمنا العِلمَ والعملَ**". **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٣٨/ ٤٦٦، ط: الرسالة)، (٢٣٤٨٢).

وفي رواية: "... قال: وقالوا: **علِمنا القرآنَ والعملَ جميعًا**". أخرجها الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٤٤)، (١٤٥٢).

وعن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "كان الرجل منّا إذا تعلَّم عشر آيات، لم يجاوزهنّ حتىٰ يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ"[٦٤٤]. **سنده صحيح**.

وورد مثل هذا المعنىٰ عن **عبد الله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "لقد عشنا بُرهةً من دهرٍ (وفي رواية الحاكم: دهرنا) وأحدنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة علىٰ محمد ﷺ؛ فيتعلَّم: حلالها وحرامها وآمِرَها وزاجِرَها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها؛ كما تتعلَّمون أنتم اليوم القرآن، ثمَّ لقد رأيتُ اليوم رجالًا يؤتىٰ أحدهم القرآن قبل الإيمان؛ فيقرأ ما بين فاتحته إلىٰ خاتمته: ولا يدري ما آمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه؛ ويَنْثِرُه نَثْرَ الدَّقَلِ"[٦٤٥]. **صحيح**.

قال -تعالىٰ-: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة: ٥]، فشبَّه تالي التوراة من غير أن يفهمه كمثل الحمار يحمل أسفارًا؛ فدخل في عموم هذا: من يحفظ القرآن من أهل ملتنا، ثمَّ لا يفهمه، ولا يعمل بما فيه.

معطوف قليل **سؤَّالُه العمل فيه خير من العلم، وسيأتي [من بعدكم]، زمان قليل فقهاؤه، كثير خطباؤه، كثير سؤَّاله، قليل معطوه، العلم فيه خير من العمل**».

(٦٤٣) يعني: عبد الله بن مسعود، وعثمان بن عفان، وأبيَّ بن كعب، فقد سمَّاهم السلمي في بعض الروايات.

(٦٤٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٢٥٨١) -واللفظ له-، وأبو داود (٨٣٠) من حديث **جابر بن عبدالله**، ومن حديث **سهل بن سعد** (٨٣١)، وهو في الصحيحة تحت (٢٥٩).

(٦٤٥) **صحيح**: أخرجه الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٤/ ٨٤)، (١٤٥٣)؛ واللفظ له- وفي رواية: "**ينثرونه نثر الدقل**". أخرجها الطبراني في الأوسط (٦/ ١٨٧)، (٦١٤٤)-، والحاكم في المستدرك (١/ ٢٣٥، ط: المنهاج القويم)، (١٠١)؛ وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين، ولا أعرف له علَّة ولم يخرجاه.

وفي الحديث: عَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «**إِنَّ فِيكُمْ خَيْرًا مِنْكُمْ** -يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ-: **وَتَقْرَءُونَ كِتَابَ اللهِ، فِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ، وَالْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ، وَسَيَأْتِي زَمَانٌ يَقْرَءُونَ فِيهِ الْقُرْآنَ يَتَثَقَّفُونَهُ كَمَا يَتَثَقَّفُ الْقَدَحُ، يَتَعَجَّلُونَ أُجُورَهُمْ وَلا يَتَأَجَّلُونَهَا**»(٦٤٦). صحيح.

وعن **حذيفة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "إنَّ من أقرأ الناس منافقًا، لا يترك واوًا، ولا ألفًا يلفته بلسانه، كما تلتفت البقرة الخلا بلسانها، لا يتجاوز ترقوته". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٨٧٣٦).

ومن هنا يتبيَّن خطأ من يسارع في حفظ القرآن دون فهم معناه، وهو ما نراه اليوم من كثرة مراكز تحفيظ القرآن، دون الاعتناء بتفسيره؛ ولذلك يقلُّ العمل به، وتحدث الفتن العظام، وكتاب الله -تعالىٰ- بين أيدينا الذي به النور والهدىٰ، وذلك أنَّنا لا نتعامل معه كما تعامل السلف مع كتاب ربِّهم وسنَّة نبيهم؛ قال **الطُّرطوشي** رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الماتع: الحوادث والبدع (ص ٩٦)-: "**وممَّا ابتدعه الناس في القرآن الاقتصار علىٰ حفظ حروفه؛ دون التفقُّه فيه**، وروىٰ مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في "موطئه"-: "أنَّ **عبدالله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مكثَ في سورة البقرة ثماني سنين يتعلَّمها"(٦٤٧).

قال **علماؤنا**: معنىٰ ذلك: أنَّه كان يتعلَّم فرائضها، وأحكامها، وحلالها، وحرامها، ووعدها، ووعيدها، وغير ذلك من أحكامها.

وروي عن مالك في "العُتْبِيَّة" قال: "كُتِبَ إلىٰ **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من العراق يخبرونه أنَّ رجالًا قد جمعوا كتاب الله -تعالىٰ-، فكتب عمر: أنِ افْرِضْ لهم في الديوان. قال: فكثر من يطلب القرآن، فكتب إليه من قابل أنَّه قد جمع القرآن سبع مائة رجل. فقال **عمر**: إنِّي لأخشىٰ أن يسرعوا في القرآن قبل أن يتفقَّهوا في الدين. فكتب ألا يعطيهم شيئًا". الحوادث والبدع

---

(٦٤٦) **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (١٢٥٨١)، والفريابي في فضائل القرآن (١٥٨) من طريق قتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة، وله شواهد، منها ما رواه أحمد من طريقين عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم رأىٰ قوما يقرأون القرآن فقال: (اقرأوا القرآن قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجَّلونه ولا يتأجَّلونه). وإن كان الصحيح فيه الإرسال فإنَّه شاهد قوي.

(٦٤٧) **صحيح**: أخرجه مالك في "موطئه" بلاغًا، ولكن أخرجه ابن سعد في الطبقات عن عبد الله بن جعفر، عن أبي المليح، عن ميمون، "أن **ابن عمر** تعلَّم البقرة في ثمان سنين"، وأخرجه الخطيب في رواة مالك، عن **ابن عمر**: "أنه تعلَّم البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورًا".

(ص ٩٧)؛ قال **مالك**: "معناه: مخافة أن يتأوَّلوه غير تأويله". أي: يفسِّرونه علىٰ غير تفسيره.

وهذا هو حال كثير من المقرئين في هذه العصور؛ فإنَّك تجد أحدهم يروي القرآن بمائة رواية، ويثقِّف حروفه تثقيف القدح، وهو أجهل الجاهلين بأحكامه ...

وسُئل **مالك** رَحِمَهُ اللَّهُ عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن، فقال: "ما أرىٰ هذا ينبغي".

وإنَّما وجه إنكاره ما تقرَّر عند الصحابة والسلف من كراهة التسرُّع في حفظ القرآن دون التفقُّه فيه؛ فيحملونه علىٰ غير معناه الصحيح، فيحدث من وراء ذلك الخلاف الشديد، بل ربَّما وصل إلىٰ التقاتل بينهم.

فمن أراد الهدىٰ فليسلك الجادَّة من سبيل المؤمنين، قال شيخنا العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكان سلف الأمة علىٰ تلك الطريقة الواجبة، يتعلَّمون القرآن ألفاظه **ومعانيه؛ لأنَّهم بذلك يتمكَّنون من العمل بالقرآن علىٰ مراد الله به؛ فإنَّ العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن**".

تفسير الفاتحة والبقرة/ المقدمة (ص ٢٨).

وأمَّا **التفقُّه في الحديث والسنة**؛ فقد قال **الخطيب البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "والواجب علىٰ من خصَّه الله تعالىٰ بهذه المرتبة، وبلَّغه إلىٰ هذه المنزلة، أن يبذل مجهوده في تتبُّع آثار رسول الله ﷺ وسنَّته، وطلبها من مظانِّها، وحملها عن أهلها، والتفقُّه بها والنظر في أحكامها، والبحث عن معانيها والتأدُّب بآدابها". الكفاية (ص ٥).

ولذلك قال **وكيع** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يا فتيان **تفهَّموا فقه الحديث**، فإنَّكم إن تفهَّمتم فقه الحديث لم يقهركم أهل الرأي". **إسناده صحيح**: أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٧٨٨)، وهو في "نصيحة أهل الحديث" (ص٤١).

وعن عبدالعزيز بن يحيىٰ قال: قال لنا **سفيان بن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يا أصحاب الحديث **تعلَّموا معاني الحديث** فإنِّي تعلمت معاني الحديث ثلاثين سنة". الآداب الشرعية (٢/ ١٢٥).

وقال **بدر الدين ابن جماعة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأن يبكِّر بسماع الحديث ولا يهمل الاشتغال به وبعلومه والنظر في إسناده ورجاله **ومعانيه وأحكامه وفوائده** ولغته وتواريخه.

ويعتني أولًا بصحيحي البخاري ومسلم، ثمَّ بقية الكتب الأعلام، والأصول المعتمدة في هذا الشأن **كموطأ مالك، وسنن أبي داود، والنسائي، وابن ماجه، وجامع الترمذي**، ومسند

الشافعي، ولا ينبغي أن يقتصر علىٰ أقلَّ من ذلك.

ونِعْمَ المعين للفقيه كتاب السنن الكبير لأبي بكر البيهقي، ومن ذلك المسانيد كمسند أحمد ابن حنبل، وعبد بن حميد، والبزار.

ويعتني بمعرفة صحيح الحديث وحسنه وضعيفه، ومسنده ومرسله، وسائر أنواعه، فإنَّه أحد جناحي العالم بالشريعة، والمبيِّن للكثير من الجناح الآخر وهو: القرآن، ولا يقنع بمجرد السماع كغالب محدِّثي هذا الزمان، بل يعتني بالدراية أكثر من اعتنائه بالرواية". تذكرة السامع (ص ٢٢٤).

واعلم أنَّ فهم العلماء للنصوص هو من الرأي والاجتهاد الذي عمل به السلف، وقالوا به؛ وهو ممدوح وليس مذمومًا، فعن **ابن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "ليكن الذِي تعتمد عَلَيْهِ هَذَا الْأَثر وَخذ من الرَّأْي مَا يُفَسِّر لَك الحَدِيث". **صحيح**: أخرجه الهروي في ذمّ الكلام (٣٣٥)، وابن عبدالبر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٣١، ١٠٥٠، ١٠٧٠)، وهذا أثر عظيم يبيِّن فيه رَحِمَهُ اللَّهُ كيف أنَّهم كانوا يحرصون علىٰ اتباع السلف والأثر والدليل، ويعظِّمون النصوص، ويبحثون عن أدلَّة وأصول المسائل؛ فمتىٰ وجدوا النصَّ الصحيح الصريح قالوا وعملوا به.

ويبيِّن أيضا أنَّ الأئمَّة والسلف مع ذلك لم يغفلوا فقه النص، والتفهُّم له، والبحث عن معناه؛ ولذلك قال -**ابن المبارك**-: "**وَخذ من الرَّأْي مَا يُفَسِّر لَك الحَدِيث**"؛ فينبغي لمن يدرس السنَّة أن يتفقَّه فيها، فيتصوَّر المسائل، ويتعلَّم طرق الاستنباط وكيف يتعامل مع الأدلَّة، وكيف يجمع ويوفِّق بينها، ويتدرَّب علىٰ التفقُّه والقياس، ويتعرَّف علىٰ مواطن الإجماع والخلاف.

لكن بعدما يثوِّر القرآن والسنَّة، ويبحث عن معانيهما أولًا، ويعتني بالأصول من النصوص والآثار حفظًا وكتابة ودراسة وتعلُّمًا.

ودليل ذلك أيضا قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩]. **والرباني**: الذي يعلِّمُ الناس صغار العلم قبل كباره، والمقصود بذلك: ما وضحت أدلَّته قبل الغامض الذي يحتاج إلىٰ قياس وإنعام نظر، وبحث وتمحيص وتدقيق.

٧٢- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِاللهِ (بن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم)، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ أَبِي

نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ(٦٤٨) (بن جبر أبوالحجاج، مات بمكة وهو ساجد)، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- إِلَىٰ المَدِينَةِ فَلَمْ أَسْمَعْهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ (قلب النخلة وشحمتها)، فقال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً، مَثَلُهَا كَمَثَلِ المُسْلِمِ»، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ، فَإِذَا أَنَا أَصْغَرُ القَوْمِ، فَسَكَتُّ (أي: استحياءً)، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هِيَ النَّخْلَةُ».

تقدم في: (العلم٦١).

الشرح

قوله: (كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأُتِيَ بِجُمَّارٍ ...)، هذا الحديث يدلُّ علىٰ فهم ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا للحديث ونظره للقرائن التي توصَّل من خلالها للعلم.

قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "التفهُّم للعلم هو التفقُّه فيه، ولا يتمُّ العلم إلا بالفهم؛ لذلك قال **عليّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "والله ما عندنا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مؤمن"، فجعل الفهم درجة أخرىٰ بعد حفظ كتاب الله، لأنَّ بالفهم له تبين معانيه وأحكامه". شرح البخاري (١/ ١٥٧).

وقد نفىٰ ﷺ العلم عمَّن لا فهم له بقوله: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ وَلَا فِقْهَ لَهُ**»، صحيح: أخرجه الدارمي (٢٣٤).

والعلم مواهب، يهبه الله لمن يشاء من عباده، وعلىٰ قدر الدين والنية الحسنة يوفِّق الله العبد ويفتح عليه فيه، وفي الحديث عند البخاري (٣٩٠٤): «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**» فَبَكَىٰ أبوبَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَىٰ هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ ...، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ، **وَكَانَ أبوبَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ**.

وليس العلم متعلقًا بسعة الاطلاع فحسب، أو كثرة الحفظ، أو كثرة الكتب، بل قد يفتح الله -سبحانه وتعالىٰ-، علىٰ صغيرٍ في العلم ما لا يفتحه علىٰ كبير، كما قال -تعالىٰ-: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا**

(٦٤٨) قال: "عرضت القرآن علىٰ ابن عباس ثلاثين مرة"، وقال: "كان **ابن عمر** يأخذ لي الركاب ويسوِّي عليّ ثيابي إذا ركبت".

﴿سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وكما في حديث الباب.

وتقدَّم الكلام علىٰ هذا الحديث وفوائده قريبًا(٦٤٩)، ولله الحمد.

تنبيه:

ينبغي أن يكون التفقُّه في القرآن والسنَّة بالنظر فيما ذكره العلماء في معناها، وليس فهمًا من قِبَلنا نحن، فمنهجنا أن نفهم الكتاب والسنَّة بفهم أهل العلم، كي لا يظنَّ ظانٌّ أنَّنا نهجم عليهما، فنأخذ منهما مباشرة ونجسر علىٰ النصوص دون معرفة لمعانيها وشرح العلماء لها.

علىٰ أنَّه لا حكر علىٰ أحد في فهم النصوص، وقد يفتح الله علىٰ العبد في فهم نصٍّ ما لا يفتح علىٰ آخر، والمهم ألاَّ يخالف فهمه القواعد، ولا يخالف الأمَّة ولا يخرج بفهم يشاقُّ به الرسول والمؤمنين، ويخالف النصوص، والإجماع ونحوه، فيتفهَّم ويتفقَّه كما قال **عليّ** رضي الله عنه-: "إلا فهمًا يعطىٰ رجل في كتابه". مشكاة المصابيح (٢/ ١٠٣٠)، وهذا من معاني التدبُّر المأمور به كلُّ مسلم، ﴿**لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ**﴾ [ص: ٢٩]، فيتدرَّب الطالب علىٰ التفقُّه في النصوص، كما كان النبي ﷺ يختبر ما عندهم من فهم، وحديث ابن عمر دليل علىٰ ذلك، وسؤال النبي ﷺ أصحابه عن شجرة تشبه المؤمن وقال: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»، فمادام أنَّه سيعرض ما فهمه علىٰ شيخ متقن، وعالم بصير؛ فلا إشكال، كما قال عروة حين عرض علىٰ **عائشة** رضي الله عنها ما فهمه من قوله: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ**﴾ [البقرة: ١٥٨]، وخَطَّأته في فهمه، فبهذا يتدرَّب علىٰ الاستنباط الصحيح، فيُصَوِب له الصواب، ويخطِّئه إن أخطأ، وهكذا يصل الطالب بعد مدَّة، إلىٰ درجة لا بأس بها من الفقه والعلم، واستعمال النصوص، والاستنباط الصحيح.

فيه مراعاة العالم وعدم الإثقال عليه. **وفيه** النظر إلىٰ القرائن، ألا ترىٰ **ابن عمر** رضي الله عنهما قد توصل لمقصود النبي ﷺ من القصَّة، حيث أُتِيَ للنبي ﷺ بالجمَّار فسأل عن الشجرة، وقَوِيَ ذلك عنده بقوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ**﴾ [إبراهيم: ٢٤].

وفيه ما كان عليه بعض السلف من التوقِّي من كثرة الرواية عن النبي ﷺ، خشية الخطأ. **وفيه** أنَّ سبب ورود الحديث هو ممَّا يعين علىٰ فهمه، كما أنَّ سبب نزول الآية هو أيضًا ممَّا يعين

---

(٦٤٩) باب طرح الإمام المسألة علىٰ أصحابه ...، باب رقم (٥)، حديث رقم (٦٢).

علىٰ فهمها.

بَابُ الِاغْتِبَاطِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه-: "تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا"(٦٥٠).

قَالَ أَبُوعبدالله: "وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا، وَقَدْ تَعَلَّمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي كِبَرِ سِنِّهِمْ".

قوله: (بَابُ الِاغْتِبَاطِ فِي العِلْمِ وَالحِكْمَةِ)، الاغتباط والغبطة بمعنىٰ: وهو تمني مثلِ نعمة الغير بدون زوالها عنه -فهو ليس بحسد-، وقد تأتي الغبطة بمعنىٰ: الفرح. انظر: مجمع البحار، مادة: غبط

قال ابن المُرحَّل:

وَقَدْ غَبَطْتُ الْمَرْءَ فِي أَحْوَالِهِ ... أَغْبِطُهُ بِالْكَسْرِ فِي اسْتِقْبَالِهِ
أَعْنِي تَمَنَّيْتُ لِنَفْسِي مِثْلَ مَا ... لَهُ وَلاَ يُسْلَبُ تِلْكَ النِّعَمَا(٦٥١)

وقد أتىٰ البخاري بهذه الترجمة لبيان جواز الاغتباط في العلم والحكمة؛ بل وأن تزيد علىٰ من غبطتَه وتُنافسَه؛ ما دام الأمر يتعلق بهذا الخير -ألا وهو: العلم النافع-.

وذكر في الباب السابق: ذكرَ الفهم في العلم، وفي هذا: الاغتباطَ في العلم: لأنَّه كلَّما زاد فَهم الرجل في العلم؛ زادت غبطته فيه، وتمنَّىٰ للناس أن يكونوا مثله.

وقوله: "الِاغْتِبَاطِ"، يعني: الاعتقاد أنّ هذا الشيء فيه غبطةٌ؛ وهي: كالغنيمة يظفر بها الإنسان؛ فتكون عنده.

وقوله: "فِي العِلْمِ وَالحِكْمَةِ"، لأنّ العلم بلا حكمة لا فائدة منه أو فائدته قليلة، لكن العلم مع الحكمة -وهي: وضع الأشياء مواضعها مع معرفة أسرار الشريعة-؛ فهذا الذي تتم به الفائدة العلم.

وقول عمر رضي الله عنه-: (تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا)، أي: قبل أن تكونوا سادة ورؤساء.

وذلك أنّ الإنسان إذا صار سيدًا في قومه يمنعه من كسب العلم شيئان: الاشتغال بأمور

---

(٦٥٠) صحيح: وصله أبو خيثمة في "العلم" (٩) بسند صحيح، وكذا ابن أبي شيبة (٨/ ٥٤٠).
(٦٥١) متن موطأة الفصيح لابن المرحل (ص ٦)، ت: عبد الله بن محمد (سفيان) الحَكَمي.

الناس، والاستحياء من الناس خوفًا علىٰ رياسته؛ ولهذا قال **ابنُ معين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَن عالج الرياسةَ؛ فاته علمٌ كثير". فوائد عبدالغني الأزدي (٢٥، ط: دار المغني).

وقال **أبو عبيد القاسم بن سلاَّم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: تفقَّهوا قبل أن تسوَّدوا؛ يقول: تعلَّموا العلم ما دُمتم صغارًا قبل أن تصيروا سادةً رؤساءَ منظورًا إليكم، فإن لم تعلَّموا قبل ذلك؛ استحييتم أن تعلموه بعد الكِبَرِ؛ فبقيتم جُهَّالًا تأخذونه من الأصاغر؛ فيُزرِي ذلك بكم". غريب الحديث (٣/ ٣٦٩، ط: الهندية).

ثمَّ إن العلم يتحقَّق للمرء إذا اغتنم وقتَ فراغه قبل شغله، وصغرَه قبل كبره، فيحرص من الازدياد في التحصيل؛ فينال العلم ويزداد فقهًا؛ فيغتبط به، لأنَّ العلم سبب سيادته، فإذا ساد؛ انشغل عن تحصيل العلم، **وممَّا يؤكد هذا المعنىٰ**: ما ورد عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**». سيأتي برقم (٦٤١٢)، وعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل -وهو يعظه-: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحَّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**». صحيح: أخرجه ابن أبي الدنيا في "قصر الأمل" (١١١)، والحاكم (٧٨٤٦)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٥٥). فهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها، ولات ساعة مندم، وحثَّ **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -علىٰ العلم، وألَّا يتركه المرء حيث قال: "اغد عالمًا أو متعلِّمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتهلك". صحيح: أخرجه أبوخيثمة (١١٦).

وعن هشام بن عروة عن **أبيه**، أنَّه كان يجمع بنيه فيقول: "**يا بني تعلَّموا**، فإن تكونوا صغار قوم، فعسىٰ أن تكونوا كبار آخرين، وما أقبح علىٰ شيخ يسأل ليس عنده علم". صحيح: أخرجه الدارمي (٥٧١).

وكان **الأعمش** رَحِمَهُ اللَّهُ يوصي بسماع الحديث في الصغر ويقول: "إذا رأيت الشيخ لم يكتب الحديث، اشتهيت أن أصفعه بنعلي". صحيح: أخرجه الخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص١٣٥)، وابن المقرئ في معجمه (٤٧٨).

وقال **مالك** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من عيب القاضي أنَّه إذا عزل لم يرجع إلىٰ مجلسه الذي كان يتعلَّم فيه". وقال أيضًا: "وكان الرجل إذا قام من مجلس ربيعة إلىٰ خطَّة أو حكم لم يرجع إليه بعدها"

انظرهما في التوشيح شرح الجامع الصحيح (٣/ ٣٦٠).

ففي أثر عمر وابن مسعود الأمر بتعلم العلم، وعدم تركه، مهما كانت المشاغل، وإن كان الكثير من الناس يتركون العلم والتعلُّم، ولا سيما عند المسؤوليات والرئاسات.

فعن موسىٰ بن عُلَيّ بن رَبَاح، عن **أبيه**، أنّ لقمان الحكيم قال لابنه: "يا بني ابتغ العلم صغيرًا فإنَّ ابتغاء العلم يشق علىٰ الكبير". **صحيح**: جامع بيان العلم (٥١٢).

وعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "لـمَّا قُبض رسول الله ﷺ وأنا شاب، قلت لشاب من الأنصار: يا فلان هلمَّ فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ ولنتعلَّم منهم؛ فإنَّهم كثير، قال: العجب لك يا ابن عباس، أترىٰ أنَّ الناس يحتاجون إليك وفي الأرض من ترىٰ من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: فتركت ذلك وأقبلت علىٰ المسألة وتتبُّع أصحاب رسول الله ﷺ، فإن كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنَّه سمعه من رسول الله ﷺ فأجده قائلًا، فأتوسَّد ردائي علىٰ بابه تسفي الريح علىٰ وجهي حتىٰ يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عمِّ رسول الله ﷺ ما لك؟ فأقول: حديثٌ بلغني أنَّك تحدِّث به عن رسول الله ﷺ فأحببت أن أسمعه منك، قال: فيقول: فهلَّا بعثت إليَّ حتىٰ آتيك، فأقول: أنا أحقُّ أن آتيك، فكان ذلك الرجل بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله ﷺ واحتاج إليَّ الناس، فيقول: كنت أعقل مني". **إسناده صحيح**: أخرجه البخاري، وهو في جامع بيان العلم (٥٠٧)، (٦٢٩٤) -واللفظ له-، الدرامي (٥٩٠).

وعن **عبدالله**، -ابن مسعود- قال: "لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ، ومن أكابرهم، فإذا جاء العلم من قبل أصاغرهم فذاك حين هلكوا". **صحيح**: أخرجه ابن عبدالبر في "الجامع" (٥٧٨).فينبغي للكبار ألَّا يهملوا العلم، وطلب الحديث.

ولهذا ذمَّ السلف ذلك، فعن عكرمة قال: كان **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يضع في رجلي الكَبَل ويعلِّمني القرآن والسنن. **صحيح**: أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٢/ ٢٦٨).

وقال **الشافعي**: "إذا تصدَّر الحدَثُ (الفَتَىٰ) فاته علم كثير". (أورده الحافظ في الفتح)، (صفوة الصفوة (١/ ٤٣٥، ط: دار الحديث).

وقال أيضًا: "تفقه قبل أن ترأس، فإذا ترأست فلا سبيل إلىٰ التفقُّه". المدخل إلىٰ السنن (٣٧٥)، والفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٢).

فينبغي أن يتعلَّم ويتفقَّه قبل الشغل، فيتعلَّم فقه التجارة قبل أن يدخل فيها؛ كي لا ينشغل بها عن العلم، وكي لا يقع في محظور، أو مخالفات فيها، وقُل مثل ذلك في الحجِّ، والنكاح وكلُّ ما وجب علىٰ المرء فعله وجب عليه تعلُّمه، وفي الحديث: «**إنَّ الولد مبخلة مجبنة مجهلة محزنة**». **صحيح**: أخرجه الحاكم (٥٣٧٥)، وهو في صحيح الجامع (١٩٩٠)؛ يصرف والده عن العلم، ويشغله عنه، وهكذا سائر الولايات، وإذا تزوَّج الرجل فقد استكمل شطر دينه؛ فليتَّق الله في الشطر الباقي.

قال **الإمام الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قال قائل: فإنّ العلم كثير لا يدركه كلُّ أحد فيفرض علىٰ كل مسلم طلبه!

قيل له: العلم علىٰ وجوه كثيرة؛ فمنه علم لا يسع المسلم جهله، غنيًا كان أو فقيرًا، صحيحًا أو زَمِنًا، حرًا أو عبدًا، إذا كان عاقلاً بالغًا في كلِّ وقت، وفي كل زمان ممَّا ينبغي أن يكون مصحوبه في الحضر والسفر وعند كل حال: وذلك معرفة الله -عزَّ وجلَّ- بصفاته، بصحة توحيده وإخلاصه فيه، ومعرفة عدوِّه إبليس، ومعرفة نفسه الأمَّارة بالسوء، ومعرفة طهارته وصلاته كيف يؤدِّي خمس صلوات لله -عزَّ وجلَّ- في كلِّ يوم وليلة، وكمال الطهارة، والغسل من الجنابة، هذا ما لا يسع كلَّ مسلم جهله، بل فرض علىٰ كلِّ من ذكرنا علمه والعمل به.

والعلم معرفة ما بني عليه الإسلام، إذ قال النبي ﷺ: «**بني الإسلام علىٰ خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجُّ البيت إن استطاع إليه سبيلًا**». متفق عليه. ليس يسعُ المسلم أن يجهل ذلك وفرض عليه علمه حتىٰ يكون مصحوبه في كل وقت، حتىٰ إذا رزقه الله -الكريم- مالًا علم كيف يؤدِّي زكاته، وإذا ورد شهر رمضان علم كيف يصومه، وما يحلّ له، وهكذا إذا أراد الجهاد[٦٥٢] طلبَ علمَ ما وجب

---

(٦٥٢) **قلت**: حتىٰ يعلم من يزعم في زماننا هذا أنَّه يريد الجهاد في سبيل الله وهو لم يتعلَّم أحكامه، وأنَّه لا يجوز له ولا يحلّ أن يقدم عليه حتىٰ يتعلَّم أحكامه، وإلا وقع في غلط وخلط، واستباح ما حرَّمه الله -تعالىٰ-، ووقع في مخالفات كثيرة كما هو مشاهد، فليرجعوا إلىٰ أهل العلم لا إلىٰ أصحاب الحماسات والسياسات والحماقات من المتهوِّرين، والمثقفين من الحركيين ونحوهم، فإنّ من أشراط الساعة أن يتخذ الناس رؤوسًا جهَّالًا فيفتون بغير علم فيضلون جميعًا، كما جاء في الصحيحين، وقد قال ﷺ عمَّن سأل من ليس بعالم فأفتوه بجهل، قال: «**قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، إنما كان شفاء العيّ السؤال**»، فلا حول

عليه من أحكام الجهاد ولا يسعه أن يجاهد بجهل، فصار فرضًا عليه، وهكذا إذا اتَّجر بالأموال وهو لا يعلم الحلال من المكاسب ولا ما المحرمات منها وجب عليه فرضًا طلب علم ذلك، قال **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لا يتَّجر في سوقنا إلا من فقه، وإلا أحلّ الربا". **إسناده صحيح**: أخرجه الترمذي (٤٨٧).

وهكذا إذا أراد الدخول في أمرٍ واجب عليه أو مباح له؛ لم يسعه الدخول فيه حتىٰ يطلب علم ذلك؛ فصار فرضًا عليه طلب العلم بهذا النعت، قال **الآجري** رَحِمَهُ اللَّهُ: فلا ينفكُّ أبدًا من طلبه العلم لينتفي عنه الجهل بما أوجب الله -عزَّ وجلَّ- عليه من فرض عبادته في نفسه، وفي أهله[٦٥٣]، وفي ولده، وفي جميع سعيه فرضًا لازمًا يسعىٰ إلىٰ العلماء بإتعاب نفسه، وإنفاق ماله، وتغرُّبه عن وطنه ولو إلىٰ الصين إذا كان لا يوجد العلم إلا بالصين". فرض العلم للآجري بتحقيقي، بتصرف يسير.

وقول **أبي عبد الله البخاري**: (وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا)، أي: خشيةَ أن يفهم أحد من ذلك أنَّ السيادة مانعة من التفقُّه بعدها، وإنَّما أراد أن يبين أنَّ السيادة لا توجِب انتهاء طلب العلم، وأنَّه ينبغي علىٰ الإنسان حتىٰ لو سُوِّدَ وترأَّس وبلغ ما بلغ من السيادة؛ ألَّا يمنعه ذلك من طلب العلم.

قال **أبوالعباس أحمد بن يحيىٰ وابن المبارك** -رحمهم الله-: "لا يزال الرجل عالمًا ما طلب العلم، فإذا ظنَّ أنَّه قد علم فقد جهل". المجالسة وجواهر العلم (٣٠٨)، وقال **سعيد بن جبير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يزال الرجل عالمًا ما تعلَّم، فإذا ترك العلم وظنَّ أنَّه قد استغنىٰ، واكتفىٰ بما عنده كان أجهل ما يكون". الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٣٧)، وقيل لبعضهم: من متىٰ التعلم؛ وإلىٰ متىٰ؟ فقال: "من المهد إلىٰ اللحد"، وعن نعيم بن حماد قال: قيل **لابن المبارك** رَحِمَهُ اللَّهُ، إلىٰ متىٰ تطلب العلم؟ قال: "حتىٰ الممات إن شاء الله". جامع بيان العلم (٥٨٦)، وَقَالَ **سهلُ بنُ عبدالله** رَحِمَهُ اللَّهُ: ورأىٰ أصحاب الحديث: "اجتهدوا أن لا تلْقَوا الله إِلَّا ومعكم المحابر"، وفي "ذمّ الكلام" (لأبي

ولا قوة إلا بالله من زمان قليل فقهاؤه، كثير جهَّاله!!.

(٦٥٣) **قلت**: فانظر -يا عبد الله- إلىٰ ما ذكره أهل العلم في السعي في طلب العلم وتعليم الرجل أهلَه وولدَه؛ فإمَّا أن يقوم هو بذلك، أو إن كان مشغولًا، لا يقدر أن يعلِّم أولاده فإنَّه يلزمه أن يأتي لهم بمعلِّم يعلِّمهم، أو مؤدِّب يؤدِّبهم، كما يأتي بمدرِّس يدرِّسهم العلوم الدنيوية وهي ليست واجبة، فأولىٰ وأولىٰ تعليم الدين وما وجب.

إسماعيل الهروي)، بإسنادٍ، عن **سهل** رَحِمَهُ اللَّهُ وَقِيلَ لَهُ: إلىٰ متىٰ يكتب الرجل الحديث؟ قَالَ: "حَتَّىٰ يموت، ويُصبُّ باقي حبره عَلَىٰ قبره". تاريخ الإسلام (٢١/ ١٤٠).

قلت: طلب العلم عبادة، وقد قال -تعالىٰ-: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

ولذلك ظلَّ رسول الله ﷺ يتعلَّم ويُعَلِّم حتىٰ آخرِ حياته، ينزل عليه الوحي الثقيل، ويتحمَّل المشاقَّ في سبيل تحصيل العلم وتعليمه.

ومن المهمِّ أن يُعلم أن مَنْ طلبَ العلم ووظَّف نفسه في تحصيله، وتعليمه، فلا يسعه أن يتركه وإلا فقد يشمله الوعيد المذكور في الفِرار من الزحف.

٧٣- حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مَا حَدَّثَنَاهُ الزُّهْرِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ قَيْسَ بْنَ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: **سَمِعْتُ عبدالله بْنَ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ** ﷺ: «**لاَ حَسَدَ** (لا غبطةَ) **إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا؛ فَسُلِّطَ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ** (أنفقه في وجوه الخير)، **وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ** (القرآن والسنَّة)؛ **فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**»(٦٥٤).

أطرافه في: (الزكاة ١٤٠٩، الأحكام ٧١٤١، الاعتصام ٧٣١٦).

الشرح

قوله: (**لاَ حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ**)، أي: لا رخصةَ، أو لا يَحسُن الحسدُ -إن حَسُنَ- إلا في هاتين، وإلا؛ فالمقصود بذلك الغبطة؛ وهي: أن يرىٰ النعمة في غيره فيتمنَّاها لنفسه من غير أن يتمنَّىٰ زوالها عن صاحبها، وهو جائز ومحمود، وقد أجازه رسول الله ﷺ، فليس هو من قبيل الحسد المذموم، وقد بيَّن ﷺ ذلك؛ ففي الحديث: «**فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**». سيأتي برقم (٥٠٢٦).

---

(٦٥٤) وأخرجه مسلم (٨١٦)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٤٠)، وابن ماجه (٤٢٠٨).

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا ينبغي لأحد أن يغبط أحدًا علىٰ نعمة ويتمنَّىٰ مثلها، إلا أحد هذين، وذلك لما فيهما من النفع العامِّ؛ والإحسان المتعدِّي إلىٰ الخلق، فهذا ينفعهم بعلمه، وهذا ينفعهم بماله، والخلق كلُّهم عيال الله، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله.

ولا ريب أنَّ هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين، ولا يعمر العالم إلا بهما". طريق الهجرتين (ص ٣٦٢)، بتصرف يسير.

وَفِي حَدِيثِ **يَزِيدَ بْنِ الْأَخْنَسِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَنَافُسَ بَيْنَكُمْ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَيَتَّبِعُ مَا فِيهِ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ فُلَانًا، فَأَقُومَ بِهِ كَمَا يَقُومُ بِهِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُ وَيَتَصَدَّقُ، فَيَقُولُ رَجُلٌ: لَوْ أَنَّ اللهَ أَعْطَانِي مِثْلَ مَا أَعْطَىٰ فُلَانًا فَأَتَصَدَّقَ بِهِ**». صحيح: أخرجه أحمد (١٦٩٦٦)، وهو في صحيح الترغيب (٦٣٦). وهذا هو الرجل الممدوح.

وعن **الفضيل** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "الغبطة من الإيمان، والحسد من النفاق، والمؤمن يغبط ولا يحسد". حلية الأولياء (٨/ ٩٥، ط: السعادة).

و**الحسد المذموم**: هو أن يُتمنَّىٰ أن يُسلب صاحبُ المالِ مالَه، أو صاحبُ الحكمةِ حكمَتَه.

و**حكمه شرعًا**: محرمٌ ومذمومٌ؛ فليُحذر من حسد الحاسدين، وعين العائنين، فإنَّ كل ذي نعمة محسود؛ فعَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا حَسَدْتُمْ فَلَا تَبْغُوا، وَإِذَا ظَنَنْتُمْ فَلَا تُحَقِّقُوا، وَإِذَا تَطَيَّرْتُمْ فَامْضُوا، وَعَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلُوا**». **قوي**: أخرجه أبوبكر في الغيلانيات (٤٢٦)، وهو في الصحيحة (٣٩٤٢).

قال **الصنعاني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا تعدوا علىٰ من حسدتم وتحاولوا زوال نعمته؛ بل يجب علىٰ من وجد ذلك من نفسه أن يدافع نفسه ويذكِّرها قُبْحَ ما وجدت. **وفيه** أنّ وقوع الحسد وخطوره علىٰ البال -مع مدافعته- لا إثم فيه، إنَّما الإثم إذا بغىٰ". التنوير شرح الجامع الصغير (٢/ ٢٣)، بتصرف.

والأقران وطلاب العلم قد يحدث منهم شيء من ذلك -عياذًا بالله!-؛ فعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "استمعوا علم العلماء، ولا تصدِّقوا بعضهم علىٰ بعض، فوالذي نفسي بيده! لهم أشدّ تغايرًا من التيوس في زروبها". **صحيح**: جامع بيان العلم (٢١٢٣، وما بعده).

وعن **مالك بن دينار** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "يؤخذ بقول العلماء والقرَّاء في كلِّ شيء إلا قول بعضهم في بعض؛ فلهم أشدُّ تحاسدًا من التيوس". وقال **سعيد** رَحِمَهُ اللَّهُ في حديثه: "فإنِّي وجدتهم أشدُّ تحاسدًا من التيوس بعضها علىٰ بعض". المصدر السابق (٢١٢٦).

فالمعنىٰ: أنَّه ليس شيءٌ يَحْسُدُ عليه الإنسان حَسَدَ غبطةٍ إلا في هذين الشيئين المذكورين في الحديث، وهما العلم والمال إذا استعملا في الخير، فيتمنَّاهما المرء لنفسه دون أن يتمنىٰ زوالهما من الناس، فإنَّه يتحصَّل علىٰ أجرِ ما تمنَّىٰ من ذلك؛ لأجل النيةِ والقصدِ الحسن.

فَعَنِ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، عَنْ **أَبِيهِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِثْلُ أَرْبَعَةٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ فِي مَالِهِ بِعِلْمِهِ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ فُلَانٍ لَعَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ عَمَلِهِ، فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يَتَخَبَّطُ فِيهِ لَا يَدْرِي مَا لَهُ مِمَّا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَفَعَلْتُ فِيهِ بِمِثْلِ مَا عَمِلَ فُلَانٌ؛ فَهُمَا فِي الْإِثْمِ سَوَاءٌ**». وابْنُ أَبِي كَبْشَةَ هَذَا: هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي كَبْشَةَ. صحيح: أخرجه أحمد (١٨٠٢٤)، والترمذي (٢٣٢٥) وابن ماجه (٤٢٢٨)، والبيهقي في المدخل (٣٦٥) -واللفظ له-.

وقوله: **(فَسُلِّطَ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ)**، أي: فتغلَّب علىٰ شُحِّ نفسه، فلا ينفقُه ولا يصرفُه إلَّا في وجوه الخير وما ينفعُ، **ومن أمثلة ذلك**: ما روي عن أم ذرة قالت: بعث **ابن الزبير** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلىٰ **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بمال في غرارتين يكون مائة ألف؛ فدعت بطبق؛ وهي يومئذ صائمة، فجعلت تقسم في الناس، قال: فلمَّا أمست قالت: "يا جارية هاتي فطري (يعني: كانت صائمة)". فقالت أم ذرة: يا أمَّ المؤمنين! أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحما تفطرين عليه؟ فقالت: "لا تعنِّفيني! لو كنت أذكرتني لفعلت". صحيح: أخرجه ابن سعد في "طبقاته" (٨/ ٦٧)، والحاكم (٦٧٤٥).

ويقدِّم الأَوْلىٰ فالأَولىٰ في النفقات، فإنَّه باب زلَّ فيه كثيرٌ من الناس، وأنفقت الأموال في غير حِلِّها، وفي غير حقِّها، قال ﷺ: «**وابدأ بمن تعول، أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**». صحيح: أخرجه النسائي (٢٥٣٢)، ابن حبان (٦٥٢٨). وهو في صحيح الترغيب (١٩٥٦).

ولا يكون قد سلَّطَهُ عليه في الحقِّ حتىٰ يكون قد آتاه الله مع المال علمًا يميِّزُ به بين الحقِّ والباطل، ووجوه البر، والأولىٰ فيها فالأَوْلىٰ.

وقوله: **(وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا)**، أي: ورجل مَنَّ اللهُ عليه بأن أعطاه علمًا وفقهًا، فهو -سبحانه- المتفضِّل علىٰ عباده بالعلم النافع، وتعليمه؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣].

وقد ورد أنَّ جبريلَ -عليه السلام- حشىٰ قلبَ النبي -عليه الصلاة والسلام- حكمةً وعلمًا حين شقَّ صدره، وقال -تعالىٰ-: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [النور: ٢١]؛ وهذا هو وجه الغبطة فيه، وأظهرُ ما قيل في **الحكمة** هي: السنَّة؛ فعن **قتادة** وغيره في قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ [الأحزاب: ٣٤]، قال: "القرآن، والحكمة السنَّة". سيأتي في التفسير، في الباب (٥)، قبل حديث (٤٧٨٦).

والفرق بين الغبطتين؛ أنّ الأولىٰ مؤقَّتة بانتهاء المال المبذول، وأمَّا العلم فيستمرُّ، ولربَّما امتدَّ أثره إلىٰ يوم القيامة؛ بحسب نية صاحبه؛ وبهذا يتبيَّن أن الغبطة في العلم أبلغ.

ولـمَّا كان السلفُ قلوبُهُم سليمةٌ من الحسد ونحوه؛ أكرمهم الله ورفعَ ذكرهم، وأعلىٰ شأنهم، وجعلهم أئمَّة للناس، ونشر علمهم إلىٰ يومنا هذا، بل إلىٰ يوم القيامة. **ففي الحديث**: جواز تمنِّي الخير والصلاح. **وفيه** فضل من آتاه الله مالًا فسلَّطه علىٰ هَلَكَتِهِ في الحق، وهذا هو الغني الشاكر، قال ﷺ: «**نعمَ المالُ الصالح للمرءِ الصالح**». صحيح: أخرجه أحمد (١٧٧٦٣)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٢٩٩).

وفيه أنّ العلم والمال هما من فضل الله -وحده- وتوفيقه للعبد. **وفيه** أنّ العبد يؤجر علىٰ ما نوىٰ وتمنَّىٰ من الخير، ويدرك ما فاته بالقصد الحسن. **وفيه** تحريم الحسد في أمور الدين أو الدنيا، وإثم تمنِّي زوال النعم عن الناس؛ قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا (أي: الحسد) حرامٌ بإجماع الأمَّة مع النصوص الصحيحة". شرح مسلم (٦/ ٩٧).

١٦- بَابُ مَا ذُكِرَ فِي ذَهَابِ مُوسَىٰ ﷺ فِي البَحْرِ إِلَىٰ الخَضِرِ

قوله: (**بَابُ مَا ذُكِرَ فِي ذَهَابِ مُوسَىٰ ﷺ فِي البَحْرِ إِلَىٰ الخَضِرِ**)، هذا الباب عقده المصنِّف للتنبيه علىٰ تحمُّل المشاقِّ والمخاطر والسفر برًّا وبحرًا؛ لأجل العلم والازدياد منه، وأنَّ علوَّ شأن موسىٰ -عليه السلام- لم يمنعه من طلب الزيادة في العلم، وأنَّه مهما كان المرء عالمًا؛ فينبغي ألاَّ يأنفَ من التعلُّم ممَّن هو دونه أو مثله أو ممَّن هو فوقه؛ فإنّ المرء لا ينبُل حتىٰ يكون كذلك، وإن أراد العلم النافع، فعليه بالتواضع، فلا يرفعه الله تعالىٰ بالعلم إلا به.

وَقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦].

فقال -تعالىٰ-: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦]، إنَّما طلب موسىٰ -عليه السلام- العلم من الخضر؛ لأنَّ ما عنده من علم هو من علم الله علَّمَه إيَّاهُ.

ولا يُفهم من قصة موسىٰ -عليه السلام- أنَّ الخضر أعلم منه من كل وجه؛ ولا أفضل منه لذلك قال له الخضر: «**وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لاَ أَعْلَمُهُ**».

فموسىٰ -عليه السلام- كان لديه من العلم ما ليس عند الخضر -أيضًا-، ولكنَّ الله -سبحانه وتعالىٰ- أراد أن يعلِّم رُسلَه وأتباعَهُم التواضعَ والاعتراف بالضَّعفِ والنقصِ، وألَّا يُعْجَبوا بما عندهم من العلم؛ بل يُرجعون ذلك كلَّه إلىٰ الله -عزَّ وجلَّ-.

تنبيه:

وممَّا ينبغي أن يُذكر هنا: ما يسميه أهل البدع والخرافة **بالعلم اللَّدُنِّي**، ويستدلُّون بقوله -تعالىٰ- في حقِّ الخضر -عليه السلام-: ﴿**آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥]، بل ويسمِّيه بعضهم بـ(**علم الباطن**)، أو (**علم الحقيقة**)، وهذا كلُّه باطل؛ لأنَّ قوله-تعالىٰ-: ﴿**مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾، لا تعني أنَّ هناك علمًا اسمه: (**لدُنِّي**)، وإنَّما المراد: **العلمُ الذي تعلَّمَه من قِبَلِنَا بوحْيٍ منَّا**؛ فموسىٰ -أيضًا- وسائر الأنبياء آتاهم الله -تعالىٰ- من لَدُنْهُ علمًا.

وقد أجمع المسلمون: علىٰ أنَّه لا يحِلُّ لمسلم أن يخرج عن شريعة محمد ﷺ، وأنَّ من اعتقد أنه يسَعُه ذلك؛ فهو كافر.

تنبيه آخر:

قد اختلف أهل العلم في الخضر: هل هو نبي أو رجل صالح؟ وهل هو موجود أو لا؟

فأكثر أهل العلم من المحقِّقين: علىٰ أنَّ الصحيح الذي عليه السلف هو أنَّه نبي من الأنبياء؛ وذلك لأمور:

أولها: أنَّ الله -تعالىٰ- أطلعه علىٰ غيبيات لا تُعلم إلا بوحي منه -تعالىٰ-؛ وهذا ممَّا امتاز به الأنبياء -سلام الله عليهم- عن غيرهم.

ثانيًا: أنَّ القول بأنَّه رجل صالح فحسبُ؛ يفتح بابَ شرٍّ علىٰ الأمَّة، وحجَّةٍ لأهل البدع؛ والواجب هو سدُّ الذريعة عليهم؛ لأنَّ أقوالهم في الخضر وغيره فيها انحراف وضلال وخرافات وغلوٌّ؛ كقولهم:

مقام النبوة في برزخ ... فُوَيْقَ الرسولِ ودونَ الولي[٦٥٥]

ثالثًا: أنَّ الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- تتفاضل المرتبة بينهم، ولكلٍّ منهم فضله؛ فلا يمكن أن يكون موسىٰ -عليه السلام- أقلَّ مرتبة من وليٍّ من أولياء الله -تعالىٰ-؛ بل لا يكون ذلك إلا مع نبي أو رسول من رسل الله -تعالىٰ- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، بل هو أفضل وأعلم من الرسل الذين ليسوا من أولي العزم.

رابعًا: أنَّه يظهر جليًّا كون الخضر -كذلك- نبي من الأنبياء- من الحديث نفسه؛ في قوله: «**يَا مُوسَىٰ إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ أَعْلَمُهُ**».

تنبيه أخير:

قد أخطأ من زعم أنَّه -عليه السلام- موجودٌ، وأنَّه يجوب البلدان ويمرُّ بمجالس العلم؛ فهذا خطأ ظاهر: لا يجوز اعتقاده والقول به[٦٥٦].

---

(٦٥٥) طبقات الشعراني (١/ ٦٨، دار: العلم للجميع)، ومن أقوالهم في تفضيل الولاية -المزعومة- علىٰ النبوة والرسالة؛ ما قاله الدبَّاغ في الإبريز (ص ٢٧٦) -نقلًا عن أبي بسطام-: "خُضنا بحورًا وقفت الأنبياء بسواحلها"، وأقوالهم في مثل هذا كثيرة طفحت بها كتبهم، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، وننصح بقراءة كتاب "قطر الولي علىٰ حديث الولي" للعلَّامة الشوكاني.

(٦٥٦) وانظر: كتاب "الزهر النضر في حال الخضر" للحافظ ابن حجر، وكتاب: "عجالة المنتظر في شرح حالة

قال **ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد تصدَّىٰ الشيخ أبوالفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: "عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر" للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبيَّن أنَّها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبيّن ضعف أسانيدها ببيان أحوالها، وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد".

ثمَّ قال: "وأمَّا الذين ذهبوا إلىٰ أنَّه قد مات -ومنهم: البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبوالحسين ابن المنادي، والشيخ أبوالفرج ابن الجوزي وقد انتصر لذلك وألَّف فيه كتابَه السابق-؛ فيُحتج لهم بأشياء كثيرة:

منها: قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فالخضر إن كان بشرًا فقد دخل في هذا العموم -لا محالة-، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتىٰ يثبت.

ومنها: أنّ الله -تعالىٰ- قال: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١] ؛ قال **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بُعث محمد وهو حي؛ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه، وأمره أن يأخذ علىٰ أمَّته الميثاق: لئن بعث محمد وهم أحياء؛ ليؤمننَّ به وينصرنَّه"، ذكره البخاري عنه(٦٥٧)، فالخضر إن كان نبيًا أو وليًا؛ فقد دخل في هذا الميثاق. فلو كان حيًّا في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرفُ أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه؛ بيده ولسانه وقاتل تحت رايته وكان من أعظم الأسباب في إيمان معظم أهل الكتاب الذين يعرفون قصته مع موسىٰ.

الخضر" لابن الجوزي، و"الرد علىٰ من زعم أن الخضر -عليه السلام- حي" لعلي بن نايف الشحود.

(٦٥٧) قال شيخنا **الألباني**: لم أره فيه، وقد جهدت في الكشف عنه عبثًا! وقد عزاه الحافظ ابن حجر إلىٰ البخاري -أيضًا-؛ كما في "الفتح" (٤٣٤/ ٤)؛ فالله أعلم. مع العلم أنَّه قد أسنده من حديث **عليّ** موقوفًا ابن جرير في "تفسيره" (٧٣٢٩)، وأخرجه من قول السدي -أيضًا- برقم: (٧٣٣١)، وبنحوه عن ابن عباس برقم: (٧٣٣٣). **انظر**: "صحيح السيرة النبوية" (ص ٥٢- ت:١)

وأيضـًا إن كان وليًا فالصِدّيق أفضل منه، وإن كان نبيًا فموسىٰ أفضل منه.

وقد روىٰ الإمام أحمد من حديث **جابر بن عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده! لو أنّ موسىٰ كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتَّبعني**». صحيح: أخرجه أحمد (٢٣/ ٣٤٩)، (١٥١٥٦)، وهو في الإرواء (٦/ ٣٤- ٣٦)، (١٥٨٩)، وهذا الذي يُقطع به ويُعلمُ من الدِّين عِلمَ الضرورة.

كما أنَّه ﷺ صلَّىٰ بالأنبياء جميعـًا ببيت المقدس؛ فدلَّ علىٰ أنَّه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجَّل المقدَّم -صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين-.

فإذا علم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن -؛ عُلِم أنَّه لو كان الخضر حيًّا؛ لكان من جملة أمة محمد ﷺ، وممَّن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك. فهذا عيسىٰ ابن مريم -عليه السلام- إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحِيد عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين، وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أنَّ الخضر لم يُنقَل بسند صحيح ولا حسن -تسكنُ النفس إليه- أنَّه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالًا في مشهد من المشاهد.

وهذا يوم بدر يقول الصادق المصدوق فيما دعا به لربه -عزَّ وجلَّ-، واستنصره واستفتحه علىٰ مَن كفره: «**اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**». أخرجه مسلم من حديث **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- (١٧٦٣)، وتلك العصابة كان تحتها سادة المسلمين يومئذ، وسادة الملائكة حتىٰ جبريل -عليه السلام-، كما قال حسان بن ثابت في قصيدة له في بيت يقال إنَّه أفخر بيت قالته العرب:

وببئر بدر إذ يَرُدُّ وجوهَهم ... جبريل تحت لوائنا ومحمد

فلو كان الخضر حيًا؛ لكان وقوفه تحت هذه الراية أشرف مقاماته وأعظم غزواته[٦٥٨].

---

(٦٥٨) **فإن قيل: فهل يقال إنَّه كان حاضرًا في هذه المواطن كلِّها، ولكن لم يكن أحدٌ يراه؟**

فالجواب: أنَّ الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات.

ثمَّ ما الحامل له علىٰ هذا الاختفاء، وظهورُه أعظم لأجره، وأعلىٰ في مرتبته، وأظهر بمعجزته؟ ثمَّ لو كان باقيا بعده لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث

ومن الأدلَّة علىٰ عدم بقائه: ما ثبت في "الصحيحين" وغيرهما عن **عبد الله بن عمرو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله ﷺ صلَّىٰ ليلة العشاء ثمَّ قال: «**أرأيتم ليلتكم هذه فإنَّه إلىٰ مائة سنة لا يبقىٰ ممَّن هو علىٰ وجه الأرض اليوم أحد**». وفي رواية «**عين تطرف**».

قال **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ هذه، وإنَّما أراد انخرام قرنه.

وروىٰ **الإمام أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ في مسنده عن **عبد الله بن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: صلَّىٰ رسول الله ﷺ ذات ليلة العشاء في آخر حياته فلمَّا سلم قام؛ فقال: «**أرأيتم ليلتكم هذه؟، فإنَّ علىٰ رأس مائة سنة لا يبقىٰ ممَّن علىٰ ظهر الأرض أحد**». متفق عليه.

قال **ابن الجوزي**: "فهذه الأحاديث الصحاح تقطع دابر دعوىٰ حياة الخضر.

قالوا: هذا الحديث يقتضي أنَّه لم يعش بعد مائة سنة؛ فيكون الآن مفقودًا لا موجودًا؛ لأنَّه داخل في هذا العموم؛ والأصل عدم المخصِّص له حتىٰ يثبت بدليل صحيح يجب قبوله-والله أعلم-". البداية والنهاية (١/ ٣٩٠- ٣٩٣، ط: إحياء التراث)، بتصرف.

وقد استدلَّ علىٰ أنّ الخضر -عليه السلام- لم يلق النبي ﷺ بقول النبي ﷺ: «**وددنا أنَّ موسىٰ صبر حتىٰ يقصَّ علينا من أمرهما**». سيأتي برقم (٤٧٢٧). ووجه ذلك أنَّ الخضر لو كان حيًّا؛ لأمكن لقاءه، ولما تمنىٰ النبيُّ ﷺ هذه الأمنية -والله أعلم-.

٧٤- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ غُرَيْرٍ الزُّهْرِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، حَدَّثَهُ أَنَّ عُبَيْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ أَخْبَرَهُ **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- **أَنَّهُ تَمَارَىٰ** (تجادل، واختلف) **هُوَ وَالحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ** (ابن أخي عيينة بن حصن) **فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ. فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ، الَّذِي سَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إِلَىٰ**

المكذوبة والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم، وشهوده جمعهم، وجماعاتهم، ونفعه إياهم، ودفعه الضرر عنهم ممَّن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل ما يقال عنه من كُنونه في الأمصار، وجوبه الفيافي والأقطار، واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم، وهذا الذي ذكرناه لا يتوقَّف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم..

لُقِيِّه، هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «بَيْنَمَا مُوسَىٰ فِي مَلَإٍ (جماعة وأشراف) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَىٰ: لَا. فَأَوْحَىٰ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَىٰ مُوسَىٰ: بَلَىٰ، عَبْدُنَا خَضِرٌ. فَسَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً (علامةً)، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ؛ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ (يمشي خلفه) فِي البَحْرِ، فَقَالَ لِمُوسَىٰ فَتَاهُ (صاحبه الذي يخدمه ويتبعه): ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]. قَالَ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]، ﴿فَوَجَدَا﴾ [الكهف: ٦٥] خَضِرًا؛ فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا (من خبرهما وما جرىٰ بينهما) الَّذِي قَصَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي كِتَابِهِ»(٦٥٩).

أطرافه في: (العلم ٧٨، ١٢٢، الإجارة ٢٢٦٧، الشروط ٢٧٢٨، بدء الخلق ٣٢٧٨، الأنبياء ٣٤٠٠، ٣٤٠١، التفسير ٤٧٢٥، ٤٧٢٦، ٤٧٢٧، الأيمان والنذور ٦٦٧٢، التوحيد ٧٤٧٨).

الشرح

روايات الحديث:

عَنْ **أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ** رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (قَامَ مُوسَىٰ -عليه السلام- خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ) (فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ)، (قَالَ: يَا رَبِّ! فَدُلَّنِي عَلَيْهِ)، (فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا) (مَالِحًا) (فِي مِكْتَلٍ)، (فَإِذَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَارْجِعْ؛ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ) (حَيْثُ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ). (فَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلَا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ)، (وَقَالَ لِفَتَاهُ: لَا أُكَلِّفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يُفَارِقُكَ الْحُوتُ، قَالَ: مَا كَلَّفْتَ كَثِيرًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ**﴾[الكهف: ٦٠])، (حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا، فَرَقَدَ مُوسَىٰ، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فَخَرَجَ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ؛ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، فَأَمْسَكَ اللهُ عَنْ الْحُوتِ جِرْيَةَ الْمَاءِ)،

---

(٦٥٩) وأخرجه مسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٣٠٩).

(فَجَعَلَ لَا يَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، حتىٰ صَارَ مِثْلَ الكُوَّة (النافذة الصغيرة في الحائط))، (قال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: قَالَ لِي عَمْرو بْنُ دِينَارٍ: هَكَذَا، كَأَنَّ أَثَرَهُ فِي حَجَرٍ، وَحَلَّقَ بَيْنَ إِبْهَامَيْهِ وَاللَّتَيْنِ تَلِيَانِهِمَا)، (فَقَالَ فَتَاهُ: لَا أُوقِظُهُ)، (فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ مُوسَىٰ -عليه السلام- نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتَهِمَا)، (فَلَمَّا أَصْبَحَ مُوسَىٰ قَالَ لِفَتَاهُ: ﴿**آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا**﴾؛ وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّىٰ جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿**أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾)؛ (فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿**ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ، فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا**﴾، فَرَجَعَا يَقُصَّانِ آثَارَهُمَا حَتَّىٰ انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ)؛ (فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاقِ مَمَرَّ الْحُوتِ)، (فَقَالَ مُوسَىٰ: هَاهُنَا وُصِفَ لِي)، (فَأَطَافَ بِهَا)؛ (فَإِذَا هُوَ بِالْخَضِرِ (مُسَجًّىٰ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ)؛ (فَكَشَفَ الْخَضِرُ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ؟، مَنْ أَنْتَ؟، فَقَالَ: أَنَا مُوسَىٰ، فَقَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟، قَالَ: نَعَمْ)، (قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟)، (قَالَ: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا؟**﴾، ﴿**قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا**﴾، يَا مُوسَىٰ! إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ؛ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ اللهُ؛ لَا أَعْلَمُهُ)، (أَمَا يَكْفِيكَ أَنَّ التَّوْرَاةَ بِيَدَيْكَ، وَأَنَّ الْوَحْيَ يَأْتِيكَ؟)، (﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾، شَيْءٌ أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَفْعَلَهُ؛ إِذَا رَأَيْتَهُ لَمْ تَصْبِرْ، ﴿**قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿**فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾)، (قَالَ: نَعَمْ)، (فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا)، (فعَرَفُوا الْخَضِرُ)، (فَقَالُوا: عبد اللهِ الصَّالِحُ خَضِرٌ؟، لَا نَحْمِلُهُ بِأَجْرٍ)، (فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَىٰ!) (مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ، إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ)، فـ (خَرَجَ مَنْ كَانَ فِيهَا وَتَخَلَّفَ لِيَخْرِقَهَا)، (فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَىٰ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ فَنَزَعَهُ) (فَخَرَقَهَا، وَوَتَّدَ فِيهَا وَتِدًا[٦٦٠]، فَقَالَ مُوسَىٰ: ﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا**﴾)، (قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟)؛ (﴿**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: مُنْكَرًا،

---

(٦٦٠) في اللِّسان: بالكسر -يعني: بكسر التاء المثناة فوق.

﴿قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟، قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، (فَكَانَتْ الْأُولَىٰ مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا) (وَالْوُسْطَىٰ شَرْطًا (أي: في الصُّحبة)، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا)، (فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ الْبَحْرِ، مَرُّوا بِغُلَامٍ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ فَقَلَعَهُ بِيَدِهِ هَكَذَا - وَأَوْمَأَ سُفْيَانُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُ يَقْطِفُ شَيْئًا-) وفي رواية: (فَأَضْجَعَهُ، ثُمَّ ذَبَحَهُ بِالسِّكِّينِ)؛ (فَذُعِرَ عِنْدَهَا مُوسَىٰ -عليه السلام- ذَعْرَةً مُنْكَرَةً)، (فَقَالَ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ مُسْلِمَةً ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لَمْ تَعْمَلْ بِالْحِنْثِ)؛ (﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا، قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟﴾ -قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذِهِ أَشَدُّ مِنْ الْأُولَىٰ-)، (فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ هَذَا الْمَكَانِ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ مُوسَىٰ، لَوْلَا أَنَّهُ عَجِلَ؛ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَتْهُ مِنْ صَاحِبِهِ ذَمَامَةٌ (حياءٌ وإشفاقٌ من الذَّم واللَّوْم -المصدر- النهاية (٢/ ١٧٠)؛ ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي، قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾، وَلَوْ صَبَرَ لَرَأَىٰ الْعَجَبَ، -قَالَ أُبَيٌّ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَكَرَ أَحَدًا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ بَدَأَ بِنَفْسِهِ، فَقَالَ: رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ أَخِي كَذَا-، ﴿فَانْطَلَقَا، حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ لِئَامًا، فَطَافَا فِي الْمَجَالِسِ فَـ ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾) (قَالَ: مَائِلٌ)؛ (﴿فَأَقَامَهُ﴾ أَوْمَأَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ هَكَذَا -وَأَشَارَ سُفْيَانُ كَأَنَّهُ يَمْسَحُ شَيْئًا إِلَىٰ فَوْقُ-)؛ (فَاسْتَقَامَ)، (فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ الْجَهْدِ:) (قَوْمٌ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يُطْعِمُونَا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا؛ عَمَدْتَ إِلَىٰ حَائِطِهِمْ؟! ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾)، (قَالَ سَعِيدُ بنُ جُبَيْر: أَجْرًا نَأْكُلُهُ)، (﴿قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾)، (فَأَخَذَ مُوسَىٰ -عليه السلام- بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: حَدِّثْنِي، قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾)، (قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقْرَأُ: ﴿وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ غَصْبًا﴾)؛ (فَأَرَدْتُ إِذَا هِيَ مَرَّتْ بِهِ)؛ (وَجَدَهَا مُنْخَرِقَةً)؛ (فَيَدَعَهَا لِعَيْبِهَا، فَإِذَا جَاوَزُوا؛ أَصْلَحُوهَا فَانْتَفَعُوا بِهَا)، ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾؛ (وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقْرَأُ: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾)، (يَقُولُ: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ)؛ (﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾؛ يَقُولُ: فَخَشِينَا أَنْ يَحْمِلَهُمَا حُبُّهُ عَلَىٰ أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَىٰ دِينِهِ)؛ (فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ (أي: البلوغ)، أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)؛ (﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾؛ يَقُولُ: هُمَا بِهِ أَرْحَمُ مِنْهُمَا بِالْأَوَّلِ الَّذِي قَتَلَهُ خَضِرٌ)؛ (فَوَقَعَ أَبُوهُ عَلَىٰ

أُمِّهِ، فَعَلِقَتْ فَوَلَدَتْ مِنْهُ خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ، فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا، فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا، وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي؛ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾)، (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَىٰ صَبَرَ، حَتَّىٰ يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا). الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٧/ ٣٦٦)[٦٦١].

قوله: (إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ، الَّذِي سَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟): **وفي الحديث** جواز التجادل في العلم إذا كان بغير تعنت وخصومة. **وفيه** مشروعية الرجوع إلىٰ أهل العلم عند التنازع. **وفيه** فضل ابن عباس رضي الله عنهما. **وفيه** تعظيم النصِّ وأنَّه لا يُقدَّمُ عليه شيءٌ. **وفيه** أنَّه ينبغي أن يسأل السائل عن المسألة بدليلها من الكتاب والسنَّة، لا أن يسأل عن الآراء. **وفيه** أنَّ السنة قاضية علىٰ كل خلاف. **وفيه** فضيلة لأبيِّ بن كعب رضي الله عنه-. **وفيه** قبول خبر الواحد الصدوق. **وفيه** فضل الرحلة في طلب العلم وتحمُّل المشقَّة في ذلك، وأنَّه متىٰ علم الإنسان بعالم يؤخذُ منه -وعنه- العلم؛ أنَّه لا يفوِّتُ عليه ذلك. **وفيه** أنَّ العبد كلَّما بلغ في العلم المراتب العليا؛ كلَّما كان حرصه علىٰ العلم أكثر، **وفيه** أخذ العلم عمَّن هو دونه.

فيه أنَّه ينبغي أن يحرص طالبُ العلم علىٰ الخير والاستزادة من العلم؛ ولو كان أعلمَ ممَّن يطلُب منه العلم، ومن ذلك رواية الأكابر عن الأصاغر، وهذا نوع من أنواع علوم الحديث.

قوله: (بَيْنَمَا مُوسَىٰ فِي مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَىٰ: لَا. فَأَوْحَىٰ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَىٰ مُوسَىٰ: بَلَىٰ، عَبْدُنَا خَضِرٌ):

وفيه تقديم طلب العلم علىٰ بذله. **وفيه** مشروعية ركوب البحر في طلب العلم، والاستزادة منه، خلافًا لمن كره ركوب البحر. **وفيه** أنَّ العلم بالتعلُّم. **وفيه** ملازمة أهل العلم.

ذكر بعض الشرَّاح: أنَّه علىٰ هذه الرواية؛ فلا عَتْبَ عليه إذ أخبر بما يعلم؛ بخلاف اللفظة الأخرىٰ: «فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ؛ فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ»، وكما في

---

(٦٦١) وقد استغنينا بالعزو إليه؛ عن تخريج كل رواية علىٰ حدةٍ.

رواية عند مسلم (٢٣٨٠): «**إِذْ قَالَ: مَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا خَيْرًا وَأَعْلَمَ مِنِّي. قَالَ: فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ. إِنِّي أَعْلَمُ بِالْخَيْرِ مِنْهُ. أَوْ عِنْدَ مَنْ هُوَ. إِنَّ فِي الْأَرْضِ رَجُلًا هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ**».

ولكن عند جمع الروايات والألفاظ والنظر فيها، ولاسيَّما أنَّ القصة واحدة؛ يتبيَّنُ أن المحصِّلةَ واحدةٌ: وهي أنَّ موسىٰ -عليه السلام- لم يَرُدَّ العلم إلىٰ الله -تعالىٰ-؛ فلذلك عاتبه الله علىٰ ذلك، إذ إنَّه ينبغي للعالم أن يَكِلَ العلم إلىٰ الله -تعالىٰ- وحده؛ كما بوَّب عليه البخاري -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- فيما يأتي.

وفيه أنَّه يجب علىٰ العالم الرغبة في الازدياد من العلم، والحرص عليه، وألَّا يقنع بما عنده، كما فعل موسىٰ -عليه السلام-؛ إذ لم يكتف بعلمه. **وفيه** أنَّه يجب علىٰ حاملِ العلم لزومُ التواضعِ في علمه، وجميعِ أحوالِه، والبعدُ عن الألفاظ المنافية لذلك -وإن لم يقصد بها التعالي والترفُّع-. **وفيه** دليل علىٰ أنَّ الأنبياء لا يعلمون الغيب؛ ولا يعلمون من ذلك إلا ما أطلعهم الله عليه. **وفيه** إثبات صفتيْ السمعِ والعلمِ لله -تعالىٰ-. **وفيه** أنَّه ينبغي أن يُردّ العلم إلىٰ الله -تعالىٰ- فيما لم يتيقَّنْه العبدُ، وأنَّ ادعاءَ الوصولِ إلىٰ المراتب العَليَّة هو خلاف المحمود، ومنه يُعلم خطأ ادعاءِ السيوطي؛ أنَّه أعلم أهل الأرض قاطبة[٦٦٢]. **وفيه** الحثُّ علىٰ قول العالم: لا أدري.

قوله: (**فَسَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ فَارْجِعْ؛ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ**): **وفيه** إشارة إلىٰ وقوع البعث بعد الموت؛ إذ أحيا الله الحوت الميت في المكتل. **وفيه** جواز ركوب البحر ما لم يكن هائجًا؛ **وإلا برئت منه الذِّمَّة**؛ فعن زهير بن عبد الله، عن **رجل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومن ركب البحر إذا ارتجَّ فقد برئت منه الذمَّة**». **صحيح**: أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٣٣٣)، وهو في الصحيحة (٨٢٨).

---

(٦٦٢) قال **السيوطي** في كتابه: "الرد علىٰ من أخلد إلىٰ الأرض وجهل أنّ الاجتهاد في كل عصر فرض" (ص ١١٦)، "والذي ادَّعيناه هو الاجتهاد المطلق لا الاستقلال، بل نحن متابعون للإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسالكون طريقه في الاجتهاد امتثالًا لأمره، معدودون من أصحابه، وكيف يُظنُّ أنَّ اجتهادنا مقيد، والمجتهد المقيد إنَّما ينقص عن المطلق بإخلاله بالحديث والعربية، **وليس علىٰ وجه الأرض من مشرقها إلىٰ مغربها أعلم بالحديث والعربية منّي إلا أن يكون الخضرَ، أو القطبَ، أو وليًّا لله**؛ فإنّ هؤلاء لا أقصد دخولهم في عباراتي، والله أعلم".

قوله: (فَقَالَ لِمُوسَىٰ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾): فتاه هو يوشع بن نون **وفيه** فضيلة ظاهرة له، **وفيه** إثبات كرامات الأولياء بشرط ثبوتها عنهم. **وفيه** إثبات قدرة الله -تعالىٰ- علىٰ إحياء الموتىٰ.

وفيه الاستعانة في طلب العلم بالأصحاب. **وفيه** حمل الزاد وإعدادُه في السفر، وأنَّ هذا لا يخالف التوكل؛ بخلاف قول الصوفية. **وفيه** إطلاق الفتىٰ علىٰ التابع. **وفيه** جواز استخدام الحُرِّ. **وفيه** طواعية الخادمِ لمخدومه، والتابعِ لمتبوعه، **وفيه** عذر الناس والاعتذارُ لهم **وفيه** جواز الإخبار بالتعب والمرض؛ بشرط ألا يكون علىٰ سبيل الشكاية وعدم الرضا بالأقدار!!.

وفيه استحباب كون خادم الإنسان ذكيًا فطنًا كيِّسًا؛ **وفيه** استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعًا؛ لأن ظاهر قوله: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] بالإضافة إلىٰ ضمير الجمع؛ أنَّهما أكلا معًا، **وفيه** أنَّ الأنبياء بشَرٌ يطرأُ عليهم ما يطرأُ علىٰ البشر من النسيان والجوع، إلا أنَّ اللهَ يعصمُهم في تبليغ الرسالة.

قوله: (﴿فَوَجَدَا﴾ [الكهف: ٦٥] خَضِرًا؛ فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا الَّذِي قَصَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي كِتَابِهِ): وفي الرواية: ((فَوَجَدَا فِي الْبَحْرِ كَالطَّاقِ مَمَرَّ الْحُوتِ)، (فَقَالَ مُوسَىٰ: هَاهُنَا وُصِفَ لِي)، (فَأَطَافَ بِهَا)؛ (فَإِذَا هُوَ بِالْخَضِرِ) (مُسَجًّىٰ بِثَوْبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَىٰ)؛ (فَكَشَفَ الْخَضِرُ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: هَلْ بِأَرْضِي مِنْ سَلَامٍ؟، مَنْ أَنْتَ؟، فَقَالَ: أَنَا مُوسَىٰ، فَقَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟، قَالَ: نَعَمْ)، (قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟)).

١٧ - بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ».

٧٥- حَدَّثَنَا أبو مَعْمَرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَارِثِ، قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ، عَنْ عِكْرِمَةَ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما-، قَالَ: ضَمَّنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ** (أي: حفِّظه ألفاظه وفهِّمه معانيه وأحكامه)»[٦٦٣].

أطرافه في: (الوضوء١٤٣، فضائل الصحابة٣٧٥٦، الاعتصام٧٢٧٠).

الشرح

قول ابن [ضَمَّنِي رسول الله ﷺ] أي [illegible]

في باب ذكر ابن عباس[٦٦٤]: "إلىٰ صدره"، **فيه** جواز احتضان الصبيِّ القريبِ عَلَىٰ سبيل الشفقة ومعانقته وملاطفته؛ وقد كثر ذلك من النبي ﷺ؛ فقد كان يؤتىٰ بالصبيان يُحنِّكهم ويدعو لهم ويبرِّك عليهم؛ بل كان يماسِحُ الكبار والصغار ويبرِّكُ عليهم؛ كما ورد عَنْ **حُذَيْفَةَ** رضي الله عنه- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا لَقِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِهِ مَاسَحَهُ وَدَعَا لَهُ. قَالَ: فَرَأَيْتُهُ يَوْمًا بُكْرَةً فَحِدْتُ عَنْهُ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُكَ فَحِدْتَ عَنِّي**». فَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ جُنُبًا فَخَشِيتُ **أَنْ تَمَسَّنِي**؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ لَا يَنْجُسُ**». **صحيح**: أخرجه النسائي (٢٦٧)، وهو في صحيح الموارد (١٩٦).

وقوله: (**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ**)، أي: علِّمه تفسير القرآن وفقِّهْهُ فيه وحفِّظْهُ إياه - ويدخل في ذلك السنَّة؛ إذ كلاهما وحي من الله -تعالىٰ-، وفي رواية: «**الحِكْمَةَ**». البخاري (٣٥٤٦)؛ وهي: **السنَّة، والإصابة في غير النبوة**، وعند مسلم: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ**». (٢٤٧٧)، وفي رواية: «**فَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ**». سيأتي برقم (١٤٣)، وفي أخرىٰ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ، وَتَأْوِيلَ الْكِتَابِ**». صحيح: صحيح ابن ماجه (١٣٦).

وفي رواية عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: "دعا لي رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة، مرتين". **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٨٢٣). **وانظر**: المشكاة (٦١٦٠).

---

(٦٦٣) وأخرجه مسلم (٢٤٧٧)، والترمذي (٣٨٢٤)، والنسائي في الكبرىٰ (٨١٧٩)، وابن ماجه (١٦٦).
(٦٦٤) كتاب فضائل الصحابة، باب رقم (٢٤)، حديث رقم (٣٧٥٦).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "فدعا الله أن يزيدني فهمًا وعلمًا"(٦٦٥). صحيح: أخرجه الحاكم في المستدرك (٦٢٧٩).

وقد تحقَّق ذلك في ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأنَّ دعوة الأنبياء-عمومًا-، والنبيِّ ﷺ -خصوصًا- مستجابةٌ -صلوات الله عليهم أجمعين-.

وقد وردت روايات في سبب دعائه ﷺ له؛ فمنها: أنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: إن النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ الخَلاَءَ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا (أي: الماء). قَالَ: «**مَنْ وَضَعَ هَذَا؟**»، فَأُخْبِرَ؛ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**». متفق عليه.

وفي رواية -عنه -أيضًا-، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءًا مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَتْ لَهُ مَيْمُونَةُ: وَضَعَ لَكَ هَذَا عبداللهِ بْنُ عَبَّاسٍ؛ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»(٦٦٦). صحيح.

فعَلِم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّه ﷺ بحاجة إلىٰ الماء بعد قضاء الحاجة، وهذا من نجابته ونباهته؛ فدعا له بهذا الدعاء.

وقد ورد ما يفيد أنَّه ﷺ **قد طلب منه ذلك** -أيضًا-؛ فعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيت خالتي ميمونة، فقال لي النبي ﷺ: «**ضع لي طَهورًا**»، فوضعته له؛ فقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**». **صحيح**: أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٨٨٨)، وابن جرير في "تهذيب الآثار" (٢٦٥)، **وانظر**: المنيحة (٢/ ٣٩٩، ٤٠٦)، **ويجمع بين الروايتين**: بكون ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان قد أعدَّ الطَّهور للنبي ﷺ قبل أن يأمره بذلك.

وقد **صحّ سببٌ آخر** فعَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، أَنَّ كُرَيْبًا، أَخْبَرَهُ، أَنَّ **ابْنَ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ خَلْفَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَجَرَّنِي، فَجَعَلَنِي حِذَاءَهُ، فَلَمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ صَلاتِهِ، خَنَسْتُ، فَصَلَّىٰ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لِي: "مَا شَأْنِي

---

(٦٦٥) قال الحاكم: حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرِّجاه بهذا السياق؛ ووافقه الذهبي.

(٦٦٦) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٢٢٣)، وأحمد (٣٠٣٢)، وغير ذلك من المواضع، والضياء في المختارة (١٦٧)؛ (٢٣٤)، والبخاري (١٤٣) من دون قوله ﷺ: «**وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، وهي صحيحة؛ صحَّحها شيخنا **الألباني** في الصحيحة (٢٥٨٩).

أَجْعَلُكَ حِذَائِي فَتَخْنِسُ؟"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُصَلِّيَ حِذَاءَكَ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ الَّذِي أَعْطَاكَ اللهُ؟ قَالَ: فَأَعْجَبَتْهُ؛ فَدَعَا اللهَ لِي أَنْ **يَزِيدَنِي عِلْمًا وَفَهْمًا**، قَالَ: ثُمَّ "رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَامَ حَتَّىٰ سَمِعْتُهُ يَنْفُخُ، ثُمَّ أَتَاهُ بِلالٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، الصَّلاةَ. فَقَامَ فَصَلَّىٰ، مَا أَعَادَ وُضُوءًا". **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٠٦٠)، والحاكم (٦٢٧٩)، وهو في الصَّحِيحَة (٦٠٦)، (٢٥٩٠).

ولقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ؛ فكان **ابن عباس** رضي الله عنهما بحرًا وحبرًا في العلم؛ بحيث إذا أُطلق **الحَبْر**: فهو المقصود؛ لسَعة علمه؛ حتىٰ قال **ابن مسعود** رضي الله عنه: "نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس؛ لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد"(٦٦٧). **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٢٢١٩) وأبو خيثمة في العلم (٤٨) وغيرهما.

ومما يُظهِر تميُّز **ابن عباس** رضي الله عنهما علىٰ أقرانه، بل بُرُوزَه بين أصحاب النبي ﷺ في عهد عمر رضي الله عنه- علىٰ صغر سِنِّه: مَا جاء **عنه** أَنَّه قَالَ: "كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ؛ فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر: ١]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟، فَقُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: "هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ"، قَالَ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ [النصر:١]؛ وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ [النصر:٣]، فَقَالَ عُمَرُ: "مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ". سيأتي برقم (٤٩٧٠).

وكذا ما جاء عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما قَالَ: "كَانَ عُمَرُ يَدْعُونِي مَعَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَقُولُ لِي: لَا تَكَلَّمْ حَتَّىٰ يَتَكَلَّمُوا. قَالَ: فَدَعَاهُمْ فَسَأَلَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ قَوْلَ رَسُولِ اللهِ

---

(٦٦٧) **صحيح**: قال شيخنا **الألباني** -في تحقيقه لكتاب العلم-: سنده صحيح علىٰ شرط الشيخين، يعني: ما بلغ أحد منا عُشْرَهُ، وقد توفي ابن مسعود سنة اثنتين وثلاثين، وتوفي ابن عباس بالطائف في سنة ثمان وستين؛ فعاش بعده ستًا وثلاثين سنة؛ فكم وكم حصّل ابن عباس بعده من العلم؟!!؛ فما عسىٰ أن يقول ابن مسعود لو أدركه بعدما كَبِر؟!!،

وشهد له غيره من الصحابة بذلك، قال **ابن عمر**: "هو أعلم من بقيَ بما أنزل الله علىٰ محمد ﷺ"، **وانظر**: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥، ط: مازن بيروتي).

ﷺ: «**الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ**»، أَيُّ لَيْلَةٍ تَرَوْنَهَا؟ قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْلَةُ إِحْدَىٰ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْلَةُ ثَلَاثٍ، وَقَالَ آخَرُ: خَمْسٍ، وَأَنَا سَاكِتٌ. قَالَ: فَقَالَ: مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: إِنْ أَذِنْتَ لِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَكَلَّمْتُ. قَالَ: فَقَالَ: مَا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ إِلَّا لِتَتَكَلَّمَ. قَالَ: فَقُلْتُ: أُحَدِّثُكُمْ بِرَأْيِي؟ قَالَ: عَنْ ذَلِكَ نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: السَّبْعُ؛ رَأَيْتُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- ذَكَرَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ سَبْعًا، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ سَبْعٍ، وَنَبَتُ الْأَرْضِ سَبْعٌ. قَالَ: فَقَالَ: هَذَا أَخْبَرَتْنِي مَا أَعْلَمُ، أَرَأَيْتَ مَا لَا أَعْلَمُ؟ مَا هُوَ قَوْلُكَ: نَبَتُ الْأَرْضِ سَبْعٌ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: إِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿**ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا**﴾ [عبس: ٢٧]، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١]، **وَالْأَبُّ**: نَبَتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ، وَلَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: أَعَجَزْتُمْ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي لَمْ تَجْتَمِعْ شُئُونُ رَأْسِهِ بَعْدُ؟! إِنِّي وَاللهِ مَا أَرَىٰ الْقَوْلَ إِلَّا كَمَا قُلْتَ، وَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكَ أَنْ لَا تَكَلَّمْ حَتَّىٰ يَتَكَلَّمُوا، وَإِنِّي آمُرُكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ". **حسن**: أخرجه أحمد (٨٥) مختصرًا، وابن خزيمة (٢١٧٢) -واللفظ له-، وحسنه العلامة مقبل الوادعي في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٢/ ٥٠٠) وقال محققو الرسالة: إسناده قوي.

وقال أبو الزناد عن **عبيد الله بن عبد الله بن عتبة** -رحمهما الله-: "ما رأيتُ أحدًا كان أعلم بالسنّة، ولا أجلد رأيًا، ولا أثقب نظرًا من **ابن عبّاس** رضي الله عنهما، وإن كان **عمر بن الخطّاب** رضي الله عنه- لَيقول له: قد طَرَأَتْ علَينا عُضَلُ أَقْضِيَةٍ أنْتَ لها ولأمثالها، فإذا قال فيها؛ رضيَ قولَه، وعمرُ ما عمرُ في نظرِهِ للمسلمين، وجِدِّهِ في ذات الله!". **رجاله ثقات**: أخرجه عبدالله بن أحمد في "زوائد" فضائل الصحابة (٢/ ٩٧١) (١٩١٣)-مختصرًا-، والبلاذُري في الأنساب (٣١/ ٤) -واللفظ له-)، وعبيدالله لم يسمع من عمر.

وكان **عمر** رضي الله عنه- يحتفي به، ويدنيه منه، ويجعله يجلس مع الكبار من أهل مشورته؛ لِمَا وَجَدَ من نجابته وفقهه؛ فعن **سعيد بن جبير** رضي الله عنه- قال: قال عمر لابن عباس رضي الله عنهما: "لقد علمت علما ما علمناه". **صحيح**: أخرجه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ٢٩٢).

وعن **الشعبي** رحمه الله قال: قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: قال لي أبي: "يا بني! إنَّ عمر يدنيك، فاحفظ عنِّي ثلاثًا: لا تفشينَّ له سرًّا، ولا تغتابنَّ عنده أحدًا، ولا يجربنَّ عليك كذبًا". **لا بأس به في مثل هذا الأثر إن شاء الله**: الخرائطي في مكارم الأخلاق (٧٠٦)، وسير أعلام النبلاء (٣/ ٣٤٦)، قال **الحافظ**: وفي

رواية عطاء -بدل الثالثة-: "ولا تبتدئه بشيء حتىٰ يسألك عنه". الفتح (٨/ ٧٣٥).

وقال **أبوبكرة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قدم علينا بالبصرة (يعني: ابن عباس) وما في العرب مثله حشمًا وعلمًا وبيانًا وجمالًا". الإصابة (١/ ٨٩)، فتح المغيث (٤/ ١٠٤).

ولـمَّا صلَّىٰ عليه **محمد ابن الحنفية** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "اليوم مات ربانّي هذه الأمة". ابن سعد (٢/ ٢٨١)، السير (٣٣٥٧)، **وهو أحد المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة، ومن كبار فقهاء الصحابة**؛ حتىٰ قال **ابن حزم** رَحِمَهُ اللَّهُ لـمَّا ذكر المكثرين من الصحابة في الفتيا-: "يمكن أن يجمع من فتيا كلِّ واحد من هؤلاء مجلد ضخم". الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٥/ ٩٢)؛ بتصرف.

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "**والبحر ابن عباس** -في الحقيقة- أكثر الصحابة -كلِّهم- علىٰ الإطلاق فتوىٰ -فيما قاله الإمام أحمد-؛ بحيث كان كبار الصحابة يحيلون عليه في الفتوىٰ، وكيف لا؛ وقد دعا له النبي ﷺ؟!". الإصابة (١/ ٨٩)، فتح المغيث (٤/ ١٠٤)، وعن **أبي وائل شقيق بن سلمة** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: "**شهدت ابن عباس** وهو علىٰ الموسم فخطب ثمَّ تلا سورة **النور** وفسَّرها، فقال رجل: ما رأيت كلامًا أحسن من هذا، لو سمعه **الترك والروم؛ لأسلموا**"[٦٦٨]. **إسناده** صحيح.

وعن **أبي وائل شقيق بن سلمة** -أيضًا-: "**استخلف علي** عبد الله بن عباس علىٰ الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة **البقرة**، وفي رواية: سورة **النور**، ففسَّرها تفسيرًا لو سمعته **الروم والترك والديلم؛ لأسلموا**". **صحيح**: أخرجه الطبري (٨٥، ٨٨) -بمعناه-، وعن **مجاهد** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "كنت إذا رأيت **ابن عباس** يفسِّر القرآن أبصرت علىٰ وجهه نورًا". **إسناده صحيح**: أخرجه البلاذُريُّ في الأنساب (٣١/ ٤)، وذكره المقريزي في المقفىٰ الكبير (٢٧٥/ ٢)؛ وبهذا ظهر فضل دعاء النبي ﷺ وبركته.

وفي هذا أنَّه ينبغي للعالم أن يُكثر الدعاءَ لأصحابِه وطلابِه، وإخوانه، وأولاده: بصلاحهم، وتقواهم، وبالعلم والبركة والثبات؛ اقتداء بالنبي ﷺ؛ كما في دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ**». سيأتي برقم (٦٣٧٣).

---

(٦٦٨) أخرجه البلاذري في الأنساب (٤/ ٣٨) -واللفظ له-، وأحمد في فضائل الصحابة (٩٨٠/ ٢، ٩٨٤، ١٩٣٤، ١٩٤٨) -من طريق الأعمش بمعناه.

ومنه ما ورد عن **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أنَّه قال: "دعا لي رسول الله ﷺ؛ فقال: «**اللَّهُمَّ! أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَطِلْ حَيَاتَهُ**»؛ فاللهُ أكثرَ مالي؛ حتىٰ أنَّ كَرْمًا (عنبًا) لي لَيَحمِلُ في السنة مرَّتينِ، ووُلِد لصُلبِي مائةٌ وستةٌ". متفق عليه، وفي لفظ: "كان النبي ﷺ يدخل علينا -أهل البيت- فدخل يوما، فدعا لنا، فقالت أم سليم: خويدمك ألا تدعو له؟ قال: «**اللَّهُمَّ! أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَطِلْ حَيَاتَهُ، واغْفِرْ لَهُ**»؛ فدعا لي بثلاث؛ فدفنت مائة وثلاثة؛ وإنَّ ثمرتي لتطعم في السنة مرَّتين، وطالت حياتي حتىٰ استحييت من الناس، وأرجو المغفرة". صحيح: صحيح الأدب المفرد (٥٠٩). وكذلك دعا لأبي هريرة وغيره.

وفيه أنّ دعاء الله من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة. **وفيه** أنَّ النبي ﷺ مستجاب الدعوة، **وفيه** أنَّ الدعاء يُستجاب ولو بعد حين. **وفيه** عدم استعجال إجابة الدعاء. **وفيه** أنَّ الله يسمع ويجيب من دعاه. **وفيه** أنَّ من أفضل ما يدعو به الداعي هو أن يفقه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وفيه فضيلة صحبة الأخيار، وأنَّها مباركة، ولو لم ينتفع منهم إلا بدعوةٍ صالحة؛ لكفاه ذلك. **وفيه** تلطُّف العالم مع طلابه، والدعاءُ لهم؛ قال **أبو إسحاق الجيلي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أدركني دعاء الشيخ الصالح سريّ السّقطي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-، جئت إليه وقرعت عليه الباب، فسمعته يقول قبل أن يخرج إليّ مناجيًا: "اللهم من جاءني يشغلني عن مناجاتك، فأشغله بك عني"؛ فما رجعت من عنده، حتىٰ حبّبت إليّ الصلاة والشغل بذكر الله -تعالىٰ-، فلا أتفرّغ إلىٰ شيء سواه، ببركة دعاء الشيخ". التهجد وما ورد في ذلك من الكتب الصّحاح (١٠٧٧)، رهبان الليل (٢/ ٤٥٥).

وفيه تواضع العالم. **وفيه** مراعاة الراعي لرعيته. **وفيه** الحثُّ علىٰ تعلُّم القرآن والتفقه فيه، **وفيه** أنَّ التفقُّه إنَّما يكون في الكتاب والسنة والاستنباط منهما؛ فهذا هو الدِّين.

وفيه مشروعية الدعاء للأولاد؛ ولا سيَّما إن ظهرت منهم نجابة. **وفيه** فضيلة ظاهرة لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. **وفيه** الحرص علىٰ فقه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. **وفيه** عَلَم من أعلام نبوته ﷺ؛ لأنَّه استُجيب له فيه الدعاء. **وفيه** أنّ أوَّل ما يَدخُلُ في تعلُّمِ القرآن؛ هو التفقُّه فيه قبل إقامة حروفه. **وفيه** أنَّ الدعاء من تمام الوفاء بحقوق المدعو له. **وفيه** أنَّ الدعاء إنَّما يكون بالمأثور منه(٦٦٩).

---

(٦٦٩) **تنبيه**: قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-:"لا ريبَ أنَّ الأذكارَ والدعواتِ من أفضل العبادات، **والعبادات مبناها علىٰ التوقيف والاتِّباعِ**؛ لا علىٰ الهوىٰ والابتداع.

وفيه أنَّ العلم مواهب ومنح، وأنَّ المعلِّم حقيقة هو الله تعالىٰ، لذا ينبغي أن يسعىٰ في تحصيل أبواب العلم.

فالأدعيةُ والأذكارُ النبويَّةُ؛ هي أفضلُ ما يتحرَّاهُ المُتَحَرِّي من الذِّكْرِ والدعاء. **وسالكُها**؛ علىٰ سبيل أمانٍ وسلامةٍ، والفوائدُ والنتائجُ التي تحصلُ؛ لا يُعبِّرُ عنه لسانٌ، ولا يحيطُ به إنسانٌ.

وما **سواها من الأذكارِ**: قد يكون محَّرمًا، وقد يكون مكروهًا وقد يكون فيه شرك!؛ مما لا يهتدي إليه أكثر الناس".

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "**وليس لأحد أن يَسُنَّ للناسِ نوعًا من الأذكارِ والأدعيةِ غيرَ المسنونِ**، ويجعلَها عبادةً راتبةً يُواظِبُ الناسُ عليها كما يُواظبونَ علىٰ الصلوات الخمس!؛ بل هذا ابتداعُ دينٍ لم يأذنِ اللهُ به؛ بخلافِ ما يدعو به المرءُ -أحيانًا- مِن غير **أن يجعلَهُ للناسِ سُنَّةً**.

فهذا إذا لم يُعلَم أنه يتضمَّنُ معنىٰ محَّرمًا: لم يَجُزِ الجزمُ بتحريمِه؛ لكنْ؛ **قد يكونُ فيه ذلك والإنسان لا يشعر به!**. وهذا كما أن الإنسانَ -**عند الضرورةِ**- يدعو بأدعيةٍ تُفْتَحُ عليهِ ذلك الوقتَ؛ فهذا وأمثاله قريب.

وأما اتخاذُ وِرْدٍ غير شرعيٍّ، واستِنانُ ذِكْرٍ غيرِ شرعيٍّ: فهذا ممَّا يُنهَىٰ عنه.

ومع هذا؛ ففي الأدعية الشرعيةِ والأذكار الشرعيَّة: غايةُ المطالبِ الصحيحةِ، ونهايةُ المقاصدِ العليَّة، ولا يَعْدِلُ عنها إلىٰ غيرها مِن الأذكارِ المُحْدَثَةِ المُبْتَدَعَةِ؛ إلا جاهلٌ، أو مُفرِّطٌ، أو مُتَعَدٍّ". مجموع الفتاوىٰ (٢٢/ ٥١٠- ٥١١).

١٨- بَابٌ: مَتَىٰ يَصِحُّ سَمَاعُ الصَّغِيرِ؟

قوله: (**بَابٌ: مَتَىٰ يَصِحُّ سَمَاعُ الصَّغِيرِ؟**)، **مقصود الباب**: أنَّ بلوغ الصبي ليس شرطًا في التحمُّل للعلم؛ فيصِحُّ تحمُّلُه دون البلوغ، وثمرةُ ذلك: جوازُ قَبولِ حديثه؛ إذا أدَّاه بعد الاحتلام.

قال **القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا **صحة سماعه**: فمتىٰ ضبَط ما سمعه؛ صحّ سماعه، ولا خلاف في هذا، **وصحَّ الأخذ** عنه بعد بلوغه، وقد ذكر بعض أهل العلم في ذلك أنَّ أقلَّه؛ سِنُّ محمود ابن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ...، ولعلَّهم إنَّما رأوا أنَّ هذا السِّنَّ أقلُّ ما يحصل به الضبطُ ما يسمعه ويحفظه عادة؛ وإلا فقد يتوقَّف الأمر علىٰ حال الصبي فرُبّما كان بليدًا؛ لا يضبط شيئًا فوق هذا السِّنِّ، وربما كان نبيلاً ذكيًّا؛ يعقلُ دون هذا السِّنِّ". الإلماع (ص ٦٢- ٦٤) بتصرف يسير، والعبرة في ذلك سنُّ الأداء، وقد أخرج أهلُ العلمِ أحاديثَ جماعةٍ من الصحابةِ كانوا صغارًا؛ كابن الزبير، وابن عباس، وأنس، والسبطين: الحسن والحسين، والنعمان بن بشير، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فعن **الزهري** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: "قال **سهل بن سعد الساعديُّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وكان قد رأىٰ النبي ﷺ وسمع منه- وزعم أنَّه: يوم توفِّي رسول الله ﷺ كان ابنَ خمسَ عشْرةَ سنةً". **صحيح**: الآحاد والمثاني (٤/ ١٢٢، برقم: ٢٠٩٤). **قلت**: صحّ سماع الزهري من سهل.

وعن **أسماء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: "... ثم مَّسحه وصلَّىٰ عليه وسمَّاه **عبدالله**، ثمَّ جاء (أي: عبدالله بن الزبير) وهو ابنُ سبعِ سنين أو ثمانٍ؛ ليبايع رسول الله ﷺ، وأمَرَهُ بذلك الزبير؛ فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآه مقبلًا إليه، ثمَّ بايعه". أخرجه مسلم (٢١٤٦). يعني: أنَّه أدىٰ البيعة الشرعية قبل البلوغ، وقبلها النبي ﷺ منه. **وفيه** دليلٌ علىٰ صحَّةِ تحمُّلِ وأداء الصبيِّ قبل بلوغه.

ومن أدلَّة الأخذ والتحمُّل قبل البلوغ ما حفِظه **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من صلاةِ رسول الله ﷺ بالليل، وضبطَها جدًّا -وكان قد أرسله أبوه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إلىٰ بيت خالته ميمونةَ زوجِ النبي ﷺ- **ونقلها؛ وقُبِلت منه**.

وكذا **أنسٌ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **حدَّث** النبيَّ ﷺ بولادة أمه، وأخذ الصبيَّ إليه ليُحنِّكه، وأرسله رسول الله ﷺ بأشياء، وأسرّ له بأسرار، ولم يُفْشِ سِرَّ رسول الله ﷺ لأقربِ الناس وهي أمُّه؛ حتىٰ أوصته هي بألَّا يُفشيَ سرَّ رسول الله ﷺ. **فغالبًا أنَّه أداءه؛ كان قبل البلوغ** قال الزركشيُّ: "وفيه **أنَّه يجوز**

رواية الصبي قبل بلوغه". النكت علىٰ مقدمة ابن الصلاح (٤٦٢/ ٣).

و**عمرُو بن سلمة الجرمي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- كان يؤمُّ القوم وهو صغير؛ لأنَّه كان أكثرهم قرآنًا.

والأحاديث في هذا كثيرة؛ وهي: **اعتماد رواية الصبي المميِّز العاقل؛ ولو كانت قبل البلوغ**.

ومن طرائف ما ذُكِرَ **عن ابن عيينة** رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أخرجه **الخطيب البغدادي** من طريق **أحمد بن النضر الهلالي** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: سمعت أبي يقول: "كنت في مجلس سفيان بن عيينة فنظر إلىٰ صبيٍّ دخل المسجد؛ فكأنَّ أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنه؛ فقال سفيان: ﴿**كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ**﴾ [النساء: ٩٤]، ثمَّ قال: يا نضر! لو رأيتني؛ ولي عشر سنين: طولي خمسة أشبار، ووجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، وأكمامي قصار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار؛ **أختلف إلىٰ علماء الأمصار**، مثل: الزهري وعمرو بن دينار؛ أجلس بينهم كالمسمار: محبرتي كالجوزة، ومقلمتي كالموزة، وقلمي كاللوزة؛ فإذا دخلت المجلس قالوا: أوسعوا للشيخ الصغير! أوسعوا للشيخ الصغير!. قال: ثمَّ تبسم ابن عيينة وضحك". الكفاية (ص ٦١).

قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة ابن عيينة في التهذيب؛ قال **سفيان** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قرأت القرآن؛ وأنا ابن أربع سنين، وكتبت؛ وأنا ابن سبع سنين". توضيح الأفكار (٢/ ١٨٢).

وأمَّا رواية الكافر؛ فيقبلونها إذا أدَّاها مسلمًا؛ ولا خلاف في ذلك؛ ومن أدلَّة ذلك: حديث **جبير ابن مطعم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في الصحيحين؛ حيث سمع النَّبِيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وكان قد جاء في أسرىٰ بدر قبل أن يُسلم.

ويدخل في هذا -أيضًا- حديث **أبي سفيان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وقصَّته مع هرقل؛ حيث إنَّه تحمَّل ذلك حالَ كفرِه، وأدَّاه حالَ إسلامِه -والله أعلم-.

٧٦- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ (محمد بن مسلم الزهري)، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، **عَنْ عبد اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَىٰ حِمَارٍ أَتَانٍ (أنثىٰ الحمار) -وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الِاحْتِلَامَ (قاربت البلوغ)-، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِمِنًىٰ إِلَىٰ غَيْرِ جِدَارٍ، فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ (أمام) بَعْضِ الصَّفِّ، وَأَرْسَلْتُ

(أطلقت) الأَتَانَ تَرْتَعُ (تأكل وتمشي مسرعة)، فَدَخَلْتُ فِي الصَّفِّ؛ فَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ (أي: مُروري من قُدّام الصف) عَلَيَّ.(٦٧٠)

أطرافه في: (الصلاة٤٩٣، الأذان٨٦١، جزاء الصيد١٨٥٧، المغازي٤٤١٢).

الشرح

روايات الحديث:

عَنْ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَىٰ حِمَارِ أَتَانٍ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الِاحْتِلَامَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ) (قَائِمٌ بِمِنًىٰ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يُصَلِّي بِالنَّاسِ) (إِلَىٰ غَيْرِ جِدَارٍ فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ بَعْضِ الصَّفِّ) (الْأَوَّلِ)، وفي رواية: (فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ النَّبِيِّ ﷺ -وَهُوَ يُصَلِّي-) (ثُمَّ نَزَلْتُ) (وَأَرْسَلْتُ الْأَتَانَ تَرْتَعُ) (تَمُرُّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)، وفي رواية: (تَأْكُلُ مِنْ بَقْلٍ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ)، (وَصَفَفْتُ مَعَ النَّاسِ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ ﷺ)؛ (فَلَمْ يَنْصَرِفْ)، وفي رواية: (فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ عَلَيَّ أَحَد). (وَجَاءَتْ جَارِيَتَانِ مِنْ بَنِي عبدالْمُطَّلِبِ) (تَشْتَدَّانِ اقْتَتَلَتَا)؛ (حَتَّىٰ أَخَذَتَا بِرُكْبَتَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ)؛ (فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَلَمْ يَنْصَرِفْ)". الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (٢٥/ ١٥٦).

قوله: (أَقْبَلْتُ رَاكِبًا عَلَىٰ حِمَارِ أَتَانٍ)، **فيه** جواز ركوب الحمار؛ وقد ورد عن النبي ﷺ أنَّه ركبه في خيبر وغيره. **وفيه** أنَّه يُعفىٰ ما يكون من لعابه؛ كالهرة لكثرة مُلابسته. **وفيه** ضبط ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لجِنس الحمار، وأنَّه كان أُنثىٰ. وضبطه لهذا؛ دليلٌ علىٰ حفظه للحديث وضبطه له. **وفيه** وجوب الرحمة بالدواب وأشباهها -كذلك-. **وفيه** تواضع السلف؛ لركوبهم الحمير. **وفيه** حضور الصبيان للصلاة وشهودهم الجماعات.

وقوله: (وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَدْ نَاهَزْتُ الِاحْتِلَامَ)، ناهزت؛ أي: قاربت، والمراد **بالاحتلام**: البلوغ الشرعي. ومراد البخاري بـ(**الصغير**): غير البالغ. وليس في الحديث سماعٌ؛ وإنَّما ما يقوم مقام **السماع**: وهو التحمُّل في الصِّغَر؛ لإقرار الرسول ﷺ له في مسألة المرور؛ فعُلم منه قبولُ سماعِ الصبيِّ بشرطه؛ كما في حديث **محمود بن الربيع** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- الآتي؛ **والظاهر**: عدمُ التفرقة بين

---

(٦٧٠) وأخرجه مسلم (٥٠٤)، وأبوداود (٧١٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٦٤).

التحمُّل والأداء؛ بشرطهما -وهو العقل والتمييز والفهم-.

وصحَّ عن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: "توفِّي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين؛ مختونٌ، وقد قرأتُ الـمُحكَمَ من القرآن". قال **شعبة**: "قلت **لأبي بشر**: أيُّ شيء **المُحكَمُ** من القرآن؟ قال: **المفصَّلُ**". سيأتي برقم (٥٠٣٥، ٥٠٣٦) -علىٰ خلاف في الروايات-، والطيالسي (٢٧٦١) -واللفظ له-.

وقوله: (وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِمِنًىٰ إِلَىٰ غَيْرِ جِدَارٍ)، وفي رواية: "فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ"[٦٧١]؛ وبمجموع روايات الحديث: يتبيَّن أنَّ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان عمره في ذلك الوقت -الذي هو حجَّة الوداع-؛ عشرُ سنين.

وقد وجَّه بعض أهل العلم قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إِلَىٰ غَيْرِ جِدَارٍ"؛ بأنَّه لم ينفِ السترة مطلقا؛ لاحتمال أنَّه صلَّىٰ إلىٰ سترةٍ غيرِ جدارٍ: من عَنَزَةٍ أو حَرْبةٍ، ونحوهما. وسيأتي الكلام في حكم السترة -بتوسُّعٍ في ذلك- في بابه -إن شاء الله تعالىٰ-.

وقوله: (فَمَرَرْتُ بَيْنَ يَدَيْ بَعْضِ الصَّفِّ)، أي: فمررت بين الصفوف وهم يصلُّون دون سترة لهم، متَّبعين الإمام في الصلاة؛ **فالحكم في مثل هذه الحالة**: أنَّه يجوز المرور أمام المأموم؛ لأنَّ سترةَ الإمام؛ سترةٌ لمن خلفه، وإن قصَّر هو في اتخاذها.

وقوله: (فَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيَّ)، أي: فلم ينكِر أحدٌ عليه هذا الفعلَ، **وفيه** أنَّ إقرار السلف حجَّة، وحجِّية الإجماع السكوتي، **فيه** صحَّة سماعِ الصغير وتحمّلِه للعلم؛ ويَلْحَق به الفاسق والكافر، **وفيه** أخذ الصغير للحديث وضبطه للسنن. **وفيه** صحة صلاة الصبيِّ، **وفيه** أنّ مرور النساء، والحمار والكلب بين يدي المأموم لا يقطع صلاته. **وفيه** السترة في الحرم؛ لأنَّ ذلك كان بمنىٰ، وهي من الحرم. **وفيه** حرص الصغار من السلف علىٰ الطاعات والفضائل؛ فضلًا عن كبارهم، **وفيه** أنَّ تركَ الإنكارِ علىٰ الفعل دليلٌ علىٰ الجواز بشرطه؛ وهو انتفاء الموانع

---

(٦٧١) ذكرها المصنف معلقة، وذكِرت موصولة عند مسلم (٥٠٤)، وفي رواية عند عبدالرزاق وابن خزيمة بلفظ: "لَيْسَ شَيْءٌ يَسْتُرُهُ يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ"، وعند البزار: "وهُو يُصَلِّي الْمَكْتُوبَةَ، لَيْسَ شَيْءٌ يَسْتُرُهُ"؛ وقد ضعفهما العلامة **الألباني** في الضعيفة (٥٨١٤).

ويحتمل أنَّ الرواية بها خطأ من بعض الرواة؛ فإنَّ الرواية التي لم تذكر لفظة "إِلَىٰ غَيْرِ جِدَارٍ"؛ رواها الجمُّ الغفير الأضبط والأكثر حفظًا؛ كما بيَّن ذلك الإمام الألباني في الضعيفة بالرقم السابق.

من الإنكار، وثبوتُ العلمِ بالاطلاعِ علىٰ الفعلِ؛ **وفيه** جواز الركوب إلىٰ صلاة الجماعة، وإن كان خلافَ الأولىٰ.

٧٧- حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو مُسْهِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنِي الزُّبَيْدِيُّ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ **مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: عَقَلْتُ (حفظتُ) مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجَّةً (إرسال الماء من الفم مع نفخ) مَجَّهَا فِي وَجْهِي، وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ مِنْ دَلْوٍ (هو: السطل).(٦٧٢)

أطرافه في: (الوضوء١٨٩، الأذان٨٣٩، التهجُّد١١٨٥، الدعوات٦٣٥٤، الرقاق٦٤٢٢).

الشرح

قوله: (عَقَلْتُ... وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ سِنِينَ)، عقلت، أي: حفظت ذلك وتحمَّلته وأنا ابن خمس سنين؛ **ففيه** جواز تحمُّل الصغير؛ بشرط أن يكون مميِّزًا، يعقِل ما يسمع ويرىٰ، ووَرد عنه -فيما أخرجه **الطبراني** من طريق **الزهري** رَحِمَهُ اللَّهُ قال حدثني **محمود بن الربيع** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وفيه: "من دلو معلَّقة في دارِهم". **صحيح**: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٤) -وفي رواية (٥٥) عنده-أيضًا-: "من دلو معلَّق في دارنا"-، والخطيب في الكفاية (١/ ٥٩). **وفيه** طَهورية ماء البئر، وقال الحافظ **الذهبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "واصطلح المحدِّثون علىٰ جعلهم سماع ابن خمس سنين سماعًا، وما دونها حضورًا، واستأنسوا بأن محمودًا عَقَلَ مَجَّةً؛ ولا دليل فيه، **والمعتبر**: إنَّما هو أهليَّة الفهم والتمييز". الموقظة (٦١)؛ يعني: أنَّ حفْظَ مثل هذه الحادثة والواقعة الحسية؛ لا يعني بالضرورة أنَّه يستطيع حفظ النصوصِ والأحاديثِ؛ ولا سيَّما الطويلةِ منها، ويضبِطَ ذلك ضبطًا متْقَنًا؛ ومع ذلك: فالمحقِّقون من أهل العلم علىٰ عدم اعتبار تحديد سنٍّ معيَّنٍ؛ بل **المعتبر** عندهم: **هو العقل والتمييز في حال التحمُّل، والأداء.**

ولأن واقعة المجَّة التي مجَّها النبي ﷺ في وجهه كان حاضراً لها بنفسه، فمثل هذا لو صدر

(٦٧٢) وأخرجه مسلم (٣٣/ ٢٦٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٦٥)، وابن ماجه (٦٦٠، ٧٥٤).

من ضعيف الحفظ فنحن نقبل حديثه، **فيه** أنّ الصبي يمكن أن يعقل ويصِحَّ سماعُه في خمسِ سنينَ. **وفيه** مشروعية مداعبة الصبيِّ؛ كمجِّ الماء في وجه ونحوه. **وفيه** جواز نضْحِ الماء في الوجه للمصلحة؛ كإيقاظ نائم، وللتنبيه في الدروس، ونحو ذلك؛ من باب أولىٰ. **وفيه** تواضع النبي ﷺ؛ لزيارته لأصحابه في بيوتهم. **وفيه** طهارة سؤر الآدمي. **وفيه** منقبة لمحمود بن الربيع رضي الله عنه-.

١٩- بَابُ الخُرُوجِ فِي طَلَبِ العِلْمِ

قوله: **(بَابُ الخُرُوجِ فِي طَلَبِ العِلْمِ)**، هذا الباب في بيان أهمية وفضل الخروج والرحلة في طلب العلم، سواءٌ كان السفر بالبحر في طلب العلم أو البر أو الجو، -مع وجود الخطر- وذِكْر قصة موسىٰ مع الخضر -عليهما السلام-؛ لأنَّنا مأمورون بالاقتداء بالأنبياء؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد رحل أهلُ الحديث وطلابُه في الفيافي والقفار لِلقاء العلماء والسماع منهم في سائر الآفاق؛ عملًا بحديث النبي ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يلتمس فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ**». أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

وذكرَ الله -تعالىٰ- **أهلَ الحديث والمرتحلين من أجله في كتابه**؛ فعن يزيد بن هارون، قال لحماد بن زيد: يا أبا إسماعيل! هل ذكر الله -تعالىٰ- أصحاب الحديث في القرآن؟ فقال: "نعم! ألم تسمع قوله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فهذا في كلِّ مَنْ رحل في طلب العلم والفقه، ورجع به إلىٰ من وراءه فعلَّمه إيَّاه". **صحيح**: أخرجه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث (ص: ٨٦، برقم: ١٠)، وعن **عكرمة** -مولىٰ ابن عباس رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله -تعالىٰ-: ﴿**السَّائِحُونَ**﴾ [التوبة: ١١٢] قال: "هم طلبةُ الحديثِ". **صحيح**: أخرجه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث (ص ٨٧)، (١١)، و**أهل الحديث** هم خيرٌ علىٰ هذه الأمَّة؛ كما قال **إبراهيم بن أدهم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ الله -تعالىٰ- يرفع البلاء عن هذه الأمَّة برحلة أصحاب الحديث". أخرجه الخطيب في الرحلة في طلب الحديث (ص ٨٩)، (١٥).

وَرَحَلَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ (بن حرام الخزرجي الأنصاري) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- مَسِيرَةَ شَهْرٍ، إِلَىٰ عَبْدِاللهِ بْنِ أُنَيْسٍ(٦٧٣) فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ(٦٧٤).

---

(٦٧٣) عبدالله بن أنيس بن سعد الجهني، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أُحُدًا وما بعدها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، توفِّي بالشام زمن معاوية سنة (٥٤)، روي له عن رسول الله ﷺ أربعة وعشرون حديثًا: روىٰ له مسلم حديثًا، ولم يرو له البخاري.

(٦٧٤) هو من حديث أخرجه موصولاً في "الأدب المفرد"، وأحمد؛ بسند حسن، وقد علَّق طرفًا آخر منه في

وقوله: (وَرَحَلَ جَابِرُ ...، فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ)، وهو حديث في القصاص؛ ليأخذه من عبدالله بن أنيس رضي الله عنه- وهو قوله: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -أَوْ قَالَ: الْعِبَادُ- عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا** ...»، وفيه: قال: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**». **حسن**: أخرجه أحمد (١٦٠٤٢)، وهو في صحيح الأدب المفرد، (٩٧٠).

ومثله حديثٌ عن **مكحول** رحمه الله: "أنَّ عقبة -قال: ابن أبي عدي- أتىٰ **مَسلمة بن مُخَلَّدٍ** بمصر، وكان بينه وبين البوَّاب شيء؛ فسمع صوته؛ فأذِن له، فقال: إنِّي لم آتك زائرًا؛ ولكنِّي جئتك لحاجة، أتذكر يوم -قال عبَّاد في حديثه- قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَلِمَ مِنْ أَخِيهِ سَيِّئَةً، فَسَتَرَهَا سَتَرَهُ اللهُ -عزَّ وجلَّ- بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**»، فقال: نعم، فقال: لهذا جئت. قال ابن أبي عدي في حديثه: ركب عقبة بن عامر إلىٰ مسلمة بن مُخَلَّد -وهو أمير علىٰ مصر-"[٦٧٥]. **صحيح**.

ومثله حديث **عبد الله بن بُرَيدة بن الحُصَيبِ** رحمه الله أنَّ: **رجلًا من أصحاب النبي** ﷺ رحل إلىٰ **فَضالة بن عُبيد بن نافِذ الأنصاري** -وهو بمصر-؛ فقدم عليه -وهو يمدُّ ناقةً له-؛ فقال: "إنِّي لم آتِك زائرًا؛ وإنَّما أتيتك لحديث بلغني عن رسول الله ﷺ؛ رجوتُ أن يكون عندك منه علم؛ فرآه شَعِثًا؛ فقال: ما لي أراك شعِثًا وأنت أميرُ البلد؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ كان ينهانا عن كثير من الإرفاه (الترجُّل كلَّ يوم). ورآه حافيًا؛ فقال: ما لي أراك حافيا؟ قال: إنَّ رسول الله ﷺ أمرنا أن نحتفي أحيانًا"[٦٧٦]. **إسناده صحيح علىٰ شرطهما**.

وَعَنْ **عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ** رضي الله عنهما قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ**»، قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ، فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ اليَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ**»، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالُوا: "جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ ...". سيأتي برقم (٣١٩١، ٧٤١٨).

"٩٧-التوحيد/ ٣٢ -باب".

(٦٧٥) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٨/ ١٦٠ ط: الرسالة)، (١٦٩٦٠)، وغيره، وهو في الصحيحة (٢٣٤١).

(٦٧٦) **إسناده صحيح علىٰ شرطهما**: أخرجه أحمد (٢٣٩٦٩) -واللفظ له-، وأبوداود (٤١٦٠)، والنسائي (٢/ ٢٩٢- ٢٩٣)، وهو في الصحيحة (٢/ ٢٠)، تحت رقم (٥٠١).

وسيأتي المزيد من الآثار عن السلف في الرحلة لطلب الحديث، **وفيها** بيانُ كيف يكون الحرص علىٰ علو الإسناد.

٧٨- حَدَّثَنَا أبو القَاسِمِ خَالِدُ بْنُ خَلِيٍّ قَاضِي حِمْصَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ، أَخْبَرَنَا الزُّهْرِيُّ، عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **- أَنَّهُ تَمَارَىٰ** (أي: تنازع وتجادل) **هُوَ وَالحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْنٍ الفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ؛ فَدَعَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: إِنِّي تَمَارَيْتُ أَنَا وَصَاحِبِي هَذَا فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ الَّذِي سَأَلَ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ؟ فَقَالَ أُبَيٌّ: نَعَمْ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ شَأْنَهُ يَقُولُ: «بَيْنَمَا مُوسَىٰ فِي مَلَإٍ** (جماعةٍ وأشراف) **مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَتَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ مُوسَىٰ: لَا. فَأَوْحَىٰ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَىٰ مُوسَىٰ: بَلَىٰ، عَبْدُنَا خَضِرٌ. فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ، فَجَعَلَ اللهُ لَهُ الحُوتَ آيَةً** (أي: علامة)**، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فَقَدْتَ الحُوتَ؛ فَارْجِعْ؛ فَإِنَّكَ سَتَلْقَاهُ. فَكَانَ مُوسَىٰ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ- يَتَّبِعُ أَثَرَ الحُوتِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ فَتَىٰ مُوسَىٰ لِمُوسَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا** (نزلنا والتجأنا) **إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾** [الكهف: ٦٣]. **قَالَ مُوسَىٰ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ** (نطلب) **فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾** [الكهف: ٦٤]؛ **فَوَجَدَا خَضِرًا؛ فَكَانَ مِنْ شَأْنِهِمَا مَا قَصَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ»**(٦٧٧).

تقدم في: (العلم ٧٤).

الشرح

قوله: **(فَأَوْحَىٰ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَىٰ مُوسَىٰ: بَلَىٰ، عَبْدُنَا خَضِرٌ)**، **فيه** دليل علىٰ تكليم الله حقيقة لموسىٰ -عليه السلام-؛ فقد كلَّمه ربه، بل **﴿نَادَاهُ رَبُّهُ﴾** [النازعات: ١٦] -كما في

(٦٧٧) وأخرجه مسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٣٠٩).

التنزيل-، **والنداء**: لا يكون إلا صوتًا مسموعًا.

وقوله: **(فَسَأَلَ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ)**، قال الله -تعالىٰ- حكاية عن موسىٰ -عليه السلام-: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [الكهف: ٦٠]، جمع **حُقُب**: وهو ثمانون سنة. **ففيه** فضل الازدياد من العلم. **وفيه** تواضع الكبير لمن يتعلَّم منه. **وفيه** الحثُّ علىٰ الرحلة في طلب العلم. **وفيه** تحمُّل المشاقِّ في سبيل تحصيل العلم. **وفيه** أنَّ من منهج الأنبياء والصحابة وأهل العلم الحرصُ علىٰ العلم ولو بالرحلة والسفر الشاقِّ؛ فإنَّ أصحاب محمد ﷺ تكبَّدوا مشاقَّ الأسفار إلىٰ ما بَعُد من الأقطار؛ كلُّ ذلك تحصيلًا للعلم؛ حتىٰ قال **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه-: "ولو أعلمُ أحدًا أعلمُ مني بكتاب الله، تُبَلِّغُه الإبلُ، لركبتُ إليه". متفق عليه؛ بل إنَّ حال الصحابة وهجرتهم إلىٰ رسول الله ﷺ دليل علىٰ تحمُّلهم المشاقَّ في تحصيل العلم؛ وسيأتي المزيد.

وَعَنْ **طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ** رضي الله عنه-، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ، وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّىٰ دَنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ ...**». متفق عليه.

وَعَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما، قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عبد الْقَيْسِ لَمَّا قَدِمُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ الْقَوْمُ؟**» قَالُوا: مِنْ رَبِيعَةَ، قَالَ: «**مَرْحَبًا بِالْوَفْدِ غَيْرِ الْخَزَايَا وَلَا النَّدَامَىٰ**»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا حَيٌّ مِنْ رَبِيعَةَ، وَإِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَإِنَّهُ يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَإِنَّا لَا نَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ ...**»، قال: «**احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**». متفق عليه.

ورحَل **سلمان** رضي الله عنه-؛ كي يلازم النبي ﷺ وينتفعَ به، ورحل **أبوذر** -أيضًا-، وغيرُهم من الصحابة كثير جدًا.

ورحل **أبو أيوب الأنصاري** رضي الله عنه- إلىٰ مصر لسماع حديث واحد؛ فعن **عطاء بن أبي رباح** رضي الله عنه- قال: "خرج أبوأيوبَ إلىٰ عقبةَ بن عامر -وهو بمصَر- يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، لم يبق أحدٌ سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عقبة، فلمَّا قدم؛ أتىٰ منزل مَسلمة

بنِ مُخْلد الأنصاري -وهو أمير مصر-، فأخبِر به؛ فعجَّل فخرج إليه فعانقه، ثمَّ قال: ما جاء بك يا أبا أيوبَ؟ فقال: حديثٌ سمعتُه من رسول الله ﷺ لم يبق أحدٌ سمعه من رسول الله ﷺ غيري وغيرُ عقبةَ؛ فابعث من يدلُّني علىٰ منزله.

قال: فبعث معه من يدلُّه علىٰ منزل عقبة، فأخبِر عقبةُ به؛ فعجل فخرج إليه فعانقه؛ وقال: ما جاء بك يا أبا أيوبَ؟ فقال: حديثٌ سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرُك؛ في ستر المؤمن. قال عقبة: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ سَتَرَ مُؤْمِنًا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ خِزْيَةٍ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، فقال له أبو أيوب: صدقت، ثمَّ انصرف أبو أيوب إلىٰ راحلته؛ فركبها راجعًا إلىٰ المدينة؛ فما أدركته جائزةُ مَسلمة بن مُخْلد إلا بعرِيش مصر"[٦٧٨].

وقال **عبيد الله بن عدي بن الخيار** -أحد بني نوفل بن عبد مناف-: "بلغني حديث عن **علي** رضي الله عنه- خِفت إن مات ألاَّ أجده عند غيره؛ فرحلت حتىٰ قدمت العراق؛ فسألته عن الحديث؛ فحدثني". الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (ص ١٢٩)، (٤٥).

وقال **سعيد بن المسيّب** رحمه الله: "إن كنتُ لأسيرُ الليالِيَ والأيّامَ في طَلَب الحديث الواحد"[٦٧٩].

وعن أبان، عن **الحسن** رحمه الله، قال: "رحلت إلىٰ كعب بن عجرة من البصرة إلىٰ الكوفة" فقلت: ما كان فداؤك حين أصابك الأذىٰ؟ قال: "شاة". الرحلة في طلب الحديث (٥٢).

وقال **الشعبي** رحمه الله في حديث رواه: "وقد كان الرجل يرحل في أهون منها إلىٰ المدينة". **متفق عليه.**

وقد أحسن **أَبُو الْفَضْلِ الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخُرَاسَانِي** رحمه الله حيث قال:

رَحَلْتُ أَطْلُبُ أَصْلَ الْعِلْمِ مُجْتَهِدًا ... وَزِينَةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا الْأَحَادِيثُ

---

(٦٧٨) **صحيح لغيره**: أخرجه الحميدي في مسنده (١/ ٣٧٣)، (٣٨٨)، وهو في الصحيحة (٤٤٩/ ٥، تحت حديث: ٢٣٤١).

(٦٧٩) **صحيح**: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٢٨، ط: الخانجي)، (١٥)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٣١٨).

لَا يَطْلُبُ الْعِلْمَ إِلَّا بَازِلٌ[٦٨٠] ذَكَرٌ . .. وَلَيْسَ يُبْغِضُهُ إِلَّا الْمَخَانِيثُ
لَا تَعْجَبَنَّ بِمَالٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ .. . فَإِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَوَارِيثُ[٦٨١]

ومن أمثلة ما كان عليه أهل العلم من السلف ومن تبعهم من الخلَف من الرحلة في طلب العلم وتحمُّل المشاق؛ ما قاله الحافظ **ابن كثير**- في ترجمة الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: "رحَلَ إلىٰ سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنَتْه الرحلةُ إليها". البداية والنهاية (١١/ ٣٠).

وقال **أبوحاتم الرازي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أول ما رحلت أقمتُ سبع سنين، ومشيت علىٰ قدمي زيادة علىٰ ألف فرسخ، ثم تركتُ العددَ، وخرجتُ من البحرين إلىٰ مصر ماشيًا، ثمَّ إلىٰ الرملة ماشيًا، ثم إلىٰ طرسوس، ولي عشرون سنة" تذكرة الحفاظ (٢/ ١١).

سأضرب في طول البلاد وعرضها ... لأطلُبَ علمًا أو أموتَ غريبًا
فإن تلِفت نفسي فلله دَرُّها ... وإن سلِمتْ كان الرجوعُ قريبًا

وهذا يدلُّ علىٰ علوِّ همتهم في الرحلة لتحصيل العلم، ولم ينتشر العلمُ في بلاد المغرب والأندلس إلا برجال رحلوا إلىٰ الشرق، ولاقَوا في رحلاتهم عناءً ونصبًا، مثل **أسد بن الفرات، وأبي الوليد الباجي، وأبي بكر بن العربي** -رحمة الله عليهم-.

وَقَالَ **أَبُوْالعَبَّاسِ البَكْرِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: جمعت الرحلة بين (مُحَمَّدِ) ابن جرير، و(مُحَمَّدِ بن إسحاق) ابن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد بن هارون الروياني، -رحمهم الله- بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يقوتهم، وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فاتفق رأيهم علىٰ أن يستهموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه القرعة سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة علىٰ ابن خزيمة، فقال لأصحابه: أمهلوني حتىٰ أصلي صلاة الخِيرَةِ، قال: فاندفع في الصلاة، فإذا هم بالشموع وخَصِيٍّ من قبل والي مصر يدُقُّ الباب، ففتحوا، فقال: أيُّكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا، فأخرج صرَّة فيها خمسون دينارًا، فدفعها إليه، ثمَّ قال: وأيُّكم محمد بن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك للروياني، وابن خزيمة، ثمَّ قال: إنَّ الأمير كان قائلًا (أي: نائما في القائلة: وهي نصف النهار) بالأمس، فرأىٰ في المنام أنَّ المحامد (يعني: جماعة كلهم

---

(٦٨٠) "البازِلُ: الرجُلُ الكامِلُ فِي تَجْرِبَتِه وعَقلِه. القاموس المحيط (٢٨/ ٧٨)، (٣/ ١٦٧).
(٦٨١) الرحلة في طلب الحديث (١/ ٧١).

اسمه محمد) جياع قد طووا كشحهم، فأنفذ إليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم: إذا نفدت، فابعثوا إليّ أحدكم". تاريخ بغداد (٢/ ١٦٤، ١٦٥)، السير (١٤/ ٢٧١).

وعن **محمد بن نصر** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "خرجتُ من مصر، ومعي جارية لي فركبتُ البحرَ أريدُ مكة فغرقتْ وذهبتْ مني ألفا جزء، وصرتُ إلىٰ جزيرة أنا وجاريتي، قال: فما رأينا فيها أحدًا، قال: وأخذني العطش فلم أقدر علىٰ الماء، وأُجْهِدتُ فوضعت رأسي علىٰ فخذ جاريتي مستسلمًا للموت، فإذا رجل قد جاءني ومعه كوز، فقال لي: هَاهْ، فأخذت وشربت وسقيت الجارية ثمَّ مضىٰ، فما أدري من أين جاء ولا أين ذهب". المنتظم (١٣/ ٥٥).

وما ذُكر عن الإمام **أبي حاتم** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- ممَّا لقيه أثناء رحلته في طلب العلم، فقال: "لـمَّا خرجنا من المدينة من عند **داود الجعفري** صرنا إلىٰ الجار، وركبنا البحر، وكنَّا ثلاثة أنفس **أبوزهير** المروزي شيخ، وآخر نيسابوري، فركبنا البحر وكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر وضاقت صدورنا، وفنيَ ما كان معنا من الزاد، وبقيتْ بقيةٌ فخرجنا إلىٰ البرِّ، فجعلنا نمشي أيامًا علىٰ البرِّ، حتىٰ فنيَ ما كان معنا من الزاد والماء، فمشَينا يومًا وليلة لم يأكل أحد منا شيئًا ولا شربنا، واليوم الثاني كمثلٍ، واليوم الثالث، كلَّ يوم نمشي إلىٰ الليل، فإذا جاء المساء صلَّينا وألقينا بأنفسنا حيث كنّا، وقد ضَعُفَتْ أبدانُنا من الجوع والعطش والعياء، فلمَّا أصبحنا اليومَ الثالثَ جعلنا نمشي علىٰ قدْرِ طاقتنا، فسقط الشيخ مغشيًا عليه، فجئنا نحرِّكه وهو لا يَعقِل، فتركناه ومشينا أنا وصاحبي النيسابوري قدر فرسخٍ أو فرسخين، فضعُفْتُ وسقطتُ مغشيًا عليَّ، ومضىٰ صاحبي وتركني، فلم يزل هو يمشي إذ بَصُرَ من بعيد قومًا قد قرَّبوا سفينتهم من البر، ونزلوا علىٰ بئر موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ! فلمَّا عاينهم لوَّحَ (أي: أشار من بعيد) بثوبه إليهم، فجاءوه معهم الماء في إداوة فسقوه وأخذوا بيده.

فقال لهم: الحقوا رفيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشيًا عليهم، فما شعُرت إلا برجل يصبُّ الماء علىٰ وجهي ففتحت عيني.

فقلت: اسقني فصبَّ من الماء في ركوة أو مشربَة شيئًا يسيرًا فشربتُ ورَجَعَتْ إليَّ نفسي، ولم يَرْوِني ذلك القدر، فقلت: اسقني فسقاني شيئًا يسيرًا وأخذ بيدي.

فقلت: ورائي شيخ مُلْقًىٰ، قال: قد ذهب إلىٰ ذاك جماعة، فأخذ بيدي وأنا أمشي أجرُّ

رجلي؛ ويسقيني شيئًا بعد شيء، حتىٰ إذا بلغت إلىٰ عند سفينتهم وأتوا برفيقي الثالثِ الشيخِ وأحسن إلينا أهل السفينة، فبقينا أيامًا حتىٰ رجعتْ إلينا أنفسُنا، ثمَّ كتبوا لنا كتابًا إلىٰ مدينة يقال لها -راية- إلىٰ واليهم، وزوَّدونا من الكعك والسويق، فلم نزل نمشي حتىٰ نفذ ما كان معنا من الماء والسَّويق والكعك، فجعلنا نمشي جياعًا عِطاشًا علىٰ شط البحر، حتىٰ وقعنا إلىٰ سلحفاة قد رمىٰ به البحر مثل التُّرْس، فعمدنا إلىٰ حجر كبير فضربنا علىٰ ظهر السلحفاة فانفلق ظهرُه، وإذا فيها مثلُ صفرةِ البيض، فأخذنا من بعض الأصداف الملقىٰ علىٰ شط البحر فجعلنا نغترف من ذلك الأصفر فنتحسَّاهُ، حتىٰ سكن عنا الجوع والعطش، ثمَّ مررنا وتحمَّلنا حتىٰ دخلنا مدينة الراية، وأوصلنا الكتاب إلىٰ عاملهم فأنزلنا في داره وأحسن إلينا، وكان يقدِّم إلينا كل يوم القَرْعَ ويقول لخادمه: هاتِ لهم باليقطين المبارك، فيقدِّم إلينا من ذاك اليقطين مع الخبز أيامًا، فقال واحد منا بالفارسية: ألا تدعو باللحم المشؤوم؟

وجعل يُسمِعُ الرجلَ صاحبَ الدارِ، فقال: أنا أُحسِنُ الفارسيةَ فإن جدتي كانت هَرَوِيَّةً، فأتانا بعد ذلك باللحم، ثمَّ خرجنا من هناك وزوَّدنا إلىٰ أن بلغنا مصر". الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (١/ ٣٦٤).

وإن مثلَ هذه القَصص التي حدثت مع كثير منَ السلف منْ أهل الحديث يحصل لهم بها كرامات يُنزِلها الله -تعالىٰ- علىٰ أوليائه منهم؛ ليثبِّتهم بها علىٰ ما هم عليه في هذا الطريق ترغيبًا لمن بعدهم.

وليعلمْ -أيضًا- طلَّاب العلم أنَّ طلَبَه شاقٌّ، ويتحمَّلوا في سبيل تحصيله كلَّ الصعاب، وهو من الجهاد في سبيل الله، وأنَّه لا يُنال براحة الجسم، وأنَّه لم يأتِنا إلا بنصبِ السابقين وتعبهم، ومن أراد المزيد في هذا الباب؛ فعليه بقراءة كتاب "الرحلة في طلب الحديث" للخطيب.

٢٠- بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ

قوله: **(بَابُ فَضْلِ مَنْ عَلِمَ وَعَلَّمَ)**، هذا الباب ترجمه المصنف في بيان فضل العالم المُعلم لغيره، وأنَّ النية ينبغي أن تكون للنفع والانتفاع، والتعلّم والتعليم، وأنَّ الفضل ليس لمن خزن علمه، ولم ينفع غيره، بل لا يكون عالمـًا عاملاً بعلمه حتىٰ يعلِّمه غيره.

٧٩- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ العَلاَءِ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ ابْنُ أُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدِ بْنِ عَبْدِاللهِ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ (قيل اسمه عامر، ثقة، ع، ت/ ١٠٤)، **عَنْ أَبِي مُوسَىٰ**(٦٨٢) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ** (المطر) **أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ** (طيبة طاهرة متعطشة)، **قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ** (نبات الأرض) **وَالعُشْبَ الكَثِيرَ** (النبات الرطب)، **وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ** (وهي الأرض التي لا تشرب الماء ولا تنبت)، **أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ** (وهي الأرض المستوية الملساء) **لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»**.

قَالَ أَبُوعَبْدِاللهِ: قَالَ إِسْحَاقُ: وَكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ قَيَّلَتِ (شربت) المَاءَ، قَاعٌ يَعْلُوهُ المَاءُ، وَالصَّفْصَفُ المُسْتَوِي مِنَ الأَرْضِ.(٦٨٣)

الشرح

قوله: **(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَىٰ وَالعِلْمِ)**، جمع بين الهدىٰ والعلم؛ لأنَّ العلم الذي بُعث به رسول الله ﷺ هو العلم النافع المشتمل علىٰ الهداية وكلِّ خير، ولأنَّه يزيد

---

(٦٨٢) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حَضَّارِ الأشعري، صحابي جليل مشهور، لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود، يعني كان حسن الصوت بالقرآن، وكان النبي صلىٰ الله عليه وسلم يحب أن يسمع القرآن منه، وأمَّره عمر وعثمان، وهو أحد الحكمين بصفين، (ت/ ٥٠).

(٦٨٣) وأخرجه مسلم (٢٢٨٢، ٢٢٨٣)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨١٢).

العبد هدىٰ وتقىٰ، وصلاحًا وإيمانًا، **ففيه** ضرب الأمثال لتقريب العلم. **وفيه** أنَّ النبي ﷺ مبعوث من رب العالمين للناس كافة؛ بالحنيفيةِ السمحةِ لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلىٰ نور التوحيد، بشيراً ونذيراً. **وفيه** أنَّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ من الكتاب والسنَّة فيه الهداية التامَّة، والخير العميم وهما العلم النافع، **وفيه** عدم التفريق بينهما.

وقوله: **(كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا)**، ضرب رسولُ الله ﷺ الغيثَ مثلًا بالعلم للمشابهة التي بينهما، حيث إنّ الغيث رحمة للعباد، ويحصل ذلك بالوحيين لا بالآراء وما ادَّعوه معقولًا.

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لِما يحصل بِكُلِّ وَاحِد مِنْهُمَا من الْحَيَاة والمنافع والأغذية والأدوية وَسَائِر مصَالح الْعباد". مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠). فإنَّ الغيث يحيي البلد الميت وينشر به الرحمة، والعلم يحيي القلب الميت فيصار إلىٰ الهداية بذلك، واختار الغيث من بين سائر أسماء المطر؛ ليؤذن باضطرار الخلق إليه لأنَّ الله يقول: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾ [الشورىٰ: ٢٨].

وفيه أنَّ حاجة العباد إلىٰ العلم كحاجتهم إلىٰ المطر، بل أعظم؛ وأنَّهم إذا فقدوا الوحي فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث، قال **الحسن بن صالح** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ الناس ليحتاجون إلىٰ هذا العلم في دينهم، كما يحتاجون إلىٰ الطعام والشراب في دنياهم". **إسناده صحيح**: أخرجه الدارمي (٣٣٦).

وقال الإمام **أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الناس إلىٰ العلم أحوج منهم إلىٰ الطعام والشراب، لأنَّ الرجل يحتاج إلىٰ الطعام والشراب في اليوم مرَّة أو مرَّتين، وحاجته إلىٰ العلم بعدد أنفاسه". مدارج السالكين (٢/ ٤٤٠)، إعلام الموقعين (٢/ ١٨٢). ولذلك شبَّهه هنا بالغيث الذي لا يستغني عنه الناس، ولو فقدوه هلكوا.

وقوله: **(فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ)**، هذا المثل الأول الذي ذكره فيه التَّنْبيه علىٰ شرف الْعلم والفقه في النصوص، والتعليم وعِظَمِ موقعه، ونفعِه، وشقاءِ من لَيْسَ من أهله.

فيه أنّ الفقه يكون في الكتاب والسنَّة، لا بكثرة الآراء والاختلافات بين العلماء، وتشقيق

المسائل. **وفيه** النظر إلىٰ المحلِّ وهو القلب التقي النقي المريد للخير القابل للعلم والفقه، فينبغي أن يكون القلبُ سليمـًا بريئـًا من الشرك والشكِّ والبدع، فمثل هذا يؤتىٰ العلم وينتفع به وَتظهر بركته عليه، فليس كلُّ أحد يصلح أن يكون عالمـًا فقيهـًا يُؤتىٰ الفهم في النصوص.

وفيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوتي جوامع الكلم، فيمكن أن يستخرج من الحديث الواحد الكثير من العلم بالتفقُّه فيه، **وفيه** أنَّ العلم يؤخذ شيئـًا فشيئـًا؛ كالغيث ينزل شيئًا فشيئًا، وليس دفعة واحدة.

قوله: **(وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ)**، أجادب جمع جدب؛ الذي هو القحط، والمقصود الأرض التي لا تشرب الماء ولا تنبت.

وهذا هو المثل الثاني الذي ضربه النبي ﷺ : فمن الأرض ما لا يتخلَّلها الماء في نفسها؛ لكن فيها فائدة، وهي إمساك الماء لغيرها؛ فينتفع بها الناس والدواب، وهذا مثل الراوي يكون لديه النصوص، ولا يستنبط منها، ولكنه يبلِّغها إلىٰ من يتفقَّه فيها، **(فرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه)** **(ورُبَّ مُبَلَّغٍ أوعىٰ له من سامع)**.

وفي بعض الروايات: «**أَجَارِدُ**»؛ وهو ما لا يُنبت الكلأ، والمعنىٰ أنَّها جرداء لا يسترها النبات، وفي رواية أخرىٰ: «**أَخَاذَاتٌ**»؛ وهي الغدير الذي يمسك الماء، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَة الأرض الَّتِي أمسكت المَاء للنَّاس فانتفعوا بِهِ هَذَا يشرب مِنْهُ، وَهَذَا يسقي، وَهَذَا يزرع". مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠). فهذه حال من ينقل العلم ولم يتفقَّه فيه، ولكنه قام بتبليغه كما سمعه **(نضر الله امرأ سمع منا حديثـًا فحفظه حتىٰ يبلغه)**، فيقبل منه ما رواه وإن لم يكن فقيهـًا.

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه **هي مراتب العلم**:

أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه وعاه بقلبه، استقرَّ.

المرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتىٰ لا ينساه فيذهب.

المرتبة الرابعة: تبليغه وبثُّه في الأمَّة ليحصل به ثمرته ومقصوده.

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمِّنة لجمال الظاهر والباطن؛ فإنَّ النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الايمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به.

فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة علىٰ الوجه، ولهذا يجمع له سبحانه بين

البهجة والسرور والنضرة كما في قوله تعالىٰ: ﴿**فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا**﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة في وجوههم، والسرور في قلوبهم، فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة في الوجه كما قال تعالىٰ: ﴿**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**﴾ [المطفِّفين: ٢٤].

والمقصود أنَّ هذه النضرة في وجه من سمع سنَّة رسول الله ﷺ ووعاها وحفظها وبلَّغها فهي أثر تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه". مفتاح دار السعادة (١/ ٧٢).

قوله: (**فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا**)، يعني: دون أن يتفقَّهوا فيه ويستنبطوا منه، وعند مسلم: «**وَرَعَوْا**» من الرعي، قال **النووي**: "وكلاهما صحيحٌ". المنهاج (١٥/ ٤٧)، **ففيه** فضل حفظ العلم، ولو لم يعلم معناه، وليس هذا دليل علىٰ أنَّ كل رواة الحديث لا يعرفون ما يروون، بل الأصل فيهم أنَّهم يعلمون ما يروون، ويفهمونه جيداً، لذلك قيل: (**راوي الحديث أدرىٰ بمرويه**)، وأنَّ شرحه له أولىٰ من غيره، لذلك كانوا يروونه بالمعنىٰ.

فرحم اللهُ رواةَ السنةِ والحديث وحفظَتَه، حيث حفظوا لنا سنَّة نبينا، وشريعته الغرَّاء، الذين قاموا بتبليغها لنا، فلم يتركوا باباً من أبواب العلم إلا ورووا فيه الأحاديث والآثار، فقاموا بهذا الواجب خير قيام، فلهم منَّا الشكر والثناء الجميل علىٰ ذلك وفي الحديث: (**من لم يشكر الناس لا يشكر الله**)[٦٨٤].

---

(٦٨٤) أقول هذا لأنَّ بعضهم يزدري أهل الحديث ويطعن عليهم، ويهوِّن من شأنهم، ويحقر من عملهم، لأنَّهم لم ينشغلوا بما انشغل به هؤلاء من قيل وقال، ولا حفظوا ما حفظ هؤلاء من المتون التي يسمَّونها فقهية، وآراء الرجال، وغير ذلك ممَّا ورد ذمُّه عن السلف.

فيكفي أهل الحديث ورواة السنة النبوية، أنَّهم يحملون في صدورهم حديثه، ويبلغونه للأمَّة، كفي به فضلاً وشرفاً وهدىٰ ورحمة، ولولاهم لم يكن مالك ولا الشافعي، لذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (لولا أصحاب الحديث لكنا نحن بُيَّاع الفول).

فالعداء قديم بين أهل الرأي وأصحاب الحديث، قال **ابن قتيبة** -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-:"فأمَّا أصحاب الحديث فإنَّهم التمسوا الحقَّ من وجهته، وتتبعوه من مظانِّه، وتقرَّبوا من الله تعالىٰ، باتِّباعهم سنن رسول الله ﷺ، وطلبهم لآثاره وأخباره، براً وبحراً، وشرقاً وغرباً؛ ثمَّ لم يزالوا في التنقير عن الأخبار والبحث لها، حتىٰ فهموا صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، وعرفوا من خالفها من الفقهاء إلىٰ الرأي.

فنبَّهوا علىٰ ذلك حتىٰ نجم الحقُّ بعد أن كان عافياً، وبسق بعد أن كان دارساً، واجتمع بعد أن كان متفرِّقاً، وانقاد للسنن من كان عنها معرضاً، وتنبَّه عليها من كان عنها غافلاً، وحكم بقول رسول الله ﷺ بعد أن كان

وهؤلاء قد نالوا الشرف، والسؤدد بما بلغوا السنَّة والحديث والأثر، ويكفي أنَّ اسمهم مرتبط برسولهم، علىٰ مرِّ العصور والأزمان، فيا لها من منزلة شريفة، ورفعة منيفة، والأمر كما قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويا لها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلَّها وأسناها أن يكون المرء في حياته مشغولاً ببعض أشغاله أو في قبره قد صار أشلاء ممزَّقة وأوصالاً متفرِّقة وصحف حسناته متزايدة، يملي فيها الحسنات كلَّ وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون". طريق الهجرتين (ص٥٢١).

قوله: **(وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً)**، وطائفة؛ هي قطعة أخرىٰ من الأرض، **وهذا المثل الثالث**: ضربه رسول الله ﷺ في الأرض التي ذكر من صفاتها المذمومة، أنَّها منبسطة ملساء، لا تستفيد من الغيث ولا تفيد غيرها؛ فلا تمسك الماء لغيرها ولا تشربه فتنبت به الزرع.

فيه أنّ العلم ينبغي أن يُوضع في محله ويُبذل لأهله وطلابه ومن يستعمله في الخير.

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثمَّ قسم النَّاس إلىٰ ثَلَاثَة أقسام بِحَسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وَفهم مَعَانِيه واستنباط أحكامه واستخراج حِكَمِهِ وفوائِدِهِ". مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).

قوله **(فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ)**، الفقه هو الفهم، يقال فَقِه وفَقُه، أي: في دين الله، وهو المقصود، فَمَثَّلَ الهدىٰ الذي جاء به ﷺ بالغيث يغيث القلب النقي، فيصير فقيهًا بفهمه شرع الله -عزَّ وجلَّ- من كتاب وسنَّة، فإنَّ ما بعث الله به رسوله ﷺ هو الوحيين، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣- ٤]، وقال ﷺ: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**». **سنده صحيح**: (أخرجه أحمد (١٧١٧٤)، وأبو داود والترمذي.

والمراد **القسم الأول**: من الناس من يبلغه الهدىٰ والعلم فيحفظه فيحيىٰ قلبه ويعمل به، ويُعَلِّمُهُ غَيْرَهُ فينتفع وينفع. **فيه** أنَّ العلم والتعليم ينبغي أن يتلازما؛ لأنَّ التعليم من العمل به.

يحكم بقول فلان وفلان وإن كان فيه خلاف علىٰ رسول الله ﷺ.ا.هـ. تأويل مختلف الحديث (ص٧٣،٧٤).

والقسم الثاني: مِن الناس مَن لهم قلوب حافظة لكتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ متهيِّئة لقبول العلم والهدىٰ، ولكن ليس لهم أفهام ثاقبة، ولا ملكة يستنبطون بها المعاني والأحكام، وإنَّما يقبلون الحقَّ ويعملون به ويحفظون العلم؛ كما قال ﷺ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»(٦٨٥)، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهم بِمَنْزِلَة من يقرأ الْقُرْآن ويحفظه ويراعي حُرُوفه وإعرابه وَلم يُرْزق فِيهِ فهمًا خَاصًّا عَن الله، كَمَا قَالَ **علي بْن أبي طَالب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إِلَّا فهما يؤتيه الله عبدًا فِي كِتَابه". وَالنَّاس متفاوتون فِي الْفَهم عَن الله وَرَسُوله أعظمَ تفَاوت، فَربَّ شخص يفهم من النَّص حكمًا أو حكمين، وَيفهم مِنْهُ الآخر مائَةً أو مِائَتَيْنِ". مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).

وهذا يدلّ علىٰ أهمية حفظ العلم، وقد دعا النبي ﷺ لمن حفظ سنَّته، وهو علىٰ خير عظيم، ولا سيما إذا بلَّغه بعد حفظه، كما سمعه، ولكنه دون القسم الأول.

فهذان القسمان هم السُّعَدَاء، وقد اشتركوا في العلم والتعليم، ولكنَّ الأوَّلين منهم يعلمون ألفاظ القرآن والسنة ويحفظونهما ويعلمون معانيهما، مع ملكة الاستنباط، واستخراج الأحكام منهما، والتفقُّه فيهما، ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ [النساء: ٨٣] فلذلك هم أَرْفَعْ دَرَجَة وأعلىٰ قدْرًا، وَذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يَشَاء.

فعلىٰ من رزقه الله بصيرة أن يعرف أنَّ المقصود بالفقه: فهم النصوص الشرعية من الكتاب والسنَّة الصحيحة، لا آراء الرجال، قال **محمد بنُ أحمدَ بنِ واصلٍ المقري** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: سمعت أبا **عبدالله** (يعني: أحمد بن حنبل) وسُئِلَ عن الرَّأي؟ فرفع صوته، قال: "لا يثبت شيءٌ من الرَّأي، عليكم بالقرآن والحديث والآثار". **صحيح**: أخرجه الخلال في العلم، نقلًا عن "الطرق الحكمية" (ص ٢٣٣).

وقال في رواية **ابن مشيش** رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ أبا **عبدالله** (يعني: أحمد بن حنبل) سأله رجل فقال: أكتب الرَّأي؟ فقال: "ما تصنع بالرَّأي؟! عليك بالسنن فتعلَّمها وعليك بالأحاديث المعروفة. المصدر السابق. هذا هو الفقه الذي كان عليه الأولون، والذي سمَّاه النبي ﷺ فقهـًا.

وقال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ وهو ينقل عن الإمام **أحمد** رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه: "كان يكره وضع الكتب التي تشتمل علىٰ التفريع والرأي؛ ويحبُّ التمسُّك بالآثار". مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص

---

(٦٨٥) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢١٥٩٠)، -واللفظ له-، وأبوداود (٣٦٦٠)، وهو في الصحيحة (٤٠٤).

١٩٢).

فعلىٰ طلابِ العلم أن يُعْنَوْا كثيراً -وقبل كلِّ شيء- بكتب الحديث والأثر، وهي الكتب التي يتعلَّمون منها الفقه، ويتفقَّهون فيها، ويستنبطون منها الأحكام، وفي رواية: أنَّ رجلًا سأل **أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ اللَّهُ أكتبُ كتب الرأي؟ قال: "لا"، قال فابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ قد كتبها؟ قال: "ابن المبارك لم ينْزل من السماء، إنَّما أُمرنا أن نأخذ العلم من فوق". مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ١٩٤).

وقال **علي بن المديني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "التفقُّه في معاني الحديث: نصف العلم، ومعرفة الرجال: نصف العلم". سير النبلاء (١١/ ٤٨).

ولذلك كان من وصايا **الرامهرمزي** رَحِمَهُ اللَّهُ لأهل الحديث: فتمسَّكوا -جبركم الله- بحديث نبيِّكم ﷺ، وتبيَّنوا معانيه، وتفقَّهوا به، وتأدَّبوا بآدابه، ... واجتهدوا في أن توفوه حقَّه من التهذيب والضبط والتقويم، لتشرفوا به في المشاهد، وتنطلق ألسنتكم به في المجالس. المحدث الفاصل (ص ١ - ٣).

قوله: **(وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)**، فهذا القسم الثالث، لم يرفع بالكتاب والسنَّة رأسًا وإنَّما ترك طلب ذلك، أو انشغل بأقوال الرجال، وأنواع الكتب دون الوحيين، فلم يلتفت إليهما، وزيَّن له الشيطانُ عملَهُ، فهذا الصنف ليس موفَّقًا، ولم يرد الله به خيرًا، ولذلك لم يتفقَّه في الدين، ولو علم الله فيه خيرًا، لقرَّبَهُ إليه، فعن **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا**»(٦٨٦). حسن.

وقال **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "اغد عالمًا أو متعلِّمًا أو مستمعًا، ولا تكن الرابع فتهلك". أخرجه أبوخيثمة في العلم (١١٦).

وقال **عليّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "الناس ثلاثة: فعالمٌ رباني، ومتعلِّمٌ علىٰ سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلِّ ناعق". جامع بيان العلم (١٨٧٨)، والفقيه والمتفقه (١/ ١٨٢). وأولئك هم الأشقياء، الذين لم

---

(٦٨٦) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٤١١٢)، وهو في الصحيحة (٢٧٩٧). ينظر تخريجه في تحقيق "جامع بيان العلم" (١٣٥).

يرفعوا بهدىٰ الله رأسًا ولم يقبلوه.

فليسْعَ طلابُ العلم في حفظ السنَّة التي هُجرت بين الناس، وتركوا حفظَها، والتفقُّهَ فيها، فتولَّدَ من ذلك أن تكلَّمَ الناسُ بالرأي، وخرج في الأمَّة من يُسمَّون بالمفكرين، واستعاضوا عن الكتاب والسنَّة، بحفظ الشعر والنثر، والمتون، والمنظومات، والألغاز، وانشغل الطلاب بكلام الناس، وصار كلامهم حشوًا، وحَشَفًا لا بركة فيه ولا هدىٰ ولا كتاب منير، فكثر الخطباء، وقلّ الفقهاء والعلماء، وكثر التقليد.

قال **ابن حزم** رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقًا علىٰ حديث **أبي موسىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- هذا: "فمن استطاع منكم أيُّها الإخوة في الله -عزَّ وجلَّ- أن يكون من الطائفة الأولىٰ النقية فليفعل، فَحَسْبُ الواحدِ منَّا أن يكون في جملة من أثنىٰ عليه رسول الله ﷺ، فإن لم يُمنَح ذلك؛ فليكن من الأجادب التي تمسك الماء، لعلَّ الله ينفع بنا وبكم في ذلك، ولو أن يموت أحدُنا وهو مقيِّدٌ لحديث النبي ﷺ يشاهد مجالسه، طالب له، مستكثر منه!، فأعيذ نفسي وإيَّاكم بالله أن نكون من القيعان التي لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً!". التلخيص لوجوه التخليص (ص ١٣٢- ١٣٣).

والحديث فيه ذمٌّ ردِّ النصوص لمخالفتها للآراء أو المذهب أو المعقول -بزعمهم- أو الذوق، أو حزبه وطائفته وتأويلها من أجل ذلك، قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأمَّا من لم يقبل هدىٰ الله الذي بَعث به رسوله ﷺ ولم يرفع به رأسًا فهو من الصنف الثالث وهم: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾. [الجمعة: ٥]". الرسالة التبوكية (ص ٥٤، ت: غازي).

وقوله: (قَاعٌ: يَعْلُوهُ المَاءُ، وَالصَّفْصَفُ: المُسْتَوِي مِنَ الأَرْضِ)، هذه المعاني تفسير من البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ استطرادًا، ومن عادته أن يفسِّر ما وقع في الحديث من الألفاظ الواردة في القرآن، وربما فسَّر غيرها بالمناسبة.

والقاع والصفصف واردان في قوله تعالىٰ: ﴿**فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا**﴾ [طه: ١٠٦]. قال **البغوي** -رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: أرضًا ملساء مستوية لا نبات فيها، والقاع: ما انبسط من الأرض، والصفصف: الأملس". مختصر تفسير البغوي المسمىٰ"معالم التنزيل" (ص ٥٩٠، ط: دار السلام).

٢١- بَابُ رَفْعِ العِلْمِ وَظُهُورِ الجَهْلِ

قوله: (بَابُ رَفْعِ العِلْمِ وَظُهُورِ الجَهْلِ)، قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: **مقصودُ الباب**: الحثُّ علىٰ تعلُّم العلم؛ فإنَّه لا يُرفع إلا بقبضِ العلماء، وما دام من يتعلَّم موجودًا؛ لا يحصلُ الرَّفع؛ وقد تبيّن في حديث الباب أنَّ رفعه من علامات الساعة. الفتح (١/ ٢٣٤).

قال **البغوي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴾ [الرعد: ٤١] . قيل : هو موت العلماء" شرح السنة (١/ ٣١٥).

وقَالَ رَبِيعَةُ(٦٨٧) رَحِمَهُ اللَّهُ: "لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ العِلْمِ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ"(٦٨٨).

وقوله: (لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ العِلْمِ أَنْ يُضَيِّعَ نَفْسَهُ)، أراد أن ينبِّه إلىٰ الحذر من التسبُّبِ في رفع العلم؛ **والمعنىٰ**: أنَّه ينبغي لأهل العلم وطلابه أن يبذلوا العلم ويعتنوا به، ولا يُهمِلوه ويتركوا نشره؛ فإنَّ مَغبَّة ذلك؛ ضياعُ العلم وانتشارُ الجهل، وقد يموت العالم قبل ذلك؛ فيؤدِّيَ إلىٰ رفع العلم، كما ينبغي للعالمُ ألا يستحقر شأنه، ويتعلَّل بما يوحي إليه الشيطان ويدخل عليه من باب الورع الكاذب، بل يفشي العلم بين الناس، ويقعد لهم كي يأخذوا عنه؛ وينتفعوا به، فلا يكون متسبِّبًا في رفع علم، وعلىٰ الناس أن يستغِلُّوا وجود العلماء، ولو بالرحلة إليهم، وأن ينتفعوا بهم قبل ذهابهم.

ووَرد عن **جعفر بن بُرقان الرقِّيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: كتب إلينا **عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا بعد: فمُر أهل الفقه والعلم من جُندك؛ فلينشُروا ما علَّمهُم الله في مساجدهم ومجالسهم!، والسلام"(٦٨٩).

فيجب علىٰ أهل العلم وطلابه أن يَنشطوا، وأن لا تخلوا المساجد والمجالس من العلم

---

(٦٨٧) هو ابن أبي عبدالرحمن فرُّوخ، يلقَّب بربيعة الرأي؛ ، وهو: تابعي فقيه، مدني؛ شيخ مالك بن أنس، توفي سنة ١٣٦ هـ بالمدينة.

(٦٨٨) قال شيخنا **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وصله الخطيب في الجامع، والبيهقي في المدخل". مختصر صحيح البخاري (١/ ٥١).

(٦٨٩) **إسناده حسن**: أخرجه ابن أبي خيثمة في التاريخ الكبير (٣/ ٢٦٦، ط: صلاح هلل)، (٤٥٧٠) -واللفظ له-.

والتعليم والمُدارَسة؛ وقراءة كتب التوحيدِ والسنَّة، وتفسير القرآن.

وكتب **عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ **إلىٰ أبي بكر**(٦٩٠) **بن حزم الأنصاريِّ النجاريِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه؛ فإنِّي خِفت دُروس العلم وذهابَ العلماء، ولا تقبلْ إلا حديث النبي ﷺ؛ ولْتُفْشُوا العلم، ولتجلِسوا؛ حتىٰ يُعلَّم من لا يعلَم؛ فإنَّ العلم لا يَهلِكُ؛ حتىٰ يكون سِرًّا"(٦٩١).

٨٠- حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ مَيْسَرَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا عبدالوَارِثِ، عَنْ أَبِي التَّيَّاحِ (يزيد بن حميد الضُّبَعي)، **عَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ** (علاماتها القريبة): **أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ** (يُفقدَ بموت حملته)، **وَيَثْبُتَ الجَهْلُ** (ينتشر ويشيع)، **وَيُشْرَبَ الخَمْرُ** (يَكثُر شربُه)، **وَيَظْهَرَ الزِّنَا** (يفشو في المجتمعات)»(٦٩٢).

أطرافه في: (العلم٨١، النكاح٥٢٣١، الأشربة٥٥٧٧، الحدود٦٨٠٨).

الشرح

قوله: (**أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ**)، وذلك بموت أهله، لا بمحوه من الصدور؛ فيتَّخذُ الناس عند ذلك رؤوسًا جهَّالًا؛ يقولون في دين الله برأيهم، ويُفتون بجهلهم. وقد ذكر **القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّه قد وُجد ذلك في زمانه. إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ١٦٧).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان ويقبض العلم وتظهر الفتن** .....». متفق عليه

وعن **ابن عباس** قال: "هل تدرون ما ذهاب العلم؟ قلنا: لا، قال: ذهاب العلماء". حسن: أخرجه الدارمي (٢٤٣).

---

(٦٩٠) "اسمه وكنيته واحد". التقريب (ص ٥٥١)، (٧٩٨٨).

(٦٩١) أخرجه البخاري موصولًا إلىٰ قوله: "وذهاب العلماء" (قبل حديث: ١٠٠) -والباقي معلقًا بصيغة الجزم، ويحتمل أن يكون مدرجًا من كلام البخاري، وهو الذي استظهره الحافظ، وبنحوه: ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٣٣، ط: الخانجي)، والفسوي في المعرفة (١/ ٤٢٢).

(٦٩٢) وأخرجه مسلم (٢٦٧١)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩٠٦).

وعن **أبي الدرداء** أنَّه قال: "ما لي أرىٰ علماءكم يذهبون وأرىٰ جهلاءكم لا يتعلَّمون؟ تعلَّموا قبل أن يرفع العلم؛ فإنَّ رفع العلم ذهاب العلماء، ما لي أراكم تحرصون علىٰ ما تُكفِّل لكم به (يعني: الرزق والدنيا) وتضيعون ما وكلِّتم به؟". رجاله ثقات: أخرجه الدارمي (١/ ٦٩)، والبيهقي في الشعب الإيمان (١١٩٦).

وعن زياد بن لَبِيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: (**وذاك عند ذهاب العلم**).

قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقْرئه أبناءنا، ويُقْرئه أبناؤنا أبناءهم إلىٰ يوم القيامة؟! قال: (**ثكلتك أمُّك يا ابن أمِّ لبيد، إن كنتُ لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارىٰ يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون ممَّا فيهما بشيء**). صحيح: أخرجه أحمد وغيره. فذهاب العلم بذهاب أهله، فلو كانت الكتب بأيدي الناس فإنَّ هذا لا يكفي في تبصير الناس بدينهم، وإلا لكان الله تعالىٰ أنزل الكتب، وأعطاها للناس واكتفىٰ بذلك، ولم يرسل رسلاً، ولم يخلِّفوا وراءهم علماء، فوجود أهل العلم الذين يبصِّرون الناس بالوحي، وينزلون النصوص علىٰ الوقائع والنوازل، ويفقِّهون الناس في دينهم لمن أهمِّ الأمور، لبقاء الدين والتديُّن، وتربية الناس علىٰ الكتاب والسنة، فمهمة العلماء ورثة الأنبياء، ليست فقط في تبليغ النصوص بل أكثر من ذلك: (**يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم**)، فلابدَّ أن يبصِّروهم بطرق الاستنباط، وكيفية التفقُّه في نصوص الوحي، وليكونوا أسوة للناس يقتدون بهم، في عقائدهم، ومنهاجهم، وسلوكهم، وسننهم، وهديهم ودَلِّهم وسمتهم.

كما علىٰ العلماء أن يتتَّبعوا أحوال الناس، وما ينقص من دينهم، وأخلاقهم فيتمِّمون ذلك، ويربُّونهم علىٰ الكتاب والسنَّة، وهدي السلف، ويزكُّونهم، ويصحِّحون لهم ما أخطأوا فيه، وما ذهلوا عنه، ويردُّون عليهم ما زلَّوا فيه، وما انحرفوا فيه عن الصراط، وفي الحديث: (**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**). **حسن**: تخريجه في الشريعة للآجري بتحقيقي.

وقال **أحمد** عن علماء أهل السنة: (الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلَّ إلىٰ الهدىٰ، ويصبرون منهم علىٰ الأذىٰ، يحيون بكتاب الله الموتىٰ، ويبصِّرون بنور الله أهل العمىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائه قد

هدوه) مقدمة "الردّ علىٰ الجهمية" ص (٥٥).

فوجود أهل العلم نعمة عظمىٰ، ولا يُكْتَفىٰ بوجود النصوص، فعن **ابن شهاب** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: بلغنا عن رجال من أهل العلم، أنَّهم كانوا يقولون: "الاعتصامُ بالسُّننِ نجاةٌ، والعلمُ يُقبضُ قبضًا سريعًا: فنَعْشُ العلمِ؛ ثباتُ الدِّينِ والدنيا، وذهابُ الدِّين كلِّه؛ في ذهاب العلمِ". **سنده صحيح إلىٰ ابن شهاب**: أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (ص ٢٨١، ط: الأعظمي)، (٨١٧)، يعني: وذهاب العلم بذهاب حملته.

وقال **عقبة بن عامر**: "تعلَّموا قبل الظانِّين". **صحيح**: أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به(٦٩٣).

قال **البخاري**: يعنىٰ الذين يتكلَّمون بالظن: ومعناه تعلَّموا العلم من أهله المحقِّقين الورعين قبل ذهابهم ومجيء قوم يتكلَّمون في العلم بما توهَّموه، وظنُّوه دينًا وليس لهم مستند شرعي.

وعن **عبدالله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّه قال: "**ذهابُ خِيارِكِم وعُلمائِكم!!؛ ثم يُحَدِّثُ قومٌ** يقِيسون الأمورَ برأيهم؛ **فيُهدَمُ الإسلامُ، ويُثلَمُ**". **سنده جيِّد**: أخرجه البيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص١٨٦ ط: الأعظمي)، (٢٠٥).

وقال **ابن مسعود**: لا يزال الناس صالحين متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ومن أكابرهم، فإذا أتاهم من أصاغرهم، هلكوا. **صحيح**: أخرجه عبدالرزاق (٢٠٤٤٦).

قال **أبوعبيدة**: معناه: "أنَّ كلَّ ما جاء عن الصحابة وكبار التابعين لهم بإحسان هو العلم الموروث، وما أحدثه من جاء بعدهم هو المذموم" الفتح (١٣/ ٢٩١).

وكان السلف يفرِّقون بين العلم والرأي، فيقولون للسنَّة علم، ولما عداها رأي.

وقال **سلمان**: "لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتىٰ يتعلَّم الآخر، فإذا هلك الأول قبل أن يتعلَّم الآخر هلك الناس". **لا بأس به**: أخرجه الدارمي (٢٤٩).

---

(٦٩٣) **صحيح**: أخرجه ابن وهب (في مسنده/ رقم ١٩٦) أخبرني سعيد بن (أبي أيوب) عن شرحبيل بن شريك عن أبي عبدالرحمن الحبلي به عنه، علىٰ أن الحافظ: قال: لم أظفر به موصولاً، ولكني وجدت في النت من كلام عبدالرحمن فقيه.

وعن هلال -هو بن خبَّاب- قال: سألت **سعيد بن جبير** قلت: يا أبا عبدالله، ما علامة هلاك الناس؟ قال: "إذا هلك علماؤهم". حسن: أخرجه الدارمي (٢٤١).

وقال **سفيان بن عيينة**: "وأيُّ عقوبة أشدُّ علىٰ أهل الجهل أن يذهب أهل العلم" شرح السنة (١/ ٣١٨).

وقال **يحيىٰ بن هُبَيْرَةَ الذُّهليُّ الشيبانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنىٰ رفع العلم: هو اطِّراحُ العمل به وهِجْرانُه، وأن توضع قوانينُ الجهلِ في أمكنة العلم؛ فيكون العمل بها لا به؛ والتحكيمُ لها لا له". الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ١٦٤-١٦٥، تحت حديث: ١٥٨٨).

فيه أنَّه ينبغي للعالم أن يعظِّم شأن العلم؛ وينشر فضله **وفيه** الحثُّ علىٰ تعلُّم العلم الموروث من النبي ﷺ، فهو الذي يستحقُّ أن يسمَّىٰ علماً.

وقوله (وَيَثْبُتَ الجَهْلُ)، وذلك لكثرته، وهو من الثبوت؛ قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "هكذا هو في كثير من النسخ". شرح مسلم (١٦/ ٢١١)، تحت حديث (٢٦٧١)، وفي رواية عند مسلم: "**يُبَثُّ**"؛ أي: يُنشَرُ ويَشِيعُ.

وقال **الخطابي**: "يريد -والله أعلم- ظهور الجهَّال المنتحلين للعلم المترئسين علىٰ الناس به قبل أن يتفقَّهوا في الدين ويرسخوا في علمه". كتاب العزلة ص(٨٣).

و**القاعدة**: إذا رُفِعَ شيءٌ؛ ثبتَ نقيضهُ، فحينما يرُفع العلم ويذهب؛ ينتشرَ الجهلُ؛ وهذا يدلُّ علىٰ ذمِّ الجهلِ.

ففي الحديث: أنَّه متىٰ رُفع العلم؛ ثبتَ الجهلُ؛ وارتُكِبَتِ المعاصي؛ لقلَّة أهل العلم الذين هم أهلُه؛ فلا تُنكَر المنكرات، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أهل فقه في الدِّين: ينشرون العلم وينكرون المنكر؛ فعن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أنَّه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حجَّ علىٰ المنبر، فتناول قُصَّةً من شَعَرٍ[٦٩٤] -وكانت في يَدَيْ حرَسيٍّ-؛ فقال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟ سمعت النبي ﷺ ينهىٰ عن مثل هذه؛ ويقول: «**إِنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِينَ اتَّخَذَ**

---

(٦٩٤) "**والقُصَّةُ**، بالضم: شَعَرُ الناصية ...؛ تتخذها المرأة في مُقدَّم رأسها: تقصُّ ناحيتَيها؛ عَدا جَبينَها". لسان العرب (٧/ ٧٣).

هَذِهِ نِسَاؤُهُمْ». متفق عليه.

ومن أراد الله به شرًّا؛ لم يفقِّهه في الدِّين، وجعله جاهلًا يتخبَّطُ في ظلمات جهله، معرضًا عن هديه ﷺ وعن العلم النافع؛ فعَنِ **ابْنِ مَسْعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: "اجتمع عند البيت ثلاثة نفرٍ، قرشيانِ وثقفيٌّ، أو ثقفيان وقرشي؛ قليل فقه قلوبهم؛ كثير شحم بطونهم؛ فقال أحدهم: أترون الله يسمعُ ما نقول؟ وقال الآخر: يسمع؛ إن جهرنا، ولا يسمع؛ إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فهو يسمع إذا أخفينا"؛ فأنزل الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ**﴾ [فصلت: ٢٢] الآية"(٦٩٥). متفق عليه.

فالجهل هو: أصلُ النفاق في القلوب؛ و ﴿**ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ**﴾ [التوبة: ٩٧] ﷺ.

والجهل أضرُّ شيءٍ بالعبد: فعن **أبي كبشَة الأنماريِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا؛ فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا؛ فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ**». قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا؛ فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا؛ فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا؛ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ**». قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**»(٦٩٦). صحيح.

فالذي لم يؤته علمًا؛ يضرُّ بنفسه وبغيره؛ كالذي قتل تسعة وتسعين نفسًا: سأل عن أعلم أهل الأرض؛ فدُلَّ علىٰ راهبٍ -أي: عابد-، فسأله: هل لي من توبة؟ فقال: لا!؛ فأتمَّ به المائة. متفق عليه.

وعن **جابر بن عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرجنا في سفر، فأصاب رجلًا منا حجرٌ فشجَّهُ في رأسه، ثمَّ احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر علىٰ الماء. فاغتسل؛ فمات؛ فلمَّا قدمنا علىٰ النبي ﷺ، أُخبر بذلك؛ فقال: «**قَتَلُوهُ؛**

---

(٦٩٥) إذا كان هؤلاء من الصحابة؛ **ففيه**: العُذرُ بالجهل.

(٦٩٦) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٩/ ٥٥٢ ط: الرسالة)، (١٨٠٢٤) -بإسناد حسن؛ واللفظ له-، وصحَّحه شيخنا الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١١٠)، (١٦).

قَاتَلَهُمُ اللهُ! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفاءُ العِيِّ (الجَهْلِ) **السُّؤَالُ!»**[٦٩٧]. صحيح بشواهده. فدعا عليهم ﷺ بسبب جهلهم، فهؤلاء أضروا بأنفسهم، وبغيرهم بسبب الجهل.

وفيه ذمُّ الجهل وأهله، وارتباط الجهل بكثرة الفتن، والفساد. **وفيه** المبادرة بتحصيل العلم من أهله قبل أن يُقبضوا.

وقوله: **(وَيُشْرَبَ الخَمْرُ)**، أي: يُشرب شُربًا فاشيًا حتىٰ لا يُستنكر؛ كما جاء بلفظ في كتاب النكاح: «**وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ**». سيأتي برقم (٥٢٣١)؛ بل ويستحلُّونها؛ كما في رواية: «**يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ**». ستأتي برقم (٥٥٩٠)، وفي رواية: «**يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**». **إسنادها صحيح**: أخرجها أحمد (١٨٠٧٣)، وغيره، وهي في الصحيحة (٨٩، ٩٠، ٤١٤).

وقوله: **(وَيَظْهَرَ الزِّنَا)**، أي: يفشوَ ويكثرَ في المجتمعات حتىٰ لا يكاد ينكرَه أحد. وفي الحديث الآتي زيادة: **(ويكثر النساء ويقلَّ الرجال حتىٰ يكون لخمسين امرأة قيم واحد)**.

---

(٦٩٧) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٦٤) -من رواية عطاء عن جابر-. وهو في صحيح سنن أبي داود (٢/ ١٥٨- ١٥٩)، (٣٦٤).

قال شيخنا **الألباني** -رحمه الله تعالىٰ-: "رواه أبوداود وابن ماجه والدارقطني وصحَّحه ابن السكن.

قلت: هذا الحديث ضعَّفه البيهقي والعسقلاني وغيرهما لكن له **شاهد** من حديث ابن عباس يرتقي به إلىٰ درجة الحسن؛ لكن ليس فيه قوله: "ويعصر ... الخ"؛ فهي زيادة ضعيفة منكرة؛ لتفرد هذا الطريقِ الضعيفِ بها، وراجع التلخيص الحبير (٢ / ٢٩٢ و٢٩٥)، وبلوغ المرام". وتمام المنَّة (ص ١٣١).

٨١- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ، عَنْ شُعْبَةَ (ابن الحجاج)، عَنْ قَتَادَةَ (ابن دعامة السدوسي)، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ (يغلب على الناس)، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ (هو من يقوم عليهنَّ)»[٦٩٨].

تقدم في: (العلم٨٠).

الشرح

قوله: (لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا)، وفي رواية عند مسلم (٩/ ٢٦٧١): "أَلَا أُحَدِّثُكُمْ"، بصيغة السؤال؛ لشحذِ الهمم.

وقوله: (لَا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي)، وفي رواية عند مسلم (٩/ ٢٦٧١): "لَا يُحَدِّثُكُمُوهُ"؛ فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- هذا -وهو مِن آخر من مات مَن الصحابة- بعد أن رأىٰ أنَّ الصحابة قد ذهبوا، ولم يبقَ من يحدِّث به غيره.

قوله: (مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَقِلَّ العِلْمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْلُ): تقدَّم الكلام عليه في الذي قبله.

قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويمكن أن يكون قاله لِما رأىٰ من التغيير ونقص العلم؛ فوعظهم بما سمع من النبي ﷺ في نقص العلم؛ أنَّه من أشراط الساعة؛ ليحُضَّهم علىٰ طلب العلم". شرح البخاري (١/ ١٦٥).

ومن أسباب فشو الجهل ورفع العلم، وقبض العلماء وقلتهم، وترأس الجهال، وأهل التقليد، وضياع أمانة العلم، وعدم أخذ العلم عن أهله الذين هم أهله حقًا، والبعد عن دراسة تفسير القرآن التفسير السلفي، وعدم الاهتمام بالحديث حفظًا ودراسة، وتفهمًا، وقلة العلماء الربانيين.

---

(٦٩٨) وأخرجه مسلم (٢٦٧١)، والترمذي (٢٢٠٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٥).

قوله: **(وَيَظْهَرَ الزِّنَا)**، عن قتادة في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ [النور: ١٩]، قال: "يحبُّون أن يظهر الزنا". أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٤٧)، (٢١٥)؛ وذلك لكثرة أسبابه المؤدية إلىٰ كثرته(٦٩٩)، فإذا كثر؛ اختلطت الأنساب وضاعت الحقوق.

ومن أسباب ظهوره: الاستهانةُ بشأنه، وأسبابِه، وعدمُ التحذير منه ومن وسائله، والتهاونُ في الاختلاطِ، والنظرِ المحرم، والانجرار وراء شهوات النساء التي حذَّر منها الإسلام؛ ﴿**وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٢٧].

وأخبر النبي ﷺ أنَّه سيفشو ويظهر الزنا ويبلغ الأمر مبلغًا بَشِعًا -جدًا- كما ورد عن **أبي هريرة** رضي الله عنه-، عن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَفْنَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ حَتَّىٰ يَقُومَ الرَّجُلُ إِلَىٰ الْمَرْأَةِ فَيَفْتَرِشَهَا فِي الطَّرِيقِ، فَيَكُونَ خِيَارُهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُولُ لَوْ وَارَيْتَهَا وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ**»(٧٠٠).

صحيح بشواهده.

وفي حديث **النوَّاس بن سمعان** رضي الله عنه- لمَّا ذكرَ النبي ﷺ الدَّجّال، قال: «**فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**». أخرجه مسلم (١١٠/ ٢٩٣٧).

قال **النووي** رحمه الله: "أي يجامعُ الرجالُ النساءَ علانيةً بحضرةِ الناس؛ كما يفعلُ الحميرُ، ولا يكْتَرثون لذلك. و**الهَرْجُ** -بإسكان الراء-: الجماعُ. يقال: هرَجَ زوجته؛ أي: جامعها، يهْرجُها -بفتح الراء وضمها وكسرها-". شرح مسلم (١٨/ ٧٠). قال شيخنا الإمام **الألباني** رحمه الله في

---

(٦٩٩) أسباب انتشار الزنا وفشوه:

أسبابه كثيرة في هذا الزمن: من انتشار المجلات الخليعة وكثيرٍ من المرئيات من الفيديوهات، وكثيرٍ من وسائل التواصل الاجتماعي التي هي من دواعي انتشاره -أيضًا-،والاختلاط المحرم بين الجنسين، وقد سهَّلت الوصول لهذه البلايا والتي لا تقلُّ في خطورتها عن المخدرات والخمور ونحوها -حفظ الله المسلمين وبلادهم منها-، وننصح بقراءة "حراسة الفضيلة" للشيخ بكر عبدالله أبوزيد رحمه الله، وكتاب: "التدابير الواقية من الزنا" للشيخ فضل إلهي -حفظه الله-.

(٧٠٠) **صحيح**: أخرجه أبويعلىٰ (٦١٨٣)، وهو في الصحيحة (١/ ٨٦٨، تحت حديث: ٤٨١)؛

قلتُ: وما سمعنا عنه في النِّتِّ اليومَ من وجود ورؤية الأفلام الماجنة الفاجرة -التي هي متخصصة في الزنا وإشاعة الفاحشة-؛ هو من هذا.

"صحيح الموارد" (٢/ ٢٣١)، (١٥٨٤): "وقد كان، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! وهذا من أعلام نبوته ﷺ، ودلائل صدقه".

وهذا كلُّه من آثار الجهل ورفع العلم، وذهاب العلماء العاملين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وقوله: **(وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ)**، قلَّة الرجال سببها كثرة القتل؛ وذلك لكثرة الفتن -عياذًا بالله!-؛ فتكثر النساء إذ ذاك ويكثر الفساد.

وقال **الوزير يحيىٰ بن هُبَيْرَةَ الذُّهليُّ الشيبانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح بعض روايات الحديث -وفيها: «**يذهب الرجال، ويبقىٰ النساء؛ حتىٰ يكون لخمسين امرأة قيِّم واحدٌ**». وفي رواية: «**ويقِلَّ الرجال ويكثر النساء**»-: "**فيه**: "أن تكون الأحوالُ والأمورُ صادرةً عن آراء النساء؛ فيقِلُّ الرجال في الرجال: بأن يقلَّ الرجال الذين يستحقُّون تسمية الرجال.

قال الشاعر(٧٠١):

وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنيا وواحِدُها ... مَنْ لَا يُعَوِّلُ فِي الدُّنيا علىٰ رَجُلِ

فإذا قلَّ الرِّجالُ وكثُرَ النساءُ؛ فترجَّلْنَ؛ فذلك حينُ خرَابِ الأرضِ". الإفصاح عن معاني الصحاح (٥/ ١٦٤-١٦٥، تحت حديث: ١٥٨٨)؛ بتصرف.

وقوله: **(لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ)**، وهو الذي يقوم بأمورهن وشئونهن ويقوم علىٰ مصالحهن، فلا تجدُ النساء من يرعاهُنّ؛ فيكون تحت كلِّ رجل هذا العدد من النساء، كلُّهنّ محارم له: إما زوجات، أو إماء، أو أخوات، أو بنات، أو عمَّات، أو خالات، أو نحو ذلك؛ فنعوذ بالله من شرِّ ذاك الزمن.

فيذهب الرجال؛ لكثرة القتل الذي هو من آثار قلَّة الدين وضعفه، فإذا كثر الجهل فلا تسأل عن المعاصي والآثام التي يرتكبها الناس.

وفيه عَلَم من أعلام نبوته -عليه الصلاة والسلام-، إذ قد وقع ما أخبر به. **وفيه** أنَّه كلَّما

---

(٧٠١) هو الطُّغْرَائِيُّ في لاميّته المشهورة؛ المعروفة بلامية العجم؛ وهو القائل:

غاضَ الْوَفَاء وفاضَ الْغَدرُ وانفَرجَت ... مَسَافَةُ الْخُلْفِ بَين القَوْلِ وَالْعَمَلِ

قد رشَّحوكَ لأمرٍ إن فطنت لَهُ ... فاربأ بِنَفْسِك أَن ترعىٰ مَعَ الهَمَلِ

تأخَّر الزمان؛ قلَّ الخير وكثر الشرُّ فما من عام إلا والذي بعده شرٌّ منه. **وفيه** أنَّ النساء لا يقوم بمصالحهنّ إلا الرجال؛ لضعفهنّ وقلة حيلتهنّ، وفيه إشارة إلىٰ كثرة القتل في آخر الزمان.

٢٢- بَابُ فَضْلِ العِلْمِ

قوله: **(بَابُ فَضْلِ العِلْمِ)**، لعل قصدُ المصنف -والله أعلم- أنَّ هذا العلمَ فضلةٌ وبقيَّة من النبي ﷺ؛ فهو جزء من النبوة، وهو العلم الموروث منه عليه الصلاة والسلام، وليس المقصود: فضلُ العلم؛ بمعنىٰ: الفضيلة؛ وإلا لكان تكرارًا.

فالأنبياءُ ورَّثوا العلم، والنبي ﷺ قد أعلمه الله علمًا جمًا؛ ففي الحديث قال ﷺ: «**رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، ... فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَعَلِمْتُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ ...**». صحيح: أخرجه الترمذي (٣٢٣٤)؛ فعِلمُ النبي ﷺ من عِلم الله -تعالىٰ-: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣].

وهو ﷺ قاسم والله يعطي؛ وقد وزَّع ما فضل عنه مِن عِلم علىٰ أصحابه؛ فكان ممَّن نال ما تبقَّىٰ من رسول الله ﷺ **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه-.

٨٢- حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ (هو ابن كثير بن عفير الأنصاري مولاهم)، قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ (ابن سعد الفهمي، أبو الحارث المصري)، قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ (ابن خالد بن عَقيل الأيلي)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، **أَنَّ ابْنَ عُمَرَ** رضي الله عنهما-، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ** (وعاء به لبن)، **فَشَرِبْتُ حَتَّىٰ إِنِّي لَأَرَىٰ الرِّيَّ** (الشِّبَع من الشراب) **يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي** (من كثرته؛ حتىٰ إنَّه امتلأ جلده به)، **ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي** (ما زاد عني من اللبن) **عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**».

قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ (عبّرته وفسّرته) يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**العِلْمَ**»(٧٠٢).

أطرافه في: (فضائل الصحابة٣٦٨١، التعبير٧٠٠٦، ٧٠٠٧، ٧٠٢٧، ٧٠٣٢).

الشرح

قوله: **(بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ)**، يعني: أنَّه ﷺ رأىٰ وهو نائم هذه الرؤيا.

---

(٧٠٢) وأخرجه مسلم (٢٣٩١)، والترمذي (٢٢٨٤، ٣٦٨٧)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٣٧، ٨١٢٣).

والقَدَحُ: يُطلق علىٰ أيِّ وِعاء يكون للشراب.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ الطَّعَامَ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ لَبَنًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ**»، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ شَيْءٌ يَجْزِي مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ**»، صحيح: أخرجه أبوداود والترمذي وابن ماجه.

قال **ابن المنير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجه الفضيلة للعلم في الحديث من جهة أنَّه عبَّر عن العلم بأنَّه فضلة النبي ﷺ ونصيب ممَّا آتاه الله، وناهيك بذلك". الفتح (١/ ١٨٠).

وقال العلامة **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه- بتصرف: "الرابطة بين العلم واللبن؛ أنّ الغذاء في كلٍّ منهما، مع الحلاوة وسهولة الهضم وقوَّةِ البدن، بل ويُذكر اللبن دائمًا في موطن المدح؛ لأنَّه من الفطرة، كما في الحديث عند البخاري ومسلم: «**فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ لِي: هُدِيتَ الفِطْرَةَ، أَوْ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ**»".

وعَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّبَنُ فِي الْمَنَامِ فِطْرَةٌ**». صحيح: أخرجه البزار (١٠٠٥٩)، وهو في الصَّحِيحَة (٢٢٠٧).

قوله: (**فَشَرِبْتُ حَتَّىٰ إِنِّي لأَرَىٰ الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي**)، وفي لفظ لمسلم: «**الرِّيَّ يَجْرِي فِي أَظْفَارِي**»، وفي رواية الحاكم وغيره: «**فَشَرِبْتُ مِنْهُ؛ حَتَّىٰ تَمَلَأْتُ؛ حَتَّىٰ رَأَيْتُهُ فِي عِرْقٍ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ**»، فقد فاض علم النبي ﷺ علىٰ أصحابه، وأمَّتِه ولاسيَّما **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فمن أخذ؛ أخذ بنصيب عظيم من علم السنَّة، والنورِ والهدايةِ؛ فليحرص المسلم علىٰ الاستزادة منه.

قوله: (**ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ**)، هذا هو موضع الشاهد من الترجمة، حيث ذكر -هنا- فضلة العلم، وأنَّه جزء من علم النبي ﷺ، والعلم لو أعطي منه يزيد، لأنَّه يزكو علىٰ الإنفاق.

وفيه أنَّ العلم تفرَّق بين العلماء، فلم يحط بالسنة غير نبي، وقد فرَّقه ﷺ بين أصحابه.

قوله: (**قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: العِلْمَ**)، ووجه تفسيره ﷺ بالعلم؛ لاشتراكهما في كثرة النفع والصلاح في الدنيا والآخرة، فعلمُ عمر من علم النبي ﷺ؛ **وفيه** دليل

علىٰ أنَّ العلم إذا أطلق فهو علم الكتاب والسنَّة، وليس آراء الرجال، ولا المتون ولا غيرها.

وقد أعطىٰ اللهُ العلمَ والدينَ **لعمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ كما صحّ أيضًا من الحديث عن **أبي سعيد الخدري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّه سمع رسول الله ﷺ قال: «**بينا أنا نائم رأيت الناسَ يُعرضون عليَّ وعليهم قُمُص، منها ما يبلغ الثُدِيَّ، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعُرِض عليَّ عمر بن الخطاب، وعليه قميص يجرُّه**». قالوا: فماذا أوَّلْتَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الدين**». تقدم برقم (٢٣)، فاجتمع لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العلم بالكتاب والسنة، والتديُّن والعمل بهما.

فيه دليلٌ علىٰ فضل **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وسعة علمه، وإن كان أبوبكر أعلم الصحابة كلِّهم علىٰ الإطلاق، حتىٰ قالوا: فكان أبوبكر أعلمنا برسول الله ﷺ، والله يختصُّ برحمته من يشاء، **وفيه** تعبير الرؤيا لمن كان عالمًا به. **وفيه** بيان فضل العلم حيث إنَّه فضلةٌ من النبي ﷺ. **وفيه** فضيلة ظاهرة للحديث وأهله، فإنّ البقية التي تركها رسول الله ﷺ هي: سنَّته التي بثَّها في الأمة؛ فمستقل ومستكثر.

٢٣- بَابُ الفُتْيَا وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَىٰ الدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا

قوله: **(بَابُ الفُتْيَا وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَىٰ الدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا)**، لعلَّ مراد المصنف أنَّ المفتيَ والمحدِّثَ يجب ألَّا يمنعه شيء من الفتيا والتحديث علىٰ أيَّة حال؛ حتىٰ لو كان راكبًا علىٰ الدّابّة؛ ما دامت مطيقة.

و**الفُتيا** أو**الفَتوىٰ**: هي الجواب في المسألة؛ ويدخل فيه طرح المسائل علىٰ العالم.

فيجوز الجلوس علىٰ الدابة للتحديث والتعليم؛ إن احتاج الأمر ذلك؛ فقد جعل الله -تعالىٰ- هذه الدواب للركوب والمنافع، وسخَّرها لنا؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُو**﴾ [النحل: ٨]، ولكن لا تتخذ مجالسَ للَّهوِ ونحوه؛ لقوله: ﷺ: «**ارْكَبُوا هَذِهِ الدَّوَابَّ سَالِمَةً، وَابْتَدِعُوهَا**[٧٠٣] **سَالِمَةً وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ**». صحيح: أخرجه أحمد (١٨٠٥٢)، وهو في الصحيحة (٢١).

فلابدَّ أن ترحم هذه الدواب ولا تتخذ منابر إلا من ضرورة؛ للحديث: «**إِيَّاكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ظُهُورَ دَوَابِّكُمْ مَنَابِرَ، فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُبَلِّغَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ، وَجَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَعَلَيْهَا فَاقْضُوا حَاجَتَكُمْ**». صحيح: أخرجه أبوداود (٢٥٦٧)، والصحيحة (٢٢).

يعني: اتركوا جلوسكم عليها وهي واقفة؛ كما تجلسون علىٰ المنابر؛ فإنَّه يؤذيها، وينافي الرحمة بها.

أمَّا إن احتاج إلىٰ ذلك ووقف عليها لمصلحة؛ فلا بأس؛ كوقوفه ﷺ عليها في عرفةَ عند الصخرات يدعو؛ ليقتديَ الناس به، وبمنىٰ، وخطبته عليها بها، ورميه الجمرات وهو عليها؛ ففي الحديث: عن **الهِرْماس ابن زياد الباهليِّ** رضي الله عنه- قال: "كنت رِدْفَ أبي يوم الأضْحىٰ، ونبيُّ الله يخطب النّاس علىٰ ناقته بمنىٰ"[٧٠٤]. حسن. وكذا طوافه عليها، وسعيه عليها، وخطبته العيد عليها، وغير ذلك؛ فدلَّ علىٰ أنَّه لا بأس به، وسبق معنا عند المصنِفِ حديثُ **أبي بكرة** رضي الله عنه- أنَّ النبي ﷺ قعدَ علىٰ بعيره، وأمسكَ إنسانٌ (هو أبوبكرة) بخِطامه -أو: بزمامِه-. تقدَّم برقم (٦٧).

---

(٧٠٣) قال **ابن الأثير** في النهاية (٥/ ١٦٦): وابتَدِعُوهَا: أي: اتركوها ورَفِّهوا عنها إذا لم تحتاجوا إلىٰ ركوبها.

(٧٠٤) **صحيح**: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٦٧، ط: الخانجي، برقم: ٢٦٠٩) -واللفظ له-، وهو في صحيح أبي داود (١٧٠٧)، وصحيح الموارد (٨٤٥).

ووَردت الخُطبة علىٰ الدابة؛ فعن **عمرو بن خارجة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أنَّ النبي ﷺ خطَب علىٰ ناقته، وأنا تحت جِرانها (تحت باطن عنقها) وهي تقصع بجِرَّتها، وإنَّ لُعابها يسيلُ بين كتفيَّ؛ فسمعته يقول: «**إِنَّ اللهَ أَعْطَىٰ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ** ...». **صحيح**: صحيح الترمذي (٢١٢١).

قال العلامة **السِّندي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم قد جاء أنه ﷺ خطبَ علىٰ راحلته؛ فدلَّ علىٰ: **أنَّ النهي عند عدم الحاجة**". فتح الودود في شرح سنن أبي داود (٣/ ٦٥).

٨٣- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (هو ابنُ أَبِي أُوَيْسٍ الأصبحي)، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عِيسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِاللهِ، **عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ** (وهو جالس علىٰ ناقته) **فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ بِمِنًىٰ لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ، فَجَاءهُ رَجُلٌ** (من الأعراب)**؛ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ فَقَالَ: «اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ** (لا إثم عليك ولا فدية)**»**. **فَجَاءَ آخَرُ؛ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ** (فذبحت) **قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ قَالَ: «ارْمِ وَلاَ حَرَجَ»**. **فَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: «افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ»**[٧٠٥].

أطرافه في: (العلم١٢٤، الحج١٧٣٦، ١٧٣٧، ١٧٣٨، الأيمان والنذور٦٦٦٥).

الشرح

قوله: (**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ بِمِنًىٰ لِلنَّاسِ يَسْأَلُونَهُ**)، ظهور مناسبة الحديث للباب في الزيادة التي عند البخاري في الحج (١٧٣٨): من حديث **عبدالله بن عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "وقف رسول الله ﷺ علىٰ ناقته"[٧٠٦].

ولعلَّ قصد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا الباب: أنَّه لا مانع من كون العالم يُعطي العِلم علىٰ أيَّة حال وفي أيِّ مكان، ولا يلزم التهيُّؤُ للعلم والتعليم، أو جعلُ مكانٍ خاصٍ لهما.

وفي حديث **أبي أيوبَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أنَّ أعرابيًّا عرضَ لرسول الله ﷺ -وهو في سفر-، فأخذ

---

(٧٠٥) وأخرجه مسلم (١٣٠٦)، وأبوداود (٢٠١٤)، والترمذي (٩١٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٤٠٦، ٤١٠٧، ٤١٠٨، ٥٨٧٩)، وابن ماجه (٣٠٥١).

(٧٠٦) لقد دأب الإمام البخاري علىٰ هذا العمل: حيث يضع الترجمة ويكون اللفظ المترجم عليه في رواية أخرىٰ، ويخرجه في موضع آخر ويتركه في موضعه عمدًا؛ بقصد تنبيه الطلاب وإحضار ذهنهم للعلم فتنبَّه!

بخِطام ناقته -أو: بزِمامها-". أخرجه مسلم (١٣)، ومن **ذلك** -أيضًا-: حديثُ **الخَثْعَمِيَّة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وسؤالها عن الحجِّ عن أبيها. متفق عليه.

وأيضًا: ما وردَ عن **أبي كَاهِل الأحمَسِيِّ** (قيسُ بن عائذ؛ من بَجِيلَةَ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: "رأيت النبي ﷺ يخطب علىٰ ناقةٍ، وحَبشيٌّ (هو بلال) ممسكٌ بِخِطَامِها". **حسن**: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٨٤، ط: الخانجي)، (٢٧٨٨) -واللفظ له-، وهو في صحيح سنن النسائي (١/ ٣٤٤)، (١٤٨٢).

ومن ذلك: ما كان عليه بعض السلف من الأئمَّة والعلماء: أنَّهم كانوا يحدِّثون علىٰ دابة؛ ليصل صوتهم إلىٰ الطلاب؛ من كثرتهم؛ كالخطيب البغدادي؛ بل لم يلقَّب بالخطيب إلا لأنَّه كان يحدِّثُ علىٰ فرس؛ وقد قال **إسحاقُ بن أبي إسرائيلَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ازدحمَ أصحابُ الحديث علىٰ هُشَيْم؛ فطرحوه عن حماره؛ فكان سببَ موته". أخرجه أبو سليمان الخطابي في العزلة (ص ٨٧).

ففيه: جواز سؤال العالم: راكبًا، وماشيًا، وواقفًا؛ وعلىٰ كلِّ أحواله. **وفيه** نشر العلم وعدم كتمانه. **وفيه** الجلوس علىٰ الدابة المطيقة؛ إذا كان للمصلحة: كالصلاة عليها، وتدريس العلم، والتعليم بالفعل؛ ليقتدي الناس بالعالم، والخطبة، **وفيه** أنَّه ينبغي للعالم أن يُحسنَ اختيار المكان الذي يحدِّث الناس منه، بحيث يُشرِف عليهم؛ فيسمعونه، وأيضًا ثبت أنهم بنوا له دكانًا ومصْطَبَة يجلس عليها، **صحيح**: صحيح سنن النسائي (٣/ ١٠٢٦)، (٤٦١٨). وصنعوا له منبرًا للخطبة وتعليم الناس.

وفيه أنّ الترتيب بين أعمال يوم النحر واجب، إلا لمعذور وسيأتي تفصيله في الحجِّ -إن شاء الله-. **وفيه** أنَّ أعمال يوم النحر، إن جهلها المرء، فقدَّم فيها أو أخَّر؛ فإنَّه لا حرج عليه في ذلك. **وفيه** جواز سؤال العالم ولو كان منشغلًا بطاعة أخرىٰ. **وفيه** رفع الحرج في الشريعة. **وفيه** أنَّ الأصل في العبادات التوقيف. **وفيه** أنّ ما ثبت فيه الترتيب من الشارع؛ يبقىٰ علىٰ أصله، ولا يُصرف إلا بدليل. كالعذرُ بالجهل والخطأ؛ بدليل قوله: "لم أشعر".

٢٤- بَابُ مَنْ أَجَابَ الفُتْيَا بِإِشَارَةِ اليَدِ وَالرَّأْسِ

قوله: **(مَنْ أَجَابَ الفُتْيَا بِإِشَارَةِ اليَدِ وَالرَّأْسِ)**، دلَّ هذا الباب علىٰ أنَّ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ يرىٰ العملَ بالإشارة المُفْهِمة في الفتيا وإجابة السائل؛ ونحو ذلك.

قال العلَّامة **الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "... من الأدلَّة الدالَّة علىٰ قيام الإشارة -المُفْهِمة- مقامَ الكلام: قصَّة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ: «**أَيْنَ اللهُ؟**»؛ فأشارت إلىٰ السماء[٧٠٧]؛ فقال ﷺ: «**أَعْتِقْها فإنَّها مُؤمِنَةٌ**». **صحيح**: صحيح أبي داود (٤/ ٨٨ ط: غراس)، (٨٦٢)؛ فجعل إشارتها كنطقها في الإيمان الذي هو أصل الدِّيانات؛ وهو الذي يُعصم به الدَّم والمال، وتُستحقُّ به الجنَّة، ويُنجىٰ به من النار. والقصَّة المشهورة مروية عن جماعة من الصحابة ...".

وقال -**أيضًا**-: "وقد ذكر **البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه أحاديث كثيرة تدلُّ علىٰ جعل الإشارة كالنطق، قال -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ-: (٢٥/ ٢٤) -**بابُ الإشارةِ في الطلاقِ والأمورِ**، وقال **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي ﷺ: «**لا يُعَذِّبُ اللهُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا**»؛ فأشار إلىٰ لسانه. وقال **كعب بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أشار النبي ﷺ إليَّ؛ أيْ: «**خُذِ النِّصْفَ**». سيأتي قبل حديث (٥٢٩٣)". أضواء البيان (٤/ ٣٢١- ٣٢٤، ط: عطاءات العلم).

٨٤- حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ(التبوذكي)، قَالَ: حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ(بن خالد بن عجلان الباهلي مولاهم)، قَالَ: حَدَّثَنَا أَيُّوبُ(ابن أبي تميمة السختياني)، عَنْ عِكْرِمَةَ، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **سُئِلَ فِي حَجَّتِهِ، فَقَالَ**(أي: السائل): **ذَبَحْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ فَأَوْمَأَ** (فأشار) **بِيَدِهِ؛ قَالَ: «وَلاَ حَرَجَ»، قَالَ: حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ؟ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ: «وَلاَ حَرَجَ»**[٧٠٨].

أطرافه في: (الحج١٧٢١، ١٧٢٢، ١٧٢٣، ١٧٣٤، ١٧٣٥، الأيمان والنذور٦٦٦٦).

الشرح

---

(٧٠٧) **فيه** إثباتُ عقيدة العلو للعليِّ الغفار، وأنَّه -سبحانه- علىٰ عرشه استوىٰ.

(٧٠٨) وأخرجه مسلم (١٣٠٧)، وأبوداود (١٩٨٣)، والنسائي (٣٠٦٧)، وابن ماجه (٣٠٤٩، ٣٠٥٠).

قوله: (فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ)، فهذا فيه دلالة علىٰ أنَّ الإشارة كالنطق؛ **وهو من أدلة القاعدة:** "الإشارةُ المفهِمة تقوم مقام العبارة المنطوقة".

وقال **أبوعبدالله القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره في الكلام علىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿**قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**﴾ [آل عمران: ٤١] -ما نصُّه-: "في هذه الآية دليلٌ علىٰ أنَّ الإشارةَ تنزلُ منزلةَ الكلام؛ وذلك موجودٌ في كثير من السنة؛ وآكدُ الإشارات ما حكَم به النبي ﷺ من أمر السوداء؛ حين قال لها: «**أَيْنَ اللهُ؟**» فأشارت برأسها إلىٰ السماء، فقال: «**أَعْتِقْها فإنها مُؤمِنَةٌ**». سبق تخريجه -قريبًا؛ وهو قول عامَّة الفقهاء". الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨١).

قال العلامة **الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أنَّه علىٰ هذا القول الذي اختاره **ابن كثير**[٧٠٩] أنَّ المراد بقوله: ﴿**فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا**﴾ [مريم:٢٦]، أي: قولي ذلك بالإشارة؛ يدلُّ علىٰ أنَّ الإشارة تنزَّلُ منزلةَ الكلام؛ لأنَّها في هذه الآيةِ سُمِّيت قولًا؛ علىٰ هذا الوجه من التفسير. وسمع في كلام العرب كثيرًا إطلاق الكلام علىٰ الإشارة؛ كقوله:

إذا كلَّمَتني بالعيون الفواتر ... رددتُ عليها بالدموع البوادر"[٧١٠].

٨٥- حَدَّثَنَا المَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ[٧١١]، قَالَ: أَخْبَرَنَا حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ سَالِمٍ، قَالَ: سَمِعْتُ **أَبَاهُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُقْبَضُ العِلْمُ** (يذهب ويُفقَد)، **وَيَظْهَرُ الجَهْلُ وَالفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**». قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الهَرْجُ؟ فَقَالَ: هَكَذَا بِيَدِهِ (أشار بها)؛ فَحَرَّفَهَا؛ كَأَنَّهُ يُرِيدُ القَتْلَ[٧١٢].

أطرافه في: (الاستسقاء١٠٣٦، الزكاة١٤١٢، المناقب٣٦٠٨، ٣٦٠٩، التفسير٤٦٣٥، ٤٦٣٦،

---

(٧٠٩) وهو قوله: "المراد بهذا القول: الإشارةُ إليه بذلك، لا أنَّ المراد به القول اللفظي؛ لئلاَّ ينافي: ﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾ [مريم: ٢٦]". تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٦٥، ط: مازن بيروتي).

(٧١٠) أضواء البيان (٤/ ٣٢١، ط: عطاءات العلم).

(٧١١) هو أكبر شيوخ البخاري من الخرسانيين؛ لأنَّه روىٰ عن التابعين. روي عنه أنَّه قال: "حججت ستين حجَّة، وتزوجت ستين امرأة، وجاورت بالبيت عشر سنين، وكتبت عن سبعة عشر من التابعين" تاريخ بغداد (١٥/ ١٤٣). وليس في الكتب الستة مكي بن إبراهيم غيره.

(٧١٢) وأخرجه مسلم (١٥٧/ ١١)، وأبو داود (٤٢٥٥)، وابن ماجه (٤٠٤٧، ٤٠٥٢).

الأدب٦٠٣٧، الرقاق٦٥٠٦، استتابة المرتدين٦٩٣٥، الفتن٧٠٦١، ٧١١٥، ٧١٢١).

الشرح

قوله: (وَيَظْهَرُ الجَهْلُ وَالفِتَنُ)، وهما متلازمان؛ فكلَّما كثر الجهل؛ زادت الفتن، والمعاصي والآثام، والقتل، والبدع والأهواء؛ ونورُ العلم يقضي علىٰ الظلمات والجهالات وكلِّ فتنة.

وقوله: (هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا)، محرِّفًا لها؛ كتحريكَ مَن يذبح.

وقوله: (كَأَنَّهُ يُرِيدُ القَتْلَ)، قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فُهِم من تحريف اليد وحركتها كالضارب...؛ وكأنَّها من تفسير الراوي عن حنظلة" الفتح (١/ ١٨٢)؛ توضيحًا للمعنىٰ الذي فهمه من تحريف يده الكريمة ﷺ وتحريكها كالضارب. وجاء في مستخرج أبي عوانة بعد ذكر هذا الحديث؛ قوله: "وأرانا أبوعاصم (النبيل: وهو الراوي عن حنظلة)؛ كأنَّه يضرب عنق إنسان؛ وأراناه أبوعوانة". مستخرج أبي عوانة (٢٠/ ٣٢١، ط: الجامعة الإسلامية)، (١١٧٢٦).

٨٦- حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، قَالَ: حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامٌ (ابن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي)، عَنْ فَاطِمَةَ[٧١٣]، **عَنْ أَسْمَاءَ**[٧١٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ وَهِيَ تُصَلِّي، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ فَأَشَارَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ؛ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ. قُلْتُ: آيَةٌ (أي: هذه علامة)؟ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا: أَيْ نَعَمْ، فَقُمْتُ حَتَّىٰ تَجَلَّانِي الغَشْيُ (علانيَ وغطَّاني؛ فأصابني شيء من الإغماء)؛ فَجَعَلْتُ أَصُبُّ عَلَىٰ رَأْسِي المَاءَ، فَحَمِدَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- النَّبِيُّ ﷺ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلَّا

---

(٧١٣) بنت المنذر بن الزبير بن العوام، زوج هشام بن عروة، تابعية، ثقة.

(٧١٤) من المهاجرات إلىٰ المدينة وهي حامل بعبدالله؛ وقصَّتها مع الحجاج مشهورة، وعاشت بعد صلب ابنها عشر ليال؛ وهي ذات النطاقين، وكان مولدها قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، روي لها ستة وخمسون حديثًا: انفرد البخاري بأربعة، ومسلم بمثلها، واتفقا علىٰ أربعة عشر، انظر التوضيح شرح الجامع الصحيح (٣/ ٤٣٠-٤٣١).

رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي؛ حَتَّىٰ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ (تختبرون وتمتحنون) فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ -أَوْ: قَرِيبَ- لاَ أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ (سمِّي بالمسيح؛ لأنَّه ممسوح العين أو لأنَّه يمسح الأرض)، يُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ -أَوِ: المُوقِنُ (المصدق بنبوته)- لاَ أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ-؛ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ؛ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالهُدَىٰ؛ فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا؛ هُوَ مُحَمَّدٌ - ثَلاَثًا-. فَيُقَالُ: نَمْ صَالِحًا (منتفعًا بأعمالك)؛ قَدْ عَلِمْنَا إِنْ كُنْتَ لَمُوقِنًا بِهِ (لمؤمنًا). وَأَمَّا المُنَافِقُ -أَوِ: المُرْتَابُ (الشاكُّ المتردِّد) -لاَ أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ-؛ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا؛ فَقُلْتُهُ»(٧١٥).

أطرافه في: (الوضوء١٨٤، الجمعة٩٢٢، الكسوف١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٦١، السهو١٢٣٥، الجنائز١٣٧٣، العتق٢٥١٩، ٢٥٢٠، الاعتصام٧٢٨٧).

الشرح

قولها: (مَا شَأْنُ النَّاسِ؟ فَأَشَارَتْ إِلَىٰ السَّمَاءِ؛ فَإِذَا النَّاسُ قِيَامٌ، فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللهِ. قُلْتُ: آيَةٌ؟ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا: أَيْ نَعَمْ)، يعني به: أنَّ الإشارة باليد والرأس ونحوهما معتبرةٌ؛ وهذا قول عامَّة أهل العلم.

وممَّا **يؤكِّدُ اعتماد الإشارة المفهمة**: قول **أنس** رضي الله عنه-: "أومأ النبي ﷺ بيده إلىٰ أبي بكر: أن يتقدَّم". سيأتي برقم: (٦٨١)، وفي حديث **أبي قتادة** رضي الله عنه-: قال النبي ﷺ في الصيد للمُحرِم: «أَمِنكُم أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا، أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟». قالوا: لَا، قالَ: «فَكُلُوا ما بَقِيَ مِن لَحْمِهَا». متفق عليه؛ واللفظ للبخاري، وقالت **زينب** رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «فُتِحَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ». وَعَقَدَ تِسْعِينَ. سيأتي برقم (٥٢٩٣).

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- قال: قال أبو القاسم ﷺ: «فِي الْجُمُعَةِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا مُسْلِمٌ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَسَأَلَ اللهَ خَيْرًا؛ إِلَّا أَعْطَاهُ». وقال بيده؛ ووضع أنملته علىٰ بطن الوسطىٰ والخنصر؛

(٧١٥) وأخرجه مسلم (٩٠٥/ ١١).

قلنا: يزهِّدها. متفق عليه؛ واللفظ للبخاري.

قوله: (فَقُمْتُ حَتَّىٰ تَجَلَّانِي الغَشْيُ (علانيَ وغطَّاني؛ فأصابني شيء من الإغماء)؛ فَجَعَلْتُ أَصُبُّ عَلَىٰ رَأْسِي المَاءَ، فَحَمِدَ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- النَّبِيُّ ﷺ، وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ لَمْ أَكُنْ أُرِيتُهُ إِلَّا رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي؛ حَتَّىٰ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَأُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ (تختبرون وتمتحنون) فِي قُبُورِكُمْ مِثْلَ -أَوْ: قَرِيبَ- لاَ أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ - مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ (لأنه ممسوح العين أو أنه يمسح الأرض)، يُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ -أَوِ: المُوقِنُ (المصدق بنبوته)- لاَ أَدْرِي بِأَيِّهِمَا قَالَتْ أَسْمَاءُ-؛ فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ؛ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالهُدَىٰ؛ فَأَجَبْنَا وَاتَّبَعْنَا؛ هُوَ مُحَمَّدٌ -ثَلاَثًا-.): في الحديث تحذير النبي ﷺ أمَّته الفتن. وفيه شفقة النبي ﷺ علىٰ أمَّته ورأفته بهم. وفيه جواز الفتيا بالإشارة. وفيه أنَّ العصمة من الفتن؛ بالعلم النافع والعمل الصالح. وفيه جواز سؤال المصلِّي عن أمر هامٍّ. وفيه جواز إشارة المصلِّي الإشارة التي تُفهم عنه. وفيه أنَّ تسبيح المرأة في الصلاة لا بأس به أحيانًا. وفيه عدم التقليد، ووجوب الاتباع للدليل. وفيه مشروعية صلاة الكسوف؛ وأنَّها آية من آيات الله، وفيه أنَّ صبَّ الماء ممَّا يُذهِب النعاس ويُعين علىٰ الإفاقة. وفيه أنَّ الدوار والغَشية الخفيفة لا تُنقض الوضوء. وفيه أنَّه ينبغي للعالم أن يستغِلَّ المواقف المؤثِّرة؛ فيعظ الناس فيها. وفيه أنَّ النبي ﷺ لا يعلم الغيب؛ لأنَّه لم يرَ هذه الأمور إلا في هذا المقام، وأنَّ الله -تعالىٰ- أطلعه علىٰ بعض الغيبيات. وفيه إثبات خلق الجنة والنار؛ وأنَّهما موجودتان. وفيه أنَّ الفتنة حاصلةٌ في القبر للمؤمنين وغيرهم. وفيه إثبات عذاب القبر؛ خلافًا للمعتزلة، ومن تبعهم في ذلك من أمثال: حزب التحرير وغيره. وفيه إثبات فتنة المسيح الدجال، وأنَّها فتنة عظيمة؛ خلافًا لمن أنكرها وزعم أنَّها رمزٌ علىٰ وجود الجراثيم والشرِّ. وفيه أنَّ حياة القبر حياة حقيقية؛ ولكنها برزخية؛ ليست كحياتنا الدنيوية. وفيه أنَّه لا مجال للعقل في مَورِد النصِّ. وفيه الحرص علىٰ الثبات والعلم واليقين والأعمال الصالحة في الدنيا.

٢٥- بَابُ تَحْرِيضِ النَّبِيِّ ﷺ وَفْدَ عَبْدِالقَيْسِ عَلَىٰ أَنْ يَحْفَظُوا الإِيمَانَ وَالعِلْمَ، وَيُخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ.

قوله: **(بَابُ تَحْرِيضِ النَّبِيِّ ﷺ وَفْدَ عَبْدِالقَيْسِ عَلَىٰ أَنْ يَحْفَظُوا الإِيمَانَ وَالعِلْمَ)**، "هذا بابٌ في حثِّ النبيِّ ﷺ علىٰ حفظ العلم، وأهمُّ ذلك العقيدة والتوحيد والإيمان؛ كي يبلغوا الناس ما حفظوه.

وقوله: "**وَفْدَ عبدالقَيْسِ**"، **الوفدُ**: جمع: وافِدٍ؛ وهم الذين يقدُمون أمامَ الناسِ، وأما عبدُالقيسِ: فقبيلةٌ معروفة. عمدة القاري (٢/ ٩٩)؛ بتصرف يسير.

فأوَّلَ ما يُبدَأُ به في العلم والتعليم: التوحيدُ الذي هو أوجبُ واجبٍ علىٰ العبيدِ، ثمَّ الصلاة وهي: أوَّلُ واجب عملِيٍّ، وأوَّل ما يحاسَبُ عليه العبد يوم القيامة؛ فإن صَلَحت؛ صَلَح سائر عمله.

وقَالَ مَالِكُ بْنُ الحُوَيْرِثِ(٧١٦): قَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ».

قوله ﷺ: **«ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ»**، أمرَ النبيُّ ﷺ مالكَ بنَ الحويرثَ ومن معه-بعد أن حفِظوا عنه الصلاة، وغيرها- أن يعملوا بذلك؛ فقال لهم: «**وصَلُّوا كما رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**». سيأتي برقم (٦٣١)، وأن يُعلِّموا أهلِيهم؛ وهُم أوْلىٰ الناس بالتعليم وتبليغ العلم؛ ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]. ومن كان عنده خير وعلم؛ فَلْيَبُثَّهُ بين أهله؛ «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ**». **صحيح**: صحيح الترمذي (٣٨٩٥). وفي بعض نسخ البخاري: «**فعِظُوهُم**». عمدة القاري (٢/ ٩٩)؛ بتصرف يسير.

تنبيه: وهذا **التعليق** طرفٌ من حديث مشهور: أخرجه المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ **موصولًا** في: الأذان (٦٢٨)، وغيره؛ كما سيأتي -إن شاء الله تعالىٰ-، وأخرجه مسلم (٦٧٤/ ٢٩٢) -أيضًا-.

---

(٧١٦) قدم مالك في ستة من قومه فأسلم، وأقام عند رسول الله ﷺ عشرين ليلة، ثم أذن له في الرجوع إلىٰ أهله؛ روي له خمسة عشر حديثًا: اتفق البخاري ومسلم علىٰ حديثين هذا أحدهما، والآخر في الرفع والتكبير، وانفرد البخاري بحديث. نزل البصرة ومات بها سنة أربع وتسعين.

٨٧- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ (هو لقبٌ لمحمد بن جعفر الهذلي)، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي جَمْرَةَ (نصرُ بنُ عمران)، قَالَ: كُنْتُ أُتَرْجِمُ بَيْنَ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما- وَبَيْنَ النَّاسِ، فَقَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِالقَيْسِ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «مَنِ الوَفْدُ -أَوْ: مَنِ القَوْمُ-؟» قَالُوا: رَبِيعَةُ، فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِالقَوْمِ -أَوْ: بِالوَفْدِ-؛ غَيْرَ خَزَايَا (أي غير مهانين ولا مفضوحين) وَلاَ نَدَامَىٰ (أي غير نادمين)». قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ (سفر بعيد)، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ (منزل القبيلة) مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَلاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ (لحرمة القتال فيه عندهم)، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نُخْبِرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا (أي: خلفنا من قومنا)، نَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ؛ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَحْدَهُ، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ» وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ (الوعاء من القرع اليابس) وَالحَنْتَمِ (وهي: الجرَّةُ مُتَّخذَة من طين) وَالمُزَفَّتِ (وهو المقيَّر).

قَالَ شُعْبَةُ: رُبَّمَا قَالَ: "النَّقِيرِ (هو: جذعُ النخلة؛ إذا نُقِر)"، وَرُبَّمَا قَالَ: "المُقَيَّرِ (هو: المزفَّت؛ وهو: وِعاءٌ طُلِيَ بالقارِّ والزِّفت)". قَالَ: «احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ».

تقدم في: (الإيمان:٥٣).

الشرح

قوله: (أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟)، إذا فسِّر الإيمان بأركان الإسلام والأفعال الظاهرة، فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ الإيمان يطلق ويراد به الإسلام، وأنَّ الأعمال داخلة في الإيمان كما تدخل في الإسلام، والأدلَّة علىٰ هذا كثيرة جدًا، ذكر البخاري جملة غير قليلة منها، بل لا يكاد عمل يخلو من ذلك، لارتباطه بالقلب الذي هو محل الإيمان، ولابدَّ فيه من نية وحسبة. **فيه** ردٌّ علىٰ المرجئة الذين أخرجوا الأعمال عن مسمَّىٰ الإيمان.

وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من حسن الخلق. **وفيه** أنَّ الإيمان يطلق علىٰ الإسلام، وأنَّ الأعمال من الإيمان، وأنَّه قولٌ وعملٌ واعتقادٌ. **وفيه** تعلُّم التوحيد وتعليمه، وأنَّه أول واجب علىٰ

الناس؛ ولو كانوا من المسلمين.

قوله: (قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)، فيه قول: "الله ورسوله أعلم"، وأنَّها تطلق في حياته ﷺ، ولا أعلم أنَّ أحدا من السلف استعملها بعد وفاته.

قوله: (شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ...)، فيه أنَّ أعظم أنواع التوحيد هو توحيد العبادة (الألوهية). وفيه توحيد النبي ﷺ بالاتباع. وفيه جواز إطلاق رمضان علىٰ الشهر؛ خلافًا لمن منعه.

قوله: (وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ المَغْنَمِ الخُمُسَ)، أي: الغنائم؛ وهي الأموال المأخوذة من الكفار قهرًا.

فيه أنَّ أداء الخُمس من الإيمان. وجاء الأمر في كتاب الله بذلك؛ فقال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وفيه ردٌّ علىٰ المرجئة وأهل البدع.

قوله: (وَنَهَاهُمْ عَنِ الدُّبَّاءِ وَالحَنْتَمِ وَالمُزَفَّتِ. قَالَ شُعْبَةُ: رُبَّمَا قَالَ: "النَّقِيرِ"، وَرُبَّمَا قَالَ: "المُقَيَّرِ")، قد جزم في الرواية الأخرىٰ في كتاب "الإيمان" بهنَّ جميعًا؛ عدا (المقيَّر)؛ فكان الشكُّ فيه؛ ولا إشكال؛ فالمقيَّر: هو بمعنىٰ: المزفَّت؛ فتارة يقول هذا، وتارة يقول هذا. وهذا الحديث تقدَّم الكلام عليه في كتاب الإيمان[٧١٧] مستوفىٰ؛ ولله الحمد.

وقوله: (احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُمْ)، فيه دليلٌ علىٰ شَرطيْ الضَّبطِ والاتِّصالِ في الحديثِ الصحيحِ. وفيه أنَّ من علِم علمًا؛ يلزمُه تبليغه لمن لا يعلمه؛ ولا يجوز كتمانه؛ ولا سيَّما مهماتُ العلمِ: كالتوحيد والصلاة وشرائع الإسلام وأركان الإيمان. وفيه حَثٌّ علىٰ الحِفظ؛ وهو ممَّا قصر فيه طُلاَّبُ العلمِ؛ وأَغْفَله الناس في المناهج الدراسية[٧١٨].

---

(٧١٧) باب أداء الخمس من الإيمان، باب رقم (٤٠)، برقم (٥٣).

(٧١٨) وممَّا يُعجب منه ويُؤسف له: أنَّك تجد ما قرَّرته كثيرٌ من الجامعات من محفوظاتِ الحديثِ للطالبِ في كليات الشريعة؛ نحو: مئة حديث في السنوات الأربعة؛ وهذا شيء ضئيل، وقليل جدًا؛ فما عساه أن يُعلِّم الناس إذا تخرَّج من جامعته؟!!.

٢٦- بَابُ الرِّحْلَةِ فِي المَسْأَلَةِ النَّازِلَةِ، وَتَعْلِيمِ أَهْلِهِ

قوله: **(بَابُ الرِّحْلَةِ فِي المَسْأَلَةِ النَّازِلَةِ)**، هذه الترجمة خاصَّةٌ في الرِّحلة للمسألةِ النازلةِ؛ وليست في الرِّحلة لطلب العلم بعامّةٍ؛ وهذا هو الفرقُ بين هذه الترجمةِ وترجمةِ: (الخُروج لطلَب العِلْم)؛ أنَّ الخروج هناك: لمطلق الطلب، وهنا: لمسألةٍ خاصةٍ.

والرِّحلة -بكسر الراء-: بمعنىٰ: الارتحالُ، وبفتحها -**الرَّحلة**-: المرَّةُ منه، وبضمِّها -**الرُّحلة**-: المرحُول إليه.

وأصل ذلك: مأخوذ من قوله -تعالىٰ-: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقوله: **(وَتَعْلِيمِ أَهْلِهِ)**، يأتي الكلام عليها في باب "تعليم الرجل أمَته وأهله"(٧١٩).

٨٨- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُقَاتِلٍ أبوالحَسَنِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُاللهِ (ابن المبارك المروزي)، قَالَ: أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُاللهِ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ(٧٢٠)، **عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الحَارِثِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، **أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ** (في رواية: جاءته مولاة)، **فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ. فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي، وَلاَ أَخْبَرْتِنِي. فَرَكِبَ إِلَىٰ رَسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟» فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ؛ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ**(٧٢١).

أطرافه في: (البيوع ٢٠٥٢، الشهادات ٢٦٤٠، ٢٦٥٩، ٢٦٦٠، النكاح ٥١٠٤).

الشرح

قوله: **(فَرَكِبَ إِلَىٰ رَسُولِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟» فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ؛ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ)**، ركب من مكة إلىٰ النبي ﷺ بالمدينة، فقد رحل إلىٰ النبي ﷺ ليسأله عن النازلة، فأجابه -عليه الصلاة والسلام-؛ فرجع إلىٰ أهله؛

---

(٧١٩) باب رقم (٣١)، قبل حديث رقم (٩٧).

(٧٢٠) هو ابن عبيدالله بن عبدالله بن جدعان، ثقة فقيه.

(٧٢١) وأخرجه أبوداود (٣٦٠٣، ٣٦٠٤)، والترمذي (١١٥١)، والنسائي (٣٣٣٠)، وفي الكبرىٰ (٥٨٤٥).

فعلَّمها؛ فامتثلت لذلك: ففارقها، وتزوجت زوجًا غيره. وهو مناسب -أيضًا- للباب الذي قبله في وفد عبدالقيس؛ وسيأتي الكلام علىٰ تعليم الأهل مستوفىً في بابه -إن شاء الله-.

و**المقصود**: أنَّ الارتحال للعلم عامَّة أو لنازلة علىٰ وجه الخصوص؛ هو ما كان عليه السلف الصالح، فهذا **الشَّعبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: "لو أنَّ رجلًا سافر من أقصىٰ الشام إلىٰ أقصىٰ اليمن؛ فحفِظ كلمةً تنفعه -فيما يَستقبِل من عمره-؛ رأيتُ أنَّ سفره لم يضِعْ". حلية الأولياء (٤/ ٣١٣)، وهذا **سعيد بن جبير** رَحِمَهُ اللَّهُ رحل إلىٰ **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من العراق إلىٰ مكة من أجل مسألة الملاعنة الفتح (٩/ ٤٦٢)؛ وما أكثر ما رحل الناس؛ لأجل حديث واحد، أو مسألة نازلة نزلت بهم، **فيه** أنَّ السؤال عن العلم لا يُستكثر عليه أن يركب الرجل بعيره، بل لا يُستكثر أن يأتي علىٰ قدميه من مكة إلىٰ المدينة ليسأل عن هذا.

ففي الحديث دلالة علىٰ حرصهم علىٰ العلم، وإيثارهم ما يقرِّبهم إلىٰ الله -تعالىٰ-. **وفيه** أنَّ الصحابة كانوا يحرصون علىٰ طاعة ربهم -عزَّ وجلَّ-؛ لأنَّهم إنَّما كانوا يرغبون في العلم للعمل به.

وفيه الحرص علىٰ العلم ولو بالرِّحلة في المسألة النازلة.

وقوله:(كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ)، أي: كيف تبقىٰ معك زوجةً؛ وقد قيل إنَّك أخوها من الرضاعة؟

وفيه دليلٌ لقاعدة: عدم العلم بالشيء؛ لا يستلزم العلم بعدمه؛ لأنَّه لم يكن يعلم أنَّه رضع مع زوجته من امرأة واحدة؛ وهذا لا يعني أنَّه لم يكن في نفس الأمر -كذلك-، **وفيه** ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الاحتياط لدينه، **وفيه** أنَّ اليقين لا يزول بالشك، وأنَّ اليقين لا يزول إلا بيقين مثله؛ فالأصل حُرمة الفروج؛ فلا يباح إلا بيقين مثله، فإذا شكَّ في حِلِّه؛ رجع إلىٰ الأصل.

وقوله: (فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ؛ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ)، الزوج الأخير اسمه ظُرَيب بن الحارث، **وفيه** ورع السلف وخوفهم من المخالفة للنصوص؛ أمَّا لو وقعت الآن لأحد؛ لبحث لها عن مخرج عند أحد المفتين؛ ليسهِّلها له، ويبيحها له. **وفيه** التسليم والإذعان لأمر الله ورسوله ﷺ؛ ولو خالف هوىٰ النفس. **وفيه** أنَّه يلزم المؤمن تعليم أهله الإيمان، والفرائض.

ويأتي الكلام عليه مستوفى في كتاب الشهادات(٧٢٢)، والنكاح(٧٢٣) -إن شاء الله تعالىٰ-.

٢٧- بَابُ التَّنَاوُبِ فِي العِلْمِ

قوله: **(بَابُ التَّنَاوُبِ فِي العِلْمِ)**، هو قيام أحد الطلاب مقام الآخر في الحضور عند العالم، ثمَّ تكون النوبة للآخر، وهكذا. فالمصنِّف ترجَم: بأنَّ التناوب في العلم؛ من التعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ، وفيه جمع بين المصالح.

٨٩- حَدَّثَنَا أبواليَمَانِ (الحكم بن نافع البهراني)، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ (ابن أبي حمزة)، عَنِ الزُّهْرِيِّ، ح قَالَ أبوعَبْدِاللهِ (البخاري): وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ (عبدالله بن وهب القرشي مولاهم)، أَخْبَرَنَا يُونُسُ (ابن يزيد الأيلي)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ أَبِي ثَوْرٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما-، عَنْ **عُمَرَ** رضي الله عنه-، قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ (قرىٰ منها)، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا: فَإِذَا نَزَلْتُ؛ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ؛ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ؛ فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَالَ: أَثَمَّ هُوَ؟ فَفَزِعْتُ (خِفْتُ) فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَىٰ حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: طَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: لاَ أَدْرِي، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقُلْتُ -وَأَنَا قَائِمٌ-: أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: «لاَ»؛ فَقُلْتُ: اللهُ أَكْبَرُ(٧٢٤).

أطرافه في: (المظالم٢٤٦٨، التفسير٤٩١٣، ٤٩١٥، النكاح٥١٩١، ٥٢١٨، اللباس٥٨٤٣، أخبار الآحاد٧٢٥٦، ٧٢٦٣).

الشرح

---

(٧٢٢) باب شهادة المرضع، باب رقم (١٤)، حديث رقم (٢٦٦٠).

(٧٢٣) باب رقم (٢٣)، حديث رقم (٥١٠٤).

(٧٢٤) وأخرجه مسلم (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣١٨)، والنسائي في الكبرىٰ (٩١٥٧).

قوله: (وَجَارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ)، **قيل**: أَوْس بن خَوْلِيٍّ، و**قيل**: هو عِتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنّ النبي ﷺ قد آخىٰ بين أحدهما وبين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله: (فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ)، أي: في هذه القبيلة من الأنصار؛ ومواضعهم **بالعوالي**: جمع عالية؛ وهي: قرىٰ منها من فوقها من جهة الشرق.

وقوله: (وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا: فَإِذَا نَزَلْتُ؛ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَوْمِ مِنَ الوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ؛ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ)، فكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يذهب إلىٰ رسول الله ﷺ يومًا يسمع من حديثه ويطلب العلم، وفي اليوم التالي يذهب صاحبه؛ وهذا من حرصهم علىٰ الخير وعدم فوات شيء من العلم؛ وجاء في الحديث من كلام محمد بن سيرين: "وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير". سيأتي برقم (٢٣١١)؛ فمن فقههم أنَّهم يجمعون بين المصالح كلها: فلا يفُوتهم حظُّهم من رسول الله ﷺ، ولا تفوتهم مصالحهم الدنيوية، فلم يضيِّعوا دينهم ولا دُنياهم؛ والشاهد من الحديث للترجمة: أنَّ عمر كان يتناوب النزول إلىٰ النبي ﷺ مع جاره الأنصاري؛ فيجمع ما استطاع بالقدر المناسب له.

(وكان الشيخ الألباني يصلح ساعة أو ساعتين؛ بقدر ما يكفيه لطعام أولاده، ثمَّ ينصرف للعلم والدعوة).

وفي هذا دليل: علىٰ أنَّ النبي ﷺ عمِل بقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ [البقرة: ١٢٩]، وأنَّه ﷺ لم يترك تعليم الناس كلَّ يوم؛ بل وأكثرَ اليومِ: بالقول والفعل؛ وأنَّ وقته كان مُستغرَقًا في التعليم ليلًا ونهارًا؛ سرًا وجهارًا.

وفي الحديث مشروعية التعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ. **وفيه** حرصُ السَّلفِ علىٰ تعلُّم العلم من الكتاب والسنَّة، وألَّا يفوتهم حُكمٌ من الأحكام. **وفيه** أنَّ النبي ﷺ كان يُعلِّمُ الناسَ العلم كلَّ يوم؛ بخلاف الموعظة؛ فإنَّها كانت -منه ﷺ- أحيانًا. **وفيه** مشروعية اتِّخاذ الأسباب؛ وأنَّه لا ينافي التوكُّلَ علىٰ الله -تعالىٰ-. **وفيه** أنَّ المسلم ينبغي أن لا يُفوِّت علىٰ نفسه الخير والمصلحة؛ ما أمكنه ذلك. **وفيه** الحرصُ علىٰ طلب العلم. **وفيه** أنَّ العلم لا يُترك، وأنَّ طالب العلم يطلبُهُ دائمًا؛ ولو كان كبيرًا في السِّنِّ؛ بل يطلب الازدياد منه. **وفيه** التناوب في العلم؛ لمن كان همُّه الآخرة. **وفيه** اختيار الجار الصالح. **وفيه** تعاون الجيران علىٰ الخير. **وفيه** الاعتمادُ علىٰ خبر

الواحد وقبولُه. **وفيه** دليل علىٰ قَبول مراسيل الصحابة والعمل بها؛ لعدالتهم جميعًا؛ فإنَّ الصحابة كان يخبر بعضهم بعضًا بما يسمع من الرسول ﷺ، ويحدثون به عن رسول الله ﷺ؛ وهذا ما عليه أهل هذا الفن.

وفيه أنّ طالب العلم لا ينبغي أن يَغفُل عن أمر معاشه؛ فيهمل نفسه ويضَيِّع أهله ومن يقوتُ؛ بل ينظر في معيشته فيُحصِّلُ ما يستعين به علىٰ طلب العلم؛ مع حزمه وحرصه ألاَّ يفوته العلم، وطلبةُ العلم في هذا الزمان علىٰ طرفَيْ نقيضٍ: منهم من يهمِلُ أهله؛ لأجل العلم -وهم قليل-، ومنهم من يترك العلم؛ من أجل أشغاله الدنيوية، ويجعل المصلحة الأخروية والانتفاع بالعلم؛ أمورًا هامشية ثانوية.

وفيه أنّ شرطَ التواتر؛ استنادُهُ إلىٰ أمر محسوسٍ؛ لا الشائعاتِ التي لا يُدرىٰ من بدأ بها[٧٢٥]. **وفيه** أنَّ التحريم ليس طلاقًا: ﴿**لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ**﴾ [التحريم: ١].

وفيه جواز سؤال المفضولِ الفاضلَ والصغيرِ الكبيرَ عن بعض أموره الخاصَّة. **وفيه** أنَّه يجوز ضربُ الباب بشدَّةٍ -أحيانًا-؛ **بشرطين**: أن يكون لأمر هامٍّ، وأن يأمَنَ من المطروقِ عليه الضَّجَرَ منه. **وفيه** مشروعية التكبير عند الأمر العظيم المتعجَّبِ منه؛ كما في حديث: «**اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ...**». **صحيح**: أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤)، (٣٢٩١) -واللفظ له-، وهو مخرَّجٌ في التعليقات الحسان (٩/ ٣٨٢)، (٦٦٦٧)، وصحيح الموارد (٢/ ٢١٥)، (١٥٤٠).

وفيه جواز دخول الآباء علىٰ بناتهنّ المتزوجات دون إذن أزواجهنّ. **وفيه** أنه لا يلزم الأخذ برأي الجمهور؛ إذا تبيَّن أنَّ الصواب خلافه.

فما الذي جعلهم يتناوبون في العلم، ويحرصون عليه؟

كان السلف يحرصون علىٰ العلم لأسباب كثيرة **منها**: شعورهم بالمسؤولية تجاه الأمَّة، **ومنها** أنَّ طالب العلم يرىٰ تقصير الناس في هذا الأمر، ويخشىٰ أن يلحقه إثم تركه له.

ومنها أنَّ طالب العلم إذا طلبه وواظب عليه تحصَّل علىٰ رغبة شديدة يجدها، ولذَّة ونهم

---

(٧٢٥) فإنَّ جاره الأنصاري ظنَّ أنَّ النبي ﷺ طلَّقَ نساءَه؛ وهو لم يُطلِّقهنّ؛ ولكن شاع الخبر عند الناس؛ ولذلك قال **عمر** رضي الله عنه: "فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر". مسلم (١٤٧٩/ ٣٠)؛ لأنه تثبَّتَ من الخبر.

فيه، كما ورد في الحديث: (**منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا**) صحيح: سبق تخريجه.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه-: عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سَأَلَ مُوسَىٰ رَبَّهُ عَنْ سِتِّ خِصَالٍ كَانَ يظنُّ أَنَّهَا لَهُ خَالِصَةً وَالسَّابِعَةُ لَمْ يَكُنْ مُوسَىٰ يُحِبُّها**». وفيه: «... **قَالَ: فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ؟ قَالَ: عَالِمٌ لَا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ؛ يَجْمَعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَىٰ عِلْمِهِ** ...». **إسناده حسن**: انظر: التعليقات الحسان (٩/ ٥٣)، (٦١٨٤)، والصحيحة (٣٣٥٠).

قال **ابن القيم** رحمه الله: "وأما عشَّاق العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقِه، وكثيرٌ منهم لا يشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر.

فليس لهم همٌّ إلا في العلم وتحصيله، والتفرُّغ له(٧٢٦).

---

(٧٢٦) مع ذلك: ينبغي لطالب العلم أن لا ينسىٰ نصيبه من الدنيا، ولا يُضيِّع حقوقَ عياله؛ بما يقُوته -وإياهم-.

يقول **الخطيب البغدادي** رحمه الله: "إذا كان للطَّالب عيالٌ لا كاسِبَ لهم غيرُه؛ فيُكرَه له أن ينقطِع عن معِيشته ويشتغِل بالحديث عن الاحتراف لهم؛ والأصل في ذلك: ما ورد عن وهب بن جابر الخَيواني رحمه الله، يقول: "شهدت عبدالله بن عمرو رضي الله عنه في بيت المقدس، وأتاه مولىٰ له، فقال: إني أريد أن أقيم هذا الشهر ههنا -يعني رمضان-؛ قال له عبدالله: هل تركت لأهلك ما يقوتهم؟ قال: لا؛ قال: أمَّا لا؛ فارجع؛ فدَع لهم ما يقوتهم، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»". الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٩٧)، (٤٦).

فلا يُضيِّعُ عِيالَه ويهمِلُهم، ويترُكُ نفقَته عليهم، ولا يهمِلُ واجبَ حفظِ الشريعة، وطلبِ العلم، وتعليمِ الناس؛ فإنَّها من الواجبات العظيمة؛ والتي قد تتعيَّنُ -أيضًا-؛ وقد كان السَّلف يتكسَّبونَ؛ ومع ذلك لم يتركوا العِلمَ والتعليمَ؛ وحياتُهم كانت تسيرُ سهلةً بلا تكلُّفٍ.

فإن وجد طالبُ العلم هيئةً أو جِهة تكفُله، أو أحدَ إخوانِه -دونَ مسألةٍ منه-؛ فهُم شُركاءُ في الأجرِ؛ كمن جهّز غازيًا، أو أعان حاجًّا. ومن جاءه مالٌ من غير مسألةٍ ولا إشرافِ نفسٍ؛ فلْيأخُذه، ولْيَتموَّله، ولينتفعْ به؛ كما ورد في الحديث: «**مَنْ بَلَغَهُ مَعْرُوفٌ عَنْ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، وَلَا إِشْرَافِ نَفْسٍ؛ فَلْيَقْبَلْهُ وَلَا يَرُدَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ إِلَيْهِ**». **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٢٩/ ٤٥٦، ط: الرسالة)، (١٧٩٣٦)، وهو في الصحيحة (١٠٠٥).

وكان **ابن عمر** رضي الله عنهما- لا يسألُ أحدًا شيئًا ولا يرُدُّ شيئًا أُعطِيهُ. أخرجه مسلم ١١- (١٠٤٥) -من قول سالم-.

فإن ضاقَ عليه رزقه فَلْيسألِ اللهَ؛ خيرٌ له من أن يسأل الناس؛ فإنَّ الله -تعالىٰ- خزائنه مَلْآىٰ: عظيم النفقة؛ يده سحَّاءُ الليلِ والنهارِ؛ لا تَغيضُها ولا تُنقِصُها نفقةٌ.

وقيل **لامرأةِ الزُّبَيْر بن بكَّار** -أو غيره-: "هنيئًا لكِ؛ إذ ليست لك ضَرَّة!"؛ فقالت: "والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضَرائرَ". روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص ١٠٨، ط: عطاءات العلم).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ **أيضًا**- وهو يتكلَّم عن عِشْق العلم-: "وحدَّثني أخو شيخنا (يعني: أحمد ابن تيمية) عبدالرحمن بن تيمية عن أبيه (عبدالحليم)، أنَّه قال: كان الجَدُّ (أبوالبركات) إذا دخل الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب، وارفعْ صوتَك حتىٰ أسمع"[(٧٢٧)]. روضة المحبين (ص ١٠٩).

ومع ذلك: فقد كان بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُلازم النبي ﷺ -طلبًا للعلم- ملازمةً تامةً؛ حيث لا أهل له ولا حقوق؛ كأبي هريرة، وبعضهم يجِدُ من يكفُلُه؛ كما ورد في الحديث عن **أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أخوانِ علىٰ عهد النبي ﷺ: فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ، والآخر يحترِفُ؛ فشكا المحترفُ أخاه إلىٰ النبي ﷺ؛ فقال: «**لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٤٥)؛ وصحَّحه، وهو في الصحيحة (٢٧٦٩).

ولذلك كان **أبوهريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسألُ **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الآية؛ كي يفطِنَ له ويأخذه معه ليُطعِمه؛ ويتعفَّفُ عن سؤال الناس؛ قال **أبو هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فلقِيتُ عمرَ وذكرتُ له الذي كان من أمري؛ وقلت له: تولَّىٰ اللهُ ذلكَ من كان أحقَّ به منك يا عمرُ، والله لقد استقرَأْتُكَ الآية؛ ولأنا أقرأ لها منك. قال عمر: والله لأن أكونَ أدخلتُكَ أحبُّ إليَّ من أن يكون لِي مثلُ حُمْرِ النَّعَمِ". سيأتي برقم (٥٣٧٥).

فعلىٰ المسلمين أن يكفُلوا طُلاَّب العلم؛ بسبب النقص الكبير في الأمَّة من طلاب العلم والدعاة؛ ولا توجد الكفاية، وبما أنَّه لم تتحقَّقِ الكفايةُ -بعدُ- من هذه الجهة؛ **فيتعيَّنُ** -حينئذٍ- **علىٰ الجميع**: العملُ الجادُّ لإيجاد الكفاية في الأمَّة.

ولذا: فإنّ من يقومُ بالكفالة لطالب العلم؛ إنَّما يقوم بأمر واجب عليه؛ وليس نفلًا؛ لأنَّ هذا الطالبَ يرفعُ الإثمَ عن الناس؛ وهما شريكان في الأجر؛ فـ«**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا** ...». **متفق عليه**.

بل قد يكون هذا أولىٰ من الإعانة في الغَزوِ والحجِّ؛ ولا سيَّما في هذا العصر؛ لأمرين: **الأول**: أنَّه قد يكون واجبًا متعيِّنًا، بخلاف الحجِّ والغزو. **والثاني**: أنَّ أجر العلم يزيد إلىٰ يوم القيامة، وأمَّا أجر الحجِّ ونحو من أعمال البرِّ؛ فإنَّه لا يستمرُّ.

وقال -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ**﴾ [المائدة: ٢]؛ قال **العلامة ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولهذا قال أهل العلم: إذا تفرَّغ شخصٌ قادرٌ علىٰ التكسُّب من أجل طلب العلم؛ فإنَّه يُعطىٰ من الزكاة؛ لأنَّ ذلك من الجهاد في سبيل الله؛ بخلاف ما إذا تفرَّغ للعبادة؛ فإنَّه لا يعطىٰ من الزكاة؛ لأنَّه قادر علىٰ التكسُّب". كتاب العلم (ص ١٢٧).

(٧٢٧) وزاد **ابن القيم** -قائلًا-: "وأعرف مَنْ أصابه مَرَضٌ من صُداع وحُمَّىٰ، وكان الكتابُ عند رأسه: فإذا وجد إفاقةً؛ قرأ فيه، فإذا غُلب؛ وضعَه، فدخل عليه الطبيبُ يومًا -وهو كذلك-، فقال: إنَّ هذا لا يَحِلُّ لك؛ فإنَّك تُعِينُ علىٰ نفسك، وتكونُ سببًا لفوات مطلوبك.

قلت: وقد كنت أجِدُ لذةً وحلاوةً في أيام الطلب تفُوق كلَّ لذَّة: حين كنت في عَمَّان آتي من الشَمساني إلىٰ هملان بعد الفجر إلىٰ بيت شيخنا **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ، فأجلس عند بابه أنتظر خروجه، وقد أظلُّ -أحيانًا- بالساعات في برد عَمَّان الشديد؛ حتىٰ أكاد أتجمَّد من شدَّته؛ ومع ذلك كنت أجد دفء الجو حينما أجلس محتبيًا محتسبًا طلب العلم في انتظار شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنتفع بلفظة، أو لحظة أقتدي به فيها، وأسير معه حيث سار، وألازمه في المكتبة، أو إلىٰ السوق لشراء بعض حاجياته، فالله أكبر! يا لها من سعادة كانت تغمرني، وسرورٍ كاد يطير قلبي به؛ فالحمد لله أن منَّ عليَّ وجعلني في صحبة هذا الإمام الهمام؛ في الوقت الذي كانت الأمَّة تتمنىٰ رؤيته؛ فضلًا عن القرب منه وملازمته؛ وقد أكرمني الله بصحبته وملازمته برهة من الزمن.

قال: وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأ بي مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك وكلامَك في العلم؛ يزيدُ المرضَ. فقلت له: لا أصبرُ عن ذلك؛ وأنا أُحاكمك إلىٰ علمك: أليستِ النفسُ إذا فرحتْ وسُرّت؛ قويت الطبيعةُ؛ فدفعتِ المرض؟ فقال: بلىٰ! فقلت له: فإنَّ نفسي تُسَرُّ بالعلم؛ فتقوىٰ به الطبيعة؛ فأجدُ راحةً. فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا -أو: كما قال-". روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص ١٠٩، ط: عطاءات العلم).

٢٨- بَابُ الغَضَبِ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ؛ إِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ

قوله: **(بَابُ الغَضَبِ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ؛ إِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ)**، فيه أنَّ الغضبَ ليس مذموماً دائما، بلِ لا بأس به في العلم -أحيانًا-؛ أمَّا في القضاء مثلاً؛ فلا يقضِي القاضي وهو غضبانٌ.

وأمَّا في الخطب؛ فإنه ﷺ كان إذا خطب اشتدَّ غضبه، وعلا صوته، واحمرَّ وجهه؛ كأنَّه منذر جيش. أخرجه مسلم (٨٦٧)، وقد أمرنا بالعدل في الرِّضا والغضبِ؛ وأنَّه من المنجياتِ؛ قال ﷺ: «**وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَىٰ، وَخَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ**». **حسن بمجموع طرقه**: أخرجه البزار (١٣/ ١١٤، برقم: ٦٤٩١) -واللفظ له-، وغيره؛ وهو في الصحيحة (١٨٠٢).

وكان من دعائه ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَىٰ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ** ...». **صحيح**: صحيح النسائي (١/ ٢٨٠-٢٨١)، (١٢٣٧)، وهو في هداية الرواة (٣/ ٣٤)، (٢٤٣١).

ومن **خصائص النبي** ﷺ أنَّه ينطق بالحقِّ في الغضب والرضا؛ فعن **عبدالله بن عمرو** رضي الله عنهما، قال: كنت أكتبُ كلَّ شيءٍ أسمعه من رسول الله ﷺ أريدُ حِفظه، فنهتني قريش؛ وقالوا: أتكتب كلَّ شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشرٌ يتكلَّم في الغضبِ والرضا؛ فأمسكتُ عن الكتاب؛ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ؛ فأومأ بإصبعه إلىٰ فِيه، فقال: «**اكتُبْ، فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِه، ما يَخرُجُ مِنْهُ إلاَّ حَقٌّ**». **صحيح**: أخرجه أبوداود (٥/ ٤٨٩)، (٣٦٤٦)، وهو في الصحيحة (١٥٣٢).

٩٠- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ (ابن سعيد بن مسروق الثوري)، عَنِ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ **أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ**(٧٢٨) رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلاَةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا (بسبب تطويل) فُلاَنٌ (وهو معاذ بن جبل). فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ، فَمَنْ صَلَّىٰ بِالنَّاسِ** (إماما لهم) **فَلْيُخَفِّفْ؛ فَإِنَّ فِيهِمُ المَرِيضَ، وَالضَّعِيفَ،**

---

(٧٢٨) عقبة بن عمرو بن ثعلبة، البدري، صحابيٌّ جليل، مات بعد الأربعين.

وَذَا الحَاجَةِ»(٧٢٩).

أطرافه في: (الأذان٧٠٢، ٧٠٤، الأدب٦١١٠، الأحكام٧١٥٩).

الشرح

قوله: (لاَ أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلاَةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلاَنٌ)، فكان يتأخَّرُ عن صلاة الجماعة -أحيانًا- فلا يُدركها؛ لعلمه بإطالة معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في الصلاة، ويخشىٰ إن صلَّىٰ معه من أول الوقت؛ فسُدَ نخله؛ يوضِّحُ هذا المعنىٰ روايةٌ أخرىٰ؛ وهي: "قال رجل: يا رسول الله، إنِّي لأتأخَّر عن الصلاة في الفجر؛ ممَّا يُطيل بنا فلان فيها". سيأتي برقم: (٧٠٤)؛ فالروايات يفسِّر بعضها بعضًا.

وفي رواية أخرىٰ: عن **جابر بن عبدالله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أمَّ معاذ قومًا في صلاة المغرب، فمرَّ به غلام من الأنصار -وهو يعمل علىٰ بعير له-؛ فأطال بهم معاذ، فلمَّا رأىٰ ذلك الغلام؛ تركَ الصلاة وانطلق في طلبِ بعيره، فرفع ذلك إلىٰ النبي ﷺ؛ فقال: «**أَفَتَانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟! أَلَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ فِي الْمَغرِبِ بـ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾، و ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾؟!**»(٧٣٠).

وقوله: (فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ)، فيه أنَّ العالم له أن يتعامل مع طلابه بما يراه مناسبًا لهم بحسب الحال؛ وهذا لا يعارضُ النهيَ عن الغضبِ؛ وورد غضبه في غير ما حديث.

وكان للسلف مواقف في مثل هذا؛ فمن ذلك: ما وردَ عن ابن بريدة، قال: "رأىٰ **عبدالله بن المغفل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- رجلًا من أصحابه يخْذِفُ. فقال له: لا تخذف؛ فإنَّ رسول الله ﷺ كان يكره -أو قال- ينهىٰ عن الخذف؛ فإنَّه لا يُصطادُ به الصَّيدُ، ولا يُنكَأُ به العدوُّ؛ ولكنَّه يَكسِرُ السِّنَّ ويفقأُ العينَ. ثمَّ رآه بعد ذلك يخذِفُ؛ فقال له: أُخبرك أنَّ رسول الله ﷺ كان يكره، أو: ينهىٰ عن الخذف؛ ثمَّ أراك تخذف! لا أكلِّمُك كلمةً. كذا وكذا". **متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.**

ومن ذلك: أنَّ **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سُئِلَ: هل علىٰ النساء أذان؟ فغضب؛ وقال: "أنا أنهىٰ عن

---

(٧٢٩) وأخرجه مسلم (٤٦٦)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٩١)، وابن ماجه (٩٨٤).

(٧٣٠) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٢٩٢ ط: الشثري)، (٣٦٤٣) -واللفظ له-، وهو في صحيح سنن النسائي (١/ ٢١٣، (٩٤١).

ذكرِ الله!"[٧٣١]. **صحيح**، وغضب علىٰ ولده وسبَّه سبًّا سيئًا حين عارض الحديث بقوله: والله لنمنعهنَّ.

وعن **أبي قتادة العدَويِّ** (قيل: إنَّ له صحبة. التقريب (ص ٥٨٧ ط: عادل مرشد)، (٨٣١٢)) -رحمه الله ورضي عنه-، قال: دخلنا علىٰ **عِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ** رضي الله عنه- في رهطٍ من بني عدِيٍ. فينا بُشَيرُ ابنُ كعب، فحدَّثنا عمرانُ بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ**»، أَوْ: «**إِنَّ الْحَيَاءَ خَيْرٌ كُلُّهُ**». فقال بُشَير ابن كعب: "إنَّا لنجد في بعض الكتب -أو قال: الحكمة-: أنَّ منه سَكينةً ووقارًا لله، ومنه ضعفًا"؛ فأعاد عمرانُ الحديثَ، وأعاد بشير مقالتَه؛ حتىٰ ذكرَ ذاكَ مرَّتين أو ثلاثًا؛ فغضب عمرانُ؛ حتىٰ احمرَّت عيناه، وقال: **أحدِّثك عن رسول الله ﷺ وتَعْرِضُ فيه لحديث الكُتب؟!** قال: فقلنا: يا أبا نجيد، إنَّه لا بأس به، وإنَّه منّا؛ فما زِلنا حتىٰ سَكَنَ"[٧٣٢]. **صحيح**:

وعن **قتادة** رحمه الله، قال: "حدَّث **ابن سيرين** رجلًا بحديث عن النبي ﷺ، فقال رجلٌ: قال فلانٌ: كذَا وكذَا. فقال **ابن سيرين**: "أحدِّثك عن النبي ﷺ، وتقول: قال فلانٌ وفلانٌ: كذَا وكذَا؛ لا أكلِّمك أبدًا". **حسن**: أخرجه الدارمي (١/ ١٨٤، ط: الزهراني)، (٤٤٧).

ففيه الإنكار علىٰ من ارتكب ما يُنهىٰ عنه، **وفيه** جواز الغِيبة في الفتوىٰ والقضاء. **وفيه** الغضب في الموعظة والتعليم؛ **وفيه** شفقته ﷺ علىٰ أمَّته ورحمته بهم. **وفيه** أنَّ الأعمال الجماعية إنَّما تقوم بمراعاة أضعف القوم، فمثلاً مجالس العلم؛ يكون الشرح فيها علىٰ مستوىٰ أدنىٰ متعلِّم فيها. **وفيه** أنَّ العبرة ليست بالكمِّ وإنَّما بالكيف؛ ولاسيَّما إذا فاتت مصلحة الجماعة **وفيه** أنَّه ينبغي الرِّفقُ بالناس في التعليم والعمل. **وفيه** الأمر بالتخفيف بالناس في صلاة الجماعة ولكن ضابط ذلك يرجع إلىٰ حال الناس؛ فعن **عبدالله بن عمر** رضي الله عنهما، قال: "كان رسول الله ﷺ يأمر بالتخفيف؛ ويؤمُّنا بالصّافات". صحيح النسائي (١/ ١٧٨)، (٧٩٦).

وفيه أنَّه ينبغي أن يحبِّبَ الداعيةُ الناسَ في الطاعات ولا يُبغِّضَها إليهم. **وفيه** أنَّه "كم مريد

---

(٧٣١) **حسن**: أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٩، ط: الشثري)، (٢٣٤٤)، وجوَّد شيخنا الألباني إسناده، الضعيفة (٢/ ٢٧١، تحت ح ٨٧٩)..

(٧٣٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٣/ ٢٠٣، ط: الرسالة)، (١٩٩٩٩) -واللفظ له-، ومسلم (٣٧/ ٦٠) -بنحوه مختصرًا-.

للخير لن يصيبه". وفيه تنوُّع طُرق الإنكار والتعليم. وفيه دليلٌ علىٰ فقه الرجل، والحثّ علىٰ أن يكون عالمًا بما يأمر وبما ينهىٰ، ومستعملًا الرِّفق، وفقه الدعوة، والطريقة النافعة، والموعظة الحسنة، والحكمة؛ ولو بالإغلاظ -أحيانًا-، والتربية والتعليم؛ مع التأديب والتهذيب، والزجر ونحوه.

٩١- حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ (يلقب بالمسنَدي)، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالمَلِكِ بْنُ عَمْرٍو العَقَدِيُّ (القيسي، أبوعامر)، قَالَ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلاَلٍ المَدِينِيُّ، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عبدالرَّحْمَنِ، عَنْ يَزِيدَ مَوْلَىٰ المُنْبَعِثِ، **عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **سَأَلَهُ رَجُلٌ** (هو عُمير والد مالك) **عَنِ اللُّقَطَةِ** (الشيء الملقوط الذي يوجد ولا يعرف مالكه)، **فَقَالَ: «اعْرِفْ وِكَاءَهَا** (الخيط الذي يُربط به الوعاء) - **أَوْ قَالَ وِعَاءَهَا** (الظرف الموضوعة فيه)- **وَعِفَاصَهَا** (الوعاء، أو الجلد يكون فيه النفقة مثل ما يسمُّونه اليوم المحفظة)، **ثُمَّ عَرِّفْهَا** (نادِ عليها ببعضَ صفاتها في مجامع الناس) **سَنَةً، ثُمَّ اسْتَمْتِعْ بِهَا، فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا** (مالكها)**؛ فَأَدِّهَا إِلَيْهِ». قَالَ: فَضَالَّةُ الإِبِلِ؟ فَغَضِبَ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ** (وهي: ما ارتفع من الخَدَّين) -**أَوْ قَالَ: احْمَرَّ وَجْهُهُ**- **فَقَالَ: «وَمَا لَكَ وَلَهَا؛ مَعَهَا سِقَاؤُهَا** (جوفها الذي تشرب فيه الماء فيكفيها أيامًا) **وَحِذَاؤُهَا** (خُفُّها الذي تمشي عليه)، **تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَىٰ الشَّجَرَ؛ فَذَرْهَا** (دعها) حَتَّىٰ يَلْقَاهَا رَبُّهَا». قَالَ: فَضَالَّةُ الغَنَمِ؟ قَالَ: **«لَكَ، أَوْ لِأَخِيكَ، أَوْ لِلذِّئْبِ** (أي: إمَّا أن تأخذها أنت، أو يلتقطها غيرك، أو يأكلها الذئب؛ إن تُرِكت)»[(٧٣٣)].

أطرافه في: (المساقات٢٣٧٢، اللقطة٢٤٢٧، ٢٤٢٨، ٢٤٢٩، ٢٤٣٦، ٢٤٣٨، الطلاق٥٢٩٢، الأدب٦١١٢).

الشرح

قوله: **(اعْرِفْ وِكَاءَهَا، أَوْ قَالَ وِعَاءَهَا وَعِفَاصَهَا)**، في بعض الروايات عند البخاري في كتاب اللقطة دون شكٍّ: «**احْفَظْ وِعَاءَهَا وَعَدَدَهَا وَوِكَاءَهَا**». سيأتي برقم (٢٤٢٦)، وفي

---

(٧٣٣) وأخرجه مسلم (١٧٢٢)، وأبوداود (١٧٠٤)، والترمذي (١٣٧٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٠٣)، وابن ماجه (٢٥٠٤).

لفظ -أيضًا- بدون: (وِعَاءَهَا). سيأتي برقم (٢٣٧٢).

قوله: (فَغَضِبَ حَتَّىٰ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ ...)، هذا هو الشاهد من هذا الحديث؛ فهو مطابق للترجمة.

ويأتي الكلام عن اللقطة في بابها -إن شاء الله-، برقم (٢٤٣٦).

وفي هذا الحديث سؤالُ أهل العلمِ عمَّا يجهله المرء. **وفيه** أنَّ علىٰ العالم ليس تبليغ العلم فحسب، بل أن يكون مربِّيًا ومنبِّهًا علىٰ أمور العلم وفقهه، **وفيه** الغضبُ في التعليم. **وفيه** التعنِيفُ لمن لم يفهم من الطلاَّبِ؛ فقاس غير المتماثلات بعضها علىٰ بعض. **وفيه** أنَّه ينبغي ملاحظة الفروق في القياس والعلَّة. **وفيه** التعرُّفُ علىٰ صِفة اللُّقطة. **وفيه** أنَّ اللقطة لا تحلُّ إلاَّ بعد تعريفها سنة علىٰ الأقل. **وفيه** أنَّ صاحب اللُّقَطة أولىٰ بها؛ فلو جاء بعد سنة؛ رُدَّت إليه. **وفيه** أنَّ الأصل في المال الحِرمَةُ. **وفيه** الحفاظ علىٰ الأموال من الضَّياع؛ ولو لم يكن مالكًا لها.

٩٢- حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ العَلاَءِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أبوأُسَامَةَ، عَنْ بُرَيْدٍ، عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، **عَنْ أَبِي مُوسَىٰ** (الأشعري) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا، فَلَمَّا أُكْثِرَ عَلَيْهِ؛ غَضِبَ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «**سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ**». قَالَ رَجُلٌ (هو عبدالله بن حذافة السَّهمي): مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «**أَبُوكَ حُذَافَةُ**». فَقَامَ آخَرُ (هو سعد)، فَقَالَ: مَنْ أَبِي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَبُوكَ سَالِمٌ مَوْلَىٰ شَيْبَةَ**». فَلَمَّا رَأَىٰ عُمَرُ مَا فِي وَجْهِهِ (من أثر الغضب؛ كما في رواية)؛ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا نَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- (ممَّا حصل منا وأغضبك)[٧٣٤].

طرفه في: (الاعتصام٧٢٩١).

الشرح

قوله: (سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَشْيَاءَ كَرِهَهَا، فَلَمَّا أُكْثِرَ عَلَيْهِ؛ غَضِبَ)، كرِه السؤال عنها؛ لِما قد يكون في الجواب عنها ما يسوء السائل، أو يكون السؤال سببًا في تحريمٍ أو

---

(٧٣٤) وأخرجه مسلم (٢٣٦٠).

وجوبٍ أو زيادةِ تكليف؛ مما لا ضرورة فيه ولا حاجة إليه؛ وفي الحديث: «**وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**». متفق عليه.

وَاحْتَجُّوا بِمَا وَرَدَ عَنْ عَامِرِ بْنِ **سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ** رضي الله عنه-، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَاهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ؛ فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ**». أخرجه مسلم (٢٣٥٨) بنحوه". جامع بيان العلم (٢٠٤٧)، باختصار.

وقد كره النبي ﷺ المسائل وعابها.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ: فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ؛ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ؛ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**». متفق عليه؛ فغضِب؛ لما في كثرة السؤال من مفاسد.

وعن **سهل بن أبي أمامة** رضي الله عنه-: أنّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ؛ فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ**». حسن: أخرجه أبوداود (٤٩٠٤)، صحيح المرفوع فقط، ينظر: الصحيحة (٣١٢٤).

وهذا ما كان عليه الصحابة من قِلَّة السؤال إلاَّ من حاجة؛ لا سيما من كان منهم مقيماً بالمدينة، ففيهم نزل قوله تعالىٰ: ﴿**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠١]، أما من جاء طالباً للعلم وليس للهجرة والإقامة، فإنَّه يحلُّ له السؤال، فعن **النوَّاس بن سَمعانَ** رضي الله عنه، قال: "أقَمتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة؛ إلا المسألة. كان أحدنا إذا هاجر؛ لم يسأل رسولَ الله ﷺ عن شيءٍ". أخرجه مسلم ١٥ - (٢٥٥٣)؛ يعني: كان يحِلُّ له السؤال؛ إذا جاء طالبًا للعلم، فإن جاء مهاجرًا واستقرَّ؛ لم يحلّ له السؤال.

وأمَّا التعنت في الأسئلة والتكلُّف فليس من هدي السلف، قال **القاسم** رحمه الله: " إنَّكم لتسألونا عن أشياء ما كنّا نسأل عنها، وتُنقّرون عن أشياء ما كنا نُنقّر عنها، وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي، ولو علمناها؛ ما حَلَّ لنا أن نكتُمَكُموها" صحيح: أخرجه الدارمي (١٢٠).

وكثرة السؤال من التكلّف المذموم؛ أو يجرُّ إليه، قال **النووي** رحمه الله: "وأمَّا كثرة السؤال؛ المراد به: والإكثار من السؤال عمَّا لم يقع ولا تدعو إليه حاجة؛ وقد تظاهرت الأحاديث

الصحيحة بالنهي عن ذلك، وكان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلُّف المنهي عنه؛ وفي الصحيح: «**فَكَرِهَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَسَائِلَ وَعَابَهَا**». سيأتي برقم (٥٢٥٩)". شرح مسلم (١٢/ ١١).

وقال شيخ الإسلام **الهرَويُّ الأنصاريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "عن **البراء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **أمَّا بعد**: فإنَّ هذه الأمَّة لم يؤتوا في دينها من شيء ما أوتوا فيه من قبل التكلُّف والجِدال: وهما داء الأمم السالفة، ولم يأتيا امرأ بخير قط ... وإنَّ الله -عزَّ وجلَّ- لم يقبض إليه رسوله ﷺ؛ حتىٰ خار له وأغنىٰ به وأكمل له الدِّين وأتمَّ به النعمة؛ فترك الأمة علىٰ واضحةٍ ليلُها كنهارها؛ وما من طائر يطير بجناحيه إلا وعندها فيه من نبيِّها علمٌ؛ إلا أن يَضِلَّ **عبدٌ عَمْدَ عَيْنٍ**؛ فكان من أواخر ما أنزل علىٰ نبيه ﷺ ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة: ٣] الآية"(٧٣٥). ذم الكلام (٧/ ١-٨) -مختصرًا-.

ومن التكلُّف أيضاً الاهتمام بالحدود والتعريفات، والاختلاف في ذلك، وضياع العمر فيه، قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وصاروا يعظِّمون أمر الحدود ويدَّعون أنَّهم هم المحقِّقون لذلك،... ويسلكون الطرق الصعبة الطويلة، والعبارات المتكلَّفة الهائلة، وليس لذلك فائدة إلا تضييع الزمان، وإتعاب الأذهان، وكثرة الهذَيان، ودعوىٰ التحقيق بالكذب والبهتان، وشغل النفوس بما لا ينفعها، بل قد يضلُّها عمَّا لابد لها منه ... وهذا من توابع الكلام الذي كان السلف ينهون عنه". الردُّ علىٰ المنطقيين (ص ٣١) -باختصار-.

ومن ذلك أيضاً كثرة التفريعات والبحث عن الأحكام لمسائل يفترضها الناس، وقد لا تقع إلا نادراً، أو لا تقع ألبتَّة، قال **ابن عبد البر** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي سماع أشهب: سئل **مالك** عن قول رسول الله ﷺ: «**أَنْهَاكُمْ عَنْ قِيلَ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ**» فقال: "أمَّا كثرة السؤال فلا أدري أهو ما أنتم فيه ممَّا أنهاكم عنه من كثرة المسائل؟ فقد كره رسول الله ﷺ المسائل وعابها وقال الله -عز وجل-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠١]؛ فلا أدري! أهو هذا أم السؤال في مسألة الناس في الاستعطاء؟" جامع بيان العلم (٢/ ١٠٥٩).

قوله: (فَلَمَّا أُكْثِرَ عَلَيْهِ غَضِبَ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ)، فلما رأىٰ عمر غضب رسول الله ﷺ خشي أن تنزل العقوبة بسبب التعنُّت والشكِّ في الأسئلة، فقال: "إِنَّا نَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ": أي ممَّا يوجب غضبك، فجثا علىٰ ركبتيه، كما سيأتي في الباب الآتي، ويأتي في كتاب الفتن

---

(٧٣٥) قال **الهروي**: ورواه إسحاق بن بشر عن عبد الكريم عن أبي إسحاق عن **البراء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

برقم (٦٨٣٢). وهنا تظهر مطابقة الحديث للترجمة.

وفي الحديث النهي عن كثرة السؤال؛ ومن ذلك تشقيق المسائل الافتراضية، فلا يسأل عن شيء حتىٰ يقع. **وفيه** أنَّ من فوائد ترك كثرة السؤال ألا يشتغل الناس بالمسائل والتكثر بها؛ فيترك العمل، فيكون السؤال هو الغاية بعد أن كان وسيلة، **وفيه** ألا يضيِّق الناس علىٰ أنفسهم، كما فعلت بنو إسرائيل، شدَّدوا علىٰ أنفسهم فشدَّد الله عليهم. **وفيه** جواز أن يطلب الشيخ من طلابه أن يسألوه إذا كانت ثمَّة مصلحة، وكان علي يكثر أن يقول: سلوني، ولكن يسأل الناس تفقُّهًا لا تعنُّتًا. **وفيه** عدم الإكثار علىٰ العالم، لا سيَّما إذا علم عنه كراهة ذلك، **وفيه** جواز الغضب من العالم أحيانًا للتعليم؛ لأنَّه غضب لله، ولا ينافي هذا أنَّ الأصل هو الحلم، واللين في الدعوة، **وفيه** أنَّ الغضب لا يتنافىٰ مع دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأنَّ الحكمة وضع الشيء في موضعه، والغضب هنا هو الحكمة، **وفيه** الردُّ علىٰ جماعة التبليغ، الذين يزعمون أنَّ الدعوة تكون بالإكرام والإحسان فقط، **وفيه** التنويع في طرق التعليم، لأنَّ المقصد هو تربية الناس مع التعليم.

وفيه أنَّه ينبغي علىٰ المتعلِّم أن يكون علىٰ قدرٍ من النباهة والفراسة، بحيث يعلم ما يحبُّه العالم وما يكرهه، وهذه فضيلة لعمر كما جاء في -صحيح مسلم (١١٦٢)- عَنْ **أَبِي قَتَادَةَ**: رَجُلٌ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: كَيْفَ تَصُومُ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَأَىٰ عُمَرُ رضي الله عنه -، غَضَبَهُ، قَالَ: "رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَجَعَلَ عُمَرُ رضي الله عنه يُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ حَتَّىٰ سَكَنَ غَضَبُهُ ...".

وفيه احترام الصحابة للنبي ﷺ وتعظيمهم له. **وفيه** أنَّه ينبغي أن يبادر المسلم بالتوبة والاستغفار.

ويأتي مزيد كلام عن حديث الباب في كتاب الاعتصام[٧٣٦] -إن شاء الله-.

---

(٧٣٦) باب ما يكره من كثرة السؤال، باب رقم (٣)، حديث رقم (٧٢٩١).

٢٩- بَابُ مَنْ بَرَكَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ عِنْدَ الإِمَامِ أَوِ المُحَدِّثِ

قوله: (بَابُ مَنْ بَرَكَ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ عِنْدَ الإِمَامِ أَوِ المُحَدِّثِ)، هذا بابٌ في صفة طالب العلم التي ينبغي أن يتحلَّىٰ بها؛ وهي: الجُثُوُّ علىٰ الرُّكب عند العالم، ومن يأخذ عنه العلمَ؛ مع التواضع.

وقوله: "بَابُ مَنْ بَرَكَ"، يقال: بركَ البعيرُ؛ إذا استناخ.

وقوله: "عِنْدَ الإِمَامِ أَوِ المُحَدِّثِ"، كأنه تنبيه من البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ أنَّ من يُؤخذ عنه العلم؛ إنما هم أهل الحديث.

٩٣- حَدَّثَنَا أبواليَمَانِ (الحكم بن نافع البهراني)، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ (ابن أبي حمزة دينار)، عَنِ الزُّهْرِيِّ (محمد بن مسلم ابن شهاب)، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ، فَقَامَ عَبْدُاللهِ بْنُ حُذَافَةَ؛ فَقَالَ: مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ حُذَافَةُ». ثُمَّ أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ: «سَلُونِي». فَبَرَكَ (فجلس جاثيًا) عُمَرُ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ؛ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا؛ فَسَكَتَ (يعني: نبيَّ الله ﷺ). (٧٣٧)

أطرافه في: (مواقيت الصلاة٥٤٠، الأذان٧٤٩، التفسير٤٦٢١، الدعوات٦٣٦٢، الرقاق٦٤٦٨، ٦٤٨٦، الفتن٧٠٨٩، ٧٠٩٠، ٧٠٩١، الاعتصام٧٢٩٤، ٧٢٩٥).

الشرح

قوله: (عَبْدُاللهِ بْنُ حُذَافَةَ؛ فَقَالَ: مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: «أَبُوكَ حُذَافَةُ»): سبب سؤاله عن ذلك أنَّه كان بعضهم يشكِّك في نسبه، بسبب الاختلاف في اللون بينه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبين أبيه، فأراد أن يتأكَّد من صحَّة نسبه إليه، وأخطأ في سؤاله هذا بلا شكٍّ؛ إذ الأصل صحة النسب، واختلاف اللون ليس دليلا علىٰ اختلاف النسب؛ لأنَّه لعله نزعه عرق، ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لكان الواجب عليه أن يستر علىٰ أمه لذلك وردت رواية في مسلم (٢٣٥٩) أنَّ أمه قالت له: "ما رأيت

---

(٧٣٧) وأخرجه مسلم (٢٣٥٩)، والنسائي في الكبرىٰ (١١١٥٤) [في النسخة المتداولة: (١١٠٨٩)].

ولدًا أعقَّ منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفَتْ ما قارفَ أهلُ الجاهلية فتفضحها علىٰ رؤوس الناس! فقال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقتُه".

وفيه ذمُّ المسائل التي تبعث علىٰ الشكِّ أو التعنُّتِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

قوله: (ثُمَّ أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ: «سَلُونِي»): فيه جواز أن يقول العالم: سلوني، عند الحاجة، وفيه غضب العالم أحيانـًا.

وقوله: (فَبَرَكَ عُمَرُ عَلَىٰ رُكْبَتَيْهِ)، هو الشاهد من هذا الحديث؛ قال **ابن الملقِّن** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبَرْكُ **عمرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- علىٰ ركبتيه؛ أدبٌ منه وإكرامٌ للنبي ﷺ، وشفقةٌ عَلَىٰ المسلمين؛ لئلاَّ يؤذي أحدٌ النبيَّ ﷺ فيهلكَ. وقد ظهر أثر ذلك بسكوته ﷺ إذ ذاك...". التوضيح (٣/ ٤٦٥، ط: دار الفلاح)، -بتصرف-، ويروىٰ في بعض الألفاظ: "فسكنَ غضبُه". أخرجها الطبري في تفسيره (١٢٨٠٢)، ومثل هذا: ما ورد عن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: "كنت جالسًا عند النبي ﷺ، إذ أقبل أبوبكر آخذًا بطرف ثوبه، حتىٰ أبدىٰ عن ركبته، فقال النبي ﷺ: «**أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ**»، فسلَّم وقال: إنِّي كان بيني وبين ابن الخطاب شيءٌ، فأسرعتُ إليه ثمَّ ندمتُ، فسألتُه أن يغفر لي؛ فأبىٰ عليَّ، فأقبلت إليك؛ فقال: «**يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ**». -ثلاثًا-، ثمَّ إنَّ عمر ندم فأتىٰ منزل أبي بكر، فسأل: أثمَّ أبوبكر؟ فقالوا: لا، فأتىٰ إلىٰ النبي ﷺ فسلَّم؛ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعَّرُ، حتىٰ أشفق أبوبكر، **فجثا علىٰ ركبتيه**؛ فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلمَ -مرتين-؛ فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُوبَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ؛ فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**» -مرتين-؛ فما أوذِيَ بعدها". سيأتي برقم (٣٦٦١). **فيه** البروك علىٰ الرُّكَب لتسكين غضب العلماء ونحوهم.

قلت: لكن في القصتين البروك علىٰ الركب أمام رسول الله ﷺ لأجل استرضائه واسترحامه.

أمَّا حديثُ جبريلَ الطويلُ: "فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ" أخرجه مسلم (٨)؛ فيه تعليم جبريل عليه السلام ما الذي ينبغي أن يكون عليه طالب العلم مع شيخه من الإجلال له وللعلم الذي يحمله.

وفي **حديث الباب** بيان هيئة الطالب مع شيخه. **وفيه** أدب الطالب وتواضعه للعلم والعلماء. **وفيه** الحرص علىٰ عدم إغضاب الشيخ. **وفيه** الحرص علىٰ إزالة الغضب عن الشيخ. **وفيه** تسكين غضب الأكابر كأهل العلم والوالدين، والولاة. **وفيه** وجوب الرضا بالله ربًّا، والإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. **وفيه** فضيلة ظاهرة لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

٣٠- بَابُ مَنْ أَعَادَ الحَدِيثَ ثَلاَثًا؛ لِيُفْهَمَ عَنْهُ

فَقَالَ: «**أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ**» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَلْ بَلَّغْتُ؟**» -ثَلاَثًا-.

قوله: (**بَابُ مَنْ أَعَادَ الحَدِيثَ ثَلاَثًا؛ لِيُفْهَمَ عَنْهُ**)، هذه الترجمة تتعلَّق بشأن التعليم وكيفيته، وأنَّه يُعيد الكلام ثلاث مرات؛ لأجل أن يُفهم عنه.

قال **الخطابي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا إعادته الكلام ثلاثـًا؛ فإنَّما كان يفعله لأحد معنيين: **أحدهما**: أن يكون بحضرته من يقصُر فهمُه عن وعْيِ ما يقوله؛ فيكرِّرَ القولَ؛ ليقعَ به الفهمُ؛ إذ هو مأمورٌ بالبيان والتبليغ، وإمَّا: أن يكون القولُ الذي يتكلَّم به نوعًا من الكلام الذي يدخله الإشكالُ والاحتمالُ؛ فيظاهرُ بالبيان؛ لتزول الشبهة فيه، ويرتفع الإشكال معه". أعلام الحديث (١/ ٢٠٧، ط: جامعة أم القرىٰ).

وقال **أبو الزناد القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّما كان يكرِّر الكلام ثلاثًا، والسلام ثلاثًا؛ إذا خشي ألَّا يفهم عنه، أو لا يسمع سلامه، أو إذا أراد الإبلاغ في التعليم، أو الزجر في الموعظة". شرح ابن بطال (١/ ١٧٢-١٧٣)؛ لذلك قال في الحديث الآخر: «**أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ**». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا -سبق تخريجه -آنفًا-؛ فيمكن أن يزيد عن الثلاث للزجر.

قلت: ومن فوائد التَّكرار -أيضًا-: أنَّه يكون أقطعَ للعذرِ، وأيسر للحفظ وأضبط؛ لذلك قال ﷺ: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»... «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ** -ثلاثًا-». سيأتي برقم (٤٤٠٣)؛ وكذا في السلام ثلاثًا، والاستئذان ثلاثًا. وسيأتي ما يتعلَّق بالسلام في موضعه في كتاب الاستئذان[٧٣٨] -إن شاء الله تعالىٰ-. **ففيه** أنّ الثلاث غاية ما يقع به البيان والإعذار.

---

(٧٣٨) باب رقم (١٣)، حديث رقم (٦٢٤٤).

وقد يكرِّر ﷺ لأسباب أخرىٰ: مثل: التكرار في الدعاء -ثلاثًا-؛ للإلحاح علىٰ الله -تعالىٰ- فيه.

وكان ﷺ لا يُراجَعُ بعد ثلاثٍ -أيضًا-: وهذا أدبٌ غابَ عن كثير من الناس؛ فالمرأة -مثلًا- إن أرادت شيئًا من زوجها، والولد إذا أراد شيئًا من والده؛ فلا ينبغي أن يُلِحَّ أكثر من ثلاث؛ وهذا معنىٰ قول بعض الصحابة: "كان لا يراجعُ بعد ثلاثٍ"- عليه الصلاة والسلام-. الصحيحة (٢١٠٨). وقد تكرَّر هذا منه مرارًا في مواطن كثيرة، وفي مناسبات عدَّة.

قوله: (فَقَالَ: «أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ ...)، أي: الكذب والميل عن الحقِّ. وهذا التعليق وصله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب استتابة المرتدين(٧٣٩)، وأوله: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر** ...» ثلاثًا. فذكر الحديث.

والظاهر أنَّه كرر ذلك أكثر من ثلاث، عند الموعظة ونحوها.

وقوله: (وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ بَلَّغْتُ؟)، هذا التعليق وصله المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الحدود(٧٤٠)، وإنَّما أورده هنا؛ لكونه قال لهم: «**هل بلغت؟**»، ثلاثًا.

قال **أبو العباس القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: ما أُمِر بتبليغه من الإنذار والتحذير والتنزيل". المفهم (٢/ ٥٥٧)؛ بتصرف يسير. **فيه** وجوب تبليغ دين الله -تعالىٰ-؛ حتىٰ يشهد الناس أنَّك قد بلَّغتهم.

٩٤- حدثنا عبدة (ابن الصفار)، قال: حدثنا عبدُالصمد، قال: حدثنا عبدالله بن المثنىٰ، قال: حدثنا ثمامة بن عبدالله، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ: «إِذَا سَلَّمَ؛ سَلَّمَ ثَلاَثًا، وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ؛ أَعَادَهَا ثَلاَثًا»(٧٤١).

طرفاه في: (العلم٩٥، الاستئذان٦٢٤٤).

---

(٧٣٩) باب رقم (١)، حديث رقم (٦٩١٩).

(٧٤٠) باب رقم (٩)، حديث رقم (٦٧٨٥).

(٧٤١) وأخرجه الترمذي (٢٧٢٣، ٣٦٤٠).

الشرح

قوله: (إِذَا سَلَّمَ؛ سَلَّمَ ثَلاثًا): لأجل أن يقطع العذر عن نفسه وعن غيره، بحيث لا يدع مجالاً لأحد أن يقول: لم أسمع السلام، وقال لابن عثيمين شرح رياض الصالحين (٤/٦٨): "والمراد أنَّه لم يسمع المسلم عليه سلَّم ثلاثا، فإنَّه يسلم أول مرَّة، فإذا لم يجب سلَّم ثانية، فإذا لم يجب سلَّم الثالثة، فإذا لم يجب تركه، أمَّا إذا ردَّ المسلَّم عليه من أول مرَّة؛ فإنَّه لا يعيد السلام مرَّة ثانية".

ويحتمل أنَّ المراد السلام في الاستئذان؛ لحديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله تعالىٰ عنه أنَّه أتىٰ إلىٰ أمير المؤمنين عمر يستأذن عليه، فقال: السلام عليكم، فلم يأذن له، ثمَّ قال: السلام عليكم، أنا عبدالله ابن قيس، فلم يأذن، ثمَّ قال: السلام عليكم، فلمَّا لم يؤذن له في الثالثة انصرف، فأرسل أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالىٰ عنه في أثره من يطلبه، فأتي به، فقال له: ما منعك أن تثبت، قال: إنِّي سمعت النبي ﷺ يقول: (**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع**). متفق عليه.

فالاستئذان أيضـًا ثلاثـًا، وممَّا يدل علىٰ ذلك أيضًا: ما ورد أن النبي ﷺ أتىٰ إلىٰ بيت سعد بن عبادة رضي الله عنه، فسلَّم النبي ﷺ: **السلام عليكم ورحمة الله**، فردَّ سعد بن عبادة سرًّا ولم يسمع النبي ﷺ، فأعادها النبي مرَّة ثانية، فردَّ سعد سرًّا، فأعادها النبي ثالثة، فردَّها سعدٌ سرًّا، وبنوه بجواره يقولون له: ائذن للنبي ﷺ، فيقول: "دعوه حتىٰ يكثر علينا من السلام"، فانصرف النبي ﷺ لـمَّا لم يؤذن له بعد الثالثة، فتبعه سعدٌ، وقال: والله يا رسول الله! ما من مرَّةٍ سلَّمت فيها عليّ إلا رددت عليك السلام، ولكنِّي لم أُسْمِعك حتىٰ تكثر علينا من السلام. **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٨٥) وضعفه الألباني والأرنؤوط

وقد ترجم البخاري، "باب التسليم والاستئذان ثلاثـًا".

قال في تحفة الأحوذي: "قال الحافظ **ابن القيم** في زاد المعاد: "كان من هديه ﷺ أن يسلِّم ثلاثا، وكان إذا أتىٰ علىٰ قوم فسلَّم عليهم سلَّم ثلاثـًا حتىٰ يفهم.

ولعل هذا كان هديه في السلام علىٰ الجمع الكثير الذين لا يبلغهم سلام واحد، أو هديه

في إسماع السلام الثاني والثالث إن ظن أنَّ الأول لم يحصل به الإسماع كما سلَّم لـمَّا انتهىٰ إلىٰ منزل سعد بن عبادة ثلاثـًا فلما لم يجبه أحد رجع **وإلا فلو كان هديه الدائم التسليم ثلاثا لكان أصحابه يسلِّمون عليه كذلك، وكان يسلِّم علىٰ كلِّ من لقيه ثلاثا، وإذا دخل بيته ثلاثا، ومن تأمَّل هديه علم أنَّ الأمر ليس كذلك** وأنَّ تكرار السلام منه كان أمرا عارضا في بعض الأحيان، انتهىٰ".

تحفة الأحوذي (٧/ ٤٢٢).

قوله: (وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ؛ أَعَادَهَا ثَلاَثًا):

في هذا الحديث أنَّ التَّكرار يُفيدُ من جهة العلم، ومن جهة الفهم؛ فكلُّ ما تكرَّرَ؛ تقرَّرَ.

ويأتي الكلام عليه في الحديث الذي بعده -إن شاء الله تعالىٰ-.

وعند أبي داود: عن عائشة قالت: **" كان كلام رسول الله فصلاً يفهمه كلُّ من سمعه".**

وفي رواية قالت: **"لم يكن يَسْرُد الحديث كسردكم". متفق عليه.**

وفي رواية الترمذي: "قالت: ما كان رسولُ الله ﷺ يسرد كسَرْدِكم هذا. ولكنه كان يتكلَّم بكلام يُبَيِّنه، فَصْل، يحفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إليه".

٩٥ - حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ عَبْدِاللهِ الصَّفَّارُ، حَدَّثَنَا عَبْدُالصَّمَدِ (ابن عبدالوارث بن سعيد العنبري مولاهم)، قَالَ: حَدَّثَنَا عبداللهِ بْنُ الْمُثَنَّىٰ (ابن عبدالله بن أنس بن مالك الأنصاري)، قَالَ: حَدَّثَنَا ثُمَامَةُ بْنُ عَبْدِاللهِ (ابن أنس ابن مالك الأنصاري)، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: "أَنَّهُ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا؛ حَتَّىٰ تُفْهَمَ عَنْهُ (تعقل عنه)، وَإِذَا أَتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؛ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلاَثًا".

تقدَّم في: (العلم ٩٤).

الشرح

قوله: (إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلاَثًا؛ حَتَّىٰ تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ؛ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلاَثًا)، فإنَّ من الهدي النبوي في الكلام: أن يعاد ثلاثًا؛ حتىٰ يُفهم عنه؛ كما قال **أنس** رضي الله عنه -: "حَتَّىٰ تُفْهَمَ عَنْهُ"، وفي رواية للترمذي (٣٦٤٠): "لِتُعْقَلَ عَنْهُ"؛ فَعِلَّةُ التَّكرارِ ظاهرة: فإذا علِم العالمُ أنَّ الطالبَ قد ظهرَ له معنىٰ كلامِه وفهِمه عنه؛ ففي هذه الحالة لا

حاجة للتَّكرار؛ إلا إذا قصد به معنىٰ آخر غيرَ الفهم؛ من التحذيرِ ونحوه، والحكم يدور مع علَّته وجوداً وعدماً.

فيه أنَّه ينبغي أن يرفَعَ العُذرَ عن الناس في الإسماعِ والتبيين -بتكرار الكلام ثلاثًا-؛ ولو لم يفهم بعد ثلاثٍ. **وفيه** أنَّ للعبد أن يعاتب من لم يردّ عليه بعد ثلاث؛ لأنَّه لا عذر له بعد الثلاث.

وفيه أنَّه ينبغي التأنِّي في التعليم؛ وأنَّ المقصد هو التفهُّم والتفقُّه؛ وليس الكثرة التي لا يُعقَلُ معها العِلمُ، **وفيه** ردٌّ علىٰ من يسرد الحديث بغير فهم ولا تفهيم، وما يسمُّونه بمجالس الإقراء، وما فيها من التغني بالحديث، وهذه الهذرمة لم يكن يعرفها السلف، والحجَّة فيما فعلوا، لا فيما فعل غيرهم من الخلف.

وفيه أنَّ العالم إذا كرَّرَ المسألة؛ فلا ينبغي للطالبِ أن يسأمَ؛ وإن كان فاهمًا لها؛ لاحتمال أن يكون العالم أراد هذا؛ لمعنىٰ في نفسه؛ فإنَّ ما تكرَّر تقرَّر.

وقوله: "حَتَّىٰ تُفْهَمَ عَنْهُ"، **فيه** حرصُ العالم علىٰ تحفيظ العلم وتفهيمه للطلاب. **وفيه** أنَّ الغاية من العلم: الفهم للعمل. **وفيه** اتِّخاذ أسباب التفهيم للعلم؛ من تسهيل العبارة، وتقليلها، واختصارها؛ كما جاء عن **عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أنَّه قال يومًا -وقام رجلٌ فأكثرَ القولَ-؛ فقال عَمرٌو: لو قصدَ في قوله لكان خيرًا له، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**لَقَدْ رَأيتُ -أَوْ: أُمِرتُ- أَنْ أتجوَّزَ في القَولِ، فإنَّ الْجَوَازَ هُوَ خَيْرٌ**». **إسناده حسن**: أخرجه أبوداود (٥٠٠٨)، وهو في هداية الرواة (٤٧٣١).

فالذي ينبغي هو الترسُّل والتأني في الكلام، وإعادته، واختيار العبارات السهلة ونحو ذلك؛ لا كما يفعل بعضُ المعلِّمين من تعقيد العبارة، وتعسير العلم علىٰ الطلاب، أو الجَردِ والسَّردِ السريع في قراءة العلم، وكثرة الكلام.

وفيه التكرارُ للعلم والزجرِ في الموعظة، والترهيبِ، والتحذيرِ. **وفيه** أنَّ ذكر العددِ (ثلاثًا) لا مفهوم له؛ فيمكن أن يزيد. **وفيه** إشارة إلىٰ قلَّة الكلام؛ لأنَّه لو كان كثيرًا وأعاده ثلاثًا؛ لم يمكن هذا؛ بل إنَّه يشقُّ علىٰ المتكلِّم والسامع.

٩٦- حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ (ابن مسرهد الأسدي)، قَالَ: حَدَّثَنَا أبوعَوَانَةَ (وضَّاح بن عبدالله اليشكري)، عَنْ أَبِي

بِشْرٍ[٧٤٢] (جعفر بن إياس أو ابن أبي وحشية اليشكري)، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ (بن بهزاد الفارسي، المكي)، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما- قَالَ: تَخَلَّفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَفَرٍ سَافَرْنَاهُ، فَأَدْرَكَنَا وَقَدْ أَرْهَقَتْنَا الصَّلاَةَ (أي: أخَّرنا الصلاة)؛ صَلاَةَ العَصْرِ، وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَىٰ أَرْجُلِنَا (نغسل غسلًا خفيفًا)؛ فَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ (جمع: عقب، وهي مؤخر القدم) مِنَ النَّارِ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا.[٧٤٣]

تقدَّم في: (العلم٦٠).

الشرح

قوله: (وَيْلٌ للأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا)، سبق شرحه[٧٤٤] -ولله الحمد-.

ففيه التكرار للإفهام، ولمعنىً زائد؛ وهو: التحذير والزيادة في الترهيب والتأكيد للأهمية.

وفيه بيان المنهج النبوي في التعليم.

---

(٧٤٢) مِن أثبت الناس في سعيد بن جبير، وضعَّفه شعبة في: حبيب بن سالم وفي مجاهد.

(٧٤٣) وأخرجه مسلم (٢٤١)، وأبوداود (٩٧)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٨٥، ٥٨٨٦)، وابن ماجه (٤٥٠).

(٧٤٤) كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، باب رقم (٣)، حديث رقم (٦٠).

٣١- بَابُ تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ وَأَهْلَهُ

قوله: (تَعْلِيمِ الرَّجُلِ أَمَتَهُ وَأَهْلَهُ)، هذا باب في تعليم الرجل جاريته وأهل بيته؛ وتعليمُ الأهلِ والزوجة -هنا- قياسًا علىٰ تعليمه لأَمَتِه؛ لأنَّه إن علّم أَمَتَهُ؛ فمن باب أولىٰ أن يعلّم زوجته.

٩٧- أَخْبَرَنَا مُحَمَّدٌ -هُوَ ابْنُ سَلاَمٍ-، حَدَّثَنَا المُحَارِبِيُّ (عبدالرحمن بن محمد بن زياد)، قَالَ: حَدَّثَنَا صَالِحُ بْنُ حَيَّانَ، قَالَ: قَالَ عَامِرٌ الشَّعْبِيُّ: حَدَّثَنِي أبوبُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ (أبي موسىٰ الأشعري)، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاَثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَالعَبْدُ المَمْلُوكُ؛ إِذَا أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ [يَطَؤُهَا] (يجامعها): فَأَدَّبَهَا؛ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا؛ فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا؛ فَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ».

ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ (الشعبي): أَعْطَيْنَاكَهَا (أي: هذه الفتوىٰ، أو: هذا الحديث؛ كما في مسلم) بِغَيْرِ شَيْءٍ، قَدْ كَانَ يُرْكَبُ فِيمَا دُونَهَا (في أهون منها) إِلَىٰ المَدِينَةِ.(٧٤٥)

أطرافه في: (العتق ٢٥٤٤، ٢٥٤٧، ٢٥٥١، الجهاد٣٠١١، الأنبياء٣٤٤٦، النكاح٥٠٨٣).

الشرح

قوله: (وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا؛ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا؛ فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا)، المعنىٰ: علىٰ المسلم أن يعلِّم أهله، وأن يؤدّبهم، ويأخذهم بالعمل بهذا العلم؛ فيجمع بين العلم والتربية، وفي الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ» أخرجه مسلم (٢٦٢٩)، وعند الطبراني في الكبير (١١١٥٤٢): «فَأَنْفَقَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ أَدَبَهُنَّ»، وفي الأوسط (٤٧٦٠): «وَيُزَوِّجُهُنَّ»، وفي صحيح الأدب المفرد (٥٨): «يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ». صحَّح إسناده شيخنا في الضعيفة (١/ ٥٨٦، تحت: ح٤٠٧)، وهو في الصحيحة (١٠٢٧)، وعند الترمذي (١٩١٦): «فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ وَاتَّقَىٰ اللهَ فِيهِنَّ». حسَّنه لغيره شيخنا

---

(٧٤٥) وأخرجه مسلم (١٥٤)، وأبوداود (٢٠٥٣)، والترمذي (١١١٦)، والنسائي (٣٣٤٤، ٣٣٤٥)، وابن ماجه (١٩٥٦).

في صحيح موارد الظمآن (١٧١٦).

وفي الحديث: «**كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ**». **حسن لغيره**: أخرجه الحميدي (٦١٠)، وأصله في مسلم (٩٩٦)، وهو في صحيح أبي داود (١٤٨٥)، وصحيح الترغيب (١٩٦٥).

فيجب تعليم الأهل: من النساء والبنات وأهل بيت الرجل؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ [التحريم: ٦]، قال **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "علِّموهم، وأدّبوهم". **صحيح**: أخرجه الحاكم (٣٨٢٦) -علىٰ شرطهما- موقوفًا بلفظ: "علِّموا أنفسَكُم وأهلِيكُم الخيرَ". وينظر: صحيح الترغيب والترهيب (١١٩).

وقال **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "مُرُوا أهليكم بالذكر؛ يُنْجيكُم الله من النار". **صحيح**: تفسير الطبري (٢٣/ ٤٩١، ط: دار التربية والتراث).

وقال النبي ﷺ؛ كما في حديث **مالك بن الحويرث** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «**ارْجِعُوا إِلَىٰ أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ** ...» الحديث. **متفق عليه؛ واللَّفظُ للبخاري**.

ومن أمثلة تأديب الرجلِ لأهل بيته، وأخذِهم بالشرع؛ ما جاء عن **أبي وائل** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: غَدونا علىٰ **عبد الله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يومًا بعد ما صلّينا الغداة، فسلّمنا بالباب، فأَذِن لنا. قال: فمكثنا بالباب هُنَيَّةً. قال: فخرجت الجاريةُ، فقالت: ألا تدخلون؟!، فدخلنا. فإذا هو جالس يُسبِّح فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذِنَ لكم؟ فقلنا: لا. إلا أنَّا ظننَّا أنَّ بعض أهل البيت نائمٌ. قال: "ظننتم بآل ابنِ أمِّ عبدٍ **غَفْلَةً**؟!". أخرجه مسلم (٨٢٢).

ومن ذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾ [طه: ١٣٢]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وهذا **فيه** دليلٌ علىٰ أن بيوتهنَّ كانت لا تخلو من تلاوةِ القرآن والسنَّة، وتعليمِ القرآن والحديث، وأمرِهِ لهنَّ بصلاة اللَّيل والوِتر، وذكرِ الأوراد، وتحفيظِهن، وزجرِه للمخالفِ منهنّ.

وكثير من الناس يفهم من حقوق الأهل أنهُ النَّفقةُ والمعيشةُ الدنيوية -حصرًا-، وينسىٰ الأمر الأهمَّ؛ وهو ما ذكرناه. فينبغي للعالم وطالب العلم أن يكون معلِّمًا مؤدِّبًا مربِّيًا؛ يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، ويأخذهم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

ويأتي الكلام عن الزواج بالأَمَة في موضعه في كتاب العتق[٧٤٦] -إن شاء الله-.

وقوله: (رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ)، أي: آمن بنبيه عيسىٰ أو موسىٰ عليهما السلام إلىٰ أن بلغته دعوة نبينا ﷺ؛ فآمن به، واتَّبعه؛ فيؤجر علىٰ اتِّباعه الحقَّ مرَّتين.

وهو موافق لحديث هرقلَ -عظيم الرُّوم-: «أَسْلِمْ؛ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ؛ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ». متفق عليه؛ فلو كان أسلم؛ لآتاه الله أجره مرَّتين.

وقوله: (وَالعبدُ المَمْلُوكُ؛ إِذَا أَدَّىٰ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ)، فهو مع انشغاله بأوامر سيِّده، مقيمًا علىٰ خدمته؛ فإنَّه لم ينسَ حقَّ الله -تعالىٰ-؛ بل قام بما يجبُ عليه تُجاهَ ذلك، فيكون قد أدَّىٰ الواجبين؛ فنال -بذلك- الأجرين، وفي لفظ: «المَمْلُوكُ الَّذِي يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ، وَيُؤَدِّي إِلَىٰ سَيِّدِهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْهِ مِنَ الحَقِّ وَالنَّصِيحَةِ وَالطَّاعَةِ؛ لَهُ أَجْرَانِ» سيأتي في العتق برقم (٢٥٥١). فينبغي للمرء أن يوازن بين الحقوق، ولا يخلَّ بواجب تجاه ربه، ولا والديه ولا أولاده، ولا جيرانه، ولا رحمه ولا غير ذلك، فيعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

وأمَّا قوله: (فَلَهُ أَجْرَانِ)، علىٰ العَمَلَيْنِ، وبالنسبة للأَمَةِ فأجرٌ سابقٌ: علىٰ تعليمها وتأديبها وتغذيتها، وأجرٌ لاحقٌ: وهو العتق؛ من رفع لشأنها والزواج بها.

وفيه سَعَةُ رحمة ربِّ العالمين. **وفيه** تعليم الرجل أمته وأهله وأولاده، وتأديبهم وتربيتهم. **وفيه** أنَّ الأنبياء دينهم واحد. **وفيه** أنّ حقَّ الله مقدَّم علىٰ حقوق العباد. **وفيه** أنَّ الموالي لهم حقٌّ علىٰ مملوكيهم. **وفيه** فضل العتاق. **وفيه** إشارة إلىٰ أن المهر يكون شيئًا معنويًا. **وفيه** ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من قيامه بشئون ما ولي، وأنَّه مسؤول عن رعيته.

وقوله: (ثُمَّ قَالَ عَامِرٌ: أَعْطَيْنَاكَهَا)، **فيه** أنَّ للعالم أن يُعرِّف المتعلِّم قدر ما أفاده من العلم، وما خصَّه به؛ ليكون ذلك أدعىٰ لحفظه، وأجلب لحرصه. قاله **ابن الملقن**، التوضيح (٣/ ٤٧٥).

---

(٧٤٦) باب فضل من أدب جاريته وعلمها، باب رقم (١٤)، حديث رقم (٢٥٤٤).

٣٢- بَابُ عِظَةِ الإِمَامِ النِّسَاءَ وَتَعْلِيمِهِنَّ

قوله: (بَابُ عِظَةِ الإِمَامِ النِّسَاءَ وَتَعْلِيمِهِنَّ)، العظة هي التذكير بما يُلامسُ القلوبَ؛ من الترغيب في الطاعات، والترهيب والتنفير من المعاصي والسيِّئات.

وعقد المصنف هذه الترجمة في بيان أنَّ للإمام -أو من ينوبُ عنه- أن يخصَّ طائفة من الناس بوعظٍ ونحوه، فذكر -هنا- عظة العالم للنساء، وأن لا يُتركن دون تعليم أو تأديب أو تربية أو موعظة، أو نحو ذلك.

فقد ذكر المصنف -قبلُ- تعليمَ الأهل والأمة، وتعليمَ الأهل ما هُنَّ بحاجة إليه في النوازل، وهنا موعظةُ النساء بعامَّة، وألا يُهمَلنَ، فقيامه علىٰ تعليمِهنّ فيه إصلاح المجتمع؛ فالمرأة إن صلَحت؛ صلَح المجتمع كلُّه؛ لأنَّها مدرسةٌ إن أعددتها أعددت شعبًا طيِّبَ الأعراقِ.

٩٨- حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَيُّوبَ، قَالَ: سَمِعْتُ عَطَاءً، قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما-، قَالَ: أَشْهَدُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ -أَوْ: قَالَ عَطَاءٌ: أَشْهَدُ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ- خَرَجَ (إلىٰ صفوف النساء) وَمَعَهُ بِلاَلٌ(٧٤٧)، فَظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعْ (أي النساء)؛ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، فَجَعَلَتِ المَرْأَةُ تُلْقِي القُرْطَ (ما يُعلَّق في شحمة الأذن) وَالخَاتَمَ، وَبِلاَلٌ يَأْخُذُ (ما يتصدَّقن به) فِي طَرَفِ ثَوْبِهِ».

قَالَ أَبُو عَبْدِاللهِ: وَقَالَ: إِسْمَاعِيلُ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ عَطَاءٍ، وَقَالَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَشْهَدُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ.(٧٤٨)

أطرافه في: (الأذان٨٦٣، العيدين٩٦٢، ٩٦٤، ٩٧٥، ٩٧٧، ٩٧٩، ٩٨٩، الزكاة١٤٣١، ١٤٤٩، التفسير٤٨٩٥، النكاح٥٢٤٩، اللباس٥٨٨٠، ٥٨٨١، ٥٨٨٣، الاعتصام٧٣٢٥).

الشرح

قوله: (خَرَجَ وَمَعَهُ بِلاَلٌ): المراد أنَّه خرج من بين صفوف الرجال حتىٰ أتىٰ صفوف

---

(٧٤٧) بلال بن رباح المؤذن، وهو ابن حمامة وهي أمه، أبوعبدالله، مولىٰ أبي بكر، من السابقين الأولين، وشهد بدرًا والمشاهدَ، ت: ١٧هـ أو: بعدها؛ بالشام وله بضع وستون سنة.

(٧٤٨) وأخرجه مسلم (٨٨٤، ٨٨٥)، وأبوداود (١١٤٢، ١١٤٤)، والنسائي (١٥٨٦)، وابن ماجه (١٢٧٣).

النساء.

وهذا كان في صلاة العيد؛ كما صرَّح بذلك في حديث **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "خرجت مع النبي ﷺ يوم فطر أو أضحىٰ، فصلَّىٰ ثمَّ خطب، ثمَّ أتىٰ النساء؛ فوعظهنَّ وذكَّرهنَّ وأمرَهُنَّ بالصدقة". سيأتي برقم (٩٧٥).

قوله: (فَظَنَّ أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعْ؛ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ)، في رواية له: "فرأىٰ أنَّه لم يُسمِع النساء"؛

ووعظهُنَّ بقوله: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**». **وقَالَ**: «**تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ؛ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ، مِنْ إِحْدَاكُنَّ، يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ**». سيأتي برقم (١٤٦٢).

قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد ذكره مسلم (٨٨٥) صريحًا في حديث **جابر بن عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "ووعظ الناس، وذكَّرهم، ثمَّ مضىٰ، حتىٰ أتىٰ النساء؛ فوعظُنَّ وذكَّرهُنَّ؛ فهذا صريح في أنَّه أتاهنَّ بعد فراغ خطبة الرجال" شرح مسلم (٦/ ١٧٢).

وفي هذه الأحاديث: ... استحباب وعظِ النساء وتذكيرهنَّ الآخرةَ وأحكامَ الإسلامِ وحثِّهنَّ علىٰ الصدقة؛ وهذا إذا لم يترتَّب علىٰ ذلك مفسدةٌ وخوفٌ علىٰ الواعِظ أو الموعوظِ أو غيرهما. **وفيه** أنَّ النساء إذا حضرنَ صلاةَ الرجالِ ومَجَامِعَهم؛ يكُنَّ بمعزِل عنهم؛ خوفًا من فتنةٍ أو نظرةٍ أو فكرٍ ونحوه". شرح النووي علىٰ مسلم (٦/ ١٧٢)، بتصرف.

وفيه تعليم النساء؛ وعن **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، قال: يدخل فيه وعظُ السلطانِ النساءَ؛ يعني: يوم العيد. **حسن**: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠٩، ط: مازن بيروتي)، من رواية علي ابن أبي طلحة عنه.

فيجب الاعتناء بالنساء في التعليم؛ لأنَّهنَّ شقائق الرجال في الأحكام. بل لا ينبغي أن يستهان بتعليمهن، ووعظهنَّ، والإذن لهن في المساجد؛ قال **الشيخ جمال الدِّين القاسمي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ممَّا أدّىٰ إلىٰ تَفَشّي الجهلِ بينَهُنَّ، وانتشارِ البِدَعِ والخُرافاتِ في أوساطِهِنَّ؛ وقد كان من المخلِصينَ من يقومُ بوَعْظِهِنَّ؛ وينبغي المداومةُ علىٰ ذلك، وتعيينُ من يُوجَدُ فيه هذه الهمةُ في هذا الأمرِ...

وينبغي أن تُرشَدَ إلىٰ تركِ التعطُّرِ والتبرُّجِ لتخرجَ للتَّعلُّمِ؛ فإنَّه فرضٌ عليها، والعَجَبُ ممن يحجُبُهُن عن العلمِ ويسمحُ لهنَّ بالخروجِ للزياراتِ وغيرِها". اختصار إصلاح المساجد للطرهوني (ص ٨٣)، بتصرف.

ولا يُؤخَذُ من الحديث: جواز تصدُّق المرأة بغير إذن زوجها؛ لأنَّه حديث محتمل؛ وهناك نصٌّ صريحٌ في النهي؛ وهو قوله ﷺ لزوجة كعب رضي الله عنه-: «**فَهَلِ اسْتَأْذَنْتِ كَعْبًا؟**». **صحيح**: صحيح ابن ماجه (١٩٤٩)، وغيره؛ فاستثبَت منه النبي ﷺ؛ فلمَّا علم بإذنه قبل منها صدقتها.

وتوجيه الحديث: أنَّهنَّ أخذن من أزواجهن الإذن المطلق، أو أنَّه كان قبل النهي، أو أنَّ النبي ﷺ آمرٌ؛ فلا يُستأذنُ في أمر؛ من جهة أنَّه نبيٌّ، ومن جهة أنَّه إمامٌ.

وفيه دليلٌ للجمهور الذين أجازوا الذهب المحلَّقَ. **وفيه** أنَّ الصدقة تمحو كثيرًا من الذنوب التي تُدخِلُ النار. **وفيه** جواز قول: (أشهدُ علىٰ فلان، ونحوها)؛ دون أن يطلب ذلك منه.

٣٣- بَابُ الحِرْصِ عَلَىٰ الحَدِيثِ

قوله: **(بَابُ الحِرْصِ عَلَىٰ الحَدِيثِ)**، أي: مشروعية الحرص علىٰ تحصيل حديث النبي ﷺ، والاعتناء بالسنَّة مع الكتاب؛ إذ إنَّها شارحة له، ومقيِّدة لمطلقِه، ومفسِّرة لمجمَلِه؛ وهي التوضيح والبيانُ له.

ومن الأمثلة علىٰ حرصِ السَّلف علىٰ الحديث: أنَّ **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: "إن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتِيه وهو قائِلٌ، فأتوسَّد رِدائي علىٰ بابه، فتَسفِي الرِّيحُ علىٰ وجهِي الترابَ، فيخرج فيراني فيقول: يا ابنَ عمِّ رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا! أنا أحقُّ أن آتِيَك؛ فأسأله عن الحديثِ". **صحيح**: أخرجه الدارمي (١/ ٢١٦، ط: الزهراني)، (٥٧٩)، وابن عبد البر في الجامع (١/ ٣٦٥، ط: الزهيري)، (٥٠٧).

ومع ما يجد طالبُ العلمِ من المشاقِّ في تحصيل العلم والحرصِ علىٰ الحديث؛ إلاَّ أنَّ في ذلك حلاوةً؛ لا يشعرُ بها إلاَّ من تذوَّقها وعايَشَها؛ قال **ابن الجوزي** رحمه الله: "إنَّ العلمَ لـمَّا كان أشرفَ الأشياءِ؛ لم يحصل إلا بالتَّعب والسَّهر والتَّكرارِ، وهَجرِ اللَّذَّات والرَّاحة". صيد الخاطر (ص ٢٨١، ط: القلم)، (٨٩٣).

وقال -أيضًا-: "ولقد كنت في حلاوةِ طلبي للعلم ألقىٰ من الشدائِد ما هو عندي أحلىٰ من العسلِ؛ لأجل ما أطلب وأرجو. كنت في زمان الصِبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج إلىٰ طلب الحديث، وأقعد علىٰ نهر عيسىٰ (من أنهار بغداد)؛ فلا أقدِرُ علىٰ أكلها إلاَّ عند الماء". صيد الخاطر (ص ١١، ط: القلم).

وقال **عبد الله بن حَنَشٍ** رحمه الله: "رأيتُهم عند البَراءِ يكتبون علىٰ أَكُفِّهم بالقَصَبِ". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٥٦، ط: الشثري)، (٢٨١٣١).

وكان من شدَّةِ حرصهم علىٰ العلم والوقت: أنَّهم كانوا يَعْدُونَ في الطُّرق كالمجانين؛ قال **الإمام أحمد** رحمه الله: "إذا رأيتَ الإنسانَ يعدُو؛ فاعلم أنَّه مجنونٌ أو صاحبُ حديث". تاريخ بغداد (١٦/ ٤٧٦، ط: بشار عواد).

وقال **جعفرُ بنُ دُرُستَوَيهِ** رحمه الله: وكنَّا نأخذ المجلسَ في مجلسِ عليِّ بنِ المدِينيِّ وقت العصر اليومَ لمجلس غَدٍ، فنقعد طولَ اللَّيلِ؛ مخافةَ أن لا يلحقَ من الغدِ مَوضِعًا يسمعُ فيه.

ورأيتُ شيخًا في المجلس يبول في طَيلَسانِه ويُدرِجُ الطيلسانَ حتىٰ فرغَ؛ مخافةَ أن يُؤخَذ مكانُه؛ إن قام للبولِ". أخرجه الخطيب في الجامع (٢/ ١٣٨، ط: المعارف)، (١٤٢٦).

ومما يبيِّن حرصهم؛ قال **إسحاقُ بن أبي إسرائيلَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ازدحمَ أصحابُ الحديثِ علىٰ هُشيمٍ؛ فطرحوه عن حماره؛ فكان سببَ موته". أخرجه الخطابي في العزلة (ص ٨٧، ط: السلفية)؛ فينبغي لطالب العلم أن يحرِصَ علىٰ الحديثِ؛ جَهده وطاقَته.

وقال **شعبة بن الحجَّاج** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إني لأُذاكِر الحديث فيفُوتُنِي، فأمرَضُ". شرف أصحاب الحديث (ص ١١٥).

وإنَّ من نافلة القول أن نتكلَّم عن السنة؛ وأهميتها وفضلها وعظمتها، وعن الحديثِ؛ وما فيه من نور وهدىٰ، وعن الحرصِ عليه؛ لكن أجدني مُضطرًّا لذلك؛ لأجل من يَصُدُّ عنها؛ فأذكر -هنا- شيئًا ممَّا ورد عن السلف في ذلك؛ تتميمًا للفائدة، وليقفَ طالب العلم علىٰ بعض ما ورد من الآثار السلفية في الموضوع: فعن **عليٍّ بن أبي طالب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "تذاكَروا هذا الحديثَ وتزاوَرُوا؛ فإنَّكم إن لا تفعلوا؛ يَدْرُسُ". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٦٧، ت الشثري)، (٢٧٨١٥).

وعن **علقمة** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: "أطِيلوا ذِكرَ الحديثِ؛ حتىٰ لا يَدْرُسَ". شرف أصحاب الحديث (ص ٩٧).

وعن **النَّضرِ وموسىٰ** ابنَا أنسٍ -رحمهما الله- عن أبيهما **أنس بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أنَّه أمرهما بكتابة الحديث والآثار عن رسول الله ﷺ وتعلُّمِها، وقال **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "كنَّا لا نَعُدُّ عِلمَ من لم يكتبْ عِلمهُ عِلمًا". شرف أصحاب الحديث (ص ٩٦).

وعن **سليم بن عامر** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: كنا نجلس إلىٰ **أبي أمامة الباهليِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فيحدِّثنا حديثًا كثيرًا عن رسول الله ﷺ، فإذا سكت؛ قال: "اعقِلُوا! بَلِّغوا عنَّا؛ كما بُلِّغتُم". شرف أصحاب الحديث (ص ٩٦).

وعن **يحيىٰ بن سعيد** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: "ما أخافُ علىٰ سفيان -يعني: الثوري- شيئًا إلاَّ حُبُّه للحديثِ"؛ و"كان سفيانُ قد غلَب عليه شهوةُ الحديثِ". شرف أصحاب الحديث (ص ١٢٠).

وقال **مُطرِّفٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأنتم (يعني: أصحاب الحديث) أحبُّ إليَّ مجالسةً من أهلي".

شرف أصحاب الحديث (ص ١٠٢).

وعن **بشر بن الحارث** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "لا أعلمُ علىٰ وجه الأرض عملاً أفضلَ من طلب العلم والحديث؛ لمن اتَّقىٰ الله، وحَسُنَت نيَّتُه فيه". شرف أصحاب الحديث (ص ٨٢).

وعن **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: "لا أعلم شيئًا أفضلَ منه -يعني: الحديثَ-؛ لمن أرادَ اللهَ به". وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ الناس يحتاجون إليه في طعامهم وشرابهم". صحيح: شرف أصحاب الحديث (ص ٨١).

وقال **وكيع بن الجراح** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ما عُبِدَ اللهُ بشيء؛ أفضلَ من الحديث". شرف أصحاب الحديث (ص ٨٢). وعن الزهري نحوه (الحلية ٣/ ٣٦٥).

ويكفينا في ذلك قوله -أيضًا-: "لو أنَّ الرجلَ لم يُصِبْ في الحديثِ شيئًا إلا أنَّه يمنعه من الهوىٰ؛ كان قد أصاب فيه". شرف أصحاب الحديث (ص ٦٠).

وأنشدَ **أبو مُزاحِمٍ الخاقانيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ لنفسه-:

أهل الكلامِ وأهلُ الرأيِ قد عَدِمُوا ... عِلم الحديثِ؛ الذي ينجُو به الرَّجُلُ
لو أنهم عرفوا الآثارَ؛ ما انحرفُوا .. عنها إلىٰ غيرها؛ لكنهم جهِلوا"(٧٤٩).

٩٩- حَدَّثَنَا عَبْدُالعَزِيزِ بْنُ عَبْدِاللهِ (ابن يحيىٰ بن عمرو بن أويس بن سعد، أبوالقاسم، القرشي)، قَالَ: حَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ (ابن بلال التيمي مولاهم)، عَنْ عَمْرِو بْنِ أَبِي عَمْرٍو، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ** (علمت) **يَا أَبَاهُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ** (يعني: قبلك)؛ **لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَىٰ الحَدِيثِ؛ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ**

(٧٤٩) شرف أصحاب الحديث (ص ٦٠).

نَفْسِهِ»(٧٥٠).

طرفه في: (الرقاق٦٥٧٠).

الشرح

قوله: (قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ!)، القائل هو أبوهريرة نفسه؛ كما هو واضح من قول النبي ﷺ. ففي رواية: "عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّهُ قَالَ: **قُلْتُ**: يَا رَسُولَ اللهِ". سيأتي في الرقاق برقم (٦٥٧٠).

وقوله: (أَسْعَدُ النَّاسِ)، يدخل فيها الإنس والجن.

وقوله: (لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ؛ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَىٰ الحَدِيثِ)، هذا الحديث مع قوله: (**احرص علىٰ ما ينفعك**)، دليل علىٰ أنَّ الحرص علىٰ الحديث من أنفع الأمور للمرء، وذلك مع الاستعانة بالله تعالىٰ في ذلك، فينتفع به علماً وعملاً، قال **ابن قيم الجوزية** رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا، وكماله كلُّه في مجموع هذين الأمرين؛ أن يكون حريصًا وأن يكون حرصه علىٰ ما ينتفع به، فإن حرص علىٰ مالا ينفعه، أو فعل ما ينفعه بغير حرص فاته من الكمال بحسب ما فاته من ذلك، فالخير كلُّه في الحرص علىٰ ما ينفع، ولـمَّا كان حرص الإنسان وفعله إنَّما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجتمع له مقام إياك نعبد وإياك نستعين، فإنَّ حرصه علىٰ ما ينفعه عبادة لله ولا تتمُّ إلا بمعونته فأمره بأن يعبده وأن يستعين به". اهـ. شفاء العليل (١/ ١٩).

ثمَّ في هذا الحديث شهادة عظيمة من النبي ﷺ لأبي هريرة، بالحرص علىٰ الحديث، واتقانه، ومن حرصه أنَّه كان يُكثر من أخذه وحفظه وروايته وتبليغه؛ فعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "إنَّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يُكثر الحديثَ عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بال المهاجرينَ والأنصارِ لا يحدِّثون عن رسول الله ﷺ بمثلِ حديثِ أبي هريرة، وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان

(٧٥٠) وأخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥٨٤٢).

يَشغَلُهم صَفْقٌ بالأسواقِ، وكنتُ ألزَمُ رسولَ الله ﷺ علىٰ مِلْءِ بطني، فأَشهدُ إذا غابوا، وأحفظُ إذا نَسُوا، وكان يَشغلُ إخوتي من الأنصارِ عملُ أموالهم، وكنت امْرَأً مسكينًا من مساكينِ الصُّفَّة؛ أعِي حينَ ينسونَ؛ وقد قال رسول الله ﷺ في حديثٍ يحدِّثه: «**إِنَّهُ لَنْ يَبْسُطَ أَحَدٌ ثَوْبَهُ حَتَّىٰ أَقْضِيَ مَقَالَتِي هَذِهِ، ثُمَّ يَجْمَعُ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ؛ إِلَّا وَعَىٰ مَا أَقُولُ**». فبسطت نَمِرَةً عليَّ، حتىٰ إذا قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلىٰ صدري؛ فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء". متفق عليه.

وعنه رضي الله عنه-: "أنَّ الناس كانوا يقولون: أكثرَ أبوهريرة، وإنِّي كنت ألزمُ رسول الله ﷺ بِشِبَعِ بطني؛ حتىٰ لا آكلُ الخَمِيرَ، ولا ألبس الحَبير، ولا يخدمني فلانٌ ولا فلانة، وكنت أُلصِقُ بطني بالحَصباءِ من الجوع، وإن كنت لأستقْرِئُ الرجلَ الآيةَ، هيَ معي؛ كي ينقلبَ بي فيطعِمنَي، وكان أخْيَرَ الناسِ للمسكينِ جعفرُ بن أبي طالب: كان ينقلب بنا؛ فيطعِمُنا ما كان في بيته؛ حتىٰ إن كان ليُخرِجُ إلينا العُكَّة (ظرف من جلد) التي ليسَ فيها شيءٌ؛ فنشُقُّها فنَلعَقُ ما فيها". سيأتي برقم (٣٧٠٨).

وعنه رضي الله عنه-، قال: "ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله ﷺ منِّي[٧٥١]، إلا ما كان من عبدالله ابن عمرو، فإنَّه كان يكتب بيده، ويعيه بقلبه، وكنت أعيه بقلبي، ولا أكتب بيدي، واستأذنَ رسولَ الله ﷺ في الكتاب عنه؛ فأذِن له". **حسن**: أخرجه أحمد (١٥/ ١٢٧، ط: الرسالة)، (٩٢٣١).

ولـمَّا كان يجلس مستندًا إلىٰ حجرة **عائشة** رضي الله عنها ويقول: اسمعي يا ربَّة الحُجرة!، فيحدِّثُ بالأحاديث عندها؛ ليبيِّن لهم أنَّها إن كانت تردُّ عليه شيئًا من حديثه؛ فلا تنكرُ عليه إلاَّ أنَّه يسرُدُ الحديثَ سَردًا. متفق عليه.

وشهِد له **ابن عمر** رضي الله عنهما بالحفظ والضَّبط؛ فعنه رضي الله عنهما: أنَّه مرَّ بأبي هريرة وهو يحدِّث عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا؛ فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ شَهِدَ دَفْنَهَا؛ فَلَهُ قِيرَاطَانِ، الْقِيرَاطُ**

---

(٧٥١) نعم لم يكن أعلم بحديث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم منه، ولم يحدِّث أحد منه كتحديثه، وقد أقلُّوا الرواية عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم وذلك لأمور: **أولاً**: بركة دعاء النبي صلىٰ الله عليه وسلم له.
ثانيًا: حرص أبي هريرة علىٰ الحديث بشهادة النبي صلىٰ الله عليه وسلم، **ثالثًا**: تفرغه للتحديث، وانشغال غيره بالتجارة، أو الجهاد، أو بالولاية ونحوها، **رابعًا**: تعاهده لحفظه، **وخامسًا**: ملازمته للنبي صلىٰ الله عليه وسلم في مدخله ومخرجه.

أَعْظَمُ مِنْ أُحُدٍ»، فقال له **ابن عمر**: أبا هِرٍّ، انظر ما تحدِّث عن رسول الله ﷺ!! فقام إليه أبو هريرة، حتىٰ انطلق به إلىٰ **عائشة**، فقال لها: يا أمَّ المؤمنين! أنشدك بالله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا؛ فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ شَهِدَ دَفْنَهَا؛ فَلَهُ قِيرَاطَانِ، الْقِيرَاطُ أَعْظَمُ مِنْ أُحُدٍ**»؟ فقالت: اللهم نعم!

فقال أبو هريرة: إنَّه لم يكن يَشغلُني عن رسول الله ﷺ غرسُ الوَدِيِّ (فسيلة النخلة)، ولا صفقٌ بالأسواق، إنِّي إنَّما كنت أطلب من رسول الله ﷺ كَلمة يعلِّمُنِيها، وأُكلة يطعمُنيها؛ فقال له **ابن عمر**: أنت يا أباهريرة! **كنتَ ألزمَنا لرسول الله ﷺ، وأعلمَنا بحديثه**". صحيح علىٰ شرط مسلم: أخرجه عبد الرزاق (٦٢٧٠)، وأحمد (٤٤٥٣) -واللَّفظ له-، والترمذي.

وأخرج **أبوداود** -بإسناده عن مسدَّد-: قيل **لابن عمر** رضي الله عنهما: هل تُنكر شيئًا ممَّا يقول -يعني: أباهريرة-؟ قال: "**لا!**؛ ولكنَّه، **اجْتَرَأَ وجَبُنَّا**". إسناده صحيح علىٰ شرطهما: صحيح أبي داود (٤/ ٤٢٩، ط: غراس)، (١١٤٦). وفي لفظ: "ولكنا **نجبُن ويجترئُ**". أخرجه ابن خزيمة (١١٢٠)، الجرأة لأنَّه كان مؤقنًا من حفظه، ولأنَّه كان يخاف كتمان العلم.

وشهِد له **زيد بن ثابت** رضي الله عنه -بالحفظ؛ فعن محمد بن قيس، عن أبيه، أنَّه أخبره أنَّ رجلاً جاء **زيد بن ثابت**، فسأله عن شيء، فقال له زيد: عليك **أبا هريرة!** فإنِّي بينما أنا وأبو هريرة، وفلان في المسجد ذات يوم ندعو الله، ونذكر ربَّنا، خرج علينا رسول الله ﷺ حتىٰ جلس إلينا؛ فسكتنا؛ فقال: «**عُودُوا لِلَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ**». قال زيد: فدعوت أنا وصاحبي قبلَ أبي هريرة، وجعل رسول الله ﷺ يؤمِّن علىٰ دعائنا، ثمَّ دعا أبو هريرة، فقال: اللهمَّ إنِّي أسألك مثل ما سألك صاحبايَ هذان، وأسألك عِلمًا لا يُنسىٰ؛ فقال رسول الله ﷺ: «**آمين**»، فقلنا: يا رسول الله! ونحن نسأل الله علمًا لا يُنسىٰ؛ فقال: «**سَبَقَكُمْ بِهَا الْغُلَامُ الدَّوْسِيُّ!**». صحيح: أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٣٧٤ ط: الرسالة)، (٥٨٣٩).

ويُروَىٰ عن **عثمان** رضي الله عنه-، أنَّه قال له: "حفِظ الله عليكَ دينك؛ كما حَفظتَ علينا ديننَا". تحقيق مُنيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة (ص ١٠٣، ط: العاصمة)، (٦١).

مالك بن عامر - رحمه الله - : قال : «جاء رجل إلىٰ **طلحةَ بنِ عُبَيدالله**، فقال: يا أبا محمد، أرأيتَ هذا اليمانيَّ - يعني أبا هريرة - أهو أعلمُ بحديثِ رسولِ الله ﷺ منك؟ نَسْمَعُ منه ما لم

نسمعْ منكم، أو يقولُ علىٰ رسولِ الله ﷺ ما لم يَقُلْ؟ قال: أمَّا أن يكون سمع من رسولِ الله ﷺ ما لم نسمعْ، فذاك أنَّه كان مسكيناً لا شيء له، ضيفاً لرسول الله ﷺ يدُه مع يدِ رسولِ الله، وكُنَّا نحنُ أهلَ بيوتات وغِنىٰ، وكُنَّا نأتي رسولَ الله ﷺ طَرَفَي النهار، لا أشكُّ إلا أنَّه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمعْ، ولا نجدُ أحدا فيه خير يقول علىٰ رسول الله ﷺ ما لم يَقُلْ». صحيح: أخرجه الترمذي في مناقب أبي هريرة (صحيح الترمذي٥/ ٦٨٤).

وشهِد له **كعبُ الأحبارِ** (ثقة مخضرمٌ) رَحِمَهُ اللَّهُ بذلك؛ فقد أخرج الطيالسي، من طريق بكر بن عبدالله بن أبي رافع، عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أنَّه لقيَ كعبًا فجعلَ يحدِّثه ويسأله. فقال **كعبٌ**: "ما رأيتُ أحدًا لم يقرأِ التوراةَ أعلمَ بما فيها من أبي هريرة"[٧٥٢]. إسناده جيِّد.

وساق **الإمام البخاريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ في تاريخه بإسناده عن **محمد بن عمارة بن عمرو بن حزم**: أنَّه قعد في مجلسٍ فيه **أبوهريرة** وفيه مَشيَخةٌ من أصحاب النبي ﷺ -بضعةَ عشر رجلًا-، فجعل أبوهريرة يحدِّثُهم عن النبي ﷺ؛ فلا يعرفه بعضهم، ثمَّ يتراجعون فيه؛ فيعرفه بعضهم، ثمَّ يحدِّثهم ولا يعرفه بعضهم، ثمَّ يعرفه بعضٌ؛ حتىٰ فعل ذلك مِرارًا؛ فعرفتُ يومئذ أنَّ أباهريرة أحفظُ الناس عن النبي ﷺ". حسن: أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٨٦، ط: المعلمي)، (٥٧٤).

وقال **أبوهريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "يقول الناس: أكثر أبوهريرة! فلقيت رجلًا؛ فقلت: بما قرأ رسول الله ﷺ البارحةَ في العتمةِ؟ فقال: لا أدري! فقلت: لمْ تَشهَدْها؟! قال: بلىٰ! قلت: لكن أنا أدري، قرأ سورة كذا وكذا". سيأتي برقم (١٢٢٣).

ورُوِيَ عن **ابن أبي داودَ** رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: "كنت أجمع سندَ أبي هريرة، فرأيته في النوم -وأنا بأصبِهان-؛ فقال لي: أنا أوَّلُ صاحبٍ حدَّثتُ في الدنيا". الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٣٥٢، ط: العلمية)، (١٠٦٨٠).

---

(٧٥٢) فيه عمران القطَّان هو؛ ابن دَاوَر: صدوق يهم، خت ٤؛ مشَّىٰ حديثه أحمد وغيره. وقصة كعب وعبد الله بن سلام مع أبي هريرة، وتصديق التوراة لما في القرآن؛ أخرجها أبوداود (١٠٤٦) بإسناد صحيح. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٧/ ٣٥٨، ط: العلمية)، (١٠٦٨٠)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٦٠٠، ط: الرسالة).

وقد ولَّاه[٧٥٣] **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- البحرين مع عدم مداهنتِه، وإنَّ أباهريرة امتنع من العمل في الإمارة لـمَّا طلب منه عمر ذلك مرَّة أخرىٰ. حسن: أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٣٨٠، ٣٨١)، وابن سعد في الطّبقات (٤/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وأقرَّه **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وأذن له في التحديث؛ فقد قال **الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد جاء أنَّ **عمر** أذِن له بعد ذلك في التحديث؛ فقال مُسدَّد بسنده عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: بلغ عمر حديثي فأرسل إليَّ، فقال: كنتَ معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان؟ قال: قلت: نعم، وقد علمتَ! لم تسألني عن ذلك؟ قال: ولم سألتُك؟ قلت: إنَّ رسول الله ﷺ قال يومئذٍ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» قال: **أمَّا إذنْ؛ فاذهبْ فحدِّثْ**". صحيح: انظر: البداية والنهاية (١١/ ٣٧١ ط: التركي)، والإصابة في تمييز الصحابة (١/ ٦٩)، (٧/ ٣٥٩).

قال الحافظ **الذهبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكان حِفظُ **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الخارقُ من مُعجزاتِ النبوَّة؛ بل احتجَّ المسلمون قديمًا وحديثًا بحديثه؛ لحفظه، وجلالته، وإتقانه، وفقهه؛ وناهيك أنَّ مثلَ **ابن عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يتأدَّبُ معه، ويقول: **"أَفْتِ يا أبا هريرة!"**؛ وأين مثلُ **أبي هريرة** في حفظه، وسَعة عِلمه؟!". سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٩٤، ٦٠٩، ط: الرسالة)، بتصرف.

الحرص علىٰ كتب الحديث والسنة: فمن الحرص علىٰ الحديث: أن تحرص علىٰ كُتُبِه، وتنهل من **دواوين السنة**، وتلازمها، وتلازم مشايخ الحديث والأثر، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا.

---

(٧٥٣) وأما ما روي من قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له: "لألحقنَّك بجبالِ دَوسٍ"؛ فلم يثبت عنه. المحدث الفاصل (٥٧٥، ت: أبو زيد)، تحقيق مُنِيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة (ص ١٠٣، ط: العاصمة)، (٦١)، وقال لأبي موسىٰ: إن لم تأتني بمن شهد لك وإلا جعلتك نكالاً لأمَّة محمد!!

فليس في كلِّ هذا طعن في أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا غيره، لأنَّه ينهاه عن الإكثار من الرواية عندما لا تكون هناك حاجة إلىٰ الإكثار منها، وأبوهريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه لم ير في هذا مطعنًا، ولم يترك كلُّ هذا أثرًا في نفسه.

وقال الحافظ **العلائيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنَّما **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يُحِبُّ إقلالَ الروايةِ عن النبيِّ ﷺ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويوصي بذلك كثيرًا من الصحابة؛ أخذًا بالتوقِّي والاحتياطِ، وحذَرًا من زيادة أو نقصان يقَعانِ من الراوي -وهو لا يشعر-؛ والروايات عنه بذلك ثابتةٌ؛ فلم يكن ذلك مختصًّا **بأبي هريرة** دون غيره". مجموع رسائل للعلائي (ص ٢٩٣).

وقال **الشيخ رشيد رضا** رَحِمَهُ اللَّهُ متحدثاً عن مدرسة دار الحديث بمكة[٧٥٤]: " أمَّا علوم المدرسة فهي الحديث دراية ورواية، والتفسير وكيفية التفقُّه فيهما اقتداء بأئمَّة الهدىٰ، **ولا بدَّ من قراءة الكتب الستَّة التي هي دواوين السنة والتفقُّه في أسانيدها ومتونها وحفظ جملة صالحة منها** مع حسن استحضار كثير من مظانِّ الحديث". مجلة المنار (٣٣/ ٤٧٩).

فيجب الاهتمام بذلك لما يأتي:

أولًا: لأنَّ كتُبَ السُّنةِ هي الأصلُ في العلم، **ثانيًا**: هي البيانُ للقرآن.

ثالثًا: كونها شاملةً لجميع أبوابِ الدِّين: (من الفقه والتفسير - والعقيدة والمنهج - والزهد والرقائق - والآداب والأخلاق - والمغازي والسير - والفضائل والمناقب)، فقد اشتملت علىٰ مهمَّات العلوم، واحتوت علىٰ الأصول لجميع الفنون.

رابعًا: هي كتُبٌ مباركة عظيمة البركة؛ فمن بركتها: أنَّ الطالب ينالُ العلومَ الكثيرة في المدَّة اليسيرة؛ وهذا من بركة الحديث والسنَّة؛ قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّهم ينالون في المدَّة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال؛ أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال؛ فلا تجد

---

(٧٥٤) أسست في مكة المكرمة مدرسة لإحياء علم الحديث بهذا الاسم ، وقد جاءنا من مديرها (وهو الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح/ إمام الحرم -حينذاك-) بيان لذلك قال فيه بعد مقدمة وجيزة ما نصُّه: ولـمَّا كان المسلمون في أشدِّ الحاجة إلىٰ إحياء سنة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم؛ لأنَّ حياتهم متوقفة علىٰ ذلك ، وكانت مكة المكرمة مهبط الوحي، ومشرق نور الرسالة، وفيها قبلة المسلمين ، فكَّر جماعة من أهل الغيرة في إنشاء مدرسة بها لهذا الغرض، وقد وفقَّنا الله تعالىٰ -وله الحمد والمنة- لافتتاحها في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٢ بعد الاستئذان من أولي الأمر... -وبعد أن ذكر ما سبق عن الحديث والتفسير- قال: "واللغة العربية ألفاظًا وأسلوبًا وقواعد وآدابًا.

التعليم فيها: أمَّا التعليم فيها فمقرر مجانًا وتصرف الكتب والأدوات للطلبة بلا مقابل، وبعض الطلبة تعطىٰ لهم إعانات مالية أيضًا. ومدة الدراسة ثلاث سنين مؤقتًا، وقد تُزَاد إذا دعت المصلحة.

أمَّا **طريقة التعليم** فهي كما يأتي:

(**الأول**) إلقاء الدروس باللغة العربية الفصحىٰ وتعويد الطلبة الكلام الفصيح.

(**الثاني**) تعليم القواعد بطريقة الاستقراء والاستنتاج والإكثار من التمرينات.

(**الثالث**) إشراك الطلبة في الدرس حتىٰ لا يكون كالخطابة والمحاضرة تلقىٰ عليهم وهم سكوت، ثم ينصرفون.

(**الرابع**) تعويد الطلبة التفكير الصحيح وحرية الرأي، وتثقيف عقولهم". باختصار مجلة المنار (٣٣/ ٤٧٩).

مسألة خولفوا فيها؛ إلا وقد تبيَّن أنَّ الحقَّ معهم". مجموع الفتاوىٰ (٤/ ١٠)؛ باختصار.

خامسًا: هي كتب جامعة مانعة، نافعة غاية النفع والفائدة، مشتملِّة علىٰ أعظم فقه، فقد سَّمىٰ رسول الله ﷺ حديثه فقهـًا فقال: (**ربَّ حامل فقه ليس بفقيه**).

سادسًا: أنها كتب مختصرة في العبارة، عظيمة النفع، كثيرة المعنىٰ.

سابعًا: الاعتناءُ بها؛ اعتناءٌ بالكليات والعمومات التي يدخل تحتها الكثير من الجزئيات والفرعيات.

ثامنًا: يفيد منها الطالب الكثير من العلوم، وينتفع بكثير منها في سائر الفنون، فحينما يدرس السنَّة؛ يجد نفسه قد درس علومًا أخرىٰ كثيرة: كاللغة، والأصول، والمصطلح، وعلم الرجال والعلل، وغيرها؛ ولعلَّ هذا من بركتها -أيضًا-؛ فقد قالوا في جامع الترمذي: إنَّه اجتمع فيه ثلاثة عشر علمًا.

تاسعـًا: أنَّها تغني عن الكتب الأخرىٰ، ولا يغني عنها شيء من الكتب.

قال الشيخ عبدالأول بن **الشيخ العلامة حماد الأنصاري** عن أبيه: "وسمعته يقول: "إنَّ قراءة الكتب الستة تغني عن قراءة غيرها من كتب العلم، ويلزم طالب العلم أن يدرسها، قلت: القراءة التي يعنيها الوالد: هي القراءة بالتمعُّن والتفقُّه فيها".

عاشراً: هي كتبٌ فيها من الرِّقة، وزيادة الإيمان، وتهذيب النفس، والأخلاق، والهداية، والأدب؛ الشيءُ الكثير؛ كأنَّه يعيش مع النبي ﷺ وأصحابه، فكلَّما كان أكثر ملازمة لهذه الكتب؛ كان أعظم أدبًا، وأكثر هداية؛ فعَنْ **أَنَسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: "سألوا رسول الله ﷺ؛ حتىٰ أحفَوه المسألة؛ فغضِبَ فصعد المنبر؛ فقال: «**لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ**»، فجعلتُ أنظرُ يمينًا وشمالاً؛ فإذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكِي". متفق عليه.

وغيره في السنة كثير؛ فعن عمر بن محمد، عن أبيه، قال: "ما سمعت **ابن عمرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يذكُر النبيَّ قطُّ إلا بكَىٰ". **إسناده صحيح**: أخرجه الدارِمي (١/ ٨٥، ط: الزهراني)، (٨٧).

وهذا **قتيبة بن سعيد** رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: سمعت **يونسَ ابنَ سليمانَ السَّقطي** -وكان ثقة- يقول: "نظرتُ في **الأمرِ**: فإذا هو **الحديث والرأي**؛ فوجدتُّ في **الحديثِ**: ذكرَ الرَّبِّ -تبارك وتعالىٰ- وجلالته وعظمته وربوبيته، وذكرَ العرش والصراط والميزان والجنة والنار والنبيين والمرسلين

والحلال والحرام، والحثَّ علىٰ صلة الأرحام، والخيرَ كلَّه. ونظرتُ في **الرأي**؛ فإذا فيه: المكرُ والخديعة والحِيَلُ، وقطيعةُ الأرحام، وجميعُ الشَّرِّ فيه. كذلك قاله **عبد الرحمن بن مهدي** -أو كما قال-، ولا قوة إلا بالله العظيم". **إسناده صحيح**: أخرجه قوَّامُ السنة أبو القاسم الأصبهاني في الحجَّة في بيان المحجة (١/ ٢٦٤-٢٦٥، ط: الراية).

الحادي عشر: فيها السهولةُ واليسر؛ فهي سهلةُ الفهمِ والحفظِ؛ بلا تعقيد ولا وُعورة، واضحةٌ؛ إلىٰ ما لا نهايةَ من الوضوحِ والبيانِ. وفيها غير ذلك؛ من المنافع والبركات.

وقوله: **(مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللهُ)**، "احترازٌ من المشرك؛ و**المراد**: من قال ذلك مع قوله: "**محمد رسول الله**"؛ لكن قد يُكتفىٰ **بالشطر الأول** من كلمَتَيْ الشهادةِ؛ لأنَّه قد صارَ شعارًا لمجموعِهما -كما تقدَّم في الإيمان-". الفتح (١/ ١٩٤، ط: السلفية)، بتصرف.

وقوله: **(خَالِصًا)**، احترازًا من المنافق الذي يُبطِنُ الكفر؛ فإنَّ الشفاعة في حقِّه منفيَّة؛ كالمشركين.

وقوله: **(مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ)**، ذُكِرَ هذا علىٰ سبيل التأكيد؛ لأنَّ الإخلاص معدِنُه القلب؛ والمعنىٰ: أنَّه يُشترط كونُ ذلك ناشِئًا من قلبه. والشكُّ: من الراوي؛ وللمصنِّف: «**خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ**». سيأتي في الرقاق (٦٥٧٠).

ففيه الحرص علىٰ الحديث؛ حفظًا وتفقُّهًا وعملًا وتبليغًا ودعوةً. **وفيه** فضيلة ظاهرة لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-. **وفيه** جواز أن يحكي الرجل مدحَه إن رجحت مصلحته؛ **وفيه** الردُّ علىٰ من طعن عليه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من أعداء الإسلام والسنَّة **وفيه** الأخذ بالظنِّ الراجح؛ وهو الذي ترجِّحه القرائن. **وفيه** أنَّ النبي ﷺ هو أوَّل من سمَّىٰ الحديثَ حديثًا. **وفيه** جواز المدح في الوجه بشرطه؛ وهو إذا أُمِنَتِ الفتنة، ورجحت المصلحة. **وفيه** اشتراط النطق بالشهادتين إن كان قادرًا علىٰ ذلك. **وفيه** أنَّ من شروط كلمة التوحيد: الإخلاص. **وفيه** أنَّ النطقَ المجرَّدَ عن الإخلاص؛ لا قيمة له في الآخرة. **وفيه** تفرُّسُ العالم تقدُّمَ مُتَعَلِّميهِ في خِصال الخير من العلم، وتنبيهُهُم عليها؛ وتثبيتُها فيهم، وإعانتهم علىٰ الاجتهاد فيها. **وفيه** أنَّ للعالم أن يسكت -إذا لم يُسأل- عن العلم؛ حتىٰ يُسأل عنه، ولا يكون -بذلك حينئذٍ- كاتمًا؛ لأنَّه علىٰ الطالب أن يسأل. **وفيه** إثبات الشفاعة، والردُّ علىٰ الخوارج ومن تبعهم من المعتزلة في نفيهم ذلك. **وفيه** أنَّ الشفاعة إنَّما تكون في أهل

الإخلاص -خاصةً-، وردٌّ علىٰ الصوفية ونحوهم. **وفيه** أنَّ أصل وقوع الشفاعة هو تحقيق التوحيد -بعد رضا الرب عن الشافع والمشفوع له والمشفوع فيه-. **وفيه** أنَّ من لم يخلص العبادة لله -وحده- لا شريك له-؛ لم تنله الشفاعة. **وفيه** أنَّ الحريص علىٰ الحديث يبلغ بحرصه ما لا يبلغه غيره. **وفيه** جواز الكنية عند الخطاب. **وفيه** الاهتمام بالأولويات في العلم والعمل. **وفيه** الاهتمام بجناب التوحيد. **وفيه** فضيلة ظاهرة لأهل الحديث لحرصهم علىٰ الحديث، فقد كان الرجل يمرض إن فاته الحديث.

٣٤- بَابٌ كَيْفَ يُقْبَضُ العِلْمُ؟

وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِالعَزِيزِ إِلَىٰ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ (ابن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري): "انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاكْتُبْهُ؛ فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ العِلْمِ (ذهابَه وضَياعَه) وَذَهَابَ العُلَمَاءِ؛ وَلاَ تَقْبَلْ إِلا حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَلْتُفْشُوا العِلْمَ (من الإفشاء؛ وهو: الإشاعة)، وَلْتَجْلِسُوا؛ حَتَّىٰ يُعَلَّمَ مَنْ لاَ يَعْلَمُ؛ فَإِنَّ العِلْمَ لاَ يَهْلِكُ (لا يضيع) حَتَّىٰ يَكُونَ سِرًّا (مكتومًا)".

حَدَّثَنَا العَلاَءُ بْنُ عَبْدِالجَبَّارِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالعَزِيزِ بْنُ مُسْلِمٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ دِينَارٍ بِذَلِكَ؛ يَعْنِي: حَدِيثَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِالعَزِيزِ، إِلَىٰ قَوْلِهِ: ذَهَابَ العُلَمَاءِ.

قوله: (**بَابٌ كَيْفَ يُقْبَضُ العِلْمُ؟**)، أي: في بيان كيفية قبضِ العلم ورفعِه، ورفعُ العلم إنَّما يكون بموتِ العلماء؛ فلا يوجد فيمن يبقىٰ مَن يخلف مَن مضىٰ؛ فوجبَ التنبيه علىٰ الاهتمام بالعلم، وزيادة الحِرص علىٰ تحصيله، قبل فوات الأوان.

ولذلك كان من فقه الأوائل وتوفيق الله لهم؛ أنَّهم حرصوا علىٰ طلب العلم؛ لأنَّهم يعلمون أنَّه سيُقبَضُ؛ بحيث لا يكاد يوجد في الناس -كما هو مشاهد اليوم!-؛ لأنَّ قبضه إنَّما يكون بقبض العلماء -كما سيأتي-؛ حتىٰ إذا لم يُبقِ اللهُ عالمًا؛ اتَّخذ الناس رؤوسًا جُهَّالًا؛ فأفتوا بغير علم؛ فضلُّوا عن الحقِّ، وأضلُّوا من اتَّبعهم، والله المستعان.

وقد ورَد في الأثر: عن **أبي وائل** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال **عبدالله ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "لقد أتاني اليومَ رجلٌ، فسألني عن أمرٍ ما دَرَيْتُ ما أرُدُّ عليه، فقال: أرأيتَ رجلًا مُؤْدِيًا نشيطًا، يخرج مع أُمرائِنا في المغازي، فيَعزِمُ علينا في أشياءَ لا نحصيها؟

فقلت له: والله! ما أدري ما أقولُ لك، إلَّا أنَّا كنَّا مع النبيِّ ﷺ، فعسىٰ ألا يعزِمَ علينا في أمر إلاَّ مرَّةً؛ حتىٰ نفعَلَهُ، وإنَّ أحدَكُم لن يزالَ بخيرٍ؛ ما اتَّقىٰ الله، وإذا شكَّ في نفسه شيءٌ؛ سأل رجلًا فشفاهُ منه، **وأَوْشَكَ أن لا تجِدوهُ!** والذي لا إله إلَّا هو ما أذكر ما غَبَرَ من الدنيا؛ إلَّا كالثَّغْبِ (ماء المطر النافع في الأرض)؛ شُرِبَ صَفوُهُ وبقيَ كَدَرُهُ". سيأتي برقم (٢٩٦٤).

وقوله: (**انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَاكْتُبْهُ ...**)، ومن حرص السلف علىٰ السنَّة والحديث أن أمر عمر بن عبدالعزيز بجمع الحديث الذي يوجد عندهم في

بلدهم. وفي رواية: "انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سُنةٍ ماضيةٍ، أو حديثِ عَمْرَةَ بنتِ عبدِالرحمنِ؛ فاكتبه! فإنِّي قد خِفتُ دُرُوسَ العلمِ، وذهابَ أَهله". إسناده جيِّد: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٩٥ ط: العلمية).

نبذة عن تاريخ تدوين السنة:

وهو أوَّلُ من تهيَّأَ لجمع السُّنة؛ فيُعدُّ هذا: هو بداية تاريخ تدوين السنة(٧٥٥).

---

(٧٥٥) المقصود بالتدوين: جمعُها في مكانٍ واحد؛ وإلَّا فإنَّ كتابةَ الحديثِ كانت منذ عهد النبي ﷺ؛ كما تقدَّم في بابِ كتابةِ العلم.

وقد تعلق أعداء الإسلام من الرافضة، والمستشرقين، ودعاة اللادينية المتفرنجة بمثل هذه الرواية بالطعن في السنَّة، فقالوا: إنَّ السنة لم تدوَّن إلا في مطلع القرن الثاني الهجري، لأنَّ أول من أمر بتدوينها هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وهذا جهل فاضح؛ إذ إنَّهم لم يميِّزوا بين كتابة السنة، وتدوينها، فالكتابة كما سبق كانت في العصر الأول في حياته عليه الصلاة والسلام، وأمَّا تدوين السنة تدوينًا شاملاً، فكان في زمن عمر بن عبدالعزيز، وهذا مثل القرآن؛ كان محفوظًا في الصدور، وكان مكتوبًا منه الكثير، ولكن أمر عثمان بجمعه، وكتب المصاحف وأرسل بها إلىٰ الآفاق، بعد النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

ثمَّ إنَّ عمر بن عبدالعزيز لـمَّا أمر بتدوين السنَّة لم يبدأ ذلك من فراغ، ولكنَّه اعتمد علىٰ أصول مكتوبة، ومحفوظة، ولها طرقها، وأسانيدها المعتبرة، والشواهد الكثيرة، بل وبعضها صحائف كاملة، كصحيفة وهب بن منبه عن أبي هريرة وغيرها.

ثمَّ إنَّ القول بأنَّ السنَّة قد بدأت كتابتها منذ عصر النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ زمن تدوينها رسميًا أصبح حقيقة علمية مؤكدة ثبتت بالبراهين القطعية، وتضافرت علىٰ إثبات هذه الحقيقة الساطعة أقوال جملة من الباحثين الثقات الأثبات».

وهناك شبهات كثيرة لدعاة إنكار السنة، وقد ردَّ عليها العلماء، وأبرز دعاة إنكار السنة كانوا في الهند؛ فيحسن بطالب العلم أن يقرأ في الرد عليهم ممَّن عرفهم وجالسهم، وهم علماء الحديث من الهند، فهم أفضل من ردَّ عليهم؛ وذلك لمعرفتهم بهم علىٰ التفصيل.

فقد ألَّف الأستاذ خادم بخش (القرآنيون وشبهاتهم حول السنة) وألف العلامة حبيب الرحمن الأعظمي (نصرة الحديث في الرد علىٰ منكري الحديث) وألف د. صلاح الدين مقبول (زوابع في وجه السنة قديمًا وحديثًا).

وهناك دعاة لإنكار السنة قويت شوكتهم وتعدَّدت شبهاتهم، وقد اجتهدوا في الطعن في الحديث وحملته من الصحابة ومن بعدهم من أهل الحديث، وأخبث وأشدُّ هؤلاء الساقطين محمود أبو ريَّة؛ فقد ألَّف كتابه

وذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبدالعزيز، بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلىٰ كلِّ أرض له عليها سلطان دفتراً، ومن هنا قال ابن حجر: وأوَّل من دوَّن الحديث ابن شهاب الزهري علىٰ رأس المائة بأمر عمر بن عبدالعزيز، ثمَّ كثر التدوين ثمَّ التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فلله الحمد، قال **ابن الملقِّن** رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنىٰ كتابِ **عمر بن عبدالعزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ: الحضُّ علىٰ اتِّباع السُّنَنِ وضَبطِها؛ إذ هي الحُجَّة عند الاختلاف والتنازُعِ؛ وإنَّما يسَوَّغُ الاجتهادُ عند عدمِها؛ وإنه ينبغي للعالم نشرُ العلمِ وإذاعَتُه". التوضيح (٣/ ٤٩٥ ط: دار الفلاح).

فينبغي لأهلِ العلمِ وطلابِه الحِرصُ علىٰ الحديثِ وتقييده وضَبطه؛ ما أمكنَ: من حِفظٍ وكتابةٍ وتدوينٍ.

وهذا من معنىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]، فحفِظَ اللهُ كتابَه لفظًا ومعنىً، وحفِظَ سنة نبيه ﷺ -كذلك أيضًا-؛ لأنَّها بيان للقرآن، وهي داخلةٌ في الآية، وفي قولِ النبيِّ ﷺ: «**وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**». سيأتي برقم (٤٩٨١). فحفِظ الله الوحي الذي أنزله علىٰ نبيِّه ﷺ من: القرآن والحديث.

وقوله: (فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ العِلْمِ، وَذَهَابَ العُلَمَاءِ)، أي: أن يذهبَ العلمُ ويَضمَحِلّ مع تأخُّر الزمانِ وقُربِ الساعة، ويَفشُوَ الجهلُ؛ وذلك بذهاب العلماء وموتهم: فبذهاب العلماء؛ يقِلُّ الخيرُ من الناس، وينتشِرُ الشَّرُّ؛ فإنَّ العلماء أَمَنَةٌ للناس، وأمان لهم من الضَّلال والانحرافِ.

وقد ورد أنَّ العلم يدرس كما ورد عن **حذيفة ابن اليمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدْرُسُ** (يعفُو ويَهلَكُ) **الْإِسْلَامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ** (نقشُه)؛ **حَتَّىٰ لَا يُدْرَىٰ مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي لَيْلَةٍ؛ فَلَا يَبْقَىٰ فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَىٰ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ؛ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ هَذِهِ الْكَلِمَةِ: لَا إِلَهَ**

(**أضواء علىٰ السنة المحمدية**) وكان من أفضل من ردَّ عليه العلَّامة المحدث عبدالرحمن المعلمي في كتابه (**الأنوار الكاشفة**) وكذا الشيخ محمد أبو شهبة في كتابه (**دفاع عن السنة**).

إِلَّا اللهُ؛ فَنَحْنُ نَقُولُهَا». فقال له **صِلَةُ بن زُفَرَ**: ما تُغني عنهم: لا إله إلَّا الله؛ وهم لا يدرُونَ ما صلاةٌ ولا صيامٌ ولا نسكٌ ولا صدقةٌ؟ فأعرضَ عنه حذيفةُ، ثمَّ ردَّها عليه ثلاثًا؛ كلُّ ذلك يُعرضُ عنه حذيفة، ثمَّ أقبل عليه في الثالثة؛ فقال: **"يَا صِلَةُ! تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ. ثلاثًا"**. **إسناده صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٤٩)، وهو في الصحيحة (٨٧)، و(٧/ ١٤٥، تحت: ح٣٠٥٤).

وسبق الكلام علىٰ ذهاب العلم بذهاب أهله تحت حديث (٨٠).

وقوله: (وَلاَ تَقْبَلْ إِلا حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ)، كي لا ينشغل الناس عن السنَّة بأقوال الرجال؛ فضَبطُ السنَّة وحِفظها؛ يكون أولًا، ثمَّ حفظ معناها بما ورد عن السلف لأنَّنا أمِرنا أن نأخذ العلم من فوق يعني: من النبي ﷺ ثمَّ من أصحابه ثمَّ من التابعين لهم بإحسان، وهذا **من الفقه!** أن نعتني بالمرفوعاتِ -أولًا-، ثمَّ نبحث عن غيرها؛ لأنَّه تقديم ما قدَّمه اللهُ ورسولُهُ ﷺ.

وقد كانوا ينهون عن كلِّ ما يُشغِل عن ذلك من كتب؛ ولو كان فيها من الخير ما فيه؛ لأنَّ كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ أعظمُ وأجلُّ، وأكثرُ بركة، وأهدىٰ وأتقىٰ، وأنقىٰ وأبقىٰ؛ فعن **عَمرِو بنِ قَيسٍ الكِنديِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: كنت مع أبي (هو: أبو الفوارس) بحُوَارَينَ (موضع بالشام) -وأنا غلامٌ شابٌّ-، فرأيتُ الناسَ مجتمعين علىٰ رجلٍ، قلت: من هذا؟ قالوا: **عبدالله بن عمرو بن العاص** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ فسمعته يحدِّث عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «**مِنِ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ** (وفي رواية: أشراط): **أَنْ تُرْفَعَ الأَشْرَارُ، وَتُوضَعَ الأَخْيَارُ، وَيُفْتَحَ الْقَوْلُ، وَيُخْزَنَ الْعَمَلُ، وَيُقْرَأَ بِالْقَوْمِ الْمَثْنَاةُ!؛ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ يُنْكِرُهَا!**». قيل: وما المثناة؟ قال: «**مَا اسْتُكْتِبَ** (التصويب من النهاية وغيره) **سِوَىٰ كِتَابِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-**». **صحيحُ الإسنادِ -ولم يخرجاه-**: أخرجه الحاكم (٨٩١٤)، وهو في الصحيحة (٢٨٢١).

وعن **الأسودِ بنِ يزيدَ النَّخعيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أصبتُ أنا وعلقمةُ، صحيفةً، فانطلقنا بها إلىٰ **عبدالله ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فجلسنا بالباب وقد زالت الشمس أو كادت أن تزول، فاستيقظ، فأرسل الجارية، فقال: انظري من بالباب؟، فرجعت إليه، فقالت: علقمة والأسود، فقال: ائذني لهما، فدخلنا، قال: كأنَّكم قد أطلتم الجلوس في الباب؟، قالا: أجل، قال: فما منعكُما أن تستأذنَا؟، قالا: خشينا أن تكونَ نائمًا، قال: ما أحبُّ أن تظنُّوا بي هذا؛ إنَّ هذه ساعة كُنا نقيسها بصلاة اللَّيل، قلنا: هذه **صحيفةٌ فيها حديثٌ عجيبٌ**، فقال: هاتها يا جاريةُ، هاتي الطَّسْتَ، اسكُبِي فيها ماءً، فجعل يمحُوها بيده، ويقول: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ [يوسف: ٣]، قلنا:

انظر إليها فإنَّ فيها حديثًا حسنًا؛ فجعل يمحوها، ثمَّ قال: "**إنَّما هذه القلوبُ أوعيةٌ؛ فأشغِلُوها بالقرآن؛ ولا تُشغلوها بغيره**". **حسن**: أخرجه الخطيب البغدادي -خطيب أهل المشرق- في **تقييده** (ص ٥٥-٥٦، ط: سعد عبد الغفّار)، (٧٥).

فكأنَّهم أرادوا ألا ينشغِلَ الناسُ بأقوالِ أحدٍ من البشر؛ قبل الانشغالِ بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثمَّ بعد ذلك ينظر في أقوال الصحابة رضي الله عنهم.

وليس معناه: إهمالُ الآثار السلفية والموقوفات؛ بل لابد من الاعتناء بالموقوفات -أيضًا-، لكن بعد أحاديث النبي ﷺ. ومَن حفظَ الحديث والسنة؛ فلابدَّ أن يحَفَظ آثار الصحابة؛ فإنَّها المبيِّنة للسنة.

فعن **صالحِ بنِ كَيْسانَ** رحمه الله قال: "اجتمعت **أنا وابنُ شهابٍ** -ونحن نطلبُ العلمَ- فاجتمعنا علىٰ أن نكتبَ السننَ؛ فكتبنا كلَّ شيء سمعنا عن النبي ﷺ، ثمَّ قال: نكتبُ ما جاء عن أصحابه، فقلت: لا! ليس بسنَّة! فقال: "بلىٰ! هو سنَّة! قال: فكتبَ ولم أكتبْ؛ **فأنجَحَ وضيَّعتُ**". **صحيح**: أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع (٢/ ١٩٠، ط: المعارف)، (١٥٧٤).

وأيضًا: فإنَّ سنَّتَهم سنَّةٌ لمن بعدهم؛ وقد أُمرنا بالاقتداء بهم؛ وهذا يلزم منه أن نعتني بأقوالهم؛ ولا سيَّما من يرىٰ أنَّها حجَّةً بذاتها، قال **الخطيب البغدادي** رحمه الله: "وأمَّا الأحاديثُ **الموقوفاتُ** علىٰ الصحابة: فقد جعلها كثير من الفقهاء بمنزلة **المرفوعاتِ** إلىٰ النبي ﷺ(٧٥٦)؛ في لزومِ العملِ بها، وتقديمها علىٰ القياسِ، وإلحاقِها بالسُّننِ". الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٩٠ ط: المعارف).

هذا؛ وإنَّ الاعتناء بكُتُبِ الآثار مهمٌّ -جدًّا- في تلقِّي العلم الصحيح؛ فإنَّه لا يستقيمُ شيء من العلم والدين؛ سواءً العقيدة، أو الفقهُ، أو غير ذلك؛ بغير فهم السلف -رضوان الله عليهم- في جميع الأبواب. قال الإمامُ **أحمدُ بنُ حنبلَ** رحمه الله: "**إنَّما أُمِرنا أن نأخذ العِلم من فوق**". مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ٢٦٤، ط: التركي).

وذلك لأنَّ الانشغالَ بالكتبِ الأخرىٰ يصرِفُ الناسَ عن القرآن والحديثِ؛ وكلُّ ما ذكرناه

---

(٧٥٦) وقد ذكر **ابن القيم** رحمه الله ستة وأربعين دليلًا علىٰ **حجية قول الصحابي** -مع الردِّ علىٰ ابن حزم-؛ فلتراجع؛ فإنَّها مهمة. انظر: إعلام الموقعين (١/ ١٩٦، و٤/ ٥٤٣-٥٨١، و٥/ ٥-٤٠ ط: مشهور).

إنما هو من الحرصِ علىٰ الحديث ونصوص القرآن، وعدمِ الاهتمام بشيء قبلَها، ولا أوَّل منها.

وقولُ عمرَ بنِ عبدالعزيز: (وَلْتُفْشُوا العِلْمَ، وَلْتَجْلِسُوا؛ حَتَّىٰ يُعَلَّمَ مَنْ لاَ يَعْلَمُ، فَإِنَّ العِلْمَ لاَ يَهْلِكُ؛ حَتَّىٰ يَكُونَ سِرًّا)، **فيه** الأمرُ بإذاعةِ العلم وإشاعتهِ بين الناس، ونشرِ الحديثِ والسنَّة، والنصوص في هذا الباب كثيرة، وكلُّها تؤكِّد وجوب تبليغ السنَّة ونشرها في كل عصر ومصر، ويتحتَّم هذا الأمر لا سيَّما في حالة انتشار الجهل بالسنَّة، أو الإعراض عنها وهجرانها، كما هو الحال في هذا الزمان الذي عمَّ فيه الهجران للسنة، كما قال **جعفرُ بنُ بُرقانَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: كتب إلينا **عمرُ بنُ عبدِالعزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ: **"أمَّا بعد**: مُرْ أهلَ العلمِ والفقهِ من جُندك؛ فلينشروا ما علَّمهم الله -عزَّ وجلَّ- في مجالسهم ومساجدهم، والسلام". جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٩٦)، (٧٨٨).

فعلىٰ العلماء أن يجلسوا لتعليم الناس، وإفتائهم فيما يعرضُ لهم من مسائل، وأن تكون الحلقاتُ فاشية في المساجد؛ قال **ربيعة**: **"**لا ينبغي لأحدٍ عنده شيء من العلم أن يضيِّعَ نفسه" تقدم، ولا ينبغي أن يكون سرًّا، ودولًا بين بعض الناس؛ وإلاَّ؛ فالأمرُ كما صحَّ عن **عمرَ بنِ عبدالعزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: **"**إذا رأيتَ قومًا يتناجَون في دينهم دونَ العامة؛ فاعلم أنَّهم علىٰ تأسيسِ ضلالةٍ**"**. **صحيح**: أخرجه ابن عبدالبرّ في الجامع (٢/ ٩٣٢)، (١٧٧٤)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٣٨ ط: السعادة). وفي الحديث: «**وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ؛ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ**». أخرجه مسلم (٢٥٥٣)؛ فالعلم ينبغي أن يكون: عامًا؛ وليس خاصًّا، وأن يكون شائِعًا ظاهرًا؛ وليس سِرًّا ولا خُفية.

فيه كتابة الحديث والآثار. **وفيه** خوف الأمراء من دروس العلم وذهاب العلماء. **وفيه** أنَّ من كان عنده علم فليُعلِّم غيره؛ حتىٰ لا يُضَيِّعَ نفسه والناس. **وفيه** أنَّه لا ينبغي للمحدِّثين تدريس غير القرآن والحديث للناس.

وفيه نشر العلم في المجالس العامة[٧٥٧] -كالمساجد ونحوها-؛ للعوام والخواص؛ وأنَّه

---

(٧٥٧) ومن هنا يُعلَم خطأُ ما يفعله بعضهم: من الدُّروسِ الخاصَّةِ، والجلساتِ البعيدة عن الناس؛ بل وبعضهم له تنظيماتٌ سرِّية، وأيضًا خطأ طريقة التدريس في المعاهدُ والجامعاتُ؛ التي لا يجلس في مجالسها إلا فئة مخصوصة، أو أناسٌ لهم مواصفاتٌ خاصَّة، وفصولٌ دراسية، وجُدرانٌ، ونحو ذلك. ولو كانت هذه

بهذا يحصلُ الخير العظيم.

وفيه بيان كيفية قبض العلم بذهاب أهله. **وفيه** فضل عمر بن عبدالعزيز وفقهه وبعدُ نظره. **وفيه** مشروعية كتابة الحديث: وقد كان وقع فيه الخلاف؛ لكن استقرَّ الحكم عند الأمَّة -بعد ذلك- علىٰ مشروعيته؛ بل قد يجب. **وفيه** الحثُّ علىٰ حفظ السنَّة؛ حفظ صدر، وحفظ سطر، **وفيه** أنَّ أهل العلم -علىٰ الحقيقة؛ هم: أعلمُ الناس بالكتاب والسنَّة، **وفيه** أنَّ العلمَ لا يَهلِكُ؛ حتىٰ يكونَ سِرًّا؛ فينبغي أن تفشو السنَّة وتنتشر، ويظهر العلم ولا يندثر.

١٠٠- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي أُوَيْسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، **عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ** رضي الله عنهما- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ** (أي: محوًا من صدور العلماء)؛ **وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ** (بموت) **العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا؛ فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا** (فضلُّوا في أنفسهم وأضلُّوا السائلين)».

قَالَ الفِرَبْرِيُّ(٧٥٨): حَدَّثَنَا عَبَّاسٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا حَدَّثَنَا جَرِيرٌ، عَنْ هِشَامٍ، نَحْوَهُ.

طرفه في: الاعتصام (٧٣٠٧).

وأخرجه مسلم (٢٦٧٣)، والترمذي (٢٦٥٢)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩٠٧، ٥٩٠٨)، وابن ماجه (٥٢).

الشرح

قوله: **(إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ)**، أي: إنَّ الله لا يأخذ العلم من العلماء، وينزِعه من صدورهم، وفي كتاب الاعتصام (٧٣٠٧): «**بَعْدَ أَنْ أَعْطَاكُمُوهُ**»؛ قال

الدروس في المساجد؛ لكانت أنفع؛ ولكان العلم شائعًا مُشاعًا.

(٧٥٨) هو أحد من سمع الصحيح عن البخاري ورواه عنه، وهو أبوعبدالله محمد بن يوسف بن مطر.

وأما هذا السند فليس للبخاري، وإنما ألحقها صاحب النُّسخة، فهذا الإسناد عند الفِرَبري من غير طريق البخاري، وهذا دأبه إن وجد إسنادًا غير إسناد البخاري.

والفربري -راوية البخاري-: له زيادات في مواضع من الصحيح؛ هي أشبهُ بالتعليقات؛ فيثبتها النسَّاخُ؛ وهذه منها.

ابنُ الملقِّن رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنىٰ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا**»: أنَّ الله لا يهَبُ العلم لخلقه، ثمَّ ينتزعه بعد تفضُّله عليهم، ولا يسترجِعُ ما وهبَ لهم من العلم المؤدِّي إلىٰ معرفته والإيمان به وبرسله؛ وإنَّما يكون انتزاعُه بتضييعِهم العلمَ؛ فلا يوجد من يخلُف من مضىٰ؛ فأنذرَ ﷺ بقبضِ الخيرِ كلِّه". التوضيح (٣/ ٤٩٥).

فلا يمحو الله هذا العلم محوًا من الصدور؛ كما دلَّ عليه الحديث، وإن كان بعضُ الناس إذا تفضَّل الله عليه بنعمة العلم؛ يسلُبه إياها إن كفَرها ولم يشكرها؛ فيُنسيه العلمَ -من: القرآن والسنة-، ويصرِفه عنهما -نعوذ بالله من الخِذلان-.

أو يقبضَ العلماءَ؛ إذا لم يشكرِ الناسُ وجودَ هذه النعمةِ بينهم وفيهم، ولم ينتفعوا بها؛ فلا يستحقُّون بقاءها فيهم؛ فيذهبَ بالأخيارِ، ويُبقِي لهم الأشرارَ والجُهَّالَ؛ فيذهبُ العلم بذهاب أهله.

وقد يُذهبُ بالقرآنِ بالكُلية عند قيام الساعة، أي: عند ذهاب الخيرِ برُمَّته، ومجيءِ الرِّيحِ التي تَقبِضُ أرواحَ المؤمنينَ وتذهب الفرقة الناجية؛ فإنه يُسْرَىٰ علىٰ كتاب الله -تعالىٰ- في ليلة؛ فلا يبقىٰ منه آية؛ كما في حديث **حذيفةَ ابنِ اليمانِ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ مرفوعًا: «**وَلَيُسْرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي لَيْلَةٍ؛ فَلَا يَبْقَىٰ فِي الْأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ**». سبق تخريجه في شرح الحديث (٩٩).

وقول **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أوَّلُ ما تفقِدونَ من دينكم الأمانةَ، وآخرُ ما تفقدون منه الصلاةَ، وسيُصلِّي قومٌ ولا دينَ لهم، وإنَّ هذا القرآنَ الذي بينَ أظهُرِكم كأنَّه قد نُزِعَ منكم، قال: قلت: كيف يا عبدَالله؛ وقد أثبتهُ الله في قلوبنا؟! قال: يُسْرَىٰ عليه في ليلةٍ؛ فترفَع المصاحِفُ، ويُنزَعَ ما في القلوبِ، ثم تلا: ﴿**وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ [الإسراء: ٨٦]، إلىٰ آخر الآية".

إسناده حسن: أخرجه ابن أبي شيبة (٢١/ ٣٧٤ ط: الشثري)، (٤٠٣٧٤)، وغيره.

وما وردَ في حديثِ **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لا يعارضُ حديثَ الباب؛ وذلك أنهما يُرْفَعَانِ في زمانين مختلفين، **فالأول** -منهما-: يكون بقبضِ العلماء، **ثم آخر الأمرين**: يُنتزعُ من الصدور.

فيُسْرَىٰ علىٰ كتاب الله، ويمحىٰ من الأرض، وتهدمُ الكعبةُ؛ وعندها لا يبقىٰ إلاَّ شِرارُ الخَلقِ؛ الذين لا يقولون: لا إله إلَّا الله، ولا يُصلُّون، ولا يحجُّون، ولا يقومون بالفرائضِ ونحوها؛ بل ويفعلون المنكراتِ، -وأنكرَ المنكرات: الشركَ بالله-؛ فهؤلاء عليهم تقوم الساعة؛

فلا تعارض بين الحديثين؛ لاختلاف زمانهما.

وقوله: **(وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ؛ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ)**، أي: يقبَضُ العلمُ بموت العلماء؛ ويكون ذلك في آخر الزمان. وجاء عند المصنف قول الرسول ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقْبَضَ العِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ**». سيأتي برقم (١٠٣٦).

وموتُ العلماء مصيبةٌ في الإسلام وثُلْمَةٌ لا يسدُّها شيءٌ؛ قال **الإمام البغويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الله -سبحانه وتعالىٰ-: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾ [الرعد: ٤١]، قيل: هو **موت العلماء**". شرح السنة (١/ ٣١٥، قبيل: ح١٤٧)، وكذا روي مثله عن ابن عباس ومجاهد. تفسير ابن كثير (٢/ ٧٠٢، ط: مازن بيروتي).

وأنشدَ **أحمدُ بن غَزالٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ لنفسه -من بحر الطويل-:

الأرضُ تحيا؛ إذا ما عاشَ عالِمُها ... متىٰ يَمُتْ عالمٌ منها؛ يمُتْ طرَفُ
كالأرضِ تحيا؛ إذا ما الغيثُ حلَّ بها ... وإن أبىٰ؛ عادَ في أكنافها التَّلفُ".

تفسير ابن كثير (٢/ ٧٠٢، ط: مازن بيروتي).

وعن **عَمَّارَ بنِ أبي عمَّارٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: لَمَّا ماتَ **زيدُ بن ثابت المدنيُّ** (من الراسخين في العلم) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ جلسنا إلىٰ **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في ظِلٍّ، فقال: "هذا ذهابُ العُلماءِ؛ دُفِنَ اليوم عِلمٌ كثيرٌ!". **إسناده صحيح**: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٧٦، ط: العلمية)، وقال **عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إني لأَحسَبُ تِسعةَ أعشارِ العلمِ ذهبَ؛ يوم ذهبَ **عمرُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-". **إسناده صحيح**: أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٦٣ ط: علمية)، (٨٨٠٩)، وغيره بنحوه.

فالعلماءُ أمنةٌ للناسِ؛ كما قال -عليه الصلاة والسلام-: «... **وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي: فَإِذَا ذَهَبْتُ؛ أَتَىٰ أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي: فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي؛ أَتَىٰ أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ**». أخرجه مسلم (٢٥٣١).

ولـمَّا ذهب شيوخ العلم في هذا العصر كالإمامين الألباني وابن باز، والعلامة ابن عثيمين، ومقبل الوادعي ونحوهم، ذهب علم وخير كثير، وحلَّت فتن، ومصابنا بفقدهم جلل.

وفي الحديث عن **مِرداسٍ الأَسلَمِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ، الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ؛ وَيَبْقَىٰ حُفَالَةٌ** (والحفالة والحثالة: الرديءُ من كلِّ شيء)؛ **كَحُفَالَةِ الشَّعِيرِ، أَوِ التَّمْرِ؛ لاَ**

يُبَالِيهِمُ اللهُ بَالَةً». سيأتي برقم (٦٤٣٤).

وفي لفظ: «**لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِمْ شَيْئًا**». سيأتي برقم (٤١٥٦) -موقوفًا[٧٥٩]-. **صحيح**.

قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ووجدت لهذا الحديث شاهدًا من رواية **الفَزارِيَّةِ امرأةِ عمرَ** بلفظِ: "تذهبون الخيِّرَ فالخيِّرَ؛ حتىٰ لا يبقىٰ منكم إلا حُثالةٌ كحثالةِ التمرِ؛ ينزُو بعضهُم علىٰ بعضٍ نزو الْمَعْزِ"[٧٦٠].

ويؤيِّدُه ما ورَد عن **رُوَيْفِعِ بنِ ثابتٍ الأنصاريِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أنَّه قال: قُرِّبَ لرسول الله ﷺ تمرٌ ورُطَبٌ، فأكلوا منه؛ حتىٰ لم يبق منه شيءٌ إلاَّ نواهُ، فقال رسول الله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**تَذْهَبُونَ الْخَيِّرَ فَالْخَيِّرَ؛ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مِنْكُمْ إِلَّا مِثْلُ هَذَا**»[٧٦١].

وعن **الزبير بن عدِيٍّ** رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أتينا **أنسَ بنَ مالكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فشكونا إليه ما نَلقَىٰ من الحَجَّاجِ؛ فقال: "اصبروا!، فإنَّه لا يأتي عليكم زمانٌ؛ إلَّا الذي بعده شَرٌّ منه؛ حتىٰ تلقوا ربَّكم؛ سمعته من نبيِّكم ﷺ". سيأتي برقم (٧٠٦٨).

وقد قال **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وبهذا اللفظ أخرج الطبراني **بسند جيِّد** عن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- نحو هذا الحديث **موقوفًا** عليه؛ قال: "ليس عامٌ إلاَّ والذي بعده شرٌّ منه"، وله عنه **بسند صحيح**؛ قال: "أمسِ خيرٌ من اليومِ، واليوم خير من غد؛ **وكذلك حتىٰ تقوم الساعة**". فتح الباري (١٣/ ٢٠).

لكن هذا يعني: **في الجملة**: وإلَّا فقد يجدَّدُ الدِّينُ ويرتفعُ في بعض الأوقاتِ؛ لأنَّه لابدَّ للناسِ من تنفُّس؛ بل: ويجدَّدُ الدِّينُ علىٰ رأس كلِّ مائة عام؛ كما في حديث **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مرفوعًا: «**إِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**». إسناده **صحيح؛ رجاله ثقات رجال مسلم**: أخرجه البيهقي في معرفة السنن والآثار (١/ ٢٠٨ ط: قلعجي)، (٤٢٢)، وهو

---

(٧٥٩) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٩٩٠)؛ عن **مرداسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه، وسيأتي عند المصنف؛ وله حكم الرفع؛ لأنَّه ليس ممَّا يقال من قبيل الرأي. **انظر**: الصحيحة (٧/ ١٢٧٧).

(٧٦٠) أخرجه أبوسعيد بن يونس في تاريخ مصر، وليس فيه تصريح برفعه؛ لكن له حكم المرفوع". الفتح (١١/ ٢٥٢، ط: السلفية).

(٧٦١) **حسن لغيره**: أخرجه ابن حبان (٤٦٦٥)، وغيره؛ وانظر: التعليقات الحسان (٧١٨١)، والصحيحة (١٧٨١).

في الصحيحة (٥٩٩).

فعلَىٰ الناسِ أن يُلازموا العلماءَ قبل موتهم؛ فقد وردَ عن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه كان يقول: "تعلَّموا العلمَ قبل أن يُقبضَ العلمُ؛ وقبضُه: أن يُذهَبَ بأصحابِه. العالمُ والمتعلِّمُ: شريكانِ في الخيرِ؛ وسائر الناس لا خير فيهم. إنَّ أغنىٰ الناس: رجلٌ عالِمٌ افتُقِرَ إلىٰ عِلمه؛ فنفَع من افتَقر إليه، وإن استُغنيَ عن علمه؛ نفعَ نفسهُ بالعلمِ الذي وضعَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- عنده. فمالي أرىٰ علماءَكُم يموتونَ وجُهَّالَكُم لا يتعلَّمون؟!!، ولقد خشيتُ أن يذهبَ الأوَّلُ ولا يتعلَّم الآخِرُ!! ولو أنَّ العالِمَ طلبَ العلمَ؛ لازدادَ عِلمًا وما نقصَ العلمُ شيئًا، ولو أنَّ الجاهلَ طلبَ العلمَ؛ لوجدَ العلمَ قائمًا. فمالي أراكم شِباعًا من الطعامِ جِياعًا من العِلم؟!!". **إسناده حسن**: أخرجه ابن عبدالبرّ في جامعه (١/ ٦٠٢)، (١٠٣٦).

قلت: فتزايُدُ الشَّرِّيَّةِ مع تقادم الأزمان إنَّما هي: بتناقصِ العلم والعلماء، وظهور الجهل والجهلاء.

وقال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "... لـمَّا كان صلاحُ الوجودِ بالعلماء، ولولاهم كانَ الناسُ كالبهائمِ، بل أسوأُ حالًا؛ كان موتُ العالم مصيبةً لا يَجْبُرها إلَّا خَلفُ غَيره لَه.

وأيضًا: فإنَّ العلماءَ هم الذين يَسُوسونَ العبادَ والبلادَ والممالك؛ فموتُهم فسادٌ لنظام العالم؛ ولهذا لا يزالُ الله يغرِسُ في هذا الدِّين منهم خالِفًا عن سالِف؛ يحفظُ بهم دينَه وكتابَه وعبادَه.

وتأمَّل: إذا كان في الوجود رجلٌ قد فاقَ العالَم في الغنىٰ والكرم، وحاجتُهم إلىٰ ما عنده شديدة، وهو محسنٌ إليهم بكلِّ ممكن، ثمَّ مات وانقطعت عنهم تلك المادَّة؛ فموتُ العالم أعظمُ مصيبةً من موت مثل هذا بكثير؛ ومثلُ هذا: يموتُ بموته أممٌ وخلائق؛ كما قيل:

تعلَّم ما الرَّزيَّةُ فقدُ مالٍ ... ولا شاةٌ تموتُ ولا بعيرُ
ولكنَّ الرزية **فقدُ حُرٍّ** ... **يموتُ بموتِه بشرٌ كثيرُ**".

مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٣، ط: عطاءات العلم).

وقوله: **(حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاء جُهَّالاً)**، **والمعنىٰ**: أنَّ الناسَ يتخذونَ رؤساء جهّالاً؛ وقت انقراضِ العلماءِ ونُقصانِ العلمِ؛ ويكون ذلك في مكان دون مكان؛ إذ لا

تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحجَّة؛ حتىٰ يأتي أمر الله، حتىٰ يجمع بينه وبين حديث: (**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق ظاهرين**) متفق عليه، وتقدم.

وقال ﷺ: (**لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلاً حتىٰ نشأ فيهم المولَّدون أبناء سبايا الأمم، فأخذوا بالرأي وتركوا السنن**). صحيح: أخرجه ابن ماجه (٥٦) وغيره.

قال **ابن مسعود**: "لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم من أكابرهم، وعن أمنائهم وعلمائهم فإذا أخذوه عن أصاغرهم وشرارهم هلكوا". **صحيح الإسناد**: رواه عبد الرزاق (١١/ ٢٥٧)، وقال **ابن سيرين**: "إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم". [**رواه مسلم في "مقدمة صحيحه" (١/ ١٢٦)**]، وقد قال **مجاهد**: "ذهب العلماء فلم يبق إلا المتكلِّمون، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم". رواه أبو خيثمة (ص٦٩).

والبدعُ مبدؤُها من الجهل، وجميع أهل البدع زُيِّن لهم سوءُ عملهم؛ فرأوه حسنًا؛ وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا ويحسبون أنَّهم مهتدون.

ومن **أنواع الجهل** الذي يُضِلُّ صاحبَه -وهو أخطرها-: الجهل المركَّب، فيكون الرجل جاهلًا ولا يدري أنَّه جاهلٌ!!.

وفيه أنَّ **الجهل** هو أساس الضلال والإضلال؛ كما سبق في حديث الباب.

وفيه أنَّ التكذيبُ بالحقِّ؛ بسببِ الجهل -أيضًا-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾ [يونس: ٣٩]، حكىٰ المزني عن **الشافعي** -رحمه الله تعالىٰ-، قال: "العلمُ جهلٌ عند أهلِ الجهلِ؛ كما أنَّ الجهلَ جهلٌ عند أهلِ العلمِ"؛ وأنشد فيه:

ومنزلةُ السَّفيهِ من الفقيهِ ... كمنزلة الفقيهِ من السَّفيهِ
فهذا زاهدٌ في قُرْبِ هذا ... وهذا فِيه أزهدُ مِنه فيهِ"[٧٦٢].

وقد صدق من قال:

أتانا أنَّ سَهْلًا ذَمَّ جَهْلًا ... عُلومًا ليس يَدْرِيهِنَّ سهلُ
علومًا لو دراها ما قَلَاهَا ... ولكنَّ الرِّضا بالجهلِ سهلُ

---

(٧٦٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (٢/ ١٤٩).

قال **ابن عبد البرِّ النمريُّ الأندلسيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأنشدتُّ لبعض المتقدمين:

إذا كنتَ في بلدٍ جاهلًا ... وللعلمِ مُلتَمِسًا فاسألِ
فإنَّ السُّؤالَ شفاءُ العمَىٰ ... كما قيل في المثلِ الأوَّلِ.

وقال سابقُ:

وليسَ ذو العِلمِ بالتقوىٰ كجاهِلها ... ولا البصيرُ كأعمَىٰ ما له بَصَرُ
فاستخْبِرِ الناسَ عمَّا أنت جاهِلهُ ... إذا عَمِيتَ فقد يجْلُو العَمَىٰ الخبَرُ"(٧٦٣).

وفيه أنَّ الجهل يكون سببًا في رؤية الأمور علىٰ غير حقيقتها، قال **السيوطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "واعلم أنَّ العالِم لا يدخل عليه إبليسُ؛ إلاَّ مُسارَقةً، وأمَّا المتعبِّدون بلا علم؛ فإنَّه يُلبِّسُ عليهم في فنونِ التعبُّدِ أشياءَ يعتقدونها فضيلةً أو أفضلَ من غيرها؛ وهي بخلاف ما يظنُّون منها... إلخ". الأمر بالاتباع (ص ٢٢٢).

ولـمَّا علم الشيطان ذلك لبَّس علىٰ بعض الناس فرهَّبهم من العلم، حتىٰ قال بعض المتصوفة: "إذا رأيتَ الصوفي يشتغل بـ: (أخبرنا)، و(حدثنا)؛ فاغسل يدَك منه". وقد روي عن أحدهم لـمَّا قيل له: ألا ترحل حتىٰ تسمع من عبدالرزاق؟ فقال: "ما يصنع بالسماع من عبدالرزاق من يسمع من الخلَّاق"(٧٦٤).

ويقول آخر: "العلم حجاب بين القلب وبين الله -عزَّ وجلَّ-"(٧٦٥). وعن أبي حفص ابن شاهين -رَحِمَهُ اللَّهُ-، قال: "ومن الصوفية من ذمَّ العلماءَ، ورأىٰ أنَّ الاشتغالَ بالعلم بطالةٌ، وقالوا: إنَّ علومنا بلا واسطة؛ وإنَّما رأوا بُعدَ الطريق في طلب العلم؛ فقصّروا الثيابَ، ورقَّعوا الجِبَابَ، وحملوا الرِّكاءَ؛ وأظهروا الزهدَ". المنتقىٰ النفيس من تلبيس إبليس (ص ٤٢٥).

وقال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أنَّ أوَّل تلبيسِ إبليسَ علىٰ الناس صَدُّهم عن العلم؛ لأنَّ العلمَ نورٌ، فإذا أطفأ مصابيحَهم؛ خبَّطهُم في الظُّلَمِ كيف شاء، وقد دخل علىٰ الصوفية في هذا

---

(٧٦٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٧٦)، (٥٢٠- ٥٢٧).

(٧٦٤) تشحيذ الهمم (ص١٥)، فهذه أقوال الصوفية قديمًا، ولقد سمعته من الصوفية المعاصرة وهم "جماعة التبليغ" هداهم الله.

(٧٦٥) المصدر السابق.

الفنِّ من أبواب؛ **منها**: أنَّه منع جمهورهم من العلم أصلًا[٧٦٦]، وأراهُم أنَّه يحتاج إلىٰ تعبٍ وكَلَفٍ؛ فحَسّن عندهم الراحَة". من المنتقىٰ النفيس من تلبيس إبليس (ص ٤٢٤).

وقد قال الشاعر:

مَنْ دَانَ بِالْجَهْلِ أَوْ قَبِلَ الرُّسُوخَ فَمَا ... تُلْفِيهِ إِلَّا عَدُوًّا لِلْمُحِقِّينَا
يَشْنَا الْعُلُومَ وَيَقْلِي أَهْلَهَا حَسَدًا ... ضَاهَىٰ بِذَلِكَ أَعْدَاءَ النَّبِيِّينَا[٧٦٧]

من فروع جهل المبتدعة بالشريعة

وهي كثيرة؛ منها[٧٦٨]:

أ- الجهلُ بالقرآن وبالحديث، ومرادِ النبي ﷺ منهما.

ب- الجهلُ بآثار السلف، وسبيلِهم ومنهاجهم.

ت- الجهلُ بمقاصد الشرع، وروحِ الشريعة.

ث- الجهلُ بكلام العرب.

ج- الجهلُ بقواعد العلوم، والأصولِ السلفية للشريعة؛ كالجهل بطرق التلقِّي

---

(٧٦٦) ومن ذلك تزيين الشيطان للجماعات المعاصرة الجهادية والحركية ونحوها، من التنفير من العلماء، والطعن فيهم؛ بل قالوا: علماء حيضٍ ونفاس؛ كما قال أسلافهم من أهل البدع: المعتزلة ونحوهم؛ قال إسماعيل ابن علية: حدثني اليسع قال: تكلَّم واصل بن عطاء (المعتزلي) يومًا؛ فقال **عمرو بن عبيد**: "ألا تسمعون؟ ما كلام الحسن وابن سيرين عندما تسمعون إلا خِرقةُ حيضٍ مُلقاةٌ". الاعتصام للشاطبي (٢/ ٧٤١، ط: الهلالي).

ورُوِي أنَّ زعيمًا من زعماء أهل البدع كان يريد تفضيل الكلام علىٰ الفقه؛ فكان يقول: "إنَّ علم الشافعي وأبي حنيفة -جملتُه- لا يخرج من سراويل امرأة". قال الشاطبي: "هذا كلام الزائغين، قاتلهم الله!". المصدر السابق.

قلت: تشابهت قلوبهم؛ فإلىٰ اليوم ونحن نسمع من يتشدَّق بمثل هذا الكلام، من بعض المثقَّفين، والمتعالمين، وينبذون أهل العلم والمشايخ السلفيين بأنَّهم علماء الحيض والنفاس، وأصحاب الكتب الصفراء القديمة.

فهم يحتقرون أهل السنَّة ويلقِّبونهم ويصفونهم بأبشع الأوصاف المنفِّرة، ويحاربونهم ويسيئون إليهم.

(٧٦٧) جامع بيان العلم (١/ ٥٦٩).

(٧٦٨) **ينظر**: الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٢٠)، وحقيقة البدعة وأحكامها للشيخ سعيد الغامدي (١/ ١٧٧).

والاستدلالِ.

أما الجهل بالسنَّةِ، فيشمل صورا كثيرة، منها:

أ- الجهل بمكانة السنة من التشريع.

ب-عدم التفريق بين الأحاديث الصحيحة وبين الأحاديث الضعيفة والموضوعة أيضًا، ونتيجة لهذا الجهل اعتمد المبتدعة علىٰ الأحاديث الضعيفة والمكذوبة علىٰ رسول الله ﷺ، علىٰ أنَّها مصدر من مصادر التشريع، والحكم علىٰ الأمور المحدثة بأنَّها سنن.

ت-ومن الجهل بها ردُّ أحاديث الآحاد، وهي التي عليها جملة الشريعة.

ث- القول في الشرع بالاستحسان والظنون والاشتغال بالمعضلات، وردِّ الفروع بعضها إلىٰ بعض دون ردِّها إلىٰ أصولها، وقياس فرع علىٰ فرع، والاشتغال بالرأي وتشقيق المسائل، والبحث عنها قبل أن تنزل، وفي الاشتغال بهذا تعطيل السنن والتذرُّع إلىٰ جهلها، مع التعمُّق في القياس والإعراض عن السنن.

ورد عن **ابن عباس** رضي الله عنهما، قال: "والله ما أظنُّ علىٰ ظهرِ الأرض اليومَ أحدًا أحبَّ إلىٰ الشيطان هلاكًا مِني"؛ فقيل: "وكيف؟"؛ فقال: "والله إنَّه ليُحدِثُ البدعة في مشرقٍ أو مغربٍ، فيحملُها الرجلُ إليَّ، فإذا انتهت إليَّ؛ قمعتُها بالسنَّة، فتُرَدُّ عليه". أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ٦١)، (١٢).

وكلَّما كثُر الجهل؛ تمكَّن الشيطان من الناس؛ فلبَّسَ عليهم، وأَلقَىٰ عليهم من الشُّبهات، وأغرقهُم في الشهواتِ.

قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** رحمه الله: "وكلَّما كان القومُ أعظمَ جهلًا وضلالًا؛ كانت هذه الأحوالُ الشيطانية عندهم أكثرُ، وقد يأتي الشيطان أحدَهم بمالٍ أو طعام أو لباس أو غير ذلك -وهو لا يرىٰ أحدًا أتاه به-؛ فيحسَب ذلك كرامةً؛ وإنَّما هي من الشيطان.

وسببه شِركُه بالله -تعالىٰ- وخروجه عن طاعة الله ورسوله ﷺ إلىٰ طاعة الشياطين؛ فأضلَّتهم الشياطين بذلك؛ كما كانت تُضِلُّ عُبَّاد الأصنامِ. ومثل هذه الأحوالِ لا تكون من كرامات أولياء الله -تعالىٰ-". الردُّ علىٰ البكري (٢/ ٤٨٠).

فبِسبب الجهلِ؛ عُبدت الأصنام والأوثان؛ فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما: "صارَت الأوثانُ التي

كانت في قوم نوح في العربِ بعدُ: أمَّا **وَدٌّ**: كانت لكَلب بدَومَة الجَنْدَل، وأمَّا سُوَاعٌ: كانت لهذيل، وأمَّا **يَغُوثُ**: فكانت لِمُراد، ثمَّ لبني غُطَيف بالجَوف عند سبأ، وأمَّا **يَعُوقُ**: فكانت لِهَمْدان، وأمَّا **نَسْرٌ**: فكانت لحِمْيَرَ، لآل ذي الكَلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هَلَكوا؛ أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومِهم: أن انصِبُوا إلىٰ مجالسِهم التي كانوا يجلسُون أنصابًا وسَمُّوها بأسمائهم؛ ففعلوا؛ فلم تُعبَد، حتىٰ إذا هلك أولئك، **وتنسَّخَ العِلمُ؛ عُبِدت**". سيأتي برقم (٤٩٢٠).

ولذلك قال قومُ موسىٰ لموسىٰ -عليه السلام-: ﴿**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وبسبب فشوّ الجهل انتشر التقليد والتعصُّب للمذاهبِ، والشِّقاقُ بين الناس والاختلافُ والتنازُعُ؛ قال الشيخ **محمد رشيد رضا** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن آياتِ العِبرة في هذا المقامِ: أنَّنا نجد في كلام كثير من علمائنا هدًىٰ ونورًا: لو اتبَعته الأمة في أزمِنتهم؛ لاستقامَت علىٰ الطريقة، ووَصلت إلىٰ الحقيقة بعد الخروج من مَضِيقِ الخلافِ والشِّقاقِ إلىٰ بُحْبوحَة الوَحدة والاتفاقِ. والسَّببُ في بقاء الغَلَبِ لسُلطان الخِلاف والنزاع؛ **فُشُوُّ الجهل**، وتعصُّبُ أهلِ الجاهِ من العلماء لمذاهبهم التي إليها ينتسبون". تفسير المنار (٢/ ٢٠٥).

ومن فُشوّ الجهل -أيضًا-: أنِ انشغل الناس بالكتب والمجلَّاتِ، وأخذوا عِلمهم عن الجُهلاء والمجهولين، وعن القصَّاصين ومن يسمَّون بالمفكِّرين، ومن النِّتِّ ونحوه؛ قال **العلامة التويجري** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "فأمَّا العِلمُ الموروثُ عن النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم وأئمَّة العلم والهدىٰ من بعدهم؛ فقد هَجره الأكثرون، وقلَّ الراغبون فيه والمعتنون به، وقد انصرفت همم الأكثرين إلىٰ الصحف والمجلَّات وما شاكَل ذلك؛ ممَّا كثيرٌ منه مشتمل علىٰ الجهل الصِّرف الذي قد ظهر في زماننا، وثَبتَ فيه، وبُثَّ في مشارق الأرض ومغاربها به؛ غاية البَثِّ، ونُثَّ[٧٦٩] بين الخاصة والعامة؛ غاية النَثِّ، وشَغُفَ به الكثير من الناس، وسمَّوْه: العلم والثقافة والتقدُّم! ومن يعتني به هو المهذَّب المثقَّف عندهم! وقد زاد الحُمق والغُرور ببعض السُّفهاء حتىٰ أطلقوا علىٰ المعتنين بالعلوم الشرعية اسم: الرجعيين، وسمَّوا كتب العلم النافع: الكتب الصفراء؛ تحقيرًا لها وتنفيرًا

---

(٧٦٩) **نَثَّ** الخَبَرَ: يَنُثُّه، بالضّمّ، ويَنِثُّه، بِالْكَسْرِ، نَثًّا؛ إِذا أَفْشَاهُ، **والنَّثُّ**: نَشْرُ الحَدِيثِ، وَقيل: هُوَ نَشْرُ الحديثِ الَّذِي كَتَمْتَهُ أَحَقُّ من نَشْرِه. (تاج العروس ٥/ ٣٦٩).

منها". إتحاف الجماعة (٢/ ٩٤).

وصدقَ **القُشيري** رَحِمَهُ اللَّهُ؛ حيث قال: "فَلَو اجْتهد رجل أُمِّيٌّ فِي حِفظ مَا يسمعهُ من أَوَامِر الدّين ونواهيه، ومن آيَات الْقُرْآن وَسنَن النَّبِي ﷺ؛ كبعض محافظته علىٰ التعاليم الْأَجْنَبِيَّة؛ لحفِظَ شَيْئًا كثيرًا؛ بل لَو شَاءَ حفظ الْقُرْآن كُلَّه، وَألفَ حَدِيثٍ نبويٍّ؛ لَكَانَ ذَلِك سهلاً عَلَيْهِ جِدًا". السنن والمبتدعات (ص ٢٢٥ ط: دار الفكر).

علىٰ أنَّ الجهل ليس قاصراً علىٰ من ليس عنده علم مطلقـًا، فإنَّه يشمل أيضًا من عنده علم كثير، ولكنَّه يتجاوز ما يعلم إلىٰ ما لا يعلم، ويتجرَّأ علىٰ ما لا يعرف، بلا دليل واضح، أو اجتهاد مقبول.

وقوله: **(فَسُئِلُوا؛ فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا)**؛ وذلك لجهلهم؛ فضَلُّوا بذلك في أنفسهم، وأضلُّوا غيرهم، قال **الطُّرطُوشِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فتدبَّر هذا الحديث!؛ فإنَّه يدلُّ علىٰ: أنَّه لا يُؤتىٰ الناسُ قطُّ من قِبلِ عُلمائهم؛ وإنَّما يُؤتَونَ من قِبَلِ أنَّه إذا ماتَ عُلماؤهم؛ أفتىٰ من ليس بعالم؛ فيُؤتىٰ الناسُ من قِبَله، وقد صرَّف **عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- هذا المعنىٰ تصريفًا، فقال: "ما خانَ أمينٌ قطُّ؛ ولكنَّه ائتُمِنَ غيرُ أمينٍ؛ فخانَ".

ونحن نقول: "ما ابتدعَ عالمٌ قطُّ؛ ولكنَّه استُفتِيَ من ليسَ بعالمٍ؛ فضلَّ وأضلَّ".

وكذلك فعل **ربيعة** رَحِمَهُ اللَّهُ؛ قال **مالكٌ** رَحِمَهُ اللَّهُ: بكَىٰ **ربيعةُ** يومًا بكاءً شديدًا، فقيل له: أمُصيبَةٌ نزلَتْ بِك؟! فقال: "لا!؛ ولكنَّه استُفتِيَ من لا عِلم عنده؛ (فظهر في الإسلام أمرٌ عظيم.)". الحوادث والبدع (ص ٧٧ ط: علي حسن).

قال **العلامة الفوزان** -حفظه الله-: "فلا يقاوِمَ البدعَ إلا العِلمُ والعلماءُ؛ فإذا فُقِدَ العلمُ والعلماءُ؛ أُتِيحَتِ الفُرصةُ للبدعةِ أن تظهرَ وتنتشرَ، ولأهلها أن يَنشَطُوا". الإرشاد إلىٰ صحيح الاعتقاد والرد علىٰ أهل الشرك والإلحاد (ص ٣٢٧ ط: ابن الجوزي).

ووردت رواية في كتاب الاعتصام: «**يُسْتَفْتَوْنَ؛ فَيُفْتُونَ بِرَأْيِهِمْ؛ فَيُضِلُّونَ وَيَضِلُّونَ**» سيأتي برقم (٧٣٠٧)؛ وقد يقرأُ بعضهُم النصوصَ من الكتابِ والسنَّة: ولا يكون من أهل العلم؛ لأنَّه لم يفهمهُ ولم يعمل به؛ فيُضِلُّ الناسَ -أيضًا-؛ فيتحمَّل أوزارَهُم. فإنَّ المفتِيَ الجاهلَ يتحمَّلُ وِزرَ من أضلَّه؛ ومصداقُ ذلك قوله -تعالىٰ-: ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**

﴿عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وممّا يدلُّ علىٰ ذلك -أيضًا-: ما تقدم في الشرح عن **زِيادِ بن لَبِيدٍ الأنصاريِّ** رضي الله عنه- قال: ذكرَ النبيُّ ﷺ شيئًا؛ فقال: «**ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**»، قلت: يا رسول الله! وكيف يذهبُ العلمُ؛ ونحنُ نقرأُ القرآنَ، ونقرِئُه أبناءَنا، ويُقرِئُه أبناؤُنا أبناءَهم، إلىٰ يوم القيامة؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زِيَادُ!، إِنْ كُنْتُ لَأَرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ!، أَوَ لَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ: يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ؛ لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟!!**»(٧٧٠).

وفي لفظ: «**ذَهَابُهُ بِذَهَابِ أَوْعِيَتِهِ**». **صحيح**: أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٣٠٣). نعم قد ذهب أهل العلم ولم يبق إلَّا القليل، وكثر من أوعية السوء والجهلة ونحوهم؛ فعن **ابن سيرين** رحمه الله، قال: "ذهب العلمُ؛ فلم يبق إلَّا غُبَرَاتٌ في أوعيةِ سوءٍ". **صحيح**: أخرجه ابن عبدالبرّ في الجامع (١٠٢٢).

قلت: سبحان الله! هذا في زمن ابن سيرين؛ فما عساهُ أن يقول عن زماننا؟!

وقد أقبل الكثير من الناس الذين يريدون العلمَ الشرعيَّ علىٰ الجهلةِ، وأخذوا العلم عن غيرِ أهله: **من أنصافِ العلماءِ، والصغارِ؛ أصحابِ الرُّعُوناتِ؛ سفهاءِ الأحلامِ؛ صغارِ الأسنانِ، وأهلِ البدعِ، والقصاصينَ، ومن يُسمىٰ: بالمفكرين والمثقفين والحركيين، والمجاهيل، ومن المواقع المشبوهة علىٰ الإنترنت**؛ فهؤلاء يتعلَّق بهم العوامُّ، والنساء؛ ويأنسون بهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثًا: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ ...**». **صحيح بشواهده**: أخرجه ابن المبارك في الزهد (٦١) وغيره، وهو في الصحيحة (٦٩٥).

وفي رواية عند **اللالكائي** (١٠٢): قال **ابن المبارك**: "الأصاغر من أهل البدع". شرح أصول الاعتقاد (١/ ٩٥)؛ **قلتُ**: وممَّا لا شكَّ فيه: أنَّهم داخلون في هذا الحديث؛ دخولًا أوليًا.

قال **أبوعبيد** رحمه الله: "وفي الأصاغر تفسيرٌ آخرُ: بلغني عن **ابن المبارك**: أنَّه كان يذهبُ بالأصاغر؛ إلىٰ أهل البدع، ولا يذهبُ إلىٰ السنِّ". الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٥). وتصديق هذا: ما جاء عن **إبراهيمَ الحربيِّ** رحمه الله: "أنَّ الصغيرَ إذا أخذَ بقول رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين؛ فهو

---

(٧٧٠) **صحيح لغيره**: أخرجه ابن ماجه (ص٨٥١ ط: هادي)، (٤٠٤٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٠١)، وغيرهما.

كبير،

والشيخُ الكبير إن أخذ بقول أبي حنيفة وتركَ السُّننَ؛ فهو صغيرٌ". شرح أصول الاعتقاد (١٠٣).

وقال **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه-: "قد علمتُ متىٰ صلاحُ الناسِ، ومتىٰ فسادُهم: إذا جاء الفقه من قِبَلِ الصغيرِ؛ استعصَىٰ عليه الكبيرُ، وإذا جاء الفقه من قِبل الكبير؛ تابعه الصغيرُ؛ فاهتديَا". أخرجه ابن عبدالبرّ في الجامع (١٠٥٥). وقال **ابن مسعود** رضي الله عنه-: "لا يزالُ الناسُ بخيرٍ؛ ما أخذوا العِلمَ عن أكابرِهم وعن أُمنائِهم وعُلمائهم، فإذا أخذوه من صِغارهم وشِرارهم؛ هَلَكوا"(٧٧١).

وقال **ابنُ سِيرينَ** رحمه الله: "إنَّ هذا العلمَ دينٌ؛ فانظروا عمَّن تأخذونَ دينكُم". أخرجه مسلم في مقدِّمة صحيحه (ص ١٣، ط: دار ابن الجوزي).

فلا يؤخذ العلم عن الأصاغر (أهل البدع)، ولا من فاسقٍ، أو منافقٍ: وإن كان فصيحًا؛ عليمَ اللِّسانِ؛ مُتَفَيقِهًا؛ حافظًا لكلام أهلِ العلم؛ بل ولو كان حافظًا للنصوصِ؛ فالذي يخشاه ﷺ علىٰ أمَّته -كما في الحديث-: «**كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**» الصحيحة (١٠١٣)، وفي الحديث: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَىٰ أُمَّتِي مِنَ الدَّجَّالِ... الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**». صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٢١٢٩٧)، وهو في الصحيحة (١٩٨٩).

ووَرَدَ في وصفِ الخوارجِ: «**يقولونَ مِن خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ**». متفق عليه؛ واللَّفظ للبخاري.

فلابدَّ من أخذ العلم من أهل السنة السلفيين، وأهل الدِّين والتُّقَىٰ، وألَّا يؤخذ عن أهل البدع والفِسق؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨]؛ قال **ابن القيم** رحمه الله: "وأصلُ ذلك من الغفلة واتباع الهوىٰ؛ فإنَّهما يطمِسان نورَ القلبِ، ويُعمِيان بصره؛ قال الله -تعالىٰ-: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا**

---

(٧٧١) **صحيح الإسناد**: أخرجه ابن عبدالبرّ في الجامع (١٠٥٧)، ومن طريقه الخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٥) -واللفظ له- وهذا الذي حصل! لـمَّا اتَّبع الناس الدواعشَ وأمثالَهُم؛ فلم يَنصُروا الدِين، ولم يُقِيموا دُنيا.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فإذا أراد العبدُ أن يقتدي برجل؛ فلينظر: هل هو من أهل الذكر، أو هو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوىٰ أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوىٰ، وهو من أهل الغفلة، وأمره فُرُطٌ؛ لم يَقْتَدِ به، ولم يَتبعه؛ فإنَّه يقُوده إلىٰ الهلاكِ، ومعنىٰ **الفُرُط**: قد فُسِّر **بالتضييع**؛ أي: أمرُه الذي يجب أن يلزمه ويقوم به، وبه رُشده وفلاحُه ضائعٌ قد فَرَّطَ فيه.

والمقصودُ أنَّ الله -سبحانه وتعالىٰ- نهىٰ عن طاعةِ مَنْ جَمَع هذه الصفات؛ فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه: فإن وجده كذلك؛ فليحذره، وإن وجده **ممَّن غلب عليه ذكر الله -تعالىٰ- واتِّباع السنَّة، وأمره غير مفروط عليه، بل هو حازم في أمره؛ فليتمسّك بِغَرْزِه**". الوابل الصيب (١/ ٩٢-٩٣ ط: عطاءات العلم).

قال **ابنُ سِيرينَ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لم يكونوا يسألون عن الإسنادِ. فلمَّا وقعت الفتنةُ؛ قالوا: سَمُّوا لنا رجالَكُم: فيُنظَرُ إلىٰ أهل السنة؛ فيُؤخَذُ حديثهم، وينظَرُ إلىٰ أهل البدع؛ فلا يؤخَذُ حديثُهم". أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (ص ١٣).

وقال **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "مَن أصغَىٰ بسمعه إلىٰ صاحبِ بدعة؛ خرجَ من عِصمة الله، وَوُكِلَ إلىٰ نفسهِ"[(٧٧٢)].

فإنَّ الناس لم يعُودوا يميِّزون بين الصَّحيح والسَّقيم، والغَثِّ من السَّمين؛ ولكنهم يُعجَبون بكلِّ صاحبِ غَريبٍ، أو طُرفةٍ، أو قِصَّة، أو كلِّ مؤثِّر من الحديثِ؛ ولو كان من أضعفِ الحديث وأوهَاه، وأبعَده عن الصواب وأَرْدَاهُ؛ قال **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "عليكم مِن الحديثِ بما عُرِفَ، وتواطَأت عليه الأَلسُن، وإيَّاكم وهذه الأحاديثِ -يعني: الشواذَّ-". أخرجه الهروي في ذمِّ الكلام (٥/ ١٠٧، ط: الشبل)، (٨٩٦).

وقال **الخطيب البغدادي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا كان الرَّاوي مِن أهل الأهواء والمذاهب التي تخالف الحقَّ؛ لم يُسمع منه؛ وإن عُرِفَ بالطَّلبِ والحفظِ". الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/

---

(٧٧٢) **إسناده حسن**: أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٤)، وابن بطة في الإبانة (٤٤٤)، والذهبي في السير (٧/ ٢٦١)، (٨٢).

(١٣٦).

وقال -تعالىٰ-: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وليس كلٌّ من كثر كلامه في العلم، وتفاصَح؛ أُخِذَ عنه العِلمُ!؛ فعن **أشهبَ بنِ عبدالعزيزِ** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: سمعت **مالك بن أنس** رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: "ليسَ العلمُ بكثرة الرواية؛ إنَّما العلمُ نورٌ يجعله الله -تعالىٰ- في القلبِ". أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (١٥٢٦).

وقال **إبراهيمُ الخَوَّاصُ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليسَ العلمُ بكثرةِ الروايةِ؛ وإنَّما العالِمُ من اتَّبع العلمَ واستعمَله، واقتدَىٰ بالسننِ؛ وإن كان قليلَ العِلمِ"(٧٧٣).

وقال **البربهاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "واعلم -رحمك الله- أنَّ العلمَ ليسَ بكثرةِ الروايةِ والكُتبِ؛ إنَّما العالِمُ من اتَّبعَ العلمَ والسُّنَن -وإن كان قليلَ العلمِ والكتبِ-، ومن خالفَ الكتابَ والسنَّةَ؛ فهو صاحبُ بدعةٍ -وإن كان كثيرَ العلمِ والكتبِ-". شرح السنة (ص ٩٩)، (٩٨).

قلت: ولو كان كثيرَ الشُّهرةِ، ويحضرُ له الألوفُ والملايينُ، ويسمعُ له الأعدادُ الغفِيرةُ في النِّتِّ، ولو كان فصيحًا ومتكلِّمًا، فليس كلُّ من تكلَّم بالعلمِ؛ كان أهلاً لذلك، فالعلماء الكبارُ أقلُّ الناسِ كلامًا وتكلُّفًا، ولم تُشهِّرهم الفضائياتُ والدِّعايات، ولم تُلمِّعهم الأحزابُ ونحوها؛ وإنَّما رفعهم اللهُ -تعالىٰ- وحدَه؛ بما لديهم من علم صحيح ونُصحٍ وصدقٍ. فالناس لا يضِلُّون ما كانوا مع علمائهم الكبار؛ فينبغي أن يُميِّزَ العالِمُ من غيره؛ وقد قال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا مهمًا: "كَانَ السّلفُ يَعُدُّونَ **كلَّ من خرجَ عَن الشَّرِيعَة فِي شيء من الدّين من أهل الْأَهْوَاء ...، ويأمرون بألَّا يُغترَّ بهم؛ وَلَو أظهرُوا مَا أظهروه من: الْعلم وَالْكَلَام وَالْحِجَاج، أَو: الْعِبَادَة وَالْأَحْوَال؛ مثل: المكاشفات وخرق الْعَادَات**". الاستقامة (١/ ٢٥٤).

وقد قال **مجاهد** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذهب العلماءُ؛ فلم يبق إلَّا **المتكلِّمونَ**، وما المجتهدُ فيكم؛ إلَّا

---

(٧٧٣) **إسناده صحيح**: أخرجه الخطيب البغدادي في الاقتضاء (ص٣٠ ط: الألباني)، (٢٤)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٩٣، ط: الرشد)، (١٦٨٤).

كاللَّاعبِ فيمن كان قبلكم". **صحيح**: أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في العلم (ص ١٩، ط: الألباني)، (٦٩).

وفي رواية: "فلم يبق إلَّا **المتعلِّمون**". **حسن**: أخرجه ابن أبي خيثمة في التاريخ الكبير (٤٧١ و١٠٣٨).

وصدق الله! لقد كثر الكلام والسفسطة، وقلَّ العلم والفقه والعمل في الناس، وذهبت بركة العلم إلَّا قليلًا، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله؛ يقول **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "... **قد فتن كثير من المتأخرين بهذا: فظنوا أنَّ من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدِّين؛ فهو أعلم ممَّن ليس كذلك؛ وهذا جهل محض**، وانظر إلىٰ أكابر الصحابة وعلمائهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كأبي بكر وعمر وعليّ ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت؛ كيف كانوا؟! كلامهم أقلُّ من كلام ابن عباس؛ وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة؛ والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين؛ والتابعون أعلم منهم.

فليس العلمُ بكثرة الرواية ولا بكثرة المقالِ؛ ولكنَّه نورٌ يقذِفه الله في القلب؛ يُفهِّمُ به العبدَ ويهدِيه به إلىٰ معرفة الحقِّ؛ فيميِّزُ به بينه وبين الباطل، ويعبِّرُ عن ذلك بعبارات وجيزة محصِّلَةٍ للمقاصدِ.

وكان النبي ﷺ قد أوتي جوامعَ الكلِم واختُصِرَ له الكلامُ اختصارًا؛ ولهذا وردَ النهيُ عن كثرةِ الكلامِ والتوسُّعِ في القيلِ والقالِ...؛ فيجبُ أن يُعلَم: أنَّه ليسَ كلُّ مَن كثُرَ بَسطُه للقَولِ وكلامُه في العلمِ؛ كان أعلمَ ممَّن ليس كذلك.

وقد ابتُلينا بجهَلة من الناس: يعتقدون في بعضِ مَن توسَّع في القولِ من المتأخرين؛ أنَّه أعلَمُ ممَّن تقدَّم! فمنهم من يظُنُّ في شخصٍ أنَّه أعلَمُ من كلِّ من تقدَّمَ من الفُقهاءِ المشهورينَ المتبوعِين ... فإذا كان مَن بعدهم أعلَمُ منهم؛ لاتِّساعِ قولِه؛ كان أعلمَ ممَّن كان أقلَّ منهم قولًا بطريق الأولىٰ، كالثوريِّ والأوزاعيِّ واللَّيثِ وابنِ المباركِ وطبقتِهم، وممَّن قبلهُم من التابعين والصحابة أيضًا؛ فإنَّ هؤلاء كلُّهم أقلُّ كلامًا ممَّن جاءَ بعدهم؛ وهذا انتقاصٌ عظيمٌ للسلف الصالح، وازدراءٌ لهم، وإساءةُ ظنٍّ بهم، ونسبةٌ لهم إلىٰ الجهلِ وقصورِ العلمِ؛ ولا حول ولا قوة إلَّا بالله؛ ولقد صدق **عبدالله بن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إنَّكم في زمانٍ: كثيرٌ علماؤُه قليلٌ خطباؤُه، وإنَّ

بعدكم زمانًا كثيرٌ خطباؤُه؛ و**العلماء فيه قليلٌ**"(٧٧٤)؛ فمن كثر علمه وقوله، وحسُنَ هديه وعمله؛ فهو ممدوح، ومن كان بالعكس؛ فهو مذموم.

وفي رواية **عنه** رضي الله عنه-: "**إنَّك في زمانٍ: كثيرٌ فقهاؤُه قليلٌ قُرّاؤُه**؛ تُحفظُ فيه حدودُ القرآنِ، وتُضيَّعُ حرُوفه؛ قليلٌ من يسألُ كثيرٌ من يعطي؛ يُطيلونَ فيه الصلاة ويَقصُرون الخطبةَ؛ يُبدونَ أعمالهُم قبل أهوائِهم. **وسيأتي على الناس زمانٌ: قليلٌ فقهاؤُه كثيرٌ قرَّاؤُه**؛ يُحفظ فيه حروف القرآن وتُضيَّعُ حدُوده؛ كثيرٌ من يَسألُ قليلٌ من يُعطي؛ يُطِيلون فيه الخطبة ويقصُرون الصلاة؛ يُبدون فيه أهواءَهم قبلَ أعمالِهم". **صحيح**: أخرجه مالك في الموطأ -رواية يحيىٰ-(٨٨)، وهو في الصحيحة (٧/ ٥٧٥)، (تحت: ح٣١٨٩).

قلتُ: ومثل هذا لا يعدُّ من قبيل الرأي، ولا يُعلم إلا بالوحي؛ بل ومؤيَّدٌ بمطابقته لواقع زماننا اليوم؛ ولذلك صحَّ بنحوه مرفوعًا عن **أبي ذرٍّ** و**عبدالله ابن سعد** رضي الله عنهما. وهما في الصحيحة (٢٥١٠)، (٣١٨٩).

"وقد شهِدَ النبي ﷺ لأهل اليمنِ بالإيمان والفقه، وأهلُ اليمن أقلُّ الناس كلامًا وتوسُّعًا في العلوم؛ لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبِّرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك؛ وهذا هو الفقه والعلم النافع". فضل علم السلف علىٰ علم الخلف (٣/ ٢٣، ط: الحلواني).

ومع غُربة الدِّينِ وقلَّة العلمِ، وذهابِ أهله، وتوفُّر علماء السُّوءِ، وترؤُّسِ الجهلةِ ونحوهم؛ فإنَّنا لا نيأسُ ولا نستسلِمُ للواقع؛ إذ لا تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحجَّة.

فلتكن أنتَ أيها الموفَّق! -ولو كنت وحدك-؛ كما قال **ابن مسعود** رضي الله عنه-: يا عمرو بن ميمون! الجماعة من كان علىٰ الحقِّ؛ ولو كنت وحدك. سبق تخريجه.

فالله حافظ دينه، والحقُّ أبلج، والباطل لجلج قال **الإمام ابن باز** رحمه الله: "والحاصل: أنَّه وإن نقصَ العلم وذهب أكثر أهله، فإنَّه -ولله الحمد- لا تزالُ طائفة علىٰ الحقِّ منصورة؛ كما قال النبي ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ -عزَّ وجلَّ-**». **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (ص٥١ ط: هادي)، (١٠)، وغيره؛ فعلينا أن نجتهدَ في طلبِ

---

(٧٧٤) **صحيح**: أخرجه أبو خيثمة في العلم (١٠٩)، وهو في صحيح الأدب المفرد (٧٨٩)، والصحيحة (٧/ ٥٧٦)، (تحت: ح٣١٨٩).

العلمِ، وأن نُشجِّعَ عليه، وأن نَحرِصَ علىٰ سَدِّ الثَّغْرَةِ، والقيام بالواجبِ في بلدنا وغيره؛ عملاً بالأدلة الشرعية المُرَغِّبة في ذلك، وحرصًا علىٰ نفع المسلمين وتعليمهم، كما ينبغي أن نشجِّع علىٰ الإخلاص والصِّدقِ في طلبِ العلمِ، فمن أراد الشهادة ليتقوَّىٰ بها علىٰ تبليغ العلم والدعوة إلىٰ الخير؛ فقد أحسنَ في ذلك". مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة لابن باز (٢٣/ ٣٥٩-٣٦٠)؛ بتصرف.

ففيه بيان كيفية قبض العلم(٧٧٥)، **وفيه** التحذير من ترئيس الجهلة. **وفيه** أنَّه لا يجوز لأحد أن يتصدَّىٰ للإفتاء؛ إلَّا من كان عالمًا بالكتاب والسنَّة، من أهل الاجتهاد. **وفيه** عَلَم من أعلام نبوته ﷺ. **وفيه** تعظيم مكانة العلماء وأنَّهم هُداة الأمَّة. **وفيه** أنَّه ينبغي لطالب العلم أن يبحث عن علماء الحديث والأثر؛ لأنَّ هؤلاء هم أهل العلم علىٰ الحقيقة. **وفيه** قبولُ خبرِ الواحد؛ لقوله: «**يُبقِ عالمًا**»؛ فلو بقي عالم واحد؛ لوجب الأخذ عنه. **وفيه** ذمُّ الرأي. **وفيه** خطورة الفتيا بالرأي، وأنَّها سبب الضلال -وإن كان صاحبها حسن النية-، ولا سيَّما القياس علىٰ الفروع والرأي، والقياس علىٰ غير أصل، أو مع وجود نصٍّ علىٰ خلافه. **وفيه** بيان أنَّ من علامات الساعة: ذهاب العلم الشرعي، وعدم العمل به.

مشكل هذا الحديث:

استدلَّ أكثر أهل الأصول بهذا الحديث علىٰ خلُوِّ الزمان من مجتهد؛ وهذا ليس بشيء!؛ لقوله ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**». متفق عليه؛ فذهاب العلماء وانقراضهم بحيث لا يبقىٰ منهم أحد؛ أمر نسبي في مكان دون مكان؛ لأنَّه لابدَّ في الأرض

---

(٧٧٥) ولا تسأل عن الصُحفِيين الذين وُصِفوا بالمفكرين الإسلاميين من أمثال: **محمد عمارة** في مقالاته، وصِنوه: **فهمي هويدي** في مقالاته المتعددة وكتبه ومنها: "تدينه المنقوص" وغيره من مؤلفاته التي اغترَّ بها بعض الناشئة من المسلمين الذين لم يطلعوا علىٰ مذاهب المعتزلة وغيرهم من الفرق المنحرفة.
ولذا فنحن ننصح إخواننا بقراءة، كتاب "ظلمات أبي رية"، و"الأنوار الكاشفة" للعلَّامة عبدالرحمن المعلمي اليماني رَحِمَهُ اللَّهُ وردِّ الشيخ ربيع المدخلي في مقالات نشرت بمجلة "المجاهد" (العدد ٩- ١١) أو في كتابه القيم "كشف موقف الغزالي من السنة وأهلها، ونقد بعض آرائه"، و"المعيار لعلم الغزالي" للشيخ صالح آل الشيخ، وغيرها كثير في الرد علىٰ الغزالي، ويراجع كتاب "محمد عمارة في ميزان أهل السنة" لسليمان الخراشي، و"العقلانيون" لأخينا الشيخ علي الحلبي -رَحِمَهُ اللَّهُ-؛ فجزاهم الله خيرًا جميعًا علىٰ ما قاموا به من الدفاع عن السنة وأهلها.

من قائم لله بحجَّة.

٣٥- بَابٌ هَلْ يُجْعَلُ لِلنِّسَاءِ يَوْمٌ عَلَىٰ حِدَةٍ فِي العِلْمِ؟

قوله: **(بَابٌ: هَلْ يُجْعَلُ لِلنِّسَاءِ يَوْمٌ ...)**، أي: هذا الباب في عدم إهمال تعليم النساء، بل يجعلِ العالم للنساء يومًا للعلم علىٰ انفراد، بشرطه، وهو أمن الفتنة بهنَّ، وجعلَ المصِّنفُ التبويب بصيغة الاستفهامَ؛ لشحذِ الهمم إلىٰ معرفة ذلك.

وقوله: **"عَلَىٰ حِدَةٍ"**، أي: في ناحية من المسجد أو خارجه -وَحدَهُنّ-، غير مجتمعات بالرجال أو دون حضور الرجال. وسيأتي أنَّ ذلك كان خارج المسجد -إن شاء الله تعالىٰ-.

١٠١ - حَدَّثَنَا آدَمُ (ابن أبي إياس عبدالرحمن العسقلاني)، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ الأَصْبَهَانِيِّ (عبدالرحمن بن عبدالله الكوفي، الجُهني)، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا صَالِحٍ ذَكْوَانَ (السمان الزيات، المدني)، يُحَدِّثُ **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ** (سعدُ ابن مالك بن سِنان) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: **قَالَتِ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ** ﷺ: **غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ** (أي: أفادوا منك أكثر منا)؛ **فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا** (تعلِّمنا فيه، وتخصُّنا به) **مِنْ نَفْسِكَ. فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ؛ فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ: «مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ** (أي: يموت لها في حياتها) **ثَلاَثَةً مِنْ وَلَدِهَا، إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا** (أي: وقايةً وحاجزًا يحجُبها) **مِنَ النَّارِ». فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: «وَاثْنَتَيْنِ».**

طرفاه في: (الجنائز١٢٤٩، الاعتصام٧٣١٠).

وأخرجه مسلم (٢٦٣٣)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٩٦/ وفي ط. الرسالة: ٥٨٦٥).

الشرح

قوله: **(غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ؛ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ)**، يعني: أنَّ الرجال أفادوا منك أكثر منا؛ بملازمتهم لك كلَّ الأيام ويتعلمون الدِّين، ونحن نساء؛ لا نقدر علىٰ مزاحمتهم؛ فخُصَّنا منك بيومٍ -من اختيارك- تعلِّمنا فيه، **وفيه** تخصيص بعض الأيام بالدروس. **وفيه** أنَّه من السنَّة أن يتواضع العالم؛ ومن ذلك أنه إذا طلبه قوم أن يحضر إليهم فيعظهم استجاب لهم، **وفيه** حرص نساء الصحابة علىٰ العلم. **وفيه** سؤال النساء عن أمر دينهنَّ.

وقوله: (فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ، فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ)، **فيه** الوعد بالدروس، والوفاء بالوعد، **وفيه** أنَّ تخصيصَ النساء بدرسٍ؛ هو مِن الهدي النبوي، بشرطه وهو عدم الفتنة لهنَّ أو

بهنَّ.

وفي رواية **أحمد** (٧٣٥٧): "فقال رسول الله ﷺ: «**مَوْعِدُكُنَّ بَيْتُ فُلَانٍ**»؛ وأتاهن في ذلك اليوم، ولذلك الموعد". **إسناده صحيح**: الصحيحة (٦/ ٤٠٠، تحت: ح٢٦٨٠).

وعند **ابن حبان** (٢٩٤١): "فقال رسول الله ﷺ: «**مَوْعِدُكُنَّ بَيْتُ فُلَانَةَ**»؛ فجاء فتحدَّث معهُنَّ". **إسناده صحيح**: صححَّه شيخنا في التعليقات الحسان (٢٩٣٠).

وفيه مشروعية خروج المرأة لطلب العلم بشروطه، **وفيه** أنَّ صوتَ المرأةِ ليس بعورة -بشرطه-. **وفيه** جواز كلام النساء الرجالَ في العلم والحاجة.

قال شيخنا الإمام **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأمَّا ما شاع -هنا- في دمشق -في الآونة الأخيرة- من ارتياد النساء للمساجد في أوقات معينة ليسمعن درسًا من إحداهن، ممَّن يتسمَوْن بـــ(الداعيات)[٧٧٦] زعمْنَ!، فذلك من الأمور المحدثة التي لم تكن في عهد النبي ﷺ ولا في عهد السلف الصالح.

وإنَّما المعهود أنْ يتولَّىٰ تعليمهن العلماء الصالحون في مكان خاص؛ كما في هذا الحديث، أو في درس الرجال حَجَزَةً عنهم في المسجد إذا أمكن، وإلا غلبهن الرجال، ولم يتمكَّنَّ من العلم والسؤال عنه. فإن وُجد في النساء اليومَ مَن أوتيت شيئًا من العلم والفقه السليم المستقىٰ من الكتاب والسنَّة؛ فلا بأس مِن أن تعقد لهنَّ مجلسًا خاصًّا في بيتها أو بيت إحداهن؛ ذلك خير لهن، كيف لا؟! والنبي ﷺ قال في صلاة الجماعة في المسجد: «**وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٥٤٦٨) وهو في صحيح أبي داود (٥٧٦)، فإذا كان الأمر هكذا في الصلاة التي تضطر المرأة المسلمة أن تلتزم فيها من الأدب والحشمة ما لا تُكثِرُ منه خارجَها؛ فكيف لا يكون العلم في البيوت أولىٰ لهنَّ، لاسيما وبعضُهن ترفع صوتها، وقد يشترك معها غيرُها؛ فيكونُ لهن

---

(٧٧٦) ومن ذلك ما يفعله نساء (جماعة التبليغ)، من خروج وسفر جماعة من النساء، مع أزواجهن، فيجتمعن في بيت ويقمن بعمل تلك الجماعة وعلىٰ طريقتهم، وتشكيل النساء، بمعنىٰ دعوتهن للخروج -المزعوم المبتَدَع- فتضمُّ مع بدعة الخروج، بدعة أن تجوب الأرض بنية الخروج والدعوة، مع كونهنَّ جاهلات، كأزواجهنَّ غالبًا، فلا أدري لِمَ يفعلون شيئًا لم يفعله النبي صلىٰ الله عليه وسلم ولا أصحابه الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؟!.

دويٌّ في المسجد قبيحٌ ذميم!!.

وهذا ممَّا سمعناه وشاهدناه مع الأسف!!!. ثمَّ رأيت هذه المحدثةَ قد تعدّتْ إلىٰ بعض البلاد الأخرىٰ؛ كعَمّان -مثلا-. نسأل الله السلامة من كل بدعة محدثة". انتهىٰ. الصحيحة (٦/ ٤٠٠-٤٠١).

وفيه أنَّ أكثر من ينتفع من النبي ﷺ بالتعليم هم الرجال؛ والنساء تقوم بخدمتهم، وهذا فضل من الله تعالىٰ عليهنَّ، أن سخرهنَّ في هذه الخدمة، ولما فيها من كفاية طالب العلم مؤنة الحياة.

فالمرأة لا تكون كالرجل في العلم؛ لا في تحمُّله ولا في نشره ولا في العمل به ولا في الدعوة إليه، قاله **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ. **وفيه** أنَّ النساء شقائق الرجال؛ فتتعلَّم ما ينفعها؛ ولكن ليس لها أن تخرج إلىٰ المساجد، وترتاد المجالس بحجَّة الدعوة إلىٰ الله، أو تبرز في الشبكات العنكبوتية، والنت؛ بحجَّة أنَّها تشارك الرجل في الدعوة، نعم: قد يلزمها أن تطلب العلم، لا سيَّما ما فرضه الله عليهنَّ، وقد تجتمع مع النساء يستمعن ويتعلَّمن ويحفظن العلم؛ فخروجهن للعلم وطلبه لا بأس به، كما كنَّ يخرجنّ للجهاد في سبيل الله؛ يسقين المرضىٰ، ويداوين الجرحىٰ، ونحو ذلك.

فقد كانت عائشة وأمهات المؤمنين يأتي إليهن من يريد أن يسألهن؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وفي الحديث أنَّه متىٰ شقَّ علىٰ الرجال الحضور أو السفر للعالم -من باب أولىٰ- أن يطلبوا من العالم الحضورَ عندهم؛ للانتفاع منه، إذا اقتضت المصلحة ذلك، وإلَّا؛ فالأصلُ العام: أن يأتوا هم إلىٰ العالم.

وقوله: (**مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا؛ إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**)، هذا ترغيب للنساء ومراعاةٌ لضعفهنَّ، وفي كتاب الجنائز: «**مَا مِنَ النَّاسِ مِنْ مُسْلِمٍ، يُتَوَفَّىٰ لَهُ ثَلَاثٌ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ**». سيأتي برقم (١٢٤٨)؛ فعلىٰ هذه الرواية: هذا الفضلَ عامٌّ في كلِّ مسلم؛ وليسَ خاصًّا بالنساء، **وفيه** أنَّه أنفع ما يكون للنساء من التذكير: الوعظُ. **وفيه** أنَّ الواعظ العالمَ يتخيَّرُ لهنَّ ما يُناسبُهنَّ من أحكام، **وفيه** أنَّ أطفال المسلمين في الجنَّة. **وفيه** أنَّ من مات له ولدان -إذا لم يبلغا الحلم-؛ حَجَباهُ عن النار، **وفيه** أنَّ المصائب تكفِّر

الخطايا وتدخل الجنَّة؛ إن احتسب فيها الأجر.

وقوله: (فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَتَيْنِ؟ فَقَالَ: وَاثْنَتَيْنِ)، قال السّيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "هي: أمُّ سُلَيمٍ -والدةُ أنسٍ-، أو: أمُّ مُبَشِّرٍ، أو: أمُّ أيمنَ، أو: أمُّ هانِئٍ، أو: عائشةُ؛ فكلٌّ منهنَّ قد وردَ: أنَّها سألت عن ذلك". التوشيح شرح الجامع الصحيح (١/ ٢٧٥، ط: الرشد) -بتصرف-. **وفيه** جواز أن يطمع المسلم في الفضل.

وإقرارُ النبيِّ ﷺ بقوله هذا؛ يدلُّ على: أنَّ حُكمَ الاثنينِ حكمُ الثلاثة.

وفي كتاب الرقاق -مرفوعًا-: يقول الله -تعالى-: «**مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ: إِذَا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ؛ إِلَّا الْجَنَّةُ**». سيأتي برقم (٦٤٢٤)؛ فيدخل في هذه الرواية: **الواحدُ فما فوقه.**

١٠٢ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ (محمد بن جعفر)، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ الأَصْبَهَانِيِّ، عَنْ ذَكْوَانَ، **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ، بهذا.

وَعَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ الأَصْبَهَانِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَاحَازِمٍ (سلمانُ الأشجعيُّ، مولىٰ عزَّة الأشجعية، الكوفي)، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، **قَالَ** (أي: في حديثه): «**ثَلَاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ** (أي: الإثمَ؛ حيث ماتوا قبل أن يبلغوا الحُلُم)».

طرفه في: (الجنائز ١٢٥٠).

وأخرجه مسلم (٢٦٣٤)، والنسائي (١٨٧٥، ١٨٧٦)، وابن ماجه (١٦٠٣).

الشرح

تقدَّم الكلام علىٰ حديث أبي سعيد في أول الباب.

وأمَّا قوله -في حديث أبي هريرة-: (**ثَلَاثَةٌ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ**)، أي: الإثم؛ لأنَّ الإثم إنَّما يُكتَبُ بعد البلوغ، وخصَّ الحُكمَ بهم دون الكبار؛ لأنَّ قلبَ الوالدينِ علىٰ الصغير أرحمُ وأشفقُ، ولأنَّهم لم يتلبَّسوا بعقوقٍ -كذلك-؛ فيكون الحزن عليهم أشدَّ من الحزن علىٰ الكبار الذين يغلب عدمُ سلامتهم من مخالفتِهم والديهم. ويأتي بقية الكلام علىٰ ذلك في كتاب الجنائز -إن شاء الله-.

والظاهر أنَّ المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر حديث أبي هريرة للتَّنْبيه علىٰ زِيَادَة: "**لم يبلغُوا**

الْحِنْث".

٣٦- بَابُ مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَلَمْ يَفْهَمْهُ؛ فَرَاجَعَ فِيهِ حَتَّىٰ يَعْرِفَهُ

قوله: (**بَابُ مَنْ سَمِعَ شَيْئًا فَلَمْ يَفْهَمْهُ ...**)، هذه الترجمةُ في بيانِ حقِّ المستمعِ في مراجعةِ العالِمِ؛ ليفهم عنه؛ ولَا يُعَدُّ هذا مناقضًا للأدب.

وقد وَردَت أدلَّةٌ كثيرة -يأتي ذِكرُ بعضها- في مراجعة النبيِّ ﷺ؛ ليُفهَمَ عنه مراد الله ومراد رسوله؛ عملًا بقوله -تعالىٰ-: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ؛ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ**﴾ [النحل: ٤٣-٤٤]، وعملًا بقوله -تعالىٰ-: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].

فينبغي أن يسأل الطالب عمَّا أَشكَلَ عليه؛ تفقُّهًا لا تعنُّتًا، أو لإزالة الشُّبهة واللَّبسِ في المسألة؛ ليكون علىٰ بصيرة من أمره؛ بحيث تكون نيته الفهمُ عن الله مرادَه؛ فلا تكونَ نيتُه: مغالبةُ العالِمِ، أو إظهار تميُّزه علىٰ غيره.

فعن **عبدالله** (هو ابن مسعود) رضي الله عنه-، قال: لـمَّا نزلت هذه الآيةُ: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ شَقَّ ذلك علىٰ أصحابِ النبيِّ ﷺ، وقالوا: أيُّنا لم يظلِم نفسَه؟! فقال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ؛ إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان: ١٣]». متفق عليه؛ واللَّفظُ للبخاري.

فهؤلاء عربٌ أقحاح، ومع ذلك فقد جَهِلوا معنىً من المعاني الشرعية؛ وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ معرفةَ اللُّغة العربيةِ -وحدها- لا تكفي في فهم الدِّين؛ بل لابدَّ من معرفة اللُّغة الشرعية. **ودلَّ الحديثُ** علىٰ: أنَّهم لم يكونوا يفهمون النصوصَ من أنفسهم إذا أَشكَلت عليهم؛ حتىٰ يُراجِعوا فيها مَن هو أعلم منهم.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه-: أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ الله! رجلٌ يريد الجهادَ في سبيل الله؛ وهو يبتغي عَرَضًا من عَرَضِ الدنيا؟!؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «**لَا أَجْرَ لَهُ!**»، فأعظَمَ ذلك الناسُ، وقالوا للرجل: عُدْ لِرسول الله ﷺ؛ فلعلّك لم تُفْهِمْه!، فقال: يا رسولَ الله! رجلٌ يريد الجهادَ في سبيل الله؛ وهو يبتغي عَرَضًا من عَرَضِ الدنيا؟!؛ فقال: «**لَا أَجْرَ لَهُ!**»، فقالوا للرجل: عُد لِرسول الله

ﷺ، فقال له الثالثة؟!؛ فقال له: «**لَا أَجْرَ لَهُ!**»(٧٧٧).

وعن **طلحةَ بنِ عُبَيدِالله** رضي الله عنه-: أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قالوا لأعرابيٍّ جاهلٍ: سَلهُ عمَّن قضَىٰ نحبه من هو؟ وكانوا لا يجترِئُون علىٰ مسألته؛ يُوقِّرونه ويَهابُونه، فسأله الأعرابيُّ فأعرضَ عنه، ثم سأله فأعرضَ عنه، ثم سألهُ فأعرضَ عنه، ثمَّ إنِّي اطَّلَعتُ من بابِ المسجدِ وعليَّ ثيابٌ خُضرٌ، فلمَّا رآني رسول الله ﷺ قال: «**أَيْنَ السَّائِلُ عَمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ؟**». قال الأعرابي: أنا يا رسول الله!، قال رسول الله ﷺ: «**هَذَا مِمَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ**» (يعني: الشهيد طلحة)»(٧٧٨).

١٠٣ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، قَالَ: أَخْبَرَنَا نَافِعُ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ (عبدُالله بنُ عُبَيدِالله)، **أَنَّ عَائِشَةَ** رضي الله عنها **زَوْجَ النَّبِيِّ** ﷺ **كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ؛ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّىٰ تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ** (نوقِشَ الحساب)**؛ عُذِّبَ». قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾** [الانشقاق: ٨] (أي سهلًا؛ لا يناقشُ فيه)**؟!، قَالَتْ: فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ** (عرضُ الناس علىٰ الميزان)**؛ وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ** (أي: الاستقصاءَ [استُقصِيَ عليه] في المحاسبة)[أو نقول: (طُولبَ بالجليل والحقير، وتُركت مسامحته)]**؛ يَهْلِكْ»**.

أطرافه في: (التفسير٤٩٣٩، الرقاق٦٥٣٦، ٦٥٣٧).

وأخرجه مسلم (٢٨٧٦)، وأبوداود (٣٠٩٣)، والترمذي (٢٤٢٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١١٦١٨، ١١٦١٩، ١١٦٥٩). في طبعة الرسالة: (١١٥٥٤، ١١٥٥٥، ١١٥٩٥).

الشرح

قوله: (**كَانَتْ لاَ تَسْمَعُ شَيْئًا لاَ تَعْرِفُهُ؛ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّىٰ تَعْرِفَهُ**)، هذه قاعدةٌ من قواعدِ طلبِ العلمِ: ألَّا يجلسَ الطالبُ عند العالم يتلقَّىٰ ويُقلِّد؛ بلا فهم ولا فقه؛ فيظلَّ

---

(٧٧٧) **حسن لشواهده**: أخرجه أبوداود (٢٥١٦)؛ وحسَّنه شيخنا في صحيح سنن أبي داود (٧/ ٢٧٦ ط: غراس)، (٢٢٧٢).

(٧٧٨) **صحيح لشواهده**: أخرجه الترمذي (٣٢٠٣ و٣٧٤٢)، وغيره؛ وصحَّحه شيخنا لشواهده في الصحيحة تحت الحديثين: (١٢٥)، (١٢٦).

بليدَ الذِّهنِ، خامِلَ الوَعيِ، رَدِيءَ الفهمِ؛ بل عليه: أن يتلقَّىٰ؛ فيحفظَ ويفهمَ، فإن لم تتبيَّن له المسألة، أو عِلَّتُها، أو أَشكَل عليه شيء؛ سأل عنه؛ حتىٰ يكون علىٰ بصيرة؛ عملاً بقوله -سبحانه-: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ فيستَبِين المسألةَ وحِكَمتها وعلتها ونظائرها وقرائنها، ويربِط النصَّ بواقعِ الناس ويُنزِلَه في موضِعه اللَّائق به، ويُلحِقَ الشبيهَ بشبيهِه، والنظيرَ بنظيره، ويعتَبر الأمورَ ويقيسَ مثيلاتها عليها. فإن لم يستطع معرفة ذلك؛ سأل مَن هو أعلم؛ حتىٰ تتكوَّن لديه قُدرةٌ ودُربَة علىٰ الاجتهادِ وإعمالِ النصوص إعمالًا صحيحًا، مع محاولة استخراج فوائد النصِّ؛ لتتكون لديه ملكة الاستنباط التي بها يستطيع أن يُعمِل النصوص في المستجدّات من الحوادث والنوازل. فهذا كله من فوائد المراجعة التي ذكرها المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفي الحديث: مراجعةُ العالم في العلم وأنَّه حقٌّ للطالبِ؛ كما أنَّ مراجعة المتكلِّم حقٌّ للمستمع؛ لأنَّ المقصِد هو الفهمُ، وأنَّه مِن حرصِ الإنسانِ إذا حُدِّثَ بشيء لم يفهمه؛ أن يطلبَ التوضيح؛ حتىٰ يكون علىٰ بصيرة.

يقول **ابن عثيمين** -رَحِمَهُ اللَّهُ-: " ... للطالبِ الحقُّ في أن يسألَ أستاذَه؛ ليستفهِمَ، وللمعلِّم الحقُّ إذا رأىٰ الطالبَ سارحًا؛ أن يسألَه، فالطالب الذي يسرحُ كثيرًا ولا ينتبهُ للدَّرس، وكلَّما تكلَّم الأستاذُ؛ قال: ماذا قلت؟!!؛ فهذا: للأستاذِ ألَّا يُجيبَه". شرح البخاري (١/ ٢٧١).

وسبق أن ذكرنا بعضَ المراجعاتِ من الصحابةِ لرسول الله ﷺ؛ وهي علىٰ وجوه؛ منها:

المراجعة **للاستفهام**: كما مرَّ آنفًا في حديث **أبي سعيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: فقالت: امرأة: واثنين؟ قال رسول الله ﷺ: «**وَاثْنَتَيْنِ**».

والمراجعةُ **لاستخراج حُكم**: كحديثِ **طارق بنِ سُوَيد الحضرميِّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قلت: يا رسول الله! إنَّ بأرضنا أعنابًا نعتصِرُها؛ فنشربُ منها، قال: «**لَا!**»، فراجعته؛ فقال: «**لَا!**»، فقلت: يا رسول الله! إنا نستشفي بها المريض!؛ قال: «**ذَاكَ دَاءٌ؛ وَلَيْسَ بِشِفَاءٍ!**». حسن: أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٦٥٠)، وأصله في مسلم (١٩٨٤).

ومراجعتهم في تخفيف الحكم علىٰ الناس كما في قولهم: "إلَّا الإذخر يا رسول الله!؛ فإنَّا نجعله في بيوتنا وقبورنا؛ فقال النبي ﷺ: «**إِلَّا الإِذْخِرَ، إِلَّا الإِذْخِرَ**». سيأتي برقم (١١١).

وأيضًا: المراجعة في تفسير الآياتِ وعرضِ الفهم عليه ﷺ: فعن عديِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه-، قال: لـمَّا نزلت هذه الآيةُ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]؛ قال: أخذتُ عِقالًا أبيضَ، وعقالًا أسودَ؛ فوضعتهما تحت وِسادتي، فنظرتُ فلمَ أتَبَيَّنْ!؛ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ؟ فضحك؛ فقال: «إِنَّ وِسَادَكَ -إذن- لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ!؛ وإِنَّمَا هُوَ اللَّيْلُ والنَّهَارُ»(٧٧٩). متفق عليه.

وقوله: (مَنْ حُوسِبَ؛ عُذِّبَ)، وذاكَ حينَ مناقشةِ الحسابِ، والمطالبةِ بالجليلِ والحقيرِ، والمعنىٰ: أنَّ ذلك مُؤدّاه إلىٰ استحقاقِ العذابِ؛ ويؤيده روايةٌ في كتابِ الرَّقاقِ (٦٥٣٧): «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ إِلَّا هَلَكَ». قال النووي رحمه الله: "وهذا هو الصحيح؛ ومعناه: أنَّ التقصيرَ غالبٌ في العباد: فمن استُقصِيَ عليه ولم يُسامَح؛ هَلَك ودخل النار؛ ولكنَّ الله -تعالىٰ- يعفو ويغفرُ ما دون الشركِ لمن يشاء". شرح مسلم (١٧/ ٢٠٩).

وقوله: (قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨])، ووجه المعارضة التي ذكرتها أم المؤمنين رضي الله عنها: أنَّ الحديثَ عامٌّ في تعذيبِ كلِّ مَن حُوسِب، والآية تدلُّ علىٰ المحاسبة دون التعذيب لأهل الإيمان؛ فبيَّن لها النبيُّ ﷺ الفرقَ بين الحسابَينِ: أنَّ حساب المؤمن؛ هو العرضُ -فقط-، وحسابُ غيره؛ يلزم منه المؤاخذة والعذابُ؛ قال الحافظ رحمه الله: "وفي الحديث: ما كان عند عائشة من الحرص علىٰ تفهُّم معاني الحديث، وأنَّ النبي ﷺ لم يكن يتضجَّرُ من المراجعةِ في العلم. وفيه جواز المناظرة، ومقابلة السنَّة بالكتاب، وفيه أهمية حفظ الكتاب والسنَّة لاستعراض نصوص الباب، وفيه تفاوت الناس في الحساب.

ومن المراجعة أيضـًا المراجعةُ للتوضيح والتفهُّم: كما في حديث الباب.

وأيضـًا ما ورد في حديثِ حفصة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخُلَ النَّارَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- أَحَدٌ شَهِدَ بَدْرًا، وَالْحُدَيْبِيَةَ». قالت: فقلت: أليس الله -عزَّ وجلَّ- يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ [مريم: ٧١]، قالت: فسمعته يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ

---

(٧٧٩) متفق عليه: ورواه أبوداود (٢٣٤٩) -واللَّفظ له-، وانظر: صحيح أبي داود (٧/ ١١٤ ط: غراس)، (٢٠٣٤).

الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]. **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (٢٦٤٤٠)، وغيره.

"ولم يقع مثلُ هذا من الصحابة إلَّا قليلًا؛ وذلك لكمالِ فهمهم ومعرفتهم باللِّسان العربيِّ". الفتح (١/ ١٩٧) باختصار.

وقوله: **(وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ؛ يَهْلِكْ)**، قال **الهرويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: انتَقَشتُ منه حقِّي: أي: استَقصَيتُه منه؛ ومنه: نَقشُ الشوكةِ؛ وهو استخراجها". إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٤٠٧)؛ وفي رواية: «**وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ إِلَّا عُذِّبَ**». سيأتي برقم (٦٥٣٧).

وفي **الحديث** فضيلة ظاهرة لعائشة. **وفيه** جوازُ مراجعة العالم في العلم؛ من أجل الفهم؛ وأنَّه حقٌّ للطالبِ. **وفيه** حرصُ السَّلفِ علىٰ التفقُّه في النصوص. **وفيه** أنَّه ينبغي للطالب أن يتعلَّم المناقشة والدُّربَةَ علىٰ المباحثة والجدال بالتي هي أحسن؛ لاستخراجِ وجهِ الصوابِ من العالم، **وفيه** معرفة مشكل الحديث وكيفيةَ توجيهِ النصوص، والجمعِ بينها، إذا كان ظاهرها التعارض. **وفيه** أنَّ القرآنَ لا يعارضُ السنَّة بحال؛ لكن يُجمع بينهما بوجه من وجوه الجمع الصحيحة. **وفيه** الاستدلال بالعموم. **وفيه** أهمية السنَّة في فهم الكتاب؛ وأنَّه بها يزول الإشكال. **وفيه** جمع النصوص في المسألة الواحدة؛ لمعرفة الصواب. **وفيه** بيان ما كان عليه الرسول ﷺ من الحلم وسَعة الصدر، وعدم التضجُّر من المراجعة؛ **وفيه** عدمُ مشروعية الاستعاذة عند قراءة الآيات؛ للاستدلال والاحتجاج والاستشهاد بها؛ وإنَّما تجب الاستعاذة عند تلاوة القرآن: في الصلاة وخارجها. **وفيه** إثبات الحساب والعرض والعذاب يوم القيامة. **وفيه** تأدُّبُ الطالبِ مع العالمِ عند السؤال؛ بالدعاء له أو التفدية أو نحو ذلك.

٣٧- بَابٌ: «لِيُبَلِّغِ العِلْمَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ». قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

قوله: (بَابٌ: لِيُبَلِّغِ العِلْمَ الشَّاهِدُ الغَائِبَ)، في هذا إشارة إلىٰ أنَّ العلمَ الشرعيَّ يؤخذُ بالتلقِّي؛ فإنَّ: «الشَّاهِدُ يَرَىٰ مَا لَا يَرَىٰ الْغَائِبُ». صحيح لغيره: أخرجه أحمد (٦٢٨)، وغيره وهو في الصحيحة (١٩٠٤).

قال-تعالىٰ-: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال -تعالىٰ-: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقال -تعالىٰ-: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، وقوله -تعالىٰ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [الشورىٰ: ١٥]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لِيُبَلِّغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُمْ»(٧٨٠).

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا؛ فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ؛ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ؛ لَيْسَ بِفَقِيهٍ»(٧٨١).

ولـمَّا خَطبهم ﷺ يوم النَّحرِ في هذا الجمعِ الغفيرِ؛ قال: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ؛ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَىٰ أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْهُ». سبق برقم (٦٧)، وفي الحديث: «بَلِّغُوا عَنِّي؛ وَلَوْ آيَةً». سيأتي برقم (٣٤٦١).

قوله: (قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ)، وصَله المؤلِّفُ رحمه الله في كتاب الحج (١٧٣٩) بلفظ: «فَلْيُبْلِغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»؛ وكأنَّه ذكره -هنا- بالمعنىٰ.

---

(٧٨٠) صحيح لغيره: أخرجه عبد الرزاق (٥٢٤١)، وأحمد (٥٨١١)، وغيرهما؛ وصحَّحه شيخنا بمجموع طرقه في الإرواء (٢/ ٢٣٦)، (تحت: ح٤٧٨)، وصحيح أبي داود (١١٥٩).

(٧٨١) إسناده صحيح: أخرجه أبوداود (٣٦٦٠)، والترمذي (٢٦٥٦) -واللفظ له-، وهو في الصحيحة (٤٠٤).

١٠٤- حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ يُوسُفَ (التِّنِّيسي)، قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ (ابن سعد بن عبدالرحمن الفَهْمي)، قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدٌ -هُوَ ابْنُ أَبِي سَعِيدٍ-، عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ (الخزاعي الكعبي العدوي، خويلد بن عمرو -وقيل: غير ذلك-، صحابي) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ(٧٨٢) -وَهُوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إِلَىٰ مَكَّةَ (يرسل الجيوش؛ لقتال عبدالله بن الزبير)-: ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ الغَدَ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي (فهمه وحفظه) وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ: حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ (يُريق) بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ (يقطع بالمعضد؛ وهو: آلةٌ كالفأس) بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ؛ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا (احتج لجواز القتال فيها)؛ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ؛ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ؛ وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ (الحاضرُ) الغَائِبَ». فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ: مَا قَالَ عَمْرٌو؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ يَا أَبَاشُرَيْحٍ!؛ لاَ تُعِيذُ (أي: مكة) عَاصِيًا (لا تحميه من العقوبة) وَلاَ فَارًّا بِدَمٍ (قاتلًا عمدًا التجأ إليه؛ خوف القِصاص)، وَلاَ فَارًّا بِخَرْبَةٍ (يعني: السرقة؛ فاحتمىٰ بالحرم؛ حتىٰ لا يقام عليه الحدُّ).

طرفاه في: (جزاء الصيد١٨٣٢، المغازي٤٢٩٥).

وأخرجه مسلم (١٣٥٤)، والترمذي (٨٠٩، ١٤٠٦)، والنسائي (٢٨٧٦).

الشرح

قوله: (وَهُوَ يَبْعَثُ البُعُوثَ إِلَىٰ مَكَّةَ): يرسل الجيوش لقتال عبد الله بن الزبير؛ لامتناعه من مبايعة يزيد بن معاوية، واعتصامه بالحرم.

قوله: (ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الأَمِيرُ أُحَدِّثْكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ الغَدَ مِنْ يَوْمِ الفَتْحِ، سَمِعَتْهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرَتْهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ): ذكر الثلاثة: سماع الأذن، وحفظ القلب وفهمه للحديث، ورؤية النبي ﷺ وهو يحدِّث به، وفي هذا دليل علىٰ

---

(٧٨٢) ابن العاص القرشي الأموي، المعروف بالأشدَق، تابعيٌّ مسرفٌ علىٰ نفسه، وَلِيَ إِمرَةَ المدينة لمعاوية ولابنه، لقّبَ كذلك؛ لتشدُّقِه في البيان، قال في "الفتح": ليست له صُحبة ولا كان من التابعين بإحسان، خرج علىٰ عبدالملك بن مروان؛ فخدَعه وأمَّنه فقتله صبراً.

أنَّ الراوي الشاهد للقصة، وسمعها مباشرة يكون قد استعمل حواسَّ عدَّة في الخبر، فهي تقوم مقام الشواهد للحديث، فإن كان في حفظه بعض الضعف، فإنَّه يتقوَّىٰ بشهوده القصَّة.

قوله: (حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ): هذا هو المشروع في الخطب، أن يبدأ فيها بحمد الله والثناء عليه، والتشهد، كما في (خطبة الحاجة).

قوله: (إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً): إنَّ التحريم والتحليل لله تعالىٰ، ولا يجوز تحريم بقعة إلا عن أمر الله تعالىٰ بذلك، فلا يقال: (الحرم الجامعي)، أو (ثالث الحرمين)، ونحو ذلك، فلم يحرِّم مكة والمدينة إلا الله تعالىٰ، وما ورد في بعض النصوص من أنَّ إبراهيم حرَّم مكة، وأنَّ النبي ﷺ حرَّم المدينة، ونحو هذا؛ فإنَّما هو بتحريم الله لهما أولاً، ثمَّ هما مبلِّغان عن الله تعالىٰ هذا التحريم.

فلا يحلُّ لمسلم أن يستبيح مكة، ويستحلَّها بعد رسول الله ﷺ، فهي حرام إلىٰ يوم القيامة، فإن عرضت شبهة لأحد فقال: إنَّ النبي ﷺ استباح مكة عام الفتح، ودخلها بالسلاح، فقد بَيَّن عليه الصلاة والسلام أنَّ الله تعالىٰ أباحها له ساعة من نهار، ولم ولن يبحها لأحد بعده، لأنَّ حرمتها عادت كما كانت، فهي حرام إلىٰ يوم القيامة، فلا يراق فيها دم امرئ مسلم، بجرح ولا قتل، ولا يقطع شجرها الذي نبت فيها، بل ولا يعضد ويقطع شوكة.

وفيه جواز الردِّ علىٰ الشبهة المتوقَّعة التي يمكن أن تعرض للناس، قبل وقوعها، إن غلب علىٰ الظنِّ وقوعها.

قوله: (فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ؛ لِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا؛ فَقُولُوا: إِنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ؛ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ):

وفي هذا بيان لخصوصية النبي ﷺ في استحلالها. ففي رواية: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة «**لا هجرة ولكن جهاد ونيَّة، وإذا استنفرتم فانفروا، فإنَّ هذا بلد حرَّم الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة، وإنَّه لم يحلَّ القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلىٰ يوم القيامة**». سيأتي في جزاء

الصيد (١٨٣٤).

قوله: (...؛ وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ)، أي: ليبلِّغ الحاضر من لم يحضر.

وهذا هو موضع الشاهد من الحديث الذي يطابق الترجمة؛ والأمرُ بتبليغ العلمِ تظافرت عليه أدلَّةٌ كثيرة؛ منها: قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورىٰ: ٤٨]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وقال -تعالىٰ-: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، وقال -تعالىٰ-: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، ونحو ذلك...

ولابدَّ أن يوجدَ في الأمة علماء أئمَّة؛ خلفاء الرسل في الدعوة والتبليغ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا؛ لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** -رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ-: "فالصبرُ واليقينُ؛ بهما تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ". مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٥٨)، وإعلام الموقعين (٥/ ٥٧٣ ط: مشهور).

فليس كلُّ أحد يتصدَّىٰ للدعوة والتبليغ؛ لكن من تحقَّقَ بالعلم والتزكية، فإنَّ الدعوة ليست واجبة علىٰ الأعيان كما يظنُّ التبليغيون[٧٨٣] لقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[آل عمران: ١٠٤].

وقوله: (أَنَا أَعْلَمُ مِنْكَ يَا أَبَاشُرَيْح!؛ لاَ تُعِيذُ عَاصِيًا)، هذا من كلام عمرِو بنِ سعيدٍ؛ الملقَّب بالأشدَقِ، قال **ابن القيم** -رَحِمَهُ اللهُ-: "وأمَّا قوله: **"الحرمُ لا يُعِيذُ عاصيًا"**؛ فهو من كلامِ الفاسقِ عمرِو ابنِ سعيدٍ الأَشدَقِ؛ يردُّ به حديثَ رسول الله ﷺ؛ حينَ روىٰ له **أبوشُريحٍ الكَعبِيُّ** -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- هذا الحديث". زاد المعاد (٣/ ٣٩٢ ط: الرسالة). فلا يجوز ردُّ الحديث والسنَّة بمثل هذه التعليلات.

وقال **أبومحمد ابنُ حزمٍ** -رَحِمَهُ اللهُ-: "ولا كرامةَ لِلَطيمِ الشيطانِ ...: يريدُ أن يكون أعلمَ من

---

(٧٨٣) فالحذر الحذر من تبليغ **جماعة التبليغ**؛ فإنَّهم جهَلة صوفية، بعيدون عن العلم والهدىٰ، حذَّر منهم أهل العلم، وهم يحتجُّون بأدلَّة تبليغ العلم؛ ويضعونها في غير موضعها، ويستدلُّون بأدلة الجهاد ونحوه، بل: إنَّ طريقتهم -هذه-؛ مأخوذة من رؤىٰ منامية. وليراجَعْ كتاب: القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ للعلامة التويجري -رَحِمَهُ اللهُ-.

صاحِب رسول الله ﷺ؛ بما سمعه ذلكَ الصاحبُ رضي الله عنه- من فَمِ رسول الله ﷺ؛ وإنَّا لله وإنا إليه راجعون علىٰ عظيمِ المُصَابِ في الإسلام!". المحلىٰ بالآثار (١١/ ١٥٠، ط: الفكر).

وفي رواية: فقال عمرُو بنُ سعيدٍ **لأبي شُريح** رضي الله عنه-: انصرِف أيُّها الشيخُ!؛ فنحن أعلمُ بحُرمتها منك!؛ إنَّها لا تمنع سافِكَ دمٍ، ولا خالِع طاعة، ولا مانع جِزية. قال: فقلت: قد كنتُ شاهدًا، وكنتَ غائبًا؛ فقد بَلَّغتُ، وقد أمَرنا رسول الله ﷺ أن يُبلِّغَ شاهدُنا غائِبَنا؛ وقد بلَّغتُكَ؛ فأنتَ وشأنُكَ!". **صحيح**: أخرجه أحمد (١٦٣٧٧)، وصحَّحه -لطرقه- شيخنا في الإرواء (٢٢٢٠). **فيه** أنَّ الصحابة هم أعلم ممَّن جاء بعدهم، وأنَّ راوي الحديث أدرىٰ بمرويه من غيره.

وهذا يُشعِرُ بأنَّه لم يوافقه، وإنَّما لم يرُدَّ كلامَه: إمَّا لأنَّه لم يَجِد فائدةً في ردِّه فيما عزَم عليه، أو: لأنَّه عاجِزٌ عن مُشاقَقَتِه؛ لقوَّة شَوكتِه.

قال **ابنُ بطّال** رحمه الله: "فليس هذا بجواب لأبي شريح؛ لأنَّه لم يختلف معه في: أنَّ من أصابَ حَدًّا في غير الحرم ثمَّ لجأ إلىٰ الحرَم؛ هل يجوز أن يُقامَ عليه في الحرم، أم لا؟! وإنَّما أنكر عليه أبوشُريح: بَعثَه الخيلَ إلىٰ مكةَ، واستباحةَ حُرمتها، ونصبَ الحرب عليها؛ فأحسنَ في استدلاله، وحَادَ عمرٌو عن الجوابِ، وجاوَبه عن غيرِ سؤاله: وهو الرجلُ يصيبُ حدًّا في غير الحرَم، هل يُعيذه الحرَمُ؟!". شرح صحيح البخاري (١/ ١٨٠)،

قلت: وقد عُلِم أنَّ ابن الزبير رضي الله عنهما لم يفعل شيئًا من ذلك أَلْبَتَّةَ؛ فكلام عمرِو ابنِ سعيدٍ ليس في مَحلِّه، بل هو مبطل في استدلاله.

وقوله: (وَلاَ فَارًّا بِخَرْبَةٍ)، يعني: بسَرِقة؛ وفي بعضِ النُّسَخ: بضمِّ خائِها.

وقوله: (قَالَ أبو عبدالله:)؛ يعني: البخاري رحمه الله (**الخَرْبَةُ: البَلِيَّةُ**)

قلت: كلُّ المعاني التي ذكرها أهلُ اللغةِ وشُرَّاحُ الحديثِ -عن الْخَرْبَةِ- لا تخرجُ عن معنىٰ: **البَلِيَّة والشَّيْنِ -ضِدِّ الزَّيْنِ-، والفسادِ في الدِّينِ -والخُرمِ والثُّلمَة فيه-**. قال **الخليل**: "ما رأينا من فلانٍ **خُرْبًا وخُرْبةً**؛ أي: فسادًا في دينه أو شَيْنًا". العين (٤/ ٢٥٦)؛ المشارق (١/ ٢٣١) بتصرف.

وسيأتي الكلام علىٰ هذا الحديثِ -بتوسُّع- في كتاب جزاء الصيد، باب لا يُعضَدُ شجرُ الحرمِ، برقم (١٨٣٢) -إن شاء الله-.

ففي هذا الحديث: فضلُ أبي شُريح رضي الله عنه-؛ لاتِّباعه أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه، وفيه

الصدع بالسنَّة ولو احتمل أن يصيبه أذىٰ من السلطان الغاشم، **وفيه** أنَّه ينبغي الإنكارُ علىٰ من خالفَ النصَّ؛ بالدّليل الشرعيِّ. **وفيه** أنَّ الإنكارَ علىٰ السلطان: يكون عندهُ فيما بينه وبينه. **وفيه** الصبر علىٰ جفاء الأمراء عند نصحهم **وفيه** حُسن التلَطُّفِ في التبليغ والإنكار علىٰ أمراء الجَورِ؛ ليكون أدعىٰ لقبولهم الحقَّ. **وفيه** أنَّه لا يمكن أن يحتاجَ أحدٌ إلىٰ شيءٍ من الدِّين؛ إلَّا وفي الكتاب والسنَّة الجوابُ عنه. **وفيه** الحثُّ علىٰ اتصال السند ووجوبِ ذلك. **ودليلٌ** لشرط الاتصالِ للحديثِ الصحيحِ **وفيه** دليلٌ لشرط الضبط في الرواية (في قوله: ووعاه قلبي). **وفيه** الأمر بتبليغ العلم؛ **وفيه** أنَّ أيَّ مُبطِلٍ يتأوَّلَ النصوصَ التي تخالفه؛ ويتعلَّق بأيِّة شبهةٍ يتأوَّلُها!!. **وفيه** ترك المراء وإن كنتَ محقًا. **وفيه** أنَّ الأصل في النص العام العموم إلَّا ما ثبت تخصيصه به. **وفيه** أهمية التذكير بالإيمان بالله واليوم الآخر في إنكار المنكرات. **وفيه** ذمُّ التشدق في الجواب. **وفيه** أنَّه لا ينبغي في حق أهل العلم تأخير البيان عن وقت الحاجة. **وفيه** قبول خبر الواحد. **وفيه** جواز إخبار المرء عن نفسه بما يقتضي صدقه وضبطه لما سمعه ونحو ذلك **وفيه** التصريح بوجوب نقل العلم وإشاعة السنن والأحكام.

١٠٥ - حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ عَبْدِالوَهَّابِ (أبو محمد الحَجَبي البصري، انفرد البخاري بالإخراج عنه)، قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ (ابن زيد)، عَنْ أَيُّوبَ (السختياني)، عَنْ مُحَمَّدٍ (ابن سيرين)، عَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ (عبدالرحمن بن أبي بكرة)، **عَنْ أَبِي بَكْرَةَ** (نُفَيعُ بن الحارثِ الثقفي)رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، **ذَكَرَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ** -قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ: **وَأَعْرَاضَكُمْ-، عَلَيْكُمْ حَرَامٌ؛ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا؛ أَلَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ»**. وَكَانَ مُحَمَّدٌ (هو: ابن سيرين) يَقُولُ: صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ كَانَ ذَلِكَ. **«أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟!»** مَرَّتَيْنِ.

تقدم في: (العلم٦٧).

وأخرجه مسلم (١٦٧٩)، والنسائي في الكبرىٰ (٤٠٧٧، ٤٠٧٨، ٥٨١٩، ٥٨٢٠)، وابن ماجه (٢٣٢).

الشرح

قوله: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ؛ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ)، فيه بيان ما جاءت الشريعة بحفظه من: الدِّينِ والدِّماءِ والأموالِ والأعراضِ؛ وأنَّها شديدةُ الحُرمة؛ ولا يجوز الاستخفافُ بشيء منها، ولا التأويل في استباحتها.

وقوله: (كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا)، اليوم: يومُ النحر، والشهر: شهرُ ذي الحجة المحرّم.

وقوله: (أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ)، سبق -آنفًا- الكثيرُ من النصوصِ الآمرةِ بتبليغ العلم؛ والنهيُ عن كتمانها؛ كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ومن أشدِّ الآيات في هذا؛ قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وقولِ عائشةَ رضي الله عنها: "ومن زعم أنَّ رسول الله ﷺ كتمَ شيئًا من كتابِ الله؛ فقد أعظمَ علىٰ الله الفرية؛ والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]". متفق عليه؛ واللفظ لمسلم.

وفي الصحيحين عنها أيضا أنَّها قالت: "لو كان محمد ﷺ كاتمًا من القرآن شيئًا لكتم هذه الآية: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَىٰ النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب:٣٧]".

وقد كان الصحابةُ يتأثَّمون أن يكتموا حديثًا واحدًا لم يبلِّغوه للناس؛ فيحدِّثونَ به قبل موتهم!؛ فعلىٰ طُلَّابِ العلمِ أن يُبلِّغوا ما تعلَّموهُ؛ وإلَّا كان وبالًا عليهم، ولجامًا من نار؛ وعليهم ألَّا يستهينوا بذلك.

قال شيخ الإسلام **ابنُ تيمية** -رحمه الله تعالىٰ-: "تركُ أهل العلم لتبليغ الدّين كتركِ أهل القتالِ للجهاد، وترك أهل القتال للقتال الواجب عليهم كترك أهل العلم للتبليغ الواجب عليهم، كلاهما ذنبٌ عظيم". مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٨٨).

ويقول شيخنا **ابن عثيمين** رحمه الله: "إنَّ الدعوة إلىٰ الإسلامِ والترغيب فيه نوع من الجهادِ؛ فهي فرضُ كفايةٍ علىٰ من قدرَ عليها؛ لأنَّ الدعوة إلىٰ الإسلام من واجبات الدِّين؛ وهي: طريقةُ المرسلين في كلِّ زمان ومكان". شرح ثلاثة الأصول (ص ١٣٤ ط: الثريا) -بتصرف-.

بل **لابنِ القيمِ** رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ رائعٌ في هذا؛ يقول فيه: "فالدَّعوةُ إلىٰ الله -تعالىٰ- هي وظيفة المرسلين وأتباعهم؛ وهم خلفاء الرسل في أُمَمِهم، والناس تبعٌ لهم؛ والله -سبحانه- قد أمرَ رسوله أن يُبَلِّغ ما أُنْزل إليه، وضَمِنَ له حِفظَه وعِصمتَه من الناس؛ **وهكذا المبلِّغون عنه مِن أُمَّته: لهم من حفظِ الله وعصمتِه إيّاهم؛ بحسبِ قيامهم بدينه وتبليغِهم له.**

وقد أَمَرَ النبي ﷺ بالتبليغ عنه؛ ولو آية، ودعا لمن بلّغ عنه؛ ولو حديثًا ... **وتبليغُ سُنَّتِهِ إلىٰ الأُمَّة؛ أفضل من تَبْليغِ السِّهام إلىٰ نُحُور العَدُوّ**: لأنَّ ذلك التبليغ؛ يفعله كثيرٌ من الناس، وأمَّا تبليغ السنن؛ فلا تقوم به إلَّا ورَثة الأنبياء وخلفاؤُهم في أُمَمِهم؛ جعلنا الله -تعالىٰ- منهم بمنِّه وكرمه".

جلاء الأفهام (١/ ٤٩٢- ٤٩٣، ط: عطاءات العلم).

وفي هذا أبلغُ ردٍّ علىٰ الفرقِ التي تدَّعي الجهادَ، ويتَّهمون العلماءَ بالجبنِ والخَوَرِ!؛ فيقال لهم: ما يقوم به العلماءُ هو من الجهادِ في سبيل الله -عزَّ وجلَّ-؛ بل إنَّه أعظم الجهادَينِ: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٢]؛ فعن **أبي جحيفة وهبِ بنِ عبدِاللهِ السُّوَائيِّ** (وهب الخَير) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، **عن عليٍّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "إنَّ أوَّلَ ما تُغلبونَ عليه من الجهادِ: الجهادُ بأيديكم، ثم الجهادُ بألسنتكم، ثم الجهادُ بقلوبكم، فأيُّ قلبٍ لم يعرفِ المعروفَ، ولا ينكرُ المنكرَ؛ نُكِسَ: فجُعِلَ أعلاهُ أسفَلَه". صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة (٢١/ ٣٧١، ط: الشثري)، (٤٠٣٦٧).

ويقول **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا- كلامًا نفيسًا جداً: "وكذلك أهل العلم الذين يحفظون علىٰ الأمَّة الكتاب والسنة: صورة ومعنىٰ؛ مع أنَّ حفظ ذلك واجب علىٰ الأمَّة عموما علىٰ الكفاية منهم، ومنه ما يجب علىٰ أعيانهم وهو علم العين الذي يجب علىٰ المسلم في خاصَّة نفسه؛ لكن وجوب ذلك عينًا وكفاية علىٰ أهل العلم الذين رأسوا فيه أو رزقوا عليه أعظم من وجوبه علىٰ غيرهم؛ لأنَّه واجب بالشرع عمومًا...

ومضت السنة بأنَّ الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج يعني أنَّ ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له إضاعته[٧٨٤] لقول النبي ﷺ {من قرأ القرآن ثمَّ نسيه لقي الله

---

(٧٨٤) فعلىٰ طلاب العلم الشرعي، وعلىٰ السلفيين، أن ينشروا العلم، وألا يكتموا شيئًا منه، ولا سيَّما من تخرَّج من الجامعات الشرعية، فيعودون إلىٰ بلادهم وينشغلون بالدنيا إما بالزراعة أو التجارة أو الصناعة،

وهو أجذم} رواه أبو داود. وقال: {**عرضت عليَّ أعمال أمتي - حسنها وسيئها - فرأيت في مساوئ أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن ثمَّ ينام عنها حتىٰ ينساها**} وقال: {**من تعلَّم الرمي ثمَّ نسيه فليس منا**} رواه مسلم. وكذلك الشروع في عمل الجهاد. فإنَّ المسلمين إذا صافُّوا عدوا أو حاصروا حصنًا ليس لهم الانصراف عنه حتىٰ يفتحوه. ولذا قال النبي ﷺ {**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن ينزعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوه**}. **فالمرصدون للعلم عليهم للأمَّة حفظ علم الدين وتبليغه؛ فإذا لم يبلغوهم علم الدين أو ضيَّعوا حفظه كان ذلك من أعظم الظلم للمسلمين؛** ولهذا قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩] فإنَّ ضرر كتمانهم تعدَّىٰ إلىٰ البهائم وغيرها فلعنهم اللاعنون حتىٰ البهائم. كما أنَّ معلم الخير يصلِّي عليه الله وملائكته ويستغفر له كلُّ شيء حتىٰ الحيتان في جوف البحر والطير في جو السماء". مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ١٨٦- ١٨٧).

وهذا لا بأس به كي يقتات لعياله، ولكن الإشكال تلبيس الشيطان عليهم، وأن يشغلهم بالدنيا حتىٰ لا يجد أحدهم وقتًا لتعليم الناس، بل ولا لتعليم أهله وأولاده، ولا مراجعة محفوظاته، ويقول له شيطانه: ليس عليك حرج أن تنشغل بهذا لفترة قليلة تجمع فيها شيئًا من المال، كي تُكفىٰ، وتقوم علىٰ أولادك، ثمَّ تتفرغ بعد ذلك لطلب العلم والدعوة، فالأمر كما قيل:

ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار.

ولم نر أحداً مشىٰ في طريق الدنيا وسلك هذا السبيل، وكانت له هذه النية وأفلح وحقَّق مثل هذه الأمنية، (منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا)، وفي الحديث: (**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء علىٰ المال والشرف لدينه**).

٣٨ - بَابُ إِثْمِ مَنْ كَذَبَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ

قوله: **(بابُ إِثْمِ مَنْ كَذَبَ...)**، هذا البابُ في بيانِ إثمِ من كذبَ علىٰ النبي ﷺ: سواءٌ كذبَ عمدًا، أو مُتأوِّلًا؛ كما فعلت الكرَّامية، أو كذبَ في تحريفِ معنىٰ حديثه؛ وحملِه علىٰ معانٍ بعيدةٍ، واتِّباعِ المتشابهِ منه؛ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِه؛ وكلُّ هذا في الحقيقة هو من الكذبِ علىٰ الله -تعالىٰ-؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَىٰ اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ**﴾ [الزمر: ٣٢]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٨].

و**الكذبُ** في لغة الشرع والصحابة ولسان العربِ: هو **الإخبارُ بالأمرِ علىٰ خلافِ ما هو سواء؛ كان عمدًا أو سهوًا**؛ وهي لغة أهل الحجاز -وغيرِهم-: إطلاقُ الكذبِ في موضع الخطأ، ويفرَّقُ بينها في القصد والنية؛ وإن كانا كلاهما ضدٌّ للصوابِ والصِّدق؛ فالكاذبُ: يعلمُ أنَّ ما يقوله كذِبٌ، والمخطِئُ: لا يعلمُ ذلكَ. مقاييس اللغة (٥/ ١٦٧)، والنهاية (٤/ ١٥٩) -بتصرف-.

ولم يخالف في ذلك إلَّا المعتزلة -ومن نحا نحوهم-: فإنَّهم خالفوا لغة العرب؛ **حين قيَّدوا الكذب بالعمد دون الخطأ**؛ ولعلَّهم فعلوا ذلك؛ ليوقعوا الناس في الكبائر؛ **فيُفسِّقونهم**؛ كما **فسَّقوا** كثيرًا من الصحابة -والله أعلم-.

وسواءٌ كان هذا الكذِبُ في الإخبارِ عن الماضي أو المستقبل؛ بخلاف مَن قَصَرَهُ مِن أهل اللغة علىٰ الماضي -فقط-؛ لما رواه مسلم في صحيحه (٢٤٩٥) أنَّ عبدًا لحاطب قال للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَذَبْتَ، لَا يَدْخُلُهَا؛ فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**». ينظر: شرح النووي علىٰ مسلم (١٦/ ٥٧).

فأما **غيرُ المتعمِّدِ**؛ فمعذورٌ إجماعًا وشرعًا؛ لأنَّ الخطأ معفوٌّ عنه؛ فقد ذُكِرَ عند **عائشة** رضي الله عنها؛ أنَّ **ابن عمر** رضي الله عنهما يرفعُ إلىٰ النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**». فَقَالَتْ: "وَهِلَ!". وفي رواية: "أما إنَّه لم يكذِبْ؛ ولكنَّه نسيَ أو أخطأ". **صحيح**: أخرجهما مسلم (٩٣٢)؛ قال **ابن الوزير** رحمه الله: "أي: أخطأ في فهمِ ما سمِع". إيثار الحق علىٰ الخلق (ص ١٣٤).

وأما **المتعمِّدُ للكذبِ**؛ فمأزورٌ مأثومٌ؛ سواء كان قصدُه الجِدَّ أم الهزلَ؛ فقد كان ﷺ يمزح، ولا يقول إلَّا صدقًا، ولأدلَّة أخرىٰ سبق بعضها في كتاب الإيمان؛ ولأنَّ الوعيد علىٰ الكذب قد

جاء **مقيَّدًا بالتعمُّدِ فيه**؛ ولذلك قال **ابن الوزير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأوضح من هذا كلِّه: أنَّ النبي ﷺ شَرطَ التعمُّدَ؛ فقال: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**». متفق عليه؛ وهو حديث متواتر؛ **فلولا جوازُ الخطأ؛ ما كان لذلك فائدةٌ**". إيثار الحقِّ علىٰ الخلق في ردِّ الخلافات (ص ١٣٤).

ومع ذلك فقد كان أصحابُ النبيِّ ﷺ يخافون من التَّحديثِ عنه، ويهابونَه جدًا؛ فعن **أبي عمرٍو الشيبانيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: كنت أجالسُ **ابنَ مسعودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حولًا لا يقول: قال رسول الله ﷺ، فإذا قال: قال رسول الله ﷺ استقبَلته الرَّعدةُ؛ ويقول: "هكذا، أو نحوُ هذا، أو قريبٌ من هذا، أو ما شاء الله". **إسناده حسن**: أخرجه الطبراني في الكبير (٨٦١٣)، والدارقطني (١٣/ ٢٦٦)، ومثله عن مسروق.

ويأتي أيضـًا عن ابن مسعود، وعن **أبي الدرداء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه كان إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ قال: "أو نحوه"، "أو شبهه".

وعن **هاشم** (مولىٰ بني هرمز) رَحِمَهُ اللَّهُ قال: سمعتُ **أنسَ بنَ مالكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يقول: "لولا أن أخشىٰ أن أخطِئ؛ لحدَّثتُكم بأشياءَ سمعتُها من رسولِ الله ﷺ؛ لكنَّه قال: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»". **صحيح لشواهده**: أخرجه أحمد (٢٠/ ١٦٦، ط: الرسالة)، (١٢٧٦٤)، وغيره.

قال **النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: " توقِّي **الزبيرِ وأنسٍ** وغيرهما من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الرواية عن رسول الله ﷺ والإكثار منها؛ فلِكونهم خافوا الغلَط والنِّسيانَ، والغالِطُ والناسِي وإن كان لا إثمَ عليه؛ فقد يُنسَبُ إلىٰ تفريطٍ؛ لتساهُلِه أو نحو ذلك". شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٧٢، ط: إحياء التراث).

وليُعلَم أنَّ أشدَّ الناس توقِّيًا للكذبِ علىٰ النبي ﷺ هم أصحابه، مع أنَّه لم يكن في زمنهم الكذبُ؛ قال **ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "إنا كنا نحدِّثُ عن رسول الله ﷺ؛ إذ لم يكُن يُكذَب عليه، فلمَّا ركِبَ الناسُ الصَّعبَ والذَّلولَ؛ تركنا الحديثَ عنه". **صحيح**: أخرجه الدارمي، (٤٣٢)، ومسلم في المقدِّمة (ص١٢)، وغيرهم، قال **ابن عبدالبر** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي هذا (الأثر) دليلٌ علىٰ أنَّ الكذبَ علىٰ النبيِّ ﷺ قد كان أحسَّ به **ابنُ عبّاس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في عصرِه**". التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١/ ٢٣٦، ط: بشار عواد)، وذلك لـمَّا نشأ الابتداع كبدعة الخروج، والتشيُّع، والقدر، ونحوها، فإنَّ كلَّ أهل البدع يكذبون.

وقال -أيضا-: "تخويفُ رسولِ الله ﷺ أُمتَه بالنارِ علىٰ الكذبِ؛ دليلٌ علىٰ أنَّه كان يَعلَمُ

أنَّه سيُكذَبُ عليه ﷺ؛ قال **حَمّاد بنُ زيدٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وضعَتِ الزَّنادِقةُ علىٰ رسولِ الله ﷺ اثنيْ عشَرَ ألفَ حديثٍ بَثُّوها في الناس". المصدر نفسه -بتصرف-.

والكذبُ علىٰ النبي ﷺ هو من أعظم أنواع الكذب وأقبحِها؛ قال **البغوي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أنَّ الكذبَ علىٰ النبيِّ ﷺ أعظمُ أنواعِ الكذبِ بعد كذبِ الكافرِ علىٰ الله -تعالىٰ- ...؛ ولذلك كرِه قومٌ من الصحابة والتابعين إكثارَ الحديثِ عن النبي ﷺ؛ خوفًا من الزيادة والنقصان، والغلط فيه؛ حتىٰ إنَّ مِن التابعين مَن كان **يهابُ رفعَ المرفوعِ؛ فيوقفه علىٰ الصحابيِّ**، ويقول: الكذبُ عليه أهونُ من الكذبِ علىٰ رسول الله ﷺ...؛ وكلُّ ذلكَ هيبةً للحديثِ عن رسول الله ﷺ، وخوفًا من الوعيدِ". شرح السنة (١/ ٢٥٥-٢٥٦، ط: المكتب الإسلامي) -مختصرًا-.

وقال **ابنُ حزم الأندلسيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "... وأنا أقول: لَأَن يُضربَ عنُقي أو أُصلَبَ أو يُرمىٰ بي وأهلِي وولدِي؛ أحبُّ إليَّ مِن أن أقطعَ الطريقَ أو أقتُلَ النفسَ التي حرَّم اللهُ بغير الحقِّ -وأنا أعلم أنَّ ذلك حرامٌ-؛ وهذا أحبُّ إليَّ مِن أن أستَحِلَّ الاحتجاجَ بحديثٍ عن النبي ﷺ لا أعتقِدُه صحيحًا، أو أن أرُدَّ حديثًا صحيحًا عنه -عليه السلام-؛ ولم يصحَّ نسخهُ بنصٍّ آخرَ، ولا صحَّ عندي تخصيصُه بنصٍّ آخر. فالكبائرُ تتفاضَلُ -كما أخبرتُكم- تفاضلًا بعيدًا، وكذلك العذابُ عليها يتفاضَلُ؛ كما تتفاضلُ الحسناتُ؛ ويتفاضلُ الجزاءُ عليها". رسائلُ ابنِ حزم الأندلسيِّ (٣/ ١٧٧ ط: إحسان عباس).

١٠٦- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الجَعْدِ، قَالَ: أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْصُورٌ (ابن المُعتَمِر بن عبدالله بن ربيعة السُّلمي؛ المجمع علىٰ جلالته وفضله)، قَالَ: سَمِعْتُ رِبْعِيَّ بْنَ حِرَاشٍ يَقُولُ: **سَمِعْتُ عَلِيًّا**(٧٨٥) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ؛ فَلْيَلِجِ** (فليدخل)

(٧٨٥) أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشميُّ، ابن عمِّ رسول الله ﷺ، وزوجُ ابنته: من السابقين الأولين، ورجَّحَ جمعٌ أنه أوَّلُ من أسلم؛ وهو: ابن عشر سنين، وقيل: خمس عشرة. وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة، كنَّاه النبي ﷺ أبا تراب، وكان علي أصغر من جعفر وعقيل وطالب، مات عن ٦٣ سنة ليلة التاسع عشر من رمضان (٤٠هـ)-وهو: يومئذ أفضلُ الأحياء علىٰ وجه الأرض من بني آدم؛ بإجماع أهل السنة-؛ بضربة ضربه بها الخارجي عبدالرحمن بن مُلجم المرادي الحميري؛ بسيف مسموم بالكوفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّارَ».

وأخرجه مسلم في المقدِّمة (١)، والترمذي (٢٦٦٠، ٣٧١٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩١١) [هو برقم:(٥٨٨٠) في ط. الرسالة]، وابن ماجه (٣١).

الشرح

هذا الحديث حديث مشهورٌ متواترٌ عند أهل العلم العارفين بالحديث والأثر؛ لكثرة طرقه وشواهده؛ فقد ألَّفَ **أبوالقاسم سليمان الطبراني** (٣٦٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ جزءًا حديثيًّا: جمع فيه طرق هذا الحديث من رواية ستين صحابيًّا؛ فأوصلها إلىٰ مائة وثمانين طريقًا: بدأ بالخلفاء الراشدين، ثمَّ العشرة المبشرين، ثمَّ باقي الصحابة، ثم امرأة واحدة: هي عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أجمعين-؛ ممَّا يدلُّكَ علىٰ تواتره، كما ساق أحاديث أخرىٰ لآخرين؛ لما فيها من الدِّلالة علىٰ التحذير من الكذب علىٰ النبي ﷺ.

ثم ختم كتابه بذكرِ **سبَبِ وُرودِ هذا الحديث**؛ بإسناده عن **عبدِاللهِ بن الحارثِ بنِ جَزْء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: أتدرون فيم كان حديث: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»؟! كان رجل أعجبتهُ امرأةٌ من أهل قُباءَ، فطلبَها فلم يقدِر عليها؛ فأتىٰ السوقَ واشترىٰ حلةً مثل حُلَّةِ رسولِ الله ﷺ، ثم أتىٰ القومَ فقال: إنِّي رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم، وهذه حلَّتُه قد كسانِيها، وقد أمرني أن أصنَعَ في ابنتِكُم ما شِئتُ أصنعَه. فقال بعضهم: والله لقد عهِدنا رسول الله ﷺ وهو ينهَىٰ عن الفواحِشِ، فما هذا؟! قم يا فلانُ! ويا فلانُ! فانطلِقا فاسألَا، فأخبراه عن ما خبَّرَ به هذا!، فانطلقا فأخبراه، فغضِبَ حتىٰ احمرَّ وجهه؛ وقال: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»، ثم قال: «**يَا فُلَانُ وَيَا فُلَانُ! انْطَلِقَا سَرِيعًا، فَإِنْ أَدْرَكْتُمَاهُ؛ فَاقْتُلَاهُ وَأَحْرِقَاهُ؛ وَلَا أُرَاكُمَا إِلَّا سَتُكْفَيَاهُ، فَإِنْ كُفِيتُمَاهُ؛ فَأَحْرِقَاهُ بِالنَّارِ**»، ففرَّ كأنه [...]، فذهب يأخذُ ماءً؛ فخرجت أفعىٰ؛ فقتلته"(٧٨٦).

---

(٧٨٦) **إسناده حسن**: أخرجه أبو القاسم الطبراني في طرق حديث من كذب (ص١٧٥ ط: علي حسن، هشام السقا)، (١٧٨).

وفي **هذا الحديث وسبب وروده فوائد** كثيرة: **فيه** عاقبةُ الكذبِ الوخيمةِ -العاجلةِ والآجلةِ- علىٰ الله ورسوله ﷺ. **وفيه** التثبُّتُ في الحديث النبوي. **وفيه** سرعةُ الاستجابةِ لأمر الله ورسوله ﷺ. **وفيه** أنَّ الأمر يفيد

قلت: وقد اطلع **شيخنا الألباني** علىٰ الكتاب؛ فعرَّجَ علىٰ ذكر من روىٰ هذا الحديث في الضعيفة (٣/ ٧١)، (تحت: ح١٠١١، ح٦٧٧٥)؛ فساق أسماء رواته من الصحابة رضي الله عنهم، مشيرًا إلىٰ عدد طُرقه عن كلِّ واحد منهم.

قوله: **(لَا تَكْذِبُوا عَلَيَّ)**، أي: لا تنسبوا الكذب إليّ. قال **الحافظ**: "هو **عام** في كلِّ كاذِب علىٰ رسول الله ﷺ، **مطلق** في كل نوع من الكذب: في الأحكام، وغيرها -كالترغيب والترهيب- . ولا مفهوم لقوله: «**عَلَيَّ**»؛ لأنَّه لا يُتصوَّر أن يُكذَبَ له؛ لنهيه عن مطلق الكذب". الفتح (١/ ١٩٩)؛ بتصرف.

قال **القرطبي**: و"الجمهور: **خصَّصوا عموم هذا الحديث، وقيَّدوا مطلقَهُ بالأحاديث التي ذُكِرَ فيها**: «**متعمِّدًا**»؛ فإنَّهُ يُفهَمُ منها أنَّ ذلك الوعيدَ الشديدَ إنَّما يتوجَّه لمن تعمَّد الكذبَ علىٰ رسول اللهِ ﷺ. هذا مع أنَّ القاعدةَ الشرعيَّةَ القطعيَّةَ تقتضي أنَّ المخطئ والناسي غيرُ آثمَينِ ولا مؤاخَذينِ، لا سيَّما بعد التحرُّز والحذر". المفهم (١/ ١١٣)؛ باختصار.

قوله: **(فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ؛ فَلْيَلِجِ النَّارَ)**، قال **النوَوِيُّ** رحمه الله: "قيل: هو خبرٌ بلفظِ الأمرِ، أي: معناهُ: فقد استوجبَ ذلكَ؛ فليوَطِّن نفسه عليه؛ ويدلُّ عليه الروايةُ الأخرَىٰ: «**يلج النارَ**». **صحيح**: أخرجه أبو داود الطيالسي (١٠٩)، ومسلم في المقدِّمة (١)، وجاء في رواية: «**بُنِيَ له بيتٌ في النارِ**». **صحيح**: أخرجه الطبراني في طرق حديث من كذب عليَّ مُتعمِّدًا، (٥٢)، **ثمَّ** معنىٰ الحديثِ: أنَّ هذا

الوجوب مع الاستطاعة. **وفيه** أنَّ من أسباب الكذب علىٰ الله ورسوله ﷺ؛ أعراض الدنيا وأغراضها. **وفيه** أنَّ من علامات الوضع في الحديث أن تجد في متنه ما يخالفُ المعهودَ عن النبي ﷺ؛ من ركاكة لفظ وأسلوبٍ، أو نحو ذلك من المساوئ والخوارم. **وفيه** الغضبُ لله ورسوله ﷺ. **وفيه** أنَّ الوضعَ من الكبائر؛ لما ورد فيه من الوعيد في الدنيا والآخرة. **وفيه** أنَّ الغاية لا تسوِّغُ الوسيلة. **وفيه** ردٌّ علىٰ المرجئة؛ حيث ثبت المؤاخذة علىٰ المعصية في الآخرة. **وفيه** إنَّما آفة الأخبار رواتها. **وفيه** الإشهاد علىٰ الفتوىٰ للحاجة. **وفيه** أنَّ العِشق مآله إلىٰ الفساد في الأرض. **وفيه** الرضىٰ بقضاء الله وقدره. **وفيه** عقوبة الواضع للحديث **وفيه** التثبت من الأخبار عن الله ورسوله ﷺ. **وفيه** عَرضُ المسائل والمستجدّات والنوازل علىٰ عالم بالكتاب والسنَّة الصحيحة. **وفيه** اختيارُ الكُفءِ للمرأة الصالحة. **وفيه** ذمُّ الكذب والكذابين. **وفيه** أنَّ الله يسلِّطُ علىٰ الكذّابينَ والوضّاعينَ مِن خلقِه ما يشاءُ؛ غِيرةً علىٰ دينه...

جزاؤُه؛ وقد يُجازَىٰ به، وقد يعفُو الله -الكريم- عنه، ولا يُقطَعُ عليه بدخولِ النارِ.

وهكذا سبيلُ كلِّ ما جاءَ من الوعيدِ بالنارِ لأصحابِ الكبائرِ غيرِ الكفرِ؛ فكلُّها يقالُ فيها: هذا جزاؤُه وقد يُجازَىٰ وقد يُعفَىٰ عنه، ثمَّ إن جُوزِيَ وأُدخِلَ النارَ؛ فلا يُخلَّدُ فيها؛ بل لابدَّ من خروجِه منها؛ بفضل الله -تعالىٰ- ورحمته؛ ولا يخلَّدُ في النار أحدٌ ماتَ علىٰ التوحيدِ؛ وهذه قاعدةٌ متفق عليها عند أهل السنة". شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٦٨-٦٩، ط: إحياء التراث).

وفي **حديث الباب من العلم والفوائد** غير ما سبق:

فيه أنَّه لا يجوز الحديثُ عن رسولِ الله ﷺ بالشكِّ؛ حتىٰ يتيقَّنَ سماعَه ويعلمَ صِحَّته (قاله الخطابي في الأعلام (١/ ٢١٣ ط: أم القرىٰ)). **وفيه** أنَّه لا يجوز رواية الحديث الموضوع ألبتَّة؛ قال **النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يحرُم روايةُ الحديثِ **الموضوعِ**؛ علىٰ من عرَفَ كونَه موضوعًا أو غلَبَ علىٰ ظنِّه وضعُه، فهو داخلٌ في هذا الوعيدِ؛ ويدلُّ عليه -أيضًا- حديثُ: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ؛ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**»". **صحيح**: أخرجه مسلم في المقدمة والترمذي وابن ماجه. شرح مسلم للنووي (١/ ٧١).

ثمَّ إن كانَ الكذبُ علىٰ آحادِ الناسِ محرَّمًا؛ فهو علىٰ رسول الله ﷺ أشدُّ وأعظمُ؛ بل هو مِن أقبَحِ المنكراتِ و**أكبرِ الكبائرِ**؛ لما يترتَّبُ عليه من إضلالِ الناس وضياعِ الدِّينِ، والتَّقوُّلِ علىٰ الله؛ ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: «**إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ؛ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَىٰ أَحَدِكُمْ**». سيأتي برقم (١٢٩١)، وهو عند مسلم في المقدمة (٤)؛ قال **القاضي عياض السَّبتيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا كان الكذبُ ممنوعًا في الشرع جُملةً؛ فهو علىٰ النبيِّ ﷺ أشدُّ؛ لأنَّ حقَّه أعظمُ، وحقَّ الشريعةِ آكدُ، وإباحةَ الكذبِ عليه؛ ذريعةٌ إلىٰ إبطالِ شرعِه وتحريفِ دينِه". إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/ ١١٣، ط: الوفاء)، وقال **النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "جُعِلَ (أي: ردُّ رواية الكذّاب؛ إذا لم يتُب) تغليظًا وزجرًا بليغًا عن الكذبِ عليه ﷺ؛ لعِظم مفسدتِه؛ فإنَّه يصيرُ **شرعًا مُستمِرًّا** إلىٰ يوم القيامة؛ بخلاف الكذبِ علىٰ غيره". شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٧٠).

شذوذ الكرامية بإباحتهم الكذب علىٰ النبي ﷺ:

ومع هذا الوعيد الشَّديد كلِّه: "فقد شَذَّتِ الكَرّامِيَّةُ[٧٨٧] -الفِرقَةُ المبتدعةُ-؛ فجَوَّزَتْ

---

(٧٨٧) **شبهة وجوابها**:

وَضعَه في الترغيبِ والترهيبِ والزهدِ، ثم سلَك مَسلكَهم بعضُ الجَهلة المَّتسمينَ بسِمَة الزُّهّادِ -ومن نحا نحوهم وانتحَىٰ أثرَهم؛ ترغيبًا في الخير في زعمِهِمُ الباطلِ!؛ وهذه -في الحقيقة-: غباوةٌ

تعلَّق الكرامية بروايةٍ لهذا الحديثِ؛ ألَا وهي: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ (لِيُضِلَّ به)؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»؛ وزعموا: أنَّه لا يكون آثمًا؛ إلَّا إذا قصدَ بتعمُّدِ الكذبِ علىٰ النبيِّ ﷺ الإضلالَ للناسِ!؛ دونما تثبُّتٍ في هذا النقلِ، ولا التفاتٍ إلىٰ اعتبار مآلاتِ الأمور فيه!.

وقد أجاب العلماء -تفنيدًا لشبهة زعمِهِمُ الباطلِ هذا-؛ بأجوبة نُجمِلها فيما يلي:

أوَّلًا: أنَّ قوله في الحديث: (**ليُضلَّ به**)، زيادةٌ باطلَةٌ: اتَّفقَ الحفاظُ علىٰ إبطالها؛ وأنَّها لا تعرفُ صحيحةً بحالٍ.

هذا الحديثُ **منكر** -بهذه الزيادة-: أخرجه البزار (١٨٧٦) -بإسناد ظاهره الاتصال-، والطَّحَاوي في مشكل الآثار (٤١٨)، (٤١٩) -وغيره-، وحكَم شيخنا الألباني علىٰ هذه الزيادة بالنكارة في الضعيفة (١٠١١)، (٢٠٣٠).]

الثاني: أنَّ الحديث لو صحَّ بهذه الزيادة؛ فليست اللَّامُ فيه للعِلَّة (أي: التعليل)، بل للصَّيرُورَة والعاقِبة، كما فُسِّر قوله -تعالىٰ-: ﴿**فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا؛ لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٤٤]؛ والمعنىٰ: أنَّ مآلَ أمره (أي: كذبه) وعاقبتَه ومصيرَه؛ إلىٰ إضلال الناس به عنِ الحقِّ والهدَىٰ.

الثالث: أنَّ هذه الزيادة لو صحَّت؛ فهي من بابِ: تخصيصِ بعضِ أفرادِ العمومِ بالذكر؛ فلا مفهومَ لها؛ كقوله -تعالىٰ-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً**﴾ [آل عمران: ١٣٠]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ**﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ فإنَّ: قتلَ الأولاد، ومضاعفةَ الربا، والإضلالَ للناس: إنما هو لتأكيدِ الأمرِ؛ لا لاختصاصِ الحُكم!؛ وهذا هو الذي جنحَ إليه **أبو جعفر الطَّحَاويُّ والحافظُ** وغيرهما". انظر: شرح مشكل الآثار (١/ ٣٧١)، شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٥٦، ٧٠، ٧١)، الفتح (١/ ٢٠٠)، الضعيفة للألباني (٣/ ٧٠-٧١)، (تحت: ح ١٠١١) -بتصرف-.

بل استدلَّ بعضهم علىٰ الجواز: بأنهم يكذبون للشريعة وللرسول -عليه السلام-، لا عليه ﷺ!!، وقد أجابهم **النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: "وهذا الذي انتحلوه وفعلوه واستدلوا به؛ غايةُ الجهالةِ، ونهايةُ الغفلةِ، وأدلُّ الدلائلِ علىٰ بُعدهم من معرفةِ شيءٍ مِن قواعدِ الشرعِ، وقد جمعوا فيه جملًا من الأغاليطِ؛ اللَّائقة بعقولهم السخيفة وأذهانهم البعيدة الفاسدة؛ فخالفوا قولَ الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**﴾ [الإسراء: ٣٦]، وخالفوا صريحَ هذه الأحاديثِ المتواترةِ والأحاديث الصّريحة المشهورةِ في إعظامِ شهادة الزّورِ، وخالفوا إجماعَ أهل الحلِّ والعَقد، وغير ذلك من الدَّلائل القطعياتِ في تحريم الكذبِ علىٰ آحاد الناسِ؛ فكيف بمن قولُه شرعٌ وكلامه وحيٌ..؛ قال الله -تعالىٰ-: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ؛ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٣- ٤]، ومن أعجب الأشياء؛ قولهم: (هذا كذِبٌ له!!)، وهذا جهلٌ منهم بلسان العرب، وخطاب الشرع؛ فإنَّ كلَّ ذلك عندهم: كذبٌ عليه". شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٧٠) -بتصرف-.

ظاهرةٌ وجهالةٌ متناهيةٌ!!" شرح النووي (١/ ٥٦)، ولا فرقَ في تحريم الكذب عليه ﷺ بين: ما كان في الأحكامِ، أو الترغيب والترهيب والمواعظ وغير ذلك؛ فكلُّه: حرامٌ من أكبرِ الكبائرِ وأقبح القبائح؛ بإجماعِ المسلمينَ الذين يُعتدُّ بهم في الإجماع.

تنبيه: كلُّ أهل البدع من القدماء والمعاصرين: يكذبون علىٰ النبي ﷺ

إنَّ جميع أهل البدع يكذبون، فإن كانت الكرامية تبيح ذلك في الترغيب والترهيب، فإنَّ غيرهم يؤيِّدون بدعتهم بمثل هذه الأحاديث التي توافقهم، فالخوارج، والقدرية، والمعتزلة، والجهمية، والصوفية، ومتعصِّبة المذاهب –كالذين وضعوا أحاديث في فضل أبي حنيفة، وذم الشافعي–، والتبليغيون، والإخوان المسلمون، وغيرهم كثير –لا كثرهم الله–؛ فإنَّهم إمَّا أن يضعوا الحديث عليه ﷺ، أو يحرِّفوا اللفظ ليوافقهم، أو يتساهلوا في روايته لأنَّه يوافق ما هم عليه، وإحدىٰ العلاماتِ الفارقةِ بين أهلِ السنة وغيرِهم: الاعتناءُ بالحديثِ الصّحيحِ، والتحذيرُ من الضَّعيفِ والموضوعِ؛ ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾ [الزمر: ٣٣]، قال **شيخ الإسلام** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أهلُ الحديثِ يتَحرَّونَ الصِّدقَ: حتىٰ إنَّ كثيرًا من الكلامِ الذي هو في نفسهِ صدقٌ وحقٌّ موافقٌ للكتابِ والسنةِ يُروىٰ عن النبي ﷺ!؛ فيَضَعِّفونه، أو يقولون: هو كذِبٌ عليه؛ لكونه لم يقله، أو لم يثبت عنه؛ وإن كان معناه حقًّا". درءُ تعارضِ العقلِ والنقلِ (٥ / ٣٩٠).

وقال شيخ الإسلام –أيضا–: "فالواجبُ أن يُفرَّقَ بين الحديثِ الصَّحيحِ والحديثِ الكَذِب؛ فإنَّ **السُّنة**: هي **الحقُّ** دون الباطلِ، وهي: **الأحاديثُ الصَّحيحة** دون الموضوعةِ؛ **فهذا أصلٌ عظيمٌ: لأهل الإسلامِ** –عمومًا، **ولمن يَدّعي السُّنة** –خصوصا–". مجموع الفتاوىٰ (٣/ ٣٨٠).

فكلُّ أهل الأهواء والبدع يكذبون عليه ﷺ؛ قال **عليُّ بنُ حربٍ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "من قدرَ ألَّا يكتُبَ الحديثَ إلَّا عن صاحبِ سُنة؛ فإنَّهم يكذبون: كلُّ صاحبِ هوًىٰ يكذبُ ولا يُبالي!!". صحيح: أخرجه الخطيب في الكفاية (ص١٢٣، ط: دائرة المعارف)، وقال **حماد بن أبي سلمة** رَحِمَهُ اللَّهُ: حدَّثني شيخ لهم –يعني: الرافضة– تابَ، قال: "كنَّا إذا اجتمعنا واستَحسَنّا شيئًا؛ جعلناه حديثًا". صحيح: أخرجه الخطيب في الجامع (١/ ١٣٨، ط: المعارف)، (١٦٢).

وقال **عبدالله بن لهيعة** رَحِمَهُ اللَّهُ: "سمعت شيخًا من الخوارجِ تابَ ورجعَ؛ وهو يقول: "إنَّ هذه الأحاديثَ دِينٌ؛ فانظروا عمَّن تأخذونَ دينكم، فإنَّا كنا إذا هَوينا أمرًا؛ صيَّرناه حديثًا!". إسناده

حسن: أخرجه الفريابي في الفوائد (٢٤)، والخطيب في الجامع (١٦١)، والكفاية (ص١٢٣)؛ من طريق عبدالله المقرئ -أحد العبادلة- عنه.

وأعظمُ الفرقِ كذبًا علىٰ الله ورسوله ﷺ فرقةُ الروافضِ؛ قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الذين أدخلوا في دينِ الله ما ليس منه، وحرَّفوا أحكام الشريعة؛ ليسوا في طائفة أكثرَ منهم في الرافضة؛ فإنَّهم أدخلوا في دينِ الله من الكذبِ علىٰ رسول الله ﷺ ما لم يَكذِبه غيرهم، ورَدُّوا من الصِّدق ما لم يردَّه غيرهم، وحرَّفوا القرآن تحريفًا لم يحرِّفه غيرهم...، ومَن تدبَّرَ ما عندهم؛ وجدَ فيه من الكذبِ في المنقولاتِ، والتكذيبِ بالحقِّ منها، والتحريفِ لمعانيها؛ ما لا يُوجد في صِنفٍ من المسلمينَ. فهم قطعًا أدخَلوا في دينِ الله ما ليسَ منه؛ أكثر من كلِّ أحدٍ، وحرَّفوا كتابه تحريفًا لم يصل غيرُهم إلىٰ قريبٍ منه". منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٠٣-٤٠٥).

والواجب أن يروي الحديث كما هو سواء وافق رأيه وهواه أو خالفه، لذلك كانت من علامات أهل البدع، أنَّهم لا يروون إلا ما يؤيِّدهم، وهم مع ذلك يحبُّون كتمان النصوص التي تخالفهم، **قال وكيع**: «من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنَّة، ومن طلبه ليقوِّي به رأيه فهو صاحب بدعة»(٧٨٨). **قال شيخ الإسلام**: «لا تجد قط مبتدعًا إلا وهو يحبُّ كتمان النصوص التي تخالفه ويبغضها، ويبغض إظهارها وروايتها والتحدُّث بها، ويبغض من يفعل ذلك»(٧٨٩). وهم لضعف حجتَّهم، وقلَّة حيلتهم يتعلَّقون بكلِّ ما يوافق بدعتهم، ولا يلتفتون إلىٰ صحة ولا ضعف، قال **أبوالقاسم الأصبهاني**: «يحتجُّ -أهل الأهواء- بقول التابعي علىٰ قول النبي ﷺ أو بحديث مرسل ضعيف علىٰ حديث متصل قويّ، ومن ها هنا امتاز أهل اتِّباع السنَّة من غيرهم، لأنَّ صاحب السنة لا يألوا أن يتَّبع من السنن أقواها، ومن الشهود عليها أعدلها وأتقاها، **وصاحب الهوىٰ كالغريق يتعلَّق بكل عُود ضعيف أو قوي**، وكان المتَّبع لا يتَّبع من الآثار إلا ما هو عند العلماء أقوىٰ". الحجَّة في بيان المحجَّة (٢٤٨/ ٢، ط: دار الراية).

أنواع الكذب علىٰ الله ورسوله.

وقد **يدخل في الكذِب عليه**: روايةُ الأحاديثِ الضعيفةِ؛ ولا سيَّما الواهيَةِ منها؛ ولو في

---

(٧٨٨) **صحيح**: ذم الكلام (١/ ١٨٨) من كلام وكيع

(٧٨٩) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٨)، .

فضائلِ الأعمالِ، أو غيرها من أبوابِ الترغيبِ والترهيبِ؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال -عزَّ وجلَّ-: ﴿**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ**﴾ [النجم: ٢٣]، وفي الحديثِ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ**». سيأتي برقم (٥١٤٣).

ويدخل في الكذب عليه -أيضًا-: تحريفُ النصوصِ -كما ذكرنا آنفًا-، والقولُ بأنَّ المرادَ مِن هذا النصِّ وهذا الحديثِ: كذا وكذا!!؛ فيُخرِجونه عن معناه الذي أراده الله به؛ فـ: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦].

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأيضًا فإنَّه قال: ﴿**وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [البقرة: ٧٨]؛ فدلَّ علىٰ أنَّه ذمَّهم علىٰ نفي العلم، وعلىٰ أنَّه ليس معهم إلَّا الظنُّ؛ وهذا حالُ الجاهلِ بمعاني الكتابِ؛ لا حالُ مَن يعلم أنَّه يكذبُ؛ فظهرَ أنَّ هذا الصنفَ ... هُمُ الذِّين: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾ [النساء: ٤٦]، [المائدة: ١٣]، و﴿**يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ؛ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ [آل عمران: ٧٨]، و﴿**يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾ [البقرة: ٧٩]؛ ﴿**لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا**﴾ [البقرة: ٧٩]؛ فهم: يحرِّفونَ معانيَ الكتابِ، وهم: يحرِّفون لفظَه لمن لم يعرفه؛ ويكذبونَ في لفظِهم وخطِّهم". مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٤٤٢).

ومن ذلك -أيضًا-: التحدُّثُ بالحديثِ علىٰ سَبيلِ التوهُّم، مع عدمِ التثبُّت من صِحَّته؛ يؤيِّده قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَىٰ أَنَّهُ كَذِبٌ؛ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ**». صحيح: سبق تخريجه؛ فقوله: «**يُرَىٰ**»، أي: يظنُّ؛ فهو غيرُ مُستَيقنٍ من صِحَّته.

فَأينَ هذا مِن روايةِ الأحاديثِ التي لا زِمامَ لها ولا خِطام؟!؛ يحدِّثُ بها الخُطباء والوُعّاظ علىٰ المنابر؟!؛ بل بعضُ من ينتمي للعلمِ!!، يتلقَّفونها من أيِّ كتابٍ!، ويحدِّثون الناسَ بها دونما تثبُّتٍ وتحقيقٍ؛ بل بالتقليدِ ونحوه؛ وهذا من الغِشِّ للأمةِ، والتهاوُنِ بهذا الأمرِ العظيم! وبعضها يُفسِدُ العقائدَ والأحكامَ، ويُسِيءُ للنبيِّ ﷺ وللأمَّةِ، ويُشوِّهُ جمالَ الإسلامِ، من حيث يريد أن يصلح.

ومن الكذب عليه: دعوىٰ السماع منه في المنام لقوله ﷺ: "**من رآني في المنام فقد رآني، فإنَّ الشيطان لا يتمثَّل بي، ومن كذب عليَّ متعمِّدا فليتبوأ مقعده من النار**". يأتي قريبًا.

وبعضهم يقول: العُهدة علىٰ الرّاوي لها!؛ والرَّدُّ عليه في قوله -تعالىٰ-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ [الحجرات: ٦]،

قال **ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ لبعض الأكابر: "**إنَّ العلمَ**: ما قامَ عليهِ الدَّليلُ، **والنافعُ منه**: ما جاء به الرسول ﷺ؛ وهو: **النقلُ المصدَّقُ، والبحثُ المحقَّقُ؛ وما سوىٰ ذلك** -وإن زخرفَ مثلَه بعضُ الناسِ-: **خَزَفٌ مُزَوَّقٌ؛ وإلَّا فباطلٌ مُطلقٌ**". مجموع الفتاوىٰ (٦/ ٣٨٨) -بتصرف-.

وفي الحديث: وجوبُ الاعتناءِ بألفاظِ الحديثِ، وأن يكون الراوي علىٰ درايةٍ وعلمٍ باللِّسان العربيِّ؛ قال **النوويُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: ".. قال **العلماء**: وينبغي لقارئِ الحديثِ أن يعرفَ من النحوِ واللغةِ وأسماءِ الرجالِ؛ ما يَسلَمُ به من: قولِه ما لم يقُل". شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ٧١)؛ ولأنَّ الخطأَ في قراءةِ الحديثِ، واللَّحنَ فيه: قد يدخلُ -أيضًا- في الكذبِ علىٰ النبي ﷺ؛ ولا سيَّما إنِ استهانَ بالأمرِ، أو قصَّر فيه؛ فتعمَّدَ عدمَ الضبطِ، أو لم يهتمَّ بذلك -أصلًا-.

قال **أبو حاتم ابنُ حِبّانَ البُستيُّ** (٣٥٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكلامُ مِثلُ اللُّؤلُؤِ الأزهرِ ...، وأحوجُ الناس إلىٰ لزومِ الأدبِ وتعلُّمِ الفصاحةِ أهلُ العلمِ؛ لكثرةِ قراءتهم الأحاديثَ، وخوضِهم في أنواع العلوم.

ثم ذكرَ في مُسنَدَةٍ له عن **الأصمعيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: إنَّ أخوفَ ما أخافُ علىٰ طالبِ العلمِ: إذا لم يعرفِ النحوَ؛ أن يدخُلَ فيما قال النبي ﷺ: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»؛ لأنَّه -عليه الصلاة والسلام- لم يكن لَحّانا، ولم يَلحنْ في حدِيثه: فمَهما روَيتَ عنه ولحنتَ فيه؛ كذبتَ عليه". روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص ٢٢٣، ط: علمية) -بتصرف-.

قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما اللَّحنُ في الحديثِ؛ فهو شديدٌ!!. وقال **الشعبيُّ**: لا بأس أن يُعرِبَ الحديثَ؛ إذا كان فيه اللَّحنُ (يعني: يصحِّحُ اللَّحنَ والخطأ). وقال **أحمدُ بن حنبلَ**: يجبُ إعرابُ اللَّحنِ؛ لأنَّهم لم يكونوا يلحَنونَ؛ وإنَّما جاءَ اللَّحنُ بعدهم". شرح البخاري (١/ ١٨٥-١٨٦، ط: الرشد).

١٠٧- حَدَّثَنَا أبوالوَلِيدِ (الطيالسي، هشام بن عبدالملك الباهلي مولاهم، البصري)، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ جَامِعِ بْنِ شَدَّادٍ، عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ، قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ

أُفَارِقْهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ (ليتخذْ لنفسه منزلًا) مِنَ النَّارِ».

وأخرجه أبوداود (٣٦٥١)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩١٢) [في ط. الرسالة: (٥٨٨١)]، وابن ماجه (٣٦).

الشرح

قوله: (قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ: إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ)، وفي رواية: "كَمَا أَسْمَعُ ابْنَ مَسْعُودٍ، وَفُلَانًا وَفُلَانًا؟!". **صحيح**: أخرجه أحمد (١٤١٣)، وابن ماجه (٣٦)، وصحَّحه شيخنا الألباني -في سنن ابن ماجة والروض-.

الورع وقلة الرواية عن النبي ﷺ

وقوله: (قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ...)، أي: لم تكن قلَّة روايتي عن رسول الله ﷺ -منذ أسلمتُ- بسبب تخلُّفي عنه[٧٩٠] أو عدم سماعي منه، أو قلَّة ذلك؛ وإنَّما المانع من ذلك خشيتي أن يصيبني شيء من هذا الوعيد؛ جرّاءَ الخطأ الذي قد يقع مني؛ بسبب كثرة الرواية، ولأنَّي لو كنت محدِّثًا عنه يلزمني تعاهد مروياتي للحديث، وهذا يتطلَّب الكثير من الوقت، وقد كان منشغلاً بأمور أخرىٰ كثيرة، وفي رواية قال لابنه عبدالله بن الزبير: "يا بُنَيّ كان بيني وبينه من القرابة والرحم ما علمتَ، وعمَّته أمي، وزوجته خديجة عمتي، وأمه آمنة بنت وهب، وجدتي هالة بنت وهب ابني وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وعندي أمك، وأختها عائشة عنده، ولكني سمعته يقول: ..." الفتح (١/ ٢٠٠)، وعزاه إلىٰ الزبير بن بكار.

وأيضًا صحَّ في الحديث عَنْ أَبِي قَتَادَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ عَلَىٰ هَذَا الْمِنْبَرِ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَدِيثِ عَنِّي، مَنْ قَالَ عَلَيَّ فَلَا يَقُولَنَّ إِلَّا حَقًّا أَوْ صِدْقًا، فَمَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**[٧٩١].

وعن عمرو بن ميمون قال: كنت لا تفوتني عشية خميس إلا آتىٰ فيها **عبدالله بن مسعود**

---

(٧٩٠) هذا محمول علىٰ غالب حاله، وإلا فقد هاجر الزبير إلىٰ الحبشة، كما أنه لم يكن مع النبي ﷺ حال الهجرة إلىٰ المدينة. ينظر: الفتح (١/ ٢٠٠).

(٧٩١) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٢٢٥٣٨)، وابن ماجه (٣٥)، وهناد في الزهد (٢/ ٦٣٩). وصحَّحه شيخنا الإمام الألباني في الصحيحة (١٧٥٣).

ﷺ-، فما سمعته يقول لشيء -قطّ-: قال رسول الله؛ حتىٰ كانت ذات عشية فقال: "قال رسول الله ﷺ"، قال: فاغرورقتا عيناه وانتفخت أوداجه، فأنا رأيته محلولةً أزرارُه، وقال: "أو مثلُه، أو نحوُه، أو شبيهٌ به" **صحيح**: أخرجه أحمد (٤٣٢١)، وابن ماجه (٢٣)، والدارمي (٢٧٨) -واللفظ له-، وغيرهم.

قلت: مع أنَّ ابن مسعود ﷺ- كان من أوعية العلم، وأعيان العلماء. وفي رواية: قال علقمة: "فنظرت إليه وهو معتمد علىٰ عصا، فنظرت إلىٰ العصا يُزَعزَع". أخرجه الطبراني في الكبير (٨٦٢١). وعن ثابت بن قطبة الأنصاري قال: كان **عبدالله** يحدِّثنا في الشهر بالحديثين أو الثلاثة. **حسن**: أخرجه الدارمي (٢٨٢). وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، قَالَ: كَانَ **أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ** قليل الحديث عن رسول الله ﷺ، وإِذَا حَدَّثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا فَفَرَغَ مِنْهُ؛ قَالَ: "أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ". **صحيح**: أخرجه أحمد (١٣١٢٤)، وابن ماجه (٢٤)، والدارمي(٢٨٤) -واللفظ له-، وسبق عنه بمعناه.

وعن توبة العنبري قال: قال لي **الشعبي**: أرأيت فلانًا الذي يقول: قال رسول الله، قال رسول الله؟! قعدتُ مع **ابن عمر** سنتين أو سنة ونصفًا؛ فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ شيئًا إلا هذا الحديث. **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٤٦٥)، وابن ماجه (٢٦)، والدارمي (٢٨٠) - واللفظ له-، ، وصححَّه شيخنا. **قلت**: يقصد حديث أكل الضبّ. **صحيح**: أخرجه أحمد (٥٥٦٥).

وعن مجاهد قال: صحبتُ **ابنَ عمر** إلىٰ المدينة؛ فما سمعته يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا. أخرجه مسلم (بعد ٢٨١١). **قلت**: يقصد حديث النخلة. أخرجه مسلم (٢٨١١).

وعن السائب بن يزيد قال: خرجتُ مع **سعد** إلىٰ مكة؛ فما سمعته يحدث حديثًا عن رسول الله ﷺ حتىٰ رجعنا إلىٰ المدينة. **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٩)، والدارمي (٢٧٨) -واللفظ له-، وأصله في البخاري (٢٨٢٤).

عن ابن أبي ليلىٰ قال: قلنا **لزيد بن أرقم** ﷺ-: حدِّثنا عن رسول الله ﷺ. قال: كبِرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد. **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٥)، وغيره.

وعن صالح الدهان: قال ما سمعت **جابر بن زيد** (التابعي الفقيه) يقول -قطّ-: قال رسول الله ﷺ؛ إعظامًا واتِّقاءً أن يكذب عليه. **حسن**: أخرجه الدارمي (٢٩١).

فقد كانوا يهابون الحديث عنه ﷺ، ويخافون الخطأ والزلل فيه، ولا سيَّما أنَّهم قد انشغلوا

بواجبات أخرىٰ، من الفتوحات والولايات ونحوها، ممَّا جعلهم يقلِّلون الرواية مع علمهم بحديث رسول الله ﷺ؛ كما قَالَ **أَنَسٌ** رضي الله عنه -: إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثًا كَثِيرًا..." متفق عليه، وهذا الزبير بن العوام امتنع لنفس العلة، وهذا من شدة ورعهم رضي الله عنهم، وعَنْ قَرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه -، قَالَ: بَعَثَ **عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ** رضي الله عنه - رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَىٰ الْكُوفَةِ، فَبَعَثَنِي مَعَهُمْ، فَجَعَلَ يَمْشِي مَعَنَا حَتَّىٰ أَتَىٰ صِرَارَ - وَصِرَارُ: مَاءٌ فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ - فَجَعَلَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الْكُوفَةَ، فَتَأْتُونَ قَوْمًا لَهُمْ أَزِيزٌ بِالْقُرْآنِ فَيَأْتُونَكُمْ فَيَقُولُونَ: قَدِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ! قَدِمَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ! فَيَأْتُونَكُمْ فَيَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْحَدِيثِ، ... فَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَا شَرِيكُكُمْ فِيهِ.

قَالَ قَرَظَةُ: وَإِنْ كُنْتُ لَأَجْلِسُ فِي الْقَوْمِ فَيَذْكُرُونَ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِنِّي لَمِنْ أَحْفَظِهِمْ لَهُ. فَإِذَا ذَكَرْتُ وَصِيَّةَ عُمَرَ رضي الله عنه - سَكَتُّ.

قَالَ أَبُومُحَمَّدٍ الدارمي: مَعْنَاهُ عِنْدِي: الْحَدِيثُ عَنْ أَيَّامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْسَ السُّنَنَ وَالْفَرَائِضَ. **صحيح لغيره**: أخرجه الدارمي (٢٨٨)، صحيح ابن ماجة (٢٨).

قلت: وتوجيهه يزيل توهم المنع من الحديث مطلقًا؛ فيكون المراد: أي: حدِّثوا بما تقوم به الحاجة، ويجب نشره من السنن والفرائض.

لذلك قال **ابن بطَّال**: "كان كثير من كبار الصحابة لا يحدّثون عن رسول الله ﷺ؛ خشيةَ المزيد والنقصان". شرح البخاري (٥/ ٣٦) بتصرف. هذا مع القاعدة الشرعية: أنَّ المخطئ والناسيَ غيرُ آثمين ولا مؤاخذَين.

هذا وقد ورد عن بعضهم الرواية، والإكثار منها كأبي هريرة وغيره، وهذا محمول علىٰ أنَّهم كانوا واثقين من حفظهم ومتثبِّتين منه، واحتيج إليهم فلم يمكنهم الكتمان، رضي الله عنهم.

فمع ورعهم ذلك، إلا أنَّهم ورد عنهم أحاديث كثيرة، كما كان الحال من أنس، فمع خوفه وورعه، فإنَّه هو وغيره، -مع حرصهم هذا- قد بلَّغوا ما رأوا أنَّه واجب عليهم تبليغه، ولم يكتموا العلمَ، وما سكوتهم عن تبليغ بعض حديث رسول الله ﷺ إلا لعلمهم أنَّ غيرهم قد أدَّاه، فإنَّ بعض الصحابة رضي الله عنهم، كانوا يرون عدم جواز كتمان شيء من الحديث، وعملوا بقوله ﷺ: **(ليبلِّغ الشاهد منكم الغائب)**.

وكان أبو هريرة يقول: وكان يقول: "وايم الله لولا آية في كتاب الله ما حدَّثتكم بشيء أبداً، ثمَّ يتلو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[البقرة: ١٥٩].

وقال: "وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ...﴾ [البقرة: ١٥٩] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]".

قوله: (فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ)، أمر من التبَوُّء، وهو اتخاذ المَباءة، أي: فليتَّخذ لنفسه منزلا في جهنم، والمقصود هو الوعيد علىٰ ذلك، فهذا وعيد أكيد وتهديد شديد في الكذب علىٰ النبي ﷺ، قال -تعالىٰ-: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

وانظر أخي المسلم! كيف أنَّ الله -تعالىٰ- يفضح الكاذب علىٰ النبي ﷺ فضيحة عظيمة، فإنَّ كثيراً من الناس قد كذبوا في التاريخ علىٰ بعضهم، ولا يزالون، ولكنَّ الكذابين علىٰ الله ورسوله يفضحهم الله، وهم مذكورون في الكتب، قد سُطِّرت أسماؤهم علىٰ مرِّ العصور، ومعلومون ومشهورون بين الناس: "فلان كذاب!"، "فلان ركن من أركان الكذب!!"، وهكذا إلىٰ أن يرث الله الأرضَ ومَن عليها.

فلا تجوز رواية الحديث الضعيفِ والموضوعِ إلا علىٰ سبيل التحذير منه، والبيان لعلته، قال **ابن الوزير**: "ذكر المحقِّقون أنَّ الكذبَ علىٰ رسول الله ﷺ لم يَكُنْ في زمنِ الصحابة، ولا في زمنِ التابعين، لا مِن بَرِّهم، ولا مِنْ فاجرهم، وإنَّما كان ذلك في أيامِ بني العباسِ". العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (٢/ ٤٣). ولذلك قال -عليه الصلاة والسلام-: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الكَذِبُ**». صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وإن كان بدا شيء منه في أواخر عهدهم كما سبق في أثر ابن عباس.

والحديث فيه وجوب ذَبِّ الكذبِ عن حديثه -عليه الصلاة والسلام-، **وفيه** التحذير من الكذَّابين والوضاعين.

الحذر من الكتب التي هي مظانُّ الضعيف والموضوع والغرائب

وفيه الحذر من الكتب التي تكثر فيها الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، ومظنَّة ذلك كتاب **"إحياء علوم الدين"**، و**"الحلية"** لأبي نعيم، قال **الشيخ الشقيري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد عزاها (أي: إحدىٰ القصص) بعضهم إلىٰ الحلية، وكم فيها من طامات ورزايا وأباطيل وأكاذيب" السنن والمبتدعات (ص ٢٤٣)، وغيرُ "الحلية" من كتب الوعظ، قال **ابن الوزير**: "وليحذر كتب الصالحين (أي: كتب الوعاظ، والقصاصين)، ومن ينتمي إلىٰ الوعظ، فإنَّهم لم يألوا في الكذب علىٰ رسول الله بقصد وبغير قصد، ولا كتاب يعوَّل علىٰ حديث منها إلا كتاب ابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وهناد بن السري (يعني: كتب الزهد والرقائق)". النص الكامل من العواصم والقواصم (ص ٣٧٠).

وقال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجمهور هذه التصانيف التي صنِّفت لا تستند إلىٰ أصل، وإنَّما واقعات تلقّفها بعضهم عن بعض ودَوَّنوها، وقد سمَّوها بالعلم الباطن!. قال إسحاق بن حيَّة: سمعت **أحمد بن حنبل** وقد سئل عن الوساوس والخطرات؟ فقال: ما تكلَّم فيها الصحابة ولا التابعون". تلبيس إبليس (ص ١٥٠) بتصرف. **قلت**: وسمَّوا علم الشريعة، والنصوص الشرعية من الكتاب والسنَّة: علمَ الظاهر!

وكذا يُحذَرُ من كتب متعصِّبي المذاهب، فقد كان للتعصُّب المذهبي أثره السيء علىٰ الإسلام وأهله؛ حيث يكذب أحدهم، وينسب أحاديث مكذوبة، ويرفعها إلىٰ النبي ﷺ كذبًا؛ انتصارًا لمذهبه(٧٩٢).

---

(٧٩٢) والأمثلة علىٰ هذا كثيرة جداً، ومثال ذلك: لَمَّا قِيْلَ **لِمُحَمَّدِ بْنِ عُكَاشَةَ الْكَرْمَانِيِّ**: "إِنَّ قَوْمًا يَرْفَعُونَ أَيْدِيَهُمْ فِي الرُّكُوعِ وَبَعْدَ رَفْعِ الرَّأْسِ مِنَ الرُّكُوعِ، فَقَالَ حَدَّثَنَا الْمُسَيَّبُ بْنُ وَاضِحٍ ... عَنْ **أَنَسٍ** مَرْفُوعًا: **"مَنْ رَفَعَ يَدَيْهِ فِي الرُّكُوعِ فَلا صَلاةَ لَهُ"**. حديث أخرجه ابن الجوزي في "الموضوعات" (١/ ٤٣)، قال **الشوكاني** في "الفوائد المجموعة" (ص ٢٩): "رواه الجوزقاني عن أنس مرفوعًا، وهو موضوع، والمتهم به محمد بن عكاشة الكرماني".

كما وضعوا الأحاديث انتصاراً لأئمَّة مذهبهم -وهم منهم برآء-، كما أشرنا إلىٰ هذا من قبل، ومن أمثلة ذلك أيضًا: ما وضعوه في هذا حديث: **"يَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَال لَهُ النُّعْمَان بْن ثَابِت، يكنىٰ أَبَا حَنِيفَةَ، يُحيِي الله علىٰ يَدَيْهِ ديني وسنتي"** الموضوعات (٢/ ٤٩).

ومن ذلك -أيضًا- ما وضعوه في منقبة أبي حنيفة النعمان، ومن ذمٍّ للشافعي، كحديث: **"يَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ، أَضَرُّ عَلَىٰ أُمَّتِي مِنْ إِبْلِيسَ، وَيَكُونُ فِي أُمَّتِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أَبُوحَنِيفَةَ، هُوَ سِرَاجُ**

وقد امتلأت الكتب المذهبية بالأحاديث الواهية والموضوعة والضعيفة والاحتجاج بها، واستنباط الأحكام منها، مع إجماعهم علىٰ عدم جواز الأخذ بالضعيف في الأحكام، ومع تحقيق أحاديث كلِّ مذهب، وبيان ضعفها ووضعها، وعللها، ولكن أعماهم عن ذلك التعصُّب المذهبي، فالحذر الحذر من مثل هذا.

كما أنَّ في هذه الكتب لا سيَّما كتب المتأخِّرين منهم، ما ينافي عقيدة السلف ومنهجهم، وفي بعضها الدعوة إلىٰ الشرك والاستغاثة بغير الله، واتباع الطرقيين، وبثّ الانحراف، في أنواع التوحيد الأربعة، وفيها من البدع والمحدثات ما الله به عليم.

قال **المناوي** في "فيض القدير" (٦/ ٢١٤): "وهذا وعيد شديد، يفيد أنَّ ذلك من أكبر الكبائر، ولا سيمَّا في الدين، وعليه الإجماع، ولا التفات إلىٰ ما شذَّ به الكرامية من حِلِّ وضع الحديث في الترغيب والترهيب، واقتدىٰ بهم بعض جهلة المتصوفة (**قلت**: وكالتبليغيين) فأباحوه في ذلك؛ ترغيباً في الخير بزعمهم الباطل، وهذه غباوة ظاهرة وجهالة متناهية. قال **ابن جماعة** وغيره: وهؤلاء أعظم الأصناف ضررًا وأكثر خطرًا، إذ لسان حالهم يقول: الشريعة محتاجة لكذا؛ فنكملها!!".

١٠٨- حَدَّثَنَا أبومَعْمَرٍ (عبدالله بن عمرو بن أبي الحجاج -ميسرة- التميمي، يلقب بالمُقْعَد)، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالوَارِثِ (ابن سعيد بن ذكوان العنبري مولاهم)، عَنْ عَبْدِالعَزِيزِ (ابن صهيب البناني)، **قَالَ أَنَسٌ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي أَنْ أُحَدِّثَكُمْ حَدِيثًا كَثِيرًا؛ أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ: «مَنْ تَعَمَّدَ** (قصد) **عَلَيَّ كَذِبًا؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**.

وأخرجه مسلم (٢) والترمذي (٢٦٦١) والنسائي في الكبرىٰ (٥٩١٣، ٥٩١٤) [ط. الرسالة: (٥٨٨٢-٥٨٨٣)] وابن ماجه (٣٢).

الشرح

أُمَّتِي". انظر: تدريب الراوي (١/ ٣٢٨)، الموضوعات (٢/ ٤٨)..

قوله: (إِنَّهُ لَيَمْنَعُنِي ...)، أي: أخشىٰ أن يجُرّني كثرة الحديث إلىٰ الكذب ولو خطأً، وقد سبق الكلام علىٰ مسألة امتناع الكثير من الصحابة من التحديث عن النبي ﷺ مهابة الخطأ عليه مع كثرة ملازمتهم له، فهذا أنس لازم النبي ﷺ وخدمه عشر سنين، ولم يحدِّث عنه بكلِّ ما سمع خشية الخطأ في الحديث، رغم أنَّه كان من المكثرين عنه، ولكن ما عنده أكثر بكثير ممَّا حدَّث به.

قوله: (مَنْ تَعَمَّدَ عَلَيَّ كَذِبًا)، فيه أنّ الوعيد الشديد الأكيد -الذي ورد- هو فيمن كان متعمِّدًا، أمَّا الخطأ؛ فلا يشمله الوعيد، قال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ [الأحزاب: ٥]، وقوله ﷺ: «**رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**». صحيح: الإرواء (٢٥٦٦).

وفي هذا دليل لقول أهل السنة من أنَّ الكذب هو الإخبار بالشيء علىٰ خلاف ما هو عليه، سواءً كان عمدًا أو خطأ، خلافًا للمعتزلة الذين جعلوا الكذب لا يطلق إلا علىٰ المتعمَّد، وهذا باطل، فالحديث يردُّ عليهم؛ إذ لو اخْتُصَّ الكذب بالعمد؛ لم يكن لتقييده به كبير فائدة.

وورد عن السلف إطلاق الكذب علىٰ الخطأ، وهي لغة أهل الحجاز -كما سبق-، وورد عن النبي ﷺ قوله: «**كَذَبَ أَبُو السَّنَابِلِ**» أخرجه أحمد (٤٢٧٣) وغيره، وأصله في الصحيحين، قال **شيخ الإسلام**: " وكذلك لـمَّا قال سلمة بن الأكوع إنَّهم يقولون: إنَّ عامرا قتل نفسه، وحبط عمله، فقال: (**كَذَبَ مَنْ قَالَهَا، إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ**)، وكان قائل ذلك لم يتعمَّد الكذب، فإنَّه كان رجلاً صالحـًا، وقد روي أنَّه كان أسيدَ بنَ الحُضَير، لكنَّه لمـَّا تكلَّم بلا علم، كذّبه النبي ﷺ". الفتاوىٰ الكبرىٰ (١/ ١٩١).

وَعَنِ **ابْنِ عُمَرَ** أَنَّهُ قَالَ: "كَذَبَ أَبُوهُرَيْرَةَ" جامع بيان العلم وفضله (٢١٤٨)، وقَولِ **ابْنِ عَبَّاسٍ**: "كَذَبَ نَوْفٌ" مسند أحمد (٢١١١٤)، وقَولِ **عَطَاءٍ**: "كَذَبَ عِكْرِمَةُ" مصنف ابن أبي شيبة (١٩٥١)، ونحو ذلك، كلُّ هذا بمعنىٰ: أخطأ، وقد سبق الكلام علىٰ هذا.

قوله: (كَذِبًا)، هو نكرة في سياق الشرط؛ فيعمُّ جميع أنواع الكذب؛ كما سبق؛ سواء بنسبة قول لم يقله أو نسبة فعل لم يفعله، والله أعلم.

١٠٩ - حَدَّثَنَا مَكِّيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ (ابن بَشِير التميمي البَلْخي)، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ (الأسلمي،

مولىٰ سلمة بن الأكوع)، عَنْ سَلَمَةَ[٧٩٣] ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:
«مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ (أي: ينسب إليَّ قولًا لم أقله) فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

الشرح

هذا الحديث أول ثلاثي وقع في البخاري، وهو من أفراده، ولم يروه إلا في هذا الموضع.

قوله: (مَنْ يَقُلْ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ)، هذه صيغة من صيغ العموم، فيدخل فيها أيُّ كذب عليه في دين أو دنيا، في حلال أو حرام، أو في فضائل وترغيب وترهيب، وغير ذلك، وإن كان هذا اللفظ خاصًا بنسبة القول إليه علىٰ وجه الكذب والزور، إلا أنَّ حديث أنس والزبير السابقين يعمَّان نسبة الفعل إليه -أيضا-، والله أعلم.

قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذلك عام فيمن تعمَّد عليه كذبًا في دين أو دنيا، ومن الحجج في ذلك تهيُّب الزبيرِ وأنسٍ كثرةَ الحديث عن رسول الله ﷺ، وقول **عمر**: أقلُّوا الحديث عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم؛ إذْ الكذب عليه ليس كالكذب علىٰ غيره، وأنَّ الدعاء الذي دعا علىٰ من كذب عليه لاحقٌ بمن كذب عليه في كلِّ شيء". شرح البخاري (١/ ١٨٤)، بتصرف.

١١٠ - حَدَّثَنَا مُوسَىٰ (ابن إسماعيل التبوذكي)، قَالَ: حَدَّثَنَا أبوعَوَانَةَ، (الوضَّاح بن عبدالله اليَشْكُري) عَنْ أَبِي حَصِينٍ (عثمان بن عاصم بن حصين الأسدي)، عَنْ أَبِي صَالِحٍ(ذكوان السمان أو الزيات)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي، وَمَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

أطرافه في: (المناقب٣٥٣٩، الأدب٦١٨٨، ٦١٩٧، التعبير٦٩٩٣).

وأخرجه مسلم (٣)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٩١٥) [في ط.الرسالة: (٥٨٨٤)]، وابن ماجه (٣٤).

الشرح

---

٧٩٣) ابن عمرو بن الأكوع الأسلمي، ت/ ٧٤هـ.

قوله: (تَسَمَّوْا بِاسْمِي وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي)، (وَمَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي)، لو قال قائل: ما علاقة التسمِّي باسمه والتكنية بكنيته بحديث الباب (**ومن كذب علي متعمِّداً فليتبوأ ...**)؟!، يبدو أنَّ العلاقة هي في قوله: (**ومن رآني في المنام فقد رآني ...**)؛ لأنَّه ﷺ علم أنَّ الناس سيكذبون عليه، فيقول أحدهم: رأيتُ رسول الله يقظة، أو مناماً؛ فيُري عينه ما لم تر، وإنَّ هذا لمن أفرىٰ الفرىٰ؛ فعن وَاثِلَةَ بْنَ الْأَسْقَعِ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرَىٰ: أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَىٰ غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِيَ عَيْنَهُ مَا لَمْ تَرَ، أَوْ يَقُولُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا لَمْ يَقُلْ**) سيأتي برقم (٣٥٠٩)، وذلك كي يصدقه الناس فيما يخبرهم به من خبر رسول الله ﷺ، وأيضاً ليزكِّي نفسه فيرائي بعمله، ويسمّع به، إن كان رأىٰ ذلك حقاً، وأمَّا إن افترىٰ كان أبعد له من كلِّ خير، وفيه ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يزعمون أنَّهم يرونه يقظة.

فيه مشروعية التسمِّي باسم النبي ﷺ، وأسماء الأنبياء. **وفيه** عدم الجمع بين اسمه ﷺ وكنيته في حياته، أمَّا بعد مماته فلا بأس؛ كما ورد في حديث علي رضي الله عنه- ويأتي الكلام عليه في "الأدب" (٦١٨٨)، (٦١٩٧) -إن شاء الله-.

قوله: (فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ فِي صُورَتِي): **وفيه** أنَّ الشيطان قد يتمثَّل في صورة غير صورته ﷺ ويدعي أنَّه هو. **وفيه** أنَّ الشيطان يتمثَّل في صورة أشخاص غير النبي ﷺ من الأنبياء والصالحين وغيرهم في المنام، وفيه الحذر من تلاعب الشيطان.

قوله: (وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ): **وفيه** ردٌّ علىٰ الكرّامية في إباحتهم وضع الحديث في الترغيب والترهيب. **وفيه** إثبات العذاب بالنار في الآخرة لأصحاب الكبائر، **ففيه** ردٌّ علىٰ المرجئة، وفيه أنَّ النار مخلوقة موجودة. **وفيه** خشية الإكثار من الحديث عن النبي ﷺ؛ لأنَّه مظنة الخطأ؛ إلا بشرطه، **وفيه** أنَّ أيَّ كذب وإن قلَّ فإنَّ الوعيد يشمله؛ لأنَّه جاء نكرة؛ كما في رواية: (**كَذِبًا**). وفيه أنَّ رؤية النبي ﷺ في المنام هي علىٰ الحقيقة. **وفيه** أنَّ المعتَمَد هو أن يرىٰ شخصه الكريم علىٰ صفته الحقيقية. **وفيه** تحريم الكذب عليه سواء كان ذلك يقظة أو منامًا.

ما حكم من كذب علىٰ النبي ﷺ:

قال بعض العلماء بكفر من فعل ذلك، منهم أبومحمد الجويني، واختاره ابن المنير،

ووجَّهه ابن تيمية بأنَّ الكذب عليه ﷺ هو في الحقيقة كذب علىٰ الله، وإفساد للدين من الداخل.

وقد فصَّل **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ القول في هذه المسألة، وذكر حكم من كذب علىٰ الرسول ﷺ مشافهة، وحكم من كذب عليه في الرواية، وحكم من روىٰ حديثاً يعلم أنَّه كذب، ومال رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ القول بكفر من كذب عليه مشافهة، قال في الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (٢/ ٣٢٨ - ٣٣٩) بعد ذكر حديث بريدة ولفظه : " كان حيٌّ من بني ليث من المدينة علىٰ ميلين، وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية فلم يزوِّجوه، فأتاهم وعليه حلَّة فقال: إنَّ رسول الله كساني هذه الحَّلة وأمرني أن أحكم في أموالكم ودمائكم، ثمَّ انطلق فنزل علىٰ تلك المرأة التي كان يحبُّها، فأرسل القوم إلىٰ رسول الله ﷺ ، فقال "كذب عدو الله " ثم أرسل رجلا فقال: " إن وجدته حيا وما أراك تجده حيا فاضرب عنقه وإن وجدته ميتا فأحرقه بالنار" قال: فذلك قول رسول الله ﷺ "من كذب عليَّ متعمدا" قال شيخ الإسلام : (هذا إسناد صحيح علىٰ شرط الصحيح لا نعلم له علَّة)

ثمَّ قال: (وللناس في هذا الحديث قولان:

أحدهما: الأخذ بظاهره في قتل من تعمَّد الكذب علىٰ رسول الله ﷺ، ومن هؤلاء من قال يكفر بذلك، قاله جماعة منهم أبو محمد الجويني، حتىٰ قال ابن عقيل عن شيخه أبي الفضل الهمداني: "مبتدعة الإسلام والكذَّابون والواضعون للحديث أشدُّ من الملحدين؛ لأنَّ الملحدين قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل، فهم كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالدخلاء يفتحون الحصن، فهم شرٌّ علىٰ الإسلام من غير الملابسين له".

ووجه هذا القول أنَّ الكذب عليه كذب علىٰ الله، ولهذا قال: **"إنَّ كذبا علي ليس ككذب علىٰ أحدكم"** فإنَّ ما أمر به الرسول ﷺ فقد أمر الله به، يجب اتباعه كوجوب اتباع أمر الله، وما أخبر به وجب تصديقه كما يجب تصديق ما أخبر الله به، ومن كذّبه في خبره أو امتنع من التزام أمره، فهو كمن كذَّب خبر الله وامتنع من التزام أمره، ومعلوم أنَّ من كذب علىٰ الله بأن زعم أنَّه رسول الله أو نبيه أو أخبر عن الله خبرا كذَّب فيه كمسيلمة والعنسي ونحوهما من المتنبئين فإنَّه كافر حلال الدم، فكذلك من تعمَّد الكذب علىٰ رسول الله.

يُبيِّن ذلك أنَّ **الكذب عليه بمنزلة التكذيب له**، ولهذا جمع الله بينهما بقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ**﴾ [العنكبوت: ٦٨]، بل ربَّما كان الكاذب عليه أعظم إثما من المكذّب له، ولهذا بدأ الله به، كما أنَّ الصادق عليه أعظم درجة من المصدّق بخبره، فإذا كان الكاذب مثل المكذّب أو أعظم، والكاذب علىٰ الله كالمكذّب له، فالكاذب علىٰ الرسول كالمكذِّب له.

يُوضح ذلك أنَّ تكذيبه نوع من الكذب، فإنَّ مضمون تكذيبه الإخبار عن خبره أنَّه ليس بصدق، ذلك إبطال لدين الله، ولا فرق بين تكذيبه في خبر واحد أو في جميع الأخبار، وإنَّما صار كافرًا لما تضمَّنه من إبطال رسالة الله ودينه، والكاذب عليه يُدخل في دينه ما ليس منه عمداً، ويزعم أنَّه يجب علىٰ الأمَّة التصديق بهذا الخبر وامتثال هذا الأمر، لأنَّه دين الله، مع العلم بأنَّه ليس لله بدين.

والزيادة في الدين كالنقص منه، ولا فرق بين من يكذب بآية من القرآن أو يضيف كلاماً يزعم أنَّه سورة من القرآن عامدًا لذلك.

وأيضا، فإنَّ تعمد الكذب عليه: استهزاء به واستخفاف؛ لأنَّه يزعم أنَّه أمر بأشياء ليست مما أمر به، بل وقد لا يجوز الأمر بها، وهذه نسبة له إلىٰ السفه أو أنَّه يخبر بأشياء باطلة، وهذه نسبة له إلىٰ الكذب، وهو كفر صريح.

وأيضا، فإنَّه **لو زعم زاعم أنَّ الله فرض صوم شهر آخر غير رمضان، أو صلاة سادسة زائدة، ونحو ذلك، أو أنَّه حرم الخبز واللحم، عالماً بكذب نفسه، كفر بالاتفاق.**

فمن زعم أنَّ النبي أوجب شيئًا لم يوجبه، أو حرَّم شيئًا لم يحرِّمه، فقد كذب علىٰ الله، كما كذب عليه الأول، وزاد عليه بأن صرَّح بأن الرسول قال ذلك، وأنَّه أفتىٰ القائل - لم يقله اجتهادًا واستنباطًا.

وبالجملة فمن تعمَّد الكذب الصريح علىٰ الله فهو كالمتعمِّد لتكذيب الله وأسوأ حالاً، ولا يخفىٰ أنَّ من كذب علىٰ من يجب تعظيمه، فإنَّه مستخف به مستهين بحرمته.

وأيضا، فإنَّ الكاذب عليه لابدَّ أن يشينه بالكذب عليه وينتقَّصه بذلك، ومعلوم أنَّه لو كذب عليه كما كذب عليه ابن أبي سرح في قوله: " كان يتعلَّم مني" أو رماه ببعض الفواحش الموبقة

أو الأقوال الخبيثة، كفر بذلك، فكذلك الكاذب عليه؛ لأنَّه إمَّا أن يأثر عنه أمرا أو خبرا أو فعلا، فإن أثر عنه أمرا لم يأمر به، فقد زاد في شريعته، وذلك الفعل لا يجوز أن يكون ممَّا يأمر به؛ لأنَّه لو كان كذلك لأمر به؛ لقوله: **"ما تركت من شيء يقربكم إلىٰ الجنَّة إلا أمرتكم به ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه"** فإذا لم يأمر به، فالأمر به غير جائز منه، فمن روىٰ عنه أنَّه قد أمر به، فقد نسبه إلىٰ الأمر بما لا يجوز له الأمر به، وذلك نسبة له إلىٰ السفه.

وكذلك إن نقل عنه خبراً، فلو كان ذلك الخبر ممَّا ينبغي له الإخبار به لأخبر به، لأنَّ الله تعالىٰ قد أكمل الدين، فإذا لم يخبر به فليس هو ممَّا ينبغي له أن يخبر به، وكذلك الفعل الذي ينقله عنه كاذبـًا فيه لو كان ممَّا ينبغي فعله وترجَّح، لفعله، فإذا لم يفعله فتركه أولىٰ.

فحاصله أنَّ الرسول أكمل البشر في جميع أحواله، فما تركه من القول والفعل فتركه أولىٰ من فعله، وما فعله ففعله أكمل من تركه، فإذا كذب الرجل عليه متعمدًا أو أخبر عنه بما لم يكن، فذلك الذي أخبر به عنه نقص بالنسبة إليه؛ إذ لو كان كمالاً لوجد منه، ومن انتقص الرسول فقد كفر.

واعلم أنَّ هذا القول في غاية القوَّة كما تراه، لكن يتوجَّه أن يُفرق بين الذي يكذب عليه مشافهة، وبين الذي يكذب عليه بواسطة، مثل أن يقول: حدثني فلان بن فلان عنه بكذا، فإنَّ هذا إنَّما كذب علىٰ ذلك الرجل ونسب إليه ذلك الحديث، فأمَّا إن قال: هذا الحديث صحيح أو ثبت عنه أنَّه قال ذلك، عالما بأنَّه كذب، فهذا قد كذب عليه، وأمَّا إذا افتراه ورواه رواية ساذجة ففيه نظر، لاسيَّما والصحابة عدول بتعديل الله لهم، فالكذب لو وقع من أحد ممَّن يدخل فيهم لعظم ضرره في الدين، فأراد قتل من كذب عليه، وعجَّل عقوبته ليكون ذلك عاصمًا من أن يدخل في العدول من ليس منهم من المنافقين ونحوهم.

وأمَّا من روىٰ حديثًا يعلم أنَّه كذب، فهذا حرام كما صحَّ عنه أنَّه قال: **"من روىٰ عني حديثا يعلم أنَّه كذب فهو أحد الكاذبين"** لكن لا يكفر إلا أن ينضمَّ إلىٰ روايته ما يوجب الكفر؛ لأنَّه صادق في أن شيخه حدَّثه به، لكن لعلمه بأن شيخه كذب فيه لم تكن تحلُّ له الرواية، فصار بمنزلة أن يشهد علىٰ إقرار أو شهادة أو عقد وهو يعلم أنَّ ذلك باطل، فهذه الشهادة حرام، لكنَّه ليس بشاهد زور)

ثم ذكر القول الثاني في المسألة، فقال:

(**القول الثاني**: أنَّ الكاذب عليه تغلظ عقوبته، لكن لا يكفر، ولا يجوز قتله؛ لأنَّ موجبات الكفر والقتل معلومة، وليس هذا منها، فلا يجوز أن يثبت ما لا أصل له، ومن قال هذا فلا بدَّ أن يقيد قوله بأن لم يكن الكذب عليه متضمِّنًا لعيب ظاهر، فأمَّا إن أخبر أنَّه سمعه يقول كلامًا يدلُّ علىٰ نقصه وعيبه دلالة ظاهرة، مثل حديث "عرق الخيل" ونحوه من الترُّهات، فهذا مستهزئ به استهزاء ظاهر، ولا ريب أنَّه كافر حلال الدم. وقد أجاب من ذهب إلىٰ هذا القول عن الحديث بأنَّ النبي ﷺ علم أنَّه كان منافقا فقتله لذلك لا للكذب، وهذا الجواب ليس بشيء ...) ثمَّ ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أوجها في الرد علىٰ هذا الجواب. والله أعلم.

أحوال راوي الحديث الموضوع:

مَنْ روىٰ حديثًا موضوعًا فلا يخلو حاله من أحد أمور ثلاثة:

الأول: أنْ يجهل أنَّه موضوع:

فإذا رواه - وهو جاهل بوضعه - فلا إثم عليه لكنَّه مقصِّر في البحث عنه، ولا يؤمن عليه العقاب في تركه البحث عمَّا يُحدِّث به؛ لقوله النبيِّ ﷺ: (كَفَىٰ بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) وفي لفظ: (كَفَىٰ بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ).

الثاني: أنْ يعلم بوضعه، ثمَّ يرويه مع بيان حاله:

فهذا لا شيء عليه؛ لأنَّه قد أُمِنَ من نسبته إلىٰ النبيِّ ﷺ، وأمَّا إذا كانت روايتُه له قاصدًا بها إبانةَ حاله، فهذا مأجور؛ لنفيه الكذب علىٰ لسان النبيِّ وتحذير الناس منه، فهو من عدول خلف الأمَّة ومن خيارها الذين امتازوا عمَّن سواهم بأنَّهم ينفون عن حديث رسول الله ﷺ تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

الثالث: أنْ يعلم بوضعه، ثم يرويه من غيرِ بيانٍ لحاله:

فهذا مأزورٌ وآثم، سواء ذَكَرَ إسنادَ الموضوع أم لا؛ إذْ لا يُكتفىٰ بإيراد الإسناد في هذا الزمان، بل لا بد من التصريح بأنَّه "موضوع" وكَذِبٌ علىٰ الرسول ﷺ، فذِكْرُ الإسنادِ وعدمُه سواء؛ كما قال السخاوي: (لا تبرأ العُهدةُ في هذه الأعصار بالاقتصار علىٰ إيراد إسناده [أي: الموضوع]؛ لعدم الأمن من المحذور به، وإنْ صنَعَه أكثرُ المُحدِّثين في الأعصار الماضية) فتح

المغيث (١/ ٣١٢).

قال الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ الْوَاجِبَ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ عَرَفَ التَّمْيِيزَ بَيْنَ صَحِيحِ الرِّوَايَاتِ وَسَقِيمِهَا، وَثِقَاتِ النَّاقِلِينَ لَهَا مِنَ الْمُتَّهَمِينَ أَنْ لاَ يَرْوِيَ مِنْهَا إِلاَّ مَا عَرَفَ صِحَّةَ مَخَارِجِهِ، وَأَنْ يَتَّقِيَ مِنْهَا مَا كَانَ مِنْهَا عَنْ أَهْلِ التُّهَمِ وَالْمُعَانِدِينَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَالدَّلِيلُ - عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي قُلْنَاهُ هُوَ اللاَّزِمُ دُونَ مَا خَالَفَهُ، قَوْلُ اللهِ تعالىٰ :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦]، وقوله :﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. فَدَلَّ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الآيتين أَنَّ خَبَرَ الْفَاسِقِ سَاقِطٌ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وَأَنَّ شَهَادَةَ غَيْرِ الْعَدْلِ مَرْدُودَةٌ) مقدمة صحيحه، بَابُ: وُجُوبِ الرِّوَايَةِ عَنِ الثِّقَاتِ وَتَرْكِ الْكَذَّابِينَ.

وقال **ابن الصلاح** رَحِمَهُ اللَّهُ: (اعْلَمْ أَنَّ الْحَدِيثَ الْمَوْضُوعَ شَرُّ الأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ، وَلا تَحِلُّ رِوَايَتُهُ لأَحَدٍ عَلِمَ حَالَهُ فِي أَيِّ مَعْنًىٰ كَانَ إِلاَّ مَقْرُونًا بِبَيَانِ وَضْعِهِ) مقدمته ص (٩٨).

وقال **ابن المُلقِّن** رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولا تَحِلُّ رواية الموضوع مع العلم به في أيِّ معنًىٰ كان، إلاَّ مقرونًا ببيان وَضْعِه) المقنع في علوم الحديث ص(٢٣٢).

وقال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: (يحرم روايةُ الحديثِ الموضوعِ علىٰ مَنْ عَرَفَ كونه موضوعًا، أو غلب علىٰ ظنِّه وضْعُهُ. فمَنْ روىٰ حديثًا عَلِم أو ظنَّ وضْعَه ولم يُبَيِّن حالَ روايته وضعه فهو داخلٌ في هذا الوعيد، مُندرِجٌ في جملة الكاذبين علىٰ رسول الله ﷺ) شرح مسلم (١/ ٧١).

عقوبة راوي الحديث الموضوع في الدنيا والآخرة :

أولًا: عقوبته في الدنيا:

ذكر أهل العلم أنَّه ينبغي علىٰ ولاة الأمور متابعة ومعاقبة كلِّ مَنْ روىٰ حديثًا موضوعًا؛ بأن يُعزَّر تعزيرًا شديدًا؛ إمَّا بالضرب أو الحبس؛ حمايةً لجناب الشريعة.

لذلك؛ لـمَّا عُرِضَ علىٰ الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ - كتاب مكتوب فيه حديث مرفوع موضوع، كتب علىٰ ظهر هذا الكتاب: (مَنْ حدَّث بهذا استوجب الضَّرب الشديد، والحبس الطويل) تاريخ الإسلام (٦/ ١٩١).

ولمَّا سُئِلَ **ابنُ حجر الهيتمي** - رَحِمَهُ اللَّهُ - عن بعض الخطباء الذين يروون أحاديث مجهولة، ولا يذكرون تخريجها ولا رواتها، أجاب قائلًا: (أمَّا الاعتماد في رواية الأحاديث علىٰ

مُجرَّد رؤيتها في كتابٍ ليس مؤلِّفه من أهل الحديث، أو في خُطَبٍ ليس مؤلِّفها كذلك؛ فلا يحلُّ ذلك، ومَنْ فعله عُزِّر عليه التعزير الشديد، وهذا حال أكثر الخطباء؛ فإنَّهم بمجرد رؤيتهم خطبةً فيها أحاديثُ حَفِظوها وخطبوا بها من غير أنْ يعرفوا أنَّ لتلك الأحاديث أصلًا أم لا، فيجب علىٰ حُكَّام كلِّ بلدٍ أنْ يزجروا خطباءَها عن ذلك) الفتاوىٰ الحديثية ص(٣٢).

وقد كثر الخطباء في العالم الإسلامي اليوم، وتفشَّىٰ في كثيرٍ منهم الجهل وقلَّة البضاعة، وبعضهم يمارس الدعوة وظيفةً يترزَّقون منها ويتكسَّبون لقمة عيشهم، فتراهم ينشرون بعضَ الأحاديث الضعيفة والموضوعة، داعين إلىٰ البدعة، وتاركين السُّنة؛ إلاَّ مَنْ رحم ربي.

قلت: أخفُّ عقوبة هي عقوبة المفتري، فإن كان حدَّ المفتري علىٰ الناس: الجلد، فالمفتري علىٰ الله أعظم بلا شكٍّ.

ثانيًا: عقوبته في الآخرة:

إذا كان الكذب علىٰ الناس مذمومًا، وهو من الكبائر، فكيف بالكذب علىٰ رسول الله ﷺ؛ لذا كانت عقوبته النار، جزاءً وفاقًا.

٤٠ - بَابُ كِتَابَةِ العِلْمِ

قوله: **(بَابُ كِتَابَةِ العِلْمِ)**، اختلف السلف في حكم كتابة العلم، فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ بعض النصوص الدالَّة علىٰ جواز ذلك، ومن الأدلَّة أيضا علىٰ ذلك غير ما ذكر:

ما ورد عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت أكتب كلَّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه؛ فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كلَّ شيء تسمعه ورسول الله ﷺ بشر يتكلَّم في الغضب والرضا؟! فأمسكت عن الكتاب، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلىٰ فيه؛ فقال: «**اكْتُبْ! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**». **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٥١٠، ٦٨٠٢)، وأبوداود (٣٦٤٦) -واللفظ له-.

وعن **أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنَّه كان يقول لبنيه: «يَا بَنِيَّ! قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ». **حسن**: أخرجه الدارمي (٤٩١)، (٤٩٨)، وأخرجه محمد بن عبد الله الأنصاري في جزئه (٦٠)، وكتاب العلم (١٢٠) لأبي خيثمة، وجامع بيان العلم (٤١٠).] وعن الحسن بن جابر: أنَّه سأل **أبا أمامة الباهلي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن كتاب العلم؛ فقال: "لا بأس بذلك". **صحيح**: أخرجه الدارمي (٤٩٣)، أخرجه الدارمي (٥١٠).

وعن سعيد بن جبير قال: كنت أسمع من **ابن عمر وابن عباس** الحديث بالليل (في طريق مكة) فأكتبه في واسطة الرحل، حتىٰ أصبح فأكتبه. **صحيح**: أخرجه الدارمي (٤٩٥، ٤٩٩) (٥١٢، ٥١٦).

وعن عبد الله بن حَنَش قال: رأيتهم يكتبون عند **البراء** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بأطراف القصب علىٰ أكفِّهم. **صحيح**: أخرجه الدارمي (٥٠٣).

ولذلك ورد عن أبي المليح قال: "يعيبون علينا الكتاب، وقد قال الله -تعالىٰ-: ﴿**عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ**﴾ [طه: ٥٢]. **صحيح**: أخرجه الدارمي (٤٨٩).

فائدة: قال **الحافظ**: "الأمر استقرَّ والإجماع انعقد علىٰ جواز كتابة العلم؛ بل علىٰ استحبابه؛ بل لا يبعد وجوبُه علىٰ من خشي النسيان ممَّن يتعيَّن عليه تبليغ العلم". الفتح (١/ ٢٠٤).

قال **العيني**: "لَا يبعد وُجُوبه فِي هَذَا الزَّمَان؛ لقلَّة اهتمام النَّاس بِالْحِفْظِ، وَلَو لم يُكْتب؛ يُخَاف عَلَيْهِ من الضّيَاع والاندراس"، ثمَّ قال -في بيان وجه مناسبة هذا الباب لما قبله-: "وَفِي هَذَا الْبَاب -أيضا- حثٌّ علىٰ الِاحْتِرَاز عَن ضيَاع كَلَام الرَّسُول -عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام- وَلَا

سِيمَا من أهل هَذَا الزَّمَان، لقُصُور هممهم فِي الضَّبْط وتقصيرهم فِي النَّقْل" عمدة القاري (٢/ ١٥٨).

١١١ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ (ابن الفرج السلمي مولاهم، أبوجعفر البِيكَنْدِي)، قَالَ: أَخْبَرَنَا وَكِيعٌ (ابن الجراح بن مليح الرؤاسي)، عَنْ سُفْيَانَ(ابن سعيد بن مسروق الثوري، أبوعبدالله الكوفي)، عَنْ مُطَرِّفٍ (ابن طريف الكوفي)، عَنِ الشَّعْبِيِّ (عامر بن شُراحيل)، عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ (وهب بن عبدالله السوائي، من صغار الصحابة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيٍّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: هَلْ عِنْدَكُمْ (أي: لدىٰ سائر أهل البيت) كِتَابٌ (شيء مكتوب من عند رسول الله ﷺ)؟ قَالَ: "لاَ، إِلَّا كِتَابُ اللهِ، أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ (الورقةِ المكتوبة، وكانت مُعلّقة بسيفه). قَالَ: قُلْتُ: فَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: العَقْلُ (الدِيَّة)، وَفَكَاكُ الأَسِيرِ (ما يُخَلَّص به من الأسْر)، وَلاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ".

أطرافه في: (فضائل المدينة ١٨٧٠، الجهاد٣٠٤٧، الجزية الموادعة٣١٧٢، ٣١٧٩، الفرائض٦٧٥٥، الديات٦٩٠٣، ٦٩١٥، الاعتصام٧٣٠٠).

وأخرجه الترمذي (١٤١٢)، والنسائي (٤٧٤٤، ٤٧٤٦)، وابن ماجه (٢٦٥٨).

الشرح

قوله: (هَلْ عِنْدَكُمْ كِتَابٌ؟ قَالَ: لاَ، إِلا كِتَابُ اللهِ)، وفي رواية تأتي في "الجهاد": "لاَ وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ"، فلم يَخُصَّ النبيُّ ﷺ آلَ بيتِه بكتاب كما يزعم الرافضة.

وأورد المصنف حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-؛ ليكون من أشدِّ الردِّ علىٰ الرافضة وليبيِّنَ كذبهم، بل هم أكذب خلق الله.

وعَلِيٌّ أجاب بأنه ﷺ لم يخصَّهم بشيء، ولم يذكر إلا كتاب الله -تعالىٰ، وهو متفق عليه بين المسلمين، فما يسمُّونه بمصحف فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ويدّعون -كذبًا ومينًا وزورًا- أنَّه من عند الله -وما هو من عند الله-؛ هو من افتراءاتهم الكثيرة، فإذا كانت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد كتمته ولم تُطلع عليه أحداً؛ فهذا طعن فيها وحاشاها!.

قوله: (أَوْ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ)، هذا هو موضع الشاهد لهذا الباب، **ففيه** مشروعية كتابة العلم. **وفيه** أنَّ الصحابة أفلحوا وأنجحوا، وليس عندهم إلا الكتاب والسنَّة. **وفيه** أنَّ الكتب ينبغي أن تشتمل علىٰ الكتاب والسنَّة.

قوله: (أَوْ فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ): **وفيه** أهمية الفهم والفقه في الدين. **وفيه** أنَّ الفهم والفقه حقيقتُه من الله، وأنَّه إلهام وتوفيق. **وفيه** عناية السلف بالتفقُّه في الكتاب والسنَّة، وهذا من خيريتهم عند الله تعالىٰ.

قوله: (قَالَ: العَقْلُ): أي: حُكم العقل -وهو الدّية-؛ سمِّيت عقلا؛ لأنَّهم كانوا يعقلون فيها الإبل ويربطونها بفناء دار المستحقِّ للعقل، والمراد أَحكَامها ومقاديرها وأصنافها وأسنانها.

وقوله: (وَلاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ)، أي: وحِرمة قصاص المسلم بالكافر، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي والليث وغيرهم من العلماء، خلافًا للحنفية، وليس هذا موطن بحثه، ويأتي في بابه في كتاب "الجهاد" و"الديات" -إن شاء الله-، **وفيه** أنَّ السنة تخصِّص القرآن، **وفيه** ردٌّ علىٰ العَلمانيين الذين يجعلون الدين منحصراً في العبادات، وبيان أنَّ الشريعة قد بيَّنت كلَّ شيء من المعاملات وغيرها؛ كما بيَّنت العبادات، وأنَّ الإسلام دين ودولة، **وفيه** فضل التوحيد وما يُعصم به من الدماء. **وفيه** فضل الموحِّد علىٰ المشرك.

١١٢- حَدَّثَنَا أبونُعَيْمٍ الفَضْلُ بْنُ دُكَيْنٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا شَيْبَانُ (ابن عبدالرحمن التميمي مولاهم، النحوي)، عَنْ يَحْيَىٰ (ابن أبي كثير الطائي مولاهم)، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ (ابن عبدالرحمن بن عوف الزهري)، عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ خُزَاعَةَ (اسم قبيلة، وهي حي من أزد)، قَتَلُوا رَجُلًا مِنْ بَنِي لَيْثٍ (قبيلة)- عَامَ فَتْحِ مَكَّةَ - بِقَتِيلٍ مِنْهُمْ قَتَلُوهُ (في رواية: في الجاهلية)، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، فَرَكِبَ رَاحِلَتَهُ فَخَطَبَ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ حَبَسَ** (منع) **عَنْ مَكَّةَ القَتْلَ، أَوِ الفِيلَ** (هو الحيوان المعروف. والمراد: أهل الفيل)»».

-قَالَ أَبُوعَبْدِاللهِ كَذَا، قَالَ أَبُونُعَيْمٍ: وَاجْعَلُوهُ عَلَىٰ الشَّكِّ الفِيلَ أَوِ القَتْلَ وَغَيْرُهُ يَقُولُ الفِيلَ-

«**وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالمُؤْمِنِينَ، أَلاَ وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي،**

وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، أَلاَ وَإِنَّهَا حَلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، أَلاَ وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ، لاَ يُخْتَلَىٰ (لا يقطع) شَوْكُهَا، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ سَاقِطَتُهَا (أراد بها: اللقطة) إِلَّا لِمُنْشِدٍ (المعرِّف علىٰ الدوام)، فَمَنْ قُتِلَ (وفي رواية: فمن قتل له قتيل)] فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يُعْقَلَ (يعطي العقل، وهو: الدية)، وَإِمَّا أَنْ يُقَادَ (أي: يُمكَّنَ) أَهْلُ القَتِيلِ (من قتل القاتل قصاصًا)»».

فَجَاءَ رَجُلٌ (هو أبوشاه) مِنْ أَهْلِ اليَمَنِ فَقَالَ: اكْتُبْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ، فَقَالَ: «اكْتُبُوا لِأَبِي فُلاَنٍ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ (هو العباس بن عبدالمطلب): إِلَّا الإِذْخِرَ (نبت طيب الرائحة، معروف في أرض الحجاز) يَا رَسُولَ اللهِ!، فَإِنَّا نَجْعَلُهُ فِي بُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَّا الإِذْخِرَ إِلَّا الإِذْخِرَ».

قَالَ أَبُوعَبْدِاللهِ: يُقَالُ: يُقَادُ -بِالقَافِ-، فَقِيلَ لِأَبِي عَبْدِاللهِ: أَيُّ شَيْءٍ كَتَبَ لَهُ؟ قَالَ: كَتَبَ لَهُ هَذِهِ الخُطْبَةَ.

طرفاه في: (اللقطة ٢٤٣٤، الديات ٦٨٨٠).

وأخرجه مسلم (١٣٥٥) وأبوداود (٢٠١٧، ٣٦٤٩، ٤٥٠٥) والترمذي (١٤٠٥، ٢٦٦٧) والنسائي (٤٧٨٥، ٤٧٨٦) وابن ماجه (٢٦٢٤).

الشرح

قوله: (اكْتُبُوا لأَبِي فُلاَنٍ)، هو أبوشاهٍ -كما سبق-، يعني: اكتبوا له هذا الحديث، أو هذه الخطبة؛ فأذن في الكتابة. ويؤيد هذا ما جاء عَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ** رضي الله عنهما: أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا نَسْمَعُ مِنْكَ أَحَادِيثَ؛ أَفَتَأْذَنُ لَنَا أَنْ نكتُبَها؟ قَالَ: (**نَعَمْ**....) **صحيح لغيره**: ابن حبان (٤٣٠٦)، وقال -عليه الصلاة والسلام-: (**قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ**). جامع بيان العلم (٣٩٥)، الصحيحة (٢٠٢٦)، وصحَّ معناه عن **عمر وابنه عبدالله** رضي الله عنهما.

وفيه جواز كتابة الحديث، وأنَّ كتابته بدأت منذ عهد النبي ﷺ.

مشكل الحديث

ورد ما يعارض الأحاديث السابقة الدالَّة علىٰ جواز كتابة الحديث وهو حديث **أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** رضي الله عنه-: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ، وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ** -قَالَ هَمَّامٌ: أَحْسَبُهُ قَالَ- **مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ**

النَّارِ". مسلم (٣٠٠٤)، فهذا الذي سبق من الإذن -في الأحاديث السابقة- يدلُّ على أن حديث أبي سعيد **منسوخ**، أو يكون **الإذن** لمن لم يوثق بحفظه، قال **الحافظ**: "النَّهْيُ مُتَقَدِّمٌ، وَالْإِذْنُ نَاسِخٌ لَهُ عِنْدَ الْأَمْنِ مِنَ الِالْتِبَاسِ". الفتح (١/ ٢٠٨).

أو أن يُسلك فيه **طريق الجمع**: بأن يكون النهيُ خاصاً بكتابة القرآن مع السنَّة في صحيفة واحدة، والإذنُ في تفريقهما، وممَّن قال به **الخطابي والخطيب البغدادي**.

وقد تتَّجه **الكراهة** إن اعتمد الناس على الكتابة ولم يحفظوه في الصدور، قال **الحافظ**: "قال العلماء: كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث، واستحبُّوا أن يؤخذ عنهم حفظا؛ كما أخذوا حفظاً، لكن لـمَّا قصرت الهمم، وخشي الأئمَّة ضياع العلم؛ دوّنوه، وأوَّل مَن دَوَّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثمّ كثر التدوين، ثمَّ التصنيف، وحصل بذلك خير كثير؛ فلله الحمد". الفتح (١/ ٢٠٨).

قلت: سبق الكلام على تدوين الحديث عند أثر **عمر بن عبدالعزيز**: وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عبدالعَزِيزِ إِلَى **أَبِي بَكْرِ ابْنِ حَزْمٍ**: "انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَاكْتُبْهُ، فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ العِلْمِ وَذَهَابَ العُلَمَاءِ".

قوله: (فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ)، أي: العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه-؛ كما في روايات تأتي في كتاب "الجنائز" و"جزاء الصيد" و"البيوع" و"اللقطة" و"الجزية والموادعة".

وفي الحديث من الفوائد: حرص الصحابة على العلم وتقييده. **وفيه** مشروعية كتابة العلم والخُطب، لا سيَّما لمن خشي على نفسه النسيان. **وفيه** مشروعية الخطبة في الأمر الهام. **وفيه** تعظيم مكة وحُرمتها. **وفيه** جواز النسخ في الشريعة؛ خلافًا لمن أنكره. **وفيه** مشروعية التيسير على الناس. **وفيه** أنَّ الخطيب يكون على مكان مرتفع كالمنبر والدابة ونحوهما. **وفيه** الثناء على الله والتشهد بين يدي الخُطبة. **وفيه** الرحلة في طلب العلم. **وفيه** مشروعية الكنية ومناداة الشخص بها. **وفيه** تخصيص السنَّة بالسنَّة.

١١٣- حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِاللهِ (ابن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم المديني)، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ (ابن عيينة)، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو (ابن دينار المكي)، قَالَ: أَخْبَرَنِي وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ، عَنْ

أَخِيهِ (همام بن منبه بن كامل الصنعاني)، قال: سَمِعْتُ أَبَاهُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، يَقُولُ: "مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ".

تَابَعَهُ مَعْمَرٌ، عَنْ هَمَّامٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وأخرجه الترمذي (٢٦٦٨، ٣٨٤١) والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٢٢).

الشرح

قوله: (مَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحَدٌ أَكْثَرَ حَدِيثًا عَنْهُ مِنِّي)، **فيه** فضيلة لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - **وفيه** مشروعية التحدُّث بنعمة الله من العلم.

قوله: (إِلا مَا كَانَ مِنْ عبداللهِ بْنِ عَمْرٍو، فَإِنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ وَلاَ أَكْتُبُ)، **فيه** الاعتراف بالفضل لأهل الفضل. **وفيه** حرص الصحابة علىٰ حفظ السنَّة، وأنَّ حفظهم يشمل حفظ الصدور والسطور.

وفيه دليل علىٰ جواز الكتابة من وجوه:

أولًا: أنَّه ثبت من قول **عبدالله بن عمرو** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما تقدَّم.

ثانيًا: إقرار النبي ﷺ له؛ فعن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما **نحن حول رسول الله** ﷺ **نكتب**، إذ سئل رسول الله ﷺ أيُّ المدينتين تفتح أولا: قسطنطينية أو روميَّة[٧٩٤]؟ فقال النبي ﷺ: **"لا، بل مدينة هرقل أولاً"**. **صحيح**: أخرجه أحمد (٦٦٤٥)، والدارمي (٤٨٦) -واللفظ له-، وهو في الصحيحة (٤).

ثالثًا: هو قول **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وممَّا يؤكده: ما جاء عن بشير بن نهيك قال: "كنت أكتب ما أسمع من **أبي هريرة**، فلمَّا أردت أن أفارقه؛ أتيته بكتابه فقرأته عليه، وقلت له: هذا ما سمعت منك؟ قال: نعم". **صحيح**: أخرجه الدارمي (٥٠١).

---

(٧٩٤) قال شيخنا معلِّقًا علىٰ هذا الحديث: " و(روميَّة) هي روما، كما في "معجم البلدان"، وهي عاصمة إيطاليا اليوم. وقد تحقق الفتحُ الأول علىٰ يد محمد الفاتح العثماني؛ كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله -تعالىٰ- ولا بد، ﴿**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**﴾ [ص: ٨٨]." ا. هـ. «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» (١/ ٣٣).

وقد كان السبب في المنع من الكتابة في بادئ الأمر نهي النبي ﷺ في حديث **أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** المتقدم في مشكل الحديث السابق، قال **النووي** رحمه الله: "ثمَّ أجمع المسلمون علىٰ جوازها، وزال ذلك الخلاف. واختلفوا في المراد بهذا الحديث الوارد في النهي، فقيل: هو في حقِّ من يوثق بحفظه ويخاف اتِّكاله علىٰ الكتابة إذا كتب، وتحمل الأحاديث الواردة بالإباحة علىٰ من لا يوثق بحفظه؛ كحديث: اكتبوا لأبي شاه، وحديث صحيفة علي رضي الله عنه-، وحديث كتاب عمرو بن حزم الذي فيه الفرائض والسنن والديات، وحديث كتاب الصدقة ونصب الزكاة الذي بعث به أبوبكر -رضىٰ الله عنه- **أنسًا** رضي الله عنه- حين وجّهه إلىٰ البحرين، وحديث أبي هريرة أنَّ ابن عمرو بن العاص كان يكتب ولا أكتب، وغير ذلك من الأحاديث. وقيل غير ذلك، والله أعلم". شرح مسلم (١٨/ ١٣٠)؛ بتصرف.

كتابة غير كتاب الله وسنَّة نبيه وآثار الصحابة

إذا كان النبي ﷺ أراد من أصحابه ألَّا يكتبوا غير كتاب الله درءا للمفاسد من ترك القرآن وتلاوته والتفقُّه فيه، وألا يختلط القرآن بالسنَّة، فلمَّا أمن ذلك رخص في كتابة حديثه، فكيف لو رأىٰ ما اسْتُكْتِبَ من كلام البشر غير الكتاب والسنَّة، والكتب والرسائل، والمتون المختلفة التي ضاهوا بها القرآن والحديث، يقرؤونها ويحفظونها، بل وبعضهم يتلوها كما يتلو القرآن؟!

وقد يفعل بعضهم هذا بأوراد المشايخ، ككتاب: (دلائل الخيرات)، وهو من كتب البدع التي حذَّر منها أهل العلم والهدىٰ، وبعضهم استعاض عن كتاب الله بالأناشيد والشعر(٧٩٥).

قال -تعالىٰ-: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥١]. فينبغي أن يُكتَفَىٰ بما ورد في الكتاب والسنَّة وما أُثر عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، والإجماع؛ لأنَّها هي الأصول التي يقاس عليها، ويستنبط منها، ويرجع إليها.

وها أنا أنقل بعض ما ورد من نصوص في النهي عن وضع الكتب والمتون، ولا سيما إذا كانت خالية من النصوص، أو قليلة الأدلَّة، أو لا تعتني بالنصوص الصحيحة والاستدلالات

---

(٧٩٥) ومن ذلك قصيدة "البردة" التي يُستشفىٰ بها، ويزعم أصحابها أنَّها إذا قرئت علىٰ مريض شُفِي من مرضه! كأنَّهم يعدلونها بالقرآن الكريم!!، هذا مع ما فيها من شركيات ظاهرة، فإلىٰ الله المشتكىٰ.

الأثرية الرجيحة، أو هي متون اختصر منها أصحابها الأدلة، وكان عامتها آراء للرجال، أو نحو ذلك، ويستثنىٰ من ذلك ما كان في نصرة الكتاب والسنَّة أو معينا علىٰ فهمهما؛ ككتب التفسير وشروح السنَّة.

فالنهي الوارد في حديث أبي سعيد يشمل هذه الكتب، لأنَّه وإن كان النبي ﷺ رخص في كتابة حديثه بعد ذلك، لكنه لم يرخِّص في كتابة غير حديثه، بل ورد ما يؤكِّد النهي عن كتابة الكتب الأخرىٰ كما قال -سبحانه: ﴿**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]، قال **ابن القيم** -رحمه الله-: "إِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- ذَمَّ الَّذِينَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، **وَالزُّبُرُ: الْكُتُبُ الْمُصَنَّفَةُ الَّتِي رَغِبُوا بِهَا عَنْ كِتَابِ اللهِ وَمَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ**". إعلام الموقعين (٢/ ١٦٠).

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** -رحمه الله-: "وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يُنْهَوْنَ عَنْ اتِّبَاعِ كُتُبِ غَيْرِ الْقُرْآنِ. وَعُمَرُ انْتَفَعَ بِهَذَا (بوصية النبي ﷺ له)؛ حَتَّىٰ أَنَّهُ لَمَّا فُتِحَتْ الإسْكَنْدَرِيَّة وُجِدَ فِيهَا كُتُبٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كُتُبِ الرُّومِ، فَكَتَبُوا فِيهَا إلَىٰ عُمَرَ؛ فَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُحْرَقَ، وَقَالَ: "حَسْبُنَا كِتَابُ اللهِ". الفتاوىٰ (١٧/ ٤١).

فأيُّ كلام في الدين ينبغي أن يكون بالكتاب والسنَّة؛ فعَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ** رضي الله عنهما قَالَ: "أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ **يُرْفَعَ الْأَشْرَارُ، وَيُوضَعَ الْأَخْيَارُ**، أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يَظْهَرَ الْقَوْلُ، وَيُخْزَنَ الْعَمَلُ، أَلَا إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، **أَنْ تُتْلَىٰ الْمَثْنَاةُ فَلَا يُوجَدُ مَنْ يُغَيِّرُهَا**"، قِيلَ لَهُ: **وَمَا الْمَثْنَاةُ؟** قَالَ: "**مَا اسْتُكْتِبَ مِنْ كِتَابٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ، فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَبِهِ هُدِيتُمْ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَعَنْهُ تُسْأَلُونَ**". صحيح: أخرجه الدارمي (٤٩٣)، الصحيحة (٢٨٢١).

قال **شيخنا الإمام الألباني** في التعليق علىٰ الحديث السابق قال: "**(فائدة)**: هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ، فقد تحقَّق كلُّ ما فيه من الأنباء، وبخاصَّة منها ما يتعلَّق بـ **(المثناة)** وهي كل ما كُتبَ سوىٰ كتاب الله؛ كما فسَّره الراوي، وما يتعلَّق به من الأحاديث النبوية والآثار السلفية، فكأنَّ المقصود بـ (المثناة) **الكتب المذهبية المفروضة علىٰ المقلِّدين، التي صرفتهم مع تطاول الزمن عن كتاب الله وسنَّة رسوله** ﷺ؛ كما هو مشاهد اليوم مع الأسف من جماهير المتمذهبين، وفيهم كثير من الدكاترة والمتخرِّجين من كليات الشريعة، فإنَّهم جميعًا يتديَّنون بالتمذهب، ويوجبونه

علىٰ الناس حتىٰ العلماء منهم، فهذا كبيرهم (فلان) يقول كلمته المشهورة: (كلُّ آية تخالف ما عليه أصحابنا، فهي مؤولة أو منسوخة، وكلُّ حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ). فقد جعلوا المذهب أصلاً، والقرآن الكريم تبعًا، فذلك هو (**المثناة**) دون ما شك أو ريب". انتهىٰ.

قلت: صدق شيخنا -رحمه الله-، هذا سبيل أهل الكتاب مِن قبلنا، كما سبق معنا.

وعن **أبي موسىٰ** رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَتَبُوا كِتَابًا، فاتَّبعوه، وَتَرَكُوا التَّوْرَاةَ**". **إسناده حسن**: أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥٤٨) وهو في الصحيحة (٢٨٣٢)، وصحَّ موقوفا-أيضا-: أخرجه الدارمي (٤٩٧)، بلفظ: "فتبعوه"،

علَّق عليه شيخنا الإمام الألباني رحمه الله بقوله: «وما أشبه حال أكثر المسلمين اليوم بمن قبلهم، فقد تركوا القرآن والحديث إلىٰ آراء العلماء، وأقاموها مقامها، فيعيش الرجل المتفقِّه منهم دهراً طويلاً، وهو لا يعلم أدلَّة الكتاب والسنة، وإن علمها فهو لا يتبعها، ويؤثر عليها الآراء، ثمَّ نحن نطمع أن ينصرنا الله علىٰ أهل التوراة، ونحن نحذوا حذوهم فهيهات هيهات»(٧٩٦).

فالكتب التي أشغلت الناس عن الكتاب والسنَّة، وأبعدتهم عنهما، ولم تكن في نصرتهما، والذبِّ عنهما، وبيان معناهما، وإنَّما كانت آراء للرجال؛ ورد النهي عنها، كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[البقرة: ١٠١]، وقد سبق أنَّ هذا فعل بني إسرائيل، وصحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال: (**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ؛ اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمُ اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ، واسْتَحْلَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ؛ حَتَّىٰ نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**، فَقَالَوا: "اعْرِضُوا هَذَا الْكِتَابَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَإِنْ تَابَعُوكُمْ عَلَيْهِ فَاتْرُكُوهُمْ، وَإِنْ خَالَفُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ" قَالَ: "لَا، بَلِ ابْعَثُوا إِلَىٰ فُلَانٍ رَجُلٍ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَإِنْ تَابَعَكُمْ لَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ، وَإِنْ خَالَفَكُمْ فَاقْتُلُوهُ، فَلَنْ يَخْتَلِفَ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ بَعْدَهُ"، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأَخَذَ وَرَقَةً فَكَتَبَ فِيهَا كِتَابَ اللهِ، ثُمَّ أَدْخَلَهَا فِي قَرَنٍ ثُمَّ عَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ ثُمَّ لَبِسَ عَلَيْهَا الثِّيَابَ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَعَرَضُوا عَلَيْهِ الْكِتَابَ.

فَقَالُوا: أَتُؤْمِنُ بِهَذَا؟ فَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ - يَعْنِي: الْكِتَابَ الَّذِي فِي الْقَرَنِ - فَقَالَ: آمَنْتُ بِهَذَا،

---

(٧٩٦) في التعليق علىٰ صحيح الجامع (١/ ٤٠٩).

وَمَا لِي لَا أُومِنُ بِهَذَا؟ فَخَلُّوا سَبِيلَهَ، قَالَ: وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَغْشَونَهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَتَوْهُ فَلَمَّا نَزَعُوا ثِيَابَهُ وَجَدُوا الْقَرَنَ فِي جَوْفِهِ الْكِتَابُ، فَقَالُوا: أَلَا تَرَوْنَ إِلَىٰ قَوْلِهِ: آمَنْتُ بِهَذَا، وَمَا لِي لَا أُومِنُ بِهَذَا؟ فَإِنَّمَا عَنَىٰ بِهَذَا هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي فِي الْقَرَنِ، قَالَ: **فَاخْتَلَفَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ بِضْعٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، خَيْرُ مِلَلِهِمْ أَصْحَابُ ذِي الْقَرَنِ**). صحيح: أخرجه البيهقي في الشعب (٧١٨٣)، والأمر بالمعروف لابن أبي الدنيا (٧٨)، وهو مخرَّج في الصحيحة (٢٦٩٤).

فلا يحلّ لنا أن نتشبَّه ببني إسرائيل، ولا أن نسلك سبيلهم في التعلُّم والتعليم، والكتابة والقراءة إنَّما تكون للكتاب والسنَّة والأثر؛ ليُحفظ الدين، وكذا يمكن أن تكون للكتب التي فيها نصرة للقرآن والحديث، والذب عنهما، وردّ الشبهات التي تَرِدُ عليهما.

أمَّا أن نكتب كتبًا تضاهي ما أنزل الله، فنعتني بها ونحفظها، ويجرُّ هذا إلىٰ هجر التفسير، ومعرفة معاني الكتاب، وهجر السنَّة، ونكون في معزل عنها، وعن الكتب التي جمعتها، وصنِّفت فيها فإنَّ هذا أمر مغبَّته وخيمة علىٰ العلم، بل وعلىٰ الأمَّة كلها، كما هو واقع ومشاهد.

قال -تعالىٰ-: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة: ٧٩]، فمن ضياع العلم، وضياع أمانته، أن يعتني الناس بغير كتاب الله، وسنَّة نبيه، وإشغال الناس بالكتب الفكرية، والحركية، والثقافية، والمذهبية، والكلام، والرأي، والرقائق، والفلسفة والمنطق ونحوها.

وممَّا نقل عن السلف في عدم الانشغال عن الكتاب والسنة: ما ورد عن **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أنَّه قال: "إِنَّ حَدِيثَكُمْ شَرُّ الْحَدِيثِ، وَإِنَّ كَلَامَكُمْ شَرُّ الْكَلَامِ؛ فَإِنَّكُمْ قَدْ حَدَّثْتُمُ النَّاسَ حَتَّىٰ قِيلَ: قَالَ فُلَانٌ وَقَالَ فُلَانٌ، وَيَتْرُكُ وَيُتْرَكُ كِتَابَ كتابُ اللهِ، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَائِمًا فَلْيَقُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَإِلَّا فَلْيَجْلِسْ"(٧٩٧).

وقوله: "فليقم بكتاب الله"، يعني: بكتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ.

قال **ابن حزم** -عقب هذا الأثر-:"فهذا قول عمر لأفضل قرن علىٰ ظهر الأرض، فكيف لو أدرك ما نحن فيه من ترك القرآن وكلام محمد ﷺ، والإقبال علىٰ ما قال مالك وأبوحنيفة

---

(٧٩٧) **إسناده صحيح**: أخرجه عمر بن شبه في تاريخ المدينة (٣/ ٨٠٠)، والهروي في ذم الكلام (٧٠٥)، وأبوزرعة في تاريخه (٥٤٣)، وعنه ابن حزم في الإحكام (٦/ ٩٨)، وغيرهم..

والشافعي؟! وحسبنا الله ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون" الإحكام (٦/ ٩٨).

وروىٰ أبوداود وغيره **عن معاذ بن جبل** رضي الله عنه- أنَّه قال يومـًا: "إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ؛ حَتَّىٰ يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟! **مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّىٰ أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ، فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ**، فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلَالَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَىٰ لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ". صحيح: أخرجه أبوداود (٤٦١١)، وهو مخرجٌ في "الشريعة" بتحقيقي.

وفي رواية: فَيَقُولُ: "قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؛ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدْ قُمْتُ بِهِ فِيهِمْ؛ فَلَمْ أُتَّبَعْ، لَأَحتَظِرَنَّ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا؛ لَعَلِّي أُتَّبَعُ، فَيَحْتَظِرُ فِي بَيْتِهِ مَسْجِدًا فَلَا يُتَّبَعُ.

فَيَقُولُ: قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقُمْتُ بِهِ فِيهِمْ فَلَمْ أُتَّبَعْ، وَقَدِ احْتظرْتُ فِي بَيْتِي مَسْجِدًا، فَلَمْ أُتَّبَعْ، **وَاللهِ لَآتِيَنَّهُمْ بِحَدِيثٍ لَا يَجِدُونَهُ فِي كِتَابِ اللهِ** -جَلَّ وَعَلَا-، **وَلَمْ يَسْمَعُوهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ** ﷺ؛ لَعَلِّي أُتَّبَعُ، قَالَ **مُعَاذٌ**: فَإِيَّاكُمْ وَمَا جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّ مَا جَاءَ بِهِ ضَلَالَةٌ". **صحيح**: أخرجه الدارمي (٢٠٥).

وروي عن ابن مسعود مثل ذلك؛ فَعَنْ عِفَاقٍ الْمُحَارِبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: سَمِعْتُ **ابْنَ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه-، يَقُولُ: "إِنَّ نَاسًا يَسْمَعُونَ كَلَامِي، ثُمَّ يَنْطَلِقُونَ فَيَكْتُبُونَهُ، وَإِنِّي لَا أُحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْتُبَ إِلَّا كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ". صحيح: أخرجه الدارمي (٤٩٨). يعني: القرآن والحديث.

فإن كان **ابن مسعود** ينهىٰ عن كتابة كلامه؛ فكيف بكلام مَن بعده، من المتأخرين، والمقلِّدة؟!

وعن سليم قال كنت أجالس أناسـًا في المسجد، فأتيتهم ذات يوم، فإذا عندهم صحيفة يقرؤنها، فيها ذكر وحمد وثناء علىٰ الله، فأعجبني، فقلت لصاحبها: أعطينيها، فأنسخها، قال: «فإنِّي وعدتُ بها رجلاً فأعد صحفك، فإذا فرغ منها، دفعتها إليك».

فأعددت صحفي، فدخلت المسجد ذات يوم، فإذا غلام يتخطَّىٰ الخلق، يقول: أجيبوا عبدالله بن مسعود في داره، فانطلق الناسُ، فذهبتُ معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده.

وقال: «ألا إنَّ ما في هذه الصحيفة فتنة وضلالة وبدعة، **وإنَّما هلك من كان قبلكم من أهل**

الكتاب باتِّباعهم الكتب، وتركهم كتاب الله، وإنِّي أحرِّج علىٰ رجل يعلم منها شيئًا إلا دلَّني عليه، فوالذي نفس عبدالله بيده، لو أعلم منها صحيفة بدير هند لأتيتها، ولو مشيًا علىٰ رجليّ، فدعا بماء، فغسل تلك الصحيفة»(٧٩٨).

وقد قام **مُعَاوِيَةُ** رضي الله عنه- خطيبًا فقال: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ رِجَالًا مِنْكُمْ يُحَدِّثُونَ أَحَادِيثَ لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ، وَلاَ تُؤثَرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأُولَئِكَ جُهَّالُكُمْ، **فَإِيَّاكُمْ وَالأَمَانِيَّ الَّتِي تُضِلُّ أَهْلَهَا**". سيأتي برقم (٧١٣٩). يعني: تصرفهم عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وهذا من دقَّة فقهه رضي الله عنه.

وعن الشعبي قال: أتىٰ قوم **زيدَ بن ثابت** رضي الله عنه- فَسَأَلُوهُ عَن أَشْيَاء فَأَخْبرهُم بهَا وكتبوها ثمَّ قَالُوا: لَو أخبرناه قَالَ: فَأتوهُ فأخبروه فَقَالَ: «أعذرًا لَعَلَّ كل شَيْء حدثتكم بِهِ خطأ، إِنَّمَا اجتهدت لكم رَأْيِي»(٧٩٩).

عَن عَمْرو بن دِينَار قَالَ قيل **لجَابِر بن زيد**: إنَّهم يَكْتُبُونَ مَا يسمعُونَ مِنْك قَالَ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون، يَكْتُبُونَ رَأيًا أرجع عَنهُ غَدًا(٨٠٠).

وعَن يحيىٰ بن سعيد قَالَ جَاءَ رجل إِلَىٰ **سعيد بن الْمسيب** فَسَأَلَهُ عَن شَيْء فأملاه عَلَيْهِ، ثمَّ سَأَلَهُ عَن رَأْيه فَأَجَابَهُ، فَكتب الرجل فَقَالَ رجل من جلساء سعيد: أنكتب يَا أَبَا مُحَمَّد رَأْيك؟

---

(٧٩٨) **صحيح الإسناد**: رواه الخطيب في "تقييد العلم" (ص٥٥) من طريقين عنه.
عن الأسود بن هلال قال: قال عبد الله: «إنَّ أحسن الهدىٰ هدىٰ محمد وإنَّ أحسن الكلام كلام الله وإنَّكم ستحدثون ويحدث لكم فكلُّ محدث ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار، وأتىٰ بصحيفة فيها حديث قال: فأمر بها فمحيت ثمَّ غسلت ثمَّ أحرقت، ثمَّ قال: بهذا هلك أهل الكتاب قبلكم، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون، أنشدت الله رجلا يعلمها عند أحد الا أعلمني به، والله لو أنِّي أعلم أنَّها بدير هند لتبلَّغت اليها» رواه اللالكائي (١/ ٧٧-ح٨٥)، وورد نحوه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ينظر تخريجه في "الإرواء" (٦/ ٣٥).

(٧٩٩) **صحيح**: رواه ابن أبي شيبة (٢٨١٣٩) بنحوه، وصحَّحه الشثري حفظه الله.

(٨٠٠) **صحيح**: رواه ابن عبدالبر (٢٠٧٠) وفيه سنيد وهو ضعيف، لكنه توبع، ورواه الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ١٤)، وابن سعد في طبقاته (٧/ ١٨١).

فَقَالَ سعيد للرجل: ناولنيها فَنَاوَلَهُ الصَّحِيفَة فحرقها[٨٠١].

وقال **الفضل بن زياد**: سألت أبا عبدالله -يعني: **أحمد بن حنبل**- عن الكرابيسي[٨٠٢]، وما أظهر؟ فكلح وجهه، ثمَّ قال: **"إنَّما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها، تركوا آثار رسول الله ﷺ وأصحابه، وأقبلوا علىٰ هذه الكتب"**. **صحيح**: أخرجه يعقوب الفسوي في "المعرفة والتاريخ" (٣/ ٤٩٢).

وقال عبدالله بن أحمد: سمعت أبي وذكر وضع الكتب فقال: «أكرهها، هذا أبوفلان وضع كتابًا؛ فجاءه أبوفلان فوضع كتابًا؛ وجاءه فلان فوضع كتابًا فلا انقضاء له، كلَّما جاء رجل وضع كتابًا، وهذه الكتب وضعها بدعة، كلَّما جاء رجل وضع كتابًا وترك حديث رسول الله ﷺ وأصحابه»[٨٠٣].

وقال: «ليس إلا الاتباع والسنن، وحديث رسول الله ﷺ وأصحابه، وعاب وضع الكتب وكرهه كراهة شديدة»[٨٠٤].

ونقل ابن الجوزي عن الإمام أحمد أنَّه: «كان يكره وضع الكتب التي تشتمل علىٰ التفريع والرأي ويحبُّ التمسُّك بالآثار»[٨٠٥].

وفي رواية: أنَّ رجلاً سأل أحمد بن حنبل أكتب كتب الرأي[٨٠٦]؟.قال: لا ، قال: فابن المبارك قد كتبها؟ قال: «ابن المبارك لم ينْزل من السماء، إنَّما أمرنا أن نأخذ العلم من

---

(٨٠١) **صحيح**: رواه ابن عبد البر جامع بيان العلم (ح٢٠٧٥).

(٨٠٢) حسين الكرابيسي: كان من بحور العلم، فقيه بغداد، تفقه بالشافعي مات (٢٤٨هـ)؛ كما قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ (السير ١٢/ ٧٩)، وإنما تُكُلِّم فيه؛ لأجل الرأي وقلة العناية بالأثر.

(٨٠٣) الطرق الحكمية (٢/ ٧١٣)، ط: عطاءات العلم.

(٨٠٤) السابق، نفسه.

(٨٠٥) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٢).

(٨٠٦) فالقرون الفاضلة قال عنها شيخ الإسلام **ابن تيمية**: «ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)».(الفتاوىٰ١٨/ ٧٤، ٧٥)، **قلت**: يعني التي تُعنَىٰ بتشقيق المسائل، ويقلُّ فيها الدليل أو ينعدم أحيانًا، ولا يبالي أصحابها إلا بحكاية المذهب، والاستدلال له بأيِّ دليل ولو كان ضعيفًا.

فوق»[٨٠٧].

قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد رأىٰ النبي ﷺ بيد عمر كتابًا اكتتبه من التوراة وأعجبه موافقته للقرآن، فتمعَّر وجه النبي ﷺ حتىٰ ذهب به عمر إلىٰ التنور فألقاه فيه، فكيف لو رأىٰ النبي ﷺ ما صنِّف بعده من الكتب التي يعارض بها ما في القرآن والسنَّة والله المستعان؟!.

وكلُّ هذه الكتب المتضمِّنة لمخالفة السنَّة غير مأذون فيها، بل مأذون في محقها وإتلافها وما علىٰ الأمة أضرُّ منها، وقد حرق الصحابة جميعًا المصاحف المخالفة لمصحف عثمان لـمَّا خافوا علىٰ الأمّة من الاختلاف؛ فكيف لو رأوا هذه الكتب التي أوقعت الخلاف والتفرُّق بين الأمَّة»[٨٠٨].

وقال الميموني ذاكرتُ أبا عبدالله خطأ الناس في العلم فقال: «وأيُّ الناس لا يخطئ ولا سيَّما من وضع الكتب فهو أكثر خطأ»[٨٠٩].

قلت: كلام أحمد في هذا كثير جدًا، وقد ذكره الخلال في كتاب العلم.

قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان الإمام أحمد ينهىٰ عن آراء الفقهاء والاشتغال بها حفظًا وكتابة، ويأمر بالاشتغال بالكتاب والسنَّة حفظًا وفهمًا وكتابة ودراسة، وبكتابة آثار الصحابة والتابعين **دون كلام مَن بعدهم**، ومعرفة صحَّة ذلك من سقمه والمأخوذ منه، والقول الشاذ المطَّرَح منه. ولا ريب أنَّ هذا ممَّا يتعيَّن الاهتمام به والاشتغال بتعلُّمِهِ أولاً قبل غيره»[٨١٠].

قلت: وعلىٰ كثرة ما كان أحمد ينهىٰ عن وضع الكتب، وكتابة الآراء، فقد حفظ الله أقواله لشدَّة اتباعه للسنَّة رَحِمَهُ اللَّهُ وكثرة تعظيمه لها، وإفتائه بها، فكان أكثر الأئمة أقوالاً، وحفظها الله بذلك.

وقال إسماعيل ابن علية، قال **ابن عون**: «أحسب أو أرىٰ يكون لهذه الكتب غبَّ سوء» تقييد العلم ص(٥٩).

---

(٨٠٧) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص١٩٤).
(٨٠٨) الطرق الحكمية (ص٢٣٣).
(٨٠٩) الطرق الحكمية نقلاً عن الخلال (ص٢٣٣).
(٨١٠) الرد علىٰ من اتبع غير المذاهب الأربعة (ص٣٨)

قال إسماعيل: «إنَّما كرهوا الكتاب، لأنَّ من كان قبلكم اتَّخذوا الكتب، فأُعجبوا بها، فكانوا يكرهون أن يشتغلوا بها عن القرآن»(٨١١).

فالأئمَّة نهوا عن كتابة أقوالهم، لنفس السبب، وهو عدم الاشتغال بها عن الكتاب والسنَّة، وهذا من فقههم.

فهذا قول أبي حنيفة في رواية عنه: «ويحك يا يعقوب! (وهو أبو يوسف): لا تكتب كلَّ ما تسمع منِّي، فإنِّي قد أرىٰ الرأي اليوم وأتركه غداً، وأرىٰ الرأي غداً وأتركه بعد غدٍ»(٨١٢).

وقال **ابن حزم**: وروي أنَّ **مالكًا** أفتىٰ في مسألة في طلاق البتة: أنَّها ثلاث، فنظر إلىٰ أشهب قد كتبها، فقال: أمحها، أنا كلَّما قلتُ قولاً جعلتموه قرآنًا؟!، وما يدريك لعلِّي سأرجع عنها غداً، فأقول: هي واحدة(٨١٣).

فانظروا -عافاكم الله- كيف أنَّ الأئمَّة كانوا ينهون عن كتابة آرائهم، لا سيَّما ما كان صادرا عن اجتهاد وظنٍّ منهم، أمَّا ما فهموه من النصوص؛ فلا إشكال فيه، ولقد خالفهم أتباعهم في هذا وغيره، كما خالفوهم في أصول دينهم وفروعه.

وبسبب مثل هذا الكتب تركوا كتب السنة والنظر فيها، بل وتركوا كتب الأئمَّة الذين ينتسبون إليهم، وقد سئل الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: عن قول الشيخ تقي الدين: ولتكن همَّته فهم مقاصد الرسول، في أمره ونهيه، ما صورته؟

فأجاب: مراده ما شاع وذاع: أنَّ الفقه عندهم هو: الاشتغال بكتاب فلان وفلان؛ فمراده التحذير من ذلك.

وقال أيضًا: كذلك غيركم، إنَّما اتباعهم لبعض المتأخِّرين لا الأئمَّة؛ فهؤلاء الحنابلة، من أقلِّ الناس بدعة، وأكثر (الإقناع) و(المنتهىٰ) مخالف لمذهب أحمد ونصِّه، فضلاً عن نصِّ رسول الله ﷺ؛ يعرف ذلك من عرفه(٨١٤).

---

(٨١١) إسناده صحيح: تقييد العلم للخطيب (ص٥٧).
(٨١٢) ينظر تخريجه في صفة الصلاة" (ص٧٦) .
(٨١٣) الإحكام (٦/ ١٧٣).
(٨١٤) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ١١).

وهنا سؤال مهم: هل يكتفىٰ بالمذاهب الأربعة عن الكتاب والسنة؟

قال **العلامة الشنقيطي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا يخفي علىٰ عاقل أنَّ القول بمنع العمل بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ؛ اكتفاء عنهما بالمذاهب المدوَّنة[٨١٥]، وانتفاء الحاجة إلىٰ تعلُّمهما؛ لوجود ما يكفي عنهما من مذاهب الأئمَّة- مِن أعظم الباطل، **وهو مخالف لكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة، ومخالف لأقوال الأئمَّة الأربعة، فمرتكبه مخالف لله ولرسوله، ولأصحاب رسوله -جميعًا-، وللأئمَّة** -رحمهم الله-". أضواء البيان (٧/ ٢٥٧- ٢٥٨).

وسبق نقل كلام الشيخ العلامة **حمد بن ناصر بن معمر**[٨١٦] رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمتعصِّبون لمذاهب الأئمَّة تجدهم في أكثر المسائل قد خالفوا نصوص أئمَّتهم، واتَّبعوا أقوال المتأخِّرين من أهل مذهبهم، **فهم يحرصون علىٰ ما قاله الآخِر، فالآخِر؛ وكلَّما تأخَّر الرجل أخذوا بكلامه، وهجروا -أو كادوا يهجرون- كلام من فوقه**؛ فأهل كل عصر إنَّما يقضون بقول الأدنىٰ فالأدنىٰ إليهم، وكلَّما بعد العهد، ازداد كلام المتقدِّمين هجرًا ورغبة عنه، حتىٰ إنَّ كتب المتقدِّمين لا تكاد توجد عندهم، فإن وقعت في أيديهم، فهي مهجورة...

إلىٰ أن قال: وأمَّا كتب الحديث، كالأمَّهات الست، وغيرها من كتب الحديث، وشروحها، وكتب الفقه الكبار، التي يذكر فيها خلاف الأئمَّة وأقوال الصحابة والتابعين، فهي عندهم مهجورة، بل هي في الخزانة مسطورة، للتبرُّك بها لا للعمل. الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٤/ ٢٧).

قلت: لقد أصبحت المتون المختصرة المعوَّل عليها في الفقه، كمتن: «**غاية التقريب**» -وهو متن أبي شجاع في الفقه-، و«**المنهاج**» عند الشافعية، وكتاب: «**مراقي الفلاح**»، و«**الكنْز**» عند الحنفية، وكتاب: «**المختصر**» لخليل، و«**الرسالة**» للقيرواني عند المالكية، وكتاب: (**عمدة الفقه**)، و(**زاد المستقنع**)، عند الحنابلة، أصبحت هذه الكتب هي المرجع الأول والأخير الذي يرجع إليه كلُّ قوم منهم فيما اختصموا، فيقبلون حكمه، ويرتضون تقريره، وأُنزلت هذه المختصرات لديهم منْزلة القرآن والسنَّة!!.

---

(٨١٥) وقد تعقَّبت من ألزم الناس عدم الخروج عن المذاهب الأربعة، وناقشته فيها من وجوه كثيرة.

(٨١٦) سبقت ترجمته.

قال العلَّامة الفلَّاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "جعلُوا دينهم الحمية والعصبية، وانحصروا علىٰ طوائف، فطائفة مِنْهُم خليليون: ادَّعوا أَن جَمِيع مَا أنزل علىٰ مُحَمَّد ﷺ مَحْصُور فِي مُخْتَصر خَلِيل[٨١٧]، ونزَّلوه منزلَة كتاب الله الْعَزِيز الْجَلِيل، فصاروا يتبعُون مَفْهُومه ومنطوقه وكلَّ دَقِيق فِيهِ وجليل.

وَطَائِفَة مِنْهُم كنزيون أَو دُرِّيّون نسبة إلىٰ كتاب "الدر المختار" للحَصْكَفِي الحنفي، والله أعلم: وادَّعوا أَنَّ مَا فِي هذَيْن الْكِتَابَيْنِ هُوَ الْعلم، وأنَّهما معصومان من الْخَطَأ وَالوهم، فَإِن شَذَّ شَيْء عَن هذَيْن من علم؛ فالعمدة علىٰ مَا فِي (الأسعدية) أي: "الفتاوىٰ الأسعدية" في الفقه الحنفي]، و(الخيرية) نسبة إلىٰ "الفتاوىٰ الخيرية لنفع البرية"، وهي في الفقه الحنفي -أيضا-، وَمَا فِي هَذِه الْكتب عِنْد عُلَمَائهمْ مُقدَّم فِي الْعَمَل علىٰ مَا نزل بِهِ جِبْرِيل علىٰ خير الْبَرِيَّة -عَلَيْهِم الصَّلَوَات والتسليمات والبركات وعَلىٰ من تَبِعَهُمْ-.

وَطَائِفَة مِنْهُم منهجيون أَو منهاجيون: فيبحثون عَن منطوقهما ومفهومهما وَبِمَا فيهمَا يتعبّدون، فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون". إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ٤٤، ط: دار الكتب العلمية).

قَالَ **ابْن الْقيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "يَنْبَغِي للمفتي أَن يُفْتِي **بِلَفْظ النَّصّ** مهما أمكنه؛ فَإِنَّهُ **يتَضَمَّن الحكم**

---

(٨١٧) متىٰ نشأت كتب المتون الفقهية والمختصرات؟

قد يتسائل بعض الناس: متىٰ بدأت المتون والمختصرات؟ وماذا يعني المختصر؟

قال **محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي** الجعفري الفاسي (المتوفىٰ: ١٣٧٦هـ):

"في القرن الرابع بدأت فكرة الاختصار والإكثار من جمع الفروع بدون أدلَّة، وشرح تلك المختصرات، فبعد ما كانوا في القرن الثالث مصنِّفين مبتكرين؛ كأسد بن الفرات وسحنون، وابنه، والبويطي، ومحمد بن الحسن، وأمثالهم، صار الحال في القرن الرابع إلىٰ الشرح، ثمَّ الاختصار والجمع، فانظر الفضل بن سلمة وابن أبي زمنين، وابن أبي زيد والبراذعي اختصروا "المدونة" في عصر متقارب، وهكذا نظراؤهم في عصرهم من المذاهب الأخرىٰ؛ كالمزني، حيث اختصر مذهب الشافعي، والاختصار لا يسلم صاحبه من آفة الإفساد والتحريف، فقد اعترض عبدالحق الإشبيلي علىٰ مواضع من مختصر ابنِ أبي زيد القيروانيِّ والبراذعيِّ أفسدَها الاختصار، وهكذا المزني اعترض عليه ابن سريج.

ولا يخفىٰ أن الاشتغال بإصلاح ما فسد هو غير الاشتغال بالعلم نفسه. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢/ ١٨١)؛ بزيادة يسيرة.

قلت: فالاختصار يخلُّ غالبًا بالمقصود، وهو إلىٰ التعسير أقرب منه للتيسير، وإلىٰ التعقيد والوعورة أقرب منه للّيونة والسهولة، وهو كذلك أدعىٰ للنفرة من العلم والابتعاد عنه.

وَالدَّلِيل مَعَ الْبَيَان التَّام، فَهُوَ حكم مَضْمُون لَهُ الصَّوَاب، مُتَضَمّن للدليل عَلَيْهِ فِي أحسن بَيَان، وَقَول الْفَقِيه لَيْسَ كَذَلِك.

وَقد كَانَ الصَّحَابَة والتابعون وَالْأَئِمَّة الَّذين سلكوا علىٰ مناهجهم يتحرَّون ذَلِك غَايَة التَّحَرِّي؛ حَتَّىٰ خَلَف مِن بعدهمْ خَلْف رَغِبُوا عَن النُّصُوص، واشتقُّوا لَهُم ألفاظًا غير أَلْفَاظ النُّصُوص، فَأوجب ذَلِك هجرَ النُّصُوص، وَمَعْلُوم أَنَّ تِلْكَ الْأَلْفَاظ لَا تفي مَا تفي بِهِ النُّصُوص من الحكم وَالدَّلِيل، وَحسن الْبَيَان؛ **فتولَّد من هجران أَلْفَاظ النُّصُوص، والإقبال علىٰ الْأَلْفَاظ الْحَادِثَة، وَتَعْلِيق الْأَحْكَام بهَا؛ علىٰ الْأمَّة من الْفساد مَالا يُعلمهُ إِلَّا الله.**

فألفاظ النُّصُوص عصمَة وَحجَّة بريئة من الْخَطَأ والتناقض والتعقيد وَالِاضْطِرَاب، وَلـمَّا كَانَت هِيَ عصمَة الصَّحَابَة وأصولهم الَّتِي إِلَيْهَا يرجعُونَ؛ كَانَت علومهم أصحّ مِن عُلُوم مَن بعدهمْ.

وَلـمَّا استحكم هجران النُّصُوص عِنْد أَكثر أهل الْهوىٰ والبدع؛ كَانَت علومهم -فِي مسائلهم وأدلَّتهم- فِي غَايَة الْفساد وَالِاضْطِرَاب والتناقض.

وقد **كَانَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ إِذا سئلوا عَن مَسْأَلَة يَقُولُونَ قَالَ الله -تَعَالَىٰ- كَذَا، قَالَ رَسُول الله ﷺ كَذَا، وَفعل كَذَا، وَلَا يعدلُونَ عَن ذَلِك مَا وجدوا إِلَيْهِ سَبِيلاً** -قطّ-، فَمن تَأمل أجوبتهم وجدهَا شِفَاء لما فِي الصُّدُور.

فَلَمَّا طَال الْعَهْد، وَبعُد النَّاس من نور النُّبُوَّة؛ صار هَذَا عَيْبًا عِنْد الْمُتَأَخِّرين أَن يذكرُوا فِي أصُول دينهم وفروعهم قَالَ الله -تَعَالَىٰ-، قَالَ رَسُول الله ﷺ.

أَمَّا فروعهم؛ **فقنعوا فِيهَا بتقليد من اختصر لَهُم بعض المختصرات** الَّتِي لَا يذكر فِيهَا نَصٌّ عَن الله -تَعَالَىٰ- وَلَا عَن رَسُوله ﷺ، وَلَا عَن الإِمَام الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهم قلَّدوه دينهم؛ بل عمدتهم -فِيمَا يفتون ويقضون بِهِ، وينقلون بِهِ الْحُقُوق، ويبيحون بِهِ الْفروج والدماء وَالْأَمْوَال- علىٰ قَول ذَلِك الْمُصَنّف، **وأجلُّهم عِنْد نَفسه وزعيمهم عِنْد بني جنسه؛ مَن يستحضر لفظ الْكتاب وَيَقُول هَكَذَا قَالَ، وَهَذَا لَفظه! فالحلال مَا أحلَّ ذَلِك الْكتاب، وَالْحرَام مَا حرَّمه، وَالْوَاجِب مَا أوجبه، وَالْبَاطِل مَا أبْطلهُ، وَالصَّحِيح مَا صَحَّحهُ.**

هَذَا، وأنَّىٰ لنا بهؤلاء فِي مثل هَذَا الزَّمَان، فقد دُفِعْنَا إِلَىٰ أَمر تَضِجُّ مِنْهُ الْحُقُوق إِلَىٰ الله

ضَجِيجًا، وتعُجّ مِنْهُ الْفروج وَالْأَمْوَال والدماء إِلَىٰ رَبهَا عجيجًا، تُبَدَّلُ فِيهَا الْأَحْكَام، ويُقْلَبُ الْحَلَال بالحرام، وَيجْعَل فِيهِ الْمَعْرُوف فِي أَعلَىٰ مَرَاتِب الْمُنْكَرَات، وَالْمُنكر الَّذِي لم يشرعه الله وَرَسُوله من أفضل القربات، الْحقُّ فِيهِ غَرِيب، وَأغْرب مِنْهُ من يعرفهُ، وَأغْرب مِنْهُمَا من يَدْعُو إِلَيْهِ، وَينْصَح بِهِ نَفسه والناس...

وَالْمَقْصُود أَنَّ **الْعِصْمَة مَضْمُونَة فِي أَلْفَاظ النُّصُوص ومعانيها فِي أتمِّ بَيَان وَأحسن تَفْسِير، وَمن رام إِدْرَاك الْهدىٰ وَدين الْحقِّ من غير مشكاتها؛ فَهُوَ عَلَيْهِ عسيرٌ غيرُ يسير**". إعلام الموقعين (٤/ ٢١٧- ٢١٨)؛ باختصار.

وقال الشيخ العلامة **محمد أمان الجامي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ممَّا ينبغي التنبيه عليه بالنسبة لطلاب العلم، أنَّه ينبغي أن تكون دراسة الفقه علىٰ هذه الطريقة التي سلكها هذا المؤلف (محمَّد بن عَبدالوهَّاب -رَحِمَهُ اللَّهُ)، وهو أن تختار من كتب الفقه -من جميع المذاهب- الكتابَ الذي يذكر الحكم مع الدليل.

وأمَّا إذا أخذت كتابًا يسرد الآراء من ألفه إلىٰ يائه، ولا تجد فيه: قال الله، أو قال رسول الله ﷺ، [بل تجد]: **هكذا المذهب، أو هكذا قال الأصحاب، أو هذا المشهور، أو هذا المعروف... حتىٰ تنتهي من الكتاب، فمثل هذا الكتاب لا يُخرجك من الجهل -أبداً-، بل تبقىٰ جاهلاً**، لكنِ الكتاب الذي يخرجك من الجهل في الفقهيات، هو الكتاب الذي يذكر الحكم، ويذكر الدليل، سواء كان مختصراً كهذا الكتاب (يعني: آداب المشي إلىٰ المساجد)، لكنَّه يفتح لك أبوابا من البحث، فتذهب تبحث عن صحَّة الأدلة والتوَّسُّع في المسائل. لذلك فمثل هذا الكتاب هو الذي ينبغي أن يُرَبَّىٰ عليه صغار الطلبة، ثمَّ ينتقلون -بعد ذلك- فيختارون كتابًا مثله -أو قريبًا منه- في الفقهيات، إذا أرادوا أن يدرسوا كتب الفقه.

مع العلم أنَّه في الإمكان الاستغناء عن دراسة كتب الفقه بدراسة أحاديث الأحكام، كالأحاديث التي اشتملت عليها «عمدة الأحكام»، أحاديث من البخاري ومسلم، ثمَّ «بلوغ المرام»، لأنَّ الحافظ قد بيَّن الحديث المعلول والضعيف، ثُمَّ «المنتقىٰ»: من أوسع المتون الجامعة لأحاديث الصحيحين وغيرهما، من درس هذه الكتب، مع الاتصال بالشروح، يتخرَّج فقيهًا متضلِّعًا في المذاهب الأربعة وغير الأربعة، مذاهب أهل العلم كثيرة، وأئمَّة المسلمين

الذين بلغوا درجة الإمامة كثيرون". (المصدر) الشريط الخامس من شرح العقيدة الواسطية، الوجه الثاني.

قلت: وعلىٰ منوال (بلوغ المرام) وحجمه تقريباً كتاب أحاديث الأحكام من الصحيحين للشيخ الفاضل عبدالله العبيلان -حفظه الله-.

قال **محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي** الجعفري الفاسي (المتوفىٰ: ١٣٧٦هـ):

"فالرزية كلَّ الرزية ما حال بين المسلمين وبين نصوص نبيهم وكلام ربِّهم، والرزية كلَّ الرزية في الاشتغال بالمختصرات، فالاختصار والتوسُّع في جمع الفروع من غير التفات للأدلَّة هو الذي أوجب الكهولة؛ بل القرب من الشيخوخة التي دخل فيها الفقه في القرون الآتية، فالفقه بقي مدة القرنين متماسكًا كهلاً قويـًا، ولله عاقبة الأمور". الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢/ ١٨١)؛ بزيادة يسيرة.

قلت: فالاختصار يخل غالبـًا بالمقصود، وهو إلىٰ التعسير أقرب منه للتيسير، وإلىٰ التعقيد والوعورة أقرب منه للّيونة والسهولة، وهو كذلك أدعىٰ للنفرة من العلم والابتعاد عنه.

فكتب السنَّة أيسر في الفهم من المختصرات التي ملئت بالضمائر، وفيها من الغموض ما يعلمه القاصي والداني مما يخالف البيان والفصاحة والبلاغة، فالكتاب الواضح المدعَّم بالنصوص، والمبيَّن بالآثار سواء كان صغيرًا أو كبيرًا هو من تعليم الناس صغار العلم قبل كباره.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "إنَّ المتقدِّمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين، **ولم تكن وُضِعَت كتب الرأي التي تسمّىٰ (كتب الفقه)**[٨١٨]". الفتاوىٰ

---

(٨١٨) **قلت**: يعني: التي تُعنَىٰ بتشقيق المسائل، ويقلُّ فيها الدليل أو ينعدم، وإن كان فيها من الخير والنفع الذي سنذكره -إن شاء الله-، ويحتمل أنَّنا أشرنا إليها في المقدمة، ولكن مع ذلك فيها من العيب والنقص الشيء الكثير؛ من المخالفات، والصدِّ عن السنة، والحيل، والأحاديث الضعيفة؛ بل والموضوعة والتي لا أصل لها، والآراء المرجوحة التي خالف فيها أصحابها الأحاديث الصحيحة أو الأثر، بل والسلف، وفيها من تشقيقات المسائل، وتعقيد الأسلوب، وذكر ما قد لا يقع، وبعضها لا يمكن أن يقع بحال، وغير ما فيها من تناقضات وتحريفات، ورد للنصوص الصريحة الصحيحة، لأجل التعصُّب للمذهب وصاحبهم، وهي -مع ذلك- لا تخلو من بدع وضلالات، واتباع للهوىٰ، والتعصُّب للمذهب، وغير ذلك ممَّا سأذكر تفصيله في محلِّه -إن شاء الله-، وقد رأينا كما رأىٰ غيرنا ما يخالف الحديث الصحيح صراحة، وهذه طامَّة كبرىٰ،

وبلية عظمىٰ.

وجاء في الأثر أنَّ رجلًا سأل **أحمد بن حنبل** فقال له: أكتب كتبَ الرأي؟ قال: لا، قال فابن المبارك قد كتبها! قال: "ابن المبارك لم ينْزل من السماء، إنَّما أُمرنا أن نأخذ العلم من فوق". مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ١٩٤). يعني: من النبي وأصحابه.

هذا، **وقراءة هذه الكتب يستفاد منها في شرح النصوص، ومعرفة طرق الاستنباط، وتصوُّر المسائل**، فقد ذكر **ابن القيم** أنَّ: "مِنْ الرَّأْيِ الْمَحْمُودِ: الرَّأْيُ الَّذِي يُفَسِّرُ النُّصُوصَ، وَيُبَيِّنُ وَجْهَ الدَّلَالَةِ مِنْهَا، وَيُقَرِّرُهَا، وَيُوَضِّحُ مَحَاسِنَهَا، وَيُسَهِّلُ طَرِيقَ الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ عَبْدَانُ: سَمِعْت **عَبْدَاللهِ بْنَ الْمُبَارَكِ** يَقُولُ: لِيَكُنْ الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الْأَثَرُ، **وَخُذْ مِنْ الرَّأْيِ مَا يُفَسِّرُ لَك الْحَدِيثَ**". **صحيح**: ذمُّ الكلام للهروي (٣٣٥)، وابن عبدالبر في "جامع العلم" (٢/ ١٠٧٠، ١٠٥٠، ١٠٣١)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (٢/ ١٦٤)، حلية الأولياء (٨/ ١٦٥).]. وَهَذَا هُوَ الْفَهْمُ الَّذِي يَخْتَصُّ اللهُ -سُبْحَانَهُ- بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ".

وهناك وجه آخر تُقرأ لأجله كتب الرأي وهو: معرفة القياس، وإرجاع الفروع إلىٰ أصولها، قال **ابن القيم**: (وهو) "أن يكون بعد طلب علم الواقعة من القرآن، فإن لم يجدها في القرآن ففي السنَّة، فإن لم يجدها في السنة فبما قضىٰ به الخلفاء الراشدون أو اثنان منهم أو واحد، فإن لم يجده فبما قاله واحد من الصحابة ﷺ، فإن لم يجده اجتهد رأيه ونظر إلىٰ أقرب ذلك من كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وأقضية أصحابه؛ فهذا هو الرأي الذي سوَّغه الصحابة واستعملوه، وأقرَّ بعضهم بعضا عليه". إعلام الموقعين (١/ ٦٧، ط: العلمية).

وينظر ما قاله الفُلَّانيُّ في "إيقاظ همم أولي الأبصار" (ص ٨٢)، حول كتب الفروع. وعليه؛ فإنَّ قراءتها مفيدة ونافعة؛ لأجل **معرفة الإجماع والخلاف، والقياس، وتصوُّر المسائل، وشرح النصوص، ومعرفة طرق الاستنباط منها**.

وإن كتبت الكتب لشرح النصوص، ونصرة الحق، وردِّ الباطل؛ فلا بأس بها؛ بل قد يجب ذلك -أحيانًا-، قال الإمام **ابن القيم**: "وَإِنَّمَا كَرِهَ أَحْمَدُ ذَلِكَ، وَمَنَعَ مِنْهُ: لِمَا فِيهِ من الِاشْتِغَالِ بِهِ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فَإِذَا كَانَتْ الْكُتُبُ مُتَضَمِّنَةً لِنَصْرِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالذَّبِّ عَنْهُمَا، وَإِبْطَالِ لِلْآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ الْمُخَالِفَةِ لَهُمَا؛ فَلَا بَأْسَ بِهَا، وَقَدْ تَكُونُ وَاجِبَةً وَمُسْتَحَبَّةً وَمُبَاحَةً، بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ الْحَالِ". الطرق الحكمية (ص ٢٣٥).

ومن النصائح الغوالي ما قاله **ابن مفلح**: "وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا فِي زَمَانِنَا مَنْ قَرَأَ مِنْ اللُّغَةِ أَحْمَالًا، فَحَضَرَ بَعْضُ الْمُتَفَقِّهَةِ؛ فَسَأَلَهُ عَنْ الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ: «**لَوْ طَعَنْت فِي فَخِذِهَا أَجْزَأَك**»؛ فَقَالَ: هَذَا لِلْمُبَالَغَةِ، فَقَالَ لَهُ الصَّبِيُّ: أَلَيْسَ هَذَا فِي ذَكَاةِ غَيْرِ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ؟! فَفَكَّرَ الشَّيْخُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: صَدَقْت!".

وَ"أَدْرَكْنَا مَنْ بَرَعَ فِي عُلُومِ الْفِقْهِ؛ فَكَانَ إذَا سُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ؟!

وَأَدْرَكْنَا مَنْ بَرَعَ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ؛ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَوْمًا: إنِّي أَدْرَكْتُ رَكْعَةً مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَأَضَفْت إلَيْهَا أُخْرَىٰ؛ فَمَا تَقُولُ؟ فَسَبَّهُ وَلَامَهُ عَلَىٰ تَخَلُّفِهِ وَلَمْ يَدْرِ مَا الْجَوَابُ!،

وَأَدْرَكْنَا مَنْ بَرَعَ فِي عُلُومِ الْقِرَاءَاتِ؛ فَكَانَ إذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ: عَلَيْك بِفُلَانٍ. [و]هَذِهِ كُلُّهَا مِحَنٌ قَبِيحَةٌ،

(١٨/ ٧٤- ٧٥)،

تنبيه مهم: دراسة وقراءة كتب الفروع بعد تحصيل الكتاب والسنَّة حفظًا ودراسة

ينبغي أن نقرأ الكتب التي أُلِّفت في الفروع الفقهية -ونحوها- بعد تحصيل الأصول من الكتاب والسنَّة؛ فيكون الطالب علىٰ بصيرة من أمره. فإنْ حَفِظَ السنة، وأنار اللهُ قلْبَهُ بها، وعرف الأدلَّة التي يميِّز بها بين الصواب والخطأ، ثمَّ يعرض ما فيها علىٰ ما درسه وعلمه وحفظه من الكتاب والسنَّة؛ فما وافق السنَّة منه اتبعه، وما خالفها تركه.

فالسلف كانوا يحرصون علىٰ الاشتغال بالكتاب والسنَّة قبل كلِّ شيء، فَعَنْ عَيَّاشٍ الْقَطَّانِ، قَالَ: قُلْتُ **لِأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ**: أَشْتَهِي أَنْ أَجْمَعَ حَدِيثَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَقَالَ لِي أَحْمَدُ: "حَتَّىٰ تَفْرُغَ مِنْ حَدِيثِ نَبِيِّنَا ﷺ". الجامع لأخلاق الراوي (١٩١٤). فكيف بكلام البشر وبعض المقلِّدة من أصحاب المذاهب؟!.

فنحن نؤخِّر هذه الكتب؛ كي نبدأ بما بدأ الله به ورسوله، ونقدِّمَ كلامَ اللهِ وكلامَ رسولِهِ علىٰ كلام البشر، فنقدّم الأولىٰ فالأولىٰ، والأهمَّ فالأهمَّ.

وممَّا يدخل في النهي عن الكتب أيضًا: كتب التصوف؛ كإحياء الغزالي وشروحه ومختصراته؛ فالأولىٰ تركها وهجرها؛ بل والتحذير منها؛ قال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجمهور هذه التصانيف التي صنِّفت لا تستند إلىٰ أصل، وإنَّما واقعات تلقَّفها بعضهم عن بعض، ودوّنوها، وقد سمَّوها بالعلم الباطن!.

قال إسحاق بن حيَّة: سمعت **أحمد بن حنبل** وقد سئل عن الوساوس والخطرات؟ فقال: ما تكلَّم فيها الصحابة ولا التابعون". ثمَّ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ورُوِّينا عن **أحمد بن حنبل** أنَّه سمع كلام الحارث المحاسبي؛ فقال لصاحبٍ له: لا أرىٰ لك أن تجالسهم. وعن سعيد بن عمرو البرذعي قال: شهدتُ **أبا زُرعة** وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه؟ فقال للسائل: إيَّاك وهذه الكتب!، هذه الكتب كتب بدع وضلالات!!، عليك بالأثر؛ فإنَّك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة! قال: من لم يكن له في كتاب الله -عزَّ وجلَّ- عبرة؛

فَلَمَّا رَأَيْت أَنَّ كُلَّ مَنْ بَرَعَ مِنْ أُولَئِكَ فِي فَنِّهِ مَا اسْتَقْصَىٰ، وَإِنَّمَا عَوَّقَتْهُ فُضُولُهُ عَنْ الْمُهِمِّ -وَمَا بَلَغَ الْغَايَةَ!-؛ رَأَيْت أَنَّ أَخْذَ الْمُهِمِّ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ هُوَ الْمُهِمُّ". الآداب الشرعية (٢/ ١٢٤)؛ بتصرف واختصار.

فليس له في هذه الكتبِ عبرة، بلغكم أنَّ مالك بن أنس، وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمَّةَ المتقدِّمةَ؛ صنَّفوا هذه الكتبَ علىٰ الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟! هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتوننا مرَّة بالحارث المحاسبي، ومرَّة بعبدالرحيم الدَبِيلي، ومرَّة بحاتم الأصم، ومرَّة بشقيق، ثمَّ قال: ما أسرع الناس إلىٰ البدع". المنتقىٰ النفيس من تلبيس إبليس (ص ٢١٦).

والخلاصة: لعلَّ طالب العلم الموفَّق يكون قد وقف علىٰ ما حذَّر منه السلف من العكوف علىٰ الكتب التي صدَّت الناس عن الكتاب والسنة والتفقُّه فيهما، وانشغل الناس بالكتب، حتىٰ غدا جلّ همِّهِم القيل والقال، والكتب، وانشغلوا بها عمَّا هو أولىٰ بل وأوجب.

تنبيهات حول الكتب والعلم:

- خذ من الكتب أولاها، وأعظمها فائدة في كلِّ فن، وأسهلها تناولاً وفهماً.
- لا يكون همُّك كثرة القراءة والتحصيل.
- اهتمَّ بأصول العلم (الكتاب – السنَّة – الأثر).
- من المهم أن تعتني بالصحيح من النصوص، والراجح من الأقوال.
- عليك بأهل التحقيق والتنقيح في العلم كابن المنذر، وابن عبدالبر، والبغوي، وابن تيمية وابن القيم وابن كثير ومن المعاصرين الألباني ابن باز وابن عثيمين. رحمهم الله جميعاً.
- كن سلفياً أثرياً، فلا تأخذ مسألة إلا بدليلها الصحيح، والأمر كما قال **سفيان**: "إن استطعت ألا تحكَّ رأسك إلا بأثر فافعل". الجامع لأخلاق الراوي (١٧٤).
- احرص علىٰ العمل بما تعلم ولو كان شيئاً يسيراً، وحكِّم الكتاب والسنَّة في كلِّ شيء من حياتك.
- احرص علىٰ حفظ النصوص لتكون علىٰ بصيرة، وقوي الحجَّة.
- احرص علىٰ الإخلاص، والاستعانة بالله في قراءتك وتعلّمك، وحفظك، وتدريسك.
- إن كتبت شيئاً فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ، ولا تكثر الكلام، ولا الحشو، وحاول أن تقتدي بنبيك في قصر العبارة، فهذا مئنة من فقهك.

وبالجملة: فليحرص طالب العلم علىٰ أن يأخذ -من العلم والكتب- الأهمَّ فالمهمَّ، ولا ينشغل بالكتب الكثيرة لا سيما الكتب التي يندر فيها الدليل أو ينعدم، وأيضاً إن نظر في الكتب

العلم والدليل فلابد أن يعتني بالشروح السلفية لها.

وقدم الأهمَّ إنَّ العلم جمّ والعمر ضيف زار أو طيف ألمّ

وكان شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ يتمثل بهذا البيت:

العلم إن طلبته كثير والعمر عن تحصيله قصير

فقدم الأهم علىٰ المهم

قد يقول قائل: كيف نوجِّه الحديث الوارد عَنْ **عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ**، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (**هَلَاكُ أُمَّتِي فِي الْكِتَابِ وَاللَّبَنِ**). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا الْكِتَابُ وَاللَّبَنُ؟ قَالَ: (**يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ فَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَيُحِبُّونَ اللَّبَنَ فَيَدَعُونَ الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمَعَ وَيَبْدُونَ**). **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٤١٥) وغيره، وهو في الصحيحة (٢٧٧٨).

الجواب عنه: أنه عليه الصلاة والسلام جعل الهلاك في الكتاب، والانشغال بالكتابة، والكتب الكتب حتىٰ قرأ الناس الكتب الكثيرة، وأكثرها قليلة البركة، مشغلة عن أصول العلم وتفسير القرآن، والشروح السلفية للسنة النبوية، وأيضًا جاء في نفس الحديث، أنهم يتعلمون ويقرؤون القرآن يتأولونه علىٰ غير تأويله، ويحملونه علىٰ غير ما أراد الله من تفسيره.

وقد سبق الأثر: عن **إِسْمَاعِيلُ ابْنُ عُلَيَّةَ**، قَالَ: قال **ابْنُ عَوْنٍ**: "أَحْسِبُ -أَوْ أَرَىٰ- يَكُونُ لِهَذِهِ الْكُتُبِ غِبٌّ سُوءٍ"، قَالَ **إِسْمَاعِيلُ**: "إِنَّمَا كَرِهُوَا الْكِتَابَ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اتَّخَذُوا الْكُتُبَ فَأُعْجِبُوا بِهَا؛ فَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِهَا عَنِ الْقُرْآنِ". "العلل ومعرفة الرجال" لأحمد رواية ابنه عبد الله (٢٧٣٠)؛ و"تقييد العلم" للخطيب (ص٥٧)، يعني عن القرآن والحديث.

فالكتابة إن كانت مقصودة لحفظ الدين، والمراد منها العمل فالباب كلُّه حول كتابة العلم؟!!

حفظ الألفاظ، دون تعلُّم معاني النصوص.

لا يمكن حفظ الكتاب بغير حديث النبي ﷺ وسنَّته؛ لأنَّه هو المفسِّر والموضِّح والمبيِّن لكتاب الله -عز وجل- ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل: ٤٤].

فالسنة محفوظة حفظًا متقنًا في الصدور، والسطور، بقواعد دقيقة، متقنة متينة، فلا يستطيع أحد أن يدخل فيها ولو حرفًا واحداً، بل كان **ابن مسعود** يأخذ علىٰ أصحابه الألف والواو في

التشهد، فَعَنِ **الْأَسْوَدِ**، قَالَ: "كَانَ عَبْدُاللهِ، يُعَلِّمُنَا التَّشَهُّدَ فِي الصَّلَاةِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَأْخُذُ عَلَيْنَا الْأَلِفَ وَالْوَاوَ". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٧)، وَقَالَ **إِبْرَاهِيمُ**، قَالَ: "كَانُوا يَتَحَفَّظُونَ هَذَا التَّشَهُّدَ، تَشَهُّدَ عبدالله، وَيَتَّبِعُونَ حُرُوفَهُ حَرْفًا حَرْفًا". **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة (٣٠٠٣). صحَّحه الشيخ في أصل الصفة (٣/ ٨٨٧).

وكان ﷺ يعلِّمهم التشهد ودعاء افتتاح الصلاة، والدعاء بعد التشهد والاستخارة؛ كما يعلِّمهم السورة من القرآن، وإن أخطؤوا في لفظ من الأدعية صحَّح لهم؛ كما في حديث: "**وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**، قال البراء: وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فأعاد عليه ﷺ: "**وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**". البخاري (٢٤٧).

١١٤ - حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سُلَيْمَانَ (**ابن يحيىٰ بن سعيد الجعفي**)، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ (**عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم**)، قَالَ: أَخْبَرَنِي يُونُسُ (**ابن يزيد الأيلي**)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُبَيْدِاللهِ بْنِ عَبْدِاللهِ (**ابن عتبة بن مسعود الهذلي**)، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا -، قَالَ: لَمَّا اشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَجَعُهُ (أي: مرضه الذي توفِّي فيه) قَالَ: «**ائْتُونِي بِكِتَابٍ** (ما يُكتَب عليه) **أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ**».

قَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الوَجَعُ (أي: فلا داعي لأن نكلِّفه ما يشقُّ عليه)، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا (كافينا)، فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ (الصياح وأصوات مبهمة لا تفهم)، قَالَ: «**قُومُوا عَنِّي، وَلاَ يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ**».

فَخَرَجَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: "إِنَّ الرَّزِيَّةَ (المصيبة) كُلَّ الرَّزِيَّةِ، مَا حَالَ (وهو اختلافهم ولغطهم) بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كِتَابِهِ".

أطرافه في: (الجهاد٣٠٥٣، الجزية والموادعة٣١٦٨، المغازي٤٤٣١، ٤٤٣٢، المرضىٰ٥٦٦٩، الاعتصام٧٣٦٦).

وأخرجه مسلم (١٦٣٧)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٢١، ٥٨٢٣، ٥٨٢٥، ٧٤٧٤).

الشرح

وقوله: (**ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدَهُ**)، هذا هو موضع الشاهد

للترجمة في كتابة العلم، وأولىٰ ما يكتب ويحرص عليه هو حديث النَّبي ﷺ، وكم وكم كَتَبَ ﷺ كتُبًا للملوك، وكان عنده كُتَّاب للوحي، والمقصود منه: كتابة الوحي من القرآن والسنَّة، **وفيه** حرص السلف علىٰ العلم وكتابته.

فيه أنَّ أمره هذا (**ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا**) لم يكن أمر إيجاب، ولكنَّه كان يريده، فلمَّا راجعه عمر فيه؛ تركه؛ كما ترك غيره في مواطن أخرىٰ. وقد حكىٰ **سفيان بن عيينة** عن أهل العلم قبله أنَّه ﷺ أراد أن يكتب استخلاف أبي بكر رضي الله عنه، ثمَّ ترك ذلك اعتماداً علىٰ ما علمه من تقدير الله تعالىٰ ذلك كما همَّ بالكتاب في أول مرضه حين قال: "وارأساه"، ثمَّ ترك الكتاب، وقال: "**يأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر**"، ثمَّ نبَّه أمَّته علىٰ استخلاف أبي بكر بتقديمه إياه في الصلاة".

قوله: (قَالَ عُمَرُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الوَجَعُ): لم يقصد عمر منع رسول الله ﷺ ولا ردَّ أمره ﷺ، وإنَّما قصد رضي الله عنه: "التخفيف علىٰ رسول الله ﷺ حين غلبه الوجع، ولو كان مراده ﷺ أن يكتب ما لا يستغنون عنه لم يتركه لاختلافهم ولا لغيره، لقوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ولكنه أشفق علىٰ النبي ﷺ، من شدَّة الوجع.

وأيضـًا لا يجوز تأخير البيان إلىٰ مرض موته، ولا يجوز له ترك الكتاب لشكٍّ من شكَّ فلو كان ما يكتبه في الكتاب ممَّا يجب بيانه وكتابته لبيَّنه النبي ﷺ وكتبه، ولم يلتفت إلىٰ قول أحد فإنَّه أطوع الخلق لله، فعلم أنَّه لـمَّا ترك الكتاب لم يكن الكتاب واجبـًا ولا كان فيه من الدين ما تجب كتابته حينئذ إذ لو وجب لفعله، ولما جاز كتمان ذلك، ولا أقلَّ منه.

وأيضـًا: فإنَّ عمر فهم ما أراده ﷺ ، وعلم أنَّ كتاب الله فيه تفضيل أبي بكر، علىٰ سائر الصحابة، وأنَّهم لم يكونوا ليقدِّموا أحداً عليه، فلا يحتاج إلىٰ كتاب،

وأيضـًا فإن عمر راجع رسول الله ﷺ غير ما مرَّة وأخذ برأي عمر في، قصة تشير أبي هريرة الناس (اذهب فبشر الناس)، وقصة ذبح الحمر الأهلية، وقصة ذبحهم الإبل في سفرهم.

وقد كان أصحابه ﷺ يراجعونه في بعض الأمور قبل أن يجزم فيها بتحتيم، كما راجعوه يوم الحديبية في الخلاف، وفي كتاب الصلح بينه وبين قريش، فأمَّا إذا أمر النبي ﷺ بالشيء أمر عزيمة فلا يراجعه فيه أحد منهم، وكان لا يراجع فوق ثلاث.

قوله: (وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللهِ حَسْبُنَا): قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ولا يحل ولا يجوز، أن يكتفي الناس بما في القرآن دون السنَّة، لأنَّ القرآن قد دلَّ علىٰ السنَّة، ولذلك قال من قال: "القرآن أحوج إلىٰ السنَّة من السنَّة للقرآن".

قال ﷺ: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) سنده صحيح: (أخرجه أحمد (١٧١٧٤) وغيره، وسبق، وقد تقدَّم في المقدمة الكلام علىٰ أهمية السنَّة مع القرآن، وأنَّه لا يكتفىٰ ولا يجتزئ به عنها، علىٰ أنَّ القرآن أمر باتباع السنَّة.

وفيه شفقة عمر رضي الله عنه- علىٰ النبي ﷺ، وهذا من محاسنه ومناقبه. **وفيه** فضيلة عمر وفقهه وبعد نظره، ورؤيته لعواقب الأمور؛ حيث أقرَّه النبيُّ ﷺ علىٰ اجتهاده.

وفيه نصيحة عمر للمسلمين وأئمَّتهم. **وفيه** تعظيم السلف للقرآن والحديث، والعمل بهما.

قوله: (فَاخْتَلَفُوا وَكَثُرَ اللَّغَطُ): فيه النهي عن الاختلاف والفرقة، كما في الحديث: (**اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم**) متفق عليه، وفي الحديث: (**لا تختلفوا فتختلف قلوبكم**) رواه مسلم (٤٣٢)، **وفيه** أنَّ الاختلاف يزيد بالبعد عن الوحي.

قوله: (قُومُوا عَنِّي، وَلَا يَنْبَغِي عِنْدِي التَّنَازُعُ): قال **القرطبي**: "واختلافهم في ذلك كاختلافهم في قوله لهم: "**لا يصلينَّ أحد العصر إلا في بني قريظة**" فتخوَّف ناس فوت الوقت فصلَّوا، وتمسَّك آخرون بظاهر الأمر فلم يصلُّوا، فما عنَّف أحدًا منهم من أجل الاجتهاد المسوَّغ والمقصد الصالح" المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم(٤/ ٥٥٩).

وقوله: (إِنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ، مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَبَيْنَ كِتَابِهِ)، يقول: إنَّ أعظم مصيبة هي هذا الاختلاف الذي حصل عند النبي ﷺ؛ ممَّا تسبب في حرماننا من كتابة وصية النبي ﷺ، فصرَّح بعلَّة قوله: (**الرزية**)[٨١٩] في بعض رواياته فقال: "**مِنَ اخْتِلَافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ**"، تأتي في كتاب "المرضىٰ" و"المغازي" و"الاعتصام"، فلا يفرح الرافضة به! **وفيه** وأنه ينبغي

---

(٨١٩) ينظر حديث رزية يوم الخميس في الصحيحين - دراسة نقدية تحليلية لعبد القادر بن مصطفىٰ بن عبدالرزاق المحمدي.

ألا يأخذ الناس العلم من غير الكتاب والسنة، وليحذر من الكتب التي أشغلت عن القرآن وتفسيره، والحديث وفقهه.

وفيه أنَّ أعظم مصيبة مُنِيَت بها الأمَّة هي موته ﷺ. **وفيه** سدُّ الذرائع؛ خشية المفسدة، **وفيه** أنَّ عمر خاف علىٰ جماعة المسلمين من المنافقين؛ لأنَّ النبي ﷺ لو كتب كتاباً في التنصيص علىٰ خلافة أبي بكر، لأمكن لأهل الباطل أن يستغلُّوا هذا ويقولوا: إنَّ أبابكر وعمر ومن معهما دخلوا علىٰ النبي ﷺ وهو في مرضه وأكرهوه علىٰ أن يكتب كتاباً، فأراد عمر أن يسدَّ هذا الباب، **وفيه** مشروعية الاجتهاد واستنباط الأحكام للنوازل من الكتاب والسنَّة في زمن النبي ﷺ وبعده. **وفيه** أنَّ الاختلاف يمنع الخير، ويؤدِّي إلىٰ حرمان التوفيق. فالخلاف شرٌّ، كما حدث في ليلة القدر منعنا معرفتها لأجل الخلاف، فعن أنس بن مالك، أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في رمضان فقال: «**إنِّي أُريت هذه الليلة حتىٰ تلاحىٰ رجلان** (تنازعا) **فرفعت، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**» أخرجه البخاري في الإيمان (٤٩)، ومواضع أخرىٰ.

وهذا خلاف ما رُويَ: «**اختلاف أمَّتي رحمة**»؛ فإنَّه لا يصحُّ(٨٢٠).

وفيه أنَّه يجوز للعالمِ إخراج من يتنازع عنده، وإخراجه مِن مكانه؛ للتأديب، ونحوه. **وفيه** أنَّه لا ينبغي التنازع والاختلاف في النصوص. **وفيه** أنَّ اللغط والاختلاف هو الذي حال بين المسلمين وكتابة الوصية، وليس عمر؛ كما تزعمه الرافضة!.

وفيه أهمية تقييد العلم؛ مخافة ضياعه، **وفيه** أنَّ الأصل هو المبادرة إلىٰ امتثال الأوامر. **وفيه** مراجعة العالم من قبل أصحابه بشرطه.

---

(٨٢٠) قال شيخنا **الإمام الألباني**: **لا أصل له**، ثمَّ إنَّ معنىٰ هذا الحديث مستنكر عند المحقِّقين من العلماء، قال **ابن حزم** في "الإحكام في أصول الأحكام" (٥/ ٦٤) بعد أن أشار إلىٰ أنَّه ليس بحديث: وهذا من أفسد قول يكون؛ لأنَّه لو كان الاختلاف رحمة؛ لكان الاتفاق سخطا، وهذا ما لا يقوله مسلم؛ لأنَّه ليس إلا اتفاق أو اختلاف، وليس إلا رحمة أو سخط، وقال في مكان آخر: باطل مكذوب؛ كما سيأتي في كلامه المذكور عند الحديث (٦١)". الضعيفة (١/ ١٤١)..

٤١ - بَابُ العِلْمِ وَالعِظَةِ بِاللَّيْلِ

قوله: **(بَابُ العِلْمِ وَالعِظَةِ بِاللَّيْلِ)**، مراده أنَّ تعليم العلم والوعظ يكون في كلِّ وقت ولو بالليل، وأنَّه لا يعدُّ من السمر المنهي عنه؛ لأنَّه يستثنىٰ من ذلك ما كان في خير إذا لم يترتَّب عليه شرٌّ. ثمَّ هناك أمر آخر، وهو أنَّ الوعظ محلُّه الحاجة والمصلحة.

هذا؛ وفي بعض النسخ: **(وَالْيَقَظَة)**، وهو مناسب أيضًا للترجمة، وفي بعض النسخ أُخِّرَ هذا الباب عن الذي يليه.

١١٥ - حَدَّثَنَا صَدَقَةُ (ابن الفضل، أبو الفضل المروزي)، أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ هِنْدٍ (بنت الحارث الفِراسية القرشية)، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر المخزومية، أمّ المؤمنين).

وَعَمْرٍو (ابن دينار المكي)، وَيَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ (ابن قيس الأنصاري، المدني)، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ هِنْدٍ، **عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ!، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ؟!، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الخَزَائِنِ؟!، أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ!** (أي: معاقبة بفضيحة التعرِّي، أو عارية من الحسنات)».

أطرافه في: (التهجد١١٢٦، المناقب٣٥٩٩، اللباس٥٨٤٤، الأدب٦٢١٨، الفتن٧٠٦٩).

وأخرجه الترمذي (٢١٩٦).

الشرح

قوله: **(اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ!)**، في رواية: أنّه **(استيقظ ليلةً فزعًا)** كتاب الفتن: (٧٠٦٩)، وفي أخرىٰ: **(وَهُوَ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)** كتاب اللباس: (٥٨٤٤): وهذا هو المناسب للترجمة، حيث وعظ وذكَّر وعلَّم بالليل، فدلَّ علىٰ أنَّ ذلك لا يختص بالنهار - فقط -، بل العلم يكون في كلِّ حين، وكان كثير من السلف يتدارسون العلم في الليل، فهذا **ابنُ أَبِي حَاتِمٍ الرَّازِيُّ** يَقُوْلُ: "كُنَّا بِمِصْرَ سَبْعَةَ أَشْهُرٍ، لَمْ نَأْكُلْ فِيْهَا مَرَقَةً، كُلَّ نَهَارِنَا مُقَسَّمٌ لِمَجَالِسِ الشُّيُوْخِ، وَبَاللَّيْلِ: النَّسْخُ وَالمُقَابَلَةُ". سير النبلاء (١٣/ ٢٦٥).

ففيه العلم والعظة بالليل. **وفيه** مشروعية التسبيح عند الأمر المهول وعند التعجب. **وفيه** استحباب ذكر الله بعد الاستيقاظ أو التعارِّ من الليل.

قوله: **(مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ؟!)**، أي: ما أكثر ما قُدِّرَ من الفتن هذه الليلة، وليس المقصود هو وقوع فتنة أو قتال في تلك الليلة.

وقوله: **(وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الخَزَائِنِ؟!)**، أي: ماذا قُدِّر من الرحمة، قال **المهلب**: **"فيه** دلالة علىٰ أنَّ الفتن تكون في المال وفي غيره" التوضيح (٣/ ٥٩٩)، **وفيه** عَلَم من أعلام نبوته ﷺ؛ فقد فُتِحَت خزائن فارس والروم وغيرهما علىٰ الصحابة بعده. **وفيه** أنَّ انفتاح الدنيا علىٰ المرء سببٌ للفتن. **وفيه** بيان شفقته ﷺ علىٰ أمَّته.

وقوله: **(أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الحُجَرِ)**، **جمعُ**: صاحبة، **والمراد**: زوجاته ﷺ، **والحُجَرُ**: جمعُ حُجْرة، وهي: مساكنهنَّ. قال **الحافظ**: **"**أَيْ: يَنْبَغِي لَهُنَّ أَنْ لَا يَتَغَافَلْنَ عَنِ الْعِبَادَةِ وَيَعْتَمِدْنَ عَلَىٰ كَوْنِهِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ**"**. الفتح (١/ ٢١١). **ففيه** التعاون علىٰ إيقاظ النائم، ويكون هذا من السمر المشروع. **وفيه** ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من تعهُّد أهله في الطاعة، والبعد بهم عن مواطن الفتن ومظنَّتها، واتِّخاذه السبل الواقية منها. **فيه** أنَّ العصمة من الفتن تكون بالعلم النافع والعمل الصالح؛ لأنَّه ﷺ علّمهنَّ ووعظهنَّ، وأمرهنَّ بالصلاة والعبادة في الليل. **وفيه** استحباب الإسراع إلىٰ الطاعات عند خشية الشرِّ؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾ [البقرة: ٤٥]. **وفيه** تحذير العالِم طلابَهُ من كلِّ شيءٍ يُتوقَّع حصوله من مكروه، وإرشادهم إلىٰ ما يدفع ذلك المكروه.

وقوله: **(كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ)**، أي: ظاهرها التقوىٰ والصلاح، وباطنها غير ذلك، أو تلبس الثياب الرقيقة التي لا تستر، فتصف ما تحتها، بل قد تستر جسدها ثمَّ تشدُّ الخمار من ورائها؛ فتحجِّم جسدها وتصفه؛ فيظهر صدرها، أو تتستَّر إلا بعضًا من أجزاء بدنها؛ إظهارًا لجمالها، أو كاسية من نِعَم الله ولا تشكرها؛ فتحرم النعيم في الآخرة الذي يكون الشكر سببه؛ فتكون عارية منه، أو كاسية من الثياب عارية من الحسنات والخير والاهتمام للآخرة والاعتناء بالطاعات، يعني: أنَّهنَّ كاسيات فيما يظهر، ولكنهنَّ عاريات من الخير في الحقيقة. وورد الحديث عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ**

مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا». رواه مسلم (٢١٢٨).

وفي الحديث من الفوائد: حرص أزواج النبي ﷺ علىٰ نقل العلم للأمَّة وطلبهنَّ للعلم. **وفيه** التحريض علىٰ صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، لا سيَّما عند الخوف من الفتن. **وفيه** أنَّ التوحيد ينجي من الفتن، وأنَّه سبب لرفع البلاء. **وفيه** الاهتمام بصلاح الباطن وأعمال القلوب. **وفيه** أنَّ من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه. **وفيه** الاجتهاد في العمل الصالح وعدم الاغترار **وفيه** خوف أهل الإيمان من الفتن والفزع منها. **وفيه** أنَّ الابتلاء يكون بالخير والشرِّ. **وفيه** الحذر من الدنيا والزهد فيها. **وفيه** تأكُّد قيام الليل لطلاب العلم. **وفيه** ميل النساء إلىٰ الدنيا وزخارفها. **وفيه** النصيحة لعموم الأمَّة وخصوصا الأهل والأولاد.

٤٢ - بَابُ السَّمَرِ فِي العِلْمِ

قوله **(بَابُ السَّمَرِ فِي العِلْمِ)**، أي: في بيان حكمه، وهل هو داخل في النهي العام في السمر بعد العشاء أو لا؟

و(**السَّمَرُ**): حديث الليل أو التحدُّث بالليل قبل النوم، ومنه قوله -تعالىٰ-: ﴿**سَامِرًا تَهْجُرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٦٧]، والسامر: بمعنىٰ السُّمَّار، أي: القوم الذين يسمُرون مع جلسائهم ليلاً.

أشار **الحافظ** إلىٰ أنَّ هناك فرقا بين هذه الترجمة والتي قبلها، وذلك أنَّ المقصود بالسمر -هنا-: الذي يكون قبل النوم، وفي التي قبلها: عند التعارّ من الليل، أي: بعد الاستيقاظ ليلاً؛ فظهر الفرق بينهما، والله أعلم. الفتح (١/ ٢١١)، وأيضـًا لـمَّا ذكر -في الباب السابق- العلم والعظة بالليل، وهو من السمر ليلًا؛ ناسب أن يذكر حكم السمر في العلم؛ لئلا يُتوهم أنَّه داخل في عموم النهي عن السمر بعد العشاء؛ إذ الأصل في السمر هو الكراهة، وقد يصل إلىٰ التحريم؛ كما سيأتي في بابه -إن شاء الله-؛ لزجر النبي ﷺ عنه، وضرب عمر الناس عليه. **صحيح**: أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢١٣٤) وابن أبي شيبة في المصنف (٦٦٨١)؛ فأشار بهذا التبويب إلىٰ أنَّ ذلك مستثنىٰ من عموم النهي، والله أعلم.

ما يستثنىٰ من النهي عن السمر بعد العشاء

يستثنىٰ منه ما تقدَّم من السمر في العلم، ومن الأدلة علىٰ جوازه ما ورد في حديث **عبدالله بْنِ عَمْرٍو** رضي الله عنهما، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُنَا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّىٰ يُصْبِحَ، مَا يَقُومُ فِيهَا إِلَّا إِلَىٰ عُظْمِ صَلَاةٍ". **صحيح**: رواه أحمد (١٩٩٢٢)، وأبوداود (٣٦٦٣)، وابن حبان (٦٢٥٥)، وابن خزيمة (١٣٤٢)، وهو في الصحيحة (٣٠٢٥).

ويستثنىٰ أيضـًا من النهي ما ورد في حديث **ابن مسعود** رضي الله عنه -قال: قال رسول الله: **(لَا سَمَرَ إِلَّا لِمُصَلٍّ أَوْ مُسَافِرٍ)**. **صحيح**: أخرجه أحمد (٤٢٤٤)، وهو في الصحيحة (٢٤٣٥). فاستثنىٰ المسافر؛ لأنَّه قد يحتاج إلىٰ مواصلة السفر ليلاً، ولأنَّ الأرض تطوىٰ بالليل، ويستثنىٰ كذلك المصلي؛ فعَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رضي الله عنه- قَالَ: «أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَعَرَضَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلٌ، **فَكَلَّمَهُ فِي حَاجَةٍ لَهُ هُوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ**؛ حَتَّىٰ نَعَسَ بَعْضُ الْقَوْمِ». **صحيح**: أخرجه ابن حبان (٢٠٣٥)، وأصله في الصحيحين.

وحديث أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: انْتَظَرْنَا النَّبِيَّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، حَتَّىٰ كَانَ شَطْرُ اللَّيْلِ يَبْلُغُهُ، فَجَاءَ فَصَلَّىٰ لَنَا، ثُمَّ خَطَبَنَا، فَقَالَ: «**أَلاَ إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا ثُمَّ رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَمْ تَزَالُوا فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرْتُمُ الصَّلاَةَ**». يأتي في "مواقيت الصلاة" (٦٠٠)، وذلك لأنَّ المصلي ومن ينتظر الصلاة يسمر في طاعة الله، ويدخل في هذا الاستثناء ما في معناهما؛ قال **النووي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا ما فيه مصلحة وخير؛ فلا كراهة فيه، وذلك: كمدارسة العلم، ومحادثة الضيف والعروس؛ للتأنيس، ومحادثة الرجل أهله وأولاده؛ للملاطفة والحاجة، ومحادثة المسافرين؛ بحفظ متاعهم أو أنفسهم، والحديث في الإصلاح بين الناس والشفاعة إليهم في خير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإرشاد إلىٰ مصلحة، ونحو ذلك؛ فكلُّ هذا لا كراهة فيه، وقد جاءت أحاديث صحيحة ببعضه، والباقي في معناه". شرح النووي علىٰ مسلم (٥/ ١٤٦).

١١٦ - حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ (ابن كثير بن عفير البصري)، قَالَ: حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُالرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ مُسَافِرٍ (ابن ظاعن الفهمي)، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمٍ (ابن عبدالله بن عمر)، وَأَبِي بَكْرٍ [٨٢١] بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ، **أَنَّ عَبْدَاللهِ بْنَ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، **قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا النَّبِيُّ ﷺ العِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؟، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا** (أي: بعد مرور مائة سنة)، **لاَ يَبْقَىٰ مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ** (تلك الليلة) **أَحَدٌ»**.

أطرافه في: (مواقيت الصلاة٥٦٤، ٦٠١).

وأخرجه مسلم (٢٥٣٧) وأبوداود (٤٣٤٨) والترمذي (٢٢٥١) والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٤٠).

الشرح

قوله: (**صَلَّىٰ بِنَا النَّبِيُّ ﷺ العِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ، فَقَالَ:...**)، هذه الواقعة في كونه صلىٰ العشاء ثمَّ خطبهم بهذا في آخر حياته؛ ورد في حديث جابر عند مسلم (٢٥٣٨) أنَّ ذلك كان قبل موته ﷺ بشهر، **فيه** القيام للموعظة، والتذكير بعد الانصراف من الصلاة، في رواية عند المصنف (٥٦٤): "ثُمَّ انْصَرَفَ؛ فَأَقْبَلَ عَلَيْنَا"، **وفيه** إقبال العالم علىٰ المصلين والناس بوجهه.

وفيه دليل علىٰ السمر بعد العشاء في العلم، وأنَّه مخصوص من النهي عن السمر بعد

---

(٨٢١) وأخرج له مسلم (٢٥٣٧) أيضًا، مقرونا بسالم في نفس هذا الحديث.

العشاء.

وفيه التنويع في أوقات التعليم.

قوله: (**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؟ فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا**): هذا الاستفهام معناه: قد رأيتم هذه الليلة؛ فاحفظوها واضبطوا تاريخها، قال **ابن بطَّال**: "وإنَّما أراد -والله أعلم- أنَّه هذه المدة يخترم الجيل الذي هم فيه، **فوعظهم بقصر أعمارهم**، وأعلمهم أنَّها ليست تطول أعمارهم كأعمار من تقدَّم من الأمم؛ **ليجتهدوا في العبادة**". شرح البخاري (١/ ١٩١). **وفيه** أنَّه ينبغي للعالم أن يتعاهد قومه، وأن ينبِّههم إلىٰ قصر الأمل، والحثِّ علىٰ الاجتهاد في العمل، . **وفيه** المبادرة إلىٰ الخير قبل انخرام العمر.

قَالَ **النَّوَوِيُّ**: "الْمُرَادُ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَلَىٰ الْأَرْضِ لَا يَعِيشُ بَعْدَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ، سَوَاءً قَلَّ عُمْرُهُ قَبْلَ ذَلِكَ أَمْ لَا، وَلَيْسَ فِيهِ نَفْيُ حَيَاةِ أَحَدٍ يُولَدُ بَعْدَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِائَةَ سَنَةٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ".اهـ. الفتح (١/ ٢١٢)، ويأتي الحديث في "مواقيت الصلاة".

والسمر في الخير عامَّة يجوز بشرطه، ولذلك قال **الحسن** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَإِنَّ القَوْمَ لاَ يَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا انْتَظَرُوا الخَيْرَ". البخاري (٦٠٠).

ومن السمر في العلم -أيضا- ما ورد عَنْ **أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، وَرَجُلًا آخَرَ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَحَدَّثَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَيْلَةً؛ حَتَّىٰ ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ سَاعَةٌ، فِي لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ الظُّلْمَةِ، ثُمَّ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ يَنْقَلِبَانِ، وَبِيَدِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَصَاهُ، فَأَضَاءَتْ عصا أَحَدِهِمَا لَهُمَا؛ حَتَّىٰ مَشَيَا فِي ضَوْئِهَا، حَتَّىٰ إِذَا افْتَرَقَتْ بِهِمَا الطَّرِيقُ؛ أَضَاءَتْ بِالْآخَرِ عَصَاهُ، فَمَشَىٰ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي ضَوْئِهَا؛ حَتَّىٰ بَلَغَ أَهْلَهُ". أخرجه البخاري (٤٦٥)، ابن حبان (٢٠٣٠) -واللفظ له-.

وقد سمر السلف الصالح في مذاكرة العلم؛ فعن أبىٰ موسىٰ الأشعري، قال: أتيتُ عمر أكلّمه في حاجة بعد العشاء، فقال: هذه الساعة؟ فقلت: إنَّه شيء من الفقه، قال: نعم، فكلَّمته، فذهبت لأقوم فقال: اجلس، فقلت: الصلاة، فقال: إنَّا في صلاة، فلم نزل جلوسًا حتىٰ طلع الفجر. مصنف ابن أبي شية (٦٨٥٧)، وقال الشثري: ضعيف منقطع.

وقوله: (**مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ ظَهْرِ الأَرْضِ**)، قال **النووي**: فيه الاحتراز من الملائكة. شرح

مسلم (١٦/ ٩٠). **قلت**: واحتراز من عيسىٰ -عليه السلام-، لأنَّ الله رفعه إليه، وأمَّا الدجال؛ فهو مخصوص من هذا العموم؛ بأحاديث أُخَر. أو يقال: المراد بذلك: جيل الصحابة؛ كما فهمه ابن عمر، والله أعلم.

وفيه عَلَم من أعلام نبوته ﷺ، فآخر الصحابة موتًا عامر بن واثلة أبوالطفيل، لم يتجاوز رأس المائة. **وفيه** بيان أنَّ الخضر ليس بحي، ولا دليل علىٰ حياته ألبتة -كما تقدم في قصة الخضر مع موسىٰ عليهما السلام- فقد بيَّنَّا وذكرنا بعض الأدلة علىٰ ذلك، تحت باب (١٦)، وحديث (٧٤).

وفيه الموعظة عن قيام؛ كالخُطبة. **وفيه** إيثار الآخرة علىٰ الدنيا.

١١٧ - حَدَّثَنَا آدَمُ (ابن أبي إياس)، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: حَدَّثَنَا الحَكَمُ (ابن عتيبة)، قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، عَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ** رضي الله عنهما-، قَالَ: "بِتُّ فِي بَيْتِ خَالَتِي مَيْمُونَةَ بِنْتِ الحَارِثِ -زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ-، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا، فَصَلَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ العِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَصَلَّىٰ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ نَامَ، ثُمَّ قَامَ، ثُمَّ قَالَ: «نَامَ الغُلَيِّمُ (تصغير غلام)» -أَوْ كَلِمَةً تُشْبِهُهَا -، ثُمَّ قَامَ، فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَصَلَّىٰ خَمْسَ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ (هما سنَّة الفجر)، ثُمَّ نَامَ، حَتَّىٰ سَمِعْتُ غَطِيطَهُ أَوْ خَطِيطَهُ (صوت نفس النائم)، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ الصَّلاَةِ (هي صلاة الفجر)".

أطرافه في: (الوضوء١٣٨، ١٨٣، الأذان٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٢٦، ٧٢٨، ٨٥٩، الوتر٩٩٢، العمل في الصلاة ١١٩٨، التفسير٤٥٦٩، ٤٥٧١، ٤٥٧٠، ٤٥٧٢، اللباس٥٩١٩، الأدب٦٢١٥، الدعوات٦٣١٦، التوحيد٧٤٥٢).

وأخرجه مسلم (٧٦٣)، وأبوداود (٦١٠، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٦٥)، أخرجه النسائي في الصغرىٰ (٨٠٦، ١١٢١)، وابن ماجه (٩٧٣، ٤٢٣).

الشرح

قوله: (فَصَلَّىٰ النَّبِيُّ ﷺ العِشَاءَ، ثُمَّ جَاءَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَصَلَّىٰ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ)، المناسبة بين الحديث والترجمة مستفادة من رواية أخرىٰ عند المصنف (٤٥٦٩): قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ، **فَتَحَدَّثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً، ثُمَّ رَقَدَ**، فَلَمَّا كَانَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، قَعَدَ فَنَظَرَ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَقَالَ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَعَنْ **عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْمُرُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ اللَّيْلَةَ كَذَلِكَ فِي الْأَمْرِ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَا مَعَهُ". **صحيح**: أخرجه أحمد (١٧٨) -واللفظ له-، والترمذي (١٦٩)، وابن حبان (٢٠٣٤)، وهو في الصحيحة (٢٧٨١). وكان **أبولىٰ** يسمر مع **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. **حسن**: أخرجه أحمد (٧٧٨، ١١١٧)، ابن ماجه (١١٧)، وأصله في الصحيحين، يأتي.

واختلفوا في أيِّهما أفضل: الصلاة في الليل أم مذاكرة العلم؟

قال **الخطيب البغدادي**: "وأفضل المذاكرة مذاكرة الليل، وكان جماعة من السلف يفعلون ذلك، وكان جماعة منهم يبدؤون من العشاء، فربَّما لم يقوموا حتىٰ يسمعوا أذان الصبح". تذكرة السامع والمتكلم (ص ٥٥).

وقال **الحافظ ابن كثير**: "وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج، ويكتب الفائدة تمرُّ بخاطره، ثمَّ يطفئ سراجه، ثمَّ يقوم مرَّة أخرىٰ وأخرىٰ، حتىٰ كان يتعدَّد ذلك منه قريبا من عشرين مرَّة". البداية والنهاية (١١/ ٢٥، ط: دار الفكر).

وهذا الشيخ **ابن دقيق العيد** رَحِمَهُ اللَّهُ، كان منقطعًا للعلم والعبادة، فكان لا ينام الليل إلا قليلاً، فكانت أوقاته معمورة بالدرس والمطالعة والتحصيل، أو الإملاء والتأليف، ورواية الحديث، فإن أراح نفسه من بعض ذلك العناء؛ فلا يُرَىٰ إلا قائما يصلي في المحراب، أو جالسًا يتلو كلام الله، أو ماشيًا يتفكَّر في خلق الله، متدبِّرًا صنعه، مستدلِّاً بذلك علىٰ قدرة الله ووحدانيته، فهو منصرف بجسمه وفكره -سواد ليله، وبياض نهاره- إلىٰ البحث والتدقيق، والاستنباط والتحقيق، أو الصلاة والقيام. سلسلة علو الهمة ص (١٦٩) لإسماعيل المقدم.

وبادر الليل بما تشتهي ... فإنَّما الليل نهار الأريب

ومن سيرة العلماء المعاصرين العلَّامة "**محمد الأمين الشنقيطي**" رَحِمَهُ اللَّهُ، قال ابنه عبدالله: "حدَّثني أبي أنَّه كان يقرأ في البلاد زمان طلبه العلم في "مختصر خليل" في أول كتاب النكاح، حتىٰ وصل إلىٰ قول خليل: "في عشرة ندبه ولو ببيع سلطان لفلس"؛ قال لي: أقرأنيها شيخي بعد

العصر، وكانت دراسته جردية، بحيث يقرأ كلَّ ما قيل في الباب؛ قال: فأخذت شرَّاح خليل وحواشيه علىٰ هذه المسألة، وجلست أراجعها حتىٰ جاء الليل، ثمَّ أوقدت النار أطالع في ضوئها إلىٰ الصبح، ولم أنم، ولم أصلّ غير الفريضة، فوجدت أنَّ للشراح في قول خليل قولين، **ولو كنت أبحث في الكتاب والسنَّة لأتيت للأمَّة بالعجب!**". صلاح الأمة في علو الهمة (١/ ٥٧٩)، منهج الشيخ الشنقيطي في تفسير آيات الأحكام من أضواء البيان (ص ٧٤).

وخلاصة الأمر: أنَّه لا مانع من السمر بشرطه، وهو أن يسمر في علم واجب أو مستحب، ويكون من طبعه أنه لا يؤثِّر فيه السمر والسهر، ولا يضرُّ بما هو أوجب؛ كصلاة الفجر -مثلاً-.

وقد ورد النهي عن السمر بعد العشاء في السنَّة وفي كلام السلف وأفعالهم.

ومن ذلك ما قال **ابن مسعود**: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْدِبُ لَنَا السَّمَرَ بَعْدَ الْعِشَاءِ »، يَعْنِي: يعيب. قال **خالد بن عبد الله الواسطي**: "معنىٰ: جدب إلينا، يقول: عابه وذمَّه". **صحيح**: رواه أحمد (٣٦٨٦ و٣٨٩٤)، وابن ماجه (٧٠٣) وابن حبان (٢٠٣١). وانظر: الثمر المستطاب (١/ ٧٣)، و"الصحيحة" تحت الحديث (٢٤٣٥).

وسيأتي المزيد من النصوص التي تنهىٰ وتزجر عن السمر في أبواب مواقيت الصلاة، تحت باب: (ما يكره من السمر بعد العشاء)

متىٰ يحرم السمر؟

السمر إن أدىٰ إلىٰ ضياع بعض الواجبات؛ فإنَّه يحرم ولا يجوز قال **العلامة الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "واعلم أنَّ السمر- وهو التحدُّث في الليل- منهي عنه في غير ما حديث عنه ﷺ، ولذلك ترجمت لجوازه في العلم بهذا الحديث، ولذلك **فما عليه جماهير الناس اليوم من السمر وراء التلفاز وأمثاله؛ هو من الفتن التي أصابت العالم الإسلامي في العصر الحاضر**، نسأل الله السلامة من كل الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن؛ إنه سميع مجيب". الصحيحة (٧/ ٥٨) ومن تلك الأحاديث التي أشرت إليها قوله ﷺ: (**لا سمر إلا لمُصلٍّ أو مسافرٍ**)، وهو حديث صحيح لطرقه وشواهده.

وقال الشيخ العلامة **محمد العثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: من الغلط أنَّ الإنسان يبقىٰ ساهراً في الليل بتهجُّدٍ أو مراجعةِ علم، ثمَّ **ينام عن صلاة الفجر، هذا غلط عظيم!** وأمَّا ما استدلوا به من أنَّ الرسول ﷺ فاتته صلاة الفجر؛ فيقال لهم: هذا كان في سفر، وكانوا قد نزلوا في آخر الليل،

وقالوا: من يرقب لنا الفجر، فاعتمد بلال رضي الله عنه- علىٰ ذلك، ولكنَّه نام وأخذه الذي أخذه، وهذا ليس كالإنسان الذي يجعل ذلك عادة، يعني: قد نعذر إنساناً في ليلة من الليالي سهر بعمل أو بغير عمل، أو أَرِقَ وما نام، ثمَّ نام حتىٰ طلعت الشمس، فهذا يعذر، لكن كونه يتَّخذ هذه عادة؛ فهذا ليس بمعذور ولا يحلُّ له. ا. هـ. لقاء الباب المفتوح (١٥/ ٩٥)؛ بتصرف يسير.

فبسبب السمر يحتمل أن **يضيعَ واجباً**؛ كصلاة الصبح، أو **يُفوِّتَ عليه ما هو أولىٰ**؛ من المحافظة علىٰ خير الأوقات، وبركة السحر، والاستغفار فيه، ونزول الربِّ في آخر الليل، أو **يضعفَ عن صلاة الليل**، فهذا بلا شكٍّ لا يقول بمشروعيته عالم.

الحكمة من النهي عن السمر بعد العشاء:

ويؤكد ما سبق قول **إمام الأئمة ابن خزيمة** رحمه الله: "ويخطر ببالي أن كراهته ﷺ بالاشتغال بالسمر؛ لأنَّ ذلك يثبِّط عن قيام الليل؛ لأنَّه إذا اشتغل أوَّل الليل بالسمر ثقل عليه النوم آخر الليل؛ فلم يستيقظ، وإن استيقظ لم ينشط للقيام". صحيح ابن خزيمة (٢/ ٩٢).

وحكمة أخرىٰ: قال **محمد بن نصر** رحمه الله: "قال بعض أهل العلم: إنَّما نهىٰ عن السمر بعد العشاء الآخرة؛ لأنَّ مصلِّي العشاء الآخرة قد كفِّرت عنه ذنوبه لصلاته، فنهي أن يسمر في الحديث مع الناس خوفا أن يكون له في كلامه ما يدنِّس نفسه بالذنب بعد طهارة؛ **لأن ينام بطهارته**". تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٦٦).

فقد كانوا يكرهون السمر بعد العشاء، ويحبُّون أن ينام الرجل **وهو سالم**؛ قال **سفيان بن عيينة** -رحمه الله-: "تكلَّمت بشيء بعد العشاء الآخرة فقلت: ما ينبغي لي أن أنام علىٰ هذا، فقمت فتوضَّأت وصلَّيت ركعتين واستغفرت، وما قلت هذا لأزكِّي نفسي، ولكن ليعمل به بعضكم". تعظيم قدر الصلاة (١/ ١٦٧).

وذكر **أبوجعفر الطحاوي** -حكاية عن بعضهم-: "أمَّا الكلام الذي ليس بقربة إلىٰ الله -عزَّ وجلَّ- وإن كان ليس بمعصية؛ فهو مكروه حينئذ؛ لأنَّه مستحب للرجل **أن ينام علىٰ قربة وخير وفضل يختم به عمله**، فأفضل الأشياء له؛ أن ينام علىٰ الصلاة؛ فتكون هي آخر عمله". شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٩).

ولعل من الحِكَم -أيضاً-: أن أكثر ما تنتشر الشياطين أولَ الليل، وحينئذ تراها الكلاب

فتظلُّ تنبح، فإذا كان وقت السَّحر أو الفجر وقت الطاعة والعبادة، نزلت الملائكة، ونزل الربُّ -سبحانه- إلىٰ السماء الدنيا، وتهيَّأت الملائكة لشهود صلاة الصبح، وقلَّت الشياطينُ ونفرت، ونامت الكلاب. فمن كان في غفلة، وسهر علىٰ لهو وباطل؛ فهو **متشبِّه بالشياطين والكلاب**؛ كما سيأتي معنا.

قلت: فالحذرَ! الحذرَ! من الجوالاتِ، والنت، والتلفاز، والسهر عليها، واللهوِ، والزياراتِ، والسمر؛ فإنَّها أضاعت المجتمعات، فكم من ليلٍ ضائعٍ بغير فائدة، وبكورٍ مستغرَقٍ بالنوم، وذهابٍ لبركة العمر بين أكثر المتدينين فضلاً عن غيرهم!، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

فمن كان له شغل، أو عمل ديني أو دنيوي، أو أمر يريد تحقيقه؛ فليجعله قبل الفجر أو بعده، فإنَّها أوقات خير وبركة، وصفاء ذهن، والمرء بحسب ما يعوِّد نفسه، ويفطمها عن مألوفاتها.

وسيأتي النهي عن السمر عند باب ما يكره من السمر بعد العشاء في كتاب "مواقيت الصلاة".

في هذا الحديث فضل ابن عباس، إذ هو السامر في طلب العلم في هذه القصَّة، **وفيه** تعليم الصغار الصلاة. **وفيه** جواز السمر في العلم حتىٰ الفجر. **وفيه** أنَّ لنفسك عليك حقًّا ولأهلك عليك حقًّا. **وفيه** جواز السمر للمصلِّي أو طالب العلم. **وفيه** دخول البيت بعد العشاء. **وفيه** رمق الصغار لما يفعله الكبار. **وفيه** أنَّ الكبار قدوة للصغار. **وفيه** النهم في طلب العلم. **وفيه** التعليم بالفعل والقدوة.

٤٣- بَابُ حِفْظِ العِلْمِ

قوله: (بَابُ حِفْظِ العِلْمِ)، أَي: هَذَا بَاب في الحث علىٰ حفظ الْعلم.

تنبيه:

حفظ الكتاب والسنَّة هو من الفروض الكفائية، وأظنُّ أنَّ الكفاية في حفظ القرآن متوفِّرة في الأمَّة، أمَّا السنة -وإن كان حفظها من الفروض الكفائية -أيضًا-، إلا أنَّ الكفاية فيها غير متوفرة في أكثر الأمة، والناس أبعد ما يكونون من حفظها، فلذا؛ أعتقد أنَّه يتعيَّن علىٰ الأمَّة وولاة الأمور إيجاد الكفاية، والسعي في حفظها في الصدور، ولا يكفي في ذلك حفظ السطور؛ قال **ابن أبي العز** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْوَاجِب علىٰ من طلب الْعلم النافع أَن يحفظ كتاب الله ويتدبَّره، وَكَذَلِكَ من السّنة مَا تيَسّر لَهُ". رسالة: الاتباع لابن أبي العز (ص ٨٨).

١١٨- حَدَّثَنَا عَبْدُالعَزِيزِ بْنُ عَبْدِاللهِ(أبوالقاسم الأويسي، القرشي العامري المديني، من كبار شيوخ البخاري)، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنِ الأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: "إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكْثَرَ أَبُوهُرَيْرَةَ!، وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ (أي: تُحذِّران من كتمان العلم) مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩] إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ (يعني: التجارة)، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ (مزارعهم)، وَإِنَّ أَبَاهُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ (يقنع بما يسدُّ جوعه)، وَيَحْضُرُ (يشاهد من أحواله ﷺ) مَا لاَ يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ".

أطرافه في: (العلم١١٩، البيوع٢٠٤٧، الحرث المزارعة٢٣٥٠، المناقب٣٦٤٨، الاعتصام٧٣٥٤).

وأخرجه مسلم (٢٤٩٢، ٢٤٩٣)، والنسائي في الكبرىٰ (٥٨٣٥، ٥٨٣٦)، وابن ماجه (٢٦٢).

روايات الحديث:

عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: (إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ)

(وَاللهُ الْمَوْعِدُ) (وعند الله الموعد) (وَتَقُولُونَ: مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ؟! وَمَا بَالُ الْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ بِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ؟) (تَقُولُونَ: أَكْثَرَتْ!، فَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَرَمَيْتُمُونِي بِالْقَشْعِ (جمع قشعة، وهي المدر والحجر) وَمَا نَاظَرْتُمُونِي) (رواه أحمد) (حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ (نشرته في الناس) وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ، قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ (كنّى بذلك عن القتل إذا سمع أهل الظلم عيبه لفعلهم)) (وَلَوْلَا آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩] ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٧٤] وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنَ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانِي مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ تَشْغَلُهُمْ أَرْضُوهُمْ وَالْقِيَامُ عَلَيْهَا) (وَكُنْتُ امْرَءاً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ الصُّفَّةِ) (مُعْتَكِفًا) (لَا آكُلُ الْخَمِيرَ، وَلَا أَلْبَسُ الْحَبِيرَ، وَلَا يَخْدُمُنِي فُلَانٌ وَلَا فُلَانَةُ) (أَخْدُمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ مِلْءِ بَطْنِي، فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا، وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا) (وَكَانَ أَخْيَرَ النَّاسِ لِلْمِسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ لَيُخْرِجُ إِلَيْنَا الْعُكَّةَ (ظرف السمن من جلد) الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَنَشُقُّهَا فَنَلْعَقُ مَا فِيهَا) (وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ!، إِنْ كُنْتُ لَأَعْتَمِدُ بِكَبِدِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنْ كُنْتُ لَأَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَىٰ بَطْنِي مِنَ الْجُوعِ) (وَإِنْ كُنْتُ لَأَسْتَقْرِئُ الرَّجُلَ الْآيَةَ (أي: أسأله أن يقرأ علي آية معيَّنة من القرآن على طريق الاستفادة) هِيَ مَعِي، كَيْ يَنْقَلِبَ بِي فَيُطْعِمَنِي) (وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَوْمًا عَلَىٰ طَرِيقِهِمُ الَّذِي يَخْرُجُونَ مِنْهُ، فَمَرَّ أبوبَكْرٍ رضي الله عنه- فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيَسْتَتْبِعَنِي (أي: يطلب مني أن أتبعه؛ ليطعمني) فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي عُمَرُ رضي الله عنه- فَسَأَلْتُهُ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ، مَا سَأَلْتُهُ إِلَّا لِيَسْتَتْبِعَنِي، فَمَرَّ وَلَمْ يَفْعَلْ، ثُمَّ مَرَّ بِي أبوالْقَاسِمِ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآنِي، وَعَرَفَ مَا فِي نَفْسِي، وَمَا فِي وَجْهِي، ثُمَّ قَالَ: (**يَا أَبَا هِرٍّ!**) ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: (**الْحَقْ**)، فَمَضَىٰ وَتَبِعْتُهُ، فَانْطَلَقَ بِي إِلَىٰ رَحْلِهِ، فَدَخَلَ فَاسْتَأْذَنَ، فَأَذِنَ لِي، فَدَخَلَ فَوَجَدَ لَبَنًا فِي قَدَحٍ، فَقَالَ: (**مِنْ أَيْنَ هَذَا اللَّبَنُ؟**)، قَالُوا: أَهْدَاهُ لَكَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةُ، قَالَ: (**يَا أَبَا هِرٍّ!**)، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: (**الْحَقْ إِلَىٰ أَهْلِ الصُّفَّةِ ادْعُهُمْ لِي**)، قَالَ: وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضْيَافُ الْإِسْلَامِ، لَا يَأْوُونَ إِلَىٰ أَهْلٍ، وَلَا مَالٍ، وَلَا عَلَىٰ أَحَدٍ، إِذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بِهَا إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنْهَا شَيْئًا،

وَإِذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، وَأَصَابَ مِنْهَا، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا، قَالَ: وَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ، فَقُلْتُ: وَمَا هَذَا اللَّبَنُ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ؟، وَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُصِيبَ مِنَ اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقَوَّىٰ بِهَا بَقِيَّةَ يَوْمِي وَلَيْلَتِي، فَإِذَا جَاءَ الْقَوْمُ أَمَرَنِي فَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أُعْطِيهِمْ) (فَقُلْتُ: مَا يَبْقَىٰ لِي مِنْ هَذَا اللَّبَنِ؟) (وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بُدٌّ، فَأَتَيْتُهُمْ فَدَعَوْتُهُمْ، فَأَقْبَلُوا فَاسْتَأْذَنُوا، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَأَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ مِنَ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: (**يَا أَبَا هِرٍّ!**)، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: (**خُذْ فَأَعْطِهِمْ**)، قَالَ: فَأَخَذْتُ الْقَدَحَ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّىٰ يَرْوَىٰ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَأُعْطِيهِ الرَّجُلَ، فَيَشْرَبُ حَتَّىٰ يَرْوَىٰ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، فَيَشْرَبُ حَتَّىٰ يَرْوَىٰ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ الْقَدَحَ، حَتَّىٰ انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ رَوِيَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ) (فَدَفَعْتُ الْقَدَحَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ) (فَأَخَذَ الْقَدَحَ فَوَضَعَهُ فِي يَدِهِ وَبَقِيَ فِيهِ فَضْلَةٌ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيَّ وَتَبَسَّمَ، فَقَالَ: (**أَبَا هِرٍّ!**)، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: (**بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتَ**)، فَقُلْتُ: صَدَقْتَ يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: (**فَاقْعُدْ فَاشْرَبْ**) قَالَ: فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ، فَقَالَ: (**اشْرَبْ**)، فَعُدْتُ فَشَرِبْتُ) (ثُمَّ قَالَ: (**عُدْ يَا أَبَا هِرٍّ!**)، فَعُدْتُ فَشَرِبْتُ حَتَّىٰ اسْتَوَىٰ بَطْنِي (أي: استقام من امتلائه من اللبن) فَصَارَ كَالْقِدْحِ (السهم المستقيم المستوي)) (فَمَا زَالَ يَقُولُ: (**اشْرَبْ**)، حَتَّىٰ قُلْتُ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ!، مَا أَجِدُ لَهُ مَسْلَكًا) (قَالَ: (**نَاوِلْنِي الْقَدَحَ**) (فَأَعْطَيْتُهُ الْقَدَحَ، "فَحَمِدَ اللهَ وَسَمَّىٰ وَشَرِبَ الْفَضْلَةَ") (قَالَ: فَلَقِيتُ عُمَرَ، وَذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِي، وَقُلْتُ لَهُ: فَوَلَّىٰ اللهُ ذَلِكَ مَنْ كَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْكَ يَا عُمَرُ!، وَاللهِ لَقَدْ اسْتَقْرَأْتُكَ الْآيَةَ وَلَأَنَا أَقْرَأُ لَهَا مِنْكَ، قَالَ **عُمَرُ**: وَاللهِ! لَأَنْ أَكُونَ أَدْخَلْتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ حُمْرِ النَّعَمِ).

(قَالَ **أبوهُرَيْرَةَ**: يَقُولُ النَّاسُ: أَكْثَرَ أبوهُرَيْرَةَ! فَلَقِيتُ رَجُلًا، فَقُلْتُ: بِأَيِّ سُورَةٍ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْبَارِحَةَ فِي الْعَتَمَةِ (العشاء)؟، فَقَالَ: لَا أَدْرِي!، قُلْتُ: أَلَمْ تَشْهَدْهَا؟، قَالَ: بَلَىٰ!، قُلْتُ: وَلَكِنِّي أَدْرِي، قَرَأَ سُورَةَ كَذَا وَكَذَا) (وَقُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ!، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**ابْسُطْ رِدَاءَكَ**)، فَبَسَطْتُهُ، فَغَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: (**ضُمَّهُ**)، فَضَمَمْتُهُ) (فَوَاللهِ! مَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ) (إِلَىٰ يَوْمِي هَذَا). الجامع الصحيح من السنن والمسانيد (١٦/ ١٩٥).

الشرح

قوله: (قَالَ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ أَكْثَرَ أَبُوهُرَيْرَةَ!)، هذه شبهة أوردها بعضهم علىٰ أبي هريرة منذ زمنه، وقد أجاب هو عن نفسه، **وفي هذا**: جواز أن يدفع المرء عن نفسه الشبهات. وقد ذكر الحافظ **أبوعمر ابن عبدالبر**: "أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَسْلَمَ عَامَ خَيْبَرَ، وَقَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي ذَلِكَ الْعَامِ، وَصَحِبَ النَّبِيَّ ﷺ نحو أربعة أعوام"، التمهيد (١/ ٣٥٦)، **فالملازمة -ولو كانت مدَّتها يسيرة-، إلا أنَّها جعلته يحصّل ما لم يحصّله غيره.**

وأخبر أنَّ ما حفظه أكثر من الذي حدَّث به، فَعَنْ **يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ**، قَالَ: قِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَكْثَرْتَ! أَكْثَرْتَ!، قَالَ: "فَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لَرَمَيْتُمُونِي بِالْقَشْعِ (مما يكون علىٰ ظهر الأرض)". **صحيح**: أخرجه أحمد (١٠٩٥٩) قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

وفيه دعاء النبي ﷺ لأبي هريرة، وكان ذلك سببا لما تميز به من الحفظ إضافة إلىٰ شدَّة حرصه علىٰ الحديث وحفظه وتبليغه، وتفرُّغه حيث كان فقيراً لا يأوي إلىٰ أهل ولا مال، ومع قرب سكناه من النبي ﷺ مع أهل الصفة في المسجد، **وشدة عنايته بمحفوظاته**؛ فإنه كان **يحفظ الحديث** في المجلس **ويكرِّره** ولا يكتب. كلُّ هذا كان من أسباب تميّزه عن غيره، وكثرة حديثه عن النبي ﷺ.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: "وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحَدِّثُهُ وَغَيْرَهُ بِالْحَدِيثِ فَيَسْمَعُونَهُ كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ كَانَ أبوهُرَيْرَةَ أَحْفَظَهُمْ لِلْحَدِيثِ؛ بِبَرَكَةِ حَصَلَتْ لَهُ مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَدَّثَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ حَدِيثًا فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَبْسُطُ ثَوْبَهُ فَلَا يَنْسَىٰ شَيْئًا سَمِعَهُ؟! فَفَعَلَ ذَلِكَ أبوهُرَيْرَةَ، وَقَدْ رُوِيَ **"أَنَّهُ كَانَ يُجَزِّئُ اللَّيْلَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ: ثُلُثًا يُصَلِّي، وَثُلُثًا يَنَامُ، وَثُلُثًا يَدْرُسُ الْحَدِيثَ"**. الفتاوىٰ (١٣/ ٢٥٦).

والذي منعه من السكوت هو أنَّ الله أخذ الميثاق علىٰ العلماء ألَّا يكتموا شيئًا من العلم، ووجوب تبليغ العلم، كما ورد قوله في الحديث:

قوله: (وَلَوْلاَ آيَتَانِ فِي كِتَابِ اللهِ مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا)، معناه: لولا أنَّ الله ذمَّ الكاتمين للعلم؛ لما حدّثَ، لكن لـمَّا كان كتمان العلم حرامًا؛ وجب نشره؛ لأنَّ الله أخذ الميثاق علىٰ العلماء ألَّا يكتموا شيئًا من العلم، بل أوجب تبليغه مَن لا يعلمه.

ففي الحديث تحريم كتمان العلم، والوعيد الشديد والأكيد في ذلك، فعَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ**

رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**».

صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، وهو في صحيح الترغيب (١٢٠).

قال إمام المفسرين **ابن جرير الطبري** رحمه الله: "عن **قتادة**: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية، هَذَا مِيثَاقٌ أَخَذَ اللهُ عَلَىٰ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَمَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيُعَلِّمْهُ، وَإِيَّاكُمْ وَكِتْمَانَ الْعِلْمِ، فَإِنَّ كِتْمَانَ الْعِلْمِ هَلَكَةٌ، كَانَ يُقَالُ: **مَثَلُ عِلْمٍ لَا يُقَالُ بِهِ؛ كَمَثَلِ كَنْزٍ لَا يُنْفَقُ مِنْهُ!** ...". جامع البيان (٧/ ٤٦١).

وقال الله -تعالىٰ-: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٣٧]، وأعظم الكتمان: كتمان العلم.

وَقَالَ **ابْنُ الْمُبَارَكِ** رحمه الله: "إِذَا كَتَمَ الْعَالَمُ عِلْمَهُ أُبْتُلِيَ إِمَّا بِمَوْتِ الْقَلْبِ، أَوْ يُنَسَّىٰ، أَوْ يَتْبَعُ السُّلْطَانَ. ذَكَرَ ذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ وَغَيْرُهُ". الآداب الشرعية (٢/ ١٥٢)، يعني: يفتن في دينه -عياذًا بالله!-

قلت: روي بمعناه عند أحمد في فضائل الصحابة (٦١٢) بلفظ: "مَا كَتَمَ أَحَدٌ الْعِلْمَ فَأَفْلَحَ".

ثمَّ إنَّ نشر العلم للعالَم هو من بذل النصيحة الواجبة لله ولكتابه ولرسوله وللمسلمين، ولا سيَّما في وقت كثرت فيه الفتن، وانتشر الجهل والجهَّال، وتكلَّم فيه الرويبضة، ورفع أهل الباطل والبدع رؤوسهم، فلا ينتشر الشرُّ إلا عند غياب الخير.

ومتىٰ وجدتَ قومًا انتشرت فيهم البدع والأهواء فأيقن أنَّ أهل الحقِّ لا يقومون بواجبهم من الدعوة الصحيحة؛ فالباطل لا يصمد أمام الحقِّ؛ بل لابدَّ وأن يضمحل: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَىٰ الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [الأنبياء: ١٨].

قوله: (إِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ المُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ، وَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الأَنْصَارِ كَانَ يَشْغَلُهُمُ العَمَلُ فِي أَمْوَالِهِمْ)، **الصفق**: هو ضرب اليد علىٰ اليد، والمراد التجارة، وأُطلق عليها؛ لاعتيادهم فعله عند عقد البيع، **ففيه** جواز التجارة والزراعة والرعي ونحوه، وألَّا ينسىٰ المرء أمر معاشه، ونفقة عياله، وقد اتَّجر **أبوبكر وعمر**؛ حتىٰ قال **عمر**: "أَلْهَانِي الصَّفْقُ بِالأَسْوَاقِ"، لـمَّا نسي حديث الاستئذان في قصته مع أبي موسىٰ.

وسبق الكلام عن التكسُّب لأجل الأهل، والأولاد، فلا ينبغي إهمال حقِّ العيال؛ فيضيَّعهم ويترك نفقته عليهم، ولا يهمل واجب حفظ الشريعة، وطلب العلم، وتعليم الناس؛ فإنَّها من الواجبات العظيمة.

كما لا ينبغي له أن يسأل الناس وهو قادر علىٰ التكسُّب؛ فقد كان السلف يتكسَّبون ولم يتركوا العلم والتعليم، وحياتهم سمحة بلا تكلُّف.

فالأمر يحتاج إلىٰ توسُّط، فلا يطغىٰ حقٌّ علىٰ حقٍّ، فيكتفي بما يبلّغه مبتغاه، ويسدُّ رمقه ورمق أولاده وأهله، فالصحابة كانوا قادرين علىٰ التكسُّب والازدياد من الدنيا ولم يفعلوا، واكتفوا بالكفاف، وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ، ولذلك لا يُلام العبد علىٰ كفاف.

وأبوهريرة قدم علىٰ النبي ﷺ مسلمًا وهو يقسم غنائم خيبر، ثمَّ لازم رسول الله ﷺ حضرًا وسفرًا، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال؛ بل كان من شدَّة ملازمته لا يتركه إلا عند دخوله ﷺ عند أهله؛ فعَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه-، قَالَ: "كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مَعَنَا أبوبَكْرٍ، وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا، فَقُمْنَا، **فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللهِ** ﷺ حَتَّىٰ أَتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا؟ فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ -وَالرَّبِيعُ الْجَدْوَلُ- فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أبوهُرَيْرَةَ؟**» فَقُلْتُ: نَعَمْ، يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: «**مَا شَأْنُكَ؟**» قُلْتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ...". أخرجه مسلم (٣١)، فخرج يبحث عنه حتىٰ وجده، وفزع وخاف عليه، وذلك لشدَّة محبته له، وكثرة ملازمته له.

قوله: (وَإِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِشِبَعِ بَطْنِهِ، وَيَحْضُرُ مَا لاَ يَحْضُرُونَ، وَيَحْفَظُ مَا لاَ يَحْفَظُونَ)، قال **ابن بطَّال**: "**فيه**: فضل التقلُّل من الدنيا، وإيثار طلب العلم علىٰ طلب المال". شرح البخاري (١/ ١٩٤) له. **وفيه** أنَّ من انشغل بشيء من الدنيا لابدَّ وأن يضرَّ بشيء من العلم وطلبه، وبالعكس: من انشغل بالعلم لابدَّ وأن يضرَّ بشيء من دنياه. **وفيه** العمل بخبر الواحد الثقة. **وفيه** أنَّ الثقة إذا تفرَّد بحديث لم يحفظه غيره، قبلناه منه.

وأبوهريرة أحفظ الصحابة، بل أحفظ الأمَّة، ولهذا صار هدفًا لأهل الإلحاد؛ بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته. قَالَ **الشَّافِعِيُّ**: "أَبُوهُرَيْرَةَ أَحْفَظُ مَنْ رَوَىٰ الحَدِيْثَ فِي دَهْرِهِ". الرسالة (ص ٢٧٨)، وقارن بـ: السير (٢/ ٥٩٩)، وتاريخ دمشق (٦٧/ ٣٤١).

وفيه ملازمة الطالبِ العالمَ، وهذا من أعظم الأمور نفعًا وفائدة، ومما يبيِّن ذلك أنَّ أباهريرة لازم النبي ﷺ ثلاث سنوات أو أربع، وحمل عنه حديثًا كثيراً، وحصَّل جملة عظيمة من السنَّة والحديث؛ لأنَّنا لو فرضنا أنَّه كان معه عشر ساعات في اليوم، وغيره أخذ عنه ساعة، فاليوم معه بعشرة أيام بالنسبة لغيره، والشهر بعشرة أشهر، والسنة بعشرة سنوات بالنسبة لمن لازمه ساعة يوميًا.

فإن قال قائل: فإن كان الصحابة يشغلهم الصفق بالأسواق والزراعة، فما بال عائشة أمّ المؤمنين؟

فالجواب أن نقول: إنَّها كان يشغلها الشغل برسول الله، ولذلك؛ كانت لا تقدر أن تصوم وتقضي ما عليها بسبب شغلها بشؤون النبي ﷺ وخدمته، وأيضًا فما كان خارج بيته لا تطلع عليه، وأيضًا ثبت أن أبا هريرة ردَّ عليها لـمَّا أنكرت عليه كثرة حديثه، فعن **سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص** قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّكَ لَتُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَدِيثًا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ. فَقَالَ أبوهُرَيْرَةَ: "يَا أُمَّهْ! طَلَبْتُهَا (أي الأحاديث) وَشَغَلَكِ عَنْهَا الْمِرْآةُ وَالْمُكْحُلَةُ، وَمَا كَانَ يَشْغَلُنِي عَنْهَا شَيْءٌ!". **صحيح**: أخرجه ابن سعد (٢/ ٣٦٤)، والحاكم (٦١٦٠) وصححه ووافقه الذهبي، والرامهرمزي في "المحدث الفاصل" (ص ٥٥٥)، وينظر "السير (٢/ ٦٠٤)، وقد جوَّد إسناده الحافظ في الإصابة (٧/ ٣٥٨).

قوله: (بِشِبَعِ بَطْنِهِ)، **فيه** مشروعية أن يلازم الطالبُ العالمَ وتكون نفقة طعامه وشرابه علىٰ شيخه. **وفيه جواز أن يتحدَّث الطالب ببعض ما يجد من شدَّة في أيام الطلب، إن صحت النية، ولم يكن القصد التسميع بالعمل، ولا الفخر بذلك. وفيه** تحمُّل المشاق والجوع والبرد والمرض، والشدَّة في سبيل طلب العلم، قال **ابن بطَّال** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال **أبوالزناد القرطبي**: **فيه** حفظ العلم والدُّؤوب عليه، والمواظبة علىٰ طلبه، **وفيه** فضيلة لأبىٰ هريرة؛ فضَّله ﷺ بها بأن قال له: "**ابسط رداءك**"، ثمَّ قال: "ضمَّه"؛ فما نسىٰ شيئًا بعد. وجاء هذا الحديث في كتاب البيوع، وقال فيه: "فما نسيتُ من مقالته تلك من شيء"، وهذا من بركة النبىٰ ﷺ، **وفيه** أنَّه جائز للإنسان أن

يخبر بفضيلة عن نفسه" شرحه على البخاري (١/ ١٩٤) فعن الْوَلِيدِ بْنِ رَبَاحٍ عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ** قَالَ: "كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَإِنْ كَانَ لَيُغْشَى عَلَيَّ فِيمَا بَيْنَ بَيْتِ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ مِنَ الْجُوعِ". وعند أحمد في طريق **عَبْدِاللهِ بْنِ شَقِيقٍ**، قَالَ: أَقَمْتُ بِالْمَدِينَةِ مَعَ **أَبِي هُرَيْرَةَ** سَنَةً، فَقَالَ لِي ذَاتَ يَوْمٍ وَنَحْنُ عِنْدَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ: "لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا لَنَا ثِيَابٌ إِلَّا الْبِرَادُ الْمُتَفَتِّقَةُ، وَإِنَّهُ لَيَأْتِي عَلَى أَحَدِنَا الْأَيَّامُ مَا يَجِدُ طَعَامًا يُقِيمُ بِهِ صُلْبَهُ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَأْخُذُ الْحَجَرَ فَيَشُدُّهُ عَلَى أَخْمَصِ بَطْنِهِ، ثُمَّ يَشُدُّهُ بِثَوْبِهِ لِيُقِيمَ بِهِ صُلْبَهُ...". **صحيح**: أخرجه ابن سعد (١/ ٢٥٦)، وأحمد (٨٣٠١)، والحاكم (٧٠٧٩).

وفيه الفرج بعد الشدَّة، وقد كان أبوهريرة -إمامُ المحدثين- من أفقر الناس في بداية أمره، ويعيش مع أهل الصفَّة، ثمَّ صار بعد ذلك من الأمراء على الناس، وكم وكم من الموالي رفعهم الله وجعلهم كأمثال الملوك بالعلم وبالسنَّة؛ فَعَنِ **ابْنِ سِيرِيْنَ** قَالَ: كُنَّا عِنْدَ **أَبِي هُرَيْرَةَ** وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَشَّقَانِ مِنْ كَتَّانٍ، فَتَمَخَّطَ، فَقَالَ: "بَخْ بَخْ، أَبُوهُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الكَتَّانِ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ، مَا بِي إِلَّا الجُوعُ". سيأتي برقم (٧٣٢٤).

وفيه أنَّ طالب الحديث لابدَّ وأن يضرَّ به الفقر، ولكن هنيئًا له به، وأنعم به من فقر.

قَالَ **أَبُومُسْهِرٍ**: كُنَّا عِنْدَ **الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ الْعُقَيْلِيِّ** وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ، قَالَ: فَقَالَ: "إِنَّهُ مَنْ أَغْرَقَ فِي الْحَدِيثِ فَلْيُعِدَّ لِلْفَقْرِ جِلْبَابًا، فَلْيَأْخُذْ أَحَدُكُمْ مِنَ الْحَدِيثِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ، وَلِيَحْتَرِفْ حَذَرًا مِنَ الْفَاقَةِ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٩)، وَعَنْ **عَبْدِالْعَزِيزِ الطَّائِفِيِّ**، قَالَ: "مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٣)، وَعَنِ **ابْنِ عُيَيْنَةَ**، قَالَ: "لَا تَدْخُلُ هَذِهِ الْمَحَابِرُ بَيْتَ رَجُلٍ إِلَّا أَشْقَى أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٨)، وَسَأَلَ **ابْنُ عُيَيْنَةَ** رَجُلًا: "مَا حِرْفَتُكَ؟" قَالَ: طَلَبُ الْحَدِيثِ، "قَالَ: بَشِّرْ أَهْلَكَ بِالْإِفْلَاسِ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٦)، وقَالَ **شُعْبَةُ**: "مَنْ طَلَبَ الْحَدِيثَ أَفْلَسَ، لَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّى بِعْتُ طِسْتًا لِأُمِّي بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٤)، وعنه -أيضًا-: "إِذَا رَأَيْتَ الْمَحْبَرَةَ فِي بَيْتِ إِنْسَانٍ فَارْحَمْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي كُمِّكَ شَيْءٌ فَأَطْعِمْهُ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٩).

وَقَالَ **الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى السِّينَانِيُّ**: "طَلَبُ الْحَدِيثِ حِرْفَةُ الْمَفَالِيسِ، وَمَا رَأَيْتُ أَذَلَّ مِنْ

أَصْحَابِ الْحَدِيثِ". الجامع لأخلاق الراوي (٥٧). وعبدالله بن **أحمد بن شبويه** قال: سمعت أبي يقول: "من أراد علم القبر فعليه بالأثر، ومن أراد علم الخبز فعليه بالرأي". شرف أصحاب الحديث (ص ٧٥).

لماذا الفقر قريب لأهل الحديث أكثر من غيرهم، ويكثر فيهم العوز والفاقة؟!

الجواب: في حديث **كعب بن عجرة** رضي الله عنه - قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمًا، فَرَأَيْتُهُ مُتَغَيِّرًا. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا لِيَ أَرَاكَ مُتَغَيِّرًا؟ قَالَ: «**مَا دَخَلَ جَوْفِي مَا يَدْخُلُ جَوْفَ ذَاتِ كَبِدٍ مُنْذُ ثَلَاثٍ**» قَالَ: فَذَهَبْتُ فَإِذَا يَهُودِيٌّ يَسْقِي إِبِلًا لَهُ، فَسَقَيْتُ لَهُ، عَلَىٰ كُلِّ دَلْوٍ تَمْرَةٌ، فَجَمَعْتُ تَمْرًا، فَأَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**مِنْ أَيْنَ لَكَ يَا كَعْبُ؟**»، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُحِبُّنِي يَا كَعْبُ؟**».

قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ، نَعَمْ. قَالَ: «**إِنَّ الْفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَىٰ مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَىٰ مَعَادِنِهِ، وَإِنَّهُ سَيُصِيبُكَ بَلَاءٌ، فَأَعِدَّ لَهُ تَجْفَافًا**» قَالَ: فَقَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟**»، قَالُوا: مَرِيضٌ، فَخَرَجَ يَمْشِي حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: «**أَبْشِرْ يَا كَعْبُ!**»، فَقَالَتْ أُمُّهُ: هَنِيئًا لَكَ الْجَنَّةُ! يَا كَعْبُ!، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ هَذِهِ الْمُتَأَلِّيَةُ عَلَىٰ اللهِ؟**» قَالَ: هِيَ أُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**مَا يُدْرِيكِ يَا أُمَّ كَعْبٍ؟ لَعَلَّ كَعْبًا قَالَ مَا لَا يَنْفَعُهُ، أَوْ مَنَعَ مَا لَا يُغْنِيهِ**». حسن: أخرجه الطبراني في الأوسط (٧١٥٧)، وهو في الصحيحة (٣١٠٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (٣٢٧١).

وَعَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ** رضي الله عنه -، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ! وَاللهِ! إِنِّي لَأُحِبُّكَ!. فَقَالَ لَهُ: «**انْظُرْ مَاذَا تَقُولُ**»، قَالَ: وَاللهِ! إِنِّي لَأُحِبُّكَ!، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَالَ: «**إِنْ كُنْتَ تُحِبُّنِي فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تِجْفَافًا، فَإِنَّ الفَقْرَ أَسْرَعُ إِلَىٰ مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَىٰ مُنْتَهَاهُ**». حسن لغيره: أخرجه الترمذي (٢٣٥٠)، وقال: حسن. وانظر: الصحيحة (٢٨٢٧، ٢٨٢٨)، والنصيحة (ص ١٤-١٥).

"**التجفاف**" وهو شيء يلبسه الفرس؛ ليتَّقي به الأذىٰ، وقد يلبسه الإنسان.

فلشدَّة اعتناء أهل الحديث بالسنَّة، تمتلِئ قلوبهم بمحبة نبيهم ﷺ، **والمرء مع من أحب**، وقد كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يؤثر الآخرة علىٰ الأولىٰ، وكان يقول لعمر: (**أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟!**)، وكان يسأل الله الكفافَ من العيش، وكان يسأل الله أن يحييه مسكينًا وأن يحشره في زمرتهم؛ فعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه -، قال: أحبُّوا المساكين!، فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ**

الْمَسَاكِينِ». **صحيح**: ابن ماجه (٤١٢٦)، الصحيحة (٣٠٨)، وفي روايةٍ زيادةُ: «**يوم القيامة**». **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) من حديث أنس. وأول زمرة تدخل الجنة مع النبي ﷺ هم فقراء المهاجرين، فأراد الله أن يلحقهم بنبيهم -عليه الصلاة والسلام-.

ولـمَّا كان أهل الحديث يؤثرون الحديث والسنَّة علىٰ كلِّ شيء، من مطعم ومشرب، وعلىٰ راحة الأبدان، وسكنىٰ الأوطان، وتحصيل الأموال، بل يبذلون المال لأجل نيل مطلبهم منه، وإشباع رغبتهم فيه، ولا شيء عندهم ألذّ وأعظم من الحديث- نالهم ما ناله -عليه الصلاة والسلام-، وأصابهم ما أصابه من الجوع والجَهد، والفقر؛ ليرفع الله قدرهم، ويقلَّ حسابهم، ويحشرهم مع نبيهم ﷺ.

فيكونون مع أول زمرة تدخل الجنَّة بغير ما حساب ولا عذاب، مع فقراء المهاجرين، فتقلُّ مؤنتهم، ويسرع بهم في دخول الجنة من الباب الأيمن؛ لأنَّ أكثر الناس مالاً أشدُّهم حساباً.

ومع ذلك قد لا تستمرُّ بأهل الحديث الفاقة والحاجة، بل يرزقهم الله ويغنيهم، ولكن يصرفون ذلك في وجوه الخير، فيزدادون رفعة وسناء وتمكيناً في الأرض؛ كما حصل للنبي ﷺ وأصحابه.

لذلك استعمل مروان أباهريرة علىٰ المدينة؛ فَعَنْ **مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ**، قَالَ: كَانَ مَرْوَانُ يَسْتَخْلِفُ أَبَا هُرَيْرَةَ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ، قال: وَرَأَىٰ رَجُلًا يَجُرُّ إِزَارَهُ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ الْأَرْضَ بِرِجْلِهِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَىٰ الْبَحْرَيْنِ، وَهُوَ يَقُولُ: جَاءَ الْأَمِيرُ، جَاءَ الْأَمِيرُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ مَنْ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا**». أخرجه مسلم (٢٠٨٧).

وفي "الحلية" **بسند صحيح** عَنْ **مُضَارِبِ بْنِ حَزْنٍ** قَالَ: كنت أسيرُ من الليل فإذا رجل يكبِّر، فلحقتُه، فقلت: ما هذا؟ قال -أي: أبوهريرة-: أُكثِر شكرًا لله علىٰ أن كنت أجيرًا لبُسرة بنت غَزْوان؛ لنفقة رحلي وطعام بَطْني، فإذا ركبوا سبقتُ بهم، وإذا نزلُوا خدمتهم، فَزَوَّجَنِيها الله، فأنا أركب، وإذا نزلت خُدمتُ، وكانت إذا أتت علىٰ مكان سهل نزلت، فقالت: لا أرِيم (لا أبرح) حتىٰ تُجعل لي عَصيدة، فها أنا إذا أتيتُ علىٰ نحوٍ من مكانها قلت: لا أريم حتىٰ تُجْعل لي عَصيدة"[٨٢٢].

---

(٨٢٢) **صحيح**: التعليقات الحسان (٧١٠٦)، والحلية (١/ ٣٨٠) -واللفظ له-. وقارن بـ: الإصابة (٧/ ٣٦٠)، والسير (٢/ ٦١٢).

وكان يقول رضي الله عنه-: "نَشَأْتُ يَتِيمًا، وَهَاجَرْتُ مِسْكِينًا، وَكُنْتُ أَجِيرًا لِابْنَةِ غَزْوَانَ بِطَعَامِ بَطْنِي، وَعُقْبَةِ رِجْلِي، أَحْطِبُ لَهُمْ إِذَا نَزَلُوا، وَأَحْدُو لَهُمْ إِذَا رَكِبُوا، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الدِّينَ قِوَامًا، وَجَعَلَ أَبَاهُرَيْرَةَ إِمَامًا"(٨٢٣).

ثمَّ لِيُعلم أنَّ الفقر الذي يُبتلىٰ به طالب العلم، ليس هو بالفقر الشديد الذي يجعله في جوع شديد، فإنَّه كان ﷺ يستعيذ بالله من الجوع، ويقول: إنَّه بئس الضجيع، حسن: رواه أبو داود (١٥٤٧)، وحسَّنه شيخنا الألباني في صحيح الترغيب، وقال في صحيح النسائي: حسن صحيح، وكان عليه الصلاة والسلام يسأل الله القصد في الغنىٰ والفقر، ويستعيذ بالله من الكفر والفقر كلَّ يوم، الأدب المفرد (٧٠١)، وحسَّنه الألباني.

١١٩ - حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ (أبو مُصْعَب)، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ (محمد بن عبدالرحمن القرشىٰ، أبوالحارث المدنىٰ، ثقة فقيه فاضل، ع، ت/ ١٥٨، وقيل: ١٥٩هـ)، عَنْ سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه-، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ!، إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ؟ قَالَ: «ابْسُطْ رِدَاءَكَ» فَبَسَطْتُهُ، قَالَ: فَغَرَفَ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «ضُمَّهُ» فَضَمَمْتُهُ؛ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ.

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ المُنْذِرِ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي فُدَيْكٍ بِهَذَا أَوْ قَالَ: "غَرَفَ بِيَدِهِ فِيهِ".

تقدم في: (العلم١١٨).

---

(٨٢٣) **صحيح لغيره**: أخرجه ابن ماجه (٢٤٤٥)، وفيه ضعف، وأخرجه بنحوه ابن سعد (٤/ ٣٢٦) من طريقين عن محمَّد بن سيرين، عن أبي هريرة. قال الحافظ في "الفتح" (٩/ ٥٥٨): إسناده صحيح.
وله طريق أخرىٰ أخرجها أبونعيم في معرفة الصحابة بإسناد صحيح.
قال الشيخ عصام هادي -في تحقيقه لابن ماجه-: ضعَّفه شيخنا.
قلت: لكن رواه ابن سعد في الطبقات من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة، وقال شيخنا في التعليقات الحسان (١٠/ ٢٢٧): وسنده صحيح.
قلت: وخرَّج ابن حبان معناه، وقال شيخنا عنه في صحيح الموارد (١٩١٣): صحيح لغيره.

وأخرجه مسلم (٢٤٩٢، ٢٤٩٣)، والترمذي (٣٨٣٥).

الشرح

قوله: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا أَنْسَاهُ؟): **فيه** اتِّخاذ أسباب الحفظ وعدم النسيان **ومنها** الدعاء بالحفظ، وثباته وعدم نسيانه، **ومنها** العمل به، ومذاكرته، فإنَّ آفة العلم النسيان، وحياته المذاكرة، والمذاكرة تكون بين اثنين فأكثر بأن يسأل بعضهم بعضاً.

وفيه الحرص علىٰ الاستزادة من الحديث، والإكثار منه، **وفيه** الاهتمام بحفظ السنَّة التي أصبح اليوم نسياً منسياً، إلا ممَّن رحم الله، فلا نكاد نرىٰ حلقات، ولا مراكز لتحفيظ السنَّة، بل ولا قراءتها، فضلاً عن دراستها، والدعوة إلىٰ ذلك.

قوله: (**ابْسُطْ رِدَاءَكَ**): وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه: إنَّه لن يبسط أحد ثوبه حتىٰ أقضي مقالتي هذه، ثمَّ يجمع إليه ثوبه إلا وعىٰ ما أقول، فبسطت نمرة عليَّ حتىٰ إذا قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلىٰ صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء".

أخرجه المصنف في أوائل البيوع.

قوله: (**فَبَسَطْتُهُ**)، زاد الحميدي في مسنده (١١٧٦): "وقام آخر فبسط رداءه، فقال النبي ﷺ: «**سبقك بها الغلام الدوسيٰ**». وبمثله أنَّه ﷺ دعا لأبي هريرة؛ ما ورد عَنْ **مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ**، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ **زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ**، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: عَلَيْكَ أَبَا هُرَيْرَةَ، فَإِنِّي بَيْنَمَا أنا وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَفُلَانٌ فِي الْمَسْجِدِ ذَاتَ يَوْمٍ نَدْعُو اللهَ، وَنَذْكُرُ رَبَّنَا؛ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَيْنَا، فَسَكَتْنَا، فَقَالَ: «**عُودُوا لِلَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ**»، قَالَ زَيْدٌ: فَدَعَوْتُ أَنَا وَصَاحِبَيَّ قَبْلَ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُؤَمِّنُ عَلَىٰ دُعَائِنَا، ثُمَّ دَعَا أَبُو هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: **اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِثْلَ مَا سَأَلَكَ صَاحِبَايَ هَذَانِ، وَأَسْأَلُكَ عِلْمًا لَا يُنْسَىٰ**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آمِينَ**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللهَ عِلْمًا لَا يُنْسَىٰ، فَقَالَ: (**سَبَقَكُمْ بِهَا الْغُلَامُ الدَّوْسِيُّ**)[٨٢٤]. حسن.

---

(٨٢٤) **حسن**: أخرجه الحاكم (٦١٥٨) وقال: صحيح الإسناد، وضعَّفه شيخنا الألباني من أجل حماد بن شعيب كما في الضعيفة (٣٨٤٨)، ورواه الطبراني (١٢٢٨) من غير طريق حماد، والنسائي في الكبرىٰ

وقد دعا ﷺ بدعوات عامَّة لأصحابه، ودعوات خاصَّة لبعضهم؛ لما يرىٰ منهم من حرص ونجابةٍ ونحوها؛ كما سبق معنا من دعائه لأنسٍ وابن عباس.

وللترمذي في رواية أخرىٰ قال: «أتيتُ رسولَ الله ﷺ فَبَسطْتُ ثوبي عنده، ثمَّ أخذه، فجمعه علىٰ قلبي، فما نسيتُ بعده».

وفيه الدعاء بسرعة الحفظ وثباته، وقد دعا له بعلم لا ينسىٰ. **وفيه** الحرص علىٰ الحديث وحفظه، **وفيه** منقبة عظيمة، وميزة شريفة لأبي هريرة، وشهادة كبرىٰ من النبي ﷺ، لم يشركه فيها أحد. **وفيه** دعاء العالم لطلابه. **وفيه** أنَّ أهمَّ ما في العلم بركته، والعمل به، وعدم نسيانه.

قوله: (فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا بَعْدَهُ)، وفي رواية: "فبسطته فغرف بيده فيه ثمَّ قال: (ضمَّه)، فضممته فما نسيت حديثا بعده"، **ففيه** عَلم من أعلام نبوته ﷺ، **وفي** هذا كرامة ظاهرة لأبي هريرة رضي الله عنه-، كما كان آية بيِّنة للنبي ﷺ، فأصبح أبوهريرة حافظ الأمَّة بلا منافس، وفي هذا دليل علىٰ أنَّ الشيطان لم يسلَّط علىٰ أبي هريرة -في هذا- لأنَّ النسيان من الشيطان: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، **وفيه** أيضاً أنَّه رضي الله عنه منَّ الله عليه بمأثرة عظيمة جعلها من مآثر نبيه ﷺ، فكان له رضي الله عنه نصيب من قوله تعالىٰ: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ**﴾ [الأعلىٰ: ٦].

مشكل الحديث:

فإن قيل: هل يعارض هذا ما ثبت من أنَّ أباهريرة نسي بعض الأحاديث، ولـمَّا ذُكِّر قال: (**أبيْتُ أبيْتُ**)؟! كما في حديث **أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ** أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَىٰ**»، وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَىٰ مُصِحٍّ**»، قَالَ أَبُوسَلَمَةَ: كَانَ **أَبُوهُرَيْرَةَ** يُحَدِّثُهُمَا كِلْتَيْهِمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ صَمَتَ أَبُوهُرَيْرَةَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ قَوْلِهِ «**لَا عَدْوَىٰ**»، وَأَقَامَ عَلَىٰ أَنْ «**لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَىٰ مُصِحٍّ**»، قَالَ: فَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ أَبِي ذُبَابٍ -وَهُوَ ابْنُ عَمِّ أَبِي هُرَيْرَةَ-: قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُكَ، يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تُحَدِّثُنَا مَعَ هَذَا الْحَدِيثِ حَدِيثًا آخَرَ، قَدْ سَكَتَّ عَنْهُ، كُنْتَ تَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا عَدْوَىٰ**»، فَأَبَىٰ أَبُوهُرَيْرَةَ أَنْ يَعْرِفَ ذَلِكَ، وَقَالَ: «**لَا يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَىٰ مُصِحٍّ**»، فَمَا

(٥٨٣٩)، وهو إسناد حسن، وقد جوَّد الحافظ إسناده في الإصابة (٧ / ٣٥٧) وصحَّحه الحويني في إحدىٰ محاضراته.

رَآهُ الْحَارِثُ فِي ذَلِكَ حَتَّىٰ غَضِبَ أَبُوهُرَيْرَةَ فَرَطَنَ بِالْحَبَشِيَّةِ، فَقَالَ لِلْحَارِثِ: أَتَدْرِي مَاذَا قُلْتُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ أَبُوهُرَيْرَةَ: قُلْتُ: أَبَيْتُ، قَالَ أَبُوسَلَمَةَ: وَلَعَمْرِي! لَقَدْ كَانَ أَبُوهُرَيْرَةَ، يُحَدِّثُنَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَا عَدْوَىٰ**»، فَلَا أَدْرِي أَنَسِيَ أَبُوهُرَيْرَةَ، أَوْ نَسَخَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ الْآخَرَ؟ أخرجه مسلم (٢٢٢١).

الجواب: لا تعارض بين هذا الحديث، وكونه نسي بعض ما حدَّث به؛ لأنَّ هذا كقوله -تعالىٰ-: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ**﴾ [الأعلىٰ: ٦]، مع كونه نسي -عليه الصلاة والسلام- بعض الآيات في الصلاة وغيرها، فإنَّه -عليه الصلاة والسلام- لا ينسىٰ قبل التبليغ، وكذا أبوهريرة لا ينسىٰ قبل التبليغ، أمَّا بعد البلاغ، فلا مانع أن يطرأ عليه ما يطرأ علىٰ البشر من السهو والنسيان.

نصوص في حفظ السنة والاعتناء بها:

ولنذكر بعض النصوص التي تحضُّ علىٰ الحفظ؛ كي تكون محفِّزة لنا ومرغِّبة في حفظ نصوص الوحيين؛ حيث قصر الكثير في الحفظ، ولا سيَّما حفظ السنة النبوية علىٰ صاحبها -الصلاة والسلام-، مع التنبيه إلىٰ أنَّ ما ورد من نصوص في حفظ الكتاب فهي في حفظ السنة كذلك، حيث لا تفريق بينهما، ولذلك جاء في الحديث: (**وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**) أخرجه التِّرمِذِيُّ (٣٧٨٨)، يعني: (القرآن والسنَّة).

قال -تعالىٰ-: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ**﴾ [الأعلىٰ: ٦]. وقال -تعالىٰ-: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٩]. يعني: أنَّ القرآن آيات بيِّنات في صدور النبي ﷺ والمؤمنين، به خُصُّوا لحفظه في صدورهم؛ بخلاف من قبلهم؛ فإنَّهم كانوا لا يحفظون كتبهم عن ظهر قلب إلا الأنبياء.

وقال -تعالىٰ-: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ**﴾ [البقرة: ٦٣] أي: **احفَظوه ولا تنسَوْه**.

وقوله -تعالىٰ-: ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ**﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد أخذ الله -تعالىٰ- علىٰ العلماء أن يحفظوا كتابه من وجهين: **أحدهما**: أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم، **والثاني**: أن لا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه.

وفي حديث وفد عبدالقيس: (**احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**). متفق عليه.

وكثيرا ما نسمع الصحابي يقول: "سمعته أذناي ووعاه قلبي". ويقول: "حفظته من رسول الله ...". ويقول أحدهم: "فأعلمنا أحفظنا".

وقوله ﷺ: (**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالعِلْمِ**) الحديثَ، سبق برقم (٧٩)، وقوله - أيضًا-: (**وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**). أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، قال شيخ الإسلام يعني: محفوظ في الصدر، مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٠).

وعَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ**، قَالَ: "إِنَّمَا كُنَّا نَحْفَظُ الْحَدِيثَ، وَالْحَدِيثُ يُحْفَظُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا إِذْ رَكِبْتُمْ كُلَّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَهَيْهَاتَ". **صحيح**: أخرجه مسلم في المقدمة.

وكان النبي ﷺ يدعو لمن حفظ السنَّة؛ كقوله: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِيَ فَحَفِظَهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا** ...». **صحيح لغيره**: أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، والبزار (٣٤١٦)، وهو في صحيح الترغيب (٩٢).

ومن ذلك قوله لأبي قتادة رضي الله عنه-: (**حَفِظَكَ اللهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ**). أخرجه مسلم (٦٨١).

وفي حديث **عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، ...**)، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ!، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: (**بَلَىٰ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣٧١٢) وهو في الصَّحِيحَة: (١٩٩)، وصَحِيح التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيب (١٨٢٢).

وحديث **معاذ بن جبل** في اختصام الملأ الأعلىٰ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا حَقٌّ فَادْرُسُوهَا** (أي: احفظوها) **ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا**» **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٢١٠٩) والترمذي (٣٢٣٥).

وقد ذمَّ **عمر** رضي الله عنه- أهل الرأي (يعني: الذين يقولون: نعتني بالفقه) بعدم الحفظ: "أَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَعُوهَا، وَتَفَلَّتَتْ مِنْهُمْ أَنْ يَحْفَظُوهَا؛ فَقَالُوا فِي الدِّينِ بِرَأْيِهِمْ". **صحيح**: جامع بيان العلم (٢٠٠٥).

ثمَّ ليعلم الجميع أنَّ الحفظ للكتاب والسنَّة هو الأصل في العلم، وقال **شيخ الإسلام** رحمه الله: "**وَالِاعْتِمَادُ فِي نَقْلِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ حِفْظِ الْقُلُوبِ** لَا عَلَىٰ الْمَصَاحِفِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إنَّ رَبِّي قَالَ لِي مُنْزِلٌ عَلَيْك كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويقظانا**....». فَأَخْبَرَ أَنَّ كِتَابَهُ لَا يَحْتَاجُ فِي حِفْظِهِ إلَىٰ صَحِيفَةٍ تُغْسَلُ بِالْمَاءِ؛ بَلْ يَقْرَؤُهُ فِي كُلِّ

حَالٍ، كَمَا جَاءَ فِي نَعْتِ أُمَّتِهِ: «أَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ»(٨٢٥) بِخِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يَحْفَظُونَهُ إِلَّا فِي الْكُتُبِ، وَلَا يَقْرَءُونَهُ كُلَّهُ إِلَّا نَظَرًا لَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ جَمَعَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ جَمَاعَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ؛ كَالْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ مِنْ الْأَنْصَارِ وَكَعَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو" مجموع الفتاوىٰ (١٣ / ٤٠٠).

وقال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة:١٧-١٩]، وعن **ابن عباس** أنَّه فسَّر الآيات الأخيرة بقوله: "إنّ علينا أن نجمعه لك في صدرك، ثم إنّ علينا أن نبينه" البخاري (٥)، أي أن نجمع لك بين حفظه لك في صدرك، ثمَّ بيان معناه لك، بالكتاب والسنَّة.

وَعَلَىٰ هَذَا فَلَيْسَ الْعِلْمُ إِلا مَا حُصِّلَ بِالْحِفْظِ. قَالَ **عبدالرَّزَّاقِ بْنُ هَمَّامٍ**: "كُلُّ عِلْمٍ لا يَدْخُلُ مَعَ صَاحِبِهِ الْحَمَّامَ فَلا تَعُدُّهُ" الجامع لأخلاق الراوي (١٧٥٦) للخطيب البغدادي.

وَأَنْشَدَ **الخليل** رَحِمَهُ اللهُ جامع بيان العلم (٣٧٥)، وأحاديث السلفي عن جعفر السراج:

لَيْسَ بِعِلْمٍ مَا حَوَىٰ الْقِمَطْرُ ... مَا الْعِلْمُ إِلا مَا حَوَاهُ الصَّدْرُ

وَأَنْشَدَ **بعضهم** في الجامع لأخلاق الراوي (١٧٦١):

رُبَّ إِنْسَانٍ مَلأَ أَسْفَاطَهُ ... كُتُبَ الْعِلْمِ يَعُدُّ وَيَحُطْ
وَإِذَا فَتَّشْتَهُ عَنْ عِلْمِهِ ... قَالَ عِلْمِي يَا خَلِيلِي فِي السَّفَطْ
فِي كَرَارِيسَ جِيَادٍ أُحْرِزَتْ ... وَبِخَطٍّ أَيِّ خَطٍّ أَيِّ خَطْ

---

(٨٢٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٠٠٤٦) من حديث ابن مسعود، وهو في الضعيفة (٣٧٧٠).

قلت: لم يعرف الشيخ الألباني بعض من في هذا السند: كجرَّاح بن مخلد وهو القزَّاز، ثقة، وسهل بن أبي سهل الواسطي، وهو أبوالعباس، وثقَّه الخطيب، وإسماعيل بن عبد الحميد، وهو العجلي، صدوق، وأبوه عبد الحميد بن عبد الرحمن بن فروة وهو العجلي القارئ، مقبول، روىٰ عنه اثنان ولم يذكر فيه البخاري وابن ابي حاتم جرحًا ولا تعديلاً، وذكره ابن حبان في الثقات، **وأبوهارون** مجهول الحال أو العين. وورد شاهد لهذا الحديث أو لهذه اللفظة من الحديث: عن أبي هريرة عند أبي نعيم في حديثه عن أبي علي الصواف (ص: ٢٩)، وفيه محمد ابن عثمان بن أبي شيبة، صدوق، وجبارة بن المغلِّس، ضعيف، وقيل: متَّهم بالكذب، وربيع بن النعمان وهو الغنوي أبو سودة، مقبول، والله أعلم. وقد وردت هذه اللفظة من قول قتادة عند الطبري في التفسير (١٥١٣٢) بسند صحيح..

فَإِذَا قُلْتَ لَهُ: هَاتَ إِذَنْ . . . حَكَّ لَحْيَيْهِ جَمِيعًا وَامْتَخَطْ

تنبيه: التحذير من الكسل عن الحفظ والدعة والراحة

ينبغي الحذر من الكسل، والميل إليه بترك الحفظ للنصوص، ولا سيَّما حفظ السنة الذي أصبح لا يعتني به إلا أقلُّ من القليل من الطلاب.

قال **ابْنُ الْجَوْزِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَدْ كَانَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ سَلَفِنَا يَحْفَظُونَ الْكَثِيرَ مِنَ النصوص، فَآلَ الأَمْرُ إِلَىٰ أَقْوَامٍ يَفِرُّونَ مِنَ الإِعَادَةِ مَيْلاً إِلَىٰ الْكَسَلِ، فَإِذَا احْتَاجَ أَحَدُهُم إِلَىٰ مَحْفُوظٍ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ عَلَىٰ الْمُتَفَقِّهَةِ أَنَّهُمْ يُعِيدُونَ الدَّرْسَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَإِذَا مَرَّ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ يَوْمَانِ نَسِيَ ذَلِكَ، وَإِذَا افْتَقَرَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فِي الْمُنَاظَرَةِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَذَهَبَ زَمَانُ الأَوَّلِ ضَائِعًا، وَيُحْتَاجُ أَنْ يَبْتَدِئَ الْحِفْظَ لِمَا فِيهِ أَوَّلاً، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ لَمْ يَحْكُمْهُ، وَلَمَّا رَأَيْتُ الْكَسَلَ مُسْتَوْلِيًا عَلَىٰ الْمُتَشَاغِلِينَ بِالْعِلْمِ، وَضَعْتُ هَذَا الْكِتَابَ مُحَرِّضًا لَهُمْ عَلَىٰ الاجْتِهَادِ". الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ (ص ٣١-٣٢).

قلَّة اعتناء كثير من المشايخ والمؤسسات العلمية بتحفيظ الطلاب:

وممَّا يُعجب منه أنَّه لم يعد كثير من المشايخ يهتمُّون بحفظ وتحفيظ السنة، وكذا في المعاهد والجامعات، لم يعتنوا بحفظها إلا القليل جدًا من الحديث، حتىٰ إنَّ بعض الجامعات لم يفرضوا علىٰ طلابهم إلا مائة حديث في السنوات الأربع التي يدرسون فيها، يعني بمعدل خمس وعشرين حديثًا فقط في السنة!، فما عسىٰ أن يقوم هذا الطالب بالدعوة إلىٰ الله، وتعليم الناس الدين، والتأليف، وبأي حجج سيواجه أهل البدع، والفساد، وكيف يستدلُّ بالدليل في جميع مسائل الدين في العقيدة والفقه، وسائر العلوم؟!، فيا ليت الناس يعيدون النظر في مناهجهم الدراسية في المؤسسات التعليمية، كي يرفعوا من مستوىٰ الطلاب العلمي.

فقد كان الطالب قديمًا يحفظ الصحيحين، بل وكتب السنَّة الأخرىٰ، وينتقل بعد حفظ المرفوعات إلىٰ حفظ الموقوفات، كما قال **الذهبي** في ترجمة: **الحافظ الإمام البارع ذكي زمانه أبومحمد عبدالله بن مظاهر الأصبهاني**: كان آية في الحفظ، بلغنا أنَّه حفظ المسندات كلَّها، ثمَّ شرع في حفظ الموقوفات. تذكرة الحفاظ (٣/ ٧٠)، وكان الشيخ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْحَنْبَلِيِّ شَيْخًا فَاضِلًا دَيِّنًا، وَيَحْفَظُ الْجَمْعَ بَيْنَ الصَّحِيحَيْنِ لِلْحُمَيْدِيِّ، وَكَانَ مُتَوَاضِعًا حَسَنَ الْأَخْلَاقِ. (البداية

والنهاية١٣/ ١٠٣).

ومنهم من كان يحفظ «**الجمع بين الصّحيحين**» **من زمن الصِّبَىٰ**، استكتبه ودرسه، وكان يحفظه باختلاف الطُّرُق والألفاظ، وبالفاء والواو. (تاريخ الإسلام٤٩/ ١٣٣)، فهذا **عَبْدُاللهِ بن عِيْسَىٰ السَّرَقُسْطِي** حَفِظ "صَحِيْح البُخَارِيِّ" وَ"سُنَن أَبِي دَاوُدَ" سير أعلام النبلاء(١٩/ ٦٣١)،

وهذا **خَزْعَلُ بن عسكر بن خليل**، العَلَّامة تقيّ الدِّين، أبوالمجد الشَّنائيّ المِصْريّ، المقرئ النَّحْويّ اللُّغَوِيُّ، [المتوفى: ٦٢٣ هـ] نزيل دمشق؛ قال فيه **أبوشامة**: "وكان يحثُّني علىٰ حفظِ الحديث، والتَفقّه فيه خصوصًا "صحيح مُسْلم". ويقول: إنّه **أسهل من حفظ كتب الفقه وأنفع** -وصَدَقَ-". تاريخ الإسلام ت بشار (١٣/ ٧٣٧).

وهذا **أبوبَكْرِ بْنُ الْأَنْبَارِيِّ** مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَشَّارٍ، صَاحِبُ كِتَابِ "الْوَقْفِ والابتداء"،

وكان له من المحافيظ مجلدات كثيرة، أَحْمَالُ أَجْمَالٍ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا النقالىٰ، وَلَا يَشْرَبُ مَاءً إِلَىٰ قَرِيبِ الْعَصْرِ؛ مُرَاعَاةً لذهنه وحفظه، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ مِائَةً وَعِشْرِينَ تَفْسِيرًا، وَحَفِظَ تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا فِي لَيْلَةٍ، وَكَانَ يَحْفَظُ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عَشْرَةَ آلَافِ وَرَقَةٍ". البداية والنهاية (١١/ ٢٢٢).

وقال **الشافعي**: "قدمت علىٰ مالك بن أنس، وقد حفظت الموطأ، فقال لي: أحضر من يقرأ لك، فقلت: أنا القارىء، فقرأت عليه الموطأ حفظًا، فقال: إن يك أحد يفلح، فهذا الغلام". منازل الأئمة الأربعة (ص ٢٠٦)، ومرآة الجنان (٢/ ١٧).

قال **الذهبي**: "وإنَّما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين في الصدور؛ فهي كانت خزائن العلم لهم رضي الله عنهم". تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٠).

وقد بدأ شيخ الإسلام ابن تيمية في الطلب فحفظ القرآن في صغره، ثم حفظ "الجمع بين الصحيحين" للحميدي.

وسئل الحافظ اليونيني رحمه الله، هل تحفظ الكتب الستة.

فقال: أحفظها ولا أحفظها، فقيل: كيف ذلك؟ قال: أنا أحفظ مسند أحمد، وما يفوت المسند من الكتب الستة إلا القليل، وأصله في المسند، فأنا أحفظها بهذا الوجه.

قلت: هذا قليل من كثير من حال العلماء.

وظلَّ الحال بين طلاب العلم علي خير إلىٰ أن وصل الأمر إلىٰ ما وصل إليه، فقلَّ من طلاب العلم من يهتمُّ بحفظ السنة، وكتب الحديث، والأمَّهات.

فعلىٰ طلاب العلم أن يسعوا في حفظ السنة التي هي زادهم وسلاحهم، كما قال **الثوري**: «أكثروا من الأحاديث، فإنَّها سلاح» شرف أصحاب الحديث (٢٦).

قال **ابن عبدالبر** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وطائفة هم جهلة لم يعنوا بحفظ سنَّة ولا الوقوف علىٰ معانيها ولا بأصل من القرآن ولا اعتنوا بكتاب الله -جلَّ وعزَّ- فحفظوا تنزيله، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله (أي تفسيره)، ولا وقفوا علىٰ أحكامه، ولا تفقَّهوا في حلاله وحرامه، قد **اطرحوا علم السنن والآثار وزهدوا فيهما، وأضربوا عنهما**». جامع بيان العلم (٢/ ١١٣٤).

وقال **البشير الإبراهيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن العار الفاضح ألَّا نرىٰ في الكثير من أبنائنا الذين تخرّجوا من الزيتونة، واتَّجهوا إلىٰ علوم الدين من استوعب قراءة الصحيحين والسنن؛ ولعمري ما سلاح الفقيه إلا تلك الكتب وأشباهها». آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٣/ ٢٠٣)

قلت: وليعلم أنَّ أعظم وأشقَّ مرحلة تمرُّ بالطالب هي مرحلة الحفظ، لذا؛ نجد العزوف عنه، ومحاولة الهروب منه، نعم، هذه المرحلة فيها مشقة وتعب، لكنه سيجد ثمرة ذلك وفائدته في مستقبله.

ثمَّ إنَّ محفوظاته من النصوص هي عُدَّته في حياته العلمية تدريساً وتأليفاً، وفقها واستنباطاً، واستدلالاً، ولو علم الطلاب ما في الحفظ من فوائدَ؛ لبادروا إليه، واستكثروا منه، وحين يرىٰ الطالب ثمرة تحصيله وحفظه لتلك النصوص، وما تميز به بين أقرانه، وما نبل به بين الخلق، سيشعر حينئذ بهذه النعمة وما حباه الله تعالىٰ به، وما وفَّقه إليه فيحمده عليها، ويزداد شكراً لله يوماً بعد يوم.

فإن تعدَّىٰ الطالب هذه المرحلة وقد جمع زاده وسلاحه في مدَّة يسيرة؛ نحو سنة أو سنتين يحفظ فيها الكثير من السنن، ثمَّ يتوجه لمعرفة معانيها والتفقُّه فيها، فيثبِّت بهذا محفوظه، ويفهم ما حفظ، فتتكوَّن لديه ملكة قوية في العلم، والاستنباط، فتبقىٰ معه هذه المحفوظات عمره وحياته العلمية، فهي سلاحه الذي يقوم به ويقعد ويدعو إلىٰ الله ويجاهد به.

لذلك ينبغي لطالب العلم إن كان لديه همَّة للحفظ، أن يجعل نهمته وهمَّته في حفظ القرآن والحديث والأثر، وليستكثر من حفظ هذا النور والهدىٰ، **وليجعلها من أولوياته**؛ اقتداء بالسلف والأئمَّة، إن أحبَّ أن يبرع في العلم.

فخير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وأعلمُ العلماء مهما عظم؛ لن يكون ما ألَّفه من المتون والمنظومات أعلىٰ ولا أعظم من كلام الله ورسوله، فإنَّ الفقه كلَّه والعلم فيهما، ولا شيء أفضل وأنقىٰ وأهدىٰ، وأضبط من كلام النبي ﷺ وأصحابه.

قال الحافظ ابن عبدالبر رَحِمَهُ اللَّهُ: "فَعَلَيْكَ يَا أَخِي بِحِفْظِ الْأُصُولِ وَالْعِنَايَةِ بِهَا، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنَ عَنَىٰ بِحِفْظِ السُّنَنِ وَالْأَحْكَامِ الْمَنْصُوصَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَنَظَرَ فِي أَقَاوِيلِ الْفُقَهَاءِ؛ فَجَعَلَهُ عَوْنًا لَهُ عَلَىٰ اجْتِهَادِهِ، وَمِفْتَاحًا لِطَرَائِقِ النَّظَرِ، **وَتَفْسِيرًا لِجُمَلِ السُّنَنِ الْمَحْتَمِلَةِ لِلْمَعَانِي**، وَلَمْ يُقَلِّدْ أَحَدًا مِنْهُمْ تَقْلِيدَ السُّنَنِ الَّتِي يَجِبُ الِانْقِيَادُ إِلَيْهَا عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ دُونَ نَظَرٍ، وَلَمْ يُرِحْ نَفْسَهُ مِمَّا أَخَذَ الْعُلَمَاءُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ **مِنْ حِفْظِ السُّنَنِ وَتَدَبُّرِهَا**، وَاقْتِدَائِهِمْ فِي الْبَحْثِ وَالتَّفَهُّمِ وَالنَّظَرِ، وَشَكَرَ لَهُمْ سَعْيَهُمْ فِيمَا أَفَادُوهُ وَنَبَّهُوا عَلَيْهِ، ... ، وَلَمْ يُبَرِّئْهُمْ مِنَ الزَّلَلِ كَمَا لَمْ يُبَرِّئُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْهُ؛ **فَهَذَا هُوَ الطَّالِبُ الْمُتَمَسِّكُ بِمَا عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَهُوَ الْمُصِيبُ لِحَظِّهِ، وَالْمُعَانِ لِرُشْدِهِ، وَالْمُتَّبِعُ سُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَهَدْيِ صَحَابَتِهِ**.

وَمَنْ أَعْفَىٰ نَفْسَهُ مِنَ النَّظَرِ، وَأَضْرَبَ عَمَّا ذَكَرْنَا، وَعَارَضَ السُّنَنَ بِرَأْيِهِ، وَرَامَ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَىٰ مَبْلَغِ نَظَرِهِ؛ **فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ**، وَمَنْ جَهِلَ ذَلِكَ كُلَّهُ -أَيْضًا-، وَتَقَحَّمَ فِي الْفَتْوَىٰ بِلَا عِلْمٍ؛ فَهُوَ أَشَدُّ عَمًى وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

وَاعْلَمْ -يَا أَخِي!- أَنَّ **السُّنَنَ وَالْقُرْآنَ هُمَا أَصْلُ الرَّأْيِ وَالْعِيَارُ عَلَيْهِ** (يعني: فهما الحجة علىٰ الرأي)، وَلَيْسَ الرَّأْيُ بِالْعِيَارِ عَلَىٰ السُّنَّةِ؛ بَلِ السُّنَّةُ عِيَارٌ عَلَيْهِ، **وَمَنْ جَهِلَ الْأَصْلَ لَمْ يُصِبِ الْفَرْعَ -أَبَدًا-**". جامع بيان العلم (٢/ ١١٣٤)؛ باختصار.

ولهذا؛ فإنّ الإقبال علىٰ الرأي وما يسمَّىٰ بالمتون والكتب الفقهية، وترك الحديث أو تأخيره؛ منافٍ لما أُمرنا به من البدء بما بدأ الله به، ومناف لمنهج السلف وخير القرون، ومخالف لما أمر الله به ورسوله، لأنَّنا أمرنا -كما سبق- بالتفقه في الدين، وهو الكتاب والسنة، وحفظهما.

تنبيه وتحذير:

بعضهم يهوِّن[٨٢٦] من شأن حفظ السنة، وكتب الحديث بله قراءتها ويقول: ماذا نستفيد من حفظ كتاب كالبخاري مثلاً، إنَّ هذا الذي يحفظ نسخة البخاري لم يفعل شيئاً، ولم يضف جديداً إلا أنَّه زاد نسخة من صحيح البخاري!!

وهذا بلا شكٍّ مخالف لنصوص حفظ السنة، وعمل السلف، ورد النصوص برأيه، وفيه تهوين من شأن حفظ السنة، وهو من الصدِّ عنها، ولقائل أن يقول له: وما فائدة حفظ القرآن أيضاً، فمن حفظه فقد زاد نسخة من القرآن!!

لذلك يقال له: وما ورد في حفظ السنة، مثل ما جاء في حفظ القرآن، بل إنَّه أحوج؛ لأنَّ القرآن لا تحفظه فحسب، بل لابدَّ أن تفهمه، ولا تفهمه إلا بالسنَّة التي هي بيان للقرآن، وهي حجج الله، وكان أحفظ الصحابة للقرآن والسنَّة أعلمهم بهما عندهم.

بغض أهل البدع للحديث وكتابته وحفظه وأهله:

[illegible] شيء أثقل على أهل الإلحاد ولا أبغض إليهم من سماع الحديث، وروايته بإسناده»[٨٢٧].

[illegible]: ليس في حديث رسول الله ﷺ فقه»، فقال: «هذا فاجر فأين الفقه؟ وأين الخير إلا فيه؟!!»[٨٢٨].

وقال **الأوزاعي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "ليس من صاحب بدعة تحدِّثه عن رسول الله ﷺ بخلاف بدعته بحديث إلا أبغض الحديث" شرح أصول أهل السنة (٧٣٢) [illegible] الحاكم بإسناد صحيح

وعن أحمد بن سنان القطان قال: «ليس في الدنيا مبتدع[٨٢٩] إلا وهو يبغض أهل الحديث،

---

(٨٢٦) والذين يهوِّنون من شأن حفظ السنة هم أهل الكلام والرأي وأصحاب الأهواء والبدع؛ فكلُّهم يبغضون الحديث، فإنَّه لم يبتدع مبتدع قط إلا وهو يبغض الحديث، وروايته، ومن الفِرَق التي أُحدِثت ويصرفون ويصدون الناس عنه: الإخوان المسلمون، حتىٰ إنِّي سمعت أحدهم يقول: زادت نسخة من صحيح البخاري ونحو هذا الهراء!!، وهذا كله من تزيين الشيطان لهم؛ ليبعدهم عن الخير والهدىٰ.
وأذكر كلمة لشيخنا الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، لـمَّا قيل له: الإخوان المسلمون من أهل السنَّة، قال: هم أعداء السنَّة.

(٨٢٧) ذم الكلام وأهله (٢/ ٧١ - ٢٢٦).

(٨٢٨) راجع الاعتصام للشاطبي (١/ ٢٢٠).

(٨٢٩) واشمئزاز أهل البدع من الحديث والنصوص التي تخالفهم، ذكر **ابن القيم** عن بعض الجهمية لـمَّا ذُكر

فإذا ابتدع الرجل نُزِع حلاوة الحديث من قلبه»(٨٣٠).

قال [illegible] التي تخالفه ويبغضها، ويبغض إظهارها وروايتها والتحدُّث بها، ويبغض من يفعل ذلك»(٨٣١).

وقال **ابن القيم**: "ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء لا يحبُّ تبليغ النصوص النبوية أو إظهارها وإشاعتها، وقد يشترطون في أماكن يوقفونها ألَّا يُقرأ فيها أحاديث الصِّفات، وكان بعض متأخِّريهم، وهو أفضلهم عندهم كَلِفًا بإعدام كتب السُّنَّة المصنَّفة في الصِّفات وكتمانها وإخفائها.

وبلغني عن كثيرٍ منهم أنه كان يَهُمُّ بالقيام والانصراف عند ختم «صحيح البخاري» وما فيه من التوحيد والردِّ علىٰ الجهمية، وسُمع منه الطعن في محمد بن إسماعيل. وما ذنب البخاري وقد بلَّغ ما قاله رسول الله ﷺ؟ وقال آخر من هؤلاء: «لقد شان البخاري صحيحه بهذا الذي أتىٰ به في آخره».

ومعلومٌ أنَّ هذه مضادةٌ صريحةٌ لِمَا يحبُّه الله ورسوله من التبليغ عنه، حيث يقول: «لِيُبَلِّغِ

له الحديث: قال النبي صلىٰ الله عليه وسلم: «**إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ**». وقالت عائشة: «**ولَشأني كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بوحي يُتلىٰ**».

فرأيت الجهمي قد عَبَس وبَسَر وكَلَح، وزوىٰ وجهه عنه، كالذي شمَّ رائحةً كريهةً أعرض عنها بوجهه، أو ذاق طعامًا كريهًا مُرًّا مذاقه.

وهذا أمرٌ لم يزل عليه كل مبطل إذا واجهته بالحقِّ المخالف له وصدمته به، وقلَّ من يتصبَّر منهم عند الصدمة الأولىٰ. ولهذا قال بعض السلف: «ما ابتدع أحدٌ بدعةً إلَّا خرجت حلاوة الحديث من قلبه".

وقال بعض رؤساء الجهمية ـ إمَّا بشر المريسي أو غيره ـ: «ليس شيءٌ أبغضَ لقولنا من القرآن، فأقِرُّوا به ثم أوِّلوه». وقال بشرٌ أيضًا: «إذا احتجوا عليكم بالقرآن فغالطوهم بالتأويل، وإذا احتجوا بالأخبار فادفعوها بالتكذيب». وقال الإمام أحمد: «قلَّ من نظر في الكلام إلَّا وفي قلبه غلٌّ علىٰ الإسلام«وجاء أفضل متأخريهم فنصب علىٰ حصون الوحي أربعة مناجنيق:

الأول: أنها أدلةٌ لفظيةٌ لا تُفيد اليقين.

الثَّاني: أنها مجازاتٌ واستعاراتٌ لا حقيقة لها.

الثَّالث: أن العقل عارضها، فيجب تقديمه عليها.

الرابع: أنها أخبار آحادٍ، وهذه المسائل علمية فلا يجوز أن يُحتج فيها بالأخبار.. الصواعق المرسلة.

(٨٣٠) عقيدة أصحاب الحديث (ص١٠٥)، شرف أصحاب الحديث (ص٧٣).

(٨٣١) اقتضاء الصراط المستقيم (ص٨).

الشَّاهِدُ الغَائِبَ». وقال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً». وقال: (نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَسْمَعْهُ؛ فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْه).

وقد ذمَّ الله في كتابه الذين يكتمون ما أنزله من البينات والهدىٰ، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله؛ لأنَّه يُخالف ما يقولونه، ويُعارض ما حكمت به عقولهم وآراؤهم، وهؤلاء الذين قال فيهم **عمر**: «إنَّهم أعداء السُّنن». الصواعق المرسلة

أتستبدلون الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير؟

وبدلاً من أن يهتمَّ الناسُ بحفظ الحديث، والأثر، هجروها وانشغلوا بحفظ المتون والكتب التي هي من كلام الناس، قال الحافظ **ابن عبدالبر** منكراً علىٰ المتفقِّهة وبعض الطلاب في زمانه: أنَّهم **"عوَّلوا علىٰ حفظ ما دُوِّن لهم من الرأي والاستحسان** الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان، وكان الأئمة يبكون علىٰ ما سلف وسبق لهم فيه، ويودُّون أنَّ حظَّهم السلامة منه". جامع بيان العلم (٢/ ٣٢٧).

وقال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان **الإمام أحمد** ينهىٰ عن آراء الفقهاء **والاشتغال بها حفظًا وكتابة، ويأمر بالاشتغال بالكتاب والسنَّة حفظًا وفهمًا وكتابة ودراسة**، وبكتابة آثار الصحابة والتابعين دون كلام مَن بعدهم، ... ولا ريب أنَّ **هذا ممَّا يتعيَّن الاهتمام به والاشتغال بتعلُّمِهِ أولاً قبل غيره**»[٨٣٢].

لذلك قال **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: "أمَّا فروعهم فقنعوا بتقليد من اختصر لهم بعض المختصرات التي لا يذكر فيها نصٌّ عن الله ولا عن رسول الله ﷺ، ولا عن الإمام الذي زعموا أنَّهم قلَّدوه دينهم، بل عمدتهم فيما يفتون ويقضون به وينقلون به الحقوق ويبيحون به الفروج والدماء والأموال علىٰ قول ذلك المصنف، **وأجلُّهم عند نفسه وزعيمُهم عند بني جنسه: من يستحضر لفظ الكتاب، ويقول: هكذا قال، وهذا لفظه**؛ فالحلال ما أحلَّه ذلك الكتاب، والحرام ما حرَّمه، والواجب ما أوجبه، والباطل ما أبطله، والصحيح ما صحَّحه!!". إعلام الموقعين (٤/ ١٣٠).

قال **ابن عبدالبر** عائبًا علىٰ أهل الرأي الذين انشغلوا به، عن الحديث وحفظه: "وَلَوْ عَلِمُوا أُصُولَ الدِّينِ

---

(٨٣٢) الرد علىٰ من اتبع غير المذاهب الأربعة (ص٣٨)

وَطُرُقَ الْأَحْكَامِ وَحَفِظُوا السُّنَنَ كَانَ ذَلِكَ قُوَّةً لَهُمْ عَلَىٰ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ جَهِلُوا ذَلِكَ فَعَادَوهُ وَعَادُوا صَاحِبَهُ، فَهُمْ يُفْرِطُونَ فِي انْتِقَاصِ (أصحاب الحديث) وتجهيلهم وعيبهم". "جامع بيان العلم (٢/ ١١٣٤)"

تركوا الحديث المعصوم ونور الأثر، ولم يعتنوا بفهم وتفسير القرآن ولا بفقه السنَّة، فاستعاضوا عن حفظ الكتاب والسنَّة ودراستهما، بحفظ المتون الفقهية ودراستها، وكرَّسوا جهودهم في حفظها وحفظ المنظومات بل والألفيات، والألوف من الأبيات والألغاز من الرأي فيما يسمَّىٰ بالفقه، والفروع، وحفظوا الأشعار والنثر، وانشغل الناس بكلام الناس، يتشدَّقون، ويتفيهقون، ويتكلَّفون، فصار كلامهم حشواً، وحشفاً لا بركة فيه ولا هدىٰ، هذا مع ما حفظوا من المنظومات في اللغة، والأصول، بل وفي العقيدة، ولقد **حفظوا كلَّ شيء سوىٰ السنَّة الغرَّاء** التي هي قرينة وبيان القرآن، وهي الحجج القاطعة علىٰ خلق الله، وفيها البصيرة والنور والهدىٰ، فهجِر الحديث والأثر، وتركوا أصول العلم وهي الكتاب والسنة، فمثل هؤلاء الذين تعبوا وأجهدوا أنفسهم هذا الجهد الجهيد في حفظ كلام الناس، فأنَّىٰ لمثل هؤلاء أن يرجعوا عن قولهم أو مذهبهم بعد ذلك إن جاءتهم السنّة، أو الدليل الذي يخالفها؟!!

فهم قد أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتولَّد من ذلك أن تكلَّم الناس بالرأي، بل أبغضوا الحديث، ونفروا منه، ورهبوا وأبغضوا أهله بل وحاربوهم لذلك، وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ: «من آثر كلام الناس وعلومهم علىٰ القرآن والسنَّة، فلولا أنَّه شانئ (مبغض) لما جاء به الرسول ما فعل ذلك، حتىٰ إنَّ بعضهم نسىٰ القرآن بعد أن حفظه، ويشتغل بقول فلان وفلان». تفسير سورة الكوثر (مجموع الفتاوىٰ١٦/ ٥٢٧). وانشغل الناس بما لم يشرع لهم الاشتغال به في [illegible] : «إِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ، فَإِنَّ أَصْحَابَ الرَّأْيِ أَعْدَاءُ السُّنَنِ، **أَعْيَتْهُمُ الْأَحَادِيثُ أَنْ يَحْفَظُوهَا** ..."، صحيح[٨٣٣].

وفي لفظ: "إِيَّاكُمْ وَأَصْحَابَ الرَّأْيِ فَإِنَّهُم أَعدَاء السّنَن أعيتهم الْأَحَادِيث أَن يحفظوها؛

---

(٨٣٣) **صحيح لغيره**: رواه ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم"، وصححه محققه (ح٢٠٠١) يراجع باب "الفرق بين التقليد والاتباع" من نفس الكتاب (ص٩٧٥)، واللالكائي (٢٠١)، وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٨٠١)، وابن حزم في الإحكام (٦/ ٤٣).

تَبَارَكَ [illegible] تَوْمٌ يُجَادِلُونَكُمْ بِشُبُهَاتِ الْقُرْآنِ فَخُذُوهُمْ بِالسُّنَنِ؛ فَإِنَّ أَصْحَابَ السُّنَنِ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"(٨٣٥). صحيح.

وكان من ثمرة هذا البعد عن السنَّة والبغض للحديث، أن خرج في الأمة مَن يسمَّون بالمفكِّرين والمثقَّفين، فكثر الخطباء، وقلَّ الفقهاء حقيقة، وصار الأمر كما قال **ابن الجوزي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وربَّما اعتمد (أي المتفقِّه) علىٰ قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم؛ لقلَّة التفاته إلىٰ معرفة النقل، **وإنَّما الفقه استخراج من الكتاب والسنَّة، فكيف يستَخْرِجُ من شيءٍ لا يعرفه؟!**". تلبيس إبليس (ص ١٠٣)، وخرج في الأمَّة أنصاف المتفقهة، ومن لم يرفع رأسًا بهدىٰ الله الذي أُرسل به النبي ﷺ، وكثر التقليد، وانتشرت البدع، وكثرت الانحرافات والضلالات، وقلَّت الحجج، وقلَّ العلماء، وندر الاجتهاد، وكثر الجهلاء، وأصبحنا نرىٰ دعاة علىٰ أبواب جهنم في كلِّ مكان، وأتباعهم الذين هم أتباع كل ناعق.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا من آثار ذهاب العلم، وثبوت الجهل الذي أخبر عنه النبي ﷺ عنه في آخر الزمان.

قلت: وأنا أتعجب من الذين يهوِّنون من شأن الحفظ والتحفيظ للسنَّة، وهم مع ذلك يأمرون بحفظ المتون من كلام البشر، وإذا جاءت السنَّة والأثر وذكر حفظهما أصابتهم رعدة.

ذكر بعض الأسباب المعينة علىٰ حفظ السنَّة وضبطها:

الأسباب المعينة علىٰ ذلك كثيرة، منها: النية الصادقة مع الاستعانة بالله، والعزم علىٰ حفظ الدين، وتعاهد السنَّة بالتلاوة، ودوام القراءة، والعرض لها، وقد كان علماء الهند يختمون الكتب الستة كلَّ عام، وبعضهم كلَّ ستة أشهر، وكانت للمرأة ختمة للبخاري.

وورد عن اللجنة الدائمة للإفتاء (فتوىٰ/ ٣٥٤٥، ٣٩٣٤) قولها: "وننصحك بكثرة تلاوة القرآن وقراءة تفسيره وخاصة تفسير ابن كثير، وكذلك قراءة السنة وشرحها **وخاصة الصحيحين**،

---

(٨٣٤) **صحيح**: أخرجه الدارقطني في سننه (٤٢٨٠)، واللالكائي في السنة (٢٠١)، وغيرهما، وفيه ضعف محتمل، يقويه ما قبله، ولذلك صححه الألباني في النصيحة (ص ١٩٩)، وقبله ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ٤٤).

(٨٣٥) **صحيح**: أخرجه الآجري في الشريعة (١٠٢)، والدارمي (١١٩)، وغيرهما.

والسنن الأربعة إلىٰ غير ذلك من كتب الحديث مثل: (منتقىٰ الأخبار – بلوغ المرام – رياض الصالحين – زاد المعاد لابن القيم)"

ابن باز عبدالرزاق عفيفي ابن قعود الغديان.

ومنها: اختيار الأوقات المناسبة للحفظ، واختيار الصاحب المناسب الذي يعين علىٰ ذلك، واختيار المكان المناسب للحفظ.

ومنها: المذاكرة: قال شيخنا العلامة **ابن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يوصي طالب العلم: "نوصيك بالعناية بالحفظ، والإقبال علىٰ ذلك، واختيار الأوقات المناسبة له؛ كآخر الليل، أو بعد صلاة الفجر، أو في أثناء الليل، أو في بقية الأوقات التي تكون فيها مرتاح النفس؛ حتىٰ تستطيع الحفظ. كما نوصيك باختيار الزميل الطيِّب الذي يساعدك ويعينك علىٰ الحفظ والمذاكرة. ولا تنس سؤال الله التوفيق والإعانة، والتضرُّع إليه أن يعينك، وأن يوفِّقك، وأن يعيذك من أسباب التعويق، ومن استعان بالله صادقًا؛ أعانه الله ويسَّر أمره". مجموع فتاوىٰ ابن باز (٦/ ٢٩٣)؛ بتصرف.

ومنها معرفة معاني الحديث، فهي تعين علىٰ الحفظ وتسهله.

ومنها: الجهر بقراءة ما يراد حفظه، وإدمان مجالس الحديث، والقراءة في كتب الحديث، وكتابة الحديث أكثر من مرَّة، وتكراره أكثر من عشر مرات.

ومنها: أن تحفظ علىٰ قدر طاقتك، ولا تكثر علىٰ نفسك في البداية؛ حتىٰ تتمكَّن من الحفظ.

وقد قال **سفيان الثوري** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كُنْتُ آتِي الْأَعْمَشَ وَمَنْصُورًا، فَأَسْمَعُ أَرْبَعَةَ أَحَادِيثَ، خَمْسَةً ثُمَّ أَنْصَرِفُ، كَرَاهَةَ أَنْ تَكْثُرَ وَتَفْلِتَ" الجامع لأخلاق الراوي (٤٤٨)، وقَالَ **ابْنُ شِهَابٍ** لِيُونُسَ بْنِ يَزِيدَ: "لَا تُكَابِرِ الْعِلْمَ؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ أَوْدِيَةٌ، فَأَيُّهَا أَخَذْتَ فِيهِ قَطَعَ بِكَ قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَهُ، وَلَكِنْ خُذْهُ مَعَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، وَلَا تَأْخُذِ الْعِلْمَ جُمْلَةً؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ أَخْذَهُ جُمْلَةً ذَهَبَ عَنْهُ جُمْلَةً، وَلَكِنِ الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ مَعَ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ". جامع بيان العلم (٦٥٢).

ومنها: العمل بالحديث، والتحدُّث به في المجالس الخاصَّة والعامَّة؛ فذلك ممَّا يعين علىٰ حفظه.

يَقُولُ **الشَّعْبِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: "كُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَىٰ حِفْظِ الْحَدِيثِ بِالْعَمَلِ بِهِ، وَكُنَّا نَسْتَعِينُ عَلَىٰ طَلَبِهِ

بِالصَّوْمِ" جامع بيان العلم (١٢٨٤)، وَيَقُولُ **وَكِيعُ بْنُ الْجَرَّاحِ**: "إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَحْفَظَ الْحَدِيثَ؛ فَاعْمَلْ بِهِ" تدريب الراوي (٢/ ٥٨٨)، وقد روي مثله عن ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ. علوم الحديث (ص ٢٤٧)

وقد اشتهر عن الإمام **أحمد بن حنبل** قوله: "ما بلغني حديث إلا عملت به، وما عملت به إلا حفظته". انظر تدريب الراوي (٢/ ٨٥٥)، وروي عنه رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: "الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ!!". جامع بيان العلم (١٢٧٤).

وكانوا يرون أنَّ بركة العلم أن تظهر آثاره علىٰ سمت طلابه.

ومنها -وهو داخل أيضًا في العمل بالعلم ومما يعين علىٰ حفظه-: اجتناب المعاصي، والذنوب.

وكلَّما حفظ طالب العلم النصوص، استطاع أن يستنبط منها، فتقوىٰ حجَّته، ويعلو محله، واستطاع أن يخطب الجُمَعَ بلا عناء ولا مشقة، كما أنَّه يستطيع أن يدرس بلا تحضير، وأن يناقش ويناظر، ويؤلِّف، ويفتي؛ لأنَّ النصوص والأدلة حاضرة في ذهنه، وكما يستطيع -أيضًا- أن يقوم بالدعوة بكلِّ يسر، ويقف أمام أهل البدع، ويكون مرفوعًا بين بني جنسه؛ كما يكون مهابًا عند الخاص والعام.

كتبت هذه الكلمات؛ لعلنا ننهض بما يلزمنا -أو ببعضه- تجاه كتاب ربنا وسنَّة نبينا مع إخواننا من طلاب العلم؛ ولكي نسير علىٰ نور وهدىٰ، ونستضيء بمنهج سلفنا الصالح، فإنَّنا جميعًا بحاجة إلىٰ الذكرىٰ، والذكرىٰ تنفع المؤمنين.

١٢٠ - حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (هو ابن عبدالله بن عبدالله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي)، قَالَ: حَدَّثَنِي أَخِي (عبدالحميد أبوبكر المدنىٰ) عَنْ ابْنِ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ سَعِيدٍ المَقْبُرِيِّ، **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: "حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ (نشرته وأذعته)، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ (هو مجرىٰ الطعام، وكنَّىٰ بذلك عن القتل)".

الشرح

هذا الحديث مما تفرد به البخاري عن أصحاب الكتب الستة وكثير من السنن

والمسانيد".

قوله: (حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ)، قال الحافظ: وفِي الْمُسْنَدِ[٨٣٦] عَنْهُ: **(حَفِظْتُ ثَلَاثَةَ أَجْرِبَةٍ، بَثَثْتُ مِنْهَا جِرَابَيْنِ)**، وَلَيْسَ هَذَا مُخَالِفًا لِحَدِيثِ الْبَابِ لِأَنَّهُ يُحْمَلُ عَلَىٰ أَنَّ أَحَدَ الْوِعَاءَيْنِ كَانَ أَكْبَرَ مِنَ الْآخَرِ بِحَيْثُ يَجِيءُ مَا فِي الْكَبِيرِ فِي جِرَابَيْنِ وَمَا فِي الصَّغِيرِ فِي وَاحِدٍ...، وَعُرِفَ مِنْ هَذَا أَنَّ مَا نَشَرَهُ مِنَ الْحَدِيثِ أَكْثَرُ مِمَّا لَمْ يَنْشُرْهُ". قاله الحافظ (١/ ٢١٦)، وفي رواية: عَنْ **أَبِي هُرَيْرَةَ**، قَالَ: "حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ **خَمْسَ جُرُبٍ** فَأَخْرَجْتُ مِنْهَا **جِرَابَيْنِ**، وَلَوْ أَخْرَجْتُ الثَّالِثَ لَرَجَمْتُونِي بِالْحِجَارَةِ"[٨٣٧]. يعني: فضلاً عن الرابع والخامس.

قوله: (وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ)، وَرَدَ عن **أبي هريرة** أَنَّه كان يقول: "لو أنبأتكم ما أعلم، لرماني الناس بالخزف، وقالوا: أبوهريرة مجنون". [**لا بأس به**: أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٣٦٤)، وسنده يحتمل التحسين، ويشهد له ما يأتي.

وعَنْ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: سَمِعْتُ **أَبَا هُرَيْرَةَ**، يَقُولُ: "حَفِظْتُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَادِيثَ مَا حَدَّثْتُكُمْ بِهَا، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْهَا لَرَجَمْتُمُونِي بِالْأَحْجَارِ". **صحيح**: أخرجه الحاكم في المستدرك (٦١٦٢).

وعن يزيد بن الأصم، قال: قيل **لأبي هريرة**: أكثرتَ أكثرتَ، قال: "فلو حدثتكم بكلِّ ما سمعتُ من النبي ﷺ لرميتموني بالقَشْع (بالمزابل)، ولما ناظرتموني". **صحيح**: أخرجه أحمد في المسند (١٠٩٥٩).

---

(٨٣٦) قلت: وبحثنا عنه في المسند فلم أجده! وهو بنحوه في التاريخ الكبير (١٥٧٢) لابن أبي خيثمة بإسناد لا بأس به، وهو في "تاريخ دمشق" (٦٧/ ٣٣٨) لابن عساكر..

(٨٣٧) **لا بأس به**: أخرجه أبونعيم في معرفة الصحابة (٤٧٥٣)، والحلية (١/ ٣٨١)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص ٥٥٦). **قلت**: وقد حكم **الحافظ** بانقطاع طريق الرامهرمزي وهي نفس طريق أبي نعيم! والذي يظهر لي عدم انقطاعه، لكن في عبدالله بن عبدالرحمن الرومي من جهالة الحال التي قد ترتفع في مثل هذه الحال، فقد روىٰ عنه اثنان(ابنه عمر، وحماد ابن زيد)، وذكره ابن حبان في الثقات، ووثقه العجلي، وأخرج له البخاري في خلق افعال العباد، وأثبت له في "التاريخ الكبير"، وابن أبي حاتم في "الجرح والتعديل" سماعًا من أبي هريرة، وهو مع ذلك من طبقات التابعين، فيحسن حديثه إن شاء الله -والله أعلم-، خصوصا في مثل هذه الآثار الموقوفة.

وعن أبي هلال محمد بن سليم الراسبي، عَنِ **الْحَسَنِ** قَالَ: قَالَ **أَبُوهُرَيْرَةَ**: "لَوْ حَدَّثْتُكُمْ كُلَّ مَا فِي كِيسِي هَذَا لَرَمَيْتُمُونِي بِالْبَعْرِ". قَالَ **الْحَسَنُ**: "صَدَقَ وَاللهِ! لَوْ حَدَّثَهُمْ أَنَّ بَيْتَ اللهِ يُهْدَمُ أَوْ يُحْرَقُ مَا صَدَّقَهُ النَّاسُ". **صحيح لغيره**: أخرج يعقوب بن سفيان في "المعرفة والتاريخ" (١/ ٤٨٦)، وابن سعد (٤/ ٣٣١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٢/ ٤١٥)؛ بسند لا بأس به، وحديث الباب معضِّد له.

والمعنىٰ أنَّه ﷺ- حفظ من النبي ﷺ أحاديث، منها ما شُرِعَ له أن يحدِّث به، ومنها ما لا يمكنه ولا يسعه أن يحدِّثَ به؛ لأنَّه لم يؤذن له في التحديث به؛ كما قال ﷺ **لمعاذ** ﷺ: «**لاَ تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا**» متفق عليه، وهذه الأحاديث في نشرها وإذاعتها ضرر، أو غرور، أو يترتَّب عليها مفاسد، وليس في بثها من فائدة تذكر، ولا مصلحة في تحديث كلِّ الناس بها، فلم يؤمر بتبليغها.

مشكل الحديث

أشكل علىٰ بعض الناس، كونه كتم شيئًا ممَّا حفظه، وكيفية الجمع بين هذا وما ورد من نصوص تمنع وتحذر من كتمان العلم؟!

وقد **أجاب أهل العلم** عن المقصود بهذا الحديث، وأجادوا وأفادوا، فقالوا : المراد بالوعائين نوعان من الأحاديث التي تلقَّاها عن النبي ﷺ:

فأمَّا **النوع الأول** منها: فهو ما يتعلق بأحاديث العقائد والأحكام والآداب والمواعظ والفضائل، والتفسير والمغازي، وبعض ما يتعلَّق بأشراط الساعة، وعامَّة السنَّة، وهذا هو الذي بلَّغه خشية إثم الكتمان.

وأما **النوع الآخر** فهو: ما يتعلَّق بالفتن والملاحم علىٰ التفصيل، مع ذكر الأسماء، وما سيكون بين الناس، وبعض أشراط الساعة، وما سيقع للناس، وأسماء ولاة السوء، ممَّا لا يتوقف عليه شيء من أصول الدين أو فروعه، وقد يكون نهي عن تبليغه لمفسدة ذلك، أو رأىٰ ﷺ أنَّه يحدث منه مفسدة علىٰ متعلِّميه، كما قال **ابن مسعود**: (وما أنت بمحدثٍ قومًا حديثًا لا يبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) فهذا الذي آثر ألا يذكر الكثير منه حتىٰ لا يكون فتنة للسامع، أو يسبب له التحديث به ضرراً.

ولعلَّ ممَّا يؤكِّد ذلك رواية ابن سعد في الطبقات والتي يقول فيها: "لو حدَّثتكم بكلِّ ما في جوفي لرميتموني بالبعر"، فقال **الحسن**: "صدق والله، لو أخبرنا أنَّ بيت الله يهدم ويحرق ما صدقه

الناس".

وهذا هو الذي ذكره أهل العلم في توجيه هذا الأثر، قال الإمام **ابن كثير** في "البداية والنهاية" (١١/ ٣٦٩): "وهذا الوعاء الذي كان لا يتظاهر به، هو الفتن والملاحم، وما وقع بين الناس من الحروب والقتال، وما سيقع، التي لو أخبر بها قبل كونها، لبادر كثير من الناس إلىٰ تكذيبه، وردَّوا ما أخبر به من الحق" أهـ.

وقال **علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حدِّثوا الناسَ بما يعرفون أتحبُّون أن يكذَّب الله والرسول". رواه البخاري.

وقال **القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "قَالَ عُلَمَاؤُنَا: وَهَذَا الَّذِي لَمْ يَبُثَّهُ أبوهُرَيْرَةَ وَخَافَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِيهِ الْفِتْنَةَ أَوِ الْقَتْلَ إِنَّمَا هُوَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ الْفِتَنِ وَالنَّصِّ عَلَىٰ أَعْيَانِ الْمُرْتَدِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَنَحْوَ هَذَا مِمَّا لَا يَتَعَلَّقُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ". التفسير (٢/ ١٨٦)، **قلت**: يعني: مثل ما حصل مع حذيفةَ كاتمِ سرِّ رسولِ اللهِ ﷺ، فقد كان يعلم أسماء المنافقين، ولم يخبر بهم.

وقال ابن بطَّال: "قال **المهلب، وأبوالزناد**: يعني أنَّها كانت أحاديث أشراط الساعة، وما عرَّف به ﷺ من فساد الدين، وتغيير الأحوال، والتضييع لحقوق الله -تعالىٰ-، كقوله ﷺ: **(يكون فساد هذا الدين علىٰ يدىٰ أغيلمة سفهاء من قريش)**، وكان **أبوهريرة** يقول: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم، فخشىٰ علىٰ نفسه، فلم يُصَرِّح". شرح البخاري (١/ ١٩٥) له.

وقال **الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ في " فتح الباري": "وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثَّه علىٰ الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وقد كان أبو هريرة يكنِّي عن بعضه ولا يصرح به، خوفا علىٰ نفسه منهم ، كقوله : " أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان "، يشير إلىٰ خلافة يزيد بن معاوية، لأنها كانت سنة ستين من الهجرة ، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة ..... ثمَّ قال: " ويؤيِّد ذلك أنَّ الأحاديث المكتومة، لو كانت من الأحكام الشرعية ما وسعه كتمانها، لما ذكره في الحديث الأول من الآية الدالَّة علىٰ ذمِّ من كتم العلم" الفتح (١/ ٢١٧).

شبهة وجوابها:

استدلَّ بعض أهل البدع بحديث أبي هريرة هذا، علىٰ أنَّ أبا هريرة كان عنده علم وكتمه،

وأنَّ هناك علماً يسمَّىٰ بعلم الظاهر، وعلمًا آخر يسمىٰ بعلم الباطن، وبعضهم يطلق عليه (العلم اللَّدنِّي، أو علم الحقيقة وعلم الشريعة)، قَالَ **ابْنُ الْمُنِيرِ**: "جَعَلَ الْبَاطِنِيَّةُ هَذَا الْحَدِيثَ ذَرِيعَةً إِلَىٰ تَصْحِيحِ بَاطِلِهِمْ حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ لِلشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَذَلِكَ الْبَاطِنُ إِنَّمَا حَاصِلُهُ الِانْحِلَالُ مِنَ الدِّين، قَالَ: وَإِنَّمَا أَرَادَ أَبُوهُرَيْرَةَ بِقَوْلِهِ: **"قُطِعَ"**، أَيْ: قَطَعَ أَهْلُ الْجَوْرِ رَأْسَهُ إِذَا سَمِعُوا عَيْبَهُ لِفِعْلِهِمْ وَتَضْلِيلَهُ لِسَعْيِهِمْ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ: أَنَّ الْأَحَادِيثَ الْمَكْتُوبَةَ لَوْ كَانَتْ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مَا وَسِعَهُ كِتْمَانُهَا؛ لِمَا ذَكَرَهُ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ مِنَ الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَمِّ مَنْ كَتَمَ الْعِلْمَ". الفتح (١/ ٢١٦-٢١٧).

وقال بعضهم: "هذا الحديث هو قطب مدار استدلالات المتصوفة في الطامات والشطحات؛ يقولون: ها هو ذا أبوهريرة! عريف أهل الصفة، الذين هم شيوخنا في الطريقة - زعموا- عالمٌ بذلك قائل به. قالوا: والمراد بالأول: علم الأحكام والأخلاق، وبالثاني: علم الأسرار المصون عن الأغيار المختصُّ بالعلماء بالله -سبحانه وتعالىٰ- من أهل العرفان، وقال قائلهم:

يا ربِّ جوهر علم لو أبوحُ به ... لقيل لي أنت ممَّن يعبد الوثنا
ولاستحلَّ رجالٌ مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا"

الكواكب الدراري (٢/ ١٣٧-١٣٨).

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، قَالَ: "حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ جِرَابَيْنِ...". وَلَكِنْ لَيْسَ فِي هَذَا مِنْ الْبَاطِنِ الَّذِي يُخَالِفُ الظَّاهِرَ شَيْءٌ؛ بَلْ وَلَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي ذَلِكَ الْجِرَابِ الْخَبَرُ عَمَّا سَيَكُونُ مِنْ الْمَلَاحِمِ وَالْفِتَنِ، فَالْمَلَاحِمُ: الْحُرُوبُ الَّتِي بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ، وَالْفِتَنُ مَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ". الفتاوىٰ (١٣/ ٢٥٥).

شبهة أخرىٰ:

وقد ذهبت الجهمية إلىٰ أنَّ المقصود بالجراب الآخر هو: أحاديث الصفات ونحوها.

قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "وَكَذَلِكَ حَدِيثُ جِرَابِ أَبِي هُرَيْرَةَ لَمَّا قَالَ: "حَفِظْت عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ جِرَابَيْنِ: أَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْته فِيكُمْ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْته لَقَطَعْتُمْ هَذَا الْبُلْعُومَ"، فَإِنَّ

هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ؛ لَكِنَّهُ مُجْمَلٌ. وَقَدْ جَاءَ مُفَسَّرًا: أَنَّ الْجِرَابَ الْآخَرَ كَانَ فِيهِ حَدِيثُ الْمَلَاحِمِ وَالْفِتَنِ.

وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ فِيهِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالصِّفَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ النَّفْيِ (يقصد: نفي هذه الصفات)؛ بَلْ الثَّابِتُ الْمَحْفُوظُ مِنْ أَحَادِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ كَحَدِيثِ "إتْيَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" وَحَدِيثِ "النُّزُولِ" وَ "الضَّحِكِ" وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كُلُّهَا عَلَىٰ الْإِثْبَاتِ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ حَرْفٌ وَاحِدٌ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْنُّفَاةِ". الفتاوىٰ (٥/ ١٧٠).

وكذلك ينبغي لكلِّ من أمر بمعروف إذا خاف علىٰ نفسه في التصريح أن يُعَرِّض.

ولو كانت الأحاديث التي لم يحدث بها من الحلال والحرام، أو الصفات، والتوحيد، والعقيدة التي هي أولىٰ وأعظم من الأحكام ما وَسِعَهُ تركها، ولقد ثبت أنَّه حدَّث بكثير من أحاديث الصفات، ونحوها من العقائد، ولأنَّه قال: لولا آيتان في كتاب الله ما حدثتكم، ثمَّ يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩].

٤٤- بَابُ الإِنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ

قوله: **(بَابُ الإِنْصَاتِ لِلْعُلَمَاءِ)**، أي: هذا الباب في بيان أهمية الإنصاتِ للعلماء لا سيَّما علماء الحديث والسنَّة، **واللام** في كلمة **(للعلماء)** بمعنىٰ: **"لأجل"**، أي: **لأجل الاهتمام والتعظيم لما يقولونه من علم الكتاب والسنَّة**، فاللام فيها للتعليل وبيان الغاية. **والإنصاتُ**: السكوتُ وحسنُ الاستماعِ للحديث.

١٢١- حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ (ابن المنهال الأنماطي)، قَالَ: حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ مُدْرِكٍ (النخعي الكوفي)، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرٍو (ابنِ جرير بنِ عبدالله البجلي)، **عَنْ جَرِيرٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- **أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ **قَالَ لَهُ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ»، فَقَالَ: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»**.

أطرافه في: (المغازي٤٤٠٥، الديات٦٨٦٩، الفتن٧٠٨٠).

وأخرجه مسلم (٦٥)، والنسائي (٤١٣١، ٤١٣٢)، وابن ماجه (٣٩٤٢).

الشرح

قوله: **(اسْتَنْصِتِ النَّاسَ)**، يعني: اطلب منهم أن يسكتوا ويستمعوا لما أقوله لهم.

وقد كان من هدي الصحابة أن ينصتوا للنبي ﷺ؛ فَعَنْ **أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ كَأَنَّمَا عَلَىٰ رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ... **صحيح**: أخرجه أبوداود (٣٨٥٥).

وعَنْ **عَبْدِاللهِ**، قَالَ: "هَبَطُوا (أي الجن) عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِبَطْنِ نَخْلَةَ، فَلَمَّا سَمِعُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا. قَالُوا: صَهٍ". **حسن**: أخرجه الحاكم (٣٧٠١) وغيره، واللفظ له، وهو في صحيح دلائل النبوة (٤٩).

قلت: وصهٍ -بالتنوين- اسم فعل يدلُّ علىٰ الأمر بالسكوت عن كلِّ شيء، والله أعلم.

فالاستماع للحديث والإنصات له كالإنصات للقرآن؛ قال -تعالىٰ-: ﴿**فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا**﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقال -تعالىٰ-: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال -سبحانه-: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ**﴾ [الحج:

٧٣]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَىٰ الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، قال **ابن القيم** في قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]: "فَإِذا حصل الْمُؤثر وَهُوَ الْقُرْآن، وَالْمحلُّ الْقَابِل وَهُوَ الْقلب الْحَيّ، وَوجد الشَّرْط وَهُوَ الإصغاء، وانتفىٰ الْمَانِع وَهُوَ اشْتِغَال الْقلب وذهوله عَن معنىٰ الْخطاب وانصرافه عَنهُ إِلَىٰ شَيْء آخر- حصل الْأَثَرُ وَهُوَ الِانْتِفَاع والتذكّر". الفوائد (ص ٣).

وقال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "قال **أبوعثمان المغربي**: "قُلُوب أهل الْحق قُلُوب حَاضِرَة، وأسماعهم أسماع مَفْتُوحَة". ينظر: طبقات الصوفية (ص ٣٦١) للسلمي، والرسالة القشيرية (١/ ٥١٢)]، وَهَذَا كَلَام حسن؛ قَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] قَالُوا: وَهُوَ حَاضر الْقلب لَيْسَ بغائبه. وَوصف الله الْكفَّار بِأَنَّهُم صم بكم عمي لَا يسمعُونَ وَلَا يعْقلُونَ، وَأَنَّ فِي آذانهم وقرا، وَأَنَّه ختم علىٰ قُلُوبهم وعَلىٰ سمعهم". الاستقامة (١/ ٤٢٠).

وقال -تعالىٰ- مخبرًا عن أصحاب النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، والله يعطي العبدَ المعرفة لهدايته إلا أنَّه لا يحصل ذلك مع فقد العقل.

والمستمع لما أنزل الله من الكتاب والسنَّة ينتفع بذلك انتفاعًا عظيمًا؛ قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "فَالَّذِي يَسْمَعُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ سَمْعًا يَعْقِلُ بِهِ مَا قَالُوهُ؛ يَنْجُو، وَإِلَّا فَالسَّمْعُ بِلَا عَقْلٍ لَا يَنْفَعُهُ؛ كَمَا قَالَ -سبحانه-: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[محمد: ١٩]، وَقَالَ -جل وعلا-: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[يونس: ٤٢]". الفتاوىٰ (١٦/ ١٨١).

وفي حديث الاستماع للخطيب في الجمعة: (**فَدَنَا وَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ**). صحيح: أخرجه ابن حبان (٢٧٧٠) وغيره، وينظر: صحيح أبي داود (٣٧٣). وحديث: (**اسمعوا، هل سمعتم؟**). **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٢٥٩) والنسائي (٤٢٠٨).

وقال **عروة بن مسعود** -وقد جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه-، قال: فَوَاللهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا

أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَىٰ وَضُوئِهِ، **وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ"**. أخرجه البخاري (٢٧٣١).

وَعَنْ **مُحَمَّدِ بْنِ النَّضْرِ الْحَارِثِيِّ**، قَالَ: "كَانَ يُقَالُ: أَوَّلُ الْعِلْمِ الْإِنْصَاتُ لَهُ، ثُمَّ الِاسْتِمَاعُ لَهُ، ثُمَّ حِفْظُهُ، ثُمَّ الْعَمَلُ بِهِ، ثُمَّ نَشْرُهُ"، أي: بثُّه ونشره. الزهد لأحمد بن حنبل (٢١٥٠).

وَقَالَ **ابن عيينة**: "أَوَّلُ الْعِلْمِ الِاسْتِمَاعُ، ثُمَّ الْإِنْصَاتُ، ثُمَّ الْحِفْظُ، ثُمَّ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّشْرُ"[(٨٣٨)]. صحيح.

وَعَنِ **الْحَسَنِ** قَالَ: "اغْدُ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا، أَوْ مُنْصِتًا، أَوْ مُحِبًّا لِذَلِكَ، وَلَا تَكُنِ الْخَامِسَ فَتَهْلِكَ". الزهد لوكيع (٥١٢). الزهد لوكيع (٥١٢).

وقال **الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَمَّا ذَكَرَ -تَعَالَىٰ- أَنَّ الْقُرْآنَ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًىٰ وَرَحْمَةٌ، أَمَرَ -تَعَالَىٰ- بِالْإِنْصَاتِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ إِعْظَامًا لَهُ وَاحْتِرَامًا، لَا كَمَا كَانَ يَعْتَمِدُهُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦]". التفسير (٣/ ٤٨٥ ط: العلمية)، فمن انشغل وأشغل غيره عن الاستماع للقرءان؛ فله نصيب من هذه الآية وتشبَّهَ بالكفار.

وقد ذكر **ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ مسألة مهمة: حيث قال: **"وللعلم ستُّ مراتب: أولها**: حسن السؤال، **الثانية: حسن الإنصات والاستماع. الثالثة**: حسن الفهم، **الرابعة**: الحفظ، **الخامسة**: التعليم، **السادسة**: وهي ثمرته، وهي العمل به، ومراعاة حدوده.

فمن الناس من يحرمه (أي العلم) لعدم حسن سؤاله، إمَّا لأنَّه لا يسأل بحال، أو يسأل عن شيء وغيره أهمُّ إليه منه؛ كمن يسأل عن فضوله التي لا يضرُّ جهلُه بها، ويدع ما لا غنىٰ له عن معرفته، وهذا حال كثير من الجهَّال المتعلِّمين، **ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته**، فيكون الكلام والمماراة آثرَ عنده وأحبَّ إليه من الإنصات، **وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيراً**، ولو كان حَسَنَ الفهم". مفتاح دار السعادة (١/ ٢٠٢).

---

(٨٣٨) **صحيح**: أخرجه أحمد في الزهد (ص ٣٤)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم (٧٦١)، والدارمي (٣٤١)، وأبونعيم في الحلية (٧/ ٢٧٤)..

قَالَ **أَبُوعُمَر ابن عبدالبر**: "وَرُوِّينَا مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، أَنَّهُ قَالَ: "لَوْ رَفَقْتُ بِابْنِ عَبَّاسٍ لَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهُ عِلْمًا كَثِيرًا". قَالَ **الشَّعْبِيُّ**: "كَانَ أَبُوسَلَمَةَ يُمَارِي ابْنَ عَبَّاسٍ؛ فَحُرِمَ بِذَلِكَ عِلْمًا كَثِيرًا". جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٢٠).

هذا في احترام العلماء بعامة، فكيف بنبينا ﷺ خاصة، فإنَّ حقه أعظم حقوق العباد محبة وإجلالًا وتعظيمًا واهتمامًا، وحديثه آكد في الإنصات، والمحروم من حُرِم الإنصات والاستماع لكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، "فإنَّه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أنَّ الإنصات في الظاهر بترك التحدُّث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأمَّا الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبَّر ما يستمع، فإنَّ من لازم علىٰ هذين الأمرين حين يتلىٰ كتاب الله، فإنَّه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجدِّدًا، وهدىٰ متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتَّب الله حصول الرحمة عليهما، فدلَّ ذلك علىٰ أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنَّه محروم الحظِّ من الرحمة، قد فاته خير كثير". تفسير العلامة السعدي ص(٣١٤).

فيجب الإنصات عند قراءة حديث رسول الله ﷺ مثل ما يجب له في حياته ﷺ، فكان الصحابة يتأدَّبون معه في حياته، وبعد مماته عند سماع حديثه، بل وكانوا يلتزمون خفض الصوت في مسجده، فعَنِ **ابْنِ عُمَرَ** رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعَ **عُمَرُ** رضي الله عنه- رَجُلًا رَفَعَ صَوْتَهُ، فَقَالَ: "**مِمَّنْ أَنْتَ؟**" قَالَ: مِنْ ثَقِيفٍ، قَالَ: "**مِنْ أَيِّ الْأَرْضِ؟**"، قَالَ: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: "أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ بَلَدِنَا هَذَا لَأَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا، **إِنَّ مَسْجِدَنَا هَذَا لَا يُرْفَعُ فِيهِ الصَّوْتُ**". صحيح: أخرجه عبدالرزاق (١٧١١، ١٧١٢). فيجب الإنصات للعلماء في بثِّهم السنة، لأنَّهم الذين يحيون سنَّته ويقومون بشريعته.

وهذا كلُّه من توقير وتعزير وإجلال النبي ﷺ والشرع المطَّهر، قال **الآجري** رحمه الله: "اعْلَمُوا يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ يَا مُؤْمِنِينَ أَنَّ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَوْجَبَ عَلَىٰ جَمِيعِ الْخَلْقِ أَنْ يُعَظِّمُوا قَدْرَ نَبِيِّهِ ﷺ بِالتَّوْقِيرِ لَهُ وَالتَّعْظِيمِ، وَلَا يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ فَوْقَ صَوْتِهِ، وَلَا يَجْهَرُوا عَلَيْهِ فِي الْمُخَاطَبَةِ، كَجَهْرِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ؛ بَلْ يَخْفِضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ صَوْتِهِ كُلُّ ذَلِكَ إِجْلَالًا لَهُ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ مَنْ خَالَفَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ التَّعْظِيمِ لِرَسُولِهِ: أَنَّىٰ أُحْبِطُ عَمَلَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؛ فَقَالَ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ**

﴿أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، ثُمَّ وَعَدَ -جَلَّ وَعَزَّ- مَنْ قَبِلَ مِنَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مَا أَمَرَهُ بِهِ فِي رَسُولِهِ: مِنْ خَفْضِ الصَّوْتِ وَالْوَقَارِ لَهُ: الْمَغْفِرَةَ مَعَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ، فَقَالَ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]" الشريعة (٣/ ١٣٩٧-١٣٩٨).

وكان **عبدالرحمن بن مهدي** رَحِمَهُ اللَّهُ، إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت وقال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ، يرىٰ أنه يجب الإنصات عند قراءة حديثه ﷺ كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ الشفا لعياض (٢/ ٤٣).

٤٥ - بَابُ مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ العِلْمَ إِلَىٰ اللهِ

١٢٢ - حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ مُحَمَّدٍ(ابن عبدالله بن جعفر الجعفي، أبوجعفر البخاري، يلقب بالمسنَدي)، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ (ابن عيينة)، ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرٌو (ابن دينار المكي، أبومحمد الأثرم الجمحي مولاهم)، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا البَكَالِيَّ (تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيَّما بالإسرائيليات، وكان ابن امرأة كعب الأحبار) يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَىٰ لَيْسَ بِمُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَىٰ آخَرُ؟ فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللهِ (أي: أخطأ) حَدَّثَنَا أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رضي الله عنه - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «قَامَ مُوسَىٰ النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ (ملتقىٰ البحرين)، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.

قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ (وعاء يسع خمسة عشر صاعًا)، فَإِذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ، فَانْطَلَقَ وَانْطَلَقَ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلاَ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّىٰ كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَنَامَا، فَانْسَلَّ الحُوتُ (خرج برفق وخفَّة) مِنَ المِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي البَحْرِ سَرَبًا (مسلكًا يسلك فيه)، وَكَانَ لِمُوسَىٰ وَفَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (تعبًا)﴾ [الكهف: ٦٢]، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَىٰ مَسًّا (أثرًا وفي رواية: شيئًا) مِنَ النَّصَبِ حَتَّىٰ جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣].

قَالَ مُوسَىٰ: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجًّىٰ بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّىٰ بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَىٰ، فَقَالَ الخَضِرُ: وَأَنَّىٰ بِأَرْضِكَ السَّلاَمُ (كيف تسلِّم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام)؟ فَقَالَ: أَنَا مُوسَىٰ، فَقَالَ: مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَىٰ إِنِّي عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لاَ تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَّمَكَهُ لاَ

أَعْلَمُهُ، قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا، وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ (أجر)، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَىٰ حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي البَحْرِ، فَقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَىٰ مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا العُصْفُورِ فِي البَحْرِ، فَعَمَدَ (قصد) الخَضِرُ إِلَىٰ لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ، فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَىٰ: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَىٰ سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا -فَكَانَتِ الأُولَىٰ (أي: المسألة الأولىٰ) مِنْ مُوسَىٰ نِسْيَانًا -، فَانْطَلَقَا، فَإِذَا غُلاَمٌ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَىٰ: أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً (طاهرة لم تذنب) بِغَيْرِ نَفْسٍ(بغير حق)؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟

- قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذَا أَوْكَدُ (أي: قوله)- فَانْطَلَقَا، حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا (طلبًا طعامًا)، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ (يكاد يسقط) فَأَقَامَهُ، قَالَ الخَضِرُ: بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَىٰ: لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ".

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَىٰ، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّىٰ يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا (من الأعاجيب والغرائب)».

تقدَّم في: (العلم ٧٤).

وأخرجه مسلم (٢٣٨٠)، والترمذي (٣١٤٩) والنسائي في الكبرىٰ (١١٣٠٧، ١١٣٠٨، ١١٣٠٩).

الشرح

سبق الحديث بطوله، والكلام عليه وفوائده، فلا حاجة لإعادة الكلام عليه هنا.

قوله: (قَامَ مُوسَىٰ النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَسُئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟

فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدَّ العِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ): فيه أنَّ علىٰ العالم أن يتواضع، ولا يرفع نفسه، ولا يرىٰ نفسه شيئًا، بل يعتقد أنَّ الأمر كما قال -تعالىٰ-: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٧٦]، وكان **عبدالله** (يعني: ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- متكئا فجلس فقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لَا يَعْلَمُ: اللهُ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ قال لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ [ص: ٨٦]". متفق عليه. وقال **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "إذا سئل أحدكم عمَّا لا يدري فليقل: لا أعلم فإنَّه ثلث العلم". ذمّ الكلام وأهله (٥٠٦)، وقال **الشعبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: "الملائكةُ المقربون لم تستحي حين قالت: ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ [البقرة: ٣٢]". الفقيه والمتفقه (٢/ ٣٧٠)، الدارمي (١٨٨)، وقال -أيضًا-: "لا أدري نصف العلم". ذمّ الكلام وأهله، وقد أُمِر النبي ﷺ أن يقول: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ**﴾ [الأحقاف: ٩]، وأن يقول: ﴿**وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، وقال ﷺ: (**ما المسؤول بأعلم بها من السائل**). متفق عليه، وَعَنِ **ابْنِ سِيرِينَ** قَالَ: لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ نَزَلَتْ بِهِ قَضِيَّةٌ فَلَمْ يَجِدْ فِي كِتَابِ اللهِ مِنْهَا أَصْلًا، وَلَا فِي السُّنَّةِ أَثَرًا فَاجْتَهَدَ رَأْيَهُ، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا رَأْيِي فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ اللهِ وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ". **صحيح**: جامع بيان العلم (١٥٥٥)، الطبقات لابن سعد (٣/ ١٧٧)، وَعَنْ **أَبِي الذَّيَّالِ** قَالَ: "تَعَلَّمْ لَا أَدْرِي؛ فَإِنَّكَ إِنْ قُلْتَ: لَا أَدْرِي عَلَّمُوكَ حَتَّىٰ تَدْرِيَ، وَإِنْ قُلْتَ: أَدْرِي سَأَلُوكَ حَتَّىٰ لَا تَدْرِيَ". جامع بيان العلم (١٥٨٩)، وعَنْ **عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ** قَالَ: "صَحِبْتُ **ابْنَ عُمَرَ** أَرْبَعَةً وَثَلَاثِينَ شَهْرًا، فَكَثِيرًا مَا كَانَ يُسْأَلُ فَيَقُولُ: "لَا أَدْرِي". جامع بيان العلم (١٥٨٥). **وانظر**: الدارمي (١٨٥، ط: المغني)، الزهد لابن المبارك (٥٢، ط: العلمية)، وَكَانَ **سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ** لَا يَكَادُ يُفْتِي فُتْيَا وَلَا يَقُولُ شَيْئًا إِلَّا قَالَ: "اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي وَسَلِّمْ مِنِّي". الآداب الشرعية (٢/ ٦٢). وَسُئِلَ **الشَّافِعِيُّ** عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَسَكَتَ، فَقِيلَ: أَلَا تُجِيبُ؟ فَقَالَ: "حَتَّىٰ أَدْرِيَ الْفَضْلُ فِي سُكُوتِي أَوْ فِي الْجَوَابِ"، وَقَالَ **ابْنُ أَبِي لَيْلَىٰ**: "أَدْرَكْتُ مِائَةً وَعِشْرِينَ مِنْ الْأَنْصَارِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُسْأَلُ أَحَدُهُمْ عَنْ الْمَسْأَلَةِ فَيَرُدُّهَا هَذَا إِلَىٰ هَذَا وَهَذَا إِلَىٰ هَذَا حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ الْأَوَّلِ، وَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ أَوْ يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ. إعلام الموقعين (٤/ ١٦٨)، وقال محمد بن رمح عددت **لمالك** رَحِمَهُ اللَّهُ مائة مرة

قال لا أدري في مجلس واحد. ذمّ الكلام وأهله (٣٤٤)، عن زيد بن الحباب قال: رأيت **سفيان الثوري** إذا سئل عن المسائل قال: لا أدري حتىٰ يظنَّ من رآه ولا يعرفه أنَّه لا يعلم شيئًا. ذمّ الكلام وأهله (٣٤٣).

وعن **الشافعي** أنَّه قال: "ما رأيت أحدًا من الناس فيه من آلة العلم ما في **ابن عيينة** وما رأيتُ أحدًا أحسن لتفسير الحديث منه، وما رأيتُ أحدًا أكفَّ عن الفتيا منه". ذمّ الكلام وأهله (٥١٠).

وعن **ابن عجلان عن أبيه** قال: "إذا أغفل العالم: لا أدري أصيبت مقاتله". ذمّ الكلام وأهله (٥٠٨).

علىٰ أنَّه لا بأس أن يتكلَّم ببعض الكلام الذي يكون في نفسه حقٌّ، ويدلُّ علىٰ تميُّزه بشرط أن يكون لمصلحة تقتضي ذلك، مثل أن يستفاد منه، أو يكون دفاعًا عن نفسه إذا انتقص حقُّه كما فعل سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وغير ذلك، فقد ورد عن **ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أنَّه قال: "وَالَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ ما مِن كِتَابِ اللهِ سُورَةٌ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ نَزَلَتْ، وَما مِن آيَةٍ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيما أُنْزِلَتْ، ولو أَعْلَمُ أَحَدًا هو أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي، تَبْلُغُهُ الإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ". متفق عليه. قال **الحافظ**: "**فيه** جواز ذكر الإنسان نفسه بما فيه من الفضيلة بقدر الحاجة، ويحمل ما ورد من ذمّ ذلك علىٰ من وقع ذلك منه فخرًا أو إعجابًا" الفتح (٩/ ٥١)، وما وقع لموسىٰ عليه السلام، من ذلك، فإنَّما هذا من باب التأديب من الله له.

وقد قيل: يسألونك عن العلم كلِّهِ؟ قل في العالَم كلِّه، فلم يحط أحد علمًا بكلِّ شيء، لا بالكتاب ولا بالسنَّة، وبل ولا باللغة غير نبي، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، انظر الرسالة ص (٤٢) ت- أحمد شاكر.

وفيه هذا ردٌّ علىٰ السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ الذي قال: "ولا أعلم أحداً أعلم مني بالحديث ولا باللغة ولا ... إلا أن يكون القطب أو الغوث أو وليًا لله فهؤلاء لا أقصدهم بكلامي.

بل لو اجتمع علماء الأرض في صعيد واحد ونفخت فيهم نفخة واحدة لأصبحوا هباء منثوراً !!...". في كتابه: الردّ علىٰ من أخلد إلىٰ الأرض وزعم أنَّ الاجتهاد ليس في كل عصر فرض ص(١١٦).

وادَّعىٰ أنَّه المجدد لقرنه، ولا شكَّ أن هذا الحديث يردُّ عليه، وهذا الكلام خطأ محض.

من فوائد قصة موسىٰ والخضر:

في هذا الحديث أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شريعة كلِّ الأنبياء. **وفيه** الحكم بالظاهر، **وفيه** عدم مراجعة العالم والوالد والزوج وغيرهم فوق ثلاث. **وفيه** أنَّ من بركة الصلاح في الآباء أن يحفظ الله لهم الأبناء، **وفيه** أنَّه تُحتمل المشقَّة لأجل العلم ونحوه. **وفيه** أنَّ من آداب المتعلِّم ألا يتعجَّل في الردِّ؛ حتىٰ يتبيَّن الأمر. **وفيه** أنّ علوم الغيب لا تثبت إلا بالخبر الصادق المعصوم. **وفيه** إكرام أهل العلم والفضل.

وفيه ضرب الأمثال بالمحسوسات لتقريب العلم؛ كما وقع في حادثة العصفور. **وفيه** أنَّ الابتداء بالسلام شريعة الأنبياء. **وفيه** التعريف بالنفس؛ ليُنزله الناس منزله. **وفيه** بيان الغاية من المجيء والسفر. **وفيه** أنَّ البداءة بالأهمِّ فالأهمِّ؛ **وفيه** أنَّ المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه كان أولىٰ، لأجل الاستعداد له، **وفيه** إظهار شرف الرحلة في العلم، كما قال موسىٰ: ﴿**فَلَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا**﴾ [الكهف: ٦٠]، **وفيه** تعلُّم الفاضل من المفضول. **وفيه** أنّ العلم المستقىٰ من الوحي هو العلم النافع؛ لقوله: ﴿**أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾ [الكهف: ٦٦]، وفيه أنَّ الله تعالىٰ هو المعلِّم ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥].

وفيه أهمية الصبر علىٰ التعلُّم، **وفيه** أنّ من ليس له قوة الصبر علىٰ صحبة العالم والعلم، وحسن الثبات علىٰ ذلك، أنَّه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم. **وفيه** أنّ إحاطة الإنسان علمًا وخبرة بما يطلب ممَّا يعين علىٰ الصبر، لقوله: ﴿**وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ [الكهف: ٦٨].

وفيه أنّ المعلِّم إذا رأىٰ المصلحة منع المتعلِّم من أن يسأل عن بعض الأشياء، حتىٰ يكون المعلِّم هو الذي يوقفه عليها؛ **وفيه** أنّ الناسي غيرُ مؤاخذ بنسيانه لا في حق الله -تعالىٰ-، ولا في حقوق العباد؛ لقوله: ﴿**لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ**﴾ [الكهف: ٧٣]. فالأولىٰ كانت نسياناً من موسىٰ، **وفيه** أنَّه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم العفو منها، **وفيه** إشارة إلىٰ **القاعدة الكبيرة**، وهي أنَّ "عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان علىٰ وجه المصلحة وإزالة المفسدة؛ أنَّه يجوز ولو بلا إذن؛ حتىٰ ولو ترتَّب علىٰ عمله إتلاف بعض المال"؛ كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غصب الملك الظالم.

وفيه جواز العمل في البحر، كما يجوز في البر لقوله -تعالىٰ-: ﴿**يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ**﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم ينكر عليهم عملهم. **وفيه** أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة؛ لأنَّ الله أخبر أنَّ هؤلاء المساكين لهم سفينة. **وفيه** أنَّ القتل من أكبر الذنوب؛ لقوله -تعالىٰ- في قتل الغلام ﴿**لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**﴾ [الكهف: ٧٤]. **وفيه** أنَّ القتل قصاصًا غير منكر؛ لقوله ﴿**بِغَيْرِ نَفْسٍ**﴾ [الكهف: ٧٤]. **وفيه** خدمة العلماء والصالحين، أو من يتعلَّق بهم؛ وهم مقدَّمون علىٰ غيرهم؛ لأنَّه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما بأنَّ أباهما صالح.

وفيه أنَّه ينبغي للصاحب ألَّا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتىٰ يعتبه، ويعذره كما فعل الخضر مع موسىٰ -عليهما السلام-. **وفيه** موافقة الصاحب لصاحبه في غير محظور، **وفيه** أنَّ هذه القضايا التي أجراها الخضر -عليه السلام- هي قدر محض أجراها الله وجعلها علىٰ يديه؛ ليستدلَّ العباد بذلك علىٰ ألطافه في أقضيته، **وفيه** أنَّ الله يقدِّر علىٰ العبد أمورًا يكرهها، ويكون فيها صلاحه

وفيه نصيحة للآباء-عمومًا، وللأمهات -خصوصًا- من فتنة الأولاد إذا فَسَدت أخلاقهم -من قوله: "فخشينا أن يحملهما حبُّه علىٰ أن يُتابِعَانِه علىٰ دينه"-. **وفيه** أنَّ العبد لا يجدُ النصَب والتعَب إلاَّ بعد الانتهاء من الطاعة -غالبًا-؛ كما في الحجِّ ونحوه. **وفيه** أنَّ من أحسن طرق التفسير -بعد تفسير القرآن بالقرآن-: شرح القرآن وبيانه بالسنَّة. **وفيه** أنَّ قصص القرآن فيها تثبيتٌ للفؤاد.

٤٦- بَابُ مَنْ سَأَلَ، وَهُوَ قَائِمٌ، عَالِمًا جَالِسًا

قوله: **(بَابُ مَنْ سَأَلَ، وَهُوَ قَائِمٌ، عَالِمًا جَالِسًا)**، والمراد أنَّ العالم الجالس إذا سأله شخص قائم، لا يعدُّ من باب "من أحبَّ أن يتمثَّل له الرجال قياما"، بل هذا جائز بشرط الأمن من الإعجاب. قاله **ابن المنير**، الفتح (١/ ٢٢٢).

١٢٣ - حَدَّثَنَا عُثْمَانُ (ابن محمد بن إبراهيم أبوالحسن، ثقة حافظ شهير، خ م د س ق، ت/ ٢٣٩ هـ)، قَالَ: أَخْبَرَنَا جَرِيرٌ (ابن عبدالحميد الضبي)، عَنْ مَنْصُورٍ (ابن المعتمر بن عبدالله بن ربيعة السلمي)، عَنْ أَبِي وَائِلٍ (شقيق بن سلمة)، **عَنْ أَبِي مُوسَىٰ** (عبدالله بن قيس الأشعري)رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، **قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا القِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا** (انتقاما حالة الغضب)، **وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً** (محاماة عن العشيرة)، **فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا، فَقَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ** (الإسلام وكلمة التوحيد) **هِيَ العُلْيَا** (العالية فوق كلِّ ملَّة ومذهب)، **فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-»**.

أطرافه في: (الجهاد٢٨١٠، فرض الخمس٣١٢٦، التوحيد٧٤٥٨).

وأخرجه مسلم (١٩٠٤)، وأبوداود (٢٥١٧، ٢٥١٨)، والترمذي (٩١٦)، والنسائي (٣١٣٦)، وابن ماجه (٢٧٨٣).

الشرح

قوله: **(فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ، قَالَ: وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا)**، هذا موضع الشاهد من هذا الحديث، وسيأتي شرحه مفصَّلًا في كتاب الجهاد -إن شاء الله-.

فيه أنَّه لا بأس بقيام طالبِ الحاجةِ عند أمنِ الكِبْرِ، فنبَّه بهذا الحديث علىٰ أنَّ مثل هذه الهيئة مع سلامة النفس جائزة غير ممنوعة. ويؤيِّد ذلك حديث الخثعمية؛ فعَنْ **عبداللهِ بْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: **كَانَ الفَضْلُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ**، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ، فَجَعَلَ الفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الفَضْلِ إِلَىٰ الشِّقِّ الآخَرِ، فَقَالَتْ: إِنَّ فَرِيضَةَ اللهِ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لاَ يَثْبُتُ عَلَىٰ الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ. متفق عليه.

فكانت المرأة واقفة، ورسول الله ﷺ والفضل علىٰ الدابة جالسين.

وفيه استحباب إقبال المسئول علىٰ السائل مع التواضع له. **وفيه** جواز سؤال العالم وهو واقف، كما ترجم، لعذرٍ، أو لشغلٍ، ولا يكون ذلك تركًا لتوقير العالم، ألا ترىٰ أنَّه ﷺ لم ينكر ذلك عليه، ولا أمره بالجلوس، مع أنَّه ثبت أنَّ السائل إذا رأىٰ العالمَ جالسًا له أن يجلسَ إليه ليسأله كما في حديث جبريل.

وفيه ما أعطي ﷺ من الفصاحة وجوامع الكلم، فإنَّه أجاب السائل بجواب جامع لمعنىٰ سؤاله لا بلفظه؛ من أجل أنَّ الغضب والحمية قد تكونان لله تعالىٰ، وقد تكونان لعرض الدنيا، فأجابه بالمعنىٰ مختصرًا، إذ لو ذهب يقيم وجوه الغضب لطال، ولربَّما أُلبس علىٰ السائل، انظر: التوضيح شرح الجامع الصحيح (٣/ ٦٣٣).

٤٧- بَابُ السُّؤَالِ وَالفُتْيَا عِنْدَ رَمْيِ الجِمَارِ

قوله: (**بَابُ السُّؤَالِ وَالفُتْيَا عِنْدَ رَمْيِ الجِمَارِ**)، مراده أنَّ اشتغال العالم بالطاعة لا يمنع من سؤاله عن العلم ما لم يكن مستغرقًا فيها، بل إنَّ هذا من التعاون علىٰ البرِّ والتقوىٰ، وهو من الطاعات والقربات، وقد تقدَّم هذا الحديث في باب "الفتيا علىٰ الدابة" وأُخِّرَ الكلام علىٰ المتن إلىٰ الحج، انظر الفتح (١/ ٢٢٣).

١٢٤- حَدَّثَنَا أبونُعَيْمٍ (الفضل بن دكين)، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ (الماجشون المدنىٰ، أبوعبدالله الفقيه)، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عِيسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ (ابن عبيد الله القرشىٰ التيمىٰ)، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الجَمْرَةِ (جمرة العقبة) وَهُوَ يُسْأَلُ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَحَرْتُ (ذبحت) قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ قَالَ: «**ارْمِ وَلاَ حَرَجَ**»، قَالَ آخَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَنْحَرَ؟ قَالَ: «**انْحَرْ وَلاَ حَرَجَ** (لا إثم عليك ولا فدية)». فَمَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلاَ أُخِّرَ إِلَّا قَالَ: «**افْعَلْ وَلاَ حَرَجَ**».

تقدَّم في: (العلم٨٣).

وأخرجه مسلم (١٣٠٦) وأبوداود (٢٠١٤) والنسائي في الكبرىٰ (٤١٠٦ ، ٤١٠٩ ، ٥٨٧٩) وابن ماجه (٣٠٥١).

الشرح

قوله: (رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ عِنْدَ الجَمْرَةِ وَهُوَ يُسْأَلُ...)، يستفاد منه دفع توهُّم من يظنُّ أنَّ في الاشتغال بالسؤال والجواب عند الجمرة تضييقا علىٰ الرامين.

ومعلوم أنَّ السؤال عن العلم لا يتقيَّد بيوم دون يوم، ولا حال دون حال، بل يجب علىٰ العالم أن يجيب السائل ولا يكتم العلم، إلا أن يكون هناك مانع شرعي يمنعه من ذلك.

وفي بعض ألفاظه: (**وَقَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ**): وهي بمعنىٰ جلس عليها، و**الدابة** تطلق علىٰ المركوب من ناقةٍ وفرسٍ وبغلٍ وحمارٍ، فإذا ثبت هذا الحكم في الراحلة كان الحُكم في البقية كذلك.

ودلَّ الحديث علىٰ مشروعية جلوس العالِم للناس في مثل هذه المجامع؛ كي يعلِّمهم دينهم ومناسكهم، ويجيب عن أسئلتهم، ويصحِّح عبادتهم(٨٣٩).

وفيه إشارة إلىٰ التخفيف علىٰ الناس في الحجِّ ما وُجد إلىٰ ذلك من سبيل، وليس معنىٰ هذا تتبُّع الرخص، كما كتب بعضهم كتاباً أسماه «لا حرج»، فلم يترك في المناسك قولاً يبيح شيئاً، أو رخصة في مذهب من المذاهب إلا ذكرها للناس، وأسقط بذلك كثيراً من الواجبات، وأباح المحرمات، ولكن الحمد لله قام أهل العلم بواجب التحذير منه، وهم حرَّاس الدين وحماته، وهم بالمرصاد لأمثال هؤلاء.

وقد تقدَّم الكلام علىٰ هذا الحديث في باب الفتيا علىٰ الدابة(٨٤٠).

---

(٨٣٩) كما هو مشاهد في المملكة السعودية -وفقَّها الله- وما تقوم به من خدمات جليلة لحجَّاج بيت الله الحرام، واعتناء خادم الحرمين بهما، علىٰ جميع المستويات، وفي كلِّ المجالات، ومن ذلك وضع مكاتب وأرقام هواتف للإجابة علىٰ أسئلة الحجَّاج، ولا سيَّما في شأن المناسك، فأجزل الله لهم المثوبة.

(٨٤٠) بَابُ الفُتْيَا وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَىٰ الدَّابَّةِ وَغَيْرِهَا، حديث (٨٣)

٤٨ - بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]

١٢٥ - حَدَّثَنَا قَيْسُ بْنُ حَفْصٍ(ابن القعقاع التميمىٰ)، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُالوَاحِدِ(ابن زياد العبدىٰ مولاهم)، قَالَ: حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ(ابن يزيد بن قيس النخعي)، عَنْ عَلْقَمَةَ (ابن قيس النخعي)، عَنْ عَبْدِاللهِ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَرِبِ المَدِينَةِ (أماكن خربة منها، والخرب ضد العامر)، وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَىٰ عَسِيبٍ مَعَهُ (الجريدة التي لا خوص لها)، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لاَ تَسْأَلُوهُ، لاَ يَجِيءُ فِيهِ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ (خشية أن يوحىٰ إليه بشيء تكرهونه فيجبيكم به)، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَنَسْأَلَنَّهُ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فَقَالَ يَا أَبَاالقَاسِمِ مَا الرُّوحُ (ما حقيقتها)؟ فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ (حائلاً بينه وبينهم)، فَلَمَّا انْجَلَىٰ عَنْهُ (ذهب عنه ما يصيبه من حال الوحي)، قَالَ: «﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]». قَالَ الأَعْمَشُ: هَكَذَا فِي قِرَاءَتِنَا (أي: "أوتوا" وهي قراءة شاذة والمتواترة "أوتيتم").

أطرافه في: (التفسير ٤٧٢١، الاعتصام٧٢٩٧، التوحيد٧٤٥٦، ٧٤٦٢).

وأخرجه مسلم (٢٧٩٤) والترمذي (٣١٤٠) والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٩٩).

الشرح

قال شيخنا **الألباني**: ولا منافاة بين هذه القراءة والقراءة المشهورة المتواترة ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ**﴾ كما لا يخفىٰ، مختصر البخاري (١/ ٦٢).

قوله: (وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَىٰ عَسِيبٍ مَعَهُ): أَيْ يَعْتَمِدُ، والعسيب هو الْجَرِيدَةُ الَّتِي لَا خوص فِيهَا، وَوَقع فِي رِوَايَة ابن حبَان: (وَمَعَهُ جَرِيدَة)، فيه توكُّؤ العالم علىٰ عسيب، وكان هذا الغالب من فعله، وكان يحبُّ ذلك، وينتفع به، فوجود العصا، والجريدة في يد العبد لها فوائد عدة، كما حكىٰ الله عن موسىٰ أنَّه قال: ﴿**قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ**﴾ [طه: ١٨]، وثبت: أنَّه (أتىٰ النساء فذكرهن وهو يتوكَّأ علىٰ يد بلال) متفق عليه، وفي حديث علي قال: (فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكَّس، فجعل ينكت بمخصرته)

متفق عليه. ولكن لا يقال: إنَّ حمل العصا من السنة، وإنَّما هي عادة، فإن احتاجها فنعم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (**ولا تضع العصا عن عاتقك وأخفهم في ذات الله**) مصنف عبد الرزاق (٢١١٨٩).

قوله: (فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ؟):

وقد جاء في رواية أنَّ من سأله هم كفَّار قريش فعَنِ **ابْنِ عَبَّاسٍ**، قَالَ: قَالَتْ قُرَيْشٌ لِيَهُودَ: أَعْطُونَا شَيْئًا نَسْأَلُ هَذَا الرَّجُلَ، فَقَالَ: سَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٨٥]، قَالُوا: أُوتِينَا عِلْمًا كَثِيرًا أُوتِينَا التَّوْرَاةَ، وَمَنْ أُوتِيَ التَّوْرَاةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، فَأَنْزَلَتْ ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩].

صحيح: رواه أحمد (٢٣٠٩)، والترمذي (٣١٤٠)، التعليقات الحسان (١/ ١٥٥-١٥٦). ولا معارضة بين هذه الرواية وحديث الباب قال الحافظ: "وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِأَنْ يَتَعَدَّدَ النُّزُولُ بِحَمْلِ سُكُوتِهِ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ عَلَىٰ تَوَقُّعِ مَزِيدِ بَيَانٍ فِي ذَلِكَ وَإِنْ سَاغَ هَذَا وَإِلَّا فَمَا فِي الصَّحِيحِ أَصَحُّ» فتح الباري لابن حجر (٨/ ٤٠١).

وفيه ذمُّ اليهود وأنَّ أسئلتهم للتعنُّت وليس للانتفاع والتفقُّه، والعمل.

وفيه ذمُّ خوف السائل من الجواب بما يخالف هواه، لأنَّه بذلك لا يطلب الهدىٰ، فينبغي التجرُّد للحقِّ.

وفيه أنَّ العبد مهما علت مرتبته فعلمه محدود إلا ما علَّمه الله، وعلمه في علم الله كما ينقر العصفور من البحر، **وفيه** أنَّ علم الروح ممَّا لم يشأ تعالىٰ أن يُطْلع عليه أحدًا من خلقه.

وقد سئل **ابن عباس** رضي الله عنهما عن قوله: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠١]، قال: ما لم يذكر في القرآن فهو ممَّا عفا الله عنه، ألا ترىٰ أنَّ الله لم يجب اليهود عن سؤالهم عن الروح لـمَّا لم يكن ممَّا لهم به الحاجة إلىٰ علمه، وكان من علمه تعالىٰ الذي لم يطلع عليه أحدًا. شرح ابن بطَّال (١٠/ ٣٤١).

قوله: (فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقُمْتُ، فَلَمَّا انْجَلَىٰ عَنْهُ، قَالَ: «﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا**

﴿قَلِيلًا﴾): فيه أنَّه ينبغي أن يسأل العالم تفقُّهًا وتعلُّمًا للفائدة والانتفاع، وفيما يترتَّب عليه عمل، وقد يكون السؤال تعنُّتًا فيما لا ينفع.

وفيه عدم تكلُّف العالم ما لا علم له به، فإن سئل عن أمر لا يعلمه بحث عن النصوص لعلَّه يجد ما يدلُّه علىٰ المسألة، ولا سيَّما في أمور الغيب.

قال **أبوالمظفر السمعاني**: "فَإِذا سمعنَا شَيْئا من أُمُور الدّين وعقلناه وفهمناه فَللَّه الْحَمد فِي ذَلِك وَالشُّكْر وَمِنْه التَّوْفِيق، وَمَا لم يمكنا إِدْرَاكه وفهمه وَلم تبلغه عقولنا آمنا بِهِ وصدقنا واعتقدنا أَنَّ هَذَا من قبل ربوبيته وَقدرته، واكتفينا فِي ذَلِك بِعِلْمِهِ ومشيئته، وقَالَ تَعَالَىٰ فِي مثل هَذَا ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]". الانتصار (ص٨٢).

وفيه الحذر من الكلام في الأمور الغيبة بالظنِّ والتوهُّم والتكلُّف، ومن هنا يُعلم خطأ من شرح معنىٰ الروح، فلا نخوض فيها، ولا نتكلَّم في معناها بالتخرُّص والظنِّ فإنَّه أكذب الحديث.

قال **أبوالقاسم الأصبهاني**: "وَهل هلك أهل الْأَهْوَاء وخالفوا الْحقَّ إِلا بأخذهم بالجدل، والتفكير فِي دينهم، فهم كلَّ يَوْم عَلَىٰ دين ضلال وَشبهه جَدِيدَة، لَا يُقِيمُونَ عَلَىٰ دين وَإِن أعجبهم، إِلا نقلهم الجدل والتفكير إِلَىٰ دين سواهُ، وَلَو لزموا السّنَن وَأمر الْمُسلمين وَتركُوا الجدل لقطعوا عَنْهُم الشَّكَّ، وَأخذُوا بِالْأَمر الَّذِي حضَّهم عَلَيْهِ رَسُول الله ﷺ ورضيه لَهُم، وَلَكنهُمْ تكلَّفوا مَا قد كفوا مؤنته، وحملوا عَلَىٰ عُقُولهمْ من النّظر فِي أَمر الله مَا قصرت عَنهُ عُقُولهمْ، وَحقّ لَهَا أَن تقصر عَنهُ وتحسر دونه، فهنالك تورَّطوا". الحجة (١/ ٣٠٨).

وفيه إشارة إلىٰ أنَّ العالم إذا سكت فهذا من فقهه، وإذا قال: لا أدري فهذا من علمه وخشيته وورعه.

وفيه أنَّه ينبغي اختيار السؤال النافع الذي يترتَّب عليه عمل، ويزيد هدىٰ، وتقىٰ، وإيمانًا.

فعن أبي الطفيل قال: شهدت عليا وهو يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء يكون إلىٰ يوم القيامة إلا حدَّثتكم به، وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل، فقام إليه ابن الكوَّاء وأنا بينه وبين علي وهو خلفي، قال: ما والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا، فقال علي: ويلك

سل تفقُّها ولا تسل تعنُّتًا. **صحيح**: أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٢٣٤)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١/ ٤٦٤).

وعن السائب بن يزيد قال: أُتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه- فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنَّا لقينا رجلاً يسأل عن تأويل القرآن، فقال: اللهمَّ أمكني منه، فبينما عمر رضي الله عنه- ذات يوم يغدِّي الناس، إذ جاءه رجل عليه ثياب وعمامة يتغدَّىٰ، حتىٰ إذا فرغ قال: يا أمير المؤمنين، والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا، فقال عمر رضي الله عنه: أنت هو؟ فقام إليه فحسر عن ذراعيه، فلم يزل يجلده. حتىٰ سقطت عمامته، فقال: والذي نفس عمر بيده، لو وجدتك محلوقا، لضربت رأسك، ألبسوه ثيابه، واحتملوه علىٰ قتب، ثمَّ أخرجوه حتىٰ تقدموا به بلاده، ثمَّ ليقم: خطيبًا، ثمَّ ليقل: إنَّ صبيغًا طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعًا (ذليلاً) في قومه حتىٰ هلك، وكان سيَّد قومه. **صحيح**، الشريعة للآجري (١/ ٤٨١).

وقد سبق الكلام علىٰ التكلُّف والتعنُّت في الأسئلة، في بَاب: (الغَضَبِ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ؛ إِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ).

قال **القاسم** رحمه الله: " إنَّكم لتسألونا عن أشياء ما كنّا نسأل عنها، وتُنقّرون عن أشياء ما كنَّا نُنقّر عنها، وتسألون عن أشياء ما أدري ما هي، ولو علمناها؛ ما حَلَّ لنا أن نكتُمَكُموها" **صحيح**: أخرجه الدارمي (١٢٠).

ومن الأسئلة المستنكرة، السؤال عمَّا لا يعني، وعمَّا لا ينفع، والسؤال عمَّا لا يقع، والسؤال عن أمور تكون هذه الأسئلة سببًا في التشديد علىٰ الناس، وتحريم ما أحلَّ الله لهم.

ومن الأسئلة المكروهة: أن يسأل عن عصا موسىٰ من أيِّ الشجر كانت، وما اسم الشجرة التي أكل منها آدم، وما لون كلب أصحاب الكهف، ونحو هذه الأسئلة التي لا تفيد المسلم في دينه ولا دنياه.

وفيه أنَّ من العلم ما لا يُطْلِع الله عليه أنبياءه، قال **المهلب**: هذا يدلُّ علىٰ أنَّ من العلم أشياء لم يُطلع الله عليها نبيًا، ولا غيره، أراد الله تعالىٰ أن يختبر بها خلقه فيوقفهم علىٰ العجز عن علم ما لا يدركون حتىٰ يضطرهم إلىٰ ردِّ العلم إليه. شرح ابن بطال (١/ ٢٠٤)، التوضيح (٣/ ٦٤٥). وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ النبي ﷺ كان لا يعلم الغيب.

وَقَدْ خَالَفَ فِي هذا الْجُنَيْدَ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ جَمَاعَةٌ مِنْ مُتَأَخِّرِي الصُّوفِيَّةِ فَأَكْثَرُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي الرُّوحِ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا وَعَابَ مَنْ أَمْسَكَ عَنْهَا!!. الفتح (٨/ ٤٠٤).

فلو كان في ذكر ماهية الروح فائدة تذكر لبيَّنها الله -عزَّ وجلَّ- لنبيه، فرسول الله لم يعلم بها، فكم تكلَّف هؤلاء وغيرهم الكلام في ماهية الروح وتعريفها!!.

٤٩ - بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ، مَخَافَةَ أَنْ يَقْصُرَ فَهْمُ بَعْضِ النَّاسِ عَنْهُ، فَيَقَعُوا فِي أَشَدَّ مِنْهُ

قوله: (**بَابُ مَنْ تَرَكَ بَعْضَ الِاخْتِيَارِ...**)، ترك فعل الشيء المختار أو ترك الانكار له؛ لأنَّه من باب ارتكاب أخفِّ الضررين، فلابدَّ للعالم أن ينظر إلىٰ مآلات الأمور، وماذا سَيُحْدِثُ قولُهُ في الناس، هل يكون لبعضهم فتنة؟ لأنَّ الناس أو بعضهم قد لا يفهمونه علىٰ وجهه الصحيح، بل قد يرتكبون ما هو أشدُّ منه، وأمثلة ذلك كثيرة منها حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، وقول النبي ﷺ: (**دَعُوهُ لَا تُزْرِمُوهُ**) -لا تقطعوا عليه بولته- متفق عليه.

ومنها قوله عن المنافقين: (**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**) متفق عليه.

١٢٦ - حَدَّثَنَا عُبَيْدُاللهِ بْنُ مُوسَىٰ، عَنْ إِسْرَائِيلَ (ابن يونس بن أبىٰ إسحاق السبيعي الهمدانىٰ)، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ (السبيعي عمرو بن عبدالله بن عبيد الهمداني الكوفي)، عَنِ الأَسْوَدِ (ابن يزيد بن قيس النخعي)، قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ، كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إِلَيْكَ كَثِيرًا (وهي خالته، والإسرار خلاف الإعلان) فَمَا حَدَّثَتْكَ فِي الكَعْبَةِ (أي في شأنها)؟ قُلْتُ: قَالَتْ لِي: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ** (قريبو العهد بترك الكفر)-قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ -**بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ** (لهدمتها وبنيتها ثانية) **فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ: بَابٌ يَدْخُلُ النَّاسُ وَبَابٌ يَخْرُجُونَ**»، فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ.

أطرافه في: (الحج١٥٨٣، ١٥٨٦، الأنبياء٣٣٦٨، التفسير٤٤٨٤، التمني٧٢٤٣).

وأخرجه مسلم(١٣٣٣) والترمذي (٨٧٥) والنسائي (٢٩٠٠، ٢٩٠٣، ٢٩١٠).

الشرح

قوله: (**يَا عَائِشَةُ لَوْلاَ قَوْمُكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ -قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ -بِكُفْرٍ، لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ**): أي قريب زمن تركهم الكفر، قال **أبوالزناد القرطبي**: "إنَّما خشي أن تنكره قلوب الناس؛ لقرب عهدهم بالكفر، ويظنون أنَّما يفعل ذلك لينفرد بالفخر دونهم". شرح ابن بطَّال (١/ ٢٠٥).

وفيه اجتناب ولي الأمر ما يسرع الناس إلىٰ إنكاره، وما يُخشىٰ منه تولُّد الضرر عليهم في

دين أو دنيا، وتألف قلوبهم، **وفيه** تقديم الأهمِّ فالأهمِّ، **وفيه** أنَّ دفع المفسدة مقدَّم علىٰ جلب المصلحة، وأنَّهما إذا تعارضا بُدِئَ بدفع المفسدة، قال **النووي**: "دليل لقواعد منها: إذا تعارض مصلحة ومفسدة، بُدِيءَ بالأهمِّ من فعل المصلحة وترك المفسدة؛ لأنَّه ﷺ ترك مصلحة خوف فتنة بعض من أسلم، ومنها فكرُ وليِّ الأمر في مصالحِ رعيتهِ، واجتنابُ ما فيه ضررٌ عليهم في دين أو دنيا، إلَّا الأمور الشرعيةِ، كأخذِ الزكاةِ، وإقامةِ الحدودِ. ومنها تألفُ قلوبهمِ". شرح النووي (٩/ ٨٩) بتصرف.

وفيه حديث الرجل مع أهله في الأمور العامَّة، **وفيه** حرص الصحابة علىٰ امتثال أوامر النبي ﷺ.

ومن فقه الرجل أن يترك بعض المستحبَّات لعارض أولىٰ منها، قال **شيخ الإسلام ابن تيمية**: "وَيُسْتَحَبُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقْصِدَ إلَىٰ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ بِتَرْكِ هَذِهِ الْمُسْتَحَبَّاتِ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَةَ التَّأْلِيفِ فِي الدِّينِ أَعْظَمُ مِنْ مَصْلَحَةِ فِعْلِ مِثْلِ هَذَا.

كَمَا تَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ تَغْيِيرَ بِنَاءِ الْبَيْتِ لِمَا فِي إبْقَائِهِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ، وَكَمَا أَنْكَرَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَلَىٰ عُثْمَانَ إتْمَامَ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ، ثُمَّ صَلَّىٰ خَلْفَهُ مُتِمًّا، وَقَالَ: الْخِلَافُ شَرٌّ". اهـ الفتاوىٰ (٢٢/ ٤٠٧).

وقال رحمه الله في موضع آخر: "فَالْعَمَلُ الْوَاجِدُ يَكُونُ فِعْلُهُ مُسْتَحَبًّا تَارَةً وَتَرْكُهُ تَارَةً بِاعْتِبَارِ مَا يَتَرَجَّحُ مِنْ مَصْلَحَةِ فِعْلِهِ وَتَرْكِهِ بِحَسَبِ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَالْمُسْلِمُ قَدْ يَتْرُكُ الْمُسْتَحَبَّ[٨٤١] إذَا كَانَ فِي فِعْلِهِ فَسَادٌ رَاجِحٌ عَلَىٰ مَصْلَحَتِهِ كَمَا تَرَكَ

---

(٨٤١) أمَّا ما يفعله الإخوان المسلمون، فهم يتركون الواجبات، ويفعلون المحرمات بحجَّة تأليف الناس، بهذه الحجَّة والقاعدة الفاسدة، التي يسمُّونها بغير اسمها: (مصلحة الدعوة)، ومثلهم جماعة التبليغ ونحوهم، لأنَّ عندهم أنَّ الغاية تسوِّغ الوسيلة علىٰ القاعدة اليهودية، فيقعون في المحظورات القطعية لأمرٍ ظني، ولا يترتَّب علىٰ فعله منكر أعظم، ولا كفر، ولا كبير مفسدة، قال شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ**﴾ [هود: ٨٨].
فقد لبسوا لباس أهل التديُّن، بل وبعضهم لباس أهل العلم، وهم قدوة لكثير من الناس، فيهم من ملأ الأرض جعجعة وتباكيًا علىٰ الإسلام وأهله، وقد أتعبوا الأمَّة بتخلُّفهم عن أسباب التمسُّك بالشرع الحنيف، بل والدعوة إلىٰ أهمِّ قضية، وأعظم مسألة من مسائله وهي (قضية التوحيد)، وغيرها كثير من مهمات المسائل

النَّبِيُّ ﷺ بِنَاءَ الْبَيْتِ عَلَىٰ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ... فَتَرَكَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ أَفْضَلُ الْأَمْرَيْنِ لِلْمُعَارِضِ الرَّاجِحِ وَهُوَ حِدْثَانُ عَهْدِ قُرَيْشٍ بِالْإِسْلَامِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ التَّنْفِيرِ لَهُمْ فَكَانَتْ الْمَفْسَدَةُ رَاجِحَةً عَلَىٰ الْمَصْلَحَةِ.

وَلِذَلِكَ اسْتَحَبَّ الْأَئِمَّةُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ أَنْ يَدَعَ الْإِمَامُ مَا هُوَ عِنْدَهُ أَفْضَلُ إذَا كَانَ فِيهِ تَأْلِيفُ الْمَأْمُومِينَ مِثْلَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ فَصْلُ الْوِتْرِ أَفْضَلَ بِأَنْ يُسَلِّمَ فِي الشَّفْعِ ثُمَّ يُصَلِّيَ رَكْعَةَ الْوِتْرِ وَهُوَ يَؤُمُّ قَوْمًا لَا يَرَوْنَ إلَّا وَصْلَ الْوِتْرِ، فَإِذَا لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إلَىٰ الْأَفْضَلِ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ الْحَاصِلَةُ بِمُوَافَقَتِهِ لَهُمْ بِوَصْلِ الْوِتْرِ أَرْجَحَ مِنْ مَصْلَحَةِ فَصْلِهِ مَعَ كَرَاهَتِهِمْ لِلصَّلَاةِ خَلْفَهُ.

وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَرَىٰ الْمُخَافَتَةَ بِالْبَسْمَلَةِ أَفْضَلَ أَوْ الْجَهْرَ بِهَا وَكَانَ الْمَأْمُومُونَ عَلَىٰ خِلَافِ رَأْيِهِ، فَفَعَلَ الْمَفْضُولَ عِنْدَهُ لِمَصْلَحَةِ الْمُوَافَقَةِ وَالتَّأْلِيفِ الَّتِي هِيَ رَاجِحَةٌ عَلَىٰ مَصْلَحَةِ تِلْكَ الْفَضِيلَةِ كَانَ جَائِزًا حَسَنًا". اهـ. الفتاوىٰ (٢٤/ ١٩٥).

والتي منها مسألة المصافحة بين الرجال والنساء، والاختلاط، وحلق اللحية، والإسبال، والغناء وغيرها من المسائل.

يا مَن تريد أن تقيم دولة الإسلام، والخلافة زعمت؟! إذا أنت لم تجاهد نفسك التي بين جنبيك، في طاعة مولاك، في أمر ليس لأحد عليك فيه سلطان قاهر، فكيف تجاهد أعداء الدين؟!.

ثم يقولون: ليست هذه من الأمور المهمَّة ذوات البال، بل إنَّها من القشور أو القضايا السطحية!، وأنَّ الأمة تمزق وتقطع ونحن نغرق أنفسنا وغيرنا في الجزئيات والفرعيات ...إلخ !!!. وإنَّ حال الأمة الإسلامية اليوم في حاجة إلىٰ لمِّ شمل وجمع كلمةٍ، وإنَّنا بحاجة إلىٰ الاهتمام بالقضايا العظيمة!!

إلىٰ آخر ما هنالك من التلبيسات، والترَّهات، وقلب الحقائق، فكلٌ يدَّعي الغيرة علىٰ الأمَّة، ويحرص علىٰ كيانها، وقضاياها العظيمة!!

ولقد هبَّ كثير من هؤلاء لإصلاح ما تمزق من جسد الأمة، وما فسد منها فأصلحوه وعالجوا الأمر، بداء هو أدوىٰ الأدواء!، علىٰ حدِّ قول أبي نواس: وداوني بالتي كانت هي الداء.

فنقول لهم: رويدكم، ليس هذا هو سبيل العودة إلىٰ لمِّ الشمل، ووحدة الكلمة، وتوحيد الصف.

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الإبل

ثم هم يجادلون في هذه القضايا التي يعتبرونها صغيرة، وهي من المسائل التي لا تتعلَّق بها القوانين الوضعية، ولا تُلْزِمُ بها سلطة أرضية.

نقول لهؤلاء: يا ترىٰ أيشغله عن إقامة الدولة أن يلبس إلىٰ نصف الساقين، أو إلىٰ الكعبين؟؟!!

٥٠ - بَابُ مَنْ خَصَّ بِالعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، كَرَاهِيَةَ أَلَّا يَفْهَمُوا

قوله (بَابُ مَنْ خَصَّ بِالعِلْمِ قومًا...) وَالتَّقْدِير لأجل كَرَاهِيَة عدم فهم الْقَوْم الَّذين هم غير الْقَوْم الَّذين خصَّهم بِالْعلمِ، وقال الخطيب: (باب) "ذكر ما (تكون) روايته لكافة الناس وما يكره من ذلك خوف دخول الشبهة فيه والإلباس". بتصرف يسير من كتابه الجامع في أخلاق الراوي (٢/ ١٠٧).

ووَجه الْمُنَاسبَة بَين هذا الباب والذي قبله من حَيْثُ إنَّ فِي الْبَاب الذي قبله ترك بعض الْمُخْتَار مَخَافَة قُصُور فهم بعض النَّاس، وَهَهُنَا أَيْضا ترك بعض النَّاس من التَّخْصِيص بِالْعلمِ لقُصُور فهمهم، والترجمتان متقاربتان غير أَنَّ الأولىٰ فِي الْأَفْعَال وَهَذِه فِي الْأَقْوَال، والله أعلم.

قال **الحافظ**: "وممَّن كره التحديث ببعض دون بعض **أحمد** في الأحاديث التي ظاهرها الخروج علىٰ السلطان، **ومالك** في (بعض) أحاديث الصفات، **وأبويوسف** في الغرائب، ومن قبلهم **أبوهريرة** كما تقدَّم عنه في الجرابين، وأنَّ المراد ما يقع من الفتن، وعن **الحسن** أنَّه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين، لأنَّه اتَّخذها وسيلة إلىٰ ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوِّي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشىٰ عليه الأخذ بظاهره مطلوب والله أعلم" الفتح (١/ ٢٢٥). ومن قبل هؤلاء كلهم النبي ﷺ حيث قال: **(لا تبشِّرهم فيتَّكلوا)** متفق عليه، وسبق.

١٢٧ - وَقَالَ عَلِيٌّ: "حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللهُ وَرَسُولُهُ؟". حَدَّثَنَا عُبَيْدُاللهِ بْنُ مُوسَىٰ عَنْ مَعْرُوفِ بْنِ خَرَّبُوذٍ (لَيْسَ لَهُ فِي الْبُخَارِيِّ غَيْرُ هَذَا الْمَوْضِعِ/ خ م د ت ق)، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ (عامر بن واثلة بن عبدالله الليثي، آخر الصحابة موتًا) عَنْ عَلِيٍّ **بِذَلِكَ.**

الشرح

قال شيخنا **الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ في "مختصره": "قلت: صورته صورة المعلق، لكنه قد ساق عقبه إسناده إلىٰ علي، فهو موصول".

قوله: **(حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللهُ وَرَسُولُهُ)**: أي: إذا

حدَّث الناس بما يشتبه عليهم ولا يعرفونه ربَّما كذَّبوا بما جاء عن الله تعالىٰ أو عن رسوله ﷺ، وزاد آدم بن أبي إياس في "كتاب العلم" له: "**وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ**"، أي دعوا ما يشتبه عليهم فهمه إلىٰ حين ترسخ قدمهم في الإسلام، ويزيد إيمانهم، ويتَّسع فهمهم للنصوص.

وقال **القرطبي** في تفسير الآية: "(واعلم) أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَعْلِيمُ الْكَافِرِ الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ حَتَّىٰ يُسْلِمَ، وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ تَعْلِيمُ الْمُبْتَدِعِ الْجِدَالَ وَالْحِجَاجَ لِيُجَادِلَ بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ، وَلَا يُعَلَّمُ الْخَصْمُ عَلَىٰ خَصْمِهِ حُجَّةً يَقْطَعُ بِهَا مَالَهُ، وَلَا السُّلْطَانُ تَأْوِيلًا يَتَطَرَّقُ بِهِ إِلَىٰ مَكَارِهَ الرَّعِيَّةِ، وَلَا يَنْشُرُ الرُّخَصَ فِي السُّفَهَاءِ فَيَجْعَلُوا ذَلِكَ طَرِيقًا إِلَىٰ ارْتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ، وَتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَنَحْوُ ذَلِكَ". تفسير القرطبي (٢/ ١٨٥).

قلت: ويؤيد ذلك إنكارهم علىٰ أنس حين حدَّث الحجاج بحديث العرنيين، وأخبره بأعظم عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ، ووجه إنكارهم عليه أنَّه عليه السلام يفعل ذلك بحقٍّ، وأمَّا الحجاج الثقفي فسيستعمل هذه العقوبة في غير حقّ، ومن ذلك أيضـًا أنَّهم كانوا يكرهون أن يحدِّثوا بأحاديث الوعد بين المرجئة، أو أحاديث الوعيد بين الخوارج، وهكذا الأحاديث التي يمكن أن يتذرَّع بها المبتدع ويحتجُّ بها علىٰ بدعته.

ومن ذلك أيضـًا التحدث بالمتشابهات من النصوص، قال **الحافظ ابن حجر**: "**وَفِيهِ** دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يذكر عِنْد الْعَامَّة...". فتح الباري (١/ ٢٢٥).

والتحدُّث ببعض نصوص الصفات التي قد تورد علىٰ العوام شبهة أو شكًّا، ومتىٰ أَمِنَّا ذلك منهم علَّمناهم إيَّاها، وأخبرناهم بها علىٰ ما يأتي في حديث معاذ حيث أعلمه النبي ﷺ بالحديث لـمَّا أمن عليه الاغترار وألَّا يتكل، وأمره ألَّا يحدث به خشية أن يلقيه بين قومٍ لا يحملونه علىٰ وجهه الصحيح.

ويؤيِّد ذلك أيضـًا ما جاء عن **ابْنِ مَسْعُودٍ**: "مَا أَنْتَ مُحَدِّثًا قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ". **صحيح الإسناد**: رواه مسلم في المقدمة.

وفيه أنَّ درأ المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح، وفيه ما قاله العلامة ابن عثيمين: "يستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلىٰ الله – عزَّ وجلَّ – وأنَّه يجب علىٰ الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته" القول المفيد (٢/ ١٩٣)، **وفيه** فقه العالم، وتفرُّسه فيمن

يحدثهم، وينظر في عاقبة أمرهم بعد التعليم، قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "من الحكمة في الدعوة ألَّا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدًا رويدا حتىٰ تستقرَّ عقولهم، وحتىٰ يتقبَّلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه.

وليس معنىٰ **(بما يعرفون)**، أي: بما يعرفون من قبل، لأنَّ الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل" القول المفيد (٢/ ١٩٢). ولكن المراد: بما يقبلون.

فإخبارهم بالنصوص شيئًا فشيئًا لأنهم لا يدركون ذلك، ولا تسعه عقولهم لما يخفىٰ عليهم معرفته وفهمه من المتشابه، لذا قال: (أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللهُ وَرَسُولُهُ) أي: أن ينسب الربُّ تعالىٰ ورسله إلىٰ الكذب فتأثموا لأنَّكم تسبَّبتم في ذلك.

عن **كثير بن مرة الحضرمي** أنَّه قال: "إنَّ عليك في علمك حقًّا كما أنَّ عليك في مالك حقًّا، لا تحدِّث بالعلم غير أهله فتُجَهَّل، ولا تمنع العلمَ أهلَهُ فتأثم، **ولا تحدِّث بالحكمة عند السفهاء فيكذِّبوك**، ولا تحدِّث بالباطل عند الحكماء فيمقتوك". أخرجه البيهقي في الشعب (١٧٦٥).

وقال **أيوب** (السختياني): "لا تحدِّثوا الناس بما لا يعلمون فتضرُّوهم". كتاب الجامع للخطيب.

وقال **الشافعي**: قيل لمالك بن أنس: إنَّ عند ابن عيينة عن الزهري أشياء ليست عندك! فقال مالك: وأنا كلُّ ما سمعته من الحديث أحدِّث به الناسَ؟! أنا إذًا أريد أن أضلَّهم". كتاب الجامع للخطيب (٢/ ١٠٩).

وعن **وهب بن منبه** قال: "ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام، وكذلك ينبغي للعالم أن يحدِّث كل قوم بما تحتمله قلوبهم وعقولهم من العلم". كتاب الجامع للخطيب (٢/ ١٠٩).

قال **الخطيب**: " إذا كانت الأحاديث صحاحًا ولها في التأويل طرق ووجوه إلا أنَّ من حقِّها ألَّا تروىٰ إلا لأهلها خوفًا من أن يضلَّ بها من جهل معانيها فيحملها علىٰ ظاهرها أو يستنكرها فيردَّها ويكذِّب رواتها ونقلتها" الجامع (٢/ ١٠٧).

وعن الوليد بن مسلم يقول: شهدتُ مجلسًا فيه أبواسحق الفزاري وعبدالله بن المبارك وعيسىٰ بن يونس ومخلد بن الحسين، وهؤلاء أفاضل من بقي من علماء المشرق، فأجمع رأيهم علىٰ كتمان الحديث في الرخصة في النبيذ وإظهار الحديث في التشديد فيه والكراهية". كتاب

الجامع للخطيب (٢/ ١١٠).

قلت: ولا يكون هذا من كتمان العلم المنهي عنه، بل هذا من العلم الذي يجب كتمانه، ولا يجوز ذكره عند من لا يفهمه، أو من يحدِث له فتنة.

قال **الخطيب**: "ومن أنفع ما تملىٰ الأحاديث الفقهية التي تفيد معرفة الأحكام السمعية كسنن الطهارة والصلاة وأحاديث الصيام والزكاة وغير ذلك من العبادات وما تعلَّق بحقوق المعاملات... وأيضا أحاديث الترغيب في فضائل الأعمال وما يحثُّ علىٰ القراءة وغيرها من الأذكار". كتاب الجامع للخطيب (٢/ ١١٠).

ولو ذكر العالمُ الحديثَ وبيَّن معناه، وأزال عنه الإشكال، فقد أَمِن بذلك الفتنة علىٰ سامعه، فينبغي أن يحدِّثَ به، قال **الخطيب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا روىٰ المحدِّثُ حديثًا فيه كلام غريب فسَّره أو معنىٰ غامض بيَّنَهُ وأظهره". كتاب الجامع للخطيب (٢/ ١١١).

١٢٨ - حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ (ابن مخلد الحنظلي، أبومحمد المروزي المعروف بابن راهويه)، قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ (ابن أبي عبدالله الدستوائي البصري)، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ قَتَادَةَ (ابن دعامة بن قتادة السدوسي)، قَالَ: حَدَّثَنَا **أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ** ﷺ، **وَمُعاذٌ رَدِيفُهُ** (راكب خلفه علىٰ الدابة) **عَلَىٰ الرَّحْلِ، قَالَ: «يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ»، قَالَ: لَبَّيْكَ** (معناه إجابة بعد إجابة) **يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ** (إسعاد بعد إسعاد)، **قَالَ: «يَا مُعَاذُ»، قَالَ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ** - ثَلاَثًا -، **قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ»، قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «إِذًا يَتَّكِلُوا** (يعتمدوا علىٰ هذا الفضل فيتركوا العمل)**»، وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا** (خشية الوقوع في الإثم لكتمان العلم)".

طرفه في: (العلم١٢٩).

وأخرجه مسلم (٣٢).

الشرح

قوله: (لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ): أي اجابة لك بعد اجابة وإسعاداً بعد إسعادٍ، والمعنىٰ أنا مقيم علىٰ طاعتك، **وفيه** الأدب مع النبي ﷺ، وتوقيره واحترامه، **وفيه** التأدُّب مع المعلم، واختيار ألفاظ التبجيل والتوقير.

قوله: (مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ): قال: سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، أنَّ ذلك كان قبل نزول الفرائض.

واختلفوا في معنىٰ هذا الحديث، والظاهر أنَّه معناه يوافق حديث: **(لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثمَّ لقيتني لا تشرك بي شيئًا، للقيتك بقرابها مغفرة)**، وكحديث البطاقة.

قال **ابن رجب**: "فمن دخل النار من أهل هذه الكلمة فلقلَّة صدقه في قولها؛ فإنَّ هذه الكلمة إذا صدقت طهَّرت القلب من كلِّ ما سوىٰ الله، ومتىٰ بقي في القلب أثر سوىٰ الله فمن قلَّة الصدق في قولها.

فمن صدق في قول لا إله إلا الله لم يحبَّ سواه، ولم يرج سواه، ولم يخش أحدا إلا الله، ولم يتوكَّل إلا علىٰ الله، ولم يبق له بقية من آثار نفسه وهواه، ومع هذا فلا تظنُّوا أن المحبَّ مطالَب بالعصمة، وإنَّما هو مطالب كلَّما زلَّ أن يتلافىٰ تلك الوصمة

قال **زيد بن أسلم**: "إنَّ الله ليحبُّ العبد حتىٰ يبلغ من حبِّه له أن يقول اذهب فاعمل ما شئت فقد غفرت لك"

وقال **الشعبي**: إذا أحبَّ الله عبدًا لم يضرَّه ذنب.

وتفسير هذا الكلام أنَّ الله -عزَّ وجلَّ- له عناية بمن يحبُّه، فكلَّما زلق ذلك العبد في هُوَّة الهوىٰ أخذ بيده إلىٰ نجوة النجاة، ييسر له التوبة وينبِّهه علىٰ قبَّح الزلَّة فيفزع إلىٰ الاعتذار، ويبتليه بمصائب مكفِّرة لما جنىٰ. كلمة الإخلاص (ص٤٥).

هذا؛ وقد وردت فيها النصوص مطلقة، وجاءت مقيَّدة بأن يقولها بصدق وإخلاص، فيحمل المطلق علىٰ المقيَّد، فإنَّ إخلاصها والصدق فيها يمنع الإصرار معها علىٰ معصية.

ومن ذلك تحقيق التوحيد، والقيام بواجباته، قال **ابن رجب** رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإنَّ تحقُّق القلب

بمعنىٰ (لا إله إلا الله) وصدقه فيها، وإخلاصه بها يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده، إجلالاً، وهيبة، ومخافة، ومحبة، ورجاء، وتعظيماً، وتوكُّلاً، ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تألُّه ما سواه من المخلوقين، ومتىٰ كان كذلك، لم يبق فيه محبة، ولا إرادة، ولا طلب لغير ما يريده الله ويحبُّه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع أهواء النفوس وإراداتها، ووسواس الشيطان، فمن أحبَّ شيئًا وأطاعه، وأحبَّ عليه وأبغض عليه، فهو إلهه، فمن كان لا يحبُّ ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي ولا يعادي إلا له، فالله إلهه حقًا، ومن أحبَّ لهواه، وأبغض له، ووالىٰ عليه، وعادىٰ عليه، فإلهه هواه، كما قال تعالىٰ: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال **قتادة**: هو الذي كلَّما هوي شيئًا ركبه، وكلَّما اشتهىٰ شيئًا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوىٰ". جامع العلوم والحكم (١/ ٥٢٤) ت- الأرنؤوط.

وكذلك من أطاع الشيطان في معصية الله، فقد عبده، كما قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

فتبيَّن بهذا أنَّه لا يصحُّ تحقيق معنىٰ قول: لا إله إلا الله، إلا لمن لم يكن في قلبه إصرار علىٰ محبَّة ما يكرهه الله، ولا علىٰ إرادة ما لا يريده الله، ومتىٰ كان في القلب شيء من ذلك، كان ذلك نقصا في التوحيد، وهو من نوع الشرك الخفي، ولهذا قال **مجاهد** في قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، قال: لا تحبُّوا غيري ... ويشهد لهذا المعنىٰ حديث معاذ عن النبي ﷺ قال: (**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله، دخل الجنة**)، فإنَّ المحتضر لا يكاد يقولها إلا بإخلاص، وتوبة، وندم علىٰ ما مضىٰ، وعزم علىٰ أن لا يعود إلىٰ مثله، ورجَّح هذا القول الخطابي في مصنف له مفرد في التوحيد، وهو حسن". جامع العلوم والحكم (١/ ٥٢٤-٥٢٤).

قلت: وذكر شيخ الإسلام **ابن تيمية** عشرةَ أسباب تندفع بها العقوبة في الآخرة. في منهاج السنة.

وأما من قصَّر فيها وفي الإتيان بلوازمها؛ فهذا لم يحقِّقها تحقيقاً كاملاً، وهذا الصنف - علىٰ تفصيل بعض أهل العلم- له حالات:

الأولىٰ: أن يموت عليها، وقد قام بالأركان الخمسة ولكنَّه ربَّما تهاون ببعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات، فهذا ممَّن يدخل في مشيئة الله ويغفر له، كما في الأحاديث المكفِّرات

المعروفة.

(**والحالة الأخرىٰ**) كالتي قبلها ولكنه لم يقم بحقِّها ولم تحجزه عن محارم الله كما في حديث أبي ذر المتفق عليه: "**وإن زنىٰ وإن سرق...**" الحديث، ثمَّ هو مع ذلك لم يعمل من الأعمال ما يستحقُّ به مغفرة الله، فهذا إنَّما تحرم عليه النار التي وجبت علىٰ الكفار، فهو وإن دخلها، فلا يخلد معهم فيها بل يخرج منها بالشفاعة أو غيرها ثمَّ يدخل الجنة ولابدَّ، وهذا صريح في قوله ﷺ: (**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ نَفَعَتْهُ يَوْمًا مِنْ دَهْرِهِ، أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ**). وهو حديث صحيح كما سيأتي في تحقيقه -إن شاء الله- برقم (١٩٣٢). والله سبحانه وتعالىٰ أعلم. الصحيحة (٣/ ٣٠٠).

قوله: (**أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: إِذًا يَتَّكِلُوا**)، **فيه** استحباب بشارة المسلم بما يسرُّه، **وفيه** مطابقة للحديث للترجمة؛ حيث خصَّ النَّبيُّ ﷺ **معاذًا** وأخبره **ألَّا يخبر به أحداً؛ حتىٰ لا يعتمدوا علىٰ هذا الفضل ويتركوا العمل.**

قوله: (**وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا**)، أي خوفاً من الوقوع في إثم من كتم علماً، قال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكتُمُونَ مَا أَنزَلنَا مِنَ ٱلبَيِّنَٰتِ وَٱلهُدَىٰ مِن بَعدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلعَنُهُمُ ٱللهُ وَيَلعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩].

١٢٩ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ (ابن مسرهد بن مسربل الأسدي، البصري)، قَالَ: حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ(ابن سليمان بن طرخان التيمي)، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، قَالَ: ذُكِرَ[٨٤٢] لِي أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، قَالَ: أَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لاَ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا**».

تقدم في: (العلم١٢٨).

وأخرجه النسائي في الكبرىٰ (١٠٩٧١، ١٠٩٧٤). **قلت:** وأخرجه مسلم برقم (١٥٢)، من حديث جابر بن

---

(٨٤٢) قال **شيخنا الألباني** رَحِمَهُ اللَّهُ: "رواه المصنف في "الرقاق" من الطريق الأولىٰ عن قتادة: حدَّثنا أنس بن مالك عن معاذ بن جبل قال: فذكره".

عبدالله.

الشرح

قوله: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ)، ومعنىٰ الحديث أنَّ من مات علىٰ التوحيد فإنَّه يدخل الجنة وإن ارتكب الذنوب، ولا يخلَّد في النار بذنوبه كما يقوله الخوارج وأهل البدع، كما صحَّ من حديث أبي ذر: (**وإن زنىٰ وإن سرق، وإن شرب الخمر**) متفق عليه، وسبق.

قوله: (قَالَ: أَلاَ أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لاَ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَّكِلُوا)، قال **المهلَّب**: "فيه أنَّه يجب أن يُخَصَّ بالعلم قوم لما فيهم من الضبط وصحَّة الفهم، ولا يبذل المعنىٰ اللطيف لمن لا يستأهله من الطلبة ومن يخاف عليه الترخُّص والاتِّكال لِقِصَرِ فهمِهِ، كما فعل ﷺ، وقد قال مالك بن أنس: لا يجيب العالم كلَّ من سأله -، وإنَّما أراد ألا يوضع العلم إلا عند من يستحقَّه ويفهمه.

وفيه: أنَّ من عِلَمَ علمًا - والناس علىٰ غيره من أخذٍ بشدَّة، أو ميلٍ إلىٰ رخصة - كان عليه أن يودعه مستأهله ومن يظنُّ أنَّه يضبطه، كما فعل معاذ حين حدَّث به بعد أن نهاه النَّبيُّ ﷺ عن أن يخبر به خوف الاتِّكال، فأخبر به عند موته خشية أن يدركه الإثم في كتمانه". شرح ابن بطال (١/ ٢٠٧).

قوله: (وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا): يدلُّ علىٰ أنَّ النهي عن التبشير والبلاغ كان لعلَّة الاتِّكال فلمَّا زالت العلة رجع حكم البلاغ والتبشير إلىٰ الجواز؛ إذ الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً.

وفيه أنَّ من كتم شيئاً من العلم ولو كان قليلاً أَثِمَ، وأنَّه يجب عليه تبليغ كلِّ ما لديه، وقد سبق معنا في باب: (**ليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ**)، فعلىٰ طلاب العلم أن يبذلوه ويفشوه خشية أن يحاسبهم الله علىٰ كتمانه، وعدم إظهاره وإشاعته.

٥١ - بَابُ الحَيَاءِ فِي العِلْمِ

قوله: (باب الحَيَاءِ فِي العِلْمِ): قال **ابن بطَّال**: إنَّما أراد البخاري بهذا الباب أن يبيِّن الحياء المانع من طلب العلم وأنَّه مذموم، ولذلك بدأ بقول مجاهد وعائشة، وأمَّا إذا كان الحياء علىٰ جهة التوقير والإجلال فهو حسن كما فعلت أم سلمة حين غطَّت وجهها . شرح البخارىٰ (١/ ٢١٠)

وذكر فِي هَذَا الْبَاب أَنه لَا يَنْبَغِي لأحد أَن يستحي من السُّؤَال مِمَّا لَهُ فِيهِ حَاجَة من أَمر دينه ودنياه. عمدة القاري (٢/ ٢١٠).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: "لاَ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُسْتَكْبِرٌ".

وصله أبونعيم في "الحلية" بسند صحيح عنه، وقال الحافظ: رَوَاهُ عبد الْغَنِيّ بن سعيد فِي أدب الْمُحدث، وَالْبَيْهَقِيّ فِي الْمدْخل من حَدِيث عبد الله بن وهب عَن ابْن عُيَيْنَة عَن مَنْصُور عَن مُجَاهِد مثله. «تغليق التعليق» (٢/ ٩٣).

قوله: (لاَ يَتَعَلَّمُ العِلْمَ مُسْتَحْيٍ وَلاَ مُسْتَكْبِرٌ)، أي: لا ينتفع بالعلم من هو متعاظم ومستنكف أن يتعلَّم العلم ويستكثر منه، وهو أعظم آفات العلم، فالحياء هنا مذموم، وهذا ليس بحياء، بل هو خجل، لكونه سببًا لترك أمر شرعي، قال شيخنا **ابن عثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ: "وعلىٰ هذا فالحياء الذي يمنع من السؤال عمَّا يجب السؤال عنه حياء مذموم، ولا ينبغي أن نسمِّيه حياء بل نقول: إنَّ هذا خور وجبن، وهو من الشيطان فاسأل عن دينك ولا تستحي". شرح رياض الصالحين (ص٧٣٧)، فكأنّه أراد تحريض المتعلِّمين علىٰ ترك العجز والتّكبّر لِمَا يؤثّر كلّ منهما من النّقص في التّعليم، قال **ابن دقيق العيد**: "وليكتب ما يستفيده، **ولو أنَّه ممَّن دونه**". الاقتراح (ص٢١)، لذلك قال **الشافعي**: "لا يطلب هذا العلم من يطلبه بالتملُّك، وغنىٰ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلَّة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح". الإلماع (ص٥٣).

قال **الإبناسي**: "ولا يأنف من أن يكتب عمَّن دونه ما يستفيده منه، رُوينا عن **وكيع بن الجراح** رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قال: "لا ينبل الرجل من أهل الحديث حتىٰ يكتب عمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثله، وعمَّن هو دونه". الشذا الفياح (١/ ٤٠٢)، وقال **الأصمعي**: "من لم يحتمل ذلَّ التعليم ساعة بقي في ذلِّ الجهل أبدا". المدخل للبيهقي (٤٠٣).

فعليك يا طالب العلم أن تتواضع لتنال العلم وبركته ولذَّته، والتوفيق فيه، فليس المراد من العلم هو مجرد المعلومات، فهذا تناله من الكتب، والحاسوب ونحوه ذلك، ولكن بالانكسار، والجثو بالركب عند العلماء، والتواضع؛ يرفعك الله، ويعلي شأنك، ويسدِّدك، ويهديك للصواب من القول، ويفتح عليك من العلم النافع، والعمل الصالح، (**فما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**) رواه مسلم، قال **ابن مسعود** رضي الله عنه: "من تواضع لله تخشُّعًا رفعه الله، ومن تكبَّر تجبرًا قسمه الله" الزهد لأحمد (٨٥١)، قال **الأعمش**: "قال لي مجاهد: "لو كنت أطيق المشي لجئتك" العلم لزهير بن حرب رقم (٩٢)، يعني لأخذت عنك العلم، ومعلوم في علوم الحديث، "رواية الأكابر عن الأصاغر"، وفي قصة موسىٰ والخضر عبرة في أخذ الفاضل العلم من المفضول.

وذكر **أبونعيم** في "الحلية"، إن **زينَ العابدين علي بن الحسين** كان يذهب إلىٰ **زيد بن أسلم**، فيجلس إليه، فقيل له: أنت سيد الناس وأفضلهم تذهب إلىٰ هذا العبد فتجلس إليه، فقال: "العلم يُتَبع حيث كان وممَّن كان" آداب المتعلمين ص(١٤)، وقد رأينا أعظم شيخين في هذا العصر شهرة وهما الإمام الألباني، والإمام ابن باز رحمهما الله، ورأينا من تواضعهما، ما لم أره في غيرهما، وأرىٰ أنَّ من أسباب هذه الرفعة لهما في الدنيا، هي: "التواضع الجم".

واحذر الكبر بالعلم، وفي العلم، قال **ابن المبارك**: "إنَّ للعلم طغياناً كطغيان المال" الثقات (٨/ ١٧٢)، واحذر من أن تأنف أن تأخذه ممَّن هو دونك، في المكانة، أو النسب، أو السنِّ، أو العلم، أو في غير ذلك، ولا سيَّما إن نلت شيئاً من هذه الشهادات الرسمية(٨٤٣) التي صدَّت الكثير من الطلاب عن أن يتواضعوا للعلم وأهله، وظنَّ أصحابها أنَّهم قد بلغوا الذروة، والدرجات العلىٰ، حتىٰ صار بعضهم يفخر بها علىٰ الناس، فمن ظنَّ في نفسه أنَّه عالم فهو جاهل، لذلك قيل: كلَّما ازددتُ علماً ازددتُ علماً بجهلي، وقد قيل: "العلم ثلاثة أشبار، من دخل في الشبر الأول: تكبّر، ومن دخل في الشبر الثاني: تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث: علم أنَّه ما يعلم"،

---

(٨٤٣) فممَّا لا شكَّ فيه أن ممَّن حصلوا علىٰ هذه الشهادات (الماجستير – الدكتوراه) من يتواضع بها، ونفع الله به كثيراً، ومنهم المتشبِّع بما لم يعط، وتجده يعطي مبلغاً من المال لبعض الباحثين للقيام عنه بكتابة البحث أو الرسالة، وهو مع ذلك يتبجَّح ويختال برسالته التي نالها بجهد غيره، وكثير منهم قليلو العلم بالكتاب والسنَّة، ويتصدَّر المجالس بحرف (د)، وصدق فيه المثل: "أحشفاً وسوء كيل".

فلا ينبغي أن ترىٰ نفسك شيئًا، فإنَّك لا تدري كيف أنت عند الله تعالىٰ، لذلك قال **عتبة بن غزوان** في خطبته: "وإنِّي أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا، وعند الله صغيراً". أخرجه مسلم (٢٩٦٧).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: "نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ فِي الدِّينِ"

أثر عائشة: وصله مسلم (٣٣٢) وأبوداود (٣١٦) وابن ماجه (٦٤٢).

وقولها: (نِعْمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأَنْصَارِ لَمْ يَمْنَعْهُنَّ الحَيَاءُ أَنْ يَتَفَقَّهْنَ)، فهذه فضيلة لنساء الأنصار اللاتي كن حريصات علىٰ تعلُّم الدين، ولم يكن الحياء يحجزهن عن ذلك؛ فالحياء المذموم في العلم هو الذي يمنع من التعلم والتفقُّه في الدين، وسؤال أهل العلم.

ومن ذلك عن عائشة أنَّ أسماء -تعني بنت شَكَل-: سألت النبي ﷺ عن الغسل من المحيض فقال: تأخذ إحداكنَّ ماءها وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور ثمَّ تصبُّ علىٰ رأسها ... **ثمَّ تأخذ فِرصة ممسَّكة تطهر بها** قالت: **كيف أتطهَّر بها** قال: سبحان الله تطهَّري بها، واستتر، قالت عائشة: تتبَّعي بها أثر الدم. أخرجه مسلم (٣٣٢)، والبخاري (٣١٤) من دون تسمية المرأة.

١٣٠ - حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلاَمٍ (بن الفرج السلمي مولاهم، أبوجعفر البيكندي)، قَالَ: أَخْبَرَنَا أبومُعَاوِيَةَ (محمد بن خازم التميمي الضرير الكوفي)، قَالَ: حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ (ابن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبوالمنذر)، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ زَيْنَبَ ابْنَةِ أُمِّ سَلَمَةَ (هي زينب بنت عبدالله المخزومية، ربيبة النبي ﷺ وأمها أم سلمة أم المؤمنين)، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ (هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية ، أم المؤمنين، ع، ت/ ٦٢هـ)، قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ[٨٤٤] (امرأة أبي طلحة) إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ (لا يستحي من بيان الحقِّ)، فَهَلْ عَلَىٰ المَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ (رأت في منامها أنَّها تُجامع)؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا رَأَتِ المَاءَ (رأت علىٰ ثوبها ماء إذا استيقظت)»، فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَ تَحْتَلِمُ المَرْأَةُ

٨٤٤) أم سليم بنت ملحان ابن خالد الأنصارية، والدة أنس ابن مالك، يقال اسمها سهلة، وقيل غير ذلك، وهي الغميصاء أو الرميصاء، اشتهرت بكنيتها، وكانت من الصحابيات الفاضلات، خ م د ت س، ت/ في خلافة عثمان.

(أي: يخرج منها ماء الولد في نومها)؟ قَالَ: «نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ (افتقرت ولصقت بالتراب، ولا يراد به المعنىٰ الظاهر)، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا (أي: إذا لم يكن لها ماء فمن أين يأتي شبه الولد بها)؟».

أطرافه في: (الغسل ٢٨٢، الأنبياء ٣٣٢٨، الأدب ٦٠٩١، ٦١٢١).

وأخرجه مسلم (٣١٣) والترمذي (١٢٢) والنسائي (١٩٧) وابن ماجه (٦٠٠).

الشرح

قوله: (إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ): قال **النوويّ** - رَحِمَهُ اللَّهُ -: "وإنمَّا قالت هذا اعتذارًا بين يدي سؤالها عمَّا دعت الحاجة إليه، ممَّا تَستَحِي النساء في العادة من السؤال عنه، وذكرِهِ بحضرة الرجال، **ففيه** أنَّه ينبغي لمن عَرَضت له مسألة أن يسأل عنها، ولا يَمتنع من السؤال حياءً من ذكرها، فإنَّ ذلك ليس بحياء حقيقيّ؛ لأنَّ الحياء خيرٌ كلُّه، والحياء لا يأتي إلا بخير" شرح مسلم (٣/ ٢٢٤)، والإمساك عن السؤال في هذه الحال ليس بخير، بل هو شَرّ، فكيف يكون حياءً؟

قوله: (فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا): وفي رواية من طريق يحيىٰ القطان، عن هشام: "فَضَحِكت أم سلمة". ويُجمَع بينهما -كما قال الحافظ - رَحِمَهُ اللَّهُ - - "بأنَّها تبسَّمت تعجبًا، وغَطَّت وجهها حياءً"، الفتح (١/ ٣٨٩).

قوله: (نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ): أي افتَقَرَتْ، وصارت علىٰ التراب، وهي من الألفاظ التي تُطلق عند الزجر، ونحوه، ولا يُراد بها ظاهرها، وحقيقة الدعاء.

قوله: (فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا): أي: المرأة ولدها أحيانًا، فالباء سببيّة، أي فبأيّ سبب يُشبهها ولدها؟،

والظاهر أنَّه ليس هذا القول منه ﷺ استدلالًا، بل الواقع معلوم له من عند الله، وهذا تنبيه وتفهيم لها بصورة الاستدلال، والله أعلم.

والحاصل: أنَّ شبه الولد يكون من الماء، فلو لم يكن لها ماء لم يوجد الشبه.

فيه ترك الاستحياء لمن عرضت له مسألة دينية، واستفتاء المرأة بنفسها فيما يستحىٰ من ذكره. **وفيه** وجوب الغسل علىٰ المرأة إذا وجدت الماء، **وفيه** إثبات أنَّ المرأة لها ماء كالرجل، **وفيه** ردٌّ علىٰ من أنكر بروز الماء للمرأة، وقال: إنَّما يعرف إنزالها بشهوتها، **وفيه** إثبات القياس وإلحاق حكم النظير بالنظير، **وفيه** جواز الضحك عند التعجب، **وفيه** زجر من يلوم علىٰ من يسأل

عمَّا جهله، وإن كان ممَّا يستحىٰ منه، **وفيه** أنَّ الحياء لا يمنع من طلب الحقِّ.

فائدة: جاء عن جماعة من الصحابيات أنهنَّ سألن كسؤال أم سليم، منهنَّ خولة بنت حكيم: **صحيح**: أخرجه النسائي (١٩٨) ابن ماجه (٦٠٢)، قال شيخنا: صحيح لغيره: وبسرة ذكره ابن أبي شيبة (٨٨١)، وسهلة بنت سهيل رواه الطبراني في "الأوسط" وفيه شيء من الضعف. وستأتي بقية مباحثه ومسائله في كتاب الغسل.

١٣١- حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ (هو ابن عبدالله بن عبدالله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي المدني)، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ، عَنْ عبدِاللهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ **عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ** رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مَثَلُ المُسْلِمِ** (شبه المسلم في كثرة خيرها)، **حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَادِيَةِ (ذهبت أفكارهم في أشجار البادية وذهلوا عن النخلة)، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُاللهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا بِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**».

قَالَ عَبْدُاللهِ: فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: "لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا".

تقدم في: (العلم ٦١).

وأخرجه مسلم (٢٨١١) والترمذي (٢٨٦٧) والنسائي في الكبرىٰ (١١٢٦١).

الشرح

قوله: (قَالَ عَبْدُاللهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ): هذا الحديث سبق شرحه أكثر من مرَّة، وموضع الشاهد منه هنا قول ابن عمر (**فَاسْتَحْيَيْتُ**).

٥٢ - بَابُ مَنِ اسْتَحْيَا فَأَمَرَ غَيْرَهُ بِالسُّؤَالِ

قوله: (**بَابُ مَنِ اسْتَحْيَا فَأَمَرَ غَيْرَهُ بِالسُّؤَالِ**)، يعني: جواز الاستنابة في سؤال العالم إن استحيىٰ أن يسأل بنفسه، والمهم أنَّ الحياء لا يمنع من الاستفتاء، ولا يمنع من التعلم، وأنه يتم المراد بالسؤال مباشرة إن أمكن، وإلا استناب.

١٣٢ - حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ (ابن مسرهد بن مسربل الأسدي،)، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُاللهِ بْنُ دَاوُدَ(ابن عامر الهمداني، أبوعبدالرحمن الخريبي)، عَنِ الأَعْمَشِ (سليمان بن مهران)، عَنْ مُنْذِرٍ الثَّوْرِيِّ (ابن يعلىٰ، أبويعلىٰ الكوفي، ثقة، ع)، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الحَنَفِيَّةِ(ابن علي بن أبي طالب الهاشمي المعروف بابن الحنفية)، **عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً فَأَمَرْتُ المِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: «فِيهِ الوُضُوءُ»**.

طرفاه في: (الوضوء١٧٨، الغسل٢٦٩).

وأخرجه مسلم (٣٠٣) والنسائي (١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧).

الشرح

قوله: (**كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً**): أي كثير المذي؛ وهو ماء أبيض رقيق يخرج غالبا عند ثوران الشهوة، لا بشهوة، وعند ملاعبة النساء والتقبيل، ونحوه.

قوله: (**فَأَمَرْتُ المِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ أَنْ يَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ**): لاستحيائه منه؛ لأنَّه والد زوجته، كما جاء مصرَّحا به، وهذا هو موضع الشاهد من هذه الترجمة.

قوله: (**فِيهِ الوُضُوءُ**): أي: يوجب الوضوء لا الغسل؛ لأنَّه في حكم البول.

فيه أنَّ خروج المذيّ لا يوجب الغسل، وإنَّما يكفي فيه الوضوء، وقد أجمع العلماء علىٰ ذلك.

وفيه نجاسة المذي، ولهذا أوجب النبيّ ﷺ غسل الذكر منه، قال في "الفتح (١/ ٣٨١): "واستُدِلّ به علىٰ نجاسة المذي، وهو ظاهر".

وفيه مشروعية استعمال الأدب في ترك المواجهة بما يُستحيَىٰ منه عرفًا، **وفيه** مشروعية حسن العشرة مع الأصهار، وأنَّ الزوج يُسْتَحبّ له ألا يَذكُر ما يتعلّق بجماع الزوجة والاستمتاع بها بحضرة أبيها وأخيها وابنها ونحوهم من أقاربها، ولهذا قال **عليّ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكنت أستحيي أن أسأل رسول الله ﷺ لمكان ابنته **وفيه** جواز الاستنابة في الاستفتاء للعذر، سواء كان المستفتي حاضرًا أو غائبًا.

وفيه ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من توقير النبي ﷺ.

وفيه ما ترجم له البخاري في هذا الموضع؛ ففيه الجمع بين المصلحتين: استعمال الحياء، وعدم التفريط في معرفة الحكم.

٥٣- بَابُ ذِكْرِ العِلْمِ وَالفُتْيَا فِي المَسْجِدِ

قوله: **(بَابُ ذِكْرِ العِلْمِ وَالفُتْيَا فِي المَسْجِدِ)**، العلم من أعظم الذكر الذي بنيت المساجد له، وقال **الحافظ**: أَشَارَ بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ إِلَىٰ الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ تَوَقَّفَ فِيهِ لِمَا يَقَعُ فِي الْمُبَاحَثَةِ مِنْ رَفْعِ الْأَصْوَاتِ فَنَبَّهَ عَلَىٰ الْجَوَازِ"، ولعله لورود النهي عن التشويش بقراءة القرآن والجهر به، هل هو داخل تحت حديث البياضي أن رسول الله صلىٰ الله عليه و سلم خرج علىٰ الناس و هم يصلُّون و قد علت أصواتهم بالقرآن فقال: **(إنَّ المصلي يناجي ربه، فلينظر ما يناجيه، ولا يجهر بعضكم علىٰ بعض بالقراءة)** رواه الإمام أحمد (١٩٠٢٢)، وصححه المحقق، فهل الصلاة كالعلم والتعليم؟!.

والظاهر أنَّه يفرق بينهما فإنَّه ثبت أنه علَّم، عليه الصلاة والسلام، والمسلمون من بعده، ولم يتحرَّج أحد من ذلك؛ لأنَّه نفع متعدٍ، أمَّا قراءة القرآن، والصلاة ونحو ذلك؛ فلا.

١٣٣- حَدَّثَنِي قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ(ابن جميل بن طريف الثقفي)، قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ(ابن عبدالرحمن الفهمي، أبوالحارث المصري)، قَالَ: حَدَّثَنَا نَافِعٌ، مَوْلَىٰ عبدالله بْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، **عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَجُلًا، قَامَ فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مِنْ أَيْنَ تَأْمُرُنَا أَنْ نُهِلَّ** (نحرم بالحج، من الإهلال وهو رفع الصوت)**؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:**

«يُهِلُّ أَهْلُ المَدِينَةِ مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ، وَيُهِلُّ أَهْلُ الشَّأْمِ مِنَ الجُحْفَةِ، وَيُهِلُّ أَهْلُ نَجْدٍ مِنْ قَرْنٍ (أسماء لأماكن معروفة هي مواقيت للإحرام لأهل البلاد المذكورة)**»**.

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَيَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَيُهِلُّ أَهْلُ اليَمَنِ مِنْ يَلَمْلَمَ».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: "لَمْ أَفْقَهْ هَذِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ (لم أفهم ولم أعرف هذه الأخيرة أو لم أسمعها كما في لفظ)**"**.

أطرافه في: (الحج ١٥٢٢، ١٥٢٥، ١٥٢٧، ١٥٢٨، الاعتصام٧٣٤٤).

وأخرجه مسلم (١١٨٢) وأبوداود (١٧٣٧) والترمذي (٨٣١) والنسئي (٢٦٥١ ، ٢٦٥٢) وابن ماجه (٢٩١٤).

الشرح

قوله: (أَنَّ رَجُلا، قَامَ فِي المَسْجِدِ): الْمُرَادُ بِالْمَسْجِدِ مَسْجِدُ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ أَنَّ السُّؤَالَ عَنْ مَوَاقِيتِ الْحَجِّ كَانَ قبل السّفر من الْمَدِينَة.

قوله : "يُهِلُّ أَهْلُ المَدِينَةِ " ("يُهِلُّ) بضمّ الياء، من الإهلال، يقال: أهلّ المحرم: إذا رفع صوته بالتلبية، وكلُّ من رفع صوته، فقد أهلَّ إهلالًا، واستَهَلّ استهلالًا، بالبناء للفاعل فيهما. قاله في "المصباح".

وهو خبر بمعنىٰ الأمر؛ لأنَّ خبر الشارع آكد في الطلب من الأمر، والمراد به أنَّه لا يقدّم الإهلال، ولا يؤخّر عن هذه المواقيت، وبهذا قال بعض أهل العلم، وهو الراجح عندي، وقال الجمهور: المراد أنَّه لا يؤخّر عنها، إذ التقديم عندهم جائز. البحر المحيط الثجاج (٢٢/ ١٦٢)

قوله: (**أَهْلُ المَدِينَةِ**) النبويّة، وكذا من مرّ عليها من غير أهلها.

قوله: " **مِنْ ذِي الحُلَيْفَةِ**": موضع معروف بقرب المدينة، بينه وبينها نحو ستّة أميال. قاله النوويّ، وقبله الغزاليّ، والقاضي عياض، ثمَّ قال: وقيل: سبعة أميال. وكذا قال الشافعيّ، كما في "المعرفة"، والمجد في "القاموس"، وياقوت الحمويّ في "معجم البلدان"

قال البسَّام: وتبلغ المسافة بينها وبين المسجد النبويّ (١٣) كيلاً، وهي أبعد المواقيت، توضيح الأحكام (٤/ ٤٣).

قوله: **"أَهْلُ الشَّامِ"** هي بلاد معروفة، "وهي من العَرِيش إلىٰ بالس. وقيل: إلىٰ الفرات. قاله النوويّ في "شرح سنن أبي داود". وقال السمعانيّ: هي بلاد بين الجزيرة والغور إلىٰ الساحل، ويجوز فيها التذكير والتأنيث، والهمز وتركه" طرح التثريب (٥/ ٩-١٠).

قوله: **"مِنَ الجُحْفَةِ"**: بضمّ الجيم، وإسكان الحاء المهملة، وفتح الفاء قرية كبيرة كانت عامرة، ذات منبر، وهي الآن خربة، بينها وبين البحر الأحمر بالأميال (٦) وبالكيلوات (١٠). قال ابن حزم: وهي فيما بين المغرب والشمال من مكّة، ومنها إلىٰ مكة اثنان وثمانون ميلاً، المحلّىٰ (٥/ ٥٢).

"وقال في التيسير: تبعد من مكة بالمراحل (٥) وبالفراسخ (٤) وبالأميال (١٢٠) وبالكيلوات (٢٠١) ويحرم منها أهل مصر، والشام، والمغرب، ومن ورائهم، من أهل الأندلس، والروم، والتكرور. قيل: إنها ذهبت أعلامها ولم يبق إلا رسوم خفيّة، لا يكاد يعرفها إلا سكّان بعض البوادي، فلذا -والله تعالىٰ أعلم- اختار الناس الإحرام احتياطًا من المكان المسمّىٰ برابغ -براء، وموحّدة، وغين معجمة، بوزن فاعل- لأنها قرية قبل حذائها بقليل. وقيل: لا يحرمون من الجحفة لوخمها، وكثرة حُمّاها، فلا ينزلها أحد إلا حُمّ، وسمّاها رسول الله ﷺ في حديث ابن عمر عند الشيخين "مَهيَعَة" -بفتح الميم، وإسكان الهاء، وفتح التحتانيّة، والعين المهملة، بوزن عَلْقَمة-. وقيل: -بكسر الهاء، مع إسكان الياء، علىٰ وزن لَطِيفة- والصحيح المشهور الأول" مرعاة المفاتيح (٨/ ٣٤٣).

قوله : " وَيُهِلُّ أَهْلُ نَجْدٍ" قال في "الصحاح" (٢/ ٥٤٢): هو ما ارتفع من تهامة إلىٰ أرض العراق. وقال في المشارق: ما بين جُرَش إلىٰ سواد الكوفة، وحده مما يلي المغرب الحجازُ، وعن يسار الكعبة اليمنُ، قال: ونجد كلها من عمل اليمامة.

وقال في "النهاية" (٥/ ١٩): النجد ما ارتفع من الأرض، وهو اسم خاصّ لما دون الحجاز مما يلي العراق.

وقال في "الفتح" (٣/ ٣٨٥): أما نجد، فهو كلّ مكان مرتفع، وهو اسم لعشرة مواضع، والمراد منها هنا التي أعلاها تهامة، واليمن، وأسفلها الشام، والعراق

قوله : " مِنْ قَرْنٍ " ويقال له: قرن المنازل. قال البسام : قرن المنازل، ويسمّىٰ السيل الكبير، ومسافته من بطن الوادي إلىٰ مكة المكرمة (٧٨) كيلو متر، توضيح الأحكام (٤/ ٤٤).

قوله : " مِنْ يَلَمْلَمَ " "وهو جبل من جبال تهامة، علىٰ مرحلتين من مكة. وقال ابن حزم: هو جنوب من مكّة، ومنه إلىٰ مكة ثلاثون ميلاً. وقال صاحب التيسير: وتبعد عن مكة بالمراحل (٢) وبالفراسخ (١٦) وبالأميال (٤٨) وبالكيلوات (٨٠)" مرعاة المفاتيح (٨/ ٣٤٥) . وسيأتي شرحه في كتاب الحج -إن شاء الله-.

فيه بيان لميقات أهل المدينة، **وفيه** أنَّه لا يجوز لأحد يريد مكة للحجِّ والعمرة أن يتجاوز هذه المواقيت إلا متلبّسًا بالإحرام منها، **وفيه** أنَّه لا يجوز لأحد أن ينشئ الإحرام قبل هذه

المواقيت، حيث إنَّ النبيّ ﷺ حدّها له، فلذا لا يرىٰ بعض المحققين، كالبخاريّ، جواز الإحرام قبلها أصلاً، وهو الأرجح؛ لظواهر النصوص ، **وفيه** أنَّ في التحديد المذكور تعظيم شأن هذا البيت، وتشريفه بجعل هذا الْحِمَىٰ الذي لا يتجاوزه حاجّ، أو معتمر، حتىٰ يأتي بهذه الهيئة، خاشعًا لله تعالىٰ، معظّمًا لشعائره، ومحارمه.

وفيه أنَّ في تعدّد هذا التحديد رحمةً من الله تعالىٰ بخلقه، وتسهيلاً لهم، إذ لو كان الميقات واحدًا لجميع البلدان لشقّ ذلك علىٰ مريدي النسك.

وفيه أنَّ فيه عَلَمًا من أعلام النبوّة، حيث حدّد النبيّ ﷺ هذه المواقيت قبل إسلام أهلها؛ إشارة إلىٰ أنَّهم سيدخلون في الإسلام، وأنَّهم سيحجّون، فيضطرّون إلىٰ مواقيت ينشؤون منها الإحرام، فجاء الأمر كما أشار إليه ﷺ.

٥٤ - بَابُ مَنْ أَجَابَ السَّائِلَ بِأَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَهُ

قوله: (**مَنْ أَجَابَ السَّائِلَ بِأَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَهُ**): سأل الربُّ تعالىٰ موسىٰ -وهو أعلم به وبما عنده- قائلاً: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] وأجاب موسىٰ ربه قائلاً: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، في هذه الآية دليل علىٰ جواز إجابة السائل بأكثر ممَّا سأل عنه. وفي الحديث أنَّه قد سأله بعض أصحابه عن ماء البحر فقال: "**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**" فزاد جملة: "**الحل ميتته**"، قال **ابن القيم**: "فَأَجَابَهُمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ. وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِمَا لَعَلَّهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ إِلَيْهِ أَحْوَجُ مِمَّا سَأَلُوهُ عَنْهُ" مدارج السالكين (٣/ ٧)، وقال **الخطابي**: "وفي الحديث دليل علىٰ أنَّ المفتي إذا سئل عن شيء وعلم أنَّ للسائل بحاجة إلىٰ ذكر ما يتصل بمسألته استحبَّ تعليمه إيَّاه، ولم يكن ذلك تكلُّفًا لما لا يعينه لأنَّه ذكر الطعام وهم سألوه عن الماء؛ لعلمه أنَّهم قد يعوزهم الزاد في البحر" انظر نيل الأوطار (١/ ٣١).

وقوله للتي سألته قائلة: ألهذا حج؟ قال: (**نعم ولك أجر**) رواه مسلم (١٣٣٦)، فزاد "**ولك أجر**".

قلت: ولعلَّ القارئ يجد مثل هذا في هذا الشرح، فنذكر بعض متعلَّقات الباب في بعض المواطن؛ ليقف الباحث علىٰ بعض ما عساه يكون بحاجة إليه.

١٣٤ - حَدَّثَنَا آدَمُ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، **عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ: مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ؟ فَقَالَ: «لاَ يَلْبَسُ القَمِيصَ، وَلاَ العِمَامَةَ، وَلاَ السَّرَاوِيلَ** (وقد يجمع علىٰ سراويلات وهو ثوب ذو أكمام يلبس بدل الإزار)، **وَلاَ البُرْنُسَ** (ثوب رأسه منه ملتزق به)، **وَلاَ ثَوْبًا مَسَّهُ الوَرْسُ** (نبت أصفر تصبغ به الثياب) **أَوِ الزَّعْفَرَانُ** (نبت يصبغ به)، **فَإِنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسِ الخُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا حَتَّىٰ يَكُونَا تَحْتَ الكَعْبَيْنِ»**.

أطرافه في: (الصلاة٣٦٦، الحج١٥٤٢، جزاء الصيد١٨٣٨، ١٨٤٢، للباس٥٧٩٤، ٥٨٠٣، ٥٨٠٥، ٥٨٠٦، ٥٨٤٧، ٥٨٥٢).

ملاحظة: هذا الحديث ممَّا انفرد به البخاري عن سائر الستة.

الشرح

قوله: (أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ: مَا يَلْبَسُ المُحْرِمُ؟): سأله عن أمر محصور، فأجابه بأمر غير محصور.

قوله: (لاَ يَلْبَسُ القَمِيصَ، وَلاَ العِمَامَةَ، وَلاَ السَّرَاوِيلَ...)، قال **ابن القيم**: "يجوز للمفتي أن يجيب السائل بأكثر ممَّا سأله عنه، وهو من كمال نصحه وعلمه وإرشاده، ومن عاب ذلك فلقلَّة علمه، وضيق عطنه، وضعف نصحه، سئل رسول الله ﷺ عمَّا يلبس المحرم، فأجاب عمَّا لا يلبس، وتضمَّن ذلك الجواب عمَّا يلبس؛ فإنَّ ما لا يلبس محصور، وما يلبسه غير محصور، فذكر لهم النوعين، وبين لهم حكم لبس الخفِّ عند عدم النعل". - إعلام الموقعين عن رب العالمين ت مشهور (٦/ ٤٥)

وقال أيضا: "ومن الجود بالعلم: أنَّ السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابا شافيا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا: نعم، أو: لا. مقتصرا عليها.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنَّه لا يقتصر علىٰ مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها ومتعلَّقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم علىٰ علته وحكمته، كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «أينقص الرطب إذا جفَّ؟ قالوا: نعم. قال: فلا إذن» ولم يكن يخفىٰ عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبَّههم علىٰ علَّة الحكم. وهذا كثير جدا في أجوبته ﷺ. مثل قوله: «**إِنْ بِعْتَ مِنْ أَخِيكَ ثَمَرَةً. فَأَصَابَتْهَا جَائِحَةٌ فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ مَالِ أَخِيكَ شَيْئًا، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟**» وَفِي لَفْظٍ: «**أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللهُ الثَّمَرَةَ: بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بِغَيْرِ حَقٍّ؟**» فصرَّح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه - يعني **شيخ الإسلام ابن تيمية** - يعيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر - مثلا - فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان، والعراق، والهند. وأيُّ حاجة بالسائل إلىٰ ذلك؟، ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنَّما العيب: الجهل والكبر". مدارج السالكين (٢/ ٢٨٠)

ومن ذلك ما فعله ابن عمر رضي الله عنهما: عن أنس بن سيرين قال سألت **ابن عمر** قلت أرأيت الركعتين قبل صلاة الغداة أأطيل فيهما القراءة قال: كان رسول الله ﷺ يصلىٰ من الليل مثنىٰ مثنىٰ ويوتر بركعة - قال - قلت: إنِّي لست عن هذا أسألك! قال: إنَّك لضخم (غبي) ألا تدعني أستقرئ لك الحديث؟! كان رسول الله ﷺ يصلىٰ من الليل مثنىٰ مثنىٰ ويوتر بركعة، ويصلِّي ركعتين قبل الغداة كأنَّ الأذان بأذنيه. متفق عليه.

وفي حديث الباب: حرص الصحابة رضي الله عنهم علىٰ العلم والبحث لقوله: "سئل ما يلبس المحرم". **وفيه** حسن تعليم الرسول ﷺ وأنَّ تعليمه قد بلغ الغاية في الفصاحة؛ لأنَّه سئل عمَّا يلبس المحرم فأجاب بما لا يلبس، ذلك الجواب المتضمِّن لبيان ما لا يلبس مع الاختصار.

وفيه أنَّ النبي ﷺ أعطىٰ جوامع الكلم كما قال ﷺ: "**أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصارًا**" سبق تخريجه، كيف ذلك؟ لأنَّه أجاب بجواب بيِّن مفصَّل مع الاختصار -ولو أراد أن يعدِّد ما يلبسه المحرم لشقَّ ذلك عليه؛ لأنَّ الأشياء التي تلبس أنواع كثيرة سوىٰ هذه الخمسة.

وفيه يسر الشريعة الإسلامية وسهولتها لقوله: "**من لم يجد نعلين فليلبس الخفين، ومن لم يجد إزارًا فليلبس السراويل**". **وفيه** بيان ما يلبسه المحرم من اللباس، وهو ما عدا هذه المذكورات. **وفيه** بيان تحريم لبس هذه الأمور المذكورة، وما في معناها علىٰ المحرم، وهو مجمع عليه. **وفيه** بيان تحريم لبس الثياب المصبوغة بالورس والزعفران للمحرم. **وفيه** ما قال العلماء: الحكمة في تحريم الألبسة المذكورة علىٰ المحرم، ولباسه الإزار والرداء البعد عن الترفّه، وليتذكّر أنَّه محرم في كلّ وقت، فيكون أقرب إلىٰ كثرة ذكره، وعبادته، وامتناعه من ارتكاب المحظورات، وليتذكّر به الموت، ولباس الأكفان، وليتذكّر البعث يوم القيامة، حفاة، عُراة، مهطعين إلىٰ الداعي". ذكره وليّ الدين "طرح التثريب" (٥/ ٤٥ - ٤٦).

تم بحمد الله شرح كتاب العلم